

فَتْحُ الْقَلْبِ

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

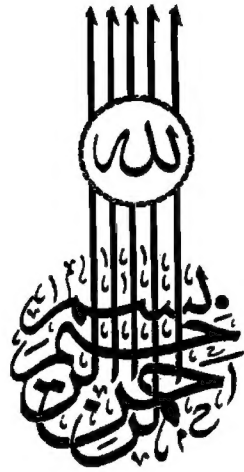
محمد بن علي بن محمد الشوكاني

المنوفى بصنعاء ١٢٥٠هـ

محققه وخرجه أمادييه
الدكتور عبد الرحمن عميرة

وضع فهارسه وشارك في تخرجه أمادييه
لجنة التحقيق والبحث العلمي بدار الوفاء

الجزء الثالث



﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

تفسير سورة يوسف

قيل : هي مائة وإحدى عشرة آية . وهي مكية كلها ^(١) . وقيل : نزلت ما بين مكة والمدينة وقت الهجرة وقال ابن عباس في رواية عنه وقتادة : إلا أربع آيات ^(٢) . وأخرج النحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة يوسف بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج الحاكم وصححه عن رفاعه بن رافع الزرقى ؛ أنه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء ، حتى قدما مكة ، وذكر قصة وفي آخرها : أن رسول الله ﷺ علمهما سورة يوسف ، و﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ [العلق : ١] ثم رجعا ^(٣) . وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ؛ أن حبراً من اليهود دخل على رسول الله ﷺ ، فوافقه وهو يقرأ سورة يوسف فقال : يا محمد ، من علمكها ؟ قال : « الله علمنيها » ، فعجب الحبر لما سمع منه ، فرجع إلى اليهود ، فقال لهم : والله إن محمداً ليقرأ القرآن كما أنزل في التوراة ، فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة ، ونظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه ، فجعلوا سمعهم إلى قراءته لسورة يوسف فتعجبوا منه ، وأسلموا عند ذلك ^(٤) .

وأخرج الثعلبي عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « علموا أقاربكم سورة يوسف فإنه أيما مسلم تلاها أو علمها أهله ، وما ملكت يمينه ، هون الله عليه سكرات الموت ، وأعطاها القوة أن لا يحسد مسلماً » ^(٥) . وفي إسناده سلام بن سالم ويقال : ابن سليم المدائني ، وهو متروك عن هارون بن كثير . قال أبو حاتم : مجهول ، وقد ذكر له الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم عن هارون بن كثير ، ومن طريق شاذان عن مجلز بن عبد الواحد البصري ، عن علي بن زيد بن جدعان ، وعن عطاء بن ميمون عن زر بن حبیش ، عن أبي بن كعب مرفوعاً فذكر نحوه ، وهو منكر من جميع طرقه .

قال القرطبي : قال سعد بن أبي وقاص : أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فقالوا : لو حدثنا ، فنزل قوله تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ [الزمر : ٢٣] ^(٦)

(١) ، (٢) القرطبي ٥ / ٣٣٤٧ .

(٣) صححه الحاكم ٤ / ١٤٩ ، ١٥٠ وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وقال الذهبي : « يحيى الشجرى صاحب مناكير » .

(٤) البيهقي في الدلائل ٦ / ٢٧٦ .

(٥) قال ابن كثير في تفسيره ٤ / ٥ : « وهذا من هذا الوجه لا يصح لضعف إسناده بالكلية » .

(٦) القرطبي ٨ / ٥٦٩٢ .

قال : قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء فى القرآن وكررها بمعنى واحد ، فى وجوه مختلفة بألفاظ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ، ولا على معارضة غير المتكرر .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ۞

قوله : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : قد تقدم الكلام فيه فى فاتحة سورة يونس ، والإشارة بقوله : ﴿ تَكُنْ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : السورة ، أى تلك الآيات التى أنزلت إليك فى هذه السورة الظاهر أمرها فى إعجاز العرب وتبكيتهن . والمبين من أبان ، بمعنى بان ، أى الظاهر أمره فى كونه من عند الله وفى إعجازه ، أو المبين بمعنى : الواضح المعنى بحيث لا يلتبس على قارئه وسامعه ، أو المبين لما فيه من الأحكام .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ : أى الكتاب المبين حال كونه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ فعلى تقدير أن الكتاب : السورة تكون تسميتها قرآناً باعتبار أن القرآن اسم جنس يقع على الكل ، وعلى البعض ، وعلى تقدير أن المراد بالكتاب كل القرآن : فتكون تسميته قرآناً واضحة ، و﴿ عَرَبِيًّا ﴾ صفة لـ ﴿ قُرْآنًا ﴾ ، أى على لغة العرب ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى لكى تعلموا معانيه ، وتفهموا ما فيه .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ القصص : تتبع الشيء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ [القصص : ١١] أى تتبعى أثره وهو مصدر ، والتقدير : نحن نقص عليك قصصاً أحسن القصص ، فيكون بمعنى الاقتصاص ، أو بمعنى المفعول ، أى المقصوص ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى بإيحاتنا إليك ﴿ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ وانتصاب القرآن على أنه صفة لاسم الإشارة ، أو بدل منه ، أو عطف بيان ، وأجاز الزجاج الرفع على تقدير مبتدأ ، وأجاز الفراء الجر ، ولعل وجهه أن يقدر حرف الجر فى ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا ﴾ داخلاً على اسم الإشارة ، فيكون المعنى : نحن نقص عليك أحسن القصص بهذا القرآن ، ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ : « إن » هى المخففة من الثقيلة بدليل اللام الفارقة بينها وبين النافية ، والضمير فى : ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ عائد على الإيحاء المفهوم من أوحينا ، والمعنى : أنك قبل إيحاتنا إليك من الغافلين عن هذه القصة .

واختلف فى وجه كون ما فى هذه السورة هو أحسن القصص ، فقليل : لأن ما فى هذه السورة من القصص يتضمن من العبر والمواعظ والحكم ما لم يكن فى غيرها . وقيل : لما فيها من حسن المحاورة ، وما كان يوسف عليه من الصبر على أذاهم وعفوه عنهم . وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس ، والأنعام والطيور ، وسير الملوك والممالك ، والتجار ، والعلماء والجهال ، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن . وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب ، وما دار بينهما . وقيل : إن ﴿ أحسن ﴾ هنا بمعنى : أعجب . وقيل : إن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة .

قوله : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ ﴾ « إذ » منصوب على الظرفية بفعل مقدر ، أى اذكر وقت قال يوسف . قرأ الجمهور : ﴿ يوسف ﴾ بضم السين ، وقرأ طلحة بن مصرف بكسرها مع الهمز مكان الواو ، وحكى ابن زيد الهمز وفتح السين ، وهو غير منصرف للعجمة والعلمية . وقيل : هو عربى ، والأول أولى بدليل عدم صرفه ﴿ لأبيه ﴾ أى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ يا أبت ﴾ بكسر التاء فى قراءة أبى عمرو وعاصم وحمزة والكسائى ونافع وابن كثير ، وهى عند البصريين علامة التانيث ولحقت فى لفظ أب فى النداء خاصة بدلاً من الياء وأصله : يا أبى ، وكسرها للدلالة على أنها عوض عن حرف يناسب الكسر ، وقرأ ابن عامر بفتحها ؛ لأن الأصل عنده يا أبتا ، ولا يجمع بين العوض والمعوض ، فيقال : يا أبتى ، وأجاز الفراء « يا أبت » بضم التاء ﴿ إني رأيت ﴾ من الرؤيا النومية لا من الرؤية البصرية كما يدل عليه ﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك ﴾ .

قوله : ﴿ أحد عشر كوكبا ﴾ : قرئ بسكون العين تخفيفاً لتوالى الحركات ، وقرئ بفتحها على الأصل ﴿ والشمس والقمر ﴾ إنما أخرهما عن الكواكب لإظهار مزيتها وشرفها ، كما فى عطف جبريل وميكائيل على الملائكة . وقيل : إن الواو بمعنى : « مع » ، وجملة : ﴿ رأيتهم لى ساجدين ﴾ مستأنفة لبيان الحالة التى رآهم عليها . وأجريت مجرى العقلاء فى الضمير المختص بهم لوصفها بوصف العقلاء ، وهو كونها ساجدة ، كذا قال الخليل وسيبويه ، والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل ، إذا أنزلوه منزلته . ﴿ قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك ﴾ الرؤيا مصدر رأى فى المنام ، رؤيا على وزن فعلى ، كالسقىا والبشرى وألفه للتانيث ، ولذلك لم يصرف . نهى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عن أن يقص رؤياه على إخوته ؛ لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها على إخوته فيفهمون تأويلها ويحصل منهم الحسد له ، ولهذا قال : ﴿ فيكيدوا لك كيذا ﴾ وهذا جواب النهى وهو منصوب بإضمار أن ، أى فيفعلوا لك ، أى لأجلك كيذا مثبتاً راسخاً لا تقدر على الخلوص منه ، أو كيذاً خفياً عن فهمك . وهذا المعنى الحاصل بزيادة اللام أكد من أن يقال : فيكيدوا كيذا . وقيل : إنما جىء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدى باللام ، فيفيد هذا التضمين معنى الفعلين جميعاً ، الكيد والاحتيال ، كما هو القاعدة فى التضمين ، أى يقدر أحدهما أصلاً

والآخر حالا . وجملة : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ مستأنفة ، كأن يوسف عليه السلام قال : كيف يقع منهم ؟ فنبهه بأن الشيطان يحملهم على ذلك ؛ لأنه عدو للإنسان مظهر للعداوة ، مجاهر بها .

قوله : ﴿وكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أى مثل ذلك الاجتباء البديع الذى رأته فى النوم من سجد الكواكب والشمس والقمر يجتبيك ربك ، ويحقق فيك تأويل تلك الرؤيا ، فيجعلك نبياً ، ويصطفيك على سائر العباد ، ويسخرهم لك كما تسخرت لك تلك الأجرام التى رأيتها فى منامك ، فصارت ساجدة لك . قال النحاس : والاجتباء : أصله من جببت الشيء حصلته ، ومنه : جببت الماء فى الخوض جمعته . ومعنى الاجتباء : الاصطفاء ، وهذا يتضمن الثناء على يوسف ، وتعدد نعم الله عليه ، ومنها : ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أى تأويل الرؤيا . قال القرطبي : وأجمعوا أن ذلك فى تأويل الرؤيا . وقد كان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها . وقيل : المراد : ويعلمك من تأويل أحاديث الأمم والكتب . وقيل : المراد به : إحواج إخوته إليه . وقيل : إنجازه من القتل خاصة (١) .

﴿وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ فيجمع لك بين النبوة والملك ، كما تدل عليه هذه الرؤيا التى أراك الله ، أو يجمع لك بين خيرى الدنيا والآخرة ﴿وعلى آل يعقوب﴾ وهم قرابته من إخوته وأولاده ومن بعدهم ، وذلك أن الله سبحانه أعطاهم النبوة ، كما قاله جماعة من المفسرين ، ولا يبعد أن يكون إشارة إلى ما حصل لهم بعد دخولهم مصر ، من النعم التى من جملتها كون الملك فيهم ، مع كونهم أنبياء ﴿كما أتمها على أبويك﴾ أى إتماماً مثل إتمامها على أبويك وهى نعمة النبوة عليهما ، مع كون إبراهيم اتخذته الله خليلاً ، ومع كون إسحاق نجاة الله سبحانه من الذبح (٢) ، وصار لهما الذرية الطيبة وهم : يعقوب ويوسف وسائر الأسباط . ومعنى ﴿من قبل﴾ : من قبل هذا الوقت الذى أنت فيه ، أو من قبلك ، وإبراهيم وإسحاق عطف بيان لأبويك ، وعبر عنهما بالأبوين مع كون أحدهما جداً وهو إبراهيم ؛ لأن الجد أب ﴿إن ربك عليم﴾ بكل شيء ﴿حكيم﴾ فى كل أفعاله . والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها تعليلاً له ، أى فعل ذلك لأنه عليم حكيم ، وكان هذا كلام من يعقوب مع ولده يوسف تعبيراً لرؤياه على طريق الإجمال ، أو علم ذلك من طريق الوحي ، أو عرفه بطريق الفراسة ، وما تقتضيه المخاليل اليوسفية .

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ قال : بين الله حلاله وحرامه . وأخرج ابن جرير عن معاذ قال : بين الله الحروف التى سقطت عن السن

(١) القرطبي ٥ / ٣٣٥٨ .

(٢) هذه من الإسرائيليات التى وقع فيها الإمام الشوكانى ، إذ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام . انظر : الإسرائيليات والموضوعات فى التفسير ، ص ٣٥٦ .

الأعاجم ، وهى ستة أحرف . وأخرج الحاكم عن جابر أن رسول الله ﷺ تلا ﴿ قرآنا عربيا ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ : « ألهم إسماعيل هذا اللسان العربى إلهاماً » (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال : نزل القرآن بلسان قريش ، وهو كلامهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قالوا : يا رسول الله ، لو قصصت علينا ، فنزلت : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ (٢) . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ قال : من الكتب الماضية ، وأمور الله السالفة فى الأمم ﴿ وإن كنت من قبله ﴾ أى من قبل هذا القرآن ﴿ لمن الغافلين ﴾ . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ قال : القرآن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكبا ﴾ قال : رؤيا الأنبياء وحى (٣) . وأخرج سعيد بن منصور والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والعقيلي ، وابن حبان فى الضعفاء ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن جابر بن عبد الله قال : جاء بستانى اليهودى إلى النبى ﷺ فقال : يا محمد ، أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف ساجدة له ما أسماؤها ؟ فسكت النبى ﷺ فلم يجبه بشئ ، فنزل عليه جبريل فأخبره بأسمائها . فبعث رسول الله ﷺ إلى اليهودى فقال : « هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها ؟ » قال : نعم ، قال : « خرثان ، والطارق ، والذبال ، وذو الكنفات ، وقابس ، ووثاب ، وعمودان ، والفيلق ، والمصبح ، والضروح ، وذو الفرغ ، والضياء ، والنور ، رآها فى أفق السماء ساجدة له ، فلما قص يوسف على يعقوب قال : هذا أمر مشئت يجمعه الله من بعد » . فقال اليهودى : إى والله إنها لأسماؤها (٤) . هكذا ساقه السيوطى فى الدر المنثور (٥) . وأما ابن كثير فجعل قوله : « فلما قص . . » إلخ رواية منفردة ، وقال : تفرد بها الحكم بن ظهيرة الفزارى وقد ضعفوه وتركه الأكثرون (٦) . وقال الجوزجاني : ساقط ، وقال ابن الجوزى : هو موضوع . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أحد عشر كوكبا ﴾ قال : إخوته ﴿ والشمس ﴾ قال : أمه ﴿ والقمر ﴾ قال : أبوه . وأخرج عبد

(١) صححه الحاكم ٢ / ٤٣٩ وقال : « لم يخرجاه » ووافقه الذهبى وقال : « قلت : حقه أن يقول (م) - أى مسلم - ولكن مدار الحديث على إبراهيم بن إسحاق العيلى ، وكان ممن يسرق الحديث ، رواه عن عبيد الله ابن سعد عن عمه يعقوب عن أبيه عن سفيان » .

(٢) ابن جرير ١٢ / ٩٠ .

(٣) ابن جرير ١٢ / ٩٠ وصححه الحاكم ٤ / ٣٩٦ على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وقال الذهبى : « قلت : خ م » .

(٤) ابن جرير ١٢ / ٩٠ ، ٩١ وصححه الحاكم ٤ / ٣٩٦ على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٦ / ٢٧٧ .

(٦) ابن كثير ٤ / ٩ ، ١٠ .

(٥) الدر المنثور ٤ / ٤ .

الرزاق وابن جرير عن السدى نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد نحوه أيضا .
وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾ قال :
يصطفيك ^(١) . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة مثله . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن
أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ قال : عبارة الرؤيا .
وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ قال : تأويل
العلم والحلم ، وكان يوسف من أعبر الناس . وأخرج ابن جرير عن عكرمة ﴿ كما أتمها على
أبوليك ﴾ قال : فعمته على إبراهيم أن نجاه من النار ، وعلى إسحاق أن نجاه من الذبح ^(٢) .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُسَائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا
أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ
وَجْهٌ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي
غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) ﴾ .

أى لقد كان فى قصتهم علامات دالة على عظيم قدرة الله ، وبديع صنعه ﴿ للسائلين ﴾
من الناس عنها ، وقرأ أهل مكة : « آية » على التوحيد ، وقرأ الباقون على الجمع واختار قراءة
الجمع أبو عبيد . وقال النحاس : و « آية » هاهنا قراءة حسنة . وقيل : المعنى : لقد كان فى
يوسف وإخوته آيات دالة على نبوة محمد ﷺ للسائلين له من اليهود ، فإنه روى أنه قال له
جماعة من اليهود وهو بمكة : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر
فبكى عليه حتى عمى ، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء ،
ولما وجهوا إليه من أهل المدينة من يسأله عن هذا ، فأنزل الله سورة يوسف جملة واحدة كما
فى التوراة ^(٣) . وقيل : معنى ﴿ آيات للسائلين ﴾ : عجب لهم . وقيل : بصيرة . وقيل :
عبرة . قال القرطبي : وأسماءهم يعنى إخوة يوسف : روبيل وهو أكبرهم ، وشمعون ،
ولاوى ، ويهوذا ، وريالون ، ويشجر ، وأمهم ليا بنت ليان ، وهى بنت خال يعقوب . وولد
له من سريتين أربعة وهم : دان ، ونفتالى ، وجاد ، وأشر ، ثم ماتت ليا فتزوج يعقوب
أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين ، وقال السهيلي : إن أم يوسف اسمها وقفا ، وراحيل
ماتت من نفاس بنيامين ^(٤) ، وهو أكبر من يوسف .

﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ أى وقت قالوا والظرف متعلق بكان ﴿ أحب إلى أبينا منا ﴾
والمراد بقوله : ﴿ وأخوه ﴾ هو بنيامين ، وخصوه بكونه أخاه مع أنهم جميعا إخوته لأنه

(١) أصل الصفاء : خلوص الشيء من الشوب .

(٢) سبق التعليق على أن الذبيح هو إسماعيل ، وهذا من الإسرائيليات التى وقع فيها الإمام الشوكانى .

(٣ ، ٤) القرطبي ٥ / ٣٣٥٩ .

أخوه لأبويه كما تقدم . ووحيد الخبر فقال : ﴿ أحب ﴾ مع تعدد المبتدأ ؛ لأن أفعال التفضيل يستوى فيه الواحد وما فوقه إذا لم يعرف ، واللام في ﴿ ليوسف ﴾ هي الموطئة للقسم وإنما قالوا : هذه ؛ لأنه بلغهم خبر الرؤيا فأجمع رأيهم على كيدته ، وجملة : ﴿ ونحن عصبة ﴾ في محل نصب على الحال . والعصبة : الجماعة ، قيل : وهى ما بين الواحد إلى العشرة . وقيل : إلى الخمسة عشر . وقيل : من العشرة إلى الأربعين ، ولا واحد لها من لفظها ، بل هى كالنفر ، والرهط ، وقد كانوا عشرة ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ أى لفى ذهاب عن وجه التدبير بالترجيح لهما علينا ، وإيثارهما دوننا مع استوائنا فى الانتساب إليه ، ولا يصح أن يكون مرادهم أنه فى دينه فى ضلال مبين .

﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا ﴾ أى قالوا : افعلوا به أحد الأمرين : إما القتل ، أو الطرح فى أرض ، أو المشير بالقتل بعضهم والمشير بالطرح البعض الآخر ، أو كان المتكلم بذلك واحداً منهم فوافقه الباقون ، فكانوا كالقائل فى نسبة هذا القول إليهم ، وانتصاب أرضاً على الظرفية ، والتنكير للإبهام ، أى أرضاً مجهولة ، وجواب الأمر : ﴿ يخل لكم وجه أبيكم ﴾ أى يصف ويخلص فيقبل عليكم ويحبكم حبا كاملاً ﴿ وتكونوا ﴾ معطوف على ﴿ يخل ﴾ ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أن ﴿ من بعده ﴾ أى من بعد يوسف ، والمراد : بعد الفراغ من قتله أو طرحه . وقيل : من بعد الذنب الذى اقترفوه فى يوسف ﴿ قوما صالحين ﴾ فى أمور دينكم ، وطاعة أبيكم ، أو صالحين فى أمور دنياكم ، لذهاب ما كان يشغلكم عن ذلك ، وهو الحسد ليوسف ، وتكدر خواطركم بتأثيره عليكم ، هو وأخوه ، أو المراد بالصالحين : التائبون من الذنب .

﴿ قال قائل منهم ﴾ أى من الإخوة ، قيل : هو يهوذا . وقيل : روبيل . وقيل : شمعون . ﴿ لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب ﴾ قيل : ووجه الإظهار فى ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ استجلاب شفقتهم عليه . قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة وأهل الشام : ﴿ فى غيابة الجب ﴾ بالافراد ، وقرأ أهل المدينة : « فى غيابات » بالجمع ، واختار أبو عبيد الأفراد ، وأنكر الجمع ؛ لأن الموضع الذى ألقوه فيه واحد ، قال النحاس : وهذا تضيق فى اللغة ، و« غيابات » على الجمع تجوز . والغيابة : كل شئ غيب عنك شيئا . وقيل للقبر : غيابة ، والمراد بها هنا : غور البئر الذى لا يقع البصر عليه ، أو طاقة فيه ، قال الشاعر :

ألا فالبثا شهرين أو نصف ثالث إلى ذا كما قد غيبتنى غاييا

والجب : البئر التى لم تطو ، ويقال لها قبل الطى : ركية ، فإذا طويت قيل لها : بئر ، سميت جبا ؛ لأنها قطعت فى الأرض قطعاً ، وجمع الجب جيب ، وجياث ، وأجباب . وجمع بين الغيابة والجب مبالغة فى أن يلقوه فى مكان الجب شديد الظلمة ، حتى لا يدركه نظر الناظرين . قيل : وهذه البئر بيت المقدس . وقيل : بالأردن . وجواب الأمر : ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ ، قرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة : « تلتقطه » بالثناة الفوقية

ووجهه أن بعض السيارة سيارة ، وحكى عن سبويه سقطت بعض أصابعه ، ومنه قول الشاعر:

أرى مر السنين أخذن منى كما أخذ السرار من الهلال (١)

وقرأ الباقر : ﴿ يلتقطه ﴾ بالتحية . والسيارة : الجمع الذى يسرون فى الطريق ، والالتقاط : هو أخذ شيء مشرف على الضياع ، وكأنهم أرادوا أن بعض السيارة إذا التقطه حمله إلى مكان بعيد ، بحيث يخفى عن أبيه ، ومن يعرفه ، ولا يحتاجون إلى الحركة بأنفسهم إلى المكان البعيد ، فرمى أن والدهم لا يأذن لهم بذلك ومعنى ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ : إن كنتم عاملين بما أشرت به عليكم فى أمره ، كأنه لم يجزم بالأمر بل وكله (٢) إلى ما يجمعون عليه ، كما يفعله المشير مع من استشاره ، وفى هذا دليل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء فإن الأنبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على القتل لمسلم ظلماً وبغياً . وقيل : كانوا أنبياء ، وكان ذلك منهم زلة قدم ، وأوقعهم فيها التهاب نار الحسد فى صدورهم واضطرام جمرات الغيظ فى قلوبهم . ورد بأن الأنبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكبيرة ، المتباعدة فى الكبر ، مع ما فى ذلك من قطع الرحم ، وعقوق الوالد ، وإفراء الكذب . وقيل : إنهم لم يكونوا فى ذلك الوقت أنبياء بل صاروا أنبياء من بعد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ آيات للسائلين ﴾ قال : عبرة . وأخرج أيضاً عن قتادة فى الآية يقول : من سأل عن ذلك فهو هكذا ما قص الله عليكم وأنباكم به ، وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق قال : إنما قص الله على محمد ﷺ خبر يوسف وبغى إخوته عليه وحسدهم إياه ، حين ذكر رؤياه لما رأى رسول الله ﷺ من بغى قومه عليه ، وحسدهم إياه حين أكرمه الله بنبوته ليأتى به . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ إذ قالوا ليوסף وأخوه ﴾ يعنى : بنيامين هو أخوه لأبيه وأمه ، وفى قوله : ﴿ ونحن عصبة ﴾ قال : العصبة ما بين العشرة إلى الأربعين . وأخرج ابن أبى حاتم ، وابن جرير وأبو الشيخ ، عن ابن زيد قال : العصبة : الجماعة ﴿ إن أبانا فى ضلال مبين ﴾ قال : لفى خطأ من رأيه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ فى قوله : ﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف ﴾ قال : قاله كبيرهم الذى تخلف ، قال : والجب بئر بالشام ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ قال : التقطه ناس من الأعراب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ وألقوه فى غيابة الجب ﴾ يعنى : الركية . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : الجب : البئر . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ قال : هى بئر بيت المقدس ، يقول : فى

(١) البيت للأعشى ، وهو يخاطب يزيد بن مسهر الشيباني .

(٢) فى المطبوعة : « ويل وكله » ، والصحيح ما أثبتته من المخطوطة .

بعض نواحيها . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : الجب بحذاء طبرية (١) ، بينه وبينها أميال .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ (١١) أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَلْخَاسِرُونَ ﴾ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١٨) .

لما أجمع رأيهم على أن يلقوه في غيابات الجب ، جازوا إلى أبيهم وخاطبوه بلفظ الأبوة استعطافاً له ، وتحريكاً للحنو الذي جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء ، وتوسلاً بذلك إلى تمام ما يريدونه من الكيد الذي دبروه واستفهموه استفهام المنكر لأمر ينبغي أن يكون الواقع على خلافه ، ف ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ أى أى شئ لك لا تجعلنا أمناً عليه ، وكأنهم قد كانوا سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى . وقرأ يزيد بن القعقاع ، وعمرو بن عبيد والزهرى : « لا تأمنا » بالإدغام بغير إشمام ، وقرأ طلحة بن مصرف : « لا تأمنا » بنونين ظاهرتين على الأصل . وقرأ يحيى بن وثاب وأبو رزين والأعمش : « لا تيمنا » وهو لغة تميم كما تقدم . وقرأ سائر القراء بالإدغام والإشمام ، ليدل على حال الحرف قبل إدغامه ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ فى حفظه وحيطته حتى نرده إليك ﴿ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا ﴾ أى إلى الصحراء التى أرادوا الخروج إليها ، و ﴿ غَدًا ﴾ ظرف ، والأصل عند سيبويه غدوة ، قال النضر بن شميل : ما بين الفجر وطلوع الشمس يقال له : غدوة ، وكذا يقال له : بكرة ﴿ يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ ﴾ هذا جواب الأمر ، قرأ أهل البصرة وأهل مكة ، وأهل الشام بالنون وإسكان العين ، كما رواه البعض عنهم ، وقرؤوا أيضاً بالاختلاس ، وقرأ الباقون بالنون وكسر العين ، والقراءة الأولى مأخوذة من قول العرب : رتع الإنسان أو البعير : إذا أكل كيف شاء ، أو المعنى : نتسع فى الخصب ، وكل مخصب راتع ، قال الشاعر :

فارعى فزارة لا هناك المرتع

(١) هى بلدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية ، وهى فى طرف جبل ، وجبل الطور مظل عليها . وهى من أعمال الأردن ، كان أول من بناها ملك من ملوك الروم يقال له : طبارا وسميت باسمه ، وفتحت طبرية على يد شرحبيل بن حسنة فى سنة ١٣ هـ صلحاً . معجم البلدان ٤ / ١٧ .

ومنه قول الشاعر :

ترتع ما رتعت حتى إذا اذكرت فإنما هي إقبال وإدبار (١)

والقراءة الثانية مأخوذة من رعى الغنم ، وقرأ مجاهد وقتادة : « يرتع ويلعب » بالتحية فيهما ، ورفع يلعب على الاستئناف والضمير ليوسف ، وقال القتيبي : معنى ﴿ يرتع ﴾ نتحارس ونتحافظ ، ويرعى بعضنا بعضا ، من قولهم : رعاك الله ، أى حفظك و ﴿ يلعب ﴾ من اللعب . قيل لأبى عمرو بن العلاء : كيف قالوا ونلعب وهم أنبياء ، فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء . وقيل : المراد به : اللعب المباح من الأنبياء ، وهو مجرد الانبساط . وقيل : هو اللعب الذى يتعلمون به الحرب ، ويتقوون به عليه كما فى قولهم : ﴿ إنا ذهبنا نستبق ﴾ لا اللعب المحذور الذى هو ضد الحق ، ولذلك لم ينكر يعقوب عليهم لما قالوا ونلعب ، ومنه قوله ﷺ لجابر : « فهلاً بكمرا تلاعبها وتلاعبك » (٢) ، فأجابهم يعقوب بقوله : ﴿ إني ليحزننى أن تذهبوا به ﴾ أى ذهابكم به . واللام فى ﴿ ليحزننى ﴾ لام الابتداء للتأكيد ، ولتخصيص المضارع بالحال ، أخبرهم أنه يحزن لغيبة يوسف عنه لفرط محبته له وخوفه عليه ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ أى ومع ذلك أخاف أن يأكله الذئب ، قال يعقوب هذا تخوفاً عليه منهم ، فكنى عن ذلك بالذئب . وقيل : إنه خاف أن يأكله الذئب حقيقة ؛ لأن ذلك المكان كان كثير الذئاب ولو خاف منهم عليه أن يقتلوه لأرسل معهم من يحفظه . قال ثعلب : والذئب مأخوذ من تذأبت الريح إذا هاجت من كل وجه ، قال : والذئب مهموز ؛ لأنه يجىء من كل وجه ، وقد قرأ ابن كثير ، ونافع فى رواية عنه بالهمز على الأصل ، وكذلك أبو عمرو ، فى رواية عنه ، وابن عامر وعاصم وحمزة ، وقرأ الباقون بالتخفيف ﴿ وأنتم عنه غافلون ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب ، أو لكونهم غير مهتمين بحفظه .

﴿ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة ﴾ : اللام هى الموطئة للقسم ، والمعنى : والله لئن أكله الذئب ، والحال : إن نحن عصبة ، أى جماعة كثيرة عشرة ﴿ إنا إذا لخاسرون ﴾ أى إننا فى ذلك الوقت ، وهو أكل الذئب له ﴿ لخاسرون ﴾ هالكون ضعفا وعجزا ، أو مستحقون للهلاك لعدم الاعتداد بنا ، وانتفاء القدرة على أيسر شئ وأقله ، أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسارة والدمار . وقيل : ﴿ لخاسرون ﴾ لجاهلون حقه ، وهذه الجملة جواب القسم المقدر فى الجملة التى قبلها .

﴿ فلما ذهبوا به ﴾ من عند يعقوب ﴿ وأجمعوا ﴾ أمرهم ﴿ أن يجعلوه فى غيابة الجب ﴾

(١) البيت للخنساء من قصيدة ترثى بها أخاها صخرًا .

(٢) البخارى فى الدعوات (٦٣٨٧) وفى البيوع (٢٠٩٧) وفى الوكالة (٢٣٠٩) وفى الجهاد (٢٩٦٧) ومسلم فى الرضاع (٧١٥ / ٤٥ - ٥٨) وأبو داود فى النكاح (٢٠٤٨) والترمذى فى النكاح (١١٠٠) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى البيوع ٧ / ٣٩٧ ، وابن ماجه فى النكاح (١٨٦٠) والدارمى فى النكاح ١٤٦ / ٢ .

قد تقدم تفسير الغيابة والجب قريبا ، وجواب « لما » محذوف لظهوره ودلالة المقام عليه ، والتقدير : فعلوا به ما فعلوا ، وقيل : جوابه : ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ . وقيل : الجواب المقدر جعلوه فيها . وقيل : الجواب : ﴿ أوحينا ﴾ ، والواو مقحمة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه ﴾ [الصافات : ١٠٣ ، ١٠٤] أى ناديناه ﴿ وأوحينا إليه ﴾ أى إلى يوسف تيسيرا له وتأنيسا لوحشته مع كونه صغيرا اجتمع على إنزال الضرر به عشرة رجال من إخوته ، بقلوب غليظة فقد نزعت عنها الرحمة ، وسلبت منها الرأفة ، فإن الطبع البشرى — دع عنك الدين — يتجاوز عن ذنب الصغير ، ويغفره لضعفه عن الدفع ، وعجزه عن أيسر شيء يراد منه ، فكيف بصغير لا ذنب له ؟ بل كيف بصغير هو أخ وله ولهم أب مثل يعقوب ؟ فلقد أبعد من قال : إنهم كانوا أنبياء فى ذلك الوقت ، فما هكذا عمل الأنبياء ولا فعل الصالحين ، وفى هذا دليل على أنه يجوز أن يوحى الله إلى من كان صغيرا ويعطيه النبوة حيثنذ ، كما وقع فى عيسى ، ويحيى بن زكريا ، وقد قيل : إنه كان فى ذلك الوقت قد بلغ مبالغ الرجال ، وهو بعيد جدا ، فإن من كان قد بلغ مبالغ الرجال لا يخاف عليه أن يأكله الذئب ﴿ لتبئنه بأمهم هذا ﴾ أى لتخبرن إختوك بأمهم هذا الذى فعلوه معك بعد خلوصك عما أرادوه بك من الكيد ، وأنزلوه عليك من الضرر ، وجملة : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى لا يشعرون بأنك أخوهم يوسف لاعتقادهم هلاكك بالقائهم لك فى غيابة الجب ، ولبعد عهدهم بك ، ولكونك قد صرت عند ذلك فى حال غير ما كنت عليه وخلاف ما عهدوه منك ، وسيأتى ما قاله لهم عند دخولهم عليه بعد أن صار إليه ملك مصر .

قوله : ﴿ وجاؤوا أباهم عشاء يكون ﴾ ﴿ عشاء ﴾ منتصب على الظرفية وهو آخر النهار . وقيل : فى الليل ، و ﴿ يكون ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى باكين أو متباكين لأنهم لم ييکوا حقيقة ، بل فعلوا فعل من يبكى ترويجا لكذبهم وتنفيقا لمكرهم وغدرهم . فلما وصلوا إلى أبيهم ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ أى نتسابق فى العدو أو فى الرمى . وقيل : نتنضل ، ويؤيده قراءة ابن مسعود « نتنضل » ، قال الزجاج : وهو نوع من المسابقة ، وقال الأزهري : التنضال فى السهام ، والرهان فى الخيل ، والمسابقة تجمعهما . قال القشيري : نستبق أى فى الرمى ، أو على الفرس أو على الأقدام ، والغرض من المسابقة التدريب بذلك فى القتال ، ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أى عند ثيابنا ليحرسها ﴿ فأكله الذئب ﴾ الفاء للتعقيب ، أى أكله عقب ذلك ، وقد اعتذروا عليه بما خافه سابقا عليه ، ورب كلمة تقول لصاحبها دعنى . ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ بمصدق لنا فى هذا العذر الذى أبدينا ، والكلمة التى قلناها ﴿ ولو كنا ﴾ عندك أو فى الواقع ﴿ صادقين ﴾ لما قد علق بقلبك من التهمة لنا فى ذلك مع شدة محبتك له . قال الزجاج : والمعنى : ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا فى هذه القضية ، لشدة محبتك ليوسف ، وكذا ذكره ابن جرير وغيره .

﴿ وجاؤوا على قميصه بدم كذب ﴾ ﴿ على قميصه ﴾ فى محل نصب على الظرفية ، أى جاؤوا فوق قميصه بدم . ووصف الدم بأنه كذب مبالغة كما هو معروف فى وصف اسم العين باسم المعنى . وقيل : المعنى : بدم ذى كذب أو بدم مكذوب فيه ، وقرأ الحسن وعائشة : « بدم كذب » بالدال المهملة ، أى بدم طرى ، يقال : للدم الطرى كذب . وقال الشعبي : إنه المتغير ، والكذب أيضا : البياض الذى يخرج فى أظفار الأحداث ، فيجوز أن يكون شبه الدم فى القميص بالبياض الذى يخرج فى الغلغرة من جهة اللونين ، وقد استدل يعقوب على كذبهم بصحة القميص ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيما يأكل يوسف ولا يخرق القميص ؟

ثم ذكر الله سبحانه ما أجاب به يعقوب عليهم فقال : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا ﴾ أى زينت وسهلت . قال النيسابورى : التسويل تقرير فى معنى النفس مع الطمع فى تمامه ، وهو تفعيل من السول وهو الأمانة . قال الأزهري : وأصله مهموز غير أن العرب استقلوا فيه الهمزة ﴿ فصبر جميل ﴾ قال الزجاج : أى فشأنى أو الذى أعتقده صبر جميل . وقال قطرب : أى فصبرى صبر جميل . وقيل : فصبر جميل أولى بى . وقيل : والصبر الجميل هو الذى لا شكوى معه ، قال الزجاج : قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسف « فصبرا جميلا » قال : وكذا فى مصحف أنس ، قال المبرد : ﴿ فصبر جميل ﴾ بالرفع أولى من النصب ؛ لأن المعنى : قال : رب عندى صبر جميل ، وإنما النصب على المصدر ، أى فلأصبرن صبورا جميلا . قال الشاعر :

شكا إلى جملى طول السرى صبورا جميلا فكلانا مبتلى

﴿ والله المستعان ﴾ أى المطلوب منه العون ﴿ على ما تصفون ﴾ أى على إظهار حال ما تصفون ، أو على احتمال ما تصفون ، وهذا منه عليه السلام إنشاء لا إخبار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب ﴾ قال : نسعى وننشط ونلهو . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه ، والسلفى فى الطيوريات عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تلقنوا الناس فيكذبوا ؛ فإن بنى يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس ، فلما لقنهم أبوهم كذبوا ، فقالوا : أكله الذئب »^(١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ وأوحينا إليه ﴾ قال : أوحى إلى يوسف وهو فى الحب لتبئن إخوتك بما صنعوا وهم لا يشعرون بذلك الوحى . وأخرج هؤلاء عن قتادة قال : أوحى الله إليه وحيا وهو فى الحب أن سينبئهم بما صنعوا ﴿ وهم ﴾ أى إخوته ﴿ لا يشعرون ﴾ بذلك الوحى ، فهون ذلك الوحى عليه ما صنع به . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ قال : لم يعلموا بوحي الله إليه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، عنه قال : لما دخل إخوة

يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون جئ بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن ، فقال : إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له : يوسف يدنيه دونكم ، وأنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب ، فاتيتم أباكم فقلتم : إن الذئب أكله ، وجئتم على قميصه بدم كذب ، فقال بعضهم لبعض : إن هذا الجام ليخبره بخبركم ^(١) ، فقال ابن عباس : فلا نرى هذه الآية نزلت إلا في ذلك ﴿ لتبينهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ ^(٢) .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي بكر بن عياش قال : كان يوسف في الجب ثلاثة أيام . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ قال : بمصدق لنا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وجأؤوا على قميصه بدم كذب ﴾ قال : كان دم سخلة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وجأؤوا على قميصه بدم كذب ﴾ قال : لما أتى يعقوب بقميص يوسف فلم ير فيه خرقاً ، قال : كذبتم لو كان كما تقولون أكله الذئب لخرق القميص . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا ﴾ يقول : بل زينت لكم أنفسكم أمراً ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ أى على ما تكذبون . وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حبان بن أبي حبله قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ فصبر جميل ﴾ قال : « لا شكوى فيه ، من بث لم يصبر » ، وهو من طريق هشيم عن عبد الرحمن عن حبان بن أبي حبله وهو مرسل ^(٣) . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ فصبر جميل ﴾ قال : ليس فيه جزع .

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ .

هذا شروع في حكاية خلاص يوسف ، وما كان بعد ذلك من خبره ، وقد تقدم تفسير السيارة ، والمراد بها هنا : رفقة مارة تسير من الشام إلى مصر ، فأخطؤوا الطريق وهاموا حتى

(١) في المخطوطة : « ويخبركم » ، والصحيح ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

(٢) ابن جرير ١٢ / ٩٦ .

(٣) ابن جرير ١٢ / ٩٩ وقال ابن كثير ٤ / ١٥ : « هذا مرسل » .

نزلوا قريباً من الحب ، وكان فى قفرة بعيدة من العمران ، والوارد : الذى يرد الماء ليستقى للقوم ، وكان اسمه فيما ذكر المفسرون: مالك بن ذعر من العرب العاربة ﴿ فأدلى دلوهُ ﴾ أى أرسله ، يقال أدلى دلوهُ : إذا أرسلها ليملاها ، ودلاها إذا أخرجها قاله الأصمعى وغيره ، فتعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج الدلو من البئر أبصره الوارد فقال : « يا بشرى » هكذا قرأ أهل المدينة وأهل مكة ، وأهل البصرة وأهل الشام بإضافة البشرى إلى الضمير ، وقرأ أهل الكوفة ﴿ يا بشرى ﴾ غير مضاف ، ومعنى مناداته للبشرى : أنه أراد حضورها فى ذلك الوقت ، فكأنه قال : هذا وقت مجيئك وأوان حضورك . وقيل : إنه نادى رجلاً اسمه بشرى والأول أولى ، قال النحاس : والمعنى من نداء البشرى: للتبشير لمن حضر ، وهو أوكد من قولك : بشرته ، كما تقول : يا عجباً ، أى ياعجب هذا من أيامك فاحضر ، قال : وهذا مذهب سيويه ﴿ وأسروه ﴾ أى أسر الوارد وأصحابه الذين كانوا معه يوسف فلم يظهره لهم . وقيل : إنهم لم يخفوه بل أخفوا وجدانهم له فى الحب ، وزعموا أنه دفعه إليهم أهل الماء لبيعوه لهم بمصر . وقيل : ضمير الفاعل فى ﴿ أسروه ﴾ لإخوة يوسف ، وضمير المفعول ليوسف ، وذلك أنه كان يأتيه أخوه يهوذا كل يوم بطعام ، فأتاه يوم خروجه من البئر فأخبر إخوته ، فأتوا الرفقة وقالوا : هذا غلام أبى منا فاشتروه منهم ، وسكت يوسف مخافة أن يأخذوه فيقتلوه ، والأول أولى . وانتصاب ﴿ بضاعة ﴾ على الحال ، أى أخفوه حال كونه بضاعة ، أى متاعاً للتجارة ، والبضاعة ما يوضع من المال ، أى يقطع منه ؛ لأنها قطعة من المال الذى يتجر به ، قيل : قاله لهم الوارد وأصحابه أنه بضاعة استبضعناها من الشام ، مخافة أن يشاركوهم فيه ، وفى قوله : ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ وعيد شديد لمن كان فعله سبباً لما وقع فيه يوسف من المحن ، وما صار فيه من الابتذال يجرى البيع والشراء فيه ، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، كما قال نبينا ﷺ فى وصفه بذلك (١) .

قوله : ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ يقال: شراه بمعنى : اشتراه ، وشراه بمعنى : باعه ، قال الشاعر (٢) :

وَشَرَيْتُ بُرْدًا لَيْتَنِى
مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَةً

أى بعته .

وقال آخر :

فلما شراها فاضت العين عبرة (٣)

(١) أحمد ٢ / ٣٣٢ ، ٤١٦ عن أبى هريرة ، والبخارى فى الأنبياء (٣٣٨٢ ، ٣٣٩٠) والتفسير (٤٦٨٨) عن عبد الله بن عمر .

(٢) الشاعر هو : يزيد بن مفرغ الحميرى . (٣) البيت للشماخ قاله فى رجل باع قوسه من رجل .

أى اشتراها .

والمراد هنا : وباعوه ، أى باعه الوارد وأصحابه ﴿ بثمن بخس ﴾ أى ناقص ، أوزائف . وقيل : يعود إلى إخوة يوسف على القول السابق . وقيل : عائد إلى الرفقة ، والمعنى : اشتروه . وقيل : بخس : ظلم . وقيل : حرام . قيل : باعوه بعشرين درهماً . وقيل : بأربعين . و ﴿ دراهم ﴾ بدل من ثمن أى دنائير ، و ﴿ معدودة ﴾ وصف لدراهم ، وفيه إشارة إلى أنها قليلة تعد ولا توزن ؛ لأنهم كانوا لا يزنون ما دون أوقية وهى أربعون درهماً ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ يقال : زهدت وزهدت بفتح الهاء وكسرهما ، قال سيبويه والكسائى : قال أهل اللغة : يقال : زهد فيه ، أى رغب عنه ، وزهد عنه أى رغب فيه ، والمعنى : أنهم كانوا فيه من الراغبين عنه الذين لا يبالون به ، فلذلك باعوه بذلك الثمن البخس ؛ وذلك لأنهم التقطوه ، والملتقط للشئ متهاون به ، والضمير من ﴿ كانوا ﴾ يرجع إلى ما قبله على حسب اختلاف الأقوال فيه .

﴿ وقال الذى اشتراه من مصر ﴾ هو العزيز الذى كان على خزائن مصر ، وكان وزيراً لملك مصر ، وهو الريان بن الوليد من العمالة . وقيل : إن الملك هو فرعون موسى . قيل : اشتراه بعشرين ديناراً . وقيل : تزايدوا فى ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعتبراً وحريراً وورقاً وزهياً ولآلىء وجواهر ، فلما اشتراه العزيز قال ﴿ لامراته ﴾ واللام متعلقة بـ ﴿ اشتراه ﴾ ، ﴿ أكرمى مثواه ﴾ أى منزله الذى يثوى فيه بالطعام الطيب ، واللباس الحسن ، يقال : ثوى بالمكان ، أى أقام به . ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ أى يكفيننا بعض المهمات مما نحتاج إلى مثله فيه ﴿ أو نتخذة ولداً ﴾ أى نبتناه فنجعله ولدًا لنا . قيل : كان العزيز حصوراً لا يولد له . وقيل : كان لا يأتى النساء ، وقد كان تفرس فيه أنه ينوب عنه فيما إليه من أمر المملكة .

قوله : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف ﴾ : الكاف فى محل نصب على أنه نعت مصدر محذوف ، والإشارة إلى ما تقدم من إنجائه من إخوته وإخراجه من الجب ، وعطف قلب العزيز عليه ، أى مثل ذلك التمكين البديع مكنا ليوسف حتى صار متمكناً من الأمر والنهى ، يقال : مكنته فيه ، أى أثبتته فيه ، ومكن له فيه ، أى جعل له فيه مكاناً ، ولتقارب المعنيين يستعمل كل واحد منهما مكان الآخر .

قوله : ﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ هو علة لمعلل محذوف كأنه قيل : فعلنا ذلك التمكين لنعلمه من تأويل الأحاديث ، أو كان ذلك الإنجاء لهذه العلة ، أو معطوف على مقدر ، وهو أن يقال : ملكنا ليوسف ليترتب على ذلك ما يترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ ومعنى تأويل الأحاديث : تأويل الرؤيا ، فإنها كانت من الأسباب التى بلغ بها ما بلغ من التمكين . وقيل : معنى تأويل الأحاديث : فهم أسرار الكتب الإلهية ، وسنن من قبله من الأنبياء ولا مانع من حمل ذلك على الجميع .

﴿ والله غالب على أمره ﴾ أى على أمر نفسه لا يمتنع منه شيء ، ولا يغالبه عليه غيره من مخلوقاته ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس : ٨٢] ومن جملة ما يدخل تحت هذا العام كما يفيد ذلك إضافة اسم الجنس إلى الضمير ، ما يتعلق بيوسف عليه السلام من الأمور التى أرادها الله سبحانه فى شأنه . وقيل : معنى ﴿ والله غالب على أمره ﴾ : أنه كان من أمر يعقوب أن لا يقص رؤيا يوسف على إخوته ، فغلب أمر الله سبحانه حتى قصت عليهم حتى وقع منهم ما وقع وهذا بعيد جداً . ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أى لا يطلعون على غيب الله ، وما فى طيه من الأسرار العظيمة والحكم النافعة . وقيل : المراد بالأكثر : الجميع ؛ لأنه لا يعلم الغيب إلا الله . وقيل : إن الله سبحانه قد يطلع بعض عبيده على بعض غيبه ، كما فى قوله : ﴿ فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول ﴾ [الجن : ٢٦ ، ٢٧] . وقيل : المعنى : ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله غالب على أمره ، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر .

قوله : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ الأشد : قال سيويه : جمع واحده شدة ، وقال الكسائى : واحده شدّ ، وقال أبو عبيد : إنه لا واحد له من لفظه عند العرب ويرده قول الشاعر (١) :

عَهْدِي بِهِ شَدَّ النَّهَارِ كَأَنَّمَا خُضِبَ الْبِنَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعِظْلَمِ

والأشد : هو وقت استكمال القوة ، ثم يكون بعده النقصان ، قيل : هو ثلاث وثلاثون سنة . وقيل : بلوغ الحلم . وقيل : ثمانى عشرة سنة . وقيل غير ذلك مما قدمنا بيانه فى النساء والأنعام . والحكم : هو ما كان يقع منه من الأحكام فى سلطان ملك مصر . والعلم : هو العلم بالحكم الذى كان يحكمه . وقيل : العقل والفهم والنبوة وقيل : الحكم : هو النبوة ، والعلم : هو العلم بالدين . وقيل : علم الرؤيا ، ومن قال : إنه أوتى النبوة صبيّاً ؛ قال : المراد بهذا الحكم والعلم الذى آتاه الله هو : الزيادة فيهما . ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ أى ومثل ذلك الجزاء العجيب نجزي المحسنين ، فكل من أحسن فى عمله أحسن الله جزاءه ، وجعل عاقبة الخير من جملة ما يجزيه به ، وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولاً أولاً . قال الطبرى : هذا وإن كان مخرجه ظاهراً على كل محسن فالمراد به : محمد ﷺ ، يقول الله تعالى : كما فعل هذا بيوسف ثم أعطيته ما أعطيته ، كذلك أنجيك من مشركى قومك الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكن لك فى الأرض ، والأولى ما ذكرناه من حمل العموم على ظاهره فيدخل تحته ما ذكره ابن جرير الطبرى .

(١) هو : عترة العيسى ، أشهر فرسان العرب فى الجاهلية ، ومن شعراء الطبقة الأولى من أهل نجد ، أمه حبشية ، وكان من أحسن العرب شيمة ، ومن أعزهم نفساً ، شهد داحس والغبراء ، وعاش طويلاً ومات مقتولاً . الأعلام ٥ / ٩١ .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عن الضحاك في قوله : ﴿وجاءت سيارة﴾ قال : جاءت سيارة فزلت على الجب ﴿فأرسلوا واردهم﴾ فاستسقى الماء فاستخرج يوسف ، فاستبشروا بأنهم أصابوا غلامًا لا يعلمون علمه ولا منزلته من ربه ، فزهدوا فيه فباعوه ، وكان بيعه حرامًا ، وباعوه بدراهم معدودة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿فأرسلوا واردهم﴾ يقول : فأرسلوا رسولهم ﴿فأدلى دلوه﴾ فنشب الغلام بالدلو ، فلما خرج ﴿قال يا بشرى هذا غلام﴾ تباشروا به حين استخرجوه ، وهى بئر بيت المقدس معلوم مكانه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى في قوله : ﴿يا بشرى﴾ قال : كان اسم صاحبه بشرى كما تقول : يا زيد . وهذا على ما فيه من البعد لا يتم إلا على قراءة من قرأ : ﴿يا بشرى﴾ ، بدون إضافة ، وأخرج أبو الشيخ عن الشعبي نحوه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿وأسروه بضاعة﴾ يعنى : إخوة يوسف أسروا شأنه ، وكنتموا أن يكون أخاهم ، وكنتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ، واختار البيع فباعه إخوته بثمن بخس . وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن مجاهد قال : أسره التجار بعضهم من بعض . وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه : ﴿وأسروه بضاعة﴾ قال : صاحب الدلو ومن معه ، قالوا لأصحابهم : إنا استبضعناه خيفة أن يشركوهم فيه إن علموا به ، واتبعهم إخوته يقولون للمدلى وأصحابه : استوثقوا منه لا يأتى حتى وقفوا بمصر ، فقال : من يتاعنى ويبشر ، فابتاعه الملك والمملك مسلم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿وشروه﴾ قال : إخوة يوسف باعوه حين أخرجه المدلى دلوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : بيع بينهم بثمن بخس قال : حرام لم يحل لهم بيعه ولا أكل ثمنه . وأخرج ابن جرير عن قتادة : ﴿وشروه بثمن بخس﴾ قال : هم السيارة . وأخرج أبو الشيخ عن على بن أبى طالب أنه قضى فى اللقيط أنه حر ، وقرأ : ﴿وشروه بثمن بخس﴾ . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : البخس القليل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الشعبي مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : إنما اشترى يوسف بعشرين درهماً ، وكان أهله حين أرسل إليهم بمصر ثلاثمائة وتسعين إنساناً ، رجالهم أنبياء ، ونسأؤهم صديقات والله ما خرجوا مع موسى حتى بلغوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً ، وقد روى فى مقدار ثمن يوسف غير هذا المقدار مما لا حاجة إلى التطويل بذكره .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿وقال الذى اشتراه من مصر﴾ قال : كان اسمه قطفير . وأخرج أبو الشيخ عن شعيب الجبائى أن اسم امرأة العزيز : زليخا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال : الذى اشتراه أطييفر ابن روحب ، وكان اسم امرأته راعيل بنت رعايل . وأخرج ابن جرير وابن إسحاق وأبو

الشيخ عن ابن عباس قال : اسم الذى باعه من العزيز مالك بن زعر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ أَكْرَمَى مَثْوَاهُ ﴾ قال : منزلته . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرس فى يوسف ، فقال لامراته : ﴿ أَكْرَمَى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ ، والمرأة التى أتت موسى فقالت لأبيها : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ [القصص : ٢٦] وأبو بكر حين استخلف عمر .

وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ وَلَنَعْلَمَنَّ مِنْ تَأْوِيلِ الْآحَادِيثِ ﴾ قال : عبارة الرؤيا . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى كتاب الاضداد ، والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ ^(١) قال : ثلاثاً وثلاثين سنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : أربعين سنة . وأخرج عن عكرمة قال : خمساً وعشرين سنة . وأخرج عن السدى قال : ثلاثين سنة وأخرج عن سعيد بن جبيرة قال : ثمانى عشرة سنة . وأخرج عن ربيعة قال : الحلم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن الشعبى نحوه . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : عشرين سنة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ آتَيْنَاهُ حِكْمًا وَعِلْمًا ﴾ قال : هو الفقه والعلم والعقل قبل النبوة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال : المهتدين .

﴿ وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢٥) قَالَ هِيَ رَأَوْدَتُنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ

(١) قال الأزهري : « الأشد فى كتاب الله تعالى فى ثلاثة معان يقرب اختلافها ، قوله تعالى فى يوسف : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ [يوسف : ٢٢] الإدراك والبلوغ ، وحينئذ راودته امرأة العزيز . وقوله تعالى فى الانعام : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ [الانعام : ١٥٢] قال : يحفظ له ماله ويدفع إليه عندما يؤنس منه الرشد مع أن يكون بالغاً ، وفى قصة موسى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ﴾ [القصص : ١٤] فإنه قرن بلوغ الأشد بالاستواء ، وهو أن يجتمع أمره وقوته ويكتهل وينتهي شبابه ، وأما قوله تعالى فى سورة الاحقاف : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الاحقاف : ١٥] فهو أقصى نهاية بلوغ الأشد ، وعند تمامها بُعث محمد ﷺ نبياً وقد اجتمعت حنكته وتمام عقله . اللسان ٣ / ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) .

المراودة : الإرادة والطلب برفق ولين . وقيل : هى مأخوذة من الرُّود ، أى الرفق والتأني ، يقال : أرودنى أمهلنى . وقيل : المراودة مأخوذة من راد يرود : إذا جاء وذهب ، كأن المعنى : أنها فعلت فى مراودتها له فعل المخادع ، ومنه الرائد لمن يطلب الماء والكلأ ، وقد يخص بمحاولة الوقاع فيقال : راود فلان جاريته عن نفسها ، وراودته هى عن نفسه ، إذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع ، وهى مفاعلة وأصلها أن تكون من الجانبين . فجعل السبب هنا فى أحد الجانبين قائماً مقام المسبب ، فكأن يوسف عليه السلام لما كان ما أعطيه من كمال الخلق والزيادة فى الحسن ، سبباً لمراودة امرأة العزيز له مراود ، وإنما قال : ﴿ التى هو فى بيتها ﴾ ولم يقل : امرأة العزيز وزليخا قصداً إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة ، والمحافظة على الستر عليها . ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ قيل : فى هذه الصيغة ما يدل على التكثير ، فيقال : غلق الأبواب ، ولا يقال : غلق الباب ، بل يقال : أغلق الباب ، وقد يقال : أغلق الأبواب ، ومنه قول الفرزدق فى أبى عمرو بن العلاء :

مَا زِلْتُ أَغْلِقُ أَبْوَاباً وَأَفْتَحُهَا حَتَّى أَتَيْتُ أَبَا عَمْرٍو بْنَ عَمَّارٍ

قيل : وكانت الأبواب سبعة .

قوله : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم والكسائى وحمزة والأعمش بفتح الهاء وسكون الياء ، وفتح التاء . وبها قرأ ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وعكرمة . قال ابن مسعود : لا تنطعوا فى القراءة ، فإنما هو مثل قول أحدكم : هلم وتعال ، وقرأ ابن أبى إسحاق النحوى بفتح الهاء وكسر التاء ، وقرأ عبد الرحمن السلمى ، وابن كثير : « هيت » بفتح الهاء وضم التاء ، ومنه قول طرفة :

كَيْسَ قَوْمِي بِالْأَبْعَدِينَ إِذَا مَا قَالَ دَاعٍ مِنَ الْعَشِيرَةِ هَيْتُ

وقرأ أبو جعفر ونافع بكسر الهاء وسكون الياء وفتح التاء ، وقرأ على وابن عباس فى رواية عنه وهشام بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة وضم التاء . وقرأ ابن عامر وأهل الشام بكسر الهاء وبالحمزة وفتح التاء ، ومعنى هيت على جميع القراءات معنى هلم وتعال ؛ لأنها من أسماء الأفعال ، إلا فى قراءة من قرأ بكسر الهاء بعدها همزة وتاء مضمومة ، فإنها بمعنى : تهيأت لك ، وأنكر أبو عمرو هذه القراءة ، وقال أبو عبيدة : سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء والهمزة وضم التاء فقال : باطل جعلها بمعنى : تهيأت ، اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهى إلى اليمن ، هل تعرف أحداً يقول هكذا ؟ وأنكرها أيضاً الكسائى ، وقال النحاس : هى جيدة عند البصريين ؛ لأنه يقال : هاء الرجل يهأ ويهئ هئية ، ورجح الزجاج القراءة

الأولى . وأنشد بيت طرفة المذكور هيتا بالفتح ، ومنه قول الشاعر فى على بن أبى طالب رضى الله عنه :

أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتيتا
أن العراق وأهله سلم إليك فهيت هيتا

وتكون اللام فى ﴿ لك ﴾ على القراءات الأولى التى هى فيها بمعنى اسم الفعل للبيان ، أى لك أقول هذا ، كما فى هلم لك ، قال النحويون : هيت جاء بالحركات الثلاث ، فالفتح للخفض ، والكسر لالتقاء الساكنين ، والضم تشبيهاً بحيث ، وإذا بين باللام نحو: ﴿ هيت لك ﴾ فهو صوت قائم مقام المصدر كأف له ، أى لك أقول هذا ، وإن لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر الفعل فيكون اسم فعل ، إما خبر أى تهيات ، وإما أمر أى أقبل ، وقال فى الصحاح : يقال : هوت به وهيت به إذا صاح به ودعاه . ومنه قول الشاعر :

يَحْدُو بِهَا كُلُّ فِتَى هَيَّاتِ

وقد روى عن ابن عباس والحسن أنها كلمة سريانية معناها أنها تدعوه إلى نفسها . قال أبو عبيدة : كان الكسائى يقول : هى لغة لأهل حوران ، وقعت إلى أهل الحجاز معناها تعال ، قال أبو عبيدة فسألت شيخاً عالماً من حوران فذكر أنها لغتهم . ﴿ قال معاذ الله ﴾ أى أعوذ بالله معاذاً مما دعوتنى إليه ، فهو مصدر منتصب بفعل محذوف ، مضاف إلى اسم الله سبحانه . وجملة : ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ﴾ تعليل للامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التى هى أقرب إلى فهم امرأة العزيز ، والضمير للشأن ، أى إن الشأن ربى ، يعنى : العزيز ، أى سيدى الذى ربانى ، وأحسن مثواى حيث أمرك بقوله : ﴿ أكرمى مثواه ﴾ فكيف أخونه فى أهله وأجيبك إلى ما تريد من ذلك ؟ وقال الزجاج : إن الضمير لله سبحانه ، أى إن الله ربى تولانى بلطفه ، فلا أركب ما حرمة ، وجملة : ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ تعليل آخر للامتناع منه عن إجابتها . والفلاح : الظفر ، والمعنى : أنه لا يظفر الظالمون بمطالبهم ، ومن جملة الظالمين الواقعون فى مثل هذه المعصية التى تطلبها امرأة العزيز من يوسف .

قوله : ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ يقال : هم بالأمر إذا قصده وعزم عليه ، والمعنى : أنه هم بمخالطتها كما همت بمخالطته ومال كل واحد منهما إلى الآخر بمقتضى الطبيعة البشرية والجلبة الخلقية ، ولم يكن من يوسف عليه السلام القصد إلى ذلك اختياراً كما يفيد ما تقدم من استعاذته بالله ، وإن ذلك النوع من الظلم ، ولما كان الأنبياء معصومين عن الهم بالمعصية والقصد إليها ، شطح أهل العلم فى تفسير هذه الآية بما فيه نوع تكلف ، فمن ذلك ما قاله أبو حاتم قال : كنت أقرأ على أبى عبيدة غريب القرآن ، فلما أتيت على : ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ قال : هذا على التقديم والتأخير : كأنه قال : ولقد همت به ، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها . وقال أحمد بن يحيى ثعلب : أى همت زليخا بالمعصية وكانت مصرة ،

وهم يوسف ولم يوقع ما هم به ، فبين الهمين فرق ، ومن هذا قول الشاعر (١) :

هَمَمْتُ بِهِمْ مِنْ ثَنِيَّةٍ لَوْلَا شَفَيْتُ غَلِيلَاتِ الْهَوَى مِنْ فَوَادِيَا

فهذا إنما هو حديث نفس من غير عزم . وقيل : هم بها بمعنى : تمنى أن يتزوجها . وقد ذهب جمهور المفسرين من السلف والخلف إلى ما قدمنا من حمل اللفظ على معناه اللغوى ، ويدل على هذا ما سيأتى من قوله : ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ﴾ [يوسف : ٥٢] ، وقوله : ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ [يوسف : ٥٣] ومجرد الهم لا ينافى العصمة ، فإنها قد وقعت العصمة عن الوقوع فى المعصية . وذلك المطلوب وجواب « لو » فى ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ محذوف أى لولا أن رأى برهان ربه لفعل ما هم به .

واختلف فى هذا البرهان الذى رآه ما هو ؟ فقليل : إن زليخا قامت عند أن همت به وهم بها إلى صنم لها فى زاوية البيت فسترته بثوب فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أستحى من إلهى هذا أن يرانى على هذه الصورة ، فقال يوسف : أنا أولى أن أستحى من الله تعالى وقيل : إنه رأى فى سقف البيت مكتوبا : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ﴾ الآية [الإسراء : ٣٢] . وقيل : رأى كفا مكتوبا عليها : ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ [الانفطار : ١٠] . وقيل : إن البرهان هو تذكره عهد الله وميثاقه وما أخذه على عباده . وقيل : نودى : يا يوسف أنت مكتوب فى الأنبياء وتعمل عمل السفهاء ؟ . وقيل : رأى صورة يعقوب على الجدار عاضا على أُمْلَتِهِ يتوعده (٢) . وقيل غير ذلك مما يطول ذكره . والحاصل : أنه رأى شيئا حال بينه وبين ما هم به .

قوله : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ الكاف نعت مصدر محذوف ، والإشارة بذلك إلى الإراءة المدلول عليها بقوله : ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك ، أى مثل تلك الإراءة أريناه ، أو مثل ذلك التثبيت ثبتناه . ﴿ لنصرف عنه السوء ﴾ أى كل ما يسوؤه ، والفحشاء كل أمر مفرط القبح . وقيل : السوء : الشئ القبيح . والأولى : الحمل على العموم فيدخل فيه ما يدل عليه السياق دخولا أوليا . وجملة : ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ تعليل لما قبله . قرأ ابن عامر وابن كثير وأبو عمر : « المخلصين » بكسر اللام ، وقرأ الآخرون بفتحها . والمعنى على القراءة الأولى : أن يوسف عليه السلام كان ممن أخلص طاعته لله ، وعلى الثانية : أنه كان ممن استخلصه الله للرسالة ، وقد كان عليه السلام مخلصا مستخلصا .

(١) الشاعر : جميل بن عبد الله بن معمر العذرى القضاعى . وافتنن بيثينة ، من فتيات قومه . وكانت منازل بنى عذرة فى وادى القرى ثم إلى أطراف الشام ، ويعدها قصد مصر . الاعلام ١٣٨/٢ .

(٢) لم يصح من هذا شئ ، ومن العجيب أن يروى هذه الآثار مفسرون كالطبرى والشوكانى - دون أدنى نقد - وهذه الصورة التى صور بها يوسف عليه السلام بعيدة كل البعد عن عصمة الأنبياء ؛ لأن الله عصمهم عن الخطايا والدنايا ، قال ابن كثير ٤ / ٢١ : « ولا حجة قاطعة على تعيين شئ من ذلك ، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى » .

﴿ واستبقا الباب ﴾ أى تسابقا إليه فحذف حرف الجر وأوصل الفعل بالمفعول ، أو ضمن الفعل معنى فعل آخر يتعدى بنفسه كابتدرا الباب وهذا الكلام متصل بقوله : ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ وما بينهما اعتراض . ووجه تسابقهما أن يوسف يريد الفرار والخروج من الباب ، وامرأة العزيز تريد أن تسبقه إليه لتمنعه ، ووجد الباب هنا وجمعه فيما تقدم ؛ لأن تسابقهما كان إلى الباب الذى يخلص منه إلى خارج الدار ، ﴿ وقدت قميصه من دبر ﴾ أى جذبت قميصه من ورائه فانشق إلى أسفله . والقدر : القطع ، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولا ، والقط بالطاء يستعمل فيما كان عرضاً ، وقع منها ذلك عند أن فر يوسف لما رأى برهان ربه ، فأرادت أن تمنعه من الخروج بجذبها لقميصه ، ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ أى وجدا العزيز هنالك وعنى بالسيد الزوج ؛ لأن القبط يسمون الزوج سيدياً وإنما لم يقل : سيدهما ؛ لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحاً ، فلم يكن سيدياً له .

وجملة : ﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فما كان منهما عند أن ألفيا سيدها لدى الباب و« ما » استفهامية ، والمراد بالسوء هنا : الزنا . قالت هذه المقالة طلباً منها للحيلة وللتستر على نفسها ، فنسبت ما كان منها إلى يوسف ، أى جزاء يستحقه من فعل مثل هذا ؟ ثم أجابت عن استفهامها بقولها : ﴿ إلا أن يسجن ﴾ أى ما جزاؤه إلا أن يسجن . ويحتمل أن تكون « ما » نافية ، أى ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الأليم . قيل : والعذاب الأليم هو : الضرب بالسياط ، والظاهر أنه ما يصدق عليه العذاب الأليم من ضرب أو غيره ، وفى الإيهام للعذاب زيادة تهويل .

وجملة : ﴿ قال هى راودتنى عن نفسى ﴾ مستأنفة كالجملات الأولى . وقد تقدم بيان معنى الراودة أى هى التى طلبت منى ذلك ، ولم أرد بها سوءا ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ أى من قرابتها ، وسمى الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه من التثبت والتأمل . قيل : لما التبس الأمر على العزيز احتاج إلى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصادق من الكاذب . قيل : كان ابن عم لها واقفاً مع العزيز فى الباب . وقيل : ابن خال لها . وقيل : إنه طفل فى المهد تكلم ، قال السهيلي : وهو الصحيح للحديث الوارد فى ذلك عن النبى ﷺ فى ذكر من تكلم فى المهد ، وذكر من جملتهم شاهد يوسف . وقيل : إنه رجل حكيم كان العزيز يستشير به فى أموره وكان من قرابة المرأة ﴿ إن كان قميصه قد من قبل ﴾ أى فقال الشاهد هذه المقالة مستدلاً على بيان صدق الصادق منهما ، وكذب الكاذب ، بأن قميص يوسف إن كان مقطوعاً من قبل ، أى من جهة القبلى ﴿ فصدقت ﴾ ، أى فقد صدقت بأنه أراد بها سوءاً ﴿ وهو من الكاذبين ﴾ فى قوله : إنها راودته عن نفسه . وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبى إسحاق : « من قبل » بضم اللام ، وكذا قرأ « من دبر » قال الزجاج : جعلاهما غايتين كقبل وبعد، كأنه قيل : من قبله ومن دبره ، فلما حذف المضاف إليه وهو مراد صار المضاف غاية بعد أن كان المضاف إليه هو الغاية .

﴿ وإن كان قميصه قد من دبر ﴾ أى من ورائه ﴿ فكذبت ﴾ فى دعواها عليه ﴿ وهو من الصادقين ﴾ فى دعواه عليها ، ولا يخفى أن هاتين الجملتين الشرطيتين لا تلازم بين مقدميهما وتالييهما ، لاعقلا ولاعادة وليس ها هنا إلا مجرد أمانة غير مطردة ، إذ من الجائز أن تجذبه إليها ، وهو مقبل عليها فينقذ القميص من دبر ، وأن تجذبه وهو مدبر عنها فينقذ القميص من قبل .

﴿ فلما رأى ﴾ أى العزيز ﴿ قميصه ﴾ أى قميص يوسف ﴿ قد من دبر قال إنه ﴾ أى هذا الأمر الذى وقع فيه الاختلاف بينكما ، أو أن قولك : ﴿ ماجزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾ ﴿ من كيدكن ﴾ أى من جنس كيدكن يامعشر النساء ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ والكيد : المكر والحيلة .

ثم خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله : ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ أى عن هذا الأمر الذى جرى واكتمه ولا تتحدث به ، ثم أقبل عليها بالخطاب فقال : ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ الذى وقع منك ﴿ إنك كنت ﴾ بسبب ذلك ﴿ من الخاطئين ﴾ أى من جنسهم . والجملة تعليل لما قبلها من الأمر بالاستغفار ، ولم يقل : من الخاطئات تغليبا للمذكر على المؤنث كما فى قوله : ﴿ وكانت من القانتين ﴾ [التحريم : ١٢] ومعنى ﴿ من الخاطئين ﴾ : من المتعمدين . يقال : خطئ : إذا أذنب متعمداً . وقيل : إن القائل ليوسف ولامرأة العزيز بهذه المقالة : هو الشاهد الذى حكم بينهما .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ﴾ قال : هى امرأة العزيز . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : راودته حين بلغ مبلغ الرجال . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ هيت لك ﴾ قال : هلم لك تدعوه إلى نفسها . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : هلم لك بالقبضية . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : هى كلمة بالسريانية أى عليك . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : معناها تعال . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد : إنها لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قرأ : ﴿ هئت لك ﴾ مكسورة الهاء مضمومة التاء مهموزة ، قال : تهيات لك . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ إنه ربي ﴾ قال : سيدى ، قال : يعنى : زوج المرأة .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : لما همت به تزينت ثم استلقت على فراشها ﴿ وهم بها ﴾ جلس بين رجلها يحل ثيابه ، فنودى من السماء : يابن يعقوب ، لا تكن كطائر تنف ريشه ، فبقى لا ريش له ، فلم يتعظ على النداء شيئا حتى رأى برهان ربه جبريل فى صورة يعقوب ، عاضا على أصبعه ، ففزع فخرجت شهوته من أنامله ، فوثب إلى الباب

فوجده مغلقاً ، فرفع يوسف رجله فضرب بها الباب الأدنى فانفرج له ، واتبعته فأدركته ، فوضعت يديها في قميصه فشقته حتى بلغت عضلة ساقه ، فألفيا سيدها لدى الباب . وأخرج أبو نعيم في الحلية عن علي بن أبي طالب في قوله : ﴿ همت به وهم بها ﴾ قال : طمعت فيه وطمع فيها . وكان فيه من الطمع أن هم بحل التكة فقامت إلى صنم لها مكلل بالدر والياقوت في ناحية البيت ، فسترته بثوب أبيض بينها وبينه فقال : أى شيء تصنعين ؟ فقالت : أستحي من إلهي أن يراني على هذه السوء ، فقال يوسف : تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب ، ولا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ ثم قال : لا تنالها مني أبداً ، وهو البرهان الذي رأى . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ قال : مثل له يعقوب فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله^(١) . وقد أطلال المفسرون في تعيين البرهان الذي رآه ، واختلفت أقوالهم في ذلك اختلافاً كثيراً .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن ثابت قال : السيد : الزوج يعنى في قوله : ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ قال : القيد .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قال : صبى أنطقه الله كان في الدار . وأخرج أحمد وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة بنت فرعون^(٢) ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم »^(٣) . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قال : كان رجلاً ذا لحية . وأخرج الفريابي وابن جرير وأبو الشيخ عنه قال : كان من خاصة الملك . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال : هو رجل له فهم وعلم . وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : ابن عم لها كان حكيماً . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : إنه ليس بإنسى ولا جنى هو خلق من خلق الله . قلت : ولعله لم يستحضر قوله تعالى : ﴿ من أهلها ﴾ .

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا

(١) سبق الكلام على مثل هذه الروايات في أنها لا تصح أن تضاف إلى الأنبياء ؛ لأن الله عصمهم عن ذلك .

(٢) في المطبوعة : « ابن ماشطة فرعون » ، والصحيح ما أثبتناه كما هو عند أحمد وابن جرير .

(٣) أحمد ١ / ٣٠٩ ، ٣١٠ وابن جرير ١٢ / ١١٥ والبيهقي في الدلائل ٢ / ٣٨٩ وقال الهيثمي في المجمع

٧٠ / ١ : « رواه أحمد والبخاري والطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه عطاء بن السائب وهو ثقة ولكنه اختلط » .

بَشْرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ .

يقال : « نُسوة » بضم النون ، وهى قراءة الأعمش ، والمفضل ، والسُّلْمَى (١) ، ويقال : ﴿ نسوة ﴾ بكسر النون ، وهى قراءة الباقيين والمراد : جماعة من النساء ، ويجوز التذكير فى الفعل المسند إليهن ، كما يجوز التأنيث ، قيل : وهى امرأة ساقى العزيز ، وامرأة خبازه ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب سجنه ، وامرأة حاجبه . والفتى فى كلام العرب : الشاب . والفتاة : الشابة ، والمراد به هنا : غلامها ، يقال : فتاى وفتاتى ، أى غلامى وجارىتى ، وجملة : ﴿ قد شغفها حبا ﴾ فى محل رفع على أنها خبر ثان للمبتدأ ، أو فى محل نصب على الحال ، ومعنى : ﴿ شغفها حبا ﴾ غلبها حبه . وقيل : دخل حبه فى شغافها ، قال أبو عبيدة : وشغاف القلب : غلافه وهو جلدة عليه . وقيل : هو وسط القلب ، وعلى هذا يكون المعنى : دخل حبه إلى شغافها فغلب عليه . وأنشد الأصمعى قول الراجز :

يتبعها وهى له شغاف

وقرأ جعفر بن محمد وابن محيصن والحسن : « شغفها » بالعين المهملة . قال ابن الأعرابى : معناه : أجرى حبه عليها ، وقرأ غيرهم بالمعجمة . قال الجوهري : شغفه الحب : أحرق قلبه ، وقال أبو زيد : أمرضه ، قال النحاس : معناه عند أكثر أهل اللغة : قد ذهب بها كل مذهب ؛ لأن شغاف الجبال أعاليها ، وقد شغف بذلك شغفاً بإسكان الغين المعجمة إذا ولع به ، وأنشد أبو عبيدة بيت امرئ القيس :

أتقتلنى وقد شَغَفْتُ فؤادها كما شغف المهنوءة (٢) الرَّجُلُ الطالَى

قال : فشبهت لوعة الحب بذلك وقرأ الحسن : « قد شغفها » بضم الغين ، قال النحاس : وحكى قد شغفها بكسر الغين ، ولا يعرف ذلك فى كلام العرب إلا شغفها بفتح الغين . ويقال : إن الشغاف : الجلدة اللاصقة بالكبد التى لا ترى ، وهى الجلدة البيضاء . فكأنه لصق حبه بقلبها . كلصوق الجلدة بالكبد ، وجملة : ﴿ إنا لنراها فى ضلال مبين ﴾ مقررمة لمضمون ما قبلها ، والمعنى : إنا لنراها ، أى نعلمها فى فعلها هذا ، وهو المراودة لفتاها فى ضلال عن طريق الرشد والصواب المبين ، واضح لا يلتبس على من نظر فيه .

(١) فى المطبوعة : « والمفضل وسليمان » والصحيح ما أثبتناه .

(٢) المهنوءة : المطلية بالقطران ، وإذا هنئ البعير بالقطران يجد له لذة مع حرقة ، كحرقة الهوى مع لذته .

﴿ فلما سمعت ﴾ امرأة العزيز ﴿ بمكرهن ﴾ أى بغيتهن إياها سميت الغيبة مكرًا لاشتراكهما فى الإخفاء . وقيل : أردن أن يتوسلن بذلك إلى رؤية يوسف فلهذا سمى قولهن مكرًا . وقيل : إنها أسرت عليهن فأفشين سرها فسمى ذلك مكرًا ﴿ أرسلت إليهن ﴾ أى تدعوهن إليها لينظرن إلى يوسف حتى يقعن فيما وقعت فيه ﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ أى هيات لهن مجالس يتكنن عليها ، وأعتدت من الاعتداد وهو كل ما جعلته عدة لشيء . وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير : « متكا » مخففًا غير مهموز . والمتك : هو الأترج بلغة القبط ، ومنه قول الشاعر :

نَشْرَبُ الْإِثْمَ بِالصُّوَاعِ جِهَارًا وَتَرَى الْمُتَّكَ بَيْنَنَا مُسْتَعَارًا

وقيل : إن ذلك هو لغة أزد شنوءة . وقيل : حكى ذلك عن الأخفش . وقال الفراء : إنه ماء الورد ، وقرأ الجمهور : ﴿ متكأ ﴾ بالهمز والتشديد ، وأصح ما قيل فيه : إنه المجلس . وقيل : هو الطعام . وقيل : المتكأ : كل ما اتكى عليه عند طعام أو شراب أو حديث ، وحكى القتيبي أنه يقال : اتكأنا عند فلان ، أى أكلنا ، ومنه قول الشاعر :

فَظَلَلْنَا بِنِعْمَةٍ وَاتَكَّأْنَا وَشَرَبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلْلِهِ

ويؤيد هذا قوله : ﴿ وآتت كل واحدة منهن سكيناً ﴾ فإن ذلك إنما يكون لشيء يأكله بعد أن يقطعه ، والسكين تذكر وتؤنث ، قاله الكسائي والفراء . قال الجوهري : والغالب عليه التذكير ، والمراد من إعطائها لكل واحدة سكيناً : أن يقطعن ما يحتاج إلى التقطيع من الأطعمة ، ويمكن أنها أرادت بذلك ما سيقع منهن من تقطيع أيديهن وقالت ليوسف : ﴿ اخرج عليهن ﴾ أى فى تلك الحالة التى هن عليها من الاتكاء ، والأكل وتقطيع ما يحتاج إلى التقطيع من الطعام .

قوله : ﴿ فلما رأيته أكبره ﴾ أى عظمته . وقيل : أمذنين ، ومنه قول الشاعر :

إِذَا مَارَيْنَ الْفَحْلَ مِنْ فَوْقِ قَلَةٍ صَهَلْنَ وَأكْبَرْنَ الْمَنَى الْمُقَطَّرَا

وقيل : حضن ، قال الأزهري : « أكبرن » بمعنى: حضن ، والهاء للسكت ، يقال : أكبرت المرأة ، أى دخلت فى الكبر بالحوض ، وقع منهن ذلك دهشًا وفزعًا لما شاهدنه من جماله الفائق ، وحسنه الرائق ، ومن ذلك قول الشاعر :

نَأْتِي النِّسَاءَ عَلَى أَطْهَارِهِنَّ وَلَا نَأْتِي النِّسَاءَ إِذَا اكْبَرْنَ إِكْبَارًا (١)

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره ، وقالوا : ليس ذلك فى كلام العرب . قال الزجاج : يقال :

(١) قال ابن جرير : « وقد زعم بعض الرواة أن بعض الناس أنشده فى أكبرن بمعنى حضن ، بيتا لا أحسب أن له أصلاً ؛ لأنه ليس بالمعروف عند الرواة » .

أكبرنه ولا يقال : حضنه ، فليس الإكبار بمعنى الحيض ، وأجاب الأزهري فقال : يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية ، وقد زيف هذا بأن هاء الوقف تسقط في الوصل . وقال ابن الأنباري : إن الهاء كناية عن مصدر الفعل أى أكبرن إكباراً بمعنى : حضن حيصاً ﴿ وقطعن أيديهن ﴾ أى جرحنها ، وليس المراد به القطع : الذى تبين منه اليد ، بل المراد به : الخدش والحز ، وذلك معروف فى اللغة كما قال النحاس ، يقال : قطع يد صاحبه إذا خدشها . وقيل : المراد بأيديهن هنا : أناملهن . وقيل : أكمامهن ، والمعنى : أنه لما خرج يوسف عليهن أعظمته ودهشن ، وراعهن حسنه ، حتى اضطربت أيديهن فوق القطع عليها ، وهن فى شغل عن ذلك ، بما دهمهن مما تطيش عنده الأحلام ، وتضطرب له الأبدان ، وتزول به العقول « وقلن حاشا لله » كذا قرأ أبو عمرو بن العلاء بإثبات الألف فى حاشا . وقرأ الباكون بحذفها . وقرأ الحسن : « حاش لله » بإسكان الشين ، وروى عنه أنه قرأ : « حاش الإله » ، وقرأ ابن مسعود وأبى : « حاشا لله » . قال الزجاج : وأصل الكلمة من الحاشية بمعنى الناحية تقول : كنت فى حاشية فلان ، أى فى ناحيته ، فقولك : حاشا لزيد من هذا ، أى تباعد منه ، وقال أبو على : هو من المحاشاة . وقيل : إن حاش حرف وحاشا فعل ، وكلام أهل النحو فى هذه الكلمة معروف ، ومعناها هنا التنزيه ، كما تقول : أتى القوم حاشا زيدا ، فمعنى ﴿ حاشا لله ﴾ : براءة لله وتنزيه له .

قوله : ﴿ ما هذا بشرا ﴾ إعمال « ما » عمل ليس هى لغة أهل الحجاز ، وبها نزل القرآن كهذه الآية ، وكقوله سبحانه : ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ [المجادلة : ٢] وأما بنو تميم فلا يعملونها عمل ليس ، وقال الكوفيون : أصله : ما هذا يبشر ، فلما حذفت الباء انتصب . قال أحمد ابن يحيى ثعلب : إذا قلت : ما زيد بمنطلق ، فموضع الباء موضع نصب ، وهكذا سائر حروف الخفض ، وأما الخليل وسيبويه وجمهور النحويين فقد أعملوها عمل ليس ، وبه قال البصريون ، والبحث مقرر فى كتب النحو بشواهد وحججه ، وإنما نفى عنه البشرية ؛ لأنه قد برز فى صورة قد لبست من الجمال البديع ما لم يعهد على أحد من البشر ، ولا أبصر المبصرون ما يقاربه فى جميع الصور البشرية ، ثم لما نفى عنه البشرية لهذه العلة أثبت له الملكية ، وإن كن لا يعرفن الملائكة لكنه قد تقرر فى الطباع أنهم على شكل فوق شكل البشر فى الذات والصفات ، وأنهم فائقون فى كل شئ كما تقرر أن الشياطين على العكس من ذلك ، ومن هذا قول الشاعر :

فلستَ لِإنْسِيٍّ وَلَكِنْ لِمَلَاكٍ تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

وقرأ الحسن : « ما هذا بشرى » ، على أن الباء حرف جر والشين مكسورة ، أى ما هذا بعبد يشترى ، وهذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله : ﴿ إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

واعلم أنه لا يلزم من قول النسوة هذا أن الملائكة صورهم أحسن من صور بنى آدم فإنهن لم يقلنه لدليل ، بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز فى طباعهن وذلك

ممنوع ، فإن الله سبحانه يقول : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ [التين : ٤] وظاهر هذا أنه لم يكن شئ مثله من أنواع المخلوقات فى حسن تقويمه وكمال صورته . فما قاله صاحب الكشف فى هذا المقام هو من جملة تعصباته لما رسخ فى عقله من أقوال المعتزلة ^(١) ، على أن هذه المسألة ، أعنى مسألة المفاضلة بين الملائكة والبشر ، ليست من مسائل الدين فى ورد ولا صدر ، فما أغنى عباد الله عنها ، وأحوجهم إلى غيرها من مسائل التكليف .

﴿ قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ﴾ الإشارة إلى يوسف والخطاب للنسوة ، أى غيرتننى فيه ، قالت لهن هذا لما رأت افتتانهن بيوسف إظهاراً لعذر نفسها ، ومعنى ﴿ فيه ﴾ : أى فى حبه . وقيل : الإشارة إلى الحب ، والضمير له أيضاً ، والمعنى : فذلك الحب الذى لمتننى فيه هو ذلك الحب ، والأول أولى ، ورجحه ابن جرير . وأصل اللوم : الوصف القبيح ، ثم لما أظهرت عذر نفسها عند النسوة بما شاهدته مما وقعن فيه عند ظهوره لهن ضاق صدرها عن كتم ما تجده فى قلبها من حبه ، فأقرت بذلك وصرحت بما وقع منها من المراودة له فقالت : ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أى استعف وامتنع عما أريده ، طالباً لعصمة نفسه عن ذلك ، ثم توعده إن لم يفعل ما تريده ، كاشفة لجلباب الحياء ، هاتكة لستر العفاف ، فقالت : ﴿ ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ أى لئن لم يفعل ما قد أمرته به فيما تقدم ذكره عند أن غلقت الأبواب ، وقالت : هيت لك ﴿ ليسجنن ﴾ أى يعتقل فى السجن ﴿ وليكونا من الصاغرين ﴾ الأذلاء لما يناله من الإهانة ، ويسلب عنه من النعمة والعزة فى زعمها . قرئ : « ليكونن » بالثقل والتخفيف . قيل : والتخفيف أولى ؛ لأن النون كتبت فى المصحف ألفاً على حكم الوقف ، وذلك لا يكون إلا فى الخفيفة ، وأما ﴿ ليسجنن ﴾ فبالثقل لا غير .

فلما سمع يوسف مقالها هذا ، وعرف أنها عزمة منها مع ما قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز ، قال مناجياً لربه سبحانه : ﴿ رب السجن ﴾ أى يارب السجن الذى أوعدتنى هذه به ﴿ أحب إلى مما يدعوننى إليه ﴾ من مؤاتاتها والوقوع فى المعصية العظيمة التى تذهب بخير الدنيا والآخرة . قال الزجاج : أى دخول السجن ، فحذف المضاف . وحكى أبو حاتم أن عثمان بن عفان رضى الله عنه قرأ : « السجن » بفتح السين ، وقرأ كذلك ابن أبى إسحاق وعبد الرحمن الأعرج ويعقوب ، وهو مصدر سجنه سجننا ، وإسناد الدعوة إليهن جميعاً ؛ لأن النسوة رغبته فى مطاوعتها وخوفنه من مخالفتها ، ثم جرى على هذا فى نسبة الكيد إليهن جميعاً فقال : ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن ﴾ أما الكيد من امرأة العزيز فما قد قصه الله سبحانه فى هذه السورة ، وأما كيد سائر النسوة فهو ما تقدم من الترغيب له فى المطاوعة والتخويف من المخالفة . وقيل : إنها كانت كل واحدة تخلو به وحدها ، وتقول له : يا يوسف اقض لى

حاجتى فأنا خير لك من امرأة العزيز . وقيل : إنه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيماً لها أو عدولاً عن التصريح إلى التعريض . والكيد : الاحتيال ، وجزم ﴿أصب إليهن﴾ على أنه جواب الشرط ، أى أمل إليهن من صبا يصبو إذا مال واشتاق ، ومنه قول الشاعر (١) :

إلى هِنْدٍ صبا قَلْبِي وهِنْدٌ حُبُّهَا يُصْبِي

﴿وأكن من الجاهلين﴾ معطوف على ﴿أصب﴾ ، أى أكن ممن يجهل ما يحرم ارتكابه ويقدم عليه ، أو ممن يعمل عمل الجاهل .

قوله : ﴿فاستجاب له ربه﴾ لما قال : ﴿وإلا تصرف عني كيدهن﴾ كان ذلك منه تعرضاً للدعاء ، وكأنه قال : اللهم اصرف عني كيدهن ، فالاستجابة من الله تعالى له هى بهذا الاعتبار ؛ لأنه لم يتقدم دعاء صريح منه عليه السلام ، والمعنى : أنه لطف به وعصمه عن الوقوع في المعصية ؛ لأنه إذا صرف عنه كيدهن لم يقع شيء مما رمنه منه ، ووجه إسناد الكيد قد تقدم ، وجملة : ﴿إنه هو السميع العليم﴾ تعليل لما قبلها من صرف كيد النسوة عنه ، أى : إنه هو السميع لدعوات الداعين له ، العليم بأحوال المتجئين إليه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿قد شغفها﴾ غلبها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه : ﴿قد شغفها﴾ قال : قتلها حب يوسف . الشغف : الحب القاتل ، والشغف : حب دون ذلك ، والشغاف : حجاب القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿قد شغفها﴾ قال : قد علقها .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ قال : بحديثهن . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان : ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ قال : بعملهن وكل مكر فى القرآن فهو عمل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله : ﴿وأعتدت لهن متكاً﴾ قال : هيات لهن مجلساً ، وكان ستهن إذا وضعوا المائدة أعطوا كل إنسان سكيناً يأكل بها ﴿فلما رأينه﴾ قال : فلما خرج عليهن يوسف ﴿أكبرنه﴾ قال : أعظمه ونظرن إليه ، وأقبلن يحززن أيديهن بالسكاكين ، وهن يحسبن أنهن يقطعن الطعام . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ﴿وأعتدت لهن متكاً﴾ قال : أعطتهن أترنجاً وأعطت كل واحدة منهن سكيناً ، فلما رآين يوسف أكبرنه ، وجعلن يقطعن أيديهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترنج . وأخرج مسدد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه : المتكأ : الأترنج وكان يقرأها خفيفة . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿متكاً﴾ قال : طعاماً . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عنه قال : هو الأترنج .

(١) الشاعر : هو يزيد ابن ضبة الثقفى ، وضبة : أمه ، شاعر كبير ، من أهل الطائف مات أبوه وخلفه صغيراً فحضته أمه ، فنسب إليها . الأعلام ٨ / ١٨٩ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : هو كل شيء يقطع بالسكين . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الضحاك مثله . وأخرج أبو الشيخ من طريق عبد العزيز بن الوزير بن الكميت بن زيد قال : حدثني أبي عن جدي يقول في قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ قال : أَمْنَيْن ، وأنشد :

ولما رآته الخيل من رأس شاهق صهلن وأمنين المنى المدفقا

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد بن علي بن عبد الله ابن عباس عن أبيه عن جده ابن عباس في قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ قال : لما خرج عليهن يوسف حضن من الفرع ، وذكر قول الشاعر الذي قدمنا ذكره :

نَأْتِي النِّسَاءَ عَلَى أَطْهَارِهِنَّ وَلَا نَأْتِي النِّسَاءَ إِذْ أَكْبَرْنَ إِكْبَارًا

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أعظمته ﴿ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ قال : حزا بالسكين حتى ألقينها ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ قال : معاذ الله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ قال : قلن : ملك من الملائكة ، من حسنه . وأخرج أبو الشيخ عن منبه عن أبيه قال : مات من النسوة التي قطعن أيديهن تسع عشرة امرأة كمدًا . وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم عن أنس عن النبي ﷺ قال : « أعطى يوسف وأمه شطر الحسن » (١) . وقد وردت روايات عن جماعة من السلف في وصف حسن يوسف والمبالغة في ذلك ، ففي بعضها أنه أعطى نصف الحسن ، وفي بعضها ثلثه ، وفي بعضها ثلثيه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس : ﴿ فَاسْتَعْصِم ﴾ قال : امتنع . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ فَاسْتَعْصِم ﴾ قال : فاستعصى . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ قال : إلا تكن منك أنت القوى والمنعة لا تكن مني ولا عندي . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ : ﴿ أَصْبِ إِلَيْهِنَّ ﴾ قال : اتبعهن . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : أطاوعهن .

﴿ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُنَّتْهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْنَأُ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا فِي تَأْوِيلِهِ

(١) أحمد ٢٨٦/٣ وابن جرير ١٢/٢٣ وفي التاريخ ١/١٦٨ وصححه الحاكم ٥٧٠/٢ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي .

قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَأَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) .

معنى : ﴿ بدا لهم ﴾ : ظهر لهم ، والضمير للعزیز وأصحابه الذين يدبرون الأمر معه ويشيرون عليه ، وأما فاعل ﴿ بدا لهم ﴾ فقال سبويه : هو ﴿ ليسجننه ﴾ أى ظهر لهم أن يسجنوه . قال المبرد : وهذا غلط ؛ لأن الفاعل لا يكون جملة ولكن الفاعل ما دل عليه ﴿ بدا ﴾ وهو المصدر كما قال الشاعر :

وَحَقٌّ لِمَنْ أَبُو مُوسَى أَبُوهُ يُوقِّعُهُ الَّذِي نَصَبَ الْجِبَالَ

أى وحق الحق ، فحذف الفاعل لدلالة الفعل عليه . وقيل : الفاعل المحذوف هو رأى ، أى وظهر لهم رأى لم يكونوا يعرفونه من قبل ، وهذا الفاعل حذف لدلالة ﴿ ليسجننه ﴾ عليه ، واللام فى ﴿ ليسجننه ﴾ جواب قسم محذوف على تقدير القول ، أى ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات قائلين : والله ليسجننه ، وقرئ : « لتسجننه » بالثناة الفوقية على الخطاب ، إما للعزیز ومن معه أو له وحده على طريق التعظيم . والآيات : قيل : هى القميص وشهادة الشاهد وقطع الأيدى . وقيل : هى البركات التى فتحها الله عليهم بعد وصول يوسف إليهم ، ولم يجد ذلك فيهم ، بل كانت امرأته هى الغالبة على رأيه ، الفاعلة لما يطابق هواها فى يوسف ، وإنفاذ ما تقدم منها من الوعيد له بقولها : ﴿ ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ . قيل : وسبب ظهور هذا الرأى لهم فى سجن يوسف أنهم أرادوا ستر القالة ، وكنتم ما شاع فى الناس ، من قصة امرأة العزیز معه . وقيل : إن العزیز قصد بسجنه الحيلولة بينه وبين امرأته ، لما علم أنها قد صارت بمكان من حبه لا تبالى معه بحمل نفسها عليه على أى صفة كانت ، ومعنى قوله : ﴿ حتى حين ﴾ إلى مدة غير معلومة كما قاله أكثر المفسرين . وقيل : إلى انقطاع ما شاع فى المدينة . وقال سعيد بن جبیر إلى سبع سنين . وقيل : إلى خمس . وقيل : إلى ستة أشهر ، وقد تقدم فى البقرة الكلام على تفسير الحين (١) . وحتى بمعنى إلى (٢) .

(١) عند قوله تعالى : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ [البقرة : ٣٦] .

(٢) كقوله تعالى : ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ [القدر : ٥] .

قوله : ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ فى الكلام حذف متقدم عليه ، والتقدير : وبدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجنته حتى حين فسجنوه . ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ ومع للمصاحبة ، وفتيان تثنية فتى ، وهذا يدل على أنهما عبدان له ، ويحتمل أن يكون الفتى اسماً للخادم وإن لم يكن مملوكاً . وقد قيل : إن أحدهما خباز الملك ، والآخر ساقيه وقد كانا وضعا للملك سما لما ضمن لهما أهل مصر مالا فى مقابلة ذلك ، ثم إن الساقى رجع عن ذلك وقال للملك : لا تأكل الطعام فإنه مسموم ، وقال الخباز : لا تشرب فإن الشراب مسموم ، فقال الملك للساقى : اشرب ، فشرب فلم يضره ، وقال للخباز : كل فأبى فجرب الطعام على حيوان فهلك مكانه فحبسهما ، وكان دخولهما السجن مع دخول يوسف . وقيل : قبله . وقيل : بعده . قال ابن جرير : إنهما سألا يوسف عن علمه فقال : إني أعبر الرؤيا فسألاه عن رؤياهما كما قص الله سبحانه : ﴿ قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا ﴾ أى رأيتنى ، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة ، والمعنى : إني أراني أعصر عنباً فسماه باسم ما يؤول إليه ؛ لكونه المقصود من العصر ، وفى قراءة ابن مسعود « أعصر عنباً » ، قال الأصمعى : أخبرنى المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابياً ومعه عنب ، فقال له : ما معك ؟ فقال : خمر . وقيل : معنى ﴿ أعصر خمرا ﴾ ، أى : عنب خمر ^(١) ، فهو على حذف مضاف ، وهذا الذى رأى هذه الرؤيا هو الساقى ، وهذه الجملة مستأنفة لتقدير سؤال ، وكذلك الجملة التى بعدها ، وهم : ﴿ وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا ﴾ ثم وصف الخبز هذا بقوله : ﴿ تأكل الطير منه ﴾ وهذا الرائي لهذه الرؤيا هو الخباز ثم قالاً ليوسف جميعاً بعد أن قصاً رؤياهما عليه ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ أى تأويل ما قصصناه عليك من مجموع المثلين أو بتأويل المذكور لك من كلامنا . وقيل : إن كل واحد منهما قال له ذلك عقب قص رؤياه عليه ، فيكون الضمير راجعاً إلى ما رآه كل واحد منهما . وقيل : إن الضمير فى تأويله موضوع موضع اسم الإشارة ، والتقدير بتأويل ذلك ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ أى من الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، وكذا قال الفراء : إن معنى ﴿ من المحسنين ﴾ : من العالمين الذين أحسنوا العلم ، وقال ابن إسحاق : من المحسنين إلينا ، إن فسرنا ذلك ، أو من المحسنين إلى أهل السجن ، فقد روى أنه كان ذلك .

وجملة : ﴿ قال لا يأتكما طعام ترزقانه إلا نبأكما بتأويله قبل أن يأتكما ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، ومعنى ذلك : أنه يعلم شيئاً من الغيب ، وأنه لا يأتيهما إلى السجن طعام إلا أخبرهما بما هيته قبل أن يأتيهما ، وهذا ليس من جواب سؤاليهما تعبير ما قصاه عليه ، بل جعله عليه السلام مقدمة قبل تعبيره لرؤياهما بياناً لعلو مرتبته فى العلم ، وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظن وتخمين ، فهو كقول عيسى عليه السلام : ﴿ وأنبئكم بما تاكلون ﴾ [آل عمران : ٤٩] وإنما قال يوسف عليه السلام لهما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر ، ومعنى ﴿ ترزقانه ﴾ :

يجرى عليهما من جهة الملك أو غيره ، والجملة صفة لطعام أو يرزقكما الله سبحانه ، والاستثناء بقوله : ﴿ إِنبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ مفرغ من أعم الأحوال ، أى لا يأتيكما طعام فى حال من الأحوال إلا حال ما نبأتكما ، أى بينت لكما ماهيته وكيفيته ، قبل أن يأتيكما ، وسماه تأويلاً بطريق المشاكلة ؛ لأن الكلام فى تأويل الرؤيا ، أو المعنى : إلا نبأتكما بما يؤول إليه الكلام من مطابقة ما أخبركما به للواقع .

والإشارة بقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ إلى التأويل ، والخطاب للسائلين له عن تعبير رؤياهما ﴿ مَا عَلِمَنِى رَبِّى ﴾ بما أوحاه إلىَّ وألهمنى إياه . لا من قبيل الكهانة والتنجيم ^(١) ونحو ذلك مما يكثر فيه الخطأ ، ثم بين لهما أن ذلك الذى ناله من هذه الرتبة العلية والعلوم الجمة هو بسبب ترك الملة التى لا يؤمن أهلها بالله ولا بالآخرة واتباعه لملة الأنبياء من آباءه فقال : ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ وهو كلام مستأنف يتضمن التعليل لما قبله ، والمراد بالترك : هو عدم التلبس بذلك من الأصل ؛ لا أنه قد كان تلبس به ثم تركه ، كما يدل عليه قوله : ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ ﴾ ، ثم وصف هؤلاء القوم بما يدل على تصلبهم فى الكفر وتهالكهم عليه ، فقال : ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أى هم مختصون بذلك دون غيرهم لإفراطهم فى الكفر بالله .

وقوله : ﴿ وَاتَّبَعْتُ ﴾ معطوف على ﴿ تَرَكْتُ ﴾ ، وسماهم آباء جميعاً ؛ لأن الأجداد آباء ، وقدم الجد الأعلى ، ثم الجد الأقرب ، ثم الأب لكون إبراهيم هو أصل هذه الملة التى كان عليها أولاده ، ثم تلقاها عنه إسحاق ، ثم يعقوب ، وهذا منه عليه السلام لترغيب صاحبيه فى الإيمان بالله ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ ﴾ أى ما صح لنا ذلك فضلاً عن وقوعه ، والضمير فى ﴿ لَنَا ﴾ له وللأنبياء المذكورين . والإشارة بقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ إلى الإيمان المفهوم من قوله : ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ ﴾ ، و ﴿ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ خبر اسم الإشارة ، أى ناشئ من تفضلات الله علينا ولطفه بنا بما يجعله لنا من النبوة المتضمنة للعصمة عن معاصيه ، ومن فضل الله على الناس كافة ببعثة الأنبياء إليهم وهدايتهم إلى ربهم ، وتبيين طرائق الحق لهم ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ الله سبحانه على نعمه التى أنعم بها عليهم ، فيؤمنون به ويوحدون ، ويعملون بما شرعه لهم .

قوله : ﴿ يَا صَاحِبِى السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ جعلهما مصاحبين للسجن لطول مقامهما فيه . وقيل المراد : يا صاحبي فى السجن ؛ لأن السجن ليس بمصاحب فيه ، وأن ذلك من باب ياسارق الليلة ، وعلى الأول يكون من باب قوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٤٢] ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [المائدة : ٢٩] والاستفهام للإنكار مع التقريع والتوبيخ .

ومعنى التفرق هنا هو التفرق فى الذوات والصفات والعدد أى : هل الأرباب المتفرقون فى

(١) الْمُنْجَمُ وَالْمُنْتَجَمُ : الذى ينظر فى النجوم يحسب مواقيتها وسيرها . اللسان ١٢ / ٥٧٠ .

ذواتهم ، المختلفون فى صفاتهم ، المتنافون فى عددهم خير لكما يا صاحبي السجن أم الله المعبود بحق ، المتفرد فى ذاته وصفاته ، الذى لا ضد له ولا ند ولا شريك ، القهار الذى لا يغالبه مغالب ، ولا يعانده معاند ؟

أورد يوسف عليه السلام على صاحبي السجن هذه الحجة القاهرة على طريق الاستفهام ؛ لأنهما كانا ممن يعبد الأصنام . وقد قيل : إنه كان بين أيديهما أصنام يعبدونها عند أن خاطبهما بهذا الخطاب ، ولهذا قال لهما : ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها ﴾ أى إلا أسماء فارغة سميتوها ولا مسميات لها ، وإن كنتم تزعمون أن لها مسميات ، وهى الآلهة التى تعبدونها لكنها لما كانت لا تستحق التسمية بذلك صارت الأسماء كأنها لا مسميات لها . وقيل : المعنى : ما تعبدون من دون الله إلا مسميات أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم من تلقاء أنفسكم ، وليس لها من الإلهية شئ إلا مجرد الأسماء لكونها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ، وإنما قال : ﴿ ما تعبدون ﴾ على خطاب الجمع ، وكذلك ما بعده من الضمائر ؛ لأنه قصد خطاب صاحبي السجن ومن كان على دينهم ، ومفعول سميتوها الثانى محذوف ، أى سميتوها آلهة من عند أنفسكم ﴿ ما أنزل الله بها ﴾ أى بتلك التسمية ﴿ من سلطان ﴾ من حجة تدل على صحتها ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أى ما الحكم إلا لله فى العباد ، فهو الذى خلقكم وخلق هذه الأصنام التى جعلتموها معبودة بدون حجة ولا برهان ، وجملة : ﴿ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ مستأنفة ، والمعنى : أنه أمركم بتخصيصه بالعبادة دون غيره عما تزعمون أنه معبود ، ثم بين لهم أن عبادته وحده دون غيره هى دين الله الذى لا دين غيره ، فقال : ﴿ ذلك ﴾ أى تخصيصه بالعبادة ﴿ الدين القيم ﴾ أى المستقيم الثابت ، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أن ذلك هو دينه القويم ، وصراطه المستقيم لجهلكم وبعدمكم عن الحقائق .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ﴾ فقال : ما سألتى عنها أحد قبلك ، من الآيات : قد القميص ، وأثرها فى جسده ، وأثر السكين ، وقالت امرأة العزيز : إن أنت لم تسجنه ليصدقته الناس . وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد قال : من الآيات : كلام الصبى . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : الآيات : حزن أيديهن ، وقد القميص .

وأقول : إن كان المراد بالآيات : الآيات الدالة على براءته فلا يصح عد قطع أيدي النسوة منها ؛ لأنه وقع منهن ذلك لما حصل لهن من الدهشة عند ظهوره لهن ، مع ما ألبسه الله سبحانه من الجمال ، الذى تنقطع عند مشاهدته عرى الصبر ، وتضعف عند رؤيته قوى التجلد ، وإن كان المراد : الآيات الدالة على أنه قد أعطى من الحسن ما يسلب عقول المبصرين ، ويذهب بإدراك الناظرين ، فنعم يصح عد قطع الأيدي من جملة الآيات ، ولكن ليس هذه الآيات هى المرادة هنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس قال عوقب يوسف ثلاث مرات : أما أول مرة فبالحبس لما كان من همه بها ، والثانية لقوله : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ عوقب بطول الحبس ، والثالثة حيث قال : ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ فاستقبل في وجهه : ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما ﴾ خازن الملك على طعامه ، والآخر ساقيه على شرابه . وأخرج ابن جرير عنه في قوله : ﴿ إني أراني أعصر خمرا ﴾ قال : عنبًا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ قال : عبارته . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ قال : كان إحسانه فيما ذكر لنا أنه كان يعزى حزينهم ، ويداوى مريضهم ، ورأوا منه عبادة واجتهادا فأحبوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقي في الشعب عن الضحاك قال : كان إحسانه أنه إذا مرض إنسان في السجن قام عليه ، وإذا ضاق عليه المكان أوسع له ، وإذا احتاج جمع له . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : دعا يوسف لأهل السجن فقال : اللهم لا تعم عليهم الأنخاب ، وهون عليهم مر الأيام .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله : ﴿ لا يأتیکما طعام ﴾ الآية قال : كره العبارة لهما فأجابهما بغير جوابهما ليريهما أنه عنده علمًا ، وكان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعامًا معلومًا فأرسل به إليه ، فقال يوسف : ﴿ لا يأتیکما طعام ترزقانه ﴾ إلى قوله : ﴿ يشكرون ﴾ فلم يدعه صاحبا الرؤيا حتى يعبر لهما ، فكره العبارة فقال : ﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون ﴾ إلى قوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ قال : إن المؤمن ليشكر ما به من نعمة الله ، ويشكر ما بالناس من نعم الله ، وذكر لنا أن أبا الدرداء كان يقول : يارب شاكر نعمة غير منعم عليه لا يدري ، ويارب حامل فقه غير فقيه . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ أأرباب متفرقون ﴾ الآية قال : لما عرف يوسف أن أحدهما مقتول دعاهما إلى حظهما من ربهما ، وإلى نصيبهما من آخرتهما . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج في قوله : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ قال : العدل ، فقال :

﴿ يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ

رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ

فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾ .

هذا هو بيان ما طلباه منه من تعبير رؤياهما ، والمراد بقوله : ﴿ أما أحدهما ﴾ هو الساقى ، وإنما أبهمه لكونه مفهوماً أو لكرهه التصريح للخبار بأنه الذى سيصلب ﴿ فيسقى ربه خمرا ﴾ أى مالكة ، وهى عهده التى كان قائما بها فى خدمة الملك ، فكأنه قال : أما أنت أيها الساقى فستعود إلى ما كنت عليه ، ويدعو بك الملك ويطلقك من الحبس ﴿ وأما الآخر ﴾ وهو الخبار ﴿ فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ تعبيراً لما رآه من أنه يحمل فوق رأسه خبزاً فتأكل الطير منه ﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ وهو ما رآه وقصاه عليه . يقال : استفتاه : إذا طلب منه بيان حكم شئ سألته عنه مما أشكل عليه ، وهما قد سألاه تعبير ما أشكل عليهما من الرؤيا .

﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منهما ﴾ أى قال يوسف ، والظان هو أيضاً يوسف . والمراد بالظن : العلم ؛ لأنه قد علم من الرؤيا نجاة الشرابى وهلاك الخبار ، هكذا قال جمهور المفسرين . وقيل : الظاهر على معناه ؛ لأن عابر الرؤيا إنما يظن ظناً والاول أولى وأنسب بحال الأنبياء ولا سيما وقد أخبر عن نفسه عليه السلام بأنه قد أطلعه الله على شئ من علم الغيب ، كما فى قوله : ﴿ لا يأتیکما طعام ترزقانه ﴾ الآية . وجملة : ﴿ اذكرنى عند ربك ﴾ هى مقول القول ، أمره بأن يذكره عند سيده ، ويصفه بما شاهده منه من جودة التعبير والاطلاع على شئ من علم الغيب ، وكانت هذه المقالة منه عليه السلام صادرة عن ذهول ونسيان عن ذكر الله بسبب الشيطان ، فيكون ضمير المفعول فى أنساه عائداً إلى يوسف ، هكذا قال بعض المفسرين ، ويكون المراد بربه فى قوله : ﴿ ذكر ربه ﴾ هو الله سبحانه ، أى إنساء الشيطان يوسف ذكر الله تعالى فى تلك الحال . ﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منهما ﴾ يذكره عند سيده ليكون ذلك سبباً لاتنباهه على ما أوقعه من الظلم البين عليه بسجنه بعد أن رأى من الآيات ما يدل على براءته .

وذهب كثير من المفسرين إلى أن الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو الذى نجا من الغلامين وهو الشرابى ، والمعنى : إنساء الشيطان الشرابى ذكر سيده ، أى ذكره لسيده فلم يبلغ إليه ما أوصاه به يوسف من ذكره عند سيده ، ويكون المعنى : فأنساه الشيطان ذكر إخباره بما أمره به يوسف مع خلوصه من السجن ، ورجوعه إلى ما كان عليه من القيام بسقى الملك ، وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء ، وأجيب بأن النسيان وقع من يوسف ، ونسبته إلى الشيطان على طريق المجاز ، والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلا فيما يخبرون به عن الله سبحانه ، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنما أنا بشر مثلكم ، أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكرونى » ^(١) ورجح أيضاً بأن النسيان ليس بذنب ، فلو كان الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه فى السجن بضع سنين ، وأجيب بأن النسيان هنا بمعنى الترك ؛ وأنه عوقب بسبب استعانته بغير الله سبحانه ، ويؤيد رجوع الضمير إلى

(١) البخارى فى الصلاة (٤٠١) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥٧٢ / ٨٩) كلاهما عن عبد الله بن

يوسف ما بعده من قوله : ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ ، ويؤيد رجوعه إلى الذي نجا من الغلامين قوله فيما سيأتى : ﴿ وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة ﴾ [يوسف: ٤٥] سنة .

﴿ فلبث ﴾ أى يوسف ﴿ فى السجن ﴾ بسبب ذلك القول الذى قاله للذى نجا من الغلامين ، أو بسبب ذلك الإنشاء ﴿ بضع سنين ﴾ البضع : ما بين الثلاث إلى التسع كما حكاه الهروى عن العرب ، وحكى عن أبى عبيدة أن البضع : ما دون نصف العقد . يعنى : ما بين واحد إلى أربعة . وقيل : ما بين ثلاث إلى سبع ، حكاه قطرب ، وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس . وقد اختلف فى تعيين قدر المدة التى لبث فيها يوسف فى السجن ، فقيل : سبع سنين . وقيل : اثنتا عشرة سنة . وقيل : أربع عشرة سنة . وقيل : خمس سنين .

وقد أخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله ﴿ أما أحدكما ﴾ قال : أتاه فقال : رأيت فيما يرى النائم أنى غرست حبة^(١) من عنب فنبت ، فخرج فيه عناقيد فعصرتهن ثم سقيتهن الملك فقال : تمكث فى السجن ثلاثة أيام ، ثم تخرج فتسقيه خمرًا . وأخرج ابن أبى شبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : ما رأى صاحباً يوسف شيئاً ، إنما تحالماً ليحرباً علمه ، فلما أول رؤياهما قالاً : إنما كنا نلعب ، ولم نر شيئاً فقال : ﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ يقول : وقعت العبارة فصار الأمر على ما عبر يوسف . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وأبو الشيخ عن أبى مجلز قال : كان أحد اللذين قصا على يوسف الرؤيا كاذبًا .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن سابط : ﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك ﴾ قال : عند ملك الأرض . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب العقوبات ، وابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لو لم يقل يوسف الكلمة التى قال ، ما لبث فى السجن طول ما لبث حيث يبتغى الفرج من عند غير الله »^(٢) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة مرفوعاً نحوه ، وهو مرسل^(٣) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعاً نحوه . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن مرفوعاً نحوه ، وهو مرسل^(٤) . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فذكر نحوه ، وهو مرسل أيضاً^(٥) .

(١) الحَبْلَة : طاق من قضبان الكرم . والحَبْلُ : شجر العنب واحده حَبْلَة . اللسان ١١ / ١٣٨ .

(٢) ابن جرير ١٢ / ١٣٢ والطبرانى (١١٦٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٤٢ ، ٤٣ : « وفيه إبراهيم بن يزيد القرشى المكى وهو متروك » ، وقال ابن كثير ٤ / ٢٩ : « وهذا الحديث ضعيف جداً ، لأن سفيان بن

وكيع ضعيف ، وإبراهيم بن يزيد هو الجوزى أضعف منه أيضاً ، وقد روى عن الحسن وقاتة مرسلًا عن كل منهما ، وهذه الرسائل هاهنا لا تقبل من قبل المرسل من حيث هو فى غير هذا الوطن والله أعلم » .

(٣) ابن جرير ١٢ / ١٣٢ . (٤) أحمد فى الزهد (٤١٧) وابن جرير ١٢ / ١٣٢ .

(٥) ابن جرير ١٢ / ١٣٢ . وسبق التعليق على هذه الرسائل بكلام لابن كثير فى تفسيره فليرجع إليه .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أنس قال : أوحى إلي يوسف : من استنقذك من القتل حين هم إخوتك أن يقتلوك ؟ قال : أنت يارب ، قال : فمن استنقذك من الجب إذ القوك فيه ؟ قال : أنت يارب . قال : فمن استنقذك من المرأة إذ همت بك ؟ قال : أنت يارب ، قال : فمالك نسيته ، وذكرت آدميا ؟ قال : جزعاً ، وكلمة تكلم بها لسانى ، قال : فوعزتى لأخلدنك فى السجن بضع سنين ، فلبث فيه سبع سنين . وقد اختلف السلف فى تقدير مدة لبثه فى السجن على حسب ما قدمنا ذكره . فلم نشغلها هنا بذكر من قال بذلك ومن خرجه .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ۞

المراد بالملك هنا : هو الملك الأكبر ، وهو الريان بن الوليد الذى كان العزيز وزيراً له ، رأى فى نومه لما دنا فرج يوسف عليه السلام أنه خرج من نهر يابس ﴿ سبع بقرات سمان ﴾ جمع سمين وسمينة فى إثرهن سبع عجاف أى مهازيل ، وقد أقبلت العجاف على السمان فأكلتهن ، والمعنى : إنى رأيت ، ولكنه عبر بالمضارع لاستحضار الصورة ، وكذلك قوله : ﴿ يأكلهن ﴾ عبر بالمضارع للاستحضار ، والعجاف جمع عجفاء ، وقياس جمعه عجف ؛ لأن فعلاء وأفعل لا تجمع على فعال ، ولكنه عدل عن القياس حملاً على سمان ﴿ سبع سنبلات ﴾ معطوف على سبع بقرات . والمراد بقوله : ﴿ خضر ﴾ أنه قد انعقد حبها ، واليابسات قد أدركت الخضر والتوت عليها حتى غلبتها ، ولعل عدم التعرض لذكر هذا فى النظم القرآنى للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات . ﴿ يأبها الملاء ﴾ خطاب للأشراف من قومه ﴿ أفتونى فى رؤياى ﴾ أى أخبرونى بحكم هذه الرؤيا ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ أى تعلمون عبارة الرؤيا ، وأصل العبارة مشتقة من عبور النهر فعنى عبرت النهر : بلغت شاطئه ، فعابر الرؤيا يخبر بما يؤول إليه أمرها . قال الزجاج : اللام فى : ﴿ للرؤيا ﴾ للتبيين ، أى إن كنتم تعبرون ثم بين فقال : ﴿ للرؤيا ﴾ وقيل : هو للتقوية ، وتأخير الفعل العامل فيه لرعاية الفواصل .

وجملة : ﴿ قالوا أضغاث أحلام ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، والأضغاث : جمع ضغث . وهو كل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ، والمعنى : أخاليط أحلام ، والأحلام : جمع حلم ، وهى الرؤيا الكاذبة التى لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس ووسواس الشيطان ، والإضافة بمعنى من ، وجمعوا الأحلام ولم يكن من الملك إلا رؤيا واحدة مبالغة منهم فى وضعها بالبطلان ، ويجوز أن يكون رأى مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصه الله علينا ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾^(١) قال الزجاج : المعنى : بتأويل الأحلام المختلطة ، نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له ، لا مطلق العلم بالتأويل . وقيل : إنهم نفوا عن أنفسهم علم التعبير مطلقاً ، ولم يدعوا أنه لا تأويل لهذه الرؤيا . وقيل : إنهم قصدوا محوها من صدر الملك حتى لا يشتغل بها ، ولم يكن ما ذكروه من نفى العلم حقيقة .

﴿ وقال الذى نجا منهما ﴾ أى من الغلامين وهو الساقى الذى قال له يوسف : ﴿ اذكرنى عند ربك ﴾ ، ﴿ وادكر بعد أمة ﴾ بالبدال المهملة على قراءة الجمهور ، وهى القراءة الفصيحة ، أى تذكر الساقى يوسف وما شاهده منه من العلم بتعبير الرؤيا ، وقرئ بالمعجمة ، ومعنى ﴿ بعد أمة ﴾ : بعد حين ، ومنه : ﴿ إلى أمة معدودة ﴾ [هود : ٨] . أى إلى وقت ، قال ابن درستويه^(٢) : والأمة لا تكون على الحين إلا على حذف مضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، كأنه قال والله أعلم : وادكر بعد حين أمة أو بعد زمن أمة والأمة : الجماعة الكثيرة من الناس ، قال الأخفش : هو فى اللفظ واحد وفى المعنى جمع ، وكل جنس من الحيوان أمة . وقرأ ابن عباس وعكرمة : « بعد أمه » بفتح الهمزة وتخفيف الميم ، أى بعد نسيان . ومنه قول الشاعر :

أَمِهْتُ وَكُنْتُ لَا أُنْسَى حَدِيثًا كَذَلِكَ الدَّهْرُ يُودِي بِالْعُقُولِ

ويقال : أمة يأمه أمها : إذا نسى . وقرأ الأشهب العقيلي « بعد إمّة » بكسر الهمزة ، أى بعد نعمة ، وهى نعمة النجاة . ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ أى أخبركم به بسؤالى عنه من له علم بتأويله وهو يوسف . ﴿ فأرسلون ﴾ خاطب الملك بلفظ التعظيم ، أو خاطبه ومن كان عنده من الملأ ، طلب منهم أن يرسلوه إلى يوسف ليقص عليه رؤيا الملك حتى يخبره بتأويلها فيعود بذلك إلى الملك .

﴿ يوسف أيها الصديق أفئنا ﴾ أى يا يوسف ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فأرسلوه إلى يوسف فسار إليه فقال له : ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ إلى آخر الكلام ، والمعنى : أخبرنا فى رؤيا من رأى سبع بقرات إلخ ، وترك ذكر ذلك اكتفاء بما هو واثق به من فهم يوسف بأن ذلك رؤيا ، وأن المطلوب منه تعبيرها ﴿ لعلنى أرجع إلى الناس ﴾ أى إلى الملك ومن عنده من

(١) الأحلام : جمع حلم ، والحلم (بالضم) ما يراه النائم .

(٢) هو عبد الله بن جعفر بن درستويه بن الرزيان : من علماء اللغة ، فارسى الأصل ، له تصانيف كثيرة ، توفى

الملا ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ ما تأتي به من تأويل هذه الرؤيا ، أو يعلمون فضلك ومعرفتك لفن التعبير .

وجملة : ﴿ قال تزرعون ﴾ إلخ مستأنفة جواب سؤال مقدر كغيرها مما يرد هذا المورد ﴿ سبع سنين دأبا ﴾ أى متوالية متتابعة ، وهو مصدر . وقيل : هو حال ، أى دائبين . وقيل : صفة لسبع ، أى دائبة . وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه قرأ « دأبًا » بتحريك الهمزة ، وكذا روى حفص عن عاصم وهما لغتان . قال الفراء : حرك لأن فيه حرفًا من حروف الخلق ، وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز فى كلمات معروفة ، فعبر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان بسبع سنين فيها خصب ، والعجاف بسبع سنين فيها جدد ، وهكذا عبر السبع السنبلات الخضر ، والسبع السنبلات اليابسات ، واستدل بالسبع السنبلات الخضر على ما ذكره فى التعبير من قوله : ﴿ فما حصدم فذرّوه فى سنبله ﴾ أى ما حصدم فى كل سنة من السنين المخصبة فذرّوا ذلك المحصود فى سنبله ولا تفصلوه عنها ؛ لئلا يأكله السوس إلا قليلا مما تأكلون فى هذه السنين المخصبة ، فإنه لا بد لكم من فصله عن سنبله وإخراجه عنها . واقتصر على استثناء المأكول دون ما يحتاجون إليه من البذر الذى يذرونه فى أموالهم ، لأنه قد علم من قوله : ﴿ تزرعون ﴾ .

﴿ ثم يأتى من بعد ذلك ﴾ أى من بعد السنين المخصبة ﴿ سبع شداد ﴾ أى سبع سنين مجدبة يضعب أمرها على الناس ﴿ يأكلن ما قدمتم لهن ﴾ من تلك الحبوب المتروكة فى سنبليها ، وإسناد الأكل إلى السنين مجاز ، والمعنى : يأكل الناس فيهن ، أو يأكل أهلهن ما قدمتم لهن أى ما ادخرتم لأجلهن ، فهو من باب نهاره صائم ، ومنه قول الشاعر (١) :

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورٌ سَهُوٌ وَغَفْلَةٌ وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَى لَكَ لَارِمٌ

﴿ إلا قليلا مما تحصنون ﴾ أى مما تحبسون من الحب لتزرعوا به ؛ لأن فى استبقاء البذر تحصين الأقوات . وقال أبو عبيدة : معنى ﴿ تحصنون ﴾ : تحرزون . وقيل : تدخرون والمعنى واحد .

قوله : ﴿ ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يفاث الناس وفيه يعصرون ﴾ أى من بعد السنين المجذبات ، فالإشارة إليها ، والعام : السنة ﴿ فيه يفاث الناس ﴾ من الإغاثة أو الغوث ، والغيث المطر ، وقد غاث الغيث : بالأرض ، أى أصابها ، وغاث الله البلاد يغيثها غوثًا : أمطرها ، فمعنى ﴿ يفاث الناس ﴾ : يمطرون ﴿ وفيه يعصرون ﴾ أى يعصرون الأشياء التى تعصر كالعنب والسّمسم والزيتون . وقيل : أراد حلب الألبان . وقيل : معنى ﴿ يعصرون ﴾ : ينجون ، مأخوذ من العصرة وهى المنجاة ، قال أبو عبيدة : والعصر بالتحريك :

(١) هو عبد الله بن عبد الأعلى بن أبى عمرة .

الملجأ والمنجاة ، ومنه قول الشاعر :

صَادِيًا يَسْتَغِيثُ غَيْرَ مُغَاثٍ وَلَقَدْ كَانَ عَصْرَةَ الْمُنْجُودِ

واعترضت بفلان : التجأت به ، وقرأ حمزة والكسائي : « تعصرون » بناء الخطاب ، وقرئ : « يعصرون » بضم حرف المضارعة وفتح الصاد ، ومعناه يمطرون ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا ﴾ [النبأ : ١٤] .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : قال يوسف للساقى : اذكرنى عند ربك ، أى الملك الأعظم ، ومظلمتى وحبسى فى غير شئ ، فقال : أفعل ، فلما خرج الساقى رد على ما كان عليه ، ورضى عنه صاحبه ، وأنساه الشيطان ذكر الملك الذى أمره يوسف أن يذكره له ، فلبث يوسف بعد ذلك فى السجن بضع سنين . ثم إن الملك ريان بن الوليد رأى رؤياه التى أرى فيها فهالته ، وعرف أنها رؤيا واقعة ، ولم يدر ما تأويلها ، فقال للملأ حوله من أهل مملكته : ﴿ إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعُ سُنْبُلَاتٍ خَضَرٌ وَأُخْرٍ يَابَسَاتٍ ﴾ فلما سمع من الملك ما سمع منه ومسألته عن تأويلها ، ذكر يوسف ما كان عبر له ولصاحبه ، وما جاء من ذلك على ما قال ، فقال : أنا أنبئكم بتأويله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ يقول : مشبهة . وأخرج أبو يعلى وابن جرير عنه قال : من الأحلام الكاذبة . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله .

وأخرج عبد الرزاق والفرىابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَادْكُرْ بَعْدَ أَمَةٍ ﴾ قال : بعد حين . وأخرج ابن جرير عن مجاهد والحسن وعكرمة وعبد الله بن كثير والسدى مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : بعد سنين . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : بعد أمة من الناس .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ أَفْتَنَّا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ ﴾ الآية قال : أما السمان فسنون فيها خصب ، وأما العجاف فسنون مجدبة ، وسبع سنبلات خضر هى السنون المخاصيب ، تخرج الأرض نباتها وزرعها وثمارها ، وآخر يابسات : المحول الجُدُوب لا تنبت شيئاً . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره ، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترطت عليهم أن يخرجونى ، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبأدرتهم الباب ، ولكنه أراد أن يكون له العذر » (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مَّا تَحْصَنُونَ ﴾ يقول :

تخزنون . وفى قوله : ﴿ وفيه يعصرون ﴾ يقول : الأعناب والذهن . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ فيه يغاث الناس ﴾ يقول : يصيبهم فيه غيث . ﴿ وفيه يعصرون ﴾ يقول : يعصرون فيه العنب ، ويعصرون فيه الزبيب ، ويعصرون من كل الثمرات وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا ﴿ وفيه يعصرون ﴾ قال : يحتلبون . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أيضا ﴿ ثم يأتى من بعد ذلك عام ﴾ قال : أخبرهم بشئ لم يسألوه عنه كأن الله قد علمه إياه ، فيه يغاث الناس بالمطر وفيه يعصرون السمسم دهناً ، والعنب خمراً والزيتون زيتاً .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ اثْنُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ٥٠ ﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنْ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ٥١ ﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ٥٢ ﴾ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥٣ ﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ اثْنُونِي بِهِ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٥٤ ﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ٥٥ ﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ٥٦ ﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ٥٧ ﴾ .

قوله : ﴿ وقال الملك اثنوني به ﴾ فى الكلام حذف قبل هذا ، والتقدير : فذهب الرسول إلى الملك فأخبره بما أخبره به يوسف من تعبير تلك الرؤيا ، وقال الملك لمن بحضرته : ﴿ اثنوني به ﴾ أى بيوسف ، رغب إلى رؤيته ومعرفة حاله ، بعد أن علم من فضله ما علمه ، من وصف الرسول له ، ومن تعبيره لرؤياه . ﴿ فلما جاءه ﴾ أى جاء إلى يوسف ﴿ الرسول ﴾ واستدعاه إلى حضرة الملك ، وأمره بالخروج من السجن ﴿ قال ﴾ يوسف للرسول : ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ أى سيدك ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ أمره بأن يسأل الملك عن ذلك ، وتوقف عن الخروج من السجن ، ولم يسارع إلى إجابة الملك ، ليظهر للناس براءة ساحته ونزاهة جانبه ، وأنه ظلم بكيد امرأة العزيز ظلماً بيئاً ، ولقد أعطى عليه السلام من الحلم والصبر والأناة ما تضيق الأذهان عن تصوره ، ولهذا ثبت فى الصحيح من قوله ﷺ : «لولا لبث فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى» (١) يعنى الرسول الذى جاء يدعوه إلى

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٩٤) . ومسلم فى الإيمان (٢٣٨/١٥١) .

الملك . قال ابن عطية : هذا الفعل من يوسف أناة وصبراً ، وطلباً لبراءة ساحته ، وذلك أنه خشى أن يخرج وينال من الملك مرتبة ، ويسكت عن أمر ذنبه فيراه الناس بتلك العين يقولون : هذا الذى راود امرأة العزيز . وإنما قال : ﴿ فاسأله ما بال النسوة ﴾ وسكت عن امرأة العزيز رعاية لزمام الملك العزيز ، أو خوفاً منه من كيدها وعظيم شرها ، وذكر السؤال عن تقطيع الأيدى ولم يذكر مراودتهن له تنزهاً عن نسبة ذلك إليهن ؛ ولذلك لم ينسب المراودة فيما تقدم إلى امرأة العزيز إلا بعد أن رمت بدائها وانسلت ، وقد اكتفى هنا بالإشارة الإجمالية بقوله : ﴿ إن ربى بكيدهن عليم ﴾ فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهن مغنياً عن التصريح .

وجملة : ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال الملك بعد أن أبلغه الرسول ما قال يوسف ؟ والخطب : الشأن العظيم الذى يحق له أن يخاطب فيه صاحبه خاصة ، والمعنى : ما شأنكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟ وقد تقدم معنى المراودة ، وإنما نسب إليهن المراودة ، لأن كل واحدة منهن وقع منها ذلك كما تقدم ، ومن جملة ما شمله خطاب الملك امرأة العزيز أو أراد بنسبة ذلك إليهن وقوعه منهن فى الجملة كما كان من امرأة العزيز تحاشياً عن التصريح منه بنسبة ذلك إليها لكونها امرأة وزيره وهو العزيز ، فأجبن عليه بقولهن : ﴿ قلن حاش لله ﴾ أى معاذ الله ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ أى من أمر سيئ ينسب إليه فعند ذلك ﴿ قالت امرأة العزيز ﴾ منزهة لجانبه مقرة على نفسها بالمراودة له ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ أى تبين وظهر ، وأصله : حص ، فقيل : حصحص كما قيل فى كبو : ﴿ فككبوا ﴾ [الشعراء : ٩٤] قاله الزجاج ، وأصل الحص : استئصال الشيء ، يقال : حص شعره ، إذا استأصله ، ومنه قول أبى قيس بن الأسلت :

قد حصت البيضة رأسى فما
أطعم نوماً غير تهجاع

والمعنى : أنه انقطع الحق عن الباطل بظهوره وبيانه ، ومنه :

فمن مبلغني خدأشاً فإنه
كذوب إذا ما حصحص الحق ظالم

وقيل : هو مشتق من الحصّة ، والمعنى : بانت حصّة الباطل . قال الخليل : معناه : ظهر الحق بعد خفائه ، ثم أوضحت ذلك بقولها : ﴿ أنا راودته عن نفسه ﴾ ولم تقع منه المراودة لى أصلاً ﴿ وإنه لمن الصادقين ﴾ فيما قاله من تبرئة نفسه ، ونسبة المراودة إليها ، وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام .

قوله : ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ﴾ : ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا من كلام يوسف عليه السلام قال الفراء : ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر ، إذا دلت القرينة الصارفة إلى كل منهما إلى ما يليق به ، والإشارة إلى الحادثة الواقعة منه ، وهى تثبته وتأنيه ، أى فعلت ذلك ليعلم العزيز أنى لم أخنه فى أهله بالغيب ، والمعنى : بظهر الغيب ، والجار

والمجورور فى محل نصب على الحال ، أى وهو غائب عنى ، أو وأنا غائب عنه ، قيل : إنه قال ذلك وهو فى السجن بعد أن أخبره الرسول بما قالته النسوة ، وما قالته امرأة العزيز . وقيل : إنه قال ذلك وقد صار عند الملك والأول أولى ، وذهب الأقلون من المفسرين إلى أن هذا من كلام امرأة العزيز ، والمعنى : ذلك القول الذى قلته فى تنزيهه ، والإقرار على نفسى بالمرادة ليعلم يوسف أنى لم أخنه ؛ فأنسب إليه ما لم يكن منه ، وهو غائب عنى ، أو وأنا غائبة عنه ، والإقرار على نفسى به . ﴿ وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾ أى لا يثبت ويسدده أو لا يهديهم فى كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له تأثير يثبت به ويدوم ، وإذا كان من قول يوسف ففيه تعريض بامرأة العزيز ، حيث وقع منها الكيد له والخيانة لزوجها . وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه بعد أن علم براءته ونزاهته .

﴿ وما أبرئ نفسى ﴾ إن كان من كلام يوسف فهو من باب الهضم للنفس ، وعدم التزكية بها مع أنه قد علم هو وغيره من الناس أنه برئ ، وظهر ذلك ظهور الشمس ، وأقرت به المرأة التى ادعت عليه الباطل ، ونزته النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، وإن كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على الحقيقة ؛ لأنها قد أقرت بالذنب ، واعترفت بالمرادة وبالاقتراء على يوسف . وقد قيل : إن هذا من قول العزيز وهو بعيد جداً ومعناه : وما أبرئ نفسى من سوء الظن بيوسف والمساعدة على حبسه بعد أن علمت ببراءته ﴿ إن النفس لأماراة بالسوء ﴾ أى إن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله إلى الشهوات ، وتأثيرها بالطبع ، وصعوبة قهرها ، وكفها عن ذلك . ﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ أى إلا من رحم من النفوس فعصمها عن أن تكون أماراة بالسوء ، أو إلا وقت رحمة ربي وعصمته لها ، وقيل : الاستثناء منقطع ، والمعنى : لكن رحمة ربي هى التى تكفها عن أن تكون أماراة بالسوء ، وجملة : ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ تعليل لما قبلها ، أى إن من شأنه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم .

قوله : ﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ الملك هو الريان بن الوليد لا العزيز كما تقدم . ومعنى ﴿ أستخلصه لنفسي ﴾ : أجعله خالصاً لى دون غيرى وقد كان قبل ذلك خالصاً للعزيز ، والاستخلاص طلب خلوص الشئ من شوائب الشركة ، قال ذلك لما كان يوسف نفسياً ، وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم ﴿ فلما كلمه ﴾ فى الكلام حذف وتقديره : فأتوه به ، فلما كلمه ، أى فلما كلم الملك يوسف ، ويحتمل أن يكون المعنى : فلما كلم يوسف الملك ، قيل : والأول أولى ؛ لأن مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء إلا هم دون من يدخل عليهم . وقيل : الثانى أولى ؛ لقول الملك : ﴿ قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ فإن هذا يفيد أنه لما تكلم يوسف فى مقام الملك جاء بما حبه إلى الملك ، وقربه من قلبه ، فقال هذه المقالة ، ومعنى ﴿ مكين ﴾ : ذو مكانة وأمانة بحيث يتمكن مما يريده من الملك ويأمنه الملك على ما يطلع عليه من أمره ، أو على ما يكله إليه من ذلك . قيل : إنه لما وصل إلى الملك أجلسه على سريره ، وقال له : إني أحب أن أسمع منك تعبير رؤياى ،

فعبها له بأكمل بيان وأتم عبارة ، فلما سمع الملك منه ذلك قال له : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

فلما سمع يوسف منه ذلك قال : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ وهى الأمكنة التى تخزن فيها الأموال . طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل ، ورفع الظلم ، ويتوصل به إلى دعاء أهل مصر إلى الإيمان بالله ، وترك عبادة الأوثان .

وفيه دليل على أنه يجوز لمن وثق من نفسه إذا دخل فى أمر من أمور السلطان أن يرفع منار الحق ، ويهدم ما أمكنه من الباطل ، وطلب ذلك لنفسه ، ويجوز له أن يصف نفسه بالأوصاف التى لها ، ترغيبا فيما يرومه ، وتنشيطا لمن يخاطبه من الملوك بإلقاء مقاليد الأمور إليه ، وجعلها منوطة به ، ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن نبينا ﷺ من النهى عن طلب الولاية والمنع من تولية من طلبها ^(١) ، أو حرص عليها . والخزائن جمع خزانة . وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشيء ، والحفيظ : الذى يحفظ الشيء ، أى ﴿ إِنِّى حَفِیْظٌ ﴾ لما جعلته إلى من حفظ الأموال لا أخرجها فى غير مخرجها ، ولا أصرفها فى غير مصارفها ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بوجوه جمعها وتفريقها ومدخلها ومخرجها .

﴿ وكذلك مكنا ليوسف ﴾ أى ومثل ذلك التمكين العجيب مكنا ليوسف فى الأرض ، أى جعلنا له مكانا ، وهو عبارة عن كمال قدرته ، ونفوذ أمره ونهيه ، حتى صار الملك يصدر عن رأيه ، وصار الناس يعملون على أمره ونهيه ﴿ يَتَّبِعُونَ أَمْرَهُ حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ أى ينزل منها حيث أراد ويتخذ مباءة ، وهو عبارة عن كمال قدرته كما تقدم ، وكأنه يتصرف فى الأرض التى أمرها إلى سلطان مصر ، كما يتصرف الرجل فى منزله ، وقرأ ابن كثير بالنون ، وقد استدل بهذه الآية على أنه يجوز تولى الأعمال من جهة السلطان الجائر ، بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق ، وقد قدمنا الكلام على هذا مستوفيا فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [هود : ١١٣] ﴿ نَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءٍ ﴾ من العباد فنرحمه فى الدنيا بالإحسان إليه ، والإنعام عليه ، وفى الآخرة بإدخاله الجنة وإنجائه من النار ﴿ وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فى أعمالهم الحسنة التى هى مطلوب الله منهم ، أى لا نضيع ثوابهم فيها ، ومجازاتهم عليها ﴿ وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ ﴾ أى أجرهم فى الآخرة وأضيف الأجر إلى الآخرة للملابسة ، وأجرهم هو الجزاء الذى يجازيهم الله به فيها ، وهو الجنة التى لا ينفد نعيمها ولا تنقضى مدتها ﴿ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله ﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الوقوع فيما حرمه عليهم ، والمراد بهم : المحسنون المتقدم ذكرهم ، وفيه تنبيه على أن الإحسان المعتد به : هو الإيمان والتقوى

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ قال : أراد يوسف العذر

(١) عن عبد الرحمن بن سمره : قال لى رسول الله ﷺ : « يا عبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة ؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها » . مسلم فى الإمارة (١٦٥٢ / ١٣) .

قبل أن يخرج من السجن: وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب عنه قال: لما قالت امرأة العزيز: أنا راودته، قال يوسف: ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ فغمزه جبريل فقال: ولا حين هممت بها؟ فقال ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا ﴿ حصحص الحق ﴾ قال: تبين. وأخرج ابن جرير عن مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد والسدي مثله. وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن حكيم بن حزام في قوله: ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ فقال له جبريل ولا حين حللت السراويل؟ فقال عند ذلك: ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾.

وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله: ﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ قال: فاتاه الرسول فقال: ألق عنك ثياب السجن، والبس ثياباً جددًا وقم إلى الملك فدعا له أهل السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة، فلما أتاه رأى غلامًا حدثًا، فقال: أيعلم هذا رؤيائي ولا يعلمها السحرة والكهنة. وأقعداه قدامه وقال: لا تخف وألبسه طوقًا من ذهب وثياب حرير، وأعطاه دابة مسروجة مزينة كدابة الملك، وضرب الطبل بمصر: إن يوسف خليفة الملك. وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: قال الملك ليوسف: إني أحب أن تخالطني في كل شيء إلا في أهلي، وأنا آنف أن تأكل معي، فغضب يوسف، وقال: أنا أحق أن آنف؛ أنا ابن إبراهيم خليل الله، وأنا ابن إسحاق ذبيح الله (١)، وأنا ابن يعقوب نبي الله.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن شيبه بن نعام الضبي (٢) في قوله: ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ يقول: على جميع الطعام ﴿ إني حفيظ ﴾ لما استودعته ﴿ عليم ﴾ بسنى المجاعة. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ قال: ملكناه فيها يكون فيها حيث يشاء من تلك الدنيا يصنع فيها ما يشاء. وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم: أن يوسف تزوج امرأة العزيز فوجدها بكرًا وكان زوجها عنيًا.

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنَرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا

(١) سبق التنبيه على أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

(٢) هو شيبه بن نعام الضبي أبو نعام: ضعفه يحيى بن معين. وقال ابن حبان: « لا يجوز الاحتجاج به ».

رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴿

قوله : ﴿ وجاء إخوة يوسف ﴾ أى جاؤوا إلى مصر من أرض كنعان ليبتاعوا (١) لما أصابهم القحط ﴿ فدخلوا ﴾ على يوسف ﴿ فعرفهم ﴾ لأنه فارقهم رجالاً ﴿ وهم له منكرون ﴾ لأنهم فارقوه صبيّاً يباع بالدرهم فى أيدي السيارة بعد أن أخرجه من الحب ، ودخلوا عليه الآن وهو رجل عليه أبهة الملك ، ورونق الرئاسة ، وعنده الخدم والحشم . وقيل : إنهم أنكروه لكونه كان فى تلك الحال على هيئة ملك مصر ، ولبس تاجه وتطوق بطوقه . وقيل : كانوا بعيداً منه فلم يعرفوه . وقيل غير ذلك .

﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾ المراد به هنا أنه أعطاهم ما طلبوه من الميرة ، وما يصلحون به سفرهم من العدة التى يحتاجها المسافر ، يقال : جهزت القوم تجهيزاً إذا تكلفت لهم جهازاً للسفر . قال الأزهرى : القراء كلهم على فتح الجيم ، والكسر لغة جيدة ﴿ قال اثتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ قيل : لابد من كلام ينشأ عنه طلبه لهم بأن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، فروى أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم : ما أنتم وما شأنكم فإنى أنكركم فقالوا : نحن قوم من أهل الشام جئنا غنّار ولنا أب شيخ صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب قال : كم أنتم ؟ قالوا : عشرة ، وقد كنا اثنى عشر فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك ، وكان أحبنا إلى أبينا وقد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه هو باق لديه ، يتسلى به ، فقال لهم حيثئذ : ﴿ اثتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ يعنى : أخاه « بنيامين » الذى تقدم ذكره ، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه ، فوعده بذلك ، فطلب منهم أن يتركوا أحدهم رهينة عنده حتى يأتوه بالأخ الذى طلبه ، فاقترعوا فأصابته القرعة « شمعون » فخلّفوه عنده ، ثم قال لهم : ﴿ ألا ترون أنى أوفى الكيل ﴾ أى أتممه ، وجاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على أن ذلك عادته المستمرة ، ثم أخبرهم بما يزيدهم وثوقاً به وتصديقاً لقوله ، فقال : ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ أى والحال أنى خير المنزلين لمن نزل بى كما فعلته بكم من حسن الضيافة ، وحسن الإنزال . قال الزجاج : قال يوسف : ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ لأنه حين أنزلهم أحسن ضافتهم .

(١) الميرة : الطعام يمتاره الإنسان ، وقد مار أهله أى أتاهاهم بالطعام ، ومنه قولهم : « ما عنده خير ولا مير » .

ثم توعدهم إذا لم يأتوه به فقال : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون ﴾ أى فلا أبيعكم شيئاً فيما بعد ، وأما فى الحال فقد أوفاهم كيلهم ، ومعنى لا تقربون : لا تدخلون بلادى فضلاً عن أن أحسن إليكم . وقيل : معناه : لا أنزلكم عندى كما أنزلتكم هذه المرة ، ولم يرد أنهم لا يقربون بلاده و﴿ تقربون ﴾ مجزوم إما على أن « لا » ناهية أو على أنها نافية وهو معطوف على محل الجزاء داخل فى حكمه كأنه قال : فإن لم تأتونى تحرموا ولا تقربوا .

فلما سمعوا منه ذلك وعدوه بما طلبه منهم ، قالوا : ﴿ سنراود عنه أباه ﴾ أى سنطلبه منه ، ونجتهد فى ذلك بما نقدر عليه . وقيل : معنى الراودة هنا : المخادعة منهم لأبيهم والاحتيال عليه حتى يبتزعه منه ﴿ وإنا لفاعلون ﴾ هذه الراودة غير مقصرين فيها . وقيل : معناه : وإنا لقادرون على ذلك ، لا نتعانى به ولا نتعاضمه .

﴿ وقال لفتياناه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم من رواية شعبة وابن عامر : « لفتيته » واختار هذه القراءة أبو حاتم والنحاس وغيرهما ، وقرأ سائر الكوفيين : ﴿ لفتياناه ﴾ واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وفى مصحف عبد الله بن مسعود كالقراءة الأخيرة قال النحاس : ﴿ لفتياناه ﴾ مخالف للسواد الأعظم ، ولا يترك السواد المجمع عليه لهذا الإسناد المنقطع ، وأيضاً : فإن فتية أشبه من « فتيان » ، لأن فتية عند العرب لأقل العدد وأمر القليل بأن يجعلوا البضاعة فى الرحال أشبه ، والجملة مستأنفة جواب سؤال ، كأنه قيل : فما قال يوسف بعد وعدهم له بذلك فأجيب بأنه قال لفتيته . قال الزجاج : الفتية والفتيان فى هذا الموضع : المماليك . وقال الثعلبى : هما لغتان جيدتان ، مثل الصبيان والصبية . والمراد بالبضاعة هنا هى التى وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام ، وكانت نعالاً وأدمًا ، فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلاً عليهم . وقيل : فعل ذلك ليرجعوا إليه مرة أخرى لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمن . قاله الفراء . وقيل : فعل ذلك ليستعينوا بها على الرجوع إليه لشراء الطعام . وقيل : إنه استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام .

ثم علل يوسف عليه السلام ما أمر به من جعل البضاعة فى رحالهم بقوله : ﴿ لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم ﴾ فجعل علة جعل البضاعة فى الرحال هى معرفتهم لها إذا انقلبوا إلى أهلهم ، وذلك لأنهم لا يعلمون برد البضاعة إليهم إلا عند تفريغ الأوعية التى جعلوا فيها الطعام ، وهم لا يفرغونها إلا عند الوصول إلى أهلهم ، ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم ، المفعولة فى رحالهم بقوله : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ فإنهم إذا عرفوا ذلك وعلموا أنهم أخذوا الطعام بلا ثمن وأن ما دفعوه عوضاً عنه قد رجع إليهم ، وتفضل به من وصلوا إليه عليهم ؛ نشطوا إلى العود إليه ؛ ولا سيما مع ما هم فيه من الجذب الشديد ، والحاجة إلى الطعام وعدم وجوده لديهم ، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم إلى الرجوع وبهذا يظهر أن يوسف عليه السلام لم يرد البضاعة إليهم إلا لهذا المقصد ، وهو رجوعهم إليه ، فلا يتم تعليل ردها

بغير ذلك ، والرحال : جمع رجل ، والمراد به هنا : ما يستصحبه الرجل معه من الاثاث . قال الواحدى : الرحل كل شىء معد للرحيل من وعاء للمتاع ، ومركب للبعر ، ومجلس ورسن انتهى . والمراد هنا : الأوعية التى يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام . قال ابن الأنبارى : يقال للوعاء : رحل ، ولليت : رحل .

﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل ﴾ أرادوا بهذا ما تقدم من قول يوسف لهم : ﴿ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ﴾ أى منع منا الكيل فى المستقبل وفيه دلالة على أن الامتياز مرة بعد مرة معهود فيما بينهم وبينه ، ولعلمهم قالوا له بهذه المقالة قبل أن يفتحوا متاعهم ويعلموا برد بضاعتهم كما يفيد ذلك قوله فيما بعد : ﴿ ولما فتحو متاعهم ﴾ إلى آخره ثم ذكروا له ما أمرهم به يوسف ، فقالوا : ﴿ فأرسل معنا أخانا ﴾ يعنون بنيامين ، و ﴿ نكتل ﴾ جواب الأمر ، أى نكتل بسبب إرساله معنا ما نريده من الطعام . قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وابن عامر وعاصم : ﴿ نكتل ﴾ بالنون ، وقرأ سائر الكوفيين بالياء التحتية ، واختار أبو عبيد القراءة الأولى . قال : ليكونوا ^(١) كلهم داخلين فيمن يكتال ، وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده ، أى يكتال أخونا بنيامين ، واعترضه النحاس مما حاصله : أن إسناد الكيل إلى الأخ لا ينافى كونه للجميع ، والمعنى : يكتال بنيامين لنا جميعاً . قال الزجاج : أى إن أرسلته اكتلنا وإلا منعنا الكيل ﴿ وإنا له ﴾ أى لأخيهم بنيامين ﴿ لحافظون ﴾ من أن يصيبه سوء أو مكروه .

وجملة : ﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كما تقدم فى نظائر ذلك فى مواضع كثيرة ، والمعنى : أنه لا يأمنهم على بنيامين إلا كما آمنهم على أخيه يوسف ، وقد قالوا له فى يوسف : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ كما قالوا هنا : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ ثم خانوه فى يوسف فهو إن آمنهم فى بنيامين خاف أن يخونوه فيه كما خانوه فى يوسف ﴿ فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ﴾ لعل هنا إضمار والتقدير : فتوكل يعقوب على الله ودفعه إليهم ، وقال : ﴿ فالله خير حافظا ﴾ قرأ أهل المدينة : « حفظاً » وهو منتصب على التمييز . وهى قراءة أبى عمرو وعاصم وابن عامر ، وقرأ سائر الكوفيين : ﴿ حافظا ﴾ وهو منتصب على الحال . وقال الزجاج : على البيان يعنى التمييز ، ومعنى الآية : أن حفظ الله إياه خير من حفظهم له ، لما وكل يعقوب حفظه إلى الله سبحانه وحفظه وأرجعه إليه ، ولما قال فى يوسف : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ وقع له من الامتحان ما وقع .

﴿ ولما فتحو متاعهم ﴾ أى أوعية الطعام أو ما هو أعم من ذلك مما يطلق عليه لفظ المتاع سواء كان الذى فيه طعاماً أو غير طعام ﴿ وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ﴾ أى البضاعة التى حملوها إلى مصر ليمتاروا بها ، وقد تقدم بيانها . وجملة : ﴿ قالوا يا أبانا ﴾ مستأنفة كما

(١) فى المطبوعة : « ليكونون » والصحيح ما أثبتته من المخطوطة .

تقدم ﴿ ما نبغى ﴾ : « ما » استفهامية ، والمعنى : أى شىء نطلب من هذا الملك بعد أن صنع معنا ما صنع من الإحسان برد البضاعة والإكرام عند القدوم إليه ، وتوفير ما أردناه من الميرة ؟ ويكون الاستفهام للإنكار ، وجملة : ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ مقررة لما دل عليه الاستفهام من الإنكار لطلب شىء مع كونها قد ردت إليهم . وقيل : إن « ما » فى ﴿ ما نبغى ﴾ نافية ، أى ما نبغى فى القول ، وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وإكرامه لنا ، ثم برهنوا على ما لقوه من التزيد فى وصف الملك بقولهم : ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ فإن من تفضل عليهم برد ذلك حقيق بالثناء عليه منهم ، مستحق لما وصفوه به .

ومعنى ﴿ ونغير أهلكنا ﴾ : نجلب إليهم الميرة وهى الطعام ، والمائر الذى يأتى بالطعام . وقرأ السلمي بضم النون ، وهو معطوف على مقدر يدل عليه السياق ، والتقدير : هذه بضاعتنا ردت إلينا فنحن نستعين بها على الرجوع ، ونغير أهلكنا . « ونحفظ أخانا ﴾ بنيامين مما تخافه عليه ﴿ ونزداد ﴾ بسبب إرساله معنا ﴿ كيل بعير ﴾ أى حمل بعير زائد على ما جئنا به هذه المرة ، لأنه كان يكال لكل رجل وقر بعير ومعنى ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ أن زيادة كيل بعير لأخيها يسهل على الملك ، ولا يمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيراً لا يتعاضمه ولا يضايقنا فيه . وقيل : إن المعنى : ذلك المكيل لأجلنا قليل ، نريد أن ينضاف إليه حمل بعير لأخيها ، واختار الزجاج الأول . وقيل : إن هذا من كلام يعقوب جواباً على ما قاله أولاده ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ يعنى : إن حمل بعير شىء يسير لا يخاطر لأجله بالولد ، وهو ضعيف ؛ لأن جواب يعقوب هو ﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتونا موثقاً من الله ﴾ أى حتى تعطونى ما أثق به ، وأركن إليه من جهة الله سبحانه ، وهو الحلف به واللام فى : ﴿ لتأتنى به ﴾ جواب القسم ؛ لأن معنى ﴿ حتى تؤتونا موثقاً من الله ﴾ : حتى تحلفوا بالله لتأتنى به ، أى لتردن بنيامين إلى .

والاستثناء بقوله : ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ هو من أعم العام ؛ لأن ﴿ لتأتنى به ﴾ وإن كان كلاماً مثبتاً فهو فى معنى النفى ، فكأنه قال : لا تمنعون من إتيانى به فى حال من الأحوال لعل من العلل إلا لعل الإحاطة بكم ، والإحاطة مأخوذة من إحاطة العدو ، ومن أحاط به العدو فقد غلب أو هلك . فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنيامين إلا أن تغلبوا عليه أو تهلكوا دونه فيكون ذلك عذراً لكم عندى ﴿ فلما آتوه موثقهم ﴾ أى أعطوه ما طلبه منهم من اليمين ﴿ قال الله على ما نقول وكيل ﴾ ^(١) أى : قال يعقوب : الله على ما قلناه من طلبى الموثق منكم وإعطائكم لى ما طلبته منكم مطلع رقيب لا يخفى عليه منه خافية فهو المعاقب لمن خاس فى عهده ، وفجر فى الحلف به أو موكل إليه القيام بما شهد عليه منا .

(١) هذه الآية أصل فى جوار الكفالة بالعين والوثيقة بالنفس ، وقد اختلف العلماء فى ذلك ، فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء : « هى جائزة إذا كان المحتمل به مالا » ، وقد ضعف الشافعى الحمالة بالوجه فى المال وله قول كقول مالك . القرطبي ٩ / ٢٢٥ .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن إخوة يوسف لما دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون جاء بصواع الملك الذي كان يشرب فيه فوضعه على يده فجعل ينقره ويطن ، وينقره ويطن فقال : إن هذا الجام ليخبرني عنكم خيراً ، هل كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف ؟ وكان أبوه يحبه دونكم ، وإنكم انطلقتم به فالفيتموه في الحب ، وأخبرتم أباكم أن الذئب أكله ، وجئتم على قميصه بدم كذب ؟ قال : فجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويعجبون . وأخرج أبو الشيخ عن وهيب قال : لما جعل يوسف ينقر الصواع ويخبرهم ، قام إليه بعض إخوته فقال : أنشدك بالله أن لا تكشف لنا عورة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ اثبتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ قال : يعنى بنيامين وهو أخو يوسف لأبيه وأمه . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ قال : خير من يضيف بمصر .

وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿ لفتيانه ﴾ أى لغلماناه ﴿ اجعلوا بضاعتهم ﴾ أى أوراقهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ يقولون : ما نبغى وراء هذا ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ أى حمل بعير . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ قال : حمل حمار ، قال : وهى لغة . قال أبو عبيد : يعنى هذا أن الحمار يقال له فى بعض اللغات : بعير .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ قال : تهلكوا جميعاً ؛ وفى قوله : ﴿ فلما آتوه موثقهم ﴾ قال : عهدهم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ قال : إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك .

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمَهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٨) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ (٧١) قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ

أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ .

لما تجهز أولاد يعقوب للمسير إلى مصر خاف عليهم أبوهم أن تصيبهم العين ؛ لكونهم كانوا ذوى جمال ظاهر ، وثياب حسنة ، مع كونهم أولاد رجل واحد ، فنهاهم أن يدخلوا مجتمعين من باب واحد ؛ لأن فى ذلك مظنة لإصابة الأعين لهم ، وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة ولم يكتبف بقوله : ﴿ لا تدخلوا من باب واحد ﴾ عن قوله : ﴿ وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ لأنهم لو دخلوا من باين مثلا كانوا قد امثلوا النهى عن الدخول من باب واحد ، ولكنه لما كان فى الدخول من باين مثلاً نوع اجتماع يخشى معه أن تصيبهم العين ، أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة ، قيل : وكانت أبواب مصر أربعة .

وقد أنكر بعض المعتزلة كأبى هاشم ^(١) ، والبلخى ^(٢) ، أن للعين تأثيراً ، وقالوا : لا يمتنع أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به كانت المصلحة له فى تكليفه أن يغير الله ذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف معلقاً به ، وليس هذا بمستنكر من هذين وأتباعهما ، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم ، وأى مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك ؟

وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق ^(٣) ، وأصيب بها جماعة فى عصر النبوة ، ومنهم رسول الله ﷺ ، وأعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الإزراء على من يعمل بالدليل المخالف لمجرد الاستبعاد العقلى والتنطع فى العبارات كالزمخشري فى تفسيره ، فإنه فى كثير من المواطن لا يقف على دفع الشرع بالاستبعاد الذى يدعيه على العقل حتى يضم إلى ذلك الوقاحة فى العبارة على وجه يوقع المقصرين فى الأقوال الباطلة ، والمذاهب الزائفة ، وبالجملة فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة وإجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفاً وخلفاً وبما هو مشاهد فى الوجود ، فكم من شخص من هذا النوع الإنسانى وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب .

وقد اختلف العلماء فىمن عرف بالإصابة بالعين ، فقال قوم : يمنع من الاتصال بالناس دفعاً لضرره بحبس أو غيره من لزوم بيته . وقيل : ينفى ، وأبعد من قال : إنه يقتل ، إلا إذا

(١) هو عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي ، من كبار المعتزلة عاش ما بين عامى ٢٤٧ - ٣٢١ هـ .
وفيات الأعيان ١ / ٩٢ .

(٢) أحمد بن سهل أبو زيد البلخى : صاحب التصانيف المشهورة . قال النديم : « كان فاضلاً فى علوم كثيرة » .
ويقال له : جاحظ زمانه ، وكان يرمى بالإلحاد ، وذكر الفخر الرازى أنه طعن فى عدة أحاديث صحيحة .
وقد بالغ أبو حيان التوحيدي فى إطرائه والرفع من قدره . لسان الميزان ١ / ١٩٦ .

(٣) روى أبو هريرة رضى الله عنه : عن النبى ﷺ قال : « العين حق » البخارى فى الطب (٥٧٤٠) .

كان يعتمد ذلك ، وتتوقف إصابته على اختياره وقصده ، ولم ينزجر عن ذلك ، فإنه إذا قتل كان له حكم القاتل .

ثم قال يعقوب لأولاده : ﴿ وما أغنى عنكم من الله من شيء ﴾ أى لا أدفع عنكم ضرراً ، ولا أجلب إليكم نفعاً بتدبيرى هذا ، بل ما قضاه الله عليكم فهو واقع لا محالة . قال الزجاج وابن الأنبارى : لو سبق فى علم الله أن العين تهلكهم مع الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم . وقال آخرون : ما كان يغنى عنهم يعقوب شيئاً قط ؛ حيث أصابهم ما أصابهم مع تفرقهم ، من إضافة السرقة إليهم ، ثم صرح يعقوب بأنه لا حكم إلا لله سبحانه فقال : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ لا غيره ولا يشاركه فيه مشارك فى ذلك ﴿ عليه توكلت ﴾ فى كل إيراد وإصدار لا على غيره ، أى اعتمدت ووثقت ﴿ وعليه ﴾ لا على غيره ﴿ فليتوكل المتوكلون ﴾ على العموم ، ويدخل فيه أولاده دخولاً أولياً .

﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾ أى من الأبواب المتفرقة ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد وجواب لما ﴿ ما كان يغنى عنهم ﴾ ذلك الدخول ﴿ من الله ﴾ أى من جهته ﴿ من شيء ﴾ من الأشياء مما قدره الله عليهم لأن الحذر لا يدفع القدر ، والاستثناء بقوله : ﴿ إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ﴾ منقطع ، والمعنى : ولكن حاجة فى نفس يعقوب ، وهى شفقتة عليهم ، ومحبة لسلامتهم ، قضاها يعقوب ، أى أظهرها لهم ، ووصاهم بها غير معتقد أن للتدبير الذى دبره لهم تأثيراً فى دفع ما قضاه الله عليهم . وقيل : إنه خطر ببال يعقوب أن الملك إذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم من كمال الخلقة ، وسيما الشجاعة أوقع بهم حسداً وحقدًا أو خوفاً منهم ، فأمرهم بالتفرق لهذه العلة . وقد اختار هذا النحاس وقال : لا معنى للعين ها هنا . وفيه أن هذا لو كان هو السبب لأمرهم بالتفرق ، ولم يخص النهى عن ذلك بالاجتماع عند الدخول من باب واحد ؛ لأن هذا الحسد أو الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة ، كما يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد . وقيل : إن الفاعل فى ﴿ قضاها ﴾ ضمير يعود إلى الدخول لا إلى يعقوب ، والمعنى : ما كان الدخول يغنى عنهم من جهة الله شيئاً ، ولكنه قضى ذلك الدخول حاجة فى نفس يعقوب لوقوعه حسب إرادته ﴿ وإنه لدوعلم لما علمناه ﴾ أى وإن يعقوب لصاحب علم لأجل تعليم الله إياه بما أوحاه الله من أن الحذر لا يدفع القدر ، وأن ما قضاه الله سبحانه فهو كائن لا محالة . ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ بذلك كما ينبغى . وقيل : لا يعلمون أن الحذر مندوب إليه ، وإن كان لا يغنى من القدر شيئاً ، والسياق يدفعه . وقيل : المراد بأكثر الناس : المشركون .

﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ﴾ أى ضم إليه أخاه بنيامين ، قيل : إنه أمر بإنزال كل اثنين فى منزل فبقى أخوه منفرداً فضمه إليه ﴿ وقال إني أنا أخوك ﴾ يوسف ، قال له ذلك سرّاً من دون أن يطلع عليه إخوته ﴿ فلا تبئس ﴾ أى فلا تحزن ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ أى إخوتك من الأعمال الماضية التى عملوها . وقيل : إنه لم يخبره بأنه يوسف ، بل قال له :

إني أخوك مكان أخيك يوسف فلا تحزن بما كنت تلقاه منهم من الجفاء حسداً وبغياً . وقيل : إنه أخبره بما سيدبره معهم من جعل السقاية فى رحله . فقال : لا أبالى . وقيل : إنه لما أخبر يوسف أخاه بنيامين بأنه أخوه قال : لا تردنى إليهم فقال : قد علمت اغتنام أبينا يعقوب ، فإذا حبستك عندى ازداد غمه ، فأتى بنيامين فقال له يوسف : لا يمكن حبسك عندى إلا بأن أنسبك إلى مالا يجمل بك ، فقال : لا أبالى فدرس الصاع فى رحله ، وهو المراد بالسقاية وأصلها المشربة التى يشرب بها ، جعلت صاعاً يكال به . وقيل : كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحب . وقيل : كانت من فضة . وقيل : كانت من ذهب . وقيل : غير ذلك . وقد تقدم تفسير الجهاز والرحل ، والمعنى : أنه جعل السقاية التى هى الصواع ^(١) فى رحل أخيه الذى هو الوعاء الذى يجعل فيه ما يشتريه من الطعام من مصر ﴿ ثم ﴾ بعد ذلك ﴿ أذن مؤذن ﴾ أى نادى مناد قائلاً : ﴿ أيتها العير ﴾ قال الزجاج : معناه : يا أصحاب العير ، وكل ما امتير عليه من الإبل والحميز والبغال فهو عير . وقال : هى قافلة الحمير . وقال أبو عبيدة : العير الإبل المرحولة المركوبة ﴿ إنكم لسارقون ﴾ نسبة السرقة إليهم على حقيقتها ؛ لأن المنادى غير عالم بما دبره يوسف . وقيل : إن المعنى : إن حالكم حال السارقين كون الصواع صار لديكم من غير رضا من الملك .

﴿ قالوا ﴾ أى إخوة يوسف ﴿ وأقبلوا عليهم ﴾ أى حال كونهم مقبلين على من نادى منهم المنادى من أصحاب الملك ﴿ ماذا تفقدون ﴾ أى ما الذى فقدتموه ؟ يقال : فقدت الشيء : إذا عدمته بضياىع أو نحوه ، فكأنهم قالوا : ماذا ضاع عليكم ؟ وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة ﴿ قالوا ﴾ فى جوابهم ﴿ نفقد صواع الملك ﴾ قرأ يحيى بن يعمر : « صواع » بالغين المعجمة ، وقرأ أبو رجاء : « صُوع » بضم الصاد المهملة وسكون الواو بعدها عين مهملة ، وقرأ أبى : « صياع » وقرأ أبو جعفر : « صاع » وبها قرأ أبو هريرة ، وقرأ الجمهور : ﴿ صواع ﴾ بالصاد والعين المهملتين ، قال الزجاج : الصواع : هو الصاع بعينه . وهو يذكر ويؤنث ، وهو السقاية ، ومنه قول الشاعر :

نشرب الخمر بالصواع جهارا

﴿ ولئن جاء به حمل بعير ﴾ أى قالوا : ولن جاء بالصواع من جهة نفسه حمل بعير ، والبعير : الجمل ، وفى لغة بعض العرب أنه الحمار . والمراد بالحمل ها هنا : ما يحمله البعير من الطعام ، ثم قال المنادى : ﴿ وأنا به زعيم ﴾ أى بحمل البعير الذى جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للأوعية ، والزعيم هو الكفيل ، ولعل القائل : ﴿ نفقد صواع الملك ﴾ هو المنادى ، وإنما نسب القول إلى الجماعة لكونه واحدا منهم ، ثم رجع الكلام إلى نسبة القول إلى المنادى وحده ؛ لأنه القائل بالحقيقة .

(١) فى المطبوعة : « التى هو الصواع » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض ﴾ التاء بدل من واو القسم عند الجمهور . وقيل : من الباء . وقيل : أصل بنفسها ، ولا تدخل إلا على هذا الاسم الشريف دون سائر أسمائه سبحانه ، وقد دخلت نادراً على الرب ، وعلى الرحمن ، والكلام على هذا مستوفى فى علم الإعراب ، وجعلوا المقسم عليه هو علم يوسف وأصحابه بنزاهة جانبهم ، وطهارة ذيلهم ، عن التلوث بقدر الفساد فى الأرض ، الذى من أعظم أنواعه السرقة . لأنهم قد شاهدوا منهم فى قدومهم عليه المرة الأولى ، وهذه المرة من التعفف والزهد عما هو دون السرقة ؛ بمراحل ما يستفاد منه العلم الجازم بأنهم ليسوا بمن يتجارأ على هذا النوع العظيم من أنواع الفساد ، ولو لم يكن من ذلك إلا ردهم لبضاعتهن التى وجدوها فى رحالهم ، والمراد بالأرض هنا : أرض مصر . ثم أكدوا هذه الجملة التى أقسموا بالله عليها بقولهم : ﴿ وما كنا سارقين ﴾ لزيادة التبرى مما قذفوه به ، والتنزه عن هذه النقيصة الخسيسة والرذيلة الشنعاء .

﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ هذه الجملة مستأنفة كما تقدم غير مرة فى نظائرها . والقائلون : هم أصحاب يوسف ، أو المنادى منهم وحده كما مر ، والضمير فى ﴿ جزاؤه ﴾ للصواع على حذف مضاف أى فما جزاء سرقة الصواع عندكم ، أو الضمير للسارق ، أى فما جزاء سارق الصواع عندكم ﴿ إن كنتم كاذبين ﴾ فيما تدعونه لأنفسكم من البراءة عن السرقة ، وذلك بأن يوجد الصواع معكم ، فأجاب إخوة يوسف وقالوا : ﴿ جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ﴾ أى جزاء سرقة الصواع ، أو جزاء سارق الصواع ، وجزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية وهى : ﴿ من وجد فى رحله فهو جزاؤه ﴾ خبر المبتدأ ، على إقامة الظاهر مقام المضمر فيها والأصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو ، فيكون الضمير الثانى عائداً إلى المبتدأ ، والاول إلى « من » ، ويجوز أن يكون خبر المبتدأ : ﴿ من وجد فى رحله ﴾ ، والتقدير : جزاء السرقة للصواع أخذ من وجد فى رحله ، وتكون جملة : ﴿ فهو جزاؤه ﴾ لتأكيد الجملة الاولى ، وتقريرها . قال الزجاج : وقوله : ﴿ فهو جزاؤه ﴾ زيادة فى البيان أى جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير . قال المفسرون : وكان حكم السارق فى آل يعقوب أن يسترَق سنة ، فلذلك استفتوهم فى جزائه ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الظالمين لغيرهم من الناس بسرقة أمتعتهم ، وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها إذا كانت من كلام إخوة يوسف ، ويجوز أن تكون من كلام أصحاب يوسف ، أى كذلك نحن نجزي الظالمين بالرق (١) .

ثم لما ذكروا جزاء السارق أرادوا أن يفتشوا أمتعتهم حتى يتبين الأمر ، فأقبل يوسف على ذلك ، فبدأ بتفتيش ﴿ أوعيتهم ﴾ أى أوعية الإخوة العشرة ﴿ قبل وعاء أخيه ﴾ أى قبل تفتيشه لوعاء أخيه بنيامين دفْعاً للتهمة ورفعاً لما دبره من الحيلة ﴿ ثم استخرجها ﴾ أى السقاية أو الصواع ؛ لأنه يذكر ويؤنث ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ أى مثل ذلك الكيد العجيب كدنا ليوسف : يعنى علمناه إياه وأوحيناه إليه ، والكيد مبدؤه السعى فى الحيلة والخديعة ،

(١) فى المطبوعة : « بالسرق » والصحيح ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

ونهايته إلقاء المخدوع من حيث لا يشعر فى أمر مكروه لا سبيل إلى دفعه ، وهو محمول فى حق الله سبحانه على النهاية لا على البداية ، قال القتيبي : معنى ﴿ كدنا ﴾ : دبرنا ، وقال ابن الأنبارى : أردنا ، وفى الآية دليل على جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعاً ثابتاً .

﴿ ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك ﴾ أى ما كان يوسف ليأخذ أخاه بنيامين فى دين الملك ، أى ملك مصر ، وفى شريعته التى كان عليها ، بل كان دينه وقضاؤه أن يضرب السارق ويغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة ، كما هو دين يعقوب وشريعته ، وحاصله أن يوسف ما كان يتمكن من إجراء حكم يعقوب على أخيه مع كونه مخالفاً لدين الملك وشريعته ، لولا ما كاد الله له ودبره وأراد به حتى وجد السبيل إليه ، وهو ما أجراه على ألسن إخوته من قولهم : إن جزاء السارق الاسترقاق ، فكان قولهم هذا هو بمشيئة الله وتدبيره وهو معنى قوله : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ أى إلا حال مشيئته وإذنه بذلك وإرادته له ، وهذه الجملة ، أعنى : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه ﴾ إلخ ، تعليل لما صنعه الله من الكيد ليوسف ، أو تفسير له ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما رفعنا درجة يوسف بذلك ﴿ وفوق كل ذى علم ﴾ ممن رفعه الله بالعلم ﴿ عليم ﴾ أرفع رتبة منهم وأعلى درجة لا يبلغون مداه ، ولا يرتقون شأوه . وقيل : معنى ذلك : أن فوق كل أهل العلم عليم وهو الله سبحانه .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد ﴾ قال : رهب يعقوب عليهم العين . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب قال : خشى عليهم العين . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وأبو الشيخ عن النخعى فى قوله : ﴿ وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ قال أحب يعقوب أن يلقي يوسف أخاه فى خلوة .

وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ﴾ قال : خيفة العين على بنيه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾ قال : إنه لعامل بما علم ، ومن لا يعمل لا يكون عالماً . وأخرج هؤلاء عنه فى قوله : ﴿ آوى إليه أخاه ﴾ قال : ضمه إليه ، وفى قوله : ﴿ فلا تبئس ﴾ قال : لا تحزن ولا تيأس ، وفى قوله : ﴿ فلما جهزهم بجهازهم ﴾ قال : قضى حاجتهم ، وكال لهم طعامهم ، وفى قوله : ﴿ جعل السقاية ﴾ قال : هو إناء الملك الذى يشرب منه ﴿ فى رحل أخيه ﴾ قال : فى متاع أخيه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف عن ابن عباس فى قوله : ﴿ جعل السقاية ﴾ قال : هو الصواع ، وكل شئ يشرب منه فهو صواع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد نحوه أيضاً . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ أَيْتَهَا الْعِير ﴾ قال : كانت العير حميراً . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ وَلَمِنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِير ﴾ قال : حمل حمار طعام وهى لغة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيم ﴾ يقول : كفيل . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ مَا جِئْنَا لِنَفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يقول : ماجئنا لنعصى فى الأرض . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ قال : عرفوا الحكم فى حكمهم فقالوا : ﴿ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ وكان الحكم عند الأنبياء يعقوب وبنيه أن يؤخذ السارق بسرقة عبداً يسترق . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ ﴾ قال : ذكر لنا أنه كان كلما فتح متاع رجل استغفر تأثماً . مما صنع حتى بقى متاع الغلام ، قال : ما أظن أن هذا أخذ شيئاً قالوا : بلى فاستبره .

وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ ﴾ قال : كذلك صنعنا ليوسف ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ يقول : فى سلطان الملك ، قال : كان فى دين ملكهم أنه من سرق أخذت منه السرقة ومثلها معها من ماله فيعطيه المسروق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ يقول : فى سلطان الملك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ قال : إلا بركة كادها الله ليوسف فاعتل بها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ قال : يوسف وإخوته أوتوا علماً فرفعنا يوسف فى العلم فوقهم درجة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : كنا عند ابن عباس فحدث بحديث ، فقال رجل عنده : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ فقال ابن عباس : بشى ما قلت . الله العليم الخبير وهو فوق كل عالم . وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال : سأل رجل علياً عن مسألة ، فقال فيها ، فقال الرجل : ليس هكذا ولكن كذا وكذا قال على : أصبت وأخطأت ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن عكرمة فى قوله : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ قال : علم الله فوق كل علم .

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ

أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ

أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَالُمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتِيسَاوَا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴿

قوله : ﴿ قالوا إن يسرق ﴾ أى بنيامين ﴿ فقد سرق أخ له من قبل ﴾ يعنون يوسف . وقد اختلف المفسرون فى هذه السرقة التى نسبوها إلى يوسف ما هى ؟ فقيل : إنه كان ليوسف عمه هى أكبر من يعقوب وكانت عندها منطقة إسحاق لكونها أسن أولاده وكانوا يتوارثونها فيأخذها الأكبر سنًا ، من ذكر أو أنثى ، وكانت قد حضنت يوسف وأحبته حبًا شديدًا ، فلما ترعرع قال لها يعقوب : سلمى يوسف إلى فأشفقت من فراقه ، واحتالت فى بقاءه لديها ، فجعلت المنطقة تحت ثيابه وحزمت به ، ثم قالت : قد سرقت منطقة إسحاق فانظروا من سرقتها ، فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف فأخذته عندها كما هو شرع الأنبياء فى ذلك الوقت من آل إبراهيم وقد سبق بيان شريعتهم فى السرقة . وقيل : إن يوسف أخذ صنمًا كان لجدّه — أبى أمه — فكسره وألقاه على الطريق تغييرًا للمنكر . وحكى عن الزجاج أنه كان صنمًا من ذهب . وحكى الواحدى عن الزجاج أنه قال : الله أعلم ، أسرق أخ له أم لا ؟ وحكى القرطبى فى تفسيره عن الزجاج أنه قال كذبوا عليه فيما نسبوه إليه ، قلت : وهذا أولى ، فما هذه الكذبة بأول كذباتهم ، وقد قدمنا ما يدفع قول من قال : إنهم قد كانوا أنبياء عند صدور هذه الأمور منهم .

قوله : ﴿ فأسرها يوسف فى نفسه ﴾ قال الزجاج وغيره : الضمير فى أسرها يعود إلى الكلمة أو الجملة كأنه قيل : فأسر الجملة فى نفسه ﴿ ولم ييدها لهم ﴾ ثم فسرهما بقوله : ﴿ قال أنتم شر مكانا ﴾ وقد رد أبو على الفارسى هذا فقال : إن هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمل . وقيل : الضمير عائد إلى الإجابة ، أى أسر يوسف إجابتهم فى ذلك الوقت إلى وقت آخر ، وقيل : أسر فى نفسه قولهم : ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ وهذا هو الأولى ، ويكون معنى ﴿ ولم ييدها لهم ﴾ : أنه لم يبد لهم هذه المقالة التى أسرها فى نفسه بأن يذكر لهم صحتها ، أو بطلانها ، وجملة : ﴿ قال أنتم شر مكانا ﴾ مفسرة على القول الأول ، ومستأنفة على القولين الآخرين ، كأنه قيل : فماذا قال يوسف لما قالوا هذه المقالة ؟ أى ﴿ أنتم شر مكانا ﴾ أى موضعًا ومنزلًا ممن نسبتموه إلى السرقة وهو برىء ؛ فإنكم قد فعلتم ما فعلتم من إلقاء يوسف إلى الحب ، والكذب على أبيكم وغير ذلك من أفاعيلكم

ثم قال : ﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ من الباطل بنسبة السرقة ^(١) إلى يوسف ، وأنه لا حقيقة لذلك .

ثم أرادوا أن يستعطفوه ليطلق لهم أخاهم بنيامين يكون معهم يرجعون به إلى أبيهم لما تقدم من أخذه الميثاق عليهم بأن يردوه إليه فقالوا : ﴿ يأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا ﴾ أى إن لبنيامين هذا أبا متصفاً بهذه الصفة ، وهى كونه شيخا كبيراً لا يستطيع فراقه ، ولا يصبر عنه ، ولا يقدر على الوصول إليه ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ يبقى لديك . فإن له منزلة فى قلب أبيه ليست لواحد منا فلا يتضرر بفراق أحدنا كما يتضرر بفراق بنيامين ، ثم عللوا ذلك بقوله : ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ إلى الناس كافة وإلينا خاصة ، فنعم إحسانك إلينا بإجابتنا إلى هذا المطلب ، فأجاب يوسف عليهم بقوله : ﴿ معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ أى نعوذ بالله معاذاً . فهو مصدر منصوب بفعل محذوف ، والمستعذ بالله هو المعتصم به ، وأن نأخذ منصوب بنزع الخافض ، والأصل من أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، وهو بنيامين لأنه الذى وجد الصواع فى رحله فقد حل لنا استعباده بفتواكم التى أفتيتموها بقولكم : ﴿ جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ﴾ ﴿ إنا إذا لظالمون ﴾ أى إنا إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده لظالمون فى دينكم وما تقتضيه فتواكم .

﴿ فلما استياسوا منه ﴾ أى يشوا من يوسف وإسعافهم منه إلى مطلبهم الذى طلبوه ، والسين والتاء للمبالغة ﴿ خلصوا نجيا ﴾ أى انفردوا حال كونهم متناجين فيما بينهم ، وهو مصدر يقع على الواحد والجمع كما فى قوله : ﴿ وقربناه نجيا ﴾ [مريم : ٥٢] قال الزجاج : معناه : انفردوا وليس معهم أخوهم متناجين فيما يعملون به فى ذهابهم إلى أبيهم من غير أخيهيم ﴿ قال كبيرهم ﴾ قيل : هو « روبيل » لأنه الأسن . وقيل : « يهوذا » لأنه الأوفر عقلاً . وقيل : « شمعون » لأنه رئيسهم ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ﴾ أى عهداً من الله فى حفظ ابنه ورده إليه ، ومعنى كونه من الله أنه بإذنه ﴿ ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ﴾ معطوف على ما قبله والتقدير ألم تعلموا أن أباكم وتعلموا تفريطكم فى يوسف ذكر هذا النحاس وغيره ، و ﴿ من قبل ﴾ متعلقة بـ ﴿ تعلموا ﴾ ، أى وتعلموا تفريطكم فى يوسف من قبل ، على أن « ما » مصدرية ، ويجوز أن تكون زائدة . وقيل : ﴿ ما فرطتم ﴾ مرفوع المحل على الابتداء وخبره ﴿ من قبل ﴾ وقيل : إن « ما » موصولة ، أو موصوفة ، وكلاهما فى محل نصب أو الرفع ، وما ذكرناه هو الأولى ، ومعنى ﴿ فرطتم ﴾ : قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه . ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ يقال : برح براحاً وبروحاً ، أى زال ، فإذا دخله النفى صار مثبتاً ، أى لن أبرح من الأرض بل ألزمها ولا أزال مقيماً فيها ﴿ حتى يأذن لى أبى ﴾ فى مفارقتها والخروج منها . وإنما قال ذلك لأنه يستحى من أبيه أن يأتى إليه بغير ولده الذى أخذ عليهم الموثق بإرجاعه إليه إلا أن يحاط بهم كما تقدم ﴿ أو يحكم الله لى ﴾ بمفارقتها والخروج منها . وقيل : المعنى : أو يحكم الله لى بخلاص أخى من الأسر حتى يعود

(١) فى المطبوعة : « السراق » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

إلى أبى أعود معه . وقيل : المعنى : أو يحكم الله لى بالنصر على من أخذ أخى فأحاربه وأخذ أخى منه ، أو أعجز فأنصرف بعد ذلك ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ لأن أحكامه لا تجرى إلا على ما يوافق الحق ، ويطابق الصواب .

ثم قال كبيرهم مخاطباً لهم : ﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق ﴾ : قرأ الجمهور : ﴿ سرق ﴾ على البناء للفاعل ، وذلك لأنهم قد شاهدوا استخراج الصواع من وعائه ، وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو رزين على البناء للمفعول ، وروى ذلك النحاس عن الكسائي . قال الزجاج : إن سرق يحتمل معنيين : أحدهما علم منه السرق ، والآخر اتهم بالسرق ﴿ وما شهدنا إلا بما علمنا ﴾ من استخراج الصواع من وعائه . وقيل : المعنى : ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شريعتك وشريعة آبائك ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ حتى يتضح لنا هل الأمر على ما شهدناه أو على خلافه ؟ وقيل : المعنى : ما كنا وقت أخذنا له منك ليخرج ^(١) معنا إلى مصر للغيب حافظين بأنه سيقع منه السرق الذى افترضنا به . وقيل : الغيب هو : الليل ، ومرادهم أنه سرق وهم نيام . وقيل : مرادهم أنه فعل ذلك وهو غائب عنهم ، فخفى عليهم فعله .

﴿ واسأل القرية التى كنا فيها ﴾ هذا من تمام قول كبيرهم لهم أى قولوا لأبيكم : اسأل القرية التى كنا فيها أى مصر ، والمراد أهلها ، أى اسأل أهل القرية . وقيل : هى قرية من قرى مصر نزلوا فيها وامتاروا منها . وقيل : المعنى : واسأل القرية نفسها وإن كانت جماداً فإنك نبى الله ، والله سبحانه سينطقها فتجيبك ، وما يؤيد هذا أنه قال سبيوه : لا يجوز كلم هنذا وأنت تريد غلام هند ﴿ والعرير التى أقبلنا فيها ﴾ أى وقولوا لأبيكم : اسأل العير التى أقبلنا فيها أى أصحابها وكانوا قومًا معروفين من جيران يعقوب . ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فيما قلنا . جاؤا بهذه الجملة مؤكدة هذا التأكيد ؛ لأن ما قد تقدم منهم مع أبيهم يعقوب يوجب كمال الريبة فى خبرهم هذا عند السامع .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ قال : يعنون يوسف . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : سرق مكحلة لحالته . يعنى : يوسف . وأخرج أبو الشيخ عن عطية قال : سرق فى صباه ميلين من ذهب وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « سرق يوسف صنما لجده - أبى أمه - من ذهب وفضة فكسره وألقاه على الطريق فعيه بذلك إخوته » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير مثله غير مرفوع ^(٢) . وقد روى نحوه جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فأسرها يوسف فى نفسه ﴾ قال : أسر فى نفسه قوله : ﴿ أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون ﴾ وأخرج عبد

(١) فى المطبوعة : « ليخرج » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) ابن جرير ١٣ / ٢١ .

الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة مثله .

وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق فى قوله : ﴿ فلما استيأسوا منه ﴾ قال : أيسوا منه ، ورأوا شدته فى أمره . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ خلصوا نجيا ﴾ قال : وحدهم . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ قال كبيرهم ﴾ قال : « شمعون » الذى تخلف ، أكبرهم عقلاً ، وأكبر منه فى الميلاد « روبيل » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : كبيرهم هو « روبيل » وهو الذى كان نهاهم عن قتله ، وكان أكبر القوم . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ أو يحكم الله لى ﴾ قال : أقاتل بسيفى حتى أقتل . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن أبى صالح نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة : ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ قال : ما كنا نعلم أن ابنك يسرق . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ واسأل القرية ﴾ قال : يعنون مصر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة مثله .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْأَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾

قوله : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ أى رينت ، والأمر هنا قولهم : ﴿ إن ابنك سرق ﴾ وما سرق فى الحقيقة . وقيل : المراد بالأمر إخراجهم بنيامين والمضى به إلى مصر طلباً للمنفعة فعاد ذلك بالمضرة . وقيل : التسويل : التخيل ، أى خيلت لكم أنفسكم أمراً لا أصل له . وقيل : الأمر الذى سولت لهم أنفسهم : فتياهم بأن السارق يؤخذ بسرقة ، والإضراب هنا هو باعتبار ما أثبتوه من البراءة لأنفسهم لا باعتبار أصل الكلام فإنه صحيح . والجملة مستأنفة مبنية على سؤال مقدر كغيرها ، وجملة : ﴿ فصبر جميل ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف ، أى فأمرى صبر جميل ، أو فصبر جميل أجمل بى ، وأولى لى . والصبر الجميل : هو الذى لا ييوح صاحبه بالشكوى ، بل يُفَوِّضُ أمره إلى الله

ويسترجع وقد ورد أن الصبر عند أول الصدمة ﴿ عسى الله أن يأتيني بهم جميعا ﴾ أى بيوسف وأخيه بنيامين ، والأخ الثالث الباقي بمصر وهو كبيرهم كما تقدم ، وإنما قال هكذا ؛ لأنه قد كان عنده أن يوسف لم يمت ، وأنه باق على الحياة وإن غاب عنه خبره ﴿ إنه هو العليم ﴾ بحالى ، ﴿ الحكيم ﴾ فيما يقضى به . ﴿ وتولى عنهم ﴾ أى أعرض عنهم ، وقطع الكلام معهم وقال : ﴿ يا أسفا على يوسف ﴾ قال الزجاج : الأصل يا أسفى . فأبدل من الياء ألفاً لحقة الفتحة والأسف شدة الجزع . وقيل : شدة الحزن ، ومنه قول كثير :

فَيَا أَسْفًا لِلْقَلْبِ كَيْفَ انْصَرَفُهُ وَلِلنَّفْسِ لَمَّا سَلَّيْتُ فَتَسَلَّتْ

قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبلغه بسبب فراقه ليوسف ، وانضمام فراقه لأخيه بنيامين . وبلوغ ما بلغه من كونه أسيراً عند ملك مصر ، فتضاعفت أحزانه ، وهاج عليه الوجد القديم بما أثاره من الخبر الأخير ، وقد روى عن سعيد بن جبير أن يعقوب لم يكن عنده ما ثبت فى شريعتنا من الاسترجاع ، والصبر على المصائب ، ولو كان عنده ذلك لما قال : ﴿ يا أسفا على يوسف ﴾ ومعنى المناداة للأسف : طلب حضوره ، كأنه قال : تعال يا أسفى ، وأقبل إلىّ ﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ أى انقلب سواد عينيه بياضاً من كثرة البكاء ، قيل : إنه زال إدراكه بحاسة البصر بالمرّة . وقيل : كان يدرك إدراكاً ضعيفاً . وقد قيل توجيه ما وقع من يعقوب عليه السلام من هذا الحزن العظيم المفضى إلى ذهاب بصره كلاً أو بعضاً بأنه : إنما وقع منه ذلك لأنه علم أن يوسف حى فخاف على دينه مع كونه بأرض مصر وأهلها حيثئذ كفار . وقيل : إن مجرد الحزن ليس بمحرم ، وإنما المحرم ما يفضى منه إلى الوله ، وشق الثياب ، والتكلم بما لا ينبغى وقد قال النبى ﷺ عند موت ولده إبراهيم : « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب ، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون »^(١) ويؤيد هذا قوله : ﴿ فهو كظيم ﴾ أى مكظوم ، فإن معناه : أنه مملوء من الحزن ممسك له لا يثبته ، ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه ، من كظم السقاء إذ سدّه على ما فيه ، والكظم بفتح الظاء : مخرج النفس يقال : أخذ بأكظامه . وقيل : الكظيم بمعنى الكاظم ، أى المشتمل على حزنه ، المسك له . ومنه :

فَإِنْ أَكُ كَاطِمًا لِمَصَابِ نَاسٍ فَإِنِ الْيَوْمَ مُنْطَلِقٌ لِّسَانِي

ومنه : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] وقال الزجاج : معنى كظيم : محزون ، وروى عن ابن عباس أنه قال : معناه : مغموه مكروب . قال بعض أهل اللغة : الحزن بالضم والسكون : البكاء ، وبفتحتين ضد الفرح ، وقال أكثر أهل اللغة : هما لغتان : ﴿ قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف ﴾ أى لا تفتأ ، محذوف حرف النفى لعدم اللبس ، قال

(١) البخارى فى الجنائز (١٣٠٣) ومسلم فى الفضائل (٢٣١٥ / ٦٢) وأبو داود فى الجنائز (٣١٢٦) وابن ماجه فى الجنائز (١٥٨٩) وفى الزوائد : « إسناده حسن » .

الكسائي : فتأت وفتتت أفعل كذا ، أى ما زلت ، وقال الفراء : إن « لا » مضمرة ، أى لا تفتأ . قال النحاس : والذى قال صحيح ، وقد روى عن الخليل وسيبويه مثل قول الفراء ، وأنشد الفراء محتجا على ما قاله :

فقلت يمين الله أبرح قاعِداً ولو قطعوا رأسي لذيكَ وأوصالي

ويقال : فتئ ، وفتأ لغتان ، ومنه قول الشاعر (١) :

فما فتئت حتى كأن غبارها سُرَادِقُ يَوْمِ ذِي رِيَّاحٍ تُرْفَعُ

﴿ حتى تكون حرصاً ﴾ الحرص مصدر يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، والصفة المشبهة . حرص بكسر الراء كدنف ودنف . وأصل الحرص : الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم ، حكى ذلك عن أبى عبيدة وغيره ، ومنه قول الشاعر :

سَرَى هَمَّى فَأَمْرَضَنِي وَقَدَمًا زَادَنِي مَرَضًا
كَذَاكَ الْحُبُّ قَبْلَ الْيَوْمِ مِمَّ يُورِثُ الْحَرَضًا

وقيل : الحرص ما دون الموت ، وقيل : الحارص : البالى الدائر ، وقال الفراء : الحارص : الفاسد الجسم والعقل وكذا الحرص . وقال مؤرج : هو الذائب من الهم ، ويدل عليه قول الشاعر (٢) :

إِنِّي امْرُؤٌ لَجَّ بِي حُبٌّ فَأَحْرَضَنِي حَتَّى بَلَيْتُ وَحَتَّى شَفَنِي السَّقَمُ

ويقال : رجل محرض ، ومنه قول الشاعر :

طَلَبْتُهُ الْخَيْلُ يَوْمًا كَامِلًا وَلَوْ أَلْفَتْهُ لِأَضْحَى مُحْرَضًا

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه الهم : إذا أسقمه ، ورجل حارص ، أى أحمق . وقال الأخفش : الحارص الذاهب . وقال ابن الأنبارى : هو الهالك ، والأولى تفسير الحرص هنا بغير الموت والهلاك من هذه المعانى المذكورة حتى يكون لقوله : ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ معنى غير معنى الحرص ، فالتأسيس أولى من التأكيد ومعنى ﴿ من الهالكين ﴾ : من الميتين . وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة عليه وإن كانوا هم سبب أحزانه ومنشأ همومه وغمومه .

﴿ قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ﴾ هذه الجملة مستأنفة كأنه قيل : فما قال يعقوب لما قالوا له ما قالوا ؟ والبت : ما يرد على الإنسان من الأشياء التى يعظم حزن صاحبها بها حتى لا يقدر على إخفائها ، كذا قال أهل اللغة وهو مأخوذ من بثته ، أى فرقته ، فسميت

(١) هو : أوس بن حجر التميمي الجاهلي .

(٢) هو العرجى : عبد الله بن عمر بن عمرو . أموى . شاعر غزل . وأديب وفارس سكن قرية العرج قرب الطائف فلقب بالعرجى .

المصيبة بثًا مجازًا ، قال ذو الرمة :

وَقَفْتُ عَلَى رَبْعِ لَيْمَةٍ نَاقَتِي فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُهُ
وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُّهُ تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ

وقد ذكر المفسرون : أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزنًا ، وإن لم يقدر على كتمه كان ذلك بثًا ، فالبث على هذا أعظم الحزن وأصعبه . وقيل : البث : الهم . وقيل : هو الحاجة وعلى هذا القول يكون عطف الحزن على البث واضح المعنى . وأما على تفسير البث بالحزن العظيم ، فكأنه قال : إنما أشكو حزني العظيم وما دونه من الحزن إلى الله لا إلى غيره من الناس . وقد قرئ : ﴿ حزني ﴾ بضم الحاء وسكون الزاي و « حزني » بفتحهما ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أى أعلم من لطفه وإحسانه وثوابه على المصيبة ما لا تعلمونه أنتم . وقيل : أراد علمه بأن يوسف حى . وقيل : أراد علمه بأن رؤياه صادقة . وقيل : أعلم من إجابة المضطرين إلى الله ما لا تعلمون .

﴿ يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ التحسس بمهمات : طلب الشيء بالحواس ، مأخوذ من الحس أو من الإحساس ، أى اذهبوا فتعرفوا خبر يوسف وأخيه وتطلبوه . وقرئ بالجيم ، وهو أيضًا التطلب ﴿ ولا تياسوا من روح الله ﴾ أى لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه . قال الأصمعى : الروح ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه ، والتركيب يدل على الحركة والهزة ، فكل ما يهتز الإنسان بوجوده ويلتذ به فهو روح ، وحكى الواحدى عن الأصمعى أيضًا أنه قال : الروح : الاستراحة من غم القلب ، وقال أبو عمرو : الروح : الفرج . وقيل : الرحمة ﴿ إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ لكونهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه ، وعظيم صنعه ، وخفى ألطافه .

قوله : ﴿ فلما دخلوا عليه ﴾ أى على يوسف ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فذهبوا كما أمرهم أبوهم إلى مصر ليتحسسوا من يوسف وأخيه ، فلما دخلوا على يوسف ﴿ قالوا يا أيها العزيز ﴾ أى الملك الممتنع القادر ﴿ مسنا وأهلنا الضر ﴾ أى الجوع والحاجة وفيه دليل على أنه تجوز الشكوى عند الضرورة إذا خاف من إصابته على نفسه ، كما يجوز للعليل أن يشكو إلى الطبيب ما يجده من العلة وهذه المرة التى دخلوا فيها مصر هى المرة الثالثة ، كما يفيد ما تقدم من سياق الكتاب العزيز ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ البضاعة هى القطعة من المال يقصد بها شراء شيء ، يقال : أبضعت الشيء واستبضعته إذا جعلته بضاعة . وفى المثل كمستبضع التمر إلى هجر . والإزجاء : السوق بدفع . قال الواحدى : الإزجاء فى اللغة : السوق والدفع قليلاً قليلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحاباً ﴾ [النور : ٤٣] والمعنى : أنها بضاعة تدفع ولا يقبلها التجار ، قال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة . قال أبو عبيدة : إنما قيل للدراهم الرديئة : مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة .

واختلف في هذه البضاعة ما هي ؟ فقيل : كانت قديداً وحيساً . وقيل : صوف وسمن . وقيل : الحبة الخضراء والصنوبر . وقيل : دراهم رديئة . وقيل : النعال والأدم ، ثم طلبوا منه بعد أن أخبروه بالبضاعة التي معهم أن يوفى لهم الكيل ، أى يجعله تاماً لا نقص فيه ، وطلبوا منه أن يتصدق عليهم إما بزيادة يزيدها لهم على ما يقابل بضاعتهم ، أو بالإغماض عن رداءة البضاعة التي جاؤوا بها ، وأن يجعلها كالבضاعة الجيدة فى إيفاء الكيل لهم بها ، وبهذا قال أكثر المفسرين . وقد قيل : كيف يطلبون التصديق عليهم وهم أنبياء ، والصدقة محرمة على الأنبياء ؟ وأجيب : باختصاص ذلك بنبيينا محمد ﷺ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ بما يجعله لهم من الثواب الآخروى ، أو التوسيع عليهم فى الدنيا .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ عسى الله أن يأتيه بهم جميعاً ﴾ قال : يوسف وأخيه ورويبيل . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال : يوسف وأخيه وكبيرهم الذى تخلف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يا أسفا على يوسف ﴾ قال : يا حزنا . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر عن قتادة مثله . وأخرجوا عن مجاهد قال : ياجزعا .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فهو كظيم ﴾ قال : حزين . وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : كظم على الحزن فلم يقل إلا خيراً . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطاء الخراسانى قال : كظيم : مكروب . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك قال : الكظيم : الكمد . وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه .

وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ تالله تفتأ تذكر يوسف ﴾ قال : لا تزال تذكر يوسف ﴿ حتى تكون حرصاً ﴾ قال : دنفاً من المرض . ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ قال : الميتين . وأخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ تفتأ تذكر يوسف ﴾ قال : لا تزال تذكر يوسف ﴿ حتى تكون حرصاً ﴾ قال : هرمًا . ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ قال : أو تموت . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك : ﴿ حتى تكون حرصاً ﴾ قال : الحرص : البالى ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ قال : من الميتين .

وأخرج ابن جرير وعبد الرزاق عن مسلم بن يسار يرفعه إلى النبى ﷺ قال : « من بث لم يصبر » ثم قرأ ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ^(١) وأخرج ابن منده فى المعرفة عن مسلم ابن يسار عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ فذكره . وأخرج ابن مردويه من حديث

عبد الله بن عمرو مرفوعاً مثله (١) . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن عبد الرحمن بن يعمر مرفوعاً مرسلأ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي ﴾ قال : همى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ وَأَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال : أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأنى سأسجد له .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله : ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴾ قال : من رحمة الله . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد قال : من فرج الله يفرج عنكم الغم الذى أنتم فيه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرَّ ﴾ قال : أى الضر فى المعيشة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ بِبِضَاعَةٍ ﴾ قال : دراهم ﴿ مَزْجَاة ﴾ قال : كاسدة . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : ﴿ مَزْجَاة ﴾ قال : كاسدة . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : ﴿ مَزْجَاة ﴾ رثة المتاع ، خلقة الحبل والغرارة والشيء . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا ﴿ مَزْجَاة ﴾ قال : الورق الزيوف التى لا تنفق حتى يوضع منها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جرير فى قوله : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ قال : اردد علينا أخانا .

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (٨٩) قَالُوا أَأَنْتَ لَا أَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) .

الاستفهام فى قوله : ﴿ هل علمتم ﴾ للتوبيخ والتفريع ، وقد كانوا عالمين بذلك ، ولكنه أراد ما ذكرناه ، ويستفاد منه تعظيم الواقعة لكونه فى قوة : ما أعظم الأمر الذى ارتكبتم من يوسف وأخيه . وما أقبح ما أقدمتم عليه ؟ كما يقال للمذنب : هل تدرى من عصيت ؟ والذى

فعلوا بيوسف هو ما تقدم مما قصه الله سبحانه علينا فى هذه السورة ، وأما ما فعلوا بأخيه ، فقال جماعة من المفسرين : هو ما أدخلوه عليه من الغم بفراق أخيه يوسف ، وما كان يناله منهم من الاحتقار والإهانة . ولم يستفهمهم عما فعلوا بأبيهم يعقوب ، مع أنه قد ناله منهم ما قصه الله فيما سبق من صنوف الأذى . قال الواحدى : ولم يذكر أباه يعقوب مع عظم ما دخل عليه من الغم بفراقه تعظيماً له ، ورفعاً من قدره ، وعلماً بأنه ذلك كان بلاء له من الله عز وجل ليزيد فى درجته عنده ، ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ نفى عنهم العلم ، وأثبت لهم صفة الجهل ، لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم . وقيل : إنه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم ، وتخفيف الأمر عليهم ، فكأنه قال : إنما أقدمتم على هذا الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الإثم ، وقصور معارفكم عن عاقبته ، وما يترتب عليه ، أو أراد عند ذلك فى أوان الصبا وزمان الصغر اعتذاراً لهم ، ورفعاً لما يدهمهم من الخجل والحيرة مع علمه وعلمهم بأنهم كانوا فى ذلك الوقت كباراً .

﴿ قالوا أأنك لأنت يوسف ﴾ قرأ ابن كثير : « إنك » على الخبر بدون استفهام ، وقرأ الباقون على الاستفهام التقريرى ، وكان ذلك منهم على طريق التعجب والاستغراب . قيل : سبب معرفتهم له بمجرد قوله لهم : ﴿ ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾ أنهم لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا إلا هو . وقيل : إنه لما قال لهم بهذه المقالة وضع التاج عن رأسه فعرفوه . وقيل : إنه تبسم فعرفوا ثناياه ﴿ قال أنا يوسف وهذا أخى ﴾ أجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه . قال ابن الأنبارى : أظهر الاسم فقال : أنا يوسف ، ولم يقل أنا هو ، تعظيماً لما وقع به من ظلم إخوته ، كأنه قال : أنا المظلوم المستحل منه المحرم ، والمراد قتله ، فاكتمى بإظهار الاسم عن هذه المعانى ، وقال : وهذا أخى مع كونهم يعرفونه ولا ينكرونه ؛ لأن قصده وهذا أخى المظلوم كظلمى ﴿ قد من الله علينا ﴾ بالخلاص عما ابتلينا به . وقيل : من الله علينا بكل خير فى الدنيا والآخرة . وقيل : بالجمع بيننا بعد التفرق ، ولا مانع من إرادة جميع ذلك ﴿ إنه من يتق ويصبر ﴾ قرأ الجمهور بالجزم على أن « من » شرطية . وقرأ ابن كثير بإثبات الياء فى يتقى ، كما فى قول الشاعر :

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْمِي بِمَا لَاقَتْ لُبُونُ بَنَى زِيَادِ

وقيل : إنه جعل « من » موصولة لا شرطية ، وهو بعيد ، والمعنى : إنه من يفعل التقوى أو يفعل ما يقيه عن الذنوب ويصبر على المصائب ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْحَسَنِينَ ﴾ على العموم ، فيدخل فيه ما يفيد السياق دخولاً أولاً وجاء بالظاهر ، وكان المقام مقام المضمّر ، أى أجرهم للدلالة على أن الموصوفين بالتقوى موصوفون بصفة الإحسان ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ أى لقد اختارك وفضلك علينا بما خصك به من صفات الكمال ، وهذا اعتراف منهم بفضله وعظيم قدره ولا يلزم من ذلك ألا يكونوا أنبياء ، فإن درج الأنبياء متفاوتة قال الله تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ﴿ وإن كنا لحاططين ﴾ أى

وإن الشأن ذلك . قال أبو عبيدة : خطئ وأخطأ بمعنى واحد . وقال الأزهرى : المخطئ من أراد الصواب فصار إلى غيره ، ومنه قولهم : المجتهد يخطئ ويصيب ، والخطأى من تعمد ما لا ينبغي . قالوا هذه المقالة المتضمنة للاعتراف بالخطأ والذنب استجلاباً لعفوه واستجلاباً لصفحه .

﴿ قال لا تثريب عليكم ﴾ التثريب التعيير والتوبيخ أى لا تعيير ولا توبيخ ، ولا لوم عليكم . قال الأصمعى : ثربت عليه ، قبحت عليه فعله . وقال الزجاج : المعنى لا إفساد لما بينى وبينكم من الحرمة وحق الأخوة ولكم عندى الصلح والعفو ، وأصل التثريب : الإفساد ، وهى لغة أهل الحجاز . وقال ابن الأنبارى : معناه : قد انقطع عنكم توبيخى عند اعترافكم بالذنب . قال ثعلب : ثرب فلان على فلان إذا عدد عليه ذنوبه وأصل التثريب من الثرب ، وهو الشحم الذى هو غاشية الكرش ومعناه : إزالة التثريب ، كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع . وانتصاب ﴿ اليوم ﴾ بالتثريب ، أى لا أثرب عليكم أو متصبب بالعامل المقدر فى ﴿ عليكم ﴾ ، وهو مستقر أو ثابت أو نحوهما ، أى لا تثريب مستقر أو ثابت عليكم ، وقد جوز الأخفش الوقف على ﴿ عليكم ﴾ ، فيكون : اليوم متعلق بالفعل الذى بعده ، وقد ذكر مثل هذا ابن الأنبارى . ثم دعا لهم بقوله : ﴿ يغفر الله لكم ﴾ على تقدير الوقف على اليوم أو أخبرهم بأن الله قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على ﴿ اليوم ﴾ ، أو أخبرهم بأن الله قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على ﴿ عليكم ﴾ وهو أرحم الراحمين ﴿ يرحم عباده رحمة لا يتراحمون بها فيما بينهم فيجازى محسنهم ويغفر لمسيئهم .

قوله : ﴿ اذهبوا بقميصى هذا ﴾ قيل : هذا القميص هو القميص الذى ألبسه الله إبراهيم لما ألقى فى النار وكساه إبراهيم إسحاق ، وكساه إسحاق يعقوب ، وكان يعقوب أدرج هذا القميص فى قضيب وعلقه فى عنق يوسف لما كان يخاف عليه من العين ، فأخبر جبريل يوسف أن يرسل به إلى يعقوب ليعود عليه بصره ؛ لأن فيه ريح الجنة ، وريح الجنة لا يقع على سقيم إلا شفى ، ولا مبتلى إلا عوفى ﴿ فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً ﴾ أى يصر بصيراً ، على أن ﴿ يأت ﴾ هى التى من أخوات كان . قال الفراء : يرجع بصيراً . وقال السدى : يعد بصيراً . وقيل : معناه : يأت إلى مصر وهو بصير قد ذهب عنه العمى ويؤيده قوله : ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ أى جميع من شمله لفظ الأهل من النساء والذرائى . وقيل : كانوا نحو سبعين . وقيل : ثلاثة وتسعين .

﴿ ولما فصلت العير ﴾ أى خرجت منطلقاً من مصر إلى الشام ، يقال : فصل فصولاً ، وفصلته فصلاً لازم ومتعد ، ويقال : فصل من البلد فصولاً : إذا انفصل عنه وجاوز حيطانه ﴿ قال أبوه ﴾ أى يعقوب لمن عنده فى أرض كنعان من أهله ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ قيل : إنها هاجت ريح فحملت ريح القميص إلى يعقوب مع طول المسافة فأخبرهم بما وجد ، ثم قال : ﴿ لولا أن تفندون ﴾ لولا أن تنسبونى إلى الفند وهو ذهاب العقل من الهرم . يقال : أفند الرجل : إذا خرف وتغير عقله . وقال أبو عبيدة : لولا أن تسفهون ، فجعل الفند السفه .

وقال الزجاج : لولا أن تجهلون ، فجعل الفند الجهل ، ويؤيد ذلك قول من قال : إنه السفه قول النابغة :

إِلَّا سُلَيْمَانُ إِذْ قَالَ الْمَلِكُ لَهُ قُمْ فِي الْبَرِّيةِ فَاخْذُذْهَا عَنِ الْفَنْدِ
أى امنعها عن السفه .

وقال أبو عمرو الشيباني : التفنيد : التقييح ، ومنه قول الشاعر :

يا صاحِبِي دَعَا لَوْمِي وَتَفْنِيدِي فليس ما فات من أمرى بمردودٍ

وقيل : هو الكذب ، ومنه قول الشاعر :

هَلْ فِي افْتِخَارِ الْكَرِيمِ مِنْ أَوْدٍ ؟ أَمْ هَلْ لِقَوْلِ الصَّدِيقِ مِنْ فَنَدٍ ؟

وقال ابن الأعرابي : ﴿ لولا أن تفندون ﴾ : لولا أن تضعفوا رأى ، وروى مثله عن أبي عبيدة . وقال الأخفش : التفنيد : اللوم وضعف الرأى ، وكل هذه المعانى راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأى . يقال : فنده تفنيداً ، إذا أعجزه : وأفند : إذا تكلم بالخطأ . والفند : الخطأ من الكلام ، ومما يدل على إطلاقه على اللوم قول الشاعر :

يَاعَاذِلِي دَعَا الْمَلَامَ وَأَقْصِرَا طَالَ الْهَوَى وَأَطْلُتْمَا التَّفْنِيدَا

أخبرهم يعقوب بأن الصبا قد حملت إليه ريح حبيبه ، وأنه لولا ما يخشاه من التفنيد لما شك في ذلك :

فإن الصبا ريح إذا تنفست على نفس مهموم تجلت همومها

* * *

إذا قلت هذا حين أسلو يهيجنى نسيم الصبا من حيث ما يطلع الفجر

* * *

ولقد تهب لى الصبا من أرضها فيلذ مس هبوبها ويطيب

﴿ قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم ﴾ أى قال الحاضرون عنده من أهله : إنك يا يعقوب لفى ذهابك عن طريق الصواب الذى كنت عليه قديماً من إفراط حبك ليوسف لا تنساه ولا تفتتر عنه ، ولسان حال يعقوب يقول لهم :

لَا يَعْرِفُ الشَّوْقَ إِلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ وَلَا الصَّبَابَةَ إِلَّا مَنْ يُعَانِيهَا

لَا تَعْذِلِ الْمُشْتَاقَ فِي أَشْوَاقِهِ حَتَّى تَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْشَائِهِ

وقيل : المعنى : إنك لفى جنونك القديم . وقيل : فى محبتك القديمة . قالوا له ذلك لأنه لم يكن قد بلغهم قدوم البشير . ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ قال المفسرون : البشير هو يهوذا

ابن يعقوب قال لإخوته : أنا جئت بالقميص ملطخاً بالدم فأعطني اليوم قميصك لأخبره أنك حى ، فأفرجه كما أحزنته ﴿ ألقاه على وجهه ﴾ أى ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه ﴿ فارتد بصيرا ﴾ الارتداد انقلاب الشيء إلى حال قد كان عليها ، والمعنى : عاد ورجع إلى حالته الأولى من صحة بصره ﴿ قال ألم أقل لكم ﴾ أى قال يعقوب لمن كان عنده من أهله الذين قال لهم : ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ : ألم أقل لكم هذا القول فقلتم ما قلتم ؟ ويكون قوله : ﴿ إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ كلاماً مبتدأ لا يتعلق بالقول . ويجوز أن تكون جملة : ﴿ إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ مقول القول ويريد بذلك إخبارهم بما قاله لهم سابقاً : ﴿ إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ ﴿ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم ، واعترفوا بالذنب وفى الكلام حذف ، والتقدير : ولما رجعوا من مصر ، ووصلوا إلى أبيهم قالوا هذا القول ، فوعدهم بما طلبوه منه ، و ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربى ﴾ قال الزجاج : أراد يعقوب أن يستغفر لهم وقت السحر ؛ لأنه أخلق بإجابة الدعاء ، لا أنه بخل عليهم بالاستغفار . وقيل : أخره إلى ليلة الجمعة ، وقيل : أخره إلى أن يستحل لهم من يوسف ، ولم يعلم أنه قد عفا عنهم ، وجملة : ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ تعليل لما قبله .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ لا تثريب ﴾ قال : لا تعبير . وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة التفت إلى الناس فقال : « ماذا تقولون وماذا تظنون ؟ » فقالوا : ابن عم كريم ، فقال : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً نحوه . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة مرفوعاً نحوه ^(١) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء الخراسانى ، قال : طلب الخوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ ، ألم تر إلى قول يوسف : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ ؟ وقال يعقوب : ﴿ سوف أستغفر لكم ربى ﴾ .

أقول : وفى هذا الكلام نظر فإنهم طلبوا من يوسف أن يعفو عنهم بقولهم : ﴿ لقد آثرك الله علينا ﴾ فقال : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ لأن مقصودهم صدور العفو منه عنهم ، وطلبوا من أبيهم يعقوب أن يستغفر الله لهم وهو لا يكون إلا بطلب ذلك منه إلى الله عز وجل ، وبين المقامين فرق ، فلم يكن وعد يعقوب لهم بخلاً عليهم بسؤال الله لهم ، ولا سيما إذا صح ما تقدم من أنه أخر ذلك إلى وقت الإجابة فإنه لو طلبه لهم فى الحال لم يحصل له علم بالقبول .

وأخرج الحكيم الترمذى وأبو الشيخ عن وهب بن منبه قال : لما كان من أمر إخوة يوسف

ما كان كتب يعقوب إلى يوسف وهو لا يعلم أنه يوسف : بسم الله الرحمن الرحيم ، من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إلى عزيز آل فرعون : سلام عليك فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد : فإننا أهل بيت مولع بنا أسباب البلاء ، كان جدى إبراهيم خليل الله ألقى فى النار فى طاعة ربه ، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وأمر الله جدى أن يذبح له أبى^(١) فقده الله بما فداه ، وكان لى ابن وكان من أحب الناس إلى فقده ، فأذهب حزنى عليه نور بصرى ، وكان له أخ من أمه كنت إذا ذكرته ضممته إلى صدرى فأذهب عنى بعض وجدى ، وهو المحبوس عندك فى السرقة . وإنى أخبرك أنى لم أسرق ، ولم ألد سارقاً ، فلما قرأ يوسف الكتاب بكى وصاح وقال : ﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال فى قوله : ﴿ اذهبوا بقميصى هذا ﴾ : أن عمروذ لما ألقى إبراهيم فى النار نزل إليه جبريل بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة ، فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة ، وقعد معه يتحدث ، فأوحى الله إلى النار ﴿ كونى برداً وسلاماً ﴾ [الأنبياء : ٦٩] ولولا أنه قال : ﴿ وسلاماً ﴾ لأذاه البرد . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مرفوعاً : إن الله كسا إبراهيم ثوباً من الجنة ، فكساه إبراهيم إسحاق ، وكساه إسحاق يعقوب ، فأخذه يعقوب فجعله فى قسبة من حديد وعلقه فى عنق يوسف ، ولو علم إخوته إذ ألقوه فى الحب لأخذوه ، فلما أراد الله أن يرد يوسف على يعقوب كان بين رؤياه وتعبيره أربعون سنة ، أمر البشير أن يبشره من ثمان مراحل ، فوجد يعقوب ريحه فقال : ﴿ إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ فلما ألقاه على وجهه ارتد بصيراً وليس يقع شيء من الجنة على عاهة من عاهات الدنيا إلا أبرأها بإذن الله .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وأحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولما فصلت العير ﴾ قال : لما خرجت العير هاجت الريح ، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال : ﴿ إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ تسفهون ، فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : وجد ريحه من مسيرة عشرة أيام . وأخرج ابن أبى حاتم من وجه آخر عنه قال : وجده من مسيرة ثمانين فرسخاً . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أيضاً ﴿ لولا أن تفندون ﴾ قال : تجهلون . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : قال : تكذبون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : تهزمون ، يقولون : قد ذهب عقلك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع قال : لولا أن تحمقون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ إنك لفى ضلالك القديم ﴾ يقول : خطئك القديم . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : جنونك القديم .

(١) الأرجح أن هذا من الإسرائيليات كما تقدم ، فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : حبك القديم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : البشير : البريد . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الضحاك مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سفيان قال : البشير هو يهوذا بن يعقوب . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : لما أن جاء البشير إلى يعقوب فالتقى عليه القميص قال : على أى دين خلفت يوسف ؟ قال : على الإسلام قال : الآن تمت النعمة .

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن مسعود فى قوله : ﴿سوف أستغفر لكم ربى﴾ قال : إن يعقوب أخر بنه إلى السحر . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : أخرهم إلى السحر ، وكان يصلى بالسحر . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عنه قال : أخرهم إلى السحر لأن دعاء السحر مستجاب . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أيضاً قال : قال النبى ﷺ فى قصة : « هو قول أخى يعقوب لبنه : ﴿سوف أستغفر لكم ربى﴾ يقول : حتى تأتى ليلة الجمعة » (١) .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١٠١) .

قوله : ﴿ فلما دخلوا على يوسف ﴾ لعل فى الكلام محذوفاً مقدراً ، وهو : فرحل يعقوب وأولاده وأهله إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ، أى ضمهما وأنزلهما عنده ، قال المفسرون : المراد بالأبوين هنا يعقوب وزوجته خالة يوسف ؛ لأن أمه قد كانت ماتت فى ولادتها لأخيه بنيامين ، كما تقدم . وقيل : أحيا الله له أمه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدت له ﴿ وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ مما تكرهون ، وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر ولا يدخلونها إلا بجواز منهم . قيل : والتقيد بالمشيئة عائد إلى الأمن ، ولا مانع من عوده إلى الجميع ؛ لأن دخولهم لا يكون إلا بمشيئة الله سبحانه ، كما أنهم لا يكونون آمنين إلا بمشيئته . وقيل : إن التقيد بالمشيئة راجع إلى قوله : ﴿ سوف أستغفر لكم ربى ﴾ وهو بعيد ،

(١) جزء من حديث طويل رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٧٠) وقال : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم » . والحاكم ١ / ٣١٦ من الطريق نفسها ، وقال : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » . وقد علق عليه الذهبى فقال : « هذا حديث منكر شاذ أخاف لا يكون موضوعاً وقد حيرنى والله جودة سنده فالله أعلم » ، كما أخرجه ابن جرير ١٣ / ٤٢ .

وظاهر النظم القرآنى : أن يوسف قال لهم هذه المقالة ، أى ادخلوا مصر قبل دخولهم . وقد قيل فى توجيه ذلك : أنه تلقاهم إلى خارج مصر ، فوقف منتظراً لهم فى مكان أو خيمة فدخلوا عليه ، ف ﴿ آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر ﴾ فلما دخلوا مصر ودخلوا عليه دخولا آخر فى المكان الذى له بمصر ﴿ رفع أبويه على العرش ﴾ أى أجلسهما معه على السرير الذى يجلس عليه كما هو عادة الملوك .

﴿ وخرؤا له سجدا ﴾ أى الأبوان والإخوة ، والمعنى : أنهم خروا ليوسف سجداً ، وكان ذلك جائزاً فى شريعتهم منزلاً منزلة التحية . وقيل : لم يكن ذلك سجوداً بل هو مجرد إيماء ، وكانت تلك تحيتهم ، وهو يخالف معنى ﴿ وخرؤا له سجدا ﴾ فإن الخرور فى اللغة المقيد بالسجود لا يكون إلا بوضع الوجه على الأرض . وقيل : الضمير فى قوله : ﴿ له ﴾ راجع إلى الله سبحانه أى وخرؤا لله سجداً ، وهو بعيد جداً . وقيل : إن الضمير ليوسف ، واللام للتعليل ، أى وخرؤا لأجله سجداً ، وفيه أيضاً بعد ، وقال يوسف : ﴿ يأبت هذا تأويل رؤىاى ﴾ يعنى التى تقدم ذكرها ﴿ من قبل ﴾ أى من قبل هذا الوقت ﴿ قد جعلها ربى حقاً ﴾ بوقوع تأويلها على ما دلت عليه ﴿ وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ﴾ الأصل أن يتعدى فعل الإحسان بآلى ، وقد يتعدى بالباء كما فى قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ [الإسراء: ٢٣] . وقيل : إنه ضمن أحسن معنى لطف ، أى وقد لطف بى محسناً ، ولم يذكر إخراجه من الحب ، لأن فى ذكره نوع تثريب للإخوة . وقد قال : لا تثريب عليكم ، وقد تقدم سبب سجنه ومدة بقاءه فيه ، وقد قيل : إن وجه عدم ذكر إخراجه من الحب أن المنة كانت فى إخراجه من السجن أكبر من المنة فى إخراجه من الحب ، وفيه نظر . ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ أى البادية ، وهى أرض كنعان بالشام ، وكانوا أهل مواش وبرية . وقيل : إن الله لم يبعث نبياً من البادية ، وأن المكان الذى كان فيه يعقوب يقال له : بدا ، وإياه عنى جميل بقوله :

وَأَنْتِ الَّتِى حَبَبْتَ شَعْبًا إِلَى بَدَا
إِلَى وَأَوْطَانِى بِلَادُ سِوَاهُمَا (١)

وفيه نظر ، ﴿ من بعد أن نزع الشيطان بينى وبين إخوتى ﴾ أى أفسد بيننا وحمل بعضنا على بعض ، يقال : نزعه : إذا نخسه ، فأصله من نخس الدابة ليقوى مشيها وأحال يوسف ذنب إخوته على الشيطان تكراً منه وتأدباً ﴿ إن ربى لطيف لما يشاء ﴾ اللطيف : الرفيق . قال الأزهري : اللطيف من أسماء الله تعالى معناه : الرفيق بعباده ، يقال : لطف فلان بفلان يلطف : إذا رفق به . وقال عمرو بن أبى عمرو : اللطيف : الذى يوصل إليك أربك فى لطف . قال الخطابى : اللطيف هو البر بعباده الذى يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون . وقيل : اللطيف : العالم بدقائق الأمور . ومعنى ﴿ لما

(١) فى المخطوطة : « الذى » بدلاً من « التى » « وشعباً » بدلاً من « شعباً » والشغب : موضع بين المدينة والشام .

يشاء ﴿ : لأجل ما يشاء حتى يجيء على وجه الصواب ﴾ إنه هو العليم الحكيم ﴿ أى العليم بالأمور ، الحكيم فى أفعاله .

ولما أتم الله نعمته على يوسف عليه السلام بما أخلصه منه من المحن العظيمة ، وبما خوله من الملك ، وعلمه من العلم ، تآقت نفسه إلى الخير الأخرى الدائم الذى لا ينقطع فقال : ﴿رب قد آتيتنى من الملك ﴾ : « من » للتبويض ، أى بعض الملك لأنه لم يؤت كل الملك ، إنما أوتى ملكًا خاصا ، وهو ملك مصر فى زمن خاص ﴾ وعلمتنى من تأويل الأحاديث ﴿ أى بعضها ، لأنه لم يؤت جميع علم التأويل ، سواء أريد به مطلق العلم والفهم ، أو مجرد تأويل الرؤيا . وقيل : « من » للجنس ، كما فى قوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الاوثان ﴾ [الحج : ٣٠] . وقيل : زائدة ، أى آتيتنى الملك وعلمتنى تأويل الاحاديث ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ منتصب على أنه صفة لرب ، لكونه منادى مضافا ، ويجوز أن يكون انتصابه على أنه منادى بحرف مقدر ، أى يافاطر ، والفاطر : الخالق والمنشئ والمخترع والمبدع ﴿ أنت وليى ﴾ أى ناصرى ومتولى أمورى ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ تتولانى فيهما ﴿ توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾ أى توفنى على الإسلام لا يفارقنى حتى أموت ، وألحقنى بالصالحين من النبيين من آبائى وغيرهم فأظفر بثوابهم منك ، ودرجاتهم عندك . وقيل : إنه لما دعا بهذا الدعاء توفاه الله عز وجل . قيل : كان عمره عند أن ألقى فى الحب سبع عشرة سنة ، وكان فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة إلى قدوم أبيه يعقوب عليه ، ثم عاش بعد اجتماع شملهم حتى كمل عمره المقدار الذى سيأتى وتوفاه الله . قيل : لم يتمن الموت أحد غير يوسف لانبى ولا غيره . وذهب الجمهور إلى أنه لم يتمن الموت بهذا الدعاء ، وإنما دعا ربه أن يتوفاه على الإسلام ، ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله .

وقد أخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة قال : دخل يعقوب مصر فى ملك يوسف وهو ابن مائة وثلاثين سنة ، وعاش فى ملكه ثلاثين سنة ، ومات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة . قال أبو هريرة : وبلغنى أنه كان عمر إبراهيم خليل الله مائة وخمسا وتسعين سنة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ آوى إليه أبويه ﴾ قال : أبوه وأمه ضمهما . وأخرج عن وهب قال : أبوه وخالته ، وكانت توفيت أم يوسف فى نفاس أخيه بنيامين . وأخرج أبو الشيخ نحوه عن سفيان بن عيينة .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ قال : السرير . وأخرج ابن أبى حاتم عن عدى بن حاتم فى قوله : ﴿ وخرؤا له سجدا ﴾ قال : كانت تحية من كان قبلكم فأعطاكم الله السلام مكانها . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد قال : ذلك سجود تشرفة كما سجدت الملائكة تشرفة لآدم ، وليس سجود عبادة . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله . ﴿ إن ربى لطيف لما يشاء ﴾ قال : لطيف

ليوسف ، وصنع له حين أخرجه من السجن ، وجاء بأهله من البدو ، ونزع من قلبه نزع الشيطان ، وتحريشه على إخوته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ما سأل نبي الوفاة غير يوسف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عنه قال : اشتاق إلى لقاء الله ، وأحب أن يلحق به وبآبائه ، فدعا الله أن يتوفاه ، وأن يلحقه بهم . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ وألحقنى بالصالحين ﴾ قال : يعنى : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : يعنى أهل الجنة .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾ .

الخطاب بقوله : ﴿ ذلك ﴾ لرسول الله ﷺ وهو مبتدأ خبره ﴿ من أنباء الغيب ﴾ و﴿ نوحيه إليك ﴾ خبر ثان ، قال الزجاج : ويجوز أن يكون ذلك بمعنى : الذى ، ونوحيه إليك خبره ، أى الذى من أنباء الغيب نوحيه إليك والمعنى : الإخبار من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن هذا الذى قصه عليه من أمر يوسف وإخوته من الأخبار التى كانت غائبة عن رسول الله ﷺ وأوحاه الله إليه وأعلمه به ، ولم يكن عنده قبل الوحي شئ من ذلك ، وفيه تعريض بكفار قريش لأنهم كانوا مكذبين له ﷺ بما جاء به جحوداً وعناداً وحسداً ، مع كونهم يعلمون حقيقة الحال ﴿ وما كنت لديهم ﴾ لدى إخوة يوسف ﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾ إجماع الأمر : العزم عليه ، أى وما كنت لدى إخوة يوسف إذ عزموا جميعاً على إلقائه فى الحب وهم فى تلك الحالة ﴿ يَمْكُرُونَ ﴾ به أى بيوسف فى هذا الفعل الذى فعلوه به ، ويبغونه الغوائل . وقيل : الضمير ليعقوب ، أى يَمْكُرُونَ بيعقوب حين جاؤوه بقميص يوسف ملطخاً بالدم ، وقالوا : أكله الذئب .

وإذا لم يكن رسول الله ﷺ لديهم عند أن فعلوا ذلك انتفى علمه بذلك مشاهدة ، ولم يكن بين قوم لهم علم بأحوال الأمم السالفة ، ولا خالطهم ولا خالطوه فانتفى علمه بذلك بطريق الرواية عن الغير ، فلم يبق لعلمه بذلك طريق إلا مجرد الوحي من الله سبحانه ، فهذا يستلزم الإيمان بما جاء به فلما لم يؤمن بذلك من عاصره من الكفار قال الله سبحانه ذاكراً لهذا : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ أى وما أكثر الناس المعاصرين لك يا محمد ، أو أكثر

الناس على العموم، ولو حرصت على هدايتهم وبالغت في ذلك بمؤمنين بالله لتصميمهم على الكفر الذى هو دين آبائهم ، يقال : حَرَصَ يَحْرِصُ مثل : ضَرَبَ يَضْرِبُ ، وفى لغة ضعيفة : حَرِصَ يَحْرِصُ مثل حَمِدَ يَحْمَدُ ، وَالْحَرِصُ : طلب الشيء باجتهاد . قال الزجاج : ومعناه : وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على أن تهديهم ؛ لأنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء . قال ابن الأنبارى : إن قريشاً واليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وإخوته فشرحهما شرحاً شافياً وهو يأمل أن يكون ذلك سبباً لإسلامهم ؛ فخالقوا ظنه، وحزن رسول الله ﷺ لذلك فعزاه الله بقوله : ﴿ وما أكثر الناس ﴾ الآية .

﴿ وما تسألهم عليه من أجر ﴾ أى على القرآن وما تتلوه عليهم منه ، أو على الإيمان ، وحرصك على وقوعه منهم أو على ما تحدثهم به من هذا الحديث ﴿ من أجر ﴾ من مال يعطونك إياه ، ويجعلونه لك كما يفعله أحبارهم ﴿ إن هو ﴾ أى القرآن ، أو الحديث الذى حدثهم به ﴿ إلا ذكر للعالمين ﴾ أى ما هو إلا ذكر للعالمين كافة لا يختص بهم وحدهم . ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض ﴾ قال الخليل وسيبويه : والأكثر أن ﴿ كأين ﴾ أصلها: أى ، دخل عليها كاف التشبيه لكنه انمحق عن الحرفين المعنى الإفرادى وصار المجموع كاسم واحد بمعنى « كم » الخبرية ، والأكثر إدخال « من » فى مميزه وهو يتميز عن الكاف لا عن أى كما فى مثلك رجلاً وقد مر الكلام على هذا مستوفى فى آل عمران ، والمعنى: كم من آية تدلهم على توحيد الله كائنة فى السموات من كونها منصوبة بغير عمد ، مزينة بالكواكب النيرة السيارة والثواب ، وفى الأرض من جبالها وقفارها وبحارها ونباتها وحيواناتها تدلهم على توحيد الله سبحانه ، وأنه الخالق لذلك ، الرزاق له ، المحيى والمميت ، ولكن أكثر الناس يمرون على هذه الآيات غير متأملين لها ، ولا مفكرين فيها، ولا ملتفتين إلى ما تدل عليه من وجود خالقها، وأنه المتفرد بالألوهية مع كونهم مشاهدين لها ﴿ يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ وإن نظروا إليها بأعيانهم فقد أعرضوا عما هو الثمرة للنظر بالحدقة ، وهى التفكير والاعتبار والاستدلال ، وقرأ عكرمة وعمرو بن فايد برفع ﴿ الأرض ﴾ على أنه مبتدأ ، وخبره : ﴿ يمرون عليها ﴾ ، وقرأ السدى بنصب ﴿ الأرض ﴾ بتقدير فعل ، وقرأ ابن مسعود : « يمشون عليها » .

﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله ﴾ أى وما يصدق ويقر أكثر الناس بالله مع كونه الخالق الرزاق المحيى المميت ﴿ إلا وهم مشركون ﴾ بالله يعبدون معه غيره ، كما كانت تفعله الجاهلية فإنهم مقرون بالله سبحانه ، وبأنه الخالق لهم ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ [الزخرف : ٨٧] ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ [لقمان : ٢٥] لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدونهم ليقربوهم إلى الله ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله ﴾ (١) [الزمر : ٣] ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله المعتقدون فى الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه كما يفعله كثير من عباد

(١) فى المطبوعة : « إنما نعبدهم » .

القبور ، ولا ينافى هذا ما قيل من أن الآية نزلت فى قوم مخصوصين ^(١) ، فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ لا بما يفيد السبب من الاختصاص بمن كان سبباً لنزول الحكم .

﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ﴾ الاستفهام للإنكار ، والغاشية : ما يغشاهم ويغمرهم من العذاب كقوله تعالى : ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ [العنكبوت : ٥٥] وقيل : هى الساعة . وقيل : هى الصواعق والقوارع ، ولا مانع للحمل على العموم ﴿ أو تأتيهم الساعة بغتة ﴾ أى فجأة ، وانتصاب بغتة على الحال ، قال المبرد : جاء عن العرب حال بعد نكرة ، وهو قولهم : وقع أمر بغتة ، يقال : بغتهم الأمر بغتاً وبغتة إذا فاجأهم ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بإتيانه ، ويجوز انتصاب بغتة على أنها صفة مصدر محذوف .

﴿ قل هذه سبيلي ﴾ أى قل يا محمد للمشركين : هذه الدعوة التى أدعو إليها ، والطريقة التى أنا عليها سبيلي ، أى طريقي وستى فاسم الإشارة مبتدأ وخبره سبيلي ، وفسر ذلك بقوله : ﴿ أدعو إلى الله على بصيرة ﴾ أى على حجة واضحة ، والبصيرة : المعرفة التى يتميز بها الحق من الباطل ، والجملة فى محل نصب على الحال ﴿ أنا ومن اتبعنى ﴾ واهتدى بهدى ، قال الفراء : والمعنى : ومن اتبعنى يدعوا إلى الله كما أدعو ، وفى هذا دليل على أن كل متبع لرسول الله ﷺ حق عليه أن يقتدى به فى الدعاء إلى الله ، أى الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده ، والعمل بما شرعه لعباده ﴿ وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ أى وقل يا محمد لهم : سبحان الله وما أنا من المشركين بالله الذين يتخذون من دونه أنداداً . قال ابن الأنبارى : ويجوز أن يتم الكلام عند قوله : ﴿ أدعو إلى الله ﴾ ثم ابتداء فقال : ﴿ على بصيرة أنا ومن اتبعنى ﴾ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ قال : هم بنو يعقوب إذ يمكرون بيوسف . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية يقول : وما كنت لديهم وهم يلقونه فى غيابة الجب ، وهم يمكرون بيوسف . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ وكأين من آية ﴾ قال : كم من آية فى السماء يعنى : شمسها وقمرها ونجومها وسحابها ، وفى الأرض ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ قال : سلهم من خلقهم ، ومن خلق السموات والأرض ، فسيقولون الله ، فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عطاء فى قوله : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ قال :

(١) قيل : نزلت فى قوم أقروا بالله وعبدوا الأوثان وقيل : نزلت فى أهل كتاب آمنوا بالله وكفروا بمحمد ﷺ وقيل : نزلت فى تلبية مشركى العرب وقيل : نزلت فى المشبهة . وقيل : فى المنافقين وقيل : فى قصة الدخان . القرطبي ٥ / ٣٥٠١ ، ٣٥٠٢ .

كانوا يعلمون أن الله ربهم وهو خالقهم وهو رازقهم وكانوا مع ذلك يشركون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك فى الآية قال : كانوا يشركون به فى تلبيتهم يقولون : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال : ذلك المنافق يعمل بالرياء وهو مشرك بعمله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ غاشية من عذاب الله ﴾ قال : وقية تغشاهم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ هذه سبيلى ﴾ قل : هذه دعوتى . وأخرج أبو الشيخ عنه ﴿ قل هذه سبيلى ﴾ قال : صلاتى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى الآية قال : أمرى ومشيتى ومنهاجى . وأخرجنا عن قتادة فى قوله : ﴿ على بصيرة ﴾ أى على هدى ﴿ أنا ومن اتبعنى ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْءٍ وَلَا يَرُدُّ بِأُسْنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ .

قوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجلاً ﴾ هذا رد على من قال : ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ [الأنعام : ٨] أى لم نبعث من الأنبياء إلى من قبلهم إلا رجلاً لا ملائكة ، فكيف ينكرون إرسالنا إياك ؟ وتدل الآية على أن الله سبحانه لم يبعث نبياً من النساء ولا من الجن ، وهذا يرد على من قال إن فى النساء أربع نبيات : حواء ، وآسية وأم موسى ، ومريم ، وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمراً معروفاً عند العرب ، حتى قال قيس بن عاصم فى سجاح المتنبة :

أصبحت نبيتنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الله ذكراً

فلعنة الله والأقوام كلهم على سجاح ومن باللوم أغرانا

﴿ نوحى إليهم ﴾ كما نوحى إليك ﴿ من أهل القرى ﴾ أى المدائن دون أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على البدو ؛ ولكون أهل الأمصار أتم عقلاً وأكمل حلمًا وأجل فضلاً ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ يعنى : المشركين المنكرين لنبوة محمد ﷺ ، أى أفلم يسر المشركون هؤلاء فينظروا إلى مصارع الأمم الماضية فيعتبروا بهم حتى ينزعوا عما هم فيه من التكذيب ﴿ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ﴾ أى لدار الساعة الآخرة ، أو

الحالة الآخرة على حذف الموصوف . وقال الفراء : إن الدار هي الآخرة ، وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ كيوم الجمعة ، وصلاة الأولى ، ومسجد الجامع ، والكلام فى ذلك مبين فى كتب الإعراب ، والمراد بهذه الدار : الجنة ، أى هي خير للمتقين من دار الدنيا ، وقرئ : « وللدار الآخرة » ، وقرأ نافع وعاصم ويعقوب : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء الفوقية على الخطاب وقرأ الباقون بالتحية .

﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ هذه الغاية لمحذوف دل عليه الكلام ، وتقديره : ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ يا محمد إلا رجالاً ، ولم نعاجل أهمهم الذين لم يؤمنوا بما جاؤوا به بالعقوبة ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ من النصر بعقوبة قومهم ، أو ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ من إيمان قومهم لانهماكهم فى الكفر ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ قرأ ابن عباس وابن مسعود وأبو عبد الرحمن السلمى وأبو جعفر بن القعقاع والحسن وقتادة وأبو رجاء العطاردى وعاصم وحمزة والكسائى ويحيى بن وثاب والأعمش وخلف ﴿ كذبوا ﴾ بالتخفيف أى ظن القوم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ولم يصدقوا . وقيل : المعنى : ظن القوم أن الرسل قد كذبوا فيما ادعوا من نصرهم . وقيل : المعنى : وظن الرسل أنها قد كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون عليهم ، أو كذبهم رجاؤهم للنصر ، وقرأ الباقون : « كذبوا » بالتشديد ، والمعنى عليها واضح ، أى ظن الرسل بأن قومهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به من العذاب ، ويجوز فى هذا أن يكون فاعل ظن القوم المرسل إليهم على معنى : أنهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما جاؤوا به من الوعد والوعيد . وقرأ مجاهد وحميد : « قد كَذَّبُوا » بفتح الكاف والذال مخففتين على معنى : وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا . وقد قيل : إن الظن فى هذه الآية بمعنى اليقين ؛ لأن الرسل قد تيقنوا أن قومهم كذبوهم ، وليس ذلك مجرد ظن منهم . والذى ينبغى أن يفسر الظن باليقين فى مثل هذه الصورة ويفسر بمعناه الاصلى فيما يحصل فيه مجرد ظن فقط من الصور السابقة .

﴿ جاءهم نصرنا ﴾ أى فجاء الرسل نصر الله سبحانه فجأة ، أو جاء قوم الرسل الذين كذبوهم نصر الله لرسله بإيقاع العذاب على المكذبين ﴿ فنجى من نشاء ﴾ قرأ عاصم : ﴿ فنجى ﴾ بنون واحدة وقرأ الباقون « فنجى » بنونين . واختار أبو عبيدة القراءة الأولى ؛ لأنها فى مصحف عثمان كذلك . وقرأ ابن محيصن : « فتجا » على البناء للفاعل ، فتكون من على القراءة الأولى فى محل رفع على أنها فاعل ، والذين نجاهم الله هم الرسل ومن آمن معهم ، وهلك المكذبون ، ﴿ ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ عند نزوله بهم ، وفيه بيان من يشاء الله نجاته من العذاب وهم من عدا هؤلاء المجرمين .

﴿ لقد كان فى قصصهم ﴾ أى قصص الرسل ومن بعثوا إليه من الأمم ، أو فى قصص يوسف وإخوته وأبيه ﴿ عبرة لأولى الألباب ﴾ والعبرة : الفكرة والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة . وقيل : هى نوع من الاعتبار ، وهى العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول .

وأولو الألباب : هم ذوو العقول السليمة الذين يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه مصالح دينهم ، وإنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة بين النبي ﷺ وبين الرسل الذين قص حديثهم ، ومنهم يوسف وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأخبارهم ﴿ ما كان حديثا يفترى ﴾ أى ما كان هذا المقصوص الذى يدل عليه ذكر القصص وهو القرآن المشتمل على ذلك حديثا يفترى ﴿ ولكن تصديق الذى بين يديه ﴾ أى ما قبله من الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور وقرئ برفع : « تصديق » ؛ على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هو تصديق ، وتفصيل كل شئ من الشرائع المجملة المحتاجة إلى تفصيلها ؛ لأن الله سبحانه لم يفرط فى الكتاب من شئ . وقيل : تفصيل كل شئ من قصة يوسف مع إخوته وأبيه . وقيل : وليس المراد به ما يقتضيه من العموم ، بل المراد به الأصول والقوانين وما يؤول إليها ﴿ وهدى ﴾ فى الدنيا يهتدى به كل من أراد الله هدايته ﴿ ورحمة ﴾ فى الآخرة يرحم الله بها عباده العاملين بما فيه شرط الإيمان الصحيح ، ولهذا قال : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ أى يصدقون به وبما تضمنه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه وقدره ، وأما من عداهم فلا ينتفع به ولا يهتدى بما اشتمل عليه من الهدى فلا يستحق ما يستحقونه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا ﴾ قال : أى ليسوا من أهل السماء ، كما قلت . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : ما نعلم أن الله أرسل رسولا قط إلا من أهل القرى لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمود ^(١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ قال : كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط ، وقوم صالح ، والأمم التى عذب الله ؟

وأخرج البخارى وغيره من طريق عروة ؛ أنه سأل عائشة عن قول الله سبحانه : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ قال : قلت : أكذبوا أم كُذِّبوا ؟ يعنى على هذه الكلمة مخففة أم مشددة ، فقالت : بل كُذِّبوا تعنى بالتشديد ، قلت : والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن ؟ قالت : أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك ، فقلت : لعلها ، وظنوا أنهم قد كذبوا مخففة ؟ قالت : معاذ الله لم تكن الرسل لتظن ذلك بربها . قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصدقوهم وطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر ، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك ^(٢) .

(١) العمود : بفتح العين : الخشبة القائمة فى وسط الخباء ، والأخبية بيوت أهل البادية ، فقوله : أهل العمود يعنى : أهل البادية كما يدل عليه السياق .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٦٩٥) والنسائى فى التفسير (٢٧٥) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن أبي مليكة ؛ أن ابن عباس قرأها عليه : ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ مخففة ، يقول : أخلفوا ، وقال ابن عباس : كانوا بشراً ، وتلا : ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ [البقرة : ٢١٤] قال ابن أبي مليكة : وأخبرني عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته ، وقالت : ما وعد الله رسوله من شيء إلا علم أنه سيكون قبل أن يموت ، ولكنه لم يزل البلاء بالرسول حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم ، وكانت تقرؤها مثقلة ^(١) . وأخرج ابن مردويه من طريق عروة عن عائشة أن النبي ﷺ قرأ : ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ مخففة . وأخرج أبو عبيدة وسعيد بن منصور والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ : ﴿قد كذبوا﴾ مخففة قال : يشس الرسل من قومهم أن يستجيبيوا لهم ، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم بما جاؤوا به ^(٢) ﴿جاءهم نصرنا﴾ قال : جاء الرسل نصرنا .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ عن تميم بن حذلم ^(٣) قال : قرأت على ابن مسعود القرآن فلم يأخذ على إلا حرفين ﴿وكل﴾ ^(٤) أتوه داخرين ﴿[النمل : ٨٧] فقال : أتوه مخففة . وقرأت عليه : ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ فقال : ﴿كذبوا﴾ مخففة . قال : استيأس الرسل من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا . وأخرج ابن مردويه من طريق أبي الأحوص عنه قال : حفظت عن رسول الله ﷺ في سورة يوسف : ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ خفيفة وللسلف في هذا كلام يرجع إلى ما ذكرناه من الخلاف عن الصحابة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس «فنجى من نشاء» قال : فنجى الرسل ومن نشاء ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ وذلك أن الله بعث الرسل يدعون قومهم ، فأخبروهم أن من أطاع الله نجا ، ومن عصاه عذب وغوى . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : ﴿جاءهم نصرنا﴾ العذاب . وأخرج أبو الشيخ عن السدي ﴿ولا يرد بأسنا﴾ قال : عذابه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿لقد كان في قصصهم﴾ قال : يوسف وإخوته . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ : ﴿عبرة لأولي الأبواب﴾ قال : معروفة لذوى العقول . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ما كان حديثا يفترى﴾ قال : الفرية : الكذب ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ قال : القرآن

(١) البخارى فى التفسير (٤٥٢٤ ، ٤٥٢٥) .

(٢) النسائي فى التفسير (٢٧٧) وابن جرير ١٣ / ٥٤ .

(٣) تميم بن حذلم الضبى ، أبو سلمة الكوفى ، من أصحاب ابن مسعود أدرك أبا بكر وعمر رضى الله عنهما .

قال ابن سعد : « كان ثقة قليل الحديث » . (تهذيب التهذيب ١ / ٥١٢ ، ٩٥٢) .

(٤) فى المطبوعة : « كل » .

يصدق الكتب التي كانت قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه كالطورا والإنجيل والزبور ،
ويصدق ذلك كله ، ويشهد عليه أن جميعه حق من عند الله ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ فصل الله
بين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته .

تفسير سورة الرعد

قد وقع الخلاف هل هي مكة أو مدنية ؟ فروى النحاس فى ناسخه عن ابن عباس ؛ أنها نزلت بمكة . وروى أبو الشيخ وابن مردويه عنه أنها نزلت بالمدينة . ومن ذهب إلى أنها مكة سعيد بن جبير والحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد ، ومن ذهب إلى أنها نزلت بالمدينة ابن الزبير والكلبي ومقاتل . وقول ثالث : أنها مدنية إلا آيتين منها فإنهما نزلتا بمكة . وهما قوله تعالى : ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ﴾ . وقيل : قوله : ﴿ ولا يزال الذين كفروا ﴾ تصيهم بما صنعوا قارعة ﴾ وقد روى هذا عن ابن عباس أيضا وقتادة .

وقد أخرج ابن أبى شيبه والروزي فى الجناز عن جابر بن زيد قال : كان يستحب إذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة الرعد (١) . فإن ذلك يخفف عن الميت ، وإنه أهون لقبضه وأيسر لشأنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْمَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾ .

قوله : ﴿ الممر ﴾ . قد تقدم الكلام فى هذه الحروف الواقعة فى أوائل السور بما يغنى عن الإعادة ، وهو اسم للسورة مرفوع المحل على أنه خبر مبتدأ محذوف أو على أنه مبتدأ خبره ما بعده ، والتقدير على الأول : هذه السورة اسمها هذا ، والإشارة بقوله : ﴿ تلك ﴾ إلى آيات هذه السورة ، والمراد بالكتاب : السورة أى تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة الشأن ، ويكون قوله : ﴿ والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾ مراداً به القرآن كله ، أى هو الحق البالغ فى اتصافه بهذه الصفة ، أو تكون الإشارة بقوله : ﴿ تلك ﴾ إلى آيات القرآن جميعه على أن المراد بالكتاب جميع القرآن . ويكون قوله : ﴿ والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾ جملة مبينة

(١) ابن أبى شيبه ٣/ ٢٣٧ .

لكون هذا المنزل هو الحق . قال الفراء : ﴿والذى﴾ رفع بالاستئناف وخبره : ﴿الحق﴾ قال : وإن شئت جعلت ﴿الذى﴾ خفضاً نعتاً للكتاب ، وإن كانت فيه الواو كما فى قوله :

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَامِ

ويجوز أن يكون محل ﴿والذى أنزل إليك﴾ الجر على تقدير: وآيات الذى أنزل إليك ، فيكون الحق على هذا خبراً لمبتدأ محذوف ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ بهذا الحق الذى أنزله الله عليك . قال الزجاج : لما ذكر أنهم لا يؤمنون ذكر الدليل الذى يوجب التصديق بالخالق فقال : ﴿الله الذى رفع السموات بغير عمد﴾ والعمد : الأساطين جمع عماد ، أى قائمات بغير عمد تعتمد عليه ، وقيل : لها عمد ولكن لا نراه . قال الزجاج : العمد : قدرته التى يمسك بها السموات ، وهى غير مرئية لنا ، وقرئ : « عمد » على أنه جمع عمود يعمد به ، أى يسند إليه ، قال النابغة :

وخبر الجن أنى قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد (١)

وجملة ﴿ترونها﴾ مستأنفة استشهد على رؤيتهم لها كذلك . وقيل : هى صفة لعمد . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : رفع السموات ترونها بغير عمد ، ولا ملجئ إلى مثل هذا التكلف ﴿ثم استوى على العرش﴾ أى استولى عليه بالحفظ والتدبير ، أو استوى أمره ، أو أقبل على خلق العرش ، وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى ، والاستواء على العرش صفة لله سبحانه بلا كيف كما هو مقرر فى موضعه من علم الكلام ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ أى ذللها لما يراد منهما من منافع الخلق ، ومصالح العباد ﴿كل يجرى لأجل مسمى﴾ (٢) أى كل من الشمس والقمر يجرى إلى وقت معلوم ، وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التى تكوّر عندها الشمس ويخسف القمر ، وتنكدر النجوم وتنتثر . وقيل : المراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى تنتهيان إليها لا يجاوزنها ، وهى سنة للشمس ، وشهر للقمر ﴿يدبر الأمر﴾ أى يصرفه على ما يريد ، وهو أمر ملكوته وربوبيته ﴿يفضل الآيات﴾ أى يبينها ، وهى الآيات الدالة على كمال قدرته وربوبيته ومنها ما تقدم من رفع السماء بغير عمد ، وتسخير الشمس والقمر وجريهما لأجل مسمى ، والجملتان فى محل نصب على الحال أو خبران لقوله : ﴿الله الذى رفع﴾ على أن الموصول صفة للمبتدأ ، والمراد من هذا تنبيه العباد أن من قدر على هذه الأشياء فهو قادر على البعث والإعادة ، ولذا قال : ﴿لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ أى لعلكم عند مشاهدة هذه الآيات توقنون بذلك لا تشكون فيه ولا تمترون فى صدقه .

ولما ذكر الدلائل السماوية أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال : ﴿وهو الذى مد الأرض﴾

(١) تَدْمُرُ : بلد قديمة مشهورة بالشام . زُعم أن الجن بنتها لسليمان عليه السلام ، وقيل : بل هى قبله . معجم البلدان ١٧/٢ .

(٢) فى المخطوطة : « إلى أجل مسمى » .

قال الفراء : بسطها طولاً وعرضاً. وقال الأصم : إن المد : هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه ، وهذا المد الظاهر للبصر لا ينافى كريتها فى نفسها لتباعد أطرافها ﴿ وجعل فيها رواسى ﴾ أى جبالات ثوابت ، واحدها راسية لأن الأرض ترسو بها ، أى تثبت . والإرساء : الثبوت . قال عنترة :

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِّذَلِكَ حُرَّةً تَرَسُّوْ إِذَا نَقَسُ الْجَبَانَ تَطْلُعُ

وقال جميل :

أَحْبَبُهَا وَالَّذِى أَرَسَى قَوَاعِدَهُ حَتَّى إِذَا ظَهَرَتْ آيَاتُهُ بَطْنًا

﴿ وأنهارا ﴾ أى مياهها جارية فى الأرض فيها منافع الخلق ، أو المراد جعل فيها مجارى الماء ﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ من كل الثمرات متعلق بالفعل الذى بعده ، أى جعل فيها من كل الثمرات ﴿ زوجين اثنين ﴾ الزوج يطلق على الاثنين وعلى الواحد المزاوج لآخر ، والمراد هنا بالزوج الواحد ، ولهذا أكد الزوجين بالاثنين لدفع توهم أنه أريد بالزوج هنا الاثنين ، وقد تقدم تحقيق هذا مستوفى ، أى جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين ، إما فى اللونية كالبياض والسواد ونحوهما ، أو فى الطعمية كالخلو والحامض ونحوهما ، أو فى القدر كالصغير والكبير ، أو فى الكيفية كالحر والبرد .

قال الفراء : يعنى بالزوجين هنا : الذكر والأنثى ، والأول أولى ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ أى يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً ، شبه إزالة نور الهدى بالظلمة بتغطية الأشياء الحسية بالأغطية التى تسترها ، وقد سبق تفسير هذه فى الأعراف ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ أى فيما ذكر من مد الأرض وإثباتها بالجبالات . وما جعله الله فيها من الثمرات المتزاوجة ، وتعاقب النور والظلمة آيات بينة للناظرين المتفكرين المعبرين .

﴿ وفى الأرض قطع متجاورات ﴾ هذا كلام مستأنف يشتمل على ذكر نوع آخر من أنواع الآيات ، قيل : وفى الكلام حذف ، أى قطع متجاورات ، وغير متجاورات ، كما فى قوله : ﴿ سراييل تقيكم الحر ﴾ [النحل : ٨١] أى وتقيكم البرد . قيل : والمتجاورات : المدن وما كان عامراً ، وغير المتجاورات : الصحارى وما كان غير عامر . وقيل : المعنى : متجاورات متدانيات ، ترابها واحد وماؤها واحد . وفيها زرع وجنات ، ثم تتفاوت فى الثمار فيكون البعض حلواً والبعض حامضاً ، والبعض طيباً والبعض غير طيب ، والبعض يصلح فيه نوع والبعض الآخر نوع آخر ﴿ وجنات من أعناب ﴾ والجنات : البساتين ، قرأ الجمهور برفع ﴿ جنات ﴾ على تقدير : وفى الأرض جنات ، فهو معطوف على قطع متجاورات . أو على تقدير : وبينها جنات . وقرأ الحسن بالنصب على تقدير : وجعل فيها جنات ، وذكر سبحانه الزرع بين الأعناب والنخيل ، لأنه يكون فى الخارج كثيراً كذلك ، ومثله فى قوله سبحانه : ﴿ جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ﴾ [الكهف : ٣٢] .

﴿ صنوان وغير صنوان ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر وحفص ﴿ وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ﴾ برفع هذه الأربع عطفًا على جنات، وقرأ الباقون بالجر عطفًا على أعناب . وقرأ مجاهد والسلمي بضم الصاد من صنوان، وقرأ الباقون بالكسر ، وهما لغتان .

قال أبو عبيدة : صنوان جمع صنو ، وهو أن يكون الأصل واحدًا ، ثم يتفرع فيصير نخلاً ، ثم يحمل ، وهذا قول جميع أهل اللغة والتفسير . قال ابن الأعرابي : الصنو : المثل ومنه قوله ﷺ : « عم الرجل صنو أبيه » ^(١) ، فمعنى الآية على هذا : أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة وقد لا تكون . قال في الكشف : والصنوان جمع صنو وهي النخلة لها رأسان وأصلها واحد . وقيل : الصنوان المجتمع ، وغير الصنوان المتفرق . قال النحاس : وهو كذلك في اللغة ، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر : صنوان ، والصنو: المثل ولا فرق بين الثنية والجمع إلا بكسر النون في المثني ، وبما يقتضيه الإعراب في الجمع .

﴿ يسقى بماء واحد ﴾ قرأ عاصم وابن عامر : ﴿ يسقى ﴾ بالتحية ، أى يسقى ذلك كله ، وقرأ الباقون بالفوقية بإرجاع الضمير إلى جنات ، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد وأبو عمرو . قال أبو عمرو : التأنيث أحسن لقوله : ﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ ولم يقل : بعضه . وقرأ حمزة والكسائي : « يفضل » بالتحية كما في قوله : ﴿ يدبر الأمر يفصل الآيات ﴾ وقرأ الباقون بالنون على تقدير : ونحن نفضل .

وفى هذا من الدلالة على بديع صنعه ، وعظيم قدرته ما لا يخفى على من له عقل ؛ فإن القطع المتجاورة والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تسقى بماء واحد وتتفاضل في الثمرات في الأكل ، فيكون طعم بعضها حلواً والآخر حامضاً ، وهذا في غاية الجودة وهذا ليس بجيد ، وهذا فائق في حسنه ، وهذا غير فائق ، مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر ونظر العقلاء أن السبب المقتضى لاختلافها ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جل سلطانه وتعالى شأنه ، لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلا لسببين : إما اختلاف المكان الذى هو المنبت ، أو اختلاف الماء الذى تسقى به ، فإذا كان المكان متجاوراً ، وقطع الأرض متلاصقة ، والماء الذى تسقى به واحداً ، لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل إلا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب . ولهذا قال الله سبحانه : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ أى يعملون على قضية العقل وما يوجبه غير مهملين لما يقتضيه من التفكير في المخلوقات والاعتبار في العبر الموجودات .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ المر ﴾ قال : أنا الله

(١) أحمد ٣٢٢/٢ ، ٣٢٣ ، ومسلم فى الزكاة (٩٨٣ / ١١) وأبو داود فى الزكاة (١٦٢٣) والترمذى فى المناقب (٣٧٦١) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه من حديث أبى الزناد إلا من هذا الوجه » ، كلهم عن أبى هريرة .

أرى . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ المر ﴾ فواتح يفتح بها كلامه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ قال : التوراة والإنجيل ﴿ والذى أنزل إليك من ربك الحق ﴾ قال : القرآن . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ رفع السموات ﴾^(١) بغير عمد ترونها ﴿ قال : وما يدريك لعلها بعمد لا ترونها . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وأبو الشيخ عنه فى الآية قال : يقول لها عمد ولكن لا ترونها . يعنى الأعماد . وأخرج ابن جرير عن إياس بن معاوية فى الآية قال : السماء مقببة على الأرض مثل القبة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : السماء على أربعة أملاك ، كل زاوية موكل بها ملك . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ فى قوله ﴿ لأجل مسمى ﴾ قال : الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ يدبر الأمر ﴾ قال : يقضيه وحده . وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد الله ابن عمرو قال : الدنيا مسيرة خمسمائة عام ؛ أربعمائة خراب ، ومائة عمران ، فى أيدي المسلمين من ذلك مسيرة سنة . وقد روى عن جماعة من السلف فى ذلك تقديرات لم يأت عليها دليل يصح .

وأخرج ابن جرير عن على بن أبى طالب قال : لما خلق الله الأرض قمصت . وقالت : أى رب ، تجعل على بنى آدم يعملون على الخطايا ويجعلون على الخبث ، فأرسل الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون ، فكان إقرارها كاللحم ترجرج . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ أى يلبس الليل النهار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات ﴾ قال : يريد الأرض الطيبة العذبة التى يخرج نباتها بإذن ربها ، تجاورها السبخة القبيحة المالحة التى لا تخرج ، وهما أرض واحدة ، وماؤها شئ واحد ، ملح أو عذب فضلت إحداهما على الأخرى . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : قرئ : « متجاورات قريب بعضها من بعض » .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : الأرض تنبت حلوًا ، والأرض تنبت حامضًا ، وهى متجاورات تسقى بماء واحد .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن البراء بن عازب فى قوله : ﴿ صنوان وغير صنوان ﴾ قال : الصنوان : ما كان أصله واحدًا وهو متفرق ، ﴿ وغير صنوان ﴾ التى تنبت وحدها . وفى لفظ : صنوان : النخلة فى النخلة ملتصقة ، وغير صنوان : النخل المتفرق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ صنوان ﴾ قال : مجتمع النخل فى أصل واحد ﴿ وغير صنوان ﴾ قال :

(١) فى المخطوطة : « السماء » .

النخل المتفرق . وأخرج الترمذى وحسنه ، والبزار وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فى قوله : ﴿ ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ﴾ قال : « الدقل ، والفارسى ، والحلو ، والحامض » (١) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : هذا حامض ، وهذا حلو ، وهذا دقل ، وهذا فارسى .

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ (١١) ﴾ .

قوله : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم من الصادقين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث ، والله تعالى لا يجوز عليه التعجب ؛ لأنه تغير النفس بشيء تخفى أسبابه وإنما ذكر ذلك ليعجب منه رسوله وأتباعه . قال الزجاج : أى هذا موضوع عجب أيضا أنهم أنكروا البعث وقد بين لهم من خلق السموات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل فى القدرة . وقيل : الآية فى منكرى الصانع ، أى إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بد له من مغير ، فهو محل التعجب ، والأولى لقوله : ﴿ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وهذه الجملة فى محل رفع على البدلية من ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على أنها مقول القول ، والعجب على الأول كلامهم وعلى الثانى تكلمهم بذلك ، والعامل فى « إذا » (٢) يفيد قوله : ﴿ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وهو نبعث أو نعاد . والاستفهام منهم للإنكار المفيد لكمال الاستبعاد ، وتقديم

(١) الترمذى فى التفسير (٣١١٨) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ٦٩/١٣ وفى إسناده سيف بن

محمد الثورى قال عنه البخارى : « ضعفه أحمد » التاريخ الكبير ١٧٢/٤ . روى عبد الله بن أحمد بن حنبل

عن أبيه أنه قال : « كذاب » . وقال أبو حاتم : « لا يكتب حديثه » وعن ابن معين : « كذاب » وقال النسائى :

« ضعيف » . وقال الدارقطنى وغيره : « متروك » ميزان الاعتدال ٢/٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) راجع ما كتبه ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية ٦٩/١٣ ، ٧٠ .

الظرف فى قوله: ﴿ لفى خلق ﴾ لتأكيد الإنكار بالبعث، وكذلك تكرير الهمزة فى قوله: « إنا ». ثم لما حكى الله سبحانه ذلك عنهم حكم عليهم بأمور ثلاثة : الأول : ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم ﴾ أى أولئك المنكرون لقدرته سبحانه على البعث، هم المتمادون فى الكفر الكاملون فيه . والثانى : ﴿ وأولئك الأغلال فى أعناقهم ﴾ الأغلال : جمع غل ، وهو طوق تشد به اليد إلى العنق ، أى يغلقون بها يوم القيامة . وقيل : الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم لزوم الأطواق للأعناق . والثالث : ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ لا ينفكون عنها بحال من الأحوال ، وفى توسط ضمير الفصل دلالة على تخصيص الخلود بمنكرى البعث .

﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ﴾ السيئة : العقوبة المهلكة . والحسنة : العافية والسلامة . قالوا هذه المقالة لفرط إنكارهم وشدة تصميمهم وتهالكهم على الكفر . وقيل : معنى الآية : أنهم طلبوا العقوبة قبل الحسنة، وهى الإيمان ﴿ وقد خلت من قبلهم المثلاث ﴾ قرأ الجمهور « مثلاث » بفتح الميم وضم المثلة جمع مثلة كسمرة، وهى العقوبة . قال ابن الأنبارى : المثلة : العقوبة التى تبقى فى المعاقب شيئاً بتغيير بعض خلقه من قولهم : مثل فلان بفلان : إذا شان خلقه بقطع أنفه وسمل عينيه وبقر بطنه . وقرأ الأعمش بفتح الميم وإسكان المثلة تخفيفاً لثقل الضمة . وفى لغة تميم بضم الميم والمثلة جميعاً، واحديثها على لغتهم مثلة بضم الميم وسكون المثلة مثل غُرْفَة وغُرُفَات . وحكى عن الأعمش فى رواية أخرى أنه قرأ هذا الحرف بضمها على لغة تميم . والمعنى أن هؤلاء يستعجلونك بإنزال العقوبة بهم ، وقد مضت من قبلهم عقوبات أمثالهم من المكذبين ، فما لهم لا يعتبرون بهم ، ويحذرون من حلول ما حل بهم ، والجملة فى محل نصب على الحال ، وهذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء كقولهم : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ الآية [الأنفال : ٣٢] ﴿ وإن ربك لذو مغفرة ﴾ أى لذو تجاوز عظيم ﴿ للناس على ظلمهم ﴾ أنفسهم باقترافهم الذنوب ووقوعهم فى المعاصى إن تابوا عن ذلك ، ورجعوا إلى الله سبحانه ، والجار والمجرور أى على ظلمهم فى محل نصب على الحال ، أى حال كونهم ظالمين ، و« على » بمعنى : « مع » أى مع ظلمهم ، وفى الآية بشارة عظيمة ورجاء كبير ؛ لأن من المعلوم أن الإنسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائباً ، ولهذا قيل : إنها فى عصاة الموحدين خاصة . وقيل : المراد بالمغفرة هنا: تأخير العقاب إلى الآخرة ليطابق ما حكاه الله من استعجال الكفار للعقوبة وكما تفيد الجملة المذكورة بعد هذه الآية . وهى ﴿ وإن ربك لشديد العقاب ﴾ يعاقب العصاة المكذبين من الكافرين عقاباً شديداً على ما تقتضيه مشيئته فى الدار الآخرة .

﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ أى هلا أنزل عليه آية غير ما قد جاء به من الآيات ، وهؤلاء الكفار القائلون هذه المقالة هم المستعجلون للعذاب . قال الزجاج : طلبوا غير الآيات التى أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى ، فقال الله تعالى: ﴿ إنما أنت منذر ﴾ تنذرهم بالنار وليس إليك من الآيات شئ . انتهى . وهذا مكابرة من الكفار وعناد ، وإلا فقد

أنزل الله على رسوله من الآيات ما يغنى البعض منه ، وجاء فى ﴿ إنما أنت منذر ﴾ بصيغة الحصر لبيان أنه ﷺ مرسل لإنذار العباد ، وبيان ما يحذرون عاقبته ، وليس عليه غير ذلك وقد فعل ما هو عليه ، وأنذر أبلغ إنذار ، ولم يدع شيئاً مما يحصل به ذلك إلا أتى به وأوضحه وكرره ، فجزاه الله عن أمته خيراً .

﴿ ولكل قوم هاد ﴾ أى نبي يدعوهم إلى ما فيه هدايتهم ورشادهم ، وإن لم تقع الهداية لهم بالفعل ولم يقبلوها ، وآيات الرسل مختلفة . هذا يأتى بآية أو آيات لم يأت بها الآخر بحسب ما يعطيه الله منها ، ومن طلب من بعضهم ما جاء به البعض الآخر فقد بلغ فى التعنت إلى مكان عظيم ، فليس المراد من الآيات إلا الدلالة على النبوة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية ، وذلك لا يختص بفرد منها ولا بأفراد معينة ، وقيل : إن المعنى : ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ وهو الله — عز وجل — فإنه القادر على ذلك ، وليس على أنبيائه إلا مجرد الإنذار .

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ الجملة مستأنفة مسوقة لبيان إحاطته بالعلم سبحانه ، وعلمه بالغيب الذى هذه الأمور المذكورة منه . قيل : ويجوز أن يكون الاسم الشريف خبراً لمبتدأ محذوف ، أى ولكل قوم هاد وهو الله . وجملة ﴿ يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ تفسير لهاد على الوجه الأخير وهذا بعيد جداً ، و« ما » موصولة ، أى يعلم الذى تحمله كل أنثى فى بطنها من علقة ، أو مضغة أو ذكر أو أنثى ، أو صبيح أو قبيح ، أو سعيد أو شقى ، ويجوز أن تكون استفهامية ، أى يعلم أى شئ فى بطنها ، وعلى أى حال هو . ويجوز أن تكون مصدرية ، أى يعلم حملها . ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ الغيظ : النقص ، أى يعلم الذى تغيظه الأرحام ، أى تنقصه ، ويعلم ما تزداده ، فقيل : المراد نقص خلقه الحمل وزيادته كنقص إصبع أو زيادتها . وقيل : إن المراد نقص مدة الحمل على تسعة أشهر ، أو زيادتها . وقيل : إذا حاضت المرأة فى حال حملها كان ذلك نقصاً فى ولدها . وقيل : الغيظ : ما تنقصه الأرحام من الدم ، والزيادة ما تزداده منه ، و« ما » فى : ﴿ ما تغيض ﴾ ، ﴿ وما تزداد ﴾ تحتل الثلاثة الوجوه المتقدمة فى : ﴿ ما تحمل كل أنثى ﴾ ، ﴿ وكل شئ عنده بمقدار ﴾ أى كل شئ من الأشياء التى من جملتها الأشياء المذكورة عند الله سبحانه بمقدار ، والمقدار : القدر الذى قدره الله .

وهو معنى قوله سبحانه : ﴿ إنا كل شئ خلقناه بقدر ﴾ [القمر : ٤٩] أى كل الأشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذى قد سبق وفرغ منه ، لا يخرج عن ذلك شئ .

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أى عالم كل غائب عن الحس وكل مشهود حاضر ، أو كل معدوم وموجود ولا مانع من حمل الكلام على ما هو أعم من ذلك ﴿ الكبير المتعال ﴾ أى العظيم الذى كل شئ دونه ، المتعالى عما يقوله المشركون ، أو المستعلى على كل شئ بقدرته وعظمته وقهره .

ثم لما ذكر سبحانه أنه يعلم تلك المغيبات لا يغادره شيء منها ، بين أنه عالم بما يسرونه في أنفسهم وما يجهرون به لغيره ، وأن ذلك لا يتفاوت عنده فقال : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ﴾ فهو يعلم ما أسره الإنسان كعلمه بما جهر به من خير وشر ، وقوله : ﴿ منكم ﴾ متعلق بسواء على معنى : يستوى منكم من أسر ومن جهر أو سر من أسر وجهر من جهر ﴿ ومن هو مستخف بالليل ﴾ أى مستتر فى الظلمة الكائنة فى الليل متوار عن الأعين ، يقال : خفى الشيء واستخفى ، أى استتر وتوارى ﴿ وسارب بالنهار ﴾ قال الكسائى : سَرَبَ يَسْرُبُ سُرْبًا وَسُرُوبًا : إذا ذهب ، ومنه قول الشاعر :

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم ونحن خلعنا قيده فهو سارب

أى ذهب . وقال القتيبي : سارب بالنهار متصرف فى حوائجه بسرعة من قولهم : أسرب الماء . قال الأصمعي : حل سربه ، أى طريقته ، وقال الزجاج : معنى الآية : الجاهر بنطقه والمضمر فى نفسه ، والظاهر فى الطرقات والمستخفى فى الظلمات علم الله فيهم جميعاً سوى ، وهذا الصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفى والسارب ، فالمستخفى : المستتر ، والسارب : البارز الظاهر .

﴿ له معقبات ﴾ الضمير فى « له » راجع إلى « من » فى قوله : ﴿ من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف ﴾ أى لكل من هؤلاء معقبات ، والمعقبات : المتناوبات التى يخلف كل واحد منها صاحبه ، ويكون بدلا منه وهم الحفظة من الملائكة فى قول عامة المفسرين . قال الزجاج : المعقبات ملائكة يأتى بعضهم بعقب بعض ، وإنما قال : معقبات مع كون الملائكة ذكورا ؛ لأن الجماعة من الملائكة يقال لها : معقبة ، ثم جمع معقبة على معقبات ، ذكر معناه الفراء . وقيل : أنث لكثرة ذلك منهم نحو نسابة وعلامة . قال الجوهري : والتعقب العود بعد البدء ، قال الله تعالى : ﴿ ولى مدبرا ولم يعقب ﴾ [النمل : ١٠] وقرئ : « معاقب » جمع معقب ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ أى من بين يدي من له المعقبات ، والمراد : أن الحفظة من الملائكة من جميع جوانبه . وقيل : المراد بالمعقبات : الأعمال ، ومعنى ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ : ما تقدم منها وما تأخر .

﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ أى من أجل أمر الله ، وقيل : يحفظونه من بأس الله إذا أذنب بالاستمهال له والاستغفار حتى يتوب . قال الفراء : فى هذا قولان : أحدهما : أنه على التقدير والتأخير . تقديره : له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، والثانى : أن كون الحفظة يحفظونه هو مما أمر الله به . قال الزجاج : المعنى : حفظهم إياه من أمر الله أى مما أمرهم به لا أنهم يقدر أن يدفعوا أمر الله . قال ابن الأنبارى : وفى هذا قول آخر وهو أن « من » بمعنى الباء ، أى يحفظونه بأمر الله . وقيل : إن « من » بمعنى عن ، أى يحفظونه عن أمر الله ، بمعنى من عند الله ، لا من عند أنفسهم كقوله : ﴿ أطعمهم من جوع ﴾ [قريش : ٤] أى عن جوع . وقيل : يحفظونه من ملائكة العذاب . وقيل : يحفظونه من

الجن . واختار ابن جرير أن المعقبات المواكب بين أيدي الأمراء على معنى أن ذلك لا يدفع عنه القضاء .

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم ﴾ من النعمة والعافية ﴿ حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ من طاعة الله ، والمعنى : أنه لا يسلب قوماً نعمة أنعم بها عليهم حتى يغيروا الذي بأنفسهم من الخير والأعمال الصالحة أو يغيروا الفطرة التي فطرهم الله عليها ، قيل : وليس المراد أنه لا ينزل بأحد من عباده عقوبة حتى يتقدم له ذنب ، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما في الحديث إنه سأل رسول الله ﷺ سائل فقال : أنهلك وفيما الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثرت الخبث » (١) .

﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءا ﴾ أى هلاكاً وعذاباً ﴿ فلا مرد له ﴾ أى فلا رد له . وقيل : المعنى : إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى قلوبهم ؛ حتى يختاروا ما فيه البلاء ﴿ وما لهم من دونه من وال ﴾ يلى أمرهم ويلتجئون إليه ، فيدفع عنهم ما ينزل بهم من الله سبحانه من العقاب ، أو من ناصر ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله ، والمعنى : أنه لا راد لعذاب الله ولا ناقص لحكمه .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾ قال : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم إياك فعجب قولهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد في الآية قال : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم ، وهم رأوا من قدرة الله وأمره ، وما ضرب لهم من الأمثال وأراهم من حياة الموتى والأرض الميتة ﴿ فعجب قولهم أنذا كنا تراباً أننا لفي خلق جديد ﴾ أو لا يرون أنه خلقهم من نطفة ، فالخلق من نطفة أشد من الخلق من تراب وعظام ؟

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وقد خلت من قبلهم المثلثات ﴾ قال : العقوبات . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في ﴿ المثلثات ﴾ قال : وقائع الله في الأمم فيمن خلا قبلكم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ المثلثات ﴾ ما أصاب القرون الماضية من العذاب . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ قال رسول الله ﷺ : « لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا لأحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد » .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ نبي يدعوهم إلى الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال : محمد المنذر ، والهادى الله — عز وجل . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه أيضاً . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : رسول الله ﷺ هو المنذر وهو الهادى . وأخرج ابن جرير عن عكرمة وأبي الضحى نحوه . وأخرج ابن

جرير وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة ، والديلمى وابن عساكر وابن النجار عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال : « أنا المنذر » ، وأوماً بيده إلى منكب على فقال : « أنت الهادى يا على ، بك يهتدى المهتدون من بعدى » (١) ، قال ابن كثير فى تفسيره : وهذا الحديث فيه نكارة شديدة (٢) . وأخرج ابن مردويه عن أبى برزة الأسلمى ، قال : سمعت رسول الله ﷺ فذكر نحوه . وأخرج ابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس مرفوعاً نحوه أيضاً . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وابن عساكر عن على بن أبى طالب فى الآية نحوه أيضاً (٣) .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ قال : كل أنثى من خلق الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى الآية قال : يعلم ذكراً هو أو أنثى . ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ قال : هى المرأة ترى الدم فى حملها . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ قال : خروج الدم ، ﴿ وما تزداد ﴾ قال : استمساكه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ قال : أن ترى الدم فى حملها ﴿ وما تزداد ﴾ قال : فى التسعة أشهر . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عنه فى الآية قال : ما تزداد على تسعة ، وما تنقص من التسعة . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه أيضاً فى الآية : ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ قال : السقط ﴿ وما تزداد ﴾ : ما زادت فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً ، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومنهن من تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التى ذكر الله ، وكل ذلك بعلمه تعالى .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً فى قوله : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ قال : السر والعلانية . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله : ﴿ ومن هو مستخف بالليل ﴾ قال : راكب رأسه فى المعاصى . ﴿ وسارب بالنهار ﴾ قال : ظاهر بالنهار بالمعاصى . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وسارب بالنهار ﴾ قال : الظاهر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : هو صاحب ريبة مستخف بالليل ، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه برىء من الإثم .

(١) ابن جرير ٧٢/١٣ وفى سنده الحسن بن الحسين الأنصارى العرفى كان من رؤساء الشيعة . قال عنه أبو حاتم : « لم يكن بصدوق عندهم » . وقال ابن عدى : « لا يشبه حديثه حديث الثقات » . وقد رواه عن معاذ بن مسلم وهو نكرة فلعل الآفة منه » . ميزان الاعتدال ١/٤٨٣ ، ٤٨٤ .

(٢) ابن كثير ٧٠/٤ .

(٣) صححه الحاكم موقوفاً ٣/١٣٠ ، وقال الذهبى : « بل كذب قبح الله واضعه » وقال الهيثمى فى المجمع ٤٤/٧ : « رواه عبد الله بن أحمد والطبرانى فى الصغير والأوسط ورجال المسند ثقات ، ولم يسم علياً » .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، والطبراني في الكبير ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء بن يسار، عن ابن عباس أن سبب نزول الآية قدوم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس على رسول الله ﷺ في القصة المشهورة وأنه لما أصيب عامر بن الطفيل بالغدة نزل قوله تعالى : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ إلى قوله : ﴿ معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ قال : المعقبات من أمر الله يحفظون محمداً ﷺ ، ثم ذكر أربد بن قيس وما قتله فقال : ﴿ هو الذي يريكم البرق ﴾ إلى قوله : ﴿ وهو شديد المحال ﴾ (١).

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ معقبات ﴾ الآية قال: هذه للنبي ﷺ خاصة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ قال : ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ من أمر الله ﴾ قال : بإذن الله . وأخرج ابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : ولي السلطان يكون عليه الحراس يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، يقول : يحفظونه من أمرى ، فإننى إذا أردت بقوم سوءاً فلا مرد له . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه في الآية قال : الملوك يتخذون الحرس يحفظونه من أمامه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، يحفظونه من القتل ، ألم تسمع أن الله يقول : ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ﴾ أى إذا أراد الله سوءاً لم يغن الحرس عنه شيئاً . وأخرج ابن جرير عن عكرمة في الآية قال : هؤلاء الأمراء . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن علي في الآية قال : ليس من عبد إلا ومعه ملائكة يحفظونه من أن تقع عليه حائط ، أو ينزوى في بئر ، أو يأكله سبع ، أو غرق أو حرق ، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر . وقد ورد في ذكر الحفظة الموكلين بالإنسان أحاديث كثيرة مذكورة في كتب الحديث .

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) قُلْ مَنْ رَبُّ

(١) الطبراني (١٠٧٦٠) وقال الهيثمي في المجمع ٤٥/٧ : « رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفي إسنادهما عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف ».

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهٗ لَفَتَدَوَّا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴿

لما خوف سبحانه عباده بإنزال ما لا مرد له ، أتبعه بأمور ترجى من بعض الوجوه ، ويخاف من بعضها ، وهى البرق ، والسحاب ، والرعد ، والصاعقة ، وقد مر فى أول البقرة تفسير هذه الألفاظ وأسبابها . وقد اختلف فى وجه انتصاب ﴿خوفا وطمعا﴾ فقيل على المصدرية ، أى لتخافوا خوفاً ولتطمعوا طمعاً . وقيل : على العلة بتقدير إرادة الخوف والطمع ، لثلا يختلف فاعل الفعل المعلن وفاعل المفعول له ، أو على الحالية من البرق ، أو من المخاطبين بتقدير ذوى خوف . وقيل غير ذلك مما لا حاجة إليه . قيل : والمراد بالخوف هو الحاصل من الصواعق ، وبالطمع هو الحاصل فى المطر ، وقال الزجاج : الخوف للمسافر لما يتأذى به من المطر ، والطمع للحاضر ؛ لأنه إذا رأى البرق طمع فى المطر ، الذى هو سبب الخصب ﴿وينشئ السحاب الثقال﴾ التعريف للجنس ، والواحدة سحابة ، والثقال : جمع ثقيلة ، والمراد أن الله سبحانه يجعل السحاب التى ينشئها ثقلاً بما يجعله فيها من الماء .

﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ أى يسبح الرعد نفسه بحمد الله ، أى متلبساً بحمده ، وليس هذا بمستبعد ولا مانع من أن ينطقه الله بذلك ﴿ وإن من شئ إلا يسبح بحمده ﴾ [الإسراء : ٤٤] وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد فى ذلك ، ويكون ذكره على الأفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له ، وعناية به . وقيل : المراد : ويسبح سامعو الرعد ، أى يقولون : سبحان الله والحمد لله . ﴿ والملائكة من خيفته ﴾ أى ويسبح الملائكة من خيفة الله سبحانه . وقيل : من خيفة الرعد ، وقد ذكر جماعة من المفسرين أن هؤلاء الملائكة هم أعوان الرعد ، وأن الله سبحانه جعل له أعواناً ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ من خلقه فيهلكه ، وسياق هذه الأمور هنا للغرض الذى سبقت له الآيات التى قبلها وهى الدلالة على كمال قدرته ﴿ وهم يجادلون فى الله ﴾ الضمير راجع إلى الكفار ، المخاطبين فى قوله : ﴿ هو الذى يريكم البرق ﴾ أى وهؤلاء الكفرة مع هذه الآيات التى أراهم الله يجادلون فى شأن الله

سبحانه فينكرون البعث تارة ، ويستعجلون العذاب أخرى ، ويكذبون الرسل ويعصون الله ، وهذه الجملة فى محل نصب على الحال ويجوز أن تكون مستأنفة .

﴿ وهو شديد المحال ﴾ قال ابن الأعرابي: المحال: المكر ، والمكر من الله: التدبير بالحق . وقال النحاس : المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر . وقال الأزهري : المحال : القوة والشدة ، والميم أصلية ومأحلت فلانا محالاً أينما أشد . وقال أبو عبيد : المحال : العقوبة والمكروه . قال الزجاج : يقال : مأحلت محالاً : إذا قاوته حتى يتبين أيكما أشد والمحل في اللغة : الشدة . وقال ابن قتيبة : أى شديد الكيد . وأصله من الحيلة جعل الميم كميم المكان ، وأصله من الكون ، ثم يقال : تمكنت . قال الأزهري : غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة، بل هى أصلية ، وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهى أصلية ، مثل مهاد وملاك ومراس وغير ذلك من الحروف . وقرأ الأعرج : « وهو شديد المحال » بفتح الميم . وقد فسرت هذه القراءة بالحوّل . وللصحابة والتابعين فى تفسير المحال هنا أقوال ثمانية : الأول : العداوة . الثانى : الحول . الثالث : الأخذ . الرابع : الحقد . الخامس : القوة . السادس : الغضب . السابع : الهلاك . الثامن : الحيلة .

﴿ له دعوة الحق ﴾ إضافة الدعوة إلى الحق للملابسة ، أى الدعوة للملابسة للحق المختصة به التى لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه ، كما يقال : كلمة الحق ، والمعنى : أنها دعوة مجابة واقعة فى موقعها ، لا كدعوة من دونه . وقيل : الحق هو الله سبحانه ، والمعنى : أن لله سبحانه دعوة المدعو الحق ، وهو الذى يسمع فيجيب . وقيل : المراد بدعوة الحق ها هنا : كلمة التوحيد والإخلاص ، والمعنى : لله من خلقه أن يوحده ويخلصوا له . وقيل : دعوة الحق دعاؤه سبحانه عند الخوف فإنه لا يدعى فيه سواه كما قال تعالى : ﴿ ضل من تدعون إلا إياه ﴾ [الإسراء : ٦٧] . وقيل : الدعوة : العبادة فإن عبادة الله هى الحق والصدق . ﴿ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء ﴾ أى والآلهة الذين يدعونهم - يعنى الكفار - من دون الله - عز وجل - لا يستجيبون لهم بشيء مما يطلبونه منهم كائناتاً ما كان إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد فإنه لا يجيبه ؛ لأنه جماد لا يشعر بحاجته إليه ، ولا يدري أنه طلب منه أن يبلغ فاه ؛ ولهذا قال : ﴿ وما هو ﴾ أى الماء ﴿ ببالغ ﴾ أى ببالغ فيه . قال الزجاج : إلا كما يستجاب للذى يبسط كفيه إلى الماء يدعو الماء إلى فيه ، والماء لا يستجيب . أعلم الله سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان إلى الماء يدعوهم إلى بلوغ فمه ، وما الماء ببالغ . وقيل : المعنى : أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل فى كفه شيء منه . وقد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقبض على الماء كما قال الشاعر (١) :

(١) هو الأحوص : عبد الله بن محمد بن عبد الله ، شاعر أموى ، عاصر جريراً والفرزدق ، مات فى عهد يزيد ابن عبد الملك ، شاعر هجاء وغزل . الأعلام ١١٦/٤ .

فَأَصْبَحَتْ مِمْمَاً كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
مِنَ الْوُدِّ مِثْلَ الْقَابِضِ الْمَاءِ بِالْيَدِ

وقال الآخر :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء خائته فزوج الأصابع

وقال الفراء : إن المراد بالماء هنا ماء البئر ؛ لأنها معدن للماء ، وأنه شبهه بمن مد يده إلى البئر بغير رشاء . ضرب الله سبحانه هذا مثلاً لمن يدعو غيره من الأصنام . ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ أى يضل عنهم ذلك الدعاء فلا يجدون منه شيئاً ، ولا ينفعهم بوجه من الوجوه ، بل هو ضائع ذاهب .

﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها ﴾ إن كان المراد بالسجود معناه الحقيقى ، وهو وضع الجبهة على الأرض للتعظيم مع الخضوع والتذلل ، فذلك ظاهر فى المؤمنين والملائكة ومسلمى الجن . وأما فى الكفار فلا يصح تأويل السجود بهذا فى حقهم فلا بد أن يحمل السجود المذكور فى الآية على معنى : حق لله السجود ووجب ، حتى يناول السجود بالفعل وغيره ، أو يفسر للسجود بالانقياد ، لأن الكفار وإن لم يسجدوا لله فهم منقادون لأمره ، وحكمه فيهم بالصحة والمرض والحياة والموت والفقر والغنى ، ويدل على إرادة هذا المعنى قوله : ﴿ طوعاً وكرها ﴾ فإن الكفار ينقادون كرهاً كما ينقاد المؤمنون طوعاً وهما منتصبان على المصدرية ، أى انقياد طوع وانقياد كره ، أو على الحال ، أى طائعين وكارهين . وقال الفراء : الآية خاصة بالمؤمنين فإنهم يسجدون طوعاً ، وبعض الكفار يسجدون إكراهاً وخوفاً كالمنافقين ، فالآية محمولة على هؤلاء . وقيل : الآية فى المؤمنين ، فمنهم من سجد طوعاً لا يثقل عليه السجود ، ومنهم من يثقل عليه لأن التزام التكليف مشقة ولكنهم يتحملون المشقة إيماناً بالله وإخلاصاً له .

﴿ وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ وظلالهم : جمع ظل . والمراد به : ظل الإنسان الذى يتبعه . جعل ساجداً بسجوده حيث صار لازماً له لا ينفك عنه . قال الزجاج وابن الأنبارى : ولا يبعد أن يخلق الله للظلال أفهاماً تسجد بها لله سبحانه ، كما جعل للجبال أفهاماً حتى اشتغلت بتسبيحه ، فظل المؤمن يسجد لله طوعاً ، وظل الكافر يسجد لله كرهاً . وخص الغدو والآصال بالذكر ؛ لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما ، وهما ظرف للسجود المقدر ، أى ويسجد ظلالمهم فى هذين الوقتين ، وقد تقدم تفسير الغدو والآصال فى الأعراف . وفى معنى هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفياً ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون ﴾ [النحل : ٤٨] وجاء بمن فى ﴿ من فى السموات والأرض ﴾ تغليياً للعقلاء على غيرهم ولكون سجود غيرهم تبعاً لسجودهم ، وما يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيد تقديم ﴿ لله ﴾ على الفعل من الاختصاص ، فإن سجود الكفار لأصنامهم معلوم ، ولا ينقادون لهم كأنقيادهم لله فى الأمور التى يقرون على أنفسهم بأنها من الله كالخلق والحياة والموت ، ونحو ذلك .

﴿ قل من رب السموات والأرض ﴾ : أمر الله سبحانه رسوله أن يسأل الكفار : من رب السموات والأرض؟ ثم لما كانوا يقرون بذلك ويعترفون به كما حكا الله سبحانه فى قوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ [الزخرف : ٩] . وقوله ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ [الزخرف : ٨٧] أمر رسوله ﷺ أن يجيب فقال : ﴿ قل الله ﴾ فكأنه حكى جوابهم وما يعتقدونه ، لأنهم ربما تلعمشوا فى الجواب حذراً مما يلزمهم ، ثم أمره بأن يلزمهم الحجة ويبكتهم فقال : ﴿ قل أفأتخذتم من دونه أولياء ﴾ والاستفهام للإنكار ، أى إذا كان رب السموات والأرض هو الله كما تقرون بذلك وتعترفون به كما حكا الله سبحانه عنكم بقوله : ﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾ [المؤمنون : ٨٦] يضرون به غيرهم أو يدفعونه عن أنفسهم فكيف ترجون منهم النفع والضرر وهم لا يملكونهما لأنفسهم ، والجملة فى محل نصب على الحال ، ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلاً ، وأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم . فقال : ﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصير ﴾ أى هل يستوى الأعمى فى دينه وهو الكافر ، والبصير فيه وهو الموحد . فإن الأول جاهل لما يجب عليه وما يلزمه ، والثانى عالم بذلك . قرأ ابن محيىن وأبو بكر والأعمش ، وحمزة والكسائى : « أم هل يستوى الظلمات والنور » بالتحية ، وقرأ الباقون بالفوقية ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد . والمراد بالظلمات : الكفر ، وبالنور : الإيمان ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أى كيف يكونان مستويين وبينهما من التفاوت ما بين الأعمى والبصير ، وما بين الظلمات والنور ؟ ووجد النور وجمع الظلمات ؛ لأن طريق الحق واحدة لا تختلف وطرائق الباطل كثيرة غير منحصرة (١) .

﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ﴾ « أم » هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة ، أى بل أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، والاستفهام لإنكار الوقوع . قال ابن الأنبارى : معناه : أجعلوا لله شركاء خلقوا مثل ما خلق الله فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم ، أى ليس الأمر على هذا حتى يشتبه الأمر عليهم ، بل إذا فكروا بعقولهم وجدوا الله هو المتفرد بالخلق ، وسائر الشركاء لا يخلقون شيئاً ، وجملة : ﴿ خلقوا كخلقه ﴾ فى محل نصب صفة لشركاء ، والمعنى : أنهم لم يجعلوا لله شركاء متصفين بأنهم خلقوا كخلقه ﴿ فتشابه ﴾ بهذا السبب ﴿ الخلق عليهم ﴾ حتى يستحقوا بذلك العبادة منهم بل إنما جعلوا له شركاء الأصنام ونحوها ، وهى بمعزل عن أن تكون كذلك . ثم أمره الله سبحانه بأن يوضح لهم الحق ويرشدهم إلى الصواب فقال : ﴿ قل الله خالق كل شىء ﴾ كائناً ما كان ليس لغيره فى ذلك مشاركة بوجه من الوجوه . قال الزجاج : والمعنى : أنه خالق كل شىء مما يصح أن يكون مخلوقاً ترى أنه تعالى خالق كل شىء وهو غير مخلوق ﴿ وهو الواحد ﴾ أى المتفرد بالربوبية ﴿ القهار ﴾ لما عداه فكل ما عداه مربوب مقهور مغلوب .

(١) فى المطبوعة : « محصورة » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطيطة .

ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر للحق وذويه ، وللباطل ومنتحليه فقال : ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ أى من جهتها ، والتكثير للتكثير أو للنوعية ﴿ فسالت أودية ﴾ جمع واد وهو كل منفرج بين جبلين أو نحوهما . قال أبو على الفارسي : لا نعلم فاعلاً جمع على أفعله إلا هذا ، وكأنه حمل على فعيل فجمع على أفعله مثل جريب وأجربة ، كما أن فعياً حمل على فاعل ، فجمع على أفعال مثل يتيم وأيتام ، وشريف وأشراف كأصحاب وأنصار فى صاحب وناصر . قال : وفى قوله : ﴿ فسالت أودية ﴾ توسع ، أى سال ماؤها ، قال : ومعنى ﴿ بقدرها ﴾ : بقدر مائها ؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها . قال الواحدي : والقدر مبلغ الشيء ، والمعنى : بقدرها من الماء فإن صغر الوادى قل الماء ، وإن اتسع كثر ، وقال فى الكشف : ﴿ بقدرها ﴾ : بمقدارها الذى يعرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضار . قال ابن الأنبارى : شبه نزول القرآن الجامع للهدى والبيان بنزول المطر ، إذ نفع نزول القرآن يعم كعموم نفع نزول المطر وشبه الأودية بالقلوب ، إذ الأودية يستكن فيها الماء كما يستكن القرآن والإيمان فى قلوب المؤمنين .

﴿ فاحتمل السيل زيدا رابيا ﴾ الزيد : هو الأبيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل ويقال له : الغناء والرغوة ، والرابى : العالى المرتفع فوق الماء . قال الزجاج : هو الطافى فوق الماء ، وقال غيره : هو الزائد بسبب انتفاخه ، من ربا يربو : إذا زاد ، والمراد من هذا : تشبيه الكفر بالزبد الذى يعلو الماء ، فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الوادى وتدفعه الرياح ، فكذلك يذهب الكفر ويضمحل ، وقد تم المثل الأول ، ثم شرع سبحانه فى ذكر المثل الثانى فقال : ﴿ وما يوقدون عليه فى النار ﴾ « من » لابتداء الغاية ، أى ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء ، أوللتبعض ، بمعنى : وبعضه زبد مثله . والضمير للناس ، أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره ، هذا على قراءة ﴿ يوقدون ﴾ بالتحية ، وبها قرأ حميد وابن محيصن والأعشى وحمزة والكسائى وحفص ، وقرأ الباقر بالفوقية على الخطاب واختار القراءة الأولى أبو عبيد ، والمعنى : وما توقدون عليه فى النار فيذوب من الأجسام المنطوقة الذائبة .

﴿ ابتغاء حلية ﴾ أى لطلب اتخاذ حلية تزينون بها وتتجملون كالذهب والفضة ﴿ أو متاع ﴾ أى وطلب متاع تتمتعون به من الأواني والآلات المتخذة من الحديد والصفى والنحاس والرصاص ﴿ زبد مثله ﴾ المراد بالزبد هنا الخبث ، فإنه يعلو فوق ما أذيب من تلك الأجسام كما يعلو الزبد على الماء فالضمير فى ﴿ مثله ﴾ يعود إلى ﴿ زيدا رابيا ﴾ وارتفاع ﴿ زبد ﴾ على الابتداء وخبره ﴿ مما يوقدون ﴾ ، ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ أى مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله مثل الحق ومثل الباطل ثم شرع فى تقسيم المثل فقال : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ يقال : جفاً الوادى بالهمز جفاء : إذا رمى بالقدر والزبد . قال الفراء : الجفاء : الرمى ، يقال : جفاً الوادى غثاء جفاء : إذا رمى به ، والجفاء بمنزلة الغثاء ، وكذا قال أبو عمرو بن العلاء وحكى أبو عبيدة أنه سمع روبة يقرأ : « جفلاً » . قال أبو عبيدة : يقال : أجفلت القدر : إذا قذفت بزبدتها ، وأجفلت الريح السحاب : إذا قطعت ، قال أبو حاتم : لا يقرأ بقراءة روبة

لأنه كان يأكل الفأر .

واعلم أن وجه المماثلة بين الزبدین فی الزبد الذى یحملة السیل ، والزبد الذى یعلو الأجسام المنطربة ، أن تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صار زبدًا رايًا فوقه ، وكذلك ما یوقد علیه فی النار حتى یذوب من الأجسام المنطربة ، فإن أصله من المعادن التى تثبت فی الأرض فیخالطها التراب ، فإذا أذیبت صار ذلك التراب الذى خالطها خبثًا مرتفعًا فوقها .

﴿ وأما ما ینفع الناس ﴾ منهما وهو الماء الصافى ، والذائب الخالص من الخبث ﴿ فیمکث فی الأرض ﴾ أى یثبت فیها ، أما الماء فإنه یسلك فی عروق الأرض فتنتفع الناس به ، وأما ما أذیب من تلك الأجسام فإنه یصاغ حلیة وأمتعة . وهذان مثالان ضربیهما الله سبحانه للحق والباطل ، یقول : إن الباطل وإن ظهر على الحق فی بعض الأحوال وعلاه فإن الله سبحانه سیمحقه ویبطله ، ویجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذى یعلو الماء فیلقيه الماء ویضمحل ، וכخبث هذه الأجسام فإنه وإن علا علیها فإن الکیر یقذفه ویدفعه ، فهذا مثل الباطل ، وأما الماء الذى ینفع الناس ویثبت المراعى فیمکث فی الأرض ، وكذلك الصفو من هذه الأجسام فإنه یبقى خالصًا لا شوب فیهِ وهو مثل الحق . قال الزجاج : فمثل المؤمن واعتقاده ، ونفع الإیمان كمثل هذا الماء المنتفع به فی نبات الأرض وحیة كل شئ ، וכمثل نفع الفضة والذهب ، وسائر الجواهر ، لأنها كلها تبقى منتفعًا بها ، ومثل الکافر وكفره كمثل الزبد الذى یذهب جفاء ، וכمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذى لا ینتفع به ، وقد حکینا عن ابن الأنبارى فیما تقدم أنه شبه نزول القرآن إلى آخر ما ذکرناه فجعل ذلك مثالاً لضربه الله للقرآن . ﴿ كذلك یضرب الله الأمثال ﴾ أى مثل ذلك الضرب العجیب یضرب الله الأمثال فی كل باب لکمال العناية بعباده واللطف بهم ، وهذا تأکید لقوله : ﴿ كذلك یضرب الله الحق والباطل ﴾ .

ثم بین سبحانه من ضرب له مثل الحق ومثل الباطل من عباده فقال فیمن ضرب له مثل الحق : ﴿ للذین استجابوا لربهم ﴾ أى أجابوا دعوته إذ دعاهم إلى توحیده وتصدیق أنبیائه والعمل بشرائعه ، و ﴿ الحسنی ﴾ صفة موصوف محذوف ، أى المثوبة الحسنی وهى الجنة ، وقال سبحانه فیمن ضرب له مثل الباطل : ﴿ والذین لم یستجیبوا ﴾ لدعوته إلى ما دعاهم إليه ، والموصول مبتدأ وخبره الجملة الشرطیة وهى : ﴿ لو أن لهم ما فی الأرض جمیعاً ﴾ من أصناف الاموال التى یتملکها العباد ویجمعونها بحیث لا یخرج عن ملکهم منها شئ ﴿ ومثله معه ﴾ أى مثل ما فی الأرض جمیعاً کائنًا معه ومنضمًا إليه ﴿ لا فتدوا به ﴾ أى بمجموع ما ذکر وهو ما فی الأرض ومثله ، والمعنى : لیخلصوا به عما هم فیهِ من العذاب الکبیر والهول العظیم ، ثم بین الله سبحانه ما أعد له فقال : ﴿ أولئك ﴾ یعنى : الذین لم یستجیبوا ﴿ لهم سوء الحساب ﴾ قال الزجاج : لأن کفرهم أحبط أعمالهم . وقال غیره : سوء الحساب المناقشة فیهِ . وقیل : هو أن یحاسب الرجل بذنبه كله لا یغفر منه شئ ﴿ وماؤاهم جهنم ﴾ أى مرجعهم

إليها ﴿ وبئس المهاد ﴾ أى المستقر الذى يستقرون فيه ، والمخصوص بالذم محذوف .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ قال : خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته وطمعاً للمقيم يطمع فى رزق الله ويرجو بركة المطر ومنفعته . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : خوفاً لأهل البحر ، وطمعاً لأهل البر . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : الخوف ما يخاف من الصواعق ، والطمع : الغيث . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق ، والبيهقى فى سننه من طرق عن على بن أبى طالب قال : البرق : مخاريق من نار بأيدى ملائكة السحاب يزجرون به السحاب . وروى عن جماعة من السلف ما يوافق هذا ويخالفه . ولعلنا قد قدمنا فى سورة البقرة شيئاً من ذلك .

وأخرج أحمد عن شيخ من بنى غفار قد صحب رسول الله ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله ينشئ السحاب فتنتطق أحسن النطق وتضحك أحسن الضحك » (١) . قيل : والمراد بنطقها الرعد وبضحكها البرق ، وقد ثبت عند أحمد والترمذى ، والنسائى فى اليوم واللييلة ، والحاكم فى مستدركه من حديث ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللهم لاتقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » (٢) . وأخرج العقيلي وضعفه ، وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ينشئ الله السحاب ثم ينزل فيه الماء فلا شئ أحسن من ضحكك ، ولا شئ أحسن من نطقه ، ومنطقه الرعد وضحكه البرق » . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ؛ أن خزيمة بن ثابت ، وليس بالأنصارى ، سأل رسول الله ﷺ عن منشأ السحاب فقال : « إن ملكاً موكلًا يلهم القاصية ويلهم الدانية ، فى يده مخراق ، فإذا رفع برقت وإذا زجر رعدت ، وإذا ضرب ضعقت » .

وأخرج أحمد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، إنا نسألك عن خمسة أشياء ، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك ، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال : ﴿ الله على ما نقول وكيل ﴾ [يوسف : ٦٦] قال : « هاتوا » ، قالوا : أخبرنا عن علامة النبی ؟ قال : « تنام عيناه ولا ينام قلبه » ، قالوا : أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر ؟ قال : « يلتقى الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت » . قالوا : أخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : « كان يشتكى عرق النساء ، فلم يجد شيئاً

(١) أحمد ٤٣٥/٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٢/٢١٦ : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

(٢) أحمد ٢/١٠٠ والترمذى فى الدعوات (٣٤٥٠) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .

وصححه الحاكم ٤/٢٨٦ ووافقه الذهبى .

يلائمه إلا ألبان كذا وكذا — يعنى الإبل — فحرم لحومها » . قالوا : صدقت ، قالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال : « ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب بيده مخراق من النار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله » . قالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال : « صوته » . قالوا : صدقت إنما بقيت واحدة وهى التى نتابعك إن أخبرتنا ، إنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر ، فأخبرنا من صاحبك ؟ قال : « جبريل » . قالوا : جبريل ذاك ينزل بالخراب والقتال والعذاب ، عدونا ، لو قلت : ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والنبات والقطر ، لكان . فأنزل الله : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل ﴾^(١) إلى آخر الآية [البقرة: ٩٧] .

وأخرج البخارى فى الأدب المفرد ، وابن أبى الدنيا فى المطر ، وابن جرير عن ابن عباس ؛ أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال : سبحان الذى سبّحت له^(٢) . وقال : إن الرعد ملك ينطق بالغيث كما ينطق الراعى بغنمه ، وقد روى مثل هذا عنه من طرق . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة : إن الرعد صوت الملك . وكذا أخرج نحوه أبو الشيخ عن ابن عمر . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : الرعد ملك اسمه الرعد ، وصوته هذا تسبيحه ، فإذا اشتد زجره احتك السحاب واضطرم من خوفه ، فتخرج الصواعق من بينه . وأخرج ابن أبى حاتم والخرائطى ، وأبو الشيخ فى العظمة عن أبى عمران الجونى قال : إن بحورا من نار دون العرش يكون منها الصواعق . وأخرج أبو الشيخ عن السدى قال : الصواعق نار . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وهو شديد المحال ﴾ قال : شديد القوة . وأخرج ابن جرير عن على قال : شديد الأخذ .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ له دعوة الحق ﴾ قال : التوحيد : لا إله إلا الله . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ دعوة الحق ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير عن على فى قوله : ﴿ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴾ قال : كان الرجل العطشان يمد يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال : هذا مثل المشرك الذى عبد مع الله غيره ، فمثله كمثل الرجل العطشان الذى ينظر إلى خياله فى الماء من بعيد وهو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه .

وأخرج أبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ هل يستوى الأعمى والبصير ﴾ قال : المؤمن والكافر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا فى قوله : ﴿ أنزل

(١) أحمد ٢٧٤/١ والترمذى فى التفسير (٣١١٧) وقال : « هذا حديث حسن غريب » . والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء (٩٠٧٢) .

(٢) البخارى فى الأدب المفرد (٧٢٢) وابن جرير ٨٣/١٣ .

من السماء ماء ﴿ الآية ، قال : هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، فأما الشك فلا ينفع معه العمل وأما اليقين فينفع الله به أهله . وهو قوله : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ وهو الشك ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ وهو اليقين ، وكما يجعل الحلى في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه ، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك . وأخرج هؤلاء عنه أيضا ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ قال : الصغير قدر صغره ، والكبير قدر كبره .

﴿ أَقْمَنَ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) ﴾

الهمزة في قوله : ﴿ أقمن يعلم ﴾ للإنكار على من يتوهم المماثلة بين من يعلم أنما أنزل الله سبحانه إلى رسوله ﷺ من الحق الذي لا شك فيه ولا شبهة وهو القرآن ، وبين من هو أعمى لا يعلم ذلك ، فإن الحال بينهما متباعد جداً كالتباعد الذي بين الماء والزبد ، وبين الخبث والخالص من تلك الأجسام ، ثم بين سبحانه أنه إنما يقف على تفاوت المنزلتين وتباين الرتبتين أهل العقول الصحيحة فقال : ﴿ إنما يتذكر أولو الأبواب ﴾ .

ثم وصفهم بهذه الأوصاف المادحة فقال : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ﴾ أى بما عقدوه من العهود فيما بينهم وبين ربهم ، أو فيما بينهم وبين العباد ﴿ ولا ينقضون الميثاق ﴾ الذى وثقوه على أنفسهم وأكدوه بالآيمان ونحوها ، وهذا تعميم بعد التخصيص لأنه يدخل تحت الميثاق كل ما أوجبه العبد على نفسه كالنذور ونحوها ، ويحتمل أن يكون الأمر بالعكس فيكون من التخصيص بعد التعميم على أن يراد بالعهد جميع عهود الله ، وهى أوامره ونواهيه ، التى وصى بها عبيده ، ويدخل فى ذلك الالتزامات التى يلزم بها العبد نفسه ، ويراد بالميثاق : ما أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم فى عالم الذر المذكور فى قوله سبحانه : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم ﴾ الآية [الأعراف : ١٧١] .

﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ ظاهره شمول كل ما أمر الله بصلته ، ونهى عن قطعه من حقوق الله وحقوق عباده ، ويدخل تحت ذلك صلة الأرحام دخولا أوليا ، وقد

قصره كثير من المفسرين على صلة الرحم ، واللفظ أوسع من ذلك ^(١) . ﴿ ويخشون ربهم ﴾ خشية تحملهم على فعل ما وجب واجتناب ما لا يحل ﴿ ويخافون سوء الحساب ﴾ وهو الاستقصاء فيه والمناقشة للعبد ، فمن نوقش الحساب عذب ^(٢) ، ومن حق هذه الخيفة أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ قيل : هو كلام مستأنف . وقيل : معطوف على ما قبله ، والتعبير عنه بلفظ المضي للتنبيه على أنه ينبغي تحقيقه ، والمراد بالصبر : الصبر على الإتيان بما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه . وقيل : على الرزايا والمصائب ، ومعنى كون ذلك الصبر لابتغاء وجه الله أن يكون خالصاً له ، لا شائبة فيه لغيره . ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ أى فعلوها فى أوقاتها على ما شرعه الله سبحانه فى أذكارها وأركانها مع الخشوع والإخلاص ، والمراد بها : الصلوات المفروضة . وقيل : أعم من ذلك . ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ أى أنفقوا بعض ما رزقناهم ، والمراد بالسر : صدقة النفل ، والعلانية : صدقة الفرض . وقيل : السر لمن لم يعرف بالمال ، أو لا يتهم بترك الزكاة ، والعلانية لمن كان يعرف بالمال أو يتهم بترك الزكاة . ﴿ ويدرون بالحسنة السيئة ﴾ أى يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه كما فى قوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هى أحسن ﴾ [فصلت : ٣٤] أو يدفعون بالعمل الصالح العمل السيئ ، أو يدفعون الشر بالخير أو المنكر بالمعروف ، أو الظلم بالعفو ، أو الذنب بالتوبة ، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور . والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الموصوفين بالصفات المتقدمة ﴿ لهم عقبى الدار ﴾ العقبى مصدر كالعاقبة . والمراد بالدار : الدنيا ، وعقبها : الجنة . وقيل : المراد بالدار : الدار الآخرة ، وعقبها : الجنة للمطيعين ، والنار للعصاة .

﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ بدل من عقبى الدار ، أى لهم جنات عدن ، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره يدخلونها ، والعدن أصله الإقامة ، ثم صار علماً لجنة من الجنان . قال القشيري : وجنات عدن وسط الجنة وقصبتها وسقفها عرش الرحمن ، ولكن فى صحيح البخارى وغيره : « إذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » ^(٣) .

﴿ ومن صلح من آبائهم ﴾ يشمل الآباء والأمهات ﴿ وأزواجهم وذرياتهم ﴾ معطوف على الضمير فى يدخلون وجاز ذلك للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، أى ويدخلها أزواجهم

(١) عند ابن جرير ٩٤/١٣ : « والذين يصلون الأرحام » . وعند القرطبي ٣٥٣٩/٥ : « ظاهر فى صلة الأرحام وهو قول قتادة وأكثر المفسرين ، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات » . وعند ابن كثير ٨٥/٤ : « من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف » .

(٢) روى البخارى فى الرقاق (٦٥٣٦) عن عائشة عن النبى ﷺ قال : « من نوقش الحساب عذب » .

(٣) أحمد ٣٣٩/١ والبخارى فى التوحيد (٧٤٢٣) والجهاد (٢٧٩٠) والترمذى فى صفة الجنة (٢٥٣٠) .

وذرياتهم ، وذكر الصلاح دليل على أنه لا يدخل الجنة إلا من كان كذلك من قرابات أولئك ، ولا ينفع مجرد كونه من الآباء أو الأزواج ، أو الذرية بدون صلاح ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ أى من جميع أبواب المنازل التى يسكنونها ، أو المراد: من كل باب من أبواب التحف والهدايا من الله سبحانه . ﴿سلام عليكم﴾ أى قائلين : سلام عليكم ، أى سلمتم من الآفات ، أو دامت لكم السلامة ﴿بما صبرتم﴾ أى بسبب صبركم ، وهو متعلق بالسلام ، أى إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم ، أو متعلق بعليتكم أو بمحذوف ، أى هذه الكرامة بسبب صبركم ، أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ﴿فنعلم عقبى الدار﴾ جاء سبحانه بهذه الجملة المتضمنة لمذبح ما أعطاهم من عقبى الدار المتقدم ذكرها للترغيب والتشويق .

ثم أتبع أحوال السعداء بأحوال الأشقياء فقال : ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وقد مر تفسير عدم النقض وعدم القطع فعرف منها تفسير النقض والقطع ، ولم يتعرض لنفى الخشية والخوف عنهم وما بعدهما من الأوصاف المتقدمة لدخولها فى النقض والقطع ﴿ويفسدون فى الأرض﴾ بالكفر وارتكاب المعاصى والإضرار بالأنفس والأموال ﴿أولئك﴾ الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿لهم﴾ بسبب ذلك ﴿اللعة﴾ أى الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه ﴿ولهم سوء الدار﴾ أى سوء عاقبة دار الدنيا وهى النار أو عذاب النار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق﴾ قال : هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه ﴿كمن هو أعمى﴾ قال : عن الحق فلا يبصره ولا يعقله . ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ فبين من هم ؟ فقال : ﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير : ﴿أولو الألباب﴾ قال : من كان له لب ، أى عقل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : أن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق فى بضع وعشرين آية من القرآن .

وأخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن البر والصلة ليخفان سوء الحساب يوم القيامة » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ يعنى : من إيمان بالنبين وبالكتب كلها ﴿ويخشون ربهم﴾ يعنى يخافون من قطيعة ما أمر الله به أن يوصل ﴿ويخافون سوء الحساب﴾ يعنى : شدة الحساب ، وقد ورد فى صلة الرحم وتحريم قطعها أحاديث كثيرة (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك

(١) من ذلك ما رواه البخارى فى الأدب (٥٩٨٨) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن الرحم شجنة من الرحمن ، فقال الله : من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته » .

﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئة ﴾ قال : يدفعون بالحسنة السيئة .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن مسعود في قوله : ﴿ جنات عدن ﴾ قال : بطنان الجنة ، يعنى : وسطها . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أن عمر قال لكعب : ما عدن ؟ قال : هو قصر فى الجنة ، لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل . وأخرج ابن مردويه عن على قال : قال رسول الله ﷺ : « جنة عدن قضيب غرسه الله بيده ثم قال له : كن فكان » . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد : ﴿ ومن صلح من آبائهم ﴾ قال : من آمن فى الدنيا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبى عمران الجونى فى قوله : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾ قال : على دينكم ﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ قال : نعم ما أعقبكم الله من الدنيا فى الجنة .

وأخرج أحمد والبخاري وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكارة ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره ، لا يستطيع لها قضاء . فيقول الله لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم ؟ قال الله : إن هؤلاء عبادى كانوا يعبدوننى ولا يشركون بى شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكارة ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ » (١) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبى أمامة : إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكة إذا دخل الجنة وعنده سَمَاطَان من خدم ، وعند طرف السَّمَاطَيْن بابٌ مَبُوب فيقبل الملك فيستأذن ، فيقول أقاصى الخدم للذى يليه : ملك يستأذن ، ويقول الذى يليه : ملك يستأذن حتى يبلغ المؤمن ، فيقول : ائذنوا له ، فيقول أقربهم إلى المؤمن : ائذنوا له ، ويقول الذى يليه للذى يليه : ائذنوا له حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب ، فيفتح له فيدخل ويسلم عليه ، ثم يتصرف . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ قال : سوء العاقبة .

﴿ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ

(١) أحمد ١٦٨/٢ وابن حبان (٧٣٧٨) وصححه الحاكم ٧١/٢ ووافقه الذهبي ، والبيهقى فى الشعب (١٠٣٨٠) ط : دار الكتب العلمية ، وفى المطبوعة : « ابن عمر » والصحيح : « ابن عمرو » كما فى مراجع التخرىج .

وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَثَابٍ (٢٩) كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَىٰ هَٰذَا الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ (٣٠) ﴿

لما ذكر الله سبحانه عاقبة المشركين بقوله : ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ كان لقائل أن يقول : قد نرى كثيراً منهم قد وفر الله له الرزق وبسط له فيه ، فأجاب عن ذلك بقوله : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ فقد يبسط الرزق لمن كان كافراً ، ويقتره على من كان مؤمناً ابتلاء وامتحاناً ، ولا يدل البسط على الكرامة ، ولا القبض على الإهانة . ومعنى يقدر : يضيق ومنه : ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ [الطلاق : ٧] أى ضيق . وقيل : معنى يقدر : يعطى بقدر الكفاية ، ومعنى الآية : أنه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره ، ﴿ وفرحوا بالحياة الدنيا ﴾ أى مشركو مكة فرحوا بالدنيا وجهلوا ما عند الله ، قيل : وفى هذه الآية تقديم وتأخير ، والتقدير : الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا ، فيكون ﴿ وفرحوا ﴾ معطوفاً على يفسدون . ﴿ وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع ﴾ أى ما هى إلا شئ يستمتع به . وقيل : المتاع واحد الأمتعة كالقصعة والسكرجة ^(١) ونحوهما . وقيل : المعنى : شئ قليل ذاهب من متع النهار إذا ارتفع فلا بد له من زوال . وقيل : زاد كزاد الراكب يتزود به منها إلى الآخرة .

﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ أى يقول أولئك المشركون من أهل مكة : هلا أنزل على محمد آية من ربه ؟ وقد تقدم تفسير هذا قريباً ، وتكرر فى مواضع ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ﴾ أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بهذا وهو أن الضلال بمشيئة الله تعالى ، من شاء أن يضلّه ضل كما ضل هؤلاء القائلون : ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ . ﴿ ويهdy إليه من أناب ﴾ أى ويهdy إلى الحق ، أو إلى الإسلام ، أو إلى جنبه - عز وجل - ﴿ من أناب ﴾ أى من رجع إلى الله بالتوبة ، والإقلاع عما كان عليه ، وأصل الإنابة : الدخول فى نوبة الخير ، كذا قال النيسابورى . ومحل ﴿ الذين آمنوا ﴾ النصب على البدلية من قوله : ﴿ من أناب ﴾ أى أنهم هم الذين هداهم الله وأنابوا إليه ^(٢) ، ويجوز أن يكون : ﴿ الذين آمنوا ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين آمنوا أو منصوب على المدح ﴿ وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ أى تسكن وتستأنس بذكر الله سبحانه بألستهم كتلاوة القرآن ، والتسبيح ،

(١) السكرجة - يضم السين والكاف والراء مع التشديد - : إناء صغير يؤكل فيه الشئ القليل ، وهى فارسية .

لسان العرب ٣٧٦/٤ .

(٢) الإنابة : الرجوع إلى الله بالتوبة . لسان العرب ٧٧٥/١ .

والتحميد ، والتكبير ، والتوحيد ، أو بسماع ذلك من غيرهم ، وقد سمي سبحانه القرآن ذكراً قال : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ [الأنبياء : ٥٠] ، وقال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾ [الحجر : ٩] قال الزجاج: أى إذا ذكر الله وحده آمنوا به غير شاكين بخلاف من وصف بقوله : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ [الزمر : ٤٥] تطمئن قلوبهم بتوحيد الله . وقيل : المراد بالذكر هنا: الطاعة . وقيل : بوعد الله . وقيل : بالحلف بالله ، فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه . وقيل : بذكر رحمته . وقيل : بذكر دلائله الدالة على توحيد الله ﴿ ألا بذكر الله ﴾ وحده دون غيره ﴿ تطمئن القلوب ﴾ والنظر فى مخلوقات الله سبحانه وبدائع صنعه ، وإن كان يفيد طمأنينة فى الجملة ، لكن ليست كهذه الطمأنينة ، وكذلك النظر فى المعجزات من الأمور التى لا يطيقها البشر ، فليس إفادتها للطمأنينة كإفادة ذكر الله ؛ فهذا وجه ما يفيد هذا التركيب من القصر .

﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ الموصول مبتدأ خبره الجملة الدعائية ، وهى طوبى لهم على التأويل المشهور ، ويجوز أن يكون الموصول بدلاً من القلوب على حذف مضاف ، أى قلوب الذين آمنوا . قال أبو عبيدة والزجاج وأهل اللغة : طوبى فُعِّلَى من الطيب . قال ابن الأنبارى : وتأويلها : الحال المستطابة . وقيل : طوبى شجرة فى الجنة . وقيل : هى الجنة . وقيل : هى البستان بلغة الهند . وقيل : معنى ﴿ طوبى لهم ﴾ : حسنى لهم . وقيل : خير لهم . وقيل : كرامة لهم . وقيل : غبطة لهم . قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة ، والأصل : طيبى ، فصارت الياء واواً لسكونها وضم ما قبلها ، واللام فى لهم للبيان ، مثل : سقياً لك ورعياً لك . وقرئ : ﴿ حسن مآب ﴾ بالنصب والرفع ، من آب إذا رجع ، أى وحسن مرجع ، وهو الدار الآخرة .

﴿ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أُمم ﴾ أى مثل ذلك الإرسال العظيم الشأن المشتمل على المعجزة الباهرة، أرسلناك يا محمد . وقيل : شبه الإنعام على من أرسل إليه محمد ﷺ بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله . ومعنى ﴿ فى أمة قد خلت من قبلها أُمم ﴾ : فى قرن قد مضت من قبله قرون ، أو فى جماعة من الناس قد مضت من قبلها جماعات ﴿ لتتلوا عليهم الذى أوحينا إليك ﴾ أى لتقرأ عليهم القرآن والحال أنهم ﴿ يكفرون بالرحمن ﴾ أى بالكثير الرحمة لعباده ، ومن رحمته لهم : إرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم كما قال سبحانه : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، وجملة : ﴿ قل هو ربي ﴾ مستأنفة بتقدير سؤال ، كأنهم قالوا : وما الرحمن ؟ فقال سبحانه : ﴿ قل ﴾ يا محمد : ﴿ هو ربي ﴾ أى خالقى ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أى لا يستحق العبادة له والإيمان به سواه ﴿ عليه توكلت ﴾ فى جميع أمورى ﴿ وإليه ﴾ لا إلى غيره ﴿ متاب ﴾ أى توبتى ، وفيه تعريض بالكفار ، وحث لهم على الرجوع إلى الله ، والتوبة من الكفر ، والدخول فى الإسلام .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن سابط فى قوله :

﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ قال : كزاد الراعى يزوده أهله الكف من التمر أو الشيء من الدقيق ، أو الشيء يشرب عليه اللبن . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : كان الرجل يخرج فى الزمان الأول فى إبله أو غنمه ، فيقول لأهله : متعونى فيمتعونه فلفة الخبز أو التمر . فهذا مثل ضربه الله للدنيا . وأخرج الترمذى وصححه عن عبد الله بن مسعود قال : نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر فى جنبه ، فقلنا : يا رسول الله ، لو اتخذنا لك ؟ فقال : « ما لى وللدنيا ، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » (١) . وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه عن المستورد قال : قال رسول الله ﷺ : « ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم ، فلينظر بم يرجع ؟ » وأشار بالسبابة (٢) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ قال : هشت إليه واستأنست به . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : إذا حلف لهم بالله صدقوا . ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ قال : تسكن . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : بمحمد وأصحابه . وأخرج أبو الشيخ عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه حين نزلت هذه الآية : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ : « هل تدرون ما معنى ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « من أحب الله ورسوله وأحب أصحابى » .

وأخرج ابن مردويه عن على أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ قال : « ذاك من أحب الله ورسوله ، وأحب أهل بيتى صادقاً غير كاذب ، وأحب المؤمنين شاهداً وغائباً ، ألا بذكر الله يتحابون » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ طوبى لهم ﴾ قال : فرح وقرة عين . وأخرج ابن أبى شيبه وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله : ﴿ طوبى لهم ﴾ قال : نعم ما لهم . وقد روى عن جماعة من السلف نحو ما قدمنا ذكره من الأقوال والأرجح تفسير الآية بما روى مرفوعاً إلى النبى ﷺ . كما أخرجه أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى وابن مردويه والبيهقى عن عتبة ابن عبد قال : جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، فى الجنة فاكهة ؟ قال : « نعم فيها شجرة تدعى طوبى » الحديث (٣) . وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى

(١) الترمذى فى الزهد (٢٣٧٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجه فى الزهد (٤١٠٩) .

(٢) مسلم فى الجنة (٢٨٥٨ / ٥٥) والترمذى فى الزهد (٢٣٢٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجه فى الزهد (٤١٠٨) .

(٣) أحمد ١٨٣ / ٤ وابن جرير ١٠٠ / ١٣ وابن حبان (٧٣٧١) والطبرانى ١٢٦ / ١٧ (٣١٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٤١٢ / ١ . « وفيه عامر بن زياد البكالى وقد ذكره ابن أبى حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه وبقية رجاله ثقات » وقال ابن كثير فى البداية ١٥٧ / ٢ : « قال الحافظ الضياء : لا أعلم لهذا الإسناد علة » .

حاتم وابن حبان والخطيب فى تاريخه عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ ؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك ، قال: « طوبى لمن آمن بى ورأى ، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى » ، فقال رجل : وما طوبى ؟ قال : « شجرة فى الجنة مسير مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » الحديث (١) . وفى الباب أحاديث وآثار عن السلف ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ : « وفى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وظل مدود ﴾ (٢) [الواقعة: ٣٠] ، وفى بعض الألفاظ : إنها شجرة الخلد . وأخرج أبو الشيخ عن السدى « وحسن مآب ﴾ قال : حسن منقلب . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب فى الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالت قريش : أما الرحمن فلا نعرفه ، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ، فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم ، فقال : « لا ، ولكن اكتبوا كما يريدون » (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى هذه الآية نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد « وإليه متاب ﴾ قال : توبتى .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بُرْسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بظَاهِرٍ مِّن الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ (٣٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾ .

(١) أحمد ٧١/٣ وأبو يعلى (١٣٧٤) وإسناده ضعيف ، وابن جرير ١٠١/١٣ وابن حبان (٧١٨٦) ولم يذكر إلا شطره الأول .

(٢) أحمد ١١٠/٣ ، ١٣٥ ، ١٦٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٧ ، ٢٣٤ والبخارى فى بدء الخلق (٣٢٥١) ومسلم فى الجنة

(٢٨٢٦ / ٦ ، ٧) والترمذى فى التفسير (٣٢٩٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ورواية مسلم عن أبى

هريرة .

(٣) ابن جرير ١٠١/١٣ .

قوله : ﴿ وَلَوْ أَن قَرَأْنَا سِيرَتَ بِهِ الْجِبَالِ ﴾ قيل : هذا متصل بنزول . ﴿ لَوْلَا أَنزَلْ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ ﴾ وأن جماعة من الكفار سألوا رسول الله ﷺ أن يسير لهم جبال مكة حتى تنفسح فإنها أرض ضيقة ، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن ، وفساد رأى الكفار حيث لم يقنعوا به وأصروا على تعنتهم وطلبهم . ما لو فعله الله سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الإلهية ، من عدم إنزال الآيات التي يؤمن عندها جميع العباد^(١) ، ومعنى ﴿ سِيرَتَ بِهِ الْجِبَالِ ﴾ أى بإنزاله وقراءته فسارت عن محل استقرارها ﴿ أَوْ قَطَعْتَ بِهِ الْأَرْضَ ﴾ أى صدعت حتى صارت قطعاً متفرقة ﴿ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ أى صاروا أحياء بقراءته عليهم ، فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه الأحياء .

وقد اختلف فى جواب « لو » ماذا هو ؟ فقال الفراء : هو محذوف ، وتقديره : لكان هذا القرآن ، وروى عنه أنه قال : إن الجواب : لكفروا بالرحمن ، أى لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن ، وقيل : جوابه لما آمنوا ، كما سبق فى قوله : ﴿ مَا كَانُوا ﴾^(٢) ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴿ [الأنعام : ١١١] ﴾ وقيل : الجواب متقدم وفى الكلام تقديم وتأخير ، أى وهم يكفرون بالرحمن لو أن قرأنا إلى آخره . وكثيراً ما تحذف العرب جواب « لو » إذا دل عليه سياق الكلام ، ومنه قول امرئ القيس :

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسًا

أى لهان على ذلك . ﴿ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أى لو أن قرأنا فعل به ذلك لكان هذا القرآن ، ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن ، فلو شاء أن يؤمنوا لآمنوا ، وإذا لم يشأ أن يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال وسائر ما اقترحوه من الآيات ، فالإضراب متوجه إلى ما يؤدى إليه كون الأمر لله سبحانه ، ويستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته ومشيته ، ويدل على أن هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ قال الفراء : قال الكلبي : ﴿ أَفَلَمْ يَبْأَسِ ﴾ بمعنى : أفلم يعلم وهى لغة النخع . قال فى الصحاح : وقيل : هى لغة هوازن ، وبهذا قال جماعة من السلف . قال أبو عبيدة : أفلم يعلموا ويتبينوا ، قال الزجاج : وهو مجاز لأن اليأس من الشيء عالم بأنه لا يكون ، نظيره استعمال الرجاء فى معنى الخوف ، والنسيان فى الترك لتضمنهما إياهما ، ويؤيده قراءة على وابن عباس وجماعة : « أفلم يتبين » ، ومن هذا قول رباح بن عدي :

أَلَمْ يَبْأَسِ الْأَقْوَامُ أَنَّى أَنَا ابْنُهُ وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَائِبًا

أى لم يعلم ، وأنشد فى هذا أبو عبيدة قول مالك بن عوف النضري :

أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَأْمُرُونَنِي أَلَمْ تَبْأَسُوا أَنَّى ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَمِ

(١) ابن جرير ١٠٢/١٣ .

(٢) فى المخطوطة : « وما كانوا » ، والصواب ما أثبتناه .

أى لم تعلموا ، فمعنى الآية على هذا: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات . وقيل : إن الإيأس على معناه الحقيقى ، أى أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم ؛ لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات التى اقترحها الكفار طمعاً فى إيمانهم ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ هذا وعيد للكفار على العموم ، أو لكفار مكة على الخصوص ، أى لا يزال الذين كفروا تصيبهم بسبب ما صنعوا من الكفر والتكذيب للرسول قارعة ، أى داهية تفجؤهم يقال : قرعه الأمر: إذا أصابه ، والجمع قوارع ، والأصل فى القرع: الضرب. قال الشاعر^(١) :

أفنى تلادى وما جمعت من نشب قرع القراقير أفواه الأباريق

والمعنى : أن الكفار لا يزالون كذلك حتى تصيبهم داهية مهلكة من قتل أو أسر ، أو جذب أو نحو ذلك من العذاب ، وقد قيل : إن القارعة : النكبة . وقيل : الطلائع والسرايا ، ولا يخفى أن القارعة تطلق على ما هو أعم من ذلك ﴿ أو تحل ﴾ أى القارعة ﴿ قريباً من دارهم ﴾ فيفزعون منها ، ويشاهدون من آثارها ما ترجف له قلوبهم ، وترعد منه بوادهم . وقيل : إن الضمير فى : ﴿ تحل ﴾ للنبي ﷺ ، والمعنى : أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم محاصراً لهم آخذاً بمخانتهم كما وقع منه ﷺ لأهل الطائف . ﴿ حتى يأتى وعد الله ﴾ وهو موتهم ، أو قيام الساعة عليهم ، فإنه إذا جاء وعد الله المحتوم حل بهم من عذابه ما هو الغاية فى الشدة . وقيل : المراد بوعد الله هنا : الإذن منه بقتال الكفار ، والأول أولى ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ فما جرى به وعده فهو كائن لا محالة .

﴿ ولقد استهزئ برسلى من قبلك فأملت للذين كفروا ﴾ التنكير فى رسل للتكثير ، أى برسلى كثيرة ، والإملاء : الإهمال . وقد مر تحقيقه فى الأعراف ﴿ ثم أخذتهم ﴾ بالعذاب الذى أنزلته بهم ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ الاستفهام للتقريع والتهديد ؛ أى فكيف كان عقابى لهؤلاء الكفار الذين استهزؤوا بالرسلى ، فأملت لهم ثم أخذتهم .

ثم استفهم سبحانه استفهاماً آخر للتوبيخ والتقريع يجرى مجرى الحجاج للكفار واستركاك صنعهم والإزراء عليهم ، فقال : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس ﴾ القائم : الحفيظ والمتولى للأمور ، وأراد سبحانه نفسه ، فإنه المتولى لأمر خلقه المدبر لأحوالهم بالآجال والأرزاق وإحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت. والجواب محذوف ، أى أفمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التى لا تنفع ولا تضر . قال الفراء : كأنه فى المعنى : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركاؤهم الذين اتخذوهم من دون الله .

(١) هو المغيرة بن عبد الله الأسدى لقب بالأقيش؛ لأنه كان أحمر الوجه أقشر وكان يغضب من هذا اللقب . عرّفه الأمدى بصاحب الشراب لقوله هذا البيت ، ولد فى الجاهلية ونشأ فى الإسلام وقتل أيام عبد الملك بن مروان. الأعلام ٢٧٧/٧ .

والمراد من الآية إنكار المماثلة بينهما . وقيل : المراد بمن هو قائم على كل نفس : الملائكة الموكلون ببنى آدم ، والأول أولى ، وجملة : ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ معطوفة على الجواب المقدر مبينة له أو حالية بتقدير قد ، أى وقد جعلوا ، أو معطوفة على ﴿ ولقد استهزئ ﴾ أى استهزؤوا وجعلوا ﴿ قل سموهم ﴾ أى قل : يا محمد : جعلتم له شركاء فسموهم من هم ؟ وفى هذا تبكيت لهم وتوبيخ ؛ لأنه إنما يقال هكذا فى الشيء المستحقر الذى لا يستحق أن يلتفت إليه فيقال : سمه إن شئت ، يعنى أنه أحقر من أن يسمى . وقيل : إن المعنى سموهم بالآلهة كما تزعمون ، فيكون ذلك تهديدا لهم ﴿ أم تنبئونه ﴾ أى بل أتنبئون الله ﴿ بما لا يعلم فى الأرض ﴾ من الشركاء الذين تعبدونهم مع كونه العالم بما فى السموات والأرض ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ أى بل أئسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن تكون له حقيقة ، وقيل : المعنى : قل لهم : أتنبئون الله بباطن لا يعلمه أم بظاهر يعلمه ؟ فإن قالوا بباطن لا يعلمه فقد جاؤوا بدعوى باطلة ، وإن قالوا بظاهر يعلمه فقل لهم : سموهم ، فإذا سموا اللات والعزى ونحوهما ، فقل لهم : إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً ، وإنما خص الأرض بنفى الشريك عنها ، وإن لم يكن له شريك فى غير الأرض ، لأنهم ادعوا له شريكاً فى الأرض . وقيل : معنى ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ : أم بزائل من القول باطل ، ومنه قول الشاعر :

أَعْيَرْتَنَا أَلْبَانَهَا وَلُحُومَهَا وَذَلِكَ عَارٌ يَابِنَ رِيْطَةَ ظَاهِرُ

أى زائل باطل . وقيل : بكذب من القول . وقيل : معنى ﴿ بظاهر من القول ﴾ : بحجة من القول ظاهرة على زعمهم ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ أى ليس لله شريك ، بل زين للذين كفروا مكرهم . وقرأ ابن عباس : « زين » على البناء للمفعول على أن الذى زين لهم ذلك هو مكرهم . وقرأ من عداه بالبناء للمفعول ، والمزين هو الله سبحانه ، أو الشيطان ، ويجوز أن يسمى المكر كفرة ؛ لأن مكرهم برسول الله ﷺ كان كفرة . وأما معناه الحقيقى فهو الكيد ، أو التمويه بالباطل ﴿ وصدوا عن السبيل ﴾ قرأ حمزة والكسائى وعاصم : ﴿ صدوا ﴾ على البناء للمفعول ، أى صدهم الله ، أو صدهم الشيطان ، وقرأ الباقر على البناء للمفعول ، أى صدوا غيرهم ، واختار هذه القراءة أبو حاتم ، وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الصاد . ﴿ ومن يضل الله فما له من هاد ﴾ أى يجعله ضالاً وتقتضى مشيئته إضلاله فما له من هاد يهديه إلى الخير ، قرأ الجمهور : ﴿ هاد ﴾ من دون إثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة ، وقرئ بإثباتها على اللغة القليلة . ثم بين سبحانه ما يستحقونه فقال : ﴿ لهم عذاب فى الحياة الدنيا ﴾ بما يصابون به من القتل والأسر وغير ذلك . ﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾ عليهم من عذاب الحياة الدنيا ﴿ وما لهم من الله من واق ﴾ يقيهم عذابه ، ولا عاصم يعصمهم منه .

ثم لما ذكر سبحانه مما يستحقه الكفار من العذاب فى الأولى والأخرى ، ذكر ما أعده

للمؤمنين فقال : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار ﴾ أى صفتها العجيبة الشأن التى هى فى الغرابة كالمثل . قال ابن قتيبة : المثل الشبه فى أصل اللغة ، ثم قد يصير بمعنى صورة الشيء وصفته ، يقال : مثلت لك كذا ، أى صورته ووصفته ، فأراد هنا بمثل الجنة صورتها وصفتها ، ثم ذكرها فقال : ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ وهو كالتفسير للمثل . قال سيبويه : وتقديره فيما قصصنا عليك مثل الجنة ، وقال الخليل وغيره : إن ﴿ مثل الجنة ﴾ مبتدأ ، والخبر : ﴿ تجرى ﴾ . وقال الزجاج : إنه تمثيل للغائب بالشاهد ، ومعناه مثل الجنة جنة تجرى من تحتها الأنهار . وقيل : إن فائدة الخبر ترجع إلى : ﴿ أكلها دائم ﴾ أى لا ينقطع ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ [الواقعة : ٣٣] وقال الفراء : المثل مقحم للتأكيد ، والمعنى : الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار ، والعرب تفعل ذلك كثيراً ﴿ وظلها ﴾ أى كذلك دائم لا يتقلص ولا تنسخه الشمس . والإشارة بقوله : ﴿ تلك ﴾ إلى الجنة الموصوفة بالصفات المتقدمة ، وهو مبتدأ خبره : ﴿ عقبى الذين اتقوا ﴾ أى عاقبة الذين اتقوا المعاصى ، ومنتهى أمرهم . ﴿ وعقبى الكافرين النار ﴾ ليس لهم عاقبة ولا منتهى إلا ذلك .

وقد أخرج الطبرانى وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قالوا للنبي ﷺ : إن كان كما تقول فأرنا أشياخنا الأول من الموتى نكلمهم ، وأفسح لنا هذه الجبال جبال مكة التى قد ضمتنا ، فنزلت : ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ﴾ الآية^(١) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عطية العوفى قال : قالوا لمحمد ﷺ : لو سيرت لنا جبال مكة حتى تسع فنحرت فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت لنا الموتى ، كما كان يحيى عيسى الموتى لقومه ، فأنزل الله : ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ أفلم يئأس الذين آمنوا ﴾ قال : أفلم يتبين الذين آمنوا ، قالوا : هل تروى هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبي ﷺ ؟ قال : عن أبى سعيد الخدرى عن النبي ﷺ . وأخرجه أيضاً ابن أبى حاتم قال : حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب بن الحرث ، أخبرنا بشر بن عمار ، حدثنا عمر ابن حسان عن عطية العوفى فذكره . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن طريق العوفى عن ابن عباس نحوه مختصراً . وأخرج أبو يعلى ، وأبو نعيم فى الدلائل ، وابن مردويه عن الزبير ابن العوام فى ذكر سبب نزول الآية نحو ما تقدم مطولاً^(٢) . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ بل لله الأمر جميعاً ﴾ لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء ولم يكن ليفعل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ أفلم يئأس ﴾

(١) الطبرانى (١٢٦١٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٤٦/٧ : « وفيه قابوس بن أبى ظبيان وهو ضعيف ، وقد وثق » .

(٢) أبو يعلى (٦٧٩) وإسناده ضعيف .

يقول : يعلم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ من طريق أخرى عنه نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي العالية . ﴿ أفلم يأس ﴾ قال : قد يشس الذين آمنوا أن يهدوا ولو شاء الله لهدى الناس جميعا .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ قال : السرايا . وأخرج الطيالسى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عنه نحوه ، وزاد : ﴿ أو تحل قريباً من دارهم ﴾ قال : أنت يا محمد حتى يأتى وعد الله ، قال : فتح مكة . وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ قارعة ﴾ قال : نكبة . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفى عنه قارعة ، قال : عذاب من السماء ﴿ أو تحل قريباً من دارهم ﴾ يعنى : رسول الله ﷺ بهم وقتاله آباءهم .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضاً فى قوله : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ قال : يعنى بذلك : نفسه . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عطاء فى الآية قال : الله تعالى قائم بالقسط والعدل على كل نفس . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ قال : الظاهر من القول : هو الباطل .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله : ﴿ مثل الجنة ﴾ قال : نعت الجنة ، ليس للجنة مثل . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن إبراهيم التيمى فى قوله : ﴿ أكلها دائم ﴾ قال : لذاتها دائمة فى أفواههم .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾ .

اختلف المفسرون فى تفسير الكتاب المذكور ، ف قيل : هو التوراة والإنجيل ، والذين يفرحون بما أنزل إلى رسول الله ﷺ هم من أسلم من اليهود والنصارى . وقيل : الذين يفرحون هم أهل الكتابين لكون ذلك موافقاً لما فى كتبهم مصداقاً له ، فعلى الأول يكون المراد بقوله : ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ : من لم يسلم من اليهود والنصارى ، وعلى الثانى يكون المراد به : المشركين من أهل مكة ومن يماثلهم . أو يكون المراد به : البعض من أهل الكتابين ، أى من أحزابهما فإنهم أنكروه لما يشتمل عليه من كونه ناسخاً لشرائعهم فيتوجه

فرح من فرح به منهم إلى ما هو موافق لما فى الكتابين ، وإنكار من أنكر منهم إلى ما خالفهما . وقيل : المراد بالكتاب : القرآن ، والمراد بمن يفرح به المسلمون ، والمراد بالأحزاب : المتحزبون على رسول الله ﷺ من المشركين واليهود والنصارى ، والمراد بالبعض الذى أنكروه : من خالف ما يعتقدونه على اختلاف اعتقادهم . واعترض على هذا بأن فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة فى ذكره ، وأجيب عنه بأن المراد : زيادة الفرح والاستبشار . وقال كثير من المفسرين : إن عبد الله بن سلام والذين آمنوا معه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة ، فأنزل الله : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ [الإسراء: ١١٠] ففرحوا بذلك . ثم لما بين ما يحصل بنزول القرآن من الفرح للبعض والإنكار للبعض صرح بما عليه رسول الله ﷺ ، وأمره أن يقول لهم ذلك فقال : ﴿ قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ﴾ أى لا أشرك به بوجه من الوجوه ، أى قل لهم يا محمد إلزاماً للحجة ، ورداً للإنكار : إنما أمرت فيما أنزل إلى عبادة الله وتوحيده ، وهذا أمر اتفقت عليه الشرائع وتطابقت على عدم إنكاره جميع الملل المقتدية بالرسول . وقد اتفق القراء على نصب : ﴿ ولا أشرك به ﴾ عطفاً على ﴿ أعبد ﴾ وقرأ أبو خليل بالرفع على الاستئناف ، وروى هذه القراءة عن نافع ﴿ إليه أدعو ﴾ أى إلى الله لا إلى غيره أو إلى ما أمرت به ، وهو عبادة الله وحده ، والأول أولى لقوله : ﴿ وإليه مآب ﴾ فإن الضمير لله سبحانه ، أى إليه وحده لا إلى غيره مرجعى .

ثم ذكر بعض فضائل القرآن وأوعد على الإعراض عن اتباعه مع التعرض لرد ما أنكروه من اشتماله على نسخ بعض شرائعهم فقال : ﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ﴾ أى مثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا القرآن مشتملاً على أصول الشرائع وفروعها . وقيل : المعنى : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم ، كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب ونريد بالحكم ما فيه من الأحكام ، أو حكمة عربية مترجمة بلسان العرب ، وانتصاب ﴿ حكماً ﴾ على الحال ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ التى يطلبون منك موافقتهم عليها كالاستمرار منك على التوجه إلى قبلتهم وعدم مخالفتك لشيء مما يعتقدونه ﴿ بعد ما جاءك من العلم ﴾ الذى علمك الله إياه ﴿ مالك من الله ﴾ أى من جنابه ﴿ من ولى ﴾ يلى أمرك وينصرك ﴿ ولا واق ﴾ يقيك من عذابه . والخطاب لرسول الله ﷺ تعريض لأمته . واللام فى ﴿ ولن اتبعت ﴾ هى الموطئة للقسم ، و﴿ مالك ﴾ ساد مسد جواب القسم والشرط .

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ أى إن الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر ، لهم أزواج من النساء ، ولهم ذرية توالدوا منهم ومن أزواجهم ، ولم نرسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون لهم ذرية . وفى هذا رد على من كان ينكر على رسول الله ﷺ تزوجه بالنساء ، أى أن هذا شأن رسل الله المرسلين من قبل هذا

الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه ؟ ! ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ أى لم يكن لرسول من الرسل أن يأتي بآية من الآيات ومن جملتها ما اقترحه عليه الكفار إلا بإذن الله سبحانه ، وفيه رد على الكفار حيث اقترحوا على رسول الله ﷺ من الآيات ما اقترحوه بما سبق ذكره . ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ أى لكل أمر مما قضاه الله ، أو لكل وقت من الأوقات التى قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب عند الله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم . وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير ، والمعنى : لكل كتاب أجل ، أى لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ، ووقت معلوم ، كقوله سبحانه : ﴿ لكل نأ مستقر ﴾ [الأنعام: ٦٧] وليس الأمر على حسب إرادة الكفار واقتراحاتهم ، بل على حسب ما يشاؤه ويختاره .

﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ أى يمحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه ، يقال : محوت الكتاب محوًا : إذا أذهبت أثره . قرأ ابن كثير وأبو عمر وعاصم : ﴿ ويثبت ﴾ بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، وظاهر النظم القرآنى العموم فى كل شيء مما فى الكتاب ، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر ، أو خير أو شر ، ويبدل هذا بهذا ويجعل هذا مكان هذا ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء: ٢٣] . وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وابن عباس وأبو وائل وقتادة والضحاك وابن جريج وغيرهم . وقيل : الآية خاصة بالسعادة والشقاوة . وقيل : يمحو ما يشاء من ديوان الحفظه ، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب . وقيل : يمحو ما يشاء من الرزق . وقيل : يمحو من الأجل . وقيل : يمحو ما يشاء من الشرائع فينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه . وقيل : يمحو ما يشاء من ذنوب عباده ويترك ما يشاء . وقيل : يمحو ما يشاء من الذنوب بالتوبة ، ويترك ما يشاء منها مع عدم التوبة . وقيل : يمحو الآباء ويثبت الأبناء . وقيل : يمحو القمر ويثبت الشمس كقوله : ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ [الإسراء: ١٢] . وقيل : يمحو ما يشاء من الأرواح التى يقبضها حال النوم فيميت صاحبه ويثبت ما يشاء فيرده إلى صاحبه . وقيل : يمحو ما يشاء من القرون ويثبت ما يشاء منها . وقيل : يمحو الدنيا ويثبت الآخرة . وقيل غير ذلك مما لا حاجة إلى ذكره ، والأول أولى كما تفيد « ما » فى قوله : ﴿ ما يشاء ﴾ من العموم مع تقدم ذكر الكتاب فى قوله : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ ومع قوله : ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ أى أصله وهو اللوح المحفوظ ، فالمراد من الآية : أنه يمحو ما يشاء مما فى اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ، ويثبت ما يشاء مما فيه فيجرى فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته ، وهذا لا ينافى ما ثبت عنه ﷺ من قوله : « جفَّ القلم » (١). وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه الله سبحانه . وقيل : إن أم الكتاب : هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق .

(١) جزء من حديث رواه أحمد ٢ / ١٧٦ والترمذي فى الإيمان (٢٦٤٢) وقال : « هذا حديث حسن » وابن حبان =

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ يفرحون بما أنزل إليك ﴾ قال : أولئك أصحاب محمد ﷺ فرحوا بكتاب الله وبرسوله وصدقوا به ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ يعنى اليهود والنصارى والمجوس . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال : هؤلاء من آمن برسول الله ﷺ من أهل الكتاب يفرحون بذلك . ﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ﴾ [يونس: ٤٠] . ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ قال : الأحزاب : الأمم اليهود والنصارى والمجوس . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ وإليه مآب ﴾ قال : إليه مصير كل عبد .

وأخرج ابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق قتادة عن الحسن عن سمرة قال : نهى رسول الله ﷺ عن التبتل (١) ، وقرأ قتادة ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ﴾ الآية . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن هشام قال : دخلت على عائشة فقلت : إنى أريد أن أتبتل ؟ قالت : لا تفعل أما سمعت الله يقول : ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾ . وقد ورد فى النهى عن التبتل والترغيب فى النكاح ما هو معروف (٢) .

وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : قالت قريش حين أنزل : ﴿ وما كان لرسول أن يأتى بأية إلا بإذن الله ﴾ ما نراك يا محمد تملك من شىء ، ولقد فرغ من الأمر ، فأنزلت هذه الآية تخويفاً لهم ووعيداً لهم : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا شيئاً ، ويحدث الله فى كل رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ قال : ينزل الله فى كل شهر رمضان إلى سماء الدنيا فيدبر أمر السنة إلى السنة ، فيمحو ما يشاء ويثبت ، إلا الشقاوة والسعادة والحياة والموت (٣) .

= (٦١٣٧) كلهم عن عبد الله بن عمرو ، وجزء من حديث آخر رواه البخارى فى النكاح (٥٠٧٦) والنسائى ٦/ ٥٩ كلاهما عن أبى هريرة .

(١) أحمد ٥/ ١٧ والترمذى فى النكاح (١٠٨٢) وقال : « حديث حسن غريب » والنسائى ٦/ ٥٩ وابن ماجة فى النكاح (١٨٤٩) والطبرانى (٦٨٩٣) .

(٢) من ذلك ما أخرجه البخارى فى النكاح (٥٠٧٥) عن إسماعيل بن قيس قال : قال عبد الله : كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا شىء ، فقلنا : ألا نستخصى ؟ فنهانا عن ذلك ، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب ، ثم قرأ علينا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ [المائدة: ٨٧] .

(٣) ابن جرير ١٣/ ١١١ والبيهقى فى الشعب (٣٣٩٤) .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه فى الآية قال : هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة ، فهو الذى يمحو ، والذى يثبت الرجل يعمل بمعصية الله ، وقد سبق له خير حتى يموت على طاعة الله .

وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عنه أيضاً فى الآية قال : هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت ، وعنده أم الكتاب ، أى جملة الكتاب (١) . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء ، له دفتان من ياقوت ، والدفتان لوحان لله كل يوم ثلاث وستون لحظة ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ وإسناده عند ابن جرير هكذا : حدثنا محمد بن سهل بن عسكر ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس فذكره (٢) .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبرانى عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ينزل فى ثلاث ساعات يبقين من الليل فيفتح الذكر فى الساعة الأولى منها ، ينظر فى الذكر الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت » الحديث (٣) . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه بإسناد ، قال السيوطى : ضعيف ، عن ابن عمر ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الشقاوة والسعادة والحياة والممات » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً نحوه . وأخرج الحاكم وصححه ، عن ابن عباس قال : لا ينفع الحذر من القدر ، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر (٤) . وأخرج ابن جرير عن قيس بن عباد قال : العاشر من رجب وهو يوم يمحو الله فيه ما يشاء . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقى فى الشعب عنه نحوه بأطول منه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب ؛ أنه قال وهو يطوف بالبيت : اللهم إن كنت كتبت على شقوة أو ذنباً فامحه فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب فاجعله سعادة ومغفرة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى عن ابن مسعود نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقى فى المدخل عن ابن عباس فى قوله : ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ قال : يبدل الله ما يشاء من القرآن فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿وعنده أم الكتاب﴾ يقول : وجملة ذلك عنده فى أم الكتاب : الناسخ والمنسوخ ما يبدل ، وما يثبت كل ذلك فى كتاب (٥) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿وعنده أم الكتاب﴾ قال : الذكر . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج

(١) ابن جرير ١١٢/١١ والحاكم ٣٤٩/٢ وقال : « غريب صحيح » ووافقه الذهبى .

(٢) ابن جرير ١١٥/١٣ .

(٣) ابن جرير ١١٤/١٣ وقال الهيثمى فى المجمع ٤١٥/١٠ : « رواه البزار وفيه زيادة بن محمد ، وهو ضعيف » .

(٤) صححه الحاكم ٣٥٠/٢ ووافقه الذهبى .

(٥) ابن جرير ١١٥/١٣ .

عبد الرزاق وابن جرير عن يسار عن ابن عباس ؛ أنه سأل كعباً عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق وما خلقه عالمون ، فقال لعلمه : كن كتاباً ، فكان كتاباً .

﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوْفِينَاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (٤٠)
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) .

﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ ﴾ « ما » زائدة ، وأصله : وإن نرك ﴿ بعض الذي نعدهم ﴾ من العذاب كما وعدناهم بذلك بقولنا : ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ﴾ وبقولنا : ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ والمراد : أريناك بعض ما نعدهم قبل موتك ، أو توفيناك قبل إراءتك لذلك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ أى فليس عليك إلا تبليغ أحكام الرسالة ولا يلزمك حصول الإجابة منهم لما بلغته إليهم ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ أى محاسبتهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها ، وليس ذلك عليك . وهذا تسليّة من الله سبحانه لرسوله ﷺ وإخبار له أنه قد فعل ما أمره الله به وليس عليه غيره ، وأن من لم يجب دعوته ، ويصدق نبوءته فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترأ عليه من ذلك .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعنى : أهل مكة ، والاستفهام للإنكار ، أى أو لم ينظروا ﴿ أنا نأتى الأرض نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ أى نأتى أرض الكفر كمكة نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا بالفتوح على المسلمين منها شيئاً فشيئاً . قال الزجاج : أعلم الله أن بيان ما وعد المشركين من قهرهم قد ظهر ، يقول : أو لم يروا أنا فتحنا على المسلمين من الأرض ما قد تبين لهم فكيف لا يعتبرون؟ وقيل : إن معنى الآية : موت العلماء والصلحاء ، قال القشيري : وعلى هذا فالأطراف : الأشراف . وقد قال ابن الأعرابي : الطرف : الرجل الكريم . قال القرطبي : وهذا القول بعيد؛ لأن مقصود الآية : أنا أريناهم النقصان فى أمرهم ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز إلا أن يحمل على موت أحبار اليهود والنصارى (١) . وقيل : المراد من الآية : خراب الأرض المعمورة حتى يكون العمران فى ناحية منها . وقيل : المراد بالآية : هلاك من هلك من الأمم . وقيل : المراد : نقص ثمرات الأرض . وقيل : المراد : جور ولاتها حتى تنقص .

﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ أى يحكم ما يشاء فى خلقه ، فيرفع هذا ويضع هذا ، ويحيى هذا ويميت هذا ، ويغنى هذا ، ويفقر هذا ، وقد حكم بعزة الإسلام وعلوه على الأديان .

وجملة : ﴿ لا معقب لحكمه ﴾ فى محل نصب على الحال . وقيل : معترضة . والمعقب : الذى يتبع الشيء فيستدركه ، ولا يستدرك أحد عليه ، والمراد من الآية : أنه لا يتعقب أحد حكم الله سبحانه بنقص ولا تغيير . ﴿ وهو سريع الحساب ﴾ فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته على السرعة ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعا ﴾ أى وقد مكر الكفار الذين من قبل كفار مكة بمن أرسله الله إليهم من الرسل ؛ فكادوهم وكفروا بهم . وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ حيث أخبره أن هذا ديدن الكفار من قديم الزمان مع رسل الله سبحانه ، ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم ، وأن المكر كله لله ، فقال : ﴿ فله المكر جميعا ﴾ لا اعتداد بمكر غيره ، ثم فسر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره فقال : ﴿ يعلم ما تكسب كل نفس ﴾ من خير وشر فيجازيها على ذلك . ومن علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها كان المكر كله له ؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون . وقال الواحدى : إن مكر الماكرين مخلوق فلا يضر إلا بإرادته . وقيل : المعنى : فله جزاء مكر الماكرين ﴿ وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : « الكافر » بالافراد ، وقرأ الباقون : ﴿ الكفار ﴾ بالجمع ، أى سيعلم جنس الكافر لمن العاقبة المحمودة من الفريقين فى دار الدنيا ، أو فى الدار الآخرة ، أو فيهما . وقيل : المراد بالكافر : أبو جهل .

﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلا ﴾ أى يقول المشركون أو جميع الكفار : لست يا محمد مرسلأ إلى الناس من الله ، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم فقال : ﴿ قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ﴾ فهو يعلم صحة رسالتى وصدق دعواتى ويعلم كذبكم ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ أى علم جنس الكتاب كالتوراة والإنجيل ، فإن أهلها العالمين بهما يعلمون صحة رسول الله ﷺ ، وقد أخبر بذلك من أسلم كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى وتميم الدارى ونحوهم ، وقد كان المشركون من العرب يسألون أهل الكتاب ويرجعون إليهم فأرشدهم الله سبحانه فى هذه الآية إلى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك . وقيل : المراد بالكتاب : القرآن ، ومن عنده علم منه : هم المسلمون . وقيل : من عنده علم اللوح المحفوظ ، وهو الله سبحانه ، واختار هذا الزجاج وقال : لأن الأشبه أن الله لا يستشهد على خلقه بغيره .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ ننقصها من أطرافها ﴾ قال : « ذهاب العلماء » . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبه ونعيم بن حماد فى الفتن ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ننقصها من أطرافها ﴾ قال : موت علمائها وفقهائها وذهاب خيار أهلها ^(١) . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير عن مجاهد فى تفسير الآية قال : موت العلماء . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : أو لم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق أخرى عنه نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبه وابن جرير وابن

(١) ابن جرير ١١٧/١٣ وصححه الحاكم ٣٥٠/٢ وقال الذهبى : « فيه طلحة بن عمرو . قال أحمد : متروك » .

المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال : يعنى : أن نبى الله ﷺ كان ينتقص له ما حوله من الأرضين ينظرون إلى ذلك فلا يعتبرون . وقال الله في سورة الأنبياء : ﴿ نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾ [الأنبياء: ٤٤] بل نبى الله وأصحابه هم الغالبون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : نقصان أهلها وبركتها . وأخرج ابن المنذر عنه قال : إنما ننقص الأنفس والثمرات وأما الأرض فلا تنقص . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية منها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه ﴾ : ليس أحد يتعقب حكمه فيرده كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيرده .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم على رسول الله ﷺ أسقف من اليمن ، فقال رسول الله ﷺ : « هل تجدى في الإنجيل ؟ » قال : لا . فأنزل الله : ﴿ قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ يقول : عبد الله بن سلام . وأخرج ابن مردويه من طريق عبد الملك بن عمير عن جندب قال : جاء عبد الله بن سلام حتى أخذ بعضادتي (١) باب المسجد ثم قال : أنشدكم بالله أتعلمون أنى الذى أنزلت فى : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ قالوا : اللهم نعم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق أخرى عنه نحوه . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ قال : هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في الآية قال : كان قوم من أهل الكتاب يشهدون بالحق ويعرفونه ، منهم عبد الله بن سلام ، والجارود، وتميم الدارى ، وسلمان الفارسى . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن مردويه وابن عدى بسند ضعيف عن ابن عمر؛ أن النبى ﷺ قرأ : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ قال : « ومن عند الله علم الكتاب » (٢) .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ؛ أنه كان يقرأ : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ يقول : ومن عند الله علم الكتاب . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والنحاس فى ناسخه عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ أهو عبد الله بن سلام ؟ قال : كيف ، وهذه السورة مكية (٣) . وأخرج ابن المنذر عن الشعبى قال : ما نزل فى عبد الله بن سلام شئ من القرآن . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ قال : جبريل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : هو الله .

(١) فى المطبوعة : « بعضاضتى » والصحيح ما أثبتاه من المخطوطة .

(٢) أبو يعلى (٥٥٧٤) وإسناده تالف ، وابن جرير ١٣ / ١٢٠ وقال : هذا خبر ليس له أصل عند الثقات من

أصحاب الزهري « وقال الهيثمى فى المجمع ١٥٨ / ٧ : « وفيه سليمان بن أرقم ، وهو متروك » .

(٣) ابن جرير ١٣ / ١١٩ .

تفسير سورة إبراهيم

اثنان وخمسون آية ، وقيل : إحدى وخمسون .

وهى مكية ، كما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس وأخرجه ابن مردويه أيضاً عن الزبير وحكاه القرطبي ^(١) عن الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وقتادة إلا آيتين منها . وقيل : ثلاث آيات نزلت فى الذين حاربوا رسول الله ﷺ وهى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كَفْرًا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ . وأخرج النحاس فى ناسخه عن ابن عباس قال : هى مكية سوى آيتين منها نزلتا بالمدينة : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كَفْرًا ﴾ والآيتين نزلتا فى قتلى بدر من المشركين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) ﴾ .

قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ قد تقدم الكلام فى أمثال هذا ، وبيان قول من قال : إنه غير متشابه ، وهو إما مبتدأ خبره كتاب ، أو خبر مبتدأ محذوف ، ويكون ﴿ كتاب ﴾ خبراً لمحذوف مقدر ، أو خبراً ثانياً لهذا المبتدأ ، أو يكون ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ مسروداً على غلط التعديل فلا محل له ، و﴿ أنزلناه إليك ﴾ صفة لكتاب ، أى أنزلنا الكتاب إليك يا محمد ، ومعنى ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ : لتخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلالة إلى نور الإيمان والعلم والهداية . جعل الكفر بمنزلة الظلمات والإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة ، واللام فى ﴿ لتخرج ﴾ للغرض والغاية ، والتعريف فى الناس للجنس ، والمعنى : أنه ﷺ يخرج بالكتاب المستعمل على ما شرعه الله لهم من الشرائع عما كانوا فيه من الظلمات إلى ما صاروا إليه من النور . وقيل : إن الظلمة مستعارة للبدعة ، والنور مستعار للسنة . وقيل : من الشك إلى اليقين . ولا مانع من إرادة جميع هذه الأمور ، والباء فى : ﴿ بإذن ربهم ﴾ متعلقة بـ «تخرج» ،

وأسند الفعل إلى النبي ﷺ ؛ لأنه الداعى والهادى والمنذر . قال الزجاج : بما أذن لك من تعليمهم ودعائهم إلى الإيمان ﴿ إلى صراط العزيز الحميد ﴾ هو بدل من : ﴿ إلى النور ﴾ بتكرير العامل كما يقع مثله كثيراً ، أى لتخرج الناس من الظلمات إلى صراط العزيز الحميد ، وهو طريقة الله الواضحة التى شرعها لعباده ، وأمرهم بالمصير إليها والدخول فيها ، ويجوز أن يكون مستأنفاً بتقدير سؤال ، كأنه قيل : ما هذا النور الذى أخرجهم إليه ؟ فقيل : صراط العزيز الحميد ، والعزيز : هو القادر الغالب ، والحميد : هو الكامل فى استحقاق الحمد .

﴿ الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو الله المتصف بملك ما فى السموات وما فى الأرض ، وقرأ الجمهور بالجر على أنه عطف بيان لكونه من الأعلام الغالبة فلا يصح وصف ما قبله به ؛ لأن العلم لا يوصف به . وقيل : يجوز أن يوصف به من حيث المعنى . وقال أبو عمر : إن قراءة الجر محمولة على التقديم والتأخير ، والتقدير : إلى صراط الله العزيز الحميد ، وكان يعقوب إذا وقف على ﴿ الحميد ﴾ رفع ، وإذا وصل خفض . قال ابن الأنبارى : من خفض وقف على وما فى الأرض . ثم تواعد من لا يعترف بربوبيته فقال : ﴿ وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ قد تقدم بيان معنى الويل ، وأصله : النصب كسائر المصادر ، ثم رفع للدلالة على الثبات . قال الزجاج : هى كلمة تقال للعذاب والهلكة ، فدعا سبحانه وتعالى بذلك على من لم يخرج من الكفار بهداية رسول الله ﷺ له بما أنزله الله عليه من العذاب الشديد الذى صاروا فيه .

ثم وصف هؤلاء الكفار بقوله : ﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا ﴾ أى يؤثرونها لمحبتهم لها ﴿ على الآخرة ﴾ الدائمة والنعيم الأبدى . وقيل : إن الموصول فى موضع رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى هم الذين . وقيل : الموصول مبتدأ وخبره أولئك ، وجملة : ﴿ ويصدون ﴾ وكذلك ﴿ ويبغون ﴾ معطوفتان على ﴿ يستحبون ﴾ ، ومعنى الصد عن سبيل الله : صرف الناس عنه ومنعهم منه ، وسبيل الله دينه الذى شرعه لعباده ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ أى يطلبون لها زيفاً وميلاً لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم وأغراضهم ، والعوج بكسر العين فى المعانى ، وبفتح العين فى الأعيان ، وقد سبق تحقيقه ، والأصل : يبغون لها ، فحذف الحرف وأوصل الفعل إلى الضمير ، واجتماع هذه الخصال نهاية الضلال ، ولهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق فقال : ﴿ أولئك فى ضلال بعيد ﴾ والإشارة إلى الموصوفين بتلك الصفات القبيحة والبعد وإن كان من صفة الضال لكنه يجوز وصف الضلال به مجازاً لقصد المبالغة .

ثم لما من على المكلفين بإنزال الكتاب وإرسال الرسل ذكر من كمال تلك النعمة أن ذلك المرسل بلسان قومه فقال : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ أى متلبساً بلسانهم ، متكلماً بلغتهم ؛ لأنه إذا كان كذلك فهم عنه المرسل إليهم ما يقوله لهم وسهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فإنهم لا يدرون ما يقول ، ولا يفهمون ما يخاطبهم به ، حتى يتعلموا

ذلك اللسان دهرًا طويلًا ، ومع ذلك فلا بد أن يصعب عليهم فهم ذلك بعض صعوبة ؛ ولهذا علل سبحانه ما امتن به على العباد بقوله : ﴿ ليبين لهم ﴾ أى ليوضح لهم ما أمرهم الله به من الشريعة التى شرعها لهم ، ووحد اللسان لأن المراد بها اللغة .

وقد قيل : فى هذه الآية إشكال ؛ لأن النبى ﷺ أرسل إلى الناس جميعًا ، بل إلى الجن والإنس ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة . وأجيب بأنه وإن كان ﷺ مرسلًا إلى الثقلين كما مر لكن لما كان قومه العرب ، وكانوا أخص به وأقرب إليه كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم ، وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ، ويوضحونه حتى يصير فاهمًا له كفهمهم إياه ، ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم ، وبينه رسول الله لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحًا لباب التنازع ؛ لأن كل أمة قد تدعى من المعانى فى لسانها ما لا يعرفه غيرها ، وربما كان ذلك أيضًا مفضيًا إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التى يقع فيها المتعصبون .

وجملة : ﴿ فيضل الله من يشاء ويهذى من يشاء ﴾ مستأنفة ، أى يضل من يشاء إضلاله ويهذى من يشاء هدايته . قال الفراء : إذا ذكر فعل وبعده فعل آخر فإن لم يكن النسق مشاكلا للأول فالرفع على الاستئناف هو الوجه ، فيكون معنى هذه الآية : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم تلك الشرائع باللغة التى ألفوها وفهموها ، ومع ذلك فإن المضل والهادى هو الله ، عز وجل ، والبيان لا يوجب حصول الهداية إلا إذا جعله الله سبحانه واسطة وسببًا ، وتقديم الإضلال على الهداية لأنه متقدم عليها ، إذ هو إبقاء على الأصل ، والهداية إنشاء ما لم يكن ﴿ وهو العزيز ﴾ الذى لا يغالبه مغالب ﴿ الحكيم ﴾ الذى يجرى أفعاله على مقتضى الحكمة .

ثم لما بين أن المقصود من بعثة نبينا ﷺ هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور أراد أن يبين أن الغرض من إرسال الأنبياء لم يكن إلا ذلك ، وخص موسى بالذكر لأن أمته أكثر الأمم المتقدمة على هذه الأمة المحمدية فقال : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ أى متلبسًا بها ، والمراد بالآيات : المعجزات التى لموسى ، ومعنى ﴿ أن أخرج ﴾ أى أخرج لأن الإرسال فيه معنى القول ، ويجوز أن يكون التقدير : بأن أخرج ، والمراد بقومه : بنو إسرائيل بعد ملك فرعون . ﴿ من الظلمات ﴾ من الكفر أو من الجهل الذى قالوا بسببه : ﴿ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ [الأعراف : ١٣٨] . ﴿ إلى النور ﴾ إلى الإيمان ، أو إلى العلم . ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ أى بوقائعه . قال ابن السكيت : العرب تقول : الأيام ، فى معنى الوقائع ، يقال : فلان عالم بأيام العرب ، أى بوقائعها . وقال الزجاج : أى ذكرهم بنعم الله عليهم وبنقم أيام الله التى انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود ، والمعنى : عظمهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فى التذكير بأيام الله ، أو فى نفس أيام الله ﴿ لآيات ﴾ لدلالات عظيمة دالة على التوحيد وكمال القدرة ﴿ لكل صبار ﴾ أى كثير الصبر على المحن والمنح

﴿شكور﴾ كثير الشكر للنعم التي أنعم الله بها عليه . وقيل : المراد بذلك كل مؤمن ، وعبر عنه بالوصفين المذكورين ؛ لأنهما ملاك الإيمان ، وقدم الصبار على الشكور ؛ لكون الشكر عاقبة الصبر .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ قال : من الضلالة إلى الهدى . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله : ﴿ يستحيون ﴾ قال : يختارون . وأخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : إن الله فضل محمداً على أهل السماء وعلى الأنبياء ، قيل : ما فضله على أهل السماء ؟ قال : إن الله قال لأهل السماء : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ﴾ [الأنبياء : ٢٩] . وقال لمحمد : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : ٢] . فكتب له براءة من النار . قيل : فما فضله على الأنبياء ؟ قال : إن الله يقول : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ ، وقال لمحمد : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ [سبأ : ٢٨] . فأرسله إلى الإنس والجن (١) . وأخرج ابن مردويه عن عثمان بن عفان : ﴿ إلا بلسان قومه ﴾ قال : نزل القرآن بلسان قريش . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد وعبيد بن عمير في قوله : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ قال : بالآيات التسع : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا ويده والسنين ونقص من الثمرات . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ﴾ قال : من الضلالة إلى الهدى . وأخرج النسائي ، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ قال : « بنعم الله وآلائه » (٢) . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ قال : نعم الله . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ قال : وعظهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في الآية قال : بوقائع الله في القرون الأولى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ قال : نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر ، وإذا أعطى شكر .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (٦)

(١) أبو يعلى (٢٧٠٥) وإسناده ضعيف ، والطبراني (١١٦١٠) وقال الهيثمي في المجمع ٢٥٨/٨ : « ورجاله رجال الصحيح غير الحكم بن أبان وهو ثقة » وصححه الحاكم ٣٥٠/٢ ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الدلائل ٤٨٦/٥ .
(٢) النسائي في التفسير (٢٨٠) وابن جرير ١٢٣/١٣ .

وَإِذْ تَأْذَنَ رَبُّكُمْ لَنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَنِ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاقْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴿

قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى ﴾ الظرف متعلق بمحذوف هو : اذكر ، أى اذكر وقت قول موسى ، و ﴿ إِذْ أَنْجَاكُمْ ﴾ متعلق بـ ﴿ اذكروا ﴾ أى اذكروا إني أنعم عليكم وقت إنجائه لكم من آل فرعون أو بالنعمة ، أو بمتعلق عليكم ، أى مستقرة عليكم وقت إنجائه ، وهو بدل اشتغال من النعمة مراداً بها الإنعام أو العطية ﴿ يَسْأَلُونَكُمْ سَاءَ الْعَذَابِ ﴾ أى يبغونكم ، يقال : ساء ظلمًا ، أى أولاه ظلمًا ، وأصل السوم : الذهاب فى طلب الشيء ، وسوء العذاب : مصدر ساء يسوء ، والمراد : حبس العذاب السيئ . وهو استعبادهم واستعمالهم فى الأعمال الشاقة وعطف ﴿ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ على ﴿ يَسْأَلُونَكُمْ سَاءَ الْعَذَابِ ﴾ وإن كان التذبيح من جنس سوء العذاب ؛ إخراجاً له عن مرتبة العذاب المعتاد حتى كأنه جنس آخر لما فيه من الشدة ، ومع طرح الواو كما فى الآية الأخرى يكون التذبيح تفسيراً لسوء العذاب ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ أى يتركهن فى الحياة لإهانتهم وإذلالهن ﴿ وَفِي ذَلِكُمْ ﴾ المذكور من أفعالهم ﴿ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أى ابتلاء لكم ، وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة مستوفى .

﴿ وَإِذْ تَأْذَنَ رَبُّكُمْ ﴾ : ﴿ تَأْذَنَ ﴾ بمعنى : أذن ، قاله الفراء ، قال فى الكشف : ولا بد فى تفعل من زيادة معنى ليست فى أفعل ، كأنه قيل : وإذ أذن ربكم إيذاناً بليغا تنتفى عنه الشكوك وتزاح الشبه . والمعنى : وإذ تأذن ربكم فقال : ﴿ لَنِ شَكَرْتُمْ ﴾ أو أجرى ﴿ تَأْذَنَ ﴾ مجرى قال : لأنه ضرب من القول . انتهى . وهذا من قول موسى لقومه وهو معطوف على نعمة الله ، أى اذكروا نعمة الله عليكم ، واذكروا حين تأذن ربكم . وقيل : هو معطوف على قوله : ﴿ إِذْ أَنْجَاكُمْ ﴾ أى اذكروا نعمة الله تعالى فى هذين الوقتين ، فإن هذا التأذن أيضاً

نعمة . وقيل : هو من قول الله سبحانه ، أى واذكر يا محمد إذ تأذن ربكم ، وقرأ ابن مسعود : « وإذ قال ربكم » والمعنى واحد كما تقدم ، واللام فى لئن شكرتم هى الموطئة للقسم . وقوله : ﴿ لأزيدنكم ﴾ ساد مسد جوابى الشرط والقسم ، وكذا اللام فى ﴿ ولئن كفرتم ﴾ ، وقوله : ﴿ إن عذابى لشديد ﴾ ساد مسد الجوابين أيضاً ، والمعنى : لئن شكرتم إنعامى عليكم بما ذكر لأزيدنكم نعمة إلى نعمة تفضلاً منى . وقيل : لأزيدنكم من طاعتى . وقيل : لأزيدنكم من الثواب . والأول أظهر ، فالشكر سبب المزيد ، ولئن كفرتم ذلك وجحدتموه ﴿ إن عذابى لشديد ﴾ ، فلا بد أن يصيبكم منه ما يصيب . وقيل : إن الجواب محذوف ، أى ولئن كفرتم لأعذبنكم ، والمذكور تعليل للجواب المحذوف .

﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا ﴾ أى إن تكفروا نعمته تعالى أنتم وجميع الخلق ولم تشكروها ﴿ فإن الله ﴾ سبحانه ﴿ لغنى ﴾ عن شكركم لا يحتاج إليه ولا يلحقه بذلك نقص ﴿ حميد ﴾ أى مستوجب للحمد لذاته لكثرة إنعامه ، وإن لم تشكروه ، أو يحمد غيركم من الملائكة .

﴿ ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم ﴾ يحتمل أن يكون هذا خطاباً من موسى لقومه فيكون داخلاً تحت التذكير بأيام الله ، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه ابتداءً خطاباً لقوم موسى ، وتذكيراً لهم بالقرون الأولى وأخبارهم ، ومجئ رسل الله إليهم ، ويحتمل أنه ابتداء خطاب من الله سبحانه لقوم محمد ﷺ تحذيراً لهم عن مخالفته . والنبأ : الخبر ، والجمع الأنباء . ومنه قول الشاعر :

ألم يأتيكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْمِي بِمَا لَاقَتْ لُبُونُ بَنِي زِيَادِ

و ﴿ قوم نوح ﴾ بدل من الموصول ، أو عطف بيان ﴿ وعاد وثمود والذين من بعدهم ﴾ أى من بعد هؤلاء المذكورين ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾ أى لا يحصى عددهم ويحيط بهم علماً إلا الله سبحانه ، والموصول مبتدأ وخبره لا يعلمهم إلا الله ، والجملة معترضة ، أو يكون الموصول معطوفاً على ما قبله ، ولا يعلمهم إلا الله اعتراض ، وعدم العلم من غير الله إما أن يكون راجعاً إلى صفاتهم وأحوالهم وأخلاقهم ومدد أعمارهم ، أى هذه الأمور لا يعلمها إلا الله ، ولا يعلمها غيره ، أو يكون راجعاً إلى ذواتهم ، أى أنه لا يعلم ذوات أولئك الذين من بعدهم إلا الله سبحانه . وجملة : ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ مستأنفة لبيان النبأ المذكور فى : ﴿ ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم ﴾ أى جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرة وبالشرائع الواضحة ﴿ فردوا أيديهم فى أفواههم ﴾ أى جعلوا أيدي أنفسهم فى أفواههم ليعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل كما فى قوله تعالى : ﴿ عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ [آل عمران : ١١٩] ؛ لأن الرسل جاءتهم بتسفيه أحلامهم ، وشتم أصنامهم . وقيل : إن المعنى أنهم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم لما جاءتهم الرسل بالبينات ، أى اسكتوا واتركوا هذا الذى جئتم به تكذيباً لهم

وردا لقولهم . وقيل : المعنى : أنهم أشاروا إلى أنفسهم وما يصدر عنها من المقالة وهى قولهم : ﴿ إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ أى لا جواب لكم سوى هذا الذى قلناه لكم بالستتنا هذه . وقيل : وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاء وتعجبا ، كما يفعله من غلبه الضحك من وضع يده على فيه . وقيل : المعنى : ردوا على الرسل قولهم ، وكذبوهم بأفواههم ، فالضمير الأول للرسل والثانى للكفار . وقيل : جعلوا أيديهم فى أفواه الرسل ردا لقولهم ، فالضمير الأول على هذا للكفار ، والثانى للرسل . وقيل : معناه أومؤوا إلى الرسل أن اسكتوا . وقيل : أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم . وقيل : إن الأيدي هنا النعم ، أى ردوا نعم الرسل بأفواههم ، أى بالنطق والتكذيب ، والمراد بالنعم هنا ما جاءهم به من الشرائع ، وقال أبو عبيدة : ونعم ما قال : هو ضرب مثل ، أى لم يؤمنوا ولم يجيبوا . والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت : قد رد يده فى فيه ، وهكذا قال الأخفش ، واعترض ذلك القتيبي فقال : لم يسمع أحد من العرب يقول : رد يده فى فيه إذا ترك ما أمر به ، وإنما المعنى عضوا على الأيدي حنقا وغيظا ، كقول الشاعر :

يَرُدُّنْ فِي فِيهِ غَيْظَ الْحَسُودِ حَتَّى يَعْضَ عَلَى الْاَكْفَا

وهذا هو القول الذى قدمناه على جميع هذه الأقوال ومنه قول الشاعر :

لَوْ أَنَّ سَلَمَى أَبْصَرَتْ تَخْدُدَى عَضَّتْ مِنْ الْوَجْدِ بِأَطْرَافِ الْيَدِ

وهو أقرب التفسير للآية إن لم يصح عن العرب ما ذكره أبو عبيدة والأخفش ، فإن صح ما ذكره فتفسير الآية به أقرب ﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ أى قال الكفار للرسل : إنا كفرنا بما أرسلتم به من البينات على زعمكم ﴿ وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه ﴾ أى فى شك عظيم مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله وحده وترك ما سواه ﴿ مريب ﴾ أى موجب للريب ، يقال : أربته : إذا فعلت أمرا أوجب ريبة وشكا . والريب : قلق النفس وعدم سكونها . وقد قيل : كيف صرخوا بالكفر ثم أمرهم على الشك ؟ وأجيب بأنهم أرادوا إنا كافرون برسالتكم وإن نزلنا عن هذا المقام فلا أقل من أنا نشك فى صحة نبوتكم ، ومع كمال الشك لا مطمع فى الاعتراف بنبوتكم .

وجملة : ﴿ قالت رسلهم أفى الله شك ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فماذا قالت لهم الرسل ؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أى أفى وحدانيته سبحانه شك ؟ وهى فى غاية الوضوح والجلاء ، ثم إن الرسل ذكروا بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشك فى وجوده سبحانه وحدانيته ، فقالوا : ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدتهما بعد العدم ﴿ يدعوكم ﴾ إلى الإيمان به وتوحيده ﴿ ليغفر لكم من ذنوبكم ﴾ قال أبو عبيدة : « من » زائدة ، ووجه ذلك قوله فى موضع آخر : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ [الزمر : ٥٣] . وقال سيبويه : هى للتبعيض .

ويجوز أن يذكر البعض ويراد منه الجميع . وقيل : التبعض على حقيقته ، ولا يلزم من غفران جميع الذنوب لأمة محمد ﷺ غفران جميعها لغيرهم . وبهذه الآية احتج من جوز زيادة « من » في الإثبات . وقيل : « من » للبدل وليست بزائدة ولا تبعية ، أى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ أى إلى وقت مسمى عنده سبحانه وهو الموت فلا يعذبكم فى الدنيا ﴿ قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ أى ما أنتم إلا بشر مثلنا فى الهيئة والصورة ، تأكلون وتشربون كما نأكل ونشرب ، ولستم ملائكة ﴿ تريدون أن تصدونا ﴾ وصفوهم بالبشر أولا ، ثم بإرادة الصد لهم عما كان يعبد آباؤهم ثانياً ، أى تريدون أن تصرفونا عن معبودات آبائنا من الأصنام ونحوها ﴿ فأتونا ﴾ إن كنتم صادقين بأنكم مرسلون من عند الله ﴿ بسلطان مبين ﴾ أى بحجة ظاهرة تدل على صحة ما تدعونه ، وقد جاؤوهم بالسلطان المبين والحجة الظاهرة ، ولكن هذا النوع من تعنتاتهم ، ولون من تلوناتهم .

﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ أى ما نحن فى الصورة والهيئة إلا بشر مثلكم كما قلتم ﴿ ولكن الله يمين على من يشاء من عباده ﴾ أى يتفضل على من يشاء منهم بالنبوة . وقيل : بالتوفيق والهداية ﴿ وما كان لنا أن نأتىكم بسلطان ﴾ أى ماصح ولا استقام لنا أن نأتىكم بحجة من الحجج ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أى إلا بمشيئته وليس ذلك فى قدرتنا . قيل : المراد بالسلطان هنا : هو ما يطلبه الكفار من الآيات على سبيل التعنت . وقيل : أعم من ذلك ، فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أى عليه وحده ، وهذا أمر منهم للمؤمنين بالتوكل على الله دون من عداه ، وكأن الرسل قصدوا بهذا الأمر للمؤمنين الأمر لهم أنفسهم قصداً أولاً ، ولهذا قالوا : ﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله ﴾ أى وأى عذر لنا فى ألا نتوكل عليه سبحانه ؟ ﴿ وقد هدانا سبلنا ﴾ أى والحال أنه قد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه من هدايتنا إلى الطريق الموصل إلى رحمته ، وهو ما شرعه لعباده وأوجب عليهم سلوكه ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا ﴾ بما يقع منكم من التكذيب لنا والافتراءات الباطلة ﴿ وعلى الله ﴾ وحده دون من عداه ﴿ فليتوكل المتوكلون ﴾ قيل : المراد بالتوكل الأول استحداثه ، وبهذا السعى فى بقائه وثبوته . وقيل : معنى الأول : إن الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم أن يتوكلوا فى حصولها على الله سبحانه لا علينا ، فإن شاء سبحانه أظهرها وإن شاء لم يظهرها ، ومعنى الثانى : إبداء التوكل على الله فى دفع شر الكفار وسفاهتهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ قال : أخبرهم موسى عن ربه أنهم إن شكروا النعمة زادهم من فضله ، وأوسع لهم من الرزق وأظهرهم على العالم . وأخرج ابن جرير عن الحسن : ﴿ لأزيدنكم ﴾ قال : من طاعنى . وأخرج ابن المبارك وابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن على بن أبى صالح مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سفیان الثورى فى الآية قال : لا تذهب أنفسكم إلى الدنيا فإنها أهون عند الله من ذلك ، ولكن يقول : لئن شكرتم لأزيدنكم من طاعنى .

وأخرج أحمد والبيهقي عن أنس قال : أتى النبي ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها ، وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقبلها وقال : تمرة من رسول الله ﷺ ، فقال للجارية : « اذهبي إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهماً التي عندها » (١) . وفي إسناد أحمد : عمارة بن زاذان ، وثقه أحمد ويعقوب بن سفيان وابن حبان ، وقال ابن معين : صالح ، وقال أبو زرعة : لا بأس به ، وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به ليس بالمثين ، وقال البخاري : ربما يضطرب في حديثه ، وقال أحمد : روى عنه أحاديث منكرة ، وقال أبو داود : ليس بذلك . وضعفه الدارقطني ، وقال ابن عدى : لا بأس به .

وأخرج البخاري في تاريخه ، والضياء المقدسي في المختارة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من ألهم خمسة لم يحرم خمسة » ، وفيها : « ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة » . وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأغر ؛ أن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع من أعطيهن لم يمنع من الله أربعاً » ، وفيها : « ومن أعطى الشكر لم يمنع الزيادة » . ولا وجه لتقييد الزيادة بالزيادة في الطاعة ، بل الظاهر من الآية العموم كما يفيد جعل الزيادة جزاء للشكر ، فمن شكر الله على ما رزقه وسع الله عليه في رزقه ، ومن شكر الله على ما أقره عليه من طاعته زاده من طاعته ، ومن شكره على ما أنعم عليه به من الصحة زاده الله صحة ونحو ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه كان يقرأ : ﴿ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ﴾ ويقول : كذب النسابون . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عمر بن ميمون مثله . وأخرج ابن الضريس عن أبي مجلز قال : قال رجل لعلى بن أبي طالب : أنا أنسب الناس ، قال : إنك لا تنسب الناس ، فقال : بلى ، فقال له على : أرأيت قوله : ﴿ وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ﴾ [الفرقان : ٣٨] . قال : أنا أنسب ذلك الكثير قال : أرأيت قوله : ﴿ ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ﴾ فسكت . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير قال : ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس قال : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ قال : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم . ﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ يقولون : لا نصدقكم فيما جئتم به فإن عندنا فيه شكاً قوياً . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود : ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ قال : عضوا عليها ، وفي لفظ : على

أناملهم غيظًا على رسلهم ^(١) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمُ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ^(١٣) وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ^(١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ^(١٥) مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ^(١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ^(١٧) مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ^(١٨) ﴾ .

قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هؤلاء القائلون هم طائفة من المتمردين عن إجابة الرسل ، واللام فى لنخرجنكم هى الموطئة للقسم ، أى والله لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ، لم يقنعوا بردهم لما جاءت به الرسل وعدم امتثالهم لما دعوهم إليه حتى اجترؤوا عليهم بهذا ، وخيروهم بين الخروج من أرضهم ، أو العود فى ملتهم الكفرية . وقد قيل : إن « أو » فى : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ ﴾ بمعنى حتى ، أو يعنى : إلا أن تعودوا كما قاله بعض المفسرين ، ورد بأنه لا حاجة إلى ذلك ، بل « أو » على بابها للتخيير بين أحد الأمرين ، وقد تقدم تفسير الآية فى سورة الأعراف . قيل : والعود هنا بمعنى الصيرورة لعصمة الأنبياء عن أن يكونوا على ملة الكفر قبل النبوة وبعدها . وقيل : إن الخطاب للرسل ولمن آمن بهم فغلب الرسل على أتباعهم ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى إلى الرسل ﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ أى قال لهم : لنهلكن الظالمين .

﴿ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ ﴾ أى أرض هؤلاء الكفار الذين توعدوكم بما توعدوا من الإخراج أو العود ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وقال : ﴿ وَأَوْثَرْنَاكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٢٧] . وقرئ : « ليهلكن » ، « وليسكننكم » بالتحية فى الفعلين ؛ اعتباراً بقوله : ﴿ فَأَوْحَىٰ ﴾ والإشارة بقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ إلى ما تقدم من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين فى مساكنهم ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي ﴾ أى موقفى ، وذلك يوم الحساب فإنه موقف الله سبحانه ، والمقام بفتح الميم : مكان الإقامة ، وبالضم : فعل الإقامة . وقيل : إن المقام هنا مصدر بمعنى القيام ، أى لمن خاف قيامى عليه ومراقبتى له ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣] . وقال الأخفش : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي ﴾ أى عذابى ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أى خاف

(١) ابن جرير ١٢٦/١٣ والطبرانى (٩١١٩) وصححه الحاكم ٣٥١/٢ وقال : « على شرط الشيخين » ، ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٤٦/٧ : « رواه الطبرانى عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم ، وهو ضعيف » .

وعيدى بالعذاب . وقيل : بالقرآن وزواجه . وقيل : هو نفس العذاب ، والوعيد الاسم من الوعد .

﴿ واستفتحوا ﴾ معطوف على ﴿ أوحى ﴾ والمعنى : أنهم استنصروا بالله على أعدائهم ، أو سألوا الله القضاء بينهم ، من الفتاحة وهى الحكومة ومن المعنى الأول قوله : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ [الأنفال : ١٩] أى إن تستنصروا فقد جاءكم النصر . ومن المعنى الثانى قوله : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ [الأعراف : ١٩] أى احكم ، والضمير فى ﴿ استفتحوا ﴾ للرسل . وقيل : للكفار . وقيل : للفريقين ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ الجبار : المتكبر الذى لا يرى لأحد عليه حقاً ، هكذا حكاه النحاس عن أهل اللغة ، والعنيد : المعاند للحق والمجانب له ، وهو مأخوذ من العند وهو الناحية ، أى أخذ فى ناحية معرضاً قال الشاعر :

إذا نزلتُ فاجعلونى وَسَطًا إنى كبير لا أطيقُ العَنَدًا

قال الزجاج : العنيد : الذى يعدل عن القصد ويمثله قال الهروى ، وقال أبو عبيد : هو الذى عند وبغى . وقال ابن كيسان : هو الشامخ بأنفه . وقيل : المراد به العاصى . وقيل : الذى أبى أن يقول : لا إله إلا الله . ومعنى الآية : أنه خسر وهلك من كان متصفاً بهذه الصفة ﴿ من ورائه جهنم ﴾ أى من بعده جهنم ، والمراد بعد هلاكه على أن وراءها هنا بمعنى بعد ، ومنه قول النابغة :

حَلَفْتُ فَلَمْ أتركْ لِنَفْسِكَ رِيبةً وليسَ وراءِ اللهِ للمرءِ مَذْهَبٌ

أى ليس بعد الله ، ومثله قوله : ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ أى من بعده ، كذا قال الفراء . وقيل : ﴿ من ورائه ﴾ أى من أمامه ، قال أبو عبيد : هو من أسماء الأضداد ؛ لأن أحدهما ينقلب إلى الآخر ، ومنه قول الشاعر :

ومن ورائِكَ يومَ أنتَ بِالْغُهِ لا حاضر معجز عنه ولا بَادى

وقال آخر :

أترجو بنو مروانَ سمعى وطاعنى وقومى تميم والفلاةَ ورائيسا

أى أمامى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴾ [الكهف : ٧٩] أى أمامهم . ويقول أبو عبيدة : هذا قاله قطرب ، وقال الأخفش : هو كما يقال : هذا الأمر من ورائك ، أى سوف يأتيك ، وأنا من وراء فلان ، أى فى طلبه . وقال النحاس : ﴿ من ورائه ﴾ أى من أمامه وليس من الأضداد ، ولكنه من توارى ، أى استتر فصارت جهنم من ورائه ؛ لأنها لا ترى ، وحكى مثله ابن الأنبارى . ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ معطوف على مقدر جواباً عن سؤال سائل كأنه قيل : فماذا يكون إذن ؟ قيل : يلقي فيها ويسقى ،

والصديد : ما يسيل من جلود أهل النار ، واشتقاقه من الصد ؛ لأنه يصد الناظرين عن رؤيته ، وهو دم مختلط بقيح ، والصديد صفة لماء . وقيل : عطف بيان منه و ﴿ يتجرعه ﴾ فى محل جر على أنه صفة لماء ، أو فى محل نصب على أنه حال . وقيل : هو استئناف مبنى على سؤال . والتجرع : التحسى ، أى يتحساه مرة بعد مرة لا مرة واحدة لمرارته وحرارته ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ أى يبتلعه ، يقال : ساغ الشراب فى الحلق يسوغ سوغاً : إذا كان سهلاً ، والمعنى : ولا يقارب إساغته فكيف تكون الإساغة؟ بل يغص به فيطول عذابه بالعطش تارة ، ويشربه على هذه الحال أخرى . وقيل : إنه يسيغه بعد شدة وإبطاء ، كقوله : ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ [البقرة : ٧١] أى يفعلون بعد إبطاء كما يدل عليه قوله تعالى فى آية أخرى : ﴿ يصهر به ما فى بطونهم ﴾ [الحج : ٢٠] . ﴿ ويأتية الموت من كل مكان ﴾ أى تأتية أسباب الموت من كل جهة من الجهات . أو من كل موضع من مواضع بدنه . وقال الأخفش : المراد بالموت هنا : البلايا التى تصيب الكافر فى النار ، سماها موتاً لشدتها ﴿ وما هو بميت ﴾ أى والحال أنه لم يمت حقيقة فيستريح . وقيل : تعلق نفسه فى حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فيحيا ، ومثله قوله تعالى : ﴿ لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ [الأعلى : ١٣] . وقيل : معنى ﴿ وما هو بميت ﴾ : لتطاول شدائد الموت به وامتداد سكراته عليه ، والأولى تفسير الآية بعدم الموت حقيقة لما ذكرنا من قوله سبحانه : ﴿ لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ ، وقوله : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ [فاطر : ٣٦] ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ أى من أمامه ، أو من بعده عذاب شديد . وقيل : هو الخلود . وقيل : حبس النفس .

﴿ مثل الذين كفروا بربههم أعمالهم كرماد ﴾ قال سيويه : مثل مرتفع على الابتداء ، والخبر مقدر ، أى فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا وبه قال الزجاج . وقال الفراء : التقدير : مثل أعمال الذين كفروا فحذف المضاف ، وروى عنه أنه قال بإلغاء ﴿ مثل ﴾ ، والتقدير : الذين كفروا بربههم أعمالهم كرماد . وقيل : هو أعنى ، ﴿ مثل ﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿ أعمالهم كرماد ﴾ على أن معناه الصفة ، فكأنه قال : صفتهم العجيبة أعمالهم كرماد ، والمعنى : أن أعمالهم باطلة غير مقبولة ، والرماد ما يبقى بعد احتراق الشئ ، ضرب الله سبحانه هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار فى أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد فى يوم عاصف ، ومعنى ﴿ اشتدت به الريح ﴾ : حملته بشدة وسرعة ، والعصف شدة الريح ، وصف به زمانها مبالغة كما يقال : يوم حار ويوم بارد ، والبرد والحر فيهما لا منهما ﴿ لا يقدران لما كسبوا على شئ ﴾ أى لا يقدر الكفار مما كسبوا من تلك الأعمال الباطلة على شئ منها ، ولا يرون له أثراً فى الآخرة يجازون به ويثابون عليه ، بل جميع ما عملوه فى الدنيا باطل ذاهب كذهاب الريح بالرماد عند شدة هبوبها . والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما دل عليه التمثيل ، أى هذا البطلان لأعمالهم وذهاب أثرها ﴿ هو الضلال البعيد ﴾ عن طريق الحق المخالف لمنهج الصواب ، لما

الجزء الثالث - سورة إبراهيم: الآيات (١٣ - ١٨) _____ ١٣٩
كان هذا خسراناً لا يمكن تداركه سماه بعيداً .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لنخرجنكم من أرضنا ﴾ الآية قال : كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم ، ويقهرونهم ، ويكذبونهم ، ويدعونهم إلى أن يعودوا فى ملتهم ، فأبى الله لرسوله والمؤمنين أن يعودوا فى ملة الكفر ، وأمرهم أن يتوكلوا على الله ، وأمرهم أن يستفتحوا على الجبابرة ، ووعدهم أن يسكنهم الأرض من بعدهم ، فأنجز لهم ما وعدهم . واستفتحوا كما أمرهم الله أن يستفتحوا ^(١) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة فى الآية قال : وعدهم النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة ، فبين الله من يسكنها من عباده فقال : ﴿ ولن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [الرحمن : ٤٦] وإن لله مقاماً هو قائمه ، وإن أهل الإيمان خافوا ذلك المقام فنصبوا ودأبوا الليل والنهار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ واستفتحوا ﴾ قال : للرسول كلها يقول : استنصروا ، وفى قوله : ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ قال : معاند للحق بجانب له . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة فى الآية قال : استنصرت الرسل على قومها ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ يقول : عنيد عن الحق معرض عنه ، أبى أن يقول : لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعى قال : العنيد : الناكب عن الحق .

وأخرج أحمد والترمذى والنسائى وابن أبى الدنيا وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أبى أمامة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ﴾ قال : « يقرب إليه فيتكرهه ، فإذا دنا منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره . يقول الله تعالى : ﴿ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ [محمد : ١٥] ، وقال : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾ ^(٢) [الكهف : ٢٩] . وأخرج ابن أبى شيبه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ من ماء صديد ﴾ قال : يسيل من جلد الكافر ولحمه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : ﴿ من ماء صديد ﴾ هو القيح والدم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ قال : أنواع العذاب وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت ، ولكن لا يموت لأن الله يقول : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ [فاطر : ٣٦] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن

(١) ابن جرير ١٣ / ١٢٩ .

(٢) أحمد ٥ / ٢٦٥ والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٨٣) وقال : « هذا حديث غريب » والنسائى فى التفسير (٢٨٣) وابن جرير ١٣ / ١٣١ والطبرانى (٧٤٦٠) وأبو نعيم فى الحلية ٨ / ٨٢ والبيهقى فى البعث والنشور (٦٠٢) .

ميمون بن مهران : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ قال : من كل عظم وعرق وعصب . وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، عن محمد بن كعب نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي قال : من موضع كل شعرة في جسده . ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ قال : الخلود . وأخرج ابن المنذر عن الفضيل بن عياض : ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ قال : حبس الأنفاس .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ الآية . قال : مثل الذين عبدوا غيره فأعمالهم يوم القيامة كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، لا يقدرُونَ على شيء من أعمالهم ، ينفعهم كما لا يقدر على الرماد إذا أرسل في يوم عاصف .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) ﴾ .

قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ الرؤية هنا هي القلبية ، والخطاب لرسول الله ﷺ تعريضاً لأتمته ، أو الخطاب لكل من يصلح له ، وقرأ حمزة والكسائي : «خالقُ السمواتِ» ومعنى بالحق : بالوجه الصحيح الذي يحق أن يخلقها عليه ليستدل بها على كمال قدرته ، ثم بين كمال قدرته سبحانه واستغناؤه عن كل واحد من خلقه فقال : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ فيعدم الموجودين ويوجد المعدومين ، ويهلك العصاة ، ويأتي بمن يطيعه من خلقه ، والمقام يحتمل أن يكون هذا الخلق الجديد من نوع الإنسان ، ويحتمل أن يكون من نوع آخر : ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أى بممتنع ؛ لأنه سبحانه قادر على كل شيء ، وفيه أن الله تعالى هو الحقيق بأن يرجى ثوابه ويخاف عقابه ؛ فلذلك أتبعه بذكر أحوال الآخرة فقال : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أى برزوا من قبورهم يوم القيامة ، والبروز : الظهور ، والبراز : المكان الواسع لظهوره ، ومنه : امرأة برزة ، أى تظهر للرجال ، فمعنى ﴿ برزوا ﴾ ظهوروا من قبورهم ، وعبر بالماضى عن المستقبل ؛ تنبيها على تحقيق وقوعه كما هو مقرر فى علم المعانى ،

وإنما قال : ﴿ وبرزوا لله ﴾ مع كونه سبحانه عالماً بهم لا تخفى عليه خافية من أحوالهم برزوا أو لم يبرزوا ؛ لأنهم كانوا يستترون عن العيون عند فعلهم للمعاصي ويظنون أن ذلك يخفى على الله تعالى ، فالكلام خارج على ما يعتقدونه .

﴿ فقال الضعفاء للذين استكبروا ﴾ أى قال الأتباع الضعفاء للرؤساء الأقوياء المتكبرين لما هم فيه من الرياسة : ﴿ إنا كنا لكم تبعاً ﴾ أى فى الدنيا ، فكذبنا الرسل وكفرنا بالله متابعة لكم . والتبع : جمع تابع ، أو مصدر وصف به للمبالغة ، أو على تقدير : ذوى تبع . قال الزجاج : جمعهم فى حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع ، فقال الضعفاء للذين استكبروا من أكابرهم عن عبادة الله : إنا كنا لكم تبعاً . جمع تابع ، مثل خادم وخدم ، وحارس وحرس ، وراصد ورصد ﴿ فهل أنتم مغنون عنا ﴾ أى دافعون عنا ﴿ من عذاب الله من شيء ﴾ : « من » الأولى للبيان ، والثانية للتبويض ، أى بعض الشيء الذى هو عذاب الله ، يقال : أغنى عنه : إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع .

﴿ قالوا لو هدانا الله لهديناكم ﴾ أى قال المستكبرون مجيبين عن قول المستضعفين ، والجملة مستأنفة بتقدير سؤال كأنه قيل : كيف أجابوا ؟ أى لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه . وقيل : لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها . وقيل : لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه . ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ أى مستو علينا الجذع والصبر ، و « أم » لتأكيد التسوية كما فى قوله : ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ [البقرة : ٦] . ﴿ ما لنا من محيص ﴾ أى من منجى ومهرب من العذاب . يقال : حاص فلان عن كذا ، أى فر وزاغ ، يحيص حيصاً وحيوصاً وحيصاناً ، والمعنى : ما لنا وجه نتباعد به عن النار ، ويجوز أن يكون هذا من كلام الفريقين وإن كان الظاهر أنه من كلام المستكبرين .

﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر ﴾ أى قال للفريقين هذه المقالة ، ومعنى ﴿ لما قضى الأمر ﴾ : لما دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار على ما يأتى بيانه فى سورة مريم ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ وهى وعده سبحانه بالبعث والحساب ، ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿ ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ أى وعدتكم وعداً باطلاً بأنه لا بعث ولا حساب ، ولا جنة ولا نار ، فأخلفتكم ما وعدتكم به من ذلك . قال الفراء : وعد الحق هو من إضافة الشيء إلى نفسه كقولهم : مسجد الجامع ، وقال البصريون : وعدكم وعد اليوم الحق ﴿ وما كان لى عليكم من سلطان ﴾ أى تسلط عليكم بإظهار حجة على ما وعدتكم به وزيته لكم ﴿ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ﴾ أى إلا مجرد دعائى لكم إلى الغواية والضلال بلا حجة ولا برهان ، ودعوته إياهم ليس من جنس السلطان حتى تستثنى منه ، بل الاستثناء منقطع ، أى لكن دعوتكم فاستجبتم لى ، أى فسارعتم إلى إجابتى . وقيل : المراد بالسلطان هنا : القهر ، أى : ما كان لى عليكم من قهر يضطركم إلى إجابتى . وقيل : هذا الاستثناء هو من باب : تحية بينهم ضرب وجيع . مبالغة فى نفيه للسلطان عن نفسه كأنه قال : إنما يكون لى عليكم سلطان إذا

كان مجرد الدعاء من السلطان ، وليس منه قطعاً .

﴿ فلا تلوموني ﴾ بما وقعتم فيه بسبب وعدى لكم بالباطل وإخلافي لهذا الموعد .
﴿ ولوموا أنفسكم ﴾ باستجابتكم لى بمجرد الدعوة التى لا سلطان عليها ولا حجة ، فإن من قبل المواعيد الباطلة والدعاوى الزائغة عن طريق الحق فعلى نفسه جنى ، ولما رنه قطع (١) ، ولا سيما ودعوتى هذه الباطلة ، وموعدى الفاسد وقعا معارضين لوعد الله لكم وعد الحق ، ودعوته لكم إلى الدار السلام ، مع قيام الحجة التى لا تخفى على عاقل ، ولا تلتبس إلا على مخذول ، وقريب من هذا من يقتدى بآراء الرجال المخالفة لما فى كتاب الله سبحانه ولما فى سنة رسوله ﷺ ويؤثرها على ما فيهما ، فإنه قد استجاب للباطل الذى لم تقع عليه حجة ، ولا دل عليه برهان ، وترك الحجة والبرهان خلف ظهره ، كما يفعله كثير من المقتدين بالرجال المتكبين طريق الحق بسوء اختيارهم ، اللهم غفرا .

﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ﴾ يقال : صرخ فلان : إذا استغاث يصرخ صراخاً وصرخاً ، واستصرخ بمعنى : صرخ ، والمصرخ : المغيث ، والمستصرخ : المستغيث . يقال : استصرخنى فأصرخته ، والصريخ : صوت المستصرخ ، والصريخ أيضاً : الصارخ ، وهو المغيث والمستغيث ، وهو من أسماء الأضداد كما فى الصحاح . قال ابن الأعرابى : الصارخ : المستغيث ، والمصرخ : المغيث ، ومعنى الآية : ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب ، وما أنتم بمغيثى مما أنا فيه ، وفيه إرشاد لهم إلى أن الشيطان فى تلك الحالة مبتلى بما ابتلوا به من العذاب ، محتاج إلى من يغيثه ويخلصه مما هو فيه ، فكيف يطمعون فى إغاثة من هو محتاج إلى من يغيثه ؟ وما ورد مورد هذه الأقوال من قول العرب قول أمية بن أبى الصلت :

فَلَا تَجْزَعُوا إِنِّى لَكُمْ غَيْرُ مُصْرِخٍ وَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي غَنَاءٌ وَلَا نَفَرٌ

﴿ مصرخى ﴾ بفتح الياء فى قراءة الجمهور ، وقرأ الأعمش وحمزة بكسر الياء على أصل التقاء الساكنين . قال الفراء : قراءة حمزة وهم منه ، وقل من سلم عن خطأ . وقال الزجاج : هى قراءة رديئة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف - يعنى ما ذكرناه من أن كسرهما على الأصل فى التقاء الساكنين . وقال قطرب : هذه لغة بنى يربوع يزيدون على ياء الإضافة ياءً ، وأنشد الفراء فيما ورد على هذه القراءة قول الشاعر :

قُلْتُ لَهَا يَا تَاءَ هَلْ لَكَ فِيَّ قَالَتْ لَهُ مَا أَنْتَ بِالْمَرْضَى

﴿ إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ لما كشف لهم القناع بأنه لا يغنى عنهم من عذاب الله شيئاً ولا ينصرهم بنوع من أنواع النصر ، صرح لهم بأنه كافر بإشراكهم له مع الله فى الربوبية ، من قبل هذا الوقت الذى قال لهم الشيطان فيه هذه المقالة ، وهو ما كان منهم فى الدنيا من جعله شريكاً . ولقد قام لهم الشيطان فى هذا اليوم مقاماً يقصم ظهورهم ويقطع

(١) المارن هو: الأنف ، وقيل: طرفه ، وقيل: ما لان من الأنف ، وما لان من الرمح . لسان العرب ١٣/٤٠٤ .

قلوبهم ، فأوضح لهم أولاً أن مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعده الحق من الله سبحانه وأنه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد ولم يف لهم بشيء منها ، ثم أوضح لهم ثانياً بأنهم قبلوا قوله بما ما يوجب القبول ، ولا يتفق على عقل عاقل لعدم الحجة التي لا بد للعاقل منها في قبول قول غيره ، ثم أوضح ثالثاً بأنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان ، الخالية عن أي شيء مما يتمسك به العقلاء ، ثم نعى عليهم رابعاً ما وقعوا فيه ، ودفع لومهم له وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم ؛ لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت ، الذي لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل ، ثم أوضح لهم خامساً بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة ، ولا يستطيع لهم نفعاً ، ولا يدفع عنهم ضرراً ، بل هو مثلهم في الوقوع في البلية والعجز عن التخلص من هذه المحنة ، ثم صرح لهم سادساً بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له ، فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب . وإذا كان جملة ﴿ إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ من تنمة كلامه كما ذهب إليه البعض فهو نوع سابع من كلامه الذي ناطبهم به ، فأثبت لهم الظلم ، ثم ذكر ما هو جزاؤهم عليه من العذاب الأليم ، لا على قول من قال : إنه ابتداء كلام من جهة الله سبحانه . وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن « ما » مصدرية في ﴿ ما أشركتمون ﴾ وقيل : يجوز أن تكون موصولة على معنى ﴿ إني كفرت ﴾ بالذي أشركتموه وهو الله ، عز وجل ، ويكون هذا حكاية لكفره بالله عند أن أمره بالسجود لآدم .

﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ لما أخبر سبحانه بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة . وقرأ الجمهور : ﴿ أدخل ﴾ على البناء للمفعول ، وقرأ الحسن : « وأدخل » على الاستقبال والبناء للفاعل ، أي وأنا أدخل الذين آمنوا ، ثم ذكر سبحانه خلودهم في الجنات وعدم انقطاع نعيمهم ، ثم ذكر أن ذلك بإذن ربهم ، أي بتوفيقه ولطفه وهدايته هذا على قراءة الجمهور ، وأما على قراءة الحسن فيكون ﴿ بإذن ربهم ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ تحييتهم فيها سلام ﴾ أي تحية الملائكة في الجنة سلام بإذن ربهم ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة يونس .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ قال : بخلق آخر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ فقال الضعفاء ﴾ (١) قال : الاتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ قال : للقادة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله : ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ قال زيد بن أسلم : جزعوا مائة سنة . وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن كعب بن مالك يرفعه إلى النبي ﷺ في قوله : ﴿ سواء علينا ﴾ الآية قال : « يقول أهل النار : هلموا فلنصبر ، فيصبرون خمسمائة عام ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا : هلموا فلنجزع ، فبكوا خمسمائة عام ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا :

(١) في المطبوعة : « قال الضعفاء » .

﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ ^(١) ، والظاهر أن هذه المراجعة كانت بينهم بعد دخولهم النار ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾ [غافر : ٤٧ ، ٤٨] . وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عن عقبة بن عامر يرفعه ، وذكر فيه حديث الشفاعة ، ثم قال : « ويقول الكافر عند ذلك : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ؟ ما هو إلا إبليس فهو الذى أضلنا فيأتون إبليس فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا ، فيقوم إبليس فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط ، ثم يعظمهم بجهنم ، ويقول عند ذلك : ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ الآية ^(٢) . وضعف السيوطى إسناده ، ولعل سبب ذلك كون فى إسناده رشدين ابن سعد عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن دجين الحجزى عن عقبة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال : إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال : ﴿ إن الله وعدكم ﴾ إلى قوله : ﴿ وما أنتم بمصرخى ﴾ قال : بناصرى ﴿ إني كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ قال : بطاعتكم إياى فى الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الشعبي فى هذه الآية قال : خطيبان يقومان يوم القيامة : إبليس وعيسى ، فأما إبليس فيقوم فى حزبه فيقول هذا القول : يعنى المذكور فى الآية ، وأما عيسى فيقول : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد ﴾ ^(٣) [المائدة : ١١٧] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ﴾ قال : ما أنا بنافعكم ، وما أنتم بنافعى ﴿ إني كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ قال : شركه : عبادته . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة : ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾ قال : ما أنا بمغيثكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ قال : الملائكة يسلمون عليهم فى الجنة .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ

(١) الطبرانى (١٧٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٤٦/٧ ، ٤٧ : « وفيه أنس بن أبى القاسم وهو مجهول عند أبى حاتم والذهبي ، وبقيّة رجاله ثقات » .

(٢) ابن المبارك فى الزهد (٣٧٤) وابن جرير ١٣/١٣٤ والطبرانى (٨٨٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٣٧٩/١٠ : « وفيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، وهو ضعيف » .

(٣) ابن جرير : ١٣/١٣٤ .

كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ .

لما ذكر سبحانه مثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدت به الريح ، ثم ذكر نعيم المؤمنين ، وما جزاهم الله به من إدخالهم الجنة خالدين فيها ، وتحية الملائكة لهم ذكر تعالى ها هنا مثلاً للكلمة الطيبة ، وهى كلمة الإسلام ، أى لا إله إلا الله ، أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الخير ، وذكر مثلاً للكلمة الخبيثة ، وهى كلمة الشرك أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الشر ، فقال مخاطباً لرسول الله ﷺ ، أو مخاطباً لمن يصلح للخطاب: ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً ﴾ أى اختار مثلاً وضعه فى موضعه اللائق به ، وانتصاب ﴿ مثلاً ﴾ على أنه مفعول ضرب ، و﴿ كلمة ﴾ بدل منه ، ويجوز أن تنتصب الكلمة على أنها عطف بيان لـ ﴿ مثلاً ﴾ ، ويجوز أن تنتصب الكلمة بفعل مقدر ، أى جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة ، وحكم بأنها مثلها . ومحل ﴿ كشجرة ﴾ النصب على أنها صفة لكلمة ، أو الرفع على تقدير مبتدأ ، أى هى كشجرة ، ويجوز أن تكون ﴿ كلمة ﴾ أول مفعولى ﴿ ضرب ﴾ ، وأخرت عن المفعول الثانى وهو ﴿ مثلاً ﴾ لثلاث بعد عن صفتها ، والأول أولى . و ﴿ كلمة ﴾ وما بعدها تفسير للمثل ، ثم وصف الشجرة بقوله : ﴿ أصلها ثابت ﴾ أى راسخ آمن من الانقلاع بسبب تمكنها من الأرض بعروقها ﴿ وفرعها فى السماء ﴾ أى أعلاها ذاهب إلى جهة السماء مرتفع فى الهواء .

ثم وصفها سبحانه بأنها ﴿ تؤتى أكلها كل حين ﴾ كل وقت ﴿ بإذن ربها ﴾ بإرادته ومشيته ، وقيل : وهى النخلة . وقيل غيرها . وقيل : والمراد بكونها ﴿ تؤتى أكلها كل حين ﴾ أى كل ساعة من الساعات من ليل أو نهار فى جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف . وقيل : المراد فى أوقات مختلفة من غير تعيين . وقيل : كل غدوة وعشية . وقيل : كل شهر . وقيل : كل ستة أشهر . قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة ؛ لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره ، وأنشد الأصمعى قول النابغة :

تُطَلِّقُهُ حِينًا وَحِينًا تُرَاجِعُ

قال النحاس : وهذا يبين لك أن الحين بمعنى الوقت وقد ورد الحين فى بعض المواضع يراد به : أكثر كقبوله : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ [الإنسان : ١] . وقد تقدم بيان أقوال العلماء فى الحين فى سورة البقرة فى قوله : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ [البقرة : ٣٦] . وقال الزجاج : الحين : الوقت طال أم قصر . ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ يتفكرون أحوال المبدأ والمعاد ، وبدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته . وفى ضرب الأمثال زيادة تذكير وتفهم وتصوير للمعانى .

﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾ قد تقدم تفسيرها . وقيل : هى الكافر نفسه ، والكلمة الطيبة : المؤمن نفسه . ﴿ كشجرة خبيثة ﴾ أى كمثل شجرة خبيثة ، قيل : هى شجرة الحنظل . وقيل : هى شجرة الثوم . وقيل : الكمأة . وقيل : الطحلبة ، وقيل : هى الكشوث بالضم وآخره مثلثة ، وهى شجرة لا ورق لها ولا عروق فى الأرض . قال الشاعر :

وَهُمْ كَشُوثٌ فَلَا أَصْلُ وَلَا ثَمَرُ

وقرئ : « ومثلا كلمة » بالنصب عطفًا على كلمة طيبة ﴿ اجتثت من فوق الأرض ﴾ أى استؤصلت واقتلعت من أصلها ، ومنه قول الشاعر :

هو الجلاء الذى يجتث أصلكم

قال المؤرج : أخذت جثتها وهى نفسها . والجثة : شخص الإنسان ، يقال : جثه : قلعه ، واجتته : اقتلعه ، ومعنى ﴿ من فوق الأرض ﴾ : أنه ليس لها أصل راسخ ، وعروق متمكنة من الأرض ﴿ مالها من قرار ﴾ أى من استقرار على الأرض . وقيل من : ثبات على الأرض كما أن الكافر وكلمته لا حجة له ولا ثبات فيه ، ولا خير يأتى منه أصلا ، ولا يصعد له قول طيب ولا عمل طيب .

﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ أى بالحجة الواضحة وهى الكلمة الطيبة المتقدم ذكرها ، وقد ثبت فى الصحيح أنها كلمة الشهادة : « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » وذلك إذا قعد المؤمن فى قبره . قال النبى ﷺ : « فذلك قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ » (١) . وقيل معنى تثبيت الله لهم : هو أن يدوموا على القول الثابت ، ومنه قول عبد الله بن رواحة :

يُثَبِّتُ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ تَثْبِيتٍ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصَرُوا

ومعنى ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ : أنهم يستمرون على القول الثابت فى الحياة الدنيا . قال جماعة : المراد بالحياة فى هذه الآية : القبر ؛ لأن الموتى فى الدنيا حتى يبعثوا . ومعنى ﴿ وفى الآخرة ﴾ : وقت الحساب . وقيل : المراد بالحياة الدنيا : وقت المساءلة فى القبر ، وفى الآخرة : وقت المساءلة يوم القيامة . والمراد : أنهم إذا سئلوا عن معتقدهم ودينهم أوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلثم ولا تردد ولا جهل كما يقول من لم يوفق : لا أدرى ، فيقال له : لا دريت ولا تلثت ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ أى يضلهم عن حجتهم التى هى القول الثابت فلا يقدرّون على التكلم بها فى قبورهم ، ولا عند الحساب ، كما أضلهم عن اتباع الحق فى الدنيا . قيل : والمراد بالظالمين هنا : الكفرة . وقيل : كل من ظلم نفسه ولو بمجرد الإعراض

عن البيئات الواضحة ، فإنه لا يثبت فى مواقف الفتن ، ولا يهتدى إلى الحق . ثم ذكر سبحانه أنه يفعل ما يشاء من التثبيت والخذلان لا راد لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل . قال الفراء : أى لا تنكر له قدرة ولا يسأل عما يفعل ، والإظهار فى محل الإضمار فى الموضعين لتربية المهابة كما قيل . والله أعلم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ كشجرة طيبة ﴾ وهو المؤمن ﴿ أصلها ثابت ﴾ يقول : لا إله إلا الله ثابت فى قلب المؤمن ﴿ وفرعها فى السماء ﴾ يقول : يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء . ﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾ وهى الشرك ﴿ كشجرة خبيثة ﴾ يعنى : الكافر ﴿ اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ يقول : الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان ، ولا يقبل الله مع الشرك عملا . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم . وأخرج الترمذى والنسائى والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس قال : أتى رسول الله ﷺ بقتاع من بسر فقال : ﴿ مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴾ حتى بلغ : ﴿ تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ﴾ قال : « هى النخلة » ﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾ حتى بلغ : ﴿ ماله من قرار ﴾ قال : « هى الحنظلة » ، وروى موقوفاً عن أنس ، قال الترمذى : الموقوف أصح (١) . وأخرج أحمد وابن مردويه : قال السيوطى بسند جيد عن عمر عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ كشجرة طيبة ﴾ قال : « هى التى لا ينقص ورقها » قال : « هى النخلة » (٢) . وأخرج البخارى وغيره من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه : « إن شجرة من الشجر ، لا يطرح ورقها مثل المؤمن » قال : فوق الناس فى شجر البوادرى ووقع فى قلبى أنها النخلة ، فاستحييت حتى قال رسول الله ﷺ : « هى النخلة » (٣) . وفى لفظ للبخارى قال : « أخبرونى عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحات ورقها وتؤتى أكلها كل حين » فذكر نحوه (٤) . وفى لفظ لابن جرير وابن مردويه من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « هل تدرون ما الشجرة الطيبة ؟ » ثم قال : « هى النخلة » (٥) . وروى نحو هذا عن جماعة من الصحابة والتابعين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ﴾ قال : كل ساعة بالليل والنهار والشتاء والصيف ، وذلك مثل المؤمن يطيع ربه بالليل والنهار والشتاء

(١) الترمذى فى التفسير (٣١١٩) والنسائى فى التفسير (٢٨٢) وأبو يعلى (٤١٦٥) وابن جرير ١٣٦/١٣ وابن حبان (٤٧٥) وصححه الحاكم ٣٥٢/٢ ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد ٣١/٢ .

(٣) البخارى فى العلم (٦١) ومسلم فى صفات المنافقين (٦٣/٢٨١١) والترمذى فى الأمثال (٢٨٦٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٤) ابن جرير ١٣٧/١٣ .

(٥) البخارى فى التفسير (٤٦٩٨) .

والصيف . وأخرج ابن أبي حاتم عنه فى الآية قال : يكون أخضر ثم يكون أصفر . وأخرج عنه أيضا فى قوله : ﴿ كل حين ﴾ قال : جذاذ النخل . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا : ﴿ تؤتى أكلها كل حين ﴾ قال : تطعم فى كل ستة أشهر . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال : الحين هنا : سنة . وأخرج البيهقى عنه أيضا قال : الحين : قد يكون غدوة وعشية ، وقد روى عن جماعة من السلف فى هذا أقوال كثيرة .

وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن البراء بن عازب ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم إذا سئل فى القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله سبحانه : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ » (١) . وأخرج ابن أبى شيبه والبيهقى عن البراء بن عازب فى قوله : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا ﴾ الآية قال : التثبيت فى الحياة الدنيا إذا جاء الملكان إلى الرجل فى القبر فقالا : من ربك ؟ فقال : ربى الله ، قال : وما دينك ؟ قال : دينى الإسلام . قال : ومن نبيك ؟ قال : نبيى محمد ﷺ . فذلك التثبيت فى الحياة الدنيا . وأخرج البيهقى عن ابن عباس نحوه . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه عن أبى سعيد فى الآية قال : فى الآخرة القبر . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال النبى ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا ﴾ الآية . قال : « هذا فى القبر » . وأخرج البيهقى من حديثها نحوه . وأخرج البزار عنها أيضاً قالت : قلت : يارسول الله ، تبلى هذه الأمة فى قبورها فكيف بى وأنا امرأة ضعيفة ؟ قال : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا ﴾ الآية . وقد وردت أحاديث كثيرة فى سؤال الملائكة للميت فى قبره وفى جوابه عليهم وفى عذاب القبر وفتنته . وليس هذا موضع بسطها وهى معروفة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَنَّا كُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ .

(١) البخارى فى الجنايز (١٣٦٩) وفى التفسير (٤٦٩٩) ومسلم فى الجنة (٢٨٧١ / ٧٣) وأبو داود فى السنة (٤٧٥٠) والترمذى فى التفسير (٣١٢٠) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٢٨٤) وابن ماجه فى الزهد (٤٢٦٩) وابن جرير ١٤٢/١٣ .

قوله : ﴿ ألم تر ﴾ : هذا خطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له ، وهو تعجيب من حال الكفار حيث جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر ، أى بدل شكرها الكفر بها ، وذلك بتكذيبهم محمداً ﷺ حين بعثه الله منهم ، وأنعم عليهم به ، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنهم كفار مكة وأن الآية نزلت فيهم . وقيل : نزلت فى الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر . وقيل : نزلت فى بطون قريش بنى مخزوم ، وبنى أمية . وقيل : نزلت فى منتصرة العرب . وهم جيلة بن الأيهم وأصحابه ، وفيه نظر ، فإن جيلة وأصحابه لم يسلموا إلا فى خلافة عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه . وقيل : إنها عامة فى جميع المشركين . وقيل : المراد بتبديل نعمة الله كفرةً أنهم لما كفروها سلبهم الله ذلك فصاروا متبديلين بها الكفر ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ أى أنزلوا قومهم بسبب ما زينوه لهم من الكفر دار البوار ، وهى جهنم ، والبوار : الهلاك . وقيل : هم قادة قريش أحلوا قومهم يوم بدر دار البوار ، أى الهلاك وهو القتل الذى أصيبوا به ، ومنه قول الشاعر :

قَلَمُ أَرِ مِثْلَهُمْ أَبْطَالَ حَرْبٍ غَدَاةَ الْحَرْبِ إِذْ خِيفَ الْبَوَارُ

والأول أولى لقوله : ﴿ جهنم ﴾ فإنه عطف بيان لدار البوار ، و ﴿ يصلونها ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو هو مستأنف لبيان كيفية حلولهم فيها ﴿ وبئس القرار ﴾ أى بئس القرار قرارهم فيها أو بئس المقر جهنم ، فالمخصوص بالذم محذوف ﴿ وجعلوا لله أندادا ﴾ معطوف على ﴿ وأحلوا ﴾ أى جعلوا لله شركاء فى الربوبية ، أو فى التسمية وهى الأصنام . قرأ ابن كثير وأبو عمرو : « لِيُضِلُّوا » بفتح الياء ، أى ليضلوا أنفسهم عن سبيل الله ، وتكون اللام للعاقبة ، أى يتعقب جعلهم لله أنداداً ضلالهم ؛ لأن العاقل لا يريد ضلال نفسه ، وحسن استعمال لام العاقبة هنا ؛ لأنها تشبه الغرض والغاية من جهة حصولها فى آخر المراتب ، والمشابهة أحد الأمور المصححة للمجاز . وقرأ الباقر بضم الياء ليوقعوا قومهم فى الضلال عن سبيل الله ، فهذا هو الغرض من جعلهم لله أنداداً ، ثم هددهم سبحانه فقال لنبيه ﷺ : ﴿ قل قمتعوا ﴾ بما أنتم فيه من الشهوات ، وما زينته لكم أنفسكم من كفران النعم وإضلال الناس ﴿ فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى مردكم ومرجعكم إليها ليس إلا ، ولما كان هذا حالهم ، وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه وانهماكهم فيه لا يقلعون عنه ، ولا يقبلون فيه نصح الناصحين ، جعل الأمر بمباشرة مكان النهى قربانه إيضاحاً لما تكون عليه عاقبتهم ، وأنهم لا محالة صائرون إلى النار فلا بد لهم من تعاطى الأسباب المقتضية ذلك ، فجملة : ﴿ فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ تعليل للأمر بالتمتع وفيه من التهديد ما لا يقادر قدره . ويجوز أن تكون هذه الجملة جواباً لمحذوف دل عليه سياق الكلام ، كأنه قيل : فإن دمت على ذلك فإن مصيركم إلى النار ، والأول أولى والنظم القرآنى عليه أدل . وذلك كما يقال لمن يسعى فى مخالفة السلطان : اصنع ما شئت من المخالفة فإن مصيرك إلى السيف .

﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾ لما أمره بأن

يقول للمبدلين نعمة الله كفرًا الجاعلين لله أندادًا ما قاله لهم ، أمره سبحانه أن يقول للطائفة المقابلة لهم ، وهى طائفة المؤمنين ، هذا القول ، والمقول محذوف دل عليه المذكور ، أى قل لعبادى : أقيموا وأنفقوا وقيموا وينفقوا ، فجزم ﴿ يقيموا ﴾ على أنه جواب الأمر المحذوف ، وكذلك ﴿ ينفقوا ﴾ ، ذكر معنى هذا الفراء ، وقال الزجاج : إن ﴿ يقيموا ﴾ مجزوم بمعنى اللام ، أى ليقموا فأسقطت اللام ، ثم ذكر وجهًا آخر للجزم مثل ما ذكره الفراء ، وانتصاب ﴿ سرا ﴾ و ﴿ علانية ﴾ إما على الحال ، أى مسرين ومعلنين أو على المصدر ، أى إنفاق سر وإنفاق علانية ، أو على الظرف ، أى وقت سر ووقت علانية . قال الجمهور : السر : ما خفى ، والعلانية : ما ظهر . وقيل : السر : التطوع ، والعلانية : الفرض ، وقد تقدم تفسير هذا عند تفسير قوله : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعمنا هى ﴾ [البقرة : ٢٧١] .

﴿ من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ : قال أبو عبيدة : البيع ها هنا : الفداء ، والخلال : المخالة وهو مصدر ، قال الواحدي : هذا قول جميع أهل اللغة ، وقال أبو على الفارسي : يجوز أن يكون جمع خلة مثل برمة وبرام وعلبة وعلاب ، والمعنى : أن يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفتدى المقصر فى العمل نفسه من عذاب الله بدفع عوض عن ذلك ، وليس هناك مخاللة حتى يشفع الخليل لخليله ، وينقذه من العذاب ، فأمرهم سبحانه بالإنفاق فى وجوه الخير مما رزقهم الله ، ما داموا فى الحياة الدنيا قادرين على إنفاق أموالهم من قبل أن يأتى يوم القيامة ؛ فإنهم لا يقدرّون على ذلك ، بل لا مال لهم إذ ذاك ، فالجملة ، أعنى : ﴿ من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ ، لتأكيد مضمون الأمر بالإنفاق مما رزقهم الله ، ويمكن أن يكون فيها أيضًا تأكيد لمضمون الأمر بإقامة الصلاة ؛ وذلك لأن تركها كثيرًا ما يكون بسبب الاشتغال بالبيع ، ورعاية حقوق الأخلاء ، وقد تقدم فى البقرة تفسير البيع والخلال .

﴿ الله الذى خلق السموات والأرض ﴾ أى أبدعهما واخترعهما على غير مثال ، وخلق ما فيهما من الأجرام العلوية والسفلية ، والاسم الشريف مبتدأ ، وما بعده خبره ﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ المراد بالسماء هنا جهة العلو ، فإنه يدخل فى ذلك الفلك عند من قال : إن ابتداء المطر منه ، ويدخل فيه السحاب عند من قال : إن ابتداء المطر منها ، وتدخل فيه الأسباب التى تثير السحاب كالرياح ، وتنكير الماء هنا للتنوع ، أى نوعًا من أنواع الماء ، وهو ماء المطر ﴿ فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾ أى أخرج بذلك الماء من الثمرات المتنوعة رزقًا لبنى آدم يعيشون به ، و « من » فى ﴿ من الثمرات ﴾ للبيان كقولك : أنفقت من الدراهم . وقيل : للتبعيض ؛ لأن الثمرات منها ما هو رزق لبنى آدم ، ومنها ما ليس برزق لهم ، وهو ما لا يأكلونه ولا ينتفعون به ﴿ وسخر لكم الفلك ﴾ فجرت على إرادتكم واستعملتموها فى مصالحكم ولذا قال : ﴿ لتجرى فى البحر ﴾ كما تريدون وعلى ما تطلبون ﴿ بأمره ﴾ أى بأمر الله ومشيئته ، وقد تقدم تفسير هذا فى البقرة ﴿ وسخر لكم الأنهار ﴾ أى ذللها لكم بالركوب عليها ، والإجراء لها إلى حيث تريدون .

﴿ وسخر لكم الشمس والقمر ﴾ لتتفعوا بهما وتستضيؤوا بضوئهما ، وانتصاب ﴿ دائبين ﴾ على الحال ، والدؤوب : مرور الشيء فى العمل على عادة جارية ، أى دائبين فى إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره . وقيل : ﴿ دائبين ﴾ فى السير امتثالاً لأمر الله ، والمعنى : يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران ولا ينقطع سيرهما ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ يتعاقبان فالنهار لسعيكم فى أمور معاشكم ، وما تحتاجون إليه من أمور دنياكم . والليل لتسكنوا ، كما قال سبحانه : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ [القصص : ٧٣] . ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ قال الأخفش : أى أعطاكم من كل مسؤول سألتموه شيئاً ، فحذف شيئاً . وقيل : المعنى : وآتاكم من كل ما سألتموه ومن كل ما لم تسألوه فحذفت الجملة الأخرى . قاله ابن الأنبارى . وقيل : « من » زائدة ، أى آتاكم كل ما سألتموه . وقيل : للتبعض ، أى آتاكم بعض كل ما سألتموه . وقرأ ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة : « من كل » بتنوين كل ، وعلى هذه القراءة يجوز أن تكون « ما » نافية ، أى آتاكم من جميع ذلك حال كونكم غير سائلين له ، ويجوز أن تكون موصولة ، أى آتاكم من كل شيء الذى سألتموه ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ أى وإن تعرضوا لتعداد نعم الله التى أنعم بها عليكم إجمالاً فضلاً عن التفصيل لا تطيقوا إحصاءها بوجه من الوجوه ، ولا تقوموا بحصرها على حال من الأحوال . وأصل الإحصاء : أن الحاسب إذا بلغ عقداً معيناً من عقود الأعداد ، وضع حصاة ليحفظه بها ، ومعلوم أنه لو رام فرد من أفراد العباد أن يحصى ما أنعم الله به عليه فى خلق عضو من أعضائه ، أو حاسة من حواسه لم يقدر على ذلك قط ، ولا أمكنه أصلاً ، فكيف بما عدا ذلك من النعم فى جميع ما خلقه الله فى بدنه ، فكيف بما عدا ذلك من النعم الواصلة إليه فى كل وقت على تنوعها ، واختلاف أجناسها ، اللهم إنا نشرك على كل نعمة أنعمت بها علينا عما لا يعلمه إلا أنت ، ومما علمناه شكراً لا يحيط به حصر ، ولا يحصره عد ، وعدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان فى كل زمان ﴿ إن الإنسان لظلوم ﴾ لنفسه بإغفاله لشكر نعم الله عليه ، وظاهره شمول كل إنسان ، وقال الزجاج : إن الإنسان اسم جنس يقصد به الكافر خاصة كما قال : ﴿ إن الإنسان لفى خسر ﴾ [العصر : ٢] . ﴿ كفار ﴾ أى شديد كفران نعم الله عليه جاحد لها ، غير شاكر لله سبحانه عليها ، كما ينبغى ويجب عليه .

وقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والبخارى والنسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال : هم كفار أهل مكة ^(١) . وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمر بن الخطاب فى قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال : هما الأفجران من

(١) البخارى فى المغازى (٣٩٧٧) وفى التفسير (٤٧٠٠) والنسائى فى التفسير (٢٨٨) وابن جرير ١٤٧/١٣ والبيهقى فى الدلائل ٩٥/٣ .

قريش : بنو المغيرة وبنو أمية ، فأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فماتوا إلى حين^(١) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن عمر نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طرق عن علي في الآية نحوه أيضا^(٢) .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي عن أبي الطفيل ؛ أن ابن الكواء سأل علياً عن الذين بدلوا نعمة الله كفراً . قال : هم الفجار من قريش كفيتهم يوم بدر . قال : فمن الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ؟ قال : منهم أهل حروراء^(٣) . وقد روى في تفسير هذه الآية عن علي من طرق نحو هذا . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : هم جبلة بن الأيهم ، والذين اتبعوه من العرب ، فلحقوا بالروم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ قال : الهلاك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وجعلوا لله أندادا ﴾ قال : أشركوا بالله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : ﴿ وسخر لكم الأنهار ﴾ قال : بكل فائدة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ قال : دؤوبهما في طاعة الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ قال : من كل شيء رغبت إليه فيه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : من كل الذي سألتموه . وأخرج ابن أبي الدنيا ، والبيهقي في الشعب عن سليمان التيمي قال : إن الله أنعم على العباد على قدره ، وكلفهم الشكر على قدرهم . وأخرج أيضاً عن بكر بن عبد الله المزني قال : يا بن آدم إن أردت أن تعلم قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك . وأخرج البيهقي عن أبي الدرداء قال : من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه ، فقد قل عمله وحضر عذابه . وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن أبي أيوب القرشي مولى بني هاشم قال : قال داود عليه السلام : رب أخبرني ما أدنى نعمتك عليّ ، فأوحى إليّ : يا داود تنفس فتنفس فقال : هذا أدنى نعمتي عليك . وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قال : اللهم اغفر لي ظلمي وكفري . فقال قائل : يا أمير المؤمنين ، هذا الظلم ، فما بال الكفر ؟ قال : ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ .

(١) ابن جرير ١٤٦/١٣ .

(٢) ابن جرير ١٤٦/١٣ وصححه الحاكم ٣٥٢/٢ ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي في المجمع ٤٧/٧ : « رواه

الطبراني في الأوسط وفيه عمرو ذومر ، ولم يرو عنه غير أبي إسحاق السبيعي وبقية رجاله ثقات » .

(٣) النسائي في التفسير (٢٨٧) وابن جرير ١٣ / ١٤٦ وصححه الحاكم ٣٥٢ / ٢ ووافقه الذهبي وفيه : « منافقو

قريش بدلا من كفار قريش » والبيهقي في الدلائل ٩٥ / ٣ .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ۞

قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ۞ ﴾ : متعلق بمحذوف ، أى اذكر وقت قوله ، ولعل المراد بسياق ما قاله إبراهيم عليه السلام فى هذا الموضع بيان كفر قريش بالنعم الخاصة بهم ، وهى إسكانهم مكة بعد ما بين كفرهم بالنعم العامة . وقيل : إن ذكر قصة إبراهيم ها هنا لمثال الكلمة الطيبة . وقيل : لقصد الدعاء إلى التوحيد ، وإنكار عبادة الأصنام ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ المراد بالبلد هنا : مكة . دعا إبراهيم ربه أن يجعله آمناً ، أى ذا أمن ، وقدم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده ؛ لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشيء آخذ من أمور الدين والدنيا . وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية فى البقرة عند قوله تعالى : ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ [البقرة : ١٢٦] . والفرق بين ما هنا وما هنالك أن المطلوب هنا مجرد الأمن للبلد ، والمطلوب هنالك البلدية والأمن ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾ يقال : جنبته كذا ، واجنبته وجنبته ، أى باعدته عنه ، والمعنى : باعدنى ، وباعد بنى عن عبادة الأصنام ، قيل : أراد بنيه من صلبه وكانوا ثمانية . وقيل : أراد من كان موجوداً حال دعوته من بنيه وبني بنيه . وقيل : أراد جميع ذريته ما تناسلوا ، ويؤيد ذلك ما قيل من أنه لم يعبد أحد من أولاد إبراهيم صنماً ، والصنم هو التمثال الذى كانت تصنعه أهل الجاهلية من الأحجار ونحوها فيعبدهونه ، وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر : « واجنبني » بقطع الهمزة على أنه أصله أجنب .

﴿ رب إنهم أضلن كثيراً من الناس ﴾ أسند الإضلال إلى الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل ؛ لأنها سبب لضلالتهم فكأنها أضلتهم ، وهذه الجملة تعليل لدعائه لربه ، ثم قال : ﴿ فمن تبعني ﴾ أى من تبع ديني من الناس فصار مسلماً موحداً ﴿ فإنه مني ﴾ أى من أهل ديني ، جعل أهل ملته كنفسه مبالغة . ﴿ ومن عصاني ﴾ فلم يتابعني ويدخل فى ملتي ﴿ فإنك غفور رحيم ﴾ قادر على أن تغفر له . قيل : قال هذا قبل أن يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به . كما وقع منه الاستغفار لأبيه وهو مشرك ، كذا قال ابن الأنبارى . وقيل : المراد عصيانه هنا فيما دون الشرك . وقيل : إن هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك .

ثم قال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي ﴾ قال الفراء : من للتبعيض ، أى بعض ذريتي . وقال ابن الأنبارى : إنها زائدة ، أى أسكنت ذريتي . والأول أولى ؛ لأنه إنما أسكن إسماعيل وهو بعض ولده ﴿ بواد غير ذى زرع ﴾ أى لا زرع فيه ، وهو وادى مكة ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ أى الذى يحرم فيه ما يستباح فى غيره . وقيل : إنه محرم على الجبابرة . وقيل : محرم من أن تنتهك حرمة ، أو يستخف به ، وقد تقدم فى سورة المائدة ما يغنى عن الإعادة ، ثم قال : ﴿ ربنا ليقموا الصلاة ﴾ اللام متعلقة بأسكنت ، أى أسكنتهم ليقموا الصلاة فيه متوجهين إليه ، متبركين به ، وخصها دون سائر العبادات لمزيد فضلها ، ولعل تكرير النداء لإظهار العناية الكاملة بهذه العبادة ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ الأفئدة جمع فؤاد ، وهو القلب ، عبر به عن جميع البدن ؛ لأنه أشرف عضو فيه . وقيل : هو جمع وفد والأصل أفودة ، فقدمت الفاء ، وقلبت الواو ياء ، فكأنه قال : واجعل وفوداً من الناس تهوى إليهم و « من » فى ﴿ من الناس ﴾ للتبعيض . وقيل : زائدة ولا يلزم منه أن يحج اليهود والنصارى بدخولهم تحت لفظ الناس ؛ لأن المطلوب توجيه قلوب الناس إليهم للسكون معهم والجلب إليهم ، لا توجيهها إلى الحج ولو كان هذا مراداً لقال : تهوى إليه . وقيل : من للابتداء كقولك : القلب منى سقيم ، يريد قلبى ، ومعنى ﴿ تهوى إليهم ﴾ : تنزع إليهم ، يقال : هوى نحوه : إذا مال ، وهوت الناقة تهوى هويًا فهي هاوية : إذا عدت عدوًا شديدًا كأنها تهوى فى بئر . ويحتمل أن يكون المعنى : تجىء إليهم أو تسرع إليهم والمعنى : متقارب ، ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ أى : ارزق ذريتي الذين أسكنتهم هنالك ، أو هم ومن يساكنهم من الناس من أنواع الثمرات التى تنبت فيه ، أو تجلب إليه ﴿ لعلهم يشكرون ﴾ نعمك التى أنعمت بها عليهم .

﴿ ربنا إني أعلم ما نخفى وما نعلن ﴾ أى ما نكتمه وما نظهره لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليه سبحانه سيان . قيل : والمراد هنا بما نخفى ما يقابل ما نعلن فالمعنى : ما نظهره وما لا نظهره ، وقدم ما نخفى على ما نعلن للدلالة على أنهما مستويان فى علم الله سبحانه . وظاهر النظم القرآنى عموم كل ما لا يظهر وما يظهر من غير تقييد بشيء معين من ذلك . وقيل : المراد ما يخفيه إبراهيم من وجده بإسماعيل وأمه ، حيث أسكنهما بواد غير ذى زرع . وما يعلنه من ذلك . وقيل : ما يخفيه إبراهيم من الوجد ويعلنه من البكاء والدعاء . والمجىء بضمير الجماعة يشعر بأن إبراهيم لم يرد نفسه فقط ، بل أراد جميع العباد ، فكأن المعنى : أن الله سبحانه يعلم بكل ما يظهره العباد ، وبكل ما لا يظهره . وأما قوله : ﴿ وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء ﴾ فقال جمهور المفسرين : هو من كلام الله سبحانه تصديقًا لما قاله إبراهيم من أنه سبحانه يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه ، فقال سبحانه : ﴿ وما يخفى على الله من شيء ﴾ من الأشياء الموجودة كائنًا ما كان . وإنما ذكر السموات والأرض لأنها المشاهدة للعباد ، وإلا فعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل فى العالم ، وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه منه خافية . قيل : ويحتمل أن يكون هذا من قول إبراهيم تحقيقًا لقوله الأول ،

وتعميماً بعد التخصيص .

ثم حمد الله سبحانه على بعض نعمه الواصلة إليه فقال : ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ أى وهب لى على كبر سنى وسن امرأتى . قيل : ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنى عشرة سنة ، قيل : و«على» هنا بمعنى « مع » أى وهو لى مع كبرى ويأسى عن الولد ﴿ إن ربي لسميع الدعاء ﴾ أى لمجيب الدعاء ، من قولهم : سمع كلامه : إذا أجابه واعتد به وعمل بمقتضاه ، وهو من إضافة الصفة المتضمنة للمبالغة إلى المفعول ، والمعنى : إنك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك ، ثم سأل الله سبحانه بأن يجعله مقيم الصلاة ، محافظاً عليها غير مهمل لشيء منها ، ثم قال : ﴿ ومن ذريتى ﴾ أى بعض ذريتى ، أى اجعلنى واجعل بعض ذريتى مقيمين للصلاة ، وإنما خص البعض من ذريته ؛ لأنه علم أن منهم من لا يقيمها كما ينبغي . قال الزجاج : أى اجعل من ذريتى من يقيم الصلاة ، ثم سأل الله سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم ، ويدخل فى ذلك دعاؤه فى هذا المقام دخولاً أولياً . قيل : والمراد بالدعاء هنا : العبادة ، فيكون المعنى : وتقبل عبادتى التى أعبدك بها ، ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر له ما وقع منه ، مما يستحق أن يغفره الله وإن لم يكن كبيراً ، لما هو معلوم من عصمة الأنبياء عن الكبائر . ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر لوالديه ، وقد قيل : إنه دعا لهما بالمغفرة قبل أن يعلم أنهما عدوان لله سبحانه كما فى قوله سبحانه : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ [التوبة : ١١٤] . وقيل : كانت أمه مسلمة . وقيل : أراد بوالديه : آدم وحواء . وقرأ سعيد بن جبير : « ولوالدى » بالتوحيد على إرادة الأب وحده . وقرأ إبراهيم النخعى : « ولولدى » يعنى إسماعيل وإسحاق ، وكذا قرأ يحيى بن يعمر ، ثم استغفر للمؤمنين . وظاهره شمول كل مؤمن سواء كان من ذريته أو لم يكن منهم . وقيل : أراد المؤمنين من ذريته فقط . ﴿ يوم يقوم الحساب ﴾ أى يوم يثبت حساب المكلفين فى المحشر ، استعير له لفظ يقوم الذى هو حقيقته فى قيام الرجل للدلالة على أنه فى غاية الاستقامة . وقيل : إن المعنى : يوم يقوم الناس للحساب . والأول أولى .

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ الآية قال : فاستجاب الله لإبراهيم دعوته فى ولده ، فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته . واستجاب الله له ، وجعل هذا البلد آمناً ، ورزق أهله من الثمرات ، وجعله إماماً ، وجعل من ذريته من يقيم الصلاة ، وتقبل دعاءه فأراه مناسكه وتاب عليه .

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل ، عن عقيل بن أبى طالب ؛ أن النبى ﷺ لما أتاه الستة نفر من الأنصار جلس إليهم عند جمرة العقبة ، فدعاهم إلى الله وإلى عبادته والمواظرة على دينه ، فسألوه أن يعرض عليهم ما أوحى إليه ، فقرأ من سورة إبراهيم ، ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ إلى آخر السورة فرق القوم وأخبتوا حين

سمعوا منه ما سمعوا وأجابوه (١) . وأخرج الواقدي وابن عساكر من طريق عامر بن سعد عن أبيه قال : كانت سارة تحت إبراهيم فمكثت تحته دهرًا لا ترزق منه ولدًا ، فلما رأت ذلك وهبت له هاجر أمة لها قبطية ، فولدت له إسماعيل ، فغارت من ذلك سارة ووجدت في نفسها ، وعتبت على هاجر ، فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أطراف . فقال لها إبراهيم : هل لك أن تبرى يمينك ؟ قالت : كيف أصنع ؟ قال : اثقبي أذنيها واخفضيها ، والخفض هو الختان ، ففعلت ذلك بها ، فوضعت هاجر في أذنيها قرطين فازدادت بهما حسنا . فقالت سارة : أرني إنما زدتها جمالا ، فلم تقاره على كونه معها ووجد بها إبراهيم وجداً شديداً ، فنقلها إلى مكة فكان يزورها في كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ قال : أسكن إسماعيل وأمه مكة . وأخرج ابن المنذر عنه قال : إن إبراهيم حين قال : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْتَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ لو قال : أفئدة الناس تهوى إليهم لازدحمت عليه فارس والروم . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحكم قال : سألت عكرمة وطاوس وعطاء بن أبي رباح عن هذه الآية : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْتَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ فقالوا : البيت تهوى إليه قلوبهم يأتونه . وفي لفظ قالوا : هواهم إلى مكة أن يحجوا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ قال : تنزع إليهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن مسلم الطائفي أن إبراهيم لما دعا للحرم : ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ نقل الله الطائف من فلسطين . وأخرج ابن أبي حاتم عن الزهري قال : إن الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والبيهقي في شعب الإيمان ، قال السيوطي : بسند حسن ، عن ابن عباس قالوا : لو كان إبراهيم عليه السلام قال : فاجعل أفئدة الناس تهوى إليهم لحج اليهود والنصارى والناس كلهم ، ولكنه قال : أفئدة من الناس ، فخص به المؤمنين (٢) .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ مَا نَخْفَى وَمَا نَعْلَن ﴾ قال : من الحزن . وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي في قوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفَى ﴾ قال : من حب إسماعيل وأمه ﴿ وَمَا نَعْلَن ﴾ قال : ما نظهر لسارة من الجفاء لهما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ قال : هذا بعد ذلك بحين . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : بشر إبراهيم بعد سبع عشرة سنة ومائة سنة (٣) .

(١) أبو نعيم في الدلائل ص ٢٥٧ .

(٢) ابن جرير ١٥٥/١٣ .

(٣) المرجع السابق ١٥٦/١٣ .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾
 (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدْتَهُمْ هَوَاءً (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) .

قوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ خطاب للنبي ﷺ وهو تعريض لأُمتِه ، فكأنه قال : ولا تحسب أمتك يا محمد ، ويجوز أن يكون خطاباً لكل من يصلح له من المكلفين ، وإن كان الخطاب للنبي ﷺ من غير تعريض لأُمتِه ، فمعناه : التثبيت على ما كان عليه من عدم الحساب كقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤] ونحوه . وقيل : المراد ولا تحسبته يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ، ولكن معاملة الرقيب عليهم ، أو يكون المراد بالنهاى عن الحساب الإيذان بأنه عالم بذلك ، لا تخفى عليه منه خافية ، وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ وإعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنة الله سبحانه فى إمهال العصاة . ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ أى يؤخر جزاءهم ، ولا يؤاخذهم بظلمهم ، وهذه الجملة تعليل للنهى السابق . وقرأ الحسن والسلمى ، وهو رواية عن أبى عمرو بالنون فى : «نؤخرهم» وقرأ الباقون بالتحتيه واختارها أبو عبيد ، وأبو حاتم لقوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ ﴾ ومعنى ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ أى ترفع فيه أبصار أهل الموقف ، ولا تغمض من هول ما تراه فى ذلك اليوم ، هكذا قال الفراء ، يقال : شخص الرجل بصره ، وشخص البصر نفسه إلى السماء من هول ما يرى ، والمراد : أن الأبصار بقيت مفتوحة لا تتحرك من شدة الحيرة والدهشة .

﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أى مسرعين من أهطع يهطع إهطاعاً : إذا أسرع . وقيل : المهطع : الذى ينظر فى ذل وخشوع ، ومنه :

بدجلة دارهم ولقد أراهم بدجلة مهطعين إلى السماع

وقيل : المهطع : الذى يديم النظر . قال أبو عبيدة : قد يكون الوجهان جميعاً ، يعنى الإسراع مع إدامة النظر . وقيل : المهطع : الذى لا يرفع رأسه . وقال ثعلب : المهطع الذى ينظر فى ذل وخشوع . وقيل : هو الساكت . قال النحاس : والمعروف فى اللغة أهطع : إذا أسرع ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ أى رافعى رؤوسهم ، وإقناع الرأس : رفعه ، وأقنع صوته : إذا رفعه . والمعنى : أنهم يومئذ رافعون رؤوسهم إلى السماء ينظرون إليها نظر فزع وذل ، ولا

ينظر بعضهم إلى بعض . وقيل : إن إقناع الرأس نكسه . وقيل : يقال : أقنع إذا رفع رأسه ، وأقنع إذا طأطأ ذلة وخضوعاً ، والآية محتملة للوجهين . قال المبرد : والقول الأول أعرف فى اللغة . قال الشاعر :

أَغْضَ نَحْوَى رَأْسِهِ وَأَقْنَعَا كَأَنَّمَا أَبْصَرَ شَيْئًا أَطْمَعَا

﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ أى لا ترجع إليهم أبصارهم ، وأصل الطرف : تحريك الأجفان ، وسميت العين طرفاً ؛ لأنه يكون بها ، ومن إطلاق الطرف على العين قول عنترة :

وَأَغْضُ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَاوَاهَا

﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ الهواء فى اللغة : المجوف الخالى الذى لم تشغله الأجرام ، والمعنى : أن قلوبهم خالية عن العقل والفهم ، لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش ، وجعلها نفس الهوى مبالغة ، ومنه قيل للأحمق والجبان : قلبه هواء ، أى لا رأى فيه ولا قوة . وقيل : معنى الآية أنها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت فى الحناجر . وقيل : المعنى : أن أفئدة الكفار فى الدنيا خالية عن الخير . وقيل المعنى : أفئدتهم ذات هواء ، ومما يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ﴾ [القصص : ١٠] أى خالياً من كل شىء إلا من هم موسى .

﴿ وأُنذِرَ الناس ﴾ هذا رجوع إلى خطاب رسول الله ﷺ أمره الله سبحانه بأن ينذر الناس . والمراد : الناس على العموم . وقيل : المراد : كفار مكة . وقيل : الكفار على العموم . والأول أولى ؛ لأن الإنذار كما يكون للكافر يكون أيضاً للمسلم . ومنه قوله تعالى : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر ﴾ [يس : ١١] ومعنى ﴿ يوم يأتيهم العذاب ﴾ : يوم القيامة ، أى خوفهم هذا اليوم ، وهو يوم إتيان العذاب وإنما اقتصر على ذكر إتيان العذاب فيه مع كونه يوم إتيان الثواب ؛ لأن المقام مقام تهديد . وقيل : المراد به : يوم موتهم ؛ فإنه أول أوقات إتيان العذاب . وقيل : المراد : يوم هلاكهم بالعذاب العاجل . وانتصاب ﴿ يوم ﴾ على أنه مفعول ثان لأنذر . ﴿ فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب ﴾ المراد بالذين ظلموا هاهنا : هم الناس ، أى فيقولون . والعدول إلى الإظهار مكان الإضمار للإشعار بأن الظلم هو العلة فيما نزل بهم ، هذا إذا كان المراد بالناس : هم الكفار ، وعلى تقدير كون المراد بهم : من يعم المسلمين ، فالمعنى : فيقول الذين ظلموا منهم وهم الكفار : ﴿ ربنا أخرنا ﴾ أمهلنا ﴿ إلى أجل قريب ﴾ إلى أمد من الزمان معلوم غير بعيد ﴿ فنجب دعوتك ﴾ أى دعوتك لعبادك على السن أنبيائك إلى توحيدك ﴿ ونتبع الرسل ﴾ المرسلين منك إلينا فنعمل بما بلغوه إلينا من شرائعك ، ونتدارك ما فرط منا من الإهمال وإنما جمع الرسل ؛ لأن دعوتهم إلى التوحيد متفقة ؛ فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم ، وهذا منهم سؤال للرجوع إلى الدنيا لما ظهر لهم الحق فى الآخرة ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : ٢٨] .

ثم حكى سبحانه ما يجاب به عنهم عند أن يقولوا هذه المقالة فقال : ﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ أى يقال لهم هذا القول توبيخاً وتقريعاً ، أى أو لم تكونوا أقسمتم من قبل هذا اليوم ما لكم من زوال من دار الدنيا . وقيل : إنه لا قسم منهم حقيقة . وإنما كان لسان حالهم ذلك لاستغراقهم فى الشهوات ، وإخلادهم إلى الحياة الدنيا . وقيل : قسمهم هذا هو ما حكاه الله عنهم فى قوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ [النحل : ٣٨] وجواب القسم : ﴿ ما لكم من زوال ﴾ وإنما جاء بلفظ الخطاب فى : ﴿ ما لكم من زوال ﴾ لمراعاة ﴿ أقسمتم ﴾ ، ولولا ذلك لقال : ما لنا من زوال .

﴿ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾ أى استقررتهم ، يقال : سكن الدار وسكن فيها ، وهى بلاد ثمود ونحوهم ، من الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله ، والعصيان له ﴿ وتبين لكم كيف فعلنا بهم ﴾ قرأ عبد الرحمن السلمى : « نبين » بالنون والفعل المضارع ، وقرأ من عداه بالتاء الفوقية والفعل الماضى ، أى تبين لكم بمشاهدة الآثار كيف فعلنا بهم من العقوبة والعذاب الشديد بما فعلوه من الذنوب ، وفاعل تبين ما دلت عليه الجملة المذكورة بعده ، أى تبين لكم فعلنا العجيب بهم ﴿ وضرينا لكم الأمثال ﴾ فى كتب الله وعلى ألسن رسله إيضاحاً لكم وتقريباً وتكميلاً للحجة عليكم .

﴿ وقد مكروا مكرهم ﴾ الجملة فى محل نصب على الحال ، أى فعلنا بهم ما فعلنا ، والحال أنهم قد مكروا فى رد الحق وإثبات الباطل مكرهم العظيم الذى استغرقوا فيه وسعهم ﴿ وعند الله مكرهم ﴾ أى وعند الله جزاء مكرهم ، أو وعند الله مكتوب مكرهم فهو مجازيهم ، أو وعند الله مكرهم الذى يمكرهم به ، على أن يكون المكر مضافاً إلى المفعول ، قيل : والمراد بهم : قوم محمد ﷺ ، مكروا بالنبي ﷺ حين هموا بقتله أو نفيه . وقيل : المراد ما وقع من النمرود حيث حاول الصعود إلى السماء ، فاتخذ لنفسه تابوتاً ، وربط قوائمه بأربعة نسور .

﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ قرأ عمر وعلى وابن مسعود وأبى : « وإن كان مكرهم » بالبدال المهملة مكان النون ، وقرأ غيرهم من القراء ﴿ وإن كان ﴾ بالنون . وقرأ ابن محيصن وابن جريج والكسائى : « لتزول » بفتح اللام على أنها لام الابتداء ، وقرأ الجمهور بكسرها على أنها لام الجحود . قال ابن جرير : الاختيار هذه القراءة ، يعنى : قراءة الجمهور ؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة ، فعلى قراءة الكسائى ومن معه تكون « إن » هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة ، وزوال الجبال مثل لعظم مكرهم وشدته ، أى وإن الشأن كان مكرهم معداً لذلك . قال الزجاج : وإن كان مكرهم يبلغ فى الكيد إلى إزالة الجبال ، فإن الله ينصر دينه . وعلى قراءة الجمهور يحتمل وجهين : أحدهما : أن تكون « إن » هى المخففة من الثقيلة ، والمعنى كما مر . والثانى : أن تكون نافية ، واللام المكسورة لتأكيد النفى كقوله : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ [البقرة : ١٤٣] والمعنى : ومحال أن تزول الجبال بمكرهم ، على أن الجبال مثل آيات الله وشرائعه الثابتة على حالها مدى الدهر ، فالجملة على هذا حال

من الضمير فى ﴿ مكروا ﴾ لا من قوله : ﴿ وعند الله مكروهم ﴾ أى والحال أن مكروهم لم يكن لتزول منه الجبال .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والخرائطى فى مساوئ الأخلاق عن ميمون بن مهران فى قوله : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ قال : هى تعزية للمظلوم ووعيد للظالم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ قال : شخصت فيه والله أبصارهم فلا ترتد إليهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ مهطعين ﴾ قال : يعنى بالإهطاع النظر من غير أن يطرف ﴿ مقنعى رؤوسهم ﴾ قال : الإقناع رفع رؤوسهم ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ قال : شاخصة أبصارهم ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ ليس فيها شىء من الخير ، فهى كالخربة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ مهطعين ﴾ قال : مديى النظر . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ مهطعين ﴾ قال : مسرعين . وأخرج هؤلاء عن قتادة فى قوله : ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ قال : ليس فيها شىء ، خرجت من صدورهم فنشبت فى حلوقهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتىهم العذاب ﴾ يقول : أنذرهم فى الدنيا من قبل أن يأتىهم العذاب . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : ﴿ يوم يأتىهم العذاب ﴾ هو يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ ما لكم من زوال ﴾ قال : عما أنتم فيه إلى ما تقولون . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ ما لكم من زوال ﴾ قال : بعث بعد الموت .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن فى قوله : ﴿ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾ قال : عملتم بمثل أعمالهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وإن كان مكروهم ﴾ يقول : ما كان مكروهم ﴿ لتزول منه الجبال ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ وإن كان مكروهم ﴾ يقول : شركهم كقوله : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ﴾ [مريم : ٩٠] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى عن على بن أبى طالب ؛ أنه قرأ هذه الآية : ﴿ وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال ﴾ ثم فسرهما فقال : إن جباراً من الجبابرة قال : لا أنتهى حتى أنظر إلى ما فى السماء ، فأمر بفراخ النسر تعلق اللحم حتى شبت وغلظت ، وأمر بتابوت فنجر يسع رجلين ثم جعل فى وسطه خشبة ، ثم ربط أرجلهم بأوتاد ثم جوعهم ، ثم جعل على رأس الخشبة لحماً ، ثم دخل هو وصاحبه فى التابوت ، ثم ربطهين إلى قوائم التابوت ، ثم خلى عنهم يردن اللحم فذهبن به ما شاء الله ، ثم قال لصاحبه : افتح فانظر ماذا ترى ، ففتح فقال : أنظر إلى الجبال كأنها الذباب ، قال : أغلق فأغلق ، فطرن به ما شاء الله ،

ثم قال: افتح ففتح ، فقال : انظر ماذا ترى ؟ فقال: ما أرى إلا السماء ، وما أراها تزداد إلا بعداً ، قال: صوب الخشبة فصوبها فانقضت تريد اللحم ، فسمع الجبال هدهتها فكادت تزول عن مراتبها . وقد روى نحو هذه القصة لبختنصر وللمنمرد من طرق ذكرها في الدر المنثور (١).

﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٥٢) .

﴿ مخلف ﴾ : منتصب على أنه مفعول ﴿ تحسبن ﴾ . وانتصاب ﴿ رسله ﴾ على أنه مفعول ﴿ وعده ﴾ . قيل : وذلك على الاتساع ، والمعنى : مخلف رسله وعده . قال القتيبي : هو من المقدم الذى يوضحه التأخير ، والمؤخر الذى يوضحه التقديم ، وسواء فى ذلك مخلف وعده رسله ، ومخلف رسله وعده . ومثل ما فى الآية قول الشاعر :

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه وسائره باد إلى الشمس أجمع (٢)

وقال الزمخشري : قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله : ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ [آل عمران : ٩] ثم قال : ﴿ رسله ﴾ ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً ، وليس من شأنه إخلاف المواعيد ، فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته . والمراد بالوعد هنا : هو ما وعدهم سبحانه بقوله : ﴿ إنا لننصر رسلاً ﴾ [غافر : ٥١] و ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ [المجادلة : ٢١] وقرئ : « مخلف وعده رسله » بجر ﴿ رسله ﴾ ونصب ﴿ وعده ﴾ . قال الزمخشري : وهذه القراءة فى الضعف كمن قرأ : ﴿ قتل أولادهم شركائهم ﴾ [الأنعام : ١٣٧] . ﴿ إن الله عزيز ﴾ غالب لا يغالبه أحد . ﴿ ذو انتقام ﴾ ينتقم من أعدائه لأولياته . والجملة تعليل للنهى ، وقد مر تفسيره فى أول آل عمران .

﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ قال الزجاج : انتصاب ﴿ يوم ﴾ على البدل من ﴿ يوم يأتيهم ﴾ ، أو على الظرف للانتقام . انتهى . ويجوز أن ينتصب بمقدر يدل عليه الكلام ، أى واذكر ، أو وارقب ، والتبديل قد يكون فى الذات ، كما فى : بدلت الدراهم دنانير ، وقد يكون فى الصفات كما فى : بدلت الحلقة خاتماً . والآية تحتل الأمرين . وقد قيل : المراد: تغير صفاتها . وبه قال الأكثر . وقيل : تغير ذاتها . ومعنى ﴿ والسموات ﴾ أى وتبدل

(١) الدر المنثور ٨٩/٤ .

(٢) يصف الشاعر فى هذا البيت هاجرة قد ألجأت الثيران إلى كنسها فترى الثور مدخلا لرأسه فى ظل كناسه لما يجده من الحرارة ، وسائره بارز للشمس .

السموات غير السموات على الاختلاف الذى مر . ﴿ وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ أى برز العباد لله ، أو الظالمون كما يفيد السياق ، أى ظهوروا من قبورهم ، أو ظهر من أعمالهم ما كانوا يكتُمونه . والتعبير على المستقبل بلفظ الماضى للتنبيه على تحقق وقوعه كما فى قوله : ﴿ ونفخ فى الصور ﴾ [يس : ٥١ ، والزمر : ٦٨ ، وق : ٢٠] و ﴿ الواحد القهار ﴾ المتفرد بالالوهية الكثير القهر لمن عانده .

﴿ وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاذ ﴾ معطوف على ﴿ برزوا ﴾ ، أو على ﴿ تبدل ﴾ والمجئ بالمضارع لاستحضار الصورة . والمجرمون هم : المشركون ، و ﴿ يومئذ ﴾ يعنى يوم القيامة . و ﴿ مقرنين ﴾ أى مشدودين إما بجعل بعضهم مقروناً مع بعض ، أو قرنوا مع الشياطين ، كما فى قوله : ﴿ نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ [الزخرف : ٣٦] . أو جعلت أيديهم مقرونة إلى أرجلهم . والأصفاذ : الأغلال والقيود . والجار والمجرور متعلق بمقرنين ، أو حال من ضميره . يقال : صفدته صفداً ، أى قيدته ، والاسم : الصفد ، فإذا أردت التكثير ، قلت : صَفَّدْتُهُ . قال عمرو بن كلثوم :

فأبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينَا

وقال حسان بن ثابت :

من بين مأسور يشد صفاده صقر إذا لاقى الكريهة حامى

ويقال : صفدته وأصفدته : إذا أعطيته . ومنه قول النابغة :

ولم أعرض أبيت اللعن بالصفد (١)

﴿ سراييلهم من قطران ﴾ السراييل : القُمْصُ ، واحداً سربال . ومنه قول كعب بن مالك :

تلقاكم عصب حول النبى لهم من نسج داود فى الهيجا سراييل

والقطران : هو قطران الإبل الذى تهنأ به ، أى قمصانهم من قطران تطلى به جلودهم ، حتى يعود ذلك الطلاء كالسراييل . وخص القطران لسرعة اشتعال النار فيه مع نتن رائحته . وقال جماعة : هو النحاس ، أى قمصانهم من نحاس . وقرأ عيسى بن عمر : « من قطران » بفتح القاف ، وتسكين الطاء . وقرئ بكسر القاف وسكون الطاء . وقرئ بفتح القاف والطاء . رويت هذه القراءة عن ابن عباس وأبى هريرة وعكرمة وسعيد بن جبير ويعقوب . وهذه الجملة فى محل نصب على الحال ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ أى تعلو وجوههم وتضر بها . وخص الوجوه ؛ لأنها أشرف ما فى البدن ، وفيها الحواس المدركة ، والجملة فى محل نصب على

(١) صدر البيت :

هذا الثناء فإن تسمع لقائله

ومعنى أبيت اللعن ، أى : أبيت أن تأتى شيئاً تلعن عليه .

الحال أيضاً ، و ﴿ ليجزى الله ﴾ متعلق بمحذوف ، أى يفعل ذلك بهم ليجزى ﴿ كل نفس ما كسبت ﴾ من المعاصى ، أى جزاء موافقاً لما كسبت من خير أو شر ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ لا يشغله عنه شيء . وقد تقدم تفسيره .

﴿ هذا بلاغ ﴾ أى هذا الذى أنزل إليك بلاغ ، أى تبليغ وكفاية فى الموعظة والتذكير . قيل : إن الإشارة إلى ما ذكره سبحانه هنا من قوله : ﴿ فلا تحسبن الله غافلاً ﴾ . . . إلى ﴿ سريع الحساب ﴾ أى هذا فيه كفاية من غير ما انطوت عليه السورة . وقيل : الإشارة إلى جميع السورة . وقيل : إلى القرآن . ومعنى : ﴿ للناس ﴾ : للكفار ، أو لجميع الناس على ما قيل فى قوله : ﴿ وأنذر الناس ﴾ ، ﴿ ولينذروا به ﴾ معطوف على محذوف ، أى لينصَحُوا ولينذروا به ، والمعنى : وليخوفوا به . وقرئ : « ولينذروا » بفتح الياء التجتية والذال المعجمة . يقال : نذرت بالشيء أنذر : إذا علمت به فاستعددت له . ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ أى ليعلموا بالأدلة التكوينية المذكورة سابقاً وحدانية الله سبحانه ، وأنه لا شريك له . ﴿ وليذكر أولو الألباب ﴾ أى وليتعض أصحاب العقول . وهذه اللامات متعلقة بمحذوف ، والتقدير : وكذلك أنزلنا ، أو متعلقة بالبلاغ المذكور ، أى كفاية لهم فى أن ينصَحُوا وينذروا ويعلموا بما أقام الله من الحجج والبراهين وحدانيته سبحانه ، وأنه لا شريك له ، وليتعض بذلك أصحاب العقول التى تعقل وتدرك .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ قال : عزيز والله فى أمره ، يملئ وكيدته متين ، ثم إذا انتقم انتقم بقدرة . وأخرج مسلم وغيره من حديث ثوبان ، قال : جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ : « فى الظلمة دون الجسر » (١) . وأخرج مسلم أيضاً وغيره من حديث عائشة ، قالت : أنا أول من سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ قالت : أين الناس يومئذ ؟ قال : « على الصراط » (٢) . وأخرج البزار وابن المنذر ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث ، وابن عساكر عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ فى قول الله : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ قال : « أرض بيضاء ، كأنها فضة لم يسفك فيها دم حرام ، ولم يعمل بها خطيئة » (٣) . وأخرجه عبد الرزاق وابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم

(١) مسلم فى الحيض (٣١٥/٣٤) والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء (٩٠٧٣) .

(٢) مسلم فى صفات المنافقين (٢٩/٢٧٩١) والترمذى فى التفسير (٣١٢١) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجه فى الزهد (٤٢٧٩) .

(٣) الطبرانى (١٠٣٢٣) ورواه فى الأوسط (٢٩٨ ، ٢٩٩) مجمع البحرين وقال : « لم يروه عن أبى إسحاق إلا جرير ، تفرد به أبو عتاب » والبزار ٢٨٨/١ وقال : « لا نعلم رواه بهذا الإسناد مرفوعاً إلا جرير وليس بالقوى » ، وقال الهيثمى فى المجمع ٤٨/٧ : « وفيه جرير بن أيوب البجلي وهو متروك » وأبو نعيم فى الحلية ٣٤٨/٤ وقال : « تفرد به أبو عتاب ، ورواه أبو الأحوص عنه موقوفاً » .

والطبراني ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث عنه موقوفاً نحوه^(١) . قال البيهقي : والموقوف أصح .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : أتى اليهود النبي ﷺ فقال : « جاؤني يسألونني وسأخبرهم قبل أن يسألوني » : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ قال : « أرض بيضاء كالفضة » ، فسألهم فقالوا : أرض بيضاء كالنقى^(٢) . وأخرج ابن مردويه مرفوعاً عن علي بن أحمد عن ابن مسعود^(٣) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أنس موقوفاً نحوه^(٤) . وقد روى نحوه ذلك عن جماعة من الصحابة . وثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقي »^(٥) . وفيهما أيضاً من حديث أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفوها الجبار بيده . . . » الحديث^(٦) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ مقرنين في الأصفاد ﴾ ، قال : الكبول . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في ﴿ الأصفاد ﴾ قال : القيود والأغلال . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال : في السلاسل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ في الأصفاد ﴾ يقول : في وثاق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي : ﴿ سرايلهم ﴾ قال : قمصهم . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ من قطران ﴾ قال : قطران الإبل . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية قال : هذا القطران يطلى به حتى يشتعل ناراً . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، قال : هو النحاس المذاب . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة أنه قرأ : ﴿ من قطران ﴾ فقال : القطر : الصفر ، والآن : الحار . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة نحوه . وأخرج مسلم وغيره عن أبي مالك الأشعرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها ، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب »^(٧) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ قال : القرآن ، ﴿ ولينذروا به ﴾ قال : القرآن .

(١) ابن جرير ١٦٤/١٣ والطبراني (٩٠٠١) وقال الهيثمي في المجمع ٤٨/٧ : « إسناده جيد » .

(٢) ابن جرير ١٦٤/١٣ . والنقى : الدقيق الحواري ، والحواري : ما حور ، أي : بيض .

(٣) أورد صاحب كنز العمال رواية ابن مردويه عن علي (٤٤٦٠) وفيه سيف بن محمد ابن أخت سفيان الثوري ،

كذاب . (٤) ابن جرير ١٦٤/١٣ .

(٥) البخاري في الرقاق (٦٥٢١) ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨/٢٧٩٠) . قوله : « عفراء » العفرة :

بياض ليس بالناصع . النهاية في غريب الحديث ٣ / ٢٦١ .

(٦) البخاري في الرقاق (٦٥٢٠) ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٣٠/٢٧٩٢) .

(٧) جزء من حديث أورده مسلم في الجنائز (٢٩/٩٣٤) وابن ماجه في الجنائز (١٥٨١) وفي الزوائد : « إسناده

صحيح ، ورجاله ثقات » .

تفسير سورة الحجر

وهي تسع وتسعون آية ، وهي مكية بالاتفاق ، كما قال القرطبي . وأخرج النحاس في ناسخه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحجر بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رَبُّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرُهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)﴾ .

قوله : ﴿الر﴾ قد تقدم الكلام في محله مستوفى . والإشارة بقوله : ﴿تلك﴾ إلى ما تضمنته السورة من الآيات ، والتعريف في ﴿الكتاب﴾ قيل : هو للجنس ، والمراد : جنس الكتب المتقدمة . وقيل : المراد به القرآن ، ولا يقدح في هذا ذكر القرآن بعد الكتاب ، فقد قيل : إنه جمع له بين الاسمين . وقيل : المراد بالكتاب : هذه السورة ، وتنكير القرآن للتفخيم ، أى القرآن الكامل . ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ قرأ نافع وعاصم بتخفيف الباء من ﴿ربما﴾ وقرأ الباقون بتشديدها ، وهما لغتان . قال أبو حاتم : أهل الحجاز يخففون ، ومنه قول الشاعر :

ربما ضربة بسيف صقيل بين بصرى وطعنة نجلاء

ونعيم وربيعة يثقلونها ، وقد تزايد التاء الفوقية ، وأصلها أن تستعمل في القليل ، وقد تستعمل في الكثير . قال الكوفيون : أى يود الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين . ومنه قول الشاعر :

رب رفد هرقته ذلك اليوم م وأسرى من معشر أقيال

وقيل : هى هنا للتقليل ؛ لأنهم ودوا ذلك فى بعض المواضع لا فى كلها لشغلهم بالعذاب . قيل : و « ما » هنا لحقت رب لتهيئها للدخول على الفعل . وقيل : هى نكرة بمعنى شئ . وإنما دخلت « رب » هنا على المستقبل مع كونها لا تدخل إلا على الماضى ؛ لأن المترقب فى أخباره سبحانه كالواقع المتحقق ، فكأنه قيل : ربما ود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، أى منقادين لحكمه ، مدعين له من جملة أهله . وكانت هذه الودادة منهم عند موتهم أو يوم القيامة ، والمراد : أنه لما انكشف لهم الأمر ، واتضح بطلان ما كانوا عليه من الكفر ، وأن الدين عند الله سبحانه هو الإسلام لا دين غيره ، حصلت منهم هذه الودادة التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، بل هى لمجرد التحسر والتندم ولوم النفس على ما فرطت فى جنب الله . وقيل : كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين . وقيل : عند خروج عصاة الموحدين من النار ، والظاهر : أن هذه الودادة كائنة منهم فى كل وقت مستمرة فى كل لحظة بعد انكشاف الأمر لهم .

﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾ هذا تهديد لهم ، أى دعهم عما أنت بصدده من الأمر لهم والنهى ، فهم لا يراعون أبداً ولا يخرجون من باطل ، ولا يدخلون فى حق ، بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالأكل والتمتع بزهرة الدنيا ، فإنهم كالأنعام التى لا تهتم إلا بذلك ، ولا تشتغل بغيره ، والمعنى : اتركهم على ما هم عليه من الاشتغال بالأكل ونحوه من متاع الدنيا ومن إلهاء الأمل لهم عن اتباعك ، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم وسوء صنيعهم . وفى هذا من التهديد والزجر ما لا يقدر قدره . يقال : ألهاه كذا ، أى شغله ، ولهى هو عن الشئ يلهى ، أى شغلهم الأمل عن اتباع الحق ، وما زالوا فى الآمال الفارغة والتمنيات الباطلة حتى أسفر الصبح لذى عينين ، وانكشف الأمر ، ورأوا العذاب يوم القيامة ، فعند ذلك يذوقون وبال ما صنعوا . والأفعال الثلاثة مجزومة على أنها جواب الأمر ، وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ﴾ أى وما أهلكنا قرية من القرى بنوع من أنواع العذاب ﴿ إلا ولها ﴾ أى لتلك القرية ﴿ كتاب ﴾ أى أجل مقدر لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه ﴿ معلوم ﴾ غير مجهول ولا منسى ، فلا يتصور التخلف عنه بوجه من الوجوه . وجملة : ﴿ لها كتاب ﴾ فى محل نصب على الحال من ﴿ قرية ﴾ وإن كانت نكرة ؛ لأنها قد صارت بما فيها من العموم فى حكم الموصوفة ، والواو للفرق بين كون هذه الجملة حالاً أو صفة ، فإنها تعينها للحالية كقولك : حالى رجل على كتفه سيف . وقيل : إن الجملة صفة لـ ﴿ قرية ﴾ ، والواو لتأكيد اللصوق بين الصفة والموصوف .

﴿ ما تسبق من أمة أجلها ﴾ أى ما تسبق أمة من الأمم أجلها المضروب لها ، المكتوب فى اللوح المحفوظ ، والمعنى : أنه لا يأتى هلاكها قبل مجيء أجلها ﴿ وما يستأخرون ﴾ أى وما يتأخرون عنه ، فيكون مجيء هلاكهم بعد مضي الأجل المضروب له ، وإيراد الفعل على صيغة

جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ، ولرعاية الفواصل ؛ ولذلك حذف الجار والمجرور . والجملة مبينة لما قبلها ، فكأنه قيل : إن هذا الإمهال لا ينبغي أن يغتر به العقلاء ، فإن لكل أمة وقتاً معيناً فى نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر ، وقد تقدم تفسير الأجل فى أول سورة الأنعام .

ثم لما فرغ من تهديد الكفار ، شرع فى بيان بعض عتوهم فى الكفر ، وتماديهم فى الغنى مع تضمنه لبيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب ، فقال : ﴿ وقالوا يأياها الذى نزل عليه الذكر ﴾ أى قال كفار مكة مخاطبين لرسول الله ﷺ ومتهمين به حيث أثبتوا له إنزال الذكر عليه ، مع إنكارهم لذلك فى الواقع أشد إنكار ، ونفيهم له أبلغ نفي ، أو أرادوا بـ ﴿ يأياها الذى نزل عليه الذكر ﴾ فى زعمه ، وعلى وفق ما يدعيه ﴿ إنك لمجنون ﴾ أى إنك بسبب هذه الدعوى التى تدعيها من كونك رسولاً لله مأموراً بتبليغ أحكامه لمجنون ، فإنه لا يدعى مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلاً ، فقولهم هذا لمحمد ﷺ هو كقول فرعون : ﴿ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾ [الشعراء: ٢٧] .

﴿ لوما تأتينا بالملائكة ﴾ ، ﴿ لوما ﴾ حرف تخصيص مركب من « لو » المفيدة للتمنى ، ومن « ما » الزيدة ، فأفاد المجموع الحث على الفعل الداخلة هى عليه ، والمعنى : هلا تأتينا بالملائكة ليشهدوا على صدقك ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ قال الفراء : الميم فى : ﴿ لوما ﴾ بدل من اللام فى : « لولا » . وقال الكسائى : لولا ولوما سواء فى الخبر والاستفهام . قال النحاس : لوما ولولا وهلا واحد . وقيل : المعنى : لوما تأتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك .

﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾ قرئ : ﴿ ما ننزل ﴾ بالنون مبنياً للفاعل وهو الله سبحانه ، فهو على هذا من التنزيل ، والمعنى : على هذه القراءة : قال الله سبحانه مجيباً على الكفار لما طلبوا إثبات الملائكة إليهم : ما ننزل نحن ﴿ الملائكة إلا بالحق ﴾ أى تنزيلاً متلبساً بالحق الذى يحق عنده تنزيلنا لهم فيما تقتضيه الحكمة الإلهية والمشيئة الربانية ، وليس هذا الذى اقترحتموه مما يحق عنده تنزيل الملائكة ، وقرئ : « ننزل » مخففاً من الإنزال ، أى ما ننزل نحن الملائكة إلا بالحق ، وقرئ : « ما ننزل » بالمشاة من فوق مضارعاً مثقلاً مبنياً للفاعل من التنزيل بحذف إحدى التاءين ، أى تنزل ؛ وقرئ أيضاً بالفوقية مضارعاً مبنياً للمفعول . وقيل : معنى ﴿ إلا بالحق ﴾ : إلا بالقرآن . وقيل : بالرسالة . وقيل : بالعذاب . ﴿ وما كانوا إذا منظرين ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير : ولو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة ، وما كانوا إذا منظرين . فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة .

ثم أنكر على الكفار استهزاءهم برسول الله ﷺ بقولهم : ﴿ يأياها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ فقال سبحانه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾ أى نحن نزلنا ذلك الذكر الذى أنكروه ، ونسبوك بسببه إلى الجنون . ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف

وزيادة ونقص ونحو ذلك . وفيه وعيد شديد للمكذبين به ، المستهزئين برسول الله ﷺ . وقيل : الضمير فى : ﴿ له ﴾ لرسول الله ﷺ . والأول أولى بالمقام .

ثم ذكر سبحانه أن عادة أمثال هؤلاء الكفار مع أنبيائهم كذلك ؛ تسلياً لرسول الله ﷺ فقال : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك ﴾ أى رسلاً ، وحذف لدلالة الإرسال عليه ، أى رسلاً كائنة من قبلك ﴿ فى شيع الأولين ﴾ فى أمهم ، وأتباعهم ، وسائر فرقهم وطوائفهم . قال الفراء : الشيع : الأمة التابعة بعضهم بعضاً فيما يجتمعون عليه ، وأصله من شاعه : إذا تبعه . وإضافته إلى ﴿ الأولين ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف عند بعض النحاة أو من حذف الموصوف عند آخرين منهم .

﴿ وما يأتهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ أى ما يأتى رسول من الرسل شيعة إلا كانوا به يستهزئون ، كما يفعله هؤلاء الكفار مع محمد ﷺ . وجملة : ﴿ إلا كانوا به يستهزئون ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو فى محل رفع على أنها صفة ﴿ رسول ﴾ ، أو فى محل جر على أنها صفة له على اللفظ لا على المحل .

﴿ كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين ﴾ أى مثل ذلك الذى سلكناه فى قلوب أولئك المستهزئين برسولهم ﴿ نسلكه ﴾ أى الذكر . ﴿ فى قلوب المجرمين ﴾ فالإشارة إلى ما دل عليه الكلام السابق من إلقاء الوحي مقروناً بالاستهزاء . والسلك : إدخال الشيء فى الشيء ، كالخيط فى المخيط ، قاله الزجاج ، قال : والمعنى : كما فعل بالمجرمين الذين استهزؤوا نسلك الضلال فى قلوب المجرمين . وجملة : ﴿ لا يؤمنون به ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير ﴿ نسلكه ﴾ ، أى لا يؤمنون بالذكر الذى أنزلناه ، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما قبلها ، فلا محل لها . وقيل : إن الضمير فى : ﴿ نسلكه ﴾ للاستهزاء ، وفى : ﴿ لا يؤمنون به ﴾ للذكر ، وهو بعيد ، والأولى أن الضميرين للذكر ﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ أى مضت طريقتهن التى سنّها الله فى إهلاكهم حيث فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء . وقال الزجاج : وقد مضت سنة الله فى الأولين بأن سلك الكفر والضلال فى قلوبهم .

ثم حكى الله سبحانه إصرارهم على الكفر ، وتصميمهم على التكذيب والاستهزاء ، فقال : ﴿ ولو فتحنا عليهم ﴾ أى على هؤلاء المعاندين لمحمد ﷺ المكذبين له المستهزئين به ﴿ باباً من السماء ﴾ أى من أبوابها المعهودة ، ومكانهم من الصعود إليه ﴿ فظلوا فيه ﴾ أى فى ذلك الباب ﴿ يعرجون ﴾ يصعدون بآلة أو بغير آلة ، حتى يشاهدوا ما فى السماء من عجائب الملكوت التى لا يجحدها جاحد ، ولا يعاند عند مشاهدتها معاند . وقيل : الضمير فى : ﴿ فظلوا ﴾ للملائكة ، أى فظل الملائكة يعرجون فى ذلك الباب ، والكفار يشاهدونهم ، وينظرون صعودهم من ذلك الباب ﴿ لقالوا ﴾ أى الكفار لفرط عنادهم وزيادة عتوهم : ﴿ إنما سكرت أبصارنا ﴾ . قرأ ابن كثير : « سكرت » بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد ، وهو من سكر

الشراب ، أو من السكر ، وهو سدها عن الإحساس . يقال : سكر النهر : إذا سده وجبسه عن الجرى ؛ ورجع الثاني بقراءة التخفيف . وقال أبو عمرو بن العلاء : سكرت : غشيت وغطت ، ومنه قول الشاعر :

وطلعت شمس عليها مغفر
وجعلت عين الجزور (١) تسكر

وبه قال أبو عبيد وأبو عبيدة . وروى عن أبي عمرو أيضاً أنه من سكر الشراب ، أى غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشى السكران ما غطى عقله . وقيل : معنى سكرت : حبست ، كما تقدم ، ومنه قول أوس بن حجر :

فصرت على ليلة ساهرة
فليست بطلق ولا سأكرة

قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة ﴿ بل نحن قوم مسحورون ﴾ أضربوا عن قولهم : ﴿ سكرت أبصارنا ﴾ ثم ادعوا أنهم مسحورون ، أى سحرهم محمد ﷺ وفى هذا بيان لعنادهم العظيم الذى لا يقلعهم عنه شيء من الأشياء كائناً ما كان . فإنهم إذا رأوا آية توجب عليهم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله نسبوا إلى أبصارهم أن إدراكها غير حقيقى لعارض السكر ، أو أن عقولهم قد سحرت ، فصار إدراكهم غير صحيح . ومن بلغ فى التعنت إلى هذا الحد فلا تنفع فيه موعظة ، ولا يهتدى بآية .

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ قال : التوراة والإنجيل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى : ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ قال : الكتب التى كانت قبل القرآن ، و﴿ قرآن مبین ﴾ قال : مبین ، والله هداه ورشده وخيره .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وابن مسعود ، وناس من أصحاب النبى ﷺ فى قوله : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ قال : ود المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم فعرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى الآية ، قال : هذا فى الجهنميين إذا رأوهم يخرجون من النار . وأخرج سعيد بن منصور ، وهناد بن السرى فى الزهد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث والنشور عن ابن عباس ، قال : ما يزال الله يشفع ويدخل ويشفع ويرحم حتى يقول : من كان مسلماً ، فليدخل الجنة ، فذلك قوله : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ (٢) . وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس وأنس ؛ أنهما تذاكرا هذه الآية : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ فقالا : هذا حيث يجمع الله من أهل الخطايا من المسلمين والمشركين فى النار ، فيقول المشركون : ما أغنى عنكم

(١) فى المخطوطة : « الحرور » ولعلها على عادة المصنف فى عدم الاهتمام بالإعجام .

(٢) ابن جرير ١٤ / ٤ وصححه الحاكم ٢ / ٣٥٣ ووافقه الذهبى .

ما كنتم تعبدون ، فيغضب الله لهم ، فيخرجهم بفضله ورحمته ^(١) . وأخرج الطبراني في الأوسط ، وابن مردويه بسند ، قال السيوطي : صحيح ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ناساً من أمتي يعذبون بذنوبهم ، فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا ، ثم يعيرهم أهل الشرك ، فيقولون : ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم ، فلا يبقى موحد إلا أخرجه الله من النار » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ ^(٢) . وأخرج ابن أبي عاصم في السنة ، وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً نحوه ^(٣) . وأخرج إسحاق بن راهويه وابن حبان والطبراني وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه ^(٤) . وأخرج هناد بن السري ، والطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً ^(٥) . وفي الباب أحاديث في تعيين هذا السبب في نزول هذه الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾ الآية ، قال : هؤلاء الكفرة . وأخرج أيضاً عن أبي مالك في قوله : ﴿ ذرهم ﴾ قال : خل عنهم . وأخرج ابن جرير عن الزهري في قوله : ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ قال : نرى أنه إذا حضره أجله ، فإنه لا يؤخر ساعة ولا يقدم ، وأما ما لم يحضر أجله ، فإن الله يؤخر ما شاء ويقدم ما شاء . قلت : وكلام الزهري هذا لا حاصل له ولا مفاد فيه .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله : ﴿ يأبىها الذى نزل عليه الذكر ﴾ قال : القرآن . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾ قال : بالرسالة والعذاب . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ وما كانوا إذا منظرين ﴾ قال : وما كانوا لو نزلت الملائكة بمنظرين من أن يعذبوا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ قال : عندنا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فى شيع الأولين ﴾ قال : أسم الأولين . وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس في قوله : ﴿ كذلك نسلكه فى قلوب الجرمين ﴾ قال : الشرك نسلكه فى قلوب المشركين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن الحسن مثله

(١) ابن جرير ١٤ / ٣ ، ٤ .

(٢) أورده الهيثمي فى المجمع ١٠ / ٣٨٢ وقال : « رواه الطبراني فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير بسام الصيرفى وهو ثقة » .

(٣) ابن جرير ١٤ / ٣ وصححه الحاكم ٢ / ٢٤٢ ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمي فى المجمع ٧ / ٤٨ : « رواه الطبراني وفيه خالد بن نافع الأشعري ، قال أبو داود : متروك ، وقال الذهبى : هذا تجاوز فى الحد فلا يستحق الترك فقد حدث عنه أحمد بن حنبل وغيره ، وبقي رجاله ثقات » .

(٤) صححه ابن حبان (٧٣٨٩) .

(٥) قال الهيثمي فى المجمع ١٠ / ٣٨٢ ، ٣٨٣ : « رواه الطبراني فى الأوسط وفيه من لم أعرفهم » .

أيضاً . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة : ﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ قال : وقائع الله فيمن خلا من الأمم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ فظلوا فيه يعرجون ﴾ قال ابن جريج : قال ابن عباس : فظلت الملائكة تعرج فنظروا إليهم ؛ لقالوا : ﴿ إنما سكرت أبصارنا ﴾ قال : قریش تقوله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في الآية عن ابن عباس أيضاً يقول : ولو فتحنا عليهم باباً من أبواب السماء ، فظلت الملائكة تعرج فيه يختلفون فيه ذاهبين وجائين ؛ لقال أهل الشرك : إنما أخذ أبصارنا ، وشبه علينا ، وإنما سحرنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : ﴿ سكرت أبصارنا ﴾ قال : سدت . وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . قال : ومن قرأ : « سكرت » مخففة فإنه يعنى : سحرت .

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) ﴾ .

لما ذكر سبحانه كفر الكافرين وعجزهم وعجز أصنامهم ، ذكر قدرته الباهرة وخلق البديع ، ليستدل بذلك على وحدانيته ، فقال : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً ﴾ الجعل إن كان بمعنى الخلق ، ففي السماء متعلق به ، وإن كان بمعنى التصيير ، ففي السماء خبره . والبروج في اللغة : القصور والمنازل ، والمراد بها هنا : منازل الشمس والقمر والنجوم السيارة ، وهى : الاثنا عشر المشهورة كما تدل على ذلك التجربة ، والعرب تعد المعرفة بمواقع النجوم ومنازلها من أجل العلوم . ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجذب . وقالوا : الفلك اثنا عشر برجاً ، وأسماء هذه البروج : الحمل ، الثور ، الجوزاء ، السرطان ، الأسد ، السنبلة ، الميزان ، العقرب ، القوس ، الجدى ، الدلو ، الحوت . كل ثلاثة منها على طبيعة عنصر من العناصر الأربعة المشتغلين بهذا العلم ، ويسمون الحمل والأسد والقوس : مثلثة نارية ، والثور والسنبلة والجدى : مثلثة أرضية ، والجوزاء والميزان والدلو : مثلثة هوائية ، والسرطان والعقرب والحوت : مثلثة مائية . وأصل البروج : الظهور . ومنه : تبرج المرأة : بإظهار زيتها . وقال

الحسن وقتادة : البروج : النجوم . وسميت بذلك ؛ لظهورها وارتفاعها . وقيل : السبعة السيارة منها ، قاله أبو صالح . وقيل : هي قصور وبيوت في السماء فيها حرس . والضمير في : ﴿وزيناها﴾ راجع إلى السماء ، أى وزينا السماء بالشمس والقمر والنجوم والبروج للناظرين إليها ، أو للمتفكرين المعبرين ، المستدلين إذا كان من النظر وهو الاستدلال .

﴿ وحفظناها ﴾ أى السماء ﴿ من كل شيطان رجيم ﴾ قال أبو عبيدة : الرجيم : المرجوم بالنجوم ، كما فى قوله : ﴿ رجوما للشياطين ﴾ [الملك : ٥] . والرجم فى اللغة : هو الرمى بالحجارة ؛ ثم قيل للعن والطرء والإبعاد : رجم ؛ لأن الرامى بالحجارة يوجب هذه المعانى . ﴿ إلا من استرق السمع ﴾ استثناء متصل ، أى إلا ممن استرق السمع ؛ ويجوز أن يكون منقطعاً ، أى ولكن من استرق السمع ﴿ فأتبعه شهاب مبين ﴾ والمعنى : حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره إلا من استرق السمع ، فإنها تتبعه الشهاب فتقتله أو تخبله . ومعنى ﴿ فأتبعه ﴾ : تبعه ولحقه أو أدركه . والشهاب : الكوكب أو النار المشتعلة الساطعة كما فى قوله : ﴿ بشهاب قيس ﴾ [النمل : ٧] . قال ذو الرمة :

كأنه كوكب فى إثر عفريت

وسمى الكوكب شهاباً ؛ لبريقه شبه النار ، والمبين : الظاهر للمبصرين يروونه لا يلتبس عليهم .

قال القرطبى : واختلف فى الشهاب ، هل يقتل أم لا ؟ فقال ابن عباس : الشهاب يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل . وقال الحسن وطائفة : يقتل ، فعلى هذا القول فى قولهم الشهاب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان : أحدهما : أنهم يقتلون قبل إلقاءهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم ، فلا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء ولذلك انقطعت الكهانة . والثانى : أنهم يقتلون بعد إلقاءهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن . قال : ذكره الماوردى ، ثم قال : والقول الأول أصح (١) .

قال : واختلف هل كان رمى بالشهاب قبل المبعث ؟ فقال الأكثرون : نعم . وقيل : لا ، وإنما ذلك بعد المبعث ، قال الزجاج : والرمى بالشهاب من آيات النبى ﷺ مما حدث بعد مولده ؛ لأن الشعراء فى القديم لم يذكروه فى أشعارهم . قال كثير من أهل العلم : نحن نرى انقضاى الكواكب ، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى . ثم يصير ناراً إذا أدرك الشيطان . ويجوز أن يقال : يرمون بشعلة من نار الهواء ، فيخيل إلينا أنه نجم يسرى .

﴿ والأرض مددناها ﴾ أى بسطانها وفرشناها ، كما فى قوله : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ [النازعات : ٣٠] ، وفى قوله : ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ [الذاريات : ٤٨]

وفيه رد على من زعم أنها كالكرة . ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ أى جبال ثابتة ، لئلا تحرك بأهلها . وقد تقدم بيان ذلك فى سورة الرعد . ﴿ وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ﴾ أى أنبتنا فى الأرض من كل شىء مقدر معلوم ، فعبّر عن ذلك بالوزن ؛ لأنه مقدار تعرف به الأشياء ، ومنه قول الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرَّةٍ عندى لكلِّ مخاصمٍ مِيزَانُه

وقيل : معنى ﴿ موزون ﴾ : مقسوم . وقيل : معدود . والمقصود من الإثبات الإنشاء والإيجاد ؛ وقيل : الضمير راجع إلى الجبال ، أى أنبتنا فى الجبال من كل شىء موزون من الذهب والفضة والنحاس والرصاص ونحو ذلك . وقيل : موزون بميزان الحكمة ، ومقدر بقدر الحاجة . وقيل : الموزون : هو المحكوم بحسنة ، كما يقال : كلام موزون ، أى حسن .

﴿ وجعلنا لكم فيها معاش ﴾ تعيشون بها من المطاعم والمشارب ، جمع معيشة . وقيل : هى الملابس . وقيل : هى التصرف فى أسباب الرزق مدة الحياة . قال الماوردى : وهو الظاهر . قلت : بل القول الأول أظهر . ومنه قول جرير :

تكلفنى معيشة آل زيد ومن لى بالمرقق والصناب

﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ معطوف على معاش ، أى وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين ، وهم المماليك والخدم والأولاد الذين رازقهم فى الحقيقة هو الله ، وإن ظن بعض العباد أنه الرازق لهم باعتبار استقلاله بالكسب ، ويجوز أن يكون معطوفاً على محل ﴿ لكم ﴾ أى جعلنا لكم فيها معاش ، وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معاش ، وهم من تقدم ذكره . ويدخل فى ذلك الدواب على اختلاف أجناسها . ولا يجوز العطف على الضمير المجرور فى : ﴿ لكم ﴾ لأنه لا يجوز عند الأكثر إلا بإعادة الجار . وقيل : أراد الوحش .

﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ﴾ : « إن » هى النافية ، و« من » مزيدة للتأكيد . وهذا التركيب عام لوقوع النكرة فى حيز النفى مع زيادة « من » ومع لفظ ﴿ شىء ﴾ المتناول لكل الموجودات الصادقة على كل فرد منها . فأفاد ذلك أن جميع الأشياء عند الله خزائنها لا يخرج منها شىء . والخزائن جمع خزانة ، وهى المكان الذى يحفظ فيه نفائس الأمور . وذكر الخزائن تمثيل لاقتداره على كل مقدور . والمعنى : أن كل الممكنات مقدورة ومملوكة يخرجها من العدم إلى الوجود بمقدار كيف شاء . وقال جمهور المفسرين : إن المراد بما فى هذه الآية هو المطر ؛ لأنه سبب الأرزاق والمعاش . وقيل : الخزائن : المفاتيح ، أى ما من شىء إلا عندنا فى السماء مفاتيحه . والأولى ما ذكرناه من العموم لكل موجود ، بل قد يصدق الشىء على المعدم على الخلاف المعروف فى ذلك . ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ أى ما ننزله من السماء إلى الأرض أو نوجده للعباد إلا بقدر معلوم . والقدر : المقدار ؛ والمعنى : أن الله سبحانه لا يوجد للعباد شيئاً من تلك الأشياء المذكورة إلا متلبساً ذلك الإيجاد بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته

على مقدار حاجة العباد إليه ، كما قال سبحانه : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾ [الشورى : ٢٧] . وقد فسر الإنزال بالإعطاء ، وفسر بالإنشاء ، وفسر بالإيجاد . والمعنى متقارب . وجملة : ﴿ وما ننزله ﴾ معطوفة على مقدر ، أى وإن من شئ إلا عندنا خزائنه ننزله وما ننزله ، أو فى محل نصب على الحال .

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ معطوف على ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ وما بينهما اعتراض . قرأ حمزة : « الريح » بالتوحيد ، وقرأ من عده : ﴿ الرياح ﴾ بالجمع . وعلى قراءة حمزة فتكون اللام فى الريح للجنس . قال الأزهري : وجعل الرياح لواقح ؛ لأنها تحمل السحاب ، أى تقله وتصرفه ، ثم تمر به فتنزله . قال الله سبحانه : ﴿ حتى إذا أقلت سحابا ثقالا ﴾ [الأعراف : ٥٧] أى حملت . وناقة لاقح : إذا حملت الجنين فى بطنها . وبه قال الفراء وابن قتيبة . وقيل : ﴿ لواقح ﴾ بمعنى : ملقحة . قال ابن الأنباري : تقول العرب : أبقل النبت فهو باقل ، أى مبقل . والمعنى : أنها تلقح الشجر ، أى بقوتها . وقيل : معنى ﴿ لواقح ﴾ : ذوات لقح . قال الزجاج : معناه : وذات لقحة ؛ لأنها تعصر السحاب وتدره كما تدر اللقحة . يقال : رامح ، أى ذو رمح . ولابن ، أى ذو لبن . وتامر ، أى ذو تمر . قال أبو عبيدة : ﴿ لواقح ﴾ بمعنى : ملاقح ، ذهب إلى أنها جمع ملقحة ، وفى هذه الآية تشبيه الرياح التى تحمل الماء بالحامل ، ولقاح الشجر بلقاح الحمل .

﴿ فأنزلنا من السماء ماء ﴾ أى من السحاب ، وكل ما علاك فأظلك فهو سماء . وقيل : من جهة السماء . والمراد بالماء هنا : ماء المطر . ﴿ فأسقيناكموه ﴾ أى جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم . قال أبو على : يقال : سقيته الماء : إذا أعطيته قدرا يرويه . وأسقيته نهرا ، أى جعلته شربا له . وعلى هذا ﴿ فأسقيناكموه ﴾ أبلغ من سقيناكموه . وقيل : سقى وأسقى بمعنى واحد . ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ أى ليست خزائنه عندكم ، بل خزائنه عندنا ، ونحن الخازنون له ، فنفى عنهم سبحانه ما أثبتة لنفسه فى قوله : ﴿ وإن من شئ إلا عندنا خزائنه ﴾ وقيل المعنى : إن ما أنتم له بخازنين بعد أن أنزلناه عليكم ، أى لا تقدرون على حفظه فى الآبار والغدران والعيون ، بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة إليه .

﴿ وإنا لنحن نحيى ونميت ﴾ أى نوجد الحياة فى المخلوقات ونسلبها عنها متى شئنا . والغرض من ذلك : الاستدلال بهذه الأمور على كمال قدرته — عز وجل — وأنه القادر على البعث والنشور والجزاء لعباده على حسب ما يستحقونه وتقتضيه مشيئته . ولهذا قال : ﴿ ونحن الوارثون ﴾ أى للأرض ومن عليها ؛ لأنه سبحانه الباقي بعد فناء خلقه ، الحى الذى لا يموت ، الدائم الذى لا ينقطع وجوده . ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ [آل عمران : ١٨٠] .

﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾ هذه اللام هى الموطئة للقسم ، وهكذا اللام فى : ﴿ ولقد علمنا المستأخرين ﴾ والمراد : من تقدم ولادة وموتا ومن تأخر فيهما . وقيل : من تقدم طاعة ومن

تأخر فيها . وقيل : من تقدم فى صف القتال ومن تأخر . وقيل : المراد بالمستقدمين : الأموات ، وبالمستأخرين : الأحياء . وقيل : المستقدمين : هم الأمم المتقدمون على أمة محمد ، والمستأخرون : هم أمة محمد . وقيل : المستقدمون : من قتل فى الجهاد ، والمستأخرون : من لم يقتل .

﴿ وإن ربك هو يحشرهم ﴾ أى هو المتولى لذلك ، القادر عليه دون غيره ، كما يفيد ضمير الفصل من الحصر ، وفيه أنه سبحانه يجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ؛ لأنه الأمر المقصود من الحشر ﴿ إنه حكيم ﴾ : يجرى الأمور على ما تقتضيه حكمته البالغة ﴿ عليم ﴾ : أحاط علمه بجميع الأشياء ، لا يخفى عليه شئ منها ، ومن كان كذلك فله القدرة البالغة على كل شئ مما وسعه علمه ، وجرى فيه حكمه ، سبحانه لا إله إلا هو .

وقد أخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ ولقد جعلنا فى السماء بروجا ﴾ قال : كواكب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح قال : الكواكب العظام . وأخرج أيضاً عن عطية قال : قصوراً فى السماء فيها الحرس . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : الرجيم : الملعون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إلا من استرق السمع ﴾ أراد أن يخطف السمع ، كقوله : ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ [الصافات : ١٠] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الضحاك قال : كان ابن عباس يقول : إن الشهب لا تقتل ، ولكن تحرق وتخبيل وتجرح من غير أن تقتل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ وأنبتنا فيها من كل شئ موزون ﴾ قال : معلوم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿ من كل شئ موزون ﴾ قال : بقدر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد ، قال : الأشياء التى توزن . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة ، قال : ما أنبتت الجبال مثل الكحل وشبهه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ قال : الدواب والأنعام . وأخرج هؤلاء عن منصور ، قال : الوحش .

وأخرج البزار وابن مردويه ، وأبو الشيخ فى العظمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خزائن الله الكلام ، فإذا أراد شيئاً ، قال له : كن فكان » (١) . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج فى قوله : ﴿ إلا عندنا خزائنه ﴾ قال : المطر خاصة . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ما نقص المطر منذ أنزله الله . ولكن تطرأ أرض أكثر مما تطرأ أخرى . ثم قرأ : ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ . وأخرج ابن

(١) أورده صاحب كتر العمال (٢٩٨٢٨) وعزاه لأبى الشيخ فى العظمة ، وأورده ابن كثير ٤ / ١٥٧ عن البزار وقال : « لا يرويه إلا (أغلب) وليس بالقوى ، وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين ، ولم يروه عنه إلا ابنه » وفى ميزان الاعتدال ١ / ٢٧٣ (١٠٢١) : « قال البخارى : منكر الحديث ، وقال ابن معين : ليس بشئ » .

جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال : ما من عام بأمطر من عام ، ولكن الله يصرفه حيث يشاء . ثم قرأ : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ . وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ قال : يرسل الله الريح فتحمل الماء فتلقح به السحاب فتدر كما تدر اللقحة ، ثم تمطر ^(١) . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبيد بن عمير قال : يبعث الله المبرشة فتقم الأرض كما ، ثم يبعث المبرشة فتثير السحاب ، فتجعله كسفًا ، ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فيجعله ركامًا ، ثم يبعث اللواقح فتلقحه فتتمطر ^(٢) . وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه والديلمي بسند ضعيف عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ريح الجنوب من الجنة ، وهى الريح اللواقح التى ذكر الله فى كتابه » ^(٣) .

وأخرج الطيالسى وسعيد بن منصور وأحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبان والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلى خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن النساء ، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون فى الصف الأول لئلا يراها ، ويستأخر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر ، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه ، فأنزل الله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ ^(٤) . وهذا الحديث هو من رواية أبى الجوزاء عن ابن عباس ، وقد رواه عبد الرزاق وابن المنذر من قول أبى الجوزاء . قال الترمذى : وهذا أشبه أن يكون أصح . وقال ابن كثير : فى هذا الحديث نكارة شديدة ^(٥) . وأخرج الحاكم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية ،

(١) ابن جرير ١٤ / ١٥ والطبرانى (٩٠٨٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٤٨ : « وفيه يحيى الحماني ، وهو ضعيف » .

(٢) ابن جرير ١٤ / ١٥ .

(٣) ابن جرير ١٤ / ١٥ والديلمي فى الفردوس (٣٢٦٢) وفيض القدير (٤٤٨٧) وعزاه لابن أبى الدنيا فى كتاب السحاب وابن جرير وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه عن أبى هريرة وضعفه ، وابن كثير ٤ / ١٥٨ وقال : « هذا إسناد ضعيف » .

(٤) الطيالسى (٢٧١٢) وأحمد ١ / ٣٠٥ والترمذى فى التفسير (٣١٢٢) وقال : « وروى جعفر بن سليمان هذا الحديث عن عمرو بن عمرو بن مالك عن أبى الجوزاء نحوه ولم يذكر فيه عن ابن عباس وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح » والنسائى ٢ / ١١٨ وفى التفسير (٢٩٣) وحسنه وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٠٤٦) وابن جرير ١٤ / ١٨ وابن حبان (١٧٤٩ موارد) والطبرانى (١٢٧٩١) وصححه الحاكم ٢ / ٣٥٣ وقال : « قال عمرو بن على : لم يتكلم أحد فى نوح بن قيس الطاحى بحجة وله أصل من حديث سفيان الثورى » ووافقه الذهبى وقال : « هو صدوق وخرج له مسلم » .

(٥) أعله ابن كثير ٤ / ١٥٩ فقال : « وثقه أحمد ، وأبو داود وغيرهما ، وحكى ابن معين تضعيفه ، وأخرجه مسلم وأهل السنن وقال : « غريب جداً . . . » وهذا الحديث فيه نكارة شديدة ، وقد رواه عبد الرزاق عن =

قال : المستقدمين : الصفوف المقدمة ، والمستأخرين : الصفوف المؤخرة . وقد وردت أحاديث كثيرة في أن خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها . وخير صفوف النساء آخرها ، وشرها أولها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء ومقاتل بن حيان ؛ أن الآية في صفوف القتال . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال : المستقدمين : في طاعة الله ، والمستأخرين : في معصية الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : يعنى بالمستقدمين : من مات ، وبالمستأخرين : من هو حي لم يموت . وأخرج هؤلاء عنه أيضاً ، قال : المستقدمين : آدم ومن مضى من ذريته ، والمستأخرين : في أصلاب الرجال . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة نحوه .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَعْثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) ﴾ .

المراد بالإنسان في قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ هو : آدم لأنه أصل هذا النوع . والصلصال ، قال أبو عبيدة : هو : الطين المخلوط بالرمل الذي يتصلصل إذا حرك ، فإذا طبخ في النار فهو الفخار . وهذا قول أكثر المفسرين . وقال الكسائي : هو الطين المتين ، مأخوذ من قول العرب : صل اللحم وأصل : إذا أنتن مطبوخاً كان أو نيئاً . قال الحطيئة :

ذاك فتى ييذل ذا قدره ^(١) لا يفسد اللحم لديه الصلول

= جعفر بن سليمان ، عن عمرو بن مالك النكري أنه سمع أبا الجوزاء يقول : . . . فالظاهر : أنه من كلام أبي الجوزاء فقط ليس فيه لابن عباس ذكر .

(١) في المطبوعة : « ذا قدرة » والصحيح ما أثبتنا من المخطوطة .

والحمأ : الطين الأسود المتغير ، أو الطين الأسود من غير تقييد بالمتغير . قال ابن السكيت: تقول منه : حمأت البئر حمأً بالتسكين : إذا نزعت حمأتها ، وحمئت البئر حمأً بالتحريك : كثرت حمأتها . وأحميتها إحماءً : ألقيت فيها الحمأة . قال أبو عبيدة : الحمأة بسكون الميم مثل الحمأة ، يعنى : بالتحريك . والجمع : حمء ، مثل : ثمرة وتمر . والحمأ المصدر مثل : الهلع والجزع ، ثم سمي به . والمسنون ، قال الفراء : هو المتغير ، وأصله من سننت الحجر على الحجر : إذا حككته . وما يخرج بين الحجرين يقال له : السنانة والسنين ، ومنه قول عبد الرحمن بن حسان :

ثم حاصرتها إلى القبة الحمراء تمشى فى مرمر مسنون (١)

أى محكوك . ويقال : أسن الماء : إذا تغير . ومنه قوله : ﴿ لم يتسنه ﴾ [البقرة : ٢٥٩] ، وقوله : ﴿ ماء غير آسن ﴾ [محمد : ١٥] . وكلا الاشتقاقين يدل على التغير ؛ لأن ما يخرج بين الحجرين لا يكون إلا منتنا . وقال أبو عبيدة : المسنون : المصبوب ، وهو من قول العرب : سننت الماء على الوجه : إذا صببته . والسن : الصب . وقال سيبويه : المسنون : المصور ، مأخوذ من سنة الوجه ، وهى صورته ، ومنه قول ذى الرمة :

تريك سنة وجه غير مقررقة ملساء لئس بها خال ولا ندب

وقال الأخفش : المسنون : المنصوب القائم ، من قولهم : وجه مسنون : إذا كان فيه طول . والحاصل على هذه الأقوال أن التراب لما بل ، صار طينا ، فلما أتن ، صار حمأً مسنوناً ، فلما يبس صار صلصالاً . فأصل الصلصال هو الحمأ المسنون . ولهذا وصف بهما .

﴿ والجنان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ الجان : أبو الجن عند جمهور المفسرين . وقال عطاء والحسن وقتادة ومقاتل : هو إبليس . وسمى جانا ؛ لتواريه عن الأعين . يقال : جن الشيء : إذا ستره . فالجان : يستر نفسه عن أعين بنى آدم . ومعنى ﴿ من قبل ﴾ : من قبل خلق آدم . والسموم : الريح الحادة النافذة فى المسام ، تكون بالنهار ، وقد تكون بالليل . كذا قال أبو عبيدة . وذكر خلق الإنسان والجان فى هذا الموضع للدلالة على كمال القدرة الإلهية ، وبيان أن القادر على النشأة الأولى قادر على النشأة الأخرى .

﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر ، أى اذكر . بين سبحانه بعد ذكره لخلق الإنسان ما وقع عند خلقه له . وقد تقدم تفسير ذلك فى البقرة . والبشر : مأخوذ من البشرة ، وهى ظاهر الجلد . وقد تقدم تفسير الصلصال والحمأ المسنون قريباً مستوفى . ﴿ فإذا سويته ﴾ أى سويت خلقه ، وعدلت صورته الإنسانية وكملت أجزائه ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ النفخ : إجراء الريح فى تجاويف جسم آخر . فمن قال : إن الروح جسم لطيف كالهواء فمعناه

(١) فى المطبوعة : « سنون » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

ظاهر، ومن قال: إنه جوهر مجرد غير متحيز ولا حال فى متحيز، فمعنى النفخ عنده: تهيئة البدن لتعلق النفس الناطقة به. قال النيسابورى: ولا خلاف فى أن الإضافة فى روى للتشريف والتكريم، مثل: «ناقة الله» و«بيت الله» قال القرطبى: والروح: جسم لطيف أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع ذلك الجسم. وحقيقته إضافة خلق إلى خالق. فالروح: خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً. قال: ومثله: ﴿ وروح منه ﴾ [النساء: ١٧١] وقد تقدم فى النساء (١). ﴿ ففعلوا له ساجدين ﴾ الفاء تدل على أن سجودهم واجب عليهم عقب التسوية والنفخ من غير تراخ، وهو أمر بالوقوع، من وقع يقع. وفيه دليل على أن المأمور به هو السجود، لا مجرد الانحناء كما قيل. وهذا السجود: هو سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة، ولله أن يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء. وقيل: كان السجود لله تعالى، وكان آدم قبله لهم.

﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ أخبر سبحانه بأن الملائكة سجدوا جميعاً عند أمر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخ. قال المبرد: قوله: ﴿ كلهم ﴾ أزال احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد. وقوله: ﴿ أجمعون ﴾ تأكيد بعد تأكيد. ورجح هذا الزجاج. قال النيسابورى: وذلك لأن أجمع معرفة فلا يقع حالاً، ولو صح أن يكون حالاً لكان منتصباً، ثم استثنى إبليس من الملائكة فقال: ﴿ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾. قيل: هذا الاستثناء متصل لكونه كان من جنس الملائكة، ولكنه أبى ذلك استكباراً واستعظماً لنفسه وحسداً لآدم، فحقت عليه كلمة الله. وقيل: إنه لم يكن من الملائكة، ولكنه كان معهم، فغلب اسم الملائكة عليه وأمر بما أمروا به، فكان الاستثناء بهذا الاعتبار متصلاً، وقيل: إن الاستثناء منفصل بناء على عدم كونه منهم، وعدم تغليبهم عليه، أى ولكن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين. وقد تقدم الكلام فى هذا فى سورة البقرة. وجملة: ﴿ أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ استئناف مبين لكيفية ما فيهم من الاستثناء من عدم السجود؛ لأن عدم السجود قد يكون مع التردد، فبين سبحانه أنه كان على وجه الإباء.

وجملة: ﴿ قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين ﴾ مستأنفة أيضاً جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال الله سبحانه لإبليس بعد أن أبى السجود؟ وهذا الخطاب له ليس للتشريف والتكريم، بل للتقريع والتوبيخ، والمعنى: أى غرض لك فى الامتناع، وأى سبب حملك عليه، على ألا تكون مع الساجدين لآدم مع الملائكة، وهم فى الشرف وعلو المنزلة والقرب من الله بالمنزلة التى قد علمتها؟

وجملة: ﴿ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمأ مسنون ﴾ مستأنفة كالتى قبلها، جعل العلة لترك سجوده كون آدم بشراً مخلوقاً من صلصال من حمأ مسنون، زعماً منه

أنه مخلوق من عنصر أشرف من عنصر آدم . وفيه إشارة إجمالية فى كونه خيراً منه . وقد صرح بذلك فى موضع آخر ، فقال : ﴿ أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ [الأعراف: ١٢] . وقال فى موضع آخر: ﴿ أسجد لمن خلقت طينا ﴾ [الإسراء: ٦١] واللام فى ﴿ لأسجد ﴾ : لتأكيد النفى ، أى لا يصح ذلك منى ، فأجاب الله سبحانه عليه بقوله : ﴿ قال فاخرج منها فإنك رجيم ﴾ والضمير فى : ﴿ منها ﴾ ، قيل : عائد إلى الجنة ، وقيل: إلى السماء ، وقيل : إلى زمرة الملائكة ، أى فاخرج من زمرة الملائكة ﴿ فإنك رجيم ﴾ أى مرجوم بالشهب . وقيل: معنى رجيم : ملعون ، أى مطرود ؛ لأن من يطرد يرمى بالحجارة .

﴿ وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾ أى عليك الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه مستمراً عليك ، لازماً لك إلى يوم الجزاء ، وهو يوم القيامة . وجعل يوم الدين غاية للعنة لا يستلزم انقطاعها فى ذلك الوقت ؛ لأن المراد دوامها من غير انقطاع ، وذكر يوم الدين ؛ للمبالغة كما فى قوله تعالى: ﴿ ما دامت السموات والأرض ﴾ [هود : ١٠٧] . أو أن المراد أنه فى يوم الدين وما بعده يعذب بما هو أشد من اللعن من أنواع العذاب ، فكأنه لا يجد له ما كان يجده قبل أن يمسه العذاب .

﴿ قال رب فأنظرنى ﴾ أى أخرنى وأمهلىنى ولا تمتنى إلى يوم يبعثون ، أى آدم وذريته . طلب أن يبقى حياً إلى هذا اليوم لما سمع ذلك ، علم أن الله قد أخر عذابه إلى الدار الآخرة ، وكأنه طلب ألا يموت أبداً ؛ لأنه إذا أخر موته إلى ذلك اليوم ، فهو يوم لا موت فيه . قيل: إنه لم يطلب ألا يموت ، بل طلب أن يؤخر عذابه إلى يوم القيامة ، ولا يعذب فى الدنيا ﴿ قال فإنك من المنظرين ﴾ لما سأل الإنظار ، أجابه الله سبحانه إلى ما طلبه ، وأخبره بأنه من جملة من أنظره عن أخر آجالهم من مخلوقاته ، أو من جملة من أخر عقوبتهم بما اقترفوا . ثم بين سبحانه الغاية التى أمهله إليها ، فقال : ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ وهو يوم القيامة ، فإن ﴿ يوم الدين ﴾ و﴿ يوم يبعثون ﴾ و﴿ يوم الوقت المعلوم ﴾ كلها عبارات عن يوم القيامة . وقيل : المراد بالوقت المعلوم : هو الوقت القريب من البعث ، فعند ذلك يموت .

﴿ قال رب بما أغويتنى لأزین لهم فى الأرض ﴾ الباء للقسم ، و« ما » مصدرية ، وجواب القسم : ﴿ لأزین لهم ﴾ أى أقسم بإغوائك إياى لأزین لهم فى الأرض ، أى ما داموا فى الدنيا . والتزین منه إما بتحسين المعاصى لهم وإيقاعهم فيها ، أو يشغلهم بزينة الدنيا عن فعل ما أمرهم الله به فلا يلتفتون إلى غيرها . وإقسامه ها هنا بإغواء الله له لا ينافى إقسامه فى موضع آخر بعزة الله التى هى سلطانه وقهره ؛ لأن الإغواء (١) له هو من جملة ما تصدق عليه العزة ﴿ ولأغوينهم أجمعين ﴾ أى لأضلنهم عن طريق الهدى ، وأوقعهم فى طريق الغواية ، وأحملهم عليه . ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام ، أى

(١) فى المطبوعة : « الإغراء » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

الذين استخلصتهم من العباد . وقرأ الباقون بكسر اللام ، أى الذين أخلصوا لك العبادة ، فلم يقصدوا بها غيرك .

﴿ قال هذا صراط على مستقيم ﴾ أى حق على أن أراعيه ، وهو ألا يكون لك على عبادى سلطان . قال الكسائى : هذا على الوعيد والتهديد ، كقولك لمن تهدده : طريقك على ، ومصيرك إلى . وكقوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر : ١٤] . فكأن معنى هذا الكلام : هذا طريق مرجعه ، فأجازى كلاً بعمله . وقيل : ﴿ على ﴾ هنا بمعنى إلى . وقيل : المعنى : على أن الصراط المستقيم بالبيان والحجة . وقيل : بالتوفيق والهداية . وقرأ ابن سيرين وقتادة والحسن وقيس بن عباد وأبو رجاء وحמיד ويعقوب : « هذا صراط على » على أنه صفة مشبهة ومعناه : رفيع .

﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ المراد بالعباد هنا : هم المخلصون ؛ والمراد أنه لا تسلط له عليهم بإيقاعهم فى ذنب يهلكون به ، ولا يتوبون منه . فلا ينافى هذا ما وقع من آدم وحواء ونحوهما ، فإنه ذنب مغفور لوقوع التوبة عنه . ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ استثنى سبحانه من عباده هؤلاء وهم المتبعون لإبليس من الغاوين عن طريق الحق ، الواقعين فى الضلال ، وهو موافق لما قاله إبليس اللعين من قوله : ﴿ لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ ويمكن أن يقال : إن بين الكلامين فرقاً فكلام الله سبحانه فيه نفى سلطان إبليس على جميع عباده إلا من اتبعه من الغاوين ، فدخل فى ذلك المخلصون وغيرهم ممن لم يتبع إبليس من الغاوين ؛ وكلام إبليس اللعين يتضمن إغواء الجميع إلا المخلصين ، فدخل فيهم من لم يكن مخلصاً ولا تابعاً لإبليس غاويًا . والحاصل أن بين المخلصين والغاوين التابعين لإبليس طائفة لم تكن مخلصه ولا غاوية تابعة لإبليس . وقد قيل : إن الغاوين المتبعين لإبليس هم المشركون . ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ [النحل : ١٠٠] .

ثم قال الله سبحانه متوعداً لأتباع إبليس : ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ أى موعد المتبعين الغاوين . و﴿ أجمعين ﴾ تأكيد للضمير ، أو حال . ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ يدخل أهل النار منها ، وإنما كانت سبعة لكثرة أهلها ﴿ لكل باب منهم ﴾ أى من الأتباع الغواة ﴿ جزء مقسوم ﴾ أى قدر معلوم متميز عن غيره . وقيل : المراد بالأبواب : الأطباق طبق فوق طبق ، وهى جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ، فأعلاها للموحدين ، والثانية لليهود ، والثالثة للنصارى ، والرابعة للصابئين ، والخامسة للمجوس ، والسادسة للمشركين ، والسابعة للمنافقين ، فجهم أعلى الطباق ، ثم ما بعدها تحتها ، ثم كذلك . كذا قيل .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس قال : خلق الإنسان

من ثلاث : من طين لازب ، وصلصال ، وحمأ مسنون ، فالطين اللازب : اللازم الجيد ، والصلصال : المدقق الذى يصنع منه الفخار ، والحمأ المسنون : الطين الذى فيه الحمأة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه قال : الصلصال : الماء يقع على الأرض الطيبة ، ثم يحسر عنها ، فتشقق ، ثم تصير مثل الخزف الرقاق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً قال : الصلصال : هو التراب اليابس الذى يبل بعد يسه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً ، قال : الصلصال : طين خلط برمل . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً ، قال : الصلصال : الذى إذا ضربته صلصل . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً ، قال : الصلصال : الطين تعصر بيدك ، فيخرج الماء من بين أصابعك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى قوله : ﴿ من حمأ مسنون ﴾ قال : من طين رطب . وأخرج هؤلاء عنه أيضاً ﴿ من حمأ مسنون ﴾ قال : من طين منتن . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً ، قال : الجان : مسيخ الجن ، كالقردة والخنازير : مسيخ الإنس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : الجان : هو إبليس ، خلق من قبل آدم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ قال : من أحسن النار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : نار السموم : الحارة التى تقتل . وأخرج الطيالسى والفرىابى وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال : السموم التى خلق منها الجان ، جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، ثم قرأ : ﴿ والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ .

وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعاً . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون ﴾ قال : أراد إبليس لا يذوق الموت ، فقيل : ﴿ إنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ قال : النفخة الأولى يموت فيها إبليس ، وبين النفخة والنفخة أربعون سنة . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر عن ابن سيرين ﴿ هذا صراط على مستقيم ﴾ أى رفيع . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ بعدد أطباق جهنم كما قدمنا . وأخرج ابن المبارك وابن أبى شيبه وأحمد فى الزهد ، وهناد وعبد بن حميد ، وابن أبى الدنيا فى صفة النار ، وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث من طرق عن على قال : أطباق جهنم سبعة ، بعضها فوق بعض ، فيملاً الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث حتى تملأ كلها . وأخرج البخارى فى تاريخه ، والترمذى وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « بجهنم سبعة أبواب ، باب منها لمن سل السيف على أمتى » (١) . وقد ورد

(١) الترمذى فى التفسير (٣١٢٣) وقال : « حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول » .

فى صفة النار أحاديث وآثار. وأخرج ابن مردويه والخطيب فى تاريخه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ قال : « جزء أشركوا بالله ، وجزء شكوا فى الله ، وجزء غفلوا عن الله » (١) .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا أَمْرًا أَنَّهُ قَدَرْنَا لَهَا لِمَنِ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) ﴾ .

قوله : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أى المتقين للشرك بالله كما قال جمهور الصحابة والتابعين . وقيل : هم الذين اتقوا جميع المعاصى ﴿ فى جنات ﴾ وهى البساتين ﴿ وعيون ﴾ وهى الأنهار . قرئ بضم العين من : ﴿ عيون ﴾ على الأصل ، وبالكسر مراعاة للياء . والتركيب يحتمل أن يكون لجميع المتقين جنات وعيون ، أو لكل واحد منهم جنات وعيون ، أو لكل واحد منهم جنة وعين . ﴿ ادخلوها ﴾ قرأ الجمهور بلفظ الأمر على تقدير القول ، أى قيل لهم : ادخلوها . وقرأ الحسن وأبو العالية ، وروى عن يعقوب بضم الهمزة مقطوعة ، وفتح الخاء على أنه فعل مبنى للمفعول ، أى أدخلهم الله إياها . وقد قيل : إنهم إذا كانوا فى جنات وعيون ، فكيف يقال لهم بعد ذلك : ادخلوها على قراءة الجمهور ، فإن الأمر لهم بالدخول يشعر بأنهم لم يكونوا فيها ؟ وأجيب بأن المعنى : أنهم لما صاروا فى الجنات ، فإذا انتقلوا من بعضها إلى بعض ، يقال لهم عند الوصول إلى التى أرادوا الانتقال إليها :

(١) تاريخ بغداد ٢٩ / ٩ وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات ٣ / ٢٦٥ وقال : « هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ . وفيه سلام ليس بشئ . قال يحيى : لا يكتب حديثه ليس بشئ . وقال النسائى والدارقطنى : متروك . وقال ابن حبان : يروى عن الثقات الموضوعات » .

ادخلوها . ومعنى ﴿ بسلام آمنين ﴾ : بسلامة من الآفات ، وأمن من المخافات ، أو مسلمين على بعضهم بعضاً ، أو مسلماً عليهم من الملائكة أو من الله — عز وجل .

﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل ﴾ الغل : الحقد والعداوة . وقد مر تفسيره فى الأعراف . وانتصاب ﴿ إخوانا ﴾ على الحال ، أى إخوة فى الدين والتعاطف ﴿ على سرر متقابلين ﴾ أى حال كونهم على سرر ، وعلى صورة مخصوصة وهى التقابل ، ينظر بعضهم إلى وجه بعض . والسرر : جمع سرير . وقيل : هو المجلس الرفيع المهيأ للسرور . ومنه قولهم : سرّ الوادى لأفضل موضع منه . ﴿ لا يسهم فيها نصب ﴾ أى تعب وإعياء لعدم وجود ما يتسبب عنه ذلك فى الجنة ؛ لأنها نعيم خالص ، ولذة محضة تحصل لهم بسهولة ، وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد ، بل بمجرد خطور شهوة الشئ بقلوبهم يحصل ذلك الشئ عندهم صفواً عفواً ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾ أبداً ، وفى هذا الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم . فإنَّ علم من هو فى نعمة ولذة بانقطاعها وعدمها بعد حين موجب لتبغص نعيمه وتكدر لذته .

ثم قال سبحانه بعد أن قص علينا ما للمتقين عنده من الجزاء العظيم ، والأجر الجزيل : ﴿ نبيّ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ أى أخبرهم يا محمد أنى أنا الكثير المغفرة لذنوبهم ، الكثير الرحمة لهم كما حكمت به على نفسى : « إن رحمتى سبقت غضبى » (١) . اللهم اجعلنا من عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة ، وأدخلتهم تحت واسع الرحمة . ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله . بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة ، أمره بأن يذكر لهم شيئاً مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف ، ويتقابل التبشير والتحذير ، ليكونوا راجين خائفين ، فقال : ﴿ وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ أى الكثير الإيلام . وعند أن جمع الله لعباده بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير ، صاروا فى حالة وسط (٢) بين اليأس والرجاء ، وخير الأمور أوساطها ، وهى القيام على قدمى الرجاء والخوف ، وبين حالتى الأُنس والهيبة .

وجملة : ﴿ ونبيّهم عن ضيف إبراهيم ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ نبيّ عبادى ﴾ أى أخبرهم بما جرى على إبراهيم من الأمر الذى اجتمع فيه له الرجاء والخوف والتبشير الذى خالطه نوع من الوجع ليعتبروا بذلك ويعلموا أنها سنة الله سبحانه فى عباده . وأيضاً : لما اشتملت القصة على إنجاء المؤمنين وإهلاك الظالمين ، كان فى ذلك تقرير (٣) لكونه الغفور الرحيم ، وأن عذابه هو العذاب الأليم . وقد مر تفسير هذه القصة فى سورة هود . وانتصاب ﴿ إذ دخلوا عليه ﴾ بفعل مضمر معطوف على ﴿ نبيّ عبادى ﴾ أى واذكر لهم دخولهم عليه ،

(١) هذا جزء من حديث أخرجه ابن ماجة فى المقدمة (١٨٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) فى المخطوطة : « وسطاً » بالنصب ، والصحيح ما أثبتناه .

(٣) فى المخطوطة : « تقريراً » بالنصب والصحيح ما أثبتناه من الرفع ؛ لأنه اسم كان .

أو فى محل نصب على الحال . والضيف فى الأصل مصدر، ولذلك وحد وإن كانوا جماعة .
وسمى ضيقاً ؛ لإضافته إلى المضيف ﴿ فقالوا سلاماً ﴾ أى سلمنا سلاماً ﴿ قال إنا منكم
وجلون ﴾ أى فزعون خائفون . وإنما قال هذا بعد أن قرب إليهم العجل فرآهم لا يأكلون منه
كما تقدم فى سورة هود ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾ [هود :
٧٠] وقيل : أنكر السلام منهم ؛ لأنه لم يكن فى بلادهم . وقيل : أنكر دخولهم عليه بغير
استئذان .

﴿ قالوا لا توجل ﴾ أى قالت الملائكة : لا تخف . وقرئ : « لا تأجل » و« لا توجل » من
أوجله ، أى أخافه . وجملة : ﴿ إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ مستأنفة لتعليل النهى عن الوجل .
والعليم : كثير العلم . وقيل : هو الحليم كما وقع فى موضع آخر من القرآن . وهذا الغلام
هو إسحاق كما تقدم فى هود . ولم يسمه هنا ولا ذكر التبشير بيعقوب اكتفاء بما سلف . ﴿ قال
أبشروني ﴾ قرأ الجمهور بألف الاستفهام . وقرأ الأعمش : « بشروني » بغير الألف ﴿ على
أن مسنى الكبر ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى مع حالة الكبر والهرم ﴿ فبم تبشرون ﴾
استفهام تعجب ، كأنه عجب من حصول الولد له مع ما قد صار إليه من الهرم الذى جرت
العادة بأنه لا يولد لمن بلغ إليه . والمعنى : فبأى شئ تبشرون ؟ فإن البشارة بما لا يكون عادة
لا تصح . وقرأ نافع : « تبشرون » بكسر النون والتخفيف وإبقاء الكسرة لتدل على الياء
المحذوفة . وقرأ ابن كثير وابن محيصن بكسر النون مشددة على إدغام النون فى النون ، وأصله :
تبشروني . وقرأ الباقون : « تبشرون » بفتح النون .

﴿ قالوا بشرناك بالحق ﴾ أى باليقين الذى لا خلف فيه ، فإن ذلك وعد الله وهو لا يخلف
الميعاد ، ولا يستحيل عليه شئ ، فإنه القادر على كل شئ ﴿ فلا تكن من القانطين ﴾ هكذا قرأ
الجمهور بإثبات الألف . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب : « من القنطين » بغير ألف . وروى
ذلك عن أبى عمرو ، أى من الآيسين من ذلك الذى بشرناك به ﴿ قال ومن يقنط من رحمة ربه
إلا الضالون ﴾ قرئ بفتح النون من : « يقنط » وبكسرهما وهما لغتان . وحكى فيه ضم النون .
و« الضالون » المكذبون ، أو المخطئون الذاهبون عن طريق الصواب ، أى إنما استبعدت الولد
لكبر سننى ، لا لقنوطى من رحمة ربي .

ثم سألهما عما لأجله أرسلهم الله سبحانه فقال : ﴿ فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ الخطاب :
الأمر الخطير ، والشأن العظيم ، أى فما أمركم وشأنكم ، وما الذى جئتم به غير ما قد
بشروني به ؛ وكأنه قد فهم أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة ، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا
﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ أى إلى قوم لهم إجرام فيدخل تحت ذلك الشرك ، وما هو
دونه . وهؤلاء القوم هم : قوم لوط .

ثم استثنى منهم من ليسوا مجرمين فقال : ﴿ إلا آل لوط ﴾ وهو استثناء متصل ؛ لأنه

من الضمير فى : ﴿ مجرمين ﴾ . ولو كان من قوم لكان منقطعاً لكونهم قد وصفوا بكونهم مجرمين . وليس آل لوط مجرمين . ثم ذكر ما سيختص به آل لوط من الكرامة لعدم دخولهم مع القوم فى إجرامهم ، فقال : ﴿ إنا لمنجوهم أجمعين ﴾ أى آل لوط ، وهم أتباعه وأهل دينه . وهذه الجملة مستأنفة على تقدير كون الاستثناء متصلاً ، كأنه قيل : ماذا يكون حال آل لوط ؟ فقال : ﴿ إنا لمنجوهم أجمعين ﴾ ؛ وإنما على تقدير كون الاستثناء منقطعاً فهى خبر ، أى لكن آل لوط ناجون من عذابنا . وقرأ حمزة والكسائى : « لمنجوهم » بالتخفيف من : أنجى^(١) ، وقرأ الباقون بالتشديد من : نجى . واختار هذه القراءة الأخيرة أبو عبيدة وأبو حاتم . والتنجية والإنجاء : التخليص مما وقع فيه غيرهم . ﴿ إلا امرأته ﴾ هذا الاستثناء من الضمير فى منجوهم إخراجاً لها من التنجية ، والمعنى : قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم إلا آل لوط إنا لمنجوهم إلا امرأته فإنها من الهالكين . ومعنى ﴿ قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾ : قضينا وحكمنا أنها من الباقيين فى العذاب مع الكفرة . والغابر : الباقي . قال الشاعر :

لا تكسَع (٢) الشَّوْلَ بأغبارها إنك لا تدري من النَّاتِجِ

والإغبار : بقايا اللبن . قال الزجاج : معنى قدرنا : دبرنا ، وهو قريب من معنى قضينا . وأصل التقدير : جعل الشيء على مقدار الكفاية . وقرأ عاصم من رواية أبى بكر والمفضل : « قدرنا » بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد . قال الهروى : هما بمعنى ، وإنما أسند التقدير إلى الملائكة مع كونه من فعل الله سبحانه ؛ لما لهم من القرب عند الله .

﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان وإهلاك من يستحق الهلاك ، وتنجية من يستحق النجاة ﴿ قال إنكم قوم منكرون ﴾ أى قال لوط مخاطباً لهم : إنكم قوم منكرون ، أى لا أعرفكم ، بل أنكركم . ﴿ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ أى بالعذاب الذى كانوا يشكون فيه فالإضراب هو عن مجيئهم بما ينكره ، كأنهم قالوا : ما جئناك بما خطر ببالك من المكروه ، بل جئناك بما فيه سرورك ، وهو عذابهم الذى كنت تحذرهم منه وهم يكذبونك .

﴿ وأتيناك بالحق ﴾ أى باليقين الذى لا مرية فيه ولا تردد ، وهو العذاب النازل بهم لا محالة ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فى ذلك الخبر الذى أخبرناك . وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ فى سورة هود . ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ أى كن وراءهم تذودهم لئلا يختلف منهم أحد فيناله العذاب ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ أى لا تلتفت أنت ولا يلتفت أحد منهم ، فىرى ما نزل بهم من العذاب ، فيشتغل بالنظر فى ذلك ، ويتباطأ عن سرعة السير والبعد عن ديار الظالمين . وقيل : معنى لا يلتفت : لا يتخلف . ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾

(١) فى المخطوطة : « أنجا » بالالف ، على عادة المصنف فى كتابة المنطوق .

(٢) فى المطبوعة : « لا نكسح » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

أى إلى الجهة التى أمركم الله سبحانه وتعالى بالمضى إليها ، وهى جهة الشام . وقيل : مصر . وقيل : قرية من قرى لوط . وقيل : أرض الخليل .

﴿ وقضينا إليه ﴾ أى أوحينا إلى لوط ﴿ ذلك الأمر ﴾ وهو إهلاك قومه ، ثم فسرهُ بقوله : ﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع ﴾ . قال الزجاج : موضع : « أن » نصب ، وهو بدل من ﴿ ذلك الأمر ﴾ . والدابر : هو الآخر ، أى أن آخر من يبقى منهم يهلك وقت الصبح . وانتصاب ﴿ مصبحين ﴾ على الحال ، أى حال كونهم داخلين فى وقت الصبح . ومثله : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾ [الأنعام : ٤٥] .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ آمنين ﴾ قال : أمنوا الموت ، فلا يموتون ، ولا يكبرون ، ولا يسقمون ، ولا يعرون ، ولا يجوعون . وأخرج ابن جرير عن على : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل ﴾ قال : العداوة . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن الحسن البصرى ، قال : قال على بن أبى طالب : فىنا والله أهل بدر^(١) نزلت : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾^(٢) . وأخرج ابن عساكر وابن مردويه عنه فى الآية ، قال : نزلت فى ثلاث أحياء من العرب ، فى بنى هاشم ، وبنى تميم^(٣) ، وبنى عدى ، فى وفى أبى بكر وعمر . وأخرج ابن أبى حاتم وابن عساكر عن كثير النواء قال : قلت لأبى جعفر : إن فلاناً حدثنى عن على بن الحسين أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر وعمر وعلى : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل ﴾ قال : والله إنها لفىهم أنزلت ، وفيمن تنزل إلا فيهم ؟ قلت : وأى غل هو؟ قال : غل الجاهلية ، إن بنى تميم وبنى عدى وبنى هاشم كان بينهم فى الجاهلية ، فلما أسلم هؤلاء القوم ، تحابوا فأخذت أبا بكر الخاصرة فجعل على يسخن يده ، فيكمد بها خاصرة أبى بكر ، فنزلت هذه الآية .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه عن على من طرق أنه قال لابن طلحة : إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله فيهم : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم ﴾ الآية ، فقال رجل من همدان : الله أعدل من ذلك ، فصاح على عليه صيحة تداعى لها القصر ، وقال : فيمن إذن إن لم نكن نحن أولئك^(٤) ؟ وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والطبرانى وابن مردويه عن على قال : إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان والزبير وطلحة فيمن قال الله فيهم : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل ﴾ . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس فى هذه الآية ،

(١) فى المخطوطة : « الجنة » ، والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخرىج .

(٢) ابن جرير ١٤ / ٢٥ .

(٣) فى المخطوطة : « تميم » والصواب « بنى تميم » ، كما يدل عليه السياق ؛ لأن أبا بكر كان من تميم .

(٤) ابن أبى شيبة فى الجمل (١٩٦٤١) وابن جرير ١٤ / ٢٥ وصححه الحاكم ٢ / ٣٥٤ ووافقه الذهبى .

قال : نزلت فى عشرة : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود . وأخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى صالح موقوفاً عليه . وأخرج ابن أبى شيبه وهناد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿على سرر متقابلين﴾ قال : لا يرى بعضهم قفا بعض . وأخرجه ابن المنذر وابن مردويه عن مجاهد عن ابن عباس . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وأبو قاسم البغوى وابن مردويه وابن عساكر عن زيد بن أبى أوفى قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية : ﴿إخوانا على سرر متقابلين﴾ قال : « المتحابون فى الله فى الجنة ينظر بعضهم إلى بعض » (١) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ لا يمسهم فيها نصب ﴾ قال : المشقة والأذى . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق عطاء بن أبى رباح عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : اطلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذى يدخل منه بنو شيبه فقال : « ألا أراكم تضحكون » ثم أدبر ، حتى إذا كان عند الحجر ، رجع القهقرى ، فقال : « إني لما خرجت ، جاء جبريل فقال : يا محمد ، إن الله - عز وجل - يقول : لِمَ تَقْنَطُ عِبَادِي ؟ ﴾ نبيّ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ (٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مصعب بن ثابت قال : مر النبى ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال : « اذكروا الجنة ، واذكروا النار » ، فنزلت : ﴿ نبيّ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ (٣) .

وأخرج الطبرانى والبخارى وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير ، قال : مر النبى ﷺ . . . فذكر نحوه (٤) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة ، وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر كل الذى عند الله من رحمته ، لم يئأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب ، لم يأمن من النار » (٥) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة : ﴿ قالوا لا توجل ﴾ : لا تخف . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى ﴿ من القانطين ﴾ قال : الآيسين . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ إنها لمن

(١) الطبرانى (٥١٤٦) من حديث طويل ، وقال ابن عبد البر فى الاستيعاب ٢ / ٥٣٧ : « إلا أن فى إسناده ضعفاً » وقال الحافظ فى الإصابة ٢ / ٥٩٢ : « وقال ابن السكن : روى حديثه من ثلاث طرق ليس فيها ما يصح » وقال البخارى فى التاريخ الصغير ١ / ٢١٧ : « وهذا إسناد مجهول لا يتابع عليه ولا يعرف سماع بعضهم من بعض . رواه بعضهم عن إسماعيل بن أبى خالد عن عبد الله بن أبى أوفى عن النبى ﷺ ، ولا أصل له » .

(٢) ابن جرير ١٤ / ٢٧ ، وفى إسناده من لم يسم .

(٣) أورده ابن كثير فى تفسيره ٤ / ١٦٦ وقال : « رواه ابن أبى حاتم ، وهو مرسل » .

(٤) أورده الهيثمى فى المجمع ٧ / ٤٩ وقال : « رواه الطبرانى وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف » .

(٥) البخارى فى الرقاق (٦٤٦٩) ومسلم فى التوبة (٢٧٥٥ / ٢٣) والبيهقى ٢ / ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

الغابرين ﴿ يعنى : الباقين فى عذاب الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَّنْكَرُونَ ﴾ قال : أنكرهم لوط . وفى قوله : ﴿ بَمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ قال : بعذاب قوم لوط . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ بَمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ قال : يشكون .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ وَاتَّبَعَ أَذْيَارَهُمْ ﴾ قال : أمر أن يكون خلف أهله يتبع أذْيَارَهُمْ فى آخرهم إذا مشوا . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ قال : أخرجهم الله إلى الشام .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ ﴾ قال : أوحيناه إليه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ ﴾ يعنى : استئصالهم وهلاكهم (١).

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سَجِيلٍ (٧٤) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴿

ذكر سبحانه ما كان من قوم لوط عند وصول الملائكة إلى قريتهم فقال : ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى أهل مدينة قوم لوط ، وهى سدوم (٢) كما سبق . وجملة : ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى مستبشرون بأضياف لوط طمعاً فى ارتكاب الفاحشة منهم . فقال لهم لوط : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي ﴾ وحد الضيف ؛ لأنه مصدر كما تقدم ، والمراد : أضيافى . وسماهم ضيفاً ؛ لأنه رآهم على هيئة الأضياف ، وقومه رأوهم مرداً حسان الوجه ، فلذلك طمعوا فيهم ﴿ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ يقال : فضحه يفضحه فضيحة وفضحاً : إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بإظهاره . والمعنى : لا تفضحون عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة ، فيعلمون أنى عاجز عن حماية من نزل بى ، أو لا تفضحون بفضيحة ضيفى ، فإن من فعل ما يفضح الضيف ، فقد فعل ما يفضح المضيف . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى أمرهم ﴿ وَلَا تَخْزُونِ ﴾ يجوز أن تكون من الخزى وهو الذل والهوان ، ويجوز أن يكون من الخزية وهى الحياء والخجل . وقد تقدم تفسير ذلك فى هود .

(١) فى المخطوطة : « استئصال هلاكهم » والصحيح ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

(٢) فى المطبوعة : « سلوم » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ، وهى قرية من قرى قوم لوط .

﴿ قالوا ﴾ أى قوم لوط ، مجيبين له : ﴿ أو لم ننهك عن العالمين ﴾ الاستفهام للإنكار ، والواو للعطف على مقدر ، أى ألم نتقدم إليك وننهك عن أن تكلمنا فى شأن أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة ؟ وقيل : نهوه عن ضيافة الناس . ويجوز حمل ما فى الآية على ما هو أعم من هذين الأمرين . ﴿ قال هؤلاء بناتى ﴾ فتزوجوهن ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ ما عزمتم عليه من فعل الفاحشة بضيفى ، فهؤلاء بناتى تزوجوهن حلالاً ولا تتركبوا الحرام . وقيل : أراد بيناته : نساء قومه ؛ لكون النبى بمنزلة الأب لقومه . وقد تقدم تفسير هذا فى هود : ﴿ لعمر ك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾ العمر والعمر بالفتح والضم واحد ، لكنهم خصوا القسم بالفتوح ؛ لإيثار الأخف فإنه كثير الدور على ألسنتهم . ذكر ذلك الزجاج .

قال القاضى عياض : اتفق أهل التفسير فى هذا أنه قسم من الله ، جل جلاله ، بمدة حياة محمد ﷺ ، وكذا حكى إجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربى ، فقال : قال المفسرون بأجمعهم : أقسم الله تعالى هاهنا بحياة محمد ﷺ تشريقاً له . قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله سبحانه بحياة أحد غير محمد ﷺ ؛ لأنه أكرم البرية عنده . قال ابن العربى : ما الذى يمتنع أن يقسم الله سبحانه بحياة لوط ، ويبلغ به من التشريف ما شاء ، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتى ضعفه من شرف لمحمد ﷺ لأنه أكرم على الله منه ، أو لا تراه سبحانه أعطى إبراهيم الخلة ، وموسى التكليم ، وأعطى ذلك لمحمد ﷺ . فإذا أقسم الله سبحانه بحياة لوط ، فحياة محمد أرفع . قال القرطبى ^(١) : ما قاله حسن ، فإنه يكون قسمه سبحانه بحياة محمد ﷺ كلاماً معترضاً فى قصة لوط . فإن قيل : قد أقسم الله سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين ، ونحو ذلك فما فيهما من فضل ؟ وأجيب بأنه ما من شئ أقسم الله به إلا وفى ذلك دلالة على فضله على جنسه . وذكر صاحب الكشف ^(٢) وأتباعه : أن هذا القسم هو من الملائكة على إرادة القول ، أى قالت الملائكة للوط : لعمر ك ، ثم قال : وقيل : الخطاب لرسول الله ﷺ ، وأنه أقسم بحياته ، وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له . انتهى .

وقد كره كثير من العلماء القسم بغير الله سبحانه وجاءت بذلك الأحاديث الصحيحة فى النهى عن القسم بغير الله ، فليس لعباده أن يقسموا بغيره . وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء : ٢٣] . وقيل : الإقسام منه سبحانه بالتين والزيتون ، وطور سينين ، والنجم ، والضحى ، والشمس ، والليل ، ونحو ذلك هو على حذف مضاف هو المقسم به ، أى وخالق التين ، وكذلك ما بعده . وفى قوله : ﴿ لعمر ك ﴾ أى وخالق عمر ك .

ومعنى ﴿ إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾ : لفى غوايتهم يتحiron ، جعل الغواية ؛ لكونها تذهب بعقل صاحبها كما تذهب به الخمر سكرة . والضمير لقريش . على أن القسم بمحمد

ﷺ ، أو لقوم لوط على أن القسم للرسول عليه السلام . ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ ﴾ العظيمة ، أوصيحة جبريل حال كونهم ﴿ مشرقين ﴾ أى داخلين فى وقت الشروق . يقال : أشرقت الشمس ، أى أضاءت . وشرقت : إذا طلعت . وقيل : هما لغتان بمعنى واحد . وأشرق القوم : إذا دخلوا فى وقت شروق الشمس . وقيل : أراد شروق الفجر . وقيل : أول العذاب كان عند شروق الفجر ، وامتد إلى طلوع الشمس . والصيحة : العذاب ﴿ فجعلنا عاليها سافلها ﴾ أى على المدينة سافلها ﴿ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ من طين متحجر . وقد تقدم الكلام مستوفى على هذا فى سورة هود .

﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فى المذكور من قصتهم ، وبيان ما أصابهم ﴿ لآيات ﴾ : علامات يستدل بها ﴿ للمتوسمين ﴾ : للمتفكرين الناظرين فى الأمر ، ومنه قول زهير :

وفيهن ملهى للصديق ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم

وقال آخر :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى عريفهم يتوسم

وقال أبو عبيدة : للمتبصرين . وقال ثعلب : الواسم : الناظر إليك من قرنك إلى قدمك . والمعنى متقارب . وأصل التوسم : التثبت والتفكر ، مأخوذ من الوسم ، وهو التأثير بحديدة فى جلد البعير . ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ يعنى : قرى قوم لوط ، أو مدينتهم على طريق ثابت ، وهى الطريق من المدينة إلى الشام ، فإن السالك فى هذه الطريق يمر بتلك القرى . ﴿ إن فى ذلك ﴾ المذكور من المدينة أو القرى ﴿ لآية للمؤمنين ﴾ يعتبرون بها ، فإن المؤمنين من العباد هم الذين يعتبرون بما يشاهدونه من الآثار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ قال : استبشروا بأضياف نبي الله لوط حين نزلوا به لما أرادوا أن يأتوا إليهم من المنكر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ أو لم ننهك عن العالمين ﴾ قال : يقولون : أو لم ننهك أن تضيف أحداً ، أو تؤويه ؟ ﴿ قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين ﴾ أمرهم لوط بتزويج النساء ، وأراد أن يقى ^(١) أضيافه ببناته .

وأخرج ابن أبى شيبه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس ، قال : ما خلق الله وما ذراً وما براً نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره ، قال : ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾ يقول : وحياتك يا محمد ، وعمرك ، وبقائك فى الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ لعمرك ﴾ قال : لعيشك . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : ما حلف الله

(١) فى المطبوعة : « يبقى » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

بحياة أحد إلا بحياة محمد ، قال : ﴿ لعمرك ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعي ، قال : كانوا يكرهون أن يقول الرجل : لعمرى ، يروونه كقوله : وحياتي . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة : ﴿ إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ أى فى ضلالهم يلعبون . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الأعمش فى الآية : لفي غفلتهم يترددون .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ : مثل الصاعقة ، وكل شيء أهلك به قوم ، فهو صاعقة وصيحة . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ مشرقين ﴾ قال : حين أشرقت الشمس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن فى ذلك لآية ﴾ قال : علامة ، أما ترى الرجل يرسل خاتمه إلى أهله ، فيقول : هاتوا كذا وكذا . فإذا رأوه ، عرفوا أنه حق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ﴿ للمتوسمين ﴾ قال : للناظرين . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن قتادة ، قال : للمعتبرين . وأخرج ابن جريج وابن المنذر عن مجاهد قال : للمتفرسين . وأخرج البخارى فى التاريخ ، والترمذى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن السنى وأبو نعيم وابن مردويه والخطيب عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ : ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ (١) . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ يقول : لبهلاك . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : لبطريق مقيم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : لبطريق واضح .

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَفْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) ﴾ .

قوله : ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة ﴾ « إن » هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف ، أى وإن الشأن كان أصحاب الأيكة . والأيكة : الغيضة ، وهى جماع الشجر . والجمع : الأيك . ويروى أن شجرهم كان دوماً . وهو المقل ، فالمعنى : وإن كان أصحاب الشجر المجتمع . وقيل : الأيكة : اسم القرية التى كانوا فيها . قال أبو عبيدة :

(١) البخارى فى التاريخ ٧ / ٣٥٤ (١٥٢٩) والترمذى فى التفسير (٣١٢٧) وقال : « هذا حديث غريب » وابن جرير ١٤ / ٣٢ ، وأخرجه أبو نعيم عن ابن عمر ٤ / ٩٤ وقال : « غريب » .

الأيكة ، وليكة : مدينتهم كمكة وبكة . وأصحاب الأيكة : هم قوم شعيب . وقد تقدم خبرهم . واقتصر الله سبحانه هنا على وصفهم بالظلم ، وقد فصل ذلك الظلم فيما سبق ، والضمير فى : ﴿ وإنيهما لإمام مبين ﴾ يرجع إلى مدينة قوم لوط ، ومكان أصحاب الأيكة ، أى وإن المكانين لطريق واضح . والإمام : اسم لما يؤتم به ، ومن جملة ذلك الطريق التى تسلك . قال الفراء والزجاج : سمي الطريق إماماً ؛ لأنه يؤتم ويتبع . وقال ابن قتيبة : لأن المسافر يأتم به حتى يصل إلى الموضع الذى يريده . وقيل : الضمير للأيكة ومدين ؛ لأن شعيباً كان ينسب إليهما .

ثم إن الله سبحانه ختم القصص بقصة ثمود فقال : ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾ الحجر : اسم لديار ثمود . قاله الأزهري ، وهى ما بين مكة وتبوك . وقال ابن جرير : هى أرض بين الحجاز والشام . وقال : ﴿ المرسلين ﴾ ، ولم يرسل إليهم إلا صالح ؛ لأن من كذب واحداً من الرسل ، فقد كذب الباقين لكونهم متفقين فى الدعوة إلى الله . وقيل : كذبوا صالحاً ومن تقدمه من الأنبياء . وقيل : كذبوا صالحاً ، ومن معه من المؤمنين . ﴿ وآتيناهم آياتنا ﴾ أى الآيات المنزلة على نبيهم ، ومن جملتها : الناقة . فإن فيها آيات جمة ، كخروجها من الصخرة ، ودنو نتائجها عند خروجها وعظمتها وكثرة لبنها ﴿ فكانوا عنها معرضين ﴾ أى غير معتبرين ؛ ولهذا عقروا الناقة ، وخالفوا ما أمرهم به نبيهم .

﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا ﴾ النحت فى كلام العرب : البرى والنجر ، نحته ينحته بالكسر نحاً ، أى براه . وفى التنزيل : ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ [الصافات : ٩٥] أى تنجرون . وكانوا يتخذون لأنفسهم من الجبال بيوتا ، أى يخرقونها فى الجبال . وانتصاب ﴿ آمنين ﴾ على الحال . قال الفراء : آمنين من أن يقع عليهم . وقيل : آمنين من الموت . وقيل : من العذاب ركوتاً منهم على قوتها ووثاقتها . ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴾ أى داخلين فى وقت الصبح . وقد تقدم ذكر الصيحة فى الأعراف ، وفى هود ، وتقدم أيضاً قريباً . ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أى لم يدفع عنهم شيئاً من عذاب الله ما كانوا يكسبون من الأموال والحصون فى الجبال .

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ أى متلبسة بالحق وهو ما فيهما من الفوائد والمصالح . وقيل : المراد بالحق : مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليعجزى الذين أساءوا بما عملوا ويعجزى الذين أحسنوا بالحق ﴾ [النجم : ٣١] . وقيل : المراد بالحق : الزوال ؛ لأنها مخلوقة ، وكل مخلوق زائل ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ وعند إتيانها ينتقم الله ممن يستحق العذاب ، ويحسن إلى من يستحق الإحسان . وفيه وعيد للعصاة وتهديد ، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يصفح عن قومه ، فقال : ﴿ فاصفح الصفيح الجميل ﴾ أى تجاوز عنهم واعف عفواً حسناً . وقيل : فأعرض عنهم إعراضاً جميلاً ولا تعجل عليهم ، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم . قيل : وهذا

منسوخ بآية السيف . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ أى الخالق للخلق جميعاً ، العليم بأحوالهم وبالصالح والطالح منهم .

وقد أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : أصحاب الأيكة : هم قوم شعيب ؛ والأيكة : ذات آجام وشجر كانوا فيها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، قال : الأيكة : الغيضة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه ، قال : أصحاب الأيكة : أهل مدين ، والأيكة : الملتفة من الشجر . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : الأيكة : مجمع الشيء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال فى قوله : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مَّبِينٍ ﴾ طريق ظاهر .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة فى أصحاب الحجر قال : أصحاب الوادى . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : كان أصحاب الحجر ثمود وقوم صالح . وأخرج البخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ لأصحاب الحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم » ^(١) . وأخرج ابن مردويه عنه قال : نزل رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من مياه الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، وعجنوا منها ، ونصبوا القدور باللحم ، فأمرهم بإهراق القدور ، وعلفوا العجین الإبل ، ثم ارتحل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، فقال : « إني أخشى أن يصيبكم مثل الذى أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم » . وأخرج ابن مردويه ، عن سبرة بن معبد أن النبى ﷺ قال بالحجر لأصحابه : « من عمل من هذا الماء شيئاً فليلقه » . قال : ومنهم من عجن العجين ، ومنهم من حاس الحيس .

وأخرج ابن مردويه ، وابن النجار عن على فى قوله : ﴿ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ قال : الرضا بغير عتاب . وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : هذه الآية قبل القتال . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة مثله .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ

(١) البخارى فى الصلاة (٤٣٣) وفى المغازى (٤٤١٩ ، ٤٤٢٠) وفى التفسير (٤٧٠٢) ومسلم فى الزهد والرفائق (٢٩٨٠ / ٣٨) والنسائى فى التفسير (٢٩٤) وابن جرير ١٤ / ٣٤ .

أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) .

اختلف أهل العلم فى السبع المثنى ماذا هى ؟ فقال جمهور المفسرين : إنها الفاتحة . قال الواحدى : وأكثر المفسرين على أنها فاتحة الكتاب وهو قول عمر وعلى وابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة والربيع والكلبى . وزاد القرطبى : أبا هريرة وأبا العالية . وزاد النيسابورى : الضحاك وسعيد بن جبير . وقد روى ذلك من قول رسول الله ﷺ كما سيأتى بيانه ، فتعين المصير إليه .

وقيل : هى السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، والسابعة الأنفال والتوبة ؛ لأنهما (١) كسورة واحدة ، إذ ليس بينهما تسمية . روى هذا القول عن ابن عباس .

وقيل : المراد بالمثنى : السبعة الأحزاب ، فإنها سبع صحائف . والمثنى : جمع مثناة من الثنية ، أو جمع مثنية . وقال الزجاج : تشنى بما يقرأ بعدها معها . فعلى القول الأول يكون وجه تسمية الفاتحة مثنى : أنها تشنى ، أى تكرر فى كل صلاة . وعلى القول بأنها السبع الطوال فوجه التسمية : أن العبر والأحكام والحدود كررت فيها . وعلى القول بأنها السبعة الأحزاب يكون وجه التسمية : هو تكرير ما فى القرآن من القصص ونحوها . وقد ذهب إلى أن المراد بالسبع المثنى : القرآن كله : الضحاك وطاوس وأبو مالك وهو رواية عن ابن عباس ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ كتابا متشابها مثنى ﴾ [الزمر : ٢٣] .

وقيل : المراد بالسبع المثنى : أقسام القرآن ، وهى : الأمر ، والنهى ، والتبشير ، والإنذار ، وضرب الأمثال ، وتعريف النعم ، وأنباء قرون ماضية .

قال زياد بن أبى مريم : ولا يخفى عليك أن تسمية الفاتحة مثنى لا تستلزم نفى تسمية غيرها بهذا الاسم . وقد تقرر أنها المرادة بهذه الآية ، فلا يقدح فى ذلك صدق وصف المثنى على غيرها .

﴿ والقرآن العظيم ﴾ معطوف على ﴿ سبعا من المثنى ﴾ ويكون من عطف العام على الخاص ؛ لأن الفاتحة بعض من القرآن . وكذلك إن أريد بالسبع المثنى السبع الطوال ؛ لأنها بعض من القرآن . وأما إذا أريد بها السبعة الأحزاب أو جميع القرآن أو أقسامه ، فيكون من باب عطف أحد الوصفين على الآخر ، كما قيل فى قول الشاعر :

(١) فى المطبوعة : « لأنها » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

إلى الملك القرم وابن الهمام

ومما يقوى كون السبع المثاني هي الفاتحة : أن هذه السورة مكية ، وأكثر السبع الطوال مدنية . وكذلك أكثر القرآن وأكثر أقسامه ، وظاهر قوله : ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني ﴾ أنه قد تقدم إتياء السبع على نزول هذه الآية . و« من » في المثاني للتبويض أو البيان على اختلاف الأقوال . ذكر معنى ذلك الزجاج فقال : هي للتبويض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال ، وللبيان إذا أردت الإشباع .

ثم لما بين لرسوله ﷺ ما أنعم به عليه من هذه النعمة الدينية نفره عن اللذات العاجلة الزائلة ، فقال : ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ﴾ أى لا تطمح ببصرك إلى زخارف الدنيا طموح رغبة فيها وتمن لها . والأزواج : الأصناف ، قاله ابن قتيبة . وقال الجوهري : الأزواج : القرناء . قال الواحدى : إنما يكون ماداً عينيه إلى الشيء : إذا أدام النظر نحوه . وإدامة النظر إليه تدل على استحسانه وتمنيه . وقال بعضهم : معنى الآية : لا تحسدن أحداً على ما أوتى من الدين . ورد بأن الحسد منهى عنه مطلقاً . وإنما قال في هذه السورة : ﴿ لا تمدن ﴾ بغير واو ؛ لأنه لم يسبقه طلب بخلاف ما في سورة طه ، ثم لما نهى عن الالتفات إلى أموالهم وأمتعته ، نهى عن الالتفات إليهم فقال : ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ حيث لم يؤمنوا ، وصمموا على الكفر والعناد . وقيل : المعنى : لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا ، فلك الآخرة . والأول أولى . ثم لما نهى عن أن يمد عينيه إلى أموال الكفار ولا يحزن عليهم ، وكان ذلك يستلزم التهاون بهم وبما معهم ، أمره أن يتواضع للمؤمنين ، فقال : ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ وخفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ واخفض لهما جناح الذل ﴾ [الإسراء : ٢٤] . وقول الكميت :

خففت لهم منى جناحي مودة إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

وأصله : أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه ، بسط جناحه ، ثم قبضه على الفرخ ، فجعل ذلك وصفاً لتواضع الإنسان لأتباعه . ويقال : فلان خافض الجناح ، أى وقور ساكن . والجناحان من ابن آدم جانباه ، ومنه : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ [طه : ٢٢] ، ومنه قول الشاعر :

وحسبك فتنة لزعيم قوم يمد على أخى سُبُم جناحا

﴿ وقل إني أنا النذير المبين ﴾ أى المنذر المظهر لقومه ما يصيبهم من عذاب الله ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ﴾ قيل : المفعول محذوف ، أى مفعول ﴿ أنزلنا ﴾ والتقدير : كما أنزلنا على المقتسمين عذاباً . فيكون المعنى : إني أنا النذير المبين لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين الذى أنزلناه عليهم ، كقوله تعالى : ﴿ أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ [فصلت : ١٣] . وقيل : إن الكاف زائدة ، والتقدير : إني أنا النذير المبين أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين

العذاب . وقيل : هو متعلق بقوله : ﴿ ولقد آتيناك ﴾ أى أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون . والأولى أن يتعلق بقوله : ﴿ إني أنا النذير المبين ﴾ لأنه فى قوة الأمر بالإنذار .

وقد اختلف فى المقتسمين من هم ؟ فقال الفراء : هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم ، فاققسموا أنقاب مكة وفجاجها يقولون لمن دخلها : لا تغتروا بهذا الخارج فينا فإنه مجنون ، وربما قالوا : ساحر ، وربما قالوا : شاعر ، وربما قالوا : كاهن . فقيل لهم : مقتسمين ؛ لأنهم اقتصموا هذه الطرق . وقيل : إنهم قوم من قريش اقتصموا كتاب الله ، فجعلوا بعضه شعراً ، وبعضه سحراً ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين . قال قتادة : وقيل : هم أهل الكتاب ، وسموا مقتسمين ؛ لأنهم كانوا يقتسمون القرآن استهزاء . فيقول بعضهم : هذه السورة لى وهذه لك . روى هذا عن ابن عباس . وقيل : إنهم قسموا كتابهم وفرقوه وبددوه وحرفوه . وقيل : المراد : قوم صالح تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين ، كما قال تعالى : ﴿ تقاسموا بالله لنبيته وأهله ﴾ [النمل : ٤٩] وقيل : تقاسموا أيماناً تحالفوا عليها ، قاله الأخفش . وقيل : إنهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام والنضر بن الحارث وأمّية بن خلف ومنبه بن الحجاج . ذكره الماوردى .

﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ جمع عضه ، وأصلها : عضوة ، فعلة من عضى الشاة : إذا جعلها أجزاء ، فيكون المعنى على هذا : الذين جعلوا القرآن أجزاء متفرقة ، بعضه شعر ، وبعضه سحر ، وبعضه كهانة ، ونحو ذلك . وقيل : هو مأخوذ من عضته : إذا بهته . فالمحذوف منه الهاء لا الواو . وجمعت العضة على المعنيين جمع العقلاء لما لحقها من الحذف ، فجعلوا ذلك عوضاً عما لحقها من الحذف . وقيل : معنى ﴿ عضين ﴾ : إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض . ومما يؤيد أن معنى عضين التفريق ، قول رؤبة :

وليس دين الله بالعضين

أى بالمفروق ، وقيل : العضة والعضين فى لغة قريش : السحر . وهم يقولون للساحر : عاضه ، وللساحرة : عاضهة ، ومنه قول الشاعر :

أعوذ بربى من النافثات فى عقد العاضهة والعضه

وفى الحديث : أن رسول الله ﷺ لعن العاضهة والمستغضهة (١) . وفسر بالساحرة والمستسحرة . والمعنى : أنهم أكثروا البهت على القرآن ، وسموه : سحراً وكذباً وأساطير الأولين . ونظير عضه فى النقصان : شفة . والأصل : شفهة . وكذلك سينة . والأصل : سنية . قال الكسائى : العضة : الكذب والبهتان . وجمعها عضون . وقال الفراء : إنه مأخوذ من

(١) ابن عدى فى الكامل ٣ / ٣٣٩ عن سلمة بن وهرام وهو ضعيف .

العضاء . وهى شجر يؤذى ويجرح كالشوك . ويجوز أن يراد بالقرآن : التوراة والإنجيل لكونهما مما يقرأ ، ويراد بالمقتسمين : هم اليهود والنصارى ، أى جعلوهما أجزاء متفرقة ، وهو أحد الأقوال المتقدمة .

﴿ فوريك لنسألنهم أجمعين ﴾ أى لنسألن هؤلاء الكفرة أجمعين يوم القيامة ﴿ عما كانوا يعملون ﴾ فى الدنيا من الأعمال التى يحاسبون عليها ويسألون عنها . وقيل : إن المراد : سؤالهم عن كلمة التوحيد . والعموم فى : ﴿ عما كانوا يعملون ﴾ يفيد ما هو أوسع من ذلك . وقيل : إن المسؤولين هاهنا : هم جميع المؤمنين والعصاة والكفار . ويدل عليه قوله : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ [التكاثر : ٨] . وقوله : ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ [الصافات : ٢٤] ، وقوله : ﴿ إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم ﴾ [الغاشية : ٢٥ ، ٢٦] ، ويمكن أن يقال : إن قصر هذا السؤال على المذكورين فى السياق وصرف العموم إليهم لا ينافى سؤال غيرهم .

﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ قال الزجاج : يقول : أظهر ما تؤمر به . أخذ من الصديق وهو الصبح . انتهى . وأصل الصدع : الفرق والشق . ويقال : صدعته فانصدع ، أى انشق . وتصدع القوم ، أى تفرقوا . ومنه : ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ [الروم : ٤٣] أى يتفرقون . قال الفراء : أراد فاصدع بالأمر ، أى أظهر دينك . فما مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر . وقال ابن الأعرابى : معنى اصدع بما تؤمر ، أى اقصد . وقيل : فاصدع بما تؤمر ، أى فرق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد ، فإنهم يتفرقون . والأولى أن الصدع الإظهار ، كما قاله الزجاج والفراء وغيرهم . قال النحويون : المعنى بما تؤمر به من الشرائع ، وجوزوا أن تكون مصدرية ، أى بأمرك وشأنك . قال الواحدى : قال المفسرون : أى اجهر بالأمر ، أى بأمرك بعد إظهار الدعوة . وما زال النبى ﷺ مستخفياً حتى نزلت هذه الآية ، ثم أمره سبحانه بعد أمره بالصدع بالإعراض وعدم الالتفات إلى المشركين ، فقال : ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ أى لا تبال بهم ولا تلتفت إليهم إذا لاموك على إظهار الدعوة .

ثم أكد هذا الأمر ، وثبت قلب رسوله بقوله : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ مع كونهم كانوا من أكابر الكفار ، وأهل الشوكة فيهم ، فإذا كفاه الله أمرهم بقمعهم وتدميرهم ، كفاه أمر من هو دونهم بالأولى . وهؤلاء المستهزئون كانوا خمسة من رؤساء أهل مكة : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة^(١) ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن الطلائطلة ، كذا قال القرطبى^(٢) ، ووافقه غيره من المفسرين . وقد أهلكهم الله جميعاً وكفاهم أمرهم فى يوم واحد ، ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال : ﴿ الذين

(١) فى المخطوطة : « الأسود بن المطلب بن الحارث بن زمعة » والصحيح ما أثبتناه من الطبرى والقرطبى وابن كثير .

(٢) القرطبى ٦ / ٣٦٧٨ .

يجعلون مع الله إلهاً آخر ﴿ فلم يكن ذنبهم مجرد الاستهزاء ، بل لهم ذنب آخر وهو الشرك بالله سبحانه ، ثم توعدهم فقال : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ كيف عاقبتهم في الآخرة وما يصيبهم من عقوبة الله سبحانه .

ثم ذكر تسليّة أخرى لرسول الله ﷺ بعد التسليّة الأولى بكفايته شرهم ودفعه لمكرهم ، فقال : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴾ من الأقوال الكفرية المتضمنة للطعن على رسول الله ﷺ بالسحر والجنون والكهانة والكذب . وقد كان يحصل ذلك مع رسول الله ﷺ بمقتضى الجبلّة البشرية والمزاج الإنساني ، ثم أمره سبحانه بأن يفرّج لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله سبحانه وحمده ، فقال : ﴿ فسيح بحمد ربك ﴾ أى متلبساً بحمده ، أى افعل التسبيح المتلبس بالحمد ﴿ وكن من الساجدين ﴾ أى المصلين ، فإنك إذا فعلت ذلك ، كشف الله همك ، وأذهب غمك ، وشرح صدرك . ثم أمره بعبادة ربه ، أى بالدوام عليها إلى غاية هي قوله : ﴿ حتى يأتيك اليقين ﴾ أى الموت . قال الواحدي : قال جماعة المفسرين : يعنى : الموت ؛ لأنه موقن به . قال الزجاج : المعنى : اعبد ربك أبداً ؛ لأنه لو قيل : اعبد ربك بغير توقيت ؛ لجاز إذا عبد الإنسان مرة أن يكون مطيعاً . فإذا قال : حتى يأتيك اليقين ، فقد أمره بالإقامة على العبادة أبداً ما دام حياً .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عمر في قوله : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ قال : السبع المثاني : فاتحة الكتاب . وأخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني وابن مردويه والبيهقي من طرق عن علي بن مثنى . وأخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود مثله ، وزاد : ﴿ والقرآن العظيم ﴾ سائر القرآن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس في الآية ، قال : فاتحة الكتاب استثنائها الله لأمة محمد ، فرفعها في أم الكتاب ، فادخرها لهم حتى أخرجها ولم يعطها أحد قبل . قيل : فأين الآية السابعة ؟ قال : بسم الله الرحمن الرحيم . وروى عنه نحو هذا من طرق ^(١) . وأخرج ابن الضريس وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال : السبع المثاني : فاتحة الكتاب . وأخرج ابن جرير عن أبي بن كعب قال : السبع المثاني : الحمد لله رب العالمين . وروى نحو قول هؤلاء الصحابة عن جماعة من التابعين .

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى أنه قال له النبي ﷺ : « ألا أعلمك أفضل سورة قبل أن أخرج من المسجد ؟ » . فذهب النبي ﷺ ليخرج ، فذكرت ، فقال : « الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم » ^(٢) . وأخرج البخاري أيضاً

(١) ابن جرير ١٤ / ٣٩ والطبراني (١١٧٠٠) وصححه الحاكم ٢ / ٢٥٧ ووافقه الذهبي ، والبيهقي ٢ / ٤٥ وقال

الهيثمي في المجمع ٦ / ٣١٤ : « رواه الطبراني وفيه أبو سعد البقال ، وهو مدلس » .

(٢) البخاري في التفسير (٤٤٧٤ ، ٤٦٤٧ ، ٤٧٠٣) وفي فضائل القرآن (٥٠٠٦) وأبو داود في الصلاة

(١٤٥٨) والنسائي في التفسير (٢٩٥) .

من حديث أبي هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : « أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم » (١). فوجب بهذا المصير إلى القول بأنها فاتحة الكتاب ، ولكن تسميتها بذلك لا ينافي تسمية غيرها به كما قدمنا .

وأخرج ابن مردويه عن عمر ، قال في الآية : هي السبع الطوال . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثله (٢) . وأخرج الفريابي وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال في الآية : هي السبع الطوال (٣) . وأخرج الدارمي وابن مردويه عن أبي بن كعب مثله . وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن مردويه من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس ، قال : هي فاتحة الكتاب والسبع الطوال . وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : ما ثني (٤) من القرآن ، ألم تسمع لقول الله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ (٥) [الزمر : ٢٣] . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : المثاني : القرآن ، يذكر الله القصة الواحدة مراراً . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي عن زياد بن أبي مريم في الآية قال : أعطيتك سبعة أجزاء : مر ، وانه ، ويشر ، وأنذر ، واضرب الأمثال ، واعدد النعم ، واتل نبأ القرآن .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ قال : نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ أزواجاً منهم ﴾ قال : الأغنياء الأمثال والأشباه . وأخرج ابن المنذر عن سفيان بن عيينة قال : من أعطى القرآن فمد عينه إلى شيء مما صغر القرآن ، فقد خالف القرآن ، ألم يسمع إلى قوله : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ ، وإلى قوله : ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ [طه : ١٣١] . وقد فسر ابن عيينة أيضاً الحديث الصحيح : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » (٦) . فقال : إن المعنى : يستغنى به . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله : ﴿ واخضع جناحك ﴾ قال : اخضع .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه من طرق ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ﴾ الآية ،

(١) البخاري في التفسير (٤٧٠٤) . (٢) ابن جرير ١٤ / ٣٧ .

(٣) أبو داود في الصلاة (١٤٥٩) والنسائي في التفسير (٢٩٦) وابن جرير ١٤ / ٣٦ والطبراني (١١٠٣٨)

وصححه الحاكم ٢ / ٣٥٥ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، وزاد نسبه في الدر المنثور ٤ / ١٠٥ للبيهقي ،

وقال الهيثمي في المجمع ٧ / ٤٩٦ : « رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) في المطبوعة : « ماتي » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٥) ابن جرير ١٤ / ٣٩ .

(٦) البخاري في التوحيد (٧٥٢٦) وأبو داود في الصلاة (١٤٧٣) عن أبي هريرة .

قال : هم أهل الكتاب ، جزؤوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه (١) . وأخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عنه قال : عضين : فرقا . وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس ؛ أنها نزلت في نفر من قريش ، كانوا يصدون الناس عن رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة (٢) . وأخرج الترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أنس عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ فوريك لنساءلهم أجمعين . عما كانوا يعملون ﴾ قال : « عن قول : لا إله إلا الله » (٣) . وأخرجه ابن أبي شيبة ، والترمذي وابن جرير وابن المنذر من وجه آخر عن أنس موقوفاً . وأخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر مثله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فامضه . وفي علي بن أبي طلحة مقال معروف . وأخرج ابن جرير عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود ، قال : ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزل : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فخرج هو وأصحابه (٤) . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : هذا أمر من الله لنبية بتبليغ رسالته قومه ، وجميع من أرسل إليه . وأخرج ابن المنذر عنه ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ قال : أعلن بما تؤمر . وأخرج أبو داود في ناسخه ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ قال : نسخه قوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ [التوبة : ٥] .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، وابن مردويه وأبو نعيم ، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ قال : المستهزون : الوليد بن المغيرة ، والأسود ابن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، والحارث بن عيطل السهمي ، والعاص بن وائل ، وذكر قصة هلاكهم (٥) . وقد روى هذا عن جماعة من الصحابة مع زيادة في عددهم ، ونقص على طول في ذلك .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، والحاكم في التاريخ ، وابن مردويه والديلمي عن أبي مسلم الخولاني قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أوحى إلي أن أجمع المال ، وأكن من التاجرين ، ولكن أوحى إلي أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ واعبد ربك حتى يأتيك

(١) البخاري في التفسير (٤٧٠٥) وابن جرير ١٤ / ٤٢ وصححه الحاكم ٢ / ٣٥٥ على شرط الشيخين وقال الذهبي : « أخرجه البخاري » .

(٢) ابن إسحاق ١ / ٣٠٤ والبيهقي في الدلائل ٢ / ٣١٦ .

(٣) الترمذي في التفسير (٣١٢٦) وقال : « هذا حديث غريب » وأبو يعلى (٤٠٥٨) وابن جرير ١٤ / ٤٦ . وإسناده ضعيف لضعف ليث بن أبي سليم .

(٤) ابن جرير ١٤ / ٤٧ .

(٥) قال الهيثمي في المجمع ٧ / ٥٠ : « رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن عبد الحكيم النيسابوري ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » .

اليقين ﴿ ١ ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً مثله . وأخرج ابن مردويه والديلمي عن أبي الدرداء مرفوعاً نحوه . وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق من طريق عبيد الله ابن أبان بن عثمان بن حذيفة بن أوس الطائفي ، قال : حدثني أبان بن عثمان عن أبيه عن جده يرفعه مثل حديث أبي مسلم الخولاني . وأخرج ابن أبي شيبة عن سالم بن عبد الله بن عمر : ﴿ حتى يأتيك اليقين ﴾ قال : الموت . وأخرج ابن المبارك عن الحسن مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله .

(١) الديلمي في الفردوس (٦٢٩٧) . وأبو مسلم الخولاني هو : عبد الله بن ثوب اليماني الزاهد الشامي ، رحل يطلب النبي ﷺ وتوفي النبي وهو في الطريق فلقى أبا بكر الصديق رضي الله عنه . ذكره ابن سعد في الطبقة الثانية من تابعي أهل الشام وقال : « كان ثقة وتوفي في زمن يزيد بن معاوية سنة ٦٢ » .

تفسير سورة النحل

آياتها مائة آية وثمان وعشرون آية ، وهى مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ورواه ابن مردويه عن ابن عباس ، وعن أبى الزبير . وأخرج النحاس من طريق مجاهد عن ابن عباس ، قال : سورة النحل نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها ، فإنهن نزلن بين مكة والمدينة فى منصرف رسول الله ﷺ من أحد ، قيل : وهى قوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ ... ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ فى شأن التمثيل بحمزة وقتلى أحد . وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا ... ﴾ الآية . وقيل : الثالثة : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ... ﴾ إلى قوله : ﴿ بِأَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وتسمى هذه السورة سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١ ﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ٢ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ٤ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٨ وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ٩ ﴾ .

قوله : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أى عقابه للمشركين . وقال جماعة من المفسرين : القيامة . قال الزجاج : هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم ، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه . وقيل : إن المراد بأمر الله : حكمه بذلك ، وقد وقع وأتى . فأما المحكوم به فإنه لم يقع ، لأنه سبحانه حكم بوقوعه فى وقت معين ، فقبل مجىء ذلك الوقت لا يخرج إلى الوجود . وقيل : إن المراد بإتيانه : إتيان مبادئه ومقدماته . ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ نهاهم عن استعجاله ، أى فلا تطلبوا حضوره قبل ذلك الوقت . وقد كان المشركون يستعجلون عذاب الله كما قال النضر بن الحارث : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ... ﴾ الآية [الأنفال : ٣٢] . والمعنى : قرب أمر الله فلا تستعجلوه . وقد كان استعجالهم له على طريقة الاستهزاء من دون استعجال على الحقيقة . وفى نهيمهم عن الاستعجال تهكم بهم . ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يشركون ﴿ أى تنزه وترفع عن إشراكهم ، أو عن أن يكون له شريك . وشركهم ههنا هو ما وقع منهم من استعجال العذاب ، أو قيام الساعة استهزاء وتكديبا . فإنه يتضمن وصفهم له سبحانه بأنه لا يقدر على ذلك ، وأنه عاجز عنه . والعجز وعدم القدرة من صفات المخلوق ، لا من صفات الخالق ، فكان ذلك شركا .

﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره ﴾ قرأ المفضل عن عاصم : « تنزل الملائكة » . والأصل : تنزل ، فالفعل مسند إلى الملائكة . وقرأ الأعمش : « تنزل » على البناء للمفعول ، وقرأ الجعفى عن أبى بكر ، عن عاصم : « تنزل » بالنون ، والفاعل هو الله سبحانه . وقرأ الباقون : ﴿ ينزل الملائكة ﴾ بالياء التحتية ، إلا أن ابن كثير ، وأبا عمرو يسكنان النون ، والفاعل : هو الله سبحانه . ووجه اتصال هذه الجملة بما قبلها : أنه ﷺ لما أخبرهم عن الله أنه قد قرب أمره ، ونهاهم عن الاستعجال ، ترددوا فى الطريق التى علم بها رسول الله ﷺ بذلك ، فأخبر أنه علم بها بالوحى على السن رسل الله سبحانه من ملائكته . والروح : الوحى ، ومثله : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ [غافر : ١٥] وسمى الوحى روحا لأنه يحيى قلوب المؤمنين . فإن من جملة الوحى : القرآن ، وهو نازل من الدين منزلة الروح من الجسد . وقيل : المراد : أرواح الخلائق . وقيل : الروح : الرحمة . وقيل : الهداية ، لأنها تحيا بها القلوب ، كما تحيا الأبدان بالأرواح . قال الزجاج : الروح ما كان فيه من الله حياة بالإرشاد إلى أمره . وقال أبو عبيد : الروح هنا جبريل . وتكون الباء على هذا بمعنى مع . و«من» فى : ﴿ من أمره ﴾ بيانية ، أى بأشيء ، أو مبتدئا من أمره ، أو صفة للروح ، أو متعلق بـ ﴿ ينزل ﴾ ومعنى ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ : على من اختصه بذلك ، وهم الأنبياء ﴿ أن أنذروا ﴾ . قال الزجاج : ﴿ أن أنذروا ﴾ بدل من الروح ، أى ينزلهم بأن أنذروا . و«أن» إما مفسرة لأن تنزل الوحى فيه معنى القول ، وإما مخففة من الثقيلة ، وضمير الشأن مقدر ، أى بأن الشأن أقول لكم أنذروا ، أى أعلموا الناس ﴿ أنه لا إله إلا أنا ﴾ أى مروهم بتوحيدي ، وأعلموهم ذلك مع تخويفهم ، لأن فى الإنذار تخويفا وتهديدا . والضمير فى أنه للشأن . ﴿ فاتقون ﴾ الخطاب للمستعجلين على طريق الالتفات (١) . وهو تحذير لهم من الشرك بالله .

ثم إن الله سبحانه لما أرشدهم إلى توحيده ، ذكر دلائل التوحيد فقال : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أى أوجدهما على هذه الصفة التى هما عليها بالحق ، أى للدلالة على قدرته ووحدانيته . وقيل : المراد بالحق هنا : الفناء والزوال . ﴿ تعالى ﴾ الله ﴿ عما يشركون ﴾ أى ترفع وتقدس عن إشراكهم ، أو عن شركة الذى يجعلونه شريكا له .

ثم لما كان نوع الإنسان أشرف أنواع المخلوقات السفلية ، قدمه وخصه بالذكر ، فقال : ﴿ خلق الإنسان ﴾ وهو اسم لجنس هذا النوع ﴿ من نطفة ﴾ من جماد يخرج من حيوان ، وهو المنى ،

(١) فى المطبوعة : « التفات » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

فنقله أطوارا إلى أن كملت صورته ، ونفخ فيه الروح ، وأخرجه من بطن أمه إلى هذه الدار فعاش فيها ﴿ فإذا هو ﴾ بعد خلقه على هذه الصفة ﴿ خصيم ﴾ أى كثير الخصومة والمجادلة . والمعنى : أنه كالمخاصم لله سبحانه فى قدرته . ومعنى : ﴿ مبین ﴾ : ظاهر الخصومة واضحا . وقيل : يبين عن نفسه ما يخاصم به من الباطل . والمبين : هو المفصح عما فى ضميره بمنطقه . ومثله قوله تعالى : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ [يس : ٧٧] .

ثم عقب ذكر خلق الإنسان بخلق الأنعام لما فيها من النفع لهذا النوع . فالامتنان بها أكمل من الامتنان بغيرها ، فقال : ﴿ والأنعام خلقها لكم ﴾ وهى : الإبل ، والبقر ، والغنم . وأكثر ما يقال : نعم وأنعام للإبل . ويقال للمجموع . ولا يقال للغنم مفردة . ومنه قول حسان :

وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء

فعطف الشاء على النعم ، وهى هنا الإبل خاصة . قال الجوهري : والنعم : واحد الأنعام . وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل . ثم لما أخبر سبحانه بأنه خلقها لبنى آدم ، بين المنفعة التى فيها لهم فقال : ﴿ فيها دفء ﴾ الدفء : السخانة ، وهو ما استدفع به من أصوافها وأوبارها وأشعارها . والجملة فى محل نصب على الحال . ﴿ ومنافع ﴾ معطوف على ﴿ دفء ﴾ وهى : درها وركوبها ونتاجها ، والحراثة بها ، ونحو ذلك . وقد قيل : إن الدفء : التناج واللبن . قال فى الصحاح : الدفء نتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها ، ثم قال : والدفء أيضا : السخونة ، وعلى هذا فإن أريد بالدفء المعنى الأول ، فلا بد من حمل المنافع على ما عداه مما ينتفع به منها . وإن حمل على المعنى الثانى ، كان تفسير المنافع بما ذكرناه واضحا . وقيل : المراد بالمنافع : التناج خاصة . وقيل : الركوب . ﴿ ومنها تأكلون ﴾ أى من لحومها وشحومها . وخص هذه المنفعة بالذكر مع دخولها تحت المنافع لأنها أعظمها . وقيل : خصها لأن الانتفاع بلحمها وشحومها تعدم عندها بخلاف غيره من المنافع التى فيها ، وتقديم الظرف المؤذن بالاختصاص للإشارة إلى أن الأكل منها هو الأصل ، وغيره نادر .

﴿ ولكم فيها جمال ﴾ أى لكم فيها مع ما تقدم ذكره جمال . والجمال : ما يتجمل به ويتزين . والجمال : الحسن . والمعنى هنا : لكم فيها تجمل وتزين عند الناظرين إليها ﴿ حين تريحون وحين تسرحون ﴾ أى فى هذين الوقتين ، وهما وقت ردها من مراعيها ، ووقت تسريحها إليها . فالرواح رجوعها بالعشى من المراعى . والسراح : مسيرها إلى مراعيها بالغداة . يقال : سرحت الإبل أسرحها سرحا وسروحا إذا غدوت بها إلى المرعى ، وقدم الإراحة على التسريح لأن منظرها عند الإراحة أجمل ، وذواتها أحسن لكونها فى تلك الحالة قد نالت حاجتها من الأكل والشرب ، فعظمت بطونها ، وانتفخت ضروعها . وخص هذين الوقتين لأنهما وقت نظر الناظرين إليها ، لأنها عند استقرارها فى الحظائر لا يراها أحد . وعند كونها فى مراعيها هى متفرقة غير مجتمعة كل واحد منها يرمى فى جانب .

﴿ وتحمّل أثقالكم ﴾ الأثقال : جمع ثقل ، وهو متاع المسافر من طعام وغيره ، وسمى ثقلاً لأنه يثقل الإنسان حمله . وقيل : المراد : أبدانهم ﴿ إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴾ أى لم تكونوا واصلين إليه لو لم يكن معكم إبل تحمل أثقالكم إلا بشق الأنفس ، لبعده عنكم ، وعدم وجود ما يحمل ما لا بد لكم منه فى السفر . وظاهره يتناول كل بلد بعيدة من غير تعيين . وقيل : المراد بالبلد : مكة . وقيل : اليمن ومصر والشام ، لأنها متاجر العرب ﴿ وشق الأنفس ﴾ : مشقتها . قرأ الجمهور بكسر الشين ، وقرأ أبو جعفر بفتحها . قال الجوهري : والشق : المشقة . ومنه قوله : ﴿ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴾ وحكى أبو عبيدة بفتح الشين . وهما بمعنى ، ويجوز أن يكون المفتوح مصدرا من شققت عليه أشق شقا . والمكسور بمعنى : النصف . يقال : أخذت شق الشاة ، وشقة الشاة . ويكون المعنى على هذا فى الآية : لم تكونوا بالغيه إلا بذهاب نصف الأنفس من التعب . وقد امتن الله سبحانه على عباده بخلق الأنعام على العموم ، ثم خص الإبل بالذكر لما فيها من نعمة حمل الأثقال دون البقر والغنم . والاستثناء من أعم العام ، أى لم تكونوا بالغيه بشيء من الأشياء إلا بشق الأنفس .

﴿ والخيل والبغال والحمير ﴾ بالنصب عطفًا على الأنعام ، أى وخلق لكم هذه الثلاثة الأصناف . وقرأ ابن أبى عبة بالرفع فيها كلها . وسميت الخيل خيلا لاختيالها فى مشيها ، ووحد الخيل : خائل . كضائن واحد الضأن . وقيل : لا واحد له . ثم علل سبحانه خلق هذه الثلاثة الأنواع بقوله : ﴿ لتركبوها ﴾ وهذه العلة هى باعتبار معظم منافعتها ، لأن الانتفاع بها فى غير الركوب معلوم كالتحميل عليها ، وعطف ﴿ زينة ﴾ على محل ﴿ لتركبوها ﴾ لأنه فى محل نصب على أنه علة لخلقها . ولم يقل : لتزينوا بها ، حتى يطابق ﴿ لتركبوها ﴾ ، لأن الركوب : فعل المخاطبين ، والزينة : فعل الزائن وهو الخالق . والتحقيق فيه : أن الركوب هو الاعتبار فى المقصود ، بخلاف الزينة ، فإنه لا يلتفت إليه أهل الهمم العالية ، لأنه يورث العجب . فكأنه سبحانه قال : خلقها لتركبوها ، فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الإعياء والمشقة . وأما التزين بها فهو حاصل فى نفس الأمر ، ولكنه غير مقصود بالذات .

وقد استدل بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل ، قائلين بأن التعليل بالركوب يدل على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها . قالوا : ويؤيد ذلك أفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر ، وإخراجها عن الأنعام ، فيفيد ذلك اتحاد حكمها فى تحريم الأكل . قالوا : ولو كان أكل الخيل جائزا ، لكان ذكره والامتنان به أولى من ذكر الركوب ، لأنه أعظم فائدة منه . وقد ذهب إلى هذا مالك ، وأبو حنيفة ، وأصحابهما ، والأوزاعى ومجاهد ، وأبو عبيد وغيرهم . وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين وغيرهم إلى حل لحوم الخيل . ولا حجة لأهل القول الأول فى التعليل بقوله : ﴿ لتركبوها ﴾ لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعتها لا ينافى غيره . ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ، ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب .

وأيضا لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل ، لدلت على تحريم الحمر الأهلية . وحيث لا يكون ثم حاجة لتحديد التحريم لها عام خبير . وقد قدمنا أن هذه السورة مكية .

والحاصل : أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل . فلو سلمنا أن في هذه الآية متمسكا للقائلين بالتحريم ، لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال ، ودافعة لهذا الاستدلال . وقد أوضحنا هذه المسألة في مؤلفاتنا بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره .

﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ أى يخلق ما لا يحيط علمكم به من المخلوقات غير ما قد عدده ههنا . وقيل : المراد: من أنواع الحشرات والهوام فى أسافل الأرض ، وفى البحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به . وقيل : هو ما أعد الله لعباده فى الجنة وفى النار مما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولا خطر على قلب بشر . وقيل : هو خلق السوس فى النبات ، والدود فى الفواكه . وقيل : عين تحت العرش . وقيل : نهر من النور . وقيل : أرض بيضاء . ولا وجه للاقتصار فى تفسير هذه الآية على نوع من هذه الأنواع ، بل المراد : أنه سبحانه يخلق ما لا يعلم به العباد ، فيشمل كل شيء لا يحيط علمهم به . والتعبير هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة ، لأنه سبحانه قد خلق ما لا يعلم به العباد .

﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ : القصد : مصدر بمعنى الفاعل ، فالمعنى : وعلى الله قاصد السبيل ، أى هداية قاصد الطريق المستقيم بموجب وعده المحتوم وتفضله الواسع . وقيل : هو على حذف مضاف ، والتقدير : وعلى الله بيان قصد السبيل . والسبيل : الإسلام . وبيانه بإرسال الرسل ، وإقامة الحجج والبراهين . والقصد فى السبيل هو كونه موصلا إلى المطلوب ، فالمعنى : وعلى الله بيان الطريق الموصل إلى المطلوب . ﴿ ومنها جائر ﴾ الضمير فى : ﴿ منها ﴾ راجع إلى السبيل بمعنى : الطريق ، لأنها تذكر وتؤنث . وقيل : راجع إليها بتقدير مضاف ، أى ومن جنس السبيل جائر مائل عن الحق عادل عنه ، فلا يهتدى به . ومنه قول امرئ القيس :

ومن الطريقة جائر وهدى قصد السبيل ومنه ذو دخل

وقيل : إن الطريق كناية عن صاحبها ، والمعنى : ومنهم جائر عن سبيل الحق ، أى عادل عنه ، فلا يهتدى إليه . قيل : وهم أهل الأهواء المختلفة . وقيل : أهل الملل الكفرية . وفى مصحف عبد الله : « ومنكم جائر » . وكذا قرأ على . ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ أى ولو شاء أن يهديكم جميعا إلى الطريق الصحيح والمنهج الحق لفعل ذلك ، ولكنه لم يشأ ، بل اقتضت مشيئته سبحانه إراءة الطريق ، والدلالة عليها ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : ١٠] . وأما الإيصال إليها بالفعل ، فذلك يستلزم ألا يوجد فى العباد كافر ، ولا من يستحق النار من المسلمين . وقد اقتضت المشيئة الربانية أنه يكون البعض مؤمنا ، والبعض كافرا كما نطق بذلك القرآن فى غير موضع .

وقد أخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس ، قال : لما نزل : ﴿ أتى أمر الله ﴾ ذعر أصحاب

رسول الله ﷺ حتى نزلت: ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ فسكنوا . وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي بكر بن حفص ، قال : لما نزلت : ﴿ أتى أمر الله ﴾ قاموا ، فنزلت : ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ (١) . وأخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس : ﴿ أتى أمر الله ﴾ قال : خروج محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ أتى أمر الله ﴾ قال رجال من المنافقين بعضهم لبعض : إن هذا يزعم أن أمر الله أتى ، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن . فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا : ما نراه نزل شيء فنزلت : ﴿ اقرب للناس حسابهم ﴾ [الأنبياء : ١] فقالوا : إن هذا يزعم مثلها أيضا . فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا : ما نراه نزل شيء . فنزلت : ﴿ ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة . . الآية [هود : ٨] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ أتى أمر الله ﴾ قال : الأحكام والحدود والفرائض .

وأخرج هؤلاء عن ابن عباس في قوله : ﴿ ينزل الملائكة بالروح ﴾ قال : بالوحي . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي عنه قال : الروح أمر من أمر الله ، وخلق من خلق الله ، وصورهم على صورة بنى آدم . وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح . ثم تلا : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ﴾ [النبأ : ٣٨] . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن : ﴿ ينزل الملائكة بالروح ﴾ قال : القرآن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لكم فيها دفء ﴾ قال : الثياب ﴿ ومنافع ﴾ قال : ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا ، قال : نسل كل دابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله : ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد ﴾ يعني : مكة . ﴿ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴾ قال : لو تكلفتموه ، لم تطيقوه إلا بجهد شديد .

وقد ورد في حل أكل لحوم الخيل أحاديث ، منها في الصحيحين وغيرهما من حديث أسماء ، قالت : نحرنا فرسا على عهد رسول الله ﷺ فأكلناه (٢) . وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة ، والترمذي وصححه ، والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن جابر قال : أطعنا رسول الله ﷺ لحوم الخيل ، ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية (٣) . وأخرج أبو داود نحوه من حديثه أيضا . وهما على شرط مسلم (٤) . وثبت أيضا في الصحيحين من حديث جابر ،

(١) ابن جرير ٥٢/١٤ والواحدى في أسباب النزول ص ١٥٩ بدون سند .

(٢) البخارى في الذبائح والصيد (٥٥١٩) ومسلم في الصيد والذبائح (٣٨/١٩٤٢) والدارقطنى فى الصيد والذبائح (٧٦) .

(٣) الترمذى فى الأطعمة (١٧٩٣) وقال : « حسن صحيح » والنسائى ٢٠٥/٧ .

(٤) أبو داود فى الأطعمة (٣٧٨٨ ، ٣٧٨٩) .

قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في الخيل^(١) وأما ما أخرجه أبو عبيد ، وأبو داود ، والنسائي من حديث خالد بن الوليد ، قال : نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذى ناب من السباع ، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير^(٢) ، ففي إسناده صالح بن يحيى بن أبى المقدام ، وفيه مقال . ولو فرضنا أن الحديث صحيح، لم يقو على معارضة أحاديث الحل ، على أنه يكون أن هذا الحديث المصرح بالتحريم متقدم على يوم خيبر ، فيكون منسوخا .

وأخرج الخطيب وابن عساكر قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال : « البراذين » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ما خلق الله أرضا من لؤلؤة بيضاء » . ثم ساق من أوصافها ما يدل على أن الحديث موضوع . ثم قال فى آخره : فذلك قوله : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ يقول : على الله أن يبين الهدى والضلالة . ﴿ ومنها جائر ﴾ قال : السبل المتفرقة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ قال : على الله بيان حلاله ، وحرامه ، وطاعته ، ومعصيته . ﴿ ومنها جائر ﴾ قال : من السبل ناكب عن الحق . قال : وفى قراءة ابن مسعود : « ومنكم جائر » . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن الأبارى فى المصاحف عن على أنه كان يقرأ هذه الآية : « ومنكم جائر » .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُبْتِ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا ثَلَبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) ﴾ .

(١) البخارى فى الذبائح والصيد (٥٥٢٠) ومسلم فى الصيد والذبائح (٣٦/١٩٤١) .

(٢) أبو داود فى الاطعمة (٣٧٩٠) والنسائي ٢٠٢/٧ .

لما استدل سبحانه على وجوده وكمال قدرته وبديع صنعته بعجائب أحوال الحيوانات ، أراد أن يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب أحوال النبات فقال : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ﴾ أى من جهة السماء ، وهى السحاب . ﴿ ماء ﴾ أى نوعاً من أنواع الماء ، وهو المطر ﴿ لكم منه شراب ﴾ يجوز أن يتعلق ﴿ لكم ﴾ بـ ﴿ أنزل ﴾ ، أو هو خبر مقدم ، وشراب مبتدأ مؤخر . والجملة : صفة لماء ، ﴿ ومنه ﴾ فى محل نصب على الحال . والشراب : اسم لما يشرب كالطعام لما يطعم ، والمعنى : أن الماء النازل من السماء قسمان : قسم يشربه الناس ، ومن جملة ماء الآبار والعيون ، فإنه من المطر لقوله : ﴿ فسلكه ينابيع فى الأرض ﴾ [الزمر : ٢١] . وقسم يحصل منه شجر ترعاه المواشى . قال الزجاج : كل ما ينبت من الأرض فهو شجر ، لأن التركيب يدل على الاختلاط . ومنه تشاجر القوم إذا اختلط أصوات بعضهم البعض . ومعنى الاختلاط حاصل فى العشب والكلأ ، وفيما له ساق . وقال ابن قتيبة : المراد من الشجر فى الآية : الكلأ . وقيل : الشجر : كل ما له ساق كقوله تعالى : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ [الرحمن : ٦] والعطف يقتضى التغاير . فلما كان النجم مالا ساق له ، وجب أن يكون الشجر ما له ساق . وأجيب : بأن عطف الجنس على النوع جائز ﴿ فيه تسيمون ﴾ أى فى الشجر ترعون مواشيكم . يقال : سامت السائمة تسوم سوما رعت فهى سائمة . وأسمتها ، أى أخرجتها إلى الرعى ، فأنا مسيم وهى مسامة وسائمة . وأصل السوم : الإبعاد فى الرعى . قال الزجاج : أخذ من السومة ، وهى العلامة ، لأنها تؤثر فى الأرض علامات برعيها .

﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم : « نبت بالنون ، وقرأ الباقون بالياء التحتية ، أى ينبت الله لكم بذلك الماء الذى أنزله من السماء ، وقدم الزرع لأنه أصل الأغذية التى يعيش بها الناس ، وأنبعه بالزيتون لكونه فاكهة من وجه وإداما من وجه لكثرة ما فيه من الدهن . وهو جمع زيتونة . ويقال : للشجرة نفسها : زيتونة . ثم ذكر النخيل لكونه غذاء وفاكهة ، وهو مع العنب أشرف الفواكه . وجمع الأعناب لاشتغالها على الأصناف المختلفة ، ثم أشار إلى سائر الثمرات فقال : ﴿ ومن كل الثمرات ﴾ كما أجمل الحيوانات التى لم يذكرها فيما سبق بقوله : ﴿ ويخلق مالا تعلمون ﴾ وقرأ أبى بن كعب : « ينبت لكم به الزرع » يرفع الزرع وما بعده . ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى الإنزال والإنبات ﴿ لآية ﴾ عظيمة دالة على كمال القدرة والتفرد بالربوبية ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فى مخلوقات الله ولا يهتمون النظر فى مصنوعاته .

﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ معنى تسخيرهما للناس : تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم وتستدعيه حاجاتهم يتعاقبان دائما ، كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمره به ولا يخرج عن إرادته ، ولا يهمل السعى فى نفعه . وكذا الكلام فى تسخير الشمس والقمر والنجوم ، فإنها تجرى على نمط متحد يستدل بها العباد على مقادير الأوقات ، ويهتدون بها ، ويعرفون أجزاء الزمان . ومعنى مسخرات : مذلات . وقرأ ابن عامر وأهل الشام : « والشمس

والقمر والنجوم مسخرات « بالرفع على الابتداء والخبر ، وقرأ الباقون بالنصب عطفًا على ﴿ الليل والنهار ﴾ وقرأ حفص عن عاصم برفع ﴿ النجوم ﴾ على أنه مبتدأ، وخبره ﴿ مسخرات بأمره ﴾ . وعلى قراءة النصب في مسخرات يكون حالًا مؤكدة، لأن التسخير قد فهم من قوله: ﴿ وسخر ﴾ وقرأ حفص في رواية برفع مسخرات ، مع نصب ما قبله على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هى مسخرات ، ﴿ إن فى ذلك ﴾ التسخير ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ أى يعملون عقولهم فى هذه الآثار الدالة على وجود الصانع وتفرد ، عدم وجود شريك له . وذكر الآيات لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة ، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة . وجمعها ليطابق قوله : ﴿ مسخرات ﴾ . وقيل : إن وجه الجمع هو أن كلا من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آية فى نفسها ، بخلاف ما تقدم من الإنبات ، فإنه آية واحدة . ولا يخلو كل هذا عن تكلف . والأولى أن يقال : إن هذه المواضع الثلاثة التى أفرد الآية فى بعضها وجمعها فى بعضها كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار ، وللإفراد باعتبار ، فلم يجرها على طريقة واحدة افتنانًا وتنبهًا على جواز الأمرين وحسن كل واحد منهما .

﴿ وما ذرأ لكم فى الأرض ﴾ أى خلق . يقال : ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءًا : خلقهم ، فهو ذارئ . ومنه الذرية ، وهى : نسل الثقلين . وقد تقدم تحقيق هذا . وهو معطوف على النجوم رفعا ونصبا ، أى وسخر لكم ما ذرأ فى الأرض . فالمعنى : أنه سبحانه سخر لهم تلك المخلوقات السماوية والمخلوقات الأرضية . وانتصاب ﴿ مختلفا ألوانه ﴾ على الحال . و﴿ ألوانه ﴾ : هيئاته ومناظره . فإن ذرء هذه الأشياء على اختلاف الألوان والأشكال مع تساوى الكل فى الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه وتفرد . ﴿ إن فى ذلك ﴾ التسخير لهذه الأمور ، ﴿ لآية ﴾ واضحة ﴿ لقوم يذكرون ﴾ فإن من تذكر اعتبر . ومن اعتبر ، استدل على المطلوب . قيل : وإنما خص المقام الأول بالتفكر لإمكان إيراد الشبهة المذكورة . وخص المقام الثانى بالعقل لذكره بعد إمطة الشبهة ، وإراحة العلة . فمن لم يعترف بعدها بالوحدانية فلا عقل له . وخص المقام الثالث بالتذكر لمزيد الدلالة . فمن شك بعد ذلك ، فلا حس له . وفى هذا من التكلف مالا يخفى . والأولى : أن يقال هنا كما قلنا فيما تقدم فى إفراد الآية فى البعض ، وجمعها فى البعض الآخر . وبيانه أن كلا من هذه المواضع الثلاثة يصلح لذكر التفكير ، ولذكر التعقل ، ولذكر التذكر ، لاعتبارات ظاهرة غير خفية . فكان فى التعبير فى كل موضع بواحد منها افتنان حسن لا يوجد فى التعبير بواحد منها فى جميع المواضع الثلاثة .

﴿ وهو الذى سخر البحر ﴾ امتن الله سبحانه بتسخير البحر بإمكان الركوب عليه ، واستخراج ما فيه من صيد وجواهر ؛ لكونه من جملة النعم التى أنعم الله بها على عباده مع ما فيه من الدلالة على وحدانية الرب سبحانه ، وكمال قدرته . وقد جمع الله سبحانه لعباده فى هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية والسماوية والبحرية . فأرشدهم إلى النظر والاستدلال بالآيات المتنوعة المختلفة الأمكنة إتماما للحجة ، وتكميلا للإنذار ، وتوضيحا لمنازع الاستدلال ، ومناطات البرهان ، ومواضع النظر والاعتبار ، ثم ذكر العلة فى تسخير البحر فقال : ﴿ لتأكلوا

منه لحما طريا ﴿ المراد به : السمك ، ووصفه بالطراوة للإشعار بلطافته ، والإرشاد إلى المسارعة بأكله لكونه مما يفسد بسرعة . ﴾ وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴿ أى لؤلؤا ومرجانا كما فى قوله سبحانه : ﴾ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴿ [الرحمن : ٢٢] وظاهر قوله : ﴾ تلبسونها ﴿ أى يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان ، أى يجعلونه حلية لهم ، كما يجوز للنساء . ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين فى تأويل قوله : ﴾ تلبسونها ﴿ بقوله : تلبسه نساؤهم ، لأنهن من جملتهم ، أو لكونهن يلبسنها لأجلهم . وليس فى الشريعة المطهرة ما يقتضى منع الرجال من التحلى باللؤلؤ والمرجان ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة ، فإن ذلك ممنوع من جهة كونه تشبها بهن . وقد ورد الشرع بمنعه لا من جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجان .

﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ أى ترى السفن شواق للماء تدفعه بصدورها . ومخر السفينة : شقها الماء بصدورها . قال الجوهري : مخر السابح : إذا شق الماء بصدوره . ومخر الأرض : شقها للزراعة . وقيل : مواخر : جوارى . وقيل : معترضة . وقيل : تذهب وتجيء . وقيل : ملججة . قال ابن جرير : المخر فى اللغة : صوت هبوب الريح . ولم يقيد بكونه فى ماء ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ معطوف على ﴿ تستخرجوا ﴾ وما بينهما اعتراض ، أو على علة محذوفة تقديره : لتتفعوا بذلك ولتبتغوا ، أو على تقدير فعل ذلك لتبتغوا ، أى لتتجروا فيه ، فيحصل لكم الريح من فضل الله سبحانه ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أى إذا وجدتم فضله عليكم وإحسانه إليكم ، اعترفتم بنعمته عليكم ، فشكرتم ذلك باللسان والأركان . قيل : ولعل وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث إن فيها قطعاً لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة من غير مزاولة أسباب السفر ، بل من غير حركة أصلاً مع أنها فى تضاعيف المهالك . ويمكن أن يضم إلى ما ذكر من قطع المسافة على الصفة المذكورة ما اشتمل عليه البحر من كون فيه أطيب مأكول وأنفس ملبوس ، وكثرة النعم مع نفاستها وحسن موقعها من أعظم الأسباب المستدعية للشكر الموجبة له .

ثم أردف هذه النعم الموجبة للتوحيد ، المفيدة للاستدلال على المطلوب بنعمة أخرى وآية كبرى ، فقال : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى ﴾ أى جبالا ثابتة . يقال : رسا يرسو : إذا ثبت وأقام . قال الشاعر :

فصبرت عارفة لذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

﴿ أن تميد بكم ﴾ أى كراهة أن تميد بكم على ما قاله البصريون ، أو لثلا تميد بكم على ما قاله الكوفيون . والميد : الاضطراب يمينا وشمالا ، ماد الشيء يميد ميذا ، تحرك ، ومادت الأغصان : تمايلت ، وماد الرجل : تبخر ﴿ وأنهارا ﴾ أى وجعل فيها أنهارا ، لأن الإلقاء ههنا بمعنى الجعل والخلق ، كقوله : ﴿ وألقى عليك محبة منى ﴾ [طه : ٣٩] . ﴿ وسبلا ﴾ . أى وجعل فيها سبلا وأظهرها وبينها لأجل تهتدون بها فى أسفاركم إلى مقاصدكم . والسبل :

الطرق . ﴿وعلامات﴾ أى وجعل فيها علامات ، وهى معالم الطرق ، والمعنى : أنه سبحانه جعل للطرق علامات يهتدون بها ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ المراد بالنجم : الجنس ، أى يهتدون به فى سفرهم ليلا . وقرأ ابن وثاب : « وبالنجم » بضم النون والجيم ، ومراده : النجوم ، فقصره ، أو هو جمع نجم كسقف وسقف . وقيل : المراد بالنجم هنا : الجدى ، والفرقدان . قاله الفراء . وقيل : الثريا . وقيل : العلامات : الجبال . وقيل : هى النجوم . لأن من النجوم ما يهتدى به . ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها . وذهب الجمهور إلى أن المراد فى الآية : الاهتداء فى الأسفار . وقيل : هو الاهتداء إلى القبلة . ولا مانع من حمل ما فى الآية على ما هو أعم من ذلك . قال الأخفش : تم الكلام عند قوله : ﴿وعلامات﴾ وقوله : ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ كلام منفصل عن الأول . ثم لما عدد الآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته ، أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد ، فقال : ﴿أفمن يخلق﴾ هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هذه الأفاعيل العجيبة ﴿كمن لا يخلق﴾ شيئا منها ولا يقدر على إيجاد واحد منها ، وهو هذه الأصنام التى تعبدونها وتجعلونها شركاء لله سبحانه . وأطلق عليها لفظ : « من » إجراء لها مجرى أولى العلم جريا على رعمهم بأنها آلهة ، أو مشاكلة لقوله : ﴿أفمن يخلق﴾ لوقوعها فى صحبته . وفى هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ للكفار ما لا يخفى . وما أحقهم بذلك . فإنهم جعلوا بعض المخلوقات شريكا لخالقه تعالى الله عما يشركون . ﴿أفلا تذكرون﴾ مخلوقات الله الدالة على وجوده وتفرد بالربوبية وبديع صنعته ، فتستدلون بها على ذلك ، فإنها لوضوحها يكفى فى الاستدلال بها مجرد التذكر لها .

ثم لما فرغ من تعديد الآيات ، التى هى بالنسبة إلى المكلفين نعم ، قال : ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ . وقد مر تفسير هذا فى سورة إبراهيم .

قال العقلاء : إن كل جزء من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدنى خلل وأيسر نقص ، لنقص النعم على الإنسان . وتغنى أن ينطق الدنيا لو كانت فى ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل . فهو سبحانه يدير بدن هذا الإنسان على الوجه الملائم له ، مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك ، فكيف يطيق حصر بعض نعم الله عليه ؟ أو يقدر على إحصائها ، أو يتمكن من شكر أداها . يا ربنا هذه نواصينا بيدك ، خاضعة لعظيم نعمك ، معترفة بالعجز عن بادية الشكر لشيء منها ، لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، ولا نطيق التعبير بالشكر لك ، فتجاوز عنا ، واغفر لنا ، واسبل ذبول سترك على عوراتنا ، فإنك إن لا تفعل ذلك ، نهلك بمجرد التقصير فى شكر نعمك ، فكيف بما قد فرط منا من التساهل فى الائتمار بأوامرك ، والانتهاز عن مناهيك . وما أحسن ما قال من قال :

العفو يرجى من بنى آدم فكيف لا يرجى من الرب

فقلت مذيلا لهذا البيت الذى هو قصر مشيد :

فإنه أرأف بى منهم حسبى به حسبى به حسبى

وما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذى لا يلتبس على إنسان مشيرا إلى عظيم غفرانه وسعة رحمته ، فقال : ﴿ إن الله لغفور رحيم ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة ، لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه ، والقصور عن إحصائها ، والعجز عن القيام بأدائها . ومن رحمته إدامتها عليكم وإدارها فى كل لحظة ، وعند كل نفس تتنفسونه وحركة تتحركون بها . اللهم إنى أشكرك عدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان فى كل زمان ، وعدد ما سيسكرك الشاكرون بكل لسان فى كل زمان ، فقد خصصتنى بنعم لم أرها على كثير من خلقك ، وإن رأيت منها شيئا على بعض خلقك ، لم أر عليه بقيتها ، فأنى أطيق شكرك ، وكيف أستطيع تأدية (١) أدنى شكر أدناها ، فكيف أستطيع أعلاها ؟ فكيف أستطيع شكر نوع من أنواعها ؟

ثم بين لعباده بأنه عالم بجميع ما يصدر منهم ، لا تخفى عليه منهم خافية ، فقال : ﴿ والله يعلم ما تسرون ﴾ أى تضمرونه من الأمور ﴿ وما تعلنون ﴾ أى تظهرونه منها . وفيه وعيد وتعريض وتوبيخ ، وتنبيه على أن الإله يجب أن يكون عالما بالسر والعلانية ، لا كالأصنام التى يعبدونها ، فإنها جمادات لا شعور لها بشيء من الظواهر ، فضلا عن السرائر ، فكيف يعبدونها ؟

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وما ذرأ لكم فى الأرض ﴾ . قال : ما خلق لكم فى الأرض مختلفا من الدواب والشجر والثمار ، نعم من الله متظاهرة ، فاشكروها لله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ لتأكلوا منه لحما طريا ﴾ يعنى : حيتان البحر . ﴿ وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾ قال : هذا اللؤلؤ . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ﴾ قال : هو السمك وما فيه من الدواب . وأخرج ابن أبى شيبه عن أبى جعفر ، قال : ليس فى الحلى زكاة . ثم قرأ : ﴿ وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾ . أقول : وفى هذا الاستدلال نظر ، والذى ينبغى التعويل عليه أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها فى شيء من أنواع المال فتلزم . وقد ورد فى الذهب والفضة ما هو معروف ، ولم يرد فى الجواهر على اختلاف أصنافها ما يدل على وجوب الزكاة فيها .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ مواخر ﴾ قال : جوارى . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة : ﴿ مواخر ﴾ قال : تشق الماء بصدرها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك : ﴿ مواخر ﴾ قال : السفينتان تجريان بريح واحدة مقبلة ومدبرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ قال : هى التجارة .

(١) فى المطبوعة : « بآديه » والصحيح ما أثبتاه من المخطوطة .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ رواسى ﴾ قال : الجبال ، ﴿ أن تميد بكم ﴾ قال : حتى لا تميد بكم ، كانوا على الأرض تمور بهم لا تستقر ، فأصبحوا صبحا وقد جعل الله الجبال وهى الرواسى أوتادا فى الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ وسبلا ﴾ قال : السبل هى الطرق بين الجبال . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والخطيب عن قتادة : ﴿ وسبلا ﴾ قال : طرقا . ﴿ وعلامات ﴾ قال : هى النجوم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : علامات النهار الجبال . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن الكلبى : ﴿ وعلامات ﴾ قال : الجبال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس: ﴿ وعلامات ﴾ يعنى : معالم الطرق بالنهار . ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ يعنى : بالليل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ قال : الله هو الخالق الرازق . وهذه الأوثان التى تعبد من دون الله تُخلق ولا تخلق شيئا ، ولا تملك لأهلها ضرا ولا نفعا .

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ .

شرح سبحانه فى تحقيق كون الأصنام التى أشار إليها بقوله : ﴿ كمن لا يخلق ﴾ عاجزة على أن يصدر منها خلق شىء فلا تستحق عبادة ، فقال : ﴿ والذين يدعون من دون الله ﴾ أى الآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله سبحانه صفتهم هذه الصفات المذكورة ، وهى أنهم ﴿ لا يخلقون شيئا ﴾ من المخلوقات أصلا ، لا كبيرا ولا صغيرا ، ولا جليلا ولا حقيرا . ﴿ وهم يخلقون ﴾ أى وصفتهم أنهم يخلقون ، فكيف يتمكن المخلوق من أن يخلق غيره ؟ فى هذه الآية زيادة بيان ، لأنه أثبت لهم صفة النقصان بعد أن سلب عنهم صفة الكمال بخلاف قوله : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ فإنه اقتصر على مجرد سلب صفة الكمال . وقراءة الجمهور : « والذين تدعون » بالثناة الفوقية على الخطاب مطابقة لما قبله . وروى أبو بكر عن

عاصم ، وروى هبيرة عن حفص : ﴿ يدعون ﴾ بالتحية^(١) وهى قراءة يعقوب .

ثم ذكر صفة أخرى من صفاتهم فقال : ﴿ أموات غير أحياء ﴾ يعنى : أن هذه الأصنام أجسادها ميتة ، لاهياة بها أصلا . فزيادة ﴿ غير أحياء ﴾ لبيان أنها ليست كبعض الأجساد التى تموت بعد ثبوت الحياة لها ، بل لا حياة لهذه أصلا ، فكيف يعبدونها وهم أفضل منها ؟ لأنهم أحياء . ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ الضمير فى ﴿ يشعرون ﴾ للآلهة . وفى ﴿ يبعثون ﴾ للكفار الذين يعبدون الأصنام . والمعنى : ما تشعر هذه الجمادات من الأصنام أيان يبعث عبدتهم من الكفار . ويكون هذا على طريقة التهكم بهم ، لأن شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة ، فضلا عن الأمور التى لا يعلمها إلا الله سبحانه . وقيل : يجوز أن يكون الضمير فى ﴿ يبعثون ﴾ للآلهة ، أى وما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث . ويؤيد ذلك ما روى أن الله يبعث الأصنام ويخلق لها أرواحا معها شياطينها ، فيؤمر بالكل إلى النار . ويدل على هذا قوله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ [الأنبياء : ٩٨] وقيل : قد تم الكلام عند قوله : ﴿ وهم يخلقون ﴾ ثم ابتداء فوصف المشركين بأنهم أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون . فيكون الضميران على هذا للكفار . وعلى القول بأن الضميرين أو أحدهما للأصنام يكون التعبير عنها مع كونها لا تعقل بما هو للعقلاء جريا على اعتقاد من يعبدها بأنها تعقل . وقرأ السلمي : « إيان » بكسر الهمزة . وهما لغتان . وهو فى محل نصب بالفعل الذى قبله .

﴿ إلهكم إله واحد ﴾ لما زيف سبحانه طريقة عبدة الأوثان ، صرح بما هو الحق فى نفس الأمر ، وهو وحدانيته^(٢) سبحانه ، ثم ذكر ما لأجله أصر الكفار على شركهم فقال : ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ﴾ للوحدانية ، لا يؤثر فيها وعظ ، ولا ينجع فيها تذكير . ﴿ وهم مستكبرون ﴾ عن قبول الحق ، متعظمون عن الإذعان للصواب ، مستمررون على الجحد ﴿ لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ قال الخليل : ﴿ لا جرم ﴾ كلمة تحقيق ، ولا تكون إلا جوابا ، أى حقا أن الله يعلم ما يسرون من أقوالهم وأفعالهم وما يعلنون من ذلك . وقد مر تحقيق الكلام فى ﴿ لا جرم ﴾ ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ أى لا يحب هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيد الله والاستجابة لآيائه . والجملة تعليل لما تضمنه الكلام المتقدم .

﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ﴾ أى وإذا قال لهؤلاء الكفار المنكرين المستكبرين قائل : ماذا أنزل ربكم؟ أى أى شئ أنزل ربكم ؟ أو ماذا الذى أنزل ؟ قيل : القائل : النضر بن الحارث . والآية نزلت فيه . فيكون هذا القول منه على طريق التهكم . وقيل : القائل هو من

(١) فى المطبوعة : « بالتحية » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) راجع شرح الطحاوية بتحقيقنا الجزء الأول . ط . المعارف بالرياض . السعودية .

يفد عليهم . وقيل : القائل : المسلمون . فأجاب المشركون المنكرون المستكبرون فقالوا : ﴿أساطير الأولين﴾ بالرفع ، أى ما تدعون أيها المسلمون نزوله أساطير الأولين . أو أن المشركين أرادوا السخرية بالمسلمين فقالوا : المنزل عليكم أساطير الأولين . وعلى هذا فلا يرد ما قيل من أن هذا لا يصلح أن يكون جوابا من المشركين ، وإلا لكان المعنى الذى أنزله ربنا أساطير الأولين ، والكفار لا يقرون بالإنزال . ووجه عدم وروده هو ما ذكرناه . وقيل : هو كلام مستأنف ، أى ليس ما تدعون إنزاله أيها المسلمون منزلا ، بل هو أساطير الأولين . وقد جوز على مقتضى علم النحو نصب «أساطير» ، وإن لم تقع القراءة به . ولابد فى النصب من التأويل الذى ذكرنا ، أى أنزل على دعواكم أساطير الأولين . أو يقولون ذلك من أنفسهم على طريق السخرية . والأساطير : الأباطيل والثرهات التى يتحدث الناس بها عن القرون الأولى ، وليس من كلام الله فى شيء ، ولا بما أنزله الله أصلا فى زعمهم .

﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة ﴾ أى قالوا هذه المقالة لكى يحملوا أوزارهم كاملة لم يكفر منها شيء لعدم إسلامهم الذى هو سبب لتكفير الذنوب . وقيل : إن اللام هى لام العاقبة ، لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لأجل يحملون الأوزار ؛ ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن التعليل به ، كقوله : ﴿ ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾ [القصص : ٨] . وقيل : هى لام الأمر ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم ﴾ أى ويحملون بعض أوزار الذين أضلوهم ، لأن من سن سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها . وقيل : « من » للجنس ، لا للتبعية ، أى يحملون كل أوزار الذين يضلونهم . ومحل ﴿ بغير علم ﴾ النصب على الحال من فاعل ﴿ يضلونهم ﴾ . أى يضلون الناس جاهلين غير عالمين بما يدعونهم إليه . ولا عارفين بما يلزمهم من الآثام . وقيل : إنه حال من المفعول ، أى يضلون من لا علم له . ومثل هذه الآية : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت : ١٣] وقد تقدم فى الأنعام الكلام على قوله : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ أى بشئ شيئا يزرونه ذلك .

ثم حكى سبحانه حال أضرابهم من المتقدمين فقال : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد به : غرود بن كنعان حيث بنى بناء عظيما ببابل ، ورام الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها ، فأهب الله الريح ، فخر ذلك البناء عليه وعلى قومه فهلكوا . والأولى أن الآية عامة فى جميع المبطلين من المتقدمين الذين يحاولون إلحاق الضرر بالمحقين . ومعنى المكر هنا : الكيد والتدبير الذى لا يطابق الحق . وفى هذا وعيد للكفار المعاصرين له ﷺ بأن مكرهم سيعود عليهم كما عاد مكر من قبلهم على أنفسهم . ﴿ فأتى الله بنيانهم ﴾ أى أتى أمر الله ، وهو الريح التى أخرجت بنيانهم . قال المفسرون : أرسل الله ريحا ، فألقت رأس الصرح فى البحر ، وخر عليهم الباقي ﴿ من القواعد ﴾ قال الزجاج : من الأساطين . والمعنى : أنه أتاها أمر الله من جهة قواعدها ، فزعزعها .

﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم ﴾ قرأ ابن أبي هريرة ، وابن محيصن : « السقف » بضم السين والقاف جميعا . وقرأ مجاهد بضم السين وسكون القاف . وقرأ الباقر : ﴿ السقف ﴾ بفتح السين وسكون القاف ، والمعنى : أنه سقط عليهم السقف ، لأنه بعد سقوط قواعد البناء يسقط جميع ما هو معتمد عليها . قال ابن الأعرابي : وإنما قال : ﴿ من فوقهم ﴾ ليعلمك أنهم كانوا حالين تحته . والعرب تقول : خر علينا سقف ، ووقع علينا حائط ، إذا كان يملكه ، وإن لم يكن وقع عليه ، فجاء بقوله : ﴿ من فوقهم ﴾ ليخرج هذا الشك الذى فى كلام العرب ، فقال : ﴿ من فوقهم ﴾ أى عليهم وقع ، وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا . وقيل : إن المراد بالسقف : السماء ، أى أتاهم العذاب من السماء التى فوقهم . وقيل : إن هذه الآية تمثيل لهلاكهم ، والمعنى : أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه عليه . وقد اختلف فى هؤلاء الذين خر عليهم السقف ، فقيل : هو غرود كما تقدم . وقيل : إنه بختنصر وأصحابه . وقيل : هم المقسمون الذين تقدم ذكرهم فى سورة الحجر . ﴿ وأتاهم العذاب ﴾ أى الهلاك ﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ به ، بل من حيث إنهم فى أمان .

ثم بين سبحانه أن عذابهم غير مقصور على عذاب الدنيا ، فقال : ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ﴾ بإدخالهم النار ، ويفضضهم بذلك ويهينهم . وهو معطوف على مقدر ، أى هذا عذابهم فى الدنيا ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول ﴾ لهم مع ذلك توبيخا وتقريعا ﴿ أين شركائى ﴾ كما تزعمون وتدعون ؟ قرأ ابن كثير من رواية البزى : « شركائى » من دون همز ، وقرأ الباقر بالهمز . ثم وصف هؤلاء الشركاء بقوله : ﴿ الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾ قرأ نافع بكسر النون على الإضافة ، وقرأ الباقر بفتحها ، أى تخاصمون الأنبياء والمؤمنين فيهم . وعلى قراءة نافع : تخاصموننى فيهم وتعادوننى ، ادعوه فليدفعوا عنكم هذا العذاب النازل بكم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لا جرم ﴾ يقول : بلى . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك : ﴿ لا جرم ﴾ قال : يعنى : لحق . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ، قال : لا كذب . وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه ، وغيرهم عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » . فقال رجل : يا رسول الله ، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا . فقال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمص (١) الناس » (٢) .

وفى ذم الكبر ، ومدح التواضع أحاديث كثيرة ، وكذلك فى إخراج محبة حسن الثوب وحسن النعل ، ونحو ذلك من الكبر أحاديث كثيرة . والحاصل أن النبى ﷺ قد بين ماهية

(١) غمص الناس : معناه احتقارهم ، وبطره : دفعه وإنكاره .

(٢) مسلم فى الإيمان (١٤٧/٩١) وأبو داود فى اللباس (٤٠٩١) والترمذى فى البر والصلة (١٩٩٩) وقال :

«حديث حسن صحيح غريب » وابن ماجه فى المقدمة (٥٩) وفى الزهد (٤١٧٣) .

الكبر أنه بطر الحق وغمص الناس . فهذا هو الكبر المذموم . وقد ساق صاحب الدر المنثور عند تفسيره لهذه الآية أعنى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ ، أحاديث كثيرة ليس هذا مقام إيرادها ، بل المقام مقام ذكر ما له علاقة بتفسير الكتاب العزيز ^(١) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أن ناسا من مشركي العرب كانوا يقعدون بطريق من أتى نبي الله ﷺ فإذا مروا سألوهم فأخبروهم بما سمعوا من النبي ﷺ فقالوا : إنما هو أساطير الأولين . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ ﴾ الآية ، يقول : يحملون مع ذنوبهم ذنوب الذين يضلونهم بغير علم . وذلك مثل قوله سبحانه : ﴿ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ١٣] . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه . وزاد : ولا يخفف ذلك عمن أطاعهم من العذاب شيئا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ قال : نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ^(٢) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن زيد بن أسلم أنه النمرود أيضا ^(٣) . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ فَأَتَى اللَّهَ بَنِيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ قال : أتاهم أمر الله من أصلها . ﴿ ففخر عليهم السقف من فوقهم ﴾ والسقف : أعلى البيوت ، فأتكتفت بهم بيوتهم ، فأهلكهم الله ودمرهم ، ﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ تَشَاقُقُونَ فِيهِمْ ﴾ قال : تخالفوني .

﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) .

(١) الدر المنثور ٤/ ١١٤ ، ١١٥ .

(٢، ٣) ابن جرير ١٤/ ٦٧ .

قوله : ﴿ قال الذين أوتوا العلم ﴾ قيل : هم العلماء ، قالوه لأمهم الذين كانوا يعظونهم ، ولا يلتفتون إلى وعظهم . وكان هذا القول منهم على طريق الشماتة . وقيل : هم الأنبياء . وقيل : الملائكة . والظاهر : الأول ، لأن ذكرهم بوصف العلم يفيد ذلك ، وإن كان الأنبياء والملائكة هم من أهل العلم ، بل هم أعرق فيه ، لكن لهم وصف يذكرون به هو أشرف من هذا الوصف ، وهو كونهم أنبياء ، أو كونهم ملائكة . ولا يقدح في هذا جواز الإطلاق ، لأن المراد الاستدلال على الظهور فقط . ﴿ إن الحزى اليوم ﴾ أى الذل والهوان والفضيحة يوم القيامة ﴿ والسوء ﴾ أى العذاب ﴿ على الكافرين ﴾ مختص بهم .

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ قد تقدم تفسيره . والموصول فى محل الجر على أنه نعت للكافرين ، أو بدل منه ، أو فى محل نصب على الاختصاص ، أو فى محل رفع على تقدير مبتدأ ، أى هم الذين تتوفاهم . وانتصاب ﴿ ظالمى أنفسهم ﴾ على الحال ﴿ فآلقوا السلم ﴾ معطوف على ﴿ فيقول أين شركائى ﴾ وما بينهما اعتراض ، أى أقروا بالربوبية ، وانقادوا عند الموت . ومعناه : الاستسلام . قاله قطرب . وقيل معناه : المسألة ، أى سالموا وتركوا المشاقة . قاله الأخفش . وقيل معناه : الإسلام ، أى أقروا بالإسلام ، وتركوا ما كانوا فيه من الكفر . وجملة : ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ يجوز أن تكون تفسيراً للسلم على أن يكون المراد بالسلم الكلام الدال عليه . ويجوز أن يكون المراد بالسوء هنا : الشرك ، ويكون هذا القول منهم على وجه الجحود والكذب . ومن لم يجوز الكذب على أهل القيامة حملة على أنهم أرادوا أنهم لم يعملوا سوءاً فى اعتقادهم وعلى حسب ظنونهم ، ومثله قولهم : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : ٢٣] فلما قالوا هذا ، أجاب عليهم أهل العلم بقولهم : ﴿ بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ أى بلى كنتم تعملون سوءاً ، إن الله عليم بالذى كنتم تعملونه ، فمجازيكم عليه ، ولا ينفعكم هذا الكذب شيئاً .

﴿ فادخلوا أبواب جهنم ﴾ أى يقال لهم ذلك عند الموت . وقد تقدم ذكر أبواب جهنم ، وأن جهنم درجات بعضها فوق بعض . و﴿ خالدين فيها ﴾ حال مقدرة ، لأن خلودهم مستقبل . ﴿ فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ المخصوص بالذم محذوف ، والتقدير : لبئس مثوى المتكبرين جهنم . والمراد بتكبرهم هنا : هو تكبرهم عن الإيمان والعبادة كما فى قوله : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ [الصافات : ٣٥] .

ثم أتبع أوصاف الأشقياء بأوصاف السعداء ، فقال : ﴿ وقيل للذين اتقوا ﴾ هم المؤمنون ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ﴾ أى أنزل خيراً . قال الثعلبى : فإن قيل : لم ارتفع الجواب فى قوله : ﴿ أساطير الأولين ﴾ وانتصب فى قوله : ﴿ خيراً ﴾ ؟ فالجواب : أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل ، فكانهم قالوا : الذى يقوله ^(١) محمد هو أساطير الأولين . والمؤمنون آمنوا بالتنزيل .

(١) فى المطبوعة : « يقولونه » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

فقال : أنزل خيرا . ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ﴾ قيل : هذا من كلام الله عز وجل . وقيل : هو حكاية لكلام الذين اتقوا . فيكون على هذا بدلا من ﴿ خيرا ﴾ وعلى الأول يكون كلاما مستأنفا مسوقا للمدح للمتقين . والمعنى : للذين أحسنوا أعمالهم فى الدنيا حسنة ، أى مثوبة حسنة . ﴿ ولدار الآخرة ﴾ أى مثوبتها ﴿ خير ﴾ مما أوتوا فى الدنيا ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ دار الآخرة . فحذف المخصوص بالمدح لدلالة ما قبله عليه .

وارتفاع ﴿ جنات عدن ﴾ على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها ، أو خبر مبتدأ محذوف . وقيل : يجوز أن تكون هى المخصوص بالمدح ﴿ يدخلونها ﴾ هو إما خبر المبتدأ أو خبر بعد خبر . وعلى تقدير تنكير ﴿ عدن ﴾ تكون صفة لجنات . وكذلك ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ وقيل : يجوز أن تكون الجملتان فى محل نصب على الحال على تقدير أن لفظ ﴿ عدن ﴾ علم . وقد تقدم معنى جرى الأنهار من تحت الجنات . ﴿ لهم فيها ما يشاؤون ﴾ أى لهم فى الجنات ما تقع عليه مشيئتهم صفوا عفوا يحصل لهم بمجرد ذلك . ﴿ كذلك يجزى الله المتقين ﴾ أى مثل ذلك الجزاء يجزيهم . والمراد بالمتقين : كل من يتقى الشرك وما يوجب النار من المعاصى .

والموصول فى قوله : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾ فى محل نصب نعت للمتقين المذكور قبله . قرأ الأعمش وحمزة : ﴿ تتوفاهم ﴾ فى هذا الموضع . وفى الموضع الأول بالياء التحتية . وقرأ الباقون بالثناة الفوقية . واختار القراءة الأولى أبو عبيد مستدلا بما روى عن ابن مسعود أنه قال : إن قريشا زعموا أن الملائكة إناث ، فذكروهم أنتم . و﴿ طيبين ﴾ فيه أقوال : طاهرين من الشرك ، أو الصالحين ، أو زاكية أفعالهم وأقوالهم ، أو طيبى^(١) الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله ، أو طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله ، أو طيبى الوفاة ، أى هى عليهم سهلة ، لا صعوبة فيها . وجملة : ﴿ يقولون سلام عليكم ﴾ فى محل نصب على الحال من الملائكة ، أى قائلين : سلام عليكم . ومعناه يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون السلام إنذارا لهم بالوفاة . الثانى : أن يكون تبشيرا لهم بالجنة ، لأن السلام أمان . وقيل : إن الملائكة يقولون : السلام عليك ولى الله ، إن الله يقرأ عليك السلام . ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ أى بسبب عملكم . قيل : يحتمل هذا وجهين : الأول : أن يكون تبشيرا بدخول الجنة عند الموت . الثانى : أن يقولوا ذلك لهم فى الآخرة . ولا ينافى هذا دخول الجنة بالفضل كما فى الحديث الصحيح : « سدودا وقاربوا ، واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله » . قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »^(٢) . وقد قدمنا البحث عن هذا .

(١) فى المخطوطة : « طيبين » وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه على الإضافة .

(٢) أحمد ٢٥٦/٢ والبخارى فى المرضى (٥٦٧٣) وفى الرقاق (٦٤٦٣) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٨١٦/٧٢ —

٧٦) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٠١) .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ قال : هؤلاء المؤمنون ، يقال لهم : ﴿ ماذا أنزل ربكم ﴾ فيقولون : ﴿ خيرا ﴾ ﴿ للذين أحسنوا ﴾ أى آمنوا بالله وكتبه ، وأمروا بطاعته ، وحثوا عباد الله على الخير ، ودعواهم إليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾ قال : أحياء وأمواتا قدر الله لهم ذلك .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (٣٦) إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٣٧) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٤٠) .

قوله : ﴿ هل ينظرون . . ﴾ الآية ، هذا جواب شبهة أخرى لمنكرى النبوة ، فإنهم طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل عليهم ملكا من السماء يشهد على صدقه فى إدعاء النبوة ، فقال : ﴿ هل ينظرون ﴾ فى تصديق نبوتك ﴿ إلا أن تأتيتهم الملائكة ﴾ شاهدين بذلك . ويحتمل أن يقال : إنهم لما طعنوا فى القرآن بأنه أساطير الأولين ، أوعدهم الله بقوله : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيتهم الملائكة ﴾ لقبض أرواحهم ﴿ أو يأتى أمر ربك ﴾ أى عذابه فى الدنيا المستأصل لهم ، أو المراد بأمر الله القيامة . وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائى وخلف : « إلا أن يأتيتهم الملائكة » بالياء التحتية . وقرأ الباقر بالمشناة الفوقية . والمراد بكونهم ﴿ ينظرون ﴾ أى ينتظرون إتيان الملائكة أو إتيان أمر الله على التفسير الآخر أنهم قد فعلوا فعل من وجب عليه العذاب ، وصار منتظرا له . وليس المراد أنهم ينتظرون ذلك حقيقة ، فإنهم لا يؤمنون بذلك ولا يصدقونه ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أى مثل فعل هؤلاء من الإصرار على الكفر والتكذيب والاستهزاء فعل الذين خلوا من قبلهم من طوائف الكفار ، فأتاهم أمر الله فهلكوا . ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ بتدميرهم بالعذاب ، فإنه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم . ﴿ ولكن كانوا

أنفسهم يظلمون ﴿ بما ارتكبوه من القبائح . وفيه أن ظلمهم مقصور عليهم باعتبار ما إليه يؤول .
وجملة : ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا ﴾ معطوفة على ﴿ فعل الذين من قبلهم ﴾ ، وما بينهما اعتراض . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير . والتقدير : كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا وما ظلمهم الله . والمعنى : فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم ، أو جزاء أعمالهم السيئة ﴿ وحقاً بهم ﴾ أى نزل بهم على وجه الإحاطة ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ أى العذاب الذى كانوا به يستهزئون ، أو عقاب استهزائهم .

﴿ وقال الذين أشركوا ﴾ هذا نوع آخر من كفرهم الذى حكاه الله عنهم . والمراد بالذين أشركوا هنا : أهل مكة ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ﴾ أى لو شاء عدم عبادتنا لشيء غيره ما عبدنا ذلك ﴿ نحن ولا آبائنا ﴾ الذين كانوا على ما نحن عليه الآن من دين الكفر والشرك بالله . قال الزجاج : إنهم قالوا هذا على جهة الاستهزاء ، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين . وقد مضى الكلام على مثل هذا فى سورة الأنعام ﴿ ولا حرمانا من دونه من شيء ﴾ من السوائب والبائس ونحوهما . ومقصودهم بهذا القول المعلق بالمشيئة : الطعن فى الرسالة ، أى لو كان ما قاله الرسول حقاً من المنع من عبادة غير الله ، والمنع من تحريم ما لم يحرمه الله حاكياً ذلك عن الله لم يقع منا ما يخالف ما أَرَادَهُ منا ، فإنه قد شاء ذلك . وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . فلما وقع منا العبادة لغيره وتحريم ما لم يحرمه ، كان ذلك دليلاً على أن ذلك هو المطابق لمراده والموافق لمشيئته ، مع أنهم فى الحقيقة لا يعترفون بذلك ولا يقرون به ، لكنهم قصدوا ما ذكرنا من الطعن على الرسل ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ من طوائف الكفر ، فإنهم أشركوا بالله وحرّموا ما لم يحرمه ، وجادلوا رسله بالباطل ، واستهزؤوا بهم . ثم قال : ﴿ فهل على الرسل ﴾ الذين يرسلهم الله إلى عباده بما شرعه لهم من شرائعه التى رأسها توحيده ، وترك الشرك به ﴿ إلا البلاغ ﴾ إلى من أرسلوا إليهم بما أمروا بتبليغه بلاغاً واضحاً يفهمه المرسل إليهم ولا يلتبس عليهم .

ثم إنه سبحانه أكد هذا ، وزاده إيضاحاً ، فقال : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ﴾ كما بعثنا فى هؤلاء لإقامة الحجة عليهم ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [الإسراء : ١٥] و«أن» فى قوله : ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ إما مصدرية ، أى بعثنا بأن اعبدوا الله ، أو مفسرة ؛ لأن فى البعث معنى القول ﴿ واجتنبوا الطاغوت ﴾ أى اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان ، والكاهن ، والصنم ، وكل من دعا إلى الضلال . ﴿ فمنهم ﴾ أى من هذه الأمم التى بعث الله إليها رسله ﴿ من هدى الله ﴾ أى أرشده إلى دينه وتوحيده وعبادته واجتناب الطاغوت . ﴿ ومنهم من حققت عليه الضلالة ﴾ أى وجبت وثبتت ، لإصراره على الكفر والعناد . قال الزجاج : أعلم الله أنه بعث الرسل بالأمر بالعبادة ، وهو من وراء الإضلال والهداية . ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ [الأعراف : ٣٠] وفى هذه الآية التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته واجتناب الشيطان ، وكل ما يدعو إلى الضلال . وأنهم بعد ذلك فريقان : فمنهم من هدى ، ومنهم من حققت عليه الضلالة ، فكان

فى ذلك دليل على أن أمر الله سبحانه لا يستلزم موافقة إرادته ، فإنه يأمر الكل بالإيمان ، ولا يريد الهداية إلا للبعض ، إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد ، وهذا معنى ما حكيناه عن الزجاج هنا . ﴿ فسيروا فى الأرض ﴾ سير معتبرين ﴿ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ من الأمم السابقة عند مشاهدتكم لآثارهم كعاد وثمرود ، أى كيف صار آخر أمرهم إلى خراب الديار بعد هلاك الأبدان بالعذاب .

ثم خصص الخطاب برسوله ﷺ مؤكدا لما تقدم فقال : ﴿ إن تحرص على هداهم ﴾ أى تطلب بجهدك ذلك ﴿ فإن الله لا يهدى من يضل ﴾ قرأ ابن مسعود وأهل الكوفة : ﴿ لا يهدى ﴾ بفتح حرف المضارعة على أنه فعل مستقبل مسند إلى الله سبحانه ، أى فإن الله لا يرشد من أضله . و ﴿ من ﴾ فى موضع نصب على المفعولية . وقرأ الباقون : « لا يهدى » بضم حرف المضارعة على أنه مبنى للمجهول . واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم على معنى أنه لا يهديه هاد كائنا من كان . و ﴿ من ﴾ فى موضع رفع على أنها نائب الفاعل المحذوف ، فتكون هذه الآية على هذه القراءة كقوله فى الآية الأخرى : ﴿ من يضل الله فلا هادى له ﴾ [الأعراف : ١٨٦] . والعائد على القراءتين محذوف ، أى من يضل . وروى أبو عبيد عن الفراء على القراءة الأولى أن معنى : ﴿ لا يهدى ﴾ لا يهتدى ، كقوله تعالى : ﴿ أمن لا يهدى إلا أن يهدى ﴾ [يونس : ٣٥] بمعنى : يهتدى . قال أبو عبيد . ولا نعلم أحدا روى هذا غير الفراء ، وليس بمتهم فيما يحكيه . قال النحاس : حكى عن محمد بن يزيد المبرد كأن معنى : ﴿ لا يهدى من يضل ﴾ من علم ذلك منه ، وسبق له عنده . ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ينصرونهم على الهداية لمن أضله الله ، أو ينصرونهم بدفع العذاب عنهم .

ثم ذكر عناد قريش وإنكارهم للبعث فقال : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ مصدر فى موضع الحال ، أى جاهدين ﴿ لا يبعث الله من يموت ﴾ من عباده . زعموا أن الله سبحانه عاجز عن بعث الأموات ، فرد الله عليهم ذلك بقوله : ﴿ بلى وعدا عليه حقا ﴾ هذا إثبات لما بعد النفى ، أى بلى يبعثهم . و ﴿ وعدا ﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه « بلى » وهو يبعثهم لأن البعث وعد من الله وعد عباده به . والتقدير : وعد البعث وعدا عليه حقا لاخلف فيه . و ﴿ حقا ﴾ صفة لـ ﴿ وعدا ﴾ وكذا ﴿ عليه ﴾ ، فإنه صفة لـ ﴿ وعدا ﴾ ، أى كائنا عليه . أو نصب حقا على المصدرية ، أى حق حقا ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أن ذلك يسير عليه سبحانه غير عسير .

وقوله : ﴿ ليبين لهم ﴾ أى ليظهر لهم ، وهو غاية لما دل عليه « بلى » من البعث . والضمير فى ﴿ لهم ﴾ راجع إلى من يموت ، والموصول فى قوله : ﴿ الذى يختلفون فيه ﴾ فى محل نصب ، على أنه مفعول ليبين ، أى الأمر الذى وقع الخلاف بينهم فيه ، وبيانه إذ ذاك يكون بما جاءتهم به الرسل ، ونزلت عليهم فيه كتب الله . وقيل : إن ﴿ ليبين ﴾ متعلق بقوله : ﴿ ولقد بعثنا ﴾ أى بعثنا فى كل أمة رسولا ليبين ، وهو بعيد ﴿ وليعلم الذين كفروا ﴾ بالله

سبحانه ، وأنكروا البعث ﴿ أنهم كانوا كاذبين ﴾ في جدالهم وإنكارهم البعث بقولهم : ﴿ لا يبعث الله من يموت ﴾ .

وجملة : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ مستأنفة لبيان كيفية الإبداء والإعادة بعد بيان سهولة البعث عليه سبحانه . قال الزجاج : أعلمهم بسهولة خلق الأشياء عليه فأخبر أنه متى أراد الشيء كان . وهذا كقوله : ﴿ وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [البقرة : ١١٧] وقرأ ابن عامر والكسائي : ﴿ فيكون ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿ أن نقول ﴾ . قال الزجاج : يجوز أن يكون نصبا على جواب ﴿ كن ﴾ . وقرأ الباقر بالرفع على معنى فهو يكون . قال ابن الأنباري : أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله تعالى قبل الخلق ، لأنه بمنزلة ما قد وجد وشوهد . وقال الزجاج : إن معنى ﴿ لشيء ﴾ : لأجل شيء ، فجعل اللام سببية . وقيل : هي لام التبليغ ، كما في قولك : قلت له قم فقام . و﴿ إنما قولنا ﴾ مبتدأ . و﴿ أن نقول له كن ﴾ خبره . وهذا الكلام من باب التمثيل على معنى أنه لا يمتنع عليه شيء ، وأن وجوده عند إرادته كوجود المأمور به عند أمر الأمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع . وليس هناك قول ولا مقول له ، ولا أمر ، ولا مأمور حتى يقال : إنه يلزم منه أحد محالين ، إما خطاب المعلوم ، أو تحصيل لحاصل . وقد مضى تفسير ذلك في سورة البقرة مستوفى .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾ قال : بالموت . وقال في آية أخرى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ [الأنفال : ٥٠] وهو ملك الموت ، وله رسل . ﴿ أو يأتي أمر ربك ﴾ وذاكم يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ فإن الله لا يهدي من يضل ﴾ قال : من يضلّه الله لا يهديه أحد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية ، قال : كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين ، فأتاه يتقاضاه ، فكان فيما تكلم به : والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا وكذا . فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت ، فأقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت . فأنزل الله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ الآية (١) . وأخرج ابن العقيلى وابن مردويه عن علي في قوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ قال : نزلت في . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر عن أبي هريرة ، قال : قال الله تعالى : « سبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يسبني . وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني . أما تكذبيه إياي ، فقال : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ . وقلت : ﴿ بلى وعدا عليه حقا ﴾ وأما سبه إياي فقال : ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾ [المائدة : ٧٣] . وقلت : ﴿ قل ﴾ [قل] (٢) هو الله

(١) ابن جرير ٧٣/ ١٤ .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة . والصحيح إثباته كما في ابن جرير ٧٣/ ١٤ .

أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد ﴿ [سورة الإخلاص] هكذا ذكره أبو هريرة موقوفاً ^(١) ، وهو في الصحيحين مرفوعاً بلفظ آخر ^(٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ لبيّن لهم الذى يختلفون فيه ﴾ يقول : للناس عامة .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿ (٤٢) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿ (٤٧) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿ (٥٠) ۝

قد تقدم تحقيق معنى الهجرة في سورة النساء ، وهى ترك الأهل والأوطان . ومعنى ﴿هاجروا فى الله﴾ : فى شأن الله سبحانه وفى رضاه . وقيل : ﴿فى الله﴾ : فى دين الله . وقيل : فى معنى اللام ، أى لله . ﴿من بعد ما ظلموا﴾ أى عذبوا وأهينوا ، فإن أهل مكة عذبوا جماعة من المسلمين حتى قالوا ما أرادوا منهم . فلما تركوهم هاجروا .

وقد اختلف فى سبب نزول الآية فقيل : نزلت فى صهيب وبلال وخباب وعمار . واعترض بأن السورة مكية ، وذلك يخالف قوله : ﴿والذين هاجروا﴾ وأجيب بأنه يمكن أن تكون هذه الآية من جملة الآيات المدنية فى هذه السورة كما قدمنا فى عنوانها . وقيل : نزلت فى أبى جندل بن سهيل ^(٣) . وقيل : نزلت فى أصحاب محمد ﷺ لما ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة .

﴿ لنبؤئهم فى الدنيا حسنة ﴾ اختلف فى معنى هذا على أقوال . فقيل : المراد : نزولهم المدينة ، قاله ابن عباس والحسن والشعبي وقتادة . وقيل : المراد : الرزق الحسن ، قاله مجاهد .

(١) ابن جرير ٧٣/١٤ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٩٧٤) والنسائى ١١٢/٤ .

(٣) القرطبى ٣٧٢٣/٦ وراجع كتابنا : (رجال أنزل الله فيهم قرآنا) عند حديثنا عن أبى جندل بن سهيل رضى الله عنه .

وقيل : النصر على عدوهم ، قاله الضحاك . وقيل : ما استولوا عليه من فتوح البلاد ، وصار لهم فيها من الولايات . وقيل : ما بقى لهم فيها من الثناء ، وصار لأولادهم من الشرف . ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور . ومعنى : ﴿ لنبؤنهم في الدنيا حسنة ﴾ لنبؤنهم مباءة حسنة ، أو تبوءة حسنة . فحسنة صفة مصدر محذوف ﴿ ولأجر الآخرة ﴾ أى جزاء أعمالهم فى الآخرة ﴿ أكبر ﴾ من أن يعلمه أحد من خلق الله قبل أن يشاهده . ومنه قوله تعالى : ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ﴾ [الإنسان : ٢٠] ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى لو كان هؤلاء الظلمة يعلمون ذلك . وقيل : إن الضمير فى ﴿ يعلمون ﴾ راجع إلى المؤمنين ، أى لو رأوا ثواب الآخرة وعاینوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا .

﴿ الذين صبروا ﴾ الموصول فى محل نصب على المدح ، أو الرفع على تقدير مبتدأ ، أو هو بدل من الموصول الأول . أو من الضمير فى ﴿ لنبؤنهم ﴾ . ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى على ربهم خاصة يتوكلون فى جميع أمورهم معرضين عما سواه . والجملة معطوفة على الصلة ، أو فى محل نصب على الحال .

﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ﴾ قرأ حفص عن عاصم : ﴿ نوحى ﴾ بالنون . وقرأ الباقون : « يوحى » بالياء التحتية . وهذه الآية رد على قريش حيث زعموا أن الله سبحانه أجل من أن يرسل رسولا من البشر ، فرد الله عليهم بأن هذه عادته وستته أن لا يرسل إلا رجالا من البشر يوحى إليهم . وزعم أبو على الجبائى^(١) أن معنى الآية أن الله سبحانه لم يرسل إلى الأنبياء بوحيه إلا من هو على صورة الرجال من الملائكة . ويرد عليه بأن جبريل كان يأتى رسول الله ﷺ على صور مختلفة . ولما كان كفار مكة مقرين بأن اليهود والنصارى هم أهل العلم بما أنزل الله فى التوراة والإنجيل ، صرف الخطاب إليهم ، وأمرهم أن يرجعوا إلى أهل الكتاب ، فقال : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ أى فاسألوا أيها المشركون من آمن من أهل الكتاب إن كنتم لا تعلمون ، فإنهم سيخبرونكم بأن جميع الأنبياء كانوا بشرا ، أو اسألوا أهل الكتاب من غير تقييد بمؤمنينهم كما يفيد الظاهر ، فإنهم كانوا يعترفون بذلك ولا يكتُمونه . وقيل : المعنى : فاسألوا أهل القرآن .

﴿ بالبينات والزبر ﴾ يتعلق بـ ﴿ أرسلنا ﴾ ، فيكون داخلا فى حكم الاستثناء مع ﴿ رجالا ﴾ . وأنكر الفراء ذلك ، وقال : إن صفة ما قبل « إلا » لا تتأخر إلى ما بعدها ، لأن المستثنى منه هو مجموع ما قبل « إلا » مع صلته ، كما لو قيل : [ما]^(٢) أرسلنا إلا رجالا بالبينات . فلما لم يصير هذا المجموع مذكورا بتمامه ، امتنع إدخال الاستثناء عليه . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير . والتقدير : وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا . وقيل :

(١) هو محمد الجبائى من كبار المعتزلة وكتب الكلام مليئة بمذهبه واعتقاده .

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من المخطوطة ، والصحيح إثباته ليستقيم المعنى .

يتعلق بمحذوف دل عليه المذكور، أى أرسلناهم بالبينات والزبر . ويكون جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل : لماذا أرسلهم ؟ فقال : أرسلناهم بالبينات والزبر . وقيل : متعلق بـ ﴿ تعلمون ﴾ على أنه مفعوله . والباء زائدة ، أى إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر . وقيل : متعلق بـ ﴿ رجالا ﴾ ، أى رجالا متلبسين بالبينات والزبر . وقيل : بـ ﴿ نوحى ﴾ أى نوحى إليهم بالبينات والزبر . وقيل : منصوب بتقدير أعنى ، والباء زائدة . وأهل الذكر هم أهل الكتاب كما تقدم . وقال الزجاج : أسألوا كل من يذكر بعلم . والبينات : الحجج والبراهين . والزبر : الكتب . وقد تقدم الكلام على هذا فى « آل عمران » . ﴿ وأنزلنا إليك الذكر ﴾ أى القرآن . ثم بين الغاية المطلوبة من الإنزال ، فقال : ﴿ لتبين للناس ﴾ جميعا ﴿ ما نزل إليهم ﴾ فى هذا الذكر من الأحكام الشرعية ، والوعد والوعيد . ﴿ ولعلهم يتفكرون ﴾ أى إرادة أن يتأملوا ويعملوا أفكارهم فيتعظوا .

﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ السيئات ﴾ صفة مصدر محذوف أى مكروا المكرات السيئات . وأن تكون مفعولة للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل ، أى عملوا السيئات ، أو صفة لمفعول مقدر ، أى أفأمن الماكرون العقوبات السيئات . أو على حذف حرف الجر ، أى مكروا بالسيئات ﴿ أن يخسف الله بهم الأرض ﴾ هو مفعول « أمن » ، أو بدل من مفعوله على القول بأن مفعوله محذوف ، وأن السيئات صفة للمحذوف والاستثناء للتعريض والتوبيخ . ومكر السيئات سعيهم فى إيذاء رسول الله ﷺ وإيذاء أصحابه على وجه الخفية ، واحتيالهم فى إبطال الإسلام وكيد أهله ﴿ أن يخسف الله بهم ﴾ كما خسف بقارون . يقال : خسف المكان يخسف خسوفا : ذهب فى الأرض . وخسف الله به الأرض خسوفا ، أى غاب به فيها . ومنه قوله : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ [القصص : ٨١] وخسف هو فى الأرض ، وخسف به ﴿ أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ به فى حال غفلتهم عنه كما فعل بقوم لوط وغيرهم . وقيل : يريد يوم بدر ، فإنهم أهلكوا ذلك اليوم ، ولم يكن فى حسابهم .

﴿ أو يأخذهم فى تقلبهم ﴾ ذكر المفسرون فيه وجوها ، ف قيل : المراد : فى أسفارهم ومتاجرهم ، فإنه سبحانه قادر على أن يهلكهم فى السفر كما يهلكهم فى الحضر ، وهم لا يفوتونه بسبب ضربهم فى الأرض وبعدهم عن الأوطان . وقيل : المراد : فى حال تقلبهم فى قضاء أوطارهم بوجود الحيل . فيحول الله بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم . وقيل : فى حال تقلبهم فى الليل على فرشهم . وقيل : فى حال إقبالهم وإدبارهم ، وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار . والقلب بالمعنى الأول مأخوذ من قوله : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ﴾ [آل عمران : ١٩٦] وبالمعنى الثانى مأخوذ من قوله : ﴿ وقلبوا لك الأمور ﴾ [التوبة : ٤٨] ﴿ فما هم بمعجزين ﴾ أى بفاتنين ولا ممتنعين .

﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ أى حال تخوف وتوقع للبلايا بأن يكونوا متوقعين للعذاب ،

حذرين منه ، غير غافلين عنه ، فهو خلاف ما تقدم من قوله : ﴿ أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ . وقيل : معنى ﴿ على تخوف ﴾ : على تنقص . قال ابن الأعرابي ، أى على تنقص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم . قال الواحدي : قال عامة المفسرين : ﴿ على تخوف ﴾ قال : تنقص ، إما بقتل أو بموت . يعنى : بنقص من أطرافهم ونواحيهم ، يأخذهم الأول فالأول حتى يأتى الأخذ على جميعهم . قال : والتخوف : التنقص . يقال : هو يتخوف المال ، أى يتنقصه ، ويأخذ من أطرافه . انتهى . يقال : تخوفه الدهر وتخونه بالفاء والنون : تنقصه . قال ذو الرمة :

لا ، بل هو الشوق من دار تخوفها مرا سحاب ومرا بارح ترب (١)

وقال لبيد :

تخوفها نزولى وارتحالى

أى تنقص لحمها وشحمها . قال الهيثم بن عدى : التخوف بالفاء : التنقص . لغة لأزد شنوءة . وأنشد :

تخوف عدوهم مالى وأهدى سلاسل فى الحلوق لها صليل

وقيل : ﴿ على تخوف ﴾ : على عجل ، قاله الليث بن سعد . وقيل : على تقريع بما قدموا من ذنوبهم . روى ذلك عن ابن عباس . وقيل : ﴿ على تخوف ﴾ أن يعاقب ويتجاوز ، قاله قتادة . ﴿ فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ لا يعاجل ، بل يمهل رافة بكم ورحمة لكم مع استحقاقهم للعقوبة .

﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء ﴾ لما خوف سبحانه الماكرين بما خوف ، أتبعه ذكر ما يدل على كمال قدرته فى تدبير أحوال العالم العلوى والسفلى ومكانهما . والاستفهام فى ﴿ أو لم يروا ﴾ للإنكار . و « ما » مبهمة مفسرة بقوله : ﴿ من شيء ﴾ قرأ حمزة والكسائى وخلف ويحيى بن وثاب ، والأعمش : « تروا » بالمشنة الفوقية ، على أنه خطاب لجميع الناس . وقرأ الباقر بالتحتية بإرجاع الضمير إلى ﴿ الذين مكروا السيئات ﴾ . وقرأ أبو عمرو ويعقوب : « تنفيؤ ظلاله » بالمشنة الفوقية . وقرأ الباقر بالتحتية واختارها أبو عبيد ، أى يميل من جانب إلى جانب . ويكون أول النهار على حال ويتقلص ، ثم يعود فى آخر النهار على حالة أخرى . قال الأزهري : تنفيؤ الظلال : رجوعها بعد انتصاف النهار . فالتنفيؤ لا يكون إلا بالعشى ، وما انصرف عنه الشمس والقمر . والذى يكون بالغداة هو الظل . وقال ثعلب : أخبرت عن أبى عبيدة أن رؤية قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فىء ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل . ومعنى ﴿ من شيء ﴾ : من شيء له ظل ، وهى الأجسام ، فهو عام أريد

(١) البارح : الريح الحارة فى الصيف التى فيها تراب كثير .

به الخاص . و ﴿ ظلاله ﴾ جمع ظل . وهو مضاف إلى مفرد ؛ لأنه واحد يراد به الكثرة .

﴿ عن اليمين والشمال ﴾ أى عن جهة أيمانها وشمالها ، أى عن جانبى كل واحد منها . قال الفراء : وحد اليمين ؛ لأنه أراد واحدا من ذوات الأظلال ، وجمع الشمال ؛ لأنه أراد كلها ، لأن ما خلق الله لفظه مفرد ومعناه جمع . وقال الواحدي : وحد اليمين ، والمراد به الجميع إيجازا فى اللفظ ، كقوله : ﴿ ويولون الدبر ﴾ [القمر : ٤٥] ودلت الشمال على أن المراد به الجمع وقيل : إن العرب إذا ذكرت صيغتي جمع ، عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد ، كقوله : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : ١] . و ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ [البقرة : ٧] وقيل : المراد باليمين : النقطة التى هى مشرق الشمس ، وأنها واحدة . والشمال : عبارة عن الانحراف فى فلك الإظلال بعد وقوعها على الأرض ، وهى كثيرة . وإنما عبر عن المشرق باليمين ؛ لأن أقوى جانبى الإنسان يمينه . ومنه تظهر الحركة القوية .

﴿ سجدا لله ﴾ منتصب على الحال ، أى حال كون الظلال سجدا لله . قال الزجاج : يعنى : أن هذه الأشياء مجبولة على الطاعة . وقال أيضا : سجود الجسم : انقياده وما يرى من أثر الصنعة . ﴿ وهم داخرون ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى خاضعون صاغرون . والدخور : الصغار والذل . يقال : دخر الرجل ، فهو داخر ، وأدخره الله . قال الشاعر :

فلم يبق إلا داخر فى مخيس ومنحجر فى غير أرضك فى حجر (١)

ومخيس : اسم سجن كان بالعراق .

﴿ ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة ﴾ أى له وحده يخضع وينقاد ، لا لغيره ما فى السموات جميعا ﴿ وما فى الأرض من دابة ﴾ تدب على الأرض . والمراد به : كل دابة . قال الأخفش : هو كقولك : ما أتانى من رجل مثله ، وما أتانى من الرجال مثله . وقد دخل فى عموم ما فى السموات وما فى الأرض جميع الأشياء الموجودة فيهما . وإنما خص الدابة بالذكر ، لأنه قد علم من قوله : ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء ﴾ انقياد الجمادات ، وعطف الملائكة على ما قبلهم ، تشريفا لهم وتعظيما لدخولهم فى المعطوف عليه . ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ أى والحال أنهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم . والمراد : الملائكة . ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة . وفى هذا رد على قریش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله . ويجوز أن تكون حالا من فاعل ﴿ يسجد ﴾ . و « ما » عطف عليه ، أى يسجد لله ما فى السموات وما فى الأرض ، والملائكة ، وهم جميعا لا يستكبرون عن السجود .

﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى حال كونهم يخافون ربهم من فوقهم . أو جملة مستأنفة لبيان نفى استكبارهم . ومن آثار الخوف عدم

(١) منحجر : المنحجر الضب إذا دخل الحجر .

الاستكبار . ﴿ من فوقهم ﴾ متعلق بـ ﴿ يخافون ﴾ على حذف مضاف ، أى يخافون عذاب ربهم من فوقهم ، أو يكون حالا من الرب ، أى يخافون ربهم حال كونه من فوقهم . وقيل : معنى ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ : يخافون الملائكة ، فيكون على حذف المضاف ، أى يخافون ملائكة ربهم كائنين من فوقهم . وهو تكلف لا حاجة إليه . وإنما اقتضى مثل هذه التأويلات البعيدة المحاماة على مذاهب قد رسخت فى الأذهان ، وتقررت فى القلوب . قيل : وهذه المخافة هى مخافة الإجلال . واختاره الزجاج فقال : ﴿ يخافون ربهم ﴾ خوف مجلين . ويدل على صحة هذا المعنى قوله : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ [الأنعام : ١٨] وقوله إخبارا عن فرعون : ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ [الأعراف : ١٢٧] ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أى ما يؤمرون به من طاعة الله ؛ يعنى : الملائكة ، أو جميع ما تقدم ذكره . وحمل هذه الجمل على الملائكة أولى ، لأن فى مخلوقات الله من يستكبر عن عبادته ولا يخافه ، ولا يفعل مايؤمر به ، كالكفار والعصاة الذين لا يتصفون بهذه الصفات ، وإبليس وجنوده .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا ﴾ قال : هم قوم من أهل مكة هاجروا إلى رسول الله ﷺ بعد ظلمهم ^(١) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وابن عساكر عن داود بن أبى هند قال : نزلت هذه الآية فى أبى جندل بن سهيل ^(٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ والذين هاجروا فى الله ﴾ الآية ، قال : هؤلاء أصحاب محمد ، ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم ، حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك ، فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين ^(٣) . ﴿ ولأجر الآخرة أكبر ﴾ قال : أى والله لما يصيبهم الله من جنته ونعمته أكبر ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الشعبي فى قوله : ﴿ فى الدنيا حسنة ﴾ قال : المدينة . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية ، قال : ليرزقنهم فى الدنيا رزقا حسنا .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : لما بعث الله محمدا رسولا ، أنكرت العرب ذلك ، فأنزل الله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ﴾ ^(٤) . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ فاسألوا أهل الذكر ... ﴾ الآية ، يعنى : مشركى قريش ، أن محمدا رسول الله فى التوراة والإنجيل . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : نزلت فى عبد الله بن سلام ونفر من أهل التوراة .

(١) ابن جرير ٧٤/١٤ .

(٣) المرجع السابق ٧٣/١٤ ، ٧٤ .

(٤) المرجع السابق ٧٥/١٤ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ بالبينات ﴾ قال : الآيات . ﴿ والزبر ﴾ قال : الكتب . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ﴾ قال : عمرو بن كنعان وقومه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة فى الآية ، قال : أى الشرك . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك ، قال : تكذيبهم الرسل وإعمالهم بالمعاصى .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أو يأخذهم فى تقلبهم ﴾ قال : فى اختلافهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه : ﴿ فى تقلبهم ﴾ قال : إن شئت أخذته فى سفره ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ يقول : على أثر موت صاحبه . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا : ﴿ على تخوف ﴾ قال : تنقص من أعمالهم . وأخرج ابن جرير عن عمر أنه سألهم عن هذه الآية : ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ فقالوا : ما نرى إلا أنه عند تنقص ما يردده من الآيات . فقال عمر : ما أرى إلا أنه على ما يتنقصون من معاصى الله . فخرج رجل ممن كان عند عمر ، فلقى أعرابيا ، فقال : يا فلان ، ما فعل ربك ؟ قال : قد تخيفته . يعنى : انتقصته . فرجع إلى عمر فأخبره ، فقال : قد رأيته ذلك . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ قال : يأخذهم بنقص بعضهم بعضا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يتفيؤ ﴾ قال : يتميل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ وهم داخرون ﴾ قال : صاغرون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ ولله يسجد ... ﴾ الآية ، قال : لم يدع شيئا من خلقه إلا عبده له طائعا أو كارها . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن فى الآية ، قال : يسجد من فى السموات طوعا ، ومن فى الأرض طوعا وكرها .

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسَأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ .

لما بين سبحانه أن مخلوقاته السماوية والأرضية منقادة له خاضعة لجلاله ، أتبع ذلك بالنهي عن الشرك بقوله: ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد ﴾ فنهى سبحانه عن اتخاذ إلهين ، ثم أثبت أن الإلهية منحصرة في إله واحد . وهو الله سبحانه . وقد قيل : إن الثنية في إلهين قد دلت على الاثنينية ، والإفراد في إله قد دل على الوحدة . فما وجه وصف إلهين باثنين ووصف إله بواحد ؟ فقل في الجواب : إن في الكلام تقديما وتأخيرا . والتقدير لا تتخذوا اثنين إلهين إنما هو واحد إله . وقيل : إن التكرير لأجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك . وقيل : إن فائدة زيادة اثنين هي أن يعلم أن النهي راجع إلى التعدد ، لا إلى الجنسية . وفائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد إثبات الإلهية دون الواحدية ، مع أن الإلهية له سبحانه مسلمة في نفسها . وإنما خلاف المشركين في الواحدية . ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة إلى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب ، فقال : ﴿ فإياي فارهبون ﴾ أي إن كنتم راهبين شيئا ، فإياي فارهبون لا غيري . وقد مر مثل هذا في أول البقرة .

ثم لما قرر سبحانه وحدانيته ، وأنه الذي يجب أن يخص بالرهبة منه والرغبة إليه ، ذكر أن الكل في ملكه وتحت تصرفه ، فقال : ﴿ وله ما في السموات والأرض ﴾ وهذه الجملة مقررة لمن تقدم في قوله : ﴿ ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض ... ﴾ إلى آخره . وتقديم الخبر لإفادة الاختصاص . ﴿ وله الدين واصبا ﴾ أي ثابتا واجبا دائما لا يزول ، والدين هو الطاعة والإخلاص . قال الفراء : ﴿ واصبا ﴾ معناه : دائما . ومنه قول الدؤلي :

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه بدم يكون الدهر أجمع واصبا

أي دائما . وروى عن الفراء أيضا أنه قال : الواصب : الخالص . والأول أولى . ومنه قوله سبحانه : ﴿ ولهم عذاب واصب ﴾ [الصافات : ٩] أي دائم . وقال الزجاج : أي طاعته واجبة أبدا . ففسر الواصب بالواجب . وقال ابن قتيبة في تفسير الواصب : أي ليس أحد يقطع إلا انقطع ذلك بزوال أو يهلكة غير الله تعالى ، فإن الطاعة تدوم له . ففسر الواصب بالدائم . وإذا دام الشيء دوما لا ينقطع فقد وجب وثبت .

يقال : وصب الشيء يصب وصوبا ، فهو واصب : إذا دام . ووصب الرجل على الأمر : إذا واطب عليه . وقيل : الوصب : التعب والإعياء ، أي يجب طاعة الله سبحانه وإن تعب العبد فيها وهو غير مناسب لما في الآية . والاستفهام في قوله : ﴿ أفغير الله تتقون ﴾ للتقريع

والتوبيخ . وهو معطوف على مقدر ، كما فى نظائره . والمعنى : إذا كان الدين ، أى الطاعة واجبا له ، دائما لا ينقطع ، كان المناسب لذلك تخصيص التقوى به ، وعدم إيقاعها لغيره .

ثم امتن سبحانه عليهم بأن جميع ما هم متقبلون فيه من النعم هو منه لا من غيره ، فقال : ﴿ وما بكم من نعمة ﴾ أى ما يلبسكم من النعم على اختلاف أنواعها فمن الله ، أى فهى منه فتكون ما شرطية . ويجوز أن تكون موصولة متضمنة معنى الشرط و ﴿ بكم ﴾ صلتها ، و ﴿ من نعمة ﴾ حال من الضمير فى الجار والمجرور . أو بيان لـ « ما » . وقوله : ﴿ فمن الله ﴾ الخبر . وعلى كون « ما » شرطية يكون فعل الشرط محذوفا ، أى ما يكن . والنعمة إما دينية ، وهى معرفة الحق لذاته ، ومعرفة الخير لأجل العمل به . وإما دنيوية نفسانية ، أو بدنية ، أو خارجية ، كالسعادات المالية وغيرها . وكل واحدة من هذه جنس تحته أنواع لا حصر لها . والكل من الله سبحانه ، فعلى العاقل أن لا يشكر إلا إياه . ثم بين تلون الإنسان بعد استغراقه فى بحر النعم ، فقال : ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ أى إذا مسكم الضر أى مس ، فإلى الله سبحانه لا إلى غيره تتضرعون فى كشفه ، فلا كاشف له إلا هو . يقال : جأر يجأر جؤورا ، إذا رفع صوته فى تضرع . قال الأعشى يصف بقرة :

فطافت ثلاثا بين يوم وليلة وكان النكير أن تطيف وتجارا

والضر : المرض والبلاء والحاجة والقحط وكل ما يتضرر به الإنسان .

﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ أى إذا رفع عنكم ما نزل بكم من الضر ﴿ إذا فريق ﴾ أى جماعة منكم بربهم الذى رفع الضر عنهم يشركون ، فيجعلون معه إلها آخر من صنم أو نحوه . والآية مسوقة للتعجيب من فعل هؤلاء ، حيث يضعون الإشراف بالله الذى أنعم عليهم بكشف ما نزل بهم من الضر مكان الشكر له . وهذا المعنى قد تقدم فى الأنعام ويونس ، ويأتى فى سبحان . قال الزجاج : هذا خاص بمكر [من] (١) كفر ، وقابل كشف الضر عنه بالجحود والكفر . وعلى هذا فتكون « من » فى ﴿ منكم ﴾ للتبعيض ، حيث كان الخطاب للناس جميعا . والفريق هم الكفرة ، وإن كان الخطاب موجها إلى الكفار ، فـ « من » للبيان . واللام فى ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ لام كى ، أى لكى يكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضر ، حتى كأن هذا الكفر منهم الواقع فى موضع الشكر الواجب عليهم غرض لهم ومقصد من مقاصدهم . وهذا غاية فى العتو والعناد ليس وراءها غاية . وقيل : اللام للعاقبة ، يعنى : ما كانت عاقبة تلك التضرعات إلا هذا الكفر . ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتا من الغيبة إلى الخطاب ﴿ فتمتعوا ﴾ بما أنتم فيه من ذلك ﴿ فسوف تعلمون ﴾ عاقبة أمركم ، وما يحل بكم فى هذه الدار ، وما تصيرون إليه فى الدار الآخرة .

ثم حكى سبحانه نوعا آخر من قبائح أعمالهم فقال : ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم ﴾ أى يقع منهم هذا الجعل بعد ما وقع منهم الجؤار إلى الله سبحانه فى كشف الضر

(١) ما بين المعقوفتين ساقط فى المطبوعة ، والصحيح إثباته ليستقيم المعنى كما بالمخطوطة .

عنهم ، وما يعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والإشراك به ، ومع ذلك يجعلون لما لا يعلمون حقيقته من الجمادات والشياطين نصيبا مما رزقناهم من أموالهم يتقربون به إليه . وقيل : المعنى : أنهم ، أى الكفار ، يجعلون للأصنام ، وهم لا يعلمون شيئا لكونهم جمادات ، ففاعل ﴿ يعلمون ﴾ على هذا هى الأصنام . وأجراها مجرى العقلاء فى جمعها بالواو والنون ، جريا على اعتقاد الكفار فيها . وحاصل المعنى : ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التى لا تعقل شيئا نصيبا من أموالهم التى رزقهم الله إياها ﴿ تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾ هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب . وهذا السؤال سؤال تقرير وتوبيخ . ﴿ عما كنتم تفترون ﴾ تختلقونه من الكذب على الله سبحانه فى الدنيا .

﴿ ويجعلون لله البنات ﴾ هذا نوع آخر من فضائحهم وقبائحهم . وقد كانت خزاعة وكنانة تقول : الملائكة بنات الله ﴿ سبحانه ﴾ نزه سبحانه نفسه عما نسب إليه هؤلاء الجفأة الذين لا عقول لهم صحيحة ، ولا أفهام مستقيمة ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ﴾ [الفرقان : ٤٤] وفى هذا التنزيه تعجيب من حالهم ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ أى ويجعلون لأنفسهم ما يشتهونه من البنين على أن « ما » فى محل نصب بالفعل المقدر ، ويجوز أن تكون فى محل رفع على الابتداء . وأنكر النصب الزجاج . قال : لأن العرب لا يقولون : جعل له كذا . وهو يعنى نفسه . وإنما يقولون : جعل لنفسه كذا . فلو كان منصوبا ، لقال : ولأنفسهم ما يشتهون . وقد أجاز النصب الفراء .

ثم ذكر سبحانه كراحتهم للإناث التى جعلوها لله سبحانه فقال : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ﴾ أى إذا أخبر أحدهم بولادة بنت له ، ﴿ ظل وجهه مسودا ﴾ أى متغيرا . وليس المراد السواد الذى هو ضد البياض ، بل المراد الكناية بالسواد عن الانكسار والتغير بما يحصل من الغم . والعرب تقول لكل من لقي مكروها : قد اسود وجهه غما وحزنا . قاله الزجاج . وقال الماوردى : بل المراد سواد اللون حقيقة . قال : وهو قول الجمهور . والأول أولى . فإن المعلوم بالوجدان أن من غضب وحزن واغتم لا يحصل فى لونه إلا مجرد التغير وظهور الكآبة والانكسار ، لا السواد الحقيقى . وجملة : ﴿ وهو كظيم ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى ممتلئ من الغم غيظا وحنقا . قال الأخفش : هو الذى يكظم غيظه ولا يظهره . وقيل : إنه المغمووم الذى يطبق فاه من الغم . مأخوذ من الكظامة ، وهو سد فم البئر . قاله على بن عيسى . وقد تقدم فى سورة يوسف .

﴿ يتوارى من القوم ﴾ أى يتغيب ويختفى . ﴿ من سوء ما بشر به ﴾ أى من سوء الحزن والعار والحياء الذى يلحقه بسبب حدوث البنت له ﴿ أيمسكه على هون ﴾ أى لا يزال مترددا بين الأمرين ، وهو إمساك البنت التى بشر بها ، أو دفنها فى التراب ﴿ على هون ﴾ أى هوان . وكذا قرأ عيسى الثقفى . قال اليزيدى : والهون : الهوان بلغة قريش . وكذا حكاه أبو عبيد عن الكسائى . وحكى عن الكسائى أنه البلاء والمشقة . قالت الخنساء :

نهين النفوس وهون النفوس س يوم الكريهة أبقي لها

وقال الفراء : الهون : القليل بلغة تميم . وحكى النحاس عن الأعمش أنه قرأ : « أيمسكه على سوء » ﴿ أم يدسه في التراب ﴾ أى يخفيه في التراب بالوآد كما كانت تفعله العرب . فلا يزال الذى بشر بحدوث الأذى مترددا بين هذين الأمرين . والتذكير فى ﴿ يمسكه ﴾ و﴿ يدسه ﴾ مع كونه عبارة عن الأذى لرعاية اللفظ . وقرأ الجحدري : « أم يدسها فى التراب » . ويلزمه أن يقرأ : « أيمسكها » . وقيل : دسها : إخفاؤها عن الناس التى لاتعرف كالمندسوس لإخفائه عن الإبصار . ﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ حيث أضافوا البنات التى يكرهونها إلى الله سبحانه ، وأضافوا البنين المحبوبين عندهم إلى أنفسهم . ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى ﴾ [النجم : ٢١ ، ٢٢] .

﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ﴾ أى لهؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه بهذه القبائح الفظيعة ﴿ مثل السوء ﴾ أى صفة السوء من الجهل والكفر بالله . وقيل : هو وصفهم لله سبحانه بالصاحبة والولد . وقيل : هو حاجتهم إلى الولد ليقوم مقامهم . ووآد البنات لدفع العار ، وخشية الإملاق . وقيل : العذاب والنار . ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ وهو أضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل ، والجود الشامل ، والعلم الواسع ، أو التوحيد وإخلاص العبادة ، أو أنه خالق رازق قادر مجاز . وقيل : شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره ﴾ [النور : ٣٥] ﴿ وهو العزيز ﴾ الذى لا يغالب ، فلا يضره نسبتهم إليه ما لا يليق به ﴿ الحكيم ﴾ فى أفعاله وأقواله .

ثم لما حكى سبحانه عن القوم عظيم كفرهم ، بين سعة كرمه وحلمه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، ولم يؤاخذهم بظلمهم فقال : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ﴾ والمراد بالناس هنا : الكفار ، أو جميع العصاة ﴿ ما ترك عليها ﴾ أى على الأرض ، وإن لم يذكر فقد دل عليها ذكر الناس وذكر الدابة . فإن الجميع مستقرون على الأرض . والمراد بالدابة : الكافر . وقيل : كل ما دب . وقد قيل على هذا : كيف يعم بالهلاك مع أن فيهم من لا ذنب له ؟ وأجيب بإهلاك الظالم انتقاما منه ، وإهلاك غيره إن كان من أهل التكليف ، فلأجل توفير أجره ، وإن كان من غيرهم ، فبشؤم ظلم الظالمين . ولله الحكمة البالغة ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ومثل هذا قوله : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [الأنفال : ٢٥] . وفى معنى هذا أحاديث منها ما عند مسلم وغيره من حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا أراد الله بقوم عذابا ، أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على نياتهم » (١) . وكذلك حديث الجيش الذين يخسف بهم فى البيداء ، وفى آخره أنهم يبعثون على نياتهم (٢) . وقد قدمنا عند تفسير قوله سبحانه : ﴿ واتقوا فتنة ... ﴾ الآية

(١) أحمد ٤٠ / ٢ والبخارى فى الفتن (٧١٠٨) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (٨٤ / ٢٨٧٩) .

(٢) سبق تخريجه .

[الأنفال: ٢٥] تحقيقا حقيقا بالمراجعة له ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ معلوم عنده ، وهو منتهى حياتهم وانقضاء أعمارهم ، أو أجل عذابهم . وفى هذا التأخير حكمة بالغة منها الإعذار إليهم وإرخاء العنان معهم . ومنها حصول من سبق فى علمه من أولادهم ﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ الذى سماه لهم ، حقت عليهم كلمة الله سبحانه فى ذلك الوقت من دون تقدم عليه ولا تأخر عنه . والساعة : المدة القليلة . وقد تقدم تفسيرها هذا وتحقيقه .

ثم ذكر نوعا آخر من جهلهم وحمقهم فقال : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ أى ينسبون إليه سبحانه ما يكرهون نسبته إلى أنفسهم من البنات ، وهو تكرير لما قد تقدم لقصد التأكيد والتقريب ، ولزيادة التوبيخ والتقريع ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب ﴾ هذا من النوع الآخر الذى ذكره سبحانه من قبائحهم ، وهو ، أى هذا الذى تصفه ألسنتهم من الكذب ، هو قولهم : ﴿ أن لهم الحسنى ﴾ أى الخصلة الحسنى أو العاقبة الحسنى . قال الزجاج : يصفون أن لهم مع قبح قولهم من الله الجزاء الحسن . قال الزجاج أيضا والفراء : أبدل من قوله : ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب ﴾ قوله : ﴿ أن لهم الحسنى ﴾ و﴿ الكذب ﴾ منصوب على أنه مفعول ﴿ تصف ﴾ . وقرأ ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وابن محيصة : « الكذب » برفع الكاف والذال والباء ، على أنه صفة للألسن . وهو جمع كذب ، فيكون المفعول على هذا هو ﴿ أن لهم الحسنى ﴾ .

ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ لا جرم أن لهم النار ﴾ أى حقا أن لهم مكان ما جعلوه لأنفسهم من الحسنى النار . وقد تقدم تحقيق هذا . ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ قال ابن الأعرابى وأبو عبيدة : أى متروكون منسيون فى النار . وبه قال الكسائى والفراء ، فيكون مشتقا من أفرطت فلانا خلفى : إذا خلفته ونسيته . وقال قتادة والحسن : معجلون إليها ، مقدمون فى دخولها ، من أفرطته ، أى قدمته فى طلب الماء . والفارط : هو الذى يتقدم إلى الماء . والفراط : المتقدمون فى طلب الماء . والوراد : المتأخرون . ومنه قوله ﷺ : « أنا فرطكم على الخوض »^(١) أى : متقدمكم . قال القطامى :

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا كما تعجل فراط لوراد

وقرأ نافع فى رواية ورش : « مفرطون » بكسر الراء وتخفيفها . وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس . ومعناه : مسرفون فى الذنوب والمعاصى : يقال : أفرط فلان على فلان : إذا أربى عليه ، وقال له أكثر مما قال من الشر . وقرأ أبو جعفر القارى : « مفرطون » بكسر الراء وتشديددها ، أى مضيعون أمر الله . فهو من التفريط فى الواجب . وقرأ الباقر : « مفرطون » بفتح الراء مخففا . ومعناه : مقدمون إلى النار .

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد ٢٥٧/١ عن ابن عباس ٣٨٤ ، ٤٠٢ عن ابن مسعود والبخارى فى الرقاق (٦٥٧٦) ومسلم فى الطهارة (٣٩/٢٤٩) عن أبى هريرة وفى الفضائل (٢٥/٢٢٨٩) عن جندب (٢٦/٢٢٩٠) عن سهل وابن ماجه فى الفتن (٣٩٤٤) وفى الزهد (٤٣٠٦) عن أبى هريرة .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿وله الدين واصبا﴾ قال : ﴿الدين﴾ : الإخلاص . و﴿واصبا﴾ : دائما . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح ﴿وله الدين واصبا﴾ قال : لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿واصبا﴾ قال : دائما . وأخرج الفريابى وابن جرير عنه قال : واجبا .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿تجأرون﴾ قال : تتضرعون دعاء . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى ، قال : تصيحون بالدعاء . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ قال : وعيد . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ويجعلون لما لا يعلمون...﴾ الآية ، قال : يعلمون أن الله خلقهم ، ويضرهم وينفعهم . ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرهم ولا ينفعهم ﴿نصيبا مما رزقناهم﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية ، قال : هم مشركو العرب ، جعلوا لأوثانهم وشياطينهم مما رزقهم الله ، وجزؤوا من أموالهم جزءا فجعلوه لأوثانهم وشياطينهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية ، قال : هو قولهم : ﴿هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾ [الأنعام : ١٣٦] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ويجعلون لله البنات...﴾ الآية يقول : يجعلون لى البنات يرتضونهن لى ، ولا يرتضونهن لأنفسهم . وذلك أنهم كانوا فى الجاهلية إذا ولد للرجل منهم جارية أمسكها على هوان أو دسها فى التراب وهى حية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك : ﴿ولهم ما يشتهون﴾ قال : يعنى به : البنين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج : ﴿أم يدسه فى التراب﴾ قال : يئد ابنته . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ قال : بش ما حكموا . يقول : شئ لا يرضونه لأنفسهم ، فكيف يرضونه لى .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ولله المثل الأعلى﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس ﴿ولله المثل الأعلى﴾ قال : يقول : ليس كمثله شئ . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير فى قوله : ﴿ما ترك عليها من دابة﴾ قال : ما سقاها المطر . وأخرج أيضا عن السدى نحوه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : قد فعل ذلك فى زمن نوح ، أهلك الله ما على ظهر الأرض من دابة إلا ما حمل فى سفينته . وأخرج أحمد فى الزهد عن ابن مسعود قال : ذنوب ابن آدم قتلت الجعل فى جحره . ثم قال : أى والله زمن غرق قوم نوح . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن

أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عنه قال : كاد الجعل أن يعذب فى جحره بذنوب ابن آدم ، ثم قرأ : ﴿ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا عن أنس نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن جرير ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة ؛ أنه سمع رجلا يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه . قال أبو هريرة : بلى ، والله إن الجبارى لتموت هزالا فى وكرها من ظلم الظالم (٢) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ قال : يجعلون لى البنات ، ويكرهون ذلك لأنفسهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنْ لَهُمُ الْحَسَنَى ﴾ قال : قول كفار قريش : لنا البنون ، وله البنات . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد : ﴿ وَأَنَّهُمْ مَفْرُطُونَ ﴾ قال : منسيون . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : معجلون . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) ﴾ .

بين سبحانه أن مثل صنيع قريش قد وقع من سائر الأمم فقال مسلماً لرسول الله ﷺ : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أى رسلاً ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ الخبيثة ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ﴾ يحتمل أن يكون اليوم عبارة عن زمان الدنيا ، فيكون المعنى : فهو قرينهم فى الدنيا . ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة ، وما بعده ، فيكون للحال الآتية ،

(١) ابن أبى شيبة (١٦٤١٣) وابن جرير ٨٥/١٤ والبيهقى فى الشعب (٧٤٧٨) ط . الكتب العلمية . وصححه

الحاكم ٤٢٨/٢ ووافقه الذهبى .

(٢) ابن جرير ٨٥/١٤ والبيهقى فى الشعب (٧٤٧٩) ط . الكتب العلمية .

ويكون الولي بمعنى الناصر . والمراد : نفى الناصر عنهم على أبلغ الوجوه ، لأن الشيطان لا يتصور منه النصرة أصلا في الدار الآخرة . وإذا كان الناصر منحصرا فيه ، لزم أن لا نصره من غيره . ويحتمل أن يراد باليوم بعض زمان الدنيا ، وهو على وجهين : الأول : أن يراد البعض الذي قد مضى ، وهو الذي وقع فيه التزيين من الشيطان للأمم الماضية ، فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية . الثاني : أن يراد البعض الحاضر ، وهو وقت نزول الآية . والمراد : تزيين الشيطان لكفار قريش ، فيكون الضمير في ﴿وليهما﴾ لكفار قريش أى فهو ولي هؤلاء اليوم . أو على حذف مضاف ، أى فهو ولي أمثال أولئك الأمم اليوم . ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أى فى الآخرة ، وهو عذاب النار .

ثم ذكر سبحانه أنه ما هلك من هلك إلا بعد إقامة الحجة عليهم وإزاحة العلة منهم ، فقال : ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه﴾ . وهذا خطاب لرسول الله ﷺ ، والمراد بالكتاب : القرآن . والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أى ما أنزلناه عليك لحال من الأحوال ولا لعدة من العلل إلا لعدة التبيين لهم ، أى للناس الذى اختلفوا فيه من التوحيد ، وأحوال البعث ، وسائر الأحكام الشرعية . وانتصاب ﴿هدى ورحمة﴾ على أنهما مفعول لهما معطوفان على محل لتبين . ولا حاجة إلى اللام ، لأنهما فعلا فاعل الفعل المعلن ، بخلاف التبيين ، فإنه فعل المخاطب ، لا فعل المنزل . ﴿لقوم يؤمنون﴾ بالله سبحانه ، ويصدقون ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب .

ثم عاد سبحانه إلى تقرير وجوده وتفردة بالإلهية بذكر آياته العظام فقال : ﴿والله أنزل من السماء ماء﴾ أى من السحاب ، أو من جهة العلو كما مر ، أى نوعا من أنواع الماء . ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ أى أحياها بالنبات بعد أن كانت يابسة لا حياة بها . ﴿إن فى ذلك﴾ الإنزال والإحياء ﴿لآية﴾ أى علامة دالة على وحدانيته ، وعلى بعثه للخلق ومجازاتهم . ﴿لقوم يسمعون﴾ كلام الله ويفهمون ما يتضمنه من العبر ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض .

﴿وإن لكم فى الأنعام لعبرة﴾ الأنعام هى : الإبل والبقر والغنم ، ويدخل فى الغنم المعز . والعبرة أصلها : تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة . ومنه : ﴿فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾ [الحشر : ٢] . وقال أبو بكر الوراق : العبرة فى الأنعام : تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم . والظاهر أن العبرة هى قوله : ﴿نسقيكم مما فى بطونه﴾ فتكون الجملة مستأنفة لبيان العبرة . قرأ أهل المدينة وابن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر : «نسقيكم» بفتح النون ، من سقى يسقى . وقرأ الباقون وحفص عن عاصم بضم النون من أسقى يسقى . قيل : هما لغتان . قال ليلى :

نميرا والقبائل من هلال

سقى قومي بنى مجد وأسقى

وقرئ بالتاء الفوقية ، على أن الضمير راجع إلى الأنعام . وقرئ بالتحية على إرجاع الضمير إلى الله سبحانه . وهما ضعيفتان . وجميع القراء على القراءتين الأوليين . والفتح لغة قريش ، والضم لغة حمير . وقيل : إن بين سقى وأسقى فرقا . فإذا كان الشراب من يد الساقى إلى فم المسقى ، فيقال : سقىته . وإن كان بمجرد عرضه عليه وتهيته له ، قيل : أسقاه . والضمير فى قوله : ﴿ مما فى بطونه ﴾ راجع إلى الأنعام . قال سيبويه : العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد . وقال الزجاج : لما كان لفظ الجمع يذكر ويؤنث ، فيقال : هو الأنعام ، وهى الأنعام . جاز عود الضمير بالتذكير . وقال الكسائى : معناه : مما فى بطون ما ذكرنا ، فهو على هذا عائد إلى المذكور . قال الفراء : وهو صواب . وقال المبرد : هذا فاش فى القرآن كثير ، مثل قوله للشمس : ﴿ هذا ربى ﴾ [الأنعام : ٧٨] يعنى : هذا الشئ الطالع . وكذلك : ﴿ وإنى مرسله إليهم بهدية ﴾ [النمل : ٣٥] ثم قال : ﴿ فلما جاء سليمان ﴾ [النمل : ٣٦] ولم يقل : جاءت ؛ لأن المعنى جاء الشئ الذى ذكرنا . انتهى . ومن ذلك قوله : ﴿ كلا إنه ^(١) تذكرة . فمن شاء ذكره ﴾ [المدثر : ٥٤ ، ٥٥] . ومثله قول الشاعر :

مثل الفراخ نتفت حواصله

ولم يقل : حواصلها . وقول الآخر :

وطاب ألبان اللقاح وبرد

ولم يقل : وبردت . وحكى عن الكسائى أن المعنى مما فى بطون بعضه وهى الإناث ؛ لأن الذكور لا ألبان لها . وبه قال أبو عبيدة وحكى عن الفراء أنه قال : النعم والأنعام واحد ، يذكر ويؤنث . ولهذا تقول العرب : هذه نعم وارد . فرجع الضمير إلى لفظ النعم الذى هو بمعنى الأنعام . وهو كقول الزجاج . ورجحه ابن العربى فقال : إنما يرجع التذكير إلى معنى الجمع ، والتأنيث إلى معنى الجماعة . فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع ، وأنه فى سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة . ﴿ من بين فرث ودم ﴾ : الفرث : الزبل الذى ينزل إلى الكرش ، فإذا خرج منه لم يسم فرثا . يقال : أفرثت الكرش إذا أخرجت ما فيها . والمعنى : أن الشئ الذى تأكله يكون منه ما فى الكرش ، وهو الفرث ، ويكون منه الدم . فيكون أسفله فرثا ، وأعله دما ، وأوسطه لبنا ، فيجرى الدم فى العروق ، واللبن فى الضروع ، ويبقى الفرث كما هو . ﴿ خالصا ﴾ يعنى : من حمرة الدم ، وقذارة الفرث بعد أن جمعهما وعاء واحد ﴿ سائغا للشاربين ﴾ أى لذيذا هنيئا ، لا يغص به من شربه . يقال : ساغ الشراب ، يسوغ سوغا ، أى سهل مدخله فى الحلق .

﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب ﴾ قال ابن جرير : التقدير : ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون . فحذف « ما » ودل على حذفه قوله : ﴿ منه ﴾ . وقيل : هو معطوف

(١) فى المطبوعة « إن هذه تذكر » وهو خطأ ؛ لأنها ليست محل الاستشهاد .

على الأنعام ، والتقدير : وإن لكم من ثمرات النخيل والأعناب لعبرة . ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ مما فى بطونه ﴾ أى نسقيكم مما فى بطونه ومن ثمرات النخيل . ويجوز أن يتعلق بمحذوف دل عليه ما قبله ، تقديره : ونسقيكم من ثمرات النخيل . ويكون على هذا ﴿ تتخذون منه سكراً ﴾ بياناً للإسقاء وكشفاً عن حقيقته . ويجوز أن يتعلق بـ ﴿ تتخذون ﴾ تقديره : ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكراً . ويكون تكرير الظرف ، وهو قوله : ﴿ منه ﴾ للتأكيد ، كقولك : زيد فى الدار فيها . وإنما ذكر الضمير فى ﴿ منه ﴾ لأنه يعود إلى المذكور . أو إلى المضاف المحذوف ، وهو العصير ، كأنه قيل : ومن عصير ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه . والسكر : ما يسكر من الخمر . والرزق الحسن : جميع ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والدبس ^(١) والزبيب والخل . وكان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر . وقيل : إن السكر : الخل بلغة الحبشة . والرزق الحسن : الطعام من الشجرتين . وقيل : السكر : العصير الحلو الحلال . وسمى سكراً ؛ لأنه قد يصير مسكراً إذا بقى . فإذا بلغ الإسكار ، حرم . والقول الأول أولى وعليه الجمهور . وقد صرح أهل اللغة بأن السكر اسم للخمر ، ولم يخالف فى ذلك إلا أبو عبيدة ، فإنه قال : السكر : الطعم . وما يدل على ما قاله جمهور أهل اللغة قول الشاعر :

بش أصحاب وبش الشرب شربهم إذا جرى فيهم الهذى والسكر

وما يدل على ما قاله أبو عبيدة ما أنشده :

جعلت عيب الأكرمين سكراً

أى جعلت ذمهم طعماً . ورجع هذا ابن جرير فقال : إن السكر ما يطعم من الطعام ويحل شربه من ثمار النخيل والأعناب ، وهو الرزق الحسن . فاللفظ مختلف . والمعنى واحد ، مثل : ﴿ إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ﴾ [يوسف : ٨٦] قال الزجاج : قول أبى عبيدة هذا لا يعرف . وأهل التفسير على خلافه . ولا حجة فى البيت الذى أنشده لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس . وقد حمل السكر جماعة من الحنفية على ما لا يسكر من الأنبذة ، وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ . قالوا : وإنما يمتن الله على عباده بما أحله لهم ، لا بما حرمه عليهم . وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر ^(٢) . ١ هـ . ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ أى لدلالة لمن يستعمل العقل ، ويعمل بما يقتضيه عند النظر فى الآيات التكوينية .

﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ قد تقدم الكلام فى الوحى ، وأنه يكون بمعنى الإلهام . وهو ما يخلقه فى القلب ابتداء من غير سبب ظاهر . ومنه قوله سبحانه : ﴿ ونفس وما سواها .

(١) الدبس : عسل الرطب أو التمر .

(٢) القرطبي ٣٧٤٥/٦ .

فألهمها فجورها وتقواها ﴿ [الشمس : ٧ ، ٨] ومن ذلك إلهام البهائم لفعل ما ينفعها ، وترك ما يضرها . وقرأ يحيى بن وثاب : « إلى النحل » بفتح الحاء . قال الزجاج : وسمى نحلا ؛ لأن الله سبحانه نحله العسل الذى يخرج منه . قال الجوهري : النحل والنحلة : الدبر ، يقع على الذكر والأنثى . ﴿ أن اتخذى من الجبال بيوتا ﴾ أى بأن اتخذى على أن « أن » هى المصدرية ، ويجوز أن تكون تفسيرية ؛ لأن فى الإيحاء معنى القول . وأنت الضمير فى ﴿ اتخذى ﴾ لكونه أحد الجائزين كما تقدم . أو للحمل على المعنى ، أو لكون النحل جمعا . وأهل الحجاز يؤثنون النحل . و« من » فى ﴿ من الجبال بيوتا ﴾ وكذا فى ﴿ من الشجر ﴾ وكذا فى ﴿ مما يعرشون ﴾ للتبويض ، أى مساكن توافقها وتليق بها فى كوى الجبال ، وتجريف الشجر ، وفى العروش التى يعرشها بنو آدم من الأجناح والحيطان وغيرها . وأكثر ما يستعمل فيما يكون من الخشب . يقال : عرش يعرش بكسر الراء وضمها . وبالضم قرأ ابن عامر وشعبة . وقرأ الباقر بالكسر . وقرئ أيضا « بيوتا » بكسر الباء وضمها .

﴿ ثم كلى من كل الثمرات ﴾ « من » للتبويض ، لأنها تأكل النور ^(١) من الأشجار ، فإذا أكلتها ﴿ فاسلكى سبل ربك ﴾ أى الطرق التى فهمك الله وعلمك وأضافها إلى الرب ، لأنه خالقها وملهم النحل أن تسلكها ، أى ادخلى طرق ربك لطلب الرزق فى الجبال وخلال الشجر ، أو اسلكى ما أكلت فى سبل ربك ، أى فى مسالكه التى يحيل فيها بقدرته النور عسلا . أو إذا أكلت الثمار فى الأمكنة البعيدة ، فاسلكى إلى بيوتك راجعة سبل ربك ، لا تضلين فيها . وانتصاب ﴿ ذللا ﴾ على الحال من السبل . وهى جمع ذلول ، أى مذلة ، غير متوعدة . واختار هذا : الزجاج وابن جرير . وقيل : حال من النحل ، يعنى : مطيعة للتسخير ، وإخراج العسل من بطونها . واختار هذا ابن قتيبة .

وجملة : ﴿ يخرج من بطونها ﴾ مستأنفة عدل به عن خطاب النحل تعديدا للنعم ، وتعجيبا لكل سامع ، وتنبيها على الغير ، وإرشادا إلى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الشبيه بالذباب . والمراد : بالشراب : هو العسل . ومعنى ﴿ مختلف ألوانه ﴾ : أن بعضه أبيض ، وبعضه أحمر ، وبعضه أزرق ، وبعضه أصفر باختلاف ذوات النحل وألوانها ومأكولاتها . وجمهور المفسرين على أن العسل يخرج من أفواه النحل . وقيل : من أسفلها . وقيل : لا يدرى من أين يخرج منها . والضمير فى قوله : ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ راجع إلى الشراب الخارج من بطون النحل ، وهو العسل . وإلى هذا ذهب الجمهور . وقال الفراء ، وابن كيسان ، وجماعة من السلف : إن الضمير راجع إلى القرآن . ويكون التقدير : فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس . ولا وجه للعدول عن الظاهر ومخالفة المرجع الواضح والسياق البين . وقد اختلف أهل العلم هل هذا الشفاء الذى جعله الله فى العسل عام لكل داء ،

(١) النور : هو ما يداخل الزهرة على ألوانه المختلفة .

أو خاص ببعض الأمراض ؟ فقالت طائفة : هو على العموم . وقالت طائفة : إن ذلك خاص ببعض الأمراض . ويدل على هذا أن العسل نكرة في سياق الإثبات ، فلا يكون عاما . وتنكيره إن أريد به التعظيم لا يدل إلا على أن فيه شفاء عظيما لمرض أو أمراض ، لا لكل مرض ، فإن تنكير التعظيم لا يفيد العموم . والظاهر المستفاد من التجربة ، ومن قوانين علم الطب أنه إذا استعمل منفردا ، كان دواء لأمراض خاصة ، وإن خلط مع غيره كالمعاجين ونحوها ، كان مع ما خلط به دواء لكثير من الأمراض . وبالجملته فهو من أعظم الأغذية وأنفع الأدوية . وقليل ما يجتمع هذان الأمران في غيره . ﴿ إن في ذلك ﴾ المذكور من أمر النحل ﴿ لآية لقوم يفكرون ﴾ أى يعملون أفكارهم عند النظر في صنع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته . فإن أمر النحل من أعجبها وأغربها وأدقها وأحكمها .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس ، والحاكم وصححه والبيهقي في سننه ، وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن قوله : ﴿ تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ﴾ قال : السكر ما حرم من ثمرتهما ، والرزق الحسن ما حل ^(١) . وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه قال : السكر : الحرام . والرزق الحسن : زيبه وخله وعنبه ومنافعه . وأخرج أبو داود في ناسخه ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا قال : السكر : النبيذ . والرزق الحسن : الزبيب . فنسختها هذه الآية ﴿ إنما الخمر والميسر ﴾ [المائدة : ٩٠] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عنه أيضا في الآية قال : فحرم الله بعد ذلك السكر مع تحريم الخمر لأنه منه . ثم قال : ﴿ ورزقا حسنا ﴾ فهو الحلال من الخل والزبيب والنبيذ وأشباه ذلك ، فأقره الله ، وجعله حلالا للمسلمين . وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه سئل عن السكر ، فقال : الخمر بعينها . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود قال : السكر : خمر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ قال : ألهمها . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ فاسلكي سبل ربك ذللا ﴾ قال : طرقا لا يتوعر عليها مكان سلكته . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة : ﴿ ذللا ﴾ قال : مطيعة . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ، قال : ذليلة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ يخرج من بطونها شراب ﴾ قال : العسل . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : هو العسل فيه الشفاء ، وفي القرآن . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن ابن مسعود قال : إن العسل شفاء

(١) ابن جرير ٩٠ / ١٤ وصححه الحاكم ٣٥٥ / ٢ ووافقه الذهبي ، والبيهقي ٢٩٧ / ٨ .

من كل داء . والقرآن شفاء لما فى الصدور . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن مسعود قال : عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن (١) . وأخرج ابن ماجة والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، وابن السنى وأبو نعيم والخطيب عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن » (٢) .

وقد وردت أحاديث فى كون العسل شفاء ، منها ما أخرجه البخارى من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « الشفاء فى ثلاثة : فى شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار ، وأنا أنهى أمتى عن الكى » (٣) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن أخى استطلق بطنه . فقال : « اسقه عسلا » . فسقاه عسلا . ثم جاء فقال : سقيته عسلا ، فما زاده إلا استطلاقا . قال : « اذهب فاسقه عسلا » . فذهب فسقاه ، ثم جاء فقال : ما زاده إلا استطلاقا . فقال رسول الله ﷺ : « صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلا » . فذهب ، فسقاه عسلا ، فبرأ (٤) .

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴿

لما ذكر سبحانه بعض أحوال الحيوان ، وما فيها من عجائب الصنعة الباهرة ، وخصائص القدرة القاهرة ، أتبعه بعجائب خلق الإنسان ، وما فيه من العبر ، فقال : ﴿ واللّٰه خلقكم ﴾ ولم تكونوا شيئا ﴿ ثم يتوفاكم ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ ومنكم من يرد إلى أَرْدَلِ الْعُمُرِ ﴾ يقال : رذل يردل رذالة ، والأردل والرذالة : أردأ الشيء وأضعفه . قال النيسابورى : واعلم أن

(١) ابن أبى شيبة (٣٧٤١) .

(٢) ابن ماجة فى الطب (٣٤٥٢) وفى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » وصححه الحاكم ٤/٣٠٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٢٣٤٥) ورجاله إسناده موثقون ولكن رفعه منكر ، والصواب وقفه على ابن مسعود ، والبيهقى ٩/٣٤٤ وأبو نعيم فى الحلية ٧/١٣٣ .

(٣) البخارى فى الطب (٥٦٨٠) .

(٤) البخارى فى الطب (٥٦٨٤) ومسلم فى السلام (٩١/٢٢١٧) والترمذى فى الطب (٢٠٨٢) وقال : « حسن صحيح » .

العقلاء ضبطوا مراتب عمر الإنسان فى أربع : أولاها : سن النشو . وثانيها : سن الوقوف ؛ وهو سن الشباب . وثالثها : سن الانحطاط اليسير ، وهو سن الكهولة . ورابعها : سن الانحطاط الظاهر، وهو سن الشيخوخة . قيل : وأرذل العمر: هو عند أن يصير الإنسان إلى الخرف ، وهو أن يصير بمنزلة الصبى الذى لا عقل له . وقيل : خمس وسبعون سنة . وقيل : تسعون سنة . ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ [التين : ٤ ، ٥] ثم علل سبحانه رد من يرده إلى أرذل العمر بقوله : ﴿ لكيلا يعلم بعد علم ﴾ كان قد حصل له ﴿ شيئا ﴾ من العلم ، لا كثيرا ولا قليلا ، أو شيئا من المعلومات إذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم . وقيل : المراد بالعلم هنا العقل . وقيل : المراد : لئلا يعلم زيادة على علمه الذى قد حصل له قبل ذلك .

ثم لما بين سبحانه خلق الإنسان ، وتقلبه فى أطوار العمر ، ذكر طرفا من أحواله ، لعله يتذكر عند ذلك ، فقال : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ﴾ فجعلكم متفاوتين فيه ، فوسع على بعض عباده حتى جعل له من الرزق ما يكفى ألّوفا مؤلفة من بنى آدم ، وضيقه على بعض عباده ، حتى صار لا يجد القوت إلا بسؤال الناس والتكفف لهم ، وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها والاطلاع على حقيقة أسبابها ، وكما جعل التفاوت بين عباده فى المال ، جعله بينهم فى العقل والعلم والفهم وقوة البدن وضعفه ، والحسن والقبح ، والصحة والسقم ، وغير ذلك من الأحوال . وقيل : معنى الآية : أن الله سبحانه أعطى الموالى أفضل مما أعطى ممالكهم ، بدليل قوله : ﴿ فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم ﴾ أى فما الذين فضلهم الله بسعة الرزق على غيرهم برادى رزقهم الذى رزقهم الله إياه على ما ملكت أيماهم من الممالك ﴿ فهم ﴾ أى المالكون والممالك ﴿ فيه ﴾ أى فى الرزق ﴿ سواء ﴾ أى لا يردونه عليهم بحيث يساوونهم . فالفاء على هذا للدلالة على أن التساوى مترتب على التراد ، أى لا يردونه عليهم ردا مستتبعا للتساوى . وإنما يردون عليهم منه شيئا يسيرا . وهذا مثل ضربه الله سبحانه بعبدة الأصنام ، أى إذا لم يكونوا عبيدكم معكم سواء ، ولا ترضون بذلك ، فكيف تجعلون عبيدى معى سواء . والحال أن عبيدكم مساوون لكم فى البشرية والمخلوقية . فلما لم تجعلوا عبيدكم مشاركين لكم فى أموالكم ، فكيف تجعلون بعض عباد الله سبحانه شركاء له ، فتعبدونهم معه ؟ أو كيف تجعلون بعض مخلوقاته كالأصنام شركاء له فى العبادة ؟ ذكر معنى هذا ابن جرير . ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفُسكم هل لكم من ما ملكت أيماكم من شركاء فيما رزقناكم ﴾ [الروم : ٢٨] وقيل : إن الفاء فى ﴿ فهم فيه سواء ﴾ بمعنى حتى . ﴿ أفبنعمة الله تجحدون ﴾ حيث تفعلون ما تفعلون من الشرك . والنعمة هى كونه سبحانه جعل المالكين مفضلين على الممالك . وقد قرئ : ﴿ تجحدون ﴾ بالتحية والفرقية . قال أبو عبيدة وأبو حاتم : وقراءة الغيبة أولى ، لقرب الخبر عنه ؛ ولأنه لو كان خطابا ، لكان ظاهره للمسلمين . والاستفهام للإنكار . والفاء للعطف على

تجحدون وليس تجحدون

مقدر ، أى يشركون به ، فيجحدون نعمته . ويكون المعنى على قراءة الخطاب أن المالكين ليسوا برادى رزقهم على ممالكهم ، بل أنا الذى أرزقهم وإياهم ، فلا يظنوا أنهم يعطونهم شيئا ، وإنما هو رزقى أجره على أيديهم ، وهم جميعا فى ذلك سواء ، لا مزية لهم على ممالكهم ، فيكون المعطوف عليه المقدر فعلا يناسب هذا المعنى ، كأن يقال : لا يفهمون ذلك ، فيجحدون نعمة الله ، ثم ذكر سبحانه الحالة الأخرى من أحوال الإنسان فقال : ﴿ واللّه جعل لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ قال المفسرون : يعنى : النساء ؛ فإنه خلق حواء من ضلع آدم . أو المعنى : خلق لكم من جنسكم أزواجا لتستأنسوا بها ؛ لأن الجنس يأنس إلى جنسه ، ويستوحش من غير جنسه ، وبسبب هذه الأنسة يقع بين الرجال والنساء ما هو سبب للنسل الذى هو المقصود بالزواج . ولهذا قال : ﴿ وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾ الحفدة : جمع حافد . يقال : حفد يحفد حفدا . وحفودا : إذا أسرع . فكل من أسرع فى الخدمة ، فهو حافد . قال أبو عبيد : الحفد : العمل والخدمة . قال الخليل بن أحمد : الحفدة عند العرب : الخدم . ومن ذلك قول الشاعر ، وهو الأعشى :

كلفت مجهولنا نوقا يمانية إذ الحداة على أكتافها حفدوا

أى الخدم والأعوان . وقال الأزهري : قيل : الحفدة : أولاد الأولاد . وروى عن ابن عباس . وقيل : الأختان . قاله ابن مسعود وعلقمة وأبو الضحى وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي . ومنه قول الشاعر :

فلو أن نفسى طاوعتنى لأصبحت لها حفد مما تعد كثير
ولكنها نفس على أيبة عيوف لأصهار اللثام قذور

وقيل : الحفدة : الأصهار . قال الأصمعي : الختن : من كان من قبل المرأة ، كابنها ، وأخيها وما أشبههما . والأصهار منهما جميعا . يقال : أصهر فلان إلى بنى فلان وصاهر . وقيل : هم أولاد امرأة الرجل من غيره . وقيل : الأولاد الذين يخدمونه . وقيل : البنات الخادومات لأبيهن . ورجح كثير من العلماء أنهم أولاد الأولاد ، لأنه سبحانه امتن على عباده بأن جعل لهم من الأزواج بنين وحفدة . فالحفدة فى الظاهر معطوفون على البنين ، وإن كان يجوز أن يكون المعنى : جعل لكم من أزواجكم بنين ، وجعل لكم حفدة . ولكن لا يمتنع على هذا المعنى الظاهر أن يراد بالبنين من لا يخدم . وبالحفدة من يخدم الأب منهم ، أو يراد بالحفدة البنات فقط . ولا يفيد أنهم أولاد الأولاد إلا إذا كان تقدير الآية : وجعل لكم من أزواجكم بنين . ومن البنين حفدة .

﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ التى تستطيعونها وتستلذونها ، و« من » للتبعية ؛ لأن الطيبات لا تكون مجتمعة إلا فى الجنة . ثم ختم سبحانه الآية بقوله : ﴿ أقبالباطل يؤمنون ﴾ . والاستفهام للإنكار التوبيخى . والفاء للعطف على مقدر ، أى يكفرون بالله ، فيؤمنون

بالباطل، وفي تقدم ﴿ بالباطل ﴾ على الفعل دلالة على أنه ليس لهم إيمان إلا به . والباطل : هو اعتقادهم في أصنامهم أنها تضر وتنفع . وقيل : الباطل ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة ، ونحوهما . قرأ الجمهور : ﴿ يؤمنون ﴾ بالتحية . وقرأ أبو بكر بالفوقية على الخطاب . ﴿ وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ أى ما أنعم به عليهم مما لا يحيط به حصر . وفي تقديم النعمة ، وتوسيط ضمير الفصل دليل على أن كفرهم مختص بذلك، لا يتجاوزه لقصد المبالغة والتأكيد .

﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ هو معطوف على ﴿ يكفرون ﴾ داخل تحت الإنكار التوبيخي ، إنكارا منه سبحانه عليهم حيث يعبدون الأصنام ، وهى لا تنفع ولا تضر . ولهذا قال : ﴿ ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ﴾ قال الأخفش : إن ﴿ شيئا ﴾ بدل من الرزق . وقال الفراء : هو منصوب بإيقاع الرزق عليه . فجعل ﴿ رزقا ﴾ مصدرا عاملا فى ﴿ شيئا ﴾ . والأخفش جعله اسما للرزق . وقيل : يجوز أن يكون تأكيدا لقوله : ﴿ لا يملك ﴾ أى لا يملك شيئا من الملك . والمعنى : أن هؤلاء الكفار يعبدون معبودات لا تملك لهم رزقا ، أى رزق . و﴿ من السموات والأرض ﴾ صفة لرزق ، أى كائنا منهما . والضمير فى : ﴿ ولا يستطيعون ﴾ راجع إلى « ما » . وجمع جمع العقلاء بناء على زعمهم الباطل . والفائدة فى نفى الاستطاعة عنهم أن من لا يملك شيئا قد يكون موصوفا باستطاعة التملك بطريق من الطرق . فبين سبحانه أنها لا تملك ولا تستطيع . وقيل : يجوز أن يكون الضمير فى ﴿ يستطيعون ﴾ للكفار ، أى لا يستطيع هؤلاء الكفار ، مع كونهم أحياء متصرفين ، فكيف بالجمادات التى لا حياة لها ولا تستطيع التصرف ؟

ثم نهاهم سبحانه عن أن يشبهوه بخلقه ، فقال : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ فإن ضارب المثل يشبه حالا بحال ، وقصة بقصة . قال الزجاج : لا تجعلوا لله مثلا ، لأنه واحد لا مثل له . وكانوا يقولون : إن إله العالم أجل من أن يعبد الواحد منا ، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب ، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك . وأولئك الأكابر يخدمون الملك ، فنهاهم عن ذلك . وعلل النهى بقوله : ﴿ إن الله ﴾ عليم ﴿ يعلم ﴾ ما عليكم من العبادة ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ما فى عبادتها من سوء العاقبة ، والتعرض لعذاب الله سبحانه ، أو أنتم لا تعلمون بشيء من ذلك ، وفعلكم هذا هو عن توهم فاسد وخاطر باطل ، وخيال مختل . يجوز أن يراد : فلا تضربوا لله الأمثال ، إن الله يعلم كيف تضرب الأمثال ، وأنتم لا تعلمون ذلك .

وقد أخرج ابن جرير عن على فى قوله : ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ قال : خمس وسبعون سنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى ، قال : هو الخرف . وأخرج سعيد ابن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : من قرأ القرآن ، لم يرد إلى أرذل العمر . ثم قرأ : ﴿ لكيلا يعلم بعد علم شيئا ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة عن طاوس ،

قال : العالم لا يخرف . وقد ثبت عنه عليه السلام في الصحيح وغيره أنه كان يتعوذ بالله أن يرد إلى أرذل العمر (١) .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَاللَّهُ فَضْلُ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ قال : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون عبيدى معى في سلطانى ؟ وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : هذا مثل لآلهة الباطل مع الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قال : خلق آدم ، ثم خلق زوجته منه . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور ، والبخارى في تاريخه ، وابن جرير وابن أبي حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى في سننه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ قال : الحفدة : الأختان . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، قال : الحفدة : الأصهار . وأخرج عنه ، قال : الحفدة : الولد وولد الولد . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال : الحفدة بنو البنين . وأخرج ابن جرير عن أبي حمزة قال : سئل ابن عباس عن قوله : ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ قال : من أعابك فقد حفدك . أما سمعت الشاعر يقول :

حفد الولائد حولهن وأسلمت بكفهن أزمة الأجمال

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا ، قال : الحفدة : بنو امرأة الرجل ، ليسوا منه . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة : ﴿ أَفْبَالِ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ قال : الشرك . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : هو الشيطان . ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ قال : محمد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... ﴾ الآية ، قال : هذه الأوثان التى تعبد من دون الله لا تملك لمن يعبدها ﴿ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ولا خيرا ولا حياة ولا نشورا ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ فإنه أحد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله سبحانه : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ يعنى : اتخاذهم الأصنام . يقول : لا تجعلوا معى إلها غيرى . فإنه لا إله غيرى .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا

(١) قال رسول الله ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر » أخرجه البخارى في الجهاد (٢٨٢٢) عن سعد بن أبي وقاص وفي التفسير (٤٧٠٧) عن أنس بن مالك . وأخرجه مسلم في الذكر (٥٢/٢٧٠٦) عن أنس أيضا ، والنسائي ٢٥٦/٨ عن سعد بن أبي وقاص .

رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) ﴿

قوله : ﴿ ضرب الله مثلا ﴾ لما قال سبحانه : ﴿ إن الله يعلم ﴾ أى بالمعلومات التى من جملتها كيف يضرب الأمثال ، وأنتم لا تعلمون ، علمهم سبحانه كيف تضرب الأمثال ، فقال : ﴿ ضرب الله مثلا ﴾ أى ذكر شيئا يستدل به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه ، وبين ما جعلوه شريكا له من الأصنام . ثم ذكر ذلك فقال : ﴿ عبدا مملوكا ﴾ . والمثل فى الحقيقة هى حالة للعبد عارضة له ، وهى المملوكية والعجز عن التصرف . فقوله : ﴿ عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ﴾ تفسير للمثل وبدل منه . ووصفه بكونه مملوكا ؛ لأن العبد والحر مشتركان فى كون كل واحد منهما عبدا لله سبحانه . ووصفه بكونه لا يقدر على شيء ؛ لأن المكاتب والمأذون يقدران على بعض التصرفات . فهذا الوصف لتمييزه عنهما . ﴿ ومن رزقناه ﴾ : « من » هى الموصولة ، وهى معطوفة على ﴿ عبدا ﴾ أى والذى رزقناه ﴿ منا ﴾ أى من جهتنا ﴿ رزقا حسنا ﴾ من الأحرار الذين يملكون الأموال ويتصرفون بها كيف شاؤوا . والمراد بكون الرزق حسنا : أنه مما يحسن فى عيون الناس لكونه رزقا كثيرا مشتملا على أشياء مستحسنة نفيسة تروق الناظرين إليها . والفاء فى قوله : فهو ينفق منه لترتيب الإنفاق على الرزق ، أى ينفق منه فى وجوه الخير ويصرف منه إلى أنواع البر والمعروف . وانتصاب ﴿ سرا وجهرا ﴾ على الحال ، أى ينفق منه فى حال السر وحال الجهر . والمراد : بيان عموم الإنفاق للأوقات . وتقديم السر على الجهر مشعر بفضيلته عليه ، وأن الثواب فيه أكثر . وقيل : إن « من » فى ﴿ ومن رزقناه ﴾ موصوفة ، كأنه قيل : وحرا رزقناه ، ليطابق عبدا .

﴿ هل يستون ﴾ أى الحر والعبد الموصوفان بالصفات المتقدمة . وجمع الضمير لمكان «من» لأنه اسم مبهم يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث . وقيل : إنه أريد بالعبد والموصول الذى هو عبارة عن الحر الجنس ، أى من اتصف بتلك الأوصاف من الجنسين . والاستفهام للإنكار ، أى هل يستوى العبيد والأحرار الموصوفون بتلك الصفات مع كون كلا الفريقين مخلوقين لله سبحانه من جملة البشر ؟ ومن المعلوم أنهم لا يستون عندهم ، فكيف يجعلون لله سبحانه شركاء لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ، ويجعلونهم مستحقين للعبادة مع الله سبحانه ؟ وحاصل المعنى : أنه كما لا يستوى عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء

ورجل حر قد رزقه الله رزقا حسنا ، فهو ينفق منه ، كذلك لا يستوى الرب الخالق الرازق ، والجمادات من الأصنام التى تعبدونها ، وهى لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع . وقيل : المراد بالعبد المملوك فى الآية : هو الكافر المحروم من طاعة الله وعبوديته . والآخر : هو المؤمن . والغرض : أنهما لا يستويان فى الرتبة والشرف . وقيل : العبد : هو الصنم . والثانى : عابد الصنم . والمراد : أنهما لا يستويان فى القدرة والتصرف ؛ لأن الأول جماد ، والثانى إنسان .

﴿ الحمد لله ﴾ أى الحمد لله كله ، لأنه المنعم ، لا يستحق غيره من العباد شيئا منه ، فكيف تستحق الأصنام منه شيئا ولا نعمة منها أصلا ، لا بالأصالة ولا بالتوسط ؟ وقيل : أراد الحمد لله على ما أنعم به على أوليائه من نعمة التوحيد . وقيل : أراد قل : الحمد لله . والخطاب إما لمحمد ﷺ أو لمن رزقه الله رزقا حسنا . وقيل : إنه لما ذكر مثلا مطابقا للغرض كاشفا عن المقصود ، قال : الحمد لله أى على قوة هذه الحجة ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ذلك حتى يعبدوا من تحق له العبادة ، ويعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة . ونفى العلم عنهم إما لكونهم من الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليهم ، أوهم يتركون الحق عنادا مع علمهم به ، فكانوا كمن لا علم له . وخص الأكثر بنفى العلم ، إما لكونه يريد الخلق جميعا ، وأكثرهم المشركون ، أو ذكر الأكثر ، وهو يريد الكل ، أو المراد أكثر المشركين ؛ لأن فيهم من يعلم ولا يعمل بموجب العلم .

ثم ذكر سبحانه مثلا ثانيا ضربه لنفسه ، ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدينية ، وللأصنام التى هى أموات لا تضر ولا تنفع فقال : ﴿ وضرب الله مثلا ﴾ أى مثلا آخر أوضح مما قبله وأظهر منه . و﴿ رجلين ﴾ بدل من مثل وتفسير له . والأبكم العبى المفحم . وقيل : هو الأقطع اللسان الذى لا يحسن الكلام . وروى ثعلب عن ابن الأعرابى أنه الذى لا يسمع ولا يبصر ، ثم وصف الأبكم فقال : ﴿ لا يقدر على شيء ﴾ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره لعدم فهمه ، وعدم قدرته على النطق . ومعنى ﴿ كل على مولاه ﴾ : ثقيل على وليه وقرابته وعيال على من يلى أمره ويعوله ، ووبال على إخوانه . وقد يسمى اليتيم : كلا ؛ لثقله على من يكفله . ومنه قول الشاعر :

أكل لال الكل قبل شبابه إذا كان عظم الكل غير شديد

وفى هذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شيء مطلقا . ثم وصفه بصفة رابعة فقال : ﴿ أينما يوجهه لا يأت بخير ﴾ أى إذا وجهه إلى أى جهة لا يأت بخير قط ؛ لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ولا يمكنه أن يقول . وقرأ يحيى بن وثاب : « أينما يوجه » على البناء للمجهول . وقرأ ابن مسعود : « أينما توجه » على صيغة الماضى . ﴿ هل يستوى هو ﴾ فى نفسه مع هذه الأوصاف التى اتصف بها . ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ أى يأمر

الناس بالعدل مع كونه فى نفسه ينطق بما يريد النطق به ويفهم . ويقدر على التصرف فى الاشياء . ﴿ وهو ﴾ فى نفسه ﴿ على صراط مستقيم ﴾ على دين قويم ، وسيرة صالحة ليس فيه ميل إلى أحد جانبي الإفراط والتفريط ، قابل أوصاف الأول بهذين الوصفين المذكورين للآخر ؛ لأن حاصل أوصاف الأول عدم استحقاقه لشيء . وحاصل وصفى هذا أنه مستحق أكمل استحقاق . والمقصود الاستدلال بعدم تساوى هذين المذكورين على امتناع التساوى بينه سبحانه وبين ما يجعلونه شريكا لهم .

ولما فرغ سبحانه من ذكر المثلى ، مدح نفسه بقوله : ﴿ ولله غيب السموات والأرض ﴾ أى يختص ذلك به ، لا يشاركه فيه غيره ، ولا يستقل به . والمراد : علم ما غاب عن العباد فيهما ، أو أراد بغييهما يوم القيامة ؛ لأن علمه غائب عن العباد ، ومعنى الإضافة إليهما : التعلق بهما . والمعنى : التوبيخ للمشركين والتفريع لهم ، أى أن العبادة إنما يستحقها من كانت هذه صفته ، لا من كان جاهلا عاجزا لا يضر ولا ينفع ، ولا يعلم بشيء من أنواع العلم . ﴿ وما أمر الساعة ﴾ التى هى أعظم ما وقعت فيه المماراة من الغيوب المختصة به سبحانه ﴿ إلا كلمح البصر ﴾ اللمح : النظر بسرعة . ولا بد فيه من زمان تتقلب فيه الحديقة نحو المرئى ، وكل زمان قابل للتجزئة ، ولذا قال : ﴿ أو هو ﴾ أى أمرهما ﴿ أقرب ﴾ وليس هذا من قبيل المبالغة ، بل هو كلام فى غاية الصدق ، لأن مدة ما بين الخطاب وقيام الساعة متناهية ، ومنها إلى الأبد غير متناه . ولا نسبة للمتناهى إلى غير المتناهى ، أو يقال : إن الساعة لما كانت آتية ولا بد ، جعلت من القرب كلمح البصر . وقال الزجاج : لم يرد أن الساعة تأتى فى لمح البصر ، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها ، لأنه يقول للشيء كن فيكون . وقيل : المعنى : هى عند الله كذلك وإن لم تكن عند المخلوقين بهذه الصفة . ومثله قوله سبحانه : ﴿ إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريباً ﴾ [المعارج : ٦ ، ٧] ولفظ « أو » فى : ﴿ أو هو أقرب ﴾ ليس للشك ، بل للتمثيل . وقيل : دخلت لشك المخاطب . وقيل : هى بمنزلة بل ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ ومجىء الساعة بسرعة من جملة مقدراته .

ثم إنه سبحانه ذكر حالة أخرى للإنسان دالة على غاية قدرته ، ونهاية رأفته ، فقال : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ﴾ وهذا معطوف على قوله : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ منتظم معه فى سلك أدلة التوحيد ، أى أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشيء . وجملة : ﴿ لا تعلمون شيئا ﴾ فى محل نصب على الحال . وقيل : المراد : لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق . وقيل : لا تعلمون شيئا مما قضى به عليكم من السعادة والشقاوة . وقيل : لا تعلمون شيئا من منافعكم . والأولى التعميم لتشمل الآية هذه الأمور وغيرها اعتبارا بعموم اللفظ ، فإن ﴿ شيئا ﴾ نكرة واقعة فى سياق النفى . وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة : « إمهاتكم » بكسر الهمزة والميم هنا ، وفى النور ، والزمر ، والنجم . وقرأ الكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم . وقرأ الباقون بضم الهمزة وفتح الميم .

﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ أى ركب فيكم هذه الأشياء ، وهو معطوف على ﴿أخرجكم﴾ . وليس فيه دلالة على تأخير هذا الجعل عن الإخراج لما أن مدلول الواو هو مطلق الجمع . والمعنى : جعل لكم هذه الأشياء لتحصلوا بها العلم الذى كان مسلوبا عنكم عند إخراجكم من بطون أمهاتكم ، وتعملوا بموجب ذلك العلم من شكر المنعم وعبادته ، والقيام بحقوقه . والأفئدة : جمع فؤاد . وهو وسط القلب ، منزل منه بمنزلة القلب من الصدر . وقد قدمنا الوجه فى إفراد السمع ، وجمع الأبصار والأفئدة ، وهو أن إفراد السمع لكونه مصدرا فى الأصل يتناول القليل والكثير ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ أى لكى تصرفوا كل آلة فيما خلقت له . فعند ذلك تعرفون مقدار ما أنعم الله به عليكم فتشكرونه ، أو أن هذا الصرف هو نفس الشكر .

ثم ذكر سبحانه دليلا آخر على كمال قدرته ، فقال : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات ﴾ أى ألم ينظروا إليها حال كونها مسخرات ، أى مذلات للطيران بما خلق الله لها من الأجنحة ، وسائر الأسباب المواتية لذلك ، كركة قوام الهواء ، وإلهامها بسط الجناح وقبضه ، كما يفعل السابح فى الماء ﴿ فى جو السماء ﴾ أى فى الهواء المتباعد من الأرض فى سمت العلو . وإضافته إلى السماء لكونه فى جانبها ﴿ ما يمسكهن ﴾ فى الجو ﴿ إلا الله ﴾ سبحانه بقدرته الباهرة . فإن ثقل أجسامها ، ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها ، لأنها لم تتعلق بشيء من فوقها ، ولا اعتمدت على شيء تحتها . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وابن عامر وحزمة ويعقوب : « ألم تروا » بالفوقية على الخطاب . واختار هذه القراءة أبو عبيد . وقرأ الباقر بالتحية ﴿ إن فى ذلك لآيات ﴾ أى إن فى ذلك التسخير على تلك الصفة لآيات ظاهرات تدل على وحدانية الله سبحانه وقدرته الباهرة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ بالله سبحانه ، وبما جاءت به رسله من الشرائع التى شرعها الله .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا ﴾ الآية ، قال : يعنى : الكافر أنه لا يستطيع أن ينفق نفقة فى سبيل الله . ﴿ ومن رزقناه منا رزقا حسنا . . ﴾ الآية ، قال : يعنى : المؤمن . وهذا المثل فى النفقة . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم نحوه بأطول منه . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية وفى قوله : ﴿ مثلا رجلين أحدهما أبكم ﴾ قال : كل هذا مثل إله الحق وما تدعون من دونه الباطل . وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال : فى المثل الأول ، يعنى بذلك : الآلهة التى لا تملك ضرا ولا نفعا ، ولا تقدر على شيء ينفعها . ﴿ ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا ﴾ قال : علانية الذى ينفق سرا وجهرا لله .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عنه ، قال : نزلت هذه الآية : ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا ﴾ فى رجل من قريش ، وعبيدة بن هشام بن عمرو . وهو الذى

ينفق سرا وجهرا ، وفى عبدة أبى الجوزاء الذى كان ينهائه (١) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم . . ﴾ الآية ، قال : يعنى بالأبكم : الذى هو كل على مولاه الكافر . ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ : المؤمن . وهذا المثل فى الأعمال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عنه أيضا قال : نزلت هذه الآية : ﴿ وضرب الله مثلا رجلين . . ﴾ الآية فى عثمان بن عفان ومولى له كافر ، وهو أسيد بن أبى العيص كان يكره الإسلام ، وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤنة ، وكان الآخر ينهائه عن الصدقة والمعروف ، فنزلت فيهما (٢) . وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبه والبخارى فى تاريخه ، وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عنه أيضا فى قوله : ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ قال : عثمان بن عفان (٣) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ كل ﴾ قال : الكل : العيال . كانوا إذا ارتحلوا حملوه على بغير ذلول ، وجعلوا معه نفرا يسكونه خشية أن يسقط عليهم ، فهو عناء وعذاب وعيال عليهم ﴿ هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾ يعنى : نفسه .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر ﴾ هو أن يقول : كن . فهو كلمح البصر . ﴿ أو هو أقرب ﴾ فالساعة كلمح البصر أو هى أقرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ﴾ قال : من الرحم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ فى جو السماء ﴾ أى : فى كبد السماء .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بِأَسْكُم كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) ﴾ .

قوله : ﴿ والله جعل لكم ﴾ معطوف على ما قبله . وهذا المذكور من جملة أحوال الإنسان ، ومن تعديد نعم الله عليه ، والسكن مصدر يوصف به الواحد والجمع . وهو بمعنى : مسكون ، أى تسكنوا فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة . وهذه نعمة ، فإن الله لو شاء لخلق العبد

(١) أسباب النزول للواحدي ص ١٦٠ .

(٢) ابن جرير ١٠١/١٤ .

(٣) ابن سعد ٦٠/٣ وابن أبى شيبه (١٢٠٨٨) .

مضطربا دائما كالآفلاك، ولو شاء لخلقه ساكنا أبدا كالأرض ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا﴾ لما ذكر سبحانه بيوت المدن ، وهى التى للإقامة الطويلة ، عقبها بذكر بيوت البادية والرحلة ، أى جعل لكم من جلود الأنعام ، وهى الأنطاع والأدم بيوتا كالخيام والقباب ﴿تستخفونها﴾ أى يخف عليكم حملها فى الأسفار وغيرها ﴿يوم ظعنكم﴾ والظعن بفتح العين وسكونها . وقرئ بهما : سير أهل البادية للانتجاع ^(١) والتحول من موضع إلى موضع . ومنه قول عنترة :

ظعن الذين فراقهم أتوقع وجرى ببيتهم الغراب الأبقع

والظعن: الهودج أيضا. ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا﴾ معطوف على ﴿جعل﴾ أى وجعل لكم من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها . والأنعام : تعم الإبل والبقر والغنم كما تقدم . والأصواف : للغنم ، والأوبار : للإبل ، والأشعار : للمعز ، وهى من جملة الغنم ، فيكون ذكر هذه الثلاثة على وجه التنويع ، كل واحد منها لواحد من الثلاثة ، أعنى : الإبل ، ونوعى الغنم ، والأثاث: متاع البيت ، وأصله الكثرة والاجتماع . ومنه : شعر أثيث، أى كثير مجتمع ، قال الشاعر :

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعكل ^(٢)

قال الخليل : أثاثا ، أى منضمما بعضه إلى بعض . من أث إذا أكثر . قال الفراء : لا واحد له . والمتاع : ما يتمتع به بأنواع التمتع . وعلى قول أبى زيد الأنصارى : إن الأثاث : المال أجمع : الإبل والغنم والصيد والمتاع . يكون عطف المتاع على الأثاث من عطف الخاص على العام . وقيل : إن الأثاث : ما يكتسب به الإنسان ويستعمله من الغطاء والوطاء . والمتاع: ما يفرش فى المنازل ويتزين به . ومعنى ﴿إلى حين﴾ : إلى أن تقضوا أوطاركم منه ، أو إلى أن يبلى ويفنى ، أو إلى الموت، أو إلى القيامة .

ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيام ، أو أبنية يستظل بها لفقر ، أو لعارض آخر ، فيحتاج إلى أن يستظل بشجر أو جدار أو غمام أو نحو ذلك ، نبه سبحانه على ذلك فقال : ﴿وجعل لكم مما خلق ظللا﴾ أى أشياء تستظلون بها كالأشياء المذكورة . والحاصل : أن الظلال تعم الأشياء التى تظل . ثم لما كان المسافر قد يحتاج إلى ركن يأوى إليه فى نزوله ، وإلى ما يدفع به عن نفسه آفات الحر والبرد ، نبه سبحانه على ذلك فقال : ﴿وجعل لكم من الجبال أكنانا﴾ وهى جمع كن ، وهو ما يستكن به من المطر ، وهى هنا الغيران فى الجبال ، جعلها الله سبحانه عدة للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها ، ويعتزلون عن الخلق فيها . ﴿وجعل لكم سراويل﴾ جمع سربال ، وهى : القمصان والثياب من الصوف والقطن والكتان وغيرها . قال الزجاج : كل ما لبسته فهو سربال . ومعنى ﴿تقيكم الحر﴾ : تدفع عنكم ضرر الحر ، وخص

(١) الانتجاع : طلب الكلا ومساقط الغيث .

(٢) المتعكل : الذى دخل بعضه فى بعض لكثرتة .

الحر ولم يذكر البرد اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر ، لأن ما وقى من الحر ، وقى من البرد . ووجه تخصيص الحر بالذكر أن الوقاية منه كانت أهم عندهم من الوقاية من البرد ، لغلبة الحر في بلادهم ﴿ وسراييل تقيكم بأسكم ﴾ وهى الدروع والجواشن ، يتقون بها الطعن والضرب والرمى . والمعنى : أنها تقيهم ^(١) البأس الذى يصل من بعضهم إلى بعض فى الحرب .

﴿ كذلك يتم نعمته عليكم ﴾ أى مثل ذلك الإتمام البالغ يتم نعمته عليكم ، فإنه سبحانه قد من على عباده بصنوف النعم المذكورة هاهنا وبغيرها ، وهو بفضلته وإحسانه سيتم لهم نعمة الدين والدنيا . ﴿ لعلكم تسلمون ﴾ إرادة أن تسلموا . فإن من أمعن النظر فى هذه النعم لم يسعه إلا الإسلام ، والانقياد للحق . وقرأ ابن محيىصن وحמיד : « تتم نعمته » بتاءين فوقيتين ، على أن فاعله نعمته . وقرأ الباقون بالتحية على أن الفاعل هو الله سبحانه . وقرأ ابن عباس وعكرمة : « تسلمون » بفتح التاء واللام من السلامة من الجراح . وقرأ الباقون بضم التاء وكسر اللام من الإسلام . قال أبو عبيد : والاختيار قراءة العامة ، لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح . وقيل : الخطاب لأهل مكة ، أى لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الربوبية . والأولى الحمل على العموم . وإفراد النعمة هنا لأن المراد بها المصدر .

﴿ فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ أى إن تولوا عنك ولم يقبلوا ما جئت به ، فقد تمهد عذرك ، فإنما عليك البلاغ لما أرسلت به إليهم ﴿ المبين ﴾ أى الواضح ، وليس عليك غير ذلك . وصرف الخطاب إلى رسول الله ﷺ تسلياً له .

وجملة : ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾ استئناف لبيان توليهم ، أى هم يعرفون نعمة الله التى عددها ، ويعترفون بأنها من عند الله سبحانه ، ثم ينكرونها بما يقع من أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله وبأقوالهم الباطلة ، حيث يقولون : هى من الله ولكنها بشفاعة الأصنام . وحيث يقولون : إنهم ورثوا تلك النعم من آبائهم . وأيضاً كونهم لا يستعملون هذه النعم فى مرضاة الرب سبحانه ، وفى وجوه الخير التى أمرهم الله بصرفها فيها . وقيل : نعمة الله : نبوة محمد ﷺ كانوا يعرفونه ، ثم ينكرون نبوته . ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ أى الجاحدون لنعم الله ، أو الكافرون بالله . وعبر هنا بالأكثر عن الكل ، أو أراد بالأكثر العقلاء دون الأطفال ونحوهم ، أو أراد كفر الجحود ، ولم يكن كفر كلهم كذلك ، بل كان كفر بعضهم كفر جهل ، وكفر بعضهم بسبب تكذيب الرسول ﷺ مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته . ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ [النمل : ١٤] .

(١) فى المطبوعة : « تقيم » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : ﴿ سَكْنَا ﴾ قال : تسكنون فيها . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي نحوه قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ﴾ وهى خيام العرب . ﴿ تَسْتَخْفُونَهَا ﴾ يقول : فى الحمل ﴿ وَمَتَاعًا ﴾ يقول : بلاغا . ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ قال : إلى الموت . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ تَسْتَخْفُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ قال : بعض بيوت السيارة بنيانه فى ساعة . وفى قوله : ﴿ وَأَوْبَارَهَا ﴾ قال : الإبل . ﴿ وَأَشْعَارَهَا ﴾ قال : الغنم . وأخرج ابن أبي حاتم عنه فى قوله : ﴿ أَثَاثًا ﴾ قال : الأثاث المتاع . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ، قال : الأثاث : المال . ﴿ وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ يقول : تنتفعون به إلى حين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ﴾ قال : من الشجر ومن غيرها ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ قال : غارات يسكن فيها . ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ ﴾ قال : من القطن والكتان والصوف . ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ ﴾ من الحديد . ﴿ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلُمُونَ ﴾ . ولذلك هذه السورة تسمى سورة النعم . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ ﴾ قال يعنى : الثياب . ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ ﴾ قال : يعنى : الدروع والسلاح . ﴿ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلُمُونَ ﴾ يعنى : من الجراحات . وكان ابن عباس يقرؤها : « تسلمون » كما قدمنا ، وإسناده ضعيف .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) .

لما بين سبحانه من حال هؤلاء أنهم عرفوا نعمة الله ، ثم أنكروها ، وأن أكثرهم كافرون ، أتبعه بأصناف وعيد يوم القيامة ، فقال : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ أى واذكر يوم نبعث ، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه ، وشهيد كل أمة نبيها ، يشهد لهم بالإيمان

والتصديق ، وعليهم بالكفر والجحود والتكذيب ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ أى فى الاعتذار ؛ إذ لا حجة لهم ولا عذر ، كقوله سبحانه : ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ [المرسلات : ٣٦] أو فى كثرة الكلام ، أو فى الرجوع إلى دار الدنيا ، وإيراد « ثم » هاهنا للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع مع الاعتذار المنبئ عن الإقنات الكلى أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء . ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ لأن العتاب إنما يطلب لأجل العود إلى الرضا . فإذا كان على عزم السخط ، فلا فائدة فى العتاب . والمعنى : أنهم لا يسترضون ، أى لا يكلفون أن يرضوا ربهم ؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون . وأصل الكلمة من العتب ، وهو الموجد . يقال : عتب عليه يعتب إذا وجد عليه ، فإذا أفاض عليه ماعتب فيه عليه ، قيل : عاتبه . فإذا رجع إلى مسرته ، قيل : أعتبه . والاسم العتبي ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب . قاله الهروى . ومنه قول النابغة :

فإن كنت مظلوما فعبدا ظلمته وإن كنت ذا عتبي فمثلك يعتب

﴿ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب ﴾ أى وإذا رأى الذين أشركوا العذاب الذى يستحقونه بشركهم ، وهو عذاب جهنم ، ﴿ فلا يخفف ﴾ ذلك العذاب ﴿ عنهم ولا هم ينظرون ﴾ أى ولا هم يمهلون ليتوبوا ، إذ لا توبة هنالك . ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ﴾ أى أصنامهم وأوثانهم التى عبدوها ، لما تقرر من أنهم يعثون مع المشركين ليقال لهم : « من كان يعبد شيئا فليتبعه » ^(١) ، كما ثبت فى الصحيح من قوله ﷺ . ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ﴾ أى الذين كنا نعبدهم من دونك . قال أبو مسلم الأصفهاني : مقصود المشركين بهذا القول إحالة الذنب على تلك الأصنام تعللا بذلك ، واسترواحا ، مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة ، ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه . ﴿ فآلقوا إليهم القول ﴾ أى ألقى أولئك الأصنام والأوثان والشياطين ونحوهم إلى المشركين القول . ﴿ إنكم لكاذبون ﴾ أى قالوا لهم : إنكم أيها المشركون لكاذبون فيما تزعمون من إحالة الذنب علينا الذى هو مقصودكم من هذا القول .

فإن قيل : إن المشركين أشاروا إلى الأصنام ونحوها أن هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك . وقد كانوا صادقين فى ذلك ، فكيف كذبتهم الأصنام ونحوها ؟ فالجواب بأن مرادهم من قولهم : ﴿ هؤلاء شركاؤنا ﴾ : هؤلاء شركاء الله فى المعبودية ، فكذبتهم الأصنام فى دعوى هذه الشراكة . والأصنام والأوثان وإن كانت لا تقدر على النطق ، فإن الله سبحانه ينطقها فى تلك الحال ، لتخجيل المشركين وتوبيخهم . وهذا كما قالت الملائكة : ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ [سبأ : ٤١] يعنون : أن الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لهم .

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه البخارى فى الأذان (٨٠٦) وفى التوحيد (٧٤٣٦) ومسلم فى الإيمان (٢٩٩ / ١٨٢) ، كلاهما عن أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم ﴾ أى ألقى المشركون يوم القيامة الاستسلام والانقياد لعذابه : والخضوع لعزته . وقيل : استسلم العابد والمعبود ، وانقادوا لحكمه فيهم . ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أى ضاع وبطل ما كانوا يفترونه من أن لله سبحانه شركاء ، وماكانوا يزعمون من شفاعتهم لهم . وأن عبادتهم لهم تقربهم إلى الله سبحانه .

﴿ الذين كفروا ﴾ فى أنفسهم ﴿ وصدوا ﴾ غيرهم ﴿ عن سبيل الله ﴾ أى عن طريق الحق ، وهى : طريق الإسلام والإيمان بأن منعوهم من سلوكها وحملوهم على الكفر . وقيل : المراد بالصد عن سبيل الله : الصد عن المسجد الحرام . والأولى العموم . ثم أخبر عن هؤلاء الذين صنعوا هذا الصنع بقوله : ﴿ زدناهم عذابا فوق العذاب ﴾ أى زادهم الله عذابا لأجل الإضلال لغيرهم فوق العذاب الذى استحقوه لأجل ضلالهم . وقيل : المعنى : زدنا القادة عذابا فوق عذاب أتباعهم ، أى أشد منه . وقيل : إن هذه الزيادة هى إخراجهم من النار إلى الزمهير . وقيل غير ذلك .

﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم ﴾ أى نيا يشهد عليهم ﴿ من أنفسهم ﴾ من جنسهم . إتماما للحجة وقطعا للمعذرة . وهذا تكرير لما سبق لقصد التأكيد والتهديد . ﴿ وجئنا بك ﴾ يا محمد ﴿ شهيدا على هؤلاء ﴾ أى تشهد على هذه الأمم ، وتشهد لهم . وقيل : على أمتك . وقد تقدم مثل هذا فى البقرة والنساء ﴿ ونزلنا عليك الكتاب ﴾ أى القرآن . والجملة مستأنفة ، أو فى محل نصب على الحال بتقدير قد . ﴿ تبيانا لكل شيء ﴾ أى بيانا له . والتاء : للمبالغة ، ونظيره من المصادر التلقاء ، ولم يأت غيرهما . ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شيء ﴾ [الأنعام : ٣٨] ومعنى كونه ﴿ تبيانا لكل شيء ﴾ : أن فيه البيان لكثير من الأحكام ، والإحالة فيمابقى منها على السنة . وأمرهم باتباع رسوله ﷺ فيما يأتى به من الأحكام ، وطاعته كما فى الآيات القرآنية الدالة على ذلك . وقد صح عنه ﷺ أنه قال : « وإنى أوتيت القرآن ومثله معه » (١) . ﴿ وهدى ﴾ للعباد ﴿ ورحمة ﴾ لهم ﴿ وبشرى للمسلمين ﴾ خاصة دون غيرهم ، أو يكون الهدى والرحمة والبشرى خاصة بهم ؛ لأنهم المنتفعون بذلك .

ثم لما ذكر سبحانه أن فى القرآن تبيان كل شيء ذكر عقبه آية جامعة لأصول التكليف كلها تصديقا لذلك ، فقال : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ . وقد اختلف أهل العلم فى تفسير العدل والإحسان ، فقيل : العدل : لا إله إلا الله ، والإحسان : أداء الفرائض . وقيل : العدل : الفرض . والإحسان : النافلة . وقيل : العدل : استواء العلانية والسريرة ، والإحسان : أن تكون السريرة أفضل من العلانية . وقيل : العدل : الإنصاف . والإحسان : التفضل . والأولى : تفسير العدل بالمعنى اللغوى ، وهو التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط . فمعنى

(١) جزء من حديث طويل أخرجه أبو داود فى السنة (٤٦٠٤) عن المقدام بن معدى كرب .

أمره سبحانه بالعدل : أن يكون عباده في الدين على حالة متوسطة ، ليست بمائلة إلى جانب الإفراط ، وهو الغلو المذموم في الدين ، ولا إلى جانب التفريط ، وهو الإخلال بشيء مما هو من الدين . وأما الإحسان فمعناه اللغوي يرشد إلى أنه التفضل بما لم يجب ، كصدقة التطوع . ومن الإحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه الله عليه في العبادات وغيرها . وقد صح عن النبي ﷺ أنه فسر الإحسان بأن يعبد الله العبد حتى كأنه يراه . فقال في حديث ابن عمر^(١) الثابت في الصحيحين : « والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(٢) وهذا هو معنى الإحسان شرعا .

﴿ وإيتاء ذى القربى ﴾ أى إعطاء القرابة ما تدعو إليه حاجتهم . وفى الآية إرشاد إلى صلة الأقارب وترغيب في التصديق عليهم . وهو من باب عطف الخاص على العام ، إن كان إعطاء الأقارب قد دخل تحت العدل والإحسان . وقيل : من باب عطف المندوب على الواجب . ومثل هذه الآية قوله : ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ [الإسراء : ٢٦] وإنما خص ذوى القربى لأن حقهم أكد . فإن الرحم قد اشتق الله اسمها من اسمه ، وجعل صلتها من صلتها ، وقطيعتها من قطيعته .

﴿ وينهى عن الفحشاء ﴾ هى الخصلة المتزايدة في القبح من قول أو فعل . وقيل : هى الزنا . وقيل : البخل . ﴿ والمنكر ﴾ : ما أنكره الشرع بالنهاى عنه . وهو يعم جميع المعامسى على اختلاف أنواعها . وقيل : هو الشرك . وأما ﴿ البغى ﴾ فقليل : هو الكبر . وقيل : الظلم . وقيل : الحقد . وقيل : التعدى . وحقيقته تجاوز الحد فيشمل هذه المذكورة ، ويندرج بجميع أقسامه تحت المنكر . وإنما خص بالذكر اهتماما به لشدة ضرره ووبال عاقبته . وهو من الذنوب التى ترجع على فاعلها لقوله سبحانه : ﴿ إنما بغيتكم على أنفسكم ﴾ [يونس : ٢٣] وهذه الآية هى من الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر . ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿ يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ أى يعظكم بما ذكره فى هذه الآية مما أمركم به ونهاكم عنه . فإنها كافية فى باب الوعظ والتذكير . ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ إرادة أن تتذكروا ما ينبغى تذكركم ، فتتعتظوا بما وعظكم الله به .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ﴾ قال : شهيدا نبيا على أنه قد بلغ رسالات ربه . قال الله : ﴿ وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ﴾ قال : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية ، فاضت عيناه^(٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ فألقوا إليهم القول ﴾ قال : حدثهم . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج : ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ

(١) الحديث عن عمر بن الخطاب كما فى مراجع التخرىج .

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه البخارى فى الإيمان (٥٠) وفى التفسير (٤٧٧٧) عن أبى هريرة ومسلم فى الإيمان

(١ / ٨) عن عمر بن الخطاب .

(٣) ابن جرير ١٠٦ / ١٤ .

السلم ﴿ قال : استسلموا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد بن السرى وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه ، والبيهقي فى البعث والنشور ، عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ زدناهم عذابا فوق العذاب ﴾ قال : زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال ^(١) . وأخرج ابن مردويه والخطيب عن البراء ؛ أن النبى ﷺ سئل عن قول الله تعالى : ﴿ زدناهم عذابا فوق العذاب ﴾ فقال : عقارب أمثال النخل الطوال ينهشونهم فى جهنم . وأخرج أبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ زدناهم عذابا فوق العذاب ﴾ أنهم من نار صبها الله عليهم يعذبون ببعضها بالليل ، وبعضها بالنهار ^(٢) . وقد روى ابن مردويه من حديث جابر عن النبى ﷺ قال : « الزيادة خمسة أنهار تجرى من تحت العرش على رؤوس أهل النار ، ثلاثة أنهار على مقدار الليل ، ونهران على مقدار النهار ، فذلك قوله : ﴿ زدناهم عذابا فوق العذاب ﴾ » .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود ، قال : إن الله أنزل فى هذا الكتاب تبيانا لكل شيء ، ولكن علمنا يقصر عما بين لنا فى القرآن ، ثم قرأ : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ﴾ . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن الضريس فى فضائل القرآن ، ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة ، والطبراني ، والبيهقي فى الشعب عن ابن مسعود قال : من أراد العلم ، فليثور ^(٣) القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين ^(٤) .

وأخرج أحمد عن عثمان بن أبى العاص ، قال : كنت عند رسول الله ﷺ جالسا ، إذ شخص بصره فقال : « أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ الآية » ^(٥) . وفى إسناده شهر بن حوشب . وقال ابن كثير فى تفسيره : إسناده لا بأس به ^(٦) . وقد أخرجه مطولا أحمد والبخارى فى الأدب ، وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من حديث ابن عباس ، وحسن ابن كثير إسناده ^(٧) . وأخرج

(١) ابن أبى شيبة (١٥٩٨٥) وأبو يعلى (٢٦٥٩) وابن جرير ١٠٧/١٤ والطبراني (٩١٠٣) وصححه الحاكم ٥٩٣/٤ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٥١/٧ : « رواه الطبراني بأسانيد ، ورجال بعضها رجال الصحيح » .

(٢) أبو يعلى (٢٦٦٠) ورجاله رجال الصحيح خلا إبراهيم بن سليمان المؤدب وهو ثقة . لكن الحسن البصرى قد عنعن ، وفى سماعة من ابن عباس كلام ، وقال الهيثمى فى المجمع ٣٩٢/١٠ : « ورجاله رجال الصحيح » . (٣) ثور القرآن : بحث عن علمه ، القاموس ٤٥٩ .

(٤) الطبراني (٨٦٦٥ ، ٨٦٦٦) والبيهقي فى الشعب (١٨٠٨) وإسناده ليس بقوى وله طرق أخرى صحيحة ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٦٨/٧ : « رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح » .

(٥) أحمد ٢١٨/٤ وقال الهيثمى فى المجمع ٥١/٧ : « رواه أحمد وإسناده حسن » .

(٦) ابن كثير ٢٢٠/٤ .

(٧) أحمد ٣١٨/١ والطبراني (٨٢٢٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٥١/٧ : « رواه أحمد والطبراني وشهر ، وثقه أحمد وجماعة وفيه ضعف لا يضر ، وبقية رجاله ثقات » .

الماوردي وابن السكن وابن منده ، وأبو نعيم فى معرفة الصحابة عن عبد الملك بن عمير ؛ أن هذه الآية لما بلغت أكثم بن صيفى ، حكيم العرب قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملامتها . ثم قال لقومه : كونوا فى هذا الأمر رؤوسا ، ولا تكونوا فيه أذنانا ، وكونوا فيه أولا ولا تكونوا فيه آخرا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِنْ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله . ﴿ وَالْإِحْسَانَ ﴾ أداء الفرائض . ﴿ وَإِيتَاءَ ذَى الْقُرْبَى ﴾ قال : إعطاء ذوى الأرحام الحق الذى أوجبه الله عليك بسبب القرابة والرحم . ﴿ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ ﴾ قال : الزنا . ﴿ وَالْمُنْكَرِ ﴾ قال : الشرك . ﴿ وَالْبَغْيِ ﴾ قال : الكبر والظلم . ﴿ يَعِظْكُمْ ﴾ قال : يوصيكم . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . وأخرج سعيد بن منصور ، والبخارى فى الأدب ، ومحمد بن نصر فى الصلاة ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب قال : أعظم آية فى كتاب الله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَى الْقَيُّومُ . . ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وأجمع آية فى كتاب الله للخير والشر الآية التى فى النحل : ﴿ إِنْ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ . . ﴾ وأكثر آية فى كتاب الله تفويضا : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] وأشد آية فى كتاب الله رجاء : ﴿ يَا عِبَادِ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ . . ﴾ الآية [الزمر : ٥٣] . وأخرج البيهقى فى الشعب عن الحسن أنه قرأ هذه الآية : ﴿ إِنْ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ . . ﴾ إلى آخرها ، ثم قال : إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله ، والشر كله فى آية واحدة ، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئا إلا جمعه ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئا إلا جمعه . وأخرج البخارى فى تاريخه من طريق الكلبي عن أبيه قال : مر على بن أبى طالب يقوم يتحدثون ، فقال : فيم أنتم ؟ قالوا : نتذاكر المروءة . فقال : أو ما كفاكم الله عز وجل ذلك فى كتابه ، إذ يقول : ﴿ إِنْ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ فالعدل : الإنصاف . والإحسان : التفضل . فما بقى بعد هذا !

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا

بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴿

خص سبحانه من جملة المأمورات التي تضمنتها قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ الوفاء بالعهد ، فقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ وظاهره العموم في كل عهد يقع من الإنسان من غير فرق بين عهد البيعة وغيره . وخص هذا العهد المذكور في هذه الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن في بيعة النبي ﷺ على الإسلام . وهو خلاف ما يفيد العهد المضاف إلى اسم الله سبحانه من العموم الشامل لجميع عهود الله . ولو فرض أن السبب خاص بعهد من العهود ، لم يكن ذلك موجبا لقصره على السبب . فالاعتبار بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب وفسره بعضهم باليمين . وهو مدفع بذكر الوفاء بالآيمان بعده حيث قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْآيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ أى بعد تشديدها وتغليظها وتوثيقها . وليس المراد اختصاص النهى عن النقض بالآيمان المؤكدة لاغيرها مما لا تأكيد فيه . فإن تحريم النقض يتناول الجميع ، ولكن في نقض اليمين المؤكدة من الإثم فوق الإثم الذى فى نقض ما لم يؤكد منها . يقال : وكذ وأكد توكيدا وتأكيدا . وهما لغتان . وقال الزجاج : الأصل الواو ، والهمزة بدل منها . وهذا العموم مخصوص بما ثبت فى الأحاديث الصحيحة من قوله ﷺ : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها ، فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه » حتى بالغ فى ذلك ﷺ فقال : « والله لا أحلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها ، إلا أتيت الذى هو خير وكفرت عن يميني » . وهذه الألفاظ ثابتة فى الصحيحين وغيرهما (١) . ويخص أيضا من هذا العموم يمين اللغو ، لقوله سبحانه : ﴿ لَا يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٥] ويمكن أن يكون التقييد بالتوكيد هنا لإخراج أيمان اللغو . وقد تقدم بسط الكلام على الآيمان فى البقرة . ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ﴾ أى شهيدا . وقيل : حافظا . وقيل : ضامنا . وقيل : رقيقا ؛ لأن الكفيل يراعى حال المكفول به . وقيل : إن توكيد اليمين هو حلف الإنسان على الشيء الواحد مرارا . وحكى القرطبي عن ابن عمر : أن التوكيد هو أن يحلف مرتين . فإن حلف واحدة ، فلا كفارة عليه (٢) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ فيجازيكم بحسب ذلك ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وفيه ترغيب وترهيب .

ثم أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض ، فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا ﴾ أى

(١) البخارى فى التوحيد (٧٥٥٥) ومسلم فى الآيمان (٧/١٦٤٩ ، ٩ ، ١٠) عن أبى موسى الأشعرى (١٣/١٦٥٠) عن أبى هريرة (١٥/١٦٥٠ - ١٧) عن عدى بن حاتم (١٩/١٦٥٢) عن عبد الرحمن بن سمرة ، وأبو داود فى الآيمان والنذور (٣٢٧٤) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، والترمذى فى النذور والآيمان (١٥٢٩) عن عبد الرحمن بن سمرة وقال : « حسن صحيح » (١٥٣٠) عن أبى هريرة .

(٢) القرطبي ٣٧٨٦/٦ .

لا تكونوا فيما تصنعون من النقض بعد التوكيد كالتى نقضت غزلها ، أى ما غزلته ﴿ من بعد قوة ﴾ أى من بعد إبرام الغزل وإحكامه . وهو متعلق بـ ﴿ نقضت ﴾ ﴿ أنكاثا ﴾ جمع نكث بكسر النون ، ما ينكث فتلته . قال الزجاج : انتصب ﴿ أنكاثا ﴾ على المصدر ؛ لأن معنى نقضت : نكثت . ورد بأن ﴿ أنكاثا ﴾ ليس بمصدر ، وإنما هو جمع كما ذكرنا . وقال الواحدى : هو منصوب على أنه مفعول ثان ، كما تقول : كسرتة أقطاعا وأجزاء ، أى جعلته أقطاعا وأجزاء . ويحتمل أن يكون حالا . قال ابن قتيبة : هذه الآية متعلقة بما قبلها ، والتقدير : وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الأيمان ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، كنتم مثل امرأة غزلت غزلا ، وأحكمته ثم جعلته أنكاثا .

وجملة : ﴿ تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ﴾ فى محل نصب على الحال . قال الجوهري : والدخل : المكر والخديعة . وقال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا ، فهو دخل . وقيل : الدخل : ما أدخل فى الشيء على فساد . وقال الزجاج : غشا وغلا . ﴿ أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾ أى بأن تكون جماعة هى أربى من جماعة ، أى أكثر عددا منها وأوفر مالا . يقال : ربا الشيء يربو إذا كثر . قال الفراء : المعنى : لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم ، أو لقلتكم وكثرتهم ، وقد عذرتموهم بالأيمان . قيل : وقد كانت قريش إذا رأوا شوكة فى أعادى حلفائهم ، نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم . وقيل : هو تحذير للمؤمنين أن يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم ، فينقضوا بيعة النبى ﷺ .

﴿ إنما ييلوكم الله به ﴾ أى يختبركم بكونكم أكثر وأوفر ، لينظر هل تتمسكون بحبل الوفاء ، أم تنقضون اغترارا بالكثرة ؟ فالضمير فى ﴿ به ﴾ راجع إلى مضمون جملة : ﴿ أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾ أى إنما ييلوكم الله بتلك الكثرة ، ليعلم ما تصنعون ، أو إنما ييلوكم الله بما يأمركم وينهاكم . ﴿ وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ فيوضح الحق والمحقين ، ويرفع درجاتهم ، ويبين الباطل والمبطلين ، فينزل بهم من العذاب ما يستحقونه . وفى هذا إنذار وتحذير من مخالفة الحق والركون إلى الباطل . أو يبين لكم ما كنتم تختلفون فيه من البعث والجنة والنار . ثم بين سبحانه أنه قادر على أن يجمع المؤمنين والكافرين على الوفاء أو على الإيمان ، فقال : ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ متفقة على الحق ﴿ ولكن ﴾ بحكم الإلهية ﴿ يضل من يشاء ﴾ بخذلانه إياهم عدلا منه فيهم ﴿ ويهدى من يشاء ﴾ بتوفيقه إياهم فضلا منه عليهم ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ولهذا قال : ﴿ ولتسألن عما كنتم تعملون ﴾ من الأعمال فى الدنيا . واللام فى ﴿ وليبين لكم ﴾ وفى ﴿ ولتسألن ﴾ هما الموطئتان للقسم .

ثم لما نهاهم سبحانه عن نقض مطلق الأيمان ، نهاهم عن نقض أيمان مخصوصة ، فقال : ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ﴾ وهى أيمان البيعة . قال الواحدى : قال المفسرون : وهذا فى نهى الذين بايعوا رسول الله ﷺ عن نقض العهد على الإسلام ونصرة الدين . واستدلوا

على هذا التخصيص بما فى قوله : ﴿ فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ من المبالغة ، وبما فى قوله : ﴿ وتذوقوا السوء بما صدقتم ﴾ لأنهم إذا نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ صدوا غيرهم عن الدخول فى الإسلام . وعلى تسليم أن هذه الأيمان مع رسول الله ﷺ هى سبب نزول هذه الآية ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وقال جماعة من المفسرين : إن هذا تكرير لما قبله ، لقصد التأكيد والتقرير . ومعنى ﴿ فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ فتزل قدم من اتخذ يمينه دخلا عن محجة الحق ﴿ بعد ثبوتها ﴾ عليها ورسوخها فيها . قيل : وأفرد القدم للإيذان بأن زلل قدم واحد ، أى قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة ! وهذا استعارة للمستقيم الحال ، يقع فى شر عظيم ويسقط فيه ، لأن القدم إذا زلت ، نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر . ويقال لمن أخطأ فى شئ : زلت به قدمه . ومنه قول الشاعر :

تداركتما عيسا وقد ثل عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

﴿ وتذوقوا السوء بما صدقتم ﴾ أى تذوقوا العذاب السيئ فى الدنيا أو فى الآخرة ، أو فيهما بما صدقتم ﴿ عن سبيل الله ﴾ أى بسبب صدودكم أنتم عن سبيل الله ، وهو الإسلام ، أو بسبب صدكم لغيركم عن الإسلام . فإن من نقض البيعة وارتد ، اقتدى به غيره فى ذلك ، فكان فعله سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها . ولهذا قال : ﴿ ولكم عذاب عظيم ﴾ أى متبالغ فى العظم ، وهو عذاب الآخرة إن كان المراد بما قبله عذاب الدنيا .

ثم نهاهم سبحانه عن الميل إلى عرض الدنيا والرجوع عن العهد لأجله فقال : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ﴾ أى لا تأخذوا فى مقابلة عهدكم عوضا يسيرا حقيرا . وكل عرض دنيوى وإن كان فى الصورة كثيرا ، فهو لكونه ذاهبا زائلا يسير . ولهذا ذكر سبحانه بعد تقليل عرض الدنيا خيرية ما عند الله فقال : ﴿ إنما عند الله هو خير لكم ﴾ أى ما عنده من النصر فى الدنيا والغنائم والرزق الواسع . وما عنده فى الآخرة من نعيم الجنة الذى لا يزول ولا ينقطع هو خير لهم . ثم علل النهى عن أن يشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ، وأن ما عند الله هو خير لهم بقوله : ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى إن كنتم من أهل العلم والتمييز بين الأشياء .

ثم ذكر دليلا قاطعا على حقارة عرض الدنيا وخيرية ما عند الله فقال : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ ومعلوم لكل عاقل أن ما ينفد ويزول وإن بلغ فى الكثرة إلى أى مبلغ فهو حقير يسير ، وما كان يبقى ولا يزول فهو كثير جليل . أما نعيم الآخرة فظاهر . وأما نعيم الدنيا الذى أنعم الله به على المؤمنين فهو وإن كان زائلا ، لكنه لما كان متصلا بنعيم الآخرة ، كان من هذه الخيشية فى حكم الباقي الذى لا ينقطع ، ثم قال : ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ اللام هى الموطئة ، أى لنجزينهم بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاق التكليف وجهاد الكافرين والصبر على ما ينالهم منهم من الإيذاء بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات . قيل : وإنما خص أحسن أعمالهم ؛ لأن ما عداه وهو الحسن . مباح . والجزاء إنما يكون على الطاعة . وقيل : المعنى : ولنجزينهم بجزاء أشرف وأوفر من عملهم ،

كقوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام: ١٦٠] أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الأعلى منها من الجزاء الجزيل ، لا أنا نعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسن بأن نجزي الحسن منها بالأجر الحسن ، والأحسن بالأحسن . كذا قيل . قرأ عاصم وابن كثير : ﴿ لنجزين ﴾ بالنون . وقرأ الباقر بالياء التحتية .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن بريدة بن جابر في قوله : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ قال : أنزلت هذه الآية في بيعة رسول الله ﷺ كأن من أسلم بايع على الإسلام فقال : ﴿ وأوفوا بعهد الله ... ﴾ الآية . فلا يحملنكم قلة محمد وأصحابه ، وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام ^(١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ يقول : بعد تغليظها . وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه .

وأخرج ابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس ؛ أن سعيذة الأسدية كانت تجمع الشعر والليف ، فنزلت فيها هذه الآية : ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها ﴾ . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن حفص مثله . وفي الروایتين جميعاً أنها كانت مجنونة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في سبب نزول الآية ، قال : كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكة كانت تغزل . فإذا أبرمت غزلها ، نقضته ^(٢) . وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن كثير معناه ^(٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ قال : ناس أكثر من ناس . وأخرجوا عن مجاهد في الآية ، قال : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز ، فنهوا عن ذلك .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٩٧) فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ

(١) ابن جرير ١١٠/١٤ .

(٢) ، (٣) المرجع السابق ١١١/١٤ .

إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) ﴿

هذا شروع فى ترغيب كل مؤمن فى كل عمل صالح ، وتعميم للوعد . ومعنى ﴿ من عمل صالحا ﴾ : من عمل عملا صالحا أى عمل كان . وزيادة التمييز بذكر أو أنثى مع كون لفظ ﴿ من ﴾ شاملا لهما ؛ لقصد التأكيد والمبالغة فى تقرير الوعد . وقيل : إن لفظ ﴿ من ﴾ ظاهر فى الذكور ، فكان فى التنصيص على الذكر والأنثى بيان لشموله للنوعين . وجملة : ﴿ وهو مؤمن ﴾ فى محل نصب على الحال . جعل سبحانه الإيمان قيدا فى الجزاء المذكور ؛ لأن عمل الكافر لا اعتداد به ؛ لقوله سبحانه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

ثم ذكر سبحانه الجزاء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ وقد وقع الخلاف فى الحياة الطيبة بماذا تكون ؟ فقيل : بالرزق الحلال ، روى ذلك عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك . وقيل : بالقناعة ، قاله الحسن البصرى وزيد بن وهب ووهب بن منبه . وروى أيضا عن على وابن عباس . وقيل : بالتوفيق إلى الطاعة ، قاله الضحاك . وقيل : الحياة الطيبة : هى حياة الجنة . روى عن مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وحكى عن الحسن أنه قال : لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة . وقيل : الحياة الطيبة : هى السعادة . روى ذلك عن ابن عباس . وقيل : هى المعرفة بالله حكى ذلك عن جعفر الصادق . وقال أبو بكر الوراق : هى حلاوة الطاعة . وقال سهل بن عبد الله التستري : هى أن ينزع عن العبد تدبير نفسه ، ويرد تدبيره إلى الحق . وقيل : هى الاستغناء عن الخلق والافتقار إلى الحق . وأكثر المفسرين على أن هذه الحياة الطيبة هى فى الدنيا ، لا فى الآخرة ؛ لأن حياة الآخرة قد ذكرت بقوله : ﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ . وقد قدمنا قريبا تفسير الجزاء بالأحسن . ووجد الضمير فى « لنحيينه » ، وجمعه فى « ولنجزينهم ﴾ حملا على لفظ ﴿ من ﴾ وعلى معناه .

ثم لما ذكر سبحانه العمل الصالح والجزاء عليه ، أتبعه بذكر الاستعاذة التى تخلص بها الأعمال الصالحة عن الوسوس الشيطانية فقال : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ والفاء لترتيب الاستعاذة على العمل الصالح . وقيل : هذه الآية متصلة بقوله : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ﴾ والتقدير : فإذا أخذت فى قراءته ، فاستعذ . قال الزجاج وغيره من أئمة اللغة : معناه : إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ . وليس معناه : استعذ بعد أن تقرأ القرآن . ومثله : إذا أكلت فقل : بسم الله . قال الواحدي : وهذا إجماع الفقهاء أن الاستعاذة قبل القراءة ، إلا ما روى عن أبى هريرة وابن سيرين وداود ومالك وحمزة من

القراء ، فإنهم قالوا : الاستعاذة بعد القراءة . ذهبوا إلى ظاهر الآية . ومعنى ﴿ فاستعذ بالله ﴾ : أسأله سبحانه أن يعيذك من الشيطان الرجيم ، أى من وساوسه . وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها ؛ للتنبيه على أنها لسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها أهم ؛ لأنه إذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كانت عند إرادة غيره أولى . كذا قيل . وتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ للإشعار بأن غيره أولى منه بفعل الاستعاذة ؛ لأنه إذا أمر بها لدفع وساوس الشيطان مع عصمته ، فكيف بسائر أمته ؟ وقد ذهب الجمهور إلى أن الأمر فى الآية للندب . وروى عن عطاء الوجوب أخذاً بظاهر الأمر . وقد تقدم الكلام فى الاستعاذة مستوفى فى أول هذا التفسير .

والضمير فى : ﴿ إنه ليس له سلطان ﴾ للشأن أو للشيطان ، أى ليس له تسلط « على » إغواء ﴿ الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ وحكى الواحدى عن جميع المفسرين أنهم فسروا السلطة بالحجة . وقالوا : المعنى : ليس له حجة على المؤمنين فى إغوائهم ودعائهم إلى الضلالة . ومعنى ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ : يفوضون أمورهم إليه فى كل قول وفعل . فإن الإيمان بالله والتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم . وإن وسوس لأحد منهم ، لا تؤثر فيه وسوسته . وهذه الجملة تعليل للأمر بالاستعاذة . وهؤلاء الجامعون بين الإيمان والتوكل هم الذين قال فيهم إبليس : ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [الحجر : ٤٠] وقال الله فيهم : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [الحجر : ٤٢] .

ثم حصر سبحانه سلطان الشيطان ، فقال : ﴿ إنما سلطانه ﴾ أى تسلطه على الإغواء ﴿ على الذين يتولونه ﴾ أى يتخذونه وليا ويطيعونه فى وساوسه ﴿ والذين هم به مشركون ﴾ الضمير فى ﴿ به ﴾ يرجع إلى الله تعالى ، أى الذين هم بالله مشركون . وقيل : يرجع إلى الشيطان . والمعنى : والذين هم من أجله وبسبب وسوسته مشركون بالله .

﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ هذا شروع منه سبحانه فى حكاية شبه كفرية ودفعها . ومعنى التبديل : رفع الشيء مع وضع غيره مكانه . وتبديل الآية رفعها بأخرى غيرها ، وهو نسخها بآية سواها . وقد تقدم الكلام فى النسخ فى البقرة . ﴿ قالوا ﴾ أى كفار قريش الجاهلون للحكمة فى النسخ : ﴿ إنما أنت ﴾ يا محمد ﴿ مفتر ﴾ أى كاذب مختلق على الله ، متقول عليه بما لم يقل ، حيث تزعم أنه أمرك بشيء ، ثم تزعم أنه أمرك بخلافه ، فرد الله سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم ، فقال : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ شيئا من العلم أصلا ، أو لا يعلمون بالحكمة فى النسخ ، فإنه مبنى على المصالح التى يعلمها الله سبحانه ، فقد يكون فى شرع هذا الشيء مصلحة مؤقتة بوقت ، ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت فى شرع غيره . ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة ، لعرفوا أن ذلك وجه الصواب ومنهج العدل والرفق واللطف .

ثم بين سبحانه لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ ، الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله ، وأن رسوله ﷺ افتراه فقال : ﴿ قل نزل ﴾ أى القرآن المدلول عليه بذكر الآية ﴿ روح

القدس ﴿ أى جبريل . والقدس : التطهير ، والمعنى : نزله الروح المطهر من أدناس البشرية ، فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ﴿ من ربك ﴾ أى ابتداء تنزيله من عنده سبحانه . و ﴿ بالحق ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى متلبسا بكونه حقًا ثابتًا لحكمة بالغه ﴿ ليثبت الذين آمنوا ﴾ على الإيمان ، فيقولون كل من الناسخ والمنسوخ من عند ربنا ؛ ولأنهم أيضا إذا عرفوا ما فى النسخ من المصالح ، ثبتت أقدامهم على الإيمان ورسخت عقائدهم . وقرئ : ﴿ ليثبت ﴾ من الإثبات . ﴿ وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ وهما معطوفان على محل ﴿ ليثبت ﴾ أى تثبيتا لهم وهداية وبشارة . وفيه تعريض بحصول أضرار هذه الخصال لغيرهم .

ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبههم فقال : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ﴾ . اللام هى الموطئة ، أى ولقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون : إنما يعلم محمدا القرآن بشر من بنى آدم غير ملك . وقد اختلف أهل العلم فى تعيين هذا البشر الذى زعموا عليه ما زعموا ، ف قيل : هو غلام الفاكه بن المغيرة ، واسمه جبر وكان نصرانيا فأسلم . وكان كفار قريش إذا سمعوا من النبى ﷺ أخبار القرون الأولى مع كونه أميا ، قالوا : إنما يعلمه جبر . وقيل : اسمه يعيش ، عبد لبنى الحضرمي . وكان يقرأ الكتب الأعجمية . وقيل : غلام لبنى عامر بن لؤى . وقيل : هما غلامان . اسم أحدهما يسار ، واسم الآخر جبر . وكانا صيقلين يعملان السيوف ، وكانا يقرآن كتابا لهم . وقيل : كانا يقرآن التوراة والإنجيل . وقيل : هو سلمان الفارسى . وقيل : عنوا نصرانياً بمكة اسمه بلعام ، وكان يقرأ التوراة . وقيل : عنوا رجلا نصرانيا كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية . وفى رواية اسمه عداس . قال النحاس : وهذه الأقوال غير متناقضة ، لأنه يجوز أنهم زعموا أنهم جميعاً يعلمونه . ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قول من قال : إنه سلمان ، لأن هذه الآية مكية ، وهو إنما أتى إلى النبى ﷺ بالمدينة .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال : ﴿ لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ﴾ الإلحاد : الميل . يقال : لحد وألحد أى مال عن القصد . وقد تقدم فى الأعراف . وقرأ حمزة والكسائى . « يلحدون » بفتح الياء والحاء . وقرأ من عداهما بضم الياء وكسر الحاء ، أى لسان الذين يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمك أعجمى . يقال : رجل أعجم وامرأة عجماء ، أى لا يفصحان ، والعجمة : الإخفاء ، وهى ضد البيان . والعرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بها أعجمياً . قال الفراء : الأعجم : الذى فى لسانه عجمة وإن كان من العرب ، والأعجمى : هو الأعجمى أصله من العجم . وقال أبو على الفارسى : الأعجمى المنسوب إلى العجم الذى لا يفصح ، سواء كان من العرب أو من العجم وكذلك الأعجم . والأعجمى : المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً . ﴿ وهذا لسان عربى مبين ﴾ الإشارة إلى القرآن ، وسماء لساناً لأن العرب تقول للقسيصة والبيت لسان . ومنه قول الشاعر :

لسان الشر تهديها إلينا وخنث وما حسبتك أن تخونا

أو أراد باللسان : البلاغة ، فكأنه قال : وهذا القرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح ، فكيف تزعمون أن بشراً يعلمه من العجم ، وقد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه ، وأنتم أهل اللسان العربى ورجال الفصاحة ، وقادة البلاغة . وهاتان الجملتان مستأنفتان سيقناً لإبطال طعنهم ودفع كذبهم .

ولما ذكر سبحانه جوابهم ، وبخهم وهددهم فقال : ﴿ إِن الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى لا يصدقون بها ﴿ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ ﴾ إلى الحق الذى هو سبيل النجاة ، هداية موصلة إلى المطلوب لما علم من شقاوتهم . ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ بسبب ما هم عليه من الكفر والتكذيب بآيات الله .

ثم لما وقع منهم نسبة الافتراء إلى رسول الله ﷺ رد عليهم بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ فكيف يقع الافتراء من رسول الله ﷺ وهو رأس المؤمنين بها ، والداعين إلى الإيمان بها . وهؤلاء الكفار هم الذين لا يؤمنون بها ، فهم المفترون للكذب . قال الزجاج : المعنى : إنما يفتري الكذب الذين إذا رأوا الآيات التى لا يقدر عليها إلا الله ، كذبوا بها . هؤلاء أكذب الكذبة ، ثم سماهم الكاذبين فقال : ﴿ وَأُولَئِكَ ﴾ أى المتصفون بذلك ﴿ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ أى إن الكذب نعت لازم لهم وعادة من عاداتهم ، فهم الكاملون فى الكذب ، إذ لا كذب أعظم من تكذيبهم بآيات الله .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن الحياة الطيبة المذكورة فى الآية فقال : الحياة الطيبة : الرزق الحلال فى هذه الحياة الدنيا . وإذا صار إلى ربه ، جازاه بأحسن ما كان يعمل . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : الكسب الطيب ، والعمل الصالح . وأخرج العسكرى فى الأمثال عن على فى الآية قال : القناعة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس قال : القنوع . قال : وكان رسول الله ﷺ يدعو : « اللهم قنعنى بما رزقتنى وبارك لى فيه ، واخلف على كل غائبة لى بخير »^(١) . وأخرج أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه عن ابن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه »^(٢) . وأخرج الترمذى والنسائى من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « قد أفلح من هدى إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافاً وقنع به »^(٣) .

(١) ابن جرير ١١٥/١٤ وصححه الحاكم ٣٥٦/٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (١٠٣٤٣) . ط . الكتب العلمية ، واللفظ للحاكم والبيهقى .

(٢) أحمد ١٦٨/٢ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩١ ، ١٣٩٢ ، ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ ، ١٣٩٥ ، ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ ، ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠١ ، ١٤٠٢ ، ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، ١٤٠٥ ، ١٤٠٦ ، ١٤٠٧ ، ١٤٠٨ ، ١٤٠٩ ، ١٤١٠ ، ١٤١١ ، ١٤١٢ ، ١٤١٣ ، ١٤١٤ ، ١٤١٥ ، ١٤١٦ ، ١٤١٧ ، ١٤١٨ ، ١٤١٩ ، ١٤٢٠ ، ١٤٢١ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ ، ١٤٢٧ ، ١٤٢٨ ، ١٤٢٩ ، ١٤٣٠ ، ١٤٣١ ، ١٤٣٢ ، ١٤٣٣ ، ١٤٣٤ ، ١٤٣٥ ، ١٤٣٦ ، ١٤٣٧ ، ١٤٣٨ ، ١٤٣٩ ، ١٤٤٠ ، ١٤٤١ ، ١٤٤٢ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، ١٤٤٥ ، ١٤٤٦ ، ١٤٤٧ ، ١٤٤٨ ، ١٤٤٩ ، ١٤٥٠ ، ١٤٥١ ، ١٤٥٢ ، ١٤٥٣ ، ١٤٥٤ ، ١٤٥٥ ، ١٤٥٦ ، ١٤٥٧ ، ١٤٥٨ ، ١٤٥٩ ، ١٤٦٠ ، ١٤٦١ ، ١٤٦٢ ، ١٤٦

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن المنذر عن عطاء قال : الاستعاذة واجبة لكل قراءة في الصلاة وغيرها من أجل قوله : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ وقد ورد في مشروعية الاستعاذة عند التلاوة ما لعلنا قد قدمنا ذكره . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَوْنَ ﴾ يقول : سلطان الشيطان على من تولى الشيطان وعمل بمعصية الله .

وأخرج أبو داود في ناسخه ، وابن مردويه ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾ وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ قال : عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، كان يكتب لرسول الله ﷺ فأزله الشيطان ، فلهق بالكفار ، فأمر به رسول الله أن يقتل يوم الفتح . فاستجار له عثمان رسول الله ﷺ فأجاره^(١) . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾ : هو كقوله : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة : ١٠٦] .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، قال السيوطي : بسند ضعيف ، عن ابن عباس ، قال : كان رسول الله ﷺ يعلم بمكة قينا اسمه بلعام وكان أعجمياً ، فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا إنما يعلمه بلعام : فأنزل الله : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ . . . ﴾ الآية^(٢) . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عنه في الآية قال : قالوا : إنما يعلم محمداً عبد بن الحضرمي وهو صاحب الكتب ، فأنزل الله هذه الآية^(٣) . وأخرج آدم بن أبي إياس وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال : كان لنا عبدان من أهل عين التمر ، يقال لأحدهما : يسار . والآخر : جبر . وكانا يصنعان السيوف بمكة . وكانا يقرآن الإنجيل . فربما مر بهما النبي ﷺ وهما يقرآن فيقف ويستمع ، فقال المشركون : إنما يتعلم منهما فنزلت هذه الآية^(٤) .

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ

(١) صححه الحاكم ٣٥٦/٢ ، ٣٥٧ ووافقه الذهبي .

(٢) ابن جرير ١١٩/١٤ .

(٣) صححه الحاكم ٣٥٧/٢ ووافقه الذهبي .

(٤) ابن جرير ١٢٠/١٤ والذي عند ابن جرير : « غير اليمن » ، بدلا من « عين التمر » .

رَبِّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)
يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ .

قوله : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه ﴾ قد اختلف أهل العلم فى إعرابه ، فذهب الأكثرون على أنه بدل ، إما من ﴿ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ وما بينهما اعتراض ، والمعنى : إنما يفترى الكذب من كفر . واستثنى منهم المكره . فلم يدخل تحت حكم الافتراء ، ثم قال : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدرا ﴾ أى اعتقده وطابت به نفسه واطمأن إليه ، ﴿ فعليهم غضب ﴾ . وإما من المبتدأ الذى هو ﴿ أولئك ﴾ أو من الخبر الذى هو ﴿ الكاذبون ﴾ . وذهب الزجاج إلى الأول . وقال الأخفش : إن ﴿ من ﴾ مبتدأ وخبره محذوف اكتفى منه بخبر ﴿ من ﴾ الثانية ، كقولك : من يأتنا منكن نكرمه . وقيل : هو ، أى ﴿ من ﴾ فى : ﴿ من كفر ﴾ ، منصوب على الذم . وقيل : إن ﴿ من ﴾ شرطية . والجواب محذوف ، لأن جواب ﴿ من شرح ﴾ دال عليه . وهو كقول الأخفش . وإنما خالفه فى إطلاق لفظ الشرط على ﴿ من ﴾ ، والجواب على خبرها ، فكأنه قيل على هذا : من كفر بالله فعليهم غضب إلا من أكره . ولكن من شرح بالكفر صدرا ، فعليهم غضب . وإنما صح استثناء المكره من الكافر مع أنه ليس بكافر ، لأنه ظهر منه بعد الإيمان ما لا يظهر إلا من الكافر لولا الإكراه .

قال القرطبي : أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولا تبين منه زوجته ، ولا يحكم عليه بحكم الكفر^(١) . وحكى عن محمد بن الحسن أنه إذا أظهر الكفر ، كان مرتدا فى الظاهر ، وفيما بينه وبين الله على الإسلام ، وتبين منه امرأته ، ولا يصلى عليه إن مات ، ولا يرث أباه إن مات مسلما . وهذا القول مردود على قائله ، مدفوع بالكتاب والسنة . وذهب الحسن البصرى والأوزاعى والشافعى وسحنون إلى أن هذه الرخصة المذكورة فى هذه الآية إنما جاءت فى القول . وأما فى الفعل فلا رخصة ، مثل أن يكره على السجود لغير الله ، ويدفعه ظاهر الآية ، فإنها عامة فيمن أكره من غير فرق بين القول والفعل . ولا دليل لهؤلاء القاصرين للآية على القول ، وخصوص السبب ، لا اعتبار به مع عموم اللفظ كما تقرر فى علم الأصول .

وجملة : ﴿ وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ في محل نصب على الحال من المستثنى ، أى إلا من كفر بإكراه ، والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيدته وليس بعد هذا الوعيد العظيم ، وهو الجمع للمرتدين ، بين غضب الله وعظيم عذابه .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلِكَ ﴾ إلى الكفر بعد الإيمان ، أو إلى الوعيد بالغضب والعذاب ،
والبراء في : ﴿ بأنهم استحبوا الحياة الدنيا ﴾ للسبية ، أى ذلك بسبب تأثيرهم للحياة الدنيا

﴿على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين﴾ معطوف على : ﴿أنهم استحبوا﴾ أى ذلك بأنهم استحبوا ، وبأن الله لا يهدى القوم الكافرين إلى الإيمان به .

ثم وصفهم بقوله : ﴿أولئك﴾ أى الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة ﴿الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم﴾ فلم يفهموا المواعظ ولا سمعوها ، ولا أبصروا الآيات التى يستدل بها على الحق . وقد سبق تحقيق الطبع فى أول البقرة . ثم أثبت لهم صفة نقص غير الصفة المتقدمة ، فقال : ﴿وأولئك هم الغافلون﴾ عما يراد بهم . وضمير الفصل يفيد أنهم متناهون فى الغفلة ، إذ لا غفلة أعظم من غفلتهم هذه .

﴿لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون﴾ أى الكاملون فى الخسران ، البالغون إلى غاية منه ليس فوقها غاية . وقد تقدم تحقيق الكلام فى معنى ﴿لا جرم﴾ فى مواضع ، منها ما هو فى هذه السورة .

﴿ثم إن ربك للذين هاجروا﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام . وخبر «إن» محذوف ، والتقدير : لغفور رحيم . وإنما حذف لدلالة خبر ﴿إن ربك﴾ المتأخرة عليه . وقيل : الخبر هو : ﴿للذين هاجروا﴾ أى إن ربك لهم بالولاية والنصرة لا عليهم ، وفيه بعد . وقيل : إن خبرها هو قوله : ﴿لغفور رحيم﴾ ، و﴿إن ربك﴾ الثانية تأكيد للأولى . قال فى الكشف : ثم هاهنا للدلالة على تباعد حال هؤلاء ، يعنى : الذين نزلت الآية فيهم عن حال أولئك ، وهم عمار وأصحابه (١) . ويدل على ذلك ما روى أنها نزلت فى عبد الله بن أبى سرح . وسيأتى بيان ذلك . ﴿من بعد ما فتنوا﴾ أى فتنهم الكفار بتعذيبهم لهم ليرجعوا فى الكفر . وقرئ : «فتنوا» على البناء للفاعل ، أى الذين فتنوا المؤمنين وعذبوهم على الإسلام ، ﴿ثم جاهدوا﴾ فى سبيل الله ﴿وصبروا﴾ على ما أصابهم من الكفار ، وعلى ما يلقيه من مشاق التكليف ﴿لغفور رحيم﴾ أى كثير الغفران والرحمة لهم .

ومعنى الآية على قراءة من قرأ : «فتنوا» على البناء للفاعل واضح ظاهر ، أى إن ربك لهؤلاء الكفار الذين فتنوا من أسلم وعذبوهم ، ثم جاهدوا وصبروا لغفور رحيم . وأما على قراءة البناء للمفعول ، وهى قراءة الجمهور ، فالمعنى : أن هؤلاء المفتونين الذين تكلموا بكلمة الكفر مكرهين وصدورهم غير منشحة للكفر إذا صلحت أعمالهم وجاهدوا فى الله وصبروا على المكاره لغفور لهم ، رحيم بهم . وأما إذا كان سبب الآية هذه هو عبد الله بن أبى سرح الذى ارتد عن الإسلام ثم رجع بعد ذلك إلى الإسلام ، فالمعنى : أن هذا المفتون فى دينه بالردة إذا أسلم وجاهد وصبر ، فالله غفور له ، رحيم به . والضمير فى ﴿بعدها﴾ يرجع إلى الفتنة ، أو إلى المهاجرة والجهاد والصبر ، أو إلى الجميع .

﴿يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها﴾ : قال الزجاج : ﴿يوم تأتى﴾ منتصب بقوله :

﴿ رحيم ﴾ أو بإضمار اذكر ، أو ذكرهم ، أو أنذرهم . وقد استشكل إضافة ضمير النفس إلى النفس ، ولابد من التغاير بين المضاف والمضاف إليه . وأجيب بأن المراد بالنفس الأولى : جملة بدن الإنسان ، وبالنفس الثانية : الذات ، فكأن قيل : يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته ، لا يهتمه غيرها . ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها ، فهو مجادل ومخاصم عن نفسه ، لا يتفرغ لغيرها يوم القيامة .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أراد رسول الله ﷺ أن يهاجر إلى المدينة ، قال لأصحابه : تفرقوا عني ، فمن كانت به قوة فليتاخر إلى آخر الليل ، ومن لم تكن به قوة ، فليذهب في أول الليل . فإذا سمعتم بي قد استقرت بي الأرض ، فالحقوا بي ، فأصبح بلال المؤذن ، وخباب ، وعمار ، وجارية من قريش ، كانت أسلمت ، فأخذهم المشركون وأبو جهل ، فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى ، فجعلوا يضعون درعا من حديد في الشمس ، ثم يلبسونها إياه . فإذا ألبسوها إياه ، قال : أحد أحد . وأما خباب ، فجعلوا يجرونه في الشوك ، وأما عمار ، فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية . وأما الجارية فوجد لها أبو جهل أربعة أوتاد ، ثم مدها فأدخل الخربة في قبلها حتى قتلها ، ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار ، فلحقوا برسول الله ﷺ فأخبروه بالذي كان من أمرهم ، واشتد على عمار الذي كان تكلم به ، فقال له رسول الله ﷺ : « كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت ؟ أكان منشرحا بالذي قلت أم لا ؟ » قال : لا . فأنزل الله ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر ، فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير ، فتركوه ، فلما أتى النبي ﷺ قال : « ما وراءك ؟ » قال : شر ، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير . قال : « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئنا بالإيمان . قال : « إن عادوا فعد » . فنزلت : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ قال : ذاك عمار بن ياسر . ﴿ وَلَكِنْ مِنْ شَرِّ الْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ عبد الله بن أبي سرح^(١) . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن عساكر عن أبي مالك في قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ قال : نزلت في عمار بن ياسر^(٢) . وفي الباب روايات مصرحة بأنها نزلت في عمار بن ياسر . وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد ابن سيرين قال : نزلت هذه الآية ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ في عياش بن أبي ربيعة .

وأخرج ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : في سورة النحل ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم نسخ واستثنى من ذلك فقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ

(١) ابن سعد ٢٤٩/٣ وابن جرير ١٢٢/١٤ وصححه الحاكم ٣٥٧/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، والبيهقي

٢٠٨/٨ والزيلعي في نصب الراية ١٥٨/٤ .

(٢) ابن أبي شيبة (١٢٣٠٤) وابن جرير ١٢٢/١٤ .

هاجروا من بعد ما فتنوا . . ﴿ الآية ، قال : وهو عبد الله بن أبي سرح الذى كان يكتب لرسول الله ﷺ فأزله الشيطان ، فلاحق بالكفار ، فأمر به النبي ﷺ أن يقتل يوم فتح مكة ، فاستجار له عثمان بن عفان ، فأجاره النبي ﷺ . وأخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن مثله . وأخرج ابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾ فيمن كان يفتن من أصحاب النبي ﷺ (١) . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان قوم من أهل مكة قد أسلموا ، وكانوا يستخفون بالإسلام ، فنزلت فيهم : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا . . . ﴾ الآية . فكتبوا إليهم بذلك : إن الله قد جعل لكم مخرجاً فاخرجوا ، فأدركهم المشركون فقاتلوهم ، فنجوا من نجا وقتل من قتل . وأخرج ابن أبى شيبه عن الحسن : أن عيوناً لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين ، فأتوه بهما ، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أنى رسول الله ؟ فأهوى إلى أذنيه ، فقال : إنى أصم . فأمر به فقتل . وقال للآخر : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : نعم . فأرسله . فأتى النبي ﷺ فقال له : « أما صاحبك ، فمضى على إيمانه ، وأما أنت فأخذت بالرخصة » وهو مرسل (٢) .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنِزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩) ﴾ .

قوله : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية ﴾ قد قدمنا أن ضرب مضمن معنى جعل ، حتى تكون ﴿ قرية ﴾ المفعول الأول و﴿ مثلاً ﴾ المفعول الثانى . وإنما تأخرت ﴿ قرية ﴾ لئلا يقع الفصل بينها وبين صفاتها . وقدمنا أيضاً أنه يجوز أن يكون ﴿ ضرب ﴾ على بابه غير مضمن ، ويكون

(١) البيهقى ١٤/٩ .

(٢) ابن أبى شيبه (١٣٠٨٣) .

﴿ مثلاً ﴾ مفعوله الاول ، و﴿ قرية ﴾ بدلا منه .

وقد اختلف المفسرون هل المراد بهذه القرية قرية معينة ، أو المراد قرية غير معينة ؟ بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة ؟ فذهب الأكثر إلى الأول ، وصرحوا بأنها مكة ، وذلك لما دعا عليهم رسول الله ﷺ وقال : « اللهم اشدّد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » (١) . فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام . والثاني : أرجح ؛ لأن تنكير قرية يفيد ذلك . ومكة تدخل في هذا العموم البدلى دخولا أوليا . وأيضا يكون الوعيد أبلغ ، والمثل أكمل ، وغير مكة مثلها . وعلى فرض إرادتها ، ففي المثل إنذار لغيرها من أهل عاقبتها .

ثم وصف القرية بأنها ﴿ كانت آمنة ﴾ غير خائفة ﴿ مطمئنة ﴾ غير منزعة ، أى لا يخاف أهلها ولا ينزعجون ﴿ يأتيها رزقها ﴾ أى ما يرتزق به أهلها . ﴿ رغدا ﴾ واسعا ﴿ من كل مكان ﴾ من الأمكنة التى يجلب ما فيها إليها ﴿ فكفرت ﴾ أى كفر أهلها ﴿ بأنعم الله ﴾ التى أنعم بها عليهم . والأنعم : جمع نعمة ، كالأشد جمع شدة . وقيل : جمع نعمى مثل يؤسى ، وأبؤس . وهذا الكفر منهم هو كفرهم بالله سبحانه وتكذيب رسله ﴿ فأذاقها الله ﴾ أى أذاق أهلها ﴿ لباس الجوع والخوف ﴾ سمي ذلك لباسا لأنه يظهر به عليهم من الهزال ، وشحوبة اللون ، وسوء الحال ، ما هو كاللباس ، فاستعير له اسمه ، وأوقع عليه الإذابة . وأصلها الذوق بالفم . ثم استعيرت لمطلق الاتصال مع إنباتها بشدة الإصابة لما فيها من اجتماع الإدراكين ، إدراك اللمس والذوق .

روى أن ابن الراوندى الزنديق (٢) قال لابن الأعرابى - إمام اللغة والأدب - : هل يذاق اللباس ؟ فقال له ابن الأعرابى : لا بأس أيها النسناس ، هب أن محمدا ما كان نبيا أما كان عربيا ؟ كأنه طعن فى الآية بأن المناسب أن يقال : فكساها الله لباس الجوع ، أو : فأذاقها الله طعم الجوع . فرد عليه ابن الأعرابى .

وقد أجاب علماء البيان أن هذا من تجريد الاستعارة وذلك أنه استعار اللباس لما غشى الإنسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف ، لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس . ثم ذكر الوصف ملائما للمستعار له ، وهو الجوع والخوف ؛ لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة ، فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه غيره . فكانت الاستعارة مجردة . ولو قال : فكساها ، كانت مرشحة . قيل : وترشيح الاستعارة ، وإن كان مستحسنًا من جهة المبالغة ، إلا أن للتجريد ترجيحًا من حيث أنه روعى جانب

(١) هذا جزء من حديث رواه أحمد ٢/٢٥٥ والبخارى فى الأذان (٤ . ٨) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٢٩٤/٦٧٥) .

(٢) هو أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين الراوندى فيلسوف مجاهر بالإلحاد ، من مكان بغداد نسبته إلى «راوند» من قرى أصبهان توفى عام ٢٩٨ هـ . وفيات الأعيان ٢٧/١ وتاريخ ابن الوردى ٢٤٨/١ ومروج الذهب للمسعودى ٢٣٧/٧ .

المستعار له ، فإزداد الكلام وضوحا . وقيل : إن أصل الذوق بالفم ، ثم قد يستعار ، فيوضع موضع التعرف والاختبار . ومن ذلك قول الشاعر :

ومن يذق الدنيا فإنى طعمتها وسبق إلينا عذبتها وعذابها

وقرأ حفص بن غياث ونصر بن عاصم وابن أبي إسحاق وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث بنصب الخوف عطفًا على لباس ، وقرأ الباقون بالضم عطفًا على الجوع . قال الفراء : كل الصفات أجريت على القرية إلا قوله : ﴿ يصنعون ﴾ تنبيها على أن المراد فى الحقيقة أهلها .

﴿ ولقد جاءهم ﴾ يعنى : أهل مكة ﴿ رسول منهم ﴾ من جنسهم يعرفونه ويعرفون نسبه ، فأمرهم بما فيه نفعهم ونهاهم عما فيه ضررهم ﴿ فكذبوه ﴾ فيما جاء به ﴿ فأخذهم العذاب ﴾ النازل بهم من الله سبحانه ، والحال أنهم فى حال أخذ العذاب لهم ﴿ ظالمون ﴾ لأنفسهم بإيقاعها فى العذاب الأبدى ، ولغيرهم بالإضرار بهم وصددهم عن سبيل الله . وهذا الكلام من تمام المثل المضروب . وقيل : إن المراد بالعذاب هنا هو الجوع الذى أصابهم . وقيل : القتل يوم بدر .

ثم لما وعظهم الله سبحانه بما ذكره من حال أهل القرية المذكورة ، أمرهم أن يأكلوا مما رزقهم الله من الغنائم ونحوها . وجاء بالفاء للإشعار بأن ذلك متسبب عن ترك الكفر . والمعنى : أنكم لما آمنتم وتركتم الكفر ، فكلوا الحلال الطيب ^(١) ، وهو الغنيمة ، واتركوا الخبائث وهو الميتة والدم . ﴿ واشكروا نعمة الله ﴾ التى أنعم بها عليكم واعرفوا حقها ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ ولا تعبدون غيره ، أو إن صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة التى زعمتم عبادة الله تعالى . وقيل : إن الفاء فى ﴿ فكلوا ﴾ داخلة على الأمر بالشكر ، وإنما أدخلت على الأمر بالأكل ؛ لأن الأكل ذريعة إلى الشكر .

﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل ^{بـ} لغير الله ﴾ كرر سبحانه ذكر هذه المحرمات فى البقرة والمائدة والأنعام ، وفى هذه السورة قطعًا للأعذار ، وإزالة للشبهة ، ثم ذكر الرخصة فى تناول شئ مما ذكر فقال : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم ﴾ . وقد تقدم الكلام على جميع ما هو مذكور هنا مستوفى .

ثم زيف طريقة الكفار فى الزيادة على هذه المحرمات كالبخيرة والسائبة ، وفى نقصان عنها كتحليل الميتة والدم ، فقال : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب ﴾ قال الكسائى والزجاج : « ما » هنا مصدرية . وانتصاب الكذب بـ ﴿ لا تقولوا ﴾ أى لا تقولوا الكذب لأجل وصف ألسنتكم ، ومعناه : لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة . ويجوز أن تكون « ما » موصولة ، والكذب منتصب بـ ﴿ تصف ﴾ أى لا تقولوا للذى تصف

(١) من صفات الأكل الذى أباحه الله تعالى : أن يكون حلالا وأن يكون طيبا ، ولا يجوز أن يكون حلالا فقط غير طيب . راجع كتابنا : « مع الإلحاد وجهها لوجه » .

أَلَسْتُمْ الكَذِب فِيه ﴿ هَذَا حلال وهذا حرام ﴾ فحذف لفظة فيه لكونه معلوما ، فيكون قوله : ﴿ هَذَا حلال وهذا حرام ﴾ بدلا من الكذب ، ويجوز أن يكون فى الكلام حذف بتقدير القول ، أى ولا تقولوا لما تصف أَلَسْتُمْ ، فتقول : هذا حلال وهذا حرام . أو قائلة : هذا حلال وهذا حرام ، ويجوز أن ينتصب الكذب أيضا بـ ﴿ تصف ﴾ وتكون « ما » مصدرية ، أى لا تقولوا : هذا حلال وهذا حرام لوصف أَلَسْتُمْ الكذب . وقرئ : « الكذب » بضم الكاف والذال والباء على أنه نعت للألسنة ، وقرأ الحسن بفتح الكاف وكسر الذال والباء نعتا لـ « ما » . وقيل : على البديل من « ما » ، أى ولا تقولوا الكذب الذى تصفه أَلَسْتُمْ هذا حلال وهذا حرام . واللام فى ﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾ هى لام العاقبة ، لا لام العرض ، أى فيتعقب ذلك افتراءكم على الله الكذب بالتحليل والتحريم ، وإسناد ذلك إليه من غير أن يكون منه ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب ﴾ أى افتراء كان ﴿ لا يفلحون ﴾ بنوع من أنواع الفلاح ، وهو الفوز بالمطلوب . وارتفاع ﴿ متاع قليل ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف . قال الزجاج : أى متاعهم متاع قليل ، أو هو مبتدأ خبره محذوف ، أى لهم متاع قليل . ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ يردون إليه فى الآخرة .

ثم خص محرمات اليهود بالذكر فقال : ﴿ وعلى الذين هادوا حرما ﴾ أى حرما عليهم خاصة دون غيرهم ﴿ ما قصصنا عليك ﴾ بقولنا : ﴿ حرما كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرما عليهم شحومهما ... ﴾ الآية [الأنعام : ١٤٦] و﴿ من قبل ﴾ متعلق بـ ﴿ قصصنا ﴾ أو بـ ﴿ حرما ﴾ . ﴿ وما ظلمناهم ﴾ بذلك التحريم ، بل جزيناهاهم بينهم . ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ حيث فعلوا أسباب ذلك ، فحرما عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم .

ثم بين سبحانه أن الافتراء على الله سبحانه ومخالفة أمره لا يمنعه من التوبة وحصول المغفرة فقال : ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ﴾ ، أى متلبسين بجهالة . وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة النساء ﴿ ثم تابوا من بعد ذلك ﴾ أى من بعد عملهم للسوء ، وفيه تأكيد ، فإن « ثم » قد دلت على البعدية ، فأكدنا بزيادة ذكر البعدية ﴿ وأصلحوا ﴾ أعمالهم التى كان فيها فساد بالسوء الذى عملوه . ثم كرر ذلك تأكيدا وتقريراً فقال : ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ أى من بعد التوبة ﴿ لغفور رحيم ﴾ كثير الغفران ، واسع الرحمة .

وقد أخرج ابن جرير ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وضرب الله مثلا قرية ﴾ قال : يعنى : مكة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطية فى الآية مثله . وزاد فقال : ألا ترى أنه قال : ﴿ ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن شهاب قال : القرية التى قال الله : ﴿ كانت آمنة مطمئنة ﴾ هى : يثرب . قلت : ولا أدرى أى دليل دله على هذا التعيين ، ولا أى قرية قامت له على ذلك ؟ ومتى كفرت دار الهجرة ومسكن الأنصار بأنعم الله ؟ وأى وقت أذاقها الله لباس الجوع والخوف ؟ وهى التى تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد ، كما صح ذلك عن

الصادق المصدوق (١). وصح عنه أيضا أنه قال : « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » (٢) .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب ﴾ الآية ، قال : في البحيرة والسائبة . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال : قرأت هذه الآية في سورة النحل : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام . . . ﴾ إلى آخر الآية ، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا . قلت : صدق رحمه الله ، فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ ، كما يقع كثيرا من المؤثرين للرأى المقدمين له على الرواية ، أو الجاهلين لعلم الكتاب والسنة كالمقلدة ، وإنهم لحقيقون بأن يحال بينهم وبين فتاويهم ويمنعوا من جهالاتهم ، فإنهم أفتوا بغير علم من الله ولا هدى ولا كتاب منير ، فضلوا وأضلوا ، فهم ومن يستفتيهم كما قال القائل :

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الجائر

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : عسى رجل أن يقول : إن الله أمر بكذا ، أو نهى عن كذا ، فيقول الله عز وجل له : كذبت أو يقول : إن الله حرم كذا أو أحل كذا . فيقول الله له : كذبت . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك ﴾ قال : في سورة الأنعام . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة مثله ، وقال : حيث يقول : ﴿ وعلى الذين هادوا ﴾ إلى قوله : ﴿ وإنا لصادقون ﴾ [الأنعام: ١٤٦] .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ .

(١) أخرج مسلم في الحج (٤٨٨ / ١٣٨٢) عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « أمرت بقرية تاكل القرى يقولون : يثرب - وهى المدينة - تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد » .
(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم في الحج (٤٩٦ / ١٣٨٨ ، ٤٩٧) عن سفیان بن أبى زهير .

لما فرغ سبحانه من دفع شبه المشركين وإبطال مطاعنهم وكان إبراهيم عليه السلام من الموحدين ، وهو قدوة كثير من النبيين ، ذكره الله في آخر هذه السورة فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ قال ابن الأعرابي : يقال للرجل العالم : أمة . والأمة : الرجل الجامع للخير . قال الواحدي : قال أكثر أهل التفسير أى معلما للخير . وعلى هذا فمعنى كون إبراهيم كان أمة : أنه كان معلما للخير أو جامعاً لخصال الخير ، أو عالماً بما علمه الله من الشرائع . وقيل : أمة بمعنى : مأموم ، أى يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير . كما قال سبحانه : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة : ١٢٤] والقائت : المطيع . وقد تقدم بيان معانى القنوت فى البقرة . والحنيف : المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق . وقد تقدم بيانه فى الأنعام ﴿ وَلَمْ يَكْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ بالله كما تزعمه كفار قريش أنه كان على دينهم الباطل .

﴿ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ ﴾ التى أنعم الله بها عليه وإن كانت قليلة ، كما يدل عليه جمع القلة ، فهو شاكر لما كثر منها بالأولى : ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ أى اختاره للنبوّة واختصه بها ﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وهو ملة الإسلام ودين الحق .

﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أى خصلة حسنة أو حالة حسنة . وقيل : هى الولد الصالح . وقيل : الثناء الحسن . وقيل : النبوة . وقيل : الصلاة منا عليه فى التشهد . وقيل : هى أنه يتولاه جميع أهل الأديان . ولا مانع من أن يكون ما آتاه الله شاملاً لذلك كله ولما عدها من خصال الخير . ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ حسبما وقع منه^(١) السؤال لربه حيث قال : ﴿ وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ . وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ . وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ [الشعراء : ٨٣ — ٨٥] .

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد مع علو درجتك ، وسمو منزلتك ، وكونك سيد ولد آدم ﴿ أَنْ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وأصل الملة اسم لما شرعه الله لعباده على لسان نبي من أنبيائه . قيل : المراد هنا اتباع النبي ﷺ لملة إبراهيم فى التوحيد والدعوة إليه . وقال ابن جرير : فى التبرى من الأوثان ، والتدين بدين الإسلام . وقيل : فى مناسك الحج . وقيل : فى الأصول دون الفروع . وقيل : فى جميع شريعته ، إلا ما نسخ منها . وهذا هو الظاهر . وقد أمر النبي ﷺ بالافتداء بالأنبياء مع كونه سيدهم ، فقال تعالى : ﴿ فَبِهِدَاهُمْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] وانتصاب ﴿ حَنِيفًا ﴾ على الحال من إبراهيم ، وجاز مجيء الحال منه ؛ لأن المادة كالجزم منه . وقد تقرر فى علم النحو أن الحال من المضاف إليه جائز إذا كان يقتضى المضاف العمل فى المضاف إليه ، أو كان جزءاً منه أو كالجزم . ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وهو تكرير لما سبق للنكتة التى ذكرناها .

﴿ إِنَّمَا جَعَلَ السَّبْتَ عَلَى الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ أى إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على

(١) فى المطبوعة : « منهم » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

الذين اختلفوا فيه ، أو إنما جعل فرض تعظيم السبت وترك الصيد فيه على الذين اختلفوا فيه ، لا على غيرهم من الأمم . وقد اختلف العلماء فى كيفية الاختلاف الكائن بينهم فى السبت ، فقالت طائفة : إن موسى أمرهم بيوم الجمعة وعينه لهم ، وأخبرهم بفضيلته على غيره ، فخالفوه وقالوا : إن السبت أفضل . فقال الله له : دعهم وما اختاروا لأنفسهم . وقيل : إن الله سبحانه أمرهم بتعظيم يوم فى الأسبوع ، فاختلف اجتهدهم فيه ، فعينت اليهود السبت ؛ لأن الله سبحانه فرغ فيه من الخلق . وعينت النصارى يوم الأحد لأن الله بدأ فيه الخلق . فالزم الله كلا منهم ما أدى إليه اجتهداه ، وعين لهذه الأمة الجمعة من غير أن يكلمهم إلى اجتهدهم فضلا منه ونعمة . ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من شرائع إبراهيم ، فأخبر الله سبحانه أنه إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، ولم يجعله على إبراهيم ولا على غيره ﴿ وإن ربك ليحكم بينهم ﴾ أى بين المختلفين فيه ﴿ يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ فيجازى كلا فيه بما يستحقه ثوابا وعقابا ، كما وقع منه سبحانه من المسخ لطائفة منهم والتنجية لآخرى .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يدعو أمته إلى الإسلام فقال : ﴿ ادع إلى سبيل ربك ﴾ وحذف المفعول للتعميم ، لكونه بعث إلى الناس كافة . وسبيل الله هو الإسلام ﴿ بالحكمة ﴾ أى بالمقالة المحكمة الصحيحة . قيل : وهى الحجج القطعية المفيدة لليقين . ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ وهى المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التى يستحسنها السامع ، وتكون فى نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها . قيل : وهى الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة . قيل : وليس للدعوة إلا هاتان الطريقتان . ولكن الداعى قد يحتاج مع الخصم الألد إلى استعمال المعارضة والمناقضة ، ونحو ذلك من الجدل . ولهذا قال سبحانه : ﴿ وجادلهم بالتي هى أحسن ﴾ أى بالطريق التى هى أحسن طرق المجادلة . وإنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعى محقا وغرضه صحيحا ، وكان خصمه مبطلا وغرضه فاسدا . ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ لما حث سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة ، بين أن الرشد والهداية ليس إلى النبى ﷺ ، وإنما ذلك إليه تعالى فقال : ﴿ إن ربك هو أعلم ﴾ أى : هو العالم بمن يضل ومن يهتدى . ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ أى بمن يبصر الحق فيقصده غير متعنت . وإنما شرع لك الدعوة ، وأمرك بها قطعاً للمعذرة ، وتتميماً للحجة ، وإزاحة للشبهة ، وليس عليك غير ذلك .

ثم لما كانت الدعوة تتضمن تكليف المدعويين بالرجوع إلى الحق ، فإن أبوا قوتلوا ، أمر الداعى بأن يعدل فى العقوبة فقال : ﴿ وإن عاقبتم ﴾ أى أردتم المعاقبة ﴿ فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ أى بمثل ما فعل بكم ، لا تتجاوزوا ذلك . قال ابن جرير : أنزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة أن لا ينال من ظالمه إذا تمكن إلا مثل ظلامته ، لا يتعدها إلى غيرها ^(١) . وهذا صواب . لأن الآية وإن قيل : إن لها سببا خاصا كما سيأتى ، فالاعتبار بعموم اللفظ ، وعمومه يؤدى

هذا المعنى الذى ذكره . وسمى سبحانه الفعل الأول الذى هو فعل البادئ بالشر عقوبة ، مع أن العقوبة ليست إلا فعل الثانى ، وهو المجازى للمشاكلة ، وهى باب معروف وقع فى كثير من الكتاب العزيز . ثم حث سبحانه على العفو فقال : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ أى لئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل ، فالصبر خير لكم من الانتصاف . ووضع ﴿ الصابرين ﴾ موضع الضمير ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد . وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية محكمة لأنها واردة فى الصبر عن المعاقبة ، والثناء على الصابرين على العموم . وقيل : هى منسوخة بآيات القتال . ولا وجه لذلك .

ثم أمر الله سبحانه رسوله بالصبر فقال : ﴿ واصبر ﴾ على ما أصابك من صنوف الأذى ﴿ وما صبرك إلا بالله ﴾ أى بتوفيقه وتبليته . والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء ، أى وما صبرك مصحوبا بشئ من الأشياء إلا بتوفيقه لك . وفيه تسلية للنبي ﷺ ، ثم نهاه عن الحزن فقال : ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أى على الكافرين فى إعراضهم عنك ، أو لا تحزن على قتلى أحد ، فإنهم قد أفضوا إلى رحمة الله ﴿ ولا تك فى ضيق مما يمكرون ﴾ : قرأ الجمهور بفتح الضاد . وقرأ ابن كثير بكسرها . قال ابن السكيت : هما سواء ، يعنى : المفتوح والمكسور . وقال الفراء : الضيق بالفتح : ما ضاق عنه صدرك ، والضيق بالكسر : ما يكون فى الذى يتسع ، مثل الدار والثوب . وكذا قال الأخفش . وهو من الكلام المقلوب ؛ لأن الضيق : وصف للإنسان يكون فيه ولا يكون الإنسان فيه . وكأنه أراد وصف الضيق بالعظم حتى صار كالشئ المحيط بالإنسان من جميع جوانبه . ومعنى ﴿ مما يمكرون ﴾ : من مكرهم لك فيما يستقبل من الزمان .

ثم ختم هذه السورة بآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فقال : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا ﴾ أى اتقوا المعاصى على اختلاف أنواعها . ﴿ والذين هم محسنون ﴾ بتأدية الطاعات والقيام بما أمروا بها منها . وقيل : المعنى : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا ﴾ الزيادة فى العقوبة ﴿ والذين هم محسنون ﴾ فى أصل الانتقام ، فيكون الأول : إشارة إلى قوله : ﴿ فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ والثانى : إشارة إلى قوله : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ . وقيل : ﴿ الذين اتقوا ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله ﴿ والذين هم محسنون ﴾ إشارة إلى الشفقة على عباد الله تعالى .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود ؛ أنه سئل عن الأمة ما هى ؟ فقال : الذى يعلم الناس الخير . قالوا : فما القانت ؟ قال : الذى يطيع الله ورسوله ^(١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله ﴾ ، قال : كان

(١) ابن جرير ١٢٨/١٤ والطبرانى (٩٩٣) وصححه الحاكم ٣٥٨/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٥٢/٧ : « رواه الطبرانى بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح » وقال ٣١٤/٩ : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير الحجاج بن إبراهيم وهو ثقة ».

على الإسلام ، ولم يكن فى زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره . فلذلك قال الله : ﴿ كان أمة قانتا لله ﴾ . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ كان أمة ﴾ قال : إماما فى الخير . ﴿ قانتا ﴾ قال : مطيعا . وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد تشهد له أمة ، إلا قبل الله شهادتهم » . والأمة : الرجل فما فوقه . إن الله يقول : ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ والأمة : الرجل فما فوقه .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى عن ابن عمرو قال : صلى جبريل بإبراهيم الظهر والعصر بعرفات ، ثم وقف حتى إذا غابت الشمس دفع به ، ثم صلى المغرب والعشاء بجمع ، ثم صلى الفجر به كأسرع ما يصلى أحدكم من المسلمين ، ثم وقف به حتى إذا كان كأبطأ ما يصلى أحد من المسلمين ، دفع به ، ثم رمى الجمرة ، ثم ذبح ، ثم حلق ، ثم أفاض به إلى البيت فطاف به ، فقال الله لبيه : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ﴾ ^(١) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ قال : أراد الجمعة ، فأخذوا السبت مكانها ^(٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق السدى عن أبى مالك وسعيد بن جبير فى الآية قال : باستحلالهم إياه . رأى موسى رجلا يحمل حطباً يوم السبت ، فضرب عنقه . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ، ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم - يعنى : الجمعة - فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالتاس فيه لنا تبع ، اليهود غدا والنصارى بعد غد » ^(٣) . وأخرج مسلم وغيره من حديث حذيفة نحوه ^(٤) .

وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ قال : أعرض عن أذاهم إياك . وأخرج الترمذى وحسنه ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن خزيمة فى الفوائد وابن حبان والطبرانى ، وألحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل ، والضياء فى المختارة ، عن أبى بن كعب ، قال : لما كان يوم أحد ، أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ، ومن المهاجرين ستة ، منهم حمزة ، فمثلوا به . فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم . فلما كان يوم فتح مكة ، أنزل الله تعالى : ﴿ وإن عاقبتهم فعاقبوا

(١) البيهقى ١٤٥/٥ .

(٢) ابن جرير ١٣٠/١٤ .

(٣) البخارى فى الوضوء (٢٣٨) وفى الجمعة (٨٧٦ ، ٨٩٦) وفى الجهاد (٢٩٥٦) وفى الأنبياء (٣٤٨٦) وفى الأيمان

والنذور (٦٦٢٤) ومسلم فى الجمعة (١٩/٨٥٥ - ٢١) والنسائى ٨٥/٣ .

(٤) مسلم فى الجمعة (٢٢/٨٥٦ ، ٢٣) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٠٨٣) .

بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴿ فقال رسول الله ﷺ : « نصبر ولا نعاقب ، كفوا عن القوم إلا أربعة » (١) . وأخرج ابن سعد والبزار وابن المنذر والطبراني ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم في المعرفة ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة ؛ أن النبي ﷺ وقف على حمزة حيث استشهد ، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه ، ونظر إليه قد مثل به ، فقال : « رحمة الله عليك ، فإنك كنت ما علمت وصولا للرحم ، فعولا للخير ، ولولا حزن من بعدك عليك ، لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى . أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك » . فنزل جبريل ، والنبي ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل : ﴿ وإن عاقبتم... ﴾ الآية . فكفر النبي ﷺ عن يمينه وأمسك عن الذي أراد وصبر (٢) . وأخرج ابن المنذر والطبراني وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس مرفوعا نحوه (٣) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وإن عاقبتم... ﴾ الآية ، قال : هذا حين أمر الله نبيه أن يقاتل من قاتله ، ثم نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم ، فهذا منسوخ (٤) . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن في قوله : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ قال : اتقوا فيما حرم عليهم ، وأحسنوا فيما افترض عليهم .

(١) الترمذی فی التفسیر (٣١٢٩) وقال : « حسن غريب » وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند ١٣٥/٥ والنسائي في التفسیر (٢٩٩) وابن حبان في الموارد (١٦٩٥) وصححه الحاكم ٣٥٩/٢ ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الدلائل ٢٨٩/٣ .

(٢) الحاكم ١٩٧/٣ وقال الذهبي : « قلت : « صالح » واه سمعه منه خالد بن خداس » ، والبيهقي في الدلائل ٢٨٨/٣ وقال عنه الهيثمي في المجمع ٢٢/٦ : « أخرجه الطبراني والبزار وفيه صالح بن بشير المري وهو ضعيف » ، وقال البخاري : « منكر الحديث » .

(٣) الطبراني (١١٥١) والبيهقي في الدلائل ٢٨٨/٣ وقال الهيثمي في المجمع ١٢٣/٦ : « فيه أحمد بن أيوب بن راشد وهو ضعيف » .

(٤) ابن جرير ١٣٢/١٤

تفسير سورة الإسراء

آياتها مائة وإحدى عشرة آية ، وهى مكية إلا ثلاث آيات . قوله عز وجل : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَسْتَفْزُونَكَ ﴾ نزلت حين جاء رسول الله ﷺ وفد ثقيف ، وحين قالت اليهود : ليست هذه بأرض الأنبياء . وقوله : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مَدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنْ رَبِّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ وزاد مقاتل قوله : ﴿ إِنْ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ .

وأخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة بنى إسرائيل بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى وابن الضريس وابن مردويه عن ابن مسعود ، قال فى بنى إسرائيل ، والكهف ، ومريم : إنهن من العتاق الأول ، وهن من تلامذة (١) . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى والحاكم وابن مردويه عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزمزم (٢) . وأخرج ابن أبى شيبه عن أبى عمرو الشيبانى ، قال : صلى بنا عبد الله الفجر ، فقرأ السورتين ، الآخرة منهما بنو إسرائيل .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِيْ وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) .

قوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ هو مصدر سبح . يقال : سبح يسبح تسييحاً وسبحاناً ، مثل كفر اليمين تكفيراً وكفراناً . ومعناه : التنزيه والبراءة لله من كل نقص . وقال سيبويه : العامل فيه فعل لا من لفظه ، والتقدير : أنزه الله تنزيهاً . فوقع سبحان مكان تنزيهاً ، فهو على هذا مثل قعد القرفصاء ، واشتمل الصماء . وقيل : هو علم للتسبيح كعثمان للرجل . وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره ، تقديره : أصبح الله سبحان ، ثم نزل منزلة الفعل ، وسد مسده . وقد قدمنا فى قوله : ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة : ٣٢] طرفاً من الكلام المتعلق بسبحان . والإسراء : قيل : هو سير الليل . يقال : سرى وأسرى . كسقى

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٠٨) وتلامذة : يعنى : من قديم ما أخذت من القرآن ، شبههن بتلامد المال ، أى قديمه وأصيله .

(٢) أحمد ٢ / ٦٨ ، ١٢٢ والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢٠) وقال : « حسن غريب » وفى الدعوات (٣٤٠٥) والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٥٤٨) وفى التفسير (٤٦٤) والحاكم ٢ / ٤٣٤ وسكت عنه ، والذهبى أيضاً .

وأستقى . لغتان . وقد جمع بينهما الشاعر فى قوله :

حى النصيرة ربة الخدر أسرت إلى ولم تكن تسرى

وقيل : هو سير أول الليل خاصة . وإذا كان الإسراء لا يكون إلا فى الليل ، فلا بد للتصريح بذكر الليل بعده من فائدة ، فقيل : أراد بقوله : ﴿ ليلا ﴾ تقليل مدة الإسراء ، وأنه أسرى به فى بعض الليل من مكة إلى الشام مسافة أربعين ليلة . ووجه دلالة ﴿ ليلا ﴾ على تقليل المدة ما فيه من التنكير الدال على البعضية ، بخلاف ما إذا قلت : سريت الليل فإنه يفيد استيعاب السير له جميعاً . وقد استدل صاحب الكشف على إفادة ليلاً للبعضية بقراءة عبد الله وحذيفة : « من الليل »^(١) . وقال الزجاج : معنى ﴿ أسرى بعده ليلا ﴾ سير عبده ، يعنى : محمداً ليلاً . وعلى هذا فيكون معنى أسرى : معنى سير ، فيكون للتقيد بالليل فائدة . وقال : ﴿ بعده ﴾ ولم يقل : بنبيه أو رسوله ، أو بمحمد تشريفاً له ﷺ . قال أهل العلم : لو كان غير هذا الاسم أشرف منه ، لسماه الله سبحانه به فى هذا المقام العظيم ، والحالة العلية :

لا تدعنى إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائى

ادعاء بأسماء نبزاً فى قبائلها كأن أسماء أضحت بعض أسمائى

﴿ من المسجد الحرام ﴾ قال الحسن وقتادة : يعنى : المسجد نفسه ، وهو ظاهر القرآن . وقال عامة المفسرين : أسرى برسول الله ﷺ من دار أم هانئ ، فحملوا المسجد الحرام على مكة ، أو الحرام ؛ لإحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام ، أو لأن الحرم كله مسجد . ثم ذكر سبحانه الغاية التى أسرى برسوله ﷺ إليها فقال : ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ وهو بيت المقدس . وسمى الأقصى لبعده المسافة بينه وبين المسجد الحرام . ولم يكن حيثئذ وراءه مسجد . ثم وصف المسجد الأقصى بقوله : ﴿ الذى باركنا حوله ﴾ بالثمار والأنهار والأنبياء والصالحين . فقد بارك الله سبحانه حول المسجد الأقصى ببركات الدنيا والآخرة . وفى ﴿ باركنا ﴾ بعد قوله : ﴿ أسرى ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم . ثم ذكر العلة التى أسرى به لأجلها فقال : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ أى ما أراه الله سبحانه فى تلك الليلة من العجائب التى من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة فى جزء من الليل ﴿ إنه ﴾ سبحانه ﴿ هو السميع ﴾ بكل مسموع ، ومن جملة ذلك ذات رسوله وأفعاله .

وقد اختلف أهل العلم : هل كان الإسراء بجسده ﷺ مع روحه ، أو بروحه فقط ؟ فذهب معظم السلف والخلف إلى الأول . وذهب إلى الثانى طائفة من أهل العلم منهم عائشة ومعاوية والحسن وابن إسحاق ، وحكاه ابن جرير عن حذيفة بن اليمان . وذهبت طائفة إلى التفصيل فقالوا : كان الإسراء بجسده يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح . واستدلوا

على هذا التفصيل بقوله : ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ فجعله غاية للإسراء بذاته ﷺ . فلو كان الإسراء من بيت المقدس إلى السماء ، وقع بذاته لذكره .

والذى دلت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة هو ما ذهب إليه معظم السلف والخلف من أن الإسراء بجسده وروحه يقظة إلى بيت المقدس ، ثم إلى السموات . ولا حاجة إلى التأويل وصرف هذا النظم القرآنى وما يماثله من ألفاظ الأحاديث إلى ما يخالف الحقيقة ، ولا مقتضى لذلك إلا مجرد الاستبعاد وتحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ما هو معلوم من أنه لا يستحيل عليه سبحانه شيء . ولو كان ذلك مجرد رؤيا كما يقوله من زعم أن الإسراء كان بالروح فقط ، وأن رؤيا الأنبياء حق لم يقع التكذيب من الكفرة للنبي ﷺ عند إخباره لهم بذلك حتى ارتد من ارتد ممن لم يشرح بالإيمان صدرأ . فإن الإنسان قد يرى فى نومه ما هو مستبعد ، بل ما هو محال ، ولا ينكر ذلك أحد . وأما التمسك لمن قال بأن هذا الإسراء إنما كان بالروح على سبيل الرؤيا بقوله : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ [الإسراء : ٦٠] فعلى تسليم أن المراد بهذه الرؤيا : هو هذا الإسراء ، فالتصريح الواقع هنا بقوله : ﴿ سبحانه الذى أسرى بعبده ليلاً ﴾ والتصريح فى الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأنه أسرى به لا تقصر عن الاستدلال بها على تأويل هذه الرؤيا الواقعة فى الآية برؤية العين . فإنه قد يقال لرؤية العين : رؤيا . وكيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريح الأحاديث الصحيحة بأن النبي ﷺ ركب البراق ؟ وكيف يصح وصف الروح بالركوب ؟ وهكذا كيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريحه ﷺ بأنه كان عند أن أسرى به بين النائم واليقظان ؟

وقد اختلف أيضاً فى تاريخ الإسراء ، فروى أن ذلك كان قبل الهجرة إلى المدينة بسنة . وروى أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام . ووجه ذلك أن خديجة صلت مع النبي ﷺ وقد ماتت قبل الهجرة بخمس سنين . وقيل : بثلاث . وقيل : بأربع . ولم تفرض الصلاة إلا ليلة الإسراء . وقد استدلل بهذا ابن عبد البر على ذلك . وقد اختلفت الرواية عن الزهرى . ومن قال بأن الإسراء كان قبل الهجرة بسنة : الزهرى فى رواية عنه . وكذلك الحربى فإنه قال : أسرى بالنبي ﷺ ليلة سبع وعشرين من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة . وقال ابن القاسم فى تاريخه : كان الإسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً . قال ابن عبد البر : لا أعلم أحداً من أهل السير قال بمثل هذا . وروى عن الزهرى أنه أسرى به بعد ^(١) مبعثه بسبعة أعوام . وروى عنه أنه قال : كان بعد ^(٢) مبعثه بخمس سنين . وروى يونس عن عروة عن عائشة أنها قالت : توفيت خديجة قبل أن تفرض الصلاة .

﴿ وآتيناه موسى الكتاب ﴾ أى التوراة . قيل : والمعنى : كرمنا محمداً بالمعراج وأكرمنا

موسى بالكتاب . ﴿ وجعلناه ﴾ أى ذلك الكتاب ، وقيل : موسى ﴿ هدى لبنى إسرائيل ﴾ يهتدون به ﴿ أن لا تتخذوا ﴾ قرأ أبو عمرو بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية ، أى لثلا يتخذوا ، والمعنى : آتينا الكتاب لهداية بنى إسرائيل لثلا يتخذوا ﴿ من دونى وكيلا ﴾ . قال الفراء : أى كفيلا بأمورهم . وروى عنه أنه قال : كافياً . وقيل : معناه : أى متوكلون عليه فى أمورهم . وقيل : شريكاً . ومعنى الوكيل فى اللغة : من توكل إليه الأمور .

﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ نصب على الاختصاص أو النداء . ذكرهم سبحانه إنعامه عليهم فى ضمن إنجاء آبائهم من الغرق . ويجوز أن يكون المفعول الأول لقوله : ﴿ أن لا تتخذوا ﴾ أى لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دونى وكيلا ، كقوله : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ﴾ [آل عمران : ٨٠] . وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو بدل من فاعل ﴿ تتخذوا ﴾ . وقرأ مجاهد بفتح الذال . وقرأ زيد بن ثابت بكسرها . والمراد بالذرية هنا : جميع من فى الأرض ؛ لأنهم من ذرية من كان فى السفينة . وقيل : موسى وقومه من بنى إسرائيل . وهذا هو المناسب ؛ لقراءة نصب على النداء والنصب على الاختصاص ، والرفع على البدل وعلى الخبر ؛ فإنها كلها راجعة إلى بنى إسرائيل المذكورين . وأما على جعل نصب على أن ﴿ ذرية ﴾ هى المفعول الأول لقوله : ﴿ لا تتخذوا ﴾ . فالأولى تفسير الذرية بجميع من فى الأرض من بنى آدم . ﴿ إنه كان عبدا شكورا ﴾ أى نوحاً . وصفه الله بكثرة الشكر وجعله كالعلة لما قبله إيذاناً بكون الشكر من أعظم أسباب الخير ، ومن أفضل الطاعات حثاً لذريته على شكر الله سبحانه .

وقد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : أسرى بالنبي ﷺ ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب قال : أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة (١) . وأخرج البيهقى عن عروة مثله . وأخرج البيهقى أيضاً عن السدى قال : أسرى برسول الله ﷺ قبل مهاجره بسنة عشر شهراً (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ الذى باركنا حوله ﴾ قال : أنبتنا حوله الشجر .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ﴾ قال : جعله الله هدى يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وجعله رحمة لهم . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ ألا تتخذوا من دونى وكيلا ﴾ قال : شريكاً .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ قال : هو على النداء :

(١) البيهقى فى الدلائل ٢ / ٣٥٤ .

(٢) البيهقى ٢ / ٣٥٥ .

يا ذرية من حملنا مع نوح . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن زيد الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ : « ما كان مع نوح إلا أربعة أولاد : حام ، وشام ، ويافث ، وكوش ، فذلك أربعة أولاد انتسلوا هذا الخلق » .

واعلم أنه قد أطلال كثير من المفسرين كابن كثير والسيوطي (١) وغيرهما في هذا الموضع بذكر الأحاديث الواردة في الإسراء على اختلاف ألفاظها ، وليس في ذلك كثير فائدة ، فهي معروفة في موضعها من كتب الحديث . وهكذا أطلالوا بذكر فضائل المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، وهو مبحث آخر . والمقصود في كتب التفسير ما يتعلق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز ، وذكر أسباب النزول ، وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية . وما عدا ذلك فهو فضلة لا تدعو إليه حاجة .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤ ﴾
فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ٦ إِنَّ أَحْسَنَتُمْ أَحْسَنَتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ٨ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٠ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ١١ ﴾ .

قوله : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ أى أعلمنا وأخبرنا ، أو حكمنا وأتممنا . وأصل القضاء : الإحكام للشيء والفراغ منه . وقيل : أوحينا . ويدل عليه قوله : ﴿ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ . ولو كان بمعنى الإعلام والإخبار لقال : قضينا بني إسرائيل . ولو كان بمعنى حكمنا لقال : على بني إسرائيل . ولو كان بمعنى أتممنا لقال : لبني إسرائيل . والمراد بالكتاب : التوراة . ويكون إنزالها على نبيهم موسى كإنزالها عليهم لكونهم قومه . وقيل : المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ . وقرأ أبو العالية وسعيد بن جبير : « في الكتب » . وقرأ عيسى الثقفي : « لتفسدن في الأرض » بفتح المثناة . ومعنى هذه القراءة قريب من معنى قراءة الجمهور ، لأنهم إذا أفسدوا فسدوا في نفوسهم . والمراد بالفساد : مخالفة ما شرعه الله لهم في التوراة . والمراد

(١) ابن كثير ٢٣٩ / ٤ - ٢٨٠ والسيوطي في الدر المنثور ٤ / ١٣٦ - ١٤٩ .

بالأرض : أرض الشام وبيت المقدس . وقيل : أرض مصر . واللام فى ﴿ لتفسدن ﴾ : جواب قسم محذوف . قال النيسابورى : أو أجرى القضاء المبثوث مجرى القسم كأنه قيل : وأقسمنا لتفسدن . وانتصاب ﴿ مرتين ﴾ على أنه صفة مصدر محذوف ، أو على أنه فى نفسه مصدر عمل فيه ما هو من غير جنسه . والمرة الأولى : قتل شعيب أو حبس أرمياء ، أو مخالفة أحكام التوراة ، والثانية : قتل يحيى بن زكريا ، والعزم على قتل عيسى ﴿ ولتعلن علوا كبيرا ﴾ هذه اللام كاللام التى قبلها ، أى لتستكبرن عن طاعة الله ، ولتستعلن على الناس بالظلم والبغى مجاوزين للحد فى ذلك .

﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾ أى أولى المرتين المذكورتين ﴿ بعثنا عليكم عبدا لنا أولى بأس شديد ﴾ أى قوة فى الحروب وبطش عند اللقاء . قيل : هو بختنصر وجنوده . وقيل : جالوت . وقيل : جند من فارس . وقيل : جند من بابل . ﴿ فجاسوا خلال الديار ﴾ أى عاثوا وترددوا . يقال : جاسوا وهاسوا وداسوا بمعنى . ذكره ابن جرير والقيسى . قال الزجاج : معناه طافوا خلال الديار ، هل بقى أحد لم يقتلوه ؟ قال : والجوس طلب الشئ باستقصاء . قال الجوهري : الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار ، أى تخللوها ، كما يجوس الرجل للأخبار ، أى يطلبها . وكذا قال أبو عبيدة . وقال ابن جرير : معنى جاسوا : طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين . وقال الفراء : معناه : قتلهم بين بيوتهم وأنشد لحسان :

وَمِمَّا الَّذِي لَاقَى بِسَيْفِ مُحَمَّدٍ فَجَاسَ بِهِ الْأَعْدَاءَ عُرْضَ الْعَسَاكِرِ

وقال قطرب : معناه : نزلوا ، وأنشد قول الشاعر :

فَجَسْنَا دِيَارَهُمْ عَنُوةً وَأَبْنَأَ بِسَادَاتِهِمْ مَوْثِقِينَ

وقرأ ابن عباس : « فحاسوا » بالخاء المهملة . قال أبو زيد : الحوس ، والجوس ، والعوس ، والهوس : الطوف بالليل . وقيل : الطوف بالليل هو الجوسان محركاً كذا قال أبو عبيدة . وقرئ : « خلل الديار » . ومعناه معنى خلال ، وهو : وسط الديار . ﴿ وكان ﴾ ذلك ﴿ وعدا مفعولا ﴾ أى كائناً لا محالة .

﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ﴾ أى الدولة والغلبة والرجعة ، وذلك عند توبتهم . قيل : وذلك حين قتل داود جالوت . وقيل : حين قتل بختنصر . ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين ﴾ بعد نهب أموالكم وسبى أبنائكم ، حتى عاد أمركم كما كان . ﴿ وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ قال أبو عبيدة : النفير : العدد من الرجال . فالمعنى : أكثر رجالاً من عدوكم . والنفير : من ينفر مع الرجل من عشيرته . يقال : نفير ونافر مثل : قدير وقادر . ويجوز أن يكون النفير جمع : نفر .

﴿ إن أحسنتم ﴾ أى أفعالكم وأقوالكم على الوجه المطلوب منكم ، ﴿ أحسنتم لأنفسكم ﴾ أى ثواب ذلك عائد إليكم ﴿ وإن أسأتم ﴾ أفعالكم وأقوالكم فأوقعتموها لا على الوجه المطلوب

منكم ، ﴿ فلها ﴾ ، أى فعلها . ومثله قول الشاعر :

فخر صريعاً لليدين وللنم

أى على اليدين والنم قال ابن جرير : اللام بمعنى إلى ، أى فإليها ترجع الإساءة كقوله تعالى : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ [الزلزلة : ٥] أى إليها . وقيل : المعنى : فلها الجزء أو العقاب . وقال الحسين بن الفضل : فلها رب يغفر الإساءة . وهذا الخطاب قيل : هو لبنى إسرائيل الملائين لما ذكر فى هذه الآيات . وقيل : لبنى إسرائيل الكائنين فى زمن محمد ﷺ . ومعناه : إعلامهم ما حل بسلفهم ، فليرتقبوا مثل ذلك . وقيل : هو خطاب لمشركى قريش .

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ أى حضر وقت ما وعدوا من عقوبة المرة الآخرة . والمرة الآخرة : هى قتلهم يحيى بن زكريا ، كما سبق . وقصة قتله مستوفاة فى الإنجيل ، واسمه فيه : يوحنا ، قتله ملك من ملوكهم بسبب امرأة حملته على قتله ، واسم الملك : لاخت . قاله ابن قتيبة . وقال ابن جرير : هيردوس . وجواب ﴿ إذا ﴾ محذوف ، تقديره : بعثناهم ، للدلالة جواب ﴿ إذا ﴾ الأولى عليه . و ﴿ ليسوؤوا وجوهكم ﴾ متعلق بهذا الجواب المحذوف ، أى ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم حتى تظهر عليكم آثار المساءة ، وتبين فى وجوهكم الكآبة . وقيل : المراد بالوجوه : السادة منهم . وقرأ الكسائى : « لنسوء » بالنون ، على أن الضمير لله سبحانه . وقرأ أبى : « لنسوءن » بنون التأكيد . وقرأ أبو بكر ، والأعمش وابن وثاب وحمزة وابن عامر : « ليسوء » بالتحية والإفراد . قال الزجاج : كل شئ كسرتة وفتته ، فقد تبرته . والضمير : لله أو الوعد ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ معطوف على ﴿ ليسوؤوا ﴾ . ﴿ كما دخلوه أول مرة وليتبروا ﴾ أى يدمروا ويهلكوا . وقال قطرب : يهدموا . ومنه قول الشاعر :

فما الناسُ إلاَّ عامِلانُ : فعَامِلٌ يُتَبَرُّ ما يَبْنِي ، وآخر رافع

وقرأ الباقون بالتحية ، وضم الهمزة ، وإثبات واو بعدها على أن الفاعل عباد لنا . ﴿ علوا ﴾ أى ما غلبوا عليه من بلادكم ، أو مدة علوهم . ﴿ تتبروا ﴾ أى تدميرا . ذكر المصدر إرالة للشك ، وتحقيقا للخبر .

﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ يا بنى إسرائيل بعد انتقامه منكم فى المرة الثانية . ﴿ وإن عدتم ﴾ للثالثة ﴿ عدنا ﴾ إلى عقوبتكم . قال أهل السير : ثم إنهم عادوا إلى مالا ينبغى ، وهو تكذيب محمد ﷺ ، وكتمان ماورد من بعثه فى التوراة والإنجيل ، فعاد الله إلى عقوبتهم على أيدى العرب . فجرى على بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع وخيبر ما جرى من القتل ، والسبى ، والإجلاء ، وضرب الجزية على من بقى منهم ، وضرب الذلة والمسكنة . ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ وهو المحبس ، فهو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول . والمعنى : إنهم محبوسون فى جهنم لا يتخلصون عنها أبداً . قال الجوهري : حصره يحصره حصراً : ضيق عليه وأحاط به . وقيل : فراشاً ومهاداً . وأراد - على هذا - بالحصير : الحصير الذى يفرشه

الناس .

﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ يعنى : القرآن ، يهدى الناس الطريقة التى هى أقوم من غيرها من الطرق ، وهى ملة الإسلام ، فالتى هى أقوم صفة لموصوف محذوف وهى الطريق . وقال الزجاج : للحال التى هى أقوم الحالات ، وهى توحيد الله ، والإيمان برسله . وكذا قال الفراء . ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ قرأ حمزة والكسائى : « يبشر » بفتح الياء وضم الشين . وقرأ الباكون بضم الياء وكسر الشين من التبشير ، أى يبشر بما اشتمل عليه من الوعد بالخير أجلاً وعاجلاً للمؤمنين . ﴿ الذين يعملون الصالحات ﴾ التى أرشد إلى عملها القرآن ﴿ أن لهم أجراً كبيراً ﴾ أى بأن لهم .

﴿ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ وأحكامها المينة فى القرآن ﴿ أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ وهو عذاب النار . وهذه الجملة معطوفة على جملة يبشر بتقدير : يخبر ، أى ويخبر بأن الذين لا يؤمنون بالآخرة . وقيل : معطوفة على قوله : ﴿ أن لهم أجراً كبيراً ﴾ ويراد بالتبشير : مطلق الإخبار ، أو يكون المراد منه معناه الحقيقى ، ويكون الكلام مشتملاً على تبشير المؤمنين بشارتين : الأولى : ما لهم من الثواب . والثانية : ما لأعدائهم من العقاب .

﴿ ويدع الإنسان بالشر ﴾ المراد بالإنسان هنا : الجنس ، لوقوع هذا الدعاء من بعض أفراد ، وهو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له . ﴿ دعاءه بالخير ﴾ أى مثل دعائه لربه بالخير لنفسه ولأهله كطلب العافية والرزق ونحوهما . فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر ، هلك ، لكنه لم يستجب تفضلاً منه ورحمة . ومثل ذلك : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير... ﴾ [يونس : ١١] وقد تقدم . وقيل : المراد بالإنسان هنا القائل هذه المقالة : هو الكافر يدعو لنفسه بالشر ، وهو استعجال العذاب دعاءه بالخير كقول القائل : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : ٣٢] . وقيل : هو أن يدعو فى طلب المحذور كدعائه فى طلب المباح . وحذفت الواو من ﴿ ويدع الإنسان ﴾ فى رسم المصحف ؛ لعدم التلغظ بها لوقوع اللام الساكنة بعدها كقوله : ﴿ سندع الزبانية ﴾ [العلق : ١٨] ، و ﴿ يح الله الباطل ﴾ [الشورى : ٢٤] ، و ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين ﴾ [النساء : ١٤٦] ونحو ذلك . ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ أى مطبوعاً على العجلة . ومن عجلته : أنه : يسأل الشر كما يسأل الخير . وقيل : إشارته إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تكمل فيه الروح . والمناسب للسياق هو الأول .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل ﴾ قال : أعلمناهم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : أخبرناهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل ﴾ قضينا عليهم . وأخرج ابن عساكر فى تاريخه عن على فى قوله : ﴿ لتفسدن فى الأرض مرتين ﴾ قال : الأولى : قتل زكريا . والآخرة : قتل يحيى .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى الآية ، قال : كان أول الفساد قتل زكريا ، فبعث الله عليهم ملك النبط ، ثم إن بنى إسرائيل تجهزوا فغزوا النبط ، فأصابوا منهم ، فذلك قوله : ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ﴾ (١) وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : بعث الله عليهم فى الأولى جالوت ، وبعث عليهم فى المرة الأخرى بختنصر ، فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه ﴿ فجاسوا ﴾ قال : فمشوا . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : ﴿ تتبيرا ﴾ : تدميراً .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ قال : كانت الرحمة التى وعدهم بعث محمد ﷺ . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ قال : فعادوا ، فبعث الله سبحانه عليهم محمداً ﷺ . فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون (٣) . واعلم أنها قد اختلفت الروايات فى تعيين الواقع منهم فى المرتين ، وفى تعيين من سلطه الله عليهم ، وفى كيفية الانتقام منهم . ولا يتعلق بذلك كثير فائدة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ قال : سجنأ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : معنى حصيراً : جعل الله مأواهم فيها . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ حصيراً ﴾ قال : فراشاً ومهاداً .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾ قال : للتى هى أصوب . . وأخرج الحاكم عن ابن مسعود أنه كان يتلو كثيراً : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر » بالتخفيف . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير ﴾ يعنى : قول الإنسان : اللهم العنه واغضب عليه . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ قال : ضجراً ، لا صبر له على سراء ولا ضراء . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عساكر عن سلمان الفارسى ، قال : أول ما خلق الله من آدم رأسه ، فجعل ينظر وهو يخلق ويقيت رجلاه ، فلما كان بعد العصر ، قال : يا رب أعجل قبل الليل . فذلك قوله : ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ (٤) .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ

(١) ابن جرير ١٥ / ١٧ وفى المطبوعة : « فردنا » .

(٢) ابن جرير ١٥ / ٣٥ .

(٣) عبد الرزاق (٩٨٨٢) وابن جرير ١٥ / ٣٥ .

(٤) ابن أبى شيبه (١٧٧٦٠) وابن جرير ١٥ / ٣٧ .

عَلَيْكَ حَسِبًا (١٤) مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) .

لما ذكر سبحانه دلائل النبوة والتوحيد ، أكدها بدليل آخر من عجائب صنعه وبدائع خلقه فقال : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ﴾ وذلك لما فيهما من الإظلام والإنارة مع تعاقبهما وسائر ما اشتملا عليه من العجائب التي تحار في وصفها الأفهام . ومعنى كونهما آيتين : أنهما يدلان على وجود الصانع وقدرته . وقدم الليل على النهار لكونه الأصل . ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ أى طمسنا نورها . وقد كان القمر كالشمس في الإنارة والضوء . قيل : ومن آثار المحو السواد الذى يرى فى القمر . وقيل : المراد بمحوها : أنه سبحانه خلقها محوة الضوء مطموسة . وليس المراد : أنه محاها بعد أن لم تكن كذلك . ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ أى جعل سبحانه شمس مضيئة تبصر فيها الأشياء . قال أبو عمرو بن العلاء والكسائى : هو من قول العرب : أبصر النهار : إذا صار بحالة يبصر بها . وقيل : مبصرة للناس من قوله : أبصره فبصر . فالأول : وصف لها بحال أهلها ، والثانى : وصف لها بحال نفسها . وإضافة آية إلى الليل والنهار بيانية ، أى : فمحونا الآية التى هى الليل والآية التى هى النهار كقولهم نفس الشيء وذاته .

﴿ لتبتغوا فضلا من ربكم ﴾ أى لتتوصلوا بياض النهار إلى التصرف فى وجوه المعاش . واللام متعلق بقوله : ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ أى جعلناها لتبتغوا فضلا من ربكم ، أى رزقا ، إذ غالب تحصيل الأرزاق وقضاء الحوائج يكون بالنهار . ولم يذكر هنا السكون فى الليل اكتفاء بما قاله فى موضع آخر ﴿ وهو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾ [يونس: ٦٧] .

ثم ذكر مصلحة أخرى فى ذلك الجعل فقال : ﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ وهذا متعلق بالفعلين جميعاً ، أعنى : محونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ، لا بأحدهما فقط كالأول . إذ لا يكون علم عدد السنين والحساب إلا باختلاف الجديدين ، ومعرفة الأيام والشهور والسنين . والفرق بين العدد والحساب : أن العدد : إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شيء . والحساب : إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص . فالسنة مثلاً إن وقع النظر إليها من حيث عدد أيامها ، فذلك هو العدد . وإن وقع النظر إليها من حيث تحققها وتحصلها من عدة أشهر ، قد يحصل كل شهر من عدة أيام ، قد يحصل كل يوم من عدة ساعات ، قد تحصلت كل ساعة من عدة دقائق ، فذلك هو الحساب .

﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ أى كل ما تفتقرون إليه فى أمر دينكم ودنياكم بيناه تبييناً واضحاً لا يلتبس. وعند ذلك تنزاح العلل ، وتزول الأعذار ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ﴾ [الأنفال : ٤٢] . ولهذا قال : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ﴾ قال أبو عبيدة : الطائر عند العرب : الحظ . ويقال له : البخت . فالطائر : ما وقع للشخص فى الأزل بما هو نصيبه من العقل والعمل والعمر والرزق والسعادة والشقاوة . كأن طائراً يطير إليه من وكر الأزل وظلمات عالم الغيب طيراناً لا نهاية له ، ولا غاية إلى أن انتهى إلى ذلك الشخص فى وقته المقدر من غير خلاص ولا مناص . وقال الأزهري : الأصل فى هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم ، علم المطيع من ذريته والعاصي ، فكتب ما علمه منهم أجمعين ، وقضى سعادة من علمه مطيعاً ، وشقاوة من علمه عاصياً ، فطار لكل منهم ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه . وذلك قوله : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ﴾ أى ما طار له فى علم الله ، وفى عنقه عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس . قال الزجاج : ذكر العنق عبارة عن اللزوم ، كلزوم القلادة العنق .

﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ قرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن محيصن وأبو جعفر ويعقوب : « ويخرج » بالمشاة التحتية المفتوحة ، وبالراء المضمومة على معنى : ويخرج له الطائر . و ﴿ كتاباً ﴾ منصوب على الحال . ويجوز أن يكون المعنى : يخرج له الطائر فيصير كتاباً . وقرأ يحيى بن وثاب : « يُخرج » بضم الياء وكسر الراء ، أى يخرج الله . وقرأ شيبه ومحمد بن السميع^(١) ، وروى أيضاً عن أبى جعفر : « يُخرج » بضم الياء ، وفتح الراء على البناء للمفعول ، أى ويخرج له الطائر كتاباً . وقرأ الباقر : ﴿ ونخرج ﴾ بالنون على أن المخرج هو الله سبحانه . و﴿ كتاباً ﴾ مفعول به . واحتج أبو عمرو لهذه القراءة بقوله تعالى : ﴿ ألزمناه ﴾ . وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر : « يلقاه » بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف . وقرأ الباقر بفتح الياء ، وسكون اللام ، وتخفيف القاف . وإنما قال سبحانه : ﴿ يلقاه منشوراً ﴾ تعجيلاً للبشرى بالحسنة وللتوبيخ على السيئة .

﴿ اقرأ كتابك ﴾ أى نقول له : اقرأ كتابك . أو قائلين له . قيل : يقرأ ذلك الكتاب من كان قارئاً ومن لم يكن قارئاً . ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ الباء فى : ﴿ بنفسك ﴾ زائدة . و ﴿ حسيباً ﴾ تمييز ، أى حاسباً . قال سيويه : ضريب القداح بمعنى : ضاربها ، وصريم بمعنى : صارم . ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى : الكافى . ثم وضع موضع الشهيد ، فعدى بـ « على » ، والنفس بمعنى : الشخص . ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى : المحاسب ، كالشريك والجليس .

﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ﴾ بين سبحانه أن ثواب العمل الصالح وعقاب ضده

(١) فى المطبوعة : « السميع » والصواب ما أثبتناه .

يختصان بفاعلهما، لا يتعديان منه إلى غيره . فمن اهتدى بفعل ما أمره الله به ، وترك ما نهاه الله عنه ، فإنما تعود منفعة ذلك إلى نفسه . ﴿ ومن ضل ﴾ عن طريق الحق ، فلم يفعل ما أمر به ، ولم يترك ما نهى عنه ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ أى فإن وبال ضلاله واقع على نفسه ، لا يجاوزها . فكل أحد محاسب عن نفسه ، مجزى بطاعته ، معاقب بمعصيته . ثم أكد هذا الكلام بأبلغ تأكيد فقال : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ والوزر : الإثم . يقال : وزر يزر وزراً ووزرة ، أى إثمها ، والجمع أوزار . والوزر : الثقل . ومنه : ﴿ يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ [الأنعام : ٣١] . أى أثقال ذنوبهم . ومعنى الآية : لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى ، حتى تخلص الأخرى عن وزرها ، وتؤخذ به الأولى . وقد تقدم مثل هذا فى الأنعام . قال الزجاج فى تفسير هذه الآية : إن الآثم والمذنب لا يؤاخذ بذنب غيره .

﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ لما ذكر سبحانه اختصاص المهتدى بهديته ، والضال بضلاله ، وعدم مؤاخذه الإنسان بجناية غيره ، ذكر أنه لا يعذب عباده إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسله ، وإنزال كتبه ، فبين سبحانه أنه لم يتركهم سدى ، ولا يؤاخذهم قبل إقامة الحجة عليهم . والظاهر : أنه لا يعذبهم ، لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال الرسل . وبه قالت طائفة من أهل العلم . وذهب الجمهور إلى أن المنفى هنا هو عذاب الدنيا ، لا عذاب الآخرة .

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا ﴾ : اختلف المفسرون فى معنى ﴿ أمرنا ﴾ على قولين :

الأول : أن المراد به : الأمر الذى هو نقيض النهى . وعلى هذا اختلفوا فى الأمور به . فالأكثر على أنه : الطاعة والخير . وقال فى الكشف : معناه : أمرناهم بالفسق ففسقوا (١) . وأطال الكلام فى تقرير هذا ، وتبعه المقتدون به فى التفسير . وما ذكر هو ومن تابعه معارض بمثل قول القائل : أمرته فعصانى . فإن كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا أن الأمور به شئ غير المعصية ، لأن المعصية منافية للأمر ، مناقضة له . فكذلك : أمرته ففسق ، يدل على أن الأمور به شئ غير الفسق ؛ لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد الأمور به . فكونه فسقا ينافى كونه مأمورا به ويناقضه .

القول الثانى : أن معنى ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ : أكثرنا فساقها . قال الواحدى : تقول العرب : أمر القوم ، إذا كثروا . وأمرهم الله : إذا أكثرهم .

وقد قرأ أبو عثمان النهدي وأبو رجاء وأبو العالية والربيع ومجاهد والحسن : « أمرنا » بتشديد الميم ، أى جعلناهم أمراء مسلطين . وقرأ الحسن أيضاً وقتادة وأبو حيوة الشامي ويعقوب وخارجة عن نافع ، وحامد بن سلمة عن ابن كثير وعلى وابن عباس : « أمرنا » بالمد والتخفيف ، أى : أكثرنا جبابرتها وأمراءها . قاله الكسائى . وقال أبو عبيدة : « أمرته » بالمد ،

و « أمرته » لغتان بمعنى كثرته . ومنه الحديث : « خير المال مهرة مأمورة »^(١) أى كثيرة النتائج والنسل . وكذا قال ابن عزيز . وقرأ الحسن أيضا ويحيى بن يعمر : « أمرنا » بالقصر ، وكسر الميم على معنى فعلنا . ورويت هذه القراءة عن ابن عباس . قال قتادة والحسن : المعنى : أكثرنا . وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد ، وأنكره الكسائى . وقال : لا يقال من الكثرة إلا أمرنا بالمد . قال فى الصحاح : وقال أبو الحسن : أمر ماله بالكسر ، أى كثر ، وأمر القوم ، أى كثروا . ومنه قول لبيد :

إِنْ يُغْبَطُوا يَهْبِطُوا وَإِنْ أَمُرُوا يَوْمًا يَكُنْ لِلْهَلَاكِ وَالْفَنَدِ

وقرأ الجمهور : ﴿ أمرنا ﴾ من الأمر . ومعناه ما قدمنا فى القول الأول . ومعنى : ﴿ مترفيها ﴾ : المنعمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش . والمفسرون يقولون فى تفسير المترفين : إنهم الجبارون المتسلطون . والملوك الجائرون . قالوا : وإنما خصوا بالذكر ؛ لأن من عداهم أتباع لهم . ومعنى ﴿ فسقوا فيها ﴾ : خرجوا عن الطاعة ، وتمردوا فى كفرهم ، لأن الفسوق الخروج إلى ما هو أفحش . ﴿ فحق عليها القول ﴾ أى ثبت وتحقق عليهم العذاب بعد ظهور فسقهم . ﴿ فدمرناها تدميرا ﴾ أى تدميراً عظيماً لا يوقف على كنهه لشدة وعظم موقعه . وقد قيل فى تأويل ﴿ أمرنا ﴾ : بأنه مجاز عن الأمر الحامل لهم على الفسق ، وهو إدرار النعم عليهم . وقيل أيضاً : إن المراد بـ ﴿ أردنا أن نهلك قرية ﴾ أنه قرب إهلاك قرية ، وهو عدول عن الظاهر بدون ملجئ إليه .

ثم ذكر سبحانه أن هذه عادته الجارية مع القرون الخالية ، فقال : ﴿ وكم أهلكنا من القرون ﴾ أى كثيراً ما أهلكنا منهم ، فـ « كم » مفعول ﴿ أهلكنا ﴾ و « من القرون » بيان لـ « كم » وتمييز له ، أى كم من قوم كفروا من بعد نوح كعاد وشمود ، فحل بهم البوار ، ونزل بهم سوط العذاب . وفيه تخويف لكفار مكة . ثم خاطب رسوله بما هو ردع للناس كافة فقال : ﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ . قال الفراء : إنما يجوز إدخال الباء فى المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذم به . كقولك : كفأك ، وأكرم به رجلاً وطاب بطعامك طعاماً . ولا يقال : قام بأخيك ، وأنت تريد : قام أخوك . وفى الآية بشارة عظيمة لأهل الطاعة ، وتخويف شديد لأهل المعصية ؛ لأن العلم التام ، والخبرة الكاملة ، والبصيرة النافذة تقتضى إيصال الجزاء إلى مستحقه بحسب استحقاقه ، ولا ينافيه مزيد التفضل على من هو أهل لذلك . والمراد بكونه سبحانه ﴿ خبيراً بصيراً ﴾ : أنه محيط بحقائق الأشياء ظاهراً وباطناً ، لا تخفى عليه منها خافية .

وقد أخرج البيهقى فى دلائل النبوة ، وابن عساكر عن سعيد المقبرى ؛ أن عبد الله بن سلام سأل النبى ﷺ عن السواد الذى فى القمر ، فقال : « كانا شمسين ، قال الله : ﴿ وجعلنا

الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل ﴿ فالسواد الذى رأيت هو المحو ﴾ (١) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ ، معنى هذا بأطول منه . قال السيوطى : وإسناده واه (٢) . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن على فى قوله : ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ قال : هو السواد الذى فى القمر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ ، قال : منيرة . ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ قال : جعل لكم سبجاً طويلاً . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فصلناه ﴾ ، قال : بيناه .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير بسند حسن عن جابر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « طائر كل إنسان فى عنقه » (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ألزمناه طائره فى عنقه ﴾ قال : سعادته وشقاوته ، وما قدر الله له وعليه ، فهو لازمه أين كان . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر عن أنس فى قوله : ﴿ طائره ﴾ قال : كتابه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : عمله . ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ قال : هو عمله الذى أحصى عليه ، فأخرج له يوم القيامة ما كتب له من العمل ، فقرأه منشوراً .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ اقرأ كتابك ﴾ قال : سيقراً يومئذ من لم يكن قارئاً فى الدنيا . وأخرج ابن عبد البر فى التمهيد عن عائشة فى قوله : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ قال : سألت خديجة عن أولاد المشركين ، فقال : « هم من آبائهم » . ثم سألت بعد ذلك ، فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » . ثم سألته بعدما استحکم الإسلام ، فتزلت : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ، فقال : « هم على الفطرة » ، أو قال : « فى الجنة » . قال السيوطى : وسنده ضعيف (٤) . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن النبي ﷺ سئل ، فقيل له : يارسول الله ، إنا نصيب فى البيات من ذرارى المشركين . قال : « هم منهم » (٥) . وفى ذلك أحاديث كثيرة وبحث طويل . وقد ذكر ابن كثير فى تفسير هذه الآية غالب الأحاديث الواردة فى أطفال المشركين ثم نقل كلام أهل العلم فى المسألة ، فليرجع إليها (٦) .

(١) البيهقى فى الدلائل ٦ / ٢٦٢ . (٢) السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ١٦٦ .
(٣) أحمد ٣ / ٣٦٠ وابن جرير ١٥ / ٣٩ . (٤) السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ١٦٨ .
(٥) البخارى فى الجهاد (٣٠١٢ ، ٣٠١٣) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٤٥ / ٢٦ ، ٢٧) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٧٢) والترمذى فى السير (١٥٧٠) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى الكبرى فى السير (٨٦٢٢ ، ٨٦٢٤) وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٣٩) . وكلهم عن الصعب بن جثامة .
(٦) ابن كثير ٤ / ٢٨٨ — ٢٩٥ .

وأخرج إسحاق بن راهويه وأحمد وابن حبان ، وأبو نعيم فى المعرفة ، والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى كتاب الاعتقاد عن الأسود بن سريع ؛ أن النبى ﷺ قال : « أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات فى الفترة » ثم قال : « ف يأخذ الله مواليقهم ليطيعنه ويرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار » . قال : « فو الذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً . ومن لم يدخلها ، يسحب إليها » ، وإسناده عند أحمد هكذا : حدثنا على بن عبد الله حدثنا معاذ بن هشام حدثنى أبى عن أبى قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود بن سريع^(١) . وأخرج نحوه إسحاق ابن راهويه وأحمد وابن مردويه عن أبى هريرة . وهو عند أحمد بالإسناد المذكور عن قتادة ، عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة^(٢) . وأخرج قاسم بن أصبغ والبخاري وأبو يعلى ، وابن عبد البر فى التمهيد عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ فذكر نحوه . وجعل مكان الأحمق المعتوه^(٣) . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، والطبرانى وأبو نعيم عن معاذ بن جبل ، عن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى يوم القيامة بالمسوح عقلاً ، وبالهالك فى الفترة ، وبالهالك صغيراً » فذكر معناه مطولاً^(٤) .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ قال : بطاعة الله ، فعصوا^(٥) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبيرة مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن شهر بن حوشب ، قال : سمعت ابن عباس يقول فى الآية : ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ بحق فخالقوه ، فحق عليهم بذلك التدمير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه فى الآية ، قال : سلطنا شرارنا فعصوا ، فإذا فعلوا ذلك ، أهلكناهم بالعذاب ، وهو كقوله : ﴿ وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ [الأنعام : ١٢٣] . وأخرج البخارى وابن مردويه عن ابن مسعود ، قال : كنا نقول للحى إذا كثروا فى الجاهلية : قد أمر بنو فلان^(٦) .

(١) أحمد ٢٤ / ٤ وابن حبان (٧٣١٣) والطبرانى (٨٤١) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٢١٩ : « رجال أحمد فى طريق الأسود بن سريع وأبى هريرة رجال الصحيح وكذلك رجال البزار فيهما » .

(٢) أحمد ٢٤ / ٤ وارجع لما قاله الهيثمى فى المجمع فى الحديث السابق فالكلام فى الحديثين معا .

(٣) أبو يعلى (٤٢٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٢١٩ : « فيه ليث بن أبى سليم وهو مدلس ، وبقيّة رجال أبى يعلى رجال الصحيح » .

(٤) الطبرانى ٢٠ / ٨٣ (١٥٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٢١٩ ، ٢٢٠ : « فيه عمرو بن واقد وهو متروك عند البخارى وغيره ورمى بالكذب وقال محمد بن المبارك الصورى : كان يتبع السلطان وكان صدوقاً ، وبقيّة رجال الكبير رجال الصحيح » .

(٥) ابن جرير ١٥ / ٤٢ .

(٦) البخارى فى التفسير (٤٧١١) .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴿

قوله : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ هذا تأكيد لما سلف من جملة : ﴿ كل إنسان ألزمناه ﴾ ومن جملة : ﴿ من اهتدى ﴾ ، والمراد بالعاجلة : المنفعة العاجلة ، أو الدار العاجلة ، والمعنى : من كان يريد بأعمال البر أو بأعمال الآخرة ذلك ، فيدخل تحته الكفرة والفسقة ، والمراؤون ، والمنافقون ﴿ عجلنا له ﴾ أى عجلنا لذلك المريد ﴿ فيها ﴾ أى فى تلك العاجلة ، ثم قيد المعجل بقيدين : الأول : قوله : ﴿ ما نشاء ﴾ أى ما يشاء الله سبحانه تعجيله له منها ، لا ما يشاؤه ذلك المريد . ولهذا ترى كثيراً من هؤلاء المريدين للعاجلة يريدون من الدنيا ما لا ينالون ، ويتمنون ما لا يصلون إليه . والقيد الثانى : قوله : ﴿ لمن نريد ﴾ أى لمن نريد التعجيل له منهم ما اقتضته مشيئتنا . وجملة : ﴿ لمن نريد ﴾ بدل من الضمير فى : « له » بإعادة الجار بدل البعض من الكل ، لأن الضمير يرجع إلى « من » وهو للعموم . وهذه الآية تقيد الآيات المطلقة ، كقوله سبحانه : ﴿ ومن (١) كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ﴾ [الشورى : ٢٠] ، وقوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾ [هود : ١٥] . وقد قيل : إنه قرئ : « ما يشاء » بالياء التحتية . ولا ندرى من قرأ بذلك من أهل الشواذ . وعلى هذه القراءة فليل : الضمير لله سبحانه ، أى ما يشاؤه الله ، فيكون معناها معنى القراءة بالنون . وفيه بعد لمخالفته لما قبله . وهو ﴿ عجلنا ﴾ وما بعده وهو ﴿ لمن نريد ﴾ . وقيل : الضمير راجع إلى ﴿ من ﴾ فى قوله : ﴿ من كان يريد ﴾ فيكون ذلك مقيداً بقوله : ﴿ لمن نريد ﴾ أى عجلنا له ما يشاؤه ، لكن بحسب إرادتنا ، فلا يحصل لمن أراد العاجلة ما يشاؤه إلا إذا أراد الله له ذلك .

ثم بعد هذا كله فمن وراء هذه الطلبة الفارغة التى لا تأثير لها إلا بالقيدين المذكورين عذاب الآخرة الدائم . ولهذا قال : ﴿ ثم جعلنا له جهنم ﴾ أى جعلنا له بسبب تركه لما أمر به من العمل للآخرة وإخلاصه عن الشوائب عذاب جهنم على اختلاف أنواعه ﴿ يصلاها ﴾ فى محل

(١) فى المطبوعة : « من » بدون واو العطف .

نصب على الحال ، أى يدخلها ﴿ مذموماً مدحوراً ﴾ أى مطروداً من رحمة الله ، مبعداً عنها ، فهذه عقوبته فى الآخرة ، مع أنه لا ينال من الدنيا إلا ما قدره الله سبحانه له . فأين حال هذا الشقى من حال المؤمن التقى ؟ فإنه ينال من الدنيا ما قدره الله له وأراد به هلع منه ولا جزع ، مع سكون نفسه واطمئنان قلبه وثقته بربه ، وهو مع ذلك عامل للآخرة ، منتظر للجزاء من الله سبحانه وهو الجنة ولهذا قال : ﴿ ومن أراد الآخرة ﴾ أى أراد بأعماله الدار الآخرة ، ﴿ وسعى لها سعيها ﴾ أى السعى الحقيق بها اللائق بطالبها ، وهو الإتيان بما أمر به ، وترك ما نهى عنه خالصاً لله غير مشوب ، وكان الإتيان به على القانون الشرعى من دون ابتداع ولا هوى ﴿ وهو مؤمن ﴾ بالله إيماناً صحيحاً ، لأن العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه إلا إذا كان من المؤمنين ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ [المائدة : ٢٧] . والجملة فى محل نصب على الحال . والإشارة بقوله : ﴿ فأولئك ﴾ إلى المريدين للآخرة الساعين لها سعيها ، وخبره : ﴿ كان سعيهم مشكوراً ﴾ عند الله ، أى مقبولاً غير مردود . وقيل : مضاعفاً إلى أضعاف كثيرة . فقد اعتبر سبحانه فى كون السعى مشكوراً أموراً ثلاثة : الأول : إرادة الآخرة . الثانى : أن يسعى لها السعى الذى يحق لها . والثالث : أن يكون مؤمناً .

ثم بين سبحانه كمال رافته وشمول رحمته فقال : ﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ﴾ التوئين فى « كلا » عوض عن المضاف إليه ، والتقدير : كل واحد من الفريقين غمد ، أى نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع ، نرزق المؤمنين والكفار ، وأهل الطاعة وأهل المعصية ، لا تؤثر معصية العاصى فى قطع رزقه ، وما به الإمداد هو ما عجله لمن يريد الدنيا . وما أنعم به فى الأولى والأخرى على من يريد الآخرة . وفى قوله : ﴿ من عطاء ربك ﴾ إشارة إلى أن ذلك بمحض التفضل ، وهو متعلق بـ ﴿ نمد ﴾ ، ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ ، أى : ممنوعاً . يقال : حظره يحظره حظراً : منعه . وكل ما حال بينك وبين شيء ، فقد حظره عليك . و ﴿ هؤلاء ﴾ بدل من « كلا » و ﴿ هؤلاء ﴾ معطوف على البدل . قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أنه يعطى المسلم والكافر وأنه يرزقهما جميعاً الفريقين فقال : ﴿ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ﴾ .

﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ . ويحتمل أن يكون لكل من له أهلية النظر والاعتبار . وهذه الجملة مقررة لما مر من الإمداد ، وموضحة له . والمعنى : انظر كيف فضلنا فى العطايا العاجلة بعض العباد على بعض . فمن غنى وفقير ، وقوى وضعيف ، وصحيح ومريض ، وعاقل وأحمق ، وذلك لحكمة بالغة تقصر العقول عن إدراكها . ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ وذلك لأن نسبة التفاضل فى درجات الآخرة إلى التفاضل فى درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا . وليس للدنيا بالنسبة إلى الآخرة مقدار . فلهذا كانت الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً . وقيل : المراد : أن المؤمنين يدخلون الجنة ، والكافرين يدخلون النار ، فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين . وحاصل المعنى : أن التفاضل

فى الآخرة ودرجاتها فوق التفاضل فى الدنيا ومراتب أهلها فيها من بسط وقبض ونحوهما .

ثم لما أجمل سبحانه أعمال البر فى قوله : ﴿ وسعى لها سعيها وهو مؤمن ﴾ أخذ فى تفصيل ذلك مبتدئاً بأشرفها الذى هو التوحيد ، فقال : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ ، والخطاب للنبي ﷺ ، والمراد به : أمته ، تهيجاً وإلهاباً ، أو لكل متأهل له صالح لتوجيهه إليه . وقيل : هو على إضمار القول . والتقدير : قل لكل مكلف : لا تجعل . وانتصاب ﴿ تقعد ﴾ على جواب النهى ، والتقدير : لا يكن منك جعل فقعود . ومعنى ﴿ تقعد ﴾ : تصير ، من قولهم : شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها خربة . وليس المراد حقيقة القعود المقابل للقيام . وقيل : هو كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخيرات ، فإن السعى فيه إنما يتأتى بالقيام ، والعجز عنه يلزمه أن يكون قاعداً عن الطلب . وقيل : إن من شأن المذموم المخذول أن يقعد نادماً مفكراً على ما فرط منه ، فالقعود على هذا حقيقة . وانتصاب ﴿ مذموماً مخذولاً ﴾ على خبرية تقعد أو على الحال ، أى فتصير جامعاً بين الأمرين : الذم لك من الله ومن ملائكته ومن صالحى عباده ، والخذلان لك منه سبحانه أو حال كونك جامعاً بين الأمرين .

ثم لما ذكر ما هو الركن الأعظم وهو التوحيد ، أتبعه سائر الشعائر والشرائع فقال : ﴿ وقضى ربك ﴾ أى أمر أمراً جزماً ، وحكماً قطعاً وحتماً مبرماً ﴿ أن لا تعبدوا ﴾ أى بأن لا تعبدوا ، فتكون « أن » ناصبة ، ويجوز أن تكون مفسرة ، و « لا » نهى . وقرئ : « ووصى ربك » أى وصى عباده بعبادته وحده ، ثم أردفه بالأمر ببر الوالدين ، فقال : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ أى وقضى بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً ، أو وأحسنوا بهما إحساناً ، ولا يجوز أن يتعلق ﴿ بالوالدين ﴾ بـ ﴿ إحساناً ﴾ لأن المصدر لا يتقدم عليه ما هو متعلق به . قيل : ووجه ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه أنهما السبب الظاهر فى وجود المتولد بينهما ، وفى جعل الإحسان إلى الأبوين قريناً لتوحيد الله وعبادته من الإعلان بتأكد حقهما والعناية بشأنهما ما لا يخفى . وهكذا جعل سبحانه فى آية أخرى شكرهما مقترناً بشكره ، فقال : ﴿ أن اشكرا لى ولوالديك ﴾ [لقمان : ١٤] .

ثم خص سبحانه حالة الكبر بالذكر ، لكونها إلى البر من الولد أحوج من غيرها ، فقال : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ﴾ : « إما » مركبة من « إن » الشرطية و « ما » الإبهامية لتأكيد معنى الشرط ، ثم أدخلت نون التوكيد فى الفعل لزيادة التقرير ، كأنه قيل : إن هذا الشرط مما سيقع ألبتة عادة . قال النحويون : إن الشرط يشبه النهى من حيث الجزم وعدم الثبوت . فلهذا صح دخول النون المؤكدة عليه . وقرأ حمزة والكسائى : « يبلغان » . قال الفراء : ثنى لأن الوالدين قد ذكرا قبله ، فصار الفعل على عددهما . ثم قال : ﴿ أحدهما أو كلاهما ﴾ على الاستثناف . وأما على قراءة : ﴿ يبلغن ﴾ فأحدهما فاعل بالاستقلال . وقوله : ﴿ أو كلاهما ﴾ فاعل أيضاً ، لكن لا بالاستقلال ، بل بتبعية العطف ، والأولى أن يكون أحدهما على قراءة « يبلغان » بدل من الضمير الراجع إلى الوالدين فى الفعل . ويكون

﴿ كلاهما ﴾ عطفاً على البدل . ولا يصح جعل ﴿ كلاهما ﴾ تأكيداً للضمير ، لاستلزام العطف المشاركة ومعنى ﴿ عندك ﴾ : فى كفك وكفالتك . وتوحيد الضمير فى ﴿ عندك ﴾ و ﴿ لا تقل ﴾ وما بعدهما للإشعار بأن كل فرد من الأفراد منهى بما فيه النهى ، ومأمور بما فيه الأمر . ومعنى : ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ : لا تقل لواحد منهما فى حالتي الاجتماع والانفراد . وليس المراد حالة الاجتماع فقط .

وفى ﴿ أف ﴾ لغات : ضم الهمزة مع الحركات الثلاث فى الفاء ، وبالتنوين وعدمه ، وبكسر الهمز . والفاء بلا تنوين . وأفى بمالا . وأفه بالهاء . قال الفراء : تقول العرب : فلان يتأفف من ريح وجدها . أى يقول : أف أف . وقال الأصمعى : الأف : وسخ الأذن . والثف : وسخ الأظفار . يقال ذلك عند استقذار الشيء . ثم كثر حتى استعملوه فى كل ما يتأذون به . وروى ثعلب عن ابن الأعرابي أن الأفف : الضجر . وقال القتيبي : أصله : أنه إذا سقط عليه تراب ونحوه ، نفخ فيه ليزيله . فالصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قول القائل : أف . ثم توسعوا فذكروه عند كل مكروه يصل إليهم . وقال الزجاج : معناه : التنن . وقال أبو عمرو ابن العلاء : الأف : وسخ بين الأظفار . والثف : قلامتها . والحاصل أنه اسم فعل ينبئ عن التضجر والاستثقال ، أو صوت ينبئ عن ذلك . فنهى الولد عن أن يظهر منه ما يدل على التضجر من أبويه أو الاستثقال لهما . وبهذا النهى يفهم النهى عن سائر ما يؤذيها بفحوى الخطاب أو بلحنه كما هو مقرر فى الأصول .

﴿ ولا تنهرهما ﴾ النهر : الزجر والغلظة ، يقال : نهره وانتهره : إذا استقبله بكلام يزجره . قال الزجاج : معناه لا تكلمهما ضجراً صائحاً فى وجوههما . ﴿ وقل لهما ﴾ بدل التأنيف والنهر . ﴿ قولاً كريماً ﴾ أى ليناً لطيفاً أحسن ما يمكن التعبير عنه من لطف القول وكرامته مع التأدب والحياء والاحتشام .

﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ ذكر القفال فى معنى خفض الجناح وجهين : الأول : أن الطائر إذا أراد ضم فراخه إليه للتربية ، خفض لها جناحه . فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير . فكأنه قال للولد : اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك فى حال صغرك . والثانى : أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع ، نشر جناحه . وإذا أراد النزول ، خفض جناحه ، فصار خفض الجناح كناية عن التواضع وترك الارتفاع . وفى إضافة الجناح إلى الذل وجهان : الأول : أنها كإضافة حاتم إلى الجود فى قولك : حاتم الجود . فالأصل فيه : الجناح الذليل . والثانى : سلوك سبيل الاستعارة كأنه تخيل للذل جناحاً ، ثم أثبت لذلك الجناح خفضاً . وقرأ الجمهور : ﴿ الذل ﴾ بضم الذا من ذل يذل ذلاً وذلة ومذلة فهو ذليل . وقرأ سعيد بن جبير ، وعروة بن الزبير بكسر الذا . وروى ذلك عن ابن عباس وعاصم من قولهم : دابة ذلول . بينة الذل ، أى منقادة سهلة لا صعوبة فيها .

و ﴿ من الرحمة ﴾ فيه معنى التعليل ، أى من أجل فرط الشفقة والعطف عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم لمن كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس . ثم كأنه قال له سبحانه : ولا تكتف برحمتك التى لا دوام لها ولكن ﴿ قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ والكاف فى محل نصب على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى رحمة مثل تربيتهما لى ، أو مثل رحمتهما لى . وقيل : ليس المراد رحمة مثل الرحمة ، بل الكاف لاقترانهما فى الوجود ، فلتقع هذه كما وقعت تلك . والتربية : التنمية . ويجوز أن يكون الكاف للتعليل ، أى لأجل تربيتهما لى ، كقوله : ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ [البقرة : ١٩٨] . ولقد بالغ سبحانه فى التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقول وتقف عندها شعورهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ من كان يريد العاجلة ﴾ قال : من كان يريد بعمله الدنيا . ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ ذاك به . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية عن الحسن فى قوله : ﴿ كلا نمد ﴾ الآية ، قال : كل يرزق الله فى الدنيا البر والفاجر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى الآية ، قال : يرزق الله من أراد الدنيا ، ويرزق من أراد الآخرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ، قال : ﴿ محظورا ﴾ : ممنوعا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد مثله .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية عن سلمان عن النبى ﷺ ، قال : « ما من عبد يريد أن يرتفع فى الدنيا درجة ، فارتفع بها إلا وضعه الله فى الآخرة درجة أكبر منها وأطول » ، ثم قرأ : ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ . وهو من رواية زاذان عن سلمان (١) . وثبت فى الصحيحين : « أن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما يرون الكوكب الغابر فى أفق السماء » (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ مذهبوما ﴾ ، يقول : ملوما .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن الأبارى فى المصاحف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قرأ : « ووصى ربك » مكان ﴿ وقضى ﴾ وقال : التزقت الواو والصاد ، وأنتم تقرأونها : ﴿ وقضى ربك ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عنه مثله . وأخرج أبو عبيد وابن منيع وابن المنذر وابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عنه أيضاً مثله . وزاد : « ولو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد » . وأقول : إنما يلزم هذا لو كان القضاء بمعنى الفراغ من الأمر . وهو وإن كان أحد معانى مطلق القضاء كما فى قوله : ﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ [يوسف : ٤١] ، وقوله : ﴿ فإذا قضيتم

(١) الطبرانى (٦١٠١) وأبو نعيم فى الحلية ٤ / ٢٠٤ ، وقال الهيمى فى المجمع ٧ / ٥٢ : « فيه أبو الصباح عبد الغفور وهو متروك » .

(٢) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٥٦) وفى الرقاق (٦٥٥٦) ومسلم فى الجنة (٢٨٣١ / ١١) والترمذى فى المناقب (٣٦٥٨) وقال : « حديث حسن » وابن ماجة فى المقدمة (٩٦) وكلهم عن أبى سعيد الخدرى .

مناسككم ﴿ [البقرة : ٢٠٠] ، ﴿ فإذا قضيتم الصلاة ﴾ [النساء : ١٠٣] ولكنه هاهنا بمعنى الأمر . وهو أحد معاني القضاء ، والأمر لا يستلزم ذلك ، فإنه سبحانه قد أمر عباده بجميع ما أوجبه . ومن جملة ذلك إفراده بالعبادة وتوحيده ، وذلك لا يستلزم ألا يقع الشرك من المشركين . ومن معاني مطلق القضاء معان آخر غير هذين المعنيين ، كالقضاء بمعنى : الخلق . ومنه : ﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ [فصلت : ١٢] . وبمعنى : الإرادة كقوله : ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [آل عمران : ٤٧] . وبمعنى : العهد كقوله : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ [القصص : ٤٤] . وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وقضى ربك ﴾ قال : أمر . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد فى الآية قال : عهد ربك .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ يقول : براً . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ لما تغطى عنهما من الأذى : الخلاء ، والبول كما كانا لا يقولانه فيما كانا يميطنان عنك من الخلاء والبول . وأخرج الديلمى عن الحسين بن على مرفوعاً : لو علم الله شيئاً من العقوق أدنى من أف لحرمه (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن زهير بن محمد فى قوله : ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ قال : إذا دعواك ، فقل : لبيكما وسعديكما . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية ، قال : قولاً ليناً سهلاً . وأخرج البخارى فى الأدب ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عروة فى قوله : ﴿ واخفض لهما جناح الذل ﴾ قال : يلين لهما حتى لا يمتنع من شئ أحباه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية ، قال : اخضع لوالديك كما يخضع العبد للسيد لفظ الغليظ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وقل رب ارحمهما ﴾ ، ثم أنزل الله بعد هذا ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى ﴾ [التوبة : ١١٣] . وأخرج البخارى فى الأدب المفرد ، وأبو داود وابن جرير وابن المنذر من طرق عنه نحوه . وقد ورد فى بر الوالدين أحاديث كثيرة ثابتة فى الصحيحين وغيرهما . وهى معروفة فى كتب الحديث .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُوراً ﴾ (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ﴿ (٢٦) إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿ (٢٧) وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِّنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿ (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ

مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴿

قوله : ﴿ ربكم أعلم بما فى نفوسكم ﴾ أى بما فى ضمائرکم من الإخلاص وعدمه فى كل الطاعات ، ومن التوبة من الذنب الذى فرط منكم أو الإصرار عليه . ويندرج تحت هذا العموم ما فى النفس من البر والعقوق اندراجاً أولاً . وقيل : إن الآية خاصة بما يجب للأبوين من البر . ويحرم على الأولاد من العقوق . والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ ، فلا تخصصه دلالة السياق ولا تقيده ﴿ إن تكونوا صالحين ﴾ قاصدين الصلاح والتوبة من الذنب ، والإخلاص للطاعة فلا يضركم ما وقع من الذنب الذى تبتم عنه . ﴿ فإنه كان للأبوين غفورا ﴾ أى الرجاعين عن الذنوب إلى التوبة ، وعن عدم الإخلاص إلى محض الإخلاص . ﴿ غفورا ﴾ لما فرط منهم من قول أو فعل أو اعتقاد . فمن تاب ، تاب الله عليه . ومن رجع إلى الله ، رجع الله إليه .

ثم ذكر سبحانه التوصية بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما فقال : ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ ، والخطاب إما لرسول الله ﷺ تهيجاً وإلهاباً لغيره من الأمة ، أو لكل من هو صالح لذلك من المكلفين كما فى قوله : ﴿ وقضى ربك ﴾ والمراد بذى القربى : ذو القرابة . وحقهم هو صلة الرحم التى أمر الله بها ، وكرر التوصية فيها . والخلاف بين أهل العلم فى وجوب النفقة للقرابة ، أو لبعضهم كالوالدين على الأولاد ، والأولاد على الوالدين معروف . والذى ينبغى الاعتماد عليه وجوب صلتهم بما تبلغ إليه القدرة ، وحسبما يقتضيه الحال و﴿ المسكين ﴾ معطوف على ﴿ ذا القربى ﴾ وفى هذا العطف دليل على أن المراد بالحق : الحق المالى و ﴿ ابن السبيل ﴾ معطوف على المسكين ، والمعنى : وآت من اتصف بالمسكنة أو بكونه من أبناء السبيل حقه . وقد تقدم بيان حقيقة المسكين وابن السبيل فى البقرة وفى التوبة . والمراد فى هذه الآية : التصديق عليهما بما بلغت إليه القدرة من صدقة النفل ، أو بما فرضه الله لهما من صدقة الفرض ، فإنهما من الأصناف الثمانية التى هى مصرف الزكاة .

ثم لما أمر سبحانه بما أمر به هاهنا ، نهى عن التبذير فقال : ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ التبذير : تفريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه ، وهو الإسراف المذموم ، لمجاوزته للحد المستحسن شرعاً فى الإنفاق ، أو هو الإنفاق فى غير الحق ، وإن كان يسيراً . قال الشافعى : التبذير : إنفاق المال فى غير حقه . ولا تبذير فى عمل الخير . قال القرطبى بعد

حكايته لقول الشافعى هذا : وهذا قول الجمهور ^(١) . قال أشهب عن مالك : التبذير : هو أخذ المال من حقه ، ووضع في غير حقه ، وهو الإسراف ، وهو حرام لقوله : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ فإن هذه الجملة تعليل للنهي عن التبذير . والمراد بالإخوة : المماثلة التامة . وتجنب مماثلة الشيطان ولو في خصلة واحدة من خصاله واجب ، فكيف فيما هو أعم من ذلك كما يدل عليه إطلاق المماثلة . والإسراف في الإنفاق من عمل الشيطان . فإذا فعله أحد من بنى آدم ، فقد أطاع الشيطان واقتدى به . ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ أى كثير الكفران ، عظيم التمرد عن الحق ، لأنه مع كفره لا يعمل إلا شراً ، ولا يأمر إلا بعمل الشر ، ولا يوسوس إلا بما لا خير فيه . وفي هذه الآية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين . ثم التسجيل على جنس الشيطان بأنه كفور . فاقترضى ذلك أن المبذر مماثل للشيطان . وكل مماثل للشيطان له حكم الشيطان . وكل شيطان كفور . فالمبذر كفور .

﴿ وَإِنَّمَا تَعْرَضْنَ عَنْهُمْ ﴾ قد تقدم قريباً أن أصل « إما » هذه مركب من « إن » الشرطية و« ما » الإبهامية ، وأن دخول نون التأكيد على الشرط لمشابهة للنهي ، أى إن أعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل لأمر اضطررك إلى ذلك الإعراض ﴿ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى لفقد رزق من ربك ، ولكنه أقام المسبب الذى هو ابتغاء رحمة الله مقام السبب الذى هو فقد الرزق ، لأن فاقد الرزق مبتغ له ، والمعنى : وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح الله به عليك ﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِيسُورًا ﴾ أى قولاً سهلاً ليناً كالوعد الجميل ، أو الاعتذار المقبول . قال الكسائى : يسرت له القول ، أى لينته . قال الفراء : معنى الآية : إن تعرض عن السائل إضافة وإعساراً ﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِيسُورًا ﴾ : عدهم عدة حسنة . ويجوز أن يكون المعنى : وإن تعرض عنهم ولم تنفعهم لعدم استطاعتك ، فقل لهم قولاً ميسوراً . وليس المراد هنا الإعراض بالوجه . وفي هذه الآية تأديب من الله سبحانه لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون ، وبما يردون . ولقد أحسن من قال :

إِنْ لَا يَكُنْ وَرَقٌ يَوْمًا أَجُودُ بِهَا لِلسَّائِلِينَ فَإِنِّى لَيْسَ الْعُودُ
لَا يَعْدَمُ السَّائِلُونَ الْخَيْرَ مِنْ خُلُقِى إِمَّا نَوَالٌ وَإِمَّا حُسْنُ مَرَدُّودٍ

لما ذكر سبحانه أدب المنع بعد النهى عن التبذير ، بين أدب الإنفاق فقال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ وهذا النهى يتناول كل مكلف ، سواء كان الخطاب للنبي ﷺ تعريضاً لأئمة وتعليماً لهم ، أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين ، والمراد : النهى للإنسان بأن يمسك إمساكاً يصير به مضيقاً على نفسه وعلى أهله ، ولا يوسع في الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه ، بحيث يكون به مسرفاً ، فهو نهى عن جانبى الإفراط والتفريط . ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط . وهو العدل الذى ندب الله إليه .

ولا تك فيها مفرطاً أو مفرطاً كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقد مثل الله سبحانه في هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة إلى عنقه . بحيث لا يستطيع التصرف بها ، ومثل حال من يجاوز الحد في التصرف بحال من ييسر يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها شيء مما تقبض الأيدي عليه . وفي هذا التصوير مبالغة بليغة . ثم بين سبحانه غائلة الطرفين المنهى عنهما فقال : ﴿ فتقعد ملوما ﴾ عن الناس بسبب ما أنت عليه من الشح ﴿ محسورا ﴾ بسبب ما فعلته من الإسراف ، أى منقطعاً عن المقاصد بسبب الفقر . والمحسور فى الأصل : المنقطع عن السير ، من حصره السفر : إذا بلغ منه . والبعر الحسير : هو الذى ذهبت قوته ، فلا انبعث به . ومنه قوله تعالى : ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ [الملك : ٤] ، أى : كليل منقطع . وقيل : معناه : نادماً على ما سلف . فجعله هذا القائل من الحسرة التى هى الندامة . وفيه نظر ، لأن الفاعل من الحسرة : حسران . ولا يقال : محسور إلا للملوم .

ثم سلى رسوله والمؤمنين بأن الذين يرهقهم من الإضاعة ليس لهوانهم على الله سبحانه ، ولكن لمشيئة الخالق الرازق فقال : ﴿ إن ربك ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أى يوسع على بعض ، ويضيقه على بعض لحكمة بالغة ، لا لكون من وسع له رزقه مكرماً عنده ، ومن ضيقه عليه هائناً لديه . قيل : ويجوز أن يراد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذى لا تنفى خزائنه ، فأما عباده فعليهم أن يقتصدوا . ثم علل ما ذكره من البسط للبعض والتضييق على البعض بقوله : ﴿ إنه كان عباده خبيراً بصيراً ﴾ أى يعلم ما يسرون وما يعلنون ، لا يخفى عليه من ذلك خافية ، فهو الخبير بأحوالهم ، البصير بكيفية تدبيرهم فى أرزاقهم . وفى هذه الآية دليل على أنه المتكفل بأرزاق عباده . فلذلك قال بعدها : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ أملق الرجل : لم يبق له إلا الملقات ، وهى الحجارة العظام الملس ، قال الهذلى يصف صائداً :

أتيج لها أقيدر ذو خشيف إذا سامت على الملقات ساما

الأقيدر : تصغير الأقدر وهو الرجل القصير ، والخشيف من الثياب : الخلق . وسامت : مرت . ويقال : أملق : إذا افتقر وسلب الدهر ما بيده . قال أوس :

وأملق ما عندى خطوب تنبل

نهاهم الله سبحانه عن أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر ، وقد كانوا يفعلون ذلك . ثم بين لهم أن خوفهم من الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلك إلى قتل الأولاد لا وجه له . فإن الله سبحانه هو الرازق لعباده ، يرزق الأبناء كما يرزق الآباء ، فقال : ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع . وقد مر مثل هذه الآية فى الأنعام . ثم علل سبحانه النهى عن قتل الأولاد لذلك بقوله : ﴿ إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ﴾ . قرأ الجمهور بكسر الخاء

وسكون الطاء ، وبالهمز المقصور . وقرأ ابن عامر : « خطأ » بفتح الخاء والطاء والقصر في الهمز . يقال : خطئ في دينه خطأ : إذا أثم . وأخطأ : إذا سلك سبيلاً خطأ عامداً أو غير عامد . قال الأزهري : خطئ يخطأ خطأ ، مثل : أثم يأثم إثماً ، إذا تعمد الخطأ . وأخطأ : إذا لم يتعمد إخطاء وخطأ . قال الشاعر :

دَعَيْنِي إِثْمًا خَطَّيْتُ وَصَوَّبِي عَلَى ، وَأَنَّ مَا أَهْلَكْتُ ، مَا لُ(١)

والخطأ : الاسم يقوم مقام الأخطاء . وفيه لغتان : القصر ، وهو الجيد ، والمد ، وهو قليل . وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ، ومد الهمز . قال النحاس : ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً . وكذلك جعلها أبو حاتم غلطاً . وقرأ الحسن : « خطأ » بفتح الخاء والطاء منونة من غير همز .

ولما نهى سبحانه عن قتل الأولاد المستدعى لإفناء النسل ، ذكر النهى عن الزنى المفضى إلى ذلك لما فيه من اختلاط الأنساب ، فقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ ﴾ وفي النهى عن قربانه بمباشرة مقدماته نهى عنه بالأولى ، فإن الوسيلة إلى الشيء إذا كانت حراماً ، كان المتوصل إليه حراماً بفحوى الخطاب . والزنى فيه لغتان : المد والقصر . قال الشاعر :

كَأَنَّتُ فَرِيضَةً مَا تَقُولُ كَمَا كَانَ الزَّوْجُ فَرِيضَةً الرَّجْمِ

ثم علل النهى عن الزنا بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ أى قبيحا متبالغا فى القبح ، مجاوزاً للحد . ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ أى بش طريقا طريقه ، وذلك لأنه يؤدى إلى النار . ولا خلاف فى كونه من كبائر الذنوب . وقد ورد فى تقييده والتنفير عنه من الأدلة ما هو معلوم .

ولما فرغ من ذكر النهى عن القتل لخصوص الأولاد ، وعن النهى عن الزنا الذى يفضى إلى ما يفضى إليه قتل الأولاد ، من اختلاط الأنساب ، وعدم استقرارها ، نهى عن قتل الأنفس المعصومة على العموم فقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ والمراد بالتي حرم الله : التى جعلها معصومة بعصمة الدين أو عصمة العهد . والمراد بالحق الذى استثناء : هو ما يباح به قتل الأنفس المعصومة فى الأصل . وذلك كالردة ، والزنا من المحصن ، وكالقصاص من القاتل عمدا عدوانا ، وما يلتحق بذلك . والاستثناء مفرغ ، أى لا تقتلوهما بسبب من الأسباب إلا بسبب متلبس بالحق ، أو إلا متلبسين بالحق . وقد تقدم الكلام فى هذا فى الأنعام .

ثم بين حكم بعض المقتولين بغير حق فقال : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا ﴾ أى لا بسبب من الأسباب المسوغة لقتله شرعا ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا ﴾ أى لمن يلى أمره من ورثته إن كانوا موجودين ، أو ممن له سلطان إن لم يكونوا موجودين . والسلطان : التسلط على القاتل ، إن

(١) فى المخطوطة : « أخطأ وصد . . . مالى » ، والصواب ما أثبتناه من لسان العرب ١ / ٥٣٥ .

شاء قتل ، وإن شاء عفا ، وإن شاء أخذ الدية . ثم لما بين إباحة القصاص لمن هو مستحق لدم المقتول ، أو ما هو عوض عن القصاص ، نهاء عن مجاوزة الحد فقال : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ أى لا يجاوز ما أباحه الله له ، فيقتل بالواحد اثنين أو جماعة ، أو يمثل بالقاتل ، أو يعذبه . قرأ الجمهور : ﴿ لا يسرف ﴾ بالياء التحتية ، أى الولي . وقرأ حمزة والكسائي : « تسرف » بالتاء الفوقية . وهو خطاب للقاتل الأول . ونهى له عن القتل ، أى فلا تسرف أيها القاتل بالقتل ، فإن عليك القصاص مع ما عليك من عقوبة الله وسخطه ولعنته . وقال ابن جرير (١) : الخطاب للنبي ﷺ وللأئمة من بعده ، أى لا تقتل يا محمد غير القاتل ، ولا يفعل ذلك الأئمة بعدك . وفى قراءة أبى : « ولا تسرفوا » ، ثم علل النهى عن السرف فقال : ﴿ إنه كان منصوراً ﴾ أى مؤيداً معاناً ، يعنى : الولي . فإن الله سبحانه قد نصره بإثبات القصاص له بما أبرزه من الحجج وأوضحه من الأدلة . وأمر أهل الولايات بمعاونته والقيام بحقه حتى يستوفيه . ويجوز أن يكون الضمير راجعاً إلى المقتول ، أى إن الله نصره بوليّه . قيل : وهذه الآية من أول ما نزل من القرآن فى شأن القتل ، لأنها مكية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ إن تكونوا صالحين ﴾ قال : تكون البادرة من الولد إلى الوالد ، فقال الله : ﴿ إن تكونوا صالحين ﴾ إن تكن النية صادقة ﴿ فإنه كان للأوابين غفورا ﴾ للبادرة التى بدرت منه . وأخرج ابن أبى الدنيا ، والبيهقى فى الشعب عنه فى قوله : ﴿ إنه كان للأوابين غفورا ﴾ ، قال : الرجاعين إلى الخير . وأخرج سعيد بن منصور وهناد وابن أبى حاتم والبيهقى عن الضحاك فى الآية ، قال : الرجاعين من الذنب إلى التوبة ومن السيئات إلى الحسنات . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ للأوابين ﴾ قال : للمطيعين المحسنين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عنه ، قال : للتوابين .

وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى قوله : ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ قال : أمره بأحق الحقوق ، وعلمه كيف يصنع إذا كان عنده ، وكيف يصنع إذا لم يكن عنده فقال : ﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ﴾ قال : إذا سألك وليس عندك شئ انتظرت رزقاً من الله ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ يكون إن شاء الله يكون شبه العدة . قال سفيان : والعدة من النبي ﷺ دين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى الآية ، قال : هو أن تصل ذا القرابة ، وتطعم المسكين ، وتحسن إلى ابن السبيل . وأخرج ابن جرير عن على بن الحسين أنه قال لرجل من أهل الشام : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال : فما قرأت فى بنى إسرائيل : ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ ؟ قال : وإنكم للقرابة التى أمر الله أن يؤتى حقهم ؟ قال : نعم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية ، قال : والقربى : قربى بنى عبد المطلب .

وأقول : ليس فى السياق ما يفيد هذا التخصيص ، ولا دل على ذلك دليل . ومعنى النظم القرآنى واضح ، إن كان الخطاب مع كل من يصلح له من الأمة ؛ لأن معناه : أمر كل مكلف متمكن من صلة قرابته بأن يعطيهم حقهم وهو الصلة التى أمر الله بها . وإن كان الخطاب للنبي ﷺ فإن كان على وجه التعريض لأمة ، فالأمر فيه كالأول . وإن كان خطاباً له من دون تعريض ، فأمره أسوته ، فالأمر له ﷺ بإيتاء ذى القربى حقه ، أمر لكل فرد من أفراد أمة . والظاهر : أن هذا الخطاب ليس خاصاً بالنبي ﷺ بدليل ما قبل هذه الآية ، وهى قوله : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [الإسراء : ٢٣] وما بعدها ، وهى قوله : ﴿ ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ . وفى معنى هذه الآية الدالة على وجوب صلة الرحم أحاديث كثيرة .

وأخرج أحمد ، والحاكم وصححه عن أنس ؛ أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إني ذو مال كثير ، وذو أهل وولد وحاضرة . فأخبرنى كيف أنفق وكيف أصنع ؟ قال : « تخرج الزكاة المفروضة ، فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقاربك ، وتعرف حق السائل والجار والمسكين » ، فقال : يا رسول الله ، أقلل لى . قال : « فأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً » . قال : حسبى يا رسول الله ^(١) . وأخرج البزار وأبو يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاه فذلك ^(٢) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ أقطع رسول الله ﷺ فاطمة فذلك . قال ابن كثير بعد أن ساق حديث أبى سعيد هذا ما لفظه : وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده . لأن الآية مكية . وفذلك إنما فتحت مع خير سنة سبع من الهجرة ، فكيف يلتئم هذا مع هذا ؟ انتهى ^(٣) .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة ، والبخارى فى الأدب ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ قال : التبذير : إنفاق المال فى غير حقه . وأخرج ابن جرير عنه قال : كنا - أصحاب محمد - نتحدث أن التبذير : النفقة فى غير حقه . وأخرج سعيد بن منصور ، والبخارى فى الأدب ، وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن المبذرين ﴾ قال : هم الذين ينفقون المال فى غير حقه . وأخرج

(١) أحمد ٣ / ١٣٦ وصححه الحاكم ٢ / ٣٦١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٢) أبو يعلى (١٠٧٥ ، ١٤٠٩) وإسناده ضعيف لضعف عطية ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٥٢ : « رواه الطبرانى وفيه عطية العوفى ، وهو ضعيف متروك » .

والفدك بالتحريك : هى قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله ﷺ صلحاً فى سنة سبع . فصالح النبي ﷺ أهلها على النصف من ثمارهم وأموالهم ، فأجابهم فى ذلك .

(٣) ابن كثير ٤ / ٣٠٢ وقال : « فهذا إذا منكر ، والأشبه أنه من وضع الرافضة ، والله أعلم » .

البيهقي في الشعب عن علي قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك . وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ قال : العدة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن يسار بن الحكم ^(١) ، قال : أتى رسول الله ﷺ بر من العراق ، وكان معطاء كريماً ، فقسمه بين الناس ، فبلغ ذلك قوماً من العرب ، فقالوا : إنا نأتى النبي ﷺ نسأله ، فوجدوه قد فرغ منه ، فأنزل الله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ قال : محبوسة ﴿ ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما ﴾ يلومك الناس ﴿ محسوراً ﴾ ليس بيدك شيء . أقول : ولا أدري كيف هذا ؟ فالآية مكية . ولم يكن إذ ذاك عرب يقصدون رسول الله ﷺ ، ولا يحمل إليه شيء من العراق ولا عما هو أقرب منه ، على أن فتح العراق لم يكن إلا بعد موته ﷺ . وأخرج ابن جرير عن المنهال بن عمرو : بعثت امرأة إلى النبي ﷺ بابنها فقالت : قل له : اكسني ثوباً . فقال : « ما عندي شيء » . فقالت : ارجع إليه فقل له : اكسني قميصك . فرجع إليه ، فنزع قميصه فأعطاه إياه . فنزلت : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة ... ﴾ الآية ^(٢) . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه .

وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال لعائشة وضرب بيده : « أنفقي ما على ظهر كفى » . قالت : إذن لا يبقى شيء . قال : ذلك ثلاث مرات . فأنزل الله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة ... ﴾ الآية . ويقدر في ذلك أنه ﷺ لم يتزوج بعائشة إلا بعد الهجرة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة ﴾ قال : يعني بذلك : البخل . وأخرج عنه في الآية ، قال : هذا في النفقة ، يقول : لا تجعلها مغلولة لا تبسطها بخير ، ولا تبسطها كل البسط يعني : التبذير . ﴿ فتقعد ملوما ﴾ يلوم نفسه على ما فاتته من ماله ﴿ محسوراً ﴾ ذهب ماله كله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ إن ربك ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ قال : ينظر له ، فإن كان الغنى خيراً له ، أغناه . وإن كان الفقر خيراً له ، أفقره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ خشية إِملاق ﴾ قال : مخافة الفقر والفاقة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه في قوله : ﴿ خطأ ﴾ قال : خطيئة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ ولا تقربوا الزنا ﴾ قال : يوم نزلت هذه الآية لم يكن حدود ، فجاءت بعد ذلك الحدود في سورة النور . وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن أبي بن كعب ؛ أنه قرأ : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » ، إلا من تاب فإن الله كان غفوراً رحيماً . فذكر لعمر ، فاتاه فسأله . فقال : أخذتها من في رسول

(١) في المخطوطة : « سيار بن الحكم » ، والصحيح ما أثبتناه من الدر المنثور ٤ / ١٧٨ .

(٢) ليس في ابن جرير ، وإنما نسبه السيوطي في الدر المنثور ٤ / ١٧٨ لابن أبي حاتم عن المنهال بن عمرو .

الله ، وليس لك عمل إلا الصفق بالبيع . وقد ورد في الترهيب عن فاحشة الزنا أحاديث كثيرة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك في قوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ الآية ، قال : هذا بمكة ونبي الله ﷺ بها ، وهو أول شيء نزل من القرآن في شأن القتل ، كان المشركون من أهل مكة يغتالون أصحاب رسول الله ﷺ فقال الله : من قتلتم من المشركين فلا يحملنكم قتله إياكم على أن تقتلوا له أباً أو أخاً أو واحداً من عشيرته ، وإن كانوا مشركين ، فلا تقتلوا إلا قاتلكم ، وهذا قبل أن تنزل براءة . وقبل أن يؤمر بقتال المشركين ، فذلك قوله : ﴿ فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ يقول : لا تقتل غير قاتلك . وهى اليوم على ذلك الموضع من المسلمين ، لا يحل لهم أن يقتلوا إلا قاتلهم (١) . وأخرج البيهقي في سننه عن زيد ابن أسلم : أن الناس في الجاهلية كانوا إذا قتل الرجل من القوم رجلاً ، لم يرضوا حتى يقتلوا به رجلاً شريفاً وإذا كان قاتلهم غير شريف لم يقتلوا قاتلهم وقتلوا غيره . فوعظوا في ذلك بقول الله سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ﴾ (٢) .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا ﴾ قال : بينة من الله أنزلها ، يطلبها ولى المقتول ، القود أو العقل . وذلك السلطان (٣) . وأخرج ابن أبي حاتم من طريق مجاهد عنه : ﴿ فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ﴾ قال : لا يكثُر في القتل . وأخرج ابن المنذر ، من طريق أبى صالح عنه أيضاً : لا يقتل إلا قاتل رحمه .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩) أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) ﴿

لما ذكر سبحانه النهى عن إتلاف النفوس ، أتبعه بالنهى عن إتلاف الأموال ، وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم فقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ ، والنهى عن قربانه مبالغة فى النهى عن المباشرة له وإتلافه . ثم بين سبحانه أن النهى عن قربانه ليس المراد منه النهى عن مباشرته فيما يصلحه ويفسده ، بل يجوز لولى اليتيم أن يفعل فى مال اليتيم ما يصلحه ، وذلك يستلزم مباشرته ، فقال : ﴿ إِلَّا بِالتِّي هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أى إلا بالخصلة التى هى أحسن الخصال ، وهى حفظه ، وطلب الربح فيه ، والسعى فيما يزيد به . ثم ذكر الغاية التى للنهى عن قربان مال اليتيم فقال : ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ أى لا تقربوه إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ اليتيم أشده . فإذا بلغ أشده ، كان لكم أن تدفعوه إليه ، أو تتصرفوا فيه بإذنه . وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى فى الأنعام . ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ قد مضى الكلام فيه فى غير موضع . قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه ، فهو من العهد . فيدخل فى ذلك ما بين العبد وربّه ، وما بين العباد بعضهم البعض . والوفاء بالعهد : هو القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانون المرضى ، إلا إذا دل دليل خاص على جواز النقص . ﴿ إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مُسْؤُولًا ﴾ أى مسؤولاً عنه . المسؤول هنا : هو صاحبه . وقيل : إن العهد يسأل تبكيتاً لناقضه .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ ﴾ أى أتموا الكيل ، ولا تخسروه وقت كيلكم للناس . ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ قال الزجاج : هو ميزان العدل ، أى ميزان كان ، من موازين الدراهم وغيرها . وفيه لغتان : ضم القاف وكسرهما . وقيل : هو القبان المسمى بالقرسطون . وقيل : هو العدل نفسه . وهى لغة الروم . وقيل : لغة سريانية . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر : « الْقُسْطَاسِ » بضم القاف . وقرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم بكسر القاف . والإشارة بقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ إلى إيفاء الكيل والوزن ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ خَيْرٌ ﴾ أى خير لكم عند الله وعند الناس ، يتأثر عنه حسن الذكر وترغيب الناس فى معاملة من كان كذلك ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أى أحسن عاقبة ، من آل : إذا رجع .

ثم أمر سبحانه بإصلاح اللسان والقلب ، فقال : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أى لا تتبع ما لا تعلم . من قولك : قفوت فلاناً : إذا اتبعت أثره . ومنه : قافية الشعر ، لأنها تقفو كل بيت ، ومنه : القبيلة المشهورة بالقافة ، لأنهم يتبعون آثار أقدام الناس . وحكى ابن جرير عن فرقة أنها قالت : قفا وقاف ، مثل : عثا وعاث . قال منذر بن سعيد البلوطى : قفا وقاف ، مثل : جذب وجذب . وحكى الكسائى عن بعض القراء أنه قرأ : « تَقْفُ » بضم القاف وسكون الفاء . وقرأ الفراء بفتح القاف . وهى لغة لبعض العرب ، وأنكرها أبو حاتم وغيره . ومعنى الآية : النهى عن أن يقول الإنسان ما لا يعلم ، أو يعمل بما لا علم له به . وهذه قضية كلية . وقد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بأمور . فقيل : لا تذب أحداً بما ليس لك به علم . وقيل : هى فى شهادة الزور . وقيل : هى فى القذف . وقال القتيبى : معنى الآية : لا تتبع الحسد والظنون . وهذا صواب . فإن ما عدا ذلك هو العلم . وقيل : المراد بالعلم هنا : هو

الاعتقاد الراجح المستفاد من مستند قطعيًا كان أو ظنيًا . قال أبو السعود في تفسيره : واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه (١) .

وأقول : إن هذه الآية قد دلت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم ، ولكنها عامة مخصصة بالأدلة الواردة بجواز العمل بالظن كالعمل بالعام ، وبخبر الواحد ، والعمل بالشهادة ، والاجتهاد في القبلة وفي جزاء الصيد ، ونحو ذلك . فلا تخرج من عمومها ومن عموم ﴿ وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ﴾ [النجم : ٢٨] . إلا ما قام دليل جواز العمل به ، فالعمل بالرأى في مسائل الشرع إن كان لعدم وجود الدليل في الكتاب والسنة ، فقد رخص فيه النبي ﷺ كما في قوله ﷺ لمعاذ لما بعثه قاضياً : « بم تقضى ؟ » قال : بكتاب الله . قال : « فإن لم تجد ؟ » قال : فبسنة رسول الله . قال : « فإن لم تجد ؟ » قال : أجتهد رأياً (٢) . وهو حديث صالح للاحتجاج به كما أوضحنا ذلك في بحث مفرد . وأما التوثب على الرأى مع وجود الدليل في الكتاب أو السنة ولكن قصر صاحب الرأى عن البحث ، فجاء برأيه ، فهو داخل تحت هذا النهى دخولاً أولياً ، لأنه محض رأى في شرع الله ، وبالناس عنه غنى بكتاب الله سبحانه وسنة رسول الله ﷺ ولم تدع إليه حاجة ، على أن الترخيص في الرأى عند عدم وجود الدليل إنما هو رخصة للمجتهد يجوز له أن يعمل به . ولم يدل دليل على أنه يجوز لغيره العمل به ، وينزله منزلة مسائل الشرع . وبهذا يتضح لك أتم اتضاح ويظهر لك أكمل ظهور أن هذه الآراء المدونة في الكتب الفروعية ليست من الشرع في شيء . والعامل بها على شفا جرف هار . فالمجتهد المستكثر من الرأى قد قفا ما ليس له به علم . والمقلد المسكين العامل برأى ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم ولا لمن قلده . ﴿ ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ [النور : ٤٠] . وقد قيل : إن هذه الآية خاصة بالعقائد ولا دليل على ذلك أصلاً.

ثم علل سبحانه النهى عن العمل بما ليس بعلم بقوله : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ إشارة إلى الأعضاء الثلاثة وأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها . وقال الزجاج : إن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بـ : أولئك . وأنشد ابن جرير ، مستدلاً على جواز هذا ، قول الشاعر :

دُمَّ المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

واعترض بأن الرواية بعد أولئك الأقوام . وتبعه غيره على هذا الخطأ كصاحب الكشاف (٣) .

(١) أبو السعود في التفسير ٣ / ٣٢٧ .

(٢) أحمد ٥ / ٢٣٦ وأبو داود في الأفضية (٣٥٩٢ ، ٣٥٩٣) والترمذى في الأحكام (١٣٢٧ ، ١٣٢٨) وقال :

« هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده عندى بمتصل » ، وهو عن رجال من أصحاب

معاذ ، عن معاذ بن جبل رضى الله عنه .

(٣) الكشاف ٢ / ٢٦٧ .

والضمير فى ﴿ كان ﴾ من قوله : ﴿ كان عنه مسؤولاً ﴾ يرجع إلى « كل » . وكذا الضمير فى « عنه » . وقيل : الضمير فى ﴿ كان ﴾ يعود إلى القافى المدلول عليه بقوله : ﴿ ولا تقف ﴾ . وقوله : « عنه » فى محل رفع لإسناد ﴿ مسؤولاً ﴾ إليه . ورد بما حكاه النحاس من الإجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل إذا كان جاراً أو مجروراً . قيل : والأولى أن يقال : إنه فاعل ﴿ مسؤولاً ﴾ المحذوف . والمذكور مفسر له . ومعنى سؤال هذه الجوارح : أنه يسأل صاحبها عما استعملها فيه لأنها آلات . والمستعمل لها : هو الروح الإنسانى . فإن استعملها فى الخير استحق الثواب ، وإن استعملها فى الشر استحق العقاب . وقيل : إن الله سبحانه ينطق الأعضاء هذه عند سؤالها فتخبر عما فعله صاحبها .

﴿ ولا تمش فى الأرض مرحاً ﴾ المرح : قيل : هو شدة الفرح . وقيل : التكبر فى المشى . وقيل : تجاوز الإنسان قدره . وقيل : الخيلاء فى المشى . وقيل : البطر والأشر . وقيل : النشاط . والظاهر أن المراد به هنا : الخيلاء والفخر . قال الزجاج فى تفسير الآية : لا تمش فى الأرض مختالاً فخوراً . وذكر الأرض مع أن المشى لا يكون إلا عليها ، أو على ما هو معتمد عليها تأكيداً وتقريراً . ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً فكم تحتها قوم هم منك أرفع

وإن كنت فى عز وحرز ومنعة فكم مات من قوم هم منك أمتع

والمرح : مصدر وقع حالاً ، أى ذا مرح . وفى وضع المصدر موضع الصفة نوع تأكيد . وقرأ الجمهور : ﴿ مرحاً ﴾ بفتح الراء على المصدر . وحكى يعقوب عن جماعة كسرها على أنه اسم فاعل . ثم علل سبحانه هذا النهى فقال : ﴿ إنك لن تخرق الأرض ﴾ . يقال : خرق الثوب ، أى شقه . وخرق الأرض : قطعها . والخرق : الواسع من الأرض ، والمعنى : إنك لن تخرق الأرض بمشيك عليها تكبراً . وفيه تهكم بالمختال المتكبر . ﴿ ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ أى ولن تبلغ قدرتك إلى أن تطاول الجبال حتى يكون عظم جثتك حاملاً لك على الكبر والاختيال ، فلا قوة لك حتى تخرق الأرض بالمشى عليها ، ولا عظم فى بدنك حتى تطاول الجبال ، فما الحامل لك على ما أنت فيه ؟ و ﴿ طولا ﴾ مصدر فى موضع الحال ، أو تمييز ، أو مفعول له . وقيل : المراد بخرق الأرض : نقيبها ، لا قطعها بالمسافة . وقال الأزهري : خرقها : قطعها . قال النحاس : وهذا أبين ، كأنه مأخوذ من الخرق ، وهو : الفتحة الواسعة . ويقال : فلان أخرج من فلان ، أى أكثر سفراً . والإشارة بقوله : ﴿ كل ذلك ﴾ إلى جميع ما تقدم ذكره من الأوامر والنواهي ، أو إلى مانهى عنه فقط من قوله : ﴿ ولا تقف ﴾ ﴿ ولا تمش ﴾ .

قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ومسروق : ﴿ سيئه ﴾ على إضافة سيئ إلى الضمير . ويؤيد هذه القراءة قوله : ﴿ مكروها ﴾ فإن السيئ هو المكروه . ويؤيدها أيضاً قراءة أبى : « كان سيئاته » . واختار هذه القراءة أبو عبيد . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو : « سيئة » على أنها

واحدة السيئات . وانتصابها على خبرية كان . ويكون ﴿ مكروها ﴾ صفة لـ « سيئة » على المعنى . فإنها بمعنى : « سيئاً » ، أو هو بدل من « سيئة » . وقيل : هو خبر ثان لـ ﴿ كان ﴾ حملاً على لفظ ﴿ كل ﴾ . ورجح أبو على الفارسي البدل . وقد قيل فى توجيهه بغير هذا مما فيه تعسف لا يخفى . قال الزجاج : والإضافة أحسن ، لأن ما تقدم من الآيات فيها سيئ وحسن ، فسيئته المكروه . ويقوى ذلك التذكير فى المكروه . قال : ومن قرأ بالتونين ، جعل ﴿ كل ذلك ﴾ إحاطة بالمنهى عنه دون الحسن . المعنى : كل ما نهى الله عنه كان سيئة وكان مكروهاً . قال : والمكروه على هذه القراءة بدل من السيئة ، وليس بنعت .

والمراد بالمكروه عند الله : هو الذى يبغضه ولا يرضاه ، لا أنه غير مراد مطلقاً لقيام الأدلة القاطعة على أن الأشياء واقعة بإرادته سبحانه . وذكر مطلق الكراهة مع أن فى الأشياء المتقدمة ما هو من الكبائر إشعاراً بأن مجرد الكراهة عنده تعالى يوجب انزجار السامع واجتنابه لذلك . والحاصل : أن فى الخصال المتقدمة ما هو حسن وهو المأمور به ، وما هو مكروه وهو المنهى عنه . فعلى قراءة الإضافة تكون الإشارة بقوله : ﴿ كل ذلك ﴾ إلى جميع الخصال حسنها ومكروها . ثم الإخبار بأن ما هو سيئ من هذه الأشياء وهو المنهى عنه مكروه ، عند الله . وعلى قراءة الأفراد من دون إضافة ، تكون الإشارة إلى المنهيات . ثم الإخبار عن هذه المنهيات ، بأنها سيئة مكروهة عند الله .

﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴾ الإشارة إلى ما تقدم ذكره من قوله : ﴿ لا تجعل ﴾ إلى هذه الغاية ، وترتقى إلى خمسة وعشرين تكليفاً ﴿ مما أوحى إليك ربك ﴾ أى من جنسه أو بعض منه . وسمى حكمة ؛ لأنه كلام محكم . وهو ما علمه من الشرائع أو من الأحكام المحكمة التى لا يتطرق إليها الفساد . وعند الحكماء : أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته . و ﴿ من الحكمة ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً ، أى كائناً من الحكمة ، أو بدل من الموصول بإعادة الجار ، أو متعلق بـ ﴿ أوحى ﴾ . ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ كرر سبحانه النهى عن الشرك تأكيداً وتقريراً وتنبهاً على أنه رأس خصال الدين ^(١) وعمدته . قيل : وقد راعى سبحانه فى هذا التأكيد دققة ، فرتب على الأول كونه مذموماً مخذولاً . وذلك إشارة إلى حال الشرك فى الدنيا . ورتب على الثانى أنه يلحق ﴿ فى جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ وذلك إشارة إلى حاله فى الآخرة ، وفى القعود هناك . والإلقاء هنا إشارة إلى أن للإنسان فى الدنيا صورة اختيار بخلاف الآخرة . وقد تقدم تفسير الملوم والمدحور .

﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ﴾ قال أبو عبيدة : ﴿ أصفاكم ﴾ : خصكم . وقال الفضل : أخلصكم . وهو خطاب للكفار القائلين بأن الملائكة بنات الله . وفيه

(١) قوله : وتنبهاً على أنه رأس خصال الدين وعمدته : الضمير فى قوله : « أنه » راجع إلى التوحيد ، حيث أنه لا دين بغير التوحيد ومن هنا قال الله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : ١٩] .

توبيخ شديد ، وتقريع بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالأنعام ، بل هم أضل . والفاء للعطف على مقدر ، كمنظائره مما قد كررناه ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ ﴾ يعنى : القائلين بأن لهم الذكور ولله الإناث ﴿ قولا عظيما ﴾ بالغاً فى العظم والجراءة على الله إلى مكان لا يقادر قدره .

﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن ﴾ أى بينا ضروب القول فيه من الأمثال وغيرها ، أو كررنا فيه . وقيل : « فى » زائدة . والتقدير : ولقد صرفنا هذا القرآن . والتصريف فى الأصل : صرف الشيء من جهة إلى جهة . وقيل : معنى التصريف : المغايرة ، أى غايرنا بين المواعظ ليتذكروا ويعتبروا . وقراءة الجمهور : ﴿ صرفنا ﴾ بالتشديد . وقرأ الحسن بالتخفيف ، ثم علل تعالى ذلك فقال : ﴿ ليذكروا ﴾ أى ليتعظوا ويتدبروا بعقولهم ويتفكروا فيه حتى يقفوا على بطلان ما يقولونه . قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى : « ليذكروا » مخففاً ، والباقون بالتشديد . واختارها أبو عبيد لما تفيد من معنى التكثير . وجملة : ﴿ وما يزيدهم إلا نفورا ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أن هذا التصريف والتذكير ما يزيدهم إلا تباعداً عن الحق وغفلة عن النظر فى الصواب ؛ لأنهم قد اعتقدوا فى القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر ، وهم لا ينزعون عن هذه الغواية ولا وازع لهم يزعمهم إلى الهداية .

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾ قال : كانوا لا يخالطونهم فى مال ولا مأكلا ولا مركب حتى نزلت : ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ [البقرة: ٢٢٠] (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ إن العهد كان مسؤولاً ﴾ قال : يسأل الله ناقض العهد عن نقضه . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية ، قال : يسأل عهده من أعطاه إياه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ﴾ يعنى : لغيركم . ﴿ وزنوا بالقسطاس ﴾ يعنى : الميزان . وبلغه الروم : الميزان : القسطاس . ﴿ ذلك خير ﴾ يعنى : وفاء الكيل والميزان خير من النقصان . ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ : عاقبة . وأخرج ابن أبى شيبه والفرىابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : القسطاس : العدل بالرومية . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ، قال : القسطاس : القبان . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن ، قال : الحديد .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا تقف ﴾ قال : لا تقل . وأخرج ابن جرير عنه قال : لا ترم أحداً بما ليس لك به علم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن الحنفية فى الآية قال : شهادة الزور . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ يقول : سمعه وبصره وفؤاده تشهد عليه . وأخرج الفرىابى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾

قال : يوم القيامة ، أكذاك كان أم لا ؟

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ قال : لا تمش فخرًا وكبرًا ، فإن ذلك لا يبلغ بك الجبال ، ولا أن تخرق الأرض بفخرك وكبرك . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ، قال : إن التوراة في خمس عشرة آية من بنى إسرائيل ، ثم تلا : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَدْحُورًا ﴾ قال : مطروداً .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) .

قوله : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ : قرأ ابن كثير وحفص : ﴿ يَقُولُونَ ﴾ بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب للقائلين بأن مع الله آلهة أخرى ، وإذن : جواب عن مقاتلهم الباطلة وجزاء لـ : « لو » . ﴿ لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ ﴾ وهو الله سبحانه . ﴿ سَبِيلًا ﴾ : طريقا للمغالبة والممانعة كما تفعل الملوك مع بعضهم البعض من المقاتلة والمصالوة . وقيل : معناه : إذن لابتغت الآلهة إلى الله القربة والزلفة عنده ، لأنهم دونه ، والمشركون إنما اعتقدوا أنها تقربهم إلى الله . والظاهر المعنى الأول ، ومثل معناه قوله سبحانه : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٣] . ثم نزه تعالى نفسه ، فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ والتسبيح : التنزيه ، وقد تقدم ﴿ وَتَعَالَى ﴾ متباعد ﴿ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ من الأقوال الشنيعة والفرية العظيمة ﴿ عُلُوًّا ﴾ أى تعالياً ، ولكنه وضع العلو موضع التعالى كقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ [نوح : ١٧] . ثم وصف العلو بالكبر مبالغة في النزاهة ، وتنبهها على أن بين الواجب لذاته والممكن لذاته ، وبين الغنى المطلق ، والفقر المطلق ، مبينة لا تعقل الزيادة عليها .

ثم بين سبحانه جلالة ملكه وعظمة سلطانه فقال : ﴿ يَسْبَحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ

ومن فيهن ﴿ قرئ بالمشناة التحتية فى يسبح وبالفوقية ، وقال : ﴿ فيهن ﴾ بضمير العقلاء لإسناده إليها التسبيح الذى هو فعل العقلاء ، وقد أخبر سبحانه عن السموات والأرض بأنها تسبحه ، وكذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول وهم الملائكة والإنس والجن وغيرهم من الأشياء التى لا تعقل ، ثم زاد ذلك تعميماً وتأكيذاً فقال : ﴿ وإن من شئ إلا يسبح بحمده ﴾ فشمّل كل ما يسمى شيئاً كائن ما كان . وقيل : إنه يحمل قوله : ﴿ ومن فيهن ﴾ على الملائكة والثقلين ، ويحمل ﴿ وإن من شئ إلا يسبح بحمده ﴾ على ما عدا ذلك من المخلوقات .

وقد اختلف أهل العلم فى هذا العموم هل هو مخصوص أم لا ؟ فقالت طائفة : ليس بمخصوص ، وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة ، لأن كل مخلوق يشهد على نفسه ويدل غيره بأن الله خالق قادر . وقالت طائفة : هذا التسبيح على حقيقته والعموم على ظاهره . والمراد : أن كل المخلوقات تسبح لله سبحانه هذا التسبيح الذى معناه التنزيه وإن كان البشر لا يسمعون ذلك ولا يفهمونه ، ويؤيد هذا قوله سبحانه : ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهوماً لكل أحد . وأجيب : بأن المراد بقوله : ﴿ لا تفقهون ﴾ الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار . وقالت طائفة : إن هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين دون الجمادات . وقيل : خاص بالأجسام النامية فيدخل النباتات ، كما روى هذا القول عن عكرمة والحسن وخصا تسبيح النباتات بوقت نموها لا بعد قطعها ، وقد استدل لذلك بحديث : أن النبى ﷺ مر على قبرين . . . وفيه : ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنتين ، وقال : « إنه يخفف عنهما ما لم ييبسا »^(١) ، ويؤيد حمل الآية على العموم قوله : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ﴾ [ص : ١٨] ، وقوله : ﴿ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ [البقرة : ٧٤] ، وقوله : ﴿ وتخر الجبال هدا ﴾ [مريم : ٩٠] ونحو ذلك من الآيات ، وثبت فى الصحيح أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام ، وهم يأكلون مع رسول الله ﷺ^(٢) . وهكذا حديث حنين الجذع^(٣) ، وحديث : أن حجراً بمكة كان يسلم على النبى ﷺ^(٤) ، وكلها فى الصحيح ، ومن ذلك « تسبيح الحصى فى كفه ﷺ » ، ومدافعة عموم هذه الآية بمجرد الاستبعادات ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده .

ومعنى : ﴿ إلا يسبح بحمده ﴾ إلا يسبح متلبساً بحمده ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

(١) أحمد ٢٢٥ / ١ والبخارى فى الوضوء (٢١٦ ، ٢١٨) وأبو داود فى الطهارة (٢٠) والترمذى فى الطهارة

(٧٠) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجه فى الطهارة (٣٤٧) وكلهم عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) البخارى فى المناقب (٣٥٧٩) من حديث عبد الله بن مسعود .

(٣) البخارى فى المناقب (٣٥٨٣) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما (٣٥٨٤ ، ٣٥٨٥) من حديث جابر بن عبد الله .

(٤) مسلم فى الفضائل (٢٢٧٧ / ٢) من حديث جابر بن سمره .

قرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وحفص وحزمة والكسائي وخلف : « تسبح » بالمشناة الفوقية على الخطاب ، وقرأ الباقون بالتحنية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ﴿ إنه كان حليما غفورا ﴾ فمن حلمه الإمهال لكم وعدم إنزال عقوبته عليكم ، ومن مغفرته لكم أنه لا يؤاخذ من تاب منكم .

ولما فرغ سبحانه من الإلهيات شرع في ذكر بعض من آيات القرآن وما يقع من سامعيه فقال : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ﴾ جعلنا بينك يا محمد وبين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا ، أى إنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب يمرون بك ولا يرونك . ذكر معناه الزجاج وغيره ، ومعنى ﴿ مستورا ﴾ : سائر . قال الأخفش : أراد ساترا ، والفاعل قد يكون فى لفظ المفعول كما تقول : إنك لمشؤوم وميمون ، وإنما هو شائم ويامن . وقيل : معنى ﴿ مستورا ﴾ : ذا ستر ، كقولهم : سيل مفعم ، أى ذو إفعام . وقيل : هو حجاب لا تراه الأعين فهو مستور عنها . وقيل : حجاب من دونه حجاب فهو مستور غيره . وقيل : المراد بالحجاب المستور : الطبع والختم .

﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ الأكنة : جمع كنان . وقد تقدم تفسيره فى الأنعام (١) . وقيل : هو حكاية لما كانوا يقولونه ، من قولهم : ﴿ قلوبنا غلف ﴾ [البقرة : ٨٨] . وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴿ [فصلت : ٥] و﴿ أن يفقهوه ﴾ مفعول لأجله ، أى كراهة أن يفقهوه ، أولئلا يفقهوه ، أى يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم والمعاني ﴿ وفى آذانهم وقرا ﴾ أى صمما وثقلا ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : أن يسمعه . ومن قبائح المشركين أنهم كانوا يحبون أن يذكر آلهتهم كما يذكر الله سبحانه ، فإذا سمعوا ذكر الله دون ذكر آلهتهم نفروا عن المجلس ، ولهذا قال الله : ﴿ وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ﴾ أى واحدا غير مشفوع بذكر آلهتهم ، فهو مصدر وقع موقع الحال ﴿ ولوا على أذبارهم نفورا ﴾ هو مصدر ، والتقدير : هربوا نفورا ، أو نفروا نفورا . وقيل : جمع نافر كقاعد وقعود . والأول أولى . ويكون المصدر فى موضع الحال ، أى ولوا نافرين .

﴿ نحن أعلم بما يستمعون به ﴾ أى يستمعون إليك متلبسين به من الاستخفاف بك وبالقرآن واللغو فى ذكرك لربك وحده . وقيل : الباء زائدة والظرف فى ﴿ إذ يستمعون إليك ﴾ متعلق بـ ﴿ أعلم ﴾ أى نحن أعلم وقت يستمعون إليك بما يستمعون به ، وفيه تأكيد للوعيد ، وقوله : ﴿ وإذ هم نجوى ﴾ متعلق بأعلم أيضا ، أى ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيههم ، وقد كانوا يتناجون بينهم بالكذب والاستهزاء ﴿ يقول ﴾ بدل من ﴿ إذ هم نجوى ﴾ . ﴿ إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ أى يقول كل منهم للآخرين عند تناجيههم : ما تتبعون إلا

(١) عند قوله تعالى : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ﴾ [الأنعام : ٢٥] .

رجلا سحر فاختلط عقله وزال عن حد الاعتدال . قال ابن الأعرابي : المسحور : الذاهب العقل الذى أفسد ، من قولهم طعام مسحور إذا أفسد عمله ، وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغى فأفسدها . وقيل : المسحور : المخدوع ، لأن السحر حيلة وخديعة ، وذلك لأنهم زعموا أن محمدا ﷺ كان يتعلم من بعض الناس ، وكانوا يخدعونه بذلك التعليم . وقال أبو عبيدة : معنى « مسحورا » : أن له سحراً ، أى رثة ، فهو لا يستغنى عن الطعام والشراب فهو مثلكم ، وتقول العرب للجبان : قد انتفخ سحره ، وكل من كان يأكل من آدمى أر غيره مسحور ، ومنه قول امرئ القيس :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

أى نغذى ونعلل . قال ابن قتيبة : لا أدري ما حمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسروه بالوجوه الواضحة .

﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ أى قالوا تارة : إنك كاهن ، وتارة ساحر ، وتارة شاعر ، وتارة مجنون ﴿ فضلوا ﴾ عن طريق الصواب فى جميع ذلك ﴿ فلا يستطيعون سبيلا ﴾ إلى الهدى أو إلى الطعن الذى تقبله العقول ويقع التصديق له لا أصل الطعن ، فقد فعلوا منه ما قدروا عليه . وقيل : لا يستطيعون مخرجاً لتناقض كلامهم كقولهم : ساحر مجنون .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ﴾ قال : على أن يزيلوا ملكه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم والطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن عبد الرحمن بن قرط : أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به إلى المسجد الأقصى كان جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فطارا به حتى بلغ السموات العلى ، فلما رجع قال : « سمعت تسبيحا من السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات لذى العلو بما علا ، سبحان العلى الأعلى سبحانه وتعالى » (١) . وأخرج ابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال وهو جالس مع أصحابه إذ سمع هدة فقال : « أظت السماء ويحقها أن تنط ، والذى نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح بحمده » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه ؟ إن نوحا قال لابنه : يا بنى ، أمرك أن تقول سبحان الله ، فإنها دلالة الخلائق ، وتسبيح الخلق ، وبها يرزق الخلق » قال الله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ (٢) .

(١) أبو نعيم فى الحلية ٢ / ٧ ، ٨ وقال الهيثمى فى المجمع ١ / ٨٣ : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، ومسكين بن ميمون ذكر له الذهبى هذا الحديث وقال : إنه منكر » .

(٢) ابن جرير ١٥ / ٦٥ وقال ابن كثير ٤ / ٣١٢ : « إسناده فيه ضعف فإن الأودى ضعيف عند الأكثرين » .

وأخرج أحمد وابن مردويه من حديث ابن عمر نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال : ما من عبد سبح تسبيحة إلا سبح ما خلق الله من شيء ، قال الله : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ قال ابن كثير : إسناده فيه ضعف . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قرصت غلة نبيا من الأنبياء ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه : من أجل غلة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح » (١) . وأخرج النسائي وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمرو قال : نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال : «نقيها تسبح» (٢) .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ قال : الزرع يسبح وأجره لصاحبه ، والثوب يسبح ويقول الوسخ : إن كنت مؤمنا فاغسلني إذن . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : كل شيء يسبح إلا الكلب والحمار . وأخرج ابن راهويه في مسنده من طريق الزهري قال : أتى أبو بكر بغراب وافر الجناحين ، فجعل ينشر جناحيه ويقول : ما صيد من صيد ولا عضد من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح . وأخرج أحمد في الزهد ، وأبو الشيخ عن ميمون بن مهران قال : أتى أبو بكر الصديق فذكره من قوله غير مرفوع . وأخرج أبو نعيم في الحلية ، وابن مردويه من حديث أبي هريرة بنحوه . وأخرج ابن مردويه من حديث ابن مسعود بمعنى بعضه . وأخرج أبو الشيخ من حديث أبي الدرداء بمعناه . وأخرج ابن عساكر من حديث أبي رهم نحوه . وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : هذه الآية في التوراة كقدر ألف آية ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ قال : في التوراة تسبح له الجبال ، ويسبح له الشجر ، ويسبح له كذا ، ويسبح له كذا . وأخرج أحمد وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : صلى داود ليلة حتى أصبح ، فلما أصبح وجد في نفسه سرورا ، فتأدته ضفدعة : يا داود ، كنت أدأب منك قد أغفيت إغفاء . وأخرج البيهقي في الشعب عن صدقة بن يسار قال : كان داود في محرابه فأبصر دودة صغيرة ففكر في خلقها وقال : ما يعبا الله بخلق هذه ، فأنطقها الله فقالت : يا داود ، أتعجبك نفسك ، لأننا على قدر ما آتاني الله أذكر لله وأشكر له منك على ما آتاك الله ، قال الله : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ (٣) . وفي الباب أحاديث وروايات عن السلف فيها التصريح بتسبيح جميع المخلوقات .

وأخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما نزلت : ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ [المسد : ١] أقبلت

(١) البخاري في الجهاد (٣٠١٩) ومسلم في السلام (٢٢٤١ / ١٤٨) وأبو داود في الأدب (٥٢٦٦) والنسائي ٢١٠ / ٧ وابن ماجه في الصيد (٣٢٢٥) .

(٢) النسائي ٢١٠ / ٧ ولكنها عن عبد الرحمن بن عثمان وليس عن ابن عمرو .

(٣) البيهقي في الشعب (٤٢٦٠) فيه عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد ، صدوق يخطئ . وإسناده فيه : محمد بن بشير الكندي متكلم فيه .

العوراء أم جميل ولها ولولة ، وفي يدها فهر وهي تقول :

مذمماً أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا

ورسول الله جالس وأبو بكر إلى جنبه ، فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك ، فقال : « إنها لن ترانى » ، وقرأ قرآنًا اعتصم به كما قال تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا ﴾ فجاءت حتى قامت على أبى بكر فلم تر النبي ﷺ فقالت : يا أبا بكر ، بلغنى أن صاحبك هجانى ، فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك ، فانصرفت وهي تقول : قد علمت قريش أنى بنت سيدها (١) ، وقد رويت هذه القصة بالفاظ مختلفة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا ﴾ قال : الحجاب المستور: أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وأن ينتفعوا به ، أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن زهير بن محمد فى الآية قال : ذاك رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن على المشركين بمكة سمعوا قراءته ولا يرونه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولوا على أدبارهم نفورا ﴾ قال : الشياطين . وأخرج ابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ إذ يستمعون إليك ﴾ قال : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل .

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أَتِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُرْحَمَكُم أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبَكُم وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥) ﴾

لما فرغ سبحانه من حكاية شبه القوم فى النبوات حكى شبهتهم فى أمر المعاد فقال : ﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً ﴾ والاستفهام ، للاستنكار والاستبعاد . وتقرير الشبهة : أن الإنسان إذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت فى جوانب العالم ، واختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر ، فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها ، ثم عود الحياة إلى ذلك المجموع ، فأجاب سبحانه عنهم بأن إعادة بدن الميت إلى حال الحياة أمر ممكن ، ولو فرضتم أن بدنه قد

(١) أبو يعلى (٥٣) وصححه الحاكم ٢ / ٣٦١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢ / ١٩٥ ، ١٩٦ .

صار أبعد شيء من الحياة ومن رطوبة الحى كالحجارة والحديد ، فهو كقول القائل : أتطمع فى وأنا ابن فلان ؟ فيقول : كن ابن السلطان أو ابن من شئت ، فسأطلب منك حقى . والرفات : ما تكسر وبلى من كل شيء كالفتات والحطام والرضاض^(١) ، قاله أبو عبيدة والكسائى والفراء والأخفش ، تقول منه : رفت الشيء رفثا ، أى حطم فهو مرفوت . وقيل : الرفات : الغبار . وقيل : التراب ﴿ أإننا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾ كرر الاستفهام الدال على الاستنكار والاستبعاد ؛ تأكيدا وتقريرا . والعامل فى « إذا » هو ما دل عليه ﴿ لمبعوثون ﴾ لا هو نفسه ، لأن ما بعد إن والهمزة واللام لا يعمل فيما قبلها ، والتقدير : ﴿ أنذا كنا عظاما ورفاتا ﴾ نبعث ﴿ أإننا لمبعوثون ﴾ ، وانتصاب ﴿ خلقا ﴾ على المصدرية من غير لفظه ، أو على الحال ، أى مخلوقين ، و ﴿ جديدا ﴾ صفة له .

﴿ قل كونوا حجارة أو حديدا . أو خلقا ﴾ آخر ﴿ مما يكبر فى صدوركم ﴾ قال ابن جرير : معناه : إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاما ولحما فكونوا أنتم حجارة أو حديدا إن قدرتم على ذلك ، وقال على بن عيسى : معناه : إنكم لو كنتم حجارة أو حديدا لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم . إلا أنه خرج مخرج الأمر لأنه أبلغ فى الإلزام ، وقيل : معناه : لو كنتم حجارة أو حديدا لأعادكم كما بدأكم ولأماتكم ثم أحياكم . قال النحاس : وهذا قول حسن ، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة أو حديدا ، وإنما المعنى : أنهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث ، ف قيل لهم : استشعروا أن تكونوا ما شئتم ، فلو كنتم حجارة أو حديدا لبعثتم كما خلقتهم أول مرة . قلت : وعلى هذا الوجه قررنا جواب الشبهة قبل هذا . ﴿ أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ﴾ أى يعظم عندكم مما هو أكبر من الحجارة والحديد مبينة للحياة فإنكم مبعوثون لا محالة . وقيل : المراد به : السموات والأرض والجبال لعظمها فى النفوس . وقال جماعة من الصحابة والتابعين : المراد به : الموت ، لأنه ليس شيء أكبر فى نفس ابن آدم منه . والمعنى : لو كنتم الموت لأماتكم الله ثم بعثكم ، ولا يخفى ما فى هذا من البعد ، فإن معنى الآية : الترقى من الحجارة إلى الحديد ، ثم من الحديد إلى ما هو أكبر فى صدور القوم منه ، والموت نفسه ليس بشيء يعقل ويحس حتى يقع الترقى من الحديد إليه ﴿ فسيقولون من يعيدنا ﴾ إذا كنا عظاما ورفاتا ، أو حجارة أو حديدا مع ما بين الحالتين من التفاوت . ﴿ قل الذى فطركم أول مرة ﴾ أى يعيدكم الذى خلقكم واخترعكم عند ابتداء خلقكم من غير مثال سابق ولا صورة متقدمة ﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ﴾ أى يحركونها استهزاء . يقال : نغض رأسه ينغض وينغض وينغض نغضا ونغضا ، أى تحرك ، وأنغض رأسه : حركه كالمتعجب ، ومنه قول الراجز :

أنغض نحوى رأسه وأقنعا

(١) الرضاض : ما دق من الحصى وكل شيء كسرتة فقد رضرته . راجع : مختار الصحاح ٢٤٥ .

وقول الراجز الآخر :

ونغضت من هرم أسنانها

وقال آخر :

لما رأتنى أنغضت لى رأسها

﴿ ويقولون متى هو ﴾ أى البعث والإعادة استهزاء منهم وسخرية ﴿ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ أى هو قريب ، لأن عسى فى كلام الله واجب الوقوع ، ومثله : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ [الأحزاب: ٦٣] . وكل ما هو آت قريب ﴿ يوم يدعوكم ﴾ الظرف منتصب بفعل مضمر ، أى اذكر ، أو بدل من ﴿ قريباً ﴾ أو التقدير : يوم يدعوكم كان ما كان . الدعاء : النداء إلى المحشر بكلام يسمعه الخلائق . وقيل : هو الصيحة التى تسمعونها ، فتكون داعية لهم إلى الاجتماع فى أرض المحشر ﴿ فتستجيون بحمده ﴾ أى منقادين له ، حامدين لما فعله بكم فهو فى محل نصب على الحال . وقيل : المعنى : فتستجيون والحمد لله كما قال الشاعر:

وإنى بحمد الله لا ثوب فاجر (١) لبست ولا من غدره أتقنع

وقد روى أن الكفار عند خروجهم من قبورهم يقولون : سبحانك وبحمدك ، وقيل : المراد بالدعاء هنا : البعث ، وبالإستجابة : أنهم يبعثون ، فالمعنى : يوم يبعثكم فتبعثون منقادين ﴿ وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ أى تظنون عند البعث أنكم ما لبثتم فى قبوركم إلا زمناً قليلاً . وقيل : بين النفختين ، وذلك أن العذاب يكف عن المعذبين بين النفختين ، وذلك أربعون عاماً ينامون فيها ، فلذلك ﴿ قالوا من بعثنا من مرقدنا ﴾ [يس : ٥٢] . وقيل : إن الدنيا تحقرت فى أعينهم وقلت حين رأوا يوم القيامة ، فقالوا هذه المقالة .

﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ﴾ أى قل يا محمد ، لعبادى المؤمنين أن يقولوا عند محاورتهم للمشركين الكلمة التى هى أحسن من غيرها من الكلام الحسن كقوله سبحانه : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ [العنكبوت : ٤٦] ، وقوله : ﴿ فقولاً له قولاً ليناً ﴾ [طه : ٤٤] ، لأن المخاشنة لهم ربما تنفرهم عن الإجابة أو تؤدى إلى ما قال سبحانه : ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ [الأنعام : ١٠٨] ، وهذا كان قبل نزول آية السيف . وقيل : المعنى : قل لهم يأمرؤا بما أمر الله وينهوا عما نهى عنه . وقيل : هذه الآية للمؤمنين فيما بينهم خاصة ، والأول أولى كما يشهد به السبب الذى سنذكره إن شاء الله ﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ أى بالفساد وإلقاء العداوة والإغراء . قال اليزيدى :

(١) فى المطبوعة : « فاخر » بالخاء ، وفى القرطبى ٦ / ٣٨٩٢ « فاجر » بالجيم ، وفى المخطوطة علق كاتبها وقال : بهما .

يقال : نزع بيننا ، أى أفسد . وقال غيره : النزغ : الإغراء ﴿ إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ﴾ أى متظاهرا بالعداوة مكاشفا بها ، وهو تعليل لما قبله ، وقد تقدم مثل هذا فى البقرة .
﴿ ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ﴾ قيل : هذا خطاب للمشركين . والمعنى : إن يشأ يوفقكم للإسلام فيرحمكم أو يميتهكم عن الشرك فيعذبكم . وقيل : هو خطاب للمؤمنين ، أى ﴿ إن يشأ يرحمكم ﴾ بأن يحفظكم من الكفار ﴿ أو إن يشأ يعذبكم ﴾ بتسليطهم عليكم . وقيل : إن هذا تفسير لكلمة ﴿ التى هى أحسن ﴾ ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلاً ﴾ أى ما وكلناك فى منعهم من الكفر ، وقصرهم على الإيمان . وقيل : ما جعلناك كفيلا لهم تؤخذ بهم ، ومنه قول الشاعر :

ذكرت أبا أروى فبت كأنى برد الأمور الماضية وكيل

أى كفىل . ﴿ وربك أعلم بمن فى السموات والأرض ﴾ أعلم بهم ذاتاً وحالا واستحقاقاً ، وهو أعم من قوله : ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ لأن هذا يشمل كل ما فى السموات والأرض من مخلوقاته ، وذاك خاص ببنى آدم أو ببعضهم ، وهذا كالتوطئة لقوله : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ أى إن هذا التفضيل عن علم منه بمن هو أعلى رتبة وبمن دونه وبمن يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفواضله . وقد تقدم هذا فى البقرة . وقد اتخذ الله إبراهيم خليلاً ، وموسى كليماً ، وجعل عيسى كلمته وروحه ، وجعل لسليمان ملكاً عظيماً ، وغفر لحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وجعله سيد ولد آدم . وفى هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفار مما يحكيه رسول الله ﷺ من ارتفاع درجته عند ربه عز وجل ، ثم ذكر ما فضل به داود ، فقال : ﴿ وآتيناه داود زبوراً ﴾ أى كتاباً مزبوراً . قال الزجاج : أى فلا تنكروا تفضيل محمد وإعطائه القرآن فقد أعطى الله داود زبوراً .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ورفاتا ﴾ قال : غباراً . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ ورفاتا ﴾ قال : تراباً ، وفى قوله : ﴿ قل كونوا حجارة أو حديدا ﴾ قال : ما شئتم فكونوا ، فسيعيدكم الله كما كنتم . وأخرج ابن أبى شيبه ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله : ﴿ أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ﴾ قال : الموت ، لو كنتم موتاً لأحييتكم . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن جرير والحاكم عن ابن عباس مثله . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن الحسن مثله أيضاً . وأخرج عبد الله بن أحمد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه ، وزاد قال : فكونوا الموت إن استطعتم فإن الموت سيموت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فسينغصون إليك رؤوسهم ﴾ قال : سيحركونها استهزاءً . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد فى قوله :

﴿ويقولون متى هو﴾ قال : الإعادة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق على بن أبي طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿فتستجيون بحمده﴾ قال : بأمره . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية قال : يخرجون من قبورهم وهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿فتستجيون بحمده﴾ قال : بمعرفته وطاعته ﴿وتظنون إن لبثتم إلا قليلا﴾ أى فى الدنيا ، تحاقرت الدنيا فى انفسهم ، وقلت حين عاينوا يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين فى قوله : ﴿وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن﴾ قال : لا إله إلا الله . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال : يعفو عن السيئة . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : يقول له : يرحمك الله ، يغفر الله لك . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : نزغ الشيطان : تحريشه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿وآتينا داود زبوراً﴾ قال : كنا نحدث أنه دعاء علمه داود ، وتحميد وتمجيد لله عز وجل ، ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ^(١) . وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال : الزبور : ثناء على الله ودعاء وتسييح . قلت : الأمر كما قاله قتادة والربيع ، فإننا وقفنا على الزبور فوجدناه خطباً يخطبها داود عليه السلام ، ويخاطب بها ربه سبحانه عند دخول الكنيسة ، وجملته مائة وخمسون خطبة ، كل خطبة تسمى مزموراً بفتح الميم الأولى وسكون الزاى وضم الميم الثانية وآخره راء ، وفى بعض هذه الخطب يشكو داود على ربه من أعدائه ويستنصره عليهم ، وفى بعضها يحمد الله ويمجده ويثنى عليه بسبب ما وقع من النصر عليهم والغلبة لهم ، وكان عند الخطبة يضرب بالقيثارة ، وهى آلة من آلات الملاحى . وقد ذكر السيوطى فى الدر المنثور ها هنا روايات عن جماعة من السلف يذكرون ألفاظاً وقفوا عليها فى الزبور ليس لها كثير فائدة ، فقد أغنى عنها وعن غيرها ما اشتمل عليه القرآن من المواعظ والزواجر .

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦)
أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) وَإِنْ مِّنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ

وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ .

قوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ هذا ردّ على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنها صور الملائكة ، وعلى طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلهية عيسى ومريم وعزير ، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يقول لهم : ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله . وقيل : أراد بـ ﴿ الذين زعمتم ﴾ نفرًا من الجن عبدتهم ناس من العرب ، وإنما خصصت الآية بمن ذكرنا لقوله : ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ ، فإن هذا لا يليق بالجمادات ﴿ فلا يملكون كشف الضر عنكم ﴾ أى لا يستطيعون ذلك ، والمعبود الحق هو الذى يقدر على كشف الضر ، وعلى تحويله من حال إلى حال ، ومن مكان إلى مكان ، فوجب القطع بأن هذه التى تزعمونها آلهة ، ليست بآلهة .

ثم إنه سبحانه أكد عدم اقتدارهم ، ببيان غاية افتقارهم إلى الله فى جلب المنافع ودفع المضار ، فقال : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ ف ﴿ أولئك ﴾ مبتدأ و ﴿ الذين يدعون ﴾ صفته ، وضمير الصلة محذوف ، أى يدعونهم ، وخبر المبتدأ : ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ الذين يدعون ﴾ خبر المبتدأ ، أى الذين يدعون عباده إلى عبادتهم ، ويكون ﴿ يبتغون ﴾ فى محل نصب على الحال . وقرأ ابن مسعود : « تدعون » بالفوقية على الخطاب . وقرأ الباقون بالتحتية على الخبر ، ولا خلاف فى ﴿ يبتغون ﴾ أنه بالتحتية . و ﴿ الوسيلة ﴾ : القربة بالطاعة والعبادة ، أى يتضرعون إلى الله فى طلب ما يقربهم إلى ربهم ، والضمير فى ربهم يعود إلى العابدين أو المعبودين ﴿ أيهم أقرب ﴾ مبتدأ وخبر . قال الزجاج: المعنى: أيهم أقرب بالوسيلة إلى الله ، أى يتقرب إليه بالعمل الصالح ، ويجوز أن يكون بدلا من الضمير فى ﴿ يبتغون ﴾ أى يبتغى من هو أقرب إليه تعالى الوسيلة ، فكيف بمن دونه ؟ وقيل : إن ﴿ يبتغون ﴾ مضمن معنى يحرصون ، أى يحرصون أيهم أقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة ﴿ ويرجون رحمته ﴾ كما يرجوها غيرهم ﴿ ويخافون عذابه ﴾ كما يخافه غيرهم ﴿ إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ تعليل قوله : ﴿ يخافون عذابه ﴾ أى إن عذابه سبحانه حقيق بأن يحذره العباد من الملائكة والأنبياء وغيرهم .

ثم بين سبحانه مآل الدنيا وأهلها فقال : ﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة ﴾ « إن » نافية ، و « من » للاستغراق ، أى ما من قرية ، أى قرية كانت من قرى الكفار . قال الزجاج: أى ما من أهل قرية إلا سيهلكون إما بموت وإما بعذاب يستأصلهم ، فالمراد بالقرية : أهلها . وإنما قيل : ﴿ قبل يوم القيامة ﴾ لأن الإهلاك يوم القيامة غير مختص بالقرى الكافرة ، بل يعم كل قرية لانقضاء عمر الدنيا . وقيل : الإهلاك للصالحه والتعذيب للطالحه ، والأول أولى لقوله : ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ [القصص : ٥٩] . ﴿ كان ذلك ﴾ المذكور من الإهلاك والتعذيب ﴿ فى الكتاب ﴾ أى اللوح المحفوظ ﴿ مسطورا ﴾ أى

مكتوباً ، والسطر : الخط ، وهو فى الأصل مصدر ، والسطر بالتحريك مثله . قال جرير :

من شاء بايعته مالى وخلعته ما تكمل التيم فى ديوانهم سطرا

والخلعة بضم الخاء : خيار المال ، والسطر : جمع أسطار ، وجمع السطر بالسكون أسطر .

﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ قال المفسرون : إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهاباً وأن ينحى عنهم جبال مكة ، فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان ما سألت قومك ، ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا ، وإن شئت استأنيت بهم ، فأنزل الله هذه الآية . والمعنى : وما منعنا من إرسال الآيات التى سألوها إلا تكذيب الأولين ، فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله سبحانه فى عباده ، فالمنع مستعار للترك ، والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء ، أى ما تركنا إرسالها لشيء من الأشياء إلا تكذيب الأولين ، فإن كذب بها هؤلاء كما كذب بها أولئك لاشتراكهم فى الكفر والعناد حل بهم ما حل بهم ، و « أن » الأولى فى محل نصب بإيقاع المنع عليها ، و « أن » الثانية فى محل رفع ، والباء فى ﴿ بالآيات ﴾ زائدة . والحاصل : أن المنع من إرسال الآيات التى اقترحوها هو أن الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكلى وهو الاستئصال ، وقد عزمنا على أن نؤخر أمر من بعث إليهم محمد ﷺ إلى يوم القيامة . وقيل : معنى الآية : إن هؤلاء الكفار من قريش ونحوهم مقلدون لأبائهم فلا يؤمنون البتة كما لم يؤمن أولئك ، فيكون إرسال الآيات ضائعاً ، ثم إنه سبحانه استشهد على ما ذكر بقصة صالح وناقته ، فإنهم لما اقترحوا عليه ما اقترحوا من الناقة وصفتها التى قد بينت فى محل آخر ، وأعطاهم الله ما اقترحوا فلم يؤمنوا ، استؤصلوا بالعذاب .

وإنما خص قوم صالح بالاستشهاد ؛ لأن إهلاكهم فى بلاد العرب قريبة من قريش وأمثالهم يبصرها صادرهم وواردهم فقال : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾ أى ذات إبصار يدركها الناس بأبصارهم كقوله : ﴿ جعلنا آية النهار مبصرة ﴾ [الإسراء : ١٢] . أو أسند إليها حال من يشاهدها مجازاً ، أو أنها جعلتهم ذوى إبصار ، من أبصره جعله بصيراً . وقرئ على صيغة المفعول . وقرئ بفتح الميم والصاد وانتصابها على الحال . وقرئ برفعها على أنها خبر مبتدأ محذوف ، والجملة معطوفة على محذوف يقتضيه سياق الكلام ، أى فكذبوها وآتينا ثمود الناقة ، ومعنى ﴿ فظلموا بها ﴾ : فظلموا بتكذيبها أو على تضمين ظلموا معنى جحدوا أو كفروا ، أى فجحدوا بها أو كفروا بها ظالمين ولم يكتفوا بمجرد الكفر أو الجحد ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ اختلف فى تفسير ﴿ بالآيات ﴾ على وجوه : الأول : أن المراد بها : العبر والمعجزات التى جعلها الله على أيدى الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذبين . الثانى : أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصى . الثالث : تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى

تكهل ثم إلى شيب ، ليعتبر الإنسان بتقلب أحواله فيخاف عاقبة أمره . الرابع : آيات القرآن .
الخامس : الموت الذريع ، والمناسب للمقام أن تفسر الآيات المذكورة بالآيات المقترحة ، أى لا
نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفا من نزول العذاب ، فإن لم يخافوا وقع عليهم . والجملة
مستأنفة لا محل لها ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير ظلموا بها ، أى
فظلموا بها ولم يخافوا ، والحال أن ما نرسل بالآيات التى هى من جملتها إلا تخويفاً . قال
ابن قتيبة : وما نرسل بالآيات المقترحة إلا تخويفا من نزول العذاب العاجل .

ولما ذكر سبحانه الامتناع من إرسال الآيات المقترحة على رسوله للصارف المذكور ، قوى
قلبه بوعده النصر والغلبة فقال : ﴿ وَإِذْ قلْنَا لك إِن ربك أحوط بالناس ﴾ الظرف متعلق بمحذوف ،
أى اذكر إذ قلنا لك ، أى أنهم فى قبضته وتحت قدرته ، فلا سبيل لهم إلى الخروج عما يريد
بهم لإحاطته لهم بعلمه وقدرته . وقيل : المراد بالناس : أهل مكة ، وإحاطته بهم إهلاكه
إياهم ، أى إن الله سيهلكهم . وعبر بالماضى ؛ تنبيها على تحقق وقوعه ؛ وذلك كما وقع يوم
بدر ويوم الفتح . وقيل : المراد : أنه سبحانه عصمه من الناس أن يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه
﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ لما بين سبحانه أن إنزال الآيات يتضمن التخويف
ضم إليه ذكر آية الإسراء ، وهى المذكورة فى صدر السورة ، وسماها رؤيا ، لأنها وقعت بالليل ،
أو لأن الكفرة قالوا : لعلها رؤيا ، وقد قدمنا فى صدر السورة وجهها آخر فى تفسير هذه الرؤيا ،
وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبى ﷺ أنه أسرى به . وقيل : كانت
رؤيا نوم ، وأن النبى ﷺ رأى أنه يدخل مكة فافتتن المسلمون لذلك ، فلما فتح الله مكة نزل
قوله تعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ [الفتح : ٢٧] وقد تعقب هذا بأن هذه
الآية مكية ، والرؤيا المذكورة كانت بالمدينة . وقيل : إن هذه الرؤيا المذكورة فى هذه الآية هى
أنه رأى بنى مروان ينزون على منبره نزو القرودة فساء ذلك ، فقليل : إنما هى الدنيا أعطوها
فسرّى عنه ، وفيه ضعف ، فإنه لا فتنة للناس فى هذه الرؤيا إلا أن يراد بالناس رسول الله
ﷺ وحده ، ويراد بالفتنة : ما حصل من المساءة لرسول الله ﷺ أو يحمل على أنه قد كان
أخبر الناس بها فافتنوا . وقيل : إن الله سبحانه أراه فى المنام مصارع قريش حتى قال : «والله
لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » وهو يومئ إلى الأرض ويقول : « هذا مصرع فلان ، هذا مصرع
فلان » ، فلما سمع قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية .

﴿ والشجرة الملعونة فى القرآن ﴾ عطف على الرؤيا ، قيل : وفى الكلام تقديم وتأخير ،
والتقدير : وما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس . قال
جمهور المفسرين : وهى شجرة الزقوم ، والمراد بلعننها : لعن أكلها كما قال سبحانه : ﴿ إن
شجرة الزقوم . طعام الأثيم ﴾ [الدخان ٤٣ ، ٤٤] . وقال الزجاج : إن العرب تقول لكل
طعام مكروه : ملعون ، ومعنى الفتنة فيها : أن أبا جهل وغيره قالوا : زعم صاحبكم أن نار
جهنم تحرق الحجر ، ثم يقول : ينبت فيها الشجر ، فأنزل الله هذه الآية . وروى أن أبا جهل

أمر جارية فأحضرت تمرأً وزبدأً وقال لأصحابه : ترقموا . وقال ابن الزبعرى : كثر الله من الزقوم فى داركم ؛ فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن . وقيل : إن الشجرة الملعونة : هى الشجرة التى تلتوى على الشجر فتقتلها ، وهى شجرة الكشوث . وقيل : هى الشيطان . وقيل : اليهود . وقيل : بنو أمية ﴿ ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴾ أى نخوفهم بالآيات فما يزيدهم التخويف إلا طغياناً متجاوزاً للحد ، متمادياً غاية التمداد ، فما يفيدهم إرسال الآيات إلا الزيادة فى الكفر ، فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار ، وهو عذاب الاستئصال ، ولكننا قد قضينا بتأخير العقوبة .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة والبخارى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ قال : كان نفر من الإنس يعبدون نفرأً من الجن فأسلم نفر من الجن وتمسك الإنسيون بعبادتهم ، فأنزل الله : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ كلاهما ، يعنى : الفعلين بالياء التحتية ، وروى نحو هذا عن ابن مسعود من طرق أخرى (١) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيراً . وروى عنه من وجه آخر بلفظ عيسى وأمه وعزير . وروى عنه أيضاً من وجه آخر بلفظ : هم عيسى وعزير ، والشمس والقمر (٢) . وأخرج الترمذى وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سلوا الله لى الوسيلة » قالوا : وما الوسيلة ؟ قال : « القرب من الله » ، ثم قرأ : ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ (٣) . وأخرج ابن أبى حاتم عن إبراهيم التيمى فى قوله : ﴿ كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ﴾ قال : فى اللوح المحفوظ .

وأخرج أحمد والنسائى والبزار وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعوا ، فقيل له : إن شئت أن تستأنى بهم وإن شئت أن نؤتيهم الذى سألوا ، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم ، قال : « لا ، بل أستأنى بهم » ، فأنزل الله : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات ﴾ الآية (٤) .

(١) البخارى فى التفسير (٤٧١٤ ، ٤٧١٥) ومسلم فى التفسير (٣٠٣٠ / ٢٨ — ٣٠) والنسائى فى التفسير (٣٠٧ — ٣٠٩) وابن جرير ٧٢/١٥ والطبرانى (٩٠٧٧) وصححه الحاكم ٣٦٢/٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، وأبو نعيم فى الحلية ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٢) ابن جرير ٧٣/١٥ .

(٣) الترمذى فى المناقب (٣٦١٢) وقال : « هذا حديث غريب ، إسناده ليس بالقوى » .

(٤) أحمد ٢٥٨/١ والنسائى فى التفسير (٣١٠) والبزار فى كشف الأستار (٢٢٢٥ ، ٢٢٢٦) وابن جرير ٧٤/١٥ =

وأخرج أحمد والبيهقي من طريق أخرى عنه نحوه ^(١) . وأخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن أنس قال : قال الناس لرسول الله ﷺ : لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم ، فإن عصيتم هلكتم » ، فقالوا : لا نريدها ^(٢) . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ﴾ قال : الموت . وأخرج سعيد بن منصور ، وأحمد في الزهد ، وابن جرير وابن المنذر عن الحسن قال : هو الموت الذريع .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ قال : عصمك من الناس . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : فهم في قبضته . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله : ﴿ وما جعلنا الرؤيا ﴾ الآية قال : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به إلى بيت المقدس ، وليست برؤيا منام ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ قال : هي شجرة الزقوم ^(٣) . وأخرج أبو سعيد وأبو يعلى وابن عساكر عن أم هانئ ؛ أن رسول الله ﷺ لما أسرى به أصبح يحدث نفرا من قريش وهم يستهزئون به ، فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس ، وذكر لهم قصة العير ، فقال الوليد بن المغيرة : هذا ساحر ، فأنزل الله إليه : ﴿ وما جعلنا الرؤيا ﴾ الآية . وأخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال : رأى رسول الله ﷺ بنى فلان ينزون على منبره نزو القردة ، فسأه ذلك ، فما استجمع ضاحكاً حتى مات ، فأنزل الله : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ ^(٤) . قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده : وهذا السند ضعيف جدا ، وذكر من جملة رجال السند محمد بن الحسن بن زباله ^(٥) وهو متروك وشيخه عبد المهيم بن عباس بن سهل بن سعد ضعيف جدا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمرو أن النبي ﷺ قال : « رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القردة ، فأنزل الله : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس

= وصححه الحاكم ٣٦٢/٢ ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الدلائل ٢/٢٧١ ، ٢٧٢ وقال الهيثمي في المجمع ٥٣/٧ : « رجال الروایتین رجال الصحيح » . وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٢٣٣٣) : «إسناده صحيح» .

(١) البيهقي في الدلائل ٢/٢٧٢ ، ٢٧٣ . (٢) المصدر السابق ٢/٢٧٣ .

(٣) أحمد ١/٢٢١ والبخاري في مناقب الأنصار (٣٨٨٨) وفي التفسير (٤٧١٦) وفي القدر (٦٦١٣) والترمذي في التفسير (٣١٣٤) وقال : «حسن صحيح» والنسائي في التفسير (٣١١ ، ٣١٢) وابن جرير ٧٦/١٥ والطبراني (١١٦٤١) وصححه الحاكم ٢/٣٦٢ ، ٣٦٣ على شرط البخاري ووافقه الذهبي .

(٤) ابن جرير ٧٧/١٥ .

(٥) ابن كثير ٤/٣٢٤ . وفي المطبوعة : « محمد بن الحسن بن زيان » ، والصحيح ما أثبتناه من ابن جرير وابن كثير ومن المخطوطة .

لما ذكر سبحانه أن رسول الله ﷺ كان فى بلية عظيمة من قومه ومحنة شديدة أراد أن يبين أن جميع الأنبياء كانوا كذلك ، حتى أن هذه عادة قديمة ، سنها إبليس اللعين ، وأيضاً لما ذكر أن الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ذكر هاهنا ما يحقق ذلك فقال : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ هذه القصة قد ذكرها الله سبحانه فى سبعة مواضع : فى البقرة ، والأعراف ، والحجر ، وهذه السورة ، والكهف ، وطه ، وص ، وقد تقدم تفسيرها مبسوطاً فلنقتصر هاهنا على تفسير ما لم يتقدم ذكره من الألفاظ ، فقوله : ﴿ طينا ﴾ منتصب بنزع الخافض ، أى من طين ، أو على الحال . قال الزجاج : المعنى : لمن خلقته طينا ، وهو منصوب على الحال .

﴿ أرايتك ﴾ أى أخبرنى عن هذا الذى فضلته على لم فضلته ؟ وقد ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ [الأعراف: ١٢] فحذف هذا للعلم به ﴿ لأحتكن ذريته ﴾ أى لأستولين عليهم بالإغواء والإضلال . قال الواحدي : أصله من احتناك الجراد الزرع ، وهو أن تستأصله بأحناكها وتفسده ، هذا هو الأصل ، ثم سمي الاستيلاء على الشيء وأخذه كله احتناكا . وقيل : معناه : لأسوقنهم حيث شئت ، وأقودنهم حيث أردت ، من قولهم : حنكت الفرس أحنكه حنكاً : إذا جعلت فى فيه الرسن ، والمعنى الأول أنسب بمعنى هذه الآية ، ومنه قول الشاعر :

أشكو إليك سنة قد أجهفت جهداً إلى جهد بنا وأضعفت

واحتنكت أموالنا واجتلفت

أى استأصلت أموالنا ، واللام فى ﴿ لئن أخرتن ﴾ هى الموطئة . وإنما أقسم اللعين هذا القسم على أنه سيفعل بذرية آدم ما ذكره ، لعلم قد سبق إليه من سمع استرقه ، أو قاله لما ظنه من قوة نفوذ كيده فى بنى آدم ، وأنه يجرى منهم فى مجارى الدم ، وأنهم بحيث يروج عندهم كيده وتنفق لديهم وسوسته إلا من عصم الله ، وهم المرادون بقوله : ﴿ إلا قليلاً ﴾ وفى معنى هذا الاستثناء قوله سبحانه : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى : ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ﴾ [سبأ: ٢٠] فإنه يفيد أنه قال ما قاله هنا اعتماداً على الظن . وقيل : إنه استنبط ذلك من قول الملائكة : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [البقرة : ٣٠] . وقيل : علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشهوات ، أو ظن ذلك لأنه وسوس لآدم ، فقبل منه ذلك ولم يجد له عزماً ، كما روى عن الحسن .

﴿ قال اذهب فممن تبعك منهم ﴾ أى أطاعك ﴿ فإن جهنم جزاؤكم ﴾ أى إبليس ومن أطاعه ﴿ جزاء موفوراً ﴾ أى وافراً مكملأ ، يقال : وفرت أفره وفراً ، ووفر المال بنفسه يفر وفوراً ، فهو وافر ، فهو مصدر ، ومنه قول زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتقى الشتم يشتم

ثم كرر سبحانه الإمهال لإبليس اللعين فقال : ﴿ واستفز من استطعت منهم بصوتك ﴾ أى استزعج واستخف من استطعت من بنى آدم ، يقال : أفزه واستفزه ، أى أزعجه واستخفه ، والمعنى : استخفهم بصوتك داعياً لهم إلى معصية الله . وقيل : هو الغناء واللهو واللعب والمزامير ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ قال الفراء وأبو عبيدة : أجلب من الجلبة والصياح ، أى صح عليهم . وقال الزجاج : أى اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكائيدك . فالإجلاّب : الجمع ، والباء فى ﴿ بخيلك ﴾ زائدة . وقال ابن السكيت : الإجلاّب : الإعانة . والخيل تقع على الفرسان كقوله ﷺ : « يا خيل الله اركبى » (١) . وتقع على الأفراس ، والرجل بسكون الجليم : جمع راجل كتاجر وتجر ، وصاحب وصحب ، وقرأ حفص بكسر الجليم على أنه صفة . قال أبو زيد : يقال : رجل ورجل ، بمعنى راجل ، فالخيل والرجل كناية عن جميع مكائيد الشيطان ، أو المراد : كل راكب وراجل فى معصية الله . ﴿ وشاركهم فى الأموال والأولاد ﴾ أما المشاركة فى الأموال ، فهى : كل تصرف فيها يخالف وجه الشرع سواء كان أخذاً من غير حق ، أو وضعاً فى غير حق كالغصب والسرقة والربا ، ومن ذلك تبتيك آذان الأنعام وجعلها بحيرة وسائبة ، والمشاركة فى الأولاد : دعوى الولد بغير سبب شرعى ، وتحصيله بالزنا وتسميتهم بعبد اللات وعبد العزى ، والإساءة فى تربيتهم على وجه يألفون فيه خصال الشر وأفعال السوء ويدخل فيه ما قتلوا من أولادهم خشية إملاق ، ووأد البنات وتصيير أولادهم على الملة الكفرية التى هم عليها ، ومن ذلك مشاركة الشيطان للمجامع إذا لم يسم ، ثم قال : ﴿ وعدهم ﴾ قال الفراء : قل لهم : لا جنة ولا نار . وقال الزجاج : وعدهم بأنهم لا يبعثون ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ أى باطلا ، وأصل الغرور : تزوين الخطأ بما يوهم الصواب . وقيل : معناه : وعدهم النصره على من خالفهم ، وهذه الأوامر للشيطان من باب التهديد والوعيد الشديد . وقيل : هى على طريقة الاستخفاف به وبمن تبعه .

﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ يعنى : عباده المؤمنين كما فى غير هذا الموضع من الكتاب العزيز من أن إضافة العباد إليه يراد بها : المؤمنون لما فى الإضافة من التشريف . وقيل : المراد : جميع العباد بدليل الاستثناء بقوله فى غير هذا الموضع : ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [الحجر : ٤٢] . والمراد بالسلطان : التسلط ﴿ وكفى بربك وكيلًا ﴾ يتوكلون عليه ، فهو الذى يدفع عنهم كيد الشيطان ويعصمهم من إغوائه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قال إبليس : إن آدم خلق من تراب من طين ، خلق ضعيفا وأنى خلقت من نار ، والنار تحرق كل شئ ﴿ لأحتكن ذريته إلا قليلا ﴾ فصدق ظنه عليهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ لأحتكن ذريته ﴾ قال : لأستولين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ لأحتكن ذريته ﴾ قال : لأحتوينهم .

(١) جزء من حديث فى الحاكم ٣٩٦/٢ قاله على كرم الله وجهه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : لأضلنهم . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : ﴿ موفورا ﴾ قال : وافرا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ واستفز من استطعت منهم بصوتك ﴾ قال : صوته : كل داع دعا إلى معصية الله ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ﴾ قال : كل راكب فى معصية الله ﴿ ورجلك ﴾ قال : كل راجل فى معصية الله ﴿ وشاركهم فى الأموال ﴾ قال : كل مال فى معصية الله ﴿ والأولاد ﴾ قال : كل ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم الحرام . وأخرج الفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه فى الآية قال : كل خيل تسير فى معصية الله ، وكل مال أخذ بغير حقه ، وكل ولد زنا . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : ﴿ الأموال ﴾ ما كانوا يحرمون من أنعامهم ﴿ والأولاد ﴾ أولاد الزنا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : ﴿ الأموال ﴾ البحيرة والسائبة والوصيلة لغير الله ﴿ والأولاد ﴾ سموا عبد الحارث وعبد شمس .

﴿ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (٦٦)
وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ
الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا
لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ
بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) .

قوله : ﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر ﴾ الإزجاء : السوق والإجراء والتسير ،
ومنه قوله سبحانه : ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ﴾ [النور : ٤٣] . وقول الشاعر :

يأبها الراكب المزجى مطيته

سائل بنى أسد : ما هذه الصور

وقول الآخر :

عوذا تزجى خلفها أطفالها

والمعنى : أن الله سبحانه يسير الفلك فى البحر بالريح ، والفلك هاهنا جمع . وقد تقدم ،
والبحر : هو الماء الكثير عذبا كان أو مالحا ، وقد غلب هذا الاسم على المشهور ﴿ لتبتغوا من
فضله ﴾ أى من رزقه الذى تفضل به على عباده أو من الربح بالتجارة ، و « من » زائدة أو
للتبعض ، وفى هذه الآية تذكير لهم بنعم الله سبحانه عليهم حتى لا يعبدوا غيره ولا يشركوا
به أحدا ، وجملة : ﴿ إنه كان بكم رحيمًا ﴾ تعليل لما تقدم أى كان بكم رحيمًا فهداكم إلى

مصالح دنياكم .

﴿ وإذا مسكم الضر ﴾ يعنى : خوف الغرق ﴿ فى البحر ضل من تدعون ﴾ من الآلهة وذهب عن خواطركم ، ولم يوجد لإغاثتكم ماكنتم تدعون من دونه من صنم ، أو جن ، أو ملك ، أو بشر ﴿ إلا إياه ﴾ وحده فإنكم تعتقدون رجاءكم برحمته وإغاثته ، والاستثناء منقطع . ومعنى الآية : أن الكفار إنما يعتقدون فى أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها نافعة لهم فى غير هذه الحالة ، فأما فى هذه الحالة فإن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علما لا يقدر على مدافعه أن الأصنام ونحوها لا فعل لها ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ عن الإخلاص لله وتوحيده ورجعتم إلى دعاء أصنامكم والاستغاثة بها ﴿ وكان الإنسان كفورا ﴾ أى كثير الكفران لنعمة الله ، وهو تعليل لما تقدمه ، والمعنى : أنهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله ، وفى الرخاء يعرضون عنه .

ثم أنكر سبحانه عليهم سوء معاملتهم قائلا : ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره : أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض ، فبين لهم أنه قادر على هلاكهم فى البر وإن سلموا من البحر . والخسف : أن تنهار الأرض بالشئ ، يقال : بثر خسيف : إذا انهدم أصلها ، وعين خاسف : أى غائرة حدقتها فى الرأس ، وخسفت عين الماء : إذا غار ماؤها ، وخسفت الشمس : إذا غابت عن الأرض و﴿ جانب البر ﴾ : ناحية الأرض ، وسماء جانبا ؛ لأنه يصير بعد الخسف جانبا ، وأيضا فإن البحر جانب من الأرض والبر جانب . وقيل : إنهم كانوا على ساحل البحر ، وساحله جانب البر فكانوا فيه آمنين من مخاوف البحر ، فحذروهم ما آمنوه من البر كما حذروهم ما خافوه من البحر ﴿ أو يرسل عليكم حاصبا ﴾ قال أبو عبيدة والقتيبى : الحاصب : الرمى ، أى ريحا شديدة حاصبة ، وهى التى ترمى بالحصى الصغار . وقال الزجاج : الحاصب : التراب الذى فيه حصباء ، فالحاصب : ذو الحصباء كاللابن ، والتامر . وقيل : الحاصب : حجارة من السماء تحصبهم كما فعل بقوم لوط ، ويقال ، للسحابة التى ترمى بالبرد : حاصب ، ومنه قول الفرزدق :

مستقبلين جبال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور

﴿ ثم لا تجدوا لكم وكيلا ﴾ أى حافظا ونصيرا يمنعكم من بأس الله . ﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ﴾ أى فى البحر مرة أخرى بأن يقوى دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى ركوبه ، وجاء بفى ولم يقل إلى البحر ؛ للدلالة على استقرارهم فيه ﴿ فيرسل عليكم قاصفا من الريح ﴾ القاصف : الريح الشديدة التى تكسر بشدة من قصف الشئ يقصفه ، أى كسره بشدة ، والقصف : الكسر ، أو هو الريح التى لها قصيف ، أى صوت شديد من قولهم : رعد قاصف ، أى شديد الصوت ﴿ فيغرقكم ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة ورويس ومجاهد : « فغرقكم » بالناء الفوقية على أن فاعله الريح ، وقرأ الحسن وقتادة وابن وردان : « فيغرقكم » بالتحية والتشديد

فى الرء . وقرأ أبو جعفر أيضا : « الرياح » . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون فى جميع هذه الأفعال . وقرأ الباقون بالياء التحتية فى جميعها أيضا ، والباء فى ﴿ بما كفرتم ﴾ للسبية ، أى بسبب كفرهم ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾ أى نائرا يطالبنا بما فعلنا . قال الزجاج : لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم . قال النحاس : وهو من الثار ، وكذا يقال لك من طلب بئار أو غيره : تتبع وتابع .

﴿ ولقد كرّمنا بنى آدم ﴾ هذا إجمال لذكر النعمة التى أنعم الله بها على بنى آدم ، أى كرّمناهم جميعا وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله . وحكى ابن جرير عن جماعة أن هذا التكريم هو أنهم يأكلون بأيديهم ، وسائر الحيوانات تأكل بالفم ، وكذا حكاه النحاس . وقيل : ميزهم بالنطق والعقل والتميز . وقيل : أكرم الرجال باللحى والنساء بالذوائب . وقال ابن جرير أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق وتسخير سائر الخلق لهم . وقيل : بالكلام والخط والفهم ، ولا مانع من حمل التكريم المذكور فى الآية على جميع هذه الأشياء . وأعظم خصال التكريم العقل ، فإن به تسلطوا على سائر الحيوانات ، وميزوا بين الحسن والقبيح ، وتوسعوا فى المطاعم والمشارب ، وكسبوا الأموال التى تسبوا بها إلى تحصيل أمور لا يقدر عليها الحيوان ، وبه قدروا على تحصيل الأبنية التى تمنعهم مما يخافون ، وعلى تحصيل الأكسية التى تقيهم الحرّ والبرد . وقيل : تكريمهم : هو أن جعل محمدا ﷺ منهم ﴿ وحملناهم فى البر والبحر ﴾ هذا تخصيص لبعض أنواع التكريم ، حملهم سبحانه فى البر على الدواب ، وفى البحر على السفن . وقيل : حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم ولم نغرقهم ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أى لذيذ المطاعم والمشارب وسائر ما يستلذونه وينتفعون به ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ أجمل سبحانه هذا الكثير ولم يبين أنواعه فأفاد ذلك أن بنى آدم فضلهم سبحانه على كثير من مخلوقاته ، وقد جعل بعض أهل العلم الكثير هنا بمعنى الجميع وهو تعسف لا حاجة إليه .

وقد شغل كثير من أهل العلم بما لم تكن إليه حاجة ولا تتعلق به فائدة ، وهو مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء أو الأنبياء على الملائكة ، ومن جملة ما تمسك به مفضلو الأنبياء على الملائكة هذه الآية ، ولا دلالة لها على المطلوب لما عرفت من إجمال الكثير وعدم تبيينه ، والتعصب فى هذه المسألة هو الذى حمل بعض الأشاعرة على تفسير الكثير هنا بالجميع حتى يتم له التفضيل على الملائكة ، وتمسك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء ، ولا دلالة بها على ذلك ، فإنه لم يقم دليل على أن الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير ، ولو سلمنا ذلك فليس فيما خرج عن هذا الكثير ما يفيد أنه أفضل من بنى آدم ، بل غاية ما فيه أنه لم يكن الإنسان مفضلا عليه ، فيحتمل أن يكون مساويا للإنسان ، ويحتمل أن يكون أفضل منه ، ومع الاحتمال لا يتم الاستدلال ، والتأكيد بقوله : ﴿ تفضيلا ﴾ يدل على عظم

هذا التفضيل وأنه بمكان مكين ، فعلى بنى آدم أن يتلقوه بالشكر ويحذروا من كفرانه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يزجى ﴾ قال : يجرى ، وأخرجوا عن قتادة قال : يسيرها فى البحر . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ حاصبا ﴾ قال : مطر الحجارة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : حجارة من السماء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ قاصفا من الريح ﴾ قال : التى تغرق . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : القاصف والعاصف فى البحر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ قاصفا ﴾ قال : عاصفا ، وفى قوله : ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾ قال : نصيرا .

وأخرج الطبرانى ، والبيهقى فى الشعب ، والخطيب فى تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من شئ أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم » قيل : يا رسول الله ، ولا الملائكة؟ قال : « ولا الملائكة ، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر » (١) . وأخرجه البيهقى من وجه آخر عن ابن عمرو موقوفا قال : وهو الصحيح (٢) . وأخرج البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : المؤمن أكرم على الله من ملائكته (٣) . وأخرج الطبرانى عن ابن عمرو عن النبى ﷺ قال : « إن الملائكة قالت : يا رب أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو ، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة ، قال : لا أجعل صالح ذرية من خلقت يبدى كمن قلت له كن فكان » . وأخرجه عبد الرزاق وابن جرير عن زيد بن أسلم قال : قالت الملائكة (٤) . وإسناد الطبرانى هكذا : حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادى ، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصى ، حدثنا حجاج بن محمد ، حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ فذكره . وأخرج ابن عساكر من طريق عروة بن رويم فقال : حدثنى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ فذكر نحو حديث ابن عمرو الأول مع زيادة . وأخرج نحوه البيهقى أيضا فى الأسماء والصفات من وجه آخر عن عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ فذكره (٥) . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾ قال : جعلناهم يأكلون بأيديهم وسائر الخلق يأكلون بأفواههم . وأخرج الحاكم فى

(١) الطبرانى فى الصغير ٢/ ٤٧ ولم يروه عن يونس إلا عبيد الله ، تفرد به معمر ، والبيهقى فى الشعب (١٥١) وهو ضعيف ، والخطيب فى تاريخه ٤/ ٤٥ وفيه عبيد الله أيضا وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٨٦ : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه عبيد الله بن تمام وهو ضعيف جدا » ، وقال ابن كثير ٤/ ٣٢٩ ، ٣٣٠ : « وهذا حديث غريب جدا » .

(٢) البيهقى فى الشعب (١٥٢) وإسناد رجاله ثقات .

(٣) المصدر السابق (١٥٠) وإسناده ضعيف .

(٤) ابن جرير ١٥/ ٨٥ .

(٥) البيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ٤٦ .

التاريخ ، والديلمى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « الكرامة الأكل بالأصابع » (١) .

﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِىَ إِلَيْكَ لَيَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سَنَّةً مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾ .

قوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ قال الزجاج : يعنى : يوم القيامة ، وهو منصوب على معنى اذكر يوم ندعو . وقرئ : « يدعو » بالياء التحتية على البناء للفاعل و« يدعى » على البناء للمفعول ، والباء فى ﴿ بِإِمَامِهِمْ ﴾ للإلصاق كما تقول : أدعوك باسمك ، ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف هو حال ، والتقدير : ندعو كل أناس متلبسين بإمامهم ، أى يدعون وإمامهم فيهم نحو ركب بجنوده ، والأول أولى . والإمام فى اللغة : كل ما يؤتم به من نبي أو مقدم فى الدين أو كتاب .

وقد اختلف المفسرون فى تعيين الإمام الذى تدعى كل أناس به ، فقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك : إنه كتاب كل إنسان الذى فيه عمله ، أى يدعى كل إنسان بكتاب عمله ، ويؤيد هذا قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ (٢) أَوْتِيَ كِتَابَهُ ﴾ الآية [الحاقة : ١٩] ، وقال ابن زيد : الإمام : هو الكتاب المنزل عليهم فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل الإنجيل بالإنجيل ، وأهل القرآن بالقرآن ، فيقال : يا أهل التوراة ، يا أهل الإنجيل ، يا أهل القرآن . وقال مجاهد وقتادة : إمامهم : نبيهم ، فيقال : هاتوا متبعي إبراهيم ، هاتوا متبعي موسى ، هاتوا متبعي عيسى ، هاتوا متبعي محمد ، وبه قال الزجاج . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : المراد بالإمام : إمام عصرهم ، فيدعى أهل كل عصر بإمامهم الذى كانوا يأتمرون بأمره وينتهون بنهيهِ . وقال الحسن وأبو العالية : المراد ﴿ بِإِمَامِهِمْ ﴾ : أعمالهم ، فيقال مثلا : أين المجاهدون ، أين الصابرون ، أين الصائمون ، أين المصلون ؟ ونحو ذلك . وروى عن ابن عباس وأبى هريرة . وقال أبو عبيدة : المراد ﴿ بِإِمَامِهِمْ ﴾ : صاحب مذهبهم ، فيقال مثلا : أين التابعون للعالم فلان ابن فلان . وهذا من البعد بمكان . وقال محمد بن كعب : ﴿ بِإِمَامِهِمْ ﴾ : بأمهاتهم ،

(١) الديلمى فى الفردوس (٧٢٢٣) .

(٢) فى المخطوطة : « فَمَنْ » والصواب ما أثبتناه .

على أن إمام جمع أم كخف وخفاف ، وهذا بعيد جدا . وقيل : الإمام : هو كل خلق يظهر من الإنسان حسن كالعلم والكرم والشجاعة ، أوقبيح كأضدادها ، فالداعى إلى تلك الأفعال خلق باطن هو كالإمام ، ذكر معناه الرازى فى تفسيره .

﴿ فمن أوتى كتابه يمينه ﴾ من أولئك المدعوين ، وتخصيص اليمين بالذكر ؛ للتشريف والتبشير ﴿ فأولئك ﴾ الإشارة إلى « من » باعتبار معناه . قيل : ووجه الجمع الإشارة إلى أنهم مجتمعون على شأن جليل ، أو الإشعار بأن قراءتهم لكتبهم تكون على الاجتماع لا على وجه الانفراد ﴿ يقرؤون كتابهم ﴾ الذى أوتوه ﴿ ولا يظلمون فتىلا ﴾ أى لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل ، وهو القشرة التى فى شق النواة ، أو هو عبارة عن أقل شىء ، ولم يذكر أصحاب الشمال تصريحاً ، ولكنه ذكر سبحانه ما يدل على حالهم القبيح فقال : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى ﴾ أى من كان من المدعوين فى هذه الدنيا أعمى ، أى فاقد البصيرة . قال النيسابورى : لا خلاف أن المراد بهذا العمى : عمى القلب ، وأما قوله : ﴿ فهو فى الآخرة أعمى ﴾ فيحتمل أن يراد به : عمى البصر ، كقوله : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ﴾ [طه : ١٢٤ ، ١٢٥] . وفى هذا زيادة العقوبة . ويحتمل أن يراد : عمى القلب . وقيل : المراد بالآخرة : عمل الآخرة ، أى فهو فى عمل ، أو فى أمر الآخرة أعمى . وقيل : المراد : من عمى عن النعم التى أنعم الله بها عليه فى الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى . وقيل : من كان فى الدنيا التى تقبل فيها التوبة أعمى فهو فى الآخرة التى لا توبة فيها أعمى . وقيل : من كان فى الدنيا أعمى عن حجج الله فهو فى الآخرة أعمى . وقد قيل : إن قوله : ﴿ فهو فى الآخرة أعمى ﴾ أفعل تفضيل ، أى أشد عمى ، وهذا مبنى على أنه من عمى القلب ، إذ لا يقال ذلك فى عمى العين . قال الخليل وسيبويه : لأنه خلقه بمنزلة اليد والرجل ، فلا يقال : ما أعماه ، كما لا يقال : ما أيداه . وقال الأخفش : لا يقال فيه ذلك لأنه أكثر من ثلاثة أحرف . وقد حكى الفراء عن بعض العرب أنه سمعه يقول : ما أسود شعره ، ومن ذلك قول الشاعر :

أما الملوك فأنت اليوم الأهمهم لؤما وأبيضهم سربال طباخ

والبحث مستوفى فى النحو . وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى وخلف : « أعمى » بالإمالة فى الموضعين ، وقرأهما أبو عمرو ويعقوب والباقون بغير إمالة ، وأمال أبو عبيد الأول دون الثانى ﴿ وأضل سبيلا ﴾ يعنى : أن هذا أضل سبيلا من الأعمى لكونه لا يجد طريقا إلى الهداية ، بخلاف الأعمى فقد يهتدى فى بعض الأحوال .

ثم لما عدد سبحانه فى الآيات المتقدمة أقسام النعم على بنى آدم أردفه بما يجرى مجرى التحذير من الاغترار بوساوس الأشقياء فقال : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك ﴾ : « إن » هى المخففة من الثقيلة ، واسمها : ضمير شأن محذوف ، واللام : هى الفارقة بينها

وبين النافية ، والمعنى : وإن الشأن قاربوا أن يخذعوك فأتين . وأصل الفتنة : الاختبار ، ومنه فتن الصائغ الذهب ، ثم استعمل في كل من أزال الشيء عن حده وجهته ، وذلك لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن وافتراء على الله سبحانه من تبديل الوعد بالوعيد وغير ذلك ﴿ عن الذى أوحينا إليك ﴾ من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد ﴿ لتفترى علينا غيره ﴾ لتقول علينا غير الذى أوحينا إليك مما اقترحه عليك كفار قريش ﴿ وإذا لاتخذوك خليلا ﴾ أى لو اتبعت أهواءهم لاتخذوك خليلا لهم ، أى والوك وصافوك ، مأخوذ من الخلطة بفتح الخاء .

﴿ ولولا أن ثبتناك ﴾ على الحق وعصمتك عن موافقتهم ﴿ لقد كدت تركن إليهم ﴾ لقاربت أن تميل إليهم أدنى ميل ، والركون : هو الميل اليسير ، ولهذا قال : ﴿ شيئاً قليلاً ﴾ لكن أدركته ﷺ العصمة فمنعته من أن يقرب من أدنى مراتب الركون إليهم ، فضلاً عن نفس الركون . وهذا دليل على أنه ﷺ ما هم بإجابتهم ، ذكر معناه القشيري وغيره . وقيل : المعنى : وإن كادوا ليخبرون عنك بأنك ملت إلى قولهم ، فنسب فعلهم إليه مجازاً واتساعاً كما تقول للرجل : كدت تقتل نفسك ، أى كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت ، ذكر معناه المهدوى .

ثم توعده سبحانه فى ذلك أشد الوعيد فقال : ﴿ إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ أى لو قاربت أن تركن إليهم ، أى مثلى ما يعذب به غيرك ممن يفعل هذا الفعل فى الدارين ، والمعنى : عذاباً ضعفاً فى الحياة وعذاباً ضعفاً فى الممات ، أى مضاعفاً ، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وأضيفت ، وذلك لأن خطأ العظيم عظيم كما قال سبحانه : ﴿ يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ [الأحزاب : ٣٠] . وضعف الشيء : مثله ، وقد يكون الضعف النصيب كقوله : ﴿ لكل ضعف ﴾ [الأعراف : ٣٨] . أى نصيب . قال الرازى : حاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون همك لاستحققت تضعيف العذاب عليك فى الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثلى عذاب المشرك فى الدنيا ومثلى عذابه فى الآخرة ﴿ ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾ ينصرك فيدفع عنك هذا العذاب . قال النيسابورى : اعلم أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها ، والتهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها ، فلا يلزم من الآية طعن فى العصمة .

﴿ وإن كادوا ليستفزونك ﴾ الكلام فى هذا كالكلام فى ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ أى وإن الشأن أنهم قاربوا أن يزعجوك من أرض مكة لتخرج عنها ، ولكنه لم يقع ذلك منهم ، بل منعهم الله منه حتى هاجر بأمر ربه بعد أن هموا به . وقيل : إنه أطلق الإخراج على إرادة الإخراج تجويزاً ﴿ وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلاً ﴾ معطوف على ﴿ ليستفزونك ﴾ أى لا يبقون بعد إخراجك إلا زمناً قليلاً ، ثم عوقبوا عقوبة تستأصلهم جميعاً . وقرأ عطاء بن أبى رباح : « لا يلبثوا » بتشديد الباء الموحدة . وقرئ : « لا يلبثوا » بالنصب على إعمال « إذا » ، على أن الجملة معطوف على جملة : ﴿ وإن كادوا ﴾ لا على الخبر فقط . وقرأ نافع وابن كثير وأبو

بكر وأبو عمرو : «خلفك» ومعناه : بعدك . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي : ﴿خلافك﴾ ومعناه أيضا : بعدك . وقال ابن الأنباري : ﴿خلافك﴾ بمعنى : مخالفتك ، واختار أبو حاتم القراءة الثانية لقوله : ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ [التوبة: ٨١] . ومما يدل على أن خلاف بمعنى بعد ، قول الشاعر :

عفت الديار خلافهم فكأنما بسط الشواطئ بينهن حصيراً

يقال : شطبت المرأة الجريد : إذا شققته لتعمل منه الحصير . قال أبو عبيدة : ثم تلقى الشاطبة إلى المثقبة . ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا﴾ ﴿سنة﴾ منتصبة على المصدرية ، أى سن الله سنة . وقال الفراء : أى يعذبون كسنة من قد أرسلنا فلما سقط الخافض عمل الفعل . وقيل : المعنى : سنتنا سنة من قد أرسلنا . قال الزجاج : يقول : إن سنتنا هذه السنة فيمن أرسلنا قبلك إليهم أنهم إذا أخرجوا نبهم من بين أظهرهم أو قتلوه أن ينزل العذاب بهم ﴿ولا تجد لسننتنا تحويلاً﴾ أى ما أجرى الله به العادة لم يتمكن أحد من تحويله ولا يقدر على تغييره .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ قال : إمام هدى وإمام ضلالة . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، والخطيب فى تاريخه عن أنس فى الآية قال : نبهم : وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : بكتاب أعمالهم . وأخرج ابن مردويه عن على فى الآية قال : يدعى كل قوم بإمام زمانهم ، وكتاب ربهم وسنة نبهم . وأخرج الترمذى وحسنه ، والبزار وابن أبي حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ قال : «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له فى جسمه ستون ذراعاً ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون: اللهم اتتنا بهذا وبارك لنا فى هذا ، حتى يأتهم فيقول : أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا ، وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له جسمه ستون ذراعاً على صورة آدم ، ويلبس تاجاً فيراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من شر هذا ، اللهم لا تأتنا بهذا ، قال : فيأتهم فيقولون : اللهم أخزه ، فيقول : أبعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا» . قال البزار بعد إخراجهم : لا يروى إلا من هذا الوجه (١) .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ومن كان فى هذه أعمى﴾ يقول : من كان فى الدنيا أعمى عما يرى من قدرتى من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب وأشباه هذا ﴿فهو﴾ عما وصفت له ﴿فى الآخرة﴾ ولم يره

(١) الترمذى فى تفسير القرآن (٣١٣٦) وقال : «حسن غريب» وابن حبان (٧٣٠٥) وصححه الحاكم ٢ / ٢٤٣ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

﴿ أعمى وأضل سبيلا ﴾ يقول : أبعد حجة . وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عنه نحو هذا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا يقول : من عمى عن قدرة الله فى الدنيا فهو فى الآخرة أعمى .

وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضا قال : إن أمية بن خلف وأبا جهل بن هشام ورجالا من قريش أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : تعال فتمسح ألهتنا وندخل معك فى دينك ، وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه فراق قومه ويحب إسلامهم فرق لهم ، فأنزل الله : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ نصيرا ﴾ . وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن ياذان عن جابر بن عبد الله مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : كان رسول الله ﷺ يستلم الحجر ، فقالوا : لا ندعك تستلمه حتى تستلم بألهتنا ، فقال رسول الله ﷺ : « وما على لو فعلت والله يعلم منى خلافه ؟ » فأنزل الله : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ ﴾ الآية (١) . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير؛ أن قريشا أتوا النبى ﷺ فقالوا له : إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك ، فركن إليهم ، فأوحى الله إليه : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ ﴾ الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال : أنزل الله : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ [النجم : ١] . فقرأ عليهم رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ أفرايتم اللات والعزى ﴾ [النجم : ١٩] فألقى عليه الشيطان : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ، فقرأ النبى ﷺ مابقى من السورة وسجد ، فأنزل الله : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ ﴾ الذى أوحينا إليك ﴿ الآية ، فما زال مهموما مغموما حتى أنزل الله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ﴾ الآية [الحج : ٥٢] . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس؛ أن ثقيفا قالوا للنبي ﷺ : أجلنا سنة حتى يهدى لألهتنا ، فإذا قبضنا الذى يهدى للآلهة أحرزناه ثم أسلمنا وكسرنا الآلهة فهم أن يؤجلهم ، فنزلت ﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ ﴾ الآية (٢) .

وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ يعنى : ضعف عذاب الدنيا والآخرة . وأخرج البيهقى عن الحسن فى الآية قال : هو عذاب القبر . وأخرج أيضا عن عطاء مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : قال المشركون للنبي ﷺ : كانت الأنبياء تسكن الشام ، فمالك والمدينة ؟ فهم أن يشخص ، فأنزل الله : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَسْتَفْزُونَكَ ﴾ من الأرض ﴿ الآية . وأخرج ابن جرير عن حزمى أنه بلغه أن بعض اليهود ... فذكر نحوه (٣) . وأخرج ابن أبي حاتم ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر عن عبد الرحمن ابن غنم؛ أن اليهود أتوا النبى ﷺ فقالوا : إن كنت نبيا فالحق بالشام ، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء ، فصدق النبى ﷺ ما قالوا ، فتحرى غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ،

فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بنى إسرائيل بعد ما ختمت السورة : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَسْتَفْزُونَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ تَحْوِيلًا ﴾ فأمره بالرجوع إلى المدينة ، وقال : فيها محياك وفيها مماتك ومنها تبعث ، وقال له جبريل : سل ربك ، فإن لكل نبي مسألة فقال : « ما تأمرني أن أسأل ؟ » قال : ﴿ قُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ فهؤلاء نزلن عليه في رجعته من تبوك (١) . قال ابن كثير : وفي هذا الإسناد نظر ، والظاهر أنه ليس بصحيح ، فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود ، وإنما غزاها امتثالا لقوله : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾ [التوبة : ١٢٣] . وغزاها ليقترض وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه (٢) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَسْتَفْزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ قال : هم أهل مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة ، وقد فعلوا بعد ذلك فأهلكهم الله يوم بدر ، ولم يلبثوا بعده إلا قليلا حتى أهلكهم الله يوم بدر ، وكذلك كانت سنة الله في الرسل إذا فعل بهم قومهم مثل ذلك . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قال : يعنى بالقليل : يوم أخذهم ببدر ، فكان ذلك هو القليل الذين لبثوا بعده .

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَادَ يَأْتِسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) ﴾ .

لما ذكر سبحانه الإلهيات والمعاد والجزاء أردفها بذكر أشرف الطاعات ، وهى الصلاة ، فقال : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ . وقد أجمع المفسرون على أن هذه الآية المراد بها : الصلوات المفروضة . وقد اختلف العلماء فى الدلوك المذكور فى هذه الآية على قولين : أحدهما : أنه زوال الشمس عن كبد السماء ، قاله عمر وابنه وأبو هريرة وأبو برزة وابن عباس والحسن والشعبي وعطاء ومجاهد وقتادة والضحاك وأبوجعفر الباقر ، واختاره ابن جرير . والقول الثانى : أنه غروب الشمس ، قاله على وابن مسعود وأبى بن كعب ، وروى عن ابن عباس . قال الفراء : دلوك الشمس : من لدن زوالها إلى غروبها . قال الأزهري : معنى الدلوك فى كلام

العرب : الزوال ، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار : دالكة . وقيل لها إذا أفلت : دالكة ، لأنها فى الحالتين زائلة . قال : والقول عندى أنه زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس ، والمعنى : أقم الصلاة من وقت دلوك الشمس ﴿ إلى غسق الليل ﴾ فیدخل فیها الظهر والعصر وصلاتا غسق الليل ، وهما العشاءان ، ثم قال : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ هذه خمس صلوات . وقال أبو عبيد : دلوکها : غروبها ، ودلکت براح : یعنی الشمس ، أى غابت ، وأنشد قطرب على هذا قول الشاعر :

هذا مقام قدمی رباح ذببَ حتى دلکت براح

اسم من أسماء الشمس على وزن حذام وقطام ، ومن ذلك قول ذى الرمة :

مصاييح لیست باللواتی تقودها نجوم ، ولا بالآفلات الدوالک

أى الغوارب ، وغسق الليل : اجتماع الظلمة . قال الفراء والزجاج : يقال : غسق الليل وأغسق : إذا أقبل بظلامه . قال أبو عبيد : الغسق : سواد الليل . قال قيس بن الرقيات :

إن هذا الليل قد غسقا واشتکیت الهم والأرقا

وقيل : غسق الليل : مغيب الشفق ، ومنه قول زهير :

ظلت تجود يداها وهى لاهية حتى إذا جنح الإظلام والغسق

وأصل الكلمة من السيلان يقال : غسقت : إذا سالت . وحكى الفراء غسق الليل وأغسق ، وظلم وأظلم ، ودجى وأدجى ، وغبش وأغبش ، وقد استدل بهذه الغاية ، أعنى قوله : ﴿ إلى غسق الليل ﴾ ، من قال : إن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب ، روى ذلك عن الأوزاعى وأبى حنيفة وجوزه مالك والشافعى فى حال الضرورة . وقد وردت الأحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول الله ﷺ فى تعيين أوقات الصلوات ، فيجب حمل مجمل هذه الآية على ما بيته السنة فلا نطيل بذكر ذلك . قوله : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ انتصاب ﴿ قرآن ﴾ لكونه معطوفا على ﴿ الصلاة ﴾ أى وأقم قرآن الفجر ، قاله الفراء . وقال الزجاج والبصريون : انتصابه على الإغراء ، أى فعليك قرآن الفجر . قال المفسرون : المراد بقرآن الفجر : صلاة الصبح . قال الزجاج : وفى هذه فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة حتى سميت الصلاة قرآنا ، وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أنه « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب » (١) ، وفى بعض الأحاديث الخارجة من مخرج حسن ، « وقرآن معها » (٢) . وورد ما يدل على وجوب

(١) مسلم فى الصلاة (٣٤٠/٣٧) وأبو داود فى الصلاة (٨٢٢ ، ٨٢٣) والترمذى فى الصلاة (٢٤٧)

وقال : « حسن صحيح » وابن ماجه فى الصلاة (٨٣٧) وكلهم عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

(٢) أبو داود فى الصلاة (٨١٨) والترمذى فى الصلاة (٢٣٨) وقال : « حديث حسن ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه » .

الفاتحة فى كل ركعة ، وقد حررته فى مؤلفاتى تحريراً مجوداً . ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ **إِنْ قرآن الفجر كان مشهودا** ﴾ أى تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار كما ورد ذلك فى الحديث الصحيح ، وبذلك قال جمهور المفسرين . ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك** ﴾ : « من » للتبعية ، وانتصابه على الظرفية بمضمر ، أى قم بعض الليل فتهجد به ، والضمير المجرور راجع إلى القرآن ، وما قيل من أنه منتصب على الإغراء ، والتقدير : عليك بعض الليل ، فبعد جدا . والتهجد مأخوذ من الهجود . قال أبو عبيدة وابن الأعرابى : هو من الأضداد ، لأنه يقال : هجد الرجل : إذا نام ، وهجد : إذا سهر ، فمن استعماله فى السهر قول الشاعر :

ألا زارت وأهل منى هجود فليت خيالها بمنى يعود

يعنى : متبهرين ، ومن استعماله فى النوم قول الآخر :

ألا طرقتنا والرفاق هجود فباتت بعلات (١) النوال تجود

يعنى : نياماً . وقال الأزهري : الهجود فى الأصل : هو النوم بالليل ، ولكن جاء الفعل فيه لأجل التجنب ومنه تأثم وتخرج ، أى تجنب الإثم والحرَج ، فالتهجد : من تجنب الهجود ، فقام بالليل . وروى عن الأزهري أيضاً أنه قال : التهجد : القائم إلى الصلاة من النوم ، هكذا حكى عنه الواحدى فقيد التهجد بالقيام من النوم ، وهكذا قال مجاهد وعلقمة والأسود ، فقالوا : التهجد بعد النوم . قال الليث : تهجد إذا استيقظ للصلاة ﴿ **نافلة لك** ﴾ معنى النافلة فى اللغة : الزيادة على الأصل ، فالمعنى : أنها للنبي ﷺ نافلة زائدة على الفرائض . والأمر بالتهجد وإن كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قرينة صارقة للأمر . وقيل : المراد بالنافلة هنا : أنها فريضة زائدة على الفرائض الخمس فى حقه ﷺ ، ويدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة . وقيل : كانت صلاة الليل فريضة فى حقه ﷺ ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعاً ، وعلى هذا يحمل ما ورد فى الحديث أنها عليه فريضة ولأتمته تطوع . قال الواحدى : إن صلاة الليل كانت زيادة للنبي ﷺ خاصة لرفع الدرجات ، لا للكفارات ، لأنه غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر ، وليس لنا بنافلة : لكثرة ذنوبنا ، إنما نعمل لكفارتها ، قال : وهو قول جميع المفسرين . والحاصل : أن الخطاب فى هذه الآية وإن كان خاصاً بالنبي ﷺ فى قوله : ﴿ **أقم الصلاة** ﴾ فالأمر له أمر لأتمته ، فهو شرع عام ، ومن ذلك الترغيب فى صلاة الليل ، فإنه يعم جميع الأمة ، والتصريح بكونه نافلة يدل على عدم الوجوب ، فالتهجد من الليل مندوب إليه ومشروع لكل مكلف . ثم وعده سبحانه على إقامة الفرائض والنوافل فقال : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ قد ذكرنا فى مواضع أن ﴿ **عسى** ﴾ من الكريم إطماع واجب الوقوع ، وانتصاب ﴿ **مقاماً** ﴾ على الظرفية بإضمار فعل ، أو بتضمين البعث معنى الإقامة ، ويجوز أن يكون انتصابه على الحال ، أى يبعثك ذا مقام محمود . ومعنى كون المقام

محمودا : أنه يحمده كل من علم به .

وقد اختلف فى تعيين هذا المقام على أقوال : الأول : أنه المقام الذى يقومه النبى ﷺ للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم سبحانه مما هم فيه ، وهذا القول هو الذى دلت عليه الأدلة الصحيحة فى تفسير الآية ، وحكاه ابن جرير عن أكثر أهل التأويل . قال الواحدى : وإجماع المفسرين على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة . القول الثانى : أن المقام المحمود : إعطاء النبى ﷺ لواء الحمد يوم القيامة . ويمكن أن يقال : إن هذا لا ينافى القول الأول ، إذ لا منافاة بين كونه قائما مقام الشفاعة وبيده لواء الحمد . القول الثالث : أن المقام المحمود : هو أن الله سبحانه يجلس محمدا ﷺ معه على كرسيه ، حكاه ابن جرير عن فرقة منهم مجاهد ، وقد ورد فى ذلك حديث . وحكى النقاش عن أبى داود السجستانى أنه قال : من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم ، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا الحديث . قال ابن عبد البر : مجاهد وإن كان أحد الأئمة يقول بالتأويل ، فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم : أحدهما هذا ، والثانى فى تأويل : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ [القيامة : ٢٢ ، ٢٣] قال : معناه : تنتظر الثواب ، وليس من النظر . انتهى ، وعلى كل حال فهذا القول غير منافٍ للقول الأول لإمكان أن يقعده الله سبحانه هذا المقعد ويشفع تلك الشفاعة . القول الرابع : أنه مطلق فى كل مقام يجلب الحمد من أنواع الكرامات ، ذكره صاحب الكشاف والمقتدون به فى التفسير ، ويجاب عنه بأن الأحاديث الصحيحة الواردة فى تعيين هذا المقام المحمود متواترة ، فالصير إليها متعين ، وليس فى الآية عموم فى اللفظ حتى يقال : الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومعنى قوله : « وهو مطلق فى كل ما يجلب الحمد » : أنه عام فى كل ما هو كذلك ، ولكنه يعبر عن العام بلفظ المطلق ، كما ذكره فى ذبح البقرة ، ولهذا قال هنا . وقيل : المراد : الشفاعة ، وهى نوع واحد مما يتناوله ، يعنى : لفظ المقام ، والفرق بين العموم البدلى والعموم الشمولى معروف ، فلا تطيل بذكره .

﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق ﴾ وقرأ الجمهور : ﴿ مدخل صدق ﴾ و﴿ مخرج صدق ﴾ بضم الميمين . وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم بفتحهما ، وهما مصدران بمعنى : الإدخال والإخراج ، والإضافة إلى الصدق لأجل المبالغة نحو حاتم الجود ، أى إدخالا يستأهل أن يسمى إدخالا ، ولا يرى فيه ما يكره . قال الواحدى : وإضافتهما إلى الصدق مدح لهما ، وكل شئ أضيفته إلى الصدق فهو مدح .

وقد اختلف المفسرون فى معنى الآية ، فقيل : نزلت حين أمر بالهجرة ، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة واختاره ابن جرير . وقيل : المعنى : أمتنى إماتة صدق ، وابعثنى يوم القيامة مبعث صدق . وقيل : المعنى : أدخلنى فيما أمرتنى به ، وأخرجنى مما نهيتنى عنه . وقيل : إدخاله موضع الأمن وإخراجه من بين المشركين ، وهو كالقول الأول . وقيل : المراد إدخال عز وإخراج نصر . وقيل : المعنى : أدخلنى فى الأمر الذى أكرمتنى به من النبوة مدخل

صدق ، وأخرجني منه إذا أمتنى مخرج صدق . وقيل : أدخلني القبر عند الموت مدخل صدق ، وأخرجني منه عند البعث مخرج صدق . وقيل : أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق ، وأخرجني بالصدق . وقيل : الآية عامة في كل ما تتناوله من الأمور فهي دعاء ، ومعناها : رب أصلح لى وردى فى كل الأمور وصدري عنها .

﴿ واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ أى حجة ظاهرة قاهرة تنصرنى بها على جميع من خالفنى . وقيل : اجعل لى من لدنك ملكا وعزا قويا وكأنه ﷺ علم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل سلطانا نصيرا . وبه قال الحسن وقتادة واختاره ابن جرير . قال ابن كثير : وهو الأرجح ، لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناواه ، ولهذا يقول تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾ [الحديد : ٢٥] . وفى الحديث : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » أى ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمنع كثيرا من الناس بالقرآن ، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع . انتهى (١)

﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ﴾ المراد بالحق : الإسلام . وقيل : القرآن . وقيل : الجهاد . ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك وعلى ما هو حق كائنا ما كان ، والمراد بالباطل : الشرك . وقيل : الشيطان ، ولا يبعد أن يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل وباطل . ومعنى زهق : بطل واضمحل ، ومنه زهوق النفس وهو بطلانها ﴿ إن الباطل كان زهوقا ﴾ أى إن هذا شأنه فهو يبطل ولا يثبت ، والحق ثابت دائما .

﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ نزل ﴾ بالنون وقرأ أبو عمرو بالتخفيف . وقرأ مجاهد بالياء التحتية والتخفيف ، ورواها المروزي عن حفص ، و«من» لا ابتداء الغاية ، ويصح أن تكون لبيان الجنس . وقيل : للتبعيض ، وأنكره بعض المفسرين لاستلزامه أن بعضه لاشفاء فيه ، ورده ابن عطية بأن البعض هو إنزاله . واختلف أهل العلم فى معنى كونه شفاء على القولين : الأول : أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه . القول الثانى : أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحو ذلك ، ولا مانع من حمل الشفاء على المعنيين من باب عموم المجاز ، أو من باب حمل المشترك على معنيه .

ثم ذكر سبحانه أنه رحمة للمؤمنين لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين والدنيا ، ولما فى تلاوته وتدبره من الأجر العظيم الذى يكون سببا لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا

يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴿ [فصلت : ٤٤] . ثم لما ذكر سبحانه ما فى القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين ، ذكر ما فيه لمن عداهم من المضرة عليهم فقال : ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ أى ولا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الظالمين الذين وضعوا التكذيب موضع التصديق ، والشك والارتياب موضع اليقين والاطمئنان ﴿ إلا خساراً ﴾ أى هلاكاً لأن سماع القرآن يغيظهم ويحنقهم ويدعوهم إلى زيادة ارتكاب القبائح تمرداً وعناداً ، فعند ذلك يهلكون . وقيل : الخسار : النقص ، كقوله : ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [التوبة : ١٢٥] .

ثم نبه سبحانه على فضح بعض ما جبل عليه الإنسان من الطبائع المذمومة فقال : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان ﴾ أى على هذا الجنس بالنعم التى توجب الشكر كالصحة والغنى ﴿ أعرض ﴾ عن الشكر لله والذكر له ﴿ ونأى بجانبه ﴾ النأى : البعد ، والباء للتعدية أو للمصاحبة ، وهو تأكيد للإعراض ؛ لأن الإعراض عن الشيء هو أن يولى عرضه وجهه ، أى ناحيته ، والنأى بالجانب : أن يولى عنه عطفه ويولى ظهره ، ولا يبعد أن يراد بالإعراض هنا : الإعراض عن الدعاء والابتغال الذى كان يفعله عند نزول البلوى والمحنة به ، ويراد بالنأى بجانبه : التكبر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم . وقرأ ابن عامر فى رواية ابن ذكوان وأبوجعفر : « ناء » مثل باع بتأخير الهمزة على القلب ، وقرأ حمزة : « ناءى » بإمالة الفتحين ووافقه الكسائى ، وأمال شعبة والسوسى الهمزة فقط . وقرأ الباقر بالفتح فيهما ﴿ وإذا مسه الشر ﴾ من مرض أو فقر ﴿ كان يؤوسا ﴾ شديد اليأس من رحمة الله ، والمعنى : أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوى ، وظفر بالمقصود ، نسى المعبود ، وإن فاته شيء من ذلك استولى عليه الأسف ، وغلب عليه القنوط ، وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة ولا ينافى ما فى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ [فصلت : ٥١] ونظائره ، فإن ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض المذكور فى هذه الآية ، ولا يبعد أن يقال : لا منافاة بين الآيتين ، فقد يكون مع شدة يأسه وكثرة قنوطه ، كثير الدعاء بلسانه .

﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ الشاكلة قال الفراء : الطريقة . وقيل : الناحية . وقيل : الطبيعة . وقيل : الدين . وقيل : النية . وقيل : الجبلة ، وهى مأخوذة من الشكل ، يقال : لست على شكلى ولا على شاكلتى ، والشكل : هو المثل والنظير . والمعنى : إن كل إنسان يعمل على ما يشاكل أخلاقه التى ألفها ، وهذا ذم للكافر ومدح للمؤمن ﴿ فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ﴾ لأنه الخالق لكم العالم بما جبلتم عليه من الطبائع وما تباينت فيه من الطرائق ، فهو الذى يميز بين المؤمن الذى لا يعرض عند النعمة ولا ييأس عند المحنة ، وبين الكافر الذى شأنه البطر للنعم والقنوط عند النقم .

ثم لما انجر الكلام إلى ذكر الإنسان وما جبل عليه ، ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح فقال : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ قد اختلف الناس فى الروح المسؤول عنه ، فقيل : هو الروح المدبر للبدن الذى تكون به حياته ، وبهذا قال أكثر المفسرين . قال الفراء :

الروح : الذى يعيش به الإنسان ، لم يخبر الله سبحانه به أحدا من خلقه ، ولم يعط علمه أحدا من عباده فقال : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ أى إنكم لا تعلمونه . وقيل : الروح المسؤول عنه : جبريل . وقيل : عيسى . وقيل : القرآن . وقيل : ملك من الملائكة عظيم الخلق . وقيل : خلق كخلق بنى آدم . وقيل : غير ذلك مما لا طائل تحته ولا فائدة فى إبراده ، والظاهر : القول الأول ، وسيأتى ذكر سبب نزول هذه الآية ، وبيان السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح . ثم الظاهر أن السؤال عن حقيقة الروح ؛ لأن معرفة حقيقة الشيء أهم وأقدم من معرفة حال من أحواله . ثم أمره سبحانه أن يجيب على السائلين له عن الروح فقال : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ : « من » بيانية ، والأمر : الشأن ، والإضافة للاختصاص ، أى هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأشياء التى لم يعلم بها عباده . وقيل : معنى ﴿ من أمر ربي ﴾ : من وحيه وكلامه لا من كلام البشر .

وفى هذه الآية ما يزجر الخائضين فى شأن الروح المتكلفين لبيان ماهيته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر ويردعهم أعظم ردع ، وقد أطالوا المقال فى هذا البحث بما لا يتم له المقام ، وغالبه بل كله من الفضول الذى لا يأتى بنفع فى دين ولا دنيا . وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين فى الروح بلغت إلى ثمانية عشر ومائة قول ، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاقل عن النفع ، بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه ولم يطلع عليه أنبياءه ولا أذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته فضلا عن أمهم المقتدين بهم ، فيا لله العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول إلى هذا الحد الذى لم تبلغه ولا بعضه فى غير هذه المسألة مما أذن الله بالكلام فيه ، ولم يستأثر بعلمه . ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله سبحانه : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ أى أن علمكم الذى علمكم الله ، ليس إلا المقدار القليل بالنسبة إلى علم الخالق سبحانه ، وإن أوتى حظا من العلم وافرا ، بل علم الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة إلى علم الله سبحانه إلا كما يأخذ الطائر فى منقاره من البحر ، كما فى حديث موسى والخضر عليهما السلام .

وقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود قال : ﴿ دلوك الشمس ﴾ : غروبها ، تقول العرب إذا غربت الشمس : دلكت الشمس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن على قال : دلوكها : غروبها . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، قال : ﴿ لدلوك الشمس ﴾ : لزوال الشمس وأخرج البزار وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « دلوك الشمس زوالها » وضعف السيوطى إسناده ^(١) ، وأخرجه مالك فى الموطأ وعبد الرزاق والفريابى وابن

(١) السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ١٩٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٥٤ : « رواه البزار وفيه عمر بن قيس المعروف بسندل ، وهو متروك » .

أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عمر من قوله . وأخرج عبد الرزاق عنه قال : دلوك الشمس : زياغها بعد نصف النهار . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن ابن عباس قال : دلوكها : زوالها . وأخرج ابن أبي شيبه وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ دلوك الشمس ﴾ قال : إذا فاء الفىء . وأخرج ابن جرير عن أبى مسعود وعقبة بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « أتانى جبريل للدلوك الشمس حين زالت فصلى بى الظهر » (١) . وأخرج ابن جرير عن أبى برزة الأسلمى قال : كان رسول الله ﷺ يصلى الظهر إذا زالت الشمس ، ثم تلا : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ (٢) . وأخرج ابن مردويه من حديث أنس نحوه ، مما يستشهد به على أن الدلوك الزوال وسط النهار ما أخرجه ابن جرير عن جابر قال : دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه يطعمون عندى ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج النبى ﷺ فقال : « اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس » . وفى إسناده رجل مجهول ولكنه أخرجه عنه من طريق أخرى عن سهل بن بكر عن أبى عوانة عن الأسود بن قيس عن نبيح العنبرى عن جابر فذكر نحوه مرفوعا (٣) .

وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ إلى غسق الليل ﴾ قال : إلى العشاء الآخرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : ﴿ غسق الليل ﴾ اجتماع الليل وظلمته . وأخرج ابن جرير عنه قال : ﴿ غسق الليل ﴾ : بدو الليل . وأخرج عبد الرزاق عن أبى هريرة قال : دلوك الشمس : إذا زالت الشمس عن بطن السماء . وغسق الليل : غروب الشمس . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ قال : صلاة الصبح . وأخرج أحمد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ قال : « تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيها » (٤) ، وهو فى الصحيحين عنه مرفوعا بلفظ : « تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر » ، ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ (٥) . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والطبرانى عن ابن مسعود موقوفا نحوه . وأخرج الحكيم الترمذى وابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن أبى الدرداء قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ قال : « تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار » (٦) .

(٣-١) ابن جرير ٩٣ / ١٥ .

(٤) أحمد ٢ / ٤٧٤ والترمذى فى التفسير (٣١٣٥) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٣١٣) وابن ماجه فى الصلاة (٦٧٠) وابن جرير ٩٤ / ١٥ وصححه الحاكم ٢١١ / ١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٢٥٧٦) .

(٥) البخارى فى الأذان (٦٤٨) وفى التفسير (٤٧١٧) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٢٤٩ / ٢٤٦) .

(٦) ابن جرير ٩٤ / ١٥ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ نافلة لك ﴾ يعنى : خاصة للنبي ﷺ ، أمر بقيام الليل وكتب عليه . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى سننه عن عائشة ، أن النبي ﷺ قال : « ثلاث هن على فرائض وهن لكم سنة : الوتر : والسواك ، وقيام الليل » (١) . وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبى أمامة فى قوله : ﴿ نافلة لك ﴾ قال : كانت للنبي ﷺ نافلة ولكم فضيلة ، وفى لفظ : إنما كانت النافلة خاصة لرسول الله ﷺ . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة عن النبي ﷺ فى قوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ وسئل عنه ، قال : « هو المقام المحمود الذى أشفع فيه لأمتى » (٢) . وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتى على تل ، ويكسونى ربى حلة خضراء ، ثم يؤذن لى فأقول ما شاء الله أن أقول ، فذلك المقام المحمود » (٣) . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عمر قال : إن كل أمة يوم القيامة تتبع نبيها ، يقولون : يا فلان ، اشفع ، يا فلان ، اشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبي ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله مقاما محمودا . وأخرج عنه نحوه مرفوعا (٤) ، والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدا ثابتة فى الصحيحين وغيرهما فلا نطيل بذكرها ، ومن رام الاستيفاء نظر فى أحاديث الشفاعة فى الأمهات وغيرها . وأخرج الطبرانى فى قوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ قال : يجلسه فيما بينه وبين جبريل ويشفع لأمته ، فذلك المقام المحمود (٥) . وأخرج الديلمى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ ، قال : « يجلسنى معه على السرير » (٦) وينبغى الكشف عن إسناد هذين الحديثين .

وأخرج أحمد ، والترمذى وصححه ، وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم . والبيهقى والضياء فى المختارة ، عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة ، فأنزل الله : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ (٧) . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى

(١) البيهقى ٣٩ / ٧ .

(٢) أحمد ٤٤١ / ٢ ، ٥٢٨ ، والترمذى فى التفسير (٣١٣٧) وقال : « حديث حسن » وابن جرير ٩٨ / ١٥ والبيهقى فى الشعب (٢٩٥) .

(٣) أحمد ٤٥٦ / ٣ ، وابن جرير ٩٨ / ١٥ وابن حبان (٦٤٤٥) وصححه الحاكم ٣٦٣ / ٢ ووافقه الذهبى .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٧١٨) والنسائى فى التفسير (٣١٥) .

(٥) الطبرانى (١٢٤٧٤) عن ابن عباس ، وقال الهيثمى فى المجمع ٥٤ / ٧ : « وفيه ابن لهيعة ، وهو ضعيف إذا لم يتابع . وعطاء بن دينار قيل : لم يسمع من سعيد بن المسيب » .

(٦) الديلمى فى الفردوس (٤١٥٩) .

(٧) أحمد ٢٢٣ / ١ والترمذى فى التفسير (٣١٣٩) وقال : « حسن صحيح » وابن جرير ١٠٠ / ١٥ وصححه الحاكم ٣ / ٣ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٥١٦ / ٢ .

الدلائل عن قتادة في قوله : ﴿ وقل رب أدخلني ﴾ الآية : قال : أخرجني الله من مكة مخرج صدق ، وأدخله المدينة مدخل صدق . قال : وعلم نبي الله أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله وحدوده وفرائضه وإقامة كتاب الله ، فإن السلطان عزة من الله جعلها بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض ، وأكل شديدهم ضعيفهم ^(١) . وأخرج الخطيب عن عمر بن الخطاب قال : والله لما يزع الله بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعن بها يعود في يده ويقول : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ، و﴿ جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾ ^(٢) [سبأ : ٤٩] . وفي الباب أحاديث .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ ونأى بجانبه ﴾ قال : تباعد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ كان يؤوسا ﴾ قال : قنوطا ، وفي قوله : ﴿ كل يعمل على شاكلته ﴾ قال : على ناحيته . وأخرج هناد وابن المنذر عن الحسن قال : على شاكلته : على نيته . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : كنت أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة وهو متكئ على عسيب ، فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض : اسألوه عن الروح ، فقال بعضهم : لا تسألوه ، فقالوا : يا محمد ، ما الروح ؟ فما زال متكئاً على العسيب ، فظننت أنه يوحى إليه ، فقال : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ ^(٣) . وأخرج أحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي وابن المنذر وابن حبان ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبونعيم والبيهقي عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل ، قالوا : سلوه عن الروح ، فنزلت : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قالوا : أوتينا علماً كثيراً ، أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً ، فأنزل الله : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ ^(٤) [الكهف : ١٠٩] وفي الباب أحاديث وآثار .

(١) الحاكم ٣/٣ وسكت عنه الذهبي ، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٥١٧ .

(٢) البخاري في المظالم (٢٤٧٨) وفي المغازي (٤٢٨٧) وفي التفسير (٤٧٢٠) ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨١ / ٨٧ ، ٨٧ مكرر) والترمذي في التفسير (٣١٣٨) وقال : « حسن صحيح » والنسائي في التفسير (٤٤٨ ، ٣١٧) .

(٣) البخاري في العلم (١٢٥) وفي التفسير (٤٧٢١) وفي الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٩٧) ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٧٩٤ / ٣٢ ، ٣٣) والترمذي في التفسير (٣١٤١) والنسائي في التفسير (٣١٩) .

(٤) أحمد ٢٥٥ / ١ والترمذي في التفسير (٣١٤٠) وقال : « حسن صحيح غريب » والنسائي في التفسير (٣٣٤) وابن حبان (٩٩) وصححه الحاكم ٢/ ٥٣١ ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٤٦ .

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ ۞

لما بين سبحانه أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلا بين أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل ، فقال : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ واللام هي الموطئة ، و ﴿ لنذهبن ﴾ جواب القسم ساد مسد جواب الشرط . قال الزجاج : معناه : لو شئنا لمحوناه من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثر . انتهى . وعبر عن القرآن بالموصول تفخيما لشأنه ﴿ ثم لا تجد لك به ﴾ أى بالقرآن ﴿ علينا وكيلا ﴾ أى لا تجد من يتوكل علينا فى رد شىء منه بعد أن ذهبنا به . والاستثناء بقوله : ﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ إن كان متصلا فمعناه : إلا أن يرحمك ربك فلا نذهب به ، وإن كان منقطعا فمعناه : لكن لا يشاء ذلك رحمة من ربك ، أو لكن رحمة من ربك تركته غير مذهب به ﴿ إن فضله كان عليك كبيرا ﴾ حيث جعلك رسولا وأنزل عليك الكتاب وصيرك سيد ولد آدم ، وأعطاك المقام المحمود وغير ذلك مما أنعم به عليه .

ثم احتج سبحانه على المشركين بإعجاز القرآن فقال : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ﴾ المنزل من عند الله الموصوف بالصفات الجليلة من كمال البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ ﴿ لا يأتون بمثله ﴾ أظهر فى مقام الإضمار ، ولم يكتف بأن يقول : لا يأتون به على أن الضمير راجع إلى المثل المذكور ، لدفع توهم أن يكون له مثل معين ، وللإشعار بأن المراد نفى المثل على أى صفة كان ، وهو جواب قسم محذوف كما تدل عليه اللام الموطئة ، وساد مسد جواب الشرط ، ثم أوضح سبحانه عجزهم عن المعارضة سواء كان المتصدى لها كل واحد منهم على الانفراد ، أو كان المتصدر بها المجموع بالمظاهرة فقال : ﴿ ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ أى عوناً ونصيراً ، وجواب « لو » محذوف ، والتقدير : ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا لا يأتون بمثله ، فثبت أنهم لا يأتون بمثله على كل حال وقد تقدم وجه إعجاز القرآن فى أوائل سورة البقرة ، وفى هذه الآية رد لما قاله الكفار : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ [الأنفال : ٣١] ، وإكذاب لهم .

ثم بين سبحانه أن الكفار مع عجزهم عن المعارضة استمروا على كفرهم وعدم إيمانهم فقال: ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أى رددنا القول فيه بكل مثل يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي وأقاصيص الأولين والجنة والنار والقيامة ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ يعنى : من أهل مكة ، فإنهم جحدوا وأنكروا كون القرآن كلام الله بعد قيام الحجة عليهم ، واقترحوا من الآيات ما ليس لهم ، وأظهر فى مقام الإضمار حيث قال : ﴿ فأبى أكثر الناس ﴾ توكيدا أو توضيحا ، ولما كان ﴿ أبى ﴾ مؤولا بالنفى ، أى ما قبل ، أو لم يرض ، صح الاستثناء منه قوله : ﴿ إلا كفورا ﴾ .

﴿ وقالوا لن نؤمن لك ﴾ أى قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابني ربيعة وأبى سفيان والنضر ابن الحارث ، ثم علقوا نفى إيمانهم بغاية طلبوها فقالوا : ﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ﴿ حتى تفجر ﴾ مخففا ، مثل : تقتل . وقرأ الباقر بالتشديد ، ولم يختلفوا فى ﴿ فتفجر الأنهار ﴾ أنها مشددة ، ووجه ذلك أبو حاتم بأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد ، والثانية بعدها الأنهار وهو جمع . وأجيب عنه : بأن ينبوع وإن كان واحدا فى اللفظ فالمراد به الجمع ، فإن ينبوع العيون التى لا تنضب . ويرد بأن ينبوع : عين الماء والجمع : ينباع ، وإنما يقال للعين ينبوع : إذا كانت غزيرة من شأنها النبوع من غير انقطاع ، والياء زائدة كيعبوب ، من عب الماء .

﴿ أو تكون لك جنة ﴾ أى بستان تستر أشجاره أرضه . والمعنى : هب أنك لا تفجر الأنهار لأجلنا ففجرها من أجلك بأن تكون لك جنة ﴿ من نخيل وعنبتفجر الأنهار ﴾ أى تجريها بقوة ﴿ خلالها تفجيرا ﴾ أى وسطها تفجيرا كثيرا ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ﴾ قرأ مجاهد : « أو تسقط » مسندا إلى السماء . وقرأ من عده : ﴿ أو تسقط ﴾ على الخطاب ، أى أو تسقط أنت يا محمد السماء . والكسف بفتح السين جمع كسفة ، وهى قراءة نافع وابن عامر وعاصم ، والكسفة : القطعة . وقرأ الباقر : « كسفا » بإسكان السين . قال الأخفش : من قرأ بإسكان السين جعله واحدا ومن قرأ بفتحها جعله جمعا . قال المهدوى : ويجوز أن يكون على قراءة السكون جمع كسفة ، ويجوز أن يكون مصدرا . قال الجوهري : الكسفة : القطعة من الشيء ، يقال : أعطنى كسفة من ثوبك ، والجمع : كِسْفٌ و كِسْفٌ ويقال : الكسف والكسفة واحد ، وانتصاب ﴿ كسفا ﴾ على الحال ، والكاف فى ﴿ كما زعمت ﴾ فى محل نصب على أنه صفة مصدر محذوف ، أى إسقاطا مماثلا لما زعمت ، يعنون بذلك قول الله سبحانه : ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ﴾ [سبا : ٩] . قال أبو على : الكسف بالسكون : الشيء المقطوع ، كالطحن للمطحون ، واشتقاقه على ما قال أبو زيد من كسفت الثوب كسفا : إذا قطعته . وقال الزجاج : من كسفت الشيء : إذا غطيته ، كأنه قيل : أوتسقطها طبقا علينا ﴿ أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ﴾ . اختلف المفسرون فى معنى ﴿ قبيلا ﴾ : فقيل : معناه : معاينة ، قاله قتادة وابن جريج ،

واختاره أبو على الفارسي فقال : إذا حملته على المعينة كان القبيل مصدرا كالنكير والنذير .
وقيل : معناه : كفيلا ، قاله الضحاك . وقيل : شهيدا ، قاله مقاتل . وقيل : هو جمع
القبيلة ، أى تأتى بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة ، قاله مجاهد وعطاء . وقيل : ضمنا . وقيل :
مقابلا كالعشير والمعاشر .

﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ أى من ذهب ، وبه قرأ ابن مسعود ، وأصله : الزينة ،
والزخرف : المزين ، وزخارف الماء : طرائقه . وقال الزجاج : هو الزينة ، فرجع إلى الأصل
معنى الزخرف ، وهو بعيد ؛ لأنه يصير المعنى : أو يكون لك بيت من زينة ﴿ أو ترقى فى
السماء ﴾ أى تصعد فى معارجها ، يقال : رقيت فى السلم : إذا صعدت وارتقيت . مثله :
﴿ ولن تؤمن لرقيق ﴾ أى لأجل رقيق ، وهو مصدر نحو : مضى يمضى مضيا ، وهوى يهوى
هويا ﴿ حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ﴾ أى حتى تنزل علينا من السماء كتابا يصدقك ويدل على
نبوتك نقرؤه جميعا ، أو يقرؤه كل واحد منا . وقيل : معناه : كتابا من الله إلى كل واحد
منا فى قوله : ﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة ﴾ [المدثر : ٥٢] . فأمر
سبحانه رسوله ﷺ أن يأتى بما يفيد التعجب من قولهم ، والتنزيه للربّ سبحانه عن اقتراحاتهم
القييحة فقال : ﴿ قل سبحان ربي ﴾ أى تنزيهاً لله عن أن يعجز عن شيء . وقرأ أهل مكة
والشام : « قال سبحان ربي » يعنى : النبى ﷺ ﴿ هل كنت إلا بشرا ﴾ من البشر لا ملكا
حتى أصعد السماء ﴿ رسولا ﴾ مأمورا من الله سبحانه بإبلاغكم ، فهل سمعتم أيها المقترحون
لهذه الأمور أن بشرا قدر على شيء منها ؟ وإن أردتم أنى أطلب ذلك من الله سبحانه حتى
يظهرها على يدي ، فالرسول إذا أتى بمعجزة واحدة كفاه ذلك ، لأن بها يتبين صدقه ، ولا
ضرورة إلى طلب الزيادة ، وأنا عبد مأمور ليس لى أن أتحكم على ربي بما ليس بضرورى ،
ولا دعت إليه حاجة ، ولو لزمتمنى الإجابة لكل متعنت لاقتراح كل معاند فى كل وقت
اقتراحات ، وطلب لنفسه إظهار آيات ، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، وتنزه عن
تعتاتهم ، وتقصد عن اقتراحاتهم .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم
والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال : إن
هذا القرآن سيرف ، قيل : كيف يرفع وقد أثبتته الله فى قلوبنا وأثبتناه فى المصاحف ؟ قال :
يسرى عليه فى ليلة واحدة فلا يترك منه آية فى قلب ولا مصحف إلا رفعت ، فتصيحون وليس
فيكم منه شيء ، ثم قرأ : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ﴾ وقد روى عنه هذا من
طرق (١) . وأخرج ابن عدى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه . وأخرج محمد بن نصر عن عبد الله

(١) ابن أبى شيبة (١٠٢٤٢ ، ١٩٤٣١) وابن جرير ١٥ / ١٠٦ والطبرانى (٨٦٩٨ ، ٨٦٩٩ ، ٨٧٠٠) وقال
الهيثمى فى المجمع ٧ / ٥٤ ، ٥٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل
وهو ثقة » .

ابن عمرو نحوه موقوفا .. وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن معاذ بن جبل مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج ابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن أبي هريرة موقوفا نحوه أيضا . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن حذيفة بن اليمان مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر مرفوعا نحوه .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ محمود بن شيحان ونعيمان بن آصى وبحرى بن عمرو وسلام بن مشكم ، فقالوا: أخبرنا يا محمد بهذا الذى جئت به أحق من عند الله ، فإننا لا نراه متناسقا كما تناسق التوراة ؟ فقال لهم : « والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله » ، قالوا : إنا نجيثك بمثل ما تأتى به ، فأنزل الله : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن ﴾ الآية (١) .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ؛ أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب ، ورجلا من بنى عبد الدار وأبا البختري أخا بنى أسيد والأسود بن عبد المطلب وربيعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونيها ومنها ابني الحجاج السهميين اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه ، وذكر حديثا طويلا يشتمل على ما سأله عنه وتعتوه ، وأن ذلك كان سبب نزول قوله : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك ﴾ إلى قوله : ﴿ بشرا رسولا ﴾ (٢) . وإسناده عند ابن جرير هكذا : حدثنا أبو كريب حدثنا يونس بن بكير حدثنا محمد بن إسحاق حدثني شيخ من أهل مصر، قدم منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة عن ابن عباس فذكره ، ففيه هذا الرجل المجهول . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك ﴾ قال : نزلت في أخى أم سلمة عبد الله بن أبي أمية (٣) . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ ينبوعا ﴾ قال : عيونا . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى قال : الينبوع : هو النهر الذى يجرى من العين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أو تكون لك جنة ﴾ يقول : ضيعة . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ كسفا ﴾ قال : قطعا . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا : ﴿ قبيلة ﴾ قال : عيانا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا : ﴿ من زخرف ﴾ قال : من ذهب . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري وأبو نعيم عن مجاهد قال : لم أكن أحس ما الزخرف ؟ حتى سمعتها في قراءة عبد الله : « أو يكون لك بيت من ذهب » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ كتابا نقرؤه ﴾ قال :

(١) ابن إسحاق ٢/ ٢١١ ، ٢١٢ وابن جرير ١٥/ ١٠٦ ، ١٠٧ . « وفي هذا نظر لأن هذه السورة مكية وسياتها

كله مع قریش ، واليهود إنما اجتمعوا به في المدينة فالله أعلم » . عن ابن كثير ٤/ ٣٤٨ .

(٢) ابن إسحاق ١/ ٣٢٤ وابن جرير ١٥/ ١١٠ . (٣) ابن جرير ١٥/ ١١١ .

من رب العالمين إلى فلان بن فلان . يصبح عند كل رجل صحيفة عند رأسه موضوعة يقرؤها .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاءُ هُمُ بَأْنَهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَافًا أَتَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠) ﴿

حكى سبحانه عنهم شبهة أخرى قد تكرر في الكتاب العزيز التعرض لإيرادها وردّها في غير موضع فقال : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا ﴾ المراد : الناس على العموم . وقيل : المراد : أهل مكة على الخصوص ، أى ما منعهم الإيمان بالقرآن ونبوة محمد ﷺ وهو المفعول الثانى لمنع ، ومعنى ﴿ إذ جاءهم الهدى ﴾ : أنه جاءهم الوحي من الله سبحانه على رسوله ، وبين ذلك لهم وأرشدهم إليه ، وهو ظرف لـ ﴿ منع ﴾ أو ﴿ يؤمنوا ﴾ أى ما منعهم وقت مجيء الهدى أن يؤمنوا بالقرآن والنبوة ﴿ إلا أن قالوا ﴾ أى ما منعهم إلا قولهم ، فهو فى محل رفع على أنه فاعل منع ، والهمزة فى ﴿ أبعث الله بشرا رسولا ﴾ للإنكار منهم أن يكون الرسول بشرا ، والمعنى : أن هذا الاعتقاد الشامل لهم ، وهو إنكار أن يكون الرسول من جنس البشر ، هو الذى منعهم عن الإيمان بالكتاب وبالرسول ، وعبر عنه بالقول ؛ للإشعار بأنه ليس إلا مجرد قول قالوه بأفواههم .

ثم أمر رسوله ﷺ أن يجيب عن شبهتهم هذه فقال : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ﴾ أى لو وجد وثبت أن فى الأرض بدل من فيها من البشر ، ملائكة يمشون على الأقدام كما يمشى الإنس مطمئنين مستقرين فيها ساكنين بها . قال الزجاج : ﴿ مطمئنين ﴾ : مستوطنين فى الأرض ، ومعنى الطمأنينة : السكون ، فالمراد هاهنا : المقام والاستيطان ، فإنه يقال : سكن البلد فلان : إذا أقام فيها وإن كان ماشيا متقلبا فى حاجاته ﴿ لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ حتى يكون من جنسهم ، وفيه إعلام من الله سبحانه بأن الرسل ينبغي أن تكون من جنس المرسل إليهم ، فكانه سبحانه اعتبر فى تنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين : الأول : كون سكان الأرض ملائكة . والثانى : كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء ، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها ، وسمعوا من

أهلها ما يجب معرفته وسماعه فلا يكون في بعثة الملائكة إليهم فائدة . وانتصاب ﴿ بشرا ﴾ و ﴿ ملكا ﴾ على أنهما مفعولان للفعلين ، و ﴿ رسولا ﴾ في الموضعين وصف لهما . وجوز صاحب الكشف أن يكونا حالين في الموضعين من ﴿ رسولا ﴾ فيهما وقواه صاحب الكشف^(١) ، ولعل وجه ذلك أن الإنكار يتوجه إلى الرسول المتصف بالبشرية في الموضع الأول ، فيلزم بحكم التقابل أن يكون الآخر كذلك .

ثم ختم الكلام بما يجرى مجرى التهديد ، فقال : ﴿ قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ﴾ أى قل لهم يا محمد من جهتك : كفى بالله وحده شهيدا على إبلاغي إليكم ما أمرني به من أمور الرسالة ، وقال : ﴿ بيني وبينكم ﴾ ولم يقل : بيننا ؛ تحقيقا للمفارقة الكلية . وقيل : إن إظهار المعجزة على وفق دعوى النبي شهادة من الله له على الصدق ، ثم علل كونه سبحانه شهيدا كافيا بقوله : ﴿ إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾ أى عالما بجميع أحوالهم محيطا بظواهرها وبواطنها بصيرا بما كان منها وما يكون .

ثم بين سبحانه أن الإقرار والإنكار مستندان إلى مشيئته فقال : ﴿ ومن يهد الله فهو المهتدى ﴾ أى من يرد الله هدايته فهو المهتدى إلى الحق أو إلى كل مطلوب ﴿ ومن يضلل ﴾ أى يرد إضلاله ﴿ فلن تجد لهم أولياء ﴾ ينصرونهم ﴿ من دونه ﴾ يعنى الله سبحانه ويهدونهم إلى الحق الذى أضلهم الله عنه أو إلى طريق النجاة ، وقوله : ﴿ فهو المهتدى ﴾ حملا على لفظ من ، وقوله : ﴿ فلن تجد لهم ﴾ حملا على المعنى ، والخطاب فى قوله : ﴿ فلن تجد ﴾ إما للنبي ﷺ ، أو لكل من يصلح له ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ هذا الحشر على الوجوه فيه وجهان للمفسرين : الأول : أنه عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم ، من قول العرب : قد مر القوم على وجوههم : إذا أسرعوا . الثانى : أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم حقيقة كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى إهائته وتعذيبه ، وهذا هو الصحيح ، لقوله تعالى : ﴿ يوم يسحبون فى النار على وجوههم ﴾ [القمر : ٤٨] ، ولما صح فى السنة كما سيأتى ، ومحل ﴿ على وجوههم ﴾ النصب على الحال من ضمير المفعول . و ﴿ عميا ﴾ منتصب على الحال ﴿ وبكما وصما ﴾ معطوفان عليه . والأبكم : الذى لا ينطق . والأصم : الذى لا يسمع ، وهذه هيئة يبعثون عليها فى أقبح صورة ، وأشنع منظر ، قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم ، ثم من وراء ذلك ﴿ مأواهم جهنم ﴾ أى المكان الذى يأوون إليه ، والجملة فى محل نصب على الحال أو هى مستأنفة لا محل لها ﴿ كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾ أى كلما سكن لها ، يقال : خبت النار تخبو خبوا : إذا خمدت وسكن لها . قال ابن قتيبة : ومعنى ﴿ زدناهم سعيرا ﴾ : تسعرا ، وهو التلهب . وقد قيل : إن فى خبو النار تخفيفا لعذاب أهلها ، فكيف يجمع بينه وبين قوله : ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ [البقرة : ١٦٢] ؟ وأجيب بأن المراد بعدم التخفيف : أنه لا يتخلل زمان

محسوس بين الخبو والتسعر . وقيل : إنها تخبو من غير تخفيف عنهم من عذابها .

﴿ ذلك ﴾ أى العذاب ﴿ جزاؤهم ﴾ الذى أوجبه الله لهم واستحقوه عنده ، والباء فى قوله : ﴿ بأنهم كفروا بآياتنا ﴾ للسببية ، أى بسبب كفرهم بها فلم يصدقوا بالآيات التنزيلية ، ولا تفكروا فى الآيات التكوينية ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره ﴿ جزاؤهم ﴾ و ﴿ بأنهم كفروا ﴾ خبر آخر ، ويجوز أن يكون ﴿ جزاؤهم ﴾ مبتدأ ثانياً ، وخبره ما بعده ، والجملة خبر المبتدأ الاول ﴿ وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا ﴾ الهمزة للإنكار ، وقد تقدم تفسير الآية فى هذه السورة ، و ﴿ خلقا ﴾ فى قوله : ﴿ إنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾ مصدر من غير لفظه أو حال ، أى مخلوقين . فجاء سبحانه بحجة تدفعهم عن الإنكار وتردهم عن الجحود . فقال : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ﴾ أى من هو قادر على خلق هذا ، فهو على إعادة ما هو دون منه أقدر . وقيل : المراد : أنه قادر على إفنائهم وإيجاد غيرهم ، وعلى القول الاول يكون الخلق بمعنى الإعادة ، وعلى هذا القول هو على حقيقته ، وجملة : ﴿ وجعل لهم أجلا لا ريب فيه ﴾ عطف على ﴿ أو لم يروا ﴾ . والمعنى : قد علموا بدليل العقل ، أن من قدر على خلق السموات والأرض ، فهو قادر على خلق أمثالهم ، لأنهم ليسوا بأشد خلقا منهم كما قال : ﴿ أنتم أشد خلقا أم السماء ﴾ [النازعات : ٢٧] . ﴿ وجعل لهم أجلا لا ريب فيه ﴾ وهو الموت أو القيامة ، ويحتمل أن تكون الواو للاستئناف . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، أى أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض وجعل لهم أجلا لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم ﴿ فأبى الظالمون إلا كفورا ﴾ أى أبى المشركون إلا جحودا ، وفيه وضع الظاهر موضع المضمحل عليهم بالظلم ومجاوزة الحد .

ثم لما وقع من هؤلاء الكفار طلب إجراء الأنهار والعيون فى أراضيهم لتتسع معاشهم ، بين الله سبحانه أنهم لا يقنعون ، بل يبقون على بخلهم وشحهم فقال : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي ﴾ : ﴿ أنتم ﴾ مرتفع على أنه فاعل فعل محذوف يفسره ما بعده ، أى لو تملكون أنتم تملكون على أن الضمير المنفصل مبدل من الضمير المتصل وهو الواو ، وخزائن رحمته سبحانه : هى خزائن الأرزاق . قال الزجاج : أعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لأمسكوا شحاً وبخلأ ، وهو خشية الإنفاق ، أى خشية أن ينفقوا فيفتقروا ، وفى حذف الفعل الذى ارتفع به أنتم ، وإيراد الكلام فى صورة المبتدأ والخبر دلالة على أنهم هم المختصون بالشح . قال أهل اللغة : أنفق وأصرم وأعدم وأقتر بمعنى : قل ماله ، فيكون المعنى : لأمسكنم خشية قل المال ﴿ وكان الإنسان قتورا ﴾ أى بخيلا مضيقا عليه . يقال : قتر على عياله يقتر ويقتر قترا وقتورا : ضيق عليهم فى النفقة ، ويجوز أن يراد : وكان الإنسان قتورا ، أى قليل المال ، والظاهر : أن المراد : المبالغة فى وصفه بالشح ، لأن الإنسان ليس بقليل المال على العموم . بل بعضهم كثير المال ، إلا أن يراد أن جميع النوع الإنسانى قليل المال بالنسبة إلى خزائن الله وما عنده . وقد اختلف فى هذه الآية على قولين : أحدهما : أنها نزلت فى

المشركين خاصة ، وبه قال الحسن . والثاني : أنها عامة وهو قول الجمهور ، حكاه الماوردي .
وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قيل : يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال : «الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم» (١) .
وأخرج أبو داود ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنف مشاة ، وصنف ركبانا ، وصنف على وجوههم » ثم ذكر نحو حديث أنس (٢) . وفى الباب أحاديث .
وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، فى قوله : « ماواههم جهنم » قال : يعنى : أنهم وقودها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عنه فى قوله : « كلما خبت » قال : سكنت . وأخرج هؤلاء عنه أيضا فى الآية قال : كلما أحرقتهم سعرتهم خطبا ، فإذا أحرقتهم فلم يبق منهم شئ صارت جمرا تتوهج فذلك خبوها ، فإذا بدلوا خلقا جديدا عاودتهم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله : « خزائن رحمة ربى » قال : الرزق . وأخرج أيضا عن عكرمة فى قوله : « إذا لأمسكم خشية الإنفاق » قال : إذا ما أطعتم أحدا شيئا .
وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : « خشية الإنفاق » قال : الفقر « وكان الإنسان قتورا » قال : بخيلا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة « خشية الإنفاق » قال : خشية الفاقة « وكان الإنسان قتورا » قال : بخيلا ممسكا .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْأَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِزْرُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) ﴾

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٦٠) وفى الرقاق (٦٥٢٣) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨٠٦ / ٥٤) وابن جرير ٩ / ١٨ .

(٢) أبو داود الطيالسى (٢٥٦٦) والترمذى فى التفسير (٣١٤٢) وقال : « حديث حسن » وابن جرير ٩ / ١٨ والبيهقى فى الشعب (٣٥٣) من طريق على بن زيد بن جدعان ، وهو ضعيف وليس بالقوى .

قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات ﴾ أى علامات دالة على نبوته . قيل : ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن المعجزات المذكورة كأنها مساوية لتلك الأمور التي اقترحها كفار قريش ، بل أقوى منها ، فليس عدم الاستجابة لما طلبوه من الآيات إلا لعدم المصلحة في استئصالهم إن لم يؤمنوا بها . قال أكثر المفسرين : الآيات التسع : هي الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، واليد ، والسنين ، ونقص الثمرات . وجعل الحسن مكان السنين ونقص الثمرات البحر والجبل . وقال محمد بن كعب القرظي : هي الخمس التي في الأعراف ، والبحر ، والعصا ، والحجر ، والطمس على أموالهم . وقد تقدم الكلام على هذه الآيات مستوفى ، وسيأتى حديث صفوان بن عسال في تعداد هذه الآيات التسع .

﴿ فاسأل بنى إسرائيل ﴾ قرأ ابن عباس وابن نهيك : « فسأل » على الخبر ، أى سأل موسى فرعون أن يخلى بنى إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه ، وقرأ الآخرون : ﴿ فاسأل ﴾ على الأمر ، أى سلهم يا محمد حين ﴿ جاءهم ﴾ موسى ، والسؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينة والإيقان ، لأن الأدلة إذا تضافرت كان ذلك أقوى . والمسؤولون : مؤمنو بنى إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا ﴾ الفاء هي الفصيحة ، أى فأظهر موسى عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلغه ما أرسل به فقال له فرعون . المسحور : الذى سحر فخلوط عقله . وقال أبو عبيدة والفراء : هو بمعنى الساحر ، فوضع المفعول موضع الفاعل ، فـ ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء ﴾ يعنى : الآيات التي أظهرها ، وأنزل بمعنى : أوجد ﴿ إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ أى دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته ، وانتصاب ﴿ بصائر ﴾ على الحال . قرأ الكسائي بضم التاء من : « علمت » على أنها لموسى ، وروى ذلك عن على ، وقرأ الباقر بفتحها على الخطاب لفرعون . ووجه القراءة الأولى أن فرعون لم يعلم ذلك ، وإنما علمه موسى . ووجه قراءة الجمهور أن فرعون كان عالما بذلك كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ [النمل : ١٤] . قال أبو عبيد : المأخوذ به عندنا فتح التاء ، وهو الأصح للمعنى ، لأن موسى لا يقول : علمت أنا وهو الداعى ، وروى نحو هذا عن الزجاج ﴿ وإني لأظنك يا فرعون مشبورا ﴾ الظن هنا بمعنى اليقين ، والنبور : الهلاك والخسران . قال الكميت :

ورأت قضاة في الأيا من رأى مشبور وثابر

أى مخسور وخاسر . وقيل : المشبور : الملعون ، ومنه قول الشاعر :

يا قومنا لا تروموا حربنا ^(١) سفهاً إن السفاه وإن البغى مشبور

أى ملعون ، وقيل : المشبور : ناقص العقل . وقيل : هو المنوع من الخير ، يقال : ما تبرك عن كذا : ما منعك منه ، حكاه أهل اللغة . وقيل : المسحور .

(١) في المخطوطة : « حزينا » ، وفي القرطبي : « حربنا » وهو الموافق للمعنى . والشاعر هو : أبان بن تغلب .

﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض ﴾ أى أراد فرعون أن يخرج بنى إسرائيل وموسى ويزعجهم من الأرض ، معنى : أرض مصر بإبعادهم عنها . وقيل : أراد أن يقتلهم . وعلى هذا يراد بالأرض مطلق الأرض ، وقد تقدم قريباً معنى الاستفزاز ﴿ فأغرقناه ومن معه جميعاً ﴾ فوقع عليه وعليهم الهلاك بالغرق ، ولم يبق منهم أحداً ﴿ وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض ﴾ أى من بعد إغراقه ومن معه ، والمراد بالأرض هنا : أرض مصر التى أراد أن يستفزهم منها ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ أى الدار الآخرة وهو القيامة ، أو الكرة الآخرة ، أو الساعة الآخرة ﴿ جئنا بكم لفيفاً ﴾ قال الجوهري : اللفيف : ما اجتمع من الناس من قبائل شتى ، يقال : جاء القوم بلفهم ولفيفهم ، أى بأخلائهم ، فالمراد هنا : جئنا بكم من قبوركم مختلطين من كل موضع ، قد اختلط المؤمن بالكافر . قال الأصمعى : اللفيف جمع وليس له واحد ، وهو مثل الجمع .

﴿ وبالحق أنزلناه وبحلق نزل ﴾ الضمير يرجع إلى القرآن ، ومعنى ﴿ بالحق أنزلناه ﴾ : أوحيناه متلبساً بالحق . ومعنى ﴿ وبحلق نزل ﴾ : أنه نزل وفيه الحق . وقيل : الباقي ، وبحلق الأول بمعنى : مع ، أى مع الحق أنزلناه كقولهم ركب الأمير بسيفه ، أى مع سيفه ، و ﴿ بالحق نزل ﴾ أى بمحمد ، كما تقول : نزلت بزيد . وقال أبو على الفارسي : الباء فى الموضعين بمعنى : مع . وقيل : يجوز أن يكون المعنى : وبحلق قدرنا أن ينزل وكذلك نزل ، أو : ما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً ، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً من تخليط الشياطين ، والتقديم فى الموضعين للتخصيص ﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ أى مبشراً لمن أطاع بالجنة ونذيراً مخوفاً لمن عصى بالنار .

﴿ وقرآنا فرقناه ﴾ انتصاب ﴿ قرآنا ﴾ بفعل مضمر يفسره ما بعده . قرأ على وابن عباس وابن مسعود وأبى بن كعب وقتادة وأبو رجاء والشعبى : « فرقناه » بالتشديد ، أى أنزلناه شيئاً بعد شيء لا جملة واحدة . وقرأ الجمهور : ﴿ فرقناه ﴾ بالتخفيف ، أى بيناه وأوضحناه ، وفرقنا فيه بين الحق والباطل . وقال الزجاج : فرقه فى التنزيل ليفهمه الناس . قال أبو عبيد : التخفيف أعجب إلى ، لأن تفسيره بيناه ، وليس للتشديد معنى إلا أنه نزل متفرقاً . ويؤيده ما رواه ثعلب عن ابن الأعرابى أنه قال : فرقت مخففاً بين الكلام ، وفرقت مشدداً بين الأجسام ، ثم ذكر سبحانه العلة لقوله : فرقناه ، فقال : ﴿ لتقرأه على الناس على مكث ﴾ أى على تطاول فى المدة شيئاً بعد شيء على القراءة الأولى ، أو أنزلناه آية آية ، وسورة سورة . ومعناه على القراءة الثانية . ﴿ على مكث ﴾ أى على ترسل وتهمهل فى التلاوة ، فإن ذلك أقرب إلى الفهم وأسهل للحفظ . وقد اتفق القراء على ضم الميم فى : ﴿ مكث ﴾ إلا ابن محيصن فإنه قرأ بفتح الميم ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ التأكيد بالمصدر للمبالغة ، والمعنى : أنزلناه منجماً مفرقاً لما فى ذلك من المصلحة ، ولو أخذوا بجميع الفرائض فى وقت واحد لنفروا ولم يطبقوا .

﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقول للكافرين المقترحين للآيات: آمنوا به أو لا تؤمنوا ، فسواء إيمانكم به وامتناعكم عنه لا يزيد ذلك ولا ينقصه . وفى هذا وعيد شديد لأمره ﷺ بالإعراض عنهم واحتقارهم ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله ﴾ أى أن العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة قبل إنزال القرآن وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام: ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ أى القرآن ﴿ يخرون للأذقان سجدا ﴾ أى يسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه . وإنما قيد الخرور ، وهو السقوط ، بكونه للأذقان ، أى عليها ؛ لأن الذقن ، وهو مجتمع اللحيين أول ما يحاذى الأرض . قال الزجاج : لأن الذقن مجتمع اللحيين ، وكما يتدنى الإنسان بالخرور للسجود ، فأول ما يحاذى الأرض به من وجهه الذقن . وقيل : المراد : تعفير اللحية فى التراب ، فإن ذلك غاية الخضوع ، وإيثار اللام فى للأذقان على « على » للدلالة على الاختصاص ، فكأنهم خصوا أذقانهم بالخرور ، أو خصوا الخرور بأذقانهم . وقيل : الضمير فى قوله : ﴿ من قبله ﴾ راجع إلى النبي ﷺ ، والأولى ما ذكرناه من رجوعه إلى القرآن لدلالة السياق على ذلك ، وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ . وحاصلها : أنه إن لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لا علم عندهم ولا معرفة بكتب الله ولا بأنبيائه ، فلا تبال بذلك ، فقد آمن به أهل العلم وخشعوا له وخضعوا عند تلاوته عليهم خضوعاً ظهر أثره البالغ بكونهم يخرون على أذقانهم سجدا لله .

﴿ ويقولون سبحان ربنا ﴾ أى يقولون فى سجودهم تنزيها لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب ، أوتنزيها له عن خلف وعده ﴿ إن كان وعد ربنا لمفعولا ﴾ « إن » هذه هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة . ثم ذكر أنهم خروا لأذقانهم باكين فقال : ﴿ ويخرون للأذقان يكون ﴾ وكرّر ذكر الخرور للأذقان ؛ لاختلاف السبب ، فإن الأول لتعظيم الله سبحانه وتنزيهه . والثانى : للبكاء بتأثير مواظ القرآن فى قلوبهم ومزيد خشوعهم ولهذا قال : ﴿ ويزيدهم ﴾ أى سماع القرآن ، أو القرآن بسماعهم له ﴿ خشوعا ﴾ أى لين قلب ورطوبة عين .

وقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ تسع آيات ﴾ فذكر ما ذكرناه عن أكثر المفسرين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : يده ، وعصاه ، ولسانه ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . وأخرج الطيالسى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبه وأحمد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن قانع ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم والبيهقى وابن مردويه عن صفوان بن عسال ؛ أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبی نسأله ، فأتياه فسألاه عن قول الله : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ فقال : « لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تزنوا ، ولا تسرفوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تسرقوا ، ولا تسحرُوا ، ولا تمشوا ببرىء إلى

سلطان فيقتله ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا محصنة - أو قال : لا تفروا من الزحف - شك شعبة - وعليكم يا يهود خاصة أن لا تعتدوا في السبت » ، فقبلا يديه ورجليه وقال : نشهد أنك نبي الله ، قال : « فما يمنعكما أن تسلما ؟ » قال : إن داود دعا الله أن يزداد في ذريته نبي ، وإنا نخاف أن أسلمنا أن يقتلنا اليهود (١) .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن أنس بن مالك أنه سئل عن قوله : ﴿ وإني لأظنك يا فرعون مشبورا ﴾ قال : مخالفا ، وقال : الأنبياء أكرم من أن تلعن أو تسب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس مشبورا قال : ملعونا . وأخرج الشيرازي في الألقاب وابن مردويه عنه قال : قليل العقل . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ﴿ لفيقا ﴾ قال : جميعا . وأخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس : أنه قرأ : « وقرآنا فرقناه » مثقلا قال : نزل القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر من رمضان جملة واحدة ، فكان المشركون إذا أحدثوا شيئا أحدث الله لهم جوابا ، ففرقه الله في عشرين سنة (٢) . وقد روى نحو هذا عنه من طرق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا ﴿ فرقناه ﴾ قال : فصلناه على مكث بآمد ﴿ يخرون للأذقان ﴾ يقول : للوجوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ قال : كتابهم .

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) ﴾ .

أراد سبحانه أن يعلم عباده كيفية الدعاء والخشوع فقال : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ ومعناه : أنهما مستويان في جواز الإطلاق وحسن الدعاء بهما ، ولهذا قال : ﴿ أيما ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ التنوين في « أيما » عوض عن المضاف إليه ، و « ما » مزيدة لتوكيد الإبهام في : « أيما » والضمير في « له » راجع إلى المسمى ، وكان أصل الكلام : أيما ما تدعوا فهو حسن ، فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة ، وللدلالة على أنها إذا حسنت أسماؤه

(١) أبو داود الطيالسي (١١٦٤) وابن أبي شيبة (١٨٣٩٢) وأحمد ٢٣٩ / ٤ ، ٢٤٠ والترمذي في الاستئذان (٢٧٣٣) وفي التفسير (٣١٤٤) وقال : « حسن صحيح » والنسائي ١١١ / ٧ وابن ماجه في الأدب (٣٧٠٥) مختصرا وابن جرير ١١٥ / ١٥ والطبراني (٧٣٩٦) وصححه الحاكم ٩ / ١ وقال : « لم نعرف له علة » ووافقه الذهبي ، وأبو نعيم في الحلية ٩٧ / ٥ ، ٩٨ والبيهقي في الدلائل ٢٦٨ / ٦ . وقال ابن كثير ٣٥٧ / ٤ : « هو حديث مشكل ، وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء وقد تكلموا فيه ، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات فإنها وصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون . والله أعلم » .

(٢) النسائي في التفسير (٣٩٢) وابن جرير ١١٩ / ١٥ وصححه الحاكم ٢٢٢ / ٢ ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الدلائل ١٣١ / ٧ ، ١٣٢ .

كلها حسن هذان الإسمان ، ومعنى حسن الأسماء : استقلالها بنعوت الجلال والإكرام ، ذكر معنى هذا النيسابورى وتبعه أبو السعود . قال الزجاج : أعلمهم الله أن دعاءهم الله ودعاءهم الرحمن يرجعان إلى قول واحد ، وسيأتى ذكر سبب نزول الآية ، وبه يتضح المراد منها . ثم ذكر كيفية أخرى للدعاء فقال : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ أى بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بأن الجهر والمخافتة من نعوت الصوت ، لا من نعوت أفعال الصلاة ، فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء ، يقال : خفت صوته خفوتا : إذا انقطع كلامه وضعف وسكن ، وخفت الزرع إذا ذبل ، وخافت الرجل بقراءته : إذا لم يرفع بها صوته . وقيل : معناه : لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها ، والأول أولى ﴿ وابتغ بين ذلك ﴾ أى الجهر والمخافتة المدلول عليها بالفعلين ﴿ سبيلا ﴾ أى طريقا متوسطا بين الأمرين فلا تكن مجهورة ولا مخافتا بها ، وعلى التفسير الثانى يكون معنى ذلك : النهى عن الجهر بقراءة الصلوات كلها ، والنهى عن المخافتة بقراءة الصلوات كلها ، والأمر بجعل البعض منها مجهورا به ، وهو صلاة الليل والمخافتة بصلاة النهار . وذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴾ [الأعراف : ٥٥] .

ولما أمر ألا يذكر ولا ينادى إلا بأسمائه الحسنى نبه على كيفية الحمد له فقال : ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ﴾ كما تقول اليهود والنصارى ، ومن قال من المشركين : إن الملائكة بنات الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿ ولم يكن له شريك فى الملك ﴾ أى مشارك له فى ملكه وربوبيته ، كما تزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة ﴿ ولم يكن له ولى من الذل ﴾ أى لم يحتج إلى موالة أحد لذل يلحقه فهو مستغن عن الولى والنصير . قال الزجاج : أى لم يحتج أن ينتصر بغيره ، وفى التعرض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيدان بأن المستحق للحمد من له هذه الصفات ، لأنه القادر على الإيجاد وإفاضة النعم ، لكون الولد مجبنة ومبخله ، ولأنه أيضا يستلزم حدوث الأب ، لأنه متولد من جزء من أجزائه ، والمحدث غير قادر على كمال الإنعام ، والشركة فى الملك إنما تتصور لمن لا يقدر على الاستقلال به ، ومن لا يقدر على الاستقلال عاجز فضلا عن تمام ما هو له ، فضلا عن نظام ما هو عليه ، وأيضا الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين ، فقد يمنعه الشريك من إفاضة الخير إلى أوليائه ومؤدية إلى الفساد : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] . والمحتاج إلى ولى يمنعه من الذل وينصره على من أراد إذلاله ، ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغنى بنفسه ﴿ وكبره تكبرا ﴾ أى عظمه تعظيماً ، وصفه بأنه أعظم من كل شيء .

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : صلى رسول الله ﷺ بمكة ذات

يوم فقال في دعائه : « يا الله ، يا رحمن » ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابئ ، ينهانا أن ندعو لإلهين ، وهو يدعو لإلهين ، فأنزل الله : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ الآية (١) .
وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي قال : إن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الرحمن ، وكان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمن ، فتزلت الآية ، وهو مرسل . وأخرج ابن جرير عن مكحول ، أن النبي ﷺ كان يتهجّد بمكة ذات ليلة يقول في سجوده : « يا رحمن ، يا رحيم » ، فسمعه رجل من المشركين ، فلما أصبح قال لأصحابه : إن ابن أبي كبشة يدعو الليلة الرحمن الذي باليمن ، وكان رجل باليمن يقال له : رحمن ، فتزلت (٢) . وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق نهشل بن سعيد عن الضحّاك عن ابن عباس قال : سئل رسول الله ﷺ عن قول الله : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا ﴾ إلى آخر الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « هو أمان من السرقة » ، وإن رجلاً من المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ تلاها حيث أخذ مضجعه ، فدخل عليه سارق فجمع ما في البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى انتهى إلى الباب فوجد الباب مردوداً ، فوضع الكارة ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، فضحك صاحب الدار ثم قال : إنني حصنت بيتي (٣) .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ الآية . قال : نزلت ورسول الله ﷺ متوار ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله لنبه : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ أي بقراءتك ، فيسمع المشركون ، فيسبوا القرآن ﴿ ولا تخافت بها ﴾ عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ يقول : بين الجهر والمخافة (٤) .
وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان نبي الله ﷺ يجهر بالقراءة بمكة فيؤذى ، فأنزل الله ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ . وأخرج ابن أبي شيبة عنه أيضاً نحوه . وأخرج أبو داود في ناسخه عنه نحوه . وأخرج الطبراني وابن مردويه عنه أيضاً قال : كان مسيلمة الكذاب قد سمي الرحمن ، فكان النبي إذا صلى فجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قال المشركون : يذكر إله اليمامة ، فأنزل الله ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقي في الشعب عن محمد بن سيرين قال : نبئت أن أبا بكر كان إذا قرأ خفّض ، وكان عمر إذا قرأ جهر ، فقيل لأبي بكر : لم تصنع هذا ؟ قال : أنا أناجي ربي ، وقد عرف حاجتي ، وقيل

(١ ، ٢) ابن جرير ١٥ / ١٢١ .

(٣) البيهقي في الدلائل ٧ / ١٢١ . ونهشل بن سعيد بن وردان ، متروك وكذبه إسحاق بن راهويه . والضحّاك بن مزاحم الهلالي صدوق كثير الإرسال . وقال النسائي : « الضحّاك لم يسمع من ابن عباس ، والحديث إسناده ضعيف » .

(٤) البخاري في التفسير (٤٧٢٢) وفي التوحيد (٧٤٩٠) ومسلم في الصلاة (٤٤٦ / ١٤٥) والترمذي في التفسير (٣١٤٥ ، ٣١٤٦) والنسائي في التفسير (٣٢٠) .

لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : أطرده الشيطان وأوقفه الوسنان ، فلما نزل : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ قيل لأبى بكر : ارفع شيئاً ، وقيل لعمر : اخفض شيئاً (١) . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والبخارى ومسلم وغيرهم عن عائشة قالت : إنما نزلت هذه الآية : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ فى الدعاء (٢) . وأخرج ابن جرير والحاكم عنها قالت : نزلت فى التشهد (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن منيع وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس مثل حديث عائشة الأول (٤) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال : إن اليهود والنصارى قالوا : اتخذ الله ولداً ، وقالت العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ، وقال الصابئون والمجوس : لولا أولياء الله لذل ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وقل الحمد لله ﴾ إلى آخرها (٥) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ ولم يكن له ولى من الذل ﴾ قال : لم يحالف أحداً ولم يبتغ نصر أحد . وأخرج أحمد والطبرانى عن معاذ بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « آية العز : ﴿ الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ﴾ » الآية كلها (٦) . وأخرج أبو يعلى وابن السنى عن أبى هريرة قال : خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويده فى يدي ، فأتى على رجل رث الهيئة فقال : « أى فلان ما بلغ بك ما أرى ؟ » قال : السقم والضر ، قال : « ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر ؟ توكلت على الحى الذى لا يموت ، الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً » إلى آخر الآية ، فأتى عليه رسول الله ﷺ وقد حسنت حاله فقال : « مم » : قال : لم أزل أقول الكلمات التى علمتنى . وفى لفظ : أن النبى ﷺ علم ذلك أبا هريرة . قال ابن كثير : وإسناده ضعيف وفى متنه نكارة (٧) . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية : ﴿ الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ﴾ إلى آخرها الصغير من أهله

(١) ابن جرير ١٥ / ١٢٤ .

(٢) ابن أبى شيبة (٩٨٠٩) والبخارى فى التفسير (٤٧٢٣) وفى الدعوات (٦٣٢٧) وفى التوحيد (٧٥٢٦) ومسلم فى الصلاة (١٤٦ / ٤٤٧) والنسائى فى التفسير (٣٢١) .

(٣) ابن جرير ١٥ / ١٢٤ وصححه الحاكم ١ / ٢٣٠ ووافقه الذهبى .

(٤) ابن جرير ١٥ / ١٢٢ ونسبه ابن حجر فى المطالب العالية (٣٦٧١) لابن منيع . وقال البوصيرى : « رواه أحمد ابن منيع بإسناد حسن » .

(٥) ابن جرير ١٥ / ١٢٦ .

(٦) أحمد ٣ / ٤٣٩ والطبرانى ٢٠ / ١٩٢ (٤٢٩ ، ٤٣٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٥٥ : « رواه أحمد من طريقين فى أحدهما رشدين بن سعد وهو ضعيف ، وفى الأخرى ابن لهيعة وهو أصح منه وكذلك الطبرانى » . قلت : « وفيهما ريان بن فائد وهو ضعيف » .

(٧) أبو يعلى (٦٦٧١) وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (٥٤٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٥٥ : « فيه موسى بن عبيدة الربذى ، وهو ضعيف » وضعفه البوصيرى أيضاً فى المطالب العالية لابن حجر (٢٤١١) وابن كثير ٤ / ٣٦٢ .

والكبير (١) . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف عن عبد الكريم بن أبى أمية قال : كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام من بنى هاشم إذا أفصح سبع مرات : ﴿ الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ﴾ إلى آخر السورة (٢) . وأخرج ابن أبى شيبه فى المصنف من طريق عبد الكريم عن عمرو بن شعيب فذكره (٣) . وأخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(١) ابن جرير ١٥ / ١٢٦ .
(٢) عبد الرزاق (٧٩٧٦) .
(٣) ابن أبى شيبه (١٠٣٢٨) .

تفسير سورة الكهف

وهي مائة وإحدى عشرة آية قال القرطبي : وهي مكية في قول جميع المفسرين . وروى عن فرقة : أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله : ﴿ جرزا ﴾ والاول أصبح . انتهى (١) . ومن القائلين إنها مكية جميعها ابن عباس ، أخرجه عنه النحاس وابن مردويه ومنهم ابن الزبير ، أخرجه عنه ابن مردويه .

وقد ورد في فضلها أحاديث : منها ما أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » (٢) . وأخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن حبان عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » (٣) . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن البراء قال : قرأ رجل سورة الكهف وفي الدار دابة فجعلت تنفر ، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيت ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال : « اقرأ فلان ، فإن السكينة نزلت للقرآن » (٤) . وهذا الذي كان يقرأ هو أسيد بن حضير كما بينه الطبراني . وأخرج الترمذي وصححه عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » (٥) وفي قراءة العشر الآيات من أولها أو من آخرها أحاديث . وأخرج ابن مردويه ، والضياء في المختارة عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون ، فإن خرج الدجال عصم منه » . وأخرج الطبراني في الأوسط ، والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقي والضياء عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ سورة الكهف كانت له نورا من مقامه إلى مكة ، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره » (٦) . وأخرج الحاكم

(١) القرطبي ٦/ ٣٩٦٣ .

(٢) أحمد ٦/ ٤٤٩ ، ٤٥٠ ومسلم في صلاة المسافرين (٢٥٧/ ٨٠٩) وأبو داود في الملاحم (٤٣٢٣) والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٨٦) وقال : « حسن صحيح » ، إلا أنه قال ثلاث بدلا من عشر آيات ، والنسائي في السنن الكبرى في فضائل القرآن (٨٠٢٥) .

(٣) أحمد ٦/ ٤٤٦ ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٥٧/ ٨٠٩) والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٧٨٥) وابن حبان (٧٨٣) .

(٤) البخاري في المناقب (٢٦١٤) وفي التفسير (٤٨٣٩) وفي فضائل القرآن (٥٠١١) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٤٠/ ٧٩٥) والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٨٥) وقال : « حسن صحيح » .

(٥) الترمذي في فضائل القرآن (٢٨٨٦) وقال : « حسن صحيح » .

(٦) صححه الحاكم ١/ ٥٦٤ على شرط مسلم وقال الذهبي : « وقفه ابن مهدي عن الثوري عن أبي هاشم » ، والبيهقي موقوفا ٣/ ٢٤٩ وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ٥٦ : « رواه الطبراني في الأوسط في حديث طويل وهو بتمامه في كتاب الطهارة ، ورجاله رجال الصحيح » .

وصححه من حديث أبي سعيد ؛ أن النبي ﷺ قال : « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين » (١) . وأخرجه البيهقي أيضا في السنن من هذا الوجه ومن وجه آخر (٢) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين » (٣) . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بسورة ملاء عظمتها ما بين السماء والأرض ، ولكاتبها من الأجر مثل ذلك ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ، ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله من أى الليل شاء ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « سورة أصحاب الكهف » . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال : قال رسول الله ﷺ : « البيت الذى تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة » وفى الباب أحاديث وآثار ، وفيما أوردناه كفاية مغنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ١ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُنشِرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ٢ مَا كُنِينَ فِيهِ أُبْدًا ۖ ٣ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۖ ٤ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ٥ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۖ ٦ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ ٧ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۖ ٨ ﴾

علم عباده كيف يحمدونه على إفاضة نعمه عليهم ، ووصفه بالموصول يشعر بعلية ما فى حيز الصلة لما قبله ووجه كسوف إنزال الكتاب ، وهو القرآن نعمة على رسول الله ﷺ : كونه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد ، وأحوال الملائكة والأنبياء ، وعلى كيفية الأحكام الشرعية التى تعبد الله وتعبد أمته بها ، وكذلك العباد كان إنزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم لمثل ما ذكرناه فى النبى ﴿ ولم يجعل له عوجا ﴾ أى شيئا من العوج بنوع من أنواع الاختلال فى اللفظ والمعنى . والعوج بالكسر فى المعانى ، وبالفتح فى الأعيان كذا قيل ، ويرد عليه قوله سبحانه : ﴿ لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾ [طه : ١٠٧] يعنى : الجبال ، وهى من الأعيان .

(١) صححه الحاكم ٣٦٨/٢ وقال الذهبي : « قلت : نعيم ذو مناكير » .

(٢) البيهقي ٢٤٩/٣ .

(٣) قال ابن كثير ٣٦٤/٤ : « رواه ابن مردويه بإسناد له غريب وقال : هذا الحديث فى رفعه نظر ، وأحسن أحواله

الوقف » .

قال الزجاج : المعنى فى الآية : لم يجعل فيها اختلافا كما قال : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ [النساء : ٨٢] . والقيم : المستقيم الذى لا ميل فيه ، أو القيم بمصالح العباد الدينية والدنيوية ، أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمنا عليها ، وعلى الأول يكون تأكيدا لما دل عليه نفى العوج ، قرب مستقيم فى الظاهر لا يخلو عن أدنى عوج فى الحقيقة ، وانتصاب ﴿ قيما ﴾ بمضمر ، أى جعله قيما ، ومنع صاحب الكشف (١) أن يكون حالا من الكتاب ، لأن قوله : ﴿ ولم يجعل ﴾ معطوف على ﴿ أنزل ﴾ فهو داخل فى حيز الصلة ، فجاعله حالا من الكتاب فاصل بين الحال وذى الحال ببعض الصلة . وقال الأصفهاني : هما حالان متواليان إلا أن الأول جملة والثانى مفرد ، وهذا صواب لأن قوله : ﴿ ولم يجعل ﴾ لم يكن معطوفا على ما قبله بل الواو للحال ، فلا فصل بين الحال وذى الحال ببعض الصلة . وقيل : إن ﴿ قيما ﴾ حال من ضمير ﴿ لم يجعل له ﴾ . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا ، ثم أراد سبحانه أن يفصل ما أجمله فى قوله قيما فقال : ﴿ لينذر بأسا شديدا ﴾ وحذف المنذر للعلم به مع قصد التعميم ، والمعنى : لينذر الكافرين . والبأس : العذاب ، ومعنى ﴿ من لدنه ﴾ : صادرا من لدنه نازلا من عنده . روى أبو بكر عن عاصم أنه قرأ : ﴿ من لدنه ﴾ بإشمام الدال الضمة ، وبكسر النون والهاء . وهى لغة الكلابيين . وروى أبو زيد عن جميع القراء فتح اللام وضم الدال وسكون النون ﴿ ويشتر المؤمنون الذين يعملون الصالحات ﴾ قرئ : ﴿ يشتر ﴾ بالتشديد والتخفيف ، وأجرى الموصول على موصوفه المذكور ، لأن مدار قبول الأعمال هو الإيمان ﴿ أن لهم أجرا حسنا ﴾ وهو الجنة خال كونهم ﴿ ماكثين فيه ﴾ أى فى ذلك الأجر ﴿ أبدا ﴾ أى مكثا دائما لا انقطاع له ، وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزرع الكفار .

ثم كرر الإنذار وذكر المنذر لخصوصه وحذف المنذر به ، وهو البأس الشديد ، لتقدم ذكره فقال : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ﴾ وهم اليهود والنصارى وبعض كفار قريش . القائلون بأن الملائكة بنات الله ، فذكر سبحانه أولا قضية كلية ، وهى إنذار عموم الكفار ، ثم عطف عليها قضية خاصة هى بعض جزئيات تلك الكلية ، تنبيهها على كونها أعظم جزئيات تلك الكلية . فأفاد ذلك أن نسبة الولد إلى الله سبحانه أقبح أنواع الكفر .

﴿ ما لهم به من علم ﴾ أى بالولد ، أو اتخذ الله إياه ، و « من » مزيدة لتأكيد النفى ، والجملة فى محل نصب على الحال أو هى مستأنفة ، والمعنى : ما لهم بذلك علم أصلا ﴿ ولا آبائهم ﴾ علم ، بل كانوا فى زعمهم هذا على ضلالة ، وقلدهم أبناؤهم فضلوا جميعا ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ انتصاب ﴿ كلمة ﴾ على التمييز ، وقرئ بالرفع على الفاعلية . قال الفراء : كبرت تلك الكلمة كلمة . وقال الزجاج : كبرت مقالتهم كلمة ، والمراد بهذه الكلمة هى قولهم : اتخذ الله ولدا . ثم وصف الكلمة بقوله : ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ وفائدة هذا

الوصف : استعظام اجترائهم على التفوه بها ، والخارج من الفم وإن كان هو مجرد الهوى ، لكن لما كانت الحروف والأصوات كيفيات قائمة بالهوى أسند إلى الحال ما هو من شأن المحل . ثم زاد في تقبيح ما وقع منهم فقال : ﴿ إن يقولون إلا كذبا ﴾ أى ما يقولون إلا كذبا لا مجال للصدق فيه بحال .

ثم سلى رسوله ﷺ بقوله : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ﴾ قال الأخفش والفراء : البخع : الجهد . وقال الكسائي : بخعت الأرض بالزراعة : إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحرثة ، وبخع الرجل نفسه إذا نهكها . وقال أبو عبيدة : معناه : مهلك نفسك ، ومنه قول ذى الرمة :

ألا أيهاذا الباخع الوجد نفسه

فيكون المعنى على هذه الأقوال : لعلك مجهد نفسك أو مضعفها أو مهلكها ﴿ على آثارهم ﴾ على فراقهم ومن بعد توليهم وإعراضهم ﴿ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴾ أى القرآن : وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله . وقرئ بفتح « أن » أى لأن لم يؤمنوا ﴿ أسفا ﴾ أى غيظا وحزنا وهو مفعول له أو مصدر فى موضع الحال ، كذا قال الزجاج .

﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾ هذه الجملة استئناف . والمعنى : إنا جعلنا ما على الأرض مما يصلح أن يكون زينة لها من الحيوانات والنبات والجماد ، كقوله سبحانه : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾ [البقرة : ٢٩] وانتصاب ﴿ زينة ﴾ على أنها مفعول ثان لـ ﴿ جعل ﴾ واللام فى ﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ متعلقة بـ ﴿ جعلنا ﴾ وهى إما للغرض أو للعاقبة ، والمراد بالابتلاء : أنه سبحانه يعاملهم معاملة لو كانت تلك المعاملة من غيره لكانت من قبيل الابتلاء والامتحان . وقال الزجاج : ﴿ أيهم ﴾ رفع بالابتداء إلا أن لفظه لفظ الاستفهام ، والمعنى : لنمتحن أهذا أحسن عملا أم ذاك ؟ قال الحسن : أيهم أزهد . وقال مقاتل : أيهم أصلح فيما أوتى من المال .

ثم أعلم سبحانه أنه مبيد لذلك كله ومفنيه فقال : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ﴾ أى لجاعلون ما عليها من هذه الزينة عند تنهى عمر الدنيا ﴿ صعيدا ﴾ : ترابا . قال أبو عبيدة : الصعيد : المستوى من الأرض . وقال الزجاج : هو الطريق الذى لا نبات فيه . قال الفراء : الجرز : الأرض التى لا نبات فيها ، ومن قولهم : امرأة جرزا : إذا كانت أكلولا ، وسيفا جرازا : إذا كان مستأصلا ، وجرز الجراد والشاة والإبل : الأرض إذا أكلت ما عليها . قال ذو الرمة :

طوى النحر والإجراز ما فى بطونها

ومعنى النظم : لا تحزن يا محمد ، مما وقع من هؤلاء من التكذيب ، فإننا قد جعلنا ما على الأرض زينة لاختبار أعمالهم ، وإنا لمذهبون ذلك عند انقضاء عمر الدنيا ، فمجازوهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ﴾ الآية . قال : أنزل الكتاب عدلا قيما ﴿ ولم يجعل له عوجا ﴾ ملتبسا . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ قيما ﴾ قال : مستقيما . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ من لدنه ﴾ أى من عنده . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى ﴿ حسنا ﴾ يعنى : الجنة ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ﴾ قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمّية بن خلف والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأبو البحتري فى نفر من قريش ، وكان رسول الله ﷺ قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه ، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة ، فأحزنه حزنا شديدا ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه ﴿ باخع نفسك ﴾ يقول : قاتل نفسك . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى مثله . أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ أسفا ﴾ قال : جزعا . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ أسفا ﴾ قال : حزنا .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾ قال : الرجال . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير من قوله مثله . وأخرج أبو نصر السجزي فى الإبانة من طريق مجاهد عن ابن عباس فى الآية قال : العلماء زينة الأرض . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : هم الرجال العباد العمال لله بالطاعة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، والحاكم فى التاريخ ، وابن مردويه عن ابن عمر قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ فقلت : ما معنى ذلك يا رسول الله ؟ قال : « ليلوكم أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرعكم فى طاعة الله » (١) . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : ليختبرهم ﴿ أيهم أحسن عملا ﴾ قال : أيهم أتم عقلا . وأخرج عن الحسن ﴿ أيهم أحسن عملا ﴾ قال : أشدهم للدنيا تركا ، وأخرج أيضا عن الثورى قال : أرهدهم فى الدنيا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ﴾ قال : يهلك كل شىء ويبيد . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : الصعيد : التراب والجبال التى ليس فيها زرع . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : يعنى بالجرز : الخراب .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرْبَنَا عَلَى أَذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ

عَلَيْكَ نَبَاهُهم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا (١٦) ﴿

قوله : ﴿ أم حسبت ﴾ « أم » هى المنقطعة المقدرة ببل والهمزة عند الجمهور ، وببل وحدها عند بعضهم والتقدير: بل أحسبت ، أو بل حسبت ، ومعناها : الانتقال من حديث إلى حديث آخر ، لا لإبطال الأول والإضراب عنه كما هو معنى بل فى الأصل . والمعنى : أن القوم لما تعجبوا من قصة أصحاب الكهف ، وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان ، قال سبحانه : بل أظننت يا محمد أنهم كانوا عجباً من آياتنا فقط ؟ لا تحسب ذلك فإن آياتنا كلها عجب ، فإن من كان قادراً على جعل ما على الأرض زينة لها للابتلاء ، ثم جعل ما عليها صعيداً جراً كان لم تغن بالأمس ، لا تستبعد قدرته وحفظه ورحمته بالنسبة إلى طائفة مخصوصة ، وإن كانت قصتهم خارقة للعادة ، فإن آيات الله سبحانه كذلك وفوق ذلك . و﴿ عجباً ﴾ منتصبة على أنه خبر كان ، أى ذات عجب ، أو موصوفة بالعجب مبالغة ، ﴿ من آياتنا ﴾ فى محل نصب على الحال ، و﴿ إذ أوى الفتية ﴾ ظرف لحسبت أو لفعل مقدر ، وهو اذكر ، أى صاروا إليه وجعلوه مأواهم ، والفتية : هم أصحاب الكهف . والكهف : هو الغار الواسع فى الجبل . فإن كان صغيراً سُمى غاراً ، والرقيم قال كعب والسدى : إنه اسم القرية التى خرج منها أصحاب الكهف . وقال سعيد بن جبیر ومجاهد : إنه لوح من حجارة أو رصاص رقت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف . قال الفراء : ويروى أنه إنما سُمى رقيماً لأن أسماءهم كانت مرقومة فيه . والرقم : الكتابة . وروى مثل ذلك عن ابن عباس . ومنه قول العجاج فى أرجورة له :

ومستقرى المصحف الرقيم

وقيل : إن الرقيم : اسم كلبهم . وقيل : هو اسم الوادى الذى كانوا فيه . وقيل : اسم الجبل الذى فيه الغار . قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله ، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصة أصحاب الكهف ﴿ فقالوا ربنا آتانا من لدنك رحمة ﴾ أى من عندك ، و« من » ابتدائية متعلقة بـ ﴿ آتانا ﴾ ، أو لمحذوف وقع حالا ، والتنوين فى ﴿ رحمة ﴾ إما للتعظيم أو للتنويع ، وتقديم ﴿ من لدنك ﴾ للاختصاص ، أى رحمة مختصة بأنها من خزائن رحمتك ، وهى المغفرة فى الآخرة والأمن من الأعداء ، والرزق فى الدنيا ﴿ وهى لنا من أمرنا رشدا ﴾ أى أصلح لنا ، من قولك : هيات

الأمر فتهياً ، والمراد بأمرهم : الأمر الذى هم عليه وهو مفارقتهم للكفار . والرشد: نقيض الضلال ، و« من » للابتداء . ويجوز أن تكون للتجريد كما فى قولك : رأيت منك رشدا . وتقديم المجرورين للاهتمام بهما .

﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ قال المفسرون : أغناهم . والمعنى : سدنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات ، والمفعول محذوف ، أى ضربنا على آذانهم الحجاب تشبيها للإقامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الأذان بضرب الحجاب عليها ، و﴿ فى الكهف ﴾ ظرف لضربنا ، وانتصاب ﴿ سنين ﴾ على الظرفية ، و﴿ عددا ﴾ صفة لسنين ، أى ذوات عدد على أنه مصدر، أو بمعنى : معدودة على أنه لمعنى المفعول ، ويستفاد من وصف السنين بالعدد : الكثرة . قال الزجاج: إن الشيء إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج إلى العدد ، وإن كثر احتاج إلى أن يعد . وقيل : يستفاد منه التقليل لأن الكثير قليل عند الله : ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ [الحج : ٤٧] .

﴿ ثم بعثناهم ﴾ أى أيقظناهم من تلك النومة ﴿ لنعلم ﴾ أى ليظهر معلومنا ، وقرئ بالتحية مبينا للفاعل على طريقة الالتفات ، و﴿ أى الحزبين ﴾ مبتدأ معلق عنه العلم لما فى أى من الاستفهام ، وخبره ﴿ أحصى ﴾ وهو فعل ماض . قيل : والمراد بالعلم الذى جعل علة للبعث : هو الاختبار مجازا فيكون المعنى : بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم ، والأولى ما ذكرناه من أن المراد به ظهور معلوم الله سبحانه لعباده ، والمراد بالحزبين : الفريقان من المؤمنين والكافرين من أصحاب الكهف المختلفين فى مدة لبثهم . ومعنى أحصى : أضبط . وكأنه وقع بينهم تنازع فى مدة لبثهم فى الكهف ، فبعثهم الله ليتبين لهم ذلك ، ويظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه ، و« ما » فى ﴿ لما لبثوا ﴾ مصدرية ، أى أحصى للبثهم . وقيل : اللام زائدة ، و« ما » بمعنى : الذى و﴿ أمدا ﴾ تمييز ، والأمد : الغاية . وقيل : إن ﴿ أحصى ﴾ أفعل تفضيل . ورد بأنه خلاف ما تقرر فى علم الإعراب ، وما ورد من الشاذ لا يقاس عليه كقولهم : أفلس من ابن المذلق ، وأعدى من الجرب . وأجيب بأن أفعل التفضيل من المزيد قياس مطرد عند سيبويه وابن عصفور . وقيل : إن الحزبين هم أصحاب الكهف اختلفوا بعد انتباههم كم لبثوا . وقيل : إن أصحاب الكهف حزب وأصحابهم حزب . وقال الفراء : إن طائفتين من المسلمين فى زمان أصحاب الكهف اختلفوا فى مدة لبثهم .

﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ هذا شروع فى تفصيل ما أجمل فى قوله : ﴿ إذ أوى الفتية ﴾ أى نحن نخبرك بخبرهم بالحق ، أى قصصناهم بالحق ، أو متلبسا بالحق ﴿ إنهم فتية ﴾ أى أحداث شبان ، و﴿ آمنوا بربهم ﴾ صفة لـ ﴿ فتية ﴾ . والجملة مستأنفة بتقدير سؤال . والفتية جمع قلة ، و﴿ زدناهم هدى ﴾ بالتثيت والتوفيق ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب . ﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ أى قويناها بالصبر على هجر الأهل والأوطان ، وفراق الخلان والأخذان ﴿ إذ قاموا ﴾ الظرف منصوب بربطنا . واختلف أهل التفسير فى هذا القيام

على أقوال : فقيل : إنهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد ؛ فقال رجل منهم هو أكبر القوم : إني لأجد في نفسي شيئا ، إن ربي رب السموات والأرض ، فقالوا : ونحن أيضا كذلك نجد في أنفسنا ، فقاموا جميعا ﴿ فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ قاله مجاهد . وقال أكثر المفسرين : إنه كان لهم ملك جبار يقال له : دقيانوس ، وكان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت ، فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى قاموا بين يديه ﴿ فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ . وقال عطاء ومقاتل : إنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم ﴿ لن ندعو من دونه إلها ﴾ أى لن نعبد معبودا آخر غير الله لا اشتراكا ولا استقلالا ﴿ لقد قلنا إذا شططا ﴾ أى قولنا ذا شطط ، أو قولنا هو نفس الشطط لقصد المبالغة بالوصف بالمصدر . واللام هي الموطئة للقسم ، والشطط : الغلو ومجاوزة الحد . قال أعشى بن قيس :

أنتهون ولن ينهى ذوى شطط
كالطمن يذهب فيه الزيت والفتل

﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ﴾ ﴿ هؤلاء ﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿ اتخذوا ﴾ ، و﴿ قومنا ﴾ عطف بيان ، وفي هذا الإخبار معنى للإنكار ، وفي الإشارة إليهم تحقير لهم ﴿ لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴾ أى هلا يأتون بحجة ظاهرة تصلح للتمسك بها ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ فزعم أن له شريكا في العبادة ، أى لا أحد أظلم منه .

﴿ وإذا اعتزلتموهم ﴾ أى فارقتموهم وتنحيتم عنهم جانبا ، أى عن العابدين للأصنام ، وقوله : ﴿ وما يعبدون إلا الله ﴾ معطوف على الضمير المنصوب ، و« ما » موصولة أو مصدرية ، أى وإذا اعتزلتموهم واعتزلتم معبودهم أو الذى يعبدونه ، وقوله : ﴿ إلا الله ﴾ استثناء منقطع على تقدير : أنهم لم يعبدوا إلا الأصنام ، أو متصل على تقدير : أنهم أشركوها في العبادة مع الله سبحانه . وقيل : هو دليل على جوابه ، أى إذا اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا ، فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا ، وإذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف ﴿ ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ أى ييسر ويوسع ﴿ ويهيئ لكم من أمركم مرفقا ﴾ أى يسهل وييسر لكم من أمركم الذى أنتم بصدده ﴿ مرفقا ﴾ المرفق بفتح الميم وكسرها لغتان قرئ بهما ، مأخوذ من الارتفاق وهو الانتفاع . وقيل : فتح الميم أقيس ، وكسرها أكثر . قال الفراء : وأكثر العرب على كسر الميم من الأمر ومن مرفق الإنسان ، وقد تفتح العرب الميم فيهما فهما لغتان ، وكأن الذين فتحوا أرادوا أن يفرقوا بين المرفق من الأمر ، والمرفق من الإنسان . وقال الكسائي : الكسر في مرفق اليد . وقيل : المرفق بالكسر : ما ارتفعت به ، والمرفق بالفتح : الأمر الرافق ، والمراد هنا : ما يرتفقون به ويتفقون بحصوله ، والتقديم في الموضعين يفيد الاختصاص .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : الرقيم : الكتاب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفى عنه قال : الرقيم : وادٍ دون فلسطين قريب من أيلة ، والراويان عن ابن عباس ضعيفان . وأخرج ابن جرير من طريق

ابن جريج عنه أيضا قال : هو الجبل الذى فيه الكهف . وأخرج ابن المنذر عنه ، قال : والله ما أدرى ما الرقيم الكتاب أم ببيان ؟ وفى رواية عنه من طريق أخرى قال : وسألت كعبا فقال : اسم القرية التى خرجوا منها . وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال : الرقيم : الكلب . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ يقول : الذى آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ ﴾ يقول : أرقدناهم ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيَ الْحِزْبَيْنِ ﴾ من قوم الفتية ، أهل الهدى ، وأهل الضلالة ﴿ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا ﴾ ، وذلك أنهم كتبوا اليوم الذى خرجوا فيه والشهر والسنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ قال : إخلاصا ، وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ قال : بالإيمان . وفى قوله : ﴿ لَقَدْ قَلْنَا إِذَا شَطَطَا ﴾ قال : كذبا . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : جورا . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى فى قوله : ﴿ وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ قال : كان قوم الفتية يعبدون الله ويعبدون معه آلهة شتى ، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآى قال : هى فى مصحف ابن مسعود ، وما يعبدون من دون الله ، فهذا تفسيرها .

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا (٢٠) ﴾ .

قوله : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ ﴾ شرع سبحانه فى بيان حالهم ، بعد ما أووا إلى الكهف . ﴿ تَزَاوَرُ ﴾ قرأ أهل الكوفة بحذف تاء التفاعل ، وقرأ ابن عامر : « تزور » قال الأخفش : لا يوضع الازورار فى هذا المعنى ، إنما يقال : هو مزور عنى ، أى منقبض . وقرأ الباقر بتشديد الزاى وإدغام تاء التفاعل فيه بعد تسكينها . وتزاور مأخوذ من الزور بفتح الواو ، وهو الميل ، ومنه زاره إذا مال إليه ، والزور : الميل . فمعنى الآية : أن الشمس إذا طلعت

تميل وتتنحى ﴿ عن كهفهم ﴾ قال الراجز الكلبي :

جاء المندا عن هوانا أزور

أى مائل ﴿ ذات اليمين ﴾ أى ناحية اليمين ، وهى الجهة المسماة باليمين ، وانتصاب ﴿ ذات ﴾ على الظرف ، ﴿ وإذا غربت تقرضهم ﴾ القرض : القطع . قال الكسائي والآخرش والزجاج وأبو عبيدة : تعدل عنهم وتركهم ، قرضت المكان : عدلت عنه ، تقول لصاحبك : هل وردت مكان كذا ؟ فيقول : إنما قرضته : إذا مر به وتجاوز عنه ، والمعنى : أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، أى يمين الكهف ، وإذا غربت تمر ﴿ ذات الشمال ﴾ أى شمال الكهف لا تصيبه . بل تعدل عن سمتة إلى الجهتين ، والفجوة : المكان المتسع ، وجملة : ﴿ وهم فى فجوة منه ﴾ فى محل نصب على الحال ، وللمفسرين فى تفسير هذه الجملة قولان : الأول : أنهم مع كونهم فى مكان منفتح انفتاحا واسعا فى ظل جميع نهارهم لا تصيبهم الشمس فى طلوعها ولا فى غروبها ، لأن الله سبحانه حببها عنهم . والثانى : أن باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال ، فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف ، وإذا غربت كانت عن يساره ، ويؤيد القول الأول قوله : ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ فإن صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة إلى مكان تصل إليه عادة أنسب بمعنى كونها آية ، ويؤيده أيضا إطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها إلى جهة كذا ، وما يدل على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر :

ألبست قومك مخزاة ومنقصة حتى أبيضوا وخلوا فجوة الدار

ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله : ﴿ من يهد الله ﴾ أى إلى الحق ﴿ فهو المهتد ﴾ الذى ظفر بالهدى وأصاب الرشد والفلاح ﴿ ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ أى ناصرا يهديه إلى الحق كدقيانوس وأصحابه .

ثم حكى سبحانه طرفا آخر من غرائب أحوالهم فقال : ﴿ ونحسبهم أيقاظا ﴾ جمع يقظ بكسر ألقاف وفتحها ﴿ وهم رقود ﴾ أى نيام ، وهو جمع راقد كقعود فى قاعد . قيل : وسبب هذا الحساب أن عيونهم كانت مفتحة وهم نيام . وقال الزجاج : لكثرة تقلبهم ﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ أى نقلبهم فى رقدتهم إلى الجهتين لئلا تأكل الأرض أجسادهم ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه ﴾ حكاية حال ماضية ، لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان بمعنى الماضى كما تقرر فى علم النحو . قال أكثر المفسرين : هربوا من ملكهم ليلا ، فمروا براع معه كلب فتبعهم . والوصيد : قال أبو عبيد وأبو عبيدة : هو فناء الباب ، وكذا قال المفسرون . وقيل : العتبة ، ورد بأن الكهف لا يكون له عتبة ولا باب ، وإنما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت ﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ﴾ قال الزجاج : فرارا منصوب على المصدرية بمعنى التولية ، والفرار : الهرب ﴿ وللث ﴾ قرئ بتشديد اللام وتخفيفها ﴿ منهم رعبا ﴾ قرئ

بسكون العين وضمها ، أى خوفاً يملأ الصدر ، وانتصاب ﴿ رعباً ﴾ على التمييز ، أو على أنه مفعول ثانٍ . وسبب الرعب الهيبة التى البسهم الله إياها . وقيل : طول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم ووحشة مكانهم ، ويدفعه قوله تعالى : ﴿ لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ فإن ذلك يدل على أنهم لم ينكروا من حالهم شيئاً ولا وجدوا من أظفارهم وشعورهم ما يدل على طول المدة .

﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ﴾ الإشارة إلى المذكور قبله ، أى وكما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات بعثناهم من نومهم ، وفيه تذكير لقدرته على الإماتة والبعث جميعاً ، ثم ذكر الأمر الذى لأجله بعثهم فقال : ليتساءلوا بينهم ، أى ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع فى مدة اللبث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال وظهور القدرة الباهرة ، والاقتصار على علة التساؤل لا ينفى غيرها ، وإنما أفرد لاستتباعه لسائر الآثار ، وجملة : ﴿ قال قائل منهم كم لبثتم ﴾ مبينة لما قبلها من التساؤل ، أى كم مدة لبثكم فى النوم ؟ قالوا ذلك لأنهم رأوا فى أنفسهم غير ما يعهدونه فى العادة ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ أى قال بعضهم جواباً عن سؤال من سأل منهم ، قال المفسرون : إنهم دخلوا الكهف غدوة ، وبعثهم الله سبحانه آخر النهار ، فلذلك قالوا : يوماً ، فلما رأوا الشمس قالوا : أو بعض يوم ، وكان قد بقيت بقية من النهار ، وقد مر مثل هذا الجواب فى قصة عزيز فى البقرة . ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ أى قال البعض الآخر هذا القول ، إما على طريق الاستدلال ، أو كان ذلك إلهاماً لهم من الله سبحانه ، أى أنكم لا تعلمون مدة لبثكم ، وإنما يعلمها الله سبحانه ﴿ فابعثوا أحدكم يورقكم هذه إلى المدينة ﴾ أعرضوا عن التحاور فى مدة اللبث ، وأخذوا فى شئ آخر ، كأنه قال القائل منهم : اتركوا ما أنتم فيه من المحاورة ، وخذوا فى شئ آخر عما يهتمكم ، والفاء : للسببية ، والورق : الفضة مضروبة أو غير مضروبة . وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائى وحفص عن عاصم بكسر الراء ، وقرأ أبو عمرو وحزمة ، وأبو بكر عن عاصم بسكونها ، وقرئ بكسر الراء وإدغام القاف فى الكاف ، وقرأ ابن محيصن بكسر الواو وسكون الراء . وفى حملهم لهذه الورق معهم دليل على أن إمساك بعض ما يحتاج إليه الإنسان لا ينافى التوكل على الله ، والمدينة : دقوس ، وهى مدينتهم التى كانوا فيها ، ويقال لها اليوم : طرسوس ، كذا قال الواحدى : ﴿ فلينظر أيها أركى طعاماً ﴾ أى ينظر أى أهلها أطيب طعاماً ، وأحل مكسباً ، أو أرخص سعراً . وقيل : يجوز أن يعود الضمير إلى الأطعمة المدلول عليها فى المقام كما يقال : زيد طبت أبا ، على أن الأب هو زيد ، وفيه بعد . واستدل بالآية على حل ذبائح أهل الكتاب لأن عامة أهل المدينة كانوا كفارا ، وفيهم قوم يخفون إيمانهم ، ووجه الاستدلال أن الطعام يتناول اللحم كما يتناول غيره مما يطلق عليه اسم الطعام ﴿ وليتلف ﴾ أى يدق النظر حتى لا يعرف أولاً يغبن ، والأول أولى ، ويؤيده ﴿ ولا يشعرن بكم أحداً ﴾ أى لا يفعلن ما يؤدى إلى الشعور ويتسبب له ، فهذا النهى يتضمن التأكيد للأمر بالتلطف .

ثم علل ما سبق من الأمر والنهى فقال : ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أى يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم ، يعنى : أهل المدينة ﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ يقتلوكم بالرجم ، وهذه القتلة هى أخبث قتلة ، وكان ذلك عادة لهم ، ولهذا خصه من بين أنواع ما يقع به القتل ﴿ أَوْ يَعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ أى يردوكم إلى ملتهم التى كنتم عليها قبل أن يهديكم الله ، أو المراد بالعود هنا : الصيرورة على تقدير أنهم لم يكونوا على ملتهم ، وإيثار كلمة « فى » على كلمة « إلى » للدلالة على الاستقرار ﴿ وَلَنْ تَفْلَحُوا إِذَا أَبَدَا ﴾ فى ﴿ إِذَا ﴾ معنى الشرط ، كأنه قال : إن رجعتم إلى دينهم فلن تفلحوا إذا أبدا ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ تَزَاوَرُ ﴾ قال : تميل ، وفى قوله : ﴿ تَقْرَضُهُمْ ﴾ قال : تذرهم . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ تَقْرَضُهُمْ ﴾ قال : تركهم ، ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ قال : المكان الداخل . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ، قال : الفجوة : الخلوة من الأرض ، ويعنى بالخلوة : الناحية من الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَنَقَلْبِهِمْ ﴾ الآية قال : ستة أشهر على ذى الجنب اليمين ، وستة أشهر على ذى الجنب الشمال . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير فى الآية قال : كى لا تأكل الأرض لحومهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد أن اسم كلبهم : قطمورا . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : اسمه قطمير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ بِالْوَصِيدِ ﴾ قال : بالفناء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : بالباب . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ أَزْكَى طَعَامًا ﴾ قال : أحل ذبيحة ، وكانوا يذبحون للطواغيت . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿ أَزْكَى طَعَامًا ﴾ يعنى : أطهر ، لأنهم كانوا يذبحون للطواغيت .

﴿ وَكَذَلِكَ أَعَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) ﴾

قوله : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾ أى وكما أغناهم وبعثناهم ، أعثرنا عليهم ، أى أطلعنا الناس عليهم وسمى الإعلام : إعتارا ؛ لأن من كان غافلا عن شيء فعثر به نظر إليه وعرفه ، فكان الإعتار سببا لحصول العلم ﴿ ليعلموا أن وعد الله حق ﴾ أى ليعلم الذين أعثرهم الله عليهم أن وعد الله بالبعث حق . قيل : وكان ملك ذلك العصر ممن ينكر البعث ، فأراه الله هذه الآية . قيل : وسبب الإعتار عليهم أن ذلك الرجل الذى بعثوه بالورق ، وكانت من ضربة دقيانوس ، إلى السوق ، لما اطلع عليها أهل السوق اتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به إلى الملك ، فقال له : من أين وجدت هذه الدراهم ؟ قال : بعت بها أمس شيئا من التمر ، فعرف الملك صدقه ، ثم قص عليه القصة فركب الملك وركب أصحابه معه حتى وصلوا إلى الكهف ﴿ وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ أى وليعلموا أن القيامة لا شك فى حصولها ، فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من البعث ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ الظرف متعلق بـ ﴿ أعثرنا ﴾ ، أى أعثرنا عليهم وقت التنازع والاختلاف بين أولئك الذين أعثرهم الله فى أمر البعث . وقيل : فى أمر أصحاب الكهف فى قدر مكثهم ، وفى عددهم ، وفيما يفعلونه بعد أن اطلعوا عليهم ﴿ فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ﴾ لئلا يتطرق الناس إليهم ، وذلك أن الملك وأصحابه لما وقفوا عليهم وهم أحياء أمات الله الفتية ، فقال بعضهم : ابنوا عليهم بنيانا يسترهم عن أعين الناس .

ثم قال سبحانه حاكيا لقول المتنازعين فيهم وفى عددهم ، وفى مدة لبثهم ، وفى نحو ذلك مما يتعلق بهم : ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ من هؤلاء المتنازعين فيهم ، قالوا ذلك تفويضا للعلم إلى الله سبحانه . وقيل : هو من كلام الله سبحانه ، ردا لقول المتنازعين فيهم ، أى دعوا ما أنتم فيه من التنازع ، فإنى أعلم بهم منكم . وقيل : إن الظرف فى ﴿ إذ يتنازعون ﴾ متعلق بمحذوف هو اذكر ، ويؤيده أن الإعتار ليس فى زمن التنازع بل قبله ، ويمكن أن يقال : إن أولئك القوم ما زالوا متنازعين فيما بينهم قرنا بعد قرن ، منذ أووا إلى الكهف إلى وقت الإعتار ، ويؤيد ذلك أن خبرهم كان مكتوبا على باب الغار ، كتبه بعض المعاصرين لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون إيمانهم كما قاله المفسرون ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم لتتخذن عليهم مسجدا ﴾ ذكر اتخاذ المسجد يشعر بأن هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم هم المسلمون . وقيل : هم أهل السلطان . والملك من القوم المذكورين فإنهم الذين يغلبون على أمر من عداهم ، والأول أولى . قال الزجاج : هذا يدل على أنه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور . لأن المساجد للمؤمنين .

﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ هؤلاء القائلون بأنهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة ، هم المتنازعون فى عددهم فى زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمسلمين . وقيل : هم أهل الكتاب خاصة ، وعلى كل تقدير فليس المراد أنهم جميعا قالوا جميع ذلك بل قال بعضهم بكذا ، وبعضهم بكذا ، وبعضهم بكذا ﴿ ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ أى هم ثلاثة أشخاص ،

وجملة: ﴿ رابعهم كلبهم ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى حال كون كلبهم جاعلهم أربعة بانضمامه إليهم ﴿ ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ﴾ الكلام فيه كالكلام فيما قبله ، وانتصاب ﴿ رجما بالغيب ﴾ على الحال ، أى راجمين أو على المصدر ، أى يرجمون رجما ، والرجم بالغيب : هو القول بالظن والحدس من غير يقين ، والموصوفون بالرجم بالغيب هم كلا الفريقين القائلين بأنهم ثلاثة ، والقائلين بأنهم خمسة ﴿ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ كأن قول هذه الفرقة أقرب إلى الصواب بدلالة عدم إدخالهم فى سلك الراجمين بالغيب . قيل : وإظهار الواو فى هذه الجملة يدل على أنها مرادة فى الجملتين الأوليين . قال أبو على الفارسى قوله : ﴿ رابعهم كلبهم ﴾ و ﴿ سادسهم كلبهم ﴾ جملتان استغنى عن حرف العطف فيهما بما تضمنتا من ذكر الجملة الأولى وهى قوله : ﴿ ثلاثة ﴾ والتقدير : هم ثلاثة ، هكذا حكاه الواحدى عن أبى على ، ثم قال : وهذا معنى قول الزجاج فى دخول الواو فى : ﴿ وثامنهم ﴾ وإخراجها من الأول . وقيل : هى مزيدة للتوكيد . وقيل : إنها واو الثمانية ، وإن ذكره متداول على ألسن العرب إذا وصلوا إلى الثمانية كما فى قوله تعالى : ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : ٧٣] وقوله : ﴿ ثيات وأبكارا ﴾ [التحريم : ٥] .

ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يخبر المختلفين فى عددهم بما يقطع التنازع بينهم فقال : ﴿ قل ربى أعلم بعدتهم ﴾ منكم أيها المختلفون ، ثم أثبت علم ذلك لقليل من الناس فقال : ﴿ ما يعلمهم ﴾ أى يعلم ذواتهم فضلا عن عددهم ، أو ما يعلم عددهم على حذف المضاف ﴿ إلا قليل ﴾ من الناس . ثم نهى الله سبحانه رسوله ﷺ عن الجدال مع أهل الكتاب فى شأن أصحاب الكهف فقال : ﴿ فلا تمار فيهم ﴾ المراء فى اللغة : الجدال ، يقال : مارى يمارى مماراة ومراء : أى جادل ، ثم استثنى سبحانه من المراء ما كان ظاهرا واضحا فقال : ﴿ إلا مراء ظاهرا ﴾ أى غير متعمق فيه وهو أن يقص عليهم ما أوحى الله إليه فحسب . وقال الرازى : هو ألا يكذبهم فى تعيين ذلك العدد ، بل يقول : هذا التعيين لا دليل عليه ، فوجب التوقف ، ثم نهاه سبحانه عن الاستفتاء فى شأنهم فقال : ﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾ أى لا تستفت فى شأنهم من الخائضين فيهم أحدا منهم ، لأن المفتى يجب أن يكون أعلم من المستفتى ، وهاهنا الأمر بالعكس ، ولاسيما فى واقعة أهل الكهف ، وفيما قص الله عليك فى ذلك ما يغنيك عن سؤال من لا علم له .

﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا ﴾ أى لأجل شيء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان ، فعبر عنه بالغد ، ولم يرد الغد بعينه ، فيدخل فيه الغد دخولا أوليا . قال الواحدى : قال المفسرون : لما سألت اليهود النبى ﷺ عن خبر الفتية فقال : « أخبركم غدا » ، ولم يقل إن شاء الله ، فاحتبس الوحي عنه حتى شق عليه ، فأنزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله يقول : إذا قلت لشيء : إني فاعل ذلك غدا ، فقل : إن شاء الله . وقال الأخفش والمبرد والكسائى والفراء : لا تقولن لشيء : إني فاعل ذلك غدا ، إلا أن تقول : إن شاء الله ،

فأضمر القول ولما حذف تقول نقل شاء إلى لفظ الاستقبال . قيل : وهذا الاستثناء مفرغ ، أى لا تقولن ذلك فى حال من الأحوال ، إلا حال ملاسته لمشيئة الله وهو أن تقول: إن شاء الله ، أو فى وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله مطلقا . وقيل : الاستثناء جار مجرى التأييد كأنه قيل : لا تقولنه أبدا كقوله : ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ﴾ [الأعراف : ٨٩] . لأن عودهم فى ملتهم بما لا يشاؤه الله .

﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ الاستثناء بمشيئة الله ، أى فقل : إن شاء الله ، سواء كانت المدة قليلة أو كثيرة . وقد اختلف أهل العلم فى المدة التى يجوز إلحاق الاستثناء فيها بعد المستثنى منه على أقوال معروفة فى مواضعها . وقيل : المعنى : ﴿ واذكر ربك ﴾ بالاستغفار ﴿ إذا نسيت ﴾ وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا ﴿ المشار إليه بقوله : ﴿ من هذا ﴾ هو نبأ أصحاب الكهف ، أى قل يا محمد : عسى أن يوفقنى ربي لشيء أقرب من هذا النبأ من الآيات والدلائل الدالة على نبوتى . قال الزجاج : عسى أن يعطينى ربي من الآيات والدلالات على النبوة ما يكون أقرب فى الرشد وأدل من قصة أصحاب الكهف ، وقد فعل الله به ذلك حيث آتاه من علم غيوب المرسلين وخبرهم ما كان أوضح فى الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف . وقيل : الإشارة إلى قوله : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ أى عسى أن يهدينى ربي عند هذا النسيان لشيء آخر بدل هذا المنسى ، وأقرب منه رشدا وأدنى منه خيرا ومنفعة ، والأول أولى .

﴿ ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ﴾ قرأ الجمهور بتنوين ﴿ مائة ﴾ ونصب ﴿ سنين ﴾ ، فىكون سنين على هذه القراءة بدلا أو عطف بيان . وقال الفراء وأبو عبيدة والزجاج والكسائى : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : سنين ثلاثمائة . ورجح الأول أبو على الفارسى . وقرأ حمزة والكسائى بإضافة مائة إلى سنين ، وعلى هذه القراءة تكون سنين تميزا على وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز كقوله تعالى : ﴿ بالأخسرين أعمالا ﴾ [الكهف : ١٠٣] قال الفراء : ومن العرب من يضع سنين موضع سنة . قال أبو على الفارسى : هذه الأعداد التى تضاف فى المشهور إلى الآحاد نحو ثلاثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى المجموع ، وفى مصحف عبد الله : « ثلاثمائة سنة » . وقال الأخفش : لا تكاد العرب تقول : مائة سنين . وقرأ الضحاك : « ثلاثمائة سنون » بالواو . وقرأ الجمهور : ﴿ تسعا ﴾ بكسر التاء . وقرأ أبو عمرو بفتحها ، وهذا إخبار من الله سبحانه بمدة لبثهم .

قال ابن جرير : إن بنى إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإغاثار عليهم ، فقال بعضهم : إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، فأخبر الله نبيه ﷺ أن هذه المدة فى كونهم نياما ، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر ، فأمر الله أن يرد علم ذلك إليه ، فقال : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ قال ابن عطية : فقوله على هذا لبثوا الأول : يريد فى يوم الكهف ، ولبثوا الثانى : يريد بعد الإغاثار عليهم إلى مدة محمد ﷺ ، أو إلى أن ماتوا . وقال بعضهم : إنه

لما قال : ﴿ وازدادوا تسعا ﴾ لم يدر الناس أهى ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام . واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك ، فأمر الله برد العلم إليه فى التسع ، فهى على هذا مبهمة . والأول أولى ؛ لأن الظاهر من كلام العرب المفهوم بحسب لغتهم أن التسع أعوام بدليل أن العدد فى هذا الكلام للسنين لا للشهور ولا للأيام ولا للساعات . وعن الزجاج أن المراد : ثلاثمائة سنة شمسية وثلاثمائة وتسع سنين قمرية ، وهذا إنما يكون من الزجاج على جهة التقريب .

ثم أكد سبحانه اختصاصه بعلم ما لبثوا بقوله : ﴿ له غيب السموات والأرض ﴾ أى ما خفى فيهما وغاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شىء ، ثم زاد فى المبالغة والتأكيد فجاء بما يدل على التعجب من إدراكه للمبصرات والمسموعات فقال : ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ فأفاد هذا التعجب على أن شأنه سبحانه فى علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين ، وأنه يستوى فى علمه الغائب والحاضر ، والخفى والظاهر ، والصغير والكبير واللطيف والكثيف ، وكأن أصله ما أبصره وما أسمع ، ثم نقل بآلى صيغة الأمر للإنشاء ، والباء زائدة عند سيويه وخالفه الأخفش ، والبحث مقرر فى علم النحو ﴿ ما لهم من دونه من ولى ﴾ الضمير لأهل السموات والأرض . وقيل : لأهل الكهف . وقيل : لمعاصرى محمد ﷺ من الكفار ، أى ما لهم من موال يواليهم أو يتولى أمورهم أو ينصرهم ، وفى هذا بيان لغاية قدرته وأن الكل تحت قهره ﴿ ولا يشرك فى حكمه أحدا ﴾ قرأ الجمهور برفع الكاف فى ﴿ يشرك ﴾ على الخبر عن الله سبحانه . وقرأ ابن عباس والحسن وأبو رجاء وقتادة بالتاء الفوقية وإسكان الكاف على أنه نهى للنبي ﷺ أن يجعل الله شريكا فى حكمه ، ورويت هذه القراءة عن ابن عامر . وقرأ مجاهد بالتحية والجزم . قال يعقوب : لا أعرف وجهها ، والمراد بحكم الله : ما يقضيه ، أو علم الغيب . والأول أولى . ويدخل علم الغيب فى ذلك دخولا أوليا ، فإن علمه سبحانه من جملة قضائه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾ قال : أطلعنا . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم ﴾ قال : الأمراء ، أو قال : السلاطين . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ سيقولون ثلاثة ﴾ قال : اليهود ﴿ ويقولون خمسة ﴾ قال : النصارى . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ رجما بالغيب ﴾ قال : قذفا بالظن . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ قال : أنا من القليل كانوا سبعة . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس ، قال السيوطى : بسند صحيح ، فى قوله : ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ قال : أنا من أولئك القليل كانوا سبعة ، ثم ذكر أسماءهم . وحكاه ابن كثير عن ابن عباس فى رواية قتادة وعطاء وعكرمة ، ثم قال : فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فلا تمار فيهم ﴾ يقول : حسبك ما قصصت

عليك . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾ قال : اليهود .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا تقولن لشيء ﴾ الآية قال : إذا نسيت أن تقول لشيء إنى أفعله فنسيت أن تقول : إن شاء الله ، فقل إذا ذكرت : إن شاء الله . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى والحاكم وابن مردويه عنه أنه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة ، ثم قرأ : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ . وأخرج ابن أبي حاتم والطبرانى وابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : هى خاصة لرسول الله ﷺ وليس لأحد أن يستثنى إلا فى صلة يمين . وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عمر قال : كل استثناء موصول فلا حث على صاحبه ، وإذا كان غير موصول فهو حائث . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة — وفى رواية : تسعين — تلد كل امرأة منهن غلاما يقاتل فى سبيل الله ، فقال له الملك : قل إن شاء الله ، فلم يقل ، فطاف فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان » قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لو قال : إن شاء الله لم يحث ، وكان دركا لحاجته » (١) . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن عكرمة : ﴿ إذا نسيت ﴾ قال : إذا غضبت . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن الحسن : ﴿ إذا نسيت ﴾ قال : إذا لم تقل : إن شاء الله .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن الرجل ليفسر الآية يرى أنها كذلك فيهى أبعد ما بين السماء والأرض ، ثم تلا : ﴿ ولبثوا فى كهفهم ﴾ الآية ، ثم قال : كم لبث القوم ؟ قالوا : ثلاثمائة وتسع سنين ، قال : لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل الله : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ ولكنه حكى مقالة القوم فقال : ﴿ سيقولون ثلاثة ﴾ إلى قوله : ﴿ رجما بالغيب ﴾ فأخبر أنهم لا يعلمون ، ثم قال : ﴿ سيقولون ﴾ : ﴿ ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة فى حرف ابن مسعود ، وقالوا : ﴿ ولبثوا فى كهفهم ﴾ الآية : يعنى : إنما قاله الناس ألا ترى أنه قال : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن الضحاك عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة ﴾ قيل : يا رسول الله ، أياما أم شهرا أم سنين ؟ فأنزل الله : ﴿ سنين وازدادوا تسعا ﴾ . وأخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك بدون ذكر ابن عباس . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ قال : الله يقوله .

(١) البخارى معلقا فى الجهاد (٢٨١٩) وفى النكاح موصولا (٥٢٤٢) وفيه : « مائة امرأة » ومسلم فى الإيمان (٢٢/١٦٥٤ ، ٢٣ ، ٢٥) والنسائى فى التفسير (٣٢٢) .

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ (٢٧)
وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ
تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾
وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ
سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ
عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ
سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ .

قوله : ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ أمره الله سبحانه أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى إليه ، قيل : ويحتمل أن يكون معنى قوله : ﴿ وَاتْلُ ﴾ : واتبع ، أمرا من التلو ، لا من التلاوة ، و ﴿ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ بيان للذي أوحى إليه ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى لا قادر على تبديلها وتغييرها ، وإنما يقدر على ذلك هو وحده . قال الزجاج : أى ما أخبر الله به وما أمر به فلا مبدل له ، وعلى هذا يكون التقدير : لا مبدل لحكم كلماته ﴿ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ الملتحذ : الملتجأ ، وأصل اللحد : الميل . قال الزجاج : لن تجد معدلا عن أمره ونهيه ، والمعنى : أنك إن لم تتبع القرآن وتتله وتعمل بأحكامه لن تجد معدلا تعدل إليه ومكانا تميل إليه ، وهذه الآية آخر قصة أهل الكهف .

ثم شرح سبحانه فى نوع آخر كما هو دأب الكتاب العزيز فقال : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ قد تقدم فى الأنعام نهيه ﷺ عن طرد فقراء المؤمنين بقوله : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ [الأنعام: ٥٢] وأمره سبحانه ههنا بأن يحبس نفسه معهم ، فصبر النفس هو حبسها ، وذكر الغداة والعشى كناية عن الاستمرار على الدعاء فى جميع الأوقات . وقيل : فى طرفى النهار ، وقيل : المراد : صلاة العصر والفجر . وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن وابن عامر : « بالغداة » بالواو ، واحتجوا بأنها فى المصحف كذلك مكتوبة بالواو . قال النحاس : وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو ، ولا تكاد العرب تقول : الغدوة ، ومعنى ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ : أنهم يريدون بدهائهم رضى الله سبحانه ، والجملة فى محل نصب على الحال ، ثم أمره سبحانه بالمراقبة لأحوالهم فقال : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ أى لا تتجاوز عينك إلى غيرهم . قال الفراء : معناه : لا تصرف عينك عنهم ، وقال الزجاج : لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوى الهيئات والزينة ، واستعماله بعن لتضمنه معنى النبو ، من عدوته عن الأمر ، أى صرفته منه . وقيل : معناه : لا تحتقرهم عينك ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى مجالسة أهل الشرف والغنى ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أى

حال كونك مريدا لذلك ، هذا إذا كان فاعل ﴿ تريد ﴾ هو النبي ﷺ ، وإن كان الفاعل ضميرا يعود إلى العينين ، فالتقدير : مريدة زينة الحياة الدنيا ، وإسناد الإرادة إلى العينين مجاز ، وتوحيد الضمير للتلازم كقول الشاعر :

لمن زحلوة زل بها العينان تنهل

﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ أى جعلناه غافلا بالخطم عليه ، نهى رسول الله ﷺ عن طاعة من جعل الله قلبه غافلا عن ذكره كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحى الفقراء عن مجلسه ، فإنهم طالبوا تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه وهم غافلون عن ذكر الله ، ومع هذا فهم ممن اتبع هواه وآثره على الحق فاخترار الشرك على التوحيد ﴿ وكان أمره فرطا ﴾ أى متجاوزا عن حد الاعتدال ، من قولهم : فرس فرط : إذا كان متقدما للخيال ، فهو على هذا من الإفراط . وقيل : هو من التفريط ، وهو التقصير والتضييع . قال الزجاج : ومن قدم العجز فى أمره أضاعه وأهلكه .

ثم بين سبحانه لنبه ﷺ ما يقوله لأولئك الغافلين ، فقال : ﴿ وقل الحق من ربكم ﴾ أى قل لهم : إن ما أوحى إليك وأمرت بتلاوته هو الحق الكائن من جهة الله ، لا من جهة غيره حتى يمكن فيه التبديل والتغيير . وقيل : المراد بالحق : الصبر مع الفقراء . قال الزجاج : أى الذين أتيتمكم به الحق من ربكم يعنى : لم آتكم به من قبل نفسى إنما أتيتمكم به من الله ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ قيل : هو من تمام القول الذى أمر رسوله أن يقوله ، والفاء لترتيب ما قبلها على ما بعدها ، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه لا من القول الذى أمر به رسول الله ﷺ ، وفيه تهديد شديد ، ويكون المعنى : قل لهم يا محمد : الحق من ربكم ، وبعد أن تقول لهم هذا القول ، من شاء أن يؤمن بالله ويصدقك فليؤمن ، ومن شاء أن يكفر به ويكذبك فليكفر . ثم أكد الوعيد وشدده فقال : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين ﴾ أى أعددنا وهيأنا للظالمين الذين اختاروا الكفر بالله والجحد له والإنكار لأتبياته نارا عظيمة ﴿ أحاط بهم سرادقها ﴾ أى اشتمل عليهم . والسرادق : واحد السراقات . قال الجوهري : وهى التى تمد فوق صحن الدار ، وكل بيت من كرسف فهو سرادق ، ومنه قول رؤبة :

يا حكم بن المنذر بن جارود سرادق المجد عليك ممدود

وقال الشاعر :

هو المدخل النعمان بيتا سماؤه صدور الفيول بعد بيت مسردق

يقوله سلام بن جندل لما قتل ملك الفرس ملك العرب النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة . وقال ابن الأعرابي : سرادقها : سورها . وقال القتيبي : السرادق : الحجرة التى تكون حول الفسطاط . والمعنى : أنه أحاط بالكفار سرادق النار على تشبيه ما يحيط بهم من النار بالسرادق المحيطة بمن فيه ﴿ وإن يستغيثوا ﴾ من حر النار ﴿ يغاثوا بماء كالمهل ﴾ وهو الحديد

المذاب . قال الزجاج : إنهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب أو الصفر . وقيل : هو دردى الزيت . وقال أبو عبيدة والأخفش : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس . وقيل : هو ضرب من القطران . ثم وصف هذا الماء الذى يغاثون به بأنه ﴿ يشوى الوجوه ﴾ إذا قدم إليهم صارت وجوههم مشوية لحرارته ﴿ بئس الشراب ﴾ شرابهم هذا ﴿ وساءت ﴾ النار ﴿ مرتفقا ﴾ متكأ ، يقال : ارتفعت ، أى اتكأت ، وأصل الارتفاق : نصب المرفق . ويقال : ارتفق الرجل : إذا نام على مرفقه ، وقال القتيبي : هو المجلس ، وقيل : المجتمع .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ هذا شروع فى وعد المؤمنين بعد الفراغ من وعيد الكافرين . والمعنى : إن الذين آمنوا بالحق الذى أوحى إليك وعملوا الصالحات من الأعمال ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ هذا خبر ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ ، والعائد محذوف ، أى من أحسن منهم عملا ، وجملة : ﴿ أولئك لهم جنات عدن ﴾ استئناف لبيان الأجر ، والإشارة إلى من تقدم ذكره . وقيل : يجوز أن يكون ﴿ أولئك ﴾ خبر ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ ، وتكون جملة : ﴿ إنا لا نضيع ﴾ اعتراضا ، ويجوز أن يكون ﴿ أولئك ﴾ خبرا بعد خبر ، وقد تقدم الكلام فى ﴿ جنات عدن ﴾ ، وفى كيفية جرى الأنهار من تحتها ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ قال الزجاج : أساور جمع أسورة ، وأسورة جمع سوار ، وهى زينة تلبس فى الزند من اليد وهى من زينة الملوك . قيل : يحلى كل واحد منهم ثلاثة أساور : واحد من فضة ، وواحد من لؤلؤ ، وواحد من ذهب ، وظاهر الآية أنها جميعها من ذهب ، ويمكن أن يكون قول القائل هذا جمعا بين الآيات لقوله سبحانه فى آية أخرى : ﴿ أساور من فضة ﴾ [الإنسان : ٢١] ولقوله فى آية أخرى : ﴿ ولؤلؤا ﴾ [الحج : ٢٣] « ومن » فى قول : ﴿ من أساور ﴾ للابتداء ، وفى : ﴿ من ذهب ﴾ للبيان . وحكى الفراء : « يحلون » بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام ، يقال : حليت المرأة تحلى فهى حالية : إذا لبست الحلى ﴿ ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق ﴾ قال الكسائى : السندس : الرقيق ، واحده سندسة ، والإستبرق : ما ثخن ، وكذا قال المفسرون . وقيل : الإستبرق : هو الديباج كما قال الشاعر :

وإستبرق الديباج طورا لباسها

وقيل : هو المنسوج بالذهب . قال القتيبي : هو فارسى معرب . قال الجوهري : وتصغيره أبيرق ، وخص الأخضر لأنه الموافق للبصر ، ولكونه أحسن الألوان ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ قال الزجاج : الأرائك جمع أريكة ، وهى السرر فى الحجال . قيل : هى أسرة من ذهب مكللة بالدر والياقوت ، وأصل اتكأ : اوتكأ ، وأصل متكئين : موتكئين ، والانتكاء : التحامل على الشئ ﴿ نعم الثواب ﴾ ذلك الذى أثابهم الله به ﴿ وحسنت ﴾ تلك الأرائك ﴿ مرتفقا ﴾ أى متكأ وقد تقدم قريبا .

وقد أخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ ملتجدا ﴾ قال :

ملتجأ . وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الشعب عن سلمان قال : جاءت المؤلفة قلوبهم : عيينة بن بدر ، والأقرع بن حابس ، فقالوا : يا رسول الله ، لو جلست فى صدر المجلس وتغييت عن هؤلاء وأرواح جبابهم ، يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف ، جالسناك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله : ﴿ ما أوحى إليك ﴾ إلى قوله : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين نارا ﴾ زاد أبو الشيخ عن سلمان أن رسول الله ﷺ قام يلتمسهم حتى أصابهم فى مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى فقال : « الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى ، معكم المحيا والممات » (١) .

وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلت على رسول الله ﷺ وهو فى بعض أبياته ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ﴾ فخرج يلتمسهم فوجد قوما يذكرون الله منهم ثائر الرأس وحاف الجلد وذو الثوب الخلق ، فلما رأهم جلس معهم وقال : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم » (٢) . وأخرج البزار عن أبى سعيد وأبى هريرة قالوا : جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم » وفى الباب روايات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن نافع قال : أخبرنى عبد الله بن عمر فى هذه الآية ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ﴾ أنهم الذين يشهدون الصلوات الخمس . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده فى قوله : ﴿ واصبر نفسك ﴾ الآية قال : نزلت فى صلاة الصبح وصلاة العصر .

وأخرج ابن مردويه من طريق جوير عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ قال : نزلت فى أمية بن خلف ، وذلك أنه دعا النبى ﷺ إلى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة ، فأنزل الله هذه الآية ، يعنى : من ختمنا على قلبه يعنى : التوحيد ﴿ واتبع هواه ﴾ يعنى : الشرك ﴿ وكان أمره فرطا ﴾ يعنى : فرطا فى أمر الله وجهالة بالله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن بريدة قال : دخل عيينة بن حصن على النبى ﷺ فى يوم حار ، وعنده سلمان عليه جبة صوف ، فصار منه ريح العرق فى الصوف ، فقال عيينة : يا محمد ، إذا نحن أتيناك فأخرج هذا وضرباه من عندك لا يؤذينا ، فإذا خرجنا فانت وهم أعلم ، فأنزل الله ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه ﴾ الآية . وقد ثبت فى صحيح مسلم فى سبب نزول الآية المتضمنة لمعنى هذه الآية ، وهى قوله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ﴾ عن سعد بن أبى وقاص قال : كنا مع النبى ﷺ

(١) أبو نعيم فى الحلية ١/ ٢٤٥ .

(٢) ابن جرير ١٥٥/ ١٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٤ : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح » .

سنة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرده هؤلاء لا يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسمهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ الآية (١) . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وكان أمره فرطا ﴾ قال : ضياعا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة : ﴿ وقل الحق ﴾ قال : هو القرآن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ يقول : من شاء الله له الإيمان آمن ، ومن شاء له الكفر كفر ، وهو قوله : ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ [التكوين : ٢٩] . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال في الآية : هذا تهديد ووعد . وأخرج ابن جرير عنه أيضا في قوله : ﴿ أحاط بهم سرادقها ﴾ قال : حائط من نار . وأخرج أحمد والترمذي وابن أبي الدنيا وابن جرير وأبو يعلى وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « لسرادق النار أربعة جدر ، كثافة كل جدار منها مسيرة أربعين سنة » (٢) . وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه (٣) وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن يعلى بن أمية قال : قال رسول الله ﷺ : « إن البحر هو من جهنم » ، ثم تلا ﴿ نارا أحاط بهم سرادقها ﴾ (٤) . وأخرج أحمد والترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ بماء كالمهل ﴾ قال : « كعكر الزيت ، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه » (٥) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ كالمهل ﴾ قال : أسود كعكر الزيت . وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية قال : سئل ابن عباس عن المهل فقال : ماء

(١) مسلم في فضائل الصحابة (٣٤١٣/٤٥ ، ٤٦) .

(٢) أحمد ٢٩/٣ والترمذي في صفة جهنم (٢٥٨٤) وقال : « هذا حديث إنما نعرفه من حديث رشدين بن سعد ، وفي رشدين مقال وقد تكلم فيه من قبل حفظه » وابن جرير ١٥٧/١٥ وأبو يعلى (١٣٨٩) وصححه الحاكم ٦٠٠/٤ ، وسكت عنه الذهبي وإسناده ضعيف .

(٣) في المخطوطة «البخاري» والصحيح ما أثبتناه من الدر المنثور ٤/٢٢٠ كما ورد الحديث في كشف الخفا ١/٢٨١ (٨٨٣) ولم يذكر البخاري ممن أخرج الحديث .

(٤) أحمد ٢٢٣/٤ وابن جرير ١٥٧/١٥ ، وصححه الحاكم ٥٩٦/٤ ووافقه الذهبي وقد تقدمت الرواية الصحيحة : « إن جهنم تحت الأرض السابعة » .

(٥) أحمد ٧٠٠/٣ ، ٧١ والترمذي في صفة جهنم (٢٥٨٤) وفي التفسير (٣٣١٩) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين . ورشدين فيه مقال وقد تكلم فيه من قبل حفظه » وأبو يعلى (١٣٧٥) وابن جرير ١٧٥/١٥ وصححه ابن حبان (٧٤٣٠) والحاكم ٥٠١/٢ ووافقه الذهبي .

غليظ كدردى الزيت . وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى عن ابن مسعود ؛ أنه سئل عن المهل ، فدعا بذهب وفضة فأذابه ، فلما ذاب قال : هذا أشبه شئ بالمهل الذى هو شراب أهل النار ولونه لون السماء ، غير أن شراب أهل النار أشد حرا من هذا . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : هل تدرون ما المهل ؟ المهل : سهل الزيت ، يعنى : آخره . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ وساءت مرتفقا ﴾ قال : مجتمعا .

وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة ؛ أن النبى ﷺ قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » (١) . وأخرج البيهقى عن أبى الخير مرثد بن عبد الله قال : فى الجنة شجرة تنبت السندس منه يكون ثياب أهل الجنة . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير عن عكرمة قال : الإستبرق : الديباج الغليظ . وأخرج ابن أبى شيبه وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الهيثم بن مالك الطائى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول منه ولا يمله ، يأتيه ما اشتتهت نفسه ولذت عينه » . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأرائك : السرر فى جوف الحجال عليها الفرش منضود فى السماء فرسخ . وأخرج البيهقى فى البعث عنه قال : لا تكون أريكة حتى يكون السرير فى الحجلة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة أنه سئل عن الأرائك فقال : هى الحجال على السرر .

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِشَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا

كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) ﴿

قوله : ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين ﴾ هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يتعزز بالدنيا ويستتكف عن مجالسة الفقراء فهو على هذا متصل بقوله : ﴿ واصبر نفسك ﴾ . وقد اختلف فى الرجلين هل هما مقدران أو محققان ؟ فقال بالأول بعض المفسرين . وقال بالآخر بعض آخر . واختلفوا فى تعيينهما ، ف قيل : هما أخوان من بنى إسرائيل . وقيل : هما أخوان مخزوميان من أهل مكة : أحدهما مؤمن ، والآخر كافر . وقيل : هما المذكوران فى سورة الصافات فى قوله : ﴿ قال قائل منهم إني كان لى قرين ﴾ [الصافات : ٥١] وانتصاب ﴿ مثلاً ﴾ و ﴿ رجلين ﴾ على أنهما مفعولا ﴿ اضرب ﴾ ، قيل : والأول هو الثانى والثانى هو الأول ﴿ جعلنا لأحدهما جنتين ﴾ هو الكافر ، و ﴿ من أعناب ﴾ بيان لما فى الجنتين ، أى من كروم متنوعة ﴿ وحففناهما بنخل ﴾ الحف : الإحاطة ، ومنه : ﴿ حافين من حول العرش ﴾ [الزمر : ٧٥] ويقال : حف القوم بفلان يحفون حفا ، أى أطافوا به ، فمعنى الآية : وجعلنا النخل مطيافاً بالجنتين من جميع جوانبهما ﴿ وجعلنا بينهما زرعاً ﴾ أى بين الجنتين ، وهو وسطهما ، ليكون كل واحد منهما جامعاً للأقوات والفواكه .

ثم أخبر سبحانه عن الجنتين بأن كل واحدة منهما كانت تؤدى حملها وما فيها ، فقال : ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ﴾ أخبر عن ﴿ كلتا ﴾ ب ﴿ آتت ﴾ ، لأن لفظه مفرد ، فراعى جانب اللفظ . وقد ذهب البصريون إلى أن كلتا وكلا اسم مفرد غير مثنى . وقال الفراء : هو مثنى ، وهو مأخوذ من كل فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية . وقال سيبويه : ألف كلتا للتأنيث ، والتاء بدل من لام الفعل ، وهى واو ، والأصل : كلوا ، وقال أبو عمرو : التاء ملحقة ، وأكلهما : هو ثمرهما ، وفيه دلالة على أنه قد صار صالحاً للأكل . وقرأ عبد الله بن مسعود : « كل الجنتين آتى أكله » . ﴿ ولم تظلم منه شيئاً ﴾ أى لم تنقص من أكلها شيئاً ، يقال : ظلمه حقه ، أى نقصه ، ووصف الجنتين بهذه الصفة للإشعار بأنهما على خلاف ما يعتاد فى سائر البساتين ؛ فإنها فى الغالب تكثر فى عام ، وتقل فى عام ﴿ وفجرنا خلالهما نهراً ﴾ أى أجرينا وشققنا وسط الجنتين نهراً ليسقيهما دائماً من غير انقطاع ، وقرئ : ﴿ ففجرنا ﴾ بالتشديد للمبالغة ، وبالتخفيف على الأصل .

﴿ وكان له ﴾ أى لصاحب الجنتين ﴿ ثمر ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم ويعقوب وابن أبى إسحاق ﴿ ثمر ﴾ بفتح التاء والميم ، وكذلك قرؤوا فى قوله : ﴿ أحيط بثمره ﴾ وقرأ أبو عمرو بضم التاء وإسكان الميم فيهما ، وقرأ الباقر بضمهما جميعاً فى الموضعين . قال الجوهري : الثمرة واحدة الثمر ، وجمع الثمر : ثمار ، مثل : جبل وجبال . قال الفراء : وجمع الثمار : ثمر . مثل : كتاب وكتب ، وجمع الثمر : أثمار . مثل : عنق وأعناق . وقيل : الثمر : جميع المال من الذهب والفضة ، والحيوان وغير ذلك . وقيل : هو الذهب والفضة خالصة ﴿ فقال لصاحبه ﴾ أى قال صاحب الجنتين الكافر لصاحبه المؤمن ﴿ وهو يحاوره ﴾ أى

والكافر يحاور المؤمن ، والمعنى: يراجعه الكلام ويجاوبه ، والمحاورة : المراجعة ، والتحاور: التجاوب ﴿ أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ﴾ النفرا : الرهط ، وهو ما دون العشرة ، وأرادها هنا الأتباع والخدم والأولاد .

﴿ ودخل جنته ﴾ أى دخل الكافر جنة نفسه . قال المفسرون : أخذ بيد أخيه المسلم ، فأدخله جنته يطوف به فيها ، ويريه عجائبها ، وإفراد الجنة هنا يحتمل أن وجهه: كونه لم يدخل أخاه إلا واحدة منهما ، أو لكونهما لما اتصلا كانا كواحدة ، أو لأنه أدخله فى واحدة ، ثم واحدة أو لعدم تعلق الغرض بذكرهما . وما أبعد ما قاله صاحب الكشف (١) أنه وحد الجنة للدلالة على أنه لا نصيب له فى الجنة التى وعد المؤمنين ، وجملة : ﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ فى محل نصب على الحال أى وذلك الكافر ظالم لنفسه بكفره وعجبه ﴿ قال ما أظن أن تبید هذه أبدا ﴾ أى قال الكافر لفرط غفلته وطول أمله: ما أظن أن تنفى هذه الجنة التى تشاهدها .

﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته . قال الزجاج : أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة ﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا ﴾ اللام هى الموطئة للقسم ، والمعنى : أنه إن يرد إلى ربه فرضا وتقديرا كما زعم صاحبه ، واللام فى ﴿ لأجدن ﴾ جواب القسم ، والشرط ، أى لأجدن يومئذ خيرا من هذه الجنة . فى مصاحف مكة والمدينة والشام : « خيرا منها » وفى مصاحف أهل البصرة والكوفة ﴿ خيرا منها ﴾ على الأفراد ، و﴿ منقلبا ﴾ منتصب على التمييز ، أى مرجعا وعاقبة ، قال هذا قياسا للغائب على الحاضر ، وأنه لما كان غنيا فى الدنيا ، سيكون غنيا فى الأخرى ، اغترارا منه بما صار فيه من الغنى الذى هو استدراج له من الله .

﴿ قال له صاحبه ﴾ أى قال للكافر صاحبه المؤمن حال محاورته له منكرا عليه ما قاله : ﴿ أكفرت بالذى خلقك من تراب ﴾ بقولك : ﴿ ما أظن الساعة قائمة ﴾ وقال : خلقك من تراب ، أى جعل أصل خلقك من تراب حيث خلق أباك آدم منه ، وهو أصلك ، وأصل البشر فلكل فرد حظ من ذلك . وقيل : يحتمل أنه كان كافرا بالله فأنكر عليه ما هو عليه من الكفر ، ولم يقصد أن الكفر حدث له بسبب هذه المقالة ﴿ ثم من نطفة ﴾ وهى المادة القريبة ﴿ ثم سواك رجلا ﴾ أى صيرك إنسانا ذكرا ، وعدل أعضائك وكملك ، وفى هذا تلويح بالدليل على البعث ، وأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة ، وانتصاب ﴿ رجلا ﴾ على الحال أو التمييز .

﴿ لكننا هو الله ربى ﴾ كذا قرأ الجمهور بإثبات الألف بعد لكن المشددة . وأصله: لكن أنا ، حذفت الهمزة وألقيت حركتها على النون الساكنة قبلها فصار لكننا ، ثم استثقلوا اجتماع النونين فسكنت الأولى وأدغمت الثانية ، وضمير هو للشأن ، والجملة بعده خبره والمجموع خبر أنا ، والراجع ياء الضمير ، وتقدير الكلام : لكن أنا الشأن الله ربى . قال أهل العربية : إثبات

ألف أنا فى الوصل ضعيف . قال النحاس : مذهب الكسائى والفراء والمازنى أن الأصل : لكن أنا ، وذكر نحو ما قدمنا . وروى عن الكسائى أن الأصل : لكن الله هو ربى أنا . قال الزجاج : إثبات الألف فى لكنا فى الإدراج جيد لأنها قد حذفت الألف من أنا ، فجاءوا بها عوضا ، قال : وفى قراءة أبى : « لكن أنا هو الله ربى » وقرأ ابن عامر والمثنى عن نافع ، وورش عن يعقوب : ﴿ لكنا ﴾ فى حال الوصل والوقف معا بإثبات الألف ، ومثله قول الشاعر :

أنا سيف العشيرة فاعرفونى جميعا قد تذريرت السناما

ومنه قول الأعشى :

فكيف أنا وانتحالى القوافى بعد المشيب كفى ذاك عارا

ولا خلاف فى إثباتها فى الوقف ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى وأبو العالية ، وروى عن الكسائى : « لكن هو الله ربى » ثم نفى عن نفسه الشرك بالله ، فقال : ﴿ ولا أشرك بربى أحدا ﴾ وفيه إشارة إلى أن أخاه كان مشركا .

ثم أقبل عليه يلومه فقال : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ﴾ لولا للتحضيض ، أى هلا قلت عندما دخلتها هذا القول . قال الفراء والزجاج : « ما » فى موضع رفع على معنى : الأمر ما شاء الله ، أى هلا قلت حين دخلتها : الأمر بمشيئة الله ، وما شاء الله كان ، ويجوز أن تكون « ما » مبتدأ والخبر مقدر ، أى ما شاء الله كائن ، ويجوز أن تكون « ما » شرطية والجواب محذوف ، أى أى شىء شاء الله كان ﴿ لا قوة إلا بالله ﴾ أى هلا قلت : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، تحضيضا له على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله ، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ، وعلى الاعتراف بالعجز ، وأن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله ، لا بقوته وقدرته . قال الزجاج : لا يقوى أحد على ما فى يده من ملك ونعمة إلا بالله ، ولا يكون إلا ما شاء الله . ثم لما علمه الإيمان وتفويض الأمور إلى الله سبحانه أجابه على افتخاره بالمال والنفر فقال : ﴿ إن ترنى أنا أقل منك مالا وولدا ﴾ المفعول الأول : ياء الضمير ، و ﴿ أنا ﴾ : ضمير فصل ، و ﴿ أقل ﴾ : المفعول الثانى للرؤية إن كانت علمية ، وإن جعلت بصرية كان انتصاب ﴿ أقل ﴾ على الحال ، ويجوز أن يكون ﴿ أنا ﴾ تأكيد لياء الضمير ، وانتصاب ﴿ مالا ﴾ و ﴿ ولدا ﴾ على التمييز .

﴿ فعسى ربى أن يؤتيني خيرا من جنتك ﴾ هذا جواب الشرط ، أى إن ترنى أفقر منك ، فانا أرجو أن يرزقنى الله سبحانه جنة خيرا من جنتك فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما ﴿ ويرسل عليها حسابانا ﴾ أى ويرسل على جنتك حسابانا . والحسبان مصدر ، بمعنى : الحساب كالغفران ، أى مقدار قدره الله عليها ، ووقع فى حسابها سبحانه ، وهو الحكم بتخريبها . قال الزجاج : الحسبان من الحساب ، أى يرسل عليها عذاب الحساب ، وهو حساب ما كسبت يداك . وقال الأخفش : حسابنا : أى مرامى ﴿ من السماء ﴾ واحدا حسابانه ، وكذا قال أبو عبيدة

والقتيبى . وقال ابن الأعرابى : الحسبانة : السحابة ، والحسبانة : الوسادة ، والحسبانة : الصاعقة . وقال النضر بن شميل : الحسبان : سهام يرمى بها الرجل فى جوف قصبة تنزع فى قوس ، ثم يرمى بعشرين منها دفعة ، والمعنى : يرسل عليها مرامى من عذابه : إما برد ، وإما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب . ومنه قول زياد الكلابى :

أصاب الأرض حسان

أى جراد . ﴿ فتصبح صعيدا زلقا ﴾ أى فتصبح جنة الكافر بعد إرسال الله سبحانه عليها حسانا صعيدا ، أى أرضا لا نبات بها وقد تقدم تحقيقه ، ﴿ زلقا ﴾ أى تزلق فيها الأقدام للاستها ، يقال : مكان زلقى بالتحريك ، أى دحض ، وهو فى الأصل مصدر قولك : زلقت رجلك تزلق زلقا وأزلقها غيره ، والمزقة : الموضع الذى لا يثبت عليه قدم ، وكذا الزلاقة ، وصف الصعيد بالمصدر مبالغة ، أو أريد به المفعول . وجملة : ﴿ أو يصبح ماؤها غورا ﴾ معطوفة على الجملة التى قبلها ، والغور : الغائر . وصف الماء بالمصدر مبالغة ، والمعنى : أنها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له ، وكان خلالها ذلك النهر يسقيها دائما ، ويجىء الغور بمعنى : الغروب ، ومنه قول أبى ذؤيب :

هل الدهر إلا ليلة ونهارها وإلا طلوع الشمس ثم غيارها

﴿ فلن تستطيع له طلبا ﴾ أى لن تستطيع طلب الماء الغائر فضلا عن وجوده ورده ولا تقدر عليه بحيلة من الخيل . وقيل المعنى : فلن تستطيع طلب غيره عوضا عنه .

ثم أخبر سبحانه عن وقوع ما رجاء ذلك المؤمن وتوقعه من إهلاك جنة الكافر فقال : ﴿ وأحيط بشمره ﴾ قد قدمنا اختلاف القراء فى هذا الحرف وتفسيره ، وأصل الإحاطة من إحاطة العدو بالشخص كما تقدم فى قوله : ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ [يوسف : ٦٦] وهى عبارة عن إهلاكه وإفناؤه ، وهو معطوف على مقدر كأنه قيل : فوق ما توقعه المؤمن وأحيط بشمره ﴿ فأصبح يقلب كفيه ﴾ أى يضرب إحدى يديه على الأخرى ، وهو كناية عن الندم ، كأنه قيل : فأصبح يندم ﴿ على ما أنفق فيها ﴾ أى فى عمارتها وإصلاحها من الأموال وقيل : المعنى : يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق ، لأن الملك قد يعبر عنه باليد من قولهم : فى يده مال ، وهو بعيد جدا ، وجملة : ﴿ وهى خاوية على عروشها ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أن تلك الجنة ساقطة على دعائمها التى تعتمد بها الكروم أو ساقط بعض تلك الجنة على بعض ، مأخوذ من خوت النجوم تخوى : إذا سقطت ولم تمطر فى نوائها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ [النمل : ٥٢] قيل : وتخصيص ماله عروش بالذكر دون النخل والزرع لأنه الأصل ، وأيضا إهلاكها مغن عن ذكر إهلاك الباقي ، وجملة : ﴿ ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا ﴾ معطوفة على ﴿ يقلب كفيه ﴾ ، أو حال من ضميره أى وهو يقول تمنى عند مشاهدته لهلاك جنته بأنه لم يشرك بالله حتى تسلم جنته من الهلاك ، أو كان

هذا القول منه على حقيقته ، لا لما فاتته من الغرض الدنيوى ، بل لقصد التوبة من الشرك والندم على ما فرط منه .

﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ﴾ ﴿ فئة ﴾ اسم كان و﴿ له ﴾ خبرها ، و﴿ ينصرونه ﴾ صفة لفئة أى فئة ناصرة ، ويجوز أن تكون ، ﴿ ينصرونه ﴾ الخبر ، ورجح الأول سيويه ، ورجح الثانى : المبرد ، واحتج بقوله : ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ [الإخلاص : ٤] والمعنى : أنه لم تكن له فرقة وجماعة يلتجئ إليها ويتنصر بها ، ولا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق ﴿ وما كان ﴾ فى نفسه ﴿ منتصرا ﴾ أى ممتنعا بقوته عن إهلاك الله لجنته ، وانتقامه منه .

﴿ هنالك الولاية لله الحق ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائى : « الحق » بالرفع نعتا للولاية ، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وعاصم وحمزة : ﴿ الحق ﴾ بالجر نعتا لله سبحانه . قال الزجاج : ويجوز النصب على المصدر والتوكيد كما تقول : هذا لك حقا . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى : « الولاية » بكسر الواو ، وقرأ الباقر بفتحها ، وهما لغتان بمعنى ، والمعنى : هنالك ، أى فى ذلك المقام ، النصر لله وحده لا يقدر عليها غيره . وقيل : هو على التقديم والتأخير ، أى الولاية لله الحق هنالك ﴿ هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾ أى هو سبحانه خير ثوابا لأولياؤه فى الدنيا والآخرة ﴿ وخير عقبا ﴾ أى عاقبة ، قرأ الأعمش وعاصم وحمزة : ﴿ عقبا ﴾ بسكون القاف ، وقرأ الباقر بضمها ، وهما بمعنى واحد أى هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به ، يقال : هذا عاقبة أمر فلان ، وعقباه ، أى أخراه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ جعلنا لأحدهما جنتين ﴾ قال : الجنة : هى البستان ، فكان له بستان واحد وجدار واحد ، وكان بينهما نهر ، فلذلك كانا جنتين ، ولذلك سماه جنة من قبل الجدار الذى عليها . وأخرج ابن أبى حاتم عن يحيى بن أبى عمرو الشيبانى قال : نهر أبى قرطس نهر الجنتين . قال ابن أبى حاتم : وهو نهر مشهور بالرملة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ ولم تظلم منه شيئا ﴾ قال : لم تنقص ، كل شجر الجنة أطعم . وأخرج ابن أبى حاتم عن طريق على بن أبى طلحة عنه ﴿ وكان له ثمر ﴾ يقول : مال . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ، قال : قرأها ابن عباس : « وكان له ثمر » بالضم ، وقال : هى أنواع المال . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ وكان له ثمر ﴾ قال : ذهب وفضة . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ يقول : كفور بنعمة ربه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أسماء بنت عميس قالت : علمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن عند الكرب : « الله الله ربي لا أشرك به شيئا » . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن يحيى بن سليم الطائفى عن ذكره قال : « طلب موسى من ربه حاجة فأبطأت عليه فقال : ما شاء الله ، فإذا حاجته بين يديه ، فقال : يارب ، إني أطلب حاجتى منذ كذا وكذا أعطيتها

الآن ، فأوحى الله إليه : يا موسى ، أما علمت أن قولك : ما شاء الله أنجح ما طلبت به الحوائج . وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله إلا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتبه منيته ، وقرأ : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ ^(١) وفى إسناده عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس . قال أبو الفتح الأزدي : عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس لا يصح حديثه ^(٢) . وأخرج ابن أبى حاتم من وجه آخر عن أنس نحوه موقوفا . وأخرج البيهقى فى الشعب عنه نحوه مرفوعا . وأخرج أحمد من حديث أبى هريرة قال : قال لى نبي الله ﷺ : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش ؟ » قلت : نعم ، قال : « أن تقول : لا قوة إلا بالله » ^(٣) . وقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى موسى أن النبي ﷺ قال له : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » ^(٤) . وقد وردت أحاديث وآثار عن السلف فى فضل هذه الكلمة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فتصبح صعيدا زلقا ﴾ قال : مثل الجز . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ حسبانا من السماء ﴾ قال : عذابا ﴿ فتصبح صعيدا زلقا ﴾ أى قد حصد ما فيها فلم يترك فيها شيء ﴿ أو يصبح مأوها غورا ﴾ أى ذاهبا قد غار فى الأرض ﴿ وأحيط بشمره فأصبح يقلب كفيه ﴾ قال : يصفق ﴿ على ما أنفق فيها ﴾ متلهفا على ما فاته .

﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقبذرا ﴾ (٤٥) المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴿ (٤٦) .

ثم ضرب سبحانه مثلا آخر لجبابرة قريش فقال : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ﴾ أى اذكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا فى حسناتها ونضارتها وسرعة زوالها لثلا يركنوا إليها . وقد تقدم هذا المثل فى سورة يونس ، ثم بين سبحانه هذا المثل فقال : ﴿ كماء أنزلناه من السماء ﴾ ويجوز أن يكون هذا هو المفعول الثانى لقوله : ﴿ اضرب ﴾ على جعله بمعنى : صير ﴿ فاختلط به نبات الأرض ﴾ أى اختلط بالماء نبات الأرض حتى استوى . وقيل : المعنى : إن النبات اختلط بعضه

(١) البيهقى فى الشعب (٤٢٠٧) وإسناده ضعيف . وأورده ابن حجر فى المطالب العالية (٣٦٧٣) ونسبه لأبى يعلى .

(٢) ابن كثير ٣٨٨/٤ .

(٣) أحمد ٤٦٩/٢ ، ٥٢٠ ، ٥٢٥ ، ٥٣٥ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/١٠٢ : « أخرجه أحمد والبخاري ورجالهما رجال الصحيح غير أبى بلج الكبير وهو ثقة » .

(٤) البخارى فى المغازى (٤٢٠٥) وفى الدعوات (٦٤٠٩) وفى القدر (٦٦١٠) ومسلم فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٤٥٠٤/٢٧٠٤) .

ببعض حين نزل عليه الماء ، لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر ، فتكون الباء فى ﴿ به ﴾ سببية ﴿ فأصبح ﴾ النبات ﴿ هشيم ﴾ الهشيم : الكسير ، وهو من النبات ما تكسر بسبب انقطاع الماء عنه وتفتت ، ورجل هشيم : ضعيف البدن ، وتهشم عليه فلان : إذا تعطف ، واهتشم ما فى ضرع الناقة إذا احتلبه ، وهشم الثريد كسره وثرده ، ومنه قول ابن الزبيرى :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف

﴿ تذروه الرياح ﴾ : تفرقه . قال أبو عبيدة وابن قتبية : تذروه : تنسفه ، وقال ابن كيسان : تذهب به وتجيء ، والمعنى متقارب . وقرأ طلحة بن مصرف : « تذريه الريح » قال الكسائى : وفى قراءة عبد الله « تذريه » يقال : ذرته الريح تذروه ، وأذرته تذريه . وحكى الفراء أذريت الرجل عن فرسه ، أى قلبته ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدرا ﴾ أى على كل شيء من الأشياء يحييه ويفنيه بقدرته لا يعجز عن شيء .

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ هذا رد على الرؤساء الذين كانوا يفتخرون بالمال والغنى والأبناء ، فأخبرهم سبحانه أن ذلك مما يتزين به فى الدنيا لا مما ينفع فى الآخرة ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ [التغابن : ١٥] وقال : ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ [التغابن : ١٤] ولهذا عقب هذه الزينة الدنيوية بقوله : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ أى أعمال الخير ، وهى ما كان يفعله فقراء المسلمين من الطاعات ﴿ خير عند ربك ثوابا ﴾ أى أفضل من هذه الزينة بالمال والبنين ثوابا ، وأكثر عائدة ومنفعة لأهلها ﴿ وخير أملا ﴾ أى أفضل أملا ، يعنى : أن هذه الأعمال الصالحة لأهلها من الأمل أفضل مما يؤمله أهل المال والبنين ، لأنهم ينالون بها فى الآخرة أفضل مما كان يؤمله هؤلاء الأغنياء فى الدنيا ، وليس فى زينة الدنيا خير حتى تفضل عليها الآخرة ، ولكن هذا التفضيل خرج مخرج قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا ﴾ [الفرقان : ٢٤] ، والظاهر أن الباقيات الصالحات كل عمل خير فلا وجه لقصرها على الصلاة كما قال بعض ، ولا لقصرها على نوع من أنواع الذكر كما قاله بعض آخر ، ولا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وبهذا تعرف أن تفسير الباقيات الصالحات فى الأحاديث بما سيأتى لا ينافى إطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن على قال : ﴿ المال والبنون ﴾ حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد جمعهما الله لأقوام . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قال : سبحانه الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى : أن رسول الله ﷺ قال : « استكثروا من الباقيات الصالحات » ، قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : « التكبير والتهليل والتسبيح

والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله » (١) . وأخرج الطبراني وابن شاهين وابن مردويه عن أبي الدرداء مرفوعاً بلفظ : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هن الباقيات الصالحات » . وأخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الصغير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً : «خذوا جنتكم» ، قيل : يا رسول الله ، من أى عدو قد حضر ؟ قال : « بل جنتكم من النار قول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومجربات ، وهى الباقيات الصالحات » (٢) . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن مردويه عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال : « ألا وإن سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، الباقيات الصالحات » (٣) . وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أنس مرفوعاً ، وزاد : « التكبير » وسماههن الباقيات الصالحات . وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أبي هريرة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه من حديث عائشة مرفوعاً نحوه ، وزادت : « ولا حول ولا قوة إلا بالله » . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من حديث على مرفوعاً نحوه . وأخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً فذكر نحوه دون الحوقلة . وأخرج الطبراني عن سعد بن جنادة مرفوعاً نحوه (٤) . وأخرج البخاري في تاريخه ، وابن جرير عن ابن عمر من قوله نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس من قوله نحوه . وكل هذه الأحاديث مصرحة بأنها الباقيات الصالحات ، وأما ما ورد في فضل هذه الكلمات من غير تقييد بكونها المرادة في الآية فأحاديث كثيرة لا فائدة في ذكرها هنا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : كل شيء من طاعة الله ، فهو من الباقيات الصالحات .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾

(١) أحمد ٧٥/٣ وأبو يعلى (١٣٨٤) وابن جرير ١٦٧/١٥ وابن حبان (٨٣٧) وصححه الحاكم ٥١٢/١ ووافقه الذهبي وقال الهيثمي في المجمع ٩٠/١٠ : « رواه أحمد وأبو يعلى وإسنادهما حسن . وله شواهد » .

(٢) النسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٦٨٤) وابن جرير ١٦٦/١٥ والطبراني في الصغير ١٤٥/١ وصححه الحاكم ٥٤١/١ على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب (٥٩٨) وقال الهيثمي في المجمع ٩٢/١٠ : « رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله في الصغير رجال الصحيح غير داود بن بلال وهو ثقة » .

(٣) أحمد ٢٦٨/٤ وقال الهيثمي في المجمع ٢٥٠/٥ : « قلت له : حديث في الباقيات الصالحات غير هذا رواه ابن ماجه : رواه أحمد وفيه راو لم يسم بقبيلة رجاله رجال الصحيح » .

(٤) الطبراني (٥٤٨٢ ، ٥٤٨٣) وقال الهيثمي في المجمع ١٦٩/٧ : « وفيه الحسين بن الحسن العوفي ، وهو ضعيف » .

(٤٨) وَوَضَعَ الْكِتَابُ فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) مَا أَشْهَدُتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) .

وقوله : ﴿ ويوم نسير الجبال ﴾ قرأ الحسن وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : « تسير » بمثناة فوقية مضمومة وفتح الياء التحتية على البناء للمفعول ، ورفع الجبال على النيابة عن الفاعل . وقرأ ابن محيصة ومجاهد : « تسير » بفتح التاء الفوقية والتخفيف على أن الجبال فاعل . وقرأ الباقر : ﴿ نسير ﴾ بالنون على أن الفاعل هو الله سبحانه والجبال منصوبة على المفعولية ، ويناسب القراءة الأولى قوله تعالى : ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ [التكوين : ٣] ، ويناسب القراءة الثانية قوله تعالى : ﴿ وتسير الجبال سيرا ﴾ [الطور : ١٠] واختار القراءة الثالثة أبو عبيدة لأنها المناسبة لقوله : ﴿ وحشرناهم ﴾ قال بعض النحويين : التقدير : والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسير الجبال . وقيل : العامل في الظرف فعل محذوف ، والتقدير : واذكر يوم نسير الجبال ، ومعنى تسيير الجبال : إزالتها من أماكنها وتسييرها كما تسير السحاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وهى تمر مر السحاب ﴾ [النمل : ٨٨] ، ثم تعود إلى الأرض بعد أن جعلها الله كما قال : ﴿ وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا ﴾ [الواقعة : ٥ ، ٦] . والخطاب فى قوله : ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح للرؤية ، ومعنى بروزها : ظهورها وزوال ما يسترها من الجبال والشجر والبنيان . وقيل : المعنى يبرزها : بروز ما فيها من الكنوز والأموات كما قال سبحانه : ﴿ وألقى ما فيها وتخلت ﴾ [الانشقاق : ٤] ، وقال : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ [الزلزلة : ٢] فيكون المعنى : وترى الأرض بارزا ما فى جوفها ﴿ وحشرناهم ﴾ أى الخلائق ، ومعنى الحشر : الجمع ، أى جمعناهم إلى الموقف من كل مكان ﴿ فلم يغادر منهم أحدا ﴾ فلم نترك منهم أحدا ، يقال : غادره وأغدره إذا تركه ، قال عترة :

غادرته متعفرا أوصاله والقوم بين مجرح ومجندل

أى تركته ، ومنه الغدر ، لأن الغادر ترك الوفاء للمغدور ، قالوا : وإنما سمي الغدير غديرا ؛ لأن الماء ذهب وتركه ، ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها ﴿ وعرضوا على ربك صفا ﴾

انتصاب ﴿ صفا ﴾ على الحال ، أى مصفوفين كل أمة وزمرة صف . وقيل : عرضوا صفا واحدا كما فى قوله : ﴿ ثم اتوا صفا ﴾ [طه : ٦٤] أى جميعا . وقيل : قياما . وفى الآية تشبيه حالهم بحال الجيش الذى يعرض على السلطان ﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ هو على إضمار القول ، أى قلنا لهم لقد جئتمونا ، والكاف فى ﴿ كما خلقناكم ﴾ نعت مصدر محذوف ، أى مجيئا كائنا كمجيئكم عندما خلقناكم أول مرة ، أو كائنين كما خلقناكم أول مرة ، أى حفاة عراة غرلا ، كما ورد ذلك فى الحديث ^(١) . قال الزجاج : أى بعثناكم وأعدناكم كما خلقناكم ، لأن قوله : ﴿ لقد جئتمونا ﴾ معناه : بعثناكم ﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ﴾ هذا إضراب وانتقال من كلام إلى كلام للتقريع والتوبيخ ، وهو خطاب لمنكرى البعث ، أى زعمتم فى الدنيا أن لن تبعثوا ، وأن لن نجعل لكم موعدا نجازيكم بأعمالكم وننجز ما وعدناكم به من البعث والعذاب .

وجملة : ﴿ ووضع الكتاب ﴾ معطوفة على ﴿ عرضوا ﴾ ، والمراد بالكتاب : صحائف الأعمال ، وأفرده لكون التعريف فيه للجنس . والوضع إما حسى بأن يوضع صحيفة كل واحد فى يده : السعيد فى يمينه ، والشقى فى شماله ؛ أو فى الميزان . وإما عقلى ، أى أظهر عمل كل واحد من خير وشر بالحساب الكائن فى ذلك اليوم ﴿ فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ أى خائفين وجلين مما فى الكتاب الموضوع لما يتعقب ذلك من الافتضاح فى ذلك الجمع ، والمجازاة بالعذاب الأليم ﴿ ويقولون يا ويلتنا ﴾ يدعون على أنفسهم بالويل لوقوعهم فى الهلاك ، ومعنى هذا النداء قد تقدم تحقيقه فى المائدة ﴿ مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ أى أى شئ له لا يترك معصية صغيرة ولا معصية كبيرة إلا حواها وضبطها وأثبتها ﴿ ووجدوا ما عملوا ﴾ فى الدنيا من المعاصى الموجبة للعقوبة ، أو وجدوا جزاء ما عملوا ﴿ حاضرا ﴾ مكتوبا مثبتا ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾ أى لا يعاقب أحدا من عباده بغير ذنب ، ولا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذى يستحقه .

ثم إنه سبحانه عاد إلى الرد على أرباب الخيلاء من قريش ، فذكر قصة آدم واستكبار إبليس عليه فقال : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ أى واذكر وقت قولنا لهم : اسجدوا سجود تحية وتكريم ، كما مر تحقيقه ﴿ فسجدوا ﴾ طاعة لأمر الله وامتنالا لطلبه السجود ﴿ إلا إبليس ﴾ فإنه أبى واستكبر ولم يسجد ، وجملة ﴿ كان من الجن ﴾ مستأنفة لبيان سبب عصيانه وأنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة فلهذا عصى ، ومعنى : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ أنه خرج عن طاعة ربه . قال الفراء : العرب تقول : فسقت الرطبة عن قشرها لخروجها منه . قال النحاس : اختلف فى معنى ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ على قولين : الأول مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى : أتاه الفسق لما أمر فعصى فكان سبب الفسق أمر ربه . كما تقول : أطعمه عن جوع .

(١) روى البخارى ومسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا » الحديث . البخارى فى الرقاق (٦٥٢٧) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٥٦/٢٨٥٩ ، ٥٦ م) .

والقول الآخر قول قطرب : أن المعنى على حذف المضاف ، أى فسق عن ترك أمره . ثم إنه سبحانه عجب من حال من أطاع إبليس فى الكفر والمعاصى وخالف أمر الله فقال : ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء﴾ كأنه قال : أعقيب ما وجد منه من الإباء والفسق تتخذونه وتتخذون ذريته أى أولاده ، وقيل : أتباعه مجازاً . ﴿أولياء من دونى﴾ فتطيعونهم بدل طاعنى وتستبدلونهم بى ، والحال أنهم ، أى إبليس وذريته ﴿لكم عدو﴾ أى أعداء . وأفرده لكونه اسم جنس ، أو لتشبيهه بالمصادر كما فى قوله : ﴿فإنهم عدو لى﴾ [الشعراء : ٧٧] ، وقوله : ﴿هم العدو﴾ [المنافقون : ٤] أى كيف تصنعون هذا الصنع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم بجميع ما أنتم فيه من النعم ؟ بمن لم يكن لكم منه منفعة قط ؛ بل هو عدو لكم يترقب حصول ما يضركم فى كل وقت ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾ أى الواضعين للشيء فى غير موضعه المستبدلين بطاعة ربهم طاعة الشيطان ، فبئس ذلك البدل الذى استبدلوه بدلاً عن الله سبحانه .

﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ﴾ قال أكثر المفسرين : إن الضمير للشركاء ، والمعنى : أنهم لو كانوا شركاء لى فى خلق السموات والأرض وفى خلق أنفسهم لكانوا شاهدين خلق ذلك مشاركين لى فيه ، ولم يشاهدوا ذلك ولا أشهدتهم إياه أنا فليسوا لى بشركاء . وهذا استدلال بانتفاء الملزوم المساوى على انتفاء اللازم . وقيل : الضمير للمشاركين الذين التمسوا طرد فقراء المؤمنين ، والمراد : أنهم ما كانوا شركاء لى فى تدبير العالم بدليل أنى ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ : ما اعتضدت بهم بل هم كسائر الخلق ، وقيل : المعنى : أن هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلم فى الأزل ، لأنهم لم يكونوا مشاهدين خلق العالم ، فكيف يمكنهم أن يحكموا بحسن حالهم عند الله ، والأول من هذه الوجوه أولى لما يلزم فى الوجهين الآخرين من تفكيك الضميرين ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور ، وقرأ أبو جعفر : «ماأشهدناهم» وقرأ الباقر : ﴿ ما أشهدتهم ﴾ ويؤيده ﴿ وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ والعضد يستعمل كثيراً فى معنى العون ، وذلك أن العضد قوام اليد ، ومنه قوله : ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ [القصص : ٣٥] أى سنعينك ونقويك به ، ويقال : أعضدت بفلان : إذا استعنت به ، وذكر العضد على جهة المثل ، وخص المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ ، والمعنى : ما استعنت على خلق السموات والأرض بهم ولا شاورتهم وماكنت متخذ الشياطين أو الكافرين أعواناً ، ووجد العضد لموافقة الفواصل . وقرأ أبو جعفر الجحدري : « وما كنت » بفتح التاء على أن الخطاب للنبي ﷺ أى وما كنت يا محمد متخذاً لهم عضداً ولا صح لك ذلك ، وقرأ الباقر بضم التاء ، وفى عضد لغات ثمان أفصحها فتح العين وضم الضاد ، وبها قرأ الجمهور . وقرأ الحسن : « عضد » بضم العين والضاد ، وقرأ عكرمة بضم العين وإسكان الضاد ، وقرأ الضحاك بكسر العين وفتح الضاد ، وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما ، ولغة تميم فتح العين وسكون الضاد .

ثم عاد سبحانه إلى ترهيبهم بأحوال القيامة فقال : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين

زعمتم ﴿ قرأ حمزة ويحيى بن وثاب وعيسى بن عمر : « نقول » بالنون ، وقرأ الباقر بالباء التحتية ، أى اذكر يوم يقول الله عز وجل للكفار توبيخا لهم وتقريعا : نادوا شركائى الذين زعمتم أنهم ينفعونكم ويشفعون لكم ، وأضافهم سبحانه إلى نفسه جريا على ما يعتقد المشركون ، تعالى الله عن ذلك ﴿ فذعوهم ﴾ أى فعلوا ما أمرهم الله به من دعاء الشركاء ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ إذ ذاك ، أى لم يقع منهم مجرد الاستجابة لهم ، فضلا عن أن ينفعوهم أو يدفعوا عنهم ﴿ وجعلنا بينهم موبقا ﴾ أى جعلنا بين هؤلاء المشركين وبين من جعلوهم شركاء لله موبقا ، ذكر جماعة من المفسرين أنه اسم واد عميق فرق الله به تعالى بينهم ، وعلى هذا فهو اسم مكان . قال ابن الأعرابى : كل حاجز بين شيئين فهو موبق . وقال الفراء : الموبق: المهلك . والمعنى : جعلنا تواصلهم فى الدنيا مهلكا لهم فى الآخرة . يقال : وبق يوبق فهو وبق ، هكذا ذكره الفراء فى المصادر . وحكى الكسائى : وبق يبق وبوقا فهو وابق ، والمراد بالمهلك على هذا هو : عذاب النار يشتركون فيه . والأول أولى ؛ لأن من جملة من زعموا أنهم شركاء الله : الملائكة وعزير والمسيح ، فالموبق: هو المكان الحائل بينهم . وقال أبو عبيدة: الموبق هنا : الموعد للهلاك ، وقد ثبت فى اللغة : أوبقه بمعنى أهلكه ، ومنه قول زهير :

ومن يشتري حسن الثناء بماله يصن عرضه عن كل شنعاء موبق

ولكن المناسب لمعنى الآية هو المعنى الأول .

﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم واقعوها ﴾ : ﴿ المجرمون ﴾ موضوع موضع الضمير للإشارة إلى زيادة الذم لهم بهذا الوصف المسجل عليهم به ، والظن هنا بمعنى اليقين . والمواقعة: المخالطة بالوقوع فيها . وقيل : إن الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون ذلك ظنا ﴿ ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾ أى معدلا يعدلون إليه ، أو انصرافا ، لأن النار قد أحاطت بهم من كل جانب . قال الواحدي : المصرف : الموضع الذى ينصرف إليه . وقال القتيبى : أى معدلا ينصرفون إليه . وقيل : ملجأ يلجؤون إليه . والمعنى متقارب فى الجميع .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ قال : ليس عليها بناء ولا شجر . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ﴾ قال : الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : الضحك . وزاد ابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم عنه قال : الصغيرة : التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين ، والكبيرة : القهقهة بذلك . وأقول : صغيرة وكبيرة نكرتان فى سياق النفى ، فيدخل تحت ذلك كل ذنب يتصف بصغر ، وكل ذنب يتصف بالكبر ، فلا يبقى من الذنوب شئ إلا أحصاه الله وما كان من الذنوب ملتبسا بين كونه صغيرا أو كبيرا ، فذلك إنما هو بالنسبة إلى العباد لا بالنسبة إلى الله سبحانه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس

قال : إن من الملائكة قبيلة يقال لهم الجن ، فكان إبليس منهم ، وكان يوسوس ما بين السماء والأرض ، فعصى فسخط الله عليه فمسخه الله شيطانا رجيمًا ^(١) . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ كان من الجن ﴾ قال : كان خازن الجنان ، فسمى بالجان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : قال : إن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازنا على الجنان . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال : قاتل الله أقواما زعموا أن إبليس كان من الملائكة طرفة عين ، إنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ﴾ قال : يقول ما أشهدت الشياطين الذين اتخذتم معى هذا ﴿ وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ قال : الشياطين عضدا ، قال : ولا اتخذتهم عضدا على شىء عضدوني عليه فأعانوني . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وجعلنا بينهم موبقا ﴾ يقول : مهلكا . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج أبو عبيد وهناد وابن المنذر عنه قال : واد فى جهنم . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن أنس فى الآية قال : واد فى جهنم من قيح ودم . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عمرو قال : هو واد عميق فى النار فرق الله به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة : وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ فظنوا أنهم مواقعوها ﴾ قال : علموا .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾
وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۝٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۝٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِلًا ۝٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۝٥٩﴾ .

(١) ابن جرير ١٧٠ / ١٥ والبيهقى فى الشعب (١٤٢) وقال : البيهقى رحمه الله : « فهذا إن ثبت دل على مفارقة هذه القبيلة غيرهم من الملائكة فى التسمية » . وإسناده حسن . وإبراهيم بن الحارث بن إسماعيل ثقة روى عنه البخارى ، و مترجم له فى سير أعلام النبلاء ٢٣ / ١٣ .

لما ذكر سبحانه افتخار الكفرة على فقراء المسلمين بأموالهم وعشائرتهم وأجابههم عن ذلك وضرب لهم الأمثال الواضحة ، حكى بعض أهوال الآخرة فقال : ﴿ ولقد صرفنا ﴾ أى كررنا ورددنا ﴿ فى هذا القرآن للناس ﴾ أى لأجلهم ولرعاية مصلحتهم ومنفعتهم ﴿ من كل مثل ﴾ من الأمثال التى من جملتها الأمثال المذكورة فى هذه السورة ، وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة بنى إسرائيل ، وحين لم يترك الكفار ما هم فيه من الجدال بالباطل ، ختم الآية بقوله : ﴿ وكان الإنسان أكثر شئ جدلاً ﴾ قال الزجاج : المراد بالإنسان : الكافر ، واستدل على أن المراد الكافر بقوله تعالى : ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ﴾ وقيل : المراد به فى الآية : النضر ابن الحرث ، والظاهر العموم وأن هذا النوع أكثر الأشياء التى يتأتى منها الجدال جدلاً ، ويؤيد هذا ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث على ، أن النبى ﷺ طرده وفاطمة ليلاً ، فقال : « ألا تصليان ؟ » فقلت : يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعبثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلى شيئاً ، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول : ﴿ وكان الإنسان أكثر شئ جدلاً ﴾ (١) . وانتصاب ﴿ جدلاً ﴾ على التمييز .

﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيتهم سنة الأولين ﴾ قد تقدم الكلام على مثل هذا فى سورة بنى إسرائيل ، وذكرنا أن « أن » الأولى فى محل نصب ، والثانية فى محل رفع . والهدى : القرآن ومحمد ﷺ ، والناس هنا هم : أهل مكة ، والمعنى على حذف مضاف : أى ما منع الناس من الإيمان والاستغفار إلا طلب إتيان سنة الأولين ، أو انتظار إتيان سنة الأولين ، وزاد الاستغفار فى هذه السورة لأنه قد ذكر هنا ما فرط منهم من الذنوب التى من جملتها جدالهم بالباطل ، وسنة الأولين هو أنهم إذا لم يؤمنوا عذبوا عذاب الاستئصال . قال الزجاج : سنتهم هو قولهم : ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ الآية : [الأنفال : ٣٢] ﴿ أو يأتيتهم العذاب ﴾ أى عذاب الآخرة ﴿ قبلاً ﴾ قال الفراء : إن قبلاً جمع قبيل ، أى متفرقاً يتلو بعضه بعضاً . وقيل : عياناً . وقيل : فجأة . ويناسب ما قاله الفراء قراءة أبى جعفر وعاصم والأعمش وحمزة والكسائى ويحيى بن وثاب وخلف ﴿ قبلاً ﴾ بضمين فإنه جمع قبيل ، نحو سبيل وسبل ، والمراد : أصناف العذاب ؛ ويناسب التفسير الثانى ، أى عياناً ، قراءة الباقرين بكسر القاف وفتح الباء أى مقابلة ومعينة . وقرئ بفتحتين على معنى : أو يأتيتهم العذاب مستقبلاً ، وانتصابه على الحال . فحاصل معنى الآية أنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون إلا عند نزول عذاب الدنيا المستأصل لهم ، أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة أو معانيته .

﴿ وما نرسل المرسلين ﴾ من رسلنا إلى الأمم ﴿ إلا ﴾ حال كونهم ﴿ مبشرين ﴾ للمؤمنين ﴿ ومنذرين ﴾ للكافرين ، فالاستثناء مفرغ من أعم العام ، وقد تقدم تفسير هذا ﴿ ويجادل

(١) البخارى فى التهجد (١١٢٧) ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٢٠٦/٧٧٥) والنسائى فى التفسير (٣٢٥) .

الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴿ أي ليزيلوا بالجدال بالباطل الحق ويبطلوه وأصل الدحض : الزلق . يقال : دحضت رجله ، أي زلقت تدحض دحضا ، ودحضت الشمس عن كبد السماء : زالت ، ودحضت حجته دحوضا : بطلت ، ومن ذلك قول طرفة :

أبا منذر رمت الوفاد فهبته وحدت كما حاد البعير عن الدحض

ومن مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسول : ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ [الشعراء : ١٥٤] ونحو ذلك : ﴿ واتخذوا آياتي ﴾ أي القرآن ﴿ وما أنذروا ﴾ به من الوعيد والتهديد ﴿ هزوا ﴾ أي لعبا وباطلا ، وقد تقدم هذا في البقرة .

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما فتهاون بها وأعرض عن قبولها ، ولم يتدبرها حق التدبر ويتفكر فيها حق التفكير ﴿ ونسى ما قدمت يداه ﴾ من الكفر والمعاصي ، فلم يتب عنها . قيل : والنسيان هنا بمعنى الترك . وقيل : هو على حقيقته ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ﴾ أي أغطية . والأكنة : جمع كنان ، والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم . قال الزجاج : أخبر الله سبحانه أن هؤلاء طبع على قلوبهم ﴿ وفي آذانهم وقرا ﴾ أي وجعلنا في آذانهم ثقلا يمنع من استماعه ، وقد تقدم تفسير هذا في الأنعام ﴿ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا ﴾ لأن الله قد طبع على قلوبهم بسبب كفرهم ومعاصيهم .

﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾ أي كثير المغفرة ، وصاحب الرحمة التي وسعت كل شيء فلم يعاجلهم بالعقوبة ، ولهذا قال : ﴿ لو يؤاخذهم بما كسبوا ﴾ أي بسبب ما كسبوه من المعاصي التي من جملتها الكفر والمجادلة والإعراض ﴿ لعجل لهم العذاب ﴾ لاستحقاقهم لذلك ﴿ بل ﴾ جعل ﴿ لهم موعد ﴾ أي أجل مقدر لعذابهم . قيل : هو عذاب الآخرة . وقيل : يوم بدر ﴿ لن يجدوا من دونه موثلا ﴾ أي ملجأ يلجؤون إليه . وقال أبو عبيدة : منجا . وقيل : محيصا ، ومنه قول الشاعر :

لا وا ألت نفسك خليتها للعامرين ولم تكلم

وقال الأعشى :

وقد أخالس رب البيت غفلته وقد يحاذر منى ثم ما يثل

أي ما ينجو . ﴿ وتلك القرى ﴾ أي قرى عاد وثمود وأمثالها ﴿ أهلكناهم ﴾ هذا خبر اسم الإشارة و﴿ القرى ﴾ صفته ، والكلام على حذف مضاف ، أي أهل القرى أهلكناهم ﴿ لما ظلموا ﴾ أي وقت وقوع الظلم منهم بالكفر والمعاصي ﴿ وجعلنا لمهلكهم موعدا ﴾ أي وقتا معيناً ، وقرأ أبو بكر عن عاصم مهلكهم بفتح الميم واللام ، وهو مصدر هلك ، وأجاز الكسائي والفراء كسر اللام وفتح الميم ، وبذلك قرأ حفص ، وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح اللام . وقال الزجاج مهلك : اسم للزمان ، والتقدير : لوقت مهلكهم .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سَنَةٌ الْأُولَى ﴾ قال : عقوبة الأولين . وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش فى قوله : ﴿ قَبْلًا ﴾ قال : جهارا . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : فجأة . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وَنَسَى مَا قَدَمَتْ يَدَاهُ ﴾ قال : نسى ما سلف من الذنوب الكثيرة . وأخرج أيضا عن ابن عباس : ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ يقول : بما عملوا . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى : ﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ ﴾ قال : الموعد يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ مَوْثَلًا ﴾ قال : ملجأ : وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ مَوْثَلًا ﴾ قال : محرزا .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا ﴾ (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) ﴿

الظرف فى قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ ﴾ متعلق بفعل محذوف هو اذكر . قيل : ووجه ذكر هذه القصة فى هذه السورة ، أن اليهود لما سألوا النبى ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وقالوا : إن أخبركم فهو نبى وإلا فلا . ذكر الله قصة موسى والخضر تنبيها على أن النبى لا يلزمه أن يكون عالما بجميع القصص والأخبار . وقد اتفق أهل العلم على أن موسى المذكور هو موسى ابن عمران النبى المرسل إلى فرعون ، وقالت فرقة لا التفات إلى ما تقوله منهم نوف البكالى : إنه ليس ابن عمران ، وإنما هو موسى بن ميثى بن يوسف بن يعقوب ، وكان نبيا قبل موسى ابن عمران ، وهذا باطل قد رده السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم كما فى صحيح البخارى وغيره ، والمراد بفتاه هنا : هو يوشع بن نون . قال الواحدى : أجمعوا على أنه يوشع ابن نون ، وقد مضى ذكره فى المائدة ، وفى آخر سورة يوسف ، ومن قال : إن موسى هو ابن ميثى قال : إن هذا الفتى لم يكن هو يوشع بن نون . قال الفراء : وإنما سمي فتى موسى لأنه كان ملازما له يأخذ عنه العلم ويخدمه ، ومعنى ﴿ لَا أَبْرَحُ ﴾ لا أزال ، ومنه قوله : ﴿ لَنْ

نبرح عليه عاكفين ﴿ طه : ٩١ ﴾ [ومنه قول الشاعر (١) :

وأبرح ما أدام الله قومي بحمد الله منتطقا مجيدا

وبرح إذا كان بمعنى زال فهو من الأفعال الناقصة ، وخبره هنا محذوف اعتمادا على دلالة ما بعده وهو ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ قال الزجاج : لا أبرح بمعنى : لا أزال ، وقد حذف الخبر للدلالة حال السفر عليه ، ولأن قوله : ﴿ حتى أبلغ ﴾ غاية مضروبة ، فلا بد لها من ذى غاية ، فالمعنى : لا أزال أسير إلى أن أبلغ ، ويجوز أن يراد : لا يبرح مسيرى حتى أبلغ وقيل : معنى ﴿ لا أبرح ﴾ : لا أفارقك حتى أبلغ مجمع البحرين . وقيل : يجوز أن يكون من برح التام ، بمعنى زال يزال ، ومجمع البحرين : ملتقاهما . قيل : المراد بالبحرين : بحر فارس والروم . وقيل : بحر الأردن وبحر القلزم . وقيل : مجمع البحرين عند طنجة . وقيل : بإفريقية . وقالت طائفة : المراد بالبحرين موسى والخضر ، وهو من الضعف بمكان ، وقد حكى عن ابن عباس ولا يصح . ﴿ أو أمضى حقبا ﴾ أى أسير زمانا طويلا . قال الجوهري : الحقب بالضم : ثمانون سنة . وقال النحاس : الذى يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبة : زمان من الدهر مبهم غير محدود ، كما أن رهطا وقوما منهم غير محدود ، وجمعه أحقاب . وسبب هذه العزيمة على السير من موسى عليه السلام ما روى أنه سئل موسى من أعلم الناس ؟ فقال : أنا ، فأوحى الله إليه : إن أعلم منك عبد لى عند مجمع البحرين .

﴿ فلما بلغا ﴾ أى موسى وفتاه ﴿ مجمع بينهما ﴾ أى بين البحرين ، وأضيف مجمع إلى الظرف توسعا . وقيل : البين : بمعنى الافتراق ، أى البحران المفترقان يجتمعان هناك . وقيل : الضمير لموسى والخضر أى وصلا الموضع الذى فيه اجتماع شملهما ، ويكون البين على هذا بمعنى الوصل ، لأنه من الأضداد ، والاول أولى . ﴿ نسيا حوتهما ﴾ قال المفسرون : إنهما تزودا حوتا ملحا فى زنبيل ، وكانا يصيبان منه عند حاجتهما إلى الطعام ، وكان قد جعل الله فقدهانه أمانة لهما على وجدان المطلوب . والمعنى : أنهما نسيا بفقد أمره . وقيل : الذى نسى إنما هو فتى موسى ، لأنه وكل أمر الحوت إليه ، وأمره أن يخبره إذا فقده ، فلما انتهيا إلى ساحل البحر وضع فتاه المکتل الذى فيه الحوت فأحياه الله ، فتحرك واضطرب فى المکتل ، ثم انسرب فى البحر ، ولهذا قال : ﴿ فاتخذ سبيله فى البحر سربا ﴾ انتصاب ﴿ سربا ﴾ على أنه المفعول الثانى لـ ﴿ اتخذ ﴾ أى اتخذ سبيلا سربا . والسرب : النفق الذى يكون فى الأرض للضب ونحوه من الحيوانات ، وذلك أن الله سبحانه أمسك جرية الماء على الموضع الذى انسرب فيه الحوت فصار كالطاق ، فشبه مسلك الحوت فى البحر مع بقائه وانجياب الماء عنه بالسرب الذى هو الكوة المحفورة فى الأرض . قال الفراء : لما وقع فى الماء جمده مذهبه فى البحر فكان كالسرب ، فلما جاوزا ذلك المكان الذى كانت عنده الصخرة وذهب الحوت فيه انطلقا ،

(١) الشاعر : هو خدش بن زهير ، وكان يثنى فيه على قومه .

فأصابهما ما يصيب المسافر من النصب والكلال ، ولم يجدا النصب حتى جاوزا الموضع الذى فيه الخضر ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ فلما جاوزا ﴾ أى : مجمع البحرين الذى جعل موعدا للملاقاة ﴿ قال لفتاه آتنا غداءنا ﴾ وهو ما يؤكل بالغداة ، وأراد موسى أن يأتيه بالحوث الذى حملاه معهما ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ أى تعباً وإعياء ، قال المفسرون : الإشارة بقوله : ﴿ سفرنا هذا ﴾ إلى السفر الكائن منهما بعد مجاوزة المكان المذكور ، فإنهما لم يجدا النصب إلا فى ذلك دون ما قبله .

﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ﴾ أى قال فتى موسى لموسى ، ومعنى الاستفهام : تعجيبه لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك الأمر مما لا ينسى ، لأنه قد شاهد أمراً عظيماً من قدرة الله الباهرة ، ومفعول ﴿ أرأيت ﴾ محذوف لدلالة ما ذكره من النسيان عليه ، والتقدير : أرأيت ما دهانى ، أو نابنى فى ذلك الوقت والمكان . وتلك الصخرة كانت عند مجمع البحرين الذى هو الموعد ، وإنما ذكرها دون أن يذكر مجمع البحرين لكونها متضمنة لزيادة تعيين المكان ، لاحتمال أن يكون المجمع مكاناً متسعاً يتناول مكان الصخرة وغيره ، وأوقع النسيان على الحوث دون الغداء الذى تقدم ذكره لبيان أن ذلك الغداء المطلوب هو ذلك الحوث الذى جعلاه زادا لهما ، وأما لوجدان مطلوبهما . ثم ذكر ما يجرى مجرى السبب فى وقوع ذلك النسيان فقال : ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان ﴾ بما يقع منه من الوسوسة ، و﴿ أن أذكره ﴾ بدل اشتمال من الضمير فى ﴿ أنسانيه ﴾ وفى مصحف عبد الله : وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان . ﴿ واتخذ سبيله فى البحر عجباً ﴾ انتصاب ﴿ عجباً ﴾ على أنه المفعول الثانى كما مر فى ﴿ سرباً ﴾ والظرف فى محل نصب على الحال ، يحتمل أن يكون هذا من كلام يوشع ، أخبر موسى أن الحوث اتخذ سبيله عجباً للناس ، وموضع التعجب : أن يحيا حوث قد مات وأكل شقه ، ثم يثب إلى البحر ويبقى أثر جريته فى الماء لا يمحو أثرها جريان ماء البحر ، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه لبيان طرف آخر من أمر الحوث ، فيكون ما بين الكلامين اعتراضاً .

﴿ قال ذلك ما كنا نبغ ﴾ أى قال موسى لفتاه ذلك الذى ذكرت من فقد الحوث فى ذلك الموضع هو الذى كنا نطلبه ، فإن الرجل الذى نريده هو هنالك ﴿ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ أى رجعا على الطريق التى جاءا منها يقصان أثرهما لكلا يخطئنا طريقهما ، وانتصاب ﴿ قصصاً ﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف ، أو على الحال ، أى قاصين أو مقتصين ، والقصص فى اللغة اتباع الأثر . ﴿ فوجدنا عبداً من عبادنا ﴾ هو الخضر فى قول جمهور المفسرين ، وعلى ذلك دلت الأحاديث الصحيحة ، وخالف فى ذلك من لا يعتد بقوله ، فقال : ليس هو الخضر بل عالم آخر . قيل : سمي الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله . قيل : واسمه بلياً بن ملكان ، ثم وصفه الله سبحانه فقال : ﴿ آتيناه رحمة من عندنا ﴾ قيل : الرحمة هى النبوة . وقيل : النعمة التى أنعم الله بها عليه ﴿ وعلمناه من لدنا علماً ﴾ وهو ما علمه الله سبحانه من علم

الغيب الذى استأثر به ، وفى قوله : ﴿ من لدنا ﴾ تفخيم لشأن ذلك العلم ، وتعظيم له . قال الزجاج : وفيما فعل موسى وهو من جملة الأنبياء من طلب العلم ، والرحلة فى ذلك ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته ، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه .

ثم قص الله سبحانه علينا ما دار بين موسى والخضر بعد اجتماعهما فقال : ﴿ قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ﴾ فى هذا السؤال ملاطفة ومبالغة فى حسن الأدب ، لأنه استأذنه أن يكون تابعا له على أن يعلمه مما علمه الله من العلم . والرشد الوقوف على الخير وإصابة الصواب ، وانتصابه على أنه مفعول ثان لـ ﴿ تعلمنى ﴾ أى علما ذا رشد أرشد به ، وقرئ : « رشدا » بفتحين ، وهما لغتان كالبخل والبخل . وفى الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب . وليس فى ذلك ما يدل على أن الخضر أفضل من موسى ، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل وقد يأخذ الفاضل عن المفضول إذا اختص أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر ، فقد كان علم موسى علم الأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر علم بعض الغيب ومعرفة البواطن .

﴿ قال إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ أى قال الخضر لموسى : إنك لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمى ، لأن الظواهر التى هى علمك لا توافق ذلك . ثم أكد ذلك مشيرا إلى علة عدم الاستطاعة ، فقال : ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ﴾ أى : كيف تصبر على علم ظاهره منكر ، وأنت لا تعلم ، ومثلك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكر والإقرار عليه ، و﴿ خبرا ﴾ منتصب على التمييز ، أى لم تحط به خبرك : والخبر العلم بالشئ ، والخبر بالأمور هو : العالم بخفاياها ، وبما يحتاج إلى الاختبار منها .

﴿ قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ﴾ أى قال موسى للخضر : ستجدنى صابرا معك ، ملتزما طاعتك ﴿ ولا أعصى لك أمرا ﴾ فجملة : ﴿ ولا أعصى ﴾ معطوفة على ﴿ صابرا ﴾ ، فيكون التقييد بقوله : ﴿ إن شاء الله ﴾ شاملا للصبر ونفى المعصية . وقيل : إن التقييد بالمشيئة مختص بالصبر ، لأنه أمر مستقبل لا يدرى كيف يكون حاله فيه ، ونفى المعصية معزوم عليه فى الحال ، ويجاب عنه بأن الصبر ، ونفى المعصية متفقان فى كون كل واحد منهما معزوم عليه فى الحال ، وفى كون كل واحد منهما لا يدرى كيف حاله فيه فى المستقبل . ﴿ قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ ﴾ مما تشاهده من أفعالى المخالفة لما يقتضيه ظاهر الشرع الذى بعثك الله به ﴿ حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ أى حتى أكون أنا المبتدئ لك بذكره ، وبيان وجهه وما يؤول إليه ، وهذه الجمل المعنونة يقال وقال مستأنفة ، لأنها جوابات عن سؤالات مقدرة كل واحدة ينشأ السؤال عنها مما قبلها .

وقد أخرج الدارقطنى فى الأفراد ، وابن عساكر من طريق مقاتل بن سليمان عن الضحاک

عن ابن عباس قال : الخضر ابن آدم لصلبه ونسئ له فى أجله حتى يكذب الدجال . وأخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء » (١) . وأخرجه ابن عساكر من حديث ابن عباس . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عساكر عن مجاهد إنما سمى الخضر لأنه إذا صلى اخضر ما حوله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ قال : حتى انتهى . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ مجمع البحرين ﴾ . قال : بحر فارس والروم ، وهما نحو المشرق والمغرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى بن كعب قال : ﴿ مجمع البحرين ﴾ إفريقية . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب قال : طنجة . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ أو أمضى حقبا ﴾ قال : سبعين خريفا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : دهرا . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ نسيا حوتهما ﴾ قال : كان مملوحا مشقوق البطن . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ فاتخذ سبيله فى البحر سربا ﴾ قال : أثره يابس فى البحر كأنه فى حجر . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ قال : عودهما على بدئهما . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ آتيناه رحمة من عندنا ﴾ قال : أعطيناه الهدى والنبوة .

واعلم أنها قد رويت فى قصة الخضر مع موسى المذكورة فى الكتاب العزيز أحاديث كثيرة ، وأتمها وأكملها ما روى عن ابن عباس ولكنها اختلفت بعض الالفاظ ، وكلها مروية من طريق سعيد بن جبير عنه ، وبعضها فى الصحيحين وغيرهما ، وبعضها فى أحدهما ، وبعضها خارج عنهما . وقد رويت من طريق العوفى عنه كما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم ، ومن طريق هارون بن عنترة عن أبيه عنه عند ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والخطيب وابن عساكر ، فلنقتصر على الرواية التى هى أتم الروايات الثابتة فى الصحيحين ، ففى ذلك ما يغنى عن غيره ، وهى : قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس : إن نوحا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بنى إسرائيل ، قال ابن عباس : كذب عدو الله . حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه : إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : يارب ، فكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتا فتجعله فى مكمل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتا فجعله فى مكمل . ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فتاما ، واضطرب الحوت فى المكمل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، وأمسك الله عن الحوت جرية

(١) البخارى فى الانبياء (٣٤٠٢) والترمذى فى التفسير (٣١٥١) وقال : « حسن صحيح » .

الماء ، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوث ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كانا من الغد قال موسى لفته : ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ قال : ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ، فقال له فتاه : ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا ﴾ قال : فكان للحوت سربا ، ولموسى وفتاه عجبا ، فقال موسى : ﴿ ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ قال سفيان : يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة لا يصيب ماؤها ميتا إلا عاش ، قال : وكان الحوت قد أكل منه ، فلما قطر عليه الماء عاش ، قال : فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام ؟ قال : أنا موسى قال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال أتيتك لتعلمنى بما علمت رشدا ، قال : ﴿ إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ يا موسى ، إني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من الله علمك الله لا أعلمه ؛ قال موسى : ﴿ ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ﴾ فقال له الخضر : ﴿ فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ فانطلقا يمسيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول ^(١) ، فلما ركبا فى السفينة لم يفجا إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا ﴾ ؟ قال : ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا . قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا ﴾ . قال : وقال رسول الله ﷺ : « فكانت الأولى من موسى نسيانا » . قال : « وجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور الذى وقع على حرف السفينة من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة فينما هما يمسيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله ، فقال موسى : ﴿ أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى ﴾ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه ﴾ قال : مائل ، فقال الخضر بيده هكذا فأقامه فقال موسى : قوم آتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما » ^(٢) قال سعيد بن جبير : وكان ابن عباس

(١) النول : الجمل والأجر .

(٢) البخارى فى العلم (٧٤ ، ٧٨ ، ١٢٢) وفى الإجارة (٢٢٦٧) وفى الشروط (٢٧٢٨) وفى بدء الخلق (٣٢٧٨) وفى الأنبياء : (٣٤٠٠ ، ٣٤٠١) وفى التفسير (٤٧٢٥ - ٤٧٢٧) وفى الإيمان والنذور (٦٦٧٢) وفى التوحيد (٧٤٧٨) ومسلم فى الفضائل (١٧٠ / ٢٣٨٠ - ١٧٢ ، ١٧٤) والترمذى فى التفسير (٣١٤٩) وقال : « حسن صحيح » . والنسائى فى التفسير (٣٢٧ - ٣٢٩) .

يقرأ: « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » وكان يقرأ: « وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين » وبقية روايات سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب هي موافقة لهذه الرواية فى المعنى وإن تفاوتت الألفاظ فى بعضها فلا فائدة فى الإطالة بذكرها ، وكذلك روايات غير سعيد عنه .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءَ وَأَقْرَبَ رَحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) .

قوله : ﴿ فَانْطَلَقَا ﴾ أى موسى والخضر على ساحل البحر يطلبان السفينة ، فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فحملوهم ﴿ حتى إذا ركبنا فى السفينة خرقها ﴾ قيل : قلع لوحا من ألواحها . وقيل : لوحين مما يلى الماء . وقيل : خرق جدار السفينة ليعيبها ولا يتسارع الغرق إلى أهلها ﴿ قال ﴾ موسى : ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا ﴾ أى لقد أتيت أمرا عظيما . يقال : أمر الأمر إذا كبر ، والإمر الاسم منه . وقال أبو عبيدة : الإمر: الداهية العظيمة ، وأنشد :

قد لقي الأقران منى نكرا داهية دهياء وأمرا إمرا

وقال القتيبي : الأمر العجب . وقال الأخفش : أمر أمره يأمر إذا اشتد ، والاسم الإمر . قرأ حمزة والكسائي « ليغرق أهلها » بالياء التحتية المفتوحة ، ورفع « أهلها » على أنه فاعل . وقرأ الباقون بالفوقية المضمومة ونصب « أهلها » على المفعولية ﴿ قال ﴾ أى الخضر ﴿ ألم أقل

﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أذكره ما تقدم من قوله له سابقا : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٦٧] فقال له موسى : ﴿ لَا تَوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتَ ﴾ يحتمل أن تكون « ما » مصدرية ، أى لا تَوَاخِذْنِي بنسياني ، أو موصولة أى لا تَوَاخِذْنِي بالذى نسيته ، وهو قول الخضر : ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ فالنسيان إما على حقيقته على تقدير أن موسى نسي ذلك ، أو بمعنى الترك على تقدير أنه لم ينس ما قاله له ، ولكنه ترك العمل به ﴿ وَلَا تَرَهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ﴾ قال أبو زيد : أرهقته عسرا إذا كلفته ذلك : والمعنى : عاملنى باليسر لا بالعسر . وقرئ : « عسرا » بضمتين .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ أى الخضر . ولفظ الغلام يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصغير . قيل : كان الغلام يلعب مع الصبيان فاقتلع الخضر رأسه ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وأويس بألف بعد الزاى وتخفيف الباء اسم فاعل . وقرأ الباقر بتشديد الياء من دون ألف ، الزاكية : البريئة من الذنوب . قال أبو عمرو : الزاكية : التى لم تذب ، والزكية : التى أذنبت ثم تابت . وقال الكسائى : الزاكية والزكية لغتان . وقال الفراء : الزاكية والزكية مثل : القاسية والقسية ، ومعنى ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ : بغير قتل نفس محرمة حتى يكون قتل هذه قصاصا ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكِرًا ﴾ أى فظيحا منكرا لا يعرف فى الشرع . قيل : معناه : أنكر من الأمر الأول لكون القتل لا يمكن تداركه ، بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه بإرجاعه . وقيل : النكر أقل من الإمر ، لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة . قيل : استبعد موسى أن يقتل نفسا بغير نفس ، ولم يتأول للخضر بأنه يحل القتل بأسباب أخرى ﴿ قَالَ ﴾ الخضر ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ زاد هنا لفظ « لك » ، لأن سبب العتاب أكثر ، وموجبه أقوى . وقيل : زاد لفظ « لك » لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه : لك أقول وإياك أعنى ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أى بعد هذه المرة أو بعد هذه النفس المقتولة ﴿ فَلَا تَصَاحِبْنِي ﴾ أى لا تجعلنى صاحباً لك ، نهاء عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره ، ولذا قال : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ يريد أنك قد أعذرت حيث خالفتك ثلاث مرات ، وهذا كلام نادم شديد الندامة ، اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف . قرأ الأعرج : « تصحبنى » بفتح التاء والباء وتشديد النون . وقرأ الجمهور : ﴿ تَصَاحِبْنِي ﴾ وقرأ يعقوب : « تصحبنى » بضم التاء وكسر الحاء ، ورواها سهل عن أبى عمرو . قال الكسائى : معناه : لا تتركنى أصحابك . وقرأ الجمهور : ﴿ لَدُنِّي ﴾ بضم الدال إلا أن نافعاً وعاصماً خففا النون ، وشدها الباقر . وقرأ أبو بكر عن عاصم : « لَدُنِّي » بضم اللام وسكون الدال قال ابن مجاهد : وهى غلط . قال أبو على : هذا التخليط لعله من جهة الرواية ، فأما على قياس العربية فصحيحة . وقرأ الجمهور : ﴿ عُذْرًا ﴾ بسكون الدال . وقرأ عيسى بن عمر بضم الدال . وحكى الدانى أن أبيا روى عن النبى ﷺ بكسر الراء وياء بعدها بإضافة

العدر إلى نفسه .

﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ قيل : هي أيلة . وقيل : أنطاكية . وقيل : برقة .
وقيل : قرية من قرى أذربيجان . وقيل : قرية من قرى الروم ﴿ استطعما أهلها ﴾ هذه الجملة في محل الجر على أنها صفة لـ ﴿ قرية ﴾ ، ووضع الظاهر موضع المضمرة لزيادة التأكيد ، أو لكرهية اجتماع الضميرين في هذه الكلمة لما فيه من الكلفة ، أو لزيادة التشنيع على أهل القرية بإظهارهم ﴿ فأبوا أن يضيفوهما ﴾ أى أبوا أن يعطوهما ما هو حق واجب عليهم من ضيافتهما ، فمن استدل بهذه الآية على جواز السؤال وحل الكدية ^(١) فقد أخطأ خطأ بينا ، ومن ذلك قول بعض الأدباء الذين يسألون الناس :

فإن رددت فما في الرد منقصة على قد رد موسى قبل والخضر

وقد ثبت في السنة تحريم السؤال بما لا يمكن دفعه من الأحاديث الصحيحة الكثيرة ﴿ فوجدا فيها ﴾ أى في القرية ﴿ جدارا يريد أن ينقض ﴾ إسناد الإرادة إلى الجدار مجاز . قال الزجاج : الجدار لا يريد إرادة حقيقية إلا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المريدين القاصدين فوصف بالإرادة ، ومنه قول الراعي :

فى مهمه فلقت به هاماتها فلق الفؤوس إذا أردن نصولا

ومعنى الانقضاص : السقوط بسرعة ، يقال : انقض الحائط إذا وقع ، وانقض الطائر إذا هوى من طيرانه فسقط على شيء ، ومعنى ﴿ فأقامه ﴾ : فسواه ، لأنه وجده مائلا فردده كما كان . وقيل : نقضه وبناه . وقيل : أقامه بعمود ، وقد تقدم فى الحديث الصحيح أنه مسح بيده ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجرا ﴾ أى على إقامته وإصلاحه ، تحريضا من موسى للخضر على أخذ الأجر . قال الفراء : معناه : لو شئت لم تقمه حتى يقرونا فهو الأجر ، قرأ أبو عمرو ويعقوب وابن كثير وابن محيصن واليزيدى والحسن « لاتخذت » يقال : اتخذ فلان يتخذ اتخذاً مثل : اتخذ . وقرأ الباقر ﴿ لاتخذت ﴾ . ﴿ قال ﴾ الخضر ﴿ هذا فراق بينى وبينك ﴾ على إضافة ﴿ فراق ﴾ إلى الظرف اتساعا ، أى هذا الكلام والإنكار منك على ترك الأجر هو الفرق بيننا . قال الزجاج : المعنى : هذا فراق بيننا ، أى هذا فراق اتصالنا ، وكرر « بين » تأكيدا ، ولما قال الخضر لموسى بهذا ، أخذ فى بيان الوجه الذى فعل بسببه تلك الأفعال التى أنكرها موسى فقال : ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ والتأويل : رجوع الشيء إلى ماله .

ثم شرع فى البيان له فقال : ﴿ أما السفينة ﴾ يعنى : التى خرقتها ﴿ فكانت لمساكين ﴾ لضعفاء لا يقدرّون على دفع من أراد ظلمهم ﴿ يعملون فى البحر ﴾ ولم يكن لهم مال غير تلك

(١) الكدية : تكفف الناس وسؤالهم .

السفينة يكرونها من الذين يركبون البحر ويأخذون الأجرة ، وقد استدل الشافعى بهذه الآية على أن الفقير أسوأ حالا من المسكين ﴿ فأردت أن أعيها ﴾ أى أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾ قال المفسرون : يعنى : أمامهم ، ووراء يكون بمعنى : أمام ، وقد مر الكلام على هذا فى قوله : ﴿ ومن وراءه عذاب غليظ ﴾ [إبراهيم : ١٧] وقيل : أراد خلفهم ، وكان طريقهم فى الرجوع عليه ، وما كان عندهم خبر بأنه ﴿ يأخذ كل سفينة غصبا ﴾ أى كل سفينة صالحة لا معيبة ، وقد قرئ بزيادة « صالحة » ، روى ذلك عن أبى وابن عباس . وقرأ جماعة بتشديد السين من مساكين ، واختلف فى معناها ، فقليل : هم ملاحو السفينة ، وذلك أن المساك هو الذى يمسك السفينة ، والأظهر قراءة الجمهور بالتخفيف .

﴿ وأما الغلام ﴾ يعنى : الذى قتله ﴿ فكان أبواه مؤمنين ﴾ أى ولم يكن هو كذلك ﴿ فخشي أن يرهقهما ﴾ أى يرهق الغلام أبويه ، يقال : رهقه أى غشيه ، وأرهقه أغشاه . قال المفسرون : معناه خشي أن يحملهما حبه على أن يتبعاه فى دينه ، وهو الكفر ، و﴿ طغيانا ﴾ مفعول ﴿ يرهقهما ﴾ وكفرا ﴿ معطوف عليه . وقيل : المعنى : فخشي أن يرهق الوالدين طغيانا عليهما وكفرا لنعمتهما بعقوبته . قيل : ويجوز أن يكون ﴿ فخشي أن يرهق الوالدين ﴾ من كلام الله ، ويكون المعنى : كرهنا كراهة من خشى سوء عاقبة أمره فغيره ، وهذا ضعيف جدا ، فالكلام كلام الخضر . وقد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلة ، فقليل : إنه كان بالغا وقد استحق ذلك بكفره . وقيل كان يقطع الطريق فاستحق القتل لذلك ، ويكون معنى ﴿ فخشي أن يرهقهما طغيانا وكفرا ﴾ : أن الخضر خاف على الأبوين أن يذبا عنه ويتعصبا له فيقعوا فى المعصية ، وقد يؤدى ذلك إلى الكفر والارتداد . والحاصل أنه لا إشكال فى قتل الخضر له إذا كان بالغا كافرا أو قاطعا للطريق هذا فيما تقتضيه الشريعة الإسلامية ، ويمكن أن يكون للخضر شريعة من عند الله سبحانه تسوغ له ذلك ، وأما إذا كان الغلام صبيا غير بالغ ، فقليل : إن الخضر علم بإعلام الله له أنه لو صار بالغا لكان كافرا يتسبب عن كفره لإضلال أبويه وكفرهما ، وهذا وإن كان ظاهر الشريعة الإسلامية يأباه ، فإن قتل من لا ذنب له ولا قد جرى عليه قلم التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله لا يحل فى الشريعة المحمدية ، ولكنه حل فى شريعة أخرى ، فلا إشكال . وقد ذهب الجمهور إلى أن الخضر كان نبيا ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه ﴾ قرأ الجمهور بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال . وقرأ عاصم وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بسكون الباء وتخفيف الدال ، والمعنى : أردنا أن يرزقهما الله بدل هذا الولد ولدا خيرا منه ﴿ زكاة ﴾ أى دينا وصلاحا وطهارة من الذنوب ﴿ وأقرب رحما ﴾ قرأ ابن عباس وحزمة والكسائى وابن كثير وابن عامر : « رحما » بضم الحاء . وقرأ الباقون بسكونها ، ومعنى الرحم : الرحمة ، يقال : رحمه الله رحمة ورحمى ، والالف للتأنيث .

﴿ وأما الجدار ﴾ يعنى : الذى أصلحه ﴿ فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ﴾ هى القرية

المذكورة سابقا ، وفيه جواز إطلاق اسم المدينة على القرية لغة ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ قيل : كان مالا جسيما كما يفيد اسم الكنز ، إذ هو المال المجموع . قال الزجاج : المعروف فى اللغة أن الكنز إذا أفرد : فمعناه : المال المدفون ، فإذا لم يكن مالا قيل : كنز علم وكنز فهم . وقيل : لوح من ذهب . وقيل : صحف مكتوبة ﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ فكان صلاحه مقتضيا لرعاية ولديه وحفظ مالهما . قيل : هو الذى دفنه . وقيل : هو الأب السابع من عند الدافن له . وقيل : العاشر ﴿ فأراد ربك ﴾ أى مالك ومدير أمرك ، وأضاف الرب إلى ضمير موسى تشريفا له ﴿ أن يبلغا أشدهما ﴾ أى كمالهما وتتمام نموهما ﴿ ويستخرجا كنزهما ﴾ من ذلك الموضع الذى عليه الجدار ، ولو انقض لخرج الكنز من تحته ﴿ رحمة من ربك ﴾ لهما ، وهو مصدر فى موضع الحال ، أى مرحومين من الله سبحانه ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ أى عن اجتهدى ورأى ، وهو تأكيد لما قبله ، فقد علم بقوله فأراد ربك أنه لم يفعله الخضر عن أمر نفسه ﴿ ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا ﴾ أى ذلك المذكور من تلك البيانات التى بينها لك وأوضحت وجوها تأويل ما ضاق صبرك عنه ولم تطق السكوت عليه ، ومعنى التأويل هنا : هو المآل الذى آلت إليه تلك الأمور ، وهو اتضاح ما كان مشتبها على موسى وظهور وجهه ، وحذف التاء من ﴿ تسطع ﴾ تخفيفا .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لقد جئت شيئا إمرأ ﴾ يقول : نكرا . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ إمرأ ﴾ فقال : عجبا . وأخرج ابن جرير عن أبى بن كعب فى قوله : ﴿ لا تؤاخذنى بما نسيت ﴾ قال : لم ينس ، ولكنها من معارض الكلام . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : كان الخضر عبدا لا تراه الأعين ، إلا من أراد الله أن يريه إياه ، فلم يره من القوم إلا موسى ، ولو رآه القوم لخالوا بينه وبين خرق السفينة وبين قتل الغلام . وأقول : ينبغى أن ينظر من أين له هذا ؟ فإن لم يكن مستنده إلا قوله : ولو رآه القوم إلخ ، فليس ذلك بموجب لما ذكره ، أما أولا : فإن من الجائز أن يفعل ذلك من غير أن يراه أهل السفينة وأهل الغلام ، لا لكونه لا تراه الأعين ، بل لكونه فعل ذلك من غير اطلاعهم . وأما ثانيا : فيمكن أن أهل السفينة وأهل الغلام قد عرفوه وعرفوا أنه لا يفعل ذلك إلا بأمر من الله كما يفعل الأنبياء ، فسلموا لأمر الله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ نفسا زكية ﴾ قال : مسلمة . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ، قال : لم تبلغ الخطايا . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الحسن نحوه . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ شيئا نكرا ﴾ قال : النكر أنكر من العجب . وأخرج أحمد عن عطاء قال : كتب نجدة الحروى إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان ، فكتب إليه : إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم . وزاد ابن أبى شيبه من طريق أخرى عنه : ولكنك لا تعلم ،

قد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم فاعتزلهم . وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن مردويه عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ قال : « الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا ، ولو أدرك لأرهق أبويه طغيانا وكفرا » (١) . وأخرج أبو داود والترمذى وعبد الله بن أحمد والبخارى وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عن أبى ؛ أن النبى ﷺ قرأ : ﴿ من لدنى عذرا ﴾ مثقلة (٢) .

وأخرج ابن مردويه عن أبى أن النبى ﷺ قرأ : ﴿ أن يضيفوهما ﴾ مشددة . وأخرج ابن الأنبارى فى المصاحف ، وابن مردويه عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قرأ : « فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض ، فهدمه ، ثم قعد بينيه » . قلت : ورواية الصحيحين التى قدمناها أنه مسحه بيده أولى . وأخرج الفريابى فى معجمه ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبى ؛ أن النبى ﷺ قرأ : « لو شئت لتخذت عليه أجرا » مخففة (٣) . وأخرج ابن أبى شيبه وأبو داود والترمذى والنسائى والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس عن أبى ابن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر لقص الله علينا من خبره ، ولكن قال : ﴿ إن سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبني ﴾ » (٤) . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يقرأ : « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا » (٥) . وأخرج ابن الأنبارى عن أبى بن كعب أنه قرأها كذلك . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن أبى الزاهرية قال : كتب عثمان : « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا » .

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : هى فى مصحف عبد الله : « فخاف ربك أن يرهقهما طغيانا وكفرا » . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ خيرا منه زكاة ﴾ قال : دينا ﴿ وأقرب رحما ﴾ قال : مودة ، فأبدلا جارية ولدت نبيا . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ قال : كان الكنز لمن قبلنا وحرم علينا ، وحرمت الغنيمة على من كان قبلنا وأحلت لنا ، فلا يعجب الرجل ، فيقول : فما شأن الكنز ،

(١) مسلم فى القدر (٢٩/٢٦٦١) وأبو داود فى السنة (٤٧٠٥) والترمذى فى التفسير (٣١٥٠) وقال : « حسن صحيح غريب » .

(٢) أبو داود فى القرآن والحروف (٣٩٨٥) والترمذى فى القراءات (٢٩٣٣) وقال : « غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » والطبرانى (٥٤٣) .

(٣) صححه الحاكم ٢/٢٤٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٤) ابن أبى شيبه (٩٢٧٥) وأبو داود فى الحروف والقراءات (٣٩٨٤) والترمذى فى الدعاء (٣٣٨٥) وقال : « حسن غريب صحيح » والنسائى فى التفسير (٣٣٠) وصححه الحاكم ٢/٥٧٤ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٥) ابن جرير ١٦ / ٢٢ وصححه الحاكم ٢/٢٤٤ وقال الذهبى : « قلت : فيه هارون بن حاتم ! واه » .

أحل لمن قبلنا وحرم علينا ؟ فإن الله يحل من أمره ما يشاء ويحرم ما يشاء ، وهى السنن والفرائض ، يحل لأمة ويحرم على أخرى . وأخرج البخارى فى تاريخه والترمذى وحسنه والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾ قال : « ذهب وفضة » (١) . وأخرج الطبرانى عن أبى الدرداء فى قوله : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾ قال : أحلت لهم الكنوز وحرمت عليهم الغنائم ، وأحلت لنا الغنائم وحرمت علينا الكنوز . وأخرج البزار وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى ذر رفعه قال : إن الكنز الذى ذكره الله فى كتابه لوح من ذهب مصمت فيه : عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب ، وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . وفى نحو هذا روايات كثيرة لا تتعلق بذكرها فائدة .

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وأحمد فى الزهد ، والحميدى فى مسنده وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ قال : حفظا بصلاح أبيهما . وأخرج ابن مردويه ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يصلح بصلاح الرجل الصالح ، ولده ، وولد ولده ، وأهل دويرته وأهل دويرات حوله ، فما يزالون فى حفظ الله تعالى ما دام فيهم » . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : إن الله يصلح بصلاح الرجل ولده ، وولد ولده ، ويحفظه فى دويرته ، والدويرات حوله ، فما يزالون فى ستر من الله وعافية . وأخرج ابن جرير من طريق الحسن بن عمار عن أبيه قال : قيل لابن عباس : لم نسمع لفتى موسى بذكر وقد كان معه ؟ فقال ابن عباس : قال فيما يذكر من حديث الفتى إنه شرب من الماء فخلد ، فأخذته العالم فطابق به سفينة ثم أرسله فى البحر ، فإنها لتموج به إلى يوم القيامة ، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه قال ابن كثير : إسناده ضعيف ، الحسن متروك وأبوه غير معروف (٢) .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَاتَّبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ

(١) البخارى فى تاريخه (٣٣٥٧) والترمذى فى التفسير (٣١٥٢) وقال : « حديث غريب » . وصححه الحاكم ٣٦٩/٢ وقال الذهبى : « قلت بل يزيد بن يوسف متروك وإن كان حديثه أشبه بمسمى الكنز » . وقال الهيثمى فى المجمع ٥٧/٧ بعد أن أورد الرواية الموقوفة : « وقد روى الترمذى حديثا غير هذا . رواه الطبرانى وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة وهو متروك » .

(٢) ابن كثير ٤١٧/٤ .

صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ﴿٩١﴾ .

لما أجاب سبحانه عن سؤالين من سؤالات اليهود ، وانتهى الكلام إلى حيث انتهى ، شرع سبحانه في السؤال الثالث والجواب عنه ، فالمراد بالسائلين هنا هم اليهود .

واختلفوا في ذى القرنين اختلافا كثيرا فقليل : هو الإسكندر بن فيلقوس الذى ملك الدنيا بأسرها اليونانى بانى الإسكندرية . وقال ابن إسحاق : هو رجل من أهل مصر ، اسمه مرزبان ابن مرزبة اليونانى ، من ولد يونان بن يافث بن نوح . وقيل : هو ملك اسمه هرمس . وقيل : ملك اسمه هردبس . وقيل : شاب من الروم . وقيل : كان نبيا . وقيل : كان عبدا صالحا . وقيل : اسمه عبد الله بن الضحاك . وقيل : مصعب بن عبد الله ، من أولاد كهلان بن سبأ . وحكى القرطبي^(١) عن السهيلي أنه قال : إن الظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان : أحدهما : كان على عهد إبراهيم عليه السلام ، والآخر : كان قريبا من عيسى عليه السلام . وقيل : هو أبو كرب الحميرى . وقيل : هو ملك من الملائكة ، ورجح الرازى القول الأول ، قال : لأن من بلغ ملكه من السعة والقوة إلى الغاية التى نطق بها التنزيل إنما هو الإسكندر اليونانى كما تشهد به كتب التاريخ ، قال : فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الإسكندر ، قال : وفيه إشكال لأنه كان تلميذا لأرسطاطاليس الحكيم ، وكان على مذهبه ، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق ، وذلك مما لا سبيل إليه . قال النيسابورى : قلت : ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلا فلعله أخذ منهم ما صفا وترك ما كدر ، والله أعلم .

ورجح ابن كثير^(٢) ما ذكره السهيلي أنهما اثنان كما قدمنا ذلك ، وبين أن الأول : طاف بالبيت مع إبراهيم أول ما بناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر . وأما الثانى : فهو الإسكندر المقدونى اليونانى ، وكان وزيره الفيلسوف المشهور أرسطاطاليس ، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة . فأما الأول المذكور فى القرآن فكان فى زمن الخليل ، هذا معنى ما ذكره ابن كثير فى تفسيره راويا له عن الأزرقي وغيره ؛ ثم قال : وقد ذكرنا طرفا صالحا فى أخباره فى كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية . وحكى أبو السعود فى تفسيره عن ابن كثير أنه قال : وإنما بينا هذا ، يعنى أنهما اثنان ، لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد ، وأن المذكور فى القرآن العظيم هو هذا المتأخر ، فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير ، كيف لا ، والأول : كان عبدا صالحا مؤمنا ، وملكا عادلا ، ووزيره الخضر ، وقد قيل : إنه كان نبيا . وأما الثانى : فقد كان كافرا ، ووزيره

(١) القرطبي ٤٠٨٥/٦ .

(٢) ابن كثير ٤١٨/٤ .

أرسطاطاليس الفيلسوف ، وكان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفى سنة ، فأين هذا من ذاك ؟ انتهى (١) . قلت : لعله ذكر هذا في الكتاب الذى ذكره سابقا ، وسماه بالبداية والنهاية ولم يقف عليه ، والذى يستفاد من كتب التاريخ هو : أنهما اثنان ، كما ذكره السهيلي والأزرقي وابن كثير وغيرهم لا كما ذكره الرازى وادعى أنه الذى تشهد به كتب التواريخ ، وقد وقع الخلاف هل هو نبي أم لا ؟ وسيأتى ما يستفاد منه المطلوب آخر هذا البحث إن شاء الله .

وأما السبب الذى لأجله سمى ذا القرنين ، فقال الزجاج والأزهري : إنما سمى ذا القرنين ، لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها ، وقرن الشمس من مغربها . وقيل : إنه كان له ضفيرتان من شعر ، والصفائر تسمى قرونا ، ومنه قول الشاعر (٢) :

فلثمت فاهها آخذاً بقرونها شرب الزيف يبرد ماء الحشرج

والحشرج : ماء من مياه العرب . وقيل : إنه رأى فى أول ملكه كأنه قابض على قرنى الشمس فسمى بذلك . وقيل : كان له قرنان تحت عمامته . وقيل : إنه دعا إلى الله فشجعه قومه على قرنه ، ثم دعا إلى الله فشجوه على قرنه الآخر . وقيل : إنما سمى بذلك لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه . وقيل : لأنه انقرض فى وقته قرنان من الناس وهو حى . وقيل : لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعا . وقيل : لأنه أعطى علم الظاهر والباطن . وقيل : لأنه دخل النور والظلمة . وقيل : لأنه ملك فارس والروم . وقيل : لأنه ملك الروم والترك . وقيل : لأنه كان لتاجه قرنان . قوله : ﴿ قل سأتلوا عليكم منه ذكرا ﴾ أى سأتلوا عليكم أيها السائلون من ذى القرنين خبرا ، وذلك بطريق الوحي المتلو .

ثم شرع سبحانه فى بيان ما أمر به رسوله أن يقوله لهم من أنه سيتلو عليهم منه ذكرا فقال : ﴿ إنا مكنا له فى الأرض ﴾ أى أقدرناه بما مهدنا له من الأسباب ، فجعلنا له مكتة وقدرة على التصرف فيها ، وسهل عليه المسير فى مواضعها ، وذلّل له طرقها حتى تمكن منها أين شاء وكيف شاء ؟ ومن جملة تمكينه فيها أنه جعل له الليل والنهار سواء فى الإضاءة ﴿ وآتيناه من كل شيء ﴾ عما يتعلق بمطلوبه ﴿ سببا ﴾ أى طريقا يتوصل بها إلى ما يريده ﴿ فأتبع سببا ﴾ من تلك الأسباب . قال المفسرون : والمعنى : طريقا تؤديه إلى مغرب الشمس . قال الزجاج : فأتبع سببا من الأسباب التى أوتى ، وذلك أنه أوتى من كل شيء سببا فأتبع من تلك الأسباب التى أوتى سببا فى المسير إلى المغرب ، وقيل : أتبع من كل شيء علما يتسبب به إلى ما يريد . وقيل : بلاغا إلى حيث أراد . وقيل : من كل شيء يحتاج إليه الخلق . وقيل : من كل شيء تستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء . وأصل السبب : الحبل ، فاستعين لكل ما يتوصل به إلى شيء . قرأ ابن عامر وأهل الكوفة وعاصم وحزمة والكسائي : « وأتبع » بقطع الهزمة ، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وأبو عمرو بوصلها . قال الأخفش : تبعته وأتبعته بمعنى ،

(١) أبو السعود فى تفسيره ٣/ ٤٠٠ .

(٢) الشاعر : هو عمر بن أبى ربيعة .

مثل : ردغته وأردفته، ومنه قوله : ﴿ فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ [الصافات : ١٠] قال النحاس : واختار أبو عبيدة قراءة أهل الكوفة، قال : لأنها من السير . وحكى هو والأصمعي أنه يقال : تبعته وأتبعته إذا سار ولم يلحقه ، واتبعه إذا لحقه . قال أبو عبيدة : ومثله : ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ [الشعراء : ٦٠] . قال النحاس : وهذا من الفرق وإن كان الأصمعي قد حكاها فلا يقبل إلا بعلم أو دليل ، وقوله عز وجل : ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ ليس في الحديث أنهم لحقوهم ، وإنما الحديث لما خرج موسى وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه في البحر انطبق عليهم البحر . والحق في هذا أن تبع واتبع وأتبع لغات بمعنى واحد ، وهو بمعنى : السير .

﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس ﴾ أى نهاية الأرض من جهة المغرب ، لأن من وراء هذه النهاية البحر المحيط ، وهو لا يمكن المضي فيه ﴿ وجدها تغرب في عين حمئة ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي : « حامية » أى حارة . وقرأ الباقر : ﴿ حمئة ﴾ أى كثيرة الحمأة ، وهى الطينة السوداء ، تقول : حمئت البئر حمأً بالتسكين : إذا نزعتم حماتها ، وحمأت البئر حماتها بالتحريك : كثرت حماتها ، ويجوز أن تكون حامية من الحمأة ، فخففت الهمزة وقلبت ياء ، وقد يجمع بين القراءتين فيقال : كانت حارة وذات حمأة . قيل : ولعل ذا القرنين لما بلغ ساحل البحر المحيط رآها كذلك فى نظره ، ولا يبعد أن يقال : لا مانع من أن يمكنه الله من عبور البحر المحيط حتى يصل إلى تلك العين التى تغرب فيها الشمس ، وما المانع من هذا بعد أن حكى الله عنه أنه بلغ مغرب الشمس ، ومكن له فى الأرض والبحر من جعلتها ، ومجرد الاستبعاد لا يوجب حمل القرآن على خلاف ظاهره ﴿ ووجد عندها قوما ﴾ الضمير فى عندها إما للعين أو للشمس . قيل : هم قوم لباسهم جلود الوحش ، وكانوا كفارا ، فخبره الله بين أن يعذبهم وبين أن يتركهم ، فقال : ﴿ إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ﴾ أى إما أن تعذبهم بالقتل من أول الأمر ، وإما أن تتخذ فيهم أمرا ذا حسن أو أمرا حسنا مبالغة بجعل المصدر صفة للأمر ، والمراد : دعوتهم إلى الحق وتعليمهم الشرائع .

﴿ قال ﴾ ذو القرنين مختارا للدعوة التى هى الشق الأخير من الترديد ﴿ أما من ظلم ﴾ نفسه بالإصرار على الشرك ولم يقبل دعوتى ﴿ فسوف نعذبه ﴾ بالقتل فى الدنيا ﴿ ثم يرد إلى ربه ﴾ فى الآخرة ﴿ فيعذبه ﴾ فيها ﴿ عذابا نكرا ﴾ أى منكرا فظيعا . قال الزجاج : خيره الله بين الأمرين . قال النحاس : ورد على بن سليمان قوله لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبى فيخاطب بهذا ، فكيف يقول لربه عز وجل : ﴿ ثم يرد إلى ربه ﴾ وكيف يقول ﴿ فسوف نعذبه ﴾ فيخاطبه بالنون ، قال : والتقدير : قلنا : يا محمد ، قالوا : يا ذا القرنين . قال النحاس : وهذا الذى ذكره لا يلزم لجواز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبى فى وقته ، وكأن ذا القرنين خاطب أولئك القوم فلا يلزم ما ذكره . ويمكن أن يكون مخاطبا للنبي الذى خاطبه الله على لسانه ، أو خاطب قومه الذين وصل بهم إلى ذلك الموضع . قال ثعلب : إن فى قوله : ﴿ إما أن تعذب وإما أن تتخذ ﴾ فى موضع نصب ، ولو رفعت لكان صوابا بمعنى فأما هو كقول

الشاعر :

فسيروا فإما حاجة تقضيانها وإما مقليل صالح وصديق

﴿ وأما من آمن ﴾ بالله وصدق دعوتى ﴿ وعمل ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ مما يقتضيه الإيمان ﴿ فله جزاء الحسنى ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم وابن كثير وابن عامر : « فله جزاء » بالرفع على الابتداء ، أى جزاء الخصلة الحسنى عند الله ، أو الفعل الحسنى وهى الجنة قاله الفراء . وإضافة الجزاء إلى الحسنى التى هى الجنة كإضافة حق اليقين ودار الآخرة ، ويجوز أن يكون هذا الجزاء من ذى القرنين ، أى أعطيه وأتفضل عليه ، وقرأ سائر الكوفيين : ﴿ فله جزاء الحسنى ﴾ بنصب ﴿ جزاء ﴾ وتنوينه . قال الفراء : انتصابه على التمييز . وقال الزجاج : هو مصدر فى موضع الحال ، أى مجزيا بها جزاء ، وقرأ ابن عباس ومسروق بنصب « جزاء » من غير تنوين . قال أبو حاتم : هى على حذف التنوين لالتقاء الساكنين . قال النحاس : وهذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين . وقرئ برفع : « جزاء » منونا على أنه مبتدأ ، ﴿ الحسنى ﴾ بدل منه والخبر الجار والمجرور ﴿ وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾ أى مما نأمر به قولاً ذا يسر ليس بالصعب الشاق ، أو أطلق عليه المصدر مبالغة .

﴿ ثم أتبع سبياً ﴾ أى طريقاً آخر غير الطريق الأولى وهى التى رجع بها من المغرب وسار فيها إلى المشرق ﴿ حتى إذا بلغ مطلع الشمس ﴾ أى الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولاً من معمور الأرض ، مكان طلوع لعدم المانع شرعاً ولا عقلاً من وصوله إليه كما أوضحناه فيما سبق ﴿ وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ يستريحهم ، لا من البيوت ولا من اللباس ، بل هم حفاة عراة لا يأوون إلى شئ من العمارة . قيل : لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقر عليها البناء ﴿ كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً ﴾ أى كذلك أمر ذى القرنين أتبع هذه الأسباب حتى بلغ ، وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به ، وقيل : المعنى : لم نجعل لهم ستراً مثل ذلك الست الذى جعلنا لكم من الأبنية والثياب . وقيل : المعنى : كذلك بلغ مطلع الشمس مثل ما بلغ من مغربها . وقيل : المعنى : كذلك تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم ، فقضى فى هؤلاء كما قضى فى أولئك من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين ، ويكون تأويل الإحاطة بما لديه فى هذه الوجوه على ما يناسب ذلك كما قلنا فى الوجه الأول .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : قالت اليهود للنبي ﷺ : يا محمد ، إنك إنما تذكر إبراهيم وموسى وعيسى والنبیین ، إنك سمعت ذكرهم منا ، فأخبرنا عن نبى لم يذكره الله فى التوراة إلا فى مكان واحد ، قال : « ومن هو ؟ » قالوا : ذو القرنين ، قال : « ما بلغنى عنه شئ » ، فخرجوا فرحين قد غلبوا فى أنفسهم ، فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات : ﴿ ويسألونك عن ذى القرنين ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أدرى

أتبع كان نبيا أم لا ؟ وما أدري أذو القرنين كان نبيا أم لا ؟ وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا ؟ (١) . وأخرج ابن مردويه عن سالم بن أبي الجعد قال : سئل على عن ذي القرنين أنبي هو ؟ قال : سمعت نبيكم ﷺ يقول : « هو عبد ناصح الله فنصحه » . وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في المصاحف ، وابن أبي عاصم في السنة ، وابن مردويه من طريق أبي الطفيل ؛ أن ابن الكواء سأل على بن أبي طالب عن ذي القرنين : أنبيا كان أم ملكا ؟ قال : لم يكن نبيا ولا ملكا ، ولكن كان عبدا صالحا أحب الله فأحبه الله ، ونصح لله فنصحه الله ، بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه فمات ، ثم أحياه الله لجهادهم ، ثم بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر فمات ، فأحياه الله لجهادهم ، فلذلك سمي ذو القرنين ، وإن فيكم مثله . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عمرو قال : ذو القرنين نبي . وأخرج ابن أبي حاتم عن الأخرص بن حكيم عن أبيه ؛ أن النبي ﷺ سئل عن ذي القرنين فقال : « هو ملك مسح الأرض بالأسباب » . وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة ، عن خالد بن معدان الكلاعي مرفوعا مثله . وأخرج ابن عبد الحكم وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في كتاب الأضداد ، وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب أنه سمع رجلا ينادي بمنى : يا ذا القرنين ، فقال عمر : ها أنتم قد سمعتم بأسماء الأنبياء فما بالكم وأسماء الملائكة ؟ وفي الباب غير ما ذكرناه مما يغنى عنه ما قد أوردناه .

وقد أخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر ، وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقي في الدلائل عن عقبة بن عامر الجهني حديثا يتضمن أن نفرا من اليهود سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين ، فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداء ، وكان فيما أخبرهم به : « أنه كان شابا من الروم ، وأنه بنى الإسكندرية ، وأنه علا به ملك في السماء ، وذهب به إلى السد » (٢) . وإسناده ضعيف ، وفي متنه نكارة ، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بنى إسرائيل ، ذكر معنى هذا ابن كثير في تفسيره وعزاه إلى ابن جرير والأموي في مغازيه ؛ ثم قال بعد ذلك : والعجب أن أبا زرعة الداري مع جلالة قدره ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة ، انتهى . وقد ساقه بتمامه السيوطي في الدر المنثور ، وساق أيضا خبرا طويلا عن وهب بن منبه وعزاه إلى ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم والشيرازي في اللقباب وأبي الشيخ ، وفيه أشياء منكورة جدا (٣) ، وكذلك ذكر خبرا طويلا عن محمد الباقر أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، ولعل هذه الأخبار ونحوها منقولة عن أهل الكتاب ، وقد أمرنا بأن لا نصدقهم ولا نكذبهم فيما ينقلونه إلينا .

(١) صححه الحاكم ١ / ٣٦ على شرط الشيخين وقال : « ولا أعلم له علة » ووافقه الذهبي .

(٢) ابن جرير ١٦ / ٧ والبيهقي في الدلائل ٦ / ٢٩٦ وابن كثير ٤ / ٤١٨ .

(٣) السيوطي في الدر المنثور ٤ / ٢٤٢ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيحًا ﴾ قال : علما . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبى هلال ؛ أن معاوية بن أبى سفيان قال لكعب الأحبار : أنت تقول : إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا ، قال له كعب : إن كنت قلت ذلك فإن الله قال : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيحًا ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عثمان بن أبى حاصر . أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبى سفيان قرأ الآية التى فى سورة الكهف « تغرب فى عين حامية » قال ابن عباس : فقلت لمعاوية : ما نقرؤها إلا ﴿ حمئة ﴾ فسأل معاوية عبد الله بن عمرو كيف تقرأها ؟ فقال عبد الله : كما قرأتها ، قال ابن عباس : فقلت لمعاوية : فى بيتى نزل القرآن ، فأرسل إلى كعب ، فقال له : أين تجد الشمس تغرب فى التوراة ؟ فقال له كعب : سل أهل العربية فإنهم أعلم بها ، وأما أنا فإنى أجد فى التوراة فى ماء وطين وأشار بيده إلى المغرب . قال ابن أبى حاصر : لو أنى عندكما أيدتكم بكلام تزداد به بصيرة فى حمئة . قال ابن عباس : وما هو ؟ قلت : فيما نأثر قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين فى كلفه بالعلم واتباعه إياه :

قد كان ذو القرنين عمر مسلما	ملكا تذل له الملوك وتحشد
فأتى المشارق والمغارب يبتغى	أسباب ملك من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها	فى عين ذى خلب وثا ط خرمد

فقال ابن عباس : ما الخلب ؟ قلت : الطين بكلامهم ، قال : فما الثا ط ؟ قلت : الحمأة . قال : فما الخرمد ؟ قلت : الأسود ؛ فدعا ابن عباس غلاما فقال : اكتب ما يقول هذا الرجل ^(١) . وأخرج الترمذى وأبو داود الطيالسى وابن جرير وابن المنذر عن أبى بن كعب ؛ أن النبى كان يقرأ : ﴿ فى عين حمئة ﴾ ^(٢) . وأخرج الطبرانى والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا مثله ^(٣) .

﴿ ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبِيحًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ

(١) ابن جرير مختصرا ١٦ / ٩ ، ١٠ .

(٢) الترمذى فى القراءات (٢٩٣٤) وقال : « حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، والصحيح ما روى عن ابن عباس قراءته » وأبو داود الطيالسى (٥٣٦) وابن جرير ٩ / ١٦ .

(٣) الطبرانى (١٢٤٨٠) وصححه الحاكم ٢ / ٢٤٤ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى وقال الهيثمى فى المجمع ١٥٨ / ٧ : « رواه الطبرانى فى الصغير عن شيخه الوليد بن العباس المصرى ، ضعفه الدارقطنى » .

نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) ﴿

ثم حكى سبحانه سفر ذى القرنين إلى ناحية أخرى ، وهى ناحية القطر الشمالى بعد تهيئة أسبابه فقال : ﴿ ثم أتبع سببا ﴾ أى طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب ﴿ حتى إذا بلغ بين السدين ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص وابن محيصن ويحيى اليزيدى وأبو زيد عن المفضل بفتح السين . وقرأ الباقر بضمها . قال أبو عبيدة وابن الأنبارى وأبو عمرو بن العلاء : السد إن كان بخلق الله سبحانه فهو بضم السين حتى يكون بمعنى مفعول ، أى هو مما فعله الله وخلق ، وإن كان من عمل العباد فهو بالفتح حتى يكون حدثا . وقال ابن الأعرابى : كل ما قابلك فسد ما وراءه فهو سد وسد نحو الضعف والضعف ، الفقر والفقر ، والسدان هما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان ، وانتصاب « بين » على أنه مفعول به كما ارتفع بالفاعلية فى قوله : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام : ٩٤] . وقيل : موضع بين السدين هو منقطع أرض الترك عما يلى المشرق لا جبلا أرمينية وأذربيجان . وحكى ابن جرير فى تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجه إنسانا من ناحية الجزر فشاهده ، ووصف أنه بانيان رفيع وراء خندق وثيق منيع . و﴿ وجد من دونهما ﴾ أى من ورائهما مجازا عنهما . وقيل : أمامهما ﴿ قوما لا يكادون يفقهون قولا ﴾ قرأ حمزة والكسائى : « يفقهون » بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان ، أى لا يبينون لغيرهم كلاما ، وقرأ الباقر بفتح الياء والقاف ، أى لا يفهمون كلام غيرهم ، والقراءتان صحيحتان ، ومعناهما لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهمون غيرهم ، لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم .

﴿ قالوا ﴾ أى هؤلاء القوم الذين لا يفهمون قولا . قيل : إن فهم ذى القرنين لكلامهم من جملة الأسباب التى أعطاه الله . وقيل : إنهم قالوا ذلك لترجمانهم ، فقال لذى القرنين بما قالوا له : ﴿ ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ﴾ يأجوج ومأجوج : اسمان عجميان بدليل منع صرفهما ، وبه قال الأكثر . وقيل : مشتقان من أج الظليم فى مشيه : إذا هروى ، وتأججت النار : إذا تلهبت ، قرأهما الجمهور غير همز ، وقرأ عاصم بالهمز . قال ابن الأنبارى : وجه همزهما وإن لم يعرف له أصل أن العرب قد همزت حروفا لا يعرف للهمز فيها أصل كقولهم : كبأث ورثأت واستشأت الريح . قال أبو على : يجوز أن يكونا عربيين ، فمن همز فهو على وزن يفعول مثل : يربوع ، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة قلبها ألفا مثل : رأس . وأما مأجوج ، فهو مفعول من أج ، والكلمتان من أصل واحد فى الاشتقاق . قال : وترك الصرف فيهما على تقدير كونهما عربيين للتأنيث والتعريف كأنه اسم للقبيلة .

واختلف فى نسبهم ، فقيل : هم من ولد يافث بن نوح . وقيل : يأجوج من الترك

ومأجوج من الجيل والديلم . وقال كعب الأحبار : احتلم آدم فاختلط ماؤه بالتراب فخلقوا من ذلك الماء . قال القرطبي : وهذا فيه نظر ، لأن الأنبياء لا يحتلمون ، وإنما هم من ولد يافث ، كذلك قال مقاتل وغيره .

وقد وقع الخلاف فى صفتهم ، فمن الناس من يصفهم بصغر الجثث وقصر القامة ، ومنهم من يصفهم بكبر الجثث وطول القامة ، ومنهم من يقول : لهم مخالب كمخالب السباع ، وإن منهم صنفا يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى ، ولأهل العلم من السلف ومن بعدهم أخبار مختلفة فى صفاتهم وأفعالهم .

واختلف فى إفسادهم فى الأرض ، فقيل : هو أكل بنى آدم . وقيل : هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد . وقيل : كانوا يخرجون إلى أرض هؤلاء القوم الذين شكواهم إلى ذى القرنين فى أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئا أخضر إلا أكلوه .

﴿ فهل نجعل لك خرجا ﴾ هذا الاستفهام من باب حسن الأدب مع ذى القرنين . وقرئ : « خراجا » . قال الأزهرى : الخراج يقع على الضريبة ويقع على مال الفئء ، ويقع على الجزية وعلى الغلة . والخراج أيضا اسم لما يخرج من الفرائض فى الأموال ، والخرج : المصدر . وقال قطرب : الخرج : الجزية والخراج فى الأرض . وقيل : الخرج : ما يخرج كل أحد من ماله ، والخراج : ما يجبيه السلطان . وقيل : هما بمعنى واحد ﴿ على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ﴾ أى ردما حاجزا بيننا وبينهم . وقرئ : ﴿ سدا ﴾ بفتح السين . قال الخليل وسيبويه : الضم هو الاسم ، والفتح المصدر . وقال الكسائى : الفتح والضم لغتان بمعنى واحد ، وقد سبق قريبا ما حكيناه عن أبى عمرو بن العلاء وأبى عبيدة وابن الأنبارى من الفرق بينهما . وقال ابن أبى إسحاق : ما رآته عينك فهو سد بالضم ، وما لا ترى فهو سد بالفتح ، وقد قدمنا بيان من قرأ بالفتح وبالضم فى السدين .

﴿ قال ما مكنى فيه ربى ﴾ أى قال لهم ذو القرنين : ما بسطه الله لى من القدرة والملك ﴿ خير ﴾ من خرجكم ، ثم طلب منهم المعاونة له فقال : ﴿ فأعينونى بقوة ﴾ أى برجال منكم يعملون بأيديهم ، أو أعينونى بآلات البناء ، أو بمجموعهما . قال الزجاج : بعمل تعملونه معى . قرأ ابن كثير وحده : « ما مكننى » بنونين ، وقرأ الباكون بنون واحدة . ﴿ أجعل بينكم وبينهم ردما ﴾ هذا جواب الأمر ، والردم : ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل . قال الهروى : يقال : ردمت الثلثة أردمها بالكسر ردما أى سدتها ، والردم أيضا الاسم ، وهو السد . وقيل : الردم أبلغ من السد ، إذ السد كل ما يسد به ، والردم : وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوهما حتى يقوم من ذلك حجاب منيع ، ومنه ردم ثوبه : إذا رقع برفاع متكاثفة بعضها فوق بعض ، ومنه قول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم

أى من قول يركب بعضه على بعض . ﴿ آتونى زبر الحديد ﴾ أى أعطونى وناولونى ، وزبر الحديد : جمع زبرة ، وهى القطعة . قال الخليل : الزبرة من الحديد : القطعة الضخمة . قال الفراء معنى : ﴿ آتونى زبر الحديد ﴾ آتوني بها فلما أقيت الياء زيدت ألفا ، وعلى هذا فانتصاب ﴿ زبر ﴾ بنزع الخافض ﴿ حتى إذا ساوى بين الصدفين ﴾ والصدفان : جانبى الجبل . قال الأزهرى : يقال لجانبى الجبل صدفان : إذا تحاذيا لتصادفهما ، أى تلاقيهما ، وكذا قال أبو عبيدة والهروى . قال الشاعر :

كلا الصدفين ينفده سناها توقد مثل مصباح الظلام

وقد يقال لكل بناء عظيم مرتفع : صدف ، قاله أبو عبيدة ، قرأ نافع وحزمة والكسائى وحفص : ﴿ الصدفين ﴾ بفتح الصاد والذال . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب واليزيدى وابن محيصن بضم الصاد والذال . وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر بضم الصاد وسكون الذال . وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الذال ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد لأنها أشهر اللغات ، ومعنى الآية : أنهم أعطوه زبر الحديد ، فجعل يبنى بها بين الجبلين حتى ساواهما ﴿ قال انفخوا ﴾ أى قال للعملة : انفخوا على هذه الزبر بالكيران ﴿ حتى إذا جعله نارا ﴾ أى جعل ذلك المنفوخ فيه ، وهو الزبر نارا ، أى كالنار فى حرها وإسناد الجعل إلى ذى القرنين مجاز لكونه الأمر بالنفخ . قيل : كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى يتحمى ، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار ، ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة ، وهو معنى قوله : ﴿ قال آتوني أفرغ عليه قطرا ﴾ قال أهل اللغة : القطر : النحاس الذائب ، والإفراغ : الصب ، وكذا قال أكثر المفسرين . وقالت طائفة : القطر : الحديد المذاب . وقالت فرقة أخرى منهم ابن الأنبارى : هو الرصاص المذاب .

﴿ فما استطاعوا ﴾ أصله : استطاعوا ، فلما اجتمع المتقاربان ، وهما التاء والطاء خففوا بالحذف . قال ابن السكيت : يقال : ما أستطيع ، وما أسطيع ، وما أستيع . وبالتخفيف قرأ الجمهور ، وقرأ حمزة وحده : « فما استطاعوا » بتشديد الطاء كأنه أراد استطاعوا فأدغم التاء فى الطاء وهى قراءة ضعيفة الوجه ، قال أبو على الفارسى : هى غير جائزة . وقرأ الأعمش : « فما استطاعوا » على الأصل ، ومعنى ﴿ أن يظهره ﴾ أن يعلوه أى فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه وملاسته ﴿ وما استطاعوا له نقبا ﴾ يقال : نقبت الحائط : إذا خرقت فيه خرقا فخلص إلى ما وراءه . قال الزجاج : ما قدروا أن يعلوا عليه لارتفاعه وانغلاسه ، وما استطاعوا أن ينقبوه من أسفله لشدته وصلابته .

﴿ قال هذا رحمة من ربى ﴾ أى قال ذو القرنين مشيرا إلى السد : هذا السد رحمة من ربى ، أى أثر من آثار رحمته لهؤلاء المتجاوزين للسد ولمن خلفهم ممن يخشى عليه معرفتهم لو لم يكن ذلك السد . وقيل : الإشارة إلى التمكين من بنائه ﴿ فإذا جاء وعد ربى ﴾ أى أجل ربى أن يخرجوا منه . وقيل : هو مصدر بمعنى المفعول ، وهو يوم القيامة ﴿ جعله دكاء ﴾ أى مستويا

بالأرض ومنه قوله : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا ﴾ [الفجر : ٢١] . قال الترمذى : أى مستويا ، يقال : ناقة دكاء : إذا ذهب سنامها . وقال القتيبي : أى جعله مدكوكا ملصقا بالأرض . وقال الحلیمی : قطعاً متكسراً . قال الشاعر :

هل غير غار دك غارا فانهدم

قال الأزهري : دككته ، أى دقته . ومن قرأ : ﴿ دكاء ﴾ بالمد وهو عاصم وحمزة والكسائي أراد التشبيه بالناقة الدكاء ، وهى التى لا سنام لها ، أى مثل دكاء ، لأن السد مذكر فلا يوصف بدكاء . وقرأ الباقون : « دكا » بالتونين على أنه مصدر ، ومعناه ما تقدم ، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الحال ، أى مدكوكا ﴿ وكان وعد ربى حقا ﴾ أى وعده بالثواب والعقاب ، أو الوعد المعهود حقا ثابتا لا يتخلف ، وهذا آخر قول ذى القرنين .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ حتى إذا بلغ بين السدين ﴾ قال : الجبلين أرمينية وأذربيجان . وأخرج أيضا عن ابن جريج ﴿ لا يكادون يفقهون قولا ﴾ قال : الترك . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : يأجوج ومأجوج شبر وشبران وأطولهم ثلاثة أشبار ، وهم من ولد آدم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث ، وابن عساكر عن ابن عمرو عن النبى ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معاشهم ، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا ، وإن من ورائهم ثلاث أمم : تاويل ، وتاريس ، ومنسك » . وأخرج النسائى من حديث عمرو بن أوس عن أبيه مرفوعا : « أنه لا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا » (١) وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجه وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض يحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستفتحونه غدا ، فيعودون إليه أشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستفتحونه غدا إن شاء الله ، ويستثنى فيعودون إليه وهو كهيته حين تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه ، ويتحصن الناس منهم فى حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء ، فيقولون : قهرنا من فى الأرض وعلونا من فى السماء قسرا وعلوا ، فيبعث الله عليهم نغفا فى أفتائهم فيهلكون » ، قال رسول الله ﷺ : « فوالذى نفس محمد بيده ، إن دواب الأرض

(١) النسائى فى التفسير (٣٥٤) وإسناده ضعيف ؛ لأن فى إسناده ابن عمرو بن أوس ولا يعرف حاله ولم يذكر فيه

جرح ولا تعديل ، ولم يرو عنه غير النعمان بن سالم .

لتسمن وتبطر وتشكر شكرا من لحومهم » (١) وقد ثبت في الصحيحين من حديث زينب بنت جحش قالت : استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق ، قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفيما الصالحون ؟ قال : « نعم ، إذا كثر الخبث » (٢) .

وأخرجنا نحوه من حديث أبي هريرة مرفوعا (٣) . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فهل نجعل لك خرجا ﴾ قال : أجرا عظيما . وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ ردما ﴾ قال : هو كاشد الحجاب . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله : ﴿ زبر الحديد ﴾ قال : قطع الحديد . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه : ﴿ بين الصدفين ﴾ . قال : الجبلين . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : رؤوس الجبلين . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس في قوله : ﴿ قطرا ﴾ قال : النحاس : وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ قال : أن يرتقوه . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : أن يعلوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ جعله دكاء ﴾ قال : لا أدرى الجبلين يعني به أم بينهما .

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُورًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) ﴾ .

(١) أحمد ٥١٠ / ٢ ، ٥١١ ، والترمذي في التفسير (٣١٥٣) وقال : « حسن غريب » وابن ماجه في الفتن (٤٠٨٠) وفي الزوائد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » وابن حبان (٦٧٩٠) . ومعنى « نغفا » بفتح النون والغين المعجمة : هو ما يكون في أنوف الإبل والغنم ، جمع نغفة .

(٢) البخاري في الأنبياء (٣٣٤٦) وفي المناقب (٣٥٩٨) وفي الفتن (٧٠٥٩ ، ٧١٣٥) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٠ / ١ ، ٢) .

(٣) البخاري في الأنبياء (٣٣٤٧) وفي الفتن (٧١٣٦) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨١ / ٣) .

قوله : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ هذا من كلام الله سبحانه بعد انقضاء كلام ذى القرنين ، والضمير في ﴿ بعضهم ﴾ ليأجوج ومأجوج ، أى تركنا بعض يأجوج ومأجوج يوم مجيء الوعد ، أو يوم خروج يأجوج ومأجوج يموج في بعض آخر منهم ، يقال : ماج الناس : إذا دخل بعضهم في بعض حيارى كموج الماء ، والمعنى : أنهم يضطربون ويختلطون . وقيل : الضمير في ﴿ بعضهم ﴾ للخلق ، واليوم : يوم القيامة ، أى جعلنا بعض الخلق من الجن والإنس يموج في بعض . وقيل : المعنى : وتركنا يأجوج ومأجوج يوم كمال السد وتمام عمارته بعضهم يموج في بعض ، وقد تقدم تفسير ﴿ ونفخ في الصور ﴾ في الأنعام . قيل : هى النفخة الثانية بدليل قوله بعد : ﴿ فجمعناهم جمعا ﴾ فإن الفاء تشعر بذلك ، ولم يذكر النفخة الأولى ، لأن المقصود هنا ذكر أحوال القيامة ، والمعنى : جمعنا الخلائق بعد تلاشى أبدانهم ومصيرهم ترابا جمعا تاما على أكمل صفة وأبدع هيئة وأعجب أسلوب .

﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ﴾ المراد بالعرض هنا : الإظهار ، أى أظهرنا لهم جهنم حتى شاهدوها يوم جمعنا لهم ، وفى ذلك وعيد للكفار عظيم لما يحصل معهم عند مشاهدتها من الفزع والروعة ، ثم وصف الكافرين المذكورين بقوله : ﴿ الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى ﴾ أى كانت أعينهم فى الدنيا فى غطاء ، وهو ما غطى الشئ وستره من جميع الجوانب ﴿ عن ذكرى ﴾ عن سبب ذكرى ، وهو الآيات التى يشاهدها من له تفكر واعتبار فيذكر الله بالتوحيد والتمجيد ، فأطلق المسبب على السبب ، أو عن القرآن العظيم ، وتأمل معانيه وتدبر فوائده . ثم لما وصفهم سبحانه بالعمى عن الدلائل التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما ، أراد أن يصفهم بالصمم عن استماع الحق فقال : ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾ أى لا يقدرّون على الاستماع لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله ، وهذا أبلغ مما لو قال : وكانوا صما ، لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به ، وهؤلاء لا استطاعة لهم بالكلية ، وفى ذكر غطاء الأعين وعدم استطاعة السماع تمثيل لتعاميهم عن المشاهدة بالأبصار وإعراضهم عن الأدلة السمعية .

﴿ أفحسب الذين كفروا ﴾ الحسبان هنا بمعنى : الظن ، والاستفهام : للتقريع والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره . والمعنى : أظنّوا أنهم يتفعلون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبر آيات الله وتمردهم عن قبول الحق ، ومعنى : ﴿ أن يتخذوا عبادى من دونى ﴾ أى يتخذوهم من دون الله ، وهم الملائكة والمسيح والشياطين ﴿ أولياء ﴾ أى معبودين ، قال الزجاج : المعنى : أيحسبون أن ينفعهم ذلك ، وقرئ : « أفحسب » بسكون السين ، ومعناه : أكافيهم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء على أنه مبتدأ وخبر ، يريد أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا ﴿ إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا ﴾ أى هيأناها لهم نزلا يتمتعون به عند ورودهم . قال الزجاج : النزول المأوى والمنزل . وقيل : إنه الذى يعد للضيف ، فيكون تهكما

بهم كقوله : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [الانشقاق : ٤] ، والمعنى : أن جهنم معدة لهم عندنا كما يعد النزل للضيف .

﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ انتصاب ﴿ أعمالاً ﴾ على التمييز ، والجمع للدلالة على إرادة الأنواع منها ، ومحل الموصول وهو ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ﴾ الفعل على أنه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قيل : من هم ؟ فقيل : هم الذين ضل سعيهم ، والمراد بضلال السعى : بطلانه وضياعه ، ويجوز أن يكون في محل نصب على الذم ، ويكون الجواب : ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ﴾ ويجوز أن يكون في محل جر على أنه نعت لـ ﴿ الأخسرين ﴾ أو بدل منه ، ويكون الجواب أيضاً هو أولئك وما بعده ، وأول هذه الوجوه هو أولها ، وجملة : ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ﴿ ضل ﴾ ، أى والحال أنهم يظنون أنهم محسنون فى ذلك منتفعون بآثاره ، وتكون جملة ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ﴾ مستأنفة مسوقة لتكميل الخسران وبيان سببه ، هذا على الوجه الأول الراجح لا على الوجوه الآخرة ، فإنها هى الجواب كما قدمنا ، ومعنى كفرهم بآيات ربهم : كفرهم بدلائل توحيده من الآيات التكوينية والتزيلية ، ومعنى كفرهم بآياته : كفرهم بالبعث وما بعده من أمور الآخرة ، ثم رتب على ذلك قوله : ﴿ فحبطت أعمالهم ﴾ أى التى عملوها مما يظنونه حسناً ، وهو خسران وضلال ، ثم حكم عليهم بقوله : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ أى لا يكون لهم عندنا قدر ولا نعبأ بهم . وقيل : لا يقام لهم ميزان توزن به أعمالهم ، لأن ذلك إنما يكون لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين ، وهؤلاء لا حسنات لهم . قال ابن الأعرابى : العرب تقول : ما لفلان عندنا وزن ، أى قدر لحسته ، ويوصف الرجل بأنه لا وزن له لخفته ، وسرعة طيشه ، وقلة تثبته . والمعنى على هذا : أنهم لا يعتد بهم ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة ، وقرأ مجاهد : « يقيم » بالياء التحتية ، أى فلا يقيم الله ، وقرأ الباقون بالنون .

ثم بين سبحانه عاقبة هؤلاء وما يؤول إليه أمرهم فقال : ﴿ ذلك ﴾ أى : الذى ذكرناه من أنواع الوعيد جزاؤهم ، ويكون قوله : ﴿ جهنم ﴾ عطف بيان للجزاء ، أو جملة ﴿ جزاؤهم جهنم ﴾ مبتدأ وخبر ، والجملة خبر ﴿ ذلك ﴾ ، والسبب فى ذلك أنهم ضموا إلى الكفر اتخاذ آيات الله واتخاذ رسله هزوا ، فالباء فى ﴿ بما كفروا ﴾ للسببية ، ومعنى كونهم هزوا : أنهم مهزوء بهم . وقد اختلف السلف فى تعيين هؤلاء الأخسرين أعمالاً . فقيل : اليهود والنصارى . وقيل : كفار مكة . وقيل : الخوارج . وقيل : الرهبان أصحاب الصوامع . والأولى حمل الآية على العموم لكل من اتصف بتلك الصفات المذكورة .

ثم ذكر سبحانه بعد هذا الوعيد لهؤلاء الكفار الوعد للمؤمنين فقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أى جمعوا بينهما حتى كانوا على ضد صفة من قبلهم ﴿ كانت لهم ﴾ قال ابن الأتبارى : كانت فيما سبق من علم الله كانت لأهل طاعته ﴿ جنات الفردوس نزلاً ﴾ قال

المبرد : الفردوس فيما سمعت من كلام العرب : الشجر الملتف والأغلب عليه العنب . واختار الزجاج ما قاله مجاهد : إن الفردوس : البستان باللغة الرومية ، وقد تقدم بيان النزول ، وانتصابه على أنه خبر كان . والمعنى : كانت لهم ثمار جنة الفردوس ننزلا معدا لهم مبالغة في إكرامهم ، وانتصاب ﴿ خالددين فيها ﴾ على الحال ، وكذلك جملة : ﴿ لا ييغون عنها حولا ﴾ في محل نصب على الحال ، والحول : مصدر ، أى لا يطلبون تحولا عنها إذ هي أعز من أن يطلبوا غيرها ، أو تشتاق أنفسهم إلى سواها . قال ابن الأعرابي وابن قتيبة والأزهري : الحول اسم بمعنى : التحول يقوم مقام المصدر ، وقال أبو عبيدة والفراء : إن الحول التحويل .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق هارون بن عترة عن أبيه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وتركنا بعضهم ﴾ الآية قال : الجن والإنس ﴿ يموج ﴾ بعضهم ﴿ فى بعض ﴾ . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ لا يستطيعون سمعا ﴾ قال : لا يعقلون سمعا . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر عن على أنه قرأ : « أفحسب الذين كفروا » قال أبو عبيد بجزم السين وضم الباء . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة أنه قرأ كذلك .

وأخرج عبد الرزاق والبخارى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه من طريق مصعب بن سعد قال : سألت أبى ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ﴾ أهم الحرورية ؟ قال : لا هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمدا ﷺ وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ، والحرورية : الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وكان سعد يسميهم الفاسقين ^(١) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن مصعب قال : قلت لأبى : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ﴾ الحرورية هم ؟ قال : لا ولكنهم أصحاب الصوامع . والحرورية قوم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم ^(٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبى حميصة عبد الله بن قيس قال : سمعت على بن أبى طالب يقول : فى هذه الآية ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ﴾ : إنهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم فى السوارى . وأخرج ابن مردويه عن أبى الطفيل قال : سمعت على بن أبى طالب وسأله ابن الكوا فقال : ﴿ هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ﴾ قال : فجرة قريش . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريقين عن على أنه سئل عن هذه الآية : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ﴾ قال :

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٢٨) والنسائى فى التفسير (٣٣٣) وابن جرير ٢٧/١٦ وصححه الحاكم ٣٧٠/٢ ووافقه الذهبى . والحرورية : نسبة إلى حروراء ، وهى القرية التى كان ابتداء خروج الخوارج على على - رضى الله عنه - منها .

(٢) صححه الحاكم ٣٧٠/٢ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

لا أظن إلا أن الخوارج منهم . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » ، وقال : « اقروا إن شئتم : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ » (١) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وابن مردويه عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « سلوا الله الفردوس ، فإنها سره الجنة ، وإن أهل الفردوس يسمعون أطيب العرش » (٢) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » (٣) . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وأحمد والترمذى وابن جرير والحاكم والبيهقى وابن مردويه عن عبادة بن الصامت أن النبى ﷺ قال : « إن فى الجنة مائة درجة ، كل درجة منها ما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ، ومن فوقها يكون العرش ، ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس » (٤) والأحاديث بهذا المعنى كثيرة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : الفردوس بستان بالرومية . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدي قال : هو الكرم بالنبطية ، وأخرج ابن أبى شيبه وهناد وابن المنذر عن عبد الله بن الحارث : أن ابن عباس سأل كعبا عن الفردوس قال : هى جنات الأعتاب بالسريانية ، وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ لا ييغون عنها حولا ﴾ قال : متحولا .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ .

لما ذكر سبحانه أنواع الدلائل نبه على كمال القرآن فقال : ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي ﴾ قال ابن الأنبارى : سمي المداد مدادا لإمداده الكاتب ، وأصله من الزيادة ومجىء الشيء بعد الشيء ، ويقال للزيت الذى يوقد به السراج : مداد ، والمراد بالبحر هنا : الجنس .

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٢٩) ومسلم فى صفات المنافقين (١٨/٢٧٨٥) .
(٢) الطبرانى (٧٩٦٦) والحاكم ٣٧١/٢ وقال : « هذا حديث لم نكتبه إلا من هذا الإسناد ولم نجد بدا من إخراج » . وقال الذهبى : « جعفرها لك » . وقال الهيثمى فى المجمع ٤٠١ : « رواه الطبرانى وفيه جعفر بن الزبير وهو متروك » .
(٣) البخارى فى الجهاد (٢٧٩٠) وفى التوحيد (٧٤٢٣) وأحمد ٣٣٣/٢ ، ٣٣٩ .
(٤) ابن أبى شيبه (١٥٩٢٣) وأحمد ٣١٦/٥ ، ٣٢١ والترمذى فى صفه الجنة (٢٥٣١) ، وابن جرير ٣٠/١٦ والحاكم ٨٠/١ .

والمعنى : لو كتبت كلمات علم الله وحكمته ، وفرض أن جنس البحر مدادا لها لنفد البحر قبل نفود الكلمات ، ولو جئنا بمثل البحر مدادا لنفد أيضا . وقيل فى بيان المعنى : لو كان البحر مدادا للقلم والقلم يكتب ﴿ لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ﴾ وقوله : ﴿ ولو جئنا بمثله مددا ﴾ كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت قوله : ﴿ قل لو كان ﴾ وفيه زيادة مبالغة وتأکید ، والواو لعطف ما بعده على جملة مقدرة مدلول عليها بما قبلها ، أى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلماته لو لم يجرى بمثله مددا ولو جئنا بمثله مددا ، والمدد الزيادة . وقيل : عنى سبحانه بالكلمات الكلام القديم الذى لا غاية له ولا منتهى ، وهو وإن كان واحدا فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من الفوائد ، وقد عبرت العرب عن الفرد بلفظ الجمع ، قال الأعشى :

ووجه نقى اللون صاف يزينه مع الجيد لبات لها ومعاصم

فعبّر باللغات عن اللبة . قال الجبائى : إن قوله : ﴿ قبل أن تنفذ كلمات ربى ﴾ يدل على أن كلماته قد تنفذ فى الجملة ، وما ثبت عدمه امتنع قدمه . وأجيب بأن المراد الألفاظ الدالة على متعلقات تلك الصفة الأزلية . وقيل فى الجواب : إن نفاد شيء قبل نفاد شيء آخر لا يدل على نفاد الشيء الآخر ، ولا على عدم نفاده ، فلا يستفاد من الآية إلا كثرة كلمات الله بحيث لا تضبطها عقول البشر ، أما أنها متناهية ، أو غير متناهية فلا دليل على ذلك فى الآية . والحق أن كلمات الله تابعة لمعلوماته ، وهى غير متناهية ، فالكلمات غير متناهية . وقرأ مجاهد وابن محيصن وحמיד : « ولو جئنا بمثله مدادا » وهى كذلك فى مصحف أبى ، وقرأ الباقون : ﴿ مددا ﴾ وقرأ حمزة والكسائى : « قبل أن ينفذ » بالتحية ، وقرأ الباقون بالفوقية .

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يسلك مسلك التواضع ، فقال : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ﴾ أى إن حالى مقصور على البشرية لا يتخطاها إلى الملكية ، ومن كان هكذا فهو لا يدعى الإحاطة بكلمات الله إلا أنه امتاز عنهم بالوحى إليه من الله سبحانه فقال : ﴿ يوحى إلى ﴾ وكفى بهذا الوصف فارقا بينه وبين سائر أنواع البشر ، ثم بين أن الذى أوحى إليه هو قوله : ﴿ إنما إلهكم إله واحد ﴾ لا شريك له فى ألوهيته ، وفى هذا إرشاد إلى التوحيد ، ثم أمرهم بالعمل الصالح والتوحيد فقال : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الرجاء : توقع وصول الخير فى المستقبل ، والمعنى : من كان له هذا الرجاء الذى هو شأن المؤمنين ﴿ فليعمل عملا صالحا ﴾ وهو ما دل الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ من خلقه سواء كان صالحا ، أو طالحا ، حيوانا أو جمادا ، قال الماوردى : قال جميع أهل التأويل فى تفسير هذه الآية : إن المعنى لا يرأى بعمله أحدا . وأقول : إن دخول الشرك الخفى الذى هو الرياء ، ولا مانع من دخول هذا الخفى تحتها ، إنما المانع من كونه هو المراد بهذه الآية .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ لكلمات ربى ﴾ يقول : علم ربى . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : يقول ينفذ ماء البحر قبل أن ينفذ كلام

الله وحكمته . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ الآية قال : أنزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله إلها غيره ، وليست هذه في المؤمنين ^(١) . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي عن ابن عباس قال : قال رجل : يا نبي الله ، إنني أقف المواقف أبتغي وجه الله ، وأحب أن يرى موطنى ، فلم يرد عليه شيئا حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ ^(٢) . وأخرج ابن مندة ، وأبو نعيم في الصحابة ، وابن عساكر من طريق السدى الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له ، فزاد في ذلك لقالة الناس فلا يريد به الله ، فنزل في ذلك : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ الآية . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : قال رجل : يا رسول الله ، أعتق وأحب أن يرى ، وأنصدق وأحب أن يرى ، فنزلت : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ الآية وهو مرسل . وأخرجه هناد في الزهد عنه أيضا .

وأخرج ابن سعد وأحمد والترمذي وابن ماجه ، والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري وكان من الصحابة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » ^(٣) . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي عن أبي هريرة : أن رجلا قال : يا رسول الله ، الرجل يجاهد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من الدنيا ؟ فقال : « لا أجر له » ، فأعظم الناس ذلك ، فعاد الرجل فقال : « لا أجر له » ^(٤) . وأخرج ابن أبي الدنيا في الإخلاص ، وابن جرير في تهذيبه ، والطبراني والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي عن شداد بن أوس قال : كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ : الشرك الأصغر . وأخرج الطيالسي وأحمد وابن أبي الدنيا والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي عن شداد بن أوس أيضا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من صلى يرأى فقد أشرك ، ومن صام يرأى فقد أشرك ، ومن تصدق يرأى فقد أشرك » ، ثم قرأ : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ الآية ^(٥) . وأخرج الطيالسي وأحمد وابن مردويه وأبو نعيم عن شداد أيضا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك بى ، من أشرك بى شيئا فإن عمله قليله وكثيره

(١) البيهقي في الشعب (٦٨٥٣) . ط . الكتب العلمية .

(٢) صححه الحاكم ١١١/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب (٦٨٥٤) ط . الكتب العلمية .

(٣) أحمد ٢١٥/٤ والترمذي في التفسير (٣١٥٤) وقال : « غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن بكر » وابن

ماجة في الزهد (٤٢٠٣) والبيهقي في الشعب (٦٨١٧) . ط . الكتب العلمية .

(٤) صححه الحاكم ٣٧١/٢ ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب (٦٨٤٠) . ط . الكتب العلمية .

(٥) الطيالسي (١١٢٠) وأحمد ١٢٦/٤ والطبراني (٧١٣٩) والحاكم ٣٢٩/٤ وسكت عليه الذهبي أيضا ، والبيهقي

في الشعب (٦٨٤٤) . ط . الكتب العلمية .

لشريكه الذى أشركه أنا عنه غنى « (١) . وأخرج أحمد والحكيم الترمذى ، وابن جرير فى تهذيبه ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح ؟ الشرك الخفى ؛ أن يقوم الرجل يصلى لمكان رجل » (٢) . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن شداد بن أوس سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية » ، قلت : أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : « نعم ، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ، ولكن يراؤون الناس بأعمالهم » قلت : يا رسول الله ، ما الشهوة الخفية ؟ قال : « يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته » (٣) . وأخرج أحمد ومسلم وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ عن ربه أنه قال : « أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى فأنا براء منه ، وهو للذى أشرك » وفى لفظ : « فمن أشرك بى أحدا فهو له كله » (٤) وفى الباب أحاديث كثيرة فى التحذير من الرياء وأنه الشرك الأصغر ، وأن الله لا يقبله ، وقد استوفاهما صاحب الدر المنثور فى هذا الموضع فليرجع إليه ، ولكنها لا تدل على أنه المراد بالآية ، بل الشرك الجلى يدخل تحتها دخولا أولياً ، وعلى فرض أن سبب النزول هو الرياء كما يشير إلى ذلك ما قدمنا ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما هو مقرر فى علم الأصول .

وقد ورد فى فضائل هذه الآية بخصوصها ما أخرجه الطبرانى وابن مردويه عن أبى حكيم قال : قال رسول الله ﷺ : « لو لم ينزل على أمتى إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم » . وأخرج ابن راهويه واليزار ، والحاكم وصححه ، والشيرازى فى الالقاب ، وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ فى ليلة : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية ، كان له نور من عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة » قال ابن كثير بعد إخراجها : غريب جداً (٥) . وأخرج ابن الضريس عن أبى الدرداء قال : من حفظ خاتمة الكهف كان له نور يوم القيامة من لدن قرنه إلى قدمه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن معاوية بن أبى سفيان ، أنه تلا هذه الآية : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ وقال : إنها آخر آية نزلت من القرآن . قال ابن كثير : وهذا أثر مشكل ، فإن هذه الآية هى آخر سورة الكهف ، والكهف كلها مكية ،

(١) الطيالسى (١١٢١) وأحمد ١٢٦/٤ وأبو نعيم فى الحلية ٢٦٩/١ وقال الهيثمى فى المجمع ٢٢٤/١٠ : « رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب وثقه أحمد وغيره وضعفه غير واحد ، وبقيّة رجاله ثقات » .

(٢) أحمد ٣٠/٣ وصححه الحاكم ٣٢٩/٤ ووافقه الذهبى .

(٣) أحمد ١٢٤/٤ والطبرانى (٧١٤٤) وصححه الحاكم ٣٣٠/٤ وقال الذهبى : « عبد الواحد متروك » والبيهقى فى الشعب (٦٨٣٠) . ط . الكتب العلمية . ورواية الطبرانى فيها : « الحارث بن نبهان وعبد الواحد بن زيد وهما متروكان » .

(٤) أحمد ٣٠١/٢ ومسلم فى الزهد (٢٩٨٥ / ٤٦) والبيهقى فى الشعب (٦٨١٥) . ط . الكتب العلمية .

(٥) صححه الحاكم ٣٧١/٢ وقال الذهبى : « أبو قرّة فيه جهالة ولم يضعف » وابن كثير ٤٣٦/٤ .

الجزء الثالث - سورة الكهف: الآيتان (١٠٩ ، ١١٠) _____ ٤٤١
ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها ولا يغير حكمها ، بل هي مثبتة محكمة ،
فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه (١) .

(١) ابن جرير ٣٢/١٦ ، وابن كثير ٤/٤٣٥ ، ٤٣٦ .

تفسير سورة مريم

هى مكية وآياتها ثمان وتسعون آية. أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت بمكة سورة ﴿ كهيعص ﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: نزلت سورة مريم بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن أم سلمة ؛ أن النجاشى قال لجعفر بن أبى طالب : هل معك مما جاء به ، يعنى رسول الله ﷺ ، عن الله شىء ؟ قال : نعم ، فقرأ عليه صدراً من ﴿ كهيعص ﴾ فبكى النجاشى حتى أخضل لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال النجاشى : إن هذا الذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . وقد ذكر ابن إسحاق القصة بطولها (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كَهَيْعَصَ ١ ﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً ٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ٩ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١١ ﴿

قوله : ﴿ كهيعص ﴾ قرأ أبو جعفر هذه الحروف مقطعة ، ووصلها الباقون ، وأمال أبو عمرو الهاء وفتح الياء ، وعكس ذلك ابن عامر وحمزة ، وأمالهما جميعا الكسائي وأبو بكر وخلف ، وقرأهما بين اللفظين أهل المدينة وفتحهما الباقون . وعن خارجة أن الحسن كان يضم « كاف » ، وحكى عن غيره أنه كان يضم « ها » . وقال أبو حاتم : لا يجوز ضم الكاف ولا الهاء ولا الياء . قال النحاس : قراءة أهل المدينة من أحسن ما فى هذا ، والإمالة جائزة فى «ها» وفى « يا » وقد اعترض على قراءة الحسن جماعة . وقيل فى تأويلها : أنه كان يشم الرفع

فقط . وأظهر الدال من هجاء « صاد » نافع وأبو جعفر وابن كثير وعاصم ويعقوب ، وهو اختيار أبي عبيد وأدغمها الباقون . وقد قيل فى توجيه هذه القراءات : إن التفخيم هو الأصل ، والإمالة فرع عنه ، فمن قرأ بتفخيم الهاء والياء فقد عمل بالأصل ، ومن أمالهما فقد عمل بالفرع ، ومن أمال أحدهما وفخم الآخر فقد عمل بالأمرين ، وقد تقدم الكلام فى هذه الحروف الواقعة فى فواتح السور مستوفى فى أوائل سورة البقرة .

ومحل هذه الفاتحة إن جعلت اسما للسورة على ، ما عليه الأكثر، الرفع على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها ، قاله الفراء . واعترضه الزجاج فقال : هذا محال لأن ﴿ كهيعص ﴾ ليس هو مما أنبأنا الله عز وجلّ به عن زكريا ، وقد أخبر الله تبارك وتعالى عنه وعما بشر به ، وليس ﴿ كهيعص ﴾ من قصته ، أو على أنها خبرمبتدأ محذوف . وإن جعلت مسرودة على غط التعديد ، فقله : ﴿ ذكر رحمة ربك ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى هذا ذكر رحمة ربك . وقيل : هو مبتدأ خبره محذوف ، أى فيما يتلى عليك ذكر رحمة ربك . قال الزجاج : ﴿ ذكر ﴾ مرتفع بالضمير ، والمعنى : هذا الذى نتلوه عليك ذكر رحمة ربك ﴿ عبده زكريا ﴾ يعنى : إجابته إياه حين دعاه وسأله الولد ، وانتصاب ﴿ عبده ﴾ على أنه مفعول للرحمة ، قاله الأخفش . وقيل : للذكر . ومعنى ذكر الرحمة : بلوغها وإصابتها ، كما يقال : ذكرنى معروف فلان ، أى بلغنى . وقرأ يحيى بن يعمر : « ذكر » بالنصب ، وقرأ أبو العالية « عبده » بالرفع على أن المصدر مضاف إلى المفعول ، وفاعل الذكر هو عبده ، وزكريا على القراءتين عطف بيان له أو بدل منه ، وقرأ الكلبي : « ذكر » على صيغة الفعل الماضى مشدداً ومخففاً على أن الفاعل عبده ، وقرأ ابن معمر على الأمر ، وتكون الرحمة على هذا عبارة عن زكريا ، لأن كل نبى رحمة لأمته .

﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ العامل فى الظرف : رحمة . وقيل : ذكر . وقيل : هو بدل اشتمال من زكريا . واختلف فى وجه كون ندائه هذا خفياً ، فقليل : لأنه أبعد عن الرياء ، وقيل : أخفاه ، لئلا يلام على طلبه للولد فى غير وقته ، ولكونه من أمور الدنيا . وقيل : أخفاه مخافة من قومه . وقيل : كان ذلك منه لكونه قد صار ضعيفاً هرمًا لا يقدر على الجهر . ﴿ قال رب إنى وهن العظم منى ﴾ هذه الجملة مفسرة لقوله : ﴿ نادى ربه ﴾ يقال : وهن يهن وهنا : إذا ضعف فهو واهن ، وقرئ بالحركات الثلاث، أراد أن عظامه فترت وضعفت قوته، وذكر العظم ، لأنه عمود البدن ، وبه قوامه، وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته ، ولأن أشد ما فى الإنسان صلبه ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن ، ووحد العظم قصداً إلى الجنس المفيد لشمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ قرأ أبو عمرو بإدغام السين فى الشين ، والباقون بعده ، والاشتعال فى الأصل : انتشار شعاع النار ، فشبه به انتشار بياض شعر الرأس فى سواده بجامع البياض والإنارة ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية ، بأن حذف المشبه به وأداة التشبيه ، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها . قال الزجاج : يقال للشيب إذا كثر جداً : قد اشتعل رأس فلان ، وأنشد للبيد :

فإن ترى رأسى أمسى واضحاً سلط الشيب عليه فاشتعل

وانتصاب ﴿ شيباً ﴾ على التمييز ، قاله الزجاج . وقال الأخفش : انتصابه على المصدر ، لأن معنى اشتعل : شاب . قال النحاس : قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل ، والمصدرية أظهر فيما كان كذلك ، وكان الأصل اشتعل شيب رأسى ، فأسند الاشتعال إلى الرأس لإفادة الشمول ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ أى لم أكن بدعائى إياك خائباً فى وقت من الأوقات ، بل كلما دعوتك استجبت لى . قال العلماء : يستحب للمرء أن يجمع فى دعائه بين الخضوع ، وذكر نعم الله عليه كما فعل زكريا ها هنا ، فإن فى قوله : ﴿ وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ﴾ غاية الخضوع والتذلل وإظهار الضعف والقصور عن نيل مطالبه ، وبلوغ مآربه ، وفى قوله : ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ ذكر ما عوّده الله من الإنعام عليه بإجابة أديعته ، يقال : شقى بكذا ، أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه .

﴿ وإنى خفت الموالى من ورائى ﴾ قرأ عثمان بن عفان ومحمد بن على بن الحسين وأبوهم على ويحيى بن يعمر : « خفت » بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء وفاعله ﴿ الموالى ﴾ أى قلوا وعجزوا عن القيام بأمر الدين بعدى ، أو انقطعوا بالموت ، مأخوذاً من خفت القوم إذا ارتحلوا ، وهذه قراءة شاذة بعيدة عن الصواب . وقرأ الباقر : ﴿ خفت ﴾ بكسر الخاء وسكون الفاء على أن فاعله ضمير يعود إلى زكريا ، ومفعوله الموالى ، ومن ورائى متعلق بمحذوف لا بـ ﴿ خفت ﴾ وتقديره : خفت فعل الموالى من بعدى . قرأ الجمهور : ﴿ ورائى ﴾ بالهمز والمد وسكون الياء ، وقرأ ابن كثير بالهمز والمد وفتح الياء . وروى عنه أنه قرأ بالقصر مفتوح الياء ، مثل عصاى . والموالى هنا هم الأقارب الذين يرثون وسائر العصابات من بنى العمّ ونحوهم ، والعرب تسمى هؤلاء موالى ، قال الشاعر :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا لا تنشروا بيننا ما كان مدفونا

قيل : الموالى الناصرون له . واختلفوا فى وجه المخافة من زكريا لمواليه من بعده ، فقيل : خاف أن يرثوا ماله ، وأراد أن يرثه ولده ، فطلب من الله سبحانه أن يرزقه ولداً . وقال آخرون : إنهم كانوا مهملين لأمر الدين ، فخاف أن يضيع الدين بموته ، فطلب ولياً يقوم به بعد موته . وهذا القول أرجح من الأول لأن الأنبياء لا يورثون وهم أجل من أن يعتنوا بأمور الدنيا ، فليس المراد هنا : وراثه المال ، بل المراد : وراثه العلم والنبوة والقياس بأمر الدين وقد ثبت عن نبينا ﷺ أنه قال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » ^(١) وكانت امرأتى عاقراً ﴿ العاقر : هى التى لا تلد لكبر سنّها ، والتى لا تلد أيضاً لغير كبر وهى المرادة هنا ، ويقال للرجل الذى لا يلد : عاقر أيضاً ، ومنه قول عامر بن الطفيل :

لبش الفتى إن كنت أعور عاقراً

قال ابن جرير : وكان اسم امرأته : أشاع بنت فاقود بن ميل ، وهى أخت حنة ، وحنة هى أم مريم . وقال القتيبي : هى أشاع بنت عمران ، فعلى القول الأول يكون يحيى بن زكريا ابن خالة أم عيسى ، وعلى القول الثانى يكونان ابني خالة كما ورد فى الحديث الصحيح ^(١) . ﴿ فهب لى من لدنك وليا ﴾ أى أعطنى من فضلك وليا ، ولم يصرح بطلب الولد لما علم من نفسه بأنه قد صار هو وامرأته فى حالة لا يجوز فيها حدوث الولد بينهما وحصوله منهما . وقد قيل : إنه كان ابن بضع وتسعين سنة . وقيل : بل أراد بالولى الذى طلبه هو الولد ، ولا مانع من سؤال من كان مثله لما هو خارق للعادة ، فإن الله سبحانه قد يكرم رسله بما يكون كذلك ، فيكون من جملة المعجزات الدالة على صدقهم .

﴿ يرثنى ويرث من آل يعقوب ﴾ قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحمة وابن محيصن واليزيدى ويحيى بن المبارك ^(٢) بالرفع فى الفعلين جميعاً ، على أنهما صفتان للولى وليسا بجواب للدعاء . وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى بن وثاب والأعمش والكسائى بالجزم فيهما ، على أنهما جواب للدعاء . ورجح القراءة الأولى أبو عبيد وقال : هى أصوب فى المعنى ؛ لأنه طلب ولياً هذه صفة فقال : هب لى الذى يكون وارثى . ورجح ذلك النحاس وقال : لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط والمجازاة ، تقول : أطع الله يدخلك الجنة ، أى إن تطعه يدخلك الجنة ، وكيف يخبر الله سبحانه بهذا ، أعنى كونه أن يهب له وليا يرثه ، وهو أعلم بذلك ، والوراثه هنا هى وراثه العلم والنبوة على ما هو الراجح كما سلف . وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن يعقوب المذكور هنا هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . وزعم بعض المفسرين أنه يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان ، وبه قال الكلبي ومقاتل ، وآل يعقوب هم خاصته الذين يؤول أمرهم إليه للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين ، وقد كان فيهم أنبياء وملوك ، وقرئ : « يرثنى وارث من آل يعقوب » على أنه فاعل يرثنى . وقرئ : « وأرث آل يعقوب » أى أنا . وقرئ : « أويرث آل يعقوب » بلفظ التصغير على أن هذا المصغر فاعل يرثنى . وهذه القراءات فى غاية الشذوذ لفظاً ومعنى ﴿ واجعله رب رضياً ﴾ أى مرضياً فى أخلاقه وأفعاله ، وقيل : راضياً بقضائك وقدرك ، وقيل : رجلاً صالحاً ترضى عنه ، وقيل : نبياً كما جعلت آباءه أنبياء .

﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾ قال جمهور المفسرين : إن هذا النداء من الله سبحانه . وقيل : إنه من جهة الملائكة ، لقوله فى آل عمران : ﴿ فنادته الملائكة ﴾ ، وفى الكلام حذف ، أى فاستجاب له دعاءه ، فقال : يا زكريا ، وقد تقدم فى آل عمران وجه التسمية بيحيى وزكريا . قال الزجاج : سمي يحيى لأنه حيى بالعلم والحكمة التى أوتيتها لم نجعل له

(١) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٣٠) عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة ... « فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة » .

(٢) فى المخطوطة : « واليزيدى ويحيى بن المبارك » والصواب : « ويحيى بن المبارك اليزيدى » . معرفة القراء الكبار للذهبي ١٥١/١ (٦٢) .

من قبل سميا ﴿ قال أكثر المفسرين : معناه : لم نسّم أحداً قبله يحيى . وقال مجاهد وجماعة : معنى ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ : أنه لم يجعل له مثلاً ولا نظيراً ، فيكون على هذا مأخوذ من المساماة أو السمو ، وردّ هذا بأنه يقتضى تفضيله على إبراهيم وموسى . وقيل : معناه : لم تلد عاقر مثله ، والأول أولى . وفى إخباره سبحانه بأنه لم يسم بهذا الاسم قبله أحد فضيلة له من جهتين : الأولى : أن الله سبحانه هو الذى تولى تسميته به ، ولم يكلها إلى الأبوين . والجهة الثانية : أن تسميته باسم لم يوضع لغيره يفيد تشريفه وتعظيمه .

﴿ قال رب أنى يكون لى غلام ﴾ أى كيف أو من أين يكون لى غلام ؟ وليس معنى هذا الاستفهام الإنكار ، بل التعجب من قدرة الله وبديع صنعه ، حيث يخرج ولدًا من امرأة عاقر وشيخ كبير . وقد تقدم الكلام على مثل هذا فى آل عمران ، ﴿ وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ يقال : عتا الشيخ يعتو عتياً إذا انتهى سنه وكبر ، وشيخ عات إذا صار إلى حال اليبس والجفاف ، والأصل عتوا لأنه من ذوات الواو فأبدلوه ياء لكونها أخف ، ومثل ما فى الآية قول الشاعر :

إنما يعذر الوليد ولا يعذر من كان فى الزمان عتياً

وقرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وحفص والأعمش ﴿ عتياً ﴾ بكسر الجين ، وقرأ الباقر بضم العين وهما لغتان ، ومحل جملة ﴿ وكانت امرأتى عاقراً ﴾ النصب على الحال من ضمير المتكلم ، ومحل جملة ﴿ وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ النصب أيضاً على الحال ، وكلا الجملتين لتأكيد الاستبعاد والتعجب المستفاد من قوله : ﴿ أنى يكون لى غلام ﴾ أى كيف يحصل بيننا ولد الآن ، وقد كانت امرأتى عاقراً لم تلد فى شبابها وشبابى ، وهى الآن عجوز ، وأنا شيخ هرم ؟

ثم أجاب الله سبحانه على هذا اسؤال المشعر بالتعجب والاستبعاد بقوله : ﴿ قال كذلك قال ربك ﴾ الكاف فى محل رفع ، أى الأمر كذلك ، والإشارة إلى ما سبق من قول زكريا ، ثم ابتداء بقوله : ﴿ قال ربك ﴾ ويحتمل أن يكون محله النصب على المصدرية ، أى قال قولاً مثل ذلك ، والإشارة بذلك إلى مبهم يفسره قوله : ﴿ هو على هين ﴾ وأما على الاحتمال الأول فتكون جملة ﴿ هو على هين ﴾ مستأنفة مسوقة لإزالة استبعاد زكريا بعد تقريره ، أى قال : هو مع بعده عندك ، على هين ، وهو فيعمل من هان الشيء يهون إذا لم يصعب ولم يمتنع من المراد . قال الفراء : أى خلقه على هين ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها ، قال الزجاج : أى فخلق الولد لك ، كخلقك ، والمعنى : أن الله سبحانه خلقه ابتداءً وأوجده من العدم المحض ، فإيجاد الولد له بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلك وأسهل منه وإنما لم ينسب ذلك إلى آدم عليه السلام لكونه المخلوق من العدم حقيقة بأن يقول : وقد خلقت أباك آدم من قبل ولم يك شيئاً ، للدلالة على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشاء آدم من العدم . قرأ أهل المدينة وأهل مكة والبصرة وعاصم وابن عامر ﴿ وقد خلقتك من

قبل ﴿ وقرأ سائر الكوفيين : « وقد خلقناك من قبل » .

﴿ قال رب اجعل لى آية ﴾ أى علامة تدلنى على وقوع المسؤول وتحققه وحصول الجبل ، والمقصود من هذا السؤال تعريفه وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه . قال ابن الأنبارى : وجه ذلك : أن نفسه تآقت إلى سرعة الأمر ، فسأل الله آية يستدل بها على قرب ما من به عليه . وقيل : طلب آية تدله على أن البشرى من الله سبحانه لا من الشيطان ، لأن إبليس أوهمه بذلك ، كذا قال الضحاك والسدى وهو بعيد جداً ﴿ قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى آل عمران مستوفى ، وانتصاب ﴿ سويا ﴾ على الحال ، والمعنى : آيتك ألا تقدر على الكلام والحال أنك سوى الخلق ليس بك آفة تمنعك منه ، وقد دل بذكر الليالى هنا والأيام فى آل عمران . أن المراد ثلاثة أيام ولياليهن .

﴿ فخرج على قومه من الخراب ﴾ وهو مصلاه ، واشتقاقه من الحرب ، كأن ملازمه يحارب الشيطان . وقيل : من الحرب محرّكاً ، كأن ملازمه يلقي حرباً وتعباً ونصباً ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾ قيل : معنى ﴿ أوحى ﴾ : أوماً بدليل قوله فى آل عمران : ﴿ إلا رمزا ﴾ [آل عمران : ٤١] . وقيل : كتب لهم فى الأرض . وبالأول قال الكلبى والقرطى وقتادة وابن منبه ، وبالثانى قال مجاهد . وقد يطلق الوحي على الكتابة ومنه قول ذى الرمة :

سوى الأربع الدهم اللواتى كأنها بقية وحي فى بطون الصحائف

وقال عترة :

كوحى صحائف من عهد كسرى فأهداها لأعجم طمطمى

و« أن » فى قوله : ﴿ أن سبحوه ﴾ مصدرية أو مفسرة ، والمعنى : فأوحى إليهم بأن صلوا ، أو أى صلوا ، وانتصاب ﴿ بكرة ﴾ و ﴿ عشيا ﴾ على الظرفية . قال الفراء : العشى يؤنث ، ويجوز تذكيره إذا أبهم . قال : وقد يقال : العشى جمع عشية ، قيل : والمراد : صلاة الفجر والعصر . وقيل : المراد بالتسبيح : هو قولهم سبحان الله فى الوقتين : أى نزهوا ربكم طرفى النهار .

وقد أخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ كهيعص ﴾ كبير هاد أمين عزيز صادق ، وفى لفظ : كاف بدل كبير . وأخرج عبد الرزاق وآدم بن أبى إياس ، وعثمان ابن سعيد الدارمى فى التوحيد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس : ﴿ كهيعص ﴾ قال : كاف من كريم ، وهاء من هاد ، وياء من حكيم ، وعين من عليم ، وصاد من صادق . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة : ﴿ كهيعص ﴾ هو الهجاء المقطع ، والكاف من

الملك ، والهاء من الله ، والياء والعين من العزيز ، والصاد من المصور . وأخرج ابن مردويه عن الكلبي أنه سئل عن ﴿ كهيعص ﴾ فحدث عن أبي صالح عن أم هانئ عن رسول الله ﷺ قال : « كاف هاد عالم صادق » . وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي وابن ماجه وابن جرير عن فاطمة ابنة علي قالت : كان علي يقول : يا كهيعص اغفر لي . وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في : ﴿ كهيعص ﴾ قال : الكاف الكافي ، والهاء الهادي ، والعين العالم ، والصاد الصادق . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن السدي قال : كان ابن عباس يقول في كهيعص وحم ويس وأشباه هذا : هو اسم الله الأعظم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هو قسم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله .

وكما وقع الخلاف في هذا وأمثاله بين الصحابة في ذلك وقع بين من بعدهم ، ولم يصح مرفوعاً في ذلك شيء . ومن روى عنه من الصحابة في ذلك شيء فقد روى عن غيره ما يخالفه ، وقد يروى عن الصحابي نفسه التفاسير المتخالفة المتناقضة في هذه الفواتح فلا يقوم شيء من ذلك حجة ، بل الحق الوقف ، ورد العلم في مثلها إلى الله سبحانه ، وقد قدمنا تحقيق هذا في فاتحة سورة البقرة .

وأخرج أحمد وأبو يعلى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كان زكريا نجاراً » ^(١) . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : كان آخر أنبياء بني إسرائيل زكريا بن آزر بن مسلم من ذرية يعقوب دعا ربه سرّاً ﴿ قال رب إنني وهن العظم مني ﴾ إلى قوله : ﴿ خفت الموالى ﴾ قال : وهم العصبة ﴿ يرثني ﴾ نبوتى ونبوة آل يعقوب ، فنادته الملائكة ، وهوجبريل : إن الله يبشرك ﴿ بغلام اسمه يحيى ﴾ فلما سمع النداء جاءه الشيطان فقال : يا زكريا ، إن الصوت الذى سمعت ليس من الله إنما هو من الشيطان سخر بك ، فشك وقال : ﴿ أنى يكون لى غلام ﴾ يقول : من أين يكون وقد بلغنى الكبر وامراتى عاقر ، قال الله : ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾ ^(٢) . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وإنى خفت الموالى من ورائى ﴾ قال : الورثة : وهم عصبة الرجل . وأخرج الفريابي عنه قال : كان زكريا لا يولد له فسأل ربه فقال : ﴿ رب هب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب ﴾ قال : يرث مالى ويرث من آل يعقوب النبوة .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ قال : مثلاً . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه قال : لا أدري كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذا الحرف عتياً أو عسيا . وأخرج ابن أبي حاتم عن

(١) أحمد ٢٦٩/٢ وأبو يعلى (٦٤٢٦) وصححه الحاكم ٥٩٠/٢ وسكت عنه الذهبي .

(٢) صححه الحاكم ٥٩٠/٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، ولكن الإمام الشوكاني كان لا يحتج بهذه السلسلة .

عطاء فى قوله : ﴿ عتيا ﴾ قال : لبث زماناً فى الكبر . وأخرج أيضاً عن السدى قال : هراً . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياء ﴾ قال : اعتقل لسانه من غير مرض ، وفى لفظ من غير خرس ؛ أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿ فأوحى إليهم ﴾ قال : كتب لهم كتاباً . وأخرج ابن أبى الدنيا ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أن سبحوا ﴾ قال : أمرهم بالصلاة ﴿ بكرة وعشيا ﴾ .

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْثَرُ حَيًّا ۝١٥ ﴾

قوله : ﴿ يا يحيى ﴾ ها هنا حذف ، وتقديره : وقال الله للمولود : يا يحيى ، أو فولد له مولود فبلغ المبلغ الذى يجوز أن يخاطب فيه ، فقلنا له : يا يحيى . وقال الزجاج : المعنى : فوهبنا له وقلنا له : يا يحيى . والمراد بالكتاب : التوراة ، لأنه المعهود حينئذ ، ويحتمل أن يكون كتاباً مختصاً به وإن كنا لا نعرفه الآن ، والمراد بالأخذ : إما الأخذ الحسى أو الأخذ من حيث المعنى وهو القيام بما فيه كما ينبغى ، وذلك بتحصيل ملكة تقتضى سهولة الإقدام على الأمور به ، والإحجام عن المنهى عنه ، ثم أكد بقوله : ﴿ بقوة ﴾ أى بجد وعزيمة واجتهاد ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ المراد بالحكم : الحكمة وهى الفهم للكتاب الذى أمر بأخذه وفهم الأحكام الدينية . وقيل : هى العلم وحفظه والعمل به . وقيل : النبوة . وقيل : العقل ، ولا مانع من أن يكون الحكم صالحاً لحمله على جميع ما ذكر . قيل : كان يحيى عند هذا الخطاب له ابن ستين ، وقيل : ابن ثلاث .

﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ معطوف على الحكم . قال جمهور المفسرين : الحنان الرحمة والشفقة والعطف والمحبة ، وأصله : توقان النفس ، مأخوذ من حنين الناقة على ولدها . قال أبو عبيدة : تقول : حنانك يارب ، وحنانك يارب ، بمعنى واحد ، يريد : رحمتك . قال طرفة :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وقال امرؤ القيس :

ويمسحها بنو سلخ بن بكر معيزهم حنانك ذا الحنان

قال ابن الأعرابى : الحنان مشدداً من صفات الله عز وجل ، والحنان مخففاً : العطف والرحمة . والحنان : الرزق والبركة . قال ابن عطية : والحنان فى كلام العرب أيضاً ما عظم من الأمور فى ذات الله ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل : والله لئن قتلتم هذا العبد لاتخذن قبره حناناً ، يعنى : بلالاً ، لما مرّ به وهو يعذب . وقيل : إن القائل لذلك هو ورقة بن

نوفل . قال الأزهرى : معنى ذلك : لأترحمَن عليه ، ولأتعطفن عليه لأنه من أهل الجنة ، ومثله قول الخطيئة :

تحنن على هداك المليك فإن لكل مقام مقالا

ومعنى ﴿ من لدنا ﴾ : من جانبنا . قيل : ويجوز أن يكون المعنى : أعطيناه رحمة من لدنا كائنة فى قلبه يتحنن بها على الناس ، ومنهم أبواه وقرابته حتى يخلصهم من الكفر ﴿ وزكاة ﴾ معطوف على ما قبله ، والزكاة التطهير والبركة والتنمية والبر ، أى جعلناه مباركاً للناس يهديهم إلى الخير . وقيل : زكيناه بحسن الثناء عليه كتزكية الشهور . وقيل : صدقة تصدقنا به على أبويه ، قاله ابن قتيبة ﴿ وكان تقياً ﴾ أى متجنباً لمعاصى الله مطيعاً له . وقد روى أنه لم يعمل معصية قط .

﴿ وبراً بوالديه ﴾ معطوف على ﴿ تقياً ﴾ البر هنا بمعنى البار ، فعل بمعنى فاعل ، والمعنى : لطيفاً بهما محسناً إليهما ﴿ ولم يكن جباراً عصياً ﴾ أى لم يكن متكبراً ولا عاصياً لوالديه أو لربه ، وهذا وصف له عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح ﴿ وسلام عليه ﴾ قال ابن جرير وغيره : معناه : أمان عليه من الله . قال ابن عطية : والأظهر عندى أنها التحية المتعارفة ، فهى أشرف وأنبه من الأمان لأن الأمان متحصل له بنفى العصيان عنه ، وهو أقل درجاته ، وإنما الشرف فى أن يسلم الله عليه ، ومعنى ﴿ يوم ولد ﴾ أنه أمن من الشيطان وغيره فى ذلك اليوم ، أو أن الله حياه فى ذلك اليوم ، وهكذا معنى ﴿ يوم يموت ﴾ وهكذا معنى ﴿ يوم يبعث حياً ﴾ قيل : أوحش ما يكون الإنسان فى ثلاثة مواطن : يوم ولد لأنه خرج مما كان فيه ، ويوم يموت لأنه يرى قوماً لم يكن قد عرفهم وأحكاماً ليس له بها عهد ، ويوم يبعث لأنه يرى هول يوم القيامة . فخص الله سبحانه يحيى بالكرامة والسلامة فى المواطن الثلاثة .

وقد أخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ قال : بجدة ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ قال : الفهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبيرة قال : يقول : اعمل بما فيه من فرائض . وأخرج ابن المنذر عن مالك بن دينار قال : اللب . وأخرج أبو نعيم والديلمى وابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ قال : « أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين » (١) وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم عن قتادة : بدله وهو ابن ثلاث سنين . وأخرج الحاكم فى تاريخه من طريق نهشل بن سعد عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الغلمان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال يحيى : ما للعب خلقنا ، اذهبوا نصلى ، فهو قول الله : ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ . » وأخرج ابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ القرآن قبل أن

يحتلم، فهو ممن أوتى الحكم صبيًا» (١) وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفًا .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه، والبيهقي فى الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَحَنَانًا ﴾ قال : لا أدري ما هو إلا أنى أظنه يعطف الله على عبده بالرحمة ، وقد فسرهما جماعة من السلف بالرحمة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَزَكَاةً ﴾ قال : بركة ، وفى قوله : ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ قال : طهر فلم يعمل بذنب .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهَزَيْتُ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) .

قوله : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ هذا شروع فى ابتداء خلق عيسى . والمراد بالكتاب : هذه السورة ، أى اذكر يا محمد للناس فى هذه السورة قصة مريم ، ويجوز أن يراد بالكتاب : جنس القرآن وهذه السورة منه ، ولما كان الذكر لا يتعلق بالأعيان احتيج إلى تقدير مضاف يتعلق به الذكر ، وهو قصة مريم ، أو خبر مريم ﴿ إِذِ انْتَبَذَتْ ﴾ العامل فى الظرف هو ذلك المضاف المقدّر ، ويجوز أن يجعل بدل اشتغال من مريم ، لأن الأزمان مشتملة على ما فيها ، ويكون المراد بمريم : خبرها ، وفى هذا الإبدال دلالة على تفخيم شأن الوقت لوقوع قصتها العجيبة فيه ، والنبد : الطرح والرمى . قال الله سبحانه : ﴿ فنبذوه وراء ظهورهم ﴾ [آل عمران : ١٨٧] والمعنى : أنها تنحت وتباعدت . وقال ابن قتبية : اعتزلت . وقيل : انفردت ، والمعانى متقاربة . واختلفوا فى سبب انتباذها ، فقيل : لأجل أن تعبد الله سبحانه . وقيل : لتطهر من حيضها ، و ﴿ من أهلها ﴾ متعلق بـ ﴿ انتبذت ﴾ ، وانتصاب ﴿ مكانا شرقيا ﴾ على المفعولية للفعل المذكور ، أى مكانًا من جانب الشرق ، والشرق بسكون الراء : المكان الذى

(١) البيهقى فى الشعب (١٧٩٨) وإسناده ضعيف فيه الحسن بن أبى جعفر الجفرى وهو ضعيف .

تشرق فيه الشمس ، وإنما خصّ المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة الشرق لأنها مطلع الأنوار، حكى معناه ابن جرير . وقد اختلف الناس فى نبوة مريم ، ف قيل : إنها نبية بمجرد هذا الإرسال إليها ومخاطبتها للملك . وقيل : لم تكن نبية ، لأنه إنما كلمها الملك وهو على مثال البشر ، وقد تقدم الكلام فى هذا فى آل عمران .

﴿ فاتخذت من دونهم حجابا ﴾ أى اتخذت من دون أهلها حجاباً يسترها عنهم لئلا يروها حال العبادة ، أو حال التطهر من الحيض ، والحجاب الستر والحاجز ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ هو جبريل عليه السلام . وقيل : هو روح عيسى ، لأن الله سبحانه خلق الأرواح قبل الأجساد ، والأول أولى لقوله : ﴿ فتمثل لها بشرا سويا ﴾ أى تمثل جبريل لها بشراً مستوى الخلق لم يفقد من نعوت بنى آدم شيئاً . قيل : ووجه تمثل الملك لها بشراً أنها لا تطيق أن تنظر إلى الملك وهو على صورته ، فلما رأته فى صورة إنسان حسن كامل الخلق قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريد بها بسوء ، فاستعازت بالله منه ، و ﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ﴾ أى من يتقى الله ويخافه . وقيل : إن تقياً اسم رجل صالح ، فتعوذت منه تعجباً . وقيل : إنه اسم رجل فاجر معروف فى ذلك الوقت ، والأول أولى . وجواب الشرط محذوف ، أى فلا تتعرض لى .

﴿ قال إنما أنا رسول ربك ﴾ أى قال لها جبريل : إنما أنا رسول ربك الذى استعذت به ، ولست ممن يتوقع منه ما خطر ببالك من إرادة السوء ﴿ لأهب لك غلاما زكيا ﴾ جعل الهبة من قبله لكونه سبياً فيها من جهة كون الإعلام لها من جهته ، أو من جهة كون النفخ قام به فى الظاهر . وقرأ أبو عمرو ويعقوب وورش عن نافع « ليهب » على معنى أرسلنى ليهب لك ، وقرأ الباقر بالهمز ، والزكى : الطاهر من الذنوب الذى ينمو على النزاهة والعفة وقيل : المراد بالزكى النبى .

﴿ قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ﴾ أى لم يقربنى زوج ولا غيره ﴿ ولم أك بغيا ﴾ البغى هى : الزانية التى تبغى الرجال . قال المبرد : أصله : بغوى على فعول ، قلبت الواو ياء ثم أدغمت فى الياء وكسرت الغين للمناسبة . وقال ابن جنى : إنه فاعل . وزيادة ذكر كونها لم تك بغياً مع كون قولها : لم يمسنى بشر يتناول الحلال والحرام لقصد التأكيد تنزيهاً لجانبها من الفحشاء . وقيل : ما استبعدت من قدرة الله شيئاً ، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد هل من قبل زوج تتزوجه فى المستقبل أم يخلقه الله سبحانه ابتداء ؟ وقيل : إن المس عبارة عن النكاح الحلال ، وعلى هذا لا يحتاج إلى بيان وجه قولها : ﴿ ولم أك بغيا ﴾ وما ذكرناه من شموله ، أولى باستعمالات أهل اللغة ، وما يوجد فى محاوراتهم مما يطول تعداده . ١ـ هـ . ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ أى ولنجعل هذا الغلام أو خلقه من غير أب آية للناس يستدلون بها على كمال القدرة ، وهو علة لمعلل محذوف ، والتقدير خلقناه لنجعله ، أو معطوف على علة أخرى مضمرة تتعلق بما يدل عليه قوله سبحانه : ﴿ هو على هين ﴾ وجملة ﴿ قال

كذلك قال ربك هو على هين ﴿ مستأنفة ، والقائل هو الملك ، والكلام فيها كالكلام فيما تقدم من قول زكريا . وقوله : ﴿ ورحمة منا ﴾ معطوف على آية ، أى ولنجعله رحمة عظيمة كائنة منا للناس لما ينالونه منه من الهداية والخير الكثير ، لأن كل نبى رحمة لأئمة ﴾ وكان أمرا مقضيا ﴿ أى وكان ذلك المذكور أمرا مقدرا قد قدره الله سبحانه وجف به القلم .

﴿ فحملته ﴾ ها هنا كلام مطوى ، والتقدير : فاطمأنت إلى قوله ، فدنا منها ، فنفخ فى جيب درعها ، فوصلت النفخة إلى بطنها فحملته . وقيل : كانت النفخة فى ذيلها . وقيل : فى فمها . قيل : إن وضعها كان متصلا بهذا الحمل من غير مضى مدة الحمل ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ فانتبذت به مكانا قصيا ﴾ أى تنحت واعتزلت إلى مكان بعيد ، والقصى هو البعيد . قيل : كان هذا المكان وراء الجبل ، وقيل : أبعد مكان فى تلك الدار . وقيل : أقصى الوادى . وقيل : إنها حملت به ستة أشهر . وقيل : ثمانية أشهر وقيل : سبعة ﴿ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ﴾ أى ألبأها واضطرها ، ومنه قول زهير :

أجاءته المخافة والرجاء

وقرأ شبيل : « فأجأها » من المفاجأة ، ورويت هذه القراءة عن عاصم ، وقرأ الحسن بغير همز ، وفى مصحف أبى : « فلما أجاءها » قال فى الكشاف : إن « أجاءها » منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تعين بعد النقل إلى معنى الإلجاء ، وفيه بعد ، والظاهر أن كل واحد من الفعلين موضوع بوضع مستقل والمخاض مصدر مخضت المرأة تمخض مخضاً ومخاضا إذا دنا ولادها . وقرأ الجمهور بفتح الميم . وقرأ ابن كثير بكسرها ، والجذع : ساق النخلة اليابسة ، كأنها طلبت شيئا تستند إليه وتتعلق به كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق بشيء مما تجده عندها ، والتعريف إما للجنس أو للعهد ﴿ قالت يا ليتنى مت قبل هذا ﴾ أى قبل هذا الوقت ، تمتت الموت لأنها خافت أن يظن بها السوء فى دينها ، أو لثلا يقع قوم بسببها فى البهتان ﴿ وكنت نسيا ﴾ النسي فى كلام العرب : الشيء الحقير الذى من شأنه أن ينسى ولا يذكر ولا يتألم لفقده كالوتد والجبل ، ومنه قول الكميت :

أجعلنا خسرًا لكلب قضاة ولسنا بنسى فى معدّ ولا دخل

وقال الفراء : النسي : ما تلقى المرأة من خرق اعتلالها ، فتقول مريم : ﴿ نسيا منسيا ﴾ أى حيضة ملقاة ، وقد قرئ بفتح النون وكسرها ، وهما لغتان مثل الحجر والحجر ، والوتر والوتر . وقرأ محمد بن كعب القرظى : « نساء » بالهمز مع كسر النون . وقرأ نواف البكالى بالهمز مع فتح النون . وقرأ بكر بن حبيب : ﴿ نسيا ﴾ بفتح النون وتشديد الياء بدون همز ، والمنسى المتروك الذى لا يذكر ولا يخطر ببال أحد من الناس ﴿ فنادها من تحتها ﴾ أى جبريل لما سمع قولها ، وكان أسفل منها تحت الأكمة . وقيل : تحت النخلة . وقيل : المنادى هو عيسى ، وقد قرئ بفتح الميم من ﴿ من ﴾ وكسرها . وقوله : ﴿ ألا تحزنى ﴾ تفسير للنداء ،

أى لا تحزنى أو بمعنى بأن لا تحزنى على أنها المصدرية ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ قال جمهور من المفسرين : السرى : النهر الصغير ، والمعنى : قد جعل ربك تحت قدمك نهراً . قيل : كان نهراً قد انقطع عنه الماء ، فأرسل الله فيه الماء لمريم ، وأحيا به ذلك الجذع اليابس الذى اعتمدت عليه حتى أورق وأثمر . وقيل : المراد بالسرى هنا : عيسى ، والسرى : العظيم من الرجال ؛ ومنه قولهم : فلان سرى ، أى عظيم ، ومن قوم سراة ، أى عظام .

﴿ وهزى إليك بجزع النخلة ﴾ الهز : التحريك ، يقال : هزه فاهتز ، والباء فى بجزع النخلة مزيدة للتوكيد . وقال الفراء : العرب تقول هزه وهزبه ، والجذع هو : أسفل الشجرة . قال قطرب : كل خشبة فى أصل شجرة فهى جذع ، ومعنى إليك : إلى جهتك ، وأصل تساقط : تتساقط ، فأدغم التاء فى السين . وقرأ حمزة والأعمش ﴿ تساقط ﴾ مخففاً . وقرأ عاصم فى رواية حفص والحسن بضم التاء مع التخفيف وكسر القاف . وقرئ : « تتساقط » بإظهار التاءين . وقرئ بالتحية مع تشديد السين . وقرئ « تسقط ، ويسقط » وقرأ الباقون بإدغام التاء فى السين ، فمن قرأ بالفوقية جعل الضمير للنخلة ، ومن قرأ بالتحية جعل الضمير للجذع ؛ وانتصاب ﴿ رطباً ﴾ على بعض هذه القراءات للتمييز ، وعلى البعض الآخر على المفعولية لتساقط . قال المبرد والأخفش : يجوز انتصاب رطباً بهزى : أى هزى إليك رطباً ﴿ جنياً ﴾ بجزع النخلة ، أى على جذعها وضعفه الزمخشري ، والجنى : المأخوذ طرياً . وقيل : هو ما طاب وصلاح للاجتماع ، وهو فعيل بمعنى مفعول . قال الفراء : الجنى والمجنى واحد . وقيل : هو فعيل بمعنى فاعل ، أى رطباً طرياً طيباً .

﴿ فكلى واشربى ﴾ أى من ذلك الرطب وذلك الماء ، أو من الرطب وعصيره ، وقدم الأكل مع أن ذكر النهر مقدم على الرطب ، لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء ، ثم قال : ﴿ وقرى عينا ﴾ قرأ الجمهور بفتح القاف . وحكى ابن جرير أنه قرئ بكسرها قال : وهى لغة نجد . والمعنى : طيبى نفساً وارفضى عنك الحزن ، وهو مأخوذ من القرّ والقرّة وهما البرد ، والمسرور : بارد القلب ساكن الجوارح . وقيل : المعنى : وقرى عيناً برؤية الولد الموهوب لك . وقال الشيبانى : معناه : نامى . قال أبو عمرو : أقر الله عينه ، أى أنام عينه وأذهب سهره ﴿ فإما ترين من البشر أحدا ﴾ أصله : ترأين : مثل تسمعين خففت الهمزة وسقطت النون للجزم وياء الضمير للساكنين بعد لحوق نون التوكيد ، ومثل هذا مع عدم لحوق نون التوكيد قول ابن دريد :

أما ترى رأسى حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدجى

وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة « ترين » بسكون الياء وفتح النون مخففة . قال أبو الفتح : وهى شاذة ، وجواب الشرط ﴿ فقولى إني نذرت للرحمن صوما ﴾ أى قولى إن طلب منك الكلام أحد من الناس : إني نذرت للرحمن صوماً أى صمتاً . وقيل : المراد به : الصوم الشرعى ، وهو الإمساك عن المفطرات ، والأول أولى . وفى قراءة أبى : « إني نذرت للرحمن

صومًا صمتًا » بالجمع بين اللفظين ، وكذا روى عن أنس . وروى عنه أنه قرأ : « صومًا وصمتًا » بالواو ، والذي عليه جمهور المفسرين أن الصوم هنا الصمت ، ويدل عليه ﴿ فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ ومعنى الصوم فى اللغة أوسع من المعنيين . قال أبو عبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم . وقراءة أبى تدل على أن المراد بالصوم هنا : الصمت ، لأنه تفسير للصوم . وقراءة أنس تدل على أن الصوم هنا غير الصمت كما تفيده الواو ومعنى ﴿ فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ أنها لا تكلم أحدا من الإنس بعد إخبارهم بهذا الخبر ، بل إنما تكلم الملائكة وتناجى ربها . وقيل : إنها لم تخبرهم هنا باللفظ ، بل بالإشارة المفيدة للنذر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ﴾ قال : مكانًا أظلمها الشمس أن يراها أحد منهم . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : إنما اتخذت النصرارى المشرق قبلة ، لأن مريم اتخذت من أهلها مكانًا شرقيًا ، فاتخذوا ميلاده قبلة ، وإنما سجدت اليهود على حرف حين نتق فوقهم الجبل ، فجعلوا ينحرفون وهم ينظرون إليه ، يتخوفون أن يقع عليهم ، فسجدوا سجدة رضيتها الله ، فاتخذوها سنة . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء وابن عساكر من طريق السدى عن أبى مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود قال : خرجت مريم بنت عمران إلى جانب المحراب لحيض أصابها ، فلما طهرت إذا هى برجل معها ﴿ فتمثل لها بشرًا ﴾ ففزعت و ﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ﴾ فخرجت وعليها جلبابها ، فأخذ بكمها فنفخ فى جنب درعها ، وكان مشقوقًا من قدامها ، فدخلت النفخة صدرها فحملت ، فأتتها أختها امرأة زكريا ليلة تزورها ، فلما فتحت الباب التزمتها ، فقالت امرأة زكريا : يا مريم أشعرت أنى حبلى ، قالت مريم : أشعرت أنى حبلى ، فقالت امرأة زكريا : فإنى وجدت ما فى بطنى سجد للذى فى بطنك ، فذلك قوله تعالى : ﴿ مصدقا بكلمة من الله ﴾ فولدت امرأة زكريا يحيى ، ولما بلغ أن تضع مريم خرجت إلى جانب المحراب ﴿ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا ﴾ الآية ﴿ فنادها ﴾ جبريل ﴿ من تحتها ألا تحزنى ﴾ فلما ولدته ذهب الشيطان فأخبر بنى إسرائيل أن مريم ولدت ، فلما أرادوها على الكلام أشارت إلى عيسى فتكلم فقال : ﴿ إني عبد الله آتاني الكتاب ﴾ الآيات ، ولما ولد لم يبق فى الأرض صنم إلا خرّ لوجهه .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى مريم قال : حين حملت وضعت . وأخرج ابن عساكر عنه قال : وضعت لثمانية أشهر . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ قال : جبريل . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبيرة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء نحوه أيضًا . وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، وابن عساكر عن أبى بن كعب فى الآية قال : تمثل لها روح عيسى فى صورة بشر فحملته ، قال :

حملت الذى خاطبها ، دخل فى فيها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ مكانا قصيا ﴾ قال : نائياً . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ إلى جذع النخلة ﴾ قال : كان جذعا يابسا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا فى قوله : ﴿ وكنت نسيا منسيا ﴾ قال : لم أخلق ولم أكن شيئا . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة ﴿ وكنت نسيا منسيا ﴾ قال : حيزة ملقاة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن نوف البكالى والضحاك مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة فى قوله : ﴿ فناداها من تحتها ﴾ قال : الذى ناداها جبريل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : الذى ناداها من تحتها جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها . وقد اختلفت الروايات عن السلف ، هل هذا المنادى هو جبريل أو عيسى . وأخرج عبد بن حميد عن أبى بكر بن عياش قال : قرأ عاصم بن أبى النجود ﴿ فناداها من تحتها ﴾ بالنصب ، قال : وقال عاصم من قرأ بالنصب فهو عيسى ، ومن قرأ بالخفض فهو جبريل . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وابن النجار عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن السرى الذى قال الله لمريم ﴿ قد جعل ربك تحتك سريا ﴾ نهر أخرجه الله لها لتشرب منه » ^(١) وفى إسناده أيوب بن نهيك الجبلى قال فيه أبو حاتم الرازى : ضعيف ، وقال أبو زرعة : منكر الحديث ، قال أبو فتح الأزدي : متروك الحديث ، وقال الطبرانى بعد إخراج هذا الحديث : إنه غريب جدا . وأخرج الطبرانى فى الصغير ، وابن مردويه عن البراء بن عازب عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ قد جعل ربك تحتك سريا ﴾ قال : « النهر » ^(٢) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وصححه والحاكم ، وابن مردويه عن البراء قال فى الآية : هو الجدول ، وهو النهر الصغير ، فظهر بهذا أن الموقف أصح . وقد روى عن جماعة من التابعين أن السرى هو عيسى ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ رطباً جنياً ﴾ قال : طرياً . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه فى قوله : ﴿ إني نذرت للرحمن صوما ﴾ قال : صمتاً . وأخرج عبد بن حميد وابن الأنبارى عنه أنه قرأ : « صوماً صمتاً » .

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)

(١) الطبرانى (١٣٣٠٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٥٨/٧ : « فيه يحيى بن عبد الله البابلتي وهو ضعيف » .

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٥٧/٧ : « رواه الطبرانى فى الصغير ، وفيه معاوية بن يحيى الصدفى وهو ضعيف » .

وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ .

لما اطمأنت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات وفرغت من نفاسها ﴿أتت به﴾ أى بعيسى ، وجملة : ﴿تحمله﴾ فى محل نصب على الحال ، وكان إتيانها إليهم من المكان القصى التى انتبذت فيه ، فلما رأوا الولد معها حزنوا ، وكانوا أهل بيت صالحين ﴿فقالوا﴾ منكرين لذلك ﴿يا مريم لقد جئت﴾ أى فعلت ﴿شيئا فريا﴾ قال أبو عبيدة : الفرى : العجيب النادر ، وكذا قال الأخفش . والفرى : القطع ، كأنه مما يخرق العادة ، أو يقطع بكونه عجيباً نادراً . وقال قطرب : الفرى : الحديد من الأسقية ، أى جئت بأمر بديع جديد لم تسبق إلىه . وقال سعيد بن مسعدة : الفرى : المختلق المفتعل ، يقال : فريت وأفريت بمعنى واحد ، والولد من الزنا كالشئ المفترى ، قال تعالى : ﴿ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن﴾ [المتحنة : ١٢] وقال مجاهد : الفرى : العظيم .

﴿يا أخت هارون﴾ قد وقع الخلاف فى معنى هذه الأخوة ، وفى هارون المذكور من هو ؟ فقيل : هو هارون أخو موسى ، والمعنى : أن من كانت نظنها مثل هارون فى العبادة كيف تأتى بمثل هذا . وقيل : كانت مريم من ولد هارون أخى موسى ، فقيل لها : يا أخت هارون ، كما يقال لمن كان من العرب : يا أخا العرب . وقيل : كان لها أخ من أبيها اسمه هارون . وقيل : هارون هذا رجل صالح فى ذلك الوقت . وقيل : بل كان فى ذلك الوقت رجل فاجر اسمه هارون ، فنسبوا إليه على وجهه التعبير والتوبيخ ، حكاه ابن جرير ولم يسم قائله وهو ضعيف ﴿ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا﴾ هذا فيه تقرير لما تقدم من التعبير والتوبيخ ، وتنبه على أن الفاحشة من ذرية الصالحين مما لا ينبغى أن تكون .

﴿فأشارت إليه﴾ أى إلى عيسى ، وإنما اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق ، لأنها نذرت للرحمن صوما عن الكلام كما تقدم ، هذا على تقدير أنها كانت إذ ذاك فى أيام نذرها ، وعلى تقدير أنها قد خرجت من أيام نذرها ، فيمكن أن يقال : إن اقتصارها على الإشارة للمبالغة فى إظهار الآية العظيمة ، وأن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة ﴿قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا﴾ هذا الاستفهام للإنكار والتعجب من إشارتها إلى ذلك المولود بأن يكلمهم . قال أبو عبيدة : فى الكلام حشو زائد . والمعنى : كيف نكلم صبيا فى المهد ، كقول الشاعر :

وجيران لنا كانوا كراما

وقال الزجاج : الأجود أن تكون من فى معنى الشرط والجزاء ، والمعنى : من يكون فى المهد صبيا فكيف نكلمه . ورجحه ابن الأنبارى وقال : لا يجوز أن يقال : إن ﴿كان﴾ زائدة وقد نصبت ﴿صبيا﴾ ويوجب عنه بأن القائل بزيادتها يجعل الناصب له الفعل ، وهو ﴿نكلم﴾ كما سبق تقديره . وقيل : إن ﴿كان﴾ هنا هى التامة التى بمعنى الحدوث والوجود . ورد بأنها لو كانت تامة لاستغنت عن الخبر ، والمهد هو : شئ معروف يتخذ لتنويم الصبى .

والمعنى : كيف نكلم من سبيله أن ينوم فى المهد لصغره . وقيل : هو هنا حجر الام . وقيل : سرير كالمهد ، فلما سمع عيسى كلامهم ﴿ قال إني عبد الله ﴾ فكان أول ما نطق به ، الاعتراف بالعبودية له ﴿ آتاني الكتاب ﴾ أى الإنجيل ، أى حكم لى بآيتائى الكتاب والنبوة فى الأزل ، وإن لم يكن قد نزل عليه فى تلك الحال ولا قد صار نبيا . وقيل : إنه آتاه الكتاب وجعله نبيا فى تلك الحال ، وهو بعيد ﴿ وجعلنى مباركا أين ما كنت ﴾ أى حيثما كنت ، والبركة أصلها من بروك البعير والمعنى : جعلنى ثابتاً فى دين الله . وقيل : البركة هى : الزيادة والعلو ، فكأنه قال : جعلنى فى جميع الأشياء زائداً عالياً منجحاً . وقيل : معنى المبارك : النفع للعباد ، وقيل : المعلم للخير . وقيل : الأمر بالمعروف الناهى عن المنكر . ﴿ وأوصانى بالصلاة ﴾ أى أمرنى بها ﴿ والزكاة ﴾ زكاة المال ، أو تطهير النفس ﴿ ما دمت حيا ﴾ أى مدة دوام حياتى ، وهذه الأفعال الماضية هى من باب تنزيل مالم يقع منزلة الواقع تنبيهاً على تحقيق وقوعه لكونه قد سبق فى القضاء المبرم .

﴿ وبرأ بوالدتى ﴾ معطوف على ﴿ مباركا ﴾ واقتصر على البرّ بوالدته لأنه قد علم فى تلك الحال أنه لم يكن له أب ، وقرئ : « وبرأ » بكسر الباء على أنه مصدر وصف به مبالغة ﴿ ولم يجعلنى جبارا شقيا ﴾ الجبار : المتعظم الذى لا يرى لاحد عليه حقا ، والشقى : العاصى لربه . وقيل : الخائب . وقيل : العاق . ﴿ والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾ قال المفسرون : السلام هنا بمعنى السلامة : أى السلامة على يوم ولدت ، فلم يضرنى الشيطان فى ذلك الوقت ولا أغوانى عند الموت ولا عند البعث . وقيل : المراد به : التحية . قيل : واللام للجنس . وقيل : للعهد ، أى وذلك السلام الموجه إلى يحيى فى هذه المواطن الثلاثة موجه إلى . قيل : إنه لم يتكلم المسيح بعد هذا الكلام حتى بلغ المدة التى تتكلم فيها الصبيان فى العادة .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فأتت به قومها تحمله ﴾ قال : بعد أربعين يوماً بعد ما تعلّت من نفاسها . وأخرج ابن أبى شيبه وأحمد وعبد ابن حميد ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى أهل نجران ، فقالوا : رأيت ما تقرؤون : ﴿ يا أخت هارون ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم ؟ » ^(١) وهذا التفسير النبوى يغنى عن سائر ما روى عن السلف فى ذلك .

(١) ابن أبى شيبه فى المغازى (١٨٨٦٥) وأحمد ٢٥٢/٤ ومسلم فى الآداب (٩/ ٢١٣٥) والترمذى فى التفسير (٣١٥٥) وقال : « هذا حديث صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس » والنسائى فى التفسير . (٣٣٥)

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس قال: كان عيسى قد درس الإنجيل وأحكامها في بطن أمه ، فذلك قوله : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ الآية ، قال : قضى أن أكون كذلك . وأخرج الإسماعيلي في معجمه وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه وابن النجار عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ في قول عيسى : ﴿ وجعلني مباركا أين ما كنت ﴾ قال : « جعلني نفاعاً للناس أينما اتجهت » ^(١) وأخرج ابن عدى وابن عساكر عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ وجعلني مباركا ﴾ قال : معلماً ومؤدباً . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولم يجعلني جبارا شقياً ﴾ يقول : عصيا .

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) .

الإشارة بقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ إلى المتصف بالأوصاف السابقة . قال الزجاج : ذلك الذي قال : إني عبد الله عيسى ابن مريم ، لا ما تقوله النصارى من أنه ابن الله وأنه إله . وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب : ﴿ قول الحق ﴾ بالنصب . وقرأ الباقر بالرفع . فوجه القراءة الأولى أنه منتصب على المدح ، أو على أنه مصدر مؤكد لقال إني عبد الله ، قاله الزجاج . ووجه القراءة الثانية أنه نعت لعيسى ، أي ذلك عيسى ابن مريم قول الحق ، قاله الكسائي . وسمى قول الحق كما سمي كلمة الله ، والحق هو الله عز وجل . وقال أبو حاتم : المعنى : هو قول الحق . وقيل : التقدير : هذا الكلام قول الحق ، وهو من باب إضافة الموصوف إلى الصفة مثل حق اليقين . وقيل : الإضافة للبيان . وقرئ : « قال الحق » وروى ذلك عن ابن مسعود ، وقرأ الحسن : « قول الحق » بضم القاف ، والقول والقول والقال والمقال بمعنى واحد ، و﴿الذى فيه يمترون﴾ صفة لعيسى : أي ذلك عيسى ابن مريم الذى فيه يمترون قول الحق ، ومعنى ﴿ يمترون ﴾ : يختلفون ، على أنه من الممارسة ، أو يشكوا على أنه من المرية . وقد وقع الاختلاف في عيسى ؛ فقالت اليهود : هو ساحر . وقالت النصارى : هو ابن الله .

﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ أي ما صح ولا استقام ذلك ، ف « أن » في محل رفع

(١) أبو نعيم في الحلية ٢٥/٣ وقال : « غريب من حديث يونس تفرد به هشيم وعنه شعيب » .

على أنها اسم كان . قال الزجاج : « من » فى ﴿ من ولد ﴾ مؤكدة تدل على نفى الواحد والجماعة ؛ ثم نزه سبحانه نفسه فقال : ﴿ سبحانه ﴾ أى تنزهه وتقدس عن مقالتهم هذه ؛ ثم صرح سبحانه بما هو شأنه - تعالى سلطانه - فقال : ﴿ إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أى إذا قضى أمراً من الأمور فيكون حيثنذ بلا تأخير . وقد سبق الكلام على هذا مستوفى فى البقرة ، وفى إيراد هذا الموضوع تبكى عظيم للنصارى ، أى من كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ؟ ﴿ وأن الله ربي وربكم فاعبدوه ﴾ قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو بفتح « أن » . وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة بكسرها ، وهو من تمام كلام عيسى ، وقرأ أبى : « إن الله » بغير واو ، قال الخليل وسيبويه : فى توجيه قراءة النصب بأن المعنى : ولأن الله ربي وربكم ، وأجاز الفراء أن يكون فى موضع خفض عطفاً على الصلاة ، وجوز أبو عمرو بن العلاء عطفه على ﴿ أمرا ﴾ . ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ أى هذا الذى ذكرته لكم من أنه ربي وربكم ، هو الطريق القيم الذى لا اعوجاج فيه ولا يضل سالكه .

﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ : « من » زائدة للتوكيد ، والأحزاب : اليهود والنصارى ، أى فاختلقت الفرق من أهل الكتاب فى أمر عيسى ، فاليهود قالوا : إنه ساحر ، كما تقدم ، وقالوا : إنه ابن يوسف النجار . والنصارى اختلفت فرقهم فيه ، فقالت النسطورية منهم : هو ابن الله . وقالت الملكانية : هو ثالث ثلاثة . وقالت يعقوبية : هو الله تعالى ، فأفرطت النصارى وغلت ، وفرطت اليهود وقصرت ﴿ فويل للذين كفروا ﴾ وهم المختلفون فى أمره ﴿ من مشهد يوم عظيم ﴾ أى من شهود يوم القيامة وما يجرى فيه من الحساب والعقاب ، أو من مكان الشهود فيه ، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم . وقيل : المعنى : فويل لهم من حضورهم المشهد العظيم الذى اجتمعوا فيه للتشاور .

﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ قال أبو العباس : العرب تقول هذا فى موضع التعجب ، فيقولون : أسمع بزيد وأبصر به ، أى ما أسمع به وأبصره ، فعجب الله سبحانه نبيه ﷺ منهم ﴿ يوم يأتوننا ﴾ أى للحساب والجزاء ﴿ لكن الظالمون اليوم ﴾ أى فى الدنيا ﴿ فى ضلال مبين ﴾ أى واضح ظاهر ، ولكنهم أغفلوا التفكير ، والاعتبار والنظر فى الآثار . ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ أى يوم يتحسرون جميعاً ، فالمسئ على إساءته ، والمحسن على عدم استكثاره من الخير ﴿ إذ قضى الأمر ﴾ أى فرغ من الحساب وطويت الصحف ، وصار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ، وجملة : ﴿ وهم فى غفلة ﴾ فى محل نصب على الحال : أى غافلين عما يعمل بهم ، وكذلك جملة ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ فى محل نصب على الحال ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ﴾ أى غيت سكانها فلا يبقى بها أحد يرث الأموات ، فكأنه سبحانه ورث الأرض ومن عليها حيث أماتهم جميعاً ﴿ وإلينا يرجعون ﴾ أى يردون إلينا يوم القيامة فنجازى كلا بعمله ، وقد تقدم مثل هذا فى سورة الحجر .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ قول الحق ﴾ قال : الله الحق

عز وجل . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ الذى فيه يمترون ﴾ قال : اجتمع بنو إسرائيل وأخرجوا منهم أربعة نفر من كل قوم عالمهم ، فامتروا فى عيسى حين رفع ، فقال أحدهم : هو الله هبط إلى الأرض وأحيا من أحيا ، وأمات من أمات ، ثم صعد إلى السماء ، وهم اليعقوبية ؛ فقالت الثلاثة : كذبت ؛ ثم قال اثنان منهم للثالث : قل فيه ، فقال : هو ابن الله ، وهم النسطورية ؛ فقال اثنان : كذبت ؛ ثم قال أحد الاثنى للآخر : قل فيه ، فقال : هو ثالث ثلاثة ، الله إله ، وعيسى إله ، وأمه إله ، وهم الإسرائيلية ، وهم ملوك النصارى ؛ فقال الرابع : كذبت ، هو عبد الله ورسوله وروحه من كلمته ، وهم المسلمون ، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال فاقتتلوا ، فظهروا على المسلمين ، فذلك قول الله سبحانه : ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ [آل عمران : ٢١] قال قتادة : وهم الذين قال الله : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ قال : اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً ، فاختصم القوم ، فقال المرء المسلم : أنشدكم بالله هل تعلمون أن عيسى كان يطعم الطعام وأن الله لا يطعم ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : فهل تعلمون أن عيسى كان ينام وأن الله لا ينام ؟ قالوا : اللهم نعم ، فخصمهم المسلمون فاقتتل القوم ، فذكر لنا أن اليعقوبية ظهرت يومئذ وأصيب المسلمون ، فأنزل الله : ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ يقول الكفار يومئذ : أسمع شئ وأبصره ، وهم اليوم لا يسمعون ولا يبصرون . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ يوم يأتوننا ﴾ قال : ذلك يوم القيامة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار فيقال : يا أهل الجنة ، هل تعرفون هذا ؟ فيشرثون وينظرون ، فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادى : يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرثون وينظرون إليه ، فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيؤمر به فيذبح ويقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ الآية ، وأشار بيده وقال : « أهل الدنيا فى غفلة » (١) . وأخرج النسائى وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعاً نحوه (٢) . وأخرج ابن جرير من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، قال : يوم الحسرة : هو من أسماء يوم القيامة ، وقرأ : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله ﴾ [الزمر : ٥٦] وعلى هذا ضعيف ، والآية التى استدلل بها ابن عباس لا تدل على المطلوب لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام .

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٣٠) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٩/٤٠) والترمذى فى التفسير (٣١٥٦) وقال :

« حسن صحيح » .

(٢) النسائى فى التفسير (٣٣٦) .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ .

قوله : ﴿ واذكر ﴾ معطوف على « وأنذر » والمراد بذكر الرسول إياه في الكتاب : أن يتلو ذلك على الناس كقوله : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ [الشعراء : ٦٩] ، وجملة : ﴿ إنه كان صديقاً نبياً ﴾ تعليل لما تقدم من الأمر لرسول الله ﷺ بأن يذكره ، وهي معترضة ما بين البذل والمبدل منه ، والصديق : كثير الصدق ، وانتصاب ﴿ نبياً ﴾ على أنه خبر آخر لكان ، أى اذكر إبراهيم الجامع لهذين الوصفين ، و ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ بدل اشتمال من إبراهيم ، وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة ، وأبو إبراهيم هو آزر على ما تقدم تقريره ، والتاء فى ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ عوض عن الياء ، ولهذا لا يجتمعان ، والاستفهام فى ﴿ لم تعبد ﴾ للإنكار والتوبيخ ﴿ ما لا يسمع ﴾ ما تقوله من الثناء عليه والدعاء له ﴿ ولا يبصر ﴾ ما تفعله من عبادته ومن الأفعال التى تفعلها مريدًا بها الثواب ، ويجوز أن يحمل نفى السمع والإبصار على ما هو أعم من ذلك ، أى لا يسمع شيئاً من المسموعات ، ولا يبصر شيئاً من المبصرات ﴿ ولا يغنى عنك شيئاً ﴾ من الأشياء ، فلا يجلب لك نفعاً ولا يدفع عنك ضرراً ، وهى الأصنام التى كان يعبدها آزر ، أورد إبراهيم عليه السلام على أبيه الدلائل والنصائح ، وصدر كلا منها بالنداء المتضمن للرفق واللين استمالة لقلبه ، وامتنالا لأمر ربه .

ثم كرر دعوته إلى الحق فقال : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ فأخبر أنه قد وصل إليه من العلم نصيب لم يصل إلى أبيه ، وأنه قد تجدد له حصول ما يتوصل به منه إلى الحق ، ويقتدر به على إرشاد الضال ، ولهذا أمره باتباعه فقال : ﴿ فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً ﴾ مستوياً موصلاً إلى المطلوب منجياً من المكروه . ثم أكد ذلك بنصيحة أخرى زاجرة له عما هو فيه فقال : ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ أى لا تطعه ، فإن عبادة الأصنام هى من طاعة الشيطان ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ حين ترك ما أمره به من السجود لآدم ، ومن أطاع من هو عاص لله سبحانه فهو عاص لله ، والعاصى حقيق بأن تسلب

عنه النعم وتحلّ به النقم . قال الكسائي : العصى والعاصى بمعنى واحد .

ثم بين له الباعث على هذه النصائح فقال : ﴿ يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ﴾ قال الفراء : معنى أخاف هنا : أعلم . وقال الآكثرون : إن الخوف هنا محمول على ظاهره ، لأن إبراهيم غير جازم بموت أبيه على الكفر ، إذ لو كان جازماً بذلك لم يشتغل بنصحه ، ومعنى الخوف على الغير : هو أن يظن وصول الضرر إلى ذلك الغير ﴿ فتكون للشيطان وليا ﴾ أى إنك إذا أطعت الشيطان كنت معه فى النار واللعنة ، فتكون بهذا السبب مالياً ، أو تكون بسبب موالاته فى العذاب معه ، وليس هناك ولاية حقيقية لقوله سبحانه : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو ﴾ [الزخرف : ٦٧] . وقيل : الولى بمعنى التالى . وقيل : الولى بمعنى القريب ، أى تكون للشيطان قريباً منه فى النار ، فلما مرّت هذه النصائح النافعة والمواظب المقبولة بسمع آزر قابلها بالغلظة والفظاظة والقسوة فقال : ﴿ أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ﴾ والاستفهام للتقرّيع والتوبيخ والتعجيب ، والمعنى : أمعرض أنت عن ذلك ومنصرف إلى غيره ؟ ثم توعدّه فقال : ﴿ لكن لم تنته لأرحمنك ﴾ أى بالحجارة . وقيل : باللسان ، فيكون معناه لأشتمنك . وقيل : معناه لأضربنك . وقيل : لأظهرن أمرك ﴿ واهجرنى مليا ﴾ أى زماناً طويلاً . قال الكسائي : يقال : هجرته مليا وملوة وملواة ، بمعنى الملاوة من الزمان ، وهو الطويل ، ومنه قول مهلهل :

فتصدّعت صمّ الجبال لموته وبكت عليه المرمّلات مليا

وقيل : معناه : اعتزلنى سالم العرض لا تصيبك منى معرة ، واختار هذا ابن جرير ، فملياً على هذا منتصب على الحال من إبراهيم ، وعلى القول الأوّل منتصب على الظرفية ، فلما رأى إبراهيم إصرار أبيه على العناد ﴿ قال سلام عليك ﴾ أى تحية توديع ومتاركة كقوله : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ [الفرقان : ٦٣] . وقيل : معناه : أمنة منى لك ، قاله ابن جرير . وإنما أمنة مع كفره لأنه لم يؤمر بقتاله ، والأول أولى ، وبه قال الجمهور . وقيل : معناه الدعاء له بالسلامة ، استمالة له ورفقاً به ثم وعده بأن يطلب له المغفرة من الله سبحانه تألفاً له وطمعاً فى لينة وذهاب قسوته :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه

وكان منه هذا الوعد قبل أن يعلم أنه يموت على الكفر ، وتحقّ عليه الكلمة ، ولهذا قال الله سبحانه فى موضع آخر : ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ بعد قوله : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ [التوبة : ١١٤] وجملة : ﴿ إنه كان بى حفياً ﴾ تعليل لما قبلها ؛ والمعنى سأطلب لك المغفرة من الله ، فإنه كان بى كثير البرّ واللطف ، يقال : حفى به وتحفى : إذا بره . قال الكسائي : يقال : حفى بى حفاوة وحفوة . وقال الفراء : إنه كان بى حفياً ، أى عالماً لطيفاً يجيبنى إذا دعوته .

ثم صرح الخليل بما تضمنه سلامه من التوديع والمشاركة فقال : ﴿ وأعتزلکم وما تدعون من دون الله ﴾ أى أهاجر بدينى عنكم وعن معبوداتكم حيث لم تقبلوا نصحى ولا نجعت فيكم دعوتى ﴿ وأدعو ربى ﴾ وحده ﴿ عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا ﴾ أى خائبا . وقيل : عاصيا . قيل : أراد بهذا الدعاء : هو أن يهب الله له ولداً وأهلاً يستأنس بهم فى اعتزاله ويطمأن إليهم عند وحشته . وقيل : أراد دعاءه لأبيه بالهداية ، وعسى للشك لأنه كان لا يدرى هل يستجاب له فيه أم لا ، والأول أولى لقوله : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ أى جعلنا هؤلاء الموهوبين له ، أهلاً وولداً بدل الأهل الذين فارقههم ﴿ وكلا جعلنا نبيا ﴾ أى كل واحد منهما ، وانتصاب ﴿ كلا ﴾ على أنه المفعول الأول لجعلنا قدم عليه للتخصيص ، لكن بالنسبة إليهم أنفسهم لا بالنسبة إلى من عداهم ، أى كل واحد منهم جعلنا نبيا ، لا بعضهم دون بعض .

﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا ﴾ بأن جعلناهم أنبياء ، وذكر هذا بعد التصريح بجعلهم أنبياء لبيان أن النبوة هى من باب الرحمة . وقيل : المراد بالرحمة هنا : المال . وقيل : الأولاد . وقيل : الكتاب ، ولا يبعد أن يندرج تحتها جميع هذه الأمور ﴿ وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ لسان الصدق : الثناء الحسن ، عبر عنه باللسان لكونه يوجد به كما عبر باليد عن العطية . وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يقال فيهم من الثناء على ألسن العباد .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لأرجمنك ﴾ قال : لأشتمنك ﴿ واهجرنى مليا ﴾ قال : حيناً . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿ واهجرنى مليا ﴾ قال : اجتنبنى سويأ . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً فى الآية قال : اجتنبنى سالماً قبل أن تصيبك منى عقوبة . وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبيرة وعكرمة : ﴿ مليا ﴾ : دهرأ . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : سالماً . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ إنه كان بى حفيا ﴾ قال : لطيفاً . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ قال : يقول : وهبنا له إسحاق ويعقوب ابن ابنه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى قوله : ﴿ وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ قال : الثناء الحسن .

﴿ وأذكرُ في الكتابِ موسىَ إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً (٥١) وناديناه من جانب الطورِ الأيمنِ وقربناه نجياً (٥٢) ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً (٥٣) وأذكرُ في الكتابِ إسماعيلَ إنه كان صادق الوعدِ وكان رسولاً نبياً (٥٤) وكان يأمرُ أهله بالصلاة والزكاةِ وكان عند ربه مرضياً (٥٥) وأذكرُ في الكتابِ إدريسَ إنه كان صديقاً نبياً (٥٦) ورفعناه مكاناً علياً

(٥٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣) ﴿

قضى سبحانه قصة إبراهيم بقصة موسى لأنه تلاه في الشرف، وقدمه على إسماعيل لثلا يفصل بينه وبين ذكر يعقوب ، أى واقرأ عليهم من القرآن قصة موسى ﴿ إنه كان مخلصا ﴾ قرأ أهل الكوفة بفتح اللام ، أى جعلناه مختاراً وأخلصناه . وقرأ الباقون بكسرهما ، أى أخلص العباداة والتوحيد لله غير مرء للعباد ﴿ إنه كان رسولاً نبياً ﴾ أى أرسله الله إلى عباده فأنبأهم عن الله بشرائعه التى شرعها لهم ، فهذا وجه ذكر النبى بعد الرسول مع استلزام الرسالة للنبوّة، فكأنه أراد بالرسول معناه اللغوى لا الشرعى ، والله أعلم . وقال النيسابورى : الرسول الذى معه كتاب من الأنبياء ، والنبى الذى ينبئ عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب ، وكان المناسب ذكر الأعم قبل الأخص ، إلا أن رعاية الفاصلة اقتضت عكس ذلك كقوله فى طه: ﴿ رب هارون وموسى ﴾ [طه : ٧٠] انتهى .

﴿ ونادينه من جانب الطور الأيمن ﴾ أى كلمناه من جانب الطور، وهو جبل بين مصر ومدين اسمه زبير ، ومعنى الأيمن : أنه كان ذلك الجانب عن يمين موسى ، فإن الشجرة كانت فى ذلك الجانب والنداء وقع منها ، وليس المراد : يمين الجبل نفسه . فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال . وقيل : معنى الأيمن : الميمون ، ومعنى النداء : أنه تمثل له الكلام من ذلك الجانب ﴿ وقربناه نجياً ﴾ أى أدنيناه بتقريب المنزلة حتى كلمناه ، والنجى بمعنى المناجى كالجلىس والنديم ، فالتقريب هنا هو تقريب التشريف والإكرام ، مثلت حاله بحال من قربه منه الملك لمناجاته . قال الزجاج : قربه فى المنزلة حتى سمع مناجاته . وقيل : إن الله سبحانه رفعه حتى سمع صريف القلم . روى هذا عن بعض السلف .

﴿ ووهبنا له من رحمتنا ﴾ أى من نعمتنا ، وقيل : من أجل رحمتنا ، و﴿ هارون ﴾ عطف بيان ، و﴿ نبيا ﴾ حال منه ، وذلك حين سأل ربه قال : ﴿ واجعل لى وزيراً من أهلى . هارون أخى ﴾ [طه : ٢٩ ، ٣٠] . ووصف الله سبحانه إسماعيل بصدق الوعد مع كون جميع الأنبياء كذلك، لأنه كان مشهوراً بذلك مبالغاً فيه، وناهيك بأنه وعد الصبر من نفسه على الذبح فوفى بذلك ، وكان ينتظر لمن وعده بوعد الأيام والليالى، حتى قيل : إنه انتظر لبعض من وعده حولاً . والمراد بإسماعيل هنا : هو إسماعيل بن إبراهيم ، ولم يخالف فى ذلك إلا

من لا يعتد به فقال : هو إسماعيل بن حزقيل ، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه ، فخيره الله فيما شاء من عذابهم ، فاستغفاه ورضى بثوابه . وقد استدل بقوله تعالى في إسماعيل : ﴿ وكان رسولا نبيا ﴾ على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته . وقيل : إنه وصفه بالرسالة لكون إبراهيم أرسله إلى جرهم ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ﴾ قيل : المراد بأهله هنا أمته . وقيل : جرهم ، وقيل : عشيرته كما في قوله : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : ٢١٤] . والمراد بالصلاة والزكاة هنا : هما العبادتان الشرعيتان ويجوز أن يراد : معناهما اللغوي ﴿ وكان عند ربه مرضيا ﴾ أى رضا زاكيا صالحا . قال الكسائي والفراء : من قال مرضى ؛ بنى على رضيت ، قالوا : وأهل الحجاز يقولون مرضو .

﴿ واذكر في الكتاب إدريس ﴾ اسم إدريس أخنوخ ، قيل : هو جد نوح ، فإن نوحا هو ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ ، وعلى هذا فيكون جد أبى نوح . ذكره الثعلبي وغيره . وقد قيل : إن هذا خطأ ، وامتناع إدريس للعجمة والعلمية . وهو أول من خط بالقلم ونظر في النجوم والحساب ، وأول من خاط الثياب . قيل : وهو أول من أعطى النبوة من بنى آدم . وقد اختلف في معنى قوله : ﴿ ورفعناه مكانا عليا ﴾ فقيل : إن الله رفعه إلى السماء الرابعة . وقيل : إلى السادسة . وقيل : إلى الثانية وقد روى البخارى في صحيحه من حديث الإسراء وفيه : ومنهم إدريس في الثانية ^(١) ، وهو غلط من رواية شريك بن عبد الله بن أبى نمر . والصحيح أنه في السماء الرابعة كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك عن النبي ^(٢) وقيل : إن المراد برفعه مكانا عليا : ما أعطيه من شرف النبوة . وقيل : إنه رفع إلى الجنة .

﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين ﴾ الإشارة إلى المذكورين من أول السورة إلى هنا ، والموصول صفته ، و﴿ من النبيين ﴾ بيان للموصول ، و﴿ من ذرية آدم ﴾ بدل منه بإعادة الخافض . وقيل : إن « من » فى ﴿ من ذرية آدم ﴾ للتبعض ﴿ ومن حملنا مع نوح ﴾ أى من ذرية من حملنا معه وهم من عدا إدريس ، فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح ﴿ ومن ذرية إبراهيم ﴾ وهم الباقون ﴿ وإسرائيل ﴾ أى ومن ذرية إسرائيل ، ومنهم موسى وهارون ويحيى وعيسى . وقيل : إنه أراد بقوله : ﴿ من ذرية آدم ﴾ إدريس وحده ، وأراد بقوله : ﴿ ومن حملنا مع نوح ﴾ إبراهيم وحده ، وأراد بقوله : ﴿ ومن ذرية إبراهيم ﴾ إسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وأراد بقوله : ﴿ ومن ذرية إسرائيل ﴾ موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿ ومن هدينا ﴾ أى من جملة من هدينا إلى الإسلام ﴿ واجتبتنا ﴾ بالإيمان ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ﴾ وهذا خبر لأولئك ، ويجوز أن يكون الخبر هو ﴿ الذين أنعم الله عليهم ﴾ وهذا استئناف لبيان خشوعهم لله وخشيتهم منه . وقد تقدم فى سبحان

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٢) .

(٢) مسلم فى الإيمان (٢٥٩/١٦٢) .

بيان معنى خرّوا سجداً : يقال : بكى يبكي بكاء وبكيا . قال الخليل : إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن ، أى ليس معه صوت ، ومنه قول الشاعر :

بكت عيني وحق لها بكاءها وما يغنى البكاء ولا العويل

و ﴿ سجدا ﴾ منصوب على الحال . قال الزجاج : قد بين الله أن الأنبياء إذا سمعوا آيات الله بكوا وسجدوا ، وقد استدلل بهذه الآية على مشروعية سجود التلاوة .

ولما مدح هؤلاء الأنبياء بهذه الأوصاف ترغيباً لغيرهم فى الاقتداء بهم وسلوك طريقتهم ذكر أصدادهم تنفيراً للناس عن طريقتهم فقال : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ أى عقب سوء . قال أهل اللغة : يقال لعقب الخير : خلف بفتح اللام ، ولعقب الشر : خلف بسكون اللام ، وقد قدمنا الكلام على هذا فى آخر الأعراف ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ قال الأكثر : معنى ذلك أنهم أخروها عن وقتها . وقيل : أضاعوا الوقت . وقيل : كفروا بها وجحدوا وجوبها . وقيل : لم يأتوا بها على الوجه المشروع . والظاهر أن من أخر الصلاة عن وقتها أو ترك فرضاً من فروضها أو شرطاً من شروطها أو ركناً من أركانها فقد أضاعها ، ويدخل تحت الإضاعة من تركها بالمرة أو أحدها دخولا أوليا . واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية ؟ فقيل : فى اليهود . وقيل : فى النصارى . وقيل : فى قوم من أمة محمد ﷺ يأتون فى آخر الزمان ، ومعنى ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ أى فعلوا ما تشتهيه أنفسهم وترغب إليه من المحرمات كشرب الخمر والزنا ﴿ فسوف يلقون غيا ﴾ الغى : هو الشر عند أهل اللغة ، كما أن الخير : هو الرشاد ، والمعنى : أنهم سيلقون شرا لا خيرا . وقيل : الغى : الضلال ، وقيل : الخيبة . وقيل : هو اسم واد فى جهنم . وقيل : فى الكلام حذف ، والتقدير : سيلقون جزاء الغى ، كذا قال الزجاج ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ يلقى أناما ﴾ [الفرقان : ٦٨] . أى جزاء أئام .

﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحا ﴾ أى تاب مما فرط منه من تضييع الصلوات واتباع الشهوات فرجع إلى طاعة الله وآمن به وعمل عملا صالحا ، وفى هذا الاستثناء دليل على أن الآية فى الكفرة لا فى المسلمين ﴿ فأولئك يدخلون الجنة ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر : « يدخلون » بضم الياء وفتح الخاء ، وقرأ الباقر بفتح الياء وضم الخاء ﴿ ولا يظلمون شيئا ﴾ أى لا ينقص من أجورهم شيء وإن كان قليلا ، فإن الله سبحانه يوفى إليهم أجورهم . وانتصاب ﴿ جنات عدن ﴾ على البدل من الجنة ، بدل البعض لكون جنات عدن بعض من الجنة . قال الزجاج : ويجوز « جنات عدن » بالرفع على الابتداء ، وقرئ كذلك . قال أبو حاتم : لولا الخط لكان جنة عدن ، يعنى : بالافراد ، مكان الجمع وليس هذا بشيء ، فإن الجنة اسم لمجموع الجنات التى هى بمنزلة الأنواع للجنس . وقرئ بنصب الجنات على المدح ، وقد قرئ جنة بالافراد ﴿ التى وعد الرحمن عباده بالغيب ﴾ هذه الجملة صفة لجنات عدن و ﴿ بالغيب ﴾ فى محل نصب على الحال من الجنات ، أو من عباده ، أى متلبسة ، أو متلبسين بالغيب ، وقرئ : بصرف عدن ، ومنعها على أنها علم لمعنى

العدن وهو الإقامة ، أو علم لأرض الجنة ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾ أى موعوده على العموم ، فتدخل فيه الجنات دخولا أوليا . قال الفراء : لم يقل آتيا ، لأن كل ما أتاك فقد آتيته ، وكذا قال الزجاج .

﴿ لا يسمعون فيها لغوا ﴾ هو الهذر من الكلام الذى يلغى ولا طائل تحته ، وهو كناية عن عدم صدور اللغو منهم ، وقيل : اللغو : كل ما لم يكن فيه ذكر الله ﴿ إِلَّا سَلَامًا ﴾ هو استثناء منقطع : أى سلام بعضهم على بعض ، أو سلام الملائكة عليهم . وقال الزجاج : السلام اسم جامع للخير ، لأنه يتضمن السلامة ، والمعنى : أن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤلمهم وإنما يسمعون ما يسلمهم ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ﴾ قال المفسرون : ليس فى الجنة بكرة ولا عشية ، ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء والعشاء ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًا ﴾ أى هذه الجنة التى وصفنا أحوالها نورثها من كان من أهل التقوى كما يبقى على الوارث مال موروثه . قرأ يعقوب : « نورث » بفتح الواو وتشديد الراء ، وقرأ الباقر بالتخفيف . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : نورث من كان تقيا من عبادنا .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًا ﴾ قال : النبى الذى يكلم وينزل عليه ولا يرسل . ولفظ ابن أبى حاتم : الأنبياء الذين ليسوا برسل : يوحى إلى أحدهم ولا يرسل إلى أحد . والرسل : الأنبياء الذين يوحى إليهم ويرسلون . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ قال : جانب الجبل الأيمن ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ قال : نجا بصدقه . وأخرج عبد بن حميد عن أبى العالية قال : قربه حتى سمع صريف القلم ، يكتب فى اللوح . وأخرجه الديلمى عنه مرفوعاً . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ ﴾ قال : كان هارون أكبر من موسى ، ولكن إنما وهب له نبوته .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال : كان إدريس خياطا وكان لا يغرز غرزة إلا قال : سبحان الله ، وكان يمسى حين يمسى وليس على الأرض أفضل عملا منه ، فاستأذن ملك من الملائكة ربه فقال : يارب ائذن لى فأهبط إلى إدريس ، فأذن له فأتى إدريس فقال : إنى جئت لك لأخدمك ، قال : كيف تخدمنى وأنت ملك وأنا إنسان؟ ثم قال إدريس : هل بينك وبين ملك الموت شئ ؟ قال الملك : ذاك أخى من الملائكة ، قال : هل تستطيع أن تنفعنى ؟ قال : أما يؤخر شيئا أو يقدمه فلا ، ولكن سأكلمه لك فيرفق بك عند الموت ، فقال : اركب بين جناحى ، فركب إدريس فصعد إلى السماء العليا فلقى ملك الموت وإدريس بين جناحيه ، فقال له الملك : إن لى إليك حاجة ، قال : علمت حاجتك تكلمنى فى إدريس وقد محى اسمه من الصحيفة فلم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين ، فمات

إدريس بين جناحي الملك (١) . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : سألت كعباً فذكر نحوه ، فهذا هو من الإسرائيليات التي يرويها كعب . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : رفع إدريس إلى السماء السادسة . وأخرج الترمذى وصححه ، وابن المنذر وابن مردويه قال : حدثنا أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : «لما عرج بي رأيت إدريس في السماء الرابعة» (٢) . وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدرى مرفوعاً نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : رفع إدريس كما رفع عيسى ولم يم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : إدريس هو إلياس . وحسنه السيوطى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى في قوله : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم ﴾ إلى آخره ، قال : هذه تسمية الأنبياء الذين ذكرهم ؛ أما من ذرية آدم : فإدريس ونوح ؛ وأما من حمل مع نوح فإبراهيم ؛ وأما ذرية إبراهيم : فإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب ؛ وأما ذرية إسرائيل : فموسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى في قوله : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في الآية قال : هم من هذه الأمة يتراكبون في الطرق كما تراكب الأنعام لا يستحيون من الناس ، ولا يخافون من الله في السماء . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود في قوله : ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ قال : ليس إضاعتها تركها قد يضيع الإنسان الشيء ولا يتركه ، ولكن إضاعتها : إذا لم يصلها لوقتها . وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى في الشعب عن أبي سعيد الخدرى سمعت رسول الله ﷺ وتلا هذه الآية : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ﴾ الآية قال : « يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ﴾ فسوف يلقون غيا ، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ، ومنافق ، وفاجر » (٣) وأخرج أحمد ، والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيهلك من أمتى أهل الكتاب وأهل اللبن » قلت : يا رسول الله ، ما أهل الكتاب ؟ قال : « قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا » ، قلت : ما أهل اللبن ؟ قال : « قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات » (٤) . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، والحاكم وصححه عن عائشة ؛

(١) ذكر الإمام ابن كثير ٤/٤٦٥ ، ٤٤٦ هذا الأثر ونحوه من رواية ابن أبي حاتم وابن جرير وقال : « هذا من أخبار كعب الاحبار الإسرائيليات ، وفي بعضه نكارة ، والله أعلم » .

(٢) الترمذى في التفسير (٣١٥٧) .

(٣) أحمد ٣/٣٨ ، ٣٩ وابن حبان (٧٥٢) وصححه الحاكم ٢/٣٧٤ وقال : « رواه حجازيون وشاميون أثبات » ،

وقال الذهبي : « صحيح » والبيهقى في الشعب (٢٣٨٥) ورجاله موثقون غير شيخ الحاكم عبد الله بن إسحاق .

قال الدارقطنى : « فيه لين فلعله هو » .

(٤) أحمد ٤/١٥٦ وصححه الحاكم ٢/٣٧٤ ووافقه الذهبي .

أنها كانت ترسل بالصدقة لأهل الصدقة وتقول : لا تعطوا منها بربريا ولا بربرية ، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « هم الخلف الذين قال الله : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ » (١) . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فسوف يلقون غيا ﴾ قال : خسراً . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث من طرق عن ابن مسعود في قوله : ﴿ فسوف يلقون غيا ﴾ قال : الغى : نهر ، أو واد في جهنم من قيح بعيد القعر خبيث الطعم ، يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات . وقد قال بأنه واد في جهنم البراء بن عازب . وروى ذلك عنه ابن المنذر والطبراني . وأخرج ابن جرير والطبراني والبيهقي عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفاً ، ثم تنتهي إلى غى وأثام » ، قلت : وما غى وأثام ؟ قال : « نهران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار ، وهما اللذان ذكر الله في كتابه : ﴿ فسوف يلقون غيا ﴾ ومن يفعل ذلك يلقى أثاماً » [الفرقان : ٦٨] (٢) وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « الغى واد في جهنم » .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ بكرة وعشيا ﴾ قال : يؤتون به في الآخرة على مقدار ما كانوا يؤتون به في الدنيا . وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من طريق أبان عن الحسن وأبي قلابة قالا : قال رجل : يا رسول الله ، هل في الجنة من ليل ؟ قال : « وما هيجك على هذا؟ » قال : سمعت الله يذكر في الكتاب : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ فقلت : الليل من البكرة والعشى ، فقال رسول الله ﷺ : « ليس هناك ليل ، وإنما هو ضوء ونور ، يرد الغدو على الرواح والرواح على الغدو ، تأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا ، وتسلم عليهم الملائكة » . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ما من غداة من غدوات الجنة ، وكل الجنة غدوات ، إلا (٣) أنه يزف إلى ولي الله فيها زوجة من الحور العين وأدناهن التي خلقت من الزعفران » قال بعد إخراجها : قال أبو محمد : هذا حديث منكر .

﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ

(١) صححه الحاكم ٢/ ٢٤٤ وقال الذهبي : « عبيد الله مختلف في توثيقه ، ومالك لا أعرفه ثم هو منقطع » وقال

ابن كثير : « هذا حديث غريب » .

(٢) ابن جرير ٧٥/ ١٦ والطبراني (٧٧٣١) وقال ابن كثير ٤/ ٤٧٠ : « هذا حديث غريب ورفعه منكر » .

(٣) في المطبوعة : « إلى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) ﴿

قوله : ﴿ وما ننزل ﴾ أى قال الله سبحانه : قل يا جبريل : وما ننزل ، وذلك أن رسول الله ﷺ استبطأ نزول جبريل عليه ، فأمر جبريل أن يخبره بأن الملائكة ما تنزل عليه إلا بأمر الله (١) قيل : احتبس جبريل عن رسول الله ﷺ أربعين يوماً . وقيل : خمسة عشر . وقيل : اثني عشر . وقيل : ثلاثة أيام . وقيل : إن هذا حكاية عن أهل الجنة ، وأنهم يقولون عند دخولها : وما ننزل هذه الجنان ﴿ إلا بأمر ربك ﴾ والأول أولى بدلالة ما قبله ، ومعناه يحتمل وجهين : الأول : وما ننزل عليك إلا بأمر ربك لنا بالنزول . والثاني : وما ننزل عليك إلا بأمر ربك الذى يأمرك به بما شرعه لك ولأمتك ، والنزول : النزول على مهل ، وقد يطلق على مطلق النزول . ثم أكد جبريل ما أخبر به النبي ﷺ فقال : ﴿ له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ﴾ أى من الجهات والأماكن ، أو من الأزمنة الماضية والمستقبلية ، وما بينهما من الزمان أو المكان الذى نحن فيه ، فلا نقدر على أن نتقل من جهة إلى جهة ، أو من زمان إلى زمان إلا بأمر ربك ومشيتته . وقيل : المعنى : له ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة وما بين ذلك ، وهو ما بين النفختين . وقيل : الأرض التى بين أيدينا إذا نزلنا ، والسماء التى وراءنا وما بين السماء والأرض . وقيل : ما مضى من أعمارنا وما غبر منها والحالة التى نحن فيها . وعلى هذه الأقوال كلها يكون المعنى : أن الله سبحانه هو المحيط بكل شئ لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة ، فلا نقدم على أمر إلا بإذنه ، وقال : ﴿ وما بين ذلك ﴾ ولم يقل : وما بين ذينك ، لأن المراد : وما بين ما ذكرنا كما فى قوله سبحانه : ﴿ عوان بين ذلك ﴾ [البقرة : ٦٨] ﴿ وما كان ربك نسيا ﴾ أى لم ينسك وإن تأخر عنك الوحي . وقيل : المعنى : إنه عالم بجميع الأشياء لا ينسى منها شيئاً . وقيل : المعنى : وما كان ربك ينسى الإرسال إليك عند الوقت الذى يرسل فيه رسله .

﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ أى خالقهما وخالق ما بينهما ، ومالكهما ومالك ما بينهما ، ومن كان هكذا فالنسيان محال عليه . ثم أمر الله نبيه ﷺ بعبادته والصبر عليها فقال : ﴿ فاعبدوه واصطبر لعبادته ﴾ والفاء للسببية لأن كونه رب العالمين سبب موجب لأن يعبد ، وعدى فعل الصبر باللام دون على التى يتعدى بها لتضمنه معنى الثبات ﴿ هل تعلم له سميا ﴾

الاستفهام للإنكار. والمعنى : أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه فى العبادة، فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه ، فلما انتفى المشارك استحق الله سبحانه أن يفرد بالعبادة وتخلص له، هذا مبنى على أن المراد بالسمى : هو الشريك فى المسمى . وقيل : المراد به : الشريك فى الاسم كما هو الظاهر من لغة العرب، فقيل : المعنى : إنه لم يسم شئ من الأصنام ولا غيرها بالله قط، يعنى بعد دخول الألف واللام التى عوضت عن الهمزة ولزمت. وقيل : المراد : هل تعلم أحداً اسمه الرحمن غيره ؟. قال الزجاج : تأويله والله أعلم : هل تعلم له سمياً يستحق أن يقال له : خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون ، وعلى هذا لا سمى لله فى جميع أسمائه، لأن غيره وإن سمى بشئ من أسمائه، فله سبحانه حقيقة ذلك الوصف، والمراد بنفى العلم المستفاد من الإنكار هنا : نفى المعلوم على أبلغ وجه وأكمله .

﴿ ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً ﴾ قرأ الجمهور على الاستفهام ، وقرأ ابن ذكوان : « إذا ما مت » على الخبر، والمراد بالإنسان ها هنا : الكافر؛ لأن هذا الاستفهام هنا للإنكار والاستهزاء والتكذيب بالبعث. وقيل : اللام فى الإنسان للجنس بأسره وإن لم يقل هذه المقالة إلا البعض ، وهم الكفرة فقد يسند إلى الجماعة ما قام بواحد منهم ، والمراد بقوله : ﴿ أخرج ﴾ أى من القبر، والعامل فى الظرف فعل دل عليه أخرج ، لأن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها . ﴿ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخى ، والواو لعطف الجملة التى بعدها على الجملة قبلها ، والمراد بالذكر هنا : أعمال الفكر ، أى ألا يتفكر هذا الجاحد فى أول خلقه فيستدل بالابتداء على الإعادة ، والابتداء أعجب وأغرب من الإعادة، لأن النشأة الأولى هى إخراج لهذه المخلوقات من العدم إلى الوجود ابتداءً واختراعاً، لم يتقدم عليه ما يكون كالمثال له ، وأما النشأة الآخرة فقد تقدم عليها النشأة الأولى فكانت كالمثال لها ، ومعنى ﴿ من قبل ﴾ : قبل الحالة التى هو عليها الآن، وجملة : ﴿ ولم يك شيئاً ﴾ فى محل نصب على الحال، أى والحال أنه لم يكن حينئذ شيئاً من الأشياء أصلاً، فإعادته بعد أن كان شيئاً موجوداً أسهل وأيسر . قرأ أهل مكة وأبو عمرو وأبوجعفر وأهل الكوفة إلا عاصماً : « أو لا يذكر » بالتشديد ، وأصله: يتذكر. وقرأ شيبة ونافع وعاصم وابن عامر « يذكر » بالتخفيف ، وفى قراءة أبى : « أو لا يتذكر » .

ثم لما جاء سبحانه وتعالى بهذه الحجة التى أجمع العقلاء على أنه لم يكن فى حجج البعث حجة أقوى منها، أكدها بالقسم باسمه سبحانه مضافاً إلى رسوله تشريعاً له وتعظيماً، فقال : ﴿ فوريك لنحشرنهم ﴾ ومعنى ﴿ لنحشرنهم ﴾ لنسوقنهم إلى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياء كما كانوا، والواو فى قوله : ﴿ والشياطين ﴾ للعطف على المنصوب ، أو بمعنى مع . والمعنى : أن هؤلاء الجاحدين يحشرهم الله مع شياطينهم الذين أغروهم وأضلّوهم ، وهذا ظاهر على جعل اللام فى الإنسان للعهد ، وهو الإنسان الكافر، وأما على جعلها للجنس فكونه قد وجد فى الجنس من يحشر مع شيطانه ﴿ ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً ﴾ الجثى جمع

جاث، من قولهم :جثا على ركبتيه يجثو جثوا ، وهو منتصب على الحال ، أى جاثين على ركبهم لما يصيبهم من هول الموقف وروعة الحساب، أو لكون الجثى على الركب شأن أهل الموقف كما فى قوله سبحانه: ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ [الجاثية : ٢٨] . وقيل : المراد بقوله : ﴿ جثيا ﴾ : جماعات ، وأصله : جمع جثوة ، والجثوة هى : المجموع من التراب أو الحجارة . قال طرفة :

أرى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد

﴿ ثم لننزعن من كل شيعة ﴾ : الشيعة : الفرقة التى تبعت دينًا من الأديان ، وخصص ذلك الزمخشري فقال: هى الطائفة التى شاعت: أى تبعت غاويًا من الغواة قال الله تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ﴾ [الأنعام : ١٥٩] . ومعنى : ﴿ أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾ من كان أعصى لله وأعتى فإنه ينزع من كل طائفة من طوائف الغى والفساد أعصاهم وأعتاهم، فإذا اجتمعوا طرحهم فى جهنم . والعتى ها هنا مصدر كالعنوت، وهو التمرد فى العصيان . وقيل : المعنى : لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم فى الشر . وقد اتفق القراء على قراءة ﴿ أيهم ﴾ بالضم إلا هارون الغازي فإنه قرأها بالفتح . قال الزجاج : فى رفع أيهم ثلاثة أقوال : الأول : قول الخليل بن أحمد : إنه مرفوع على الحكاية، والمعنى : ثم لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم : أيهم أشد . وأنشد الخليل فى ذلك قول الشاعر :

وقد أبيت من الفتاة بمنزل فأبيت لا حرج ولا محروم

أى فأبيت بمنزلة الذى يقال له : هو لا حرج ولا محروم . قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق ، يعنى الزجاج ، يختار هذا القول ويستحسنه . القول الثانى : قول يونس : وهو أن ﴿ لننزعن ﴾ بمنزلة الأفعال التى تلغى وتعلق . فهذا الفعل عنده معلق عن العمل فى أى، وخصص الخليل وسيبويه وغيرهما التعليق بأفعال الشك ونحوها مما لم يتحقق وقوعه . القول الثالث : قول سيبويه: إن أيهم ها هنا مبنى على الضم ، لأنه خالف أخواته فى الحذف ، وقد غلط سيبويه فى قوله هذا جمهور النحويين حتى قال الزجاج : ما تبين لى أن سيبويه غلط فى كتابه إلا فى موضعين هذا أحدهما ، وللنحويين فى إعراب « أيهم » هذه فى هذا الموضع كلام طويل .

﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا ﴾ يقال : صلى يصلى صليا مثل مضى الشئ يمضى مضيا . قال الجوهري : يقال صليت الرجل نارا إذا أدخلته النار وجعلته يصلها ، فإن ألقيته إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت : أصليته بالألف وصليته تصلية ومنه : ﴿ ويصلى سعيرا ﴾ [الانشقاق : ١٢] ومن خفف فهو من قولهم : صلى فلان النار بالكسر يصلى صليا احترق ، قال الله تعالى : ﴿ الذين هم أولى بها صليا ﴾ قال العجاج :

والله لولا النار أن تصلها

ومعنى الآية : أن هؤلاء الذين هم أشد على الرحمن عتيا هم أولى بصليها ، أو صليهم أولى بالنار .

﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ الخطاب للناس من غير التفات ، أو للإنسان المذكور ، فيكون التفاتا ، أى ما منكم من أحد إلا واردها ، أى واصلها . وقد اختلف الناس فى هذا الورد . قيل : الورد : الدخول ويكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم . وقالت فرقة : الورد هو : المرور على الصراط . وقيل : ليس الورد الدخول إنما هو كما يقول : وردت البصرة ولم أدخلها ، وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورد ، وحمله على ظاهره لقوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ [الأنبياء: ١٠١] قالوا: فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها، وما يدل على أن الورد لا يستلزم الدخول قوله تعالى : ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ [القصص : ٢٣] فإن المراد : أشرف عليه لا أنه دخل فيه ، ومنه قول زهير :

فلما وردن الماء زرقاً جمامه وضعن عصي الحاضر المتخيم

ولا يخفى أن القول بأن الورد هو : المرور على الصراط ، أو الورد على جهنم وهى خامدة فيه ، جمع بين الأدلة من الكتاب والسنة ، فينبغى حمل هذه الآية على ذلك ، لأنه قد حصل الجمع بحمل الورد على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعداً من عذابهما ، أو بحمله على المضى فوق الجسر المنصوب عليها ، وهو الصراط ﴿ كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ أى كان ورودهم المذكور أمراً محتوماً قد قضى سبحانه أنه لا بد من وقوعه لا محالة . وقد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن العقاب واجب على الله ، وعند الأشاعرة أن هذا مشبه بالواجب من جهة استحالة تطرق الخلف إليه .

﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ أى اتقوا ما يوجب النار ، وهو الكفر بالله ومعاصيه ، وترك ما شرعه ، وأوجب العمل به . قرأ عاصم والجحدري ومعاوية بن قرة : « ننجى » بالتخفيف من أنجى ، وبها قرأ حميد ويعقوب والكسائى ، وقرأ الباقر بالتشديد ، وقرأ ابن أبى ليلى : « ثم نذر » بفتح الثاء من ثم ، والمراد بالظالمين : الذين ظلموا أنفسهم بفعل ما يوجب النار ، أو ظلموا غيرهم بمظلمة فى النفس أو المال أو العرض ، والجنى جمع جاث ، وقد تقدم قريباً تفسير الجنى وإعرابه .

وقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل : « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » فنزلت : ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك ﴾ إلى آخر الآية (١) . وزاد ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وكان ذلك الجواب لمحمد . وأخرج ابن مردويه من حديث أنس قال : سئل رسول الله ﷺ : أى البقاع أحب إلى الله ، وأيها أبغض إلى الله ؟ قال :

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٣١) والترمذى فى التفسير (٣١٥٨) وقال : « حديث حسن غريب » .

« ما أدرى حتى أسأل » ، فنزل جبريل ، وكان قد أبطأ عليه ، فقال : « لقد أبطأت على حتى ظننت أن برى على موجدة » ، فقال : ﴿ وما ننتزل إلا بأمر ربك ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : أبطأ جبريل على النبي ﷺ أربعين يوماً ثم نزل ، فقال له النبي ﷺ : « ما نزلت حتى اشتقت إليك » ، فقال له جبريل : أنا كنت إليك أشوق ، ولكنى مأمور ، فأوحى الله إلى جبريل أن قل له : ﴿ وما ننتزل إلا بأمر ربك ﴾ . وهو مرسل . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : أبطأت الرسل على رسول الله ﷺ ، ثم أتاه جبريل فقال له : « ما حبسك عني ؟ » قال : وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم ، ولا تنقون براجمكم ، ولا تأخذون شواربكم ، ولا تستأكلون ؟ قرأ : ﴿ وما ننتزل إلا بأمر ربك ﴾ . وهو مرسل أيضاً . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ له ما بين أيدينا ﴾ قال من أمر الآخرة ﴿ وما خلفنا ﴾ قال : من أمر الدنيا ﴿ وما بين ذلك ﴾ قال : ما بين الدنيا والآخرة . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وما بين ذلك ﴾ قال : ما بين النفختين . وأخرج ابن المنذر عن أبي العالية مثله . وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني والبيهقي ، والحاكم وصححه عن أبي الدرداء رفع الحديث قال : « ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً » ثم تلا : ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ (١) .

وأخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ قال : هل تعرف للرب شيئاً أو مثلاً . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عنه : ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ قال : ليس أحد يسمى الرحمن غيره . وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال : يا محمد هل تعلم لإلهك من ولد ؟ وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ ويقول الإنسان ﴾ قال : العاص بن وائل ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ جثياً ﴾ قال : قعوداً ، وفي قوله : ﴿ عتياً ﴾ قال : معصية . وأخرج ابن جرير عنه في قوله : ﴿ عتياً ﴾ قال : عصياً . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ ثم لننزعن ﴾ قال : لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤوسهم في الشر . وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال : نحشر الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أثارهم جميعاً ، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً ، ثم قرأ : ﴿ فوربك لنحشرنهم ﴾ إلى قوله : ﴿ عتياً ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً ﴾

قال : يقول : إنهم أولى بالخلود في جهنم . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والحكيم الترمذى وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أبي سمية قال : اختلفنا في الورد ، فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا : يدخلونها جميعاً ﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ﴾ فلقيت جابر بن عبد الله فذكرت له ، فقال وأهوى بأصبعه إلى أذنيه : صُمًّا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار ضجيجاً من بردها . ﴾ ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ « (١) . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وهناد وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى عن مجاهد قال : خاصم نافع بن الأزرق ابن عباس ، فقال ابن عباس : الورد : الدخول ، وقال نافع : لا ، فقرأ ابن عباس : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ [الأنبياء : ٩٨] وقال : وردوا أم لا ؟ وقرأ : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾ [هود : ٩٨] أوردوا أم لا ؟ أنا وأنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا ؟ وأخرج الحاكم عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ قال : وإن منكم إلا داخلها . وأخرج هناد والطبراني عنه في الآية قال : ورودها الصراط . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقى وابن الأنباري وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « ليرد الناس كلهم النار ، ثم يصدرون عنها بأعمالهم ، فأولهم كليم البرق ، ثم كالريح ، ثم كحضر الفرس ، ثم كالراكب في رحله ، ثم كشدة الرحل . ثم كمشيه » (٢) وقد روى نحو هذا من حديث ابن مسعود من طرق . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ يقول : « مجتاز فيها » .

وأخرج مسلم وغيره عن أم مبشر قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية » ، قالت حفصة : أليس الله يقول : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ قالت : ألم تسمعيه يقول : ﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ﴾ (٣) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يموت مسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم » ثم قرأ سفيان : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ (٤) . وأخرج أحمد والبخارى في تاريخه ، وأبو يعلى والطبراني وابن مردويه عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال : « من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعاً لا يأخذه سلطان ؛ لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم ، فإن الله يقول : ﴿ وإن منكم

(١) أحمد ٣/٣٢٩ وصححه الحاكم ٤/٥٨٧ عن ابن مسعود ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمى في المجمع ٧/٥٨ :

« رجاله ثقات » والبيهقى في الشعب (٣٦٤) وقال : « هذا إسناد حسن ذكره البخارى في التاريخ » .

(٢) أحمد ١/٤٣٣ والترمذى في التفسير (٣١٦٠) وصححه الحاكم ٢/٣٧٥ ووافقه الذهبي ، والبيهقى في الشعب بمعناه موقوفاً ٢/٣٥٧ .

(٣) مسلم في فضائل الصحابة (١٦٣/٢٤٩٦) وابن ماجه في الزهد (٤٢٨١) .

(٤) البخارى في الجنائز (١٢٥١) ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٢/١٥٠) وأحمد ٢/٢٣٩ ، ٢٤٠ .

إلا واردها ﴿ ١ ﴾ والأحاديث في تفسير هذه الآية كثيرة جداً. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ حتما مقضيا ﴾ قال : قضاء من الله . وأخرج الخطيب في تالي التلخيص عن عكرمة حتماً مقضيا قال : قسماً واجباً . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ قال : باقين فيها .

﴿ وَإِذَا تُلِيَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيَا ﴿ ٧٤ ﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿ ٧٥ ﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿ ٧٦ ﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿ ٧٧ ﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿ ٧٨ ﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿ ٧٩ ﴾ وَنَزَّلْنَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿ ٨٠ ﴾ .

الضمير في ﴿ عليهم ﴾ راجع إلى الكفار الذين سبق ذكرهم في قوله : ﴿ أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ﴾ أى هؤلاء إذا قرئ عليهم القرآن تعذروا بالدنيا، وقالوا : لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أطيب من حالنا ، ولم يكن بالعكس ، لأن الحكيم لا يليق به أن يهين أوليائه ويعز أعداءه ، ومعنى البينات : الواضحات التي لا تلتبس معانيها . وقيل : ظاهرات الإعجاز . وقيل : إنها حجج وبراهين ، والأول أولى . وهى حال مؤكدة لأن آيات الله لا تكون إلا واضحة ، ووضع الظاهر موضع المضمرة في قوله : ﴿ قال الذين كفروا ﴾ للإشعار بأن كفرهم هو السبب لصدور هذا القول عنهم . وقيل : المراد بالذين كفروا هنا : هم المتمردون المصرون منهم ، ومعنى قالوا ﴿ للذين آمنوا ﴾ : قالوا لأجلهم . وقيل : هذه اللام هى لام التبليغ كما فى قوله : ﴿ وقال لهم نبيهم ﴾ [البقرة : ٢٤٧] أى خاطبهم بذلك وبلغوا القول إليهم ﴿ أى الفريقين خير مقاما ﴾ المراد بالفريقين : المؤمنون والكافرون ، كأنهم قالوا : أفريقنا خير أم فريقكم ، قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عباد « مقاماً » بضم الميم ، وهو موضع الإقامة ، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى الإقامة ، قرأ الباقر بالفتح ، أى منزلاً ومسكناً . وقيل : المقام : الموضع الذي يقام فيه بالأمور الجليلة ، والمعنى : أى الفريقين أكبر جاهاً وأكثر أنصاراً وأعواناً ، والندى والنادى : مجلس القوم ومجتمعهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تأتون فى نادىكم المنكر ﴾ [العنكبوت : ٢٩] وناداه : جالسه فى النادى ، ومنه

(١) أحمد ٤٣٧/٣ ، ٤٣٨ وأبو يعلى (١٤٩٠) وإسناده ضعيف ؛ فيه رشدين بن سعد وزبان بن فائد ، والطبرانى ١٨٥ / ٢٠ (٤٠٢) .

دار الندوة ؛ لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها فى أمورهم ، ومنه أيضاً قول الشاعر :

أنادى به آل الوليد وجعفر

﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ القرن : الأمة والجماعة ﴿ هم أحسن أثاثا ورثيا ﴾ الأثاث : المال أجمع ، الإبل والغنم والبقر والعبيد والمتاع . وقيل : هو متاع البيت خاصة . وقيل : هو الحديد من الفرش . وقيل : اللباس خاصة . واختلفت القراءات فى : ﴿ ورثيا ﴾ ، فقرأ أهل المدينة وابن ذكوان : « ورثيا » بياء مشددة ، وفى ذلك وجهان : أحدهما : أن يكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء وأدغمت الياء فى الياء والمعنى على هذه القراءة : هم أحسن منظراً وبه قول جمهور المفسرين ، وحسن المنظر يكون من جهة حسن اللباس ، أو حسن الأبدان وتنعمها ، أو مجموع الأمرين . وقرأ أهل الكوفة وأبو عمرو وابن كثير : « ورثياً » وحكاها ورش عن نافع وهشام عن ابن عامر ، ومعناها معنى بالقراءة الأولى . وقال الجوهري : من همز جعله من المنظر من رأيت ، وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة ، وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفى :

أشأقتك الطعائن يوم بانوا بذى الرثى الجميل من الأثاث

ومن لم يهمز : إما أن يكون من تخفيف الهمزة ، أو يكون من رويت ألوانهم أو جلودهم ريثاً ، أى امتلأت وحسنت . وقد ذكر الزجاج معنى هذا كما حكاه عنه الواحدى . وحكى يعقوب أن طلحة بن مصرف قرأ بياء واحدة خفيفة ، فقليل : إن هذه القراءة غلط ، ووجهها بعض النحويين أنه كان أصلها الهمزة فقلبت ياء ثم حذفت إحدى الياءين ، وروى عن ابن عباس أنه قرأ بالزأى مكان الرء ، وروى مثل ذلك عن أبى بن كعب وسعيد بن جبير والأعصم المكي واليزيدى . والزى : الهيئة والحسن . وقيل : ويجوز أن يكون من زويت : أى جمعت ، فيكون أصلها : زويا ، فقلبت الواو ياء ، والزى : محاسن مجموعة .

﴿ قل من كان فى الضلالة ﴾ أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب على هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية ، أى من كان مستقراً فى الضلالة ﴿ فليمدد له الرحمن مدا ﴾ هذا وإن كان على صيغة الأمر ، فالمراد به الخبر ، وإنما خرج مخرج الأمر لبيان الإمهال منه سبحانه للعصاة ، وأن ذلك كائن لا محالة لتقطع معاذير أهل الضلال ، ويقال لهم يوم القيامة : ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ [فاطر : ٣٧] أو للاستدراج كقوله سبحانه : ﴿ إنما نغلى لهم ليزدادوا إثماً ﴾ [آل عمران : ١٧٨] وقيل : المراد بالآية : الدعاء بالمد والتنفيس . قال الزجاج : تأويله : أن الله جعل جزاء ضلالته أن يتركه ويمده فيها ، لأن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر كأن المتكلم يقول : أفعل ذلك وأمر به نفسى ﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون ﴾ يعنى الذين مد لهم فى الضلالة ، وجاء بضمير الجماعة اعتباراً بمعنى من ، كما أن قوله : ﴿ كان فى الضلالة فليمدد له ﴾ اعتبار بلفظها ، وهذه غاية للمد ، لا لقول المفتخرين إذ ليس فيه امتداد ﴿ إما العذاب

﴿ وإما الساعة ﴾ هذا تفصيل لقوله : ﴿ ما يوعدون ﴾ أى هذا الذى توعدون هو أحد أمرين: إما العذاب فى الدنيا بالقتل والأسر، وإما يوم القيامة وما يحل بهم حينئذ من العذاب الأخرى ﴿ فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا ﴾ هذا جواب الشرط ، وهو جواب على المفتخرين ، أى هؤلاء القائلون : ﴿ أى الفريقين خير مقاماً ﴾ إذا عاينوا ما يوعدون به من العذاب الدنيوى بأيدى المؤمنين ، أو الأخرى ، فسيعلمون عند ذلك من هو شر مكاناً من الفريقين ، وأضعف جنداً منهما ، أى أنصاراً وأعواناً . والمعنى : أنهم سيعلمون عند ذلك أنهم شرّ مكاناً لا خير مكاناً، وأضعف جنداً لا أقوى ولا أحسن من فريق المؤمنين؛ وليس المراد أن للمفتخرين هنالك جنداً ضعفاء ، بل لا جند لهم أصلاً كما فى قوله سبحانه : ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً ﴾ [الكهف : ٤٣] .

ثم لما أخبر سبحانه عن حال أهل الضلالة، أراد أن يبين حال أهل الهداية فقال : ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ﴾ وذلك أن بعض الهدى يجرّ إلى البعض الآخر، والخير يدعو إلى الخير . وقيل : المراد بالزيادة : العبادة من المؤمنين ، والواو فى ﴿ ويزيد ﴾ للاستئناف ، والجملة مستأنفة لبيان حال المهتدين . وقيل : الواو للعطف على ﴿ فليمدد ﴾ . وقيل : للعطف على جملة ﴿ من كان فى الضلالة ﴾ . قال الزجاج : المعنى : أن الله يجعل جزاء المؤمنين أن يزيدهم يقيناً كما جعل جزاء الكافرين أن يمدهم فى ضلالتهم ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً ﴾ هى الطاعات المؤدية إلى السعادة الأبدية، ومعنى كونها خيراً عند الله ثواباً : أنها أنفع عائدة مما يتمتع به الكفار من النعم الدنيوية ﴿ وخير مرداً ﴾ المردّ هاهنا مصدر كالردّ، والمعنى : وخير مردّاً للثواب على فاعلها ليست كأعمال الكفار التى خسروا فيها، والمردّ : المرجع والعاقبة والتفضل للتهكم بهم للقطع بأن أعمال الكفار لا خير فيها أصلاً.

ثم أردف سبحانه مقالة أولئك المفتخرين بأخرى مثلها على سبيل التعجب فقال : ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا ﴾ أى أخبرنى بقصة هذا الكافر واذكر حديثه عقب حديث أولئك، وإنما استعملوا رأيت بمعنى أخبر، لأن رؤية الشيء من أسباب صحة الخبر عنه، والآيات تعم كل آية ومن جملتها آية البعث، والفاء للعطف على مقدّر يدل عليه المقام، أى أنظرت فرأيت، واللام فى ﴿ لأوتين مالا وولدا ﴾ هى الموطئة للقسم، كأنه قال : والله لأوتين فى الآخرة مالا وولداً، أى انظر إلى حال هذا الكافر وتعجب من كلامه وتأليه على الله مع كفره به وتكذيبه بآياته .

ثم أجاب سبحانه عن قول هذا الكافر بما يدفعه ويبطله، فقال: ﴿ أطلع ﴾ على ﴿ الغيب ﴾ أى أعلم ما غاب عنه حتى يعلم أنه فى الجنة ﴿ أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ بذلك ، فإنه لا يتوصل إلى العلم إلا بإحدى هاتين الطريقتين . وقيل : المعنى : أنظر فى اللوح المحفوظ؟ أم اتخذ عند الرحمن عهداً؟ وقيل : معنى ﴿ أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ : أم قال : لا إله إلا

اللّه فأرحمه بها. وقيل : المعنى : أم قدّم عملاً صالحاً فهو يرجوه. واطلع مأخوذ من قولهم :
اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه. وقرأ حمزة والكسائي ويحيى بن وثاب والأعمش : « وولداً »
بضم الواو، والباقون بفتحها ، فقليل : هما لغتان معناهما واحد، يقال : ولد وولد كما يقال :
عدم وعُدْم ، قال الحارث بن حلزة :

ولقد رأيت معاشراً قد ثَمروا مالا وولداً

وقال آخر :

فليت فلاناً كان فى بطن أمه وليت فلاناً كان ولد حمار

وقيل : الولد بالضم للجمع وبالفتح للواحد. وقد ذهب الجمهور إلى أن هذا الكافر أراد
بقوله : ﴿ لأوتين مالا وولداً ﴾ أنه يؤتى ذلك فى الدنيا. وقال جماعة : فى الجنة، وقيل :
المعنى : إن أقمت على دين آبائى لأوتين . وقيل : المعنى : لو كنت على باطل لما أوتيت مالا
وولداً .

﴿ كلا سنكتب ما يقول ﴾ : « كلا » حرف ردع وزجر، أى ليس الأمر على ما قال هذا
الكافر من أنه يؤتى المال والولد ، سيكتب ما يقول : أى سنحفظ عليه ما يقول فنجازيه فى
الآخرة ، أو سنظهر ما يقول ، أو سننتقم منه انتقام من كتبت معصيته ﴿ ونمده من العذاب
مدا ﴾ أى نزيده عذاباً فوق عذابه مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد ، أو نطوّل له
من العذاب ما يستحق وهو عذاب من جمع بين الكفر والاستهزاء . ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ أى
نمّيته فنرثه المال والولد الذى يقول إنه يؤتاه. والمعنى : مسمى ما يقول ومصادقه. وقيل : المعنى
نحرّمه ما تمنّاه ونعطيه غيره . ﴿ ويأتينا فردا ﴾ أى يوم القيامة لا مال له ولا ولد ، بل نسلبه
ذلك، فكيف يطمع فى أن نؤتيه. وقيل : المراد بما يقول : نفس القول لا مسماه ، والمعنى :
إنما يقول هذا القول ما دام حيا ، فإذا أمتناه حلنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضاً له منفرداً
عنه ، والأوّل أولى .

وقد أخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ أى الفريقين
خير مقاما ﴾ قال : قريش تقوله لها ولأصحاب محمد. وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور
وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ خير مقاما ﴾
قال : المنازل ﴿ وأحسن نديا ﴾ قال : المجالس ، وفى قوله : ﴿ أحسن أثاثا ﴾ قال : المتاع
والمال ﴿ ورثيا ﴾ قال : المنظر . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى
حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا ﴾ : فليدعه اللّه
فى طغيانه. وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن حبيب بن أبى ثابت قال فى
حرف أبى : « قل من كان فى الضلالة فإنه يزيده اللّه ضلالة » .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما فى قوله : ﴿ أفرأيت الذى كفر ﴾ من حديث خباب بن

الأرت قال : كنت رجلاً قيناً وكان لى على العاص بن وائل دين ، فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، قال : فإننى إذا مت ثم بعثت جنتنى ولى ثم مال وولد فأعطيك ، فأنزل الله فيه هذه الآية ^(١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ قال : لا إله إلا الله يرجو بها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ قال : ماله وولده .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذَابًا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًّا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾ .

حكى سبحانه ما كان عليه هؤلاء الكفار الذين تمنوا ما لا يستحقونه ، وتألوا على الله سبحانه من اتخاذهم الآلهة من دون الله لأجل يتعززون بذلك . قال الهروى : معنى ﴿ ليكونوا لهم عزا ﴾ : ليكونوا لهم أعواناً . قال الفراء : معناه : ليكونوا لهم شفعاء فى الآخرة . وقيل : معناه : ليتعزوا بهم من عذاب الله ويمتنعوا بها . ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴾ أى ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا ، والضمير فى الفعل إما للآلهة ، أى ستجحد هذه الأصنام عبادة الكفار لها يوم ينطقها الله سبحانه ، لأنها عند أن عبدوها جمادات لا تعقل ذلك ، وإما للمشركين ، أى سيجحد المشركون أنهم عبدوا الأصنام ، ويدل على الوجه الأول قوله تعالى : ﴿ ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ [القصص : ٦٣] وقوله : ﴿ فآلقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ [النحل : ٨٦] ويدل على الوجه الثانى قوله تعالى : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : ٢٣] وقرأ ابن أبى نهيك : « كلا » بالتنوين ، وروى عنه مع ذلك ضم الكاف وفتحها ، فعلى الضم هى بمعنى جميعاً ، وانتصابها بفعل مضمر ، كأنه قال : سيكفرون كلا سيكفرون بعبادهم ، وعلى الفتح يكون مصدرًا لفعل محذوف تقديره : كل هذا الرأى كلا ،

وقراءة الجمهور هي الصواب ، وهي حرف ردع وزجر ﴿ ويكفونون عليهم ضدا ﴾ أى تكون هذه الآلهة التى ظنوها عزا لهم ضداً عليهم ، أى ضدا للعرز وضد العز : الدال ، هذا على الوجه الأول . وأما على الوجه الثانى فيكون المشركون للآلهة ضدا وأعداء يكفرون بها بعد أن كانوا يحبونها ويؤمنون بها .

﴿ ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين ﴾ ذكر الزجاج فى معنى هذا وجهين : أحدهما : أن معناه : خلينا بين الكافرين وبين الشياطين فلم نعصمهم ^(١) منهم ولم نعدهم ، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ [الإسراء : ٦٥] الوجه الثانى : أنهم أرسلوا عليهم وقبضوا لهم بكفرهم قال : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا ﴾ [الزخرف : ٣٦] فمعنى الإرسال ها هنا : التسليط ، ومن ذلك قوله سبحانه لإبليس : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ [الإسراء : ٦٤] ويؤيد الوجه الثانى تمام الآية ، وهو ﴿ تؤزهم أزا ﴾ فإن الأز والهز والاستفزاز معناه : التحريك والتهيج والإزعاج ، فأخبر الله سبحانه أن الشياطين تحرك الكافرين وتهيجهم وتغويهم ، وذلك هو التسليط لها عليهم . وقيل : معنى الأز : الاستعجال ، وهو مقارب لما ذكرنا ؛ لأن الاستعجال تحريك وتهيج واستفزاز وإزعاج ، وسياق هذه الآية لتعجيب رسول الله ﷺ من حالهم ، وللتنبية له على أن جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم ، وجملة : ﴿ تؤزهم أزا ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة على تقدير سؤال يدل عليه المقام ، كأنه قيل : ماذا تفعل الشياطين بهم ؟

﴿ فلا تعجل عليهم ﴾ بأن تطلب من الله إهلاكهم بسبب تصميمهم على الكفر ، وعنادهم للحق ، وتمردهم عن داعى الله سبحانه . ثم علل سبحانه هذا النهى بقوله : ﴿ إنما نعد لهم عدا ﴾ يعنى نعد الأيام والليالى والشهور والسنين من أعمارهم إلى انتهاء آجالهم . وقيل : نعد أنفاسهم . وقيل : خطواتهم . وقيل : لحظاتهم . وقيل : الساعات . وقال قطرب : نعد أعمالهم . وقيل : المعنى : لا تعجل عليهم فإنما تؤخرهم ليزدادوا إثماً .

ثم لما قرر سبحانه أمر الحشر وأجاب عن شبهة منكريه أراد أن يشرح حال المكلفين حيثئذ ، فقال : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر ، أى اذكر يا محمد يوم الحشر . وقيل : منصوب بالفعل الذى بعده ، ومعنى حشرهم إلى الرحمن : حشرهم إلى جنته ودار كرامته ، كقوله : ﴿ إني ذاهب إلى ربى ﴾ [الصافات : ٩٩] والوفد جمع وفد ، كالركب جمع راكب ، وصحب جمع صاحب ، يقال : وفد يفد وفداً إذا خرج إلى ملك أو أمر خطير كذا قال الجوهري . ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾ السوق : الحث على السير ، والورد : العطاش ، قاله الأخفش وغيره . وقال الفراء وابن الأعرابى : هم المشاة ، وقال الأزهري : هم المشاة العطاش كالإبل ترد الماء . وقيل : ﴿ وردا ﴾ أى للورد ، كقولك : جئتكم إكراماً ، أى

(١) فى المطبوعة : « فلم نعصمهم » والصواب ما أثبتناه .

للإكرام . وقيل : أفرادًا . قيل : ولا تناقض بين هذه الأقوال فهم يساقون مشاة عطاشًا أفرادًا ، وأصل الورد : الجماعة التي ترد الماء من طير أو إبل أو قوم أو غير ذلك . والورد : الماء الذي يورد .

وجملة : ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ مستأنفة لبيان بعض ما يكون فى ذلك اليوم من الأمور ، والضمير فى ﴿ يملكون ﴾ راجع إلى الفريقين . وقيل : للمتقين خاصة . وقيل : للمجرمين خاصة ، والأول أولى . ومعنى ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ : أنهم لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم . وقيل : لا يملك غيرهم أن يشفع لهم ، والأول أولى ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ هذا الاستثناء متصل على الوجه الأول : أى لا يملك الفريقان المذكوران الشفاعة إلا من استعد لذلك بما يصير به من جملة الشافعين لغيرهم بأن يكون مؤمنًا متقيًا ، فهذا معنى اتخاذ العهد عند الله . وقيل : معنى اتخاذ العهد : أن الله أمره بذلك كقولهم : عهد الأمير إلى فلان إذا أمره به . وقيل : معنى اتخاذ العهد : شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل غير ذلك . وعلى الاتصال فى هذا الاستثناء يكون محل « من » فى ﴿ من اتخذ ﴾ الرفع على البدل ، أو النصب على أصل الاستثناء . وأما على الوجه الثانى : فالاستثناء منقطع ؛ لأن التقدير : لا يملك المجرمون الشفاعة ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ وهم المسلمون . وقيل هو متصل على هذا الوجه أيضًا ، والتقدير : لا يملك المجرمون الشفاعة إلا من كان منهم مسلمًا .

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى : « ولدًا » بضم الواو وإسكان اللام ، وقرأ الباقر فى المواضع الأربعة المذكورة فى هذه السورة بفتح الواو واللام . وقد قدمنا الفرق بين القراءتين . والجملة مستأنفة لبيان قول اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله ، وفى قوله : ﴿ لقد جئتم شيئا إذا ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وفيه رد لهذه المقالة الشنعاء ، والإد كما قال الجوهري : الداهية والأمر الفظيع ، وكذلك الإدة ، وجمع الإدة إدد ، يقال : أدت فلانًا الداهية تؤده أدا بالفتح . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : « آدًا » بفتح الهمزة ، وقرأ الجمهور بالكسر ، وقرأ ابن عباس وأبو العالية : « آدًا » مثل مادا ، وهى مأخوذة من الثقل ، يقال : آده الحمل يؤوده : إذا أثقله . قال الواحدي : ﴿ لقد جئتم شيئا إذا ﴾ أى عظيمًا فى قول الجميع ، ومعنى الآية : قلتم قولًا عظيمًا . وقيل : الإد : العجب ، والإدة : الشدة ، والمعنى متقارب ، والتركيب يدور على الشدة والثقل .

﴿ يكاد السموات يتفطرن منه ﴾ قرأ نافع والكسائى وحفص (١) ويحيى بن وثاب « يكاد » بالتحية ، وقرأ الباقر بالفوقية وقرأ نافع وابن كثير وحفص « يتفطرن » بالتاء الفوقية ، وقرأ حمزة وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر والمفضل ﴿ ينفطرن ﴾ بالتحية (٢) من الانفطار ، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : ١] ، وقوله : ﴿ السماء منفطر به ﴾ [المزمل : ١٨] وقرأ ابن مسعود : « يتصدعن » والانفطار والتفطر : التشقق ﴿ وتنشق الأرض ﴾ أى وتكاد أن تنشق الأرض ، وكرر الفعل للتأكيد لأن تتفطرن وتنشق

معناها واحد ﴿ وتخر الجبال ﴾ أى تسقط وتنهدم . وانتصاب ﴿ هذا ﴾ على أنه مصدر مؤكد ؛ لأن الخور فى معناه ، أو هو مصدر لفعل مقدّر ، أى وتنهد هذا ، أو على الحال أى مهدودة ، أو على أنه مفعول له ، أى لأنها تنهد . قال الهروى : يقال : هدنى الأمر وهذا ركنى ، أى كسرنى وبلغ منى . قال الجوهرى : هدّ البناء يهدّه هذا كسره وضعضعه ، وهدته المصيبة أو هنت ركنه ، وانهد الجبل ، أى انكسر ، والهدّة : صوت وقع الحائط ، كما قال ابن الأعرابى ، ومحل ﴿ أن دعوا للرحمن ولدا ﴾ الجرّ بدلا من الضمير فى ﴿ منه ﴾ وقال الفراء : فى محل نصب بمعنى لأن دعوا . وقال الكسائى : هو فى محل خفض بتقدير الخافض . وقيل : فى محل رفع على أنه فاعل ﴿ هذا ﴾ والدعاء بمعنى التسمية ، أى سموا للرحمن ولداً ، أو بمعنى النسبة أى نسبوا له ولداً .

﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ أى لا يصلح له ولا يليق به لاستحالة ذلك عليه ؛ لأن الولد يقتضى الجنسية والحدوث ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أى قالوا اتخذ الرحمن ولداً ، أو أن دعوا للرحمن ولداً ، والحال أنه ما يليق به سبحانه ذلك . ﴿ إن كل من فى السموات والأرض ﴾ أى ما كل من فى السموات والأرض ﴿ إلا ﴾ وهو ﴿ آتى ﴾ الله يوم القيامة مقراً بالعبودية خاضعاً ذليلاً كما قال : ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ [النمل : ٧٨] أى صاغرين . والمعنى : أن الخلق كلهم عبيده فكيف يكون واحد منهم ولداً له ؟ وقرئ : « آت » على الأصل . ﴿ لقد أحصاهم ﴾ أى حصرهم وعلم عددهم ﴿ وعددهم عدا ﴾ أى عد أشخاصهم بعد أن حصرهم فلا يخفى عليه أحد منهم . ﴿ وكلهم آتية يوم القيامة فردا ﴾ أى كل واحد منهم يأتية يوم القيامة فرداً لا ناصر له ولا مال معه ، كما قال سبحانه : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ [الشعراء : ٨٨] .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ويكنون عليهم ضدا ﴾ قال أعواناً . وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿ ضدا ﴾ قال : حسرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً قال : ﴿ تؤزهم أزا ﴾ : تغويهم إغواء . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿ تؤزهم أزا ﴾ قال : تحرض المشركين على محمد وأصحابه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : تزعمهم إزعاجاً إلى معاصى الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن ابن عباس : ﴿ وفدا ﴾ قال : ركبائاً . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر عن أبى هريرة ﴿ وفدا ﴾ قال : على الإبل . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق : راغبين وراهبين ، واثنان على بعير وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا » ^(١) والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جداً .

(١) البخارى فى الرقاق (٦٥٢٢) ومسلم فى الجنة (٥٩/٢٨٦١) والنسائى فى الجنائز ١١٤/٤ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس: ﴿ وردا ﴾ قال : عطاشاً. وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وتبرأ من الحول والقوة ، ولا يرجو إلا الله. وأخرج ابن مردويه عنه في الآية قال : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ : ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ قال : إن الله يقول يوم القيامة : من كان له عندى عهد فليقم ، فلا يقوم إلا من قال هذا فى الدنيا، قولوا : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك فى الحياة الدنيا أنك إن تكلمنى إلى عملى تقربنى من الشر وتباعدننى من الخير، وإنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعله لى عندك عهداً تؤديه إلى يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرنى، ومن سرنى فقد اتخذ عند الرحمن عهداً، ومن اتخذ عند الرحمن عهداً فلا تمسه النار، إن الله لا يخلف الميعاد ». وأخرج الطبراني فى الأوسط عن أبى هريرة ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئاً جاء وله عند الله عهد ألا يعذبه ، ومن جاء قد انتقص منهن شيئاً فليس له عند الله عهد، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه » (١).

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لقد جئتم شيئاً إدا ﴾ قال : قولاً عظيماً، وفى قوله : ﴿ يكاد السموات ﴾ قال : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت تزول منه لعظمة الله سبحانه ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك يرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وفى قوله : ﴿ وتخر الجبال هدا ﴾ قال : هدماً. وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة، وأحمد فى الزهد، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة، والطبراني والبيهقي فى الشعب من طريق عون عن ابن مسعود قال : إن الجبل لينادى الجبل باسمه ، يا فلان ، هل مر بك اليوم أحد ذكر الله ؟ فإذا قال : نعم ، استبشر . قال عون : أفيسمعن الزور إذا قيل ولا يسمعن الخير؟ هن للخير أسمع ، وقرأ : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ﴾ الآيات .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قُرُونٍ هَلْ تَحْسُبُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾ .

(١) قال الهيثمى فى المجمع ١/ ٢٩٧، ٢٩٨ : « رواه الطبراني فى الأوسط وقال : لم يروه عن محمد بن عمرو إلا عيسى بن واقد ، قلت : ولم أجد من ذكره »، والحديث عن عائشة .

ذكر سبحانه من أحوال المؤمنين بعض ما خصهم به بعد ذكره لقبايح الكافرين فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدًا ﴾ أى حبًا فى قلوب عباده، يجعله لهم من دون أن يطلبوه بالأسباب التى توجب ذلك، كما يقذف فى قلوب أعدائهم الرعب ، والسين فى : ﴿ سَيَجْعَلُ ﴾ للدلالة على أن ذلك لم يكن من قبل وأنه مجعول من بعد نزول الآية .
وقرئ : « وِدًا » بكسر الواو، والجمهور من السبعة وغيرهم على الضم . ثم ذكر سبحانه تعظيم القرآن خصوصاً هذه السورة لاشتمالها على التوحيد والنبوة، وبيان حال المعاندين فقال : ﴿ فَإِنَّمَا يَسِرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ أى يسرنا القرآن بإنزالنا له على لفتك، وفصلناه وسهلناه، والباء بمعنى على، والفاء لتعليل كلام ينساق إليه النظم كأنه قيل: بلغ هذا المنزل أو بشر به أو أنذر ﴿ فَإِنَّمَا يَسِرْنَاهُ ﴾ الآية . ثم علل ما ذكره من التيسير فقال : ﴿ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى المتلبسين بالتقوى ، المتصفين بها ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴾ اللد : جمع الألد ، وهو الشديد الخصومة، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَدُ الْخِصَامِ ﴾ [البقرة : ٢٠٤] قال الشاعر :

أبيت نحيًا للهموم كأننى أخاصم أقوامًا ذوى جدل لدًا

وقال أبو عبيدة : الألد الذى لا يقبل الحق ويدعى الباطل . وقيل : اللد : الصم . وقيل : الظلمة . ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أى من أمة وجماعة من الناس، وفى هذا وعد لرسول الله ﷺ بهلاك الكافرين ووعد لهم ﴿ هَلْ تَحَسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ هذه الجملة مقررمة لمضمون ما قبلها، أى هل تشعر بأحد منهم أو تراه ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ الرکز : الصوت الخفى، ومنه ركز الرمح : إذا غيب طرفه فى الأرض . قال طرفة :

وصادفتها سمع التوجس للسرى لركز خفى أو لصوت مفند

وقال ذو الرمة :

إذا توجس ركزًا مقفر ندس نبأة الصوت ما فى سمعه كذب

أى فى استماعه كذب بل هو صادق الاستماع، والندس : الحاذق ، والنبأة : الصوت الخفى .

وقال اليزيدى وأبو عبيدة : الرکز : ما لا يفهم من صوت أو حركة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف ؛ أنه لما هاجر إلى المدينة وجد فى نفسه على فراق أصحابه بمكة منهم شية بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأميه بن خلف، فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الآية ^(١) . قال ابن كثير : وهو خطأ، فإن السورة مكية بكمالها لم ينزل شىء منها بعد الهجرة ولم يصح سند ذلك . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت فى على بن أبى طالب : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

(١) ابن جرير ١٦/١٠١ .

وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴿١﴾ قال : محبة فى قلوب المؤمنين ^(١) . وأخرج ابن - مردويه والديلمى عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ لعلى : « قل : اللهم اجعل لى عندك عهداً ، واجعل لى عندك وداً ، واجعل لى فى صدور المؤمنين مودة » ، فأنزل الله الآية فى على ^(٢) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس ﴿ ودا ﴾ قال : محبة فى الناس فى الدنيا . وأخرج الحكيم الترمذى وابن مردويه عن على قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ ما هو ؟ قال : « المحبة الصادقة فى صدور المؤمنين » . وثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إنى قد أحببت فلاناً فأحبه ، فينادى فى السماء ، ثم ينزل له المحبة فى أهل الأرض فذلك قوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل إنى قد أبغضت فلاناً ، فينادى فى أهل السماء ، ثم ينزل له البغضاء فى الأرض » ^(٣) . والأحاديث والآثار فى هذا الباب كثيرة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وتذريه قوماً لدا ﴾ قال : فجاراً . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال : صمًا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ هل تحس منهم من أحد ﴾ قال : هل ترى منهم من أحد . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ركزا ﴾ قال : صوتاً .

(١) الطبرانى (١٢٦٥٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٥٨/٧ ، ٥٩ : « فيه بشر بن عمارة وهو ضعيف » .

(٢) الديلمى (١٩٣٢) .

(٣) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٩) ومسلم فى البر والصلة (١٥٧/٢٦٣٧) والترمذى فى التفسير (٣١٦١) وقال :

«حديث حسن صحيح» .

تفسير سورة طه

هى مكية . وآياتها مائة وخمسة وثلاثون آية . قال القرطبي : مكية فى قول الجميع . وأخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة طه بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج الدارمي ، وابن خزيمة فى التوحيد ، والعقيلي فى الضعفاء ، والطبراني فى الأوسط ، وابن عدى وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام ، فلما سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة ينزل عليها هذا ، وطوبى لأجواف تحمل هذا ، وطوبى لالسنه تكلمت بهذا » (١) . قال ابن خزيمة بعد إخراجه : حديث غريب ، وفيه نكارة ، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما ، يعنى إبراهيم بن مهاجر بن مسمار ، وشيخه عمر بن حفص بن ذكوان وهما من رجال إسناده . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت السورة التى ذكرت فيها الأنعام من الذكر الأول ، وأعطيت سورة طه والطواسين من ألواح موسى ، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم البقرة من تحت العرش ، وأعطيت المفصل نافلة » . وأخرج ابن مردويه عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال : « كل قرآن يوضع عن أهل الجنة فلا يقرؤون منه شيئا إلا سورة طه ويس ، فإنهم يقرؤون بهما فى الجنة » . وأخرج الدارقطنى فى سننه عن أنس بن مالك ، فذكر قصة عمر بن الخطاب مع أخته وخباب وقراءتهما طه ، وكان ذلك سبب إسلام عمر ، والقصة مشهورة فى كتب السير (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه ١ ﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ

(١) الدارمي ٢/ ٤٥٦ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٩ : « رواه الطبراني فى الأوسط وفيه إبراهيم بن مهاجر بن مسمار وضعفه البخارى بهذا الحديث ووثقه ابن معين » والبيهقى فى الشعب (٢٢٢٥) وإسناده ضعيف .

(٢) سيرة ابن هشام ٣٦٩ - ٣٧٦ .

أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦) ﴿

قوله : ﴿ طه ﴾ قرأ بإمالة الهاء وفتح الطاء أبو عمرو وابن أبي إسحاق ، وأمالهما جميعاً أبو بكر وحزمة والكسائي والأعمش . وقراهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وقرأ الباقر بالتفخيم . قال الثعلبي : وهى كلها لغات صحيحة فصيحة . وقال النحاس : لا وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لعلتين : الأولى : أنه ليس هاهنا ياء ولا كسرة حتى تكون الإمالة . والعلة الثانية : أن الطاء من موانع الإمالة .

وقد اختلف أهل العلم فى معنى هذه الكلمة على أقوال : الأول : أنها من المتشابه الذى لا يفهم المراد به . والثانى : أنها بمعنى : يا رجل فى لغة عكل ، وفى لغة عك . قال الكلبي : لو قلت لرجل من عك : يا رجل ، لم يجب حتى تقول : طه ، وأنشد ابن جرير فى ذلك :

دعوت بظه فى القتال فلم يجب فخفت عليه أن يكون موائلاً

ويروى مزايلاً . وقيل : إنها فى لغة عكّ بمعنى : يا حبيبي . وقال قطرب : هى كذلك فى لغة طىّ أى بمعنى : يا رجل ، وكذلك قال الحسن وعكرمة . وقيل : هى كذلك فى اللغة السريانية ، حكاه المهدوى . وحكى ابن جرير أنها كذلك فى اللغة النبطية ، وبه قال السدى وسعيد بن جبير . وحكى الثعلبي : عن عكرمة أنها كذلك فى لغة الحبشة ، ورواه عن عكرمة ، ولا مانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك المعنى فى تلك اللغات كلها إذا صح النقل . القول الثالث : أنها اسم من أسماء الله سبحانه . والقول الرابع : أنها اسم للنبي ﷺ . القول الخامس : أنها اسم للسورة . القول السادس : أنها حروف مقطعة يدل كل واحد منها على معنى . ثم اختلفوا فى هذه المعانى التى تدل عليها هذه الحروف على أقوال كلها متكلفة متعسفة . القول السابع : أن معناها : طوبى لمن اهتدى . القول الثامن : أن معناها طأ الأرض يا محمد . قال ابن الأنبارى : وذلك أن النبي ﷺ كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماء تتورم ويحتاج إلى التروح ، فقليل له : طأ الأرض ، أى لا تتعب حتى تحتاج إلى التروح . وحكى القاضى عياض فى الشفاء عن الربيع بن أنس قال : كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى ، فأنزل الله : ﴿ طه ﴾ يعنى : طأ الأرض يا محمد ، وحكى عن الحسن البصرى أنه قرأ : «طه» على وزن دع ، أمر بالوطء ، والأصل : طأ ، فقلبت الهمزة هاء . وقد حكى الواحدى عن أكثر المفسرين أن هذه الكلمة معناها : يا رجل ، يريد النبي ﷺ ، قال : وهو قول الحسن وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة ومجاهد وابن عباس فى رواية عطاء والكلبي غير أن بعضهم يقول : هى بلسان الحبشة والنبطية والسريانية ، ويقول الكلبي : هى بلغة عك . قال ابن الأنبارى : ولغة قريش وافقت تلك اللغة فى هذا المعنى ؛ لأن الله سبحانه لم يخاطب نبيه بلسان غير قريش . انتهى .

وإذا تقرر أنها لهذا المعنى فى لغة من لغات العرب كانت ظاهرة المعنى واضحة الدلالة خارجة عن فواتح السور التى قدّمنا بيان كونها من المتشابه فى فاتحة سورة البقرة ، وهكذا إذا كانت لهذا المعنى فى لغة من لغات العجم واستعملتها العرب فى كلامها فى ذلك المعنى كسائر الكلمات العجمية التى استعملتها العرب الموجودة فى الكتاب العزيز ، فإنها صارت بذلك الاستعمال من لغة العرب .

وجملة : ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب ، والشقاء يجيء فى معنى التعب . قال ابن كيسان : وأصل الشقاء فى اللغة : العناء والتعب ، ومنه قول الشاعر :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

والمعنى : ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا ، فهو كقوله سبحانه : ﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ [الكهف : ٦] . قال النحاس : بعض النحويين يقول : هذه اللام فى : ﴿ لتشقى ﴾ لام النفى ، وبعضهم يقول : لام الجحود . وقال ابن كيسان : هى لام الخفض ، وهذا التفسير للآية هو على قول من قال : إن طه كسائر فواتح السور التى ذكرت تعديداً لأسماء الحروف ، وإن جعلت اسماً للسورة كان قوله : ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ خبراً عنها ، وهى فى موضع المبتدأ ، وأما على قول من قال : إن معناها : يا رجل ، أو بمعنى الأمر بوطء الأرض ، فتكون الجملة مستأنفة لصرفه ﷺ عما كان عليه من المبالغة فى العبادة .

وانتصاب ﴿ إلا تذكرة ﴾ على أنه مفعول له لأنزلنا ، كقولك : ما ضربتك للتأديب إلا إشفافاً عليك . وقال الزجاج : هو بدل من لتشقى ، أى ما أنزلناه إلا تذكرة . وأنكره أبو على الفارسى من جهة أن التذكرة ليست بشقاء ، قال : وإنما هو منصوب على المصدرية ، أى أنزلناه لتذكر به تذكرة ، أو على المفعول من أجله ، أى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به ، ما أنزلناه إلا للتذكرة .

وانتصاب ﴿ تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى ﴾ على المصدرية ، أى أنزلناه تنزيلاً . وقيل : بدل من قوله : ﴿ تذكرة ﴾ . وقيل : هو منصوب على المدح . وقيل : منصوب بـ ﴿ يخشى ﴾ أى يخشى تنزيلاً من الله على أنه مفعول به . وقيل : منصوب على الحال بتأويله باسم الفاعل . وقرأ أبو حيو الشامي : « تنزيل » بالرفع على معنى هذا تنزيل ، و﴿ ممن خلق ﴾ متعلق بـ ﴿ تنزيلاً ﴾ ، أو بمحذوف هو صفة له ، وتخصيص خلق الأرض والسماوات ؛ لكونهما أعظم ما يشاهده العباد من مخلوقاته عز وجل ، والعلی : جمع العليا ، أى المرتفعة كجمع كبرى وصغرى على كبر وصغر . ومعنى الآية : إخبار العباد عن كمال عظمته سبحانه وعظيم جلاله .

وارتفاع ﴿ الرحمن ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف كما قال الأخفش ، ويجوز أن يكون مرتفعاً على المدح أو على الابتداء . وقرئ بالجر ، قال الزجاج : على البدل عن ، وجوز النحاس أن يكون مرتفعاً على البدل من المضمر في خلق ، وجملة : ﴿ على العرش استوى ﴾ في محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف ، أو على أنها خبر الرحمن عند من جعله مبتدأ . قال أحمد بن يحيى ثعلب : الاستواء : الإقبال على الشيء ، وكذا قال الزجاج والفراء . وقيل : هو كناية عن الملك والسلطان ، والبحث في تحقيق هذا يطول ، وقد تقدم البحث عنه في الأعراف . والذي ذهب إليه أبو الحسن الأشعري : أنه سبحانه مستو على عرشه بغير حد ولا كيف ، وإلى هذا القول سبقه الجماهير من السلف الصالح الذي يبرون الصفات كما وردت من دون تحريف ولا تأويل .

﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أى أنه مالك كل شيء ومدبره ﴿ وما بينهما ﴾ من الموجودات ﴿ وما تحت الثرى ﴾ الثرى فى اللغة : التراب الندى ، أى ما تحت التراب من شيء . قال الواحدى : والمفسرون يقولون : إنه سبحانه أراد الثرى الذى تحت الصخرة التى عليها الثور الذى تحت الأرض ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله سبحانه . ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ الجهر بالقول : هو رفع الصوت به ، والسر : ما حدث به الإنسان غيره وأسرّه إليه ، والأخفى من السر : هو ما حدث به الإنسان نفسه وأخطره بباله . والمعنى : إن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غنى عن ذلك ، فإنه يعلم السر وما هو أخفى من السر ، فلا حاجة لك إلى الجهر بالقول ، وفى هذا معنى النهى عن الجهر ، كقوله سبحانه : ﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] . وقيل : السر : ما أسر الإنسان فى نفسه ، والأخفى منه : هو ما خفى على ابن آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه . وقيل : السر : ما أضمره الإنسان فى نفسه ، والأخفى منه : ما لم يكن ولا أضمره أحد . وقيل السر : سر الخلائق ، والأخفى منه : سر الله عز وجل ، وأنكر ذلك ابن جرير وقال : إن الأخفى : ما ليس فى سر الإنسان وسيكون فى نفسه .

ثم ذكر أن الموصوف بالعبادة على الوجه المذكور هو الله سبحانه المنزه عن الشريك المستحق لتسميته بالأسماء الحسنى ، فقال : ﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ فالله خبر مبتدأ محذوف ، أى الموصوف بهذه الصفات الكمالية الله ، وجملة : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ مستأنفة لبيان اختصاص الإلهية به سبحانه ، أى لا إله فى الوجود إلا هو ، وهكذا جملة : ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ مبينة لاستحقاقه تعالى للأسماء الحسنى ، وهى التسعة والتسعون التى ورد بها الحديث الصحيح . وقد تقدم بيانها فى قوله سبحانه : ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ من سورة الأعراف [الآية : ١٨٠] . والحسنى تأنيث الأحسن ، والأسماء مبتدأ وخبرها الحسنى . ويجوز أن يكون الله مبتدأ وخبره الجملة التى بعده ، ويجوز أن يكون بدلاً من الضمير فى يعلم .

ثم قرّر سبحانه أمر التوحيد بذكر قصة موسى المشتملة على القدرة الباهرة، والخبر الغريب، فقال : ﴿ وهل أتاك حديث موسى ﴾ الاستفهام للتقرير ، ومعناه : أليس قد أتاك حديث موسى . وقيل : معناه : قد أتاك حديث موسى . وقال الكلبي : لم يكن قد أتاه حديث موسى إذ ذاك . وفى سياق هذه القصة تسليية للنبي ﷺ لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوة ، وتحمل أثقالها ومقاساة خطوبها ، وأن ذلك شأن الأنبياء قبله . والمراد بالحديث : القصة الواقعة لموسى ، ﴿ إذ رأى نارا ﴾ ظرف للحديث . وقيل : العامل فيه مقدر ، أى اذكر . وقيل : يقدر مؤخراً ، أى حين رأى نارا كان كيت وكيت ، وكانت رؤيته للنار فى ليلة مظلمة لما خرج مسافراً إلى أمه بعد استئذانه لشعيب ، فلما رآها ﴿ قال لأهله امكثوا ﴾ والمراد بالأهل هنا : امرأته ، والجمع لظاهر لفظ الأهل أو للتفخيم . وقيل : المراد بهم : المرأة والولد والخادم ، ومعنى ﴿ امكثوا ﴾ : أقيموا مكانكم ، وعبر بالملكث دون الإقامة ؛ لأن الإقامة تقتضى الدوام ، والملكث ليس كذلك . وقرأ حمزة : « لأهله » بضم الهاء ، وكذا فى القصص . قال النحاس : وهذا على لغة من قال : مررت بهو يا رجل ، فجاء به على الأصل وهو جائز ، إلا أن حمزة خالف أصله فى هذين الموضعين خاصة .

﴿ إني آنست نارا ﴾ أى أبصرت ، يقال : آنست الصوت : سمعته ، وآنست الرجل : أبصرته . وقيل : الإيناس : الإبصار البين . وقيل : الإيناس مختص بإبصار ما يؤنس . والجملة تعليل للأمر بالملكث ، ولما كان الإتيان بالقبس ، ووجود الهدى متوقعين بنى الأمر على الرجاء ، فقال : ﴿ لعلى آتيكم منها بقبس ﴾ أى أجيئكم من النار بقبس . والقبس : شعلة من النار ، وكذا المقباس ، يقال : قبست منه أقبس نارا قبساً فأقبسنى ، أى أعطانى وكذا اقتبست . قال اليزيدى : أقبست الرجل علماً وقبسته نارا ، فإن كنت طلبتها له قلت : أقبسته . وقال الكسائى : أقبسته نارا وعلماً سواء ، قال : وقبسته أيضاً فيهما . ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ أى هادياً يهدينى إلى الطريق ويدلنى عليها . قال الفراء : أراد هادياً ، فذكره بلفظ المصدر ، أو عبر بالمصدر ؛ لقصد المبالغة على حذف المضاف ، أى ذا هدى ، وكلمة : « أو » فى الموضعين لمنع الخلو دون الجمع ، وحرف الاستعلاء للدلالة على أن أهل النار مستعلون على أقرب مكان إليها .

﴿ فلما أتاه نودى ﴾ أى فلما أتى النار التى آنسها ﴿ نودى ﴾ من الشجرة ، كما هو مصرّح بذلك فى سورة القصص ، أى من جهتها ، ومن ناحيتها ﴿ يا موسى . إني أنا ربك ﴾ أى نودى ، فقيل : يا موسى . وقرأ أبو عمرو وابن كثير وأبوجعفر وابن محيصن وحميد واليزيدى : « أنى » بفتح الهمزة ، وقرأ الباقر بكسرهما ، أى بأنى . ﴿ فاخلع نعليك ﴾ أمره الله سبحانه بخلع نعليه ؛ لأن ذلك أبلغ فى التواضع ، وأقرب إلى التشريف والتكريم وحسن التأدب . وقيل : إنهما كانا من جلد حمار غير مدبوغ . وقيل : معنى الخلع للنعلين : تفرغ القلب من الأهل والمال ، وهو من بدع التفاسير ، ثم علل سبحانه الأمر بالخلع فقال ، ﴿ إنك

بالوَادِ المقدس طوى ﴿ المقدس : المطهر . والقدس : الطهارة . والأَرْضُ المقدسة : المطهرة . سميت بذلك ؛ لأن الله أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين ، و ﴿ طوى ﴾ اسم للوَادِ . قال الجوهري : وطوى : اسم موضع بالشام يكسر طأؤه ويضم ، يصرف ولا يصرف ، فمن صرفه جعله اسم وادٍ ومكان وجعله نكرة ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة ، وقرأ عكرمة : « طوى » بكسر الطاء ، وقرأ الباقون بضمها . وقيل : إن طوى كثنى من الطى مصدر لنودى ، أو للمقدس ، أى نودى نداءين ، أو قدس مرة بعد أخرى .

﴿ وأنا اخترتك ﴾ قرأ أهل المدينة ، وأهل مكة وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائي : ﴿ وأنا اخترتك ﴾ بالافراد . وقرأ حمزة : « وأنا اخترناك » بالجمع . قال النحاس : والقراءة الأولى أولى من جهتين : إحداهما : أنها أشبه بالخط ، والثانية : أنها أولى بنسق الكلام لقوله : ﴿ يا موسى إني أنا ربك ﴾ ومعنى ﴿ اخترتك ﴾ : اصطفتك للنبوة والرسالة ، والفاء فى قوله : ﴿ فاستمع لما يوحى ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها و « ما » موصولة أو مصدرية ، أى فاستمع للذى يوحى إليك ، أو للوحى ، وجملة : ﴿ إني أنا الله ﴾ بدل من ما فى : ﴿ لما يوحى ﴾ . ثم أمره سبحانه بالعبادة ، فقال : ﴿ فاعبدنى ﴾ والفاء هنا كالفاء التى قبلها ؛ لأن اختصاص الإلهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبادة ، ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾ خص الصلاة بالذكر مع كونها داخلة تحت الأمر بالعبادة ؛ لكونها أشرف طاعة وأفضل عبادة ، وعلل الأمر بإقامة الصلاة لقوله : ﴿ للذكرى ﴾ أى لتذكرنى فإن الذكر الكامل لا يتحقق إلا فى ضمن العبادة والصلاة ، أو المعنى : لتذكرنى فيهما لاشتمالهما على الأذكار ، أو المعنى : أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة . وقيل : المعنى : لأذكرك بالمدح فى عليين ، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول .

وجملة : ﴿ إن الساعة آتية ﴾ تعليل ما قبلها من الأمر ، أى إن الساعة التى هى وقت الحساب والعقاب آتية ، فاعمل الخير من عبادة الله والصلاة .

ومعنى ﴿ أكاد أخفيها ﴾ : مختلف فيه . قال الواحدى : قال أكثر المفسرين : أخفيها من نفسى ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة . وقال المبرد وقطرب : هذا على عادة مخاطبة العرب يقولون إذا بالغوا فى كتمان الشيء : كتمته حتى من نفسى ، أى لم أطلع عليه أحداً ؛ ومعنى الآية : أن الله بالغ فى إخفاء الساعة ، فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب . وقد روى عن سعيد بن جبير أنه قرأ : « أخفيها » بفتح الهمزة ، ومعناه : أظهرها . وكذا روى أبو عبيد عن الكسائي عن محمد بن سهل عن وقاء بن إياس عن سعيد بن جبير . قال النحاس : وليس لهذه الرواية طريق غير هذا . قال القرطبي : وكذا رواه ابن الأنبارى فى كتاب الردّ قال : حدثنى أبى ، حدثنا محمد بن الجهم ، حدثنا الفراء حدثنا الكسائي فذكره . قال النحاس : وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطان عن الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير أنه قرأ : ﴿ أخفيها ﴾ بضم الهمزة . قال ابن الأنبارى : قال الفراء : ومعنى قراءة الفتح :

أكاد أظهرها ، من خفيت الشيء : إذا أظهرته أخفيه . قال القرطبي : وقد قال بعض اللغويين : يجوز أن يكون : ﴿ أخفيها ﴾ بضم الالف معناه : أظهرها ؛ لأنه يقال : خفيت الشيء وأخفيت من حروف الأضداد يقع على الستر والإظهار . قال أبو عبيدة : خفيت وأخفيت بمعنى واحد . قال النحاس : وهذا حسن ، وقد أنشد الفراء وسيبويه ما يدل على أن معنى أخفاه أظهر ، وذلك قول امرئ القيس :

فإن تكتموا الداء لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

أى وإن تكتموا الداء لا نظهره . وقد حكى أبو عبيدة عن أبى الخطاب أنه بضم النون من نخفه ، وقال امرؤ القيس :

خفاهن من أنفاقهن كأنما خفاهن ودق من عشى مُجَلَّب

أى أظهرهن . وقد زيف النحاس هذا القول وقال : ليس المعنى : على أظهرها ، ولا سيما و« أخفيها » قراءة شاذة ، فكيف تردّ القراءة الصحيحة الشائعة . وقال ابن الأنباري : فى الآية تفسير آخر ، وهو أن الكلام ينقطع على : ﴿ أكاد ﴾ وبعده مضمر ، أى أكاد آتى بها ، ووقع الابتداء بأخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، ومثله قول عمير بن ضابئ البرجمي (١) :

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى تركت على عثمان تبكى حلاله

أى وكدت أفعل . واختار هذا النحاس . وقال أبو على الفارسي : هو من باب السلب وليس من الأضداد ، ومعنى أخفيها : أزيل عنها خفاءها ، وهو سترها ، ومن هذا قولهم : أشكيت ، أى أزلت شكواه . وحكى أبو حاتم عن الأخفش أن ﴿ أكاد ﴾ زائدة للتأكيد ، قال : ومثله : ﴿ إذا أخرج يده لم يكذبها ﴾ [النور : ٤٠] ، ومثله قول الشاعر :

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه فما إن يكاد قرنه يتنفس

قال : والمعنى : أكاد أخفيها ؛ أى أقارب ذلك ، لأنك إذا قلت : كاد زيد يقوم ، جاز أن يكون قام وأن يكون لم يقم ، ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه الآية على هذا . وقوله : ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ متعلق بآية ، أو بأخفيها ، و« ما » مصدرية ، أى لتجزى كل نفس بسعيها . والسعى وإن كان ظاهراً فى الأفعال ، فهو هنا يعم الأفعال والتروك ؛ للمقطع بأن تارك ما يجب عليه معاقب بتركه مأخوذ به . ﴿ فلا يصدنك عنها ﴾ أى لا يصرفنك عن الإيمان بالساعة ، والتصديق بها ، أو عن ذكرها ومراقبتها ﴿ من لا يؤمن بها ﴾ من الكفرة ، وهذا النهى وإن كان للكافر بحسب الظاهر ، فهو فى الحقيقة نهى له ﷺ عن الانصداد ، أو عن إظهار اللين للكافرين فهو من باب : لا أرينك ها هنا ، كما هو معروف . وقيل : الضمير فى : ﴿ عنها ﴾ للصلاة وهو بعيد ، وقوله : ﴿ واتبع هواه ﴾ معطوف على ما قبله ، أى من لا يؤمن ، ومن اتبع هواه : أى هوى نفسه بالانهماك فى اللذات الحسية الفانية ﴿ فتردى ﴾ أى

(١) هذا خطأ ، فالبيت لأبيه ضابئ بلا خلاف .

فتهلك ؛ لأن انصدادك عنها بصدّ الكفارين لك مستلزم للهلاك ومستتبع له .

وقد أخرج ابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، وابن عساكر عن ابن عباس ؛ أن النبى ﷺ : أول ما نزل عليه الوحى كان يقوم على صدر قدميه إذا صلى ، فأنزل الله : ﴿ طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ ^(١) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال : قالوا : لقد شقى هذا الرجل بربه ، فأنزل الله هذه الآية ^(٢) . وأخرج ابن عساكر عنه أيضاً قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يربط نفسه بحبل لثلا ينام ، فأنزل الله هذه الآية . وأخرج البزار عن على قال : كان النبى ﷺ يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل حتى نزلت : ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ وحسن السيوطى إسناده . وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً بأطول منه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : إن رسول الله ﷺ ربما قرأ القرآن إذا صلى ، فقام على رجل واحدة ، فأنزل الله : ﴿ طه ﴾ برجليك فما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ طه ﴾ قال : يا رجل . وأخرج الحارث ابن أبى أسامة وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ طه ﴾ بالنبطية ، أى طأ يا رجل . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضاً قال : هو كقولك : اقعد . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال : ﴿ طه ﴾ بالنبطية : يا رجل . وأخرج ابن جرير عنه قال : ﴿ طه ﴾ : يا رجل بالسريانية . وأخرج الحاكم عنه أيضاً قال : ﴿ طه ﴾ هو كقولك : يا محمد بلسان الحبش . وفى هذه الروايات عن ابن عباس اختلاف وتدافع . وأخرج ابن مردويه عن أبى الطفيل قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لى عند ربى عشرة أسماء » ، قال أبو الطفيل : حفظت منها ثمانية : محمد ، وأحمد ، وأبو القاسم ، والفتاح ، والخاتم ، والمأحى ، والعاقب ، والحاشر . وزعم سيف أن أبا جعفر قال له : الاسمان الباقيان طه ويس . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ قال : يا رجل ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وكان يقوم الليل على رجله فهى لغة لعك إن قلت لعكى : يا رجل ، لم يلتفت ، وإذا قلت : طه ، التفت إليك . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : ﴿ طه ﴾ قسم أقسم الله به ، وهو من أسمائه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وما تحت الثرى ﴾ قال : الثرى : كل شئ مبتل . وأخرج أبو يعلى عن جابر أن النبى ﷺ سئل ما تحت هذه الأرض ؟ قال « الماء » قيل : فما تحت الماء ؟ قال : « ظلمة » قيل : فما تحت الظلمة ؟ قال : « الهواء » قيل : فما تحت الهواء ؟ قال : « الثرى » قيل : فما تحت الثرى ؟ قال : « انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق » . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ قال : السر :

(١) البيهقى فى الشعب (١٤١٦) وإسناده ضعيف ؛ لضعف محمد بن زياد الشكرى .

(٢) ابن جرير ١٦ / ١٠٢ .

ما أسره ابن آدم في نفسه ، وأخفى : ما خفى عن ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعمل ، فإنه يعلم ذلك كله فيما مضى من ذلك وما بقى علم واحد وجميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة وهو كقوله : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ [لقمان : ٢٨] . وأخرج الحاكم وصححه عنه في الآية قال : السرّ : ما علمته أنت ، وأخفى : ما قذف الله في قلبك مما لم تعلمه . وأخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وأبو الشيخ في العظمة ، والبيهقي بلفظ : يعلم ما سرّ في نفسك ويعلم ما تعمل غداً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ يقول : من يدل على الطريق . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عليّ في قوله : ﴿ فاخلع نعليك ﴾ قال : كانتا من جلد حمار ميت فقيل له : اخلعهما . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ إنك بالواد المقدس ﴾ قال المبارك ﴿ طوى ﴾ قال : اسم الوادى . وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿ بالواد المقدس طوى ﴾ يعنى : الأرض المقدسة ، وذلك أنه مرّ بواديهما ليلاً فطوى : يقال : طويت وادى كذا وكذا . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله : ﴿ طوى ﴾ قال : طأ الوادى .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : ﴿ أقم الصلاة لذكرى ﴾ » (١) . وأخرج الترمذى وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : ﴿ أقم الصلاة لذكرى ﴾ » (٢) وكان ابن شهاب يقرؤها : « للذكرى » . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أكاد أخفيها ﴾ قال : لا أظهر عليها أحداً غيرى . وأخرج سعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ أكاد أخفيها ﴾ من نفسى .

﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي

(١) البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٩٧) ومسلم فى المساجد (٦٨٤ / ٣١٦) وأحمد ٣ / ١٨٤ .

(٢) الترمذى فى تفسير القرآن (٣١٦٣) بمعناه ، وابن ماجه فى الصلاة (٦٩٧) وابن حبان (٢٦٤٢ ، ٢٦٤٣)

وَزَيْرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴿

قوله : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ قال الزجاج والفراء : إن ﴿ تلك ﴾ اسم ناقص وصلت ﴿ بيمينك ﴾ أى ما التى بيمينك ؟ وروى عن الفراء أنه قال : تلك بمعنى هذه ، ولو قال : ما ذلك لجاز ، أى ما ذلك الشيء ؟ وبالأول قال الكوفيون . قال الزجاج : ومعنى سؤال موسى عما فى يده من العصا التنبيه له عليها لتقع المعجزة بها بعد التثبيت فيها والتأمل لها . قال الفراء : ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى : هى عصاى لتثبيت الحجة عليه بعد ما اعترف ، وإلا فقد علم الله ما هى فى الأزل ، ومحل : « ما » الرفع على الابتداء ، و﴿ تلك ﴾ خبره ، و﴿ بيمينك ﴾ فى محل نصب على الحال إن كانت تلك اسم إشارة على ما هو ظاهر اللفظ ، وإن كانت اسماً موصولاً كان ﴿ بيمينك ﴾ صلة للموصول .

﴿ قال هى عصاى ﴾ قرأ ابن أبى إسحاق : « عصى » على لغة هذيل . وقرأ الحسن : « عصاى » بكسر الياء لالتقاء الساكنين . ﴿ أتوكأ عليها ﴾ أى اتحامل عليها فى المشى وأعتمدها عند الإعياء والوقوف ، ومنه الاتكاء . ﴿ وأهش بها على غنمى ﴾ هش بالعصا يهش هشاً : إذا خبط بها الشجر ليسقط منه الورق . قال الشاعر :

أهش بالعصا على أغنامى من ناعم الأراك والبشام

وقرأ النخعى : « أهس » بالسين المهملة ، وهو زجر الغنم ، وكذا قرأ عكرمة . وقيل : هما لغتان لمعنى واحد ﴿ ولى فيها مآرب أخرى ﴾ أى حوائج ، واحدها مآربة ومأربة ومأربة مثلث الراء ، كذا قال ابن الأعرابى وقطرب ، ذكر تفصيل منافع العصا ، ثم عقبه بالإجمال .

وقد تعرض قوم لتعداد منافع العصى ، فذكروا من ذلك أشياء منها قول بعض العرب : عصاى أركزها لصلاتى ، وأعددها لعداتى ، وأسوق بها دابتى ، وأقوى بها على سفرى ، وأعتمد بها فى مشيتى ، ليتسع خطوى ، وأثب بها النهر ، وتؤمننى العثر ، وألقى عليها كسائى ، فتقننى الحرّ ، وتدفينى من القرّ ، وتدنى إلىّ ما بعد منى ، وهى تحمل سفرتى ، وعلاقة إداوتى ، أعصى بها عند الضراب ، وأقرع بها الأبواب ، وأقى بها عقور الكلاب ، وتنوب عن الرمح فى الطعان ، وعن السيف عند منازلة الأقران ، ورثتها عن أبى وأورثها بعدى بنى . انتهى .

وقد وقفت على مصنف فى مجلد لطيف فى منافع العصا لبعض المتأخرين ، وذكر فيه أخباراً وأشعاراً وفوائد لطيفة ونكتاً رشيقة . وقد جمع الله سبحانه لموسى فى عصاه من البراهين العظام والآيات الجسام ما أمن به من كيد السحرة ومعرة المعاندين ، واتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته ، وكان ابن مسعود صاحب عصا النبى ﷺ وعزته ، وكان يخطب بالقضيب وكذلك الخلفاء من بعده ، وكان عادة العرب العرباء أخذ العصا والاعتماد عليها عند

الكلام ، وفى المحافل والخطب .

﴿ قال ألقها يا موسى ﴾ هذه جملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، أمره سبحانه بإلقائها ليريه ما جعل له فيها من المعجزة الظاهرة ﴿ فألقاها ﴾ موسى على الأرض ﴿ فإذا هي حية تسعى ﴾ وذلك بقلب الله سبحانه لأوصافها وأعراضها حتى صارت حية تسعى، أى تمشى بسرعة وخفة . قيل : كانت عصا ذات شعبتين فصار الشعبتان فما وبقاها جسم حية ، تنتقل من مكان إلى مكان وتلتقم الحجارة مع عظم جرمها وفضاعة منظرها ، فلما رآها كذلك خاف وفزع وولى مدبراً ولم يعقب ، فعند ذلك ﴿ قال ﴾ سبحانه : ﴿ خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ قال الأخفش والزجاج : التقدير : إلى سيرتها ، مثل : ﴿ واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف: ١٥٥] قال : ويجوز أن يكون مصدراً ؛ لأن معنى سنعيدها : سنسيرها ، ويجوز أن يكون المصدر بمعنى اسم الفاعل ، أى سائرة ، أو بمعنى اسم المفعول ، أى مسيرة . والمعنى : سنعيدها بعد أخذك لها إلى حالتها الأولى التى هى العصوية . قيل : إنه لما قيل له : ﴿ لا تخف ﴾ بلغ من عدم الخوف إلى أن كان يدخل يده فى فمها ويأخذ بلحيتها .

﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ قال الفراء والزجاج : جناح الإنسان : عضده ، وقال قطرب : جناح الإنسان : جنبه ، وعبر عن الجنب بالجناح ؛ لأنه فى محل الجناح ، وقيل : إلى بمعنى مع ، أى مع جناحك ، وجواب الأمر ﴿ تخرج بيضاء ﴾ أى تخرج يدك حال كونها بيضاء ، ومحل ﴿ من غير سوء ﴾ النصب على الحال ، أى كائنة من غير سوء . والسوء : العيب ، كنى به عن البرص ، أى تخرج بيضاء ساطعاً نورها تضيء بالليل والنهار كضوء الشمس من غير برص . وانتصاب ﴿ آية أخرى ﴾ على الحال أيضاً ، أى معجزة أخرى غير العصا . وقال الأخفش : إن آية منتصبة على أنها بدل من بيضاء . قال النحاس : وهو قول حسن . وقال الزجاج : المعنى : آتيك أو نؤتيك آية أخرى لأنه لما قال : ﴿ تخرج بيضاء ﴾ دل على أنه قد آتاه آية أخرى ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ قيل : والتقدير : فعلنا ذلك لنريك ، و﴿ من آياتنا ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا ، و﴿ الكبرى ﴾ معناها : العظمى ، وهو صفة لموصوف محذوف ، والتقدير : لنريك من آياتنا الآية الكبرى ، أى لنريك بهاتين الآيتين يعنى اليد والعصا بعض آياتنا الكبرى ، فلا يلزم أن تكون اليد هى الآية الكبرى وحدها حتى تكون أعظم من العصا ، فيرد على ذلك أنه لم يكن فى اليد إلا تغير اللون فقط بخلاف العصا ، فإن فيها مع تغير اللون الزيادة فى الحجم وخلق الحياة والقدرة على الأمور الخارقة .

ثم صرح سبحانه بالغرض المقصود من هذه المعجزات ، فقال : ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ وخصه بالذكر ؛ لأن قومه تبع له ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنه طغى ﴾ أى عصى وتكبر وكفر وتجبر وتجاوز الحد ، وجملة : ﴿ قال رب اشرح لى صدرى ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال ؟ ومعنى شرح الصدر : توسيعه ، تضرع عليه السلام إلى ربه وأظهر عجزه

بقوله : ﴿ ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ﴾ [الشعراء : ١٣] ومعنى تيسير الأمر : تسهيله .
 ﴿ واحلل عقدة من لسانى ﴾ يعنى العجمة التى كانت فيه من الجمرة التى ألقاها فى فيه وهو طفل ، أى أطلق عن لسانى العقدة التى فيه ، قيل : أذهب الله سبحانه تلك العقدة جميعها بدليل قوله : ﴿ قد أوتيت سؤللك يا موسى ﴾ وقيل : لم تذهب كلها ؛ لأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية ، بل سأل حل عقدة تمنع الإفهام بدليل قوله : ﴿ من لسانى ﴾ أى كائنة من عقد لسانى ، ويؤيد ذلك قوله : ﴿ هو أفصح منى لسانا ﴾ [القصص : ٣٤] ، وقوله حكاية عن فرعون : ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ [الزخرف : ٥٢] ، وجواب الأمر قوله : ﴿ يفقهوا قولى ﴾ أى يفهموا كلامى ، والفقه فى كلام العرب : الفهم ، ثم خص به علم الشريعة والعالم به فقيه ، قاله الجوهري .

﴿ واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى ﴾ الوزير : الموازر ، كالأكيل المواكل ؛ لأنه يحمل عن السلطان وزره ، أى ثقله . قال الزجاج : واشتقاقه فى اللغة من الوزر ، وهو الجبل الذى يعتصم به لينج من الهلكة . والوزير : الذى يعتمد الملك على رأيه فى الأمور ويلتجئ إليه . وقال الأصمعى : هو مشتق من الموازرة ، وهى المعاونة . وانتصاب ﴿ وزيرا ﴾ و﴿ هارون ﴾ على أنهما مفعولا اجعل ، وقيل : مفعولاه : لى وزيرا ، ويكون هارون عطف بيان للوزير ، والأول أظهر ، ويكون لى متعلقاً بمحذوف ، أى كائناً لى ، و﴿ من أهلى ﴾ صفة لـ ﴿ وزيرا ﴾ ، وأخى بدل من هارون . قرأ الجمهور : ﴿ اشدد ﴾ بهمزة وصل ، و﴿ أشركه ﴾ بهمزة قطع كلاهما على صيغة الدعاء ، أى يا رب أحكم به قوتى واجعله شريكى فى أمر الرسالة ، والأزر : القوة ، يقال : أزره ، أى قواه . وقيل : الظهر ، أى أشدد به ظهري . وقرأ ابن عامر ويحيى بن الحارث وأبو حيوة والحسن وعبد الله بن أبى إسحاق : « أشدد » بهمزة قطع « وأشركه » بضم الهمزة ، أى أشدد أنا به أزرى وأشركه أنا فى أمرى . قال النحاس : جعلوا الفعلين فى موضع جزم جواباً لقوله : ﴿ اجعل لى وزيرا ﴾ ، وقرأ بفتح الياء من : « أخى » ابن كثير وأبو عمرو .

﴿ كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ﴾ هذا التسييح والذكر هما الغاية من الدعاء المتقدم . والمراد التسييح هنا باللسان . وقيل : المراد به : الصلاة ، وانتصاب ﴿ كثيراً ﴾ فى الموضعين على أنه نعت مصدر محذوف ، أو لزمان محذوف ﴿ إنك كنت بنا بصيرا ﴾ البصير المبصر والبصير العالم بخفيات الأمور ، وهو المراد هنا ، أى إنك كنت بنا عالماً فى صغرنا فأحسن إلينا ، فأحسن إلينا أيضاً كذلك الآن .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى عصا موسى قال : أعطاه ملك من الملائكة إذ توجه إلى مدين فكانت تضىء له بالليل ، ويضرب بها الأرض فتخرج له النبات ، ويهش بها على غنمه ورق الشجر . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ وأهش بها على غنمى ﴾ قال : أضرب بها الشجر فيتساقط منه الورق على غنمى ، وقد روى

نحو هذا عن جماعة من السلف . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ولى فيها مآرب﴾ قال : حوائج . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى نحوه . وأخرج أيضاً عن قتادة قال : كانت تضىء له بالليل ، وكانت عصا آدم عليه السلام .

وأخرج أيضاً عن ابن عباس فى قوله : ﴿فألقاها فإذا هى حية تسعى﴾ قال : ولم تكن قبل ذلك حية فمرت بشجرة فأكلتها ، ومرت بصخرة فابتلعها ، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة فى جوفها فولى مدبراً ، فنودى أن يا موسى خذها ، فلم يأخذها ، ثم نودى الثانية : أن خذها ولا تخف ، فقبل له فى الثالثة : إنك من الأمنين فأخذها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ قال : حالتها الأولى . وأخرج عنه أيضاً : ﴿من غير سوء﴾ قال : من غير برص . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿واجعل لى وزيراً من أهلى . هارون أخى﴾ قال : كان أكبر من موسى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿وأشركه فى أمرى﴾ قال نبى هارون ساعتئذ حين نبى موسى .

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أَمَلِكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمَمِكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾

لما سأل موسى ربه سبحانه أن يشرح صدره وييسر له أمره ويحلل عقدة من لسانه ويجعل له وزيراً من أهله أخبره الله سبحانه بأنه قد أجاب ذلك الدعاء ، فقال : ﴿قد أوتيت سؤالك يا موسى﴾ أى أعطيت ما سألته ، والسؤل : المسؤول ، أى المطلوب ، كقولك : خبر بمعنى مخبور ، وزيادة قوله : ﴿يا موسى﴾ لتشريفه بالخطاب مع رعاية الفواصل ، وجمله : ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾ كلام مستأنف لتقوية قلب موسى بتذكيره نعم الله عليه ، والمن : الإحسان والإفضال ، والمعنى : ولقد أحسنا إليك مرة أخرى قبل هذه المرة ، وهى حفظ الله سبحانه له من شر الأعداء كما بينه سبحانه ها هنا ، وأخرى تأنيث آخر بمعنى غير .

﴿إذ أوحينا إلى أملك ما يوحى﴾ أى مننا ذلك الوقت وهو وقت الإيحاء ، فإذا ظرف للإيحاء ، والمراد بالإيحاء إليها : إما مجرد الإلهام لها ، أو فى النوم بأن أراها ذلك ، أو على

لسان نبي ، أو على لسان ملك ، لا على طريق النبوة كالوحي إلى مريم ، أو بإخبار الأنبياء المتقدمين بذلك وانتهى الخبر إليها ، والمراد بـ ﴿ ما يوحى ﴾ : ما سيأتى من الأمر لها ، أبهمه أولاً ، وفسره ثانياً ؛ تفخيماً لشأنه ، وجملة : ﴿ أن اقدفيه فى التابوت ﴾ مفسرة ؛ لأن الوحي فيه معنى القول ، أو مصدرية على تقدير بأن اقدفيه ، والقذف ها هنا : الطرح ، أى اطرchie فى التابوت وقد مرّ تفسير التابوت فى البقرة فى قصة طالوت ﴿ فاقدفيه فى اليم ﴾ أى اطرchie فى البحر ، واليم : البحر أو النهر الكبير . قال الفراء : هذا أمر وفيه المجازاة ، أى اقدفيه يلقه اليم بالساحل ، والأمر للبحر مبنى على تنزيله منزلة من يفهم ويميز ، لما كان إلقاؤه إياه بالساحل أمراً واجب الوقوع . والساحل : هو شط البحر ، سمي ساحلاً ؛ لأن الماء سحله ، قاله ابن دريد . والمراد هنا : ما يلى الساحل من البحر لا نفس الساحل ، والضمائر هذه كلها لموسى لا للتابوت ، وإن كان قد ألقى معه لكن المقصود هو موسى مع كون الضمائر قبل هذا وبعده له . وجملة : ﴿ يأخذه عدو لى وعدو له ﴾ جواب الأمر بالإلقاء ، والمراد بالعدو : فرعون ، فإن أم موسى لما ألقته فى البحر ، وهو النيل المعروف ، وكان يخرج منه نهر إلى دار فرعون ، فساقه الله فى ذلك النهر إلى داره ، فأخذ التابوت فوجد موسى فيه . وقيل : إن البحر ألقاه بالساحل فنظره فرعون فأمر من يأخذه . وقيل وجدته ابنة فرعون ، والأول أولى .

﴿ وألقيت عليك محبة منى ﴾ أى ألقى الله على موسى محبة كائنة منه تعالى فى قلوب عباده لا يراه أحد إلا أحبه . وقيل : جعل عليه مسحة من جمال لا يراه أحد من الناس إلا أحبه . وقال ابن جرير : المعنى : وألقيت عليك رحمتى . وقيل كلمة « من » متعلقة بـ ﴿ ألقيت ﴾ فيكون المعنى : ألقيت منى عليك محبة ، أى أحبيتك ، ومن أحبه الله أحبه الناس . ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ أى ولتربى وتغذى بمرأى منى ، يقال : صنع الرجل جاريته : إذا رباها ، وصنع فرسه : إذا داوم على علفه والقيام عليه ، وتفسير ﴿ على عيني ﴾ : بمرأى منى صحيح . قال النحاس : وذلك معروف فى اللغة ، ولكن لا يكون فى هذا تخصيص لموسى ، فإن جميع الأشياء بمرأى من الله . وقال أبو عبيدة وابن الأنبارى : إن المعنى : لتغذى على محبتى وإرادتى ، تقول : أتخذ الأشياء على عيني ، أى على محبتى . قال ابن الأنبارى : العين فى هذه الآية يقصد بها : قصد الإرادة والاختيار ، من قول العرب : غدا فلان على عيني ، أى على المحبة منى . قيل : واللام متعلقة بمحذوف ، أى فعلت ذلك لتصنع ، وقيل : متعلقة بـ ﴿ ألقيت ﴾ . وقيل : متعلقة بما بعده ، أى لتصنع على عيني قدرنا مشى أختك . وقرأ ابن القعقاع : « ولتصنع » بإسكان اللام على الأمر ، وقرأ أبو نهيك بفتح التاء . والمعنى : ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتي ، وعلى عين منى .

﴿ إذ تمشى أختك ﴾ ظرف لألقيت ، أو لتصنع ، ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ إذ أوحينا ﴾ وأخته اسمها مريم ﴿ فتقول هل أدلكم على من يكفله ﴾ وذلك أنها خرجت متعرّفة لخبره ، فوجدت فرعون وامراته آسية يطلبان له مرضعة ، فقالت لهما هذا القول ، أى هل أدلكم على من يضمه إلى نفسه ويربيه ؟ فقالا لها : ومن هو ؟ قالت : أمى ، فقالا : هل لها

لبن ؟ قالت : نعم لبن أخى هارون ، وكان هارون أكبر من موسى بسنة . وقيل : بأكثر ، فجاءت الأم فقبل ثديها ، وكان لا يقبل ثدى مرضعة غيرها ، وهذا هو معنى : ﴿ فرجعناك إلى أمك ﴾ وفى مصحف أبى : « فرددناك » والفاء فصيحة . ﴿ كى تقر عينها ﴾ قرأ ابن عامر فى رواية عبد الحميد عنه : « كى تقر » بكسر القاف ، وقرأ الباقون بفتحها . قال الجوهري : قررت به عيناً قرّة وقروراً ، ورجل قرير العين ، وقد قرّت عينه تقرّ وتقرّ ، نقيض سخنت ، والمراد بقرّة العين : السرور برجوع ولدها إليها بعد أن طرحته فى البحر وعظم عليها فراقه . ﴿ ولا تحزن ﴾ أى لا يحصل لها ما يكدر ذلك السرور من الحزن بسبب من الأسباب ، ولو أراد الحزن بالسبب الذى قرّت عينها بزواله لقدّم نفى الحزن على قرّة العين ، فيحمل هذا النفى للحزن على ما يحصل بسبب يطرأ بعد ذلك ، ويمكن أن يقال : إن الواو لما كانت لمطلق الجمع كان هذا الحمل غير متعين . وقيل : المعنى : ولا تحزن أنت يا موسى بفقد إشفاقها ، وهو تعسف .

﴿ وقتلت نفسا ﴾ المراد بالنفس هنا : نفس القبطى الذى وكزه موسى ف قضى عليه ، وكان قتله له خطأ . ﴿ فنجيناك من الغم ﴾ أى الغم الحاصل معك من قتله خوفاً من العقوبة الآخروية أو الدنيوية أو منهما جميعاً . وقيل : الغم هو : القتل بلغة قريش ، وما أبعد هذا . ﴿ وفتناك فتونا ﴾ الفتنة تكون بمعنى المحنة ، وبمعنى الأمر الشاق ، وكل ما يتلى به الإنسان . والفتون يجوز أن يكون مصدراً كالشور والشكور والكفور ، أى ابتليناك ابتلاءً ، واختبرناك اختباراً ، ويجوز أن يكون جمع فتنة على ترك الاعتداد بقاء التأنيث كحجور فى حجرة وبدور فى بدرة ، أى خلصناك مرة بعد مرة عما وقعت فيه من المحن التى سبق ذكرها قبل أن يصطفيه الله لرسالته . ولعل المقصود بذكر تنجيته من الغم الحاصل له بذلك السبب وتنجيته من المحن هو : الامتنان عليه بصنع الله سبحانه له ، وتقوية قلبه عند ملاقة ما سيقع له من ذلك مع فرعون وبني إسرائيل ﴿ فلبثت سنين فى أهل مدين ﴾ قال الفراء : تقدير الكلام : وفتناك فتونا ، فخرجت إلى أهل مدين فلبثت سنين ، ومثل هذا الحذف كثير فى التنزيل ، وكذا فى كلام العرب فإنهم يحذفون كثيراً من الكلام إذا كان المعنى معروفاً . ومدين : هى بلد شعيب ، وكانت على ثمانى مراحل من مصر ، هرب إليها موسى فأقام بها عشر سنين ، وهى أتمّ الأجلين . وقيل : أقام عند شعيب ثمان وعشرين سنة ، منها عشر مهر امرأته ابنة شعيب ، ومنها ثمانى عشرة سنة بقى فيها عنده حتى ولد له ، والفاء فى : ﴿ فلبثت ﴾ تدل على أن المراد بالمحن المذكورة : هى ما كان قبل لبثه فى أهل مدين ﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ أى فى وقت سبق فى قضائى وقدرى أن أكلمك وأجعلك نبياً ، أو على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء ، وهو رأس أربعين سنة ، أو على موعد قد عرفته بإخبار شعيب لك به . قال الشاعر :

نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

وكلمة : « ثم » المفيدة للتراخي للدلالة على أن مجيئه عليه السلام كان بعد مدة ، وذلك بسبب ما وقع له من ضلال الطريق وتفرق غنمه ونحو ذلك . ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ الاصطناع : اتخاذ الصنعة ، وهى الخير تسديه إلى إنسان ، والمعنى : اصطنعتك لوحى ورسالتى لتتصرف على إرادتى . قال الزجاج : تأويله اخترتك لإقامة حجتى ، وجعلتك بينى وبين خلقى ، وصرت بالتبليغ عنى بالمنزلة التى أكون أنا بها لو خاطبتهم واحتججت عليهم . قيل : وهو تمثيل لما خوّله الله سبحانه من الكرامة العظمى بتقريب الملك لبعض خواصه . ﴿ اذهب أنت وأخوك ﴾ أى وليذهب أخوك ، وهو كلام مستأنف مسوق لبيان ما هو المقصود من الاصطناع ، ومعنى ﴿ بآياتى ﴾ : بمعجزاتى التى جعلتها لك آية ، وهى التسع الآيات . ﴿ ولا تنيا فى ذكرى ﴾ أى لا تضعفا ولا تفترا ، يقال : ونى نيا ونياً : إذا ضعف . قال الشاعر :

فما ونى محمد مذ أن غفر له الإله ما مضى وما غبر

وقال امرؤ القيس :

مسح إذا ما السابحات على الونى أثرن غباراً بالكديد المركل

قال الفراء : فى ذكرى وعن ذكرى سواء ، والمعنى : لا تقصرا عن ذكرى بالإحسان إليكما ، والإنعام عليكما وذكر النعمة شكرها . وقيل : معنى ﴿ لا تنيا ﴾ : لا تبطنا فى تبليغ الرسالة ، وفى قراءة ابن مسعود : « لا تنها فى ذكرى » .

﴿ اذهباً إلى فرعون إنه طغى ﴾ هذا أمر لهما جميعاً بالذهاب ، وموسى حاضر وهارون غائب تغليبا لموسى ؛ لأنه الأصل فى أداء الرسالة ، وعلل الأمر بالذهاب بقوله : ﴿ إنه طغى ﴾ أى جاوز الحد فى الكفر والتمرد ، وخص موسى وحده بالأمر بالذهاب فيما تقدم ، وجمعهما هنا تشريفاً لموسى بإفراده ، وتأكيذاً للأمر بالذهاب بالتكرير . وقيل : إن فى هذا دليلاً على أنه لا يكفى ذهاب أحدهما . وقيل : الأول أمر لموسى بالذهاب إلى كل الناس ، والثانى : أمر لهما بالذهاب إلى فرعون . ثم أمرهما سبحانه بإلانة القول له لما فى ذلك من التأثير فى الإجابة ، فإن التخشين بادئ [ذى] بدء يكون من أعظم أسباب النفور والتصلب فى الكفر ، والقول اللين : هو الذى لاخشونة فيه ، يقال : لان الشئ يلين ليناً ، والمراد : تركهما للتعنيف ، كقولهما : ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ [النازعات : ١٨] . وقيل : القول اللين هو الكنية له . وقيل : أن يعدها بنعيم الدنيا إن أجاب ، ثم علل الأمر بإلانة القول له بقوله : ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ أى باشرا ذلك مباشرة من يرجو ويطمع ، فالرجاء راجع إليهما كما قاله جماعة من النحويين : سيبويه وغيره . وقد تقدم تحقيقه فى غير موضع . قال الزجاج : « لعل » لفظة طمع وترج ، فخاطبهم بما يعقلون . وقيل : لعل ها هنا بمعنى الاستفهام . والمعنى : فانظرا هل يتذكر أو يخشى ؟ وقيل : بمعنى كى . والتذكر : النظر فيما بلغاه من الذكر وإمعان الفكر فيه حتى يكون ذلك سبباً فى الإجابة ، والخشية هى خشية عقاب الله الموعود به على

لسانهما ، وكلمة « أو » لمنع الخلو دون الجمع .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ فاقذفه فى اليم ﴾ قال : هو النيل .
وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وألقى عليك محبة منى ﴾
قال : كان كل من رآه ألقى عليه منه محبته . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سلمة بن
كهيل قال : حيثك إلى عبادى . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي عمران الجونى فى
قوله : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ قال : تبنى بعين الله . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي
حاتم عن قتادة فى الآية قال ، لتغذى على عيني . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية
قال : يقول : أنت بعيني ، إذ جعلتك أمك فى الثابوت ، ثم فى البحر ، وإذ تمشى أحتك .
وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والخطيب عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
« إنما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ » يقول الله سبحانه : ﴿ وقتلت نفساً فنجيناك من
الغم ﴾ قال : « من قتل النفس » ﴿ وفتناك فتونا ﴾ قال : « أخلصناك إخلاصاً » .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى
قوله : ﴿ وفتناك فتونا ﴾ قال : ابتليناك ابتلاءً . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال :
اختبرناك اختباراً . وقد أخرج عبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم
وابن مردويه عن ابن عباس أثراً طويلاً فى تفسير الآية ، فمن أحب استيفاء ذلك فلينظره فى
كتاب التفسير من سنن النسائى (١) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ثم جئت
على قدر ﴾ قال : لميقات . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد وقتادة
﴿ على قدر ﴾ قال : موعد . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ولا تنيا ﴾
قال : لا تبطئا . وأخرج ابن أبي حاتم عن على فى قوله : ﴿ قولاً لنا ﴾ قال : كنه . وأخرج
عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : كنياه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه فى
قوله : ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ قال : هل يتذكر ؟

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ
وَأَرَى (٤٦) فَأَتَيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّنْ
رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى
(٤٨) قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا
بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ

(١) النسائى فى التفسير (٣٤٦) ورجاله ثقات ، وابن جرير ١٦ / ١٢٥ . قال الحافظ ابن كثير ٤ / ٥١٥ : « وهو
موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع إلا القليل منه وكأنه تلقاه ابن عباس رضى الله عنهما بما أبيح نقله
من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره والله أعلم ؛ وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك
أيضاً » .

لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكْ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) ﴿﴾

قرأ الجمهور : ﴿ أن يفرط ﴾ بفتح الياء وضم الراء ، ومعنى ذلك : أننا نخاف أن يعجل ويبادر بعقوبتنا ، يقال : فرط منه أمر ، أى بدر ، ومنه الفارط ، وهو الذى يتقدم القوم إلى الماء ، أى يعذبنا عذاب الفارط فى الذنب ، وهو المتقدم فيه ، كذا قال المبرد . وقال أيضاً : فرط منه أمر وأفرط : أسرف ، وفرط : ترك . وقرأ ابن محيصة : « يفرط » بضم الياء وفتح الراء ، أى يحمله حامل على التسرع إلينا ، وقرأت طائفة بضم الياء وكسر الراء ، ومنهم ابن عباس ومجاهد وعكرمة من الإفراط ، أى يشتط فى أذيتنا . قال الراجز :

قد أفرط العليج علينا وعجل

ومعنى ﴿ أو أن يطغى ﴾ قد تقدم قريباً ، وجملة : ﴿ قال لا تخافا ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، نهى لهما عن الخوف الذى حصل معهما من فرعون ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إني معكما ﴾ أى بالنصر لهما ، والمعونة على فرعون ، ومعنى ﴿ أسمع وأرى ﴾ : إدراك ما يجرى بينهما وبينه ، بحيث لا يخفى عليه سبحانه منه خافية ، وليس بغافل عنهما ، ثم أمرهما بإتيانه الذى هو عبارة عن الوصول إليه بعد أمرهما بالذهاب إليه فلا تكرار . ﴿ فقولاً إنا رسولا ربك ﴾ أرسلنا إليك ﴿ فأرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ أى خل عنهم وأطلقهم من الأسر ﴿ ولا تعذبهم ﴾ بالبقاء على ما كانوا عليه ، وقد كانوا عند فرعون فى عذاب شديد : يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، ويكلفهم من العمل ما لا يطيقونه ، ثم أمرهما سبحانه أن يقولوا لفرعون : ﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾ قيل : هى العصا واليد . وقيل : إن فرعون قال لهما : وما هى ؟ فأدخل موسى يده فى جيب قميصه ، ثم أخرجها لها شعاع كشعاع الشمس ، فعجب فرعون من ذلك ، ولم يره موسى العصا إلا يوم الزينة ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ أى السلامة . قال الزجاج : أى من اتبع الهدى سلم من سخط الله عز وجل ومن عذابه ، وليس بتحية ، قال : والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب . قال الفراء : السلام على من اتبع الهدى ، ولمن اتبع الهدى سواء .

﴿ إنا قد أوحى إلينا ﴾ من جهة الله سبحانه ﴿ أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ المراد بالعذاب : الهلاك والدمار فى الدنيا والخلود فى النار . والمراد بالتكذيب : التكذيب بآيات الله وبرسوله . والتولى : الإعراض عن قبولها والإيمان بها . ﴿ قال فمن ربكما يا موسى ﴾ أى قال

فرعون لهما : فمن ربكما ؟ فأضاف الرب إليهما ولم يصفه إلى نفسه ؛ لعدم تصديقه لهما ولجحدته للربوبية . وخص موسى بالنداء ؛ لكونه الأصل في الرسالة . وقيل : لمطابقة رؤوس الآي . ﴿ قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ﴾ أى قال موسى مجيباً له ، و﴿ ربنا ﴾ مبتداً ، وخبره ﴿ الذى أعطى كل شيء خلقه ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ ربنا ﴾ خبر مبتداً محذوف ، وما بعده صفته . قرأ الجمهور : ﴿ خلقه ﴾ بسكون اللام ، وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ : « خلقه » بفتح اللام على أنه فعل ، وهى قراءة ابن أبى إسحاق ، ورواها نصير عن الكسائى . فعلى القراءة الأولى يكون خلقه ثانى مفعولى أعطى . والمعنى : أعطى كل شيء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به المطابقة له كاليد للبطش ، والرجل للمشى ، واللسان للنطق ، والعين للنظر ، والأذن للسمع ، كذا قال الضحاك وغيره . وقال الحسن وقتادة : أعطى كل شيء صلاحه وهده لما يصلحه . وقال مجاهد : المعنى لم يخلق خلق الإنسان فى خلق البهائم ، ولا خلق البهائم فى خلق الإنسان ، ولكن خلق كل شيء فقدره تقديراً ، ومنه قول الشاعر :

وله فى كل شيء خِلْقَةٌ وكذاك الله ما شاء فعلٌ

وقال الفراء : المعنى خلق للرجل المرأة ، ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث . ويجوز أن يكون خلقه على القراءة الأولى هو المفعول الأوّل لأعطى ، أى أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به ، ومعنى ﴿ ثم هدى ﴾ : أنه سبحانه هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم فانتفعوا بكل شيء فيما خلق له ، وأما على القراءة الآخرة ، فيكون الفعل صفة للمضاف أو للمضاف إليه ، أى أعطى كل شيء خلقه الله سبحانه ولم يخله من عطائه ، وعلى هذه القراءة يكون المفعول الثانى محذوفاً ، أى أعطى كل شيء خلقه ما يحتاج إليه ، فيوافق معناها معنى القراءة الأولى .

﴿ قال فما بال القرون الأولى ﴾ لما سمع فرعون ما احتج به موسى فى ضمن هذا الكلام على إثبات الربوبية كما لا يخفى من أن الخلق والهداية ثابتان بلا خلاف ، ولا بدّ لهما من خالق وهاد ، وذلك الخالق والهادى هو الله سبحانه لا ربّ غيره . قال فرعون : فما بال القرون الأولى ؟ فإنها لم تقرّ بالربّ الذى تدعو إليه يا موسى بل عبدت الأوثان ونحوها من المخلوقات ، ومعنى البال : الحال والشان ، أى ما حالهم وما شأنهم ؟ وقيل : إن سؤال فرعون عن القرون الأولى مغالطة لموسى لما خاف أن يظهر لقومه أنه قد قهره بالحجة ، أى ما حال القرون الماضية ، وماذا جرى عليهم من الحوادث ؟ فأجابه موسى ، فقال : ﴿ علمها عند ربى ﴾ أى إن هذا الذى سألت عنه ليس مما نحن بصددّه ، بل هو من علم الغيب الذى استأثر الله به لا تعلمه أنت ولا أنا . وعلى التفسير الأوّل يكون معنى ﴿ علمها عند ربى ﴾ : أن علم هؤلاء الذين عبدوا الأوثان ونحوها محفوظ عند الله فى كتابه سبحانه عليهم عليها ، ومعنى كونها فى كتاب : أنها مشبّعة فى اللوح المحفوظ . قال الزجاج : المعنى : أن أعمالهم محفوظة عند الله يجازى بها ، والتقدير : علم أعمالها عند ربى فى كتاب .

وقد اختلف فى معنى ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ على أقوال : الأول : إنه ابتداء كلام تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين . وقد تم الكلام عند قوله : ﴿ فى كتاب ﴾ كذا قال الزجاج ، قال : ومعنى ﴿ لا يضل ﴾ : لا يهلك من قوله : ﴿ أنذا ضللنا فى الأرض ﴾ [السجدة : ١٠] ﴿ ولا ينسى ﴾ شيئاً من الأشياء ، فقد نزهه عن الهلاك والنسيان . القول الثانى : أن معنى ﴿ لا يضل ﴾ : لا يخطئ . القول الثالث : أن معناه : لا يغيب . قال ابن الأعرابى : أصل الضلال الغيبوبة . القول الرابع : أن المعنى : لا يحتاج إلى كتاب ، ولا يضل عنه علم شئ من الأشياء ، ولا ينسى ما علمه منها ، حكى هذا عن الزجاج أيضاً . قال النحاس : وهو أشبهها بالمعنى . ولا يخفى أنه كقول ابن الأعرابى . القول الخامس : أن هاتين الجملتين صفة لكتاب ، والمعنى : أن الكتاب غير ذاهب عن الله ولا هو ناس له .

﴿ الذى جعل لكم الأرض مهاداً ﴾ الموصول فى محل رفع على أنه صفة لربى متضمنة لزيادة البيان ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أو فى محل نصب على المدح . قرأ الكوفيون : ﴿ مهذا ﴾ على أنه مصدر لفعل مقدّر ، أى مهدها مهذاً ، أو على تقدير محذوف ، أى ذات مهد ، وهو اسم لما يمهد كالفراش لما يفرش . وقرأ الباقون : ﴿ مهاداً ﴾ واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم قالوا : لاتفاقهم على قراءة : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ [النبأ : ٦] . قال النحاس : والجمع أولى من المصدر ؛ لأن هذا الموضع ليس موضع المصدر إلا على حذف المضاف . قيل : يجوز أن يكون مهاداً مفرداً كالفراش ، ويجوز أن يكون جمعاً . ومعنى المهاد : الفرش ، فالمهاد جمع المهد ، أى جعل كل موضع منها مهذاً لكل واحد منكم . ﴿ وسلك لكم فيها سبلاً ﴾ السلك : إدخال الشئ فى الشئ . والمعنى : أدخل فى الأرض لأجلكم طرقاً تسلكونها وسهلها لكم . وفى الآية الأخرى : ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهاداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون ﴾ [الزخرف : ١٠] .

ثم قال سبحانه ممتناً على عباده : ﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ هو ماء المطر . قيل : إلى هنا انتهى كلام موسى ، وما بعده هو : ﴿ فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾ من كلام الله سبحانه . وقيل : هو من الكلام المحكى عن موسى معطوف على أنزل ، وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة . ونوقش بأن هذا خلاف الظاهر مع استلزامه فوت الالتفات لعدم اتحاد المتكلم ، ويجاب عنه : بأن الكلام كله محكى عن واحد هو موسى ، والحاكى للجميع هو الله سبحانه . والمعنى : فأخرجنا بذلك الماء بسبب الحرث والمعالجة أزواجاً ، أى ضرباً وأشباهاً من أصناف النبات المختلفة . وقوله : ﴿ من نبات ﴾ صفة لـ ﴿ أزواجاً ﴾ أو بيان له ، وكذا ﴿ شتى ﴾ صفة أخرى له ، أى متفرقة جمع شتيت . وقال الأخفش : التقدير : أزواجاً شتى من نبات . قال : وقد يكون النبات شتى ، فيجوز أن يكون ﴿ شتى ﴾ نعتاً لـ ﴿ أزواجاً ﴾ ويجوز أن يكون نعتاً للنبات ، يقال : أمر شت ، أى متفرق ، وشت الأمر شتاً وشتاتاً : تفرق ، واستشت مثله ، والشتيت : المتفرق . قال رؤية :

جاءت معاً واطرقت شتيتاً

وجملة : ﴿ كلوا وارعوا ﴾ فى محل نصب على الحال بتقدير القول ، أى قائلين لهم ذلك ، والأمر للإباحة ، يقال : رعت الماشية الكلاً ورعاها صاحبها رعاية ، أى أسامها وسرحها بجىء لازماً ومتعدياً . والإشارة بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ إلى ما تقدم ذكره فى هذه الآيات ، والنهى : العقول جمع نهية ، وخص ذوى النهى ؛ لأنهم الذين يُنتهى إلى رأيهم . وقيل : لأنهم ينهون النفس عن القبائح ، وهذا كله من موسى ، احتجاجاً على فرعون فى إثبات الصانع جواباً لقوله : ﴿ فمن ربكما يا موسى ﴾ . والضمير فى : ﴿ منها خلقناكم ﴾ وما بعده راجع إلى الأرض المذكورة سابقاً . قال الزجاج وغيره : يعنى أن آدم خلق من الأرض وأولاده منه . وقيل : المعنى : أن كل نطفة مخلوقة من التراب فى ضمن خلق آدم ؛ لأن كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه ﴿ وفيها ﴾ أى فى الأرض ﴿ نعيدكم ﴾ بعد الموت فتدفنون فيها وتنفرد أجزاءكم حتى تصير من جنس الأرض ، وجاء بفى دون إلى ؛ للدلالة على الاستقرار ﴿ ومنها ﴾ أى من الأرض ﴿ نخرجكم تارة أخرى ﴾ أى بالبعث والنشور وتأليف الأجسام وردّ الأرواح إليها على ما كانت عليه قبل الموت ، والتارة كالمرة .

﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها ﴾ أى أرينا فرعون وعرفناه آياتنا كلها ، والمراد بالآيات هى : الآيات التسع المذكورة فى قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات ﴾ [الإسراء : ١٠١] على أن الإضافة للعهد . وقيل : المراد : جميع الآيات التى جاء بها موسى ، والثى جاء بها غيره من الأنبياء ، وأن موسى قد كان عرفه جميع معجزاته ومعجزات سائر الأنبياء ، والأول أولى . وقيل : المراد بالآيات : حجج الله سبحانه الدالة على توحيده . ﴿ فكذب وأبى ﴾ أى كذب فرعون موسى وأبى عليه أن يجيبه إلى الإيمان ، وهذا يدل على أن كفر فرعون كفر عناد ؛ لأنه رأى الآيات وكذب بها كما فى قوله : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا ﴾ [النمل : ١٤] .

وجملة : ﴿ قال أجنثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قال فرعون بعد هذا ؟ والهمزة للإنكار لما جاء به موسى من الآيات ، أى جئت يا موسى لتوهم الناس بأنك نبيّ يجب عليهم اتباعك ، والإيمان بما جئت به ، حتى تتوصل بذلك الإيهام الذى هو شعبة من السحر إلى أن تغلب على أرضنا وتخرجنا منها . وإنما ذكر الملعون الإخراج من الأرض ؛ لتفجير قومه عن إجابة موسى ، فإنه إذا وقع فى أذهانهم وتقرّر فى أفهامهم أن عاقبة إجابتهم لموسى الخروج من ديارهم وأوطانهم كانوا غير قابلين لكلامه ولا ناظرين فى معجزاته ولا ملتفتين إلى ما يدعو إليه من الخير .

﴿ فلنأتينك بسحر مثله ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللام هى الموطئة للقسم ، أى والله لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر ، حتى يتبين للناس أن الذى جئت به سحر يقدر على مثله الساحر . ﴿ فاجعل بيننا وبينك موعداً ﴾ هو مصدر ، أى وعداً . وقيل : اسم مكان ، أى اجعل لنا يوماً معلوماً ، أو مكاناً معلوماً لا نخلفه . قال القشيري : والأظهر أنه

مصدر ، ولهذا قال : ﴿ لا نخلفه ﴾ أى لا نخلف ذلك الوعد . والإخلاف : أن تعد شيئاً ولا تنجزه . قال الجوهري : الميعاد : المواعدة والوقت والموضع ، وكذلك الموعد . وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع وشيبة والأعرج : « لا نخلفه » بالجزم على أنه جواب لقوله : ﴿ اجعل ﴾ . وقرأ الباقر بالرفع على أنه صفة لموعداً ، أى لا نخلف ذلك الوعد ﴿ نحن ولا أنت ﴾ وفوض تعيين الموعد إلى موسى ؛ إظهاراً لكمال اقتداره على الإتيان بمثل ما أتى به موسى . وانتصاب : ﴿ مكانا سوى ﴾ بفعل مقدّر يدل عليه المصدر ، أو على أنه بدلا من موعد . قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة : ﴿ سوى ﴾ بضم السين ، وقرأ الباقر بكسرها وهما لغتان . واختار أبو عبيد وأبو حاتم كسر السين ؛ لأنها اللغة العالية الفصيحة ، والمراد : مكاناً مستوياً . وقيل : مكاناً منصفاً عدلاً بيننا وبينك . قال سيبويه : يقال : سوى وسوى ، أى عدل ، يعنى مكاناً عدلاً بين المكانين . قال زهير :

أرونا خطة لا ضيم فيها يسوى بيننا فيها السواء

قال أبو عبيدة والقتيبى : معناه مكاناً وسطاً بين الفريقين ، وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفى :

وجدنا أبانا كان حل ببلدة سوى بين قيس قيس عيلان والفز

والفزر: سعد بن زيد مناة . ثم واعده موسى بوقت معلوم فقال : ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدى : كان ذلك يوم عيد يتزينون فيه . وقال سعيد بن جبير : كان ذلك يوم عاشوراء . وقال الضحاك : يوم السبت . وقيل : يوم النيروز . وقيل : يوم كسر الخليج . وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفى والسلمى وهبيرة عن حفص : « يوم الزينة » بالنصب ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو ، أى فى يوم الزينة إنجاز موعدنا ، وقرأ الباقر بالرفع على أنه خبر موعدكم ، وإنما جعل الميعاد زماناً بعد أن طلب منه فرعون أن يكون مكاناً سوى ؛ لأن يوم الزينة يدل على مكان مشهور يجتمع فيه الناس ذلك اليوم ، أو على تقدير مضاف محذوف ، أى موعدكم مكان يوم الزينة .

﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ معطوف على ﴿ يوم الزينة ﴾ فيكون فى محل رفع ، أو على ﴿ الزينة ﴾ فيكون فى محل جر ، يعنى ضحى ذلك اليوم . والمراد بالناس : أهل مصر . والمعنى : يحشرون إلى العيد وقت الضحى ، وينظرون فى أمر موسى وفرعون . قال الفراء : المعنى : إذا رأيت الناس يحشرون من كل ناحية ضحى فذلك الموعد . قال : وجرت عادتهم بحشر الناس فى ذلك اليوم . والضحى قال الجوهري : ضحوة النهار بعد طلوع الشمس ثم بعده الضحى ، وهو حين تشرق الشمس . وخص الضحى ؛ لأنه أول النهار ، فإذا امتد الأمر بينهما كان فى النهار متسع . وقرأ ابن مسعود والجحدري : « وأن يحشر » على البناء للفاعل ، أى وأن يحشر الله الناس ضحى . وروى عن الجحدري أنه قرأ : « وأن نحشر » بالنون وقرأ

بعض القراء بالتاء الفوقية ، أى وأن تحشر أنت يا فرعون ، وقرأ الباقون بالتحية على البناء للمفعول .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا ﴾ قال : يعجل ﴿ أَوْ أَنْ يَطْفَى ﴾ قال : يعتدى . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ أَسْمِعْ وَأَرَى ﴾ قال : أسمع ما يقول وأرى ما يجاوبكما به ، فأوحى إليكما فتجاوبانه . وأخرج ابن أبى شيبه وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : لما بعث الله موسى إلى فرعون قال : ربّ أى شيء أقول ؟ قال : قل : أهيا شراهما . قال الأعمش : تفسير ذلك الحى قبل كل شيء ، والحى بعد كل شيء . وجوّد السيوطى إسناده ، وسبقه إلى تجويد إسناده ابن كثير فى تفسيره . — وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ عَلَى مِنْ كَذِبٍ وَتَوَلَّى ﴾ قال : كذب بكتاب الله وتولى عن طاعة الله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ قال : خلق لكل شيء روحه ﴿ ثُمَّ هَدَى ﴾ قال : هداه لمنكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّى ﴾ قال : لا يخطئ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ مِنْ نَبَاتٍ شَتَى ﴾ قال : مختلف . وفى قوله : ﴿ لِأَوَّلَى النَّهْيِ ﴾ قال : لأولى التقى . وأخرج ابن المنذر عنه ﴿ لِأَوَّلَى النَّهْيِ ﴾ قال : لأولى الحجا والعقل . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء الخراسانى قال : إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذى يدفن فيه فيذرّه على النطفة ، فيخلق من التراب ومن النطفة ، وذلك قوله : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ . وأخرج أحمد والحاكم عن أبى أمامة قال : لما وضعت أمّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ فى القبر قال رسول الله ﷺ : « ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ بِسْمِ اللَّهِ ، وفى سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله » (١) . وفى حديث فى السنن : « أنه أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر وقال : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ ثم أخرى وقال : ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ ثم أخرى وقال : ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ » . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ مُوعِدَكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ﴾ قال : يوم عاشوراء . وأخرج ابن المنذر عن ابن عمرو نحوه .

﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ أِن يُرِيدَ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣)

(١) أحمد ٥ / ٢٥٤ والحاكم ٢ / ٣٧٩ وقال الذهبي : « خبره واه ؛ لأن على بن زيد متروك » .

فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأَلْقَى السِّحْرَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) ﴿

قوله : ﴿ فتولى فرعون ﴾ أى انصرف من ذلك المقام ليهيئ ما يحتاج إليه مما تواعد عليه . وقيل : معنى تولى : أعرض عن الحق ، والأول أولى ﴿ فجمع كيده ﴾ أى جمع ما يكيد به من سحره وحيلته . والمراد : أنه جمع السحرة . قيل : كانوا اثنين وسبعين . وقيل : أربعمائة . وقيل : اثنا عشر ألفاً . وقيل : أربعة عشر ألفاً . وقال ابن المنذر : كانوا ثمانين ألفاً ﴿ ثم أتى ﴾ أى أتى الموعد الذى تواعدا إليه مع جمعه الذى جمعه ، وجملة : ﴿ قال لهم موسى ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذباً ﴾ دعا عليهم بالويل ، ونهاهم عن افتراء الكذب . قال الزجاج : هو منصوب بمحذوف ، والتقدير : ألزمهم الله ويلاً . قال : ويجوز أن يكون نداء ، كقوله : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ [يس : ٥١] ﴿ فيسحتكم بعذاب ﴾ السحت : الاستئصال ، يقال : سحت وأسحت بمعنى ، وأصله استقصاء الشعر . وقرأ الكوفيون إلا شعبة : ﴿ فيسحتكم ﴾ بضم حرف المضارعة من أسحت ، وهى لغة بنى تميم ، وقرأ الباكون بفتح من سحت ، وهى لغة الحجاز ، وانتصابه على أنه جواب للنهى ﴿ وقد خاب من افترى ﴾ أى خسر وهلك والمعنى : قد خسر من افترى على الله أى كذب كان .

﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم ﴾ أى السحرة لما سمعوا كلام موسى ، تناظروا وتشاوروا وتجادبوا أطراف الكلام فى ذلك ﴿ وأسروا النجوى ﴾ أى من موسى ، وكانت نجواهم هى قولهم : ﴿ إن هذان لساحران ﴾ . وقيل : إنهم تناجوا فيما بينهم فقالوا : إن كان ما جاء به موسى سحراً فسنغلبه ، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر . وقيل : الذى أسروه : أنه إذا غلبهم اتبعوه ، قاله الفراء والزجاج . وقيل : الذى أسروه : أنهم لما سمعوا قول موسى : ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله ﴾ قالوا : ما هذا بقول ساحر . والنجوى : المناجاة يكون اسماً ومصدرأ .

قرأ أبو عمرو : « إن هذين لساحران » بتشديد الحرف الداخلى على الجملة وبالياء فى اسم الإشارة على إعمال إن عملها المعروف ، وهو نصب الاسم ورفع الخبر . ورويت هذه القراءة عن عثمان وعائشة وغيرهما من الصحابة ، وبها قرأ الحسن وسعيد بن جبير والنخعى وغيرهم من التابعين ، وبها قرأ عاصم الجحدري وعيسى بن عمر كما حكاه النحاس ، وهذه القراءة موافقة للإعراب الظاهر مخالفة لرسم المصحف فإنه مكتوب بالالف . وقرأ الزهري والخليل بن أحمد والمفضل وأبان وابن محيصن وابن كثير وعاصم فى رواية حفص عنه : « إن هذان » بتخفيف إن على أنها نافية ، وهذه القراءة موافقة لرسم المصحف وللإعراب . وقرأ ابن كثير

مثل قراءتهم إلا أنه يشدد النون من هذان . وقرأ المدنيون والكوفيون وابن عامر : ﴿ إن هذان ﴾ بتشديد إن وبالألف ، فوافقوا الرسم وخالفوا الإعراب الظاهر . وقد تكلم جماعة من أهل العلم فى توجيه قراءة المدنيين والكوفيين وابن عامر ، وقد استوفى ذكر ذلك ابن الأنبارى والنحاس ، فقل : إنها لغة بنى الحارث بن كعب وخثعم وكنانة يجعلون رفع المثنى ونصبه وجره بالألف ، ومنه قول الشاعر :

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى مساعاً لناباه الشجاع لصمما

وقول الآخر :

تزود منا بين أذنائه ضربة

وقول الآخر :

إن أباه وأبا أباه قد بلغا فى المجد غايتاهما

ومما يؤيد هذا تصريح سيبويه والأخفش وأبى زيد والكسائى والفراء : إن هذه القراءة على لغة بنى الحارث بن كعب . وحكى أبو عبيدة عن أبى الخطاب أنها لغة بنى كنانة . وحكى غيره أنه لغة خثعم . وقيل : إن « إن » بمعنى نعم هاهنا ، كما حكاه الكسائى عن عاصم ، وكذا حكاه سيبويه . قال النحاس : رأيت الزجاج والأخفش يذهبان إليه ، فيكون التقدير : نعم هذان لساحران ، ومنه قول الشاعر :

ليت شعرى هل للمحبّ شفاء من جبرى جبهنّ إن اللقاء

أى نعم اللقاء . قال الزجاج : والمعنى فى الآية : أن هذان لهما ساحران ، ثم حذف المبتدأ وهو هما . وأنكره أبو على الفارسى وأبو الفتح بن جنى ، وقيل : إن الألف فى ﴿ هذان ﴾ مشبهة بالألف فى يفعلان فلم تغير . وقيل : إن الهاء مقدّرة ، أى إنه هذان لساحران ، حكاه الزجاج عن قدماء النحويين ، وكذا حكاه ابن الأنبارى . وقال ابن كيسان : إنه لما كان يقال : هذا بالألف فى الرفع والنصب والجر على حال واحدة ، وكانت التثنية لا تغير الواحد ، أجريت التثنية مجرى الواحد فثبت الألف فى الرفع والنصب والجر ، فهذه أقوال تتضمن توجيه هذه القراءة توجيهها تصح به وتخرج به عن الخطأ ، وبذلك يندفع ما روى عن عثمان وعائشة أنه غلط من الكاتب للمصحف .

﴿ يريدان أن يخرجاكم من أرضكم ﴾ وهى أرض مصر ﴿ بسحرهما ﴾ الذى أظهره ﴿ ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ قال الكسائى : بطريقتكم : بستمكم . و﴿ المثلى ﴾ نعت ، كقولك : امرأة كبرى ، تقول العرب : فلان على الطريقة المثلى ، يعنون : على الهدى المستقيم . قال الفراء : العرب تقول : هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم لأشرافهم . والمثلى تأنيث الأمثل ، وهو الأفضل ، يقال : فلان أمثل قومه ، أى أفضلهم ، وهم الأمائل . والمعنى : أنهما إن

يغلبا بسحرهما مال إليهما السادة والأشراف منكم ، أو يذهبا بمذهبكم الذى هو أمثل المذاهب .

﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ الإجماع : الإحكام ، والعزم على الشيء ، قاله الفراء . تقول : أجمعت على الخروج مثل أزمعت . وقال الزجاج : معناه : ليكن عزمكم كلكم كالكيد مجمعا عليه . وقد اتفق الفراء على قطع الهمزة فى أجمعوا إلا أبا عمرو ، فإنه قرأ بوصلها وفتح الميم من الجمع . قال النحاس : وفيما حكى لى عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال : يجب على أبى عمرو أن يقرأ بخلاف هذه القراءة ، وهى القراءة التى عليها أكثر الناس . ﴿ ثم اتوا صفا ﴾ أى مصطفىين مجتمعين ليكون أنظم لأمرهم وأشد لهيبتهم ، وهذا قول جمهور المفسرين . وقال أبو عبيدة : الصف : موضع الجمع ، ويسمى المصلى : الصف . قال الزجاج : وعلى هذا معناه : ثم اتوا الموضع الذى تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم ، يقال : أتيت الصف بمعنى : أتيت المصلى ، فعلى التفسير الأول يكون انتصاب ﴿ صفا ﴾ على الحال ، وعلى تفسير أبى عبيدة يكون انتصابه على المفعولية . قال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ثم اتوا والناس مصطفىون ، فيكون على هذا مصدراً فى موضع الحال ، ولذلك لم يجمع . وقرأ بكسر الهمزة بعدها ياء ، ومن ترك الهمزة أبدل منها ألفاً ﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ أى من غلب ، يقال : استعلى عليه : إذا غلبه ، وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض . وقيل : من قول فرعون لهم .

وجملة : ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقى ﴾ مستأنفة جواباً لسؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا فعلوا بعدما قالوا فيما بينهم ما قالوا ؟ فقيل : قالوا : يا موسى ، إما أن تلقى ، وإن مع ما فى حيزها فى محل نصب بفعل مضمّر ، أى اختر إلقاءك أولاً أو إلقاءنا ، ويجوز أن تكون فى محل رفع على أنها وما بعدها خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر إلقاءك ، أو إلقاءنا ، ومفعول تلقى محذوف ، والتقدير : إما أن تلقى ما تلقىه أولاً ﴿ وإما أن نكون ﴾ نحن ﴿ أول من ألقى ﴾ ما يلقى ، أو أول من يفعل الإلقاء . والمراد : إلقاء العصى على الأرض ، وكانت السحرة معهم عصى ، وكان موسى قد ألقى عصاه يوم دخل على فرعون ، فلما أراد السحرة معارضته قالوا له هذا القول ، فقال لهم موسى : ﴿ بل ألقوا ﴾ أمرهم بالإلقاء أولاً ؛ لتكون معجزته أظهر إذا ألقوا هم ما معهم ثم يلقى هو عصاه فتبتلع ذلك ، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير : ألقوا فإذا حبالهم ، والفاء فصيحة ، وإذا للمفاجأة أو ظرفية . والمعنى : فألقوا ففاجأ موسى وقت أن ﴿ يخیل إليه ﴾ سعى حبالهم وعصيهم ، وقرأ الحسن : « عصيهم » بضم العين وهى لغة بنى تميم ، وقرأ الباقر بكسرها اتباعاً لكسرة الصاد ، وقرأ ابن عباس وابن ذكوان وروح عن يعقوب : « تخيل » بالثناة ؛ لأن العصى والحبال مؤنثة ، وذلك أنهم لطحوها بالزئبق ، فلما أصابها حرّ الشمس ارتعشت واهتزّت ، وقرأ : « نخيل » بالنون على أن الله سبحانه هو المخيل لذلك ، وقرأ : « يخیل » بالياء التحتية مبنياً للفاعل ، على أن المخيل هو الكيد . وقيل : المخيل هو أنها تسعى ، فإن فى موضع رفع ، أى يخیل إليه سعيها ، ذكر معناه الزجاج . وقال الفراء : إنها

فى موضع نصب ، أى بأنها ثم حذف الباء . قال الزجاج : ومن قرأ بالتاء : يعنى الفوقية جعل أن فى موضع نصب ، أى تخيل إليه ذات سعى . قال : ويجوز أن يكون فى موضع رفع بدلاً من الضمير فى تخيل ، وهو عائد على الحبال والعصى ، والبدل فيه بدل اشتمال ، يقال : خيل إليه : إذا شبه له وأدخل عليه البهمة والشبهة .

﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾ أى أحس . وقيل : وجد . وقيل : أضمر . وقيل : خاف ، وذلك لما يعرض من الطباع البشرية عند مشاهدة ما يخشى منه . وقيل : خاف أن يفتن الناس قبل أن يلقي عصاه . وقيل : إن سبب خوفه هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم فى العصا ، فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا ، فأذهب الله سبحانه ما حصل معه من الخوف بما بشره به بقوله : ﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ أى المستعلى عليهم بالظفر والغلبة ، والجملة تعليل للنهى عن الخوف .

﴿ وألق ما فى يمينك ﴾ يعنى العصا ، وإنما أبهما تعظيماً وتفخيماً ، وجزم ﴿ تلقف ما صنعوا ﴾ على أنه جواب الأمر ، قرئ تشديد القاف ، والأصل : تتلقف ، فحذف إحدى التاءين ، وقرئ : « تلقف » بكسر اللام من لقفه : إذا ابتلعه بسرعة ، وقرئ : « تلقف » بالرفع على تقدير فإنها تتلقف ، ومعنى ﴿ ما صنعوا ﴾ : الذى صنعوه من الحبال والعصى . قال الزجاج : القراءة بالجزم جواب الأمر ، ويجوز الرفع على معنى الحال ، كأنه قال : ألقها متلقفة ، وجملة : ﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ﴾ تعليل لقوله : ﴿ تلقف ﴾ وارتفاع كيد على أنه خبر لأن ، وهى قراءة الكوفيين إلا عاصماً . وقرأ هؤلاء : « سحر » بكسر السين وسكون الحاء ، وإضافة الكيد إلى السحر على الاتساع من غير تقدير ، أو بتقدير ذى سحر . وقرأ الباقون : ﴿ كيد ساحر ﴾ ، ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ أى لا يفلح جنس الساحر حيث أتى وأين توجه ، وهذا من تمام التعليل .

﴿ فألقى السحرة سجدا ﴾ أى فألقى ذلك الأمر الذى شاهدوه من موسى والعصا السحرة سجداً لله تعالى ، وقد مرّ تحقيق هذا فى سورة الأعراف . ﴿ قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾ إنما قدّم هارون على موسى فى حكاية كلامهم ؛ رعاية لفواصل الآى وعناية بتوافق رؤوسها .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فيسحتكم بعذاب ﴾ قال : يهلككم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة : ﴿ فيسحتكم ﴾ قال : يستأصلكم . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى صالح قال : فيذبحكم . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن على : ﴿ ويذهب بطريقكم المثلى ﴾ قال : يصرفا وجوه الناس إليهما . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : يقول : أمثلكم ، وهم بنو إسرائيل .

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق فى قوله : ﴿ تلقف ما صنعوا ﴾ ما يأفكون ، عن قتادة

قال : ألقاها موسى فتحولت حية تأكل حبالهم وما صنعوا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة ؛ أن سحرة فرعون كانوا تسعمائة ، فقالوا لفرعون : إن يكن هذان ساحران فإننا نغلبهما فإنه لا أسحر منا ، وإن كانا من رب العالمين فإنه لا طاقة لنا برب العالمين ، فلما كان من أمرهم أن خروا سجداً أراهم الله في سجودهم منازلهم التي إليها يصيرون فعندها ﴿ قالوا لن نؤثرَكَ على ما جاءنا من البينات ﴾ إلى قوله : ﴿ والله خير وأبقى ﴾ .

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ (٧٥) جَنَّاتٌ عِدْنُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ (٧٦) .

قوله : ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ ﴾ يقال : آمن له وآمن به ، فمن الأول : قوله : ﴿ فآمن له لوط ﴾ [العنكبوت: ٢٦] ، ومن الثاني : قوله في الأعراف : ﴿ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ [الآية: ١٢٣] . وقيل : إن الفعل هنا متضمن معنى الاتباع . وقرئ على الاستفهام التوبيخي ، أى كيف آمَنْتُمْ به من غير إذن منى لكم بذلك ؟ ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ أى إن موسى لكبيركم ، أى أسحركم وأعلاكم درجة فى صناعة السحر ، أو معلمكم وأستاذكم كما يدل عليه قوله : ﴿ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ قال الكسائى : الصبى بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال : جئت من عند كبيرى . وقال محمد بن إسحاق : إنه لعظيم السحر . قال الواحدى : والكبير فى اللغة : الرئيس ، ولهذا يقال للمعلم : الكبير . أراد فرعون بهذا القول أن يدخل الشبهة على الناس حتى لا يؤمنوا ، وإلا فقد علم أنهم لم يتعلموا من موسى ، ولا كان رئيساً لهم ، ولا بينه وبينهم مواصلة ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ﴾ أى والله لأفعلن بكم ذلك . والتقطيع للأيدى والأرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، و« من » للابتداء ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ أى على جذوعها ، كقوله : ﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه ﴾ [الطور : ٣٨] أى عليه ، ومنه قول سويد بن أبى كاهل :

هم صلبوا العبدى فى جذع نخلة فلا عطست شيان إلا بأجدعا

وإنما أثر كلمة « فى » للدلالة على استقرارهم عليها كاستقرار المظروف فى الظرف ﴿ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ أراد : لتعلمن هل أنا أشدّ عذاباً لكم أم موسى ؟ ومعنى

﴿أبقى﴾ : أدوم ، وهو يريد بكلامه هذا : الاستهزاء بموسى ؛ لأن موسى لم يكن من التعذيب فى شيء ، ويمكن أن يريد : العذاب الذى توعدهم به موسى إن لم يؤمنوا . وقيل : أراد بموسى رب موسى على حذف المضاف .

﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ أى لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات الواضحة من عند الله سبحانه كاليد والعصا . وقيل : إنهم أرادوا بالبينات ما رآوه فى سجونهم من المنازل المعدة لهم فى الجنة ﴿ والذى فطرنا ﴾ معطوف على ﴿ ما جاءنا ﴾ أى لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات وعلى الذى فطرنا ، أى خلقنا . وقيل : هو قسم ، أى والله الذى فطرنا لن نؤثرك ، أو لا نؤثرك ، وهذان الوجهان فى تفسير الآية ذكرهما الفراء والزجاج ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ هذا جواب منهم لفرعون لما قال لهم : ﴿ لأقطعن ﴾ إلخ ، والمعنى : فاصنع ما أنت صانع ، واحكم ما أنت حاكم ، والتقدير : ما أنت صانع ﴿ إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ أى إنما سلطانك علينا ونفوذ أمرك فىنا فى هذه الدنيا ولا سبيل لك علينا فيما بعدها ، فاسم الإشارة فى محل نصب على الظرفية أو على المفعولية و« ما » كافة ، وأجاز الفراء الرفع على أن تجعل ما بمعنى الذى ، أى أن الذى تقضيه هذه الحياة الدنيا فقضاؤك وحكمك منحصر فى ذلك .

﴿ إنا آتينا برئنا ليغفر لنا خطايانا ﴾ التى سلفت منا من الكفر وغيره ﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ معطوف على ﴿ خطايانا ﴾ أى ويغفر لنا الذى أكرهتنا عليه من عمل السحر فى معارضة موسى فما فى محل نصب على المفعولية . وقيل : هى نافية ، قال النحاس : والأول أولى . قيل : ويجوز أن يكون فى محل رفع بالابتداء والخبر مقدر ، أى وما أكرهتنا عليه من السحر موضوع عنا ﴿ والله خير وأبقى ﴾ أى خير منك ثواباً وأبقى منك عقاباً ، وهذا جواب قوله : ﴿ ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى ﴾ . ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ المجرم هو : المتلبس بالكفر والمعاصى ، ومعنى ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ : أنه لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه . قال المبرد : لا يموت ميتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة ، فهو يألم كما يألم الحى ، ويبلغ به حال الموت فى المكروه ، إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم ، والعرب تقول : فلان لا حى ولا ميت ، إذا كان غير منتفع بحياته ، وأنشد ابن الأثير فى مثل هذا :

ألا من لنفس لا تموت فينقضى شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

وهذه الآية من جملة ما حكاه الله سبحانه من قول السحرة . وقيل : هو ابتداء كلام . والضمير فى : ﴿ إنه ﴾ على هذا الوجه للشأن ﴿ ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات ﴾ أى ومن يأت ربه مصداقاً به قد عمل الصالحات ، أى الطاعات ، والموصوف محذوف ، والتقدير : الأعمال الصالحات ، وجملة : ﴿ قد عمل ﴾ فى محل نصب على الحال ، وهكذا ﴿ مؤمناً ﴾ منتصب على الحال ، والإشارة بـ ﴿ أولئك ﴾ إلى من باعتبار معناه ﴿ لهم الدرجات العلى ﴾

أى المنازل الرفيعة التى قصرت دونها الصفات ﴿ جنات عدن ﴾ بيان للدرجات أو بدل منها، والعدن : الإقامة ، وقد تقدّم بيانه ، وجملة : ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ حال من الجنات ؛ لأنها مضافة إلى عدن ، وعدن علم للإقامة كما سبق . وانتصاب ﴿ خالدين فيها ﴾ على الحال من ضمير الجماعة فى لهم ، أى مأكثين دائمين ، والإشارة ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم لهم من الأجر ، وهو مبتدأ ، و﴿ جزاء من تركى ﴾ خبره ، أى جزاء من تطهر من الكفر والمعاصى الموجهة للنار .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ قال : أخذ فرعون أربعين غلاماً من بنى إسرائيل ، فأمر أن يعلموا السحر بالفرما ، قال : علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد فى الأرض . قال ابن عباس : فهم من الذين آمنوا بموسى ، وهم الذين قالوا : ﴿ آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى فى قوله : ﴿ والله خير وأبقى ﴾ قال : خير منك إن أطيع ، وأبقى منك عذاباً إن عصى .

وأخرج أحمد ومسلم وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية : ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « أما أهلها الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما الذين ليسوا بأهلها فإن النار تميمهم إماتة ، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون ، فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له : الحياة أو الحيوان ، فينبئون كما ينبت الغناء فى حميل السيل » (١) . وأخرج أبو داود وابن مردويه عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدرى فى أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعم » (٢) . وفى الصحيحين بلفظ : « إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب العابر فى أفق السماء » (٣) .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ

(١) أحمد ٣ / ٥ ومسلم فى الإيمان (١٨٥ / ٣٠٦) .

(٢) أبو داود فى الحروف (٣٩٨٧) .

(٣) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٥٦) ومسلم فى الجنة (٢٨٣١ / ١٠ ، ١١) .

اهْتَدَى (٨٢) وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُم وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) ﴿

هذا شروع فى إنجاء بنى إسرائيل وإهلاك عدوهم ، وقد تقدّم فى البقرة ، وفى الأعراف ، وفى يونس . واللام فى : ﴿لقد﴾ هى الموطئة للقسم ، وفى ذلك من التأكيد ما لا يخفى ، و«أن» فى : ﴿أن أسر بعبادى﴾ إما المفسرة لأن فى الوحى معنى القول ، أو مصدرية ، أى بأن أسر ، أى أسر بهم من مصر . وقد تقدّم هذا مستوفى . ﴿فاضرب لهم طريقاً فى البحر ييسا﴾ أى اجعل لهم طريقاً ، ومعنى ﴿يسا﴾ : يابساً ، وصف به الفاعل مبالغة ، وذلك أن الله تعالى أيبس لهم تلك الطريق حتى لم يكن فيها ماء ولا طين . وقرئ : «يسا» بسكون الباء ، على أنه مخفف من ييسا المحرك ، أو جمع يابس كصحب فى صاحب . وجملة : ﴿لا تخاف دركا﴾ فى محل نصب على الحال ، أى آمنا من أن يدرككم العدو ، أو صفة أخرى لطريق ، والدرك : اللحاق بهم من فرعون وجنوده . وقرأ حمزة : «لا تخف» على أنه جواب الأمر ، والتقدير : إن تضرب لا تخف ، و﴿لا تخشى﴾ على هذه القراءة مستأنف ، أى ولا أنت تخشى من فرعون أو من البحر . وقرأ الجمهور : ﴿لا تخاف﴾ وهى أرجح لعدم الجزم فى : ﴿تخشى﴾ ويجوز أن تكون هذه الجملة على قراءة الجمهور صفة أخرى لطريق ، أى لا تخاف منه ولا تخشى منه .

﴿فاتبعهم فرعون بجنوده﴾ أتبع هنا مطاوع تبع ، يقال : أتبعتهم : إذا تبعتهم ، وذلك إذا سبقوك فلحققتهم ، فالمعنى : تبعهم فرعون ومعه جنوده . وقيل : الباء زائدة والأصل اتبعهم جنوده ، أى أمرهم أن يتبعوا موسى وقومه ، وقرئ : «فاتبعهم» بالتشديد ، أى لحقتهم بجنوده وهو معهم كما يقال : ركب الأمير بسيفه ، أى معه سيفه ، ومحل بجنوده النصب على الحال ، أى سابقاً بجنوده معه ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ أى علاهم وأصابهم ما علاهم وأصابهم ، والتكرير للتعظيم والتهويل كما فى قوله : ﴿الحاقة . ما الحاقة﴾ [الحاقة : ١ ، ٢] . وقيل : غشيهم ما سمعت قصته . وقال ابن الأنبارى : غشيهم البعض الذى غشيهم ؛ لأنه لم

يغشهم كل ماء البحر، بل الذى غشيهم بعضه . فهذه العبارة للدلالة على أن الذى غرقهم بعض الماء ، والأول أولى لما يدل عليه من التهويل والتعظيم . وقرئ : « فغشاهم من اليم ما غشاهم » أى غطاهم ما غطاهم .

﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ أى أضلهم عن الرشد ، وما هداهم إلى طريق النجاة ؛ لأنه قدر أن موسى ومن معه لا يفوتونه لكونهم بين يديه يمشون فى طريق يابسة ، وبين أيديهم البحر ، وفى قوله : ﴿ وما هدى ﴾ تأكيد لإضلاله ؛ لأن المضل قد يرشد من يضلّه فى بعض الأمور .

﴿ يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ﴾ ذكر سبحانه ما أنعم به على بنى إسرائيل بعد إنجائهم ، والتقدير : قلنا لهم بعد إنجائهم : ﴿ يا بنى إسرائيل ﴾ ويجوز أن يكون خطاباً لليهود المعاصرين لنا ﷺ ؛ لأن النعمة على الآباء معدودة من النعم على الأبناء . والمراد بعدوهم هنا : فرعون وجنوده ، وذلك بإغراقه وإغراق قومه فى البحر بمراى من بنى إسرائيل . ﴿ ووعدناكم جانب الطور الأيمن ﴾ انتصاب ﴿ جانب ﴾ على أنه مفعول به ، لا على الظرفية ؛ لأنه مكان معين غير مبهم ، وإنما تنتصب الأمكنة على الظرفية إذا كانت مبهمة . قال مكى : وهذا أصل لا خلاف فيه . قال النحاس : والمعنى : أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه لنكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام . وقيل : وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتى جانب الطور ، فالوعد كان لموسى ، وإنما خوطبوا به ؛ لأن الوعد كان لأجلهم . وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب : « ووعدناكم » بغير ألف ، واختاره أبو عبيدة ؛ لأن الوعد إنما هو من الله لموسى خاصة ، والمواعدة لا تكون إلا من اثنين ، وقد قدمنا فى البقرة هذا المعنى . و﴿ الأيمن ﴾ منصوب على أنه صفة للجانب ، والمراد : يمين الشخص ؛ لأن الجبل ليس له يمين ولا شمال ، فإذا قيل : خذ عن يمين الجبل بمعناه : عن يمينك من الجبل . وقرئ بجراً الأيمن على أنه صفة للمضاف إليه ﴿ ونزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ قد تقدّم تفسير المن بالترنجبين والسلوى بالسمانى ، وأوضحنا ذلك بما لا مزيد عليه ، وإنزال ذلك عليهم كان فى التيه .

﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أى وقلنا لهم : كلوا . والمراد بالطيبات : المستلذات . وقيل : الحلال ، على الخلاف المشهور فى ذلك . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش : « قد أنجيتكم من عدوكم ووعدتكم جانب الطور كلوا من طيبات ما رزقتكم » بقاء المتكلم فى الثلاثة . وقرأ الباقون بنون العظمة فيها . ﴿ ولا تطغوا فيه ﴾ الطغيان : التجاوز ، أى لا تتجاوزوا ما هو جائز إلى ما لا يجوز . وقيل : المعنى : لا تحجدوا نعمة الله فتكونوا طاغين . وقيل : لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكرها . وقيل : لا تعصوا المنعم ، أى لا تحملنكم السعة والعافية على المعصية ، ولا مانع من حمل الطغيان على جميع هذه المعانى ، فإن كل واحد منها يصدق عليه أنه طغيان ﴿ فيحل عليكم غضبى ﴾ هذا جواب النهى ، أى يلزمكم غضبى وينزل بكم ، وهو مأخوذ من حلول الدين ، أى حضور وقت أدائه ﴿ ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾ قرأ

الأعمش ويحيى بن وثاب والكسائي : « فيحل » بضم الحاء ، وكذلك قرؤوا : « يحلل » بضم اللام الأولى ، وقرأ الباقر بالكسر فيهما وهما لغتان . قال الفراء : والكسر أحب إلى من الضم ؛ لأن الضم من الحلول بمعنى الوقوع . ويحل بالكسر : يجب ، وجاء التفسير بالوجوب لا بالوقوع ، وذكر نحو هذا أبو عبيدة وغيره . ومعنى ﴿ فقد هوى ﴾ : فقد هلك . قال الزجاج : ﴿ فقد هوى ﴾ أى صار إلى الهاوية ، وهى قعر النار من هوى يهوى هوىاً ، أى سقط من علو إلى سفلى ، وهوى فلان ، أى مات .

﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ أى لمن تاب من الذنوب التى أعظمها الشرك بالله ، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وعمل عملاً صالحاً مما ندب إليه الشرع وحسنه ﴿ ثم اهتدى ﴾ أى استقام على ذلك حتى يموت ، كذا قال الزجاج وغيره . وقيل : لم يشك فى إيمانه . وقيل : أقام على السنة والجماعة . وقيل : تعلم العلم ليتهدى به . وقيل : علم أن لذلك ثواباً وعلى تركه عقاباً ، والأول أرجح مما بعده .

﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى ﴾ هذا حكاية لما جرى بين الله سبحانه وبين موسى عند موافاته الميقات . قال المفسرون : وكانت المواعدة أن يوافى موسى وجماعة من وجوه قومه . فسار موسى بهم ، ثم عجل من بينهم شوقاً إلى ربه ، فقال الله له : ما أعجلك ؟ أى ما الذى حملك على العجلة ، حتى تركت قومك وخرجت من بينهم ، فأجاب موسى عن ذلك : ﴿ قال هم أولاء على أثرى ﴾ أى هم بالقرب منى ، تابعون لأثرى واصلون بعدى . وقيل : لم يرد أنهم يسرون خلفه ، بل أراد أنهم بالقرب منه ينتظرون عوده إليهم . ثم قال مصرحاً بسبب ما سأله الله عنه فقال : ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ أى لترضى عني بمسارعتي إلى امتثال أمرك أو لتزداد رضا عني بذلك . قال أبو حاتم : قال عيسى بن عمر : بنو تميم يقولون : « أولا » مقصورة ، وأهل الحجاز يقولون : « أولاء » ممدودة . وقرأ ابن أبى إسحاق ونصر ورويس عن يعقوب : « على إثرى » بكسر الهمزة وإسكان الثاء ، وقرأ الباقر بفتحها وهما لغتان . ومعنى ﴿ عجلت إليك ﴾ : عجلت إلى الموضع الذى أمرتنى بالمصير إليه لترضى عني . يقال : رجل عجل وعجول وعجلان : بين العجلة . والعجلة خلاف البطء .

وجملة : ﴿ قال فإننا قد فتننا قومك من بعدك ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال الله له ؟ فقيل : قال : إنا قد فتننا قومك من بعدك ، أى ابتليناهم واختبرناهم وألقيناهم فى فتنة ومحنة . قال ابن الأنبارى : صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقتهم من بينهم ، وهم الذين خلفهم مع هارون ﴿ وأضلهم السامرى ﴾ أى دعاهم إلى الضلالة ، وكان من قوم يعبدون البقر ، فدخل فى دين بنى إسرائيل فى الظاهر وفى قلبه ما فيه من عبادة البقر ، وكان من قبيلة تعرف بالسامرة ، وقال لمن معه من بنى إسرائيل : إنما تخلف موسى عن الميعاد الذى بينكم وبينه لما صار معكم من الخلى ، وهى حرام عليكم وأمرهم بإلقائها فى النار ، فكان من أمر العجل ما كان .

﴿ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ﴾ قيل : وكان الرجوع إلى قومه بعد ما استوفى أربعين يوماً : ذا القعدة ، وعشر ذى الحجة ، والأسف : الشديد الغضب . وقيل : الحزين ، وقد مضى فى الأعراف بيان هذا مستوفى . ﴿ قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخى ، والوعد الحسن : وعدهم بالجنة إذا أقاموا على طاعته ، ووعدهم أن يسمعهم كلامه فى التوراة على لسان موسى ليعملوا بما فيها ، فيستحقوا ثواب عملهم . وقيل : وعدهم النصر والظفر . وقيل : هو قوله : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب ﴾ الآية . ﴿ أفتال عليكم العهد ﴾ الفاء للعطف على مقدر ، أى أوعدكم ذلك ، فطال عليكم الزمان فنسيتم ﴿ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴾ أى يلزمكم وينزل بكم ، والغضب : العقوبة والنقمة . والمعنى : أم أردتم أن تفعلوا فعلاً يكون سبب حلول غضب الله عليكم ﴿ فأخلفتكم موعدى ﴾ أى موعدكم إياى ، فالمصدر مضاف إلى المفعول : لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطور . وقيل : وعدوه أن يأتوا على أثره إلى الميقات ، فتوقفوا فأجابوه ، ﴿ قالوا ما أخلفنا موعدك ﴾ الذى وعدناك ﴿ بملكنا ﴾ بفتح الميم ، وهى قراءة نافع وأبى جعفر وعاصم وعيسى بن عمر ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر الميم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنها على اللغة العالية الفصيحة ، وهو مصدر ملكت الشيء أملكه ملكاً ، والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف ، أى بملكنا أمورنا ، أو بملكنا الصواب ، بل أخطأنا ولم نملك أنفسنا وكنا مضطرين إلى الخطأ ، وقرأ حمزة والكسائى : « بملكنا » بضم الميم ، والمعنى : بسلطاننا ، أى لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك . وقيل : إن الفتح والكسر والضم فى : « بملكنا » كلها لغات فى مصدر ملكت الشيء .

﴿ ولكننا حملنا أوزارنا من زينة القوم ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر ورويس : ﴿ حملنا ﴾ بضم الحاء وتشديد الميم ، وقرأ الباقون بفتح الحاء والميم مخففة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنهم حملوا حلية القوم معهم باختيارهم ، وما حملوها كرهاً ، فإنهم كانوا استعاروها منهم حين أرادوا الخروج مع موسى ، وأوهموهم أنهم يجتمعون فى عيد لهم أو وليمة . وقيل : هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل ، وسميت أوزاراً ، أى آثاماً ؛ لأنه لا يحل لهم أخذها ، ولا تحل لهم الغنائم فى شريعتهم والأوزار فى الأصل : الأثقال ، كما صرح به أهل اللغة ، والمراد بالزينة هنا : الحلى . ﴿ فقذفناها ﴾ أى طرحناها فى النار طلباً للخلاص من إثمها . وقيل : المعنى : طرحناها إلى السامرى لتبقى لديه حتى يرجع موسى فىرى فيها رأيه ﴿ فكذلك ألقى السامرى ﴾ أى فمثل ذلك القذف ألقاها السامرى . قيل : إن السامرى قال لهم حين استبطأ القوم رجوع موسى : إنما احتبس عنكم لأجل ما عندكم من الحلى ، فجمعوه ودفعوه إليه ، فرمى به فى النار وصاغ لهم منه عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول وهو جبريل ، فصار ﴿ عجلاً جسداً له خوار ﴾ أى يخور كما يخور الحى من العجول ، والخوار : صوت البقر . وقيل : خواره كان بالريح ؛ لأنه

كان عمل فيه خروفاً ، فإذا دخلت الريح فى جوفه خار ولم يكن فيه حياة ﴿ فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ﴾ أى قال السامريّ ومن وافقه هذه المقالة ﴿ فنسى ﴾ أى فضل موسى ولم يعلم مكان إلهه هذا ، وذهب يطلبه فى الطور . وقيل : المعنى : فنى موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم . وقيل : الناسى هو السامريّ ، أى ترك السامريّ ما أمر به موسى من الإيمان وضل ، كذا قال ابن الأعرابي .

﴿ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ﴾ أى أفلا يعتبرون ويتفكرون فى أن هذا العجل لا يرجع إليهم قولا ، أى لا يردّ عليهم جواباً ، ولا يكلمهم إذا كلموه ، فكيف يتوهمون أنه إله وهو عاجز عن المكالمة ؟ فأن فى : ﴿ ألا يرجع ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، وفيها ضمير مقدر يرجع إلى العجل ، ولهذا ارتفع الفعل بعدها ، ومنه قول الشاعر :

فى فتية من سيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفى ويتعل

أى أنه هالك . وقرئ بنصب الفعل على أنها الناصبة ، وجملة : ﴿ ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ لا يرجع ﴾ أى أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضراً ولا يجلب إليهم نفعا .

﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل ﴾ اللام هى الموطئة للقسم ، والجملة مؤكدة لما تضمنته الجملة التى قبلها من الإنكار عليهم والتوبيخ لهم ، أى ولقد قال لهم هارون من قبل أن يأتى موسى ويرجع إليهم ﴿ يا قوم إنما فتنتم به ﴾ أى وقعتم فى الفتنة بسبب العجل ، وابتليتم به وضللتم عن طريق الحق لأجله . قيل : ومعنى القصر المستفاد من إنما هو : أن العجل صار سبباً لفتنتهم لا لرشادهم ، وليس معناه : أنهم فتنوا بالعجل لا بغيره ﴿ وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى ﴾ أى ربكم الرحمن لا العجل ، فاتبعونى فى أمرى لكم بعبادة الله ، ولا تتبعوا السامريّ فى أمره لكم بعبادة العجل ، وأطيعوا أمرى لا أمره .

﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ أجابوا هارون عن قوله المتقدم بهذا الجواب المتضمن لعصيانه ، وعدم قبول ما دعاهم إليه من الخير وحذرهم عنه من الشر ، أى لن نزال مقيمين على عبادة هذا العجل ، حتى يرجع إلينا موسى ، فينظر : هل يقررنا على عبادته أو ينهانا عنها ؟ فعند ذلك اعتزلهم هارون فى اثنى عشر ألفاً من المنكرين لما فعله السامريّ .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب فى قوله : ﴿ ييسا ﴾ قال : يابساً ليس فيه ماء ولا طين . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ لا تخاف دركا ﴾ من آل فرعون ﴿ ولا تخشى ﴾ من البحر غرقاً . وأخرجنا عنه أيضاً فى قوله : ﴿ فقد هوى ﴾ : شقى . وأخرجنا عنه أيضاً : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب ﴾ قال : من الشرك ﴿ وآمن ﴾ قال : وحد الله ﴿ وعمل صالحا ﴾ قال : أدى الفرائض ﴿ ثم اهتدى ﴾ قال : لم يشكك . وأخرج سعيد

ابن منصور والفريابي عنه أيضاً : ﴿ وإني لغفار لمن تاب ﴾ قال : من تاب من الذنب ، وآمن من الشرك ، وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه ﴿ ثم اهتدى ﴾ علم أن لعمله ثواباً يجزى عليه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير : ﴿ ثم اهتدى ﴾ قال : ثم استقام ، لزم السنة والجماعة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة ، والبيهقي في البعث من طريق عمرو بن ميمون عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : تعجل موسى إلى ربه ، فقال الله : ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى ﴾ الآية ، قال : فرأى في ظل العرش رجلاً فجعل له ، فقال : من هذا يا رب ؟ قال : لا أحدثك من هو ، لكن سأخبرك بثلاث فيه : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ولا يعقّ والديه ، ولا يمشى بالنميمة . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن عليّ قال : لما تعجل موسى إلى ربه عمد السامريّ فجمع ما قدر عليه من حلىّ بنى إسرائيل فضربه عجللاً ، ثم ألقى القبض في جوفه فإذا هو عجل جسد له خوار ، فقال لهم السامريّ : ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ فقال لهم هارون : ﴿ يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ﴾ فلما أن رجع موسى أخذ برأس أخيه ، فقال له هارون ما قال ، فقال موسى للسامريّ : ما خطبك ؟ قال : ﴿ قبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي ﴾ فعمد موسى إلى العجل ، فوضع موسى عليه المبرد فبرده بها وهو على شط نهر فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد ذلك العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب فقالوا لموسى : ما توبتنا ؟ قال : يقتل بعضكم بعضاً ، فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه ولا يبالي بمن قتل حتى قتل منهم سبعون ألفاً ، فأوحى الله إلى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم ، فقد غفرت لمن قتل وتبت على من بقى ^(١) . والحكايات لهذه القصة كثيرة جداً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ بملكنا ﴾ قال : بأمرنا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة : ﴿ بملكنا ﴾ قال : بطاقتنا . وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ مثله . وأخرج أيضاً عن الحسن قال : بسلطاننا . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ هذا إلهكم وإله موسى فنسى ﴾ قال : فَنسى موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه .

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بُنَيَّ لَوْ تَأْخُذُ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ

(١) صححه الحاكم ٢/ ٣٧٩ ، ٣٨٠ على شرط الشيخين وقال : « لم يخرجاه » ووافقه الذهبي .

أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) ﴿

جملة : ﴿ قال يا هارون ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، والمعنى : أن موسى لما وصل إليهم أخذ بشعور رأس أخيه هارون وبلحيته وقال : ﴿ ما منعك ﴾ من اتباعي والحق بي عندما وقعوا في هذه الضلالة ودخلوا في الفتنة . وقيل : معنى ﴿ ما منعك ... ألا تبعن ﴾ : ما منعك من اتباعي في الإنكار عليهم . وقيل : معناه : هلا قاتلتهم إذ قد علمت أني لو كنت بينهم لقاتلتهم . وقيل : معناه : هلا فارقتهم . و« لا » في : ﴿ ألا تبعن ﴾ زائدة ، وهو في محل نصب على أنه مفعول ثانٍ لمنع ، أى أى شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم من اتباعي ، والاستفهام في : ﴿ أف عصيت أمرى ﴾ للإنكار والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر كمنظائره ، والمعنى : كيف خالفت أمرى لك بالقيام لله ومنازمة من خالف دينه وأقمت بين هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً ؟ وقيل المراد بقوله : ﴿ أمرى ﴾ هو قوله الذى حكى الله عنه : ﴿ وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ [الأعراف : ١٤٢] فلما أقام معهم ولم يبالغ في الإنكار عليهم نسبة إلى عصيانه .

﴿ قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ﴾ قرئ بالفتح والكسر للميم ، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة الأعراف . ونسبه إلى الأم مع كونه أخاه لأبيه وأمه ، عند الجمهور ؛ استعطافاً له وترقيقاً لقلبه ، ومعنى ﴿ ولا برأسى ﴾ : ولا بشعر رأسى ، أى لا تفعل هذا بى عقوبة منك لى ، فإن لى عذراً هو ﴿ إني خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ﴾ أى خشيت إن خرجت عنهم وتركتهم أن يفرقوا فتقول : إني فرقت جماعتهم وذلك لأن هارون لو خرج لتبعه جماعة منهم وتخلف مع السامري عند العجل آخرون ، وربما أفضى ذلك إلى القتال بينهم ، ومعنى ﴿ ولم ترقب قولى ﴾ : ولم تعمل بوصيتى لك فيهم ، إني خشيت أن تقول : فرقت بينهم ، وتقول : لم تعمل بوصيتى لك فيهم وتحفظها ، ومراده بوصية موسى له هو قوله : ﴿ اخلفنى فى قومى وأصلح ﴾ قال أبو عبيد : معنى ﴿ ولم ترقب قولى ﴾ : ولم تنتظر عهدى وقدمى لأنك أمرتني أن أكون معهم ، فاعتذر هارون إلى موسى ها هنا بهذا ، واعتذر إليه في الأعراف بما حكاه الله عنه هنالك حيث قال : ﴿ إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلونى ﴾ [الأعراف : ١٥٠] .

ثم ترك موسى الكلام مع أخيه وخاطب السامري فقال : ﴿ فما خطبك يا سامرى ﴾ أى ما

شأنك وما الذى حملك على ما صنعت ؟ ﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ أى قال السامرى مجيباً على موسى : رأيت ما لم يروا أو علمت بما لم يعلموا وفطنت لما لم يفطنوا له ، وأراد بذلك : أنه رأى جبريل على فرس الحياة ، فألقى فى ذهنه أن يقبض قبضة من أثر الرسول ، وأن ذلك الأثر لا يقع على جماد إلا صار حياً . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش وخلف : « ما لم تبصروا به » بالمشنة من فوق على الخطاب ، وقرأ الباقون بالتحية ، وهى أولى ؛ لأنه يبعد كل البعد أن يخاطب موسى بذلك ويدعى لنفسه أنه علم ما لم يعلم به موسى ، وقرئ بضم الصاد فيهما وبكسرهما فى الأول وفتحها فى الثانى ، وقرأ أبى بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة : « فقبضت قبضة » بالصاد المهملة فيهما ، وقرأ الباقون بالصاد المعجمة فيهما ، والفرق بينهما أن القبض بالمعجمة : هو الأخذ بجميع الكف ، وبالمهملة : بأطراف الأصابع . والقبضة بضم القاف : القدر المقبوض . قال الجوهري : هى ما قبضت عليه من شىء ، قال : وربما جاء بالفتح ، وقد قرئ : « قبضة » بضم القاف وفتحها ، ومعنى الفتح : المرة من القبض ، ثم أطلقت على المقبوض وهو معنى القبضة بضم القاف ، ومعنى ﴿ من أثر الرسول ﴾ : من المحل الذى وقع عليه حافر فرس جبريل ، ومعنى ﴿ فبذتها ﴾ : فطرحتها فى الحلى المذابة المسبوكة على صورة العجل ﴿ وكذلك سولت لى نفسى ﴾ قال الأخفش : أى زينت ، أى ومثل ذلك التسويل : سولت لى نفسى . وقيل : معنى ﴿ سولت لى نفسى ﴾ : حدثتني نفسى .

فلما سمع موسى منه قال : ﴿ فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ﴾ أى فاذهب من بيننا واخرج عنا فإن لك فى الحياة ، أى ما دمت حياً ، وأطول حياتك أن تقول : لا مساس . المساس مأخوذ من المماسه ، أى لا يمسك أحد ولا تمس أحداً ، لكن لا بحسب الاختيار منك ، بل بموجب الاضطرار الملجئ إلى ذلك ؛ لأن الله سبحانه أمر موسى أن ينفى السامرى عن قومه ، وأمر بنى إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له . قيل : إنه لما قال له موسى ذلك هرب ، فجعل يهيم فى البرية مع السباع والوحش لا يجد أحداً من الناس يمسه ، حتى صار كمن يقول : لا مساس ، لبعده عن الناس وبعد الناس عنه ، كما قال الشاعر :

حمال رايات بها قناعسا حتى تقول الأزد لا ماساسا

قال سيبويه : وهو مبنى على الكسر . قال الزجاج : كسرت السين ؛ لأن الكسرة من علامة التأنيث . قال الجوهري فى الصحاح : وأما قول العرب : لا مساس ، مثل قطام ، فإنما بنى على الكسر ؛ لأنه معدول عن المصدر ، وهو المس . قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول : سمعت محمد بن يزيد المبرد يقول : إذا اعتل الشىء من ثلاث جهات وجب أن يبنى ، وإذا اعتل من جهتين وجب ألا ينصرف ؛ لأنه ليس بعد الصرف إلا البناء ، فمساس دراك اعتل من ثلاث جهات : منها أنه معدول ، ومنها أنه مؤنث ، ومنها أنه معرفة ، فلما وجب البناء فيه وكانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لالتقاء الساكنين . وقد رأيت أبا إسحاق ، يعنى الزجاج ، ذهب إلى أن هذا القول خطأ وألزم أبا العباس إذا سميت امرأة

بفرعون أن يبنيه وهذا لا يقوله أحد . وقد قرأ بفتح الميم أبو حيوه والباقون بكسرها . وحاصل ما قيل فى معنى ﴿ لا مساس ﴾ ثلاثة أوجه : الأول : أنه حرم عليه مماسة الناس ، وكان إذا ماسه أحد حمّ الماس والممسوس ، فلذلك كان يصيح إذا رأى أحداً لا مساس . والثانى : أن المراد منع الناس من مخالطته ؛ واعترض بأنّ الرجل إذا صار مهجوراً فلا يقول هو : لا مساس ، وإنما يقال له . وأجيب بأن المراد الحكاية ، أي أجعلك يا سامرى بحيث إذا أخبرت عن حالك قلت : لا مساس . والقول الثالث : أن المراد انقطاع نسله ، وأن يخبر بأنه لا يتمكن من مماسة المرأة ، قاله أبو مسلم وهو ضعيف جداً .

ثم ذكر حاله فى الآخرة فقال : ﴿ وإن لك موعداً لن تخلفه ﴾ أى لن يخلفك الله ذلك الموعد ، وهو يوم القيامة ، والموعد مصدر ، أى إن لك وعداً لعذابك ، وهو كائن لا محالة قال الزجاج : أى يكافئك الله على ما فعلت فى القيامة والله لا يخلف الميعاد . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن محيصن واليزيدى والحسن : « لن تخلفه » بكسر اللام ، وله على هذه القراءة معنيان : أحدهما : ستأتيه ولن تجده مخلفاً كما تقول : أحمدته ، أى وجدته محموداً . والثانى : على التهديد ، أى لا بدّ لك من أن تصير إليه . وقرأ ابن مسعود : « لن نخلفه » بالنون ، أى لن يخلفه الله . وقرأ الباقر بفتح اللام ، وبالفوقية مبنياً للمفعول ، معناه ما قدمناه .

﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا ﴾ ظلت أصله : ظللت فحذفت اللام الأولى تخفيفاً ، والعرب تفعل ذلك كثيراً . وقرأ الأعمش اللامين على الأصل . وفى قراءة ابن مسعود : « ظلت » بكسر الظاء . والمعنى : انظر إلى إلهك الذى دمت وأقمت على عبادته ، والعاكف : الملازم . ﴿ لنحرقنه ﴾ قرأ الجمهور بضم النون وتشديد الراء من حرّقه يحرقه . وقرأ الحسن بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء من أحرّقه يحرقه . وقرأ على وابن عباس وأبو جعفر وابن محيصن وأشهب والعقيلي : « لنحرقنه » بفتح النون وضم الراء مخففة ، من حرقت الشيء أحرّقه حرّقا : إذا بردته وحككت بعضه ببعض ، أى لنبردنه بالمبارد ، ويقال للمبرد : المحرق . والقراءة الأولى أولى ، ومعناها : الإحراق بالنار ، وكذا معنى القراءة الثانية ، وقد جمع بين هذه القراءات الثلاث بأنه أحرّق ، ثم برد بالمبرد ، وفى قراءة ابن مسعود : « لنذبحنه ثم لنحرقنه » واللام هى الموطئة للقسم . ﴿ ثم لننسفنه فى اليم نسفا ﴾ النسف : نفّض الشيء ليذهب به الريح . قرأ أبو رجاء : « لننسفنه » بضم السين ، وقرأ الباقر بكسرها ، وهما لغتان . والمنسف : ما ينسف به الطعام ، وهو شيء منصوب الصدر أعلاه مرتفع ، والنسافة : ما يسقط منه .

﴿ إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ﴾ لا هذا العجل الذى فتنكم به السامرى ﴿ وسع كل شيء علما ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ وسع ﴾ بكسر السين مخففة . وهو متعد إلى مفعول واحد ، وهو ﴿ كل شيء ﴾ . وانتصاب ﴿ علما ﴾ على التمييز المحول عن الفاعل ، أى وسع علمه كل

شئ . وقرأ مجاهد وقتادة : « وسع » بتشديد السين وفتحها فيتعدي إلى مفعولين ، ويكون انتصاب ﴿ علما ﴾ على أنه المفعول الأول وإن كان متأخراً ؛ لأنه في الأصل فاعل ، والتقدير : وسع علمه كل شئ ، وقد مرّ نحو هذا في الأعراف .

﴿ كذلك نقص عليك ﴾ الكاف في محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف ، أي كما قصصنا عليك خبر موسى كذلك نقص عليك ﴿ من أنباء ما قد سبق ﴾ أي من أخبار الحوادث الماضية في الأمم الخالية لتكون تسليّة لك ودلالة على صدقك ، و « من » للتبويض ، أي بعض أخبار ذلك ﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكراً ﴾ المراد بالذكر : القرآن ، وسمى ذكراً ؛ لما فيه من الموجبات للتذكر والاعتبار . وقيل : المراد بالذكر : الشرف ، كقوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

ثم تواعد سبحانه المعرضين عن هذا الذكر فقال : ﴿ من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً ﴾ أي أعرض عنه فلم يؤمن به ولا عمل بما فيه . وقيل : أعرض عن الله سبحانه ، فإن المعرض عنه يحمل يوم القيامة وزراً ، أي إثماً عظيماً وعقوبة ثقيلة بسبب إعراضه ﴿ خالدین ﴾ فيه ﴿ في الوزر ، والمعنى : أنهم يقيمون في جزائه . وانتصاب : ﴿ خالدین ﴾ على الحال ﴿ وساء لهم يوم القيامة حملاً ﴾ أي بش الحمل يوم القيامة ، والمخصوص بالذم محذوف ، أي ساء لهم حملاً وزرهم واللام للبيان ، كما في : ﴿ هيت لك ﴾ [يوسف : ٢٣] .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ يا هارون ما منعك ﴾ إلى قوله : ﴿ أف عصيت أمري ﴾ قال : أمره موسى أن يصلح ولا يتبع سبيل المفسدين ، فكان من إصلاحه أن ينكر العجل . وأخرج عنه أيضاً في قوله : ﴿ ولم ترقب قولي ﴾ قال : لم تنتظر قولي ما أنا صانع ، وقال ابن عباس : ﴿ لم ترقب ﴾ : لم تحفظ قولي . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس ﴾ قال : عقوبة له ﴿ وإن لك موعداً لن تخلفه ﴾ قال : لن تغيب عنه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا ﴾ قال : أقمت ﴿ لنحرقنه ﴾ قال : بالنار ﴿ ثم لنسفته في اليم ﴾ قال : لنذرنيه في البحر . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « لنحرقنه » خفيفة ، ويقول : إن الذهب والفضة لا تحرق بالنار ، بل تسحل بالمبرد ثم تلقى على النار فتصير رماداً . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : ﴿ اليم ﴾ : البحر . وأخرج أيضاً عن عليّ قال : ﴿ اليم ﴾ : النهر . وأخرج أيضاً عن قتادة في قوله : ﴿ وسع كل شئ علماً ﴾ قال : ملأ . وأخرج أيضاً عن ابن زيد في قوله : ﴿ من لدنا ذكراً ﴾ قال : القرآن . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : ﴿ وزراً ﴾ قال : إثماً . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وساء لهم يوم القيامة حملاً ﴾ يقول : بش ما حملوا .

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴿

الظرف وهو : ﴿ يوم ينفخ ﴾ متعلق بمقدر هو اذكر . وقيل : هو بدل من يوم القيامة ، والأول أولى . قرأ الجمهور : ﴿ ينفخ ﴾ بضم الياء التحتية مبنياً للمفعول ، وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق بالنون مبنياً للفاعل ، واستدل أبو عمرو على قراءته هذه بقوله : ﴿ ونحشر ﴾ فإنه بالنون ، وقرأ ابن هرمز : « ينفخ » بالتحية مبنياً للفاعل على أن الفاعل هو الله سبحانه أو إسرافيل ، وقرأ أبو عياض : « في الصور » بفتح الواو جمع صورة ، وقرأ الباقر بسكون الواو ، وقرأ طلحة بن مصرف والحسن : « يحشر » بالياء التحتية مبنياً للمفعول ورفع المجرمين ﴾ وهو خلاف رسم المصحف ، وقرأ الباقر بالنون . وقد سبق تفسير هذا في الأنعام . والمراد بالمجرمين : المشركون والعصاة المأخوذون بذنوبهم التي لم يغفرها الله لهم ، والمراد بـ﴿يومئذ﴾ : يوم النفخ في الصور . وانتصاب ﴿ زرقا ﴾ على الحال من المجرمين ، أى زرق العيون ، والزرقه الخضرة فى العين كعين السنور والعرب تشاءم بزرقه العين ، وقال الفراء : ﴿زرقا﴾ أى عمياء . وقال الأزهري : عطاشاً ، وهو قول الزجاج ؛ لأن سواد العين يتغير بالعطش إلى الزرقه . وقيل : إنه كنى بقوله : ﴿ زرقا ﴾ عن الطمع الكاذب إذا تعقبته الحية . وقيل : هو كناية عن شخوص البصر من شدة الخوص ، ومنه قول الشاعر :

لقد زرقت عيناك يا بن معكبر كما كل ضبى من اللؤم أزرق

والقول الأول أولى ، والجمع بين هذه الآية وبين قوله : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ﴾ [الإسراء : ٩٧] ما قيل من أن ليوم القيامة حالات ومواطن تختلف فيها صفاتهم ويتنوع عندها عذابهم .

وجملة : ﴿ يتخافتون بينهم ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة لبيان ما هم فيه فى ذلك اليوم ، والخفت فى اللغة : السكون ، ثم قيل لمن خفض صوته : خفته . والمعنى : يتساررون ، أى يقول بعضهم لبعض سرا : ﴿ إن لبثتم إلا عشرا ﴾ أى ما لبثتم فى الدنيا إلا عشر ليال . وقيل : فى القبور . وقيل : بين النفختين ، والمعنى : أنهم يستقصرون مدة مقامهم

فى الدنيا ، أو فى القبور ، أو بين النفختين لشدة ما يرون من أهوال القيامة . وقيل : المراد بالعشر : عشر ساعات . ثم لما قالوا هذا القول قال الله سبحانه : ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ إذ يقول أمثلهم طريقة ﴿ أى أعدلهم قولاً وأكملهم رأياً وأعلمهم عند نفسه : ﴿ إن لبثتم إلا يوماً ﴾ أى ما لبثتم إلا يوماً واحداً ، ونسبة هذا القول إلى أمثلهم ؛ لكونه أدل على شدة الهول ، لا لكونه أقرب إلى الصدق .

﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ أى عن حال الجبال يوم القيامة ، وقد كانوا سألوا النبى ﷺ عن ذلك ، فأمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال : ﴿ فقل ينسفها ربي نسفا ﴾ قال ابن الأعرابى وغيره : يقلعها قلعاً من أصولها ، ثم يصيرها رملاً يسيل سيلاً ، ثم يسيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا ، ثم كالهباء المنثور . والفاء فى قوله : ﴿ فقل ﴾ لجواب شرط مقدر ، والتقدير : إن سألوكم فقل ، أو للمسارعة إلى إلزام السائلين . والضمير فى قوله : ﴿ فيذرهما ﴾ راجع إلى الجبال باعتبار مواضعها ، أى فيذر مواضعها بعد نسف ما كان عليها من الجبال ﴿ قاعاً صفصفا ﴾ قال ابن الأعرابى : القاع الصفصف : الأرض الملساء بلا نبات ولا بناء ، وقال الفراء : القاع : مستنقع الماء ، والصفصف : القرعاء الملساء التى لا نبات فيها . وقال الجوهري : القاع : المستوى من الأرض ، والجمع أقوع وأقواع وقيعان . والظاهر من لغة العرب أن القاع : الموضع المنكشف ، والصفصف : المستوى الأملس ، وأنشد سيويه :

وكم دون بيتك من صفصف ودكداك رمل وأعقادها

وانتصاب : ﴿ قاعاً ﴾ على أنه مفعول ثان ليدر على تضمينه معنى التصيير ، أو على الحال والصفصف صفة له . ومحل : ﴿ لا ترى فيها عوجاً ﴾ النصب على أنه صفة ثانية لـ ﴿ قاعاً ﴾ والضمير راجع إلى الجبال بذلك الاعتبار . والعوج بكسر العين : التعوج ، قاله ابن الأعرابى . والأمت : التلال الصغار . والأمت فى اللغة : المكان المرتفع . وقيل : العوج : الميل ، والأمت : الأثر مثل الشراك . وقيل : العوج : الوادى ، والأمت : الرابية . وقيل : هما الارتفاع . وقيل : العوج : المصدوع ، والأمت : الأكمة . وقيل : الأمت : الشقوق فى الأرض . وقيل : الأمت : أن يغلظ فى مكان ويدق فى مكان . ووصف مواضع الجبال بالعوج بكسر العين ها هنا يدفع ما يقال : إن العوج بكسر العين فى المعانى وبفتحتها فى الأعيان ، وقد تكلف لذلك صاحب الكشف فى هذا الموضع بما عنه غنى ، وفى غيره سعة .

﴿ يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له ﴾ أى يوم نسف الجبال يتبع الناس داعى الله إلى المحشر . وقال الفراء : يعنى صوت الحشر ، وقيل : الداعى هو إسرافيل إذا نفخ فى الصور لا عوج له ، أى لا معدل لهم عن دعائه فلا يقدرّون على أن يزيغوا عنه ، أو ينحرفوا منه بل يسرعون إليه كذا قال أكثر المفسرين . وقيل : لا عوج لدعائه ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ أى خضعت لهيبته ، وقيل : ذلت . وقيل : سكنت ، ومنه قول الشاعر :

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع

﴿ فلا تسمع إلا همسا ﴾ الهمس : الصوت الخفى . قال أكثر المفسرين : هو صوت نقل الأقدام إلى المحشر ، ومنه قول الشاعر :

وهنّ يمشين بنا هميسا

يعنى صوت أخفاف الإبل .

وقال رؤبة يصف نفسه :

ليث يدق الأسد الهموسا ولا يهاب الفيل والجاموسا

يقال للأسد : الهموس ؛ لأنه يهمس فى الظلمة ، أى يظاً وظاً خفياً . والظاهر أن المراد هنا : كل صوت خفى سواء كان بالقدم ، أو من الفم ، أو غير ذلك ، ويؤيده قراءة أبى بن كعب : « فلا ينطقون إلا همساً » .

﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة ﴾ أى يوم يقع ما ذكر لا تنفع الشفاعة من شافع كائننا من كان ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ أى إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع له ﴿ ورضى له قولاً ﴾ أى رضى قوله فى الشفاعة أو رضى لأجله قول الشافع . والمعنى : إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له قول يرضى ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ لا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، وقوله : ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ [مريم : ٨٧] ، وقوله : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ [المدثر : ٤٨] .

﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أى ما بين أيديهم من أمر الساعة ، وما خلفهم من أمر الدنيا ، والمراد هنا : جميع الخلق . وقيل : المراد بهم : الذين يتبعون الداعى ، وقال ابن جرير : الضمير يرجع إلى الملائكة ، أعلم الله من يعبدونها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ أى بالله سبحانه ، لا تحيط علومهم بذاته ، ولا بصفاته ، ولا بمعلوماته . وقيل : الضمير راجع إلى ما فى الموضوعين فإنهم لا يعلمون جميع ذلك ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ أى ذلت وخضعت ، قاله ابن الأعرابى . قال الزجاج : معنى عنت فى اللغة : خضعت ، يقال : عنى يعنوا عنوا : إذا خضع ، ومنه قيل للأسير : عان ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

ملك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وقيل : هو من العناء ، بمعنى التعب ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ أى خسر من حمل شيئاً من الظلم . وقيل : هو الشرك . ﴿ ومن يعمل من الصالحات ﴾ أى الأعمال الصالحة ﴿ وهو مؤمن ﴾ بالله ؛ لأن العمل لا يقبل من غير إيمان ، بل هو شرط فى القبول ﴿ فلا يخاف ظلماً ﴾ يصاب به من نقص ثواب فى الآخرة ﴿ ولا هضمًا ﴾ الهضم : النقص والكسر ،

يقال: هضمت لك من حقى ، أى حططته وتركته . وهذا يهضم الطعام ، أى ينقص ثقله . وامرأة هضيم الكشح ، أى ضامرة البطن . وقرأ ابن كثير ومجاهد : « لا يخف » بالجزم جواباً لقوله : ﴿ ومن يعمل من الصالحات ﴾ وقرأ الباقر : ﴿ يخاف ﴾ على الخبر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن رجلاً أتاه ، فقال رأيت قوله : ﴿ ونحشر الجرمين يومئذ زرقاً ﴾ وأخرى عمياً قال : إن يوم القيامة فيه حالات يكونون فى حال زرقاً ، وفى حال عمياً . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ يتخافتون بينهم ﴾ قال يتساررون . وأخرج ابن أبى شعبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبيرة فى قوله : ﴿ أمثلهم طريقة ﴾ قال : أوفاهم عقلاً ، وفى لفظ قال : أعلمهم فى نفسه .

وأخرج ابن المنذر وابن جريج قال : قالت قريش : كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة ؟ فنزلت : ﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ الآية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فيذرهما قاعاً صفصفا ﴾ قال : لا نبات فيه ﴿ لا ترى فيها عوجاً ﴾ قال : وادياً ﴿ ولا أمثاً ﴾ قال : رابية . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة أنه سئل عن قوله : ﴿ قاعاً صفصفا لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً ﴾ قال : كان ابن عباس يقول : هى الأرض الملساء التى ليس فيها رابية مرتفعة ولا انخفاض . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ عوجاً ﴾ قال : ميلاً ﴿ ولا أمثاً ﴾ قال : الأمت : الأثر مثل الشراك .

وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال : يحشر الناس يوم القيامة فى ظلمة تطوى السماء وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادى منادٍ فيتبع الناس الصوت يؤمونه ، فذلك قول الله : ﴿ يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح فى الآية : قال لا عوج عنه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وخشعت الأصوات ﴾ قال : سكنت ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ قال : الصوت الخفى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ إلا همساً ﴾ قال : صوت وطء الأقدام . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك وعكرمة وسعيد بن جبيرة والحسن مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد قال : الصوت الخفى . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبيرة قال : سر الحديث وصوت الأقدام .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ وعنت الوجوه ﴾ قال : ذلت . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : خشعت . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : خضعت . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ وعنت الوجوه ﴾ : الركوع والسجود . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج : ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ قال : شركاً . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة : ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ قال : شركاً ﴿ فلا يخاف ظلماً ﴾

ولا هضما ﴿ قال : ظلماً أن يزداد في سيئاته ﴾ ولا هضما ﴿ قال : ينقص من حسناته . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : لا يخاف أن يظلم في سيئاته ، ولا يهضم في حسناته . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه ﴾ ولا هضما ﴿ قال : غضباً .

﴿ وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ﴾ (١١٣) فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل رب زدني علماً (١١٤) ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً (١١٥) وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى (١١٦) فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى (١١٧) إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى (١١٨) وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى (١١٩) فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى (١٢٠) فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى (١٢١) ثم اجتباها ربه فتأب عليه وهدى (١٢٢) ﴿

قوله : ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ معطوف على قوله : ﴿ كذلك نقص عليك ﴾ أى مثل ذلك الإنزال أنزلناه ، أى القرآن حال كونه ﴿ قرآناً عربياً ﴾ أى بلغة العرب ليفهموه ﴿ وصرّفنا فيه من الوعيد ﴾ بينا فيه ضرورياً من الوعيد تخويفاً وتهديداً أو كررنا فيه بعضاً منه ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أى كى يخافوا الله فيتجنبوا معاصيه ويحذروا عقابه ﴿ أو يحدث لهم ذكراً ﴾ أى اعتباراً واتعظاً . وقيل : ورعاً . وقيل : شرفاً . وقيل : طاعة وعبادة ؛ لأن الذكر يطلق عليها . وقرأ الحسن : « أو نحدث » بالنون .

﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ لما بين للعباد عظيم نعمته عليهم بإنزال القرآن نزّه نفسه عن مماثلة مخلوقاته فى شيء من الأشياء ، أى جل الله عن إلحاد الملحدّين وعمّا يقول المشركون فى صفاته ، فإنه الملك الذى بيده الثواب والعقاب ، وأنه الحق أى ذو الحق ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ﴾ أى يتم إليك وحيه . قال المفسرون : كان النبى ﷺ يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً منه على ما كان ينزل عليه منه فنهاه الله عن ذلك ، ومثله قوله : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ [القيامة : ١٦] على ما يأتى إن شاء الله . وقيل : المعنى : ولا تلقه إلى الناس قبل أن يأتى بك بيان تأويله ، وقرأ ابن مسعود ويعقوب والحسن والأعمش : « من قبل أن نقضى » بالنون ونصب : « وحيه » . ﴿ وقل رب زدنى علماً ﴾ أى سل ربك زيادة العلم بكتابه .

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم ﴾ اللام هى الموطئة للقسم ، والجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من

تصريف الوعيد ، أى لقد أمرناه ووصيناه ، والمعهود محذوف ، وهو ما سيأتى من نهيه عن الأكل من الشجرة ، ومعنى ﴿ من قبل ﴾ : أى من قبل هذا الزمان ﴿ فنسى ﴾ قرأ الأعمش بإسكان الياء ، والمراد بالنسيان هنا : ترك العمل بما وقع به العهد إليه فيه ، وبه قال أكثر المفسرين . وقيل : النسيان على حقيقته ، وأنه نسى ما عهد الله به إليه ويتهى عنه ، وكان آدم مأخوذاً بالنسيان فى ذلك الوقت ، وإن كان النسيان مرفوعاً عن هذه الأمة . والمراد من الآية : تسلية النبى ﷺ على القول الأوّل ، أى أن طاعة بنى آدم للشيطان أمر قديم ، وأن هؤلاء المعاصرين له إن نقضوا العهد فقد نقض أبوهم آدم ، كذا قال ابن جرير والقشيري . واعترضه ابن عطية قائلاً بأن كون آدم مائلاً للكفار الجاحدين بالله ليس بشيء ، وقرئ : « فنسى » بضم النون وتشديد السين مكسورة مبنياً للمفعول ، أى فانساه إبليس ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ العزم فى اللغة : توطين النفس على الفعل والتصميم عليه ، والمضى على المعتقد فى أى شيء كان ، وقد كان آدم عليه السلام قد وطن نفسه على ألا يأكل من الشجرة وصمم على ذلك ، فلما وسوس إليه إبليس لانت عريكته وفتر عزمه وأدركه ضعف البشر . وقيل : العزم : الصبر ، أى لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة . قال النحاس : وهو كذلك فى اللغة ، يقال : لفلان عزم ، أى صبر وثبات على التحفظ عن المعاصى حتى يسلم منها ، ومنه : ﴿ كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . وقيل : المعنى : ولم نجد له عزمًا على الذنب ، وبه قال ابن كيسان . وقيل : ولم نجد له رأياً معزوماً عليه ، وبه قال ابن قتيبة .

ثم شرع سبحانه فى كيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه ، والعامل فى إذ مقدّر ، أى واذكر ﴿ إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث للمبالغة ؛ لأنه إذا وقع الأمر بذكر الوقت كان ذكر ما فيه من الحوادث لازماً بطريق الأولى وقد تقدم تفسير هذه القصة فى البقرة مستوفى ، ومعنى ﴿ فتشقى ﴾ : فتتعب فى تحصيل ما لا بد منه فى المعاش كالحرث والزرع ، ولم يقل : « فتشقى » ؛ لأن الكلام من أوّل القصة مع آدم وحده .

ثم علل ما يوجبه ذلك النهى بما فيه الراحة الكاملة عن التعب والاهتمام ، فقال : ﴿ إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ أى فى الجنة . والمعنى : أن لك فيها تمتعاً بأنواع المعاش وتنعماً بأصناف النعم من المآكل الشهية والملابس البهية ، فإنه لما نفى عنه الجوع والعرى أفاد ثبوت الشبع والاكتساء له ، وهكذا قوله : ﴿ وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ فإن نفى الظمأ يستلزم حصول الرى ووجود المسكن الذى يدفع عنه مشقة الضحو ، يقال : ضحى الرجل يضحى ضحواً : إذا برز للشمس فأصابه حرّها ، فذكر سبحانه ها هنا أنه قد كفاه الاشتغال بأمر المعاش وتعب الكد فى تحصيله ، ولا ريب أن أصول المتاعب فى الدنيا هى تحصيل الشبع والرى والكسوة والسكن ، وما عدا هذه فضلات يمكن البقاء بدونها ، وهو إعلام من الله سبحانه لآدم أنه إن أطاعه فله فى الجنة هذا كله ، وإن ضيع وصيته ولم يحفظ عهده أخرجته من

الجنة إلى الدنيا فيحل به التعب والنصب بما يدفع الجوع والعري والظمأ والضحو . فالمراد بالشقاء شقاء الدنيا ، كما قاله كثير من المفسرين ، لا شقاء الأخرى . قال الفراء : هو أن يأكل من كدّ يديه ، وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلا عاصماً : « وأنتك لتظمأ » بفتح أن ، وقرأ الباكون بكسرها على العطف على إن لك .

﴿ فوسوس إليه الشيطان ﴾ قد تقدّم تفسيره فى الأعراف فى قوله : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ [الآية : ٢٠] أى أنهى إليه وسوسته ، وجملة ﴿ قال يا آدم ﴾ إلى آخره إما بدل من وسوس أو مستأنفة بتقدير سؤال ، كأنه قيل : فماذا قال له فى وسوسته ؟ و﴿ شجرة الخلد ﴾ هى الشجرة التى من أكل منها لم يمت أصلاً ﴿ وملك لا يبلى ﴾ أى لا يزول ولا ينقضى ﴿ فأكل منها فبدت لهما سواتهما ﴾ قد تقدّم تفسير هذا وما بعده فى الأعراف . قال الفراء : ومعنى طفقا فى العربية : أقبلا . وقيل : جعلاً يلصقان عليهما من ورق التين ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ أى عصاه بالأكل من الشجرة فغوى فضل عن الصواب أو عن مطلوبه ، وهو الخلود بأكل تلك الشجرة . وقيل : فسد عليه عيشه بنزوله إلى الدنيا . وقيل : جهل موضع رشده . وقيل : بشم من كثرة الأكل . قال ابن قتيبة : أكل آدم من الشجرة التى نهى عنها باستزلال إبليس وخدائعه إياه ، والقسم له بالله إنه له لمن الناصحين حتى دلاه بغرور ، ولم يكن ذنبه عن اعتقاد متقدم ونية صحيحة ، فنحن نقول : عصى آدم ربه فغوى . انتهى . قال القاضى أبو بكر بن العربى : لا يجوز لأحد أن يخبر اليوم بذلك عن آدم . قلت : لا مانع من هذا بعد أن أخبرنا الله فى كتابه بأنه عصاه ، وكما يقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ومما قلته فى هذا المعنى :

عصى أبو العالم وهو الذى من طينة صوره الله

وأسجد الأملاك من أجله وصير الجنة مأواه

أغواه إبليس فمن ذا أنا المسكين إن إبليس أغواه

﴿ ثم اجتباه ربه ﴾ أى اصطفاه وقربه . قال ابن فورك : كانت المعصية من آدم قبل النبوة بدليل ما فى هذه الآية ، فإنه ذكر الاجتباء والهداية بعد ذكر المعصية ، وإذا كانت المعصية قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب وجهاً واحداً ﴿ فتاب عليه وهدى ﴾ أى تاب عليه من معصيته ، وهداه إلى الثبات على التوبة . قيل : وكانت توبة الله عليه قبل أن يتوب هو وحواء بقولهما : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ [الأعراف : ٢٣] . وقد مرّ وجه تخصيص آدم بالذكر دون حواء .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ أو يحدث لهم ﴾ أى القرآن ﴿ ذكرا ﴾ قال : جداً وورعاً . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ يقول : لا تعجل حتى نبينه لك . وأخرج الفريابى وابن جرير

وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن الحسن قال : لطم رجل امرأته ، فجاءت إلى النبي ﷺ تطلب قصاصاً ، فجعل النبي ﷺ بينهما القصاص ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ ﴾ الآية ، فوقف النبي ﷺ حتى نزلت : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ [النساء : ٣٤] (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ ﴾ الآية قال : لا تتله على أحد حتى نتمه لك .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن منده فى التوحيد ، والطبرانى فى الصغير وصححه عن ابن عباس قال : إنما سُمى الإنسان ؛ لأنه عهد إليه فنسى . وأخرج عبد الغنى وابن سعد عن ابن عباس : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم ﴾ ألا تقرب الشجرة ﴿ فنسى ﴾ فترك عهده ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ قال : حفظاً . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً ﴿ فنسى ﴾ فترك ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ يقول : لم نجعل له عزماً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿ إنك لا تظلم فيها ولا تضحى ﴾ قال : لا يصيبك فيها عطش ولا حر . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، وهى شجرة الخلد » (٢) . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبي ﷺ قال : « حاج آدم موسى قال له : أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم بمعصيتك ، قال آدم : يا موسى ، أنت الذى اصطفاك الله برسائله وبكلامه ، أتلومنى على أمر كتبه الله على قبل أن يخلقنى ، أو قدره على قبل أن يخلقنى » ، قال رسول الله ﷺ : « فحج آدم موسى » (٣) .

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمًى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧) ﴾

قوله : ﴿ قَالَ اهْبِطَا ﴾ قد مرّ تفسيره فى البقرة ، أى انزلا من الجنة إلى الأرض ، خصهما الله سبحانه بالهبوط ؛ لأنهما أصل البشر ، ثم عمم الخطاب لهما ولذريتهما فقال : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ والجملة فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن يقال : خاطبهما فى هذا وما بعده

خطاب الجمع ؛ لأنهما منشأ الأولاد . ومعنى ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ : تعاديهم فى أمر المعاش ونحوه ، فيحدث بسبب ذلك القتال والخصام ﴿ فإما يأتينكم منى هدى ﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ أى لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة .

﴿ ومن أعرض عن ذكرى ﴾ أى عن دينى ، وتلاوة كتابى ، والعمل بما فيه ، ولم يتبع هداى ﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾ أى فإن له فى هذه الدنيا معيشة ضنكاً ، أى عيشاً ضيقاً . يقال: منزل ضنك وعيش ضنك ، مصدر يستوى فيه الواحد وما فوقه والمذكر والمؤنث ، قال عنترة :

إن المنية لو تمثل مثلت مثلى إذا نزلوا بطنك المنزل

وقرى : « ضنكى » بضم الضاد على فعلى ، ومعنى الآية : أن الله عز وجل جعل لمن اتبع هداه وتمسك بدينه أن يعيش فى الدنيا عيشاً هنيئاً غير مهموم ولا مغموم ولا متعب نفسه ، كما قال سبحانه : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ [النحل : ٩٧] . وجعل لمن لم يتبع هداه وأعرض عن دينه أن يعيش عيشاً ضيقاً وفى تعب ونصب ، ومع ما يصيبه فى هذه الدنيا من المتاعب ، فهو فى الأخرى أشدّ تعباً وأعظم ضيقاً وأكثر نصباً ، وذلك معنى : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ أى مسلوب البصر . وقيل : المراد : العمى عن الحجة . وقيل : أعمى عن جهات الخير لا يهتدى إلى شىء منها . وقد قيل : إن المراد بالمعيشة الضنكى : عذاب القبر ، وسيأتى ما يرجح هذا ويقويه .

﴿ قال ربى لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾ فى الدنيا ﴿ قال كذلك ﴾ أى مثل ذلك فعلت أنت ، ثم فسر بقوله : ﴿ أتلك آياتنا فنسيتها ﴾ أى أعرضت عنها وتركتها ولم تنظر فيها ﴿ وكذلك اليوم تنسى ﴾ أى مثل ذلك النسيان الذى كنت فعلته فى الدنيا تنسى ، أى تترك فى العمى والعذاب فى النار . قال الفراء : يقال : إنه يخرج بصيراً من قبره فيعمى فى حشره .

﴿ وكذلك نجزي من أسرف ﴾ أى مثل ذلك الجزاء لنجزيه . والإسراف : الانهماك فى الشهوات . وقيل : الشرك . ﴿ ولم يؤمن بآيات ربه ﴾ بل كذب بها ﴿ ولعذاب الآخرة أشد ﴾ أى أفظع من المعيشة الضنكى ﴿ وأبقى ﴾ أى أدوم وأثبت لأنه لا ينقطع .

وقد أخرج ابن أبى شيبه والطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية ، وابن مردويه عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة فى الدنيا ، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة ، وذلك أن الله يقول : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ » (١) .

(١) ابن أبى شيبه فى فضائل القرآن (١٠٠٠٤) والطبرانى (١٢٤٣٧) .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس قال : أجاز الله تابع القرآن من أن يضل في الدنيا أو يشقى في الآخرة ، ثم قرأ : ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هَدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ قال : لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور ، ومسدد في مسنده ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً في قوله : ﴿ مَعِيشَةً ضَنْكاً ﴾ قال : عذاب القبر^(١) . ولفظ عبد الرزاق قال : يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه . ولفظ ابن أبي حاتم قال : ضمة القبر . وفي إسناده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف . وقد روى موقوفاً . قال ابن كثير : الموقوف أصح . وأخرج البزار وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكاً ﴾ قال : « المعيشة الضنكى أن يسلط عليه تسعة وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة » . وأخرج ابن أبي الدنيا والحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه بأطول منه^(٢) . قال ابن كثير : رفعه منكر جداً^(٣) . وأخرج ابن أبي شيبة والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكاً ﴾ قال : « عذاب القبر »^(٤) . قال ابن كثير بعد إخراجهم : إسناده جيد^(٥) . وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني والبيهقي عن ابن مسعود في قوله : ﴿ فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكاً ﴾ قال : عذاب القبر ، ومجموع ما ذكرنا هنا يرجح تفسير المعيشة الضنكى بعذاب القبر . وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني ، والبيهقي في كتاب عذاب القبر عن ابن مسعود ؛ أنه فسر المعيشة الضنكى بالشقاء .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ قال : عمى عليه كل شيء إلا جهنم ، وفي لفظ : لا يبصر إلا النار . وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ قال : من أشرك بالله .

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ (١٢٨) وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ

(١) ابن جرير ١٦ / ١٦٤ وصححه الحاكم ٢ / ٣٨١ على شرط مسلم ووافقه الذهبي .
(٢) أبو يعلى (٦٦٤٤) وابن جرير ١٦ / ١٦٥ .
(٣) ابن كثير ٤ / ٥٤٤ .
(٤) ابن أبي شيبة في الزهد (١٦٦٨٧) والحاكم ٢ / ٣٨١ كلاهما عن أبي سعيد الخدري .
(٥) ابن كثير ٤ / ٥٤٥ .

النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) أَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَبِّحَ عَائِيكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ نَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ مِنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥) ﴿

قوله : ﴿ أفلم يهد لهم ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر ، كما مرّ غير مرّة ، والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها وفاعل يهد هو الجملة المذكورة بعدها ، والمفعول محذوف ، وأنكر البصريون مثل هذا ؛ لأنّ الجمل لا تقع فاعلاً ، وجوزه غيرهم . قال القفال : جعل كثرة ما أهلك من القرون مبيناً لهم . قال النحاس : وهذا خطأ ؛ لأن « كم » استفهام ، فلا يعمل فيها ما قبلها . وقال الزجاج : المعنى : أو لم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكناه ، وحقيقته تدل على الهدى ، فالفاعل هو الهدى ، وقال : « كم » فى موضع نصب بـ ﴿ أهلكنا ﴾ . وقيل : إن فاعل ﴿ يهد ﴾ ضمير لله أو للرسول ، والجملة بعده تفسره ، ومعنى الآية على ما هو الظاهر : أفلم يتبين لأهل مكة خبر من ﴿ أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ حال كون القرون ﴿ يمشون فى مساكنهم ﴾ ويتقلبون فى ديارهم ، أو حال كون هؤلاء يمشون فى مساكن القرون الذين أهلكناهم عند خروجهم للتجارة وطلب المعيشة ، فيرون بلاد الأمم الماضية ، والقرون الحالية خاوية خاربة من أصحاب الحجر وثمود وقرى قوم لوط ، فإن ذلك مما يوجب اعتبارهم ، لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك . وقرأ ابن عباس والسلمى : « نهد » بالنون ، والمعنى على هذه القراءة واضح ، وجملة : ﴿ إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ تعليل للإنكار وتقرير للهداية ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى مضمون ﴿ كم أهلكنا ﴾ إلى آخره . والنهى : جمع نهي ، وهى العقل ، أى لذوى العقول التى تنهى أربابها عن القبيح .

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ أى ولولا الكلمة السابقة ، وهى وعد الله سبحانه بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الدار الآخرة ﴿ لكان ﴾ عقاب ذنوبهم ﴿ لزاما ﴾ أى لازماً لهم ، لا ينفك عنهم بحال ولا يتأخر . وقوله : ﴿ وأجل مسمى ﴾ معطوف على ﴿ كلمة ﴾ قاله الزجاج وغيره ؛ والأجل المسمى هو : يوم القيامة ، أو يوم بدر . واللزام مصدر لازم . قيل : ويجوز عطف ﴿ وأجل مسمى ﴾ على الضمير المستتر فى كان العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم من السياق ؛ تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد ، أى لكان الأخذ العاجل ﴿ وأجل مسمى ﴾ لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود ، وفيه تعسف ظاهر .

ثم لما بين الله سبحانه أنه لا يهلكهم بعذاب الاستئصال أمره بالصبر ، فقال : ﴿ فاصبر

على ما يقولون ﴿ من أنك ساحر كذاب ، ونحو ذلك من مطاعنهم الباطلة ، والمعنى : لا تحتفل بهم ، فإن لعذابهم وقتاً مضروباً لا يتقدم ولا يتأخر . وقيل : هذا منسوخ بآية القتال ﴾ وسبح بحمد ربك ﴿ أى متلبساً بحمده . قال أكثر المفسرين : والمراد : الصلوات الخمس كما يفيد قوله : ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ فإنه إشارة إلى صلاة الفجر ﴿ وقبل غروبها ﴾ فإنه إشارة إلى صلاة العصر ﴿ ومن آناء الليل ﴾ العتمة ، والمراد بالآناء : الساعات ، وهى جمع إنى بالكسر والقصر ، وهو الساعة ، ومعنى ﴿ فسبح ﴾ : أى فصل ﴿ وأطراف النهار ﴾ : أى المغرب والظهر لأن الظهر فى آخر طرف النهار الأول ، وأول طرف النهار الآخر ﴿ وقيل : إن الإشارة إلى صلاة الظهر هى بقوله : ﴿ وقبل غروبها ﴾ لأنها هى وصلاة العصر قبل غروب الشمس . وقيل : المراد بالآية : صلاة التطوع . ولو قيل : ليس فى الآية إشارة إلى الصلاة بل المراد التسبيح فى هذه الأوقات ، أى قول القائل : سبحان الله ، لم يكن ذلك بعيداً من الصواب . والتسبيح وإن كان يطلق على الصلاة ولكنه مجاز ، والحقيقة أولى إلا لقرينة تصرف ذلك إلى المعنى المجازى ، وجملة : ﴿ لعلك ترضى ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ فسبح ﴾ أى سبح فى هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله سبحانه ما ترضى به نفسك ، هذا على قراءة الجمهور . وقرأ الكسائى وأبو بكر عن عاصم : « ترضى » بضم التاء مبنياً للمفعول ، أى يرتضيك ربك .

﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ قد تقدم تفسير هذه الآية فى الحجر . والمعنى : لا تطل نظر عينيك ، و ﴿ أزواجاً ﴾ مفعول ﴿ متعنا ﴾ . و ﴿ زهرة ﴾ منصوبة على الحال ، أو بفعل محذوف ، أى جعلنا أو أعطينا ، ذكر معنى هذا الزجاج . وقيل : هى بدل من الهاء فى : ﴿ به ﴾ باعتبار محله ، وهو النصب لا باعتبار لفظه ، فإنه مجرور كما تقول : مررت به أخاك . ورجح الفراء النصب على الحال ، ويجوز أن تكون بدلاً ، ويجوز أن تكون منتصبة على المصدر مثل صبغة الله ووعد الله و ﴿ زهرة الحياة الدنيا ﴾ : زيتها وبهجتها بالنبات وغيره . وقرأ عيسى بن عمر : « زهرة » بفتح الهاء ، وهى نور النبات ، واللام فى : ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ متعلق ﴿ بمتعنا ﴾ أى لنجعل ذلك فتنة لهم وضلالة ، ابتلاءً منا لهم ، كقوله : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ﴾ [الكهف : ٩] وقيل : لنعذبهم . وقيل : لنشدد عليهم فى التكليف ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ أى ثواب الله ، وما أدخر لصالحي عباده فى الآخرة خير مما رزقهم فى الدنيا على كل حال ، وأيضاً فإن ذلك لا ينقطع ، وهذا ينقطع ، وهو معنى ﴿ وأبقى ﴾ . وقيل : المراد بهذا الرزق : ما يفتح الله على المؤمنين من الغنائم ونحوها ، والأول أولى ؛ لأن الخيرية المحققة والدوام الذى لا ينقطع إنما يتحققان فى الرزق الأخرى لا الدنيوى ، وإن كان حلالاً طيباً : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ [النحل : ٩٦] .

﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾ أمره الله سبحانه بأن يأمر أهله بالصلاة . والمراد بهم : أهل بيته . وقيل : جميع أمته ، ولم يذكرها هنا الأمر من الله له بالصلاة ، بل قصر الأمر على

أهله ، إما لكون إقامته لها أمراً معلوماً ، أو لكون أمره بها قد تقدم في قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ إلى آخر الآية ، أو لكون أمره بالأمر لأهله أمراً له ، ولهذا قال : ﴿ واصطر بها ﴾ أي اصبر على الصلاة ، ولا تشغل عنها بشيء من أمور الدنيا ﴿ لا نسألك رزقاً ﴾ أي لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ، وتشغل بذلك عن الصلاة ﴿ نحن نرزقك ﴾ ونرزقهم ولا نكلفك ذلك ﴿ والعاقبة للمتقوى ﴾ أي العاقبة المحمودة ، وهي الجنة لأهل التقوى على حذف المضاف كما قال الأخفش . وفيه دليل على أن التقوى هي ملاك الأمر وعليها تدور دوائر الخير .

﴿ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربك ﴾ أي قال كفار مكة : هلا يأتينا محمد بآية من آيات ربه كما كان يأتي بها من قبله من الأنبياء ؟ وذلك كالناقة والعصا ، أو هلا يأتينا بآية من الآيات التي قد اقترحناها عليه ؟ فأجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله : ﴿ أو لم يأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ يريد بالصحف الأولى : التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المنزلة ، وفيها التصريح بنبوته والتبشير به ، وذلك يكفي ، فإن هذه الكتب المنزلة هم معترفون بصدقها وصحتها ، وفيها ما يدفع إنكارهم لنبوته ، ويبطل تعنتاتهم وتعسفاتهم . وقيل : المعنى : أولم يأتهم إهلاكنا للأمم الذين كفروا واقترحوا الآيات ، فما يؤمنهم إن أتتهم الآيات التي اقترحوها أن يكون حالهم كحالهم . وقيل : المراد : أو لم تأتهم آية هي أم الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعنى القرآن ، فإنه برهان : لما في سائر الكتب المنزلة . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو ويعقوب وابن أبي إسحاق وحفص : ﴿ أو لم تأتهم ﴾ بالتاء الفوقية ، وقرأ الباقر بالتحتية ؛ لأن معنى البينة : البيان والبرهان ، فذكروا الفعل اعتباراً بمعنى البينة ، واختار هذه القراءة ابن عبيد وأبو حاتم . قال الكسائي : ويجوز : « بينة » بالتثنية . قال النحاس : إذا نونت بينة ورفعت جعلت « ما » بدلاً منها ، وإذا نصبت فعلى الحال . والمعنى : أو لم يأتهم ما في الصحف الأولى مبيناً ، وهذا على ما يقتضيه الجواز النحوي وإن لم تقع القراءة به .

﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله ﴾ أي من قبل بعثة محمد ﷺ ، أو من قبل إتيان البينة لنزول القرآن ﴿ لقالوا ﴾ يوم القيامة ﴿ ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ﴾ أي هلا أرسلت إلينا رسولاً في الدنيا ﴿ فنتبع آياتك ﴾ التي يأتي بها الرسول ﴿ من قبل أن نذل ﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿ ونخزي ﴾ بدخول النار ، وقرئ : « نذل ونخزي » على البناء للمفعول . وقد قطع الله معذرة هؤلاء الكفرة بإرسال الرسول إليهم قبل إهلاكهم ؛ ولهذا حكى الله عنهم أنهم : ﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ﴾ [الملك : ٩] .

﴿ قل كل متربص فتربصوا ﴾ أي قل لهم يا محمد : كل واحد منا ومنكم متربص ، أي منتظر لما يؤول إليه الأمر فتربصوا أنتم ﴿ فستعلمون ﴾ عن قريب ﴿ من أصحاب الصراط السوى ﴾ أي فستعلمون بالنصر والعاقبة من هو من أصحاب الصراط المستقيم ﴿ ومن اهتدى ﴾

من الضلالة ونزع عن الغواية ، و « من » فى الموضعين فى محل رفع بالابتداء . قال النحاس : والفراء يذهب إلى أن معنى ﴿ من أصحاب الصراط السوى ﴾ : من لم يضل ، وإلى أن معنى ﴿ من اهتدى ﴾ : من ضل ثم اهتدى . وقيل : « من » فى الموضعين فى محل نصب ، وكذا قال الفراء . وحكى عن الزجاج أنه قال : هذا خطأ ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله . وقرأ أبو رافع : « فسوف تعلمون » وقرأ يحيى بن يعمر وعاصم الجحدري : « السوى » على فعلى ، وردت هذه القراءة بأن تأنيث الصراط شاذ . وقيل : هى بمعنى الوسط والعدل .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أفلم يهد لهم ﴾ : ألم نبين لهم ﴿ كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ﴾ نحو عاد وثمود ومن أهلك من الأمم . وفى قوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى ﴾ يقول : هذا من مقادير الكلام ، يقول : لولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاماً . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى نحوه . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : الأجل المسمى : الكلمة التى سبقت من ربك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ لكان لزاما ﴾ قال : موتاً .

وأخرج الفريابى وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ الآية قال : هى الصلاة المكتوبة . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عن جرير عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ﴾ قال : « قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل غروبها صلاة العصر » (١) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث جرير قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ، وقرأ : ﴿ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ (٢) . وفى صحيح مسلم وسنن أبى داود والنسائى عن عمارة بن ربيعة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » (٣) .

وأخرج ابن أبى شيبه وابن راهويه والبخارى وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والخرائطى وأبو نعيم عن أبى رافع قال : أضاف النبى ﷺ ضيفاً ، ولم يكن عند النبى ﷺ ما يصلحه ، فأرسلنى إلى رجل من اليهود : أن بعنا أو سلفنا دقيقاً إلى هلال رجب ، فقال : لا إلا برهن ، فأتيت النبى ﷺ فأخبرته ، فقال : « أما والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ، ولئن أسلفنى أو باعنى لأدبت إليه ، اذهب بدرعى الجديد » فلم

(١) الطبرانى (٢٢٨٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٧٠ : « فيه يحيى بن سعيد العطار ، وهو ضعيف » .

(٢) البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٥٤) ومسلم فى المساجد (٦٣٣ / ٢١١) وأبو داود فى السنة (٤٧٢٩)

والترمذى فى كتاب الجنة (٢٥٥٤) وقال : « حسن صحيح غريب » .

(٣) مسلم فى المساجد (٦٣٤ / ٢١٣) وأبو داود فى الصلاة (٤٢٧) والنسائى ١ / ٢٣٥ .

أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَلَا تَمْدُنْ عَيْنِيكَ ﴾ ^(١) كأنه يعزّيه عن الدنيا .
وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا » ، قالوا : وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال :
« بركات الأرض » .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن أبي سعيد الخدري قال : لما نزلت :
﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴾ كان النبي ﷺ يجيء إلى باب على صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول :
الصلاة رحمكم الله : ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾
[الأحزاب : ٣٣] . وأخرج ابن مردويه عن أبي الحمراء نحوه . وأخرج أحمد في الزهد ،
وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عن ثابت قال : كان النبي ﷺ إذا أصابت أهله
خصاصة نادى أهله : « يا أهلاه صلوا صلوا » . قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر
فزعوا إلى الصلاة . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر ، والطبراني في الأوسط ،
وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب بإسناد ، قال السيوطي : صحيح ، عن عبد الله بن
سلام قال : كان النبي ﷺ إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وقرأ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ
بِالصَّلَاةِ ﴾ الآية ^(٢) .

(١) ابن جرير ١٦ / ١٦٩ .

(٢) قال الهيثمي في المجمع ٧ / ٧٠ : « رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات » وأبو نعيم في الدلائل ٨ / ١٧٦ .
وهو غريب من حديث معمر وابن المبارك .

تفسير سورة الأنبياء

وهى مكية . قال القرطبي : فى قول الجميع . وهى مائة واثنى عشرة آية . وأخرج البخارى وغيره عن ابن مسعود قال: بنو إسرائيل والكهف ومريم والأنبياء هن من العتاق الأول، وهن من تلادى (١) . وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم فى الحلية عن عامر بن ربيعة ، أنه نزل به رجل من العرب ، فأكرم عامر مثنواه ، وكلم فيه رسول الله ﷺ ، فجاءه الرجل فقال : إني استقطعت رسول الله ﷺ وادياً ما فى العرب واد أفضل منه ، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر : لا حاجة لى فى قطعتك ، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ﴾ (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَّشَاءٍ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) ﴿

يقال : قرب الشيء واقترب وقد اقترب الحساب ، أى قرب الوقت الذى يحاسبون فيه . قال الزجاج : المعنى : ﴿ اقترب للناس ﴾ وقت ﴿ حسابهم ﴾ أى القيامة كما فى قوله : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر: ١] واللام فى ﴿ للناس ﴾ متعلقة بالفعل ، وتقديمها هى ومجرورها على الفاعل لإدخال الروعة ، ومعنى اقتراب وقت الحساب : دنوه منهم ، لأنه فى كل ساعة أقرب إليهم من الساعة التى قبلها . وقيل : لأن كل ما هو آت قريب ، وموت كل إنسان قيام ساعته . والقيامة أيضاً قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان فما بقى من الدنيا أقل مما مضى ، والمراد بالناس : العموم . وقيل : المشركون مطلقاً . وقيل : كفار مكة وعلى هذا الوجه قيل : المراد بالحساب : عذابهم يوم بدر ، وجملة : ﴿ وهم فى غفلة معرضون ﴾ فى محل نصب على

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٠٨ ، ٤٧٣٩) .

(٢) أبو نعيم فى الحلية ١/ ١٧٩ .

الحال ، أى هم فى غفلة بالدنيا معرضون عن الآخرة ، غير متأهبين بما يجب عليهم من الإيمان بالله . والقيام بفرائضه ، والانزجار عن مناهيه .

﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ : « من » لابتداء الغاية . وقد استدلّ بوصف الذكر لكونه محدثاً على أن القرآن محدث ، لأن الذكر هنا هو : القرآن . وأجيب بأنه : لا نزاع فى حدوث المركب من الأصوات والحروف ، لأنه متجدد فى النزول . فالمعنى محدث تنزيله ، وإنما النزاع فى الكلام النفسى .

وهذه المسألة ، أعنى قدم القرآن وحدثه ، قد ابتلى بها كثير من أهل العلم والفضل فى الدولة المأمونية والمعتصمية والواثقية ، وجرى للإمام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد والحبس الطويل وضرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعى ، وصارت فتنة عظيمة فى ذلك الوقت وما بعده . والقصة أشهر من أن تذكر . ومن أحب الوقوف على حقيقتها طالع ترجمة الإمام أحمد بن حنبل فى كتاب النبلاء لمؤرخ الإسلام الذهبى . ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحدثه وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع ، ولكنهم رحمهم الله جاوزوا ذلك إلى الجزم بقدمه ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدث ، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال : لفظ القرآن مخلوق ، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف . وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف وإرجاع العلم إلى علام الغيوب ، فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقت قيام المحنة وظهور القول فى هذه المسألة شىء من الكلام ، ولا نقل عنهم كلمة فى ذلك ، فكان الامتناع من الإجابة إلى مادعوا إليه والتمسك بأذيال الوقف ، وإرجاع علم ذلك إلى عالمه هو الطريقة المثلى ، وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله ، والأمر لله سبحانه .

وقوله : ﴿ إلا استمعوه ﴾ استثناء مفرغ فى محل نصب على الحال . وجملة : ﴿ وهم يلعبون ﴾ فى محل نصب على الحال أيضاً من فاعل استمعوه ، و﴿ لاهية قلوبهم ﴾ حال أيضاً ، والمعنى : ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث فى حال من الأحوال إلا فى الاستماع مع اللعب والاستهزاء ولهوة القلوب ، وقرئ : « لاهية » بالرفع كما قرئ : « محدث » بالرفع ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ النجوى : اسم من التناجى ، والتناجى لا يكون إلا سراً ، فمعنى إسرار النجوى : المبالغة فى الإخفاء . وقد اختلف فى محل الموصول على أقوال ، فقيل : إنه فى محل رفع بدل من الواو فى ﴿ أسروا ﴾ قاله المبرد وغيره . وقيل : هو فى محل رفع على الزم . وقيل : هو فاعل لفعل محذوف ، والتقدير : يقول الذين ظلموا ، واختار هذا النحاس ، وقيل : فى محل نصب بتقدير أعنى . وقيل : فى محل خفض على أنه بدل من الناس ذكر ذلك المبرد . وقيل : هو فى محل رفع على أنه فاعل ﴿ أسروا ﴾ على لغة من يجوز الجمع بين فاعلين ، كقولهم : أكلونى البراغيث ، ذكر ذلك الأخفش ، ومثله ﴿ ثم عموا وصموا كثير منهم ﴾

[المائدة : ٧١] ومنه قول الشاعر :

فاهتدين النبال^١ للأغراض

وقول الآخر :

ولكن ديسافى أبوه وأمه بحوران يعصرون السليط أقاربه

وقال الكسائي : فيه تقديم وتأخير ، أى والذين ظلموا أسروا النجوى . قال أبو عبيدة : أسروا هنا من الأضداد؛ يحتمل أن يكون بمعنى : أخفوا كلامهم ، ويحتمل أن يكون بمعنى : أظهروه وأعلنوه ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ هذه الجملة بتقدير القول قبلها ، أى قالوا : هل هذا الرسول إلا بشر مثلكم لا يتميز عنكم بشيء؟ ويجوز أن تكون هذه الجملة بدلاً من ﴿ النجوى ﴾ ، وهل بمعنى النفى ، أى وأسروا هذا الحديث ، والهمزة فى ﴿ أفتأتون السحر ﴾ للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره ، وجملة : ﴿ وأنتم تبصرون ﴾ فى محل نصب على الحال ، وللمعنى : إذا كان بشراً مثلكم ، وكان الذى جاء به سحراً ، فكيف تحييونه إليه وتتبعونه .

فأطلع الله نبيه ﷺ على ما تناجوا به ، وأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم فقال : ﴿ قل ربي يعلم القول فى السماء والأرض ﴾ أى لا يخفى عليه شيء مما يقال فيهما ، وفى مصاحف أهل الكوفة : ﴿ قال ربي ﴾ أى قال محمد : ربي يعلم القول ، فهو عالم بما تناجيتهم به . قيل القراءة الأولى أولى ، لأنهم أسروا هذا القول ، فأطلع الله رسوله ﷺ على ذلك وأمره أن يقول لهم هذا . قال النحاس : والقراءتان صحيحتان ، وهما بمنزلة آيتين ﴿ وهو السميع ﴾ لكل ما يسمع ﴿ العليم ﴾ بكل معلوم ، فيدخل فى ذلك ما أسروا دخولا أولياً .

﴿ بل قالوا أضغاث أحلام ﴾ قال الزجاج : أى قالوا: الذى تأتى به أضغاث أحلام . قال القتيبي : أضغاث الأحلام الرؤيا الكاذبة . وقال اليزيدى : الأضغاث ما لم يكن له تأويل ، وهذا إضراب من جهة الله سبحانه حكاية لما وقع منهم ، وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية هذا القول . ثم حكى سبحانه إضرابهم عن قولهم : أضغاث أحلام ، قال : ﴿ بل افتراه ﴾ أى بل قالوا: افتراه من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل . ثم حكى سبحانه عنهم أنهم أضربوا عن هذا وقالوا : ﴿ بل هو شاعر ﴾ وما أتى به من جنس الشعر ، وفى هذا الاضطراب منهم ، والتلون والتردد أعظم دليل على أنهم جاهلون بحقيقة ما جاء به ، لا يدرون ما هو ولا يعرفون كنهه ؟ أو كانوا قد علموا أنه حق ، وأنه من عند الله ، ولكن أرادوا أن يدفعوه بالصدر ويرموه بكل حجر ومدر ، وهذا شأن من غلبته الحجة وقهره البرهان . ثم بعد هذا كله ، قالوا : ﴿ فليأتنا بآية ﴾ وهذا جواب شرط محذوف ، أى إن لم يكن كما قلنا : فليأتنا بآية ﴿ كما أرسل الأولون ﴾ أى كما أرسل موسى بالعصا وغيرها ، وصالح بالناقة ، ومحل الكاف الجر صفة لآية ، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف ، وكان سؤالهم هذا سؤال تعنت ، لأن الله سبحانه قد أعطاهم من الآيات ما يكفى ، ولو علم الله سبحانه أنهم

يؤمنون إذا أعطاهم ما يقترحوه لأعطاهم ذلك ، كما قال : ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ [الأنفال : ٢٣] قال الزجاج : اقترحوا الآيات التى لا يقع معها إمهال ، فقال الله مجيباً لهم : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية ﴾ أى قبل مشركى مكة ، ومعنى ﴿ من قرية ﴾ : من أهل قرية ، ووصف القرية بقوله : ﴿ أهلكتناها ﴾ أى أهلكتنا أهلها ، أو أهلكتناها بإهلاك أهلها . وفيه بيان سنة الله فى الأمم السالفة أن المقترحين إذا أعطوا ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة ، و« من » فى ﴿ من قرية ﴾ مزيدة للتأكيد ، والمعنى : ما آمنت قرية من القرى التى أهلكتناها بسبب اقتراحهم قبل هؤلاء ، فكيف نعطيهم ما يقترحون ، وهم أسوة من قبلهم ، والهمزة فى ﴿ أفهم يؤمنون ﴾ للتقريع والتوبيخ ، والمعنى : إن لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوا ، فكيف يؤمن هؤلاء لو أعطوا ما اقترحوا .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم : هل هذا إلا بشر مثلكم بقوله : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ﴾ أى لم نرسل قبلك إلى الأمم السابقة إلا رجالا من البشر ، ولم نرسل إليهم ملائكة كما قال سبحانه : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ [الإسراء : ٩٥] . وجملة : ﴿ نوحي إليهم ﴾ مستأنفة لبيان كيفية الإرسال ، ويجوز أن تكون صفة لـ ﴿ رجالا ﴾ أى متصفين بصفة الإيحاء إليهم . قرأ حفص وحزمة والكسائى : ﴿ نوحي ﴾ بالنون ، وقرأ الباقون بالياء : « يوحى » . ثم أمرهم الله بأن يسألوا أهل الذكر إن كانوا يجهلون هذا فقال : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ وأهل الذكر هم : أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، ومعنى ﴿ إن كنتم لا تعلمون ﴾ : إن كنتم لا تعلمون أن رسل الله من البشر ، كذا قال أكثر المفسرين . وقد كان اليهود والنصارى لا يجهلون ذلك ولا ينكرونه ، وتقدير الكلام : إن كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أهل الذكر . وقد استدل بالآية على أن التقليد جائز وهو خطأ ، ولو سلم لكان المعنى سؤالهم عن النصوص من الكتاب والسنة ، لا عن رأى البحت ، وليس التقليد إلا قبول قول الغير دون حجته . وقد أوضحنا هذا فى رسالة بسيطة سمينها : « القول المفيد فى حكم التقليد » .

ثم لما فرغ سبحانه من الجواب عن شبهتهم أكد كون الرسل من جنس البشر فقال : ﴿ وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام ﴾ أى أن الرسل أسوة لسائر أفراد بنى آدم فى حكم الطبيعة يأكلون كما يأكلون ويشربون كما يشربون ، والجسد جسم الإنسان . قال الزجاج : هو واحد ، يعنى الجسد ينبئ عن جماعة ، أى وما جعلناهم ذوى أجساد لا يأكلون الطعام فجملة : ﴿ لا يأكلون الطعام ﴾ صفة لـ ﴿ جسدا ﴾ أى وما جعلناهم جسداً مستغنيا عن الأكل ، بل هو محتاج إلى ذلك ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر ، وقد كانوا يعتقدون أن الرسل لا يموتون ، فأجاب الله عليهم بهذا .

وجملة : ﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ معطوفة على جملة يدل عليها السياق ، والتقدير :

أوحينا إليهم ما أوحينا ﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ ، أى أنجزنا وعدهم الذى وعدناهم بإنجائهم وإهلاك من كذبهم ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ فأنجيناهم ومن نشاء ﴾ من عبادنا المؤمنين ، والمراد : إنجائهم من العذاب وإهلاك من كفر بالعذاب الدنيوى ، والمراد بـ ﴿ المسرفين ﴾ : المجاوزون للحدّ فى الكفر والمعاصى ، وهم المشركون .

وقد أخرج النسائى ^(١) عن أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ وهم فى غفلة معرضون ﴾ قال : « فى الدنيا » . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى الآية قال : « من أمر الدنيا » . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام ﴾ أى فعل الأحلام إنما هى رؤيا رآها ﴿ بل افتراه بل هو شاعر ﴾ كل هذا قد كان منه ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ كما جاء عيسى وموسى بالبينات والرسول ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ﴾ أى أن الرسل كانوا إذا جاؤوا قومهم بالبينات فلم يؤمنوا لم ينظروا . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : قال أهل مكة للنبي ﷺ : إذا كان ما تقوله حقًا ويسرك أن تؤمن فحول لنا الصفا ذهبًا ، فاتاه جبريل فقال : إن شئت كان الذى سألك قومك ، ولكنه إن كان ، ثم لم يؤمنوا لم ينظروا ، وإن شئت استأنيت بقومك ، قال : « بل أستأنى بقومى » ، فأنزل الله : ﴿ ما آمنت قبلهم ﴾ الآية ^(٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام ﴾ يقول : لم نجعلهم جسداً ليس يأكلون الطعام ، إنما جعلناهم جسداً يأكلون الطعام .

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ

فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٥﴾

نبه عباده على عظيم نعمته عليهم بقوله : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا ﴾ يعنى القرآن ﴿ فيه ذكركم ﴾ صفة لـ ﴿ كتابا ﴾ ، والمراد بالذكر هنا : الشرف ، أى فيه شرفكم كقوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] وقيل : ﴿ فيه ذكركم ﴾ أى ذكر أمر دينكم ، وأحكام شرعكم وما تصيرون إليه من ثواب أو عقاب . وقيل : فيه حديثكم ، قاله مجاهد . وقيل : مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم . وقيل : فيه العمل بما فيه حياتكم . قاله سهل بن عبد الله . وقيل : فيه موعظتكم ، والاستفهام فى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ للتوبيخ والتقريع ، أى أفلا تعقلون أن الأمر كذلك ، أولا تعقلون شيئا من الأشياء التى من جملتها ما ذكر .

ثم أوعدهم وحذرهم ما جرى على الأمم المكذبة ، فقال : ﴿ وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة ﴾ : « كم » فى محل نصب على أنها مفعول ﴿ قصصنا ﴾ وهى الخبرية المفيدة للتكثير . والقصص : كسر الشئ ودقه ، يقال : قصصت ظهر فلان : إذا كسرتة ، وانقصمت سنه : إذا انكسرت ، والمعنى هنا : الإهلاك والعذاب . و أما القصص بالفاء فهو الصدع فى الشئ من غير بينونة ، وجملة : ﴿ كانت ظالمة ﴾ فى محل جرّ صفة لقرية ، وفى الكلام مضاف محذوف ، أى وكم قصصنا من أهل قرية كانوا ظالمين ، أى كافرين بالله مكذبين بآياته ، والظلم فى الأصل : وضع الشئ فى غير موضعه ، وهم وضعوا الكفر فى موضع الإيمان ﴿ وأنشأنا بعدها قوما آخرين ﴾ أى أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاك أهلها قوما ليسوا منهم .

﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ أى أدركوا أو رأوا عذابنا ، وقال الأخفش : خافوا وتوقعوا ، أو البأس : العذاب الشديد ﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ الركض : الفرار والهرب والانهمزام ، وأصله من : ركض الرجل الدابة برجليه ، ويقال : ركض الفرس : إذا كدّه بساقيه ، ثم كثر حتى قيل : ركض الفرس إذا عدا ، ومنه : ﴿ اركض برجلك ﴾ [ص : ٤٢] والمعنى : أنهم يهربون منها راكضين دوابهم . فقيل لهم : ﴿ لا تركضوا ﴾ أى لا تهربوا . قيل : إن الملائكة نادتهم بذلك عند فرارهم . وقيل : إن القائل لهم ذلك هم من هنالك من المؤمنين استهزاء بهم وسخرية منهم ﴿ وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ﴾ أى إلى نعمكم التى كانت سبب بطركم وكفركم ، والترف : المنعم ، يقال : أترف فلان ، أى وسع عليه فى معاشه ﴿ ومساكنكم ﴾ أى وارجعوا إلى مساكنكم التى كنتم تسكنونها وتفتخرون بها ﴿ لعلكم تسألون ﴾ أى تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير فى المهمات ، وهذا على طريقة التهكم بهم والتوبيخ لهم . وقيل : المعنى : لعلكم تسألون عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به . وقيل : لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول العذاب بكم . قال المفسرون وأهل الأخبار : إن المراد بهذه الآية : أهل حضور من اليمن ، وكان الله سبحانه قد بعث إليهم نبيا اسمه شعيب بن ذى

مهدم ، وقبره بجبل من جبال اليمن يقال له : ضنن ، وبينه وبين حضور نحو بريد ، قالوا : وليس هو شعيبا صاحب مدين . قلت : وآثار القبر بجبل ضين موجودة ، والعامّة من أهل تلك الناحية يزعمون أنه قبر قدم بن قادم .

﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ أى قالوا لما قالت لهم الملائكة ﴿ لا تركضوا ﴾ : ويلنا ، أى ياهلاكنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا مستوجبين العذاب بما قدّمنا . فاعترفوا على أنفسهم بالظلم الموجب للعذاب . ﴿ فما زالت تلك دعواهم ﴾ أى ما زالت هذه الكلمة دعواهم ، أى دعوتهم ، والكلمة هى قولهم : ﴿ يا ويلنا ﴾ أى يدعون بها ويرددونها ﴿ حتى جعلناها حصيدا ﴾ أى بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل ، والحصيد هنا بمعنى المحصود ، ومعنى ﴿ خامدين ﴾ أنهم ميتون من خمدت النار إذا طفئت ، فشبه خمود الحياة بخمود النار ، كما يقال لمن مات : قد طفئ .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ أى لم نخلقهما عبثاً ولا باطلاً ، بل للتنبيه على أن لهما خالفاً قادراً يجب امتثال أمره . وفيه إشارة إجمالية إلى تكوين العالم ، والمراد بما بينهما سائر المخلوقات الكائنة بين السماء والأرض على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها . ﴿ لو أردنا أن نتخذ لها إلهاً ﴾ اللهو : ما يتلهى به . قيل : اللهو : الزوجة والولد . وقيل : الزوجة فقط . وقيل الولد فقط . قال الجوهري : قد يكنى باللهو عن الجماع ، يدل على ما قاله قول امرئ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرت وألا يحسن اللهو أمثالى
ومنه قول الآخر :

وفيهنّ ملهى للصديق ومنظر

والجملة مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها ، وجواب لقوله : ﴿ لاتخذناه من لدنا ﴾ أى من عندنا ومن جهة قدرتنا لا من عندكم . قال المفسرون : أى من الخور العين ، وفى هذا رد على من قال بإضافة صاحبة الولد إلى الله ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً . وقيل : أراد الردّ على من قال : الأصنام أو الملائكة بنات الله . وقال ابن قتيبة : الآية ردٌّ على النصارى . ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : ما كنا فاعلين . قال الفراء والمبرد والزجاج : يجوز أن تكون «إن» للنفي كما ذكره المفسرون ، أى ما فعلنا ذلك ولم نتخذ صاحبة ولا ولداً ؛ ويجوز أن تكون للشرط ، أى إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا . قال الفراء : وهذا أشبه الوجهين بمذهب العربية .

﴿ بل نقذف بالحق على الباطل ﴾ هذا إضراب عن اتخاذ اللهو ، أى دع ذلك الذى قالوا فإنه كذب وباطل ، بل شأننا أن نرمى بالحق على الباطل ﴿ فيدمغه ﴾ أى يقهره ، وأصل الدمغ : شج الرأس حتى يبلغ الدماغ ، ومنه الدامغة . قال الزجاج : المعنى : نذهبه ذهاب الصغار

والإذلال ، وذلك أن أصله إصابة الدماغ بالضرب . قيل : أراد بالحق : الحجة ، وبالباطل : شبههم . وقيل : الحق : المواعظ ، والباطل : المعاصي . وقيل : الباطل : الشيطان . وقيل : كذبهم ووصفهم الله سبحانه بغير صفاته ﴿ فإذا هو زاهق ﴾ أى زائل ذاهب ، وقيل : هالك تالف ، والمعنى متقارب ، و« إذا » هى الفجائية ﴿ ولكم الويل لما تصفون ﴾ أى العذاب فى الآخرة بسبب وصفكم لله بما لا يجوز عليه . وقيل : الويل : واد فى جهنم ، وهو وعيد لقريش بأن لهم من العذاب مثل الذى لأولئك ؛ ومن : هى التعليلية .

﴿ وله من فى السموات والأرض ﴾ عبيداً وملكا ، وهو خالقهم ورازقهم ومالكهم ، فكيف يجوز أن يكون له بعض مخلوقاته شريكا يعبد كما يعبد ، وهذه الجملة مقررة لما قبلها ﴿ ومن عنده ﴾ يعنى الملائكة ، وفيه رد على القائلين بأن الملائكة بنات الله ، وفى التعبير عنهم بكونهم ﴿ عنده ﴾ إشارة إلى تشريفهم وكرامتهم ، وأنهم بمنزلة المقربين عند الملوك، ثم وصفهم بقوله : ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ أى لا يتعاضمون ولا يأنفون عن عبادة الله سبحانه والتذلل له ﴿ ولا يستحسرون ﴾ أى لا يعيون ، مأخوذ من الحسير ، وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب ، يقال : حسر البعير يحسر حسورا : أعيا وكل ، واستحسر وتحسر : مثله وحسرتة أنا حسرا ، يتعدى ولا يتعدى . قال ابن زيد : لا يكلون ، وقال ابن الأعرابي : لا يفشلون . قال الزجاج : معنى الآية : أن هؤلاء الذين ذكرتم أنهم أولاد الله ، عباد الله لا يأنفون عن عبادته ولا يتعاضمون عنها كقوله : ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] وقيل : المعنى : لا ينقطعون عن عبادته . وهذه المعانى متقاربة .

﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ أى يتزهون الله سبحانه دائما لا يضعفون عن ذلك ولا يسأمون . وقيل : يصلون الليل والنهار . قال الزجاج : مجرى التسييح منهم كمجرى النفس منا لا يشغلنا عن النفس شئ ، فكذلك تسييحهم دائم ، وهذه الجملة إما مستأنفة جواب سؤال مقدر ، أو فى محل نصب على الحال ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض ﴾ قال المفضل : مقصود هذا الاستفهام : الجحد ، أى لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء ، و« أم » : هى المنقطعة ، والهمزة لإنكار الوقوع . قال المبرد : إن « أم » هنا بمعنى هل ، أى هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى ، ولا تكون « أم » هنا بمعنى بل ، لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدر « أم » مع الاستفهام ، فتكون « أم » المنقطعة ، فيصح المعنى ، و﴿ من الأرض ﴾ متعلق باتخذوا ، أو بمحذوف هو صفة لآلهة ، ومعنى ﴿ هم ينشرون ﴾ : هم يبعثون الموتى ، والجملة صفة لآلهة ، وهذه الجملة هى التى يدور عليها الإنكار والتجهيل ، لا نفس الاتخاذ ، فإنه واقع منهم لا محالة . والمعنى : بل اتخذوا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم ينشرون الموتى ، وليس الأمر كذلك ، فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل عن ذلك . قرأ الجمهور : ﴿ ينشرون ﴾ بضم الياء وكسر الشين من أنشره ، أى أحياء ، وقرأ الحسن بفتح الياء ؛ أى يحيون ولا يموتون .

ثم إنه سبحانه أقام البرهان على بطلان تعدد الآلهة ، فقال : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ أى لو كان فى السموات والأرض آلهة معبودون غير الله لفسدتا ، أى لبطلتا ، يعنى السموات والأرض بما فيهما من المخلوقات ، قال الكسائى وسيبويه والأخفش والزجاج وجمهور النحاة : إن « إلا » هنا ليست للاستثناء بل بمعنى غير صفة لآلهة ، ولذلك ارتفع الاسم الذى بعدها وظهر فيه إعراب غير التى جاءت « إلا » بمعناها ، ومنه قول الشاعر :

وكل أخ مفارقة أخوه لعمر أبيك ، إلا الفرقدان

وقال الفراء : إن « إلا » هنا بمعنى سوى ، والمعنى : لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسدتا ، ووجه الفساد أن كون مع الله إلها آخر يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادراً على الاستبداد بالتصرف ، فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف ويحدث بسببه الفساد ﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان ، أى تنزه عز وجل عما لا يليق به من ثبوت الشريك له ، وفيه إرشاد للعباد أن ينزهوا الرب سبحانه عما لا يليق به . ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ هذه الجملة مستأنفة مبينة أنه سبحانه لقوة سلطانه وعظيم جلاله لا يسأله أحد من خلقه عن شيء من قضائه وقدره ﴿ وهم ﴾ أى العباد ﴿ يسألون ﴾ عما يفعلون ، أى يسألهم الله عن ذلك لأنهم عبيده . وقيل : إن المعنى : أنه سبحانه لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون . قيل : والمراد بذلك : أنه سبحانه بين لعباده أن من يسأل عن أعماله كالنبي والملائكة لا يصلح لأن يكون إلها .

﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ﴾ أى بل اتخذوا ، وفيه إضراب وانتقال من إظهار بطلان كونها آلهة بالبرهان السابق ، إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة مع توبيخهم بطلب البرهان منهم ، ولهذا قال : ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ على دعوى أنها آلهة ، أو على جواز اتخاذ آلهة سوى الله ولا سبيل لهم إلى شيء من ذلك ، لا من عقل ولا نقل ، لأن دليل العقل قد مرّ بيانه ، وأما دليل النقل فقد أشار إليه بقوله : ﴿ هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ﴾ أى هذا الوحي الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ذكر أمتى وذكر الأمم السالفة وقد أقمت عليكم وأوضحته لكم ، فأقيموا أنتم برهانكم . وقيل : المعنى : هذا القرآن وهذه الكتب التى أنزلت قبلى فانظروا : هل فى واحد منها أن الله أمر باتخاذ إله سواه . قال الزجاج : قيل : لهم : هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلهاً غير الله ، فهل فى ذكر من معى وذكر من قبلى إلا توحيد الله ؟ وقيل معنى الكلام : الوعيد والتهديد ، أى افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء . وحكى أبو حاتم أن يحيى بن يعمر وطلحة بن مصرف قرأ : « هذا ذكر من معى وذكر من قبلى » بالتثنية وكسر الميم ، وزعم أنه لا وجه لهذه القراءة . وقال الزجاج فى توجيه هذه القراءة : إن المعنى : هذا ذكر مما أنزل إلى وما هو معى وذكر من قبلى . وقيل : ذكر كائن من قبلى ، أى جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلى . ثم لما توجهت الحجة عليهم ذمهم بالجهل بمواضع الحق فقال : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق ﴾ وهذا إضراب من جهته

سبحانه وانتقال من تبيكتهم بمطالبتهم بالبرهان إلى بيان أنه لا يؤثر فيهم إقامة البرهان لكونهم جاهلين للحق لا يميزون بينه وبين الباطل . وقرأ ابن محيصة والحسن : «الحق» بالرفع على معنى هذا الحق ، أو هو الحق ، وجملة : ﴿ فهم معرضون ﴾ تعليل لما قبله من كون أكثرهم لا يعلمون : أى فهم لأجل هذا الجهل المستولى على أكثرهم معرضون عن قبول الحق مستمرّون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول ، فلا يتأملون حجة ، ولا يتدبرون فى برهان ، ولا يتفكرون فى دليل .

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحي إليه ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي : ﴿ نوحى ﴾ بالنون ، وقرأ الباقر بالياء : أى نوحى إليه ﴿ أنه لا إله إلا أنا ﴾ وفى هذا تقرير لأمر التوحيد وتأکید لما تقدّم من قوله : ﴿ هذا ذكر من معى ﴾ وختم الآية بالأمر لعباده بعبادته ، فقال : ﴿ فاعبدون ﴾ فقد اتضح لكم دليل العقل ، ودليل النقل وقامت عليكم حجة الله .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ﴾ قال : شرفكم . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال : فيه حديثكم . وفى رواية عنه قال : فيه دينكم . وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال : بعث الله نبيا من حمير يقال له : شعيب ، فوثب إليه عبد فضربه بعصا ، فسار إليهم بختنصر فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبق منهم شيء ، وفيهم أنزل الله : ﴿ وكم قصمنا ﴾ إلى قوله : ﴿ خامدين ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن الكلبي فى قوله : ﴿ وكم قصمنا من قرية ﴾ قال : هى حضور بنى أزد ، وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبیر فى قوله : ﴿ وارجعوا إلى ما أترفتهم فيه ﴾ قال : ارجعوا إلى دوركم وأموالكم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ فما زالت تلك دعواهم ﴾ قال : هم أهل حضور كانوا قتلوا نبيهم ، فأرسل الله عليهم بختنصر فقاتلهم ، وفى قوله : ﴿ جعلناهم حصيدا خامدين ﴾ قال : بالسيف ضرب الملائكة وجوههم حتى رجعوا إلى مساكنهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن وهب قال : حدثنى رجل من الجزريين قال : كان باليمن قريتان ، يقال لإحدهما : حضور ، وللأخرى : قلابة ، فبطروا وأترفوا حتى ما كانوا يغلقون أبوابهم ، فلما أترفوا بعث الله إليهم نبيا فدعاهم فقتلوه ، فألقى الله فى قلب بختنصر أن يغزوهم ، فجهز لهم جيشا ، فقاتلوه فهزموا جيشه فرجعوا منهزمين إليه ، فجهز إليهم جيشا آخر أكثف من الأوّل ، فهزموهم أيضا ؛ فلما رأى بختنصر ذلك غزاهم هو بنفسه ، فقاتلوه فهزمهم حتى خرجوا منها يركضون ، فسمعوا مناديا يقول : ﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتهم فيه ومساكنكم ﴾ فرجعوا فسمعوا صوتا مناديا يقول : يالثرات النبی فقتلوا بالسيف ، فهى التى قال الله : ﴿ وكم قصمنا من قرية ﴾ إلى قوله : ﴿ خامدين ﴾ . قلت : وقرى حضور معروفة الآن بينها وبين مدينة صنعاء نحو بريد فى جهة الغرب منها . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى

قوله : ﴿ حصيدا خامدين ﴾ قال : كخمود النار إذا طفئت .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهمو ﴾ قال : اللهو : الولد . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن في قوله : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهمو ﴾ قال : النساء . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولا يستحسرون ﴾ يقول : لا يرجعون . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ قال : بعباده ﴿ وهم يسألون ﴾ قال : عن أعمالهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس قال : ما في الأرض قوم أبغض إلى من القدرية ، وما ذلك إلا أنهم لا يعلمون قدرة الله ، قال الله : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾

قوله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ﴾ هؤلاء القائلون هم خزاعة ، فإنهم قالوا : الملائكة بنات الله ، وقيل : هم اليهود ، ويصح حمل الآية على كل من جعل لله ولداً . وقد قالت اليهود : عزيز ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقالت طائفة من العرب : الملائكة بنات الله . ثم نزه عز وجل نفسه . فقال : ﴿ سبحانه ﴾ أى تنزيها له عن ذلك ، وهو مقول على السنة العباد . ثم أضرب عن قولهم وأبطله فقال : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ أى ليسوا كما قالوا ، بل هم عباد الله سبحانه مكرمون بكرامته لهم ، مقربون عنده . وقرئ : «مكرمون» بالتشديد ، وأجاز الزجاج والفراء نصب عباد على معنى : بل اتخذ عبداً ، ثم وصفهم بصفة أخرى فقال : ﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ أى لا يقولون شيئا حتى يقوله أو يأمرهم به . كذا قال ابن قتيبة وغيره ، وفى هذا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم . وقرئ : « لا

يسبقونه « بضم الباء من سبقته أسبقه ﴿ وهم بأمره يعملون ﴾ أى هم العاملون بما يأمرهم الله به ، التابعون له المطيعون لربهم .

﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها ، أى يعلم ما عملوا وما هم عاملون ، أو يعلم ما بين أيديهم وهو الآخرة ، وما خلفهم وهو الدنيا ، ووجه التعليل أنهم إذا علموا بأنه عالم بما قدموا وأخروا ، لم يعملوا عملاً ولم يقولوا قولاً إلا بأمره ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ أن يشفع الشافعون له ، وهو من رضى عنه ، وقيل : هم أهل لا إله إلا الله ، وقد ثبت فى الصحيح أن الملائكة يشفعون فى الدار الآخرة ﴿ وهم من خشية مشفقون ﴾ أى من خشيتهم منه فالمصدر مضاف إلى المفعول ، والخشية : الخوف مع التعظيم ، والإشفاق : الخوف مع التوقع والحذر ، أى لا يأمنون مكر الله .

﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه ﴾ أى من يقل من الملائكة إني إله من دون الله . قال المفسرون : عنى بهذا إبليس ، لأنه لم يقل أحد من الملائكة إني إله إلا إبليس . وقيل : الإشارة إلى جميع الملائكة (١) ﴿ فذلك نجزيه جهنم ﴾ أى فذلك القائل على سبيل الفرض ، والتقدير : نجزيه جهنم بسبب هذا القول الذى قاله ، كما نجزي غيره من المجرمين ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي الظالمين ، أو مثل ما جعلنا جزاء هذا القائل جهنم ، فكذلك نجزي الظالمين الواضعين الألوهية والعبادة فى غير موضعها ، والمراد بالظالمين المشركون .

﴿ أولم ير الذين كفروا ﴾ الهمزة للإنكار ، والواو للعطف على مقدر ، والرؤية هى القلبية ، أى ألم يتفكروا أو لم يعلموا ﴿ أن السموات والأرض كانتا رتقا ﴾ قال الاخفش : إنما قال : ﴿ كانتا ﴾ لأنهما صنفان أى جماعتا السموات والأرضين كما قال سبحانه : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ [فاطر : ٤١] . وقال الزجاج : إنما قال : ﴿ كانتا ﴾ لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد ، لأن السموات كانت سماء واحدة ، وكذلك الأرضون . والرتق : السدّ ضد الفتق يقال : رتقت الفتق أرتقه فارتقت ، أى التأم ، ومنه الرتقاء للمنظمة الفرج ، يعنى أنهما كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما ، وقال : ﴿ رتقا ﴾ ولم يقل : « رتقين » لأنه مصدر ، والتقدير : كانتا ذواتى رتق ، ومعنى ﴿ ففتقناهما ﴾ : ففصلناهما ، أى فصلنا بعضهما من بعض ، فرفعنا السماء ، وأبقينا الأرض مكانها ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ أى أحيينا بالماء الذى ننزله من السماء كل شيء ، فيشمل الحيوان والنبات ، والمعنى : أن الماء سبب حياة كل شيء . وقيل : المراد بالماء هنا : النطفة ، وبه قال أكثر المفسرين ، وهذا احتجاج على المشركين بقدره الله سبحانه وبديع صنعه ، وقد تقدم تفسير هذه الآية ، والهمزة فى ﴿ أفلا يؤمنون ﴾ للإنكار عليهم ، حيث لم يؤمنوا مع وجود ما يقتضيه من الآيات الربانية .

﴿ وجعلنا فى الأرض رواسى ﴾ أى جبالا ثوابت ﴿ أن تميد بهم ﴾ الميد التحرك والدوران ، أى لئلا تتحرك وتدور بهم ، أو كراهة ذلك ، وقد تقدم تفسير ذلك فى النحل مستوفى

﴿وجعلنا فيها﴾ أى فى الرواسى ، أوفى الأرض ﴿فجاجا﴾ قال أبو عبيدة: هى المسالك . وقال الزجاج : كل مخترق بين جبلين فهو فج و﴿سبلا﴾ تفسير للفجاج ، لأن الفج قد لا يكون طريقا نافذاً مسلوكة ﴿لعلهم يهتدون﴾ إلى مصالح معاشهم ، وما تدعو إليه حاجاتهم ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا﴾ من أن يقع ويسقط على الأرض كقوله : ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ [الحج : ٦٥] . وقال الفراء : محفوظا بالنجوم من الشيطان كقوله : ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ [الحجر : ١٧] . وقيل : محفوظا : لا يحتاج إلى عماد ، وقيل المراد بالمحفوظ هنا : المرفوع . وقيل : محفوظا عن الشرك والمعاصى . وقيل : محفوظا عن الهدم والنقض ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ أضاف الآيات إلى السماء ، لأنها مجعولة فيها ، وذلك كالشمس والقمر ونحوهما . ومعنى الإعراض : أنهم لا يتدبرون فيها ، ولا يتفكرون فيما توجه به من الإيمان .

﴿وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر﴾ هذا تذكير لهم بنعمة أخرى مما أنعم به عليهم ، وذلك بأنه خلق لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليتصرفوا فيه فى معاشهم ، وخلق الشمس والقمر أى جعل الشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ، ليعلموا عدد الشهور والحساب كما تقدم بيانه فى سبحان ﴿كل فى فلك يسبحون﴾ أى كل واحد من الشمس والقمر والنجوم فى فلك يسبحون ، أى يجرون فى وسط الفلك ، ويسرون بسرعة كالسباح فى الماء ، والجمع فى الفعل باعتبار المطالع ، قال سيبويه : إنه لما أخبر عنهن بفعل من يعقل ، وجعلهن فى الطاعة بمنزلة من يعقل ، جعل الضمير عنهن ضمير العقلاء ، ولم يقل يسبحن أو تسبح ، وكذا قال الفراء . قال الكسائى : إنما قال : ﴿يسبحون﴾ لأنه رأس آية . والفلك : واحد أفلاك النجوم . وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فلكة المغزل لاستدارتها .

﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ أى دوام البقاء فى الدنيا ﴿أفإن مت﴾ بأجلك المحتوم ﴿فهم الخالدون﴾ أى أنهم الخالدون ؟ قال الفراء : جاء بالفاء لتدل على الشرط لأنه جواب قولهم سيموت . قال : ويجوز حذف الفاء وإضمامها ، والمعنى : إن مت فهم يموتون أيضاً ، فلا شماتة فى الموت . وقرئ : ﴿مت﴾ بكسر الميم وضمها لغتان ، وكان سبب نزول هذه الآية قول المشركين فيما حكاه الله عنهم : ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ [الطور : ٣٠] . ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أى ذائقة مفارقة جسدها ، فلا يبقى أحد من ذوات الأنفس المخلوقة كائنا ما كان . ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ أى نختبركم بالشدة والرخاء ، لننظر كيف شكركم وصبركم . والمراد : أنه سبحانه يعاملهم معاملة من يبلوهم ، و﴿فتنة﴾ مصدر لـ ﴿نبلوكم﴾ من غير لفظه ﴿وإلينا ترجعون﴾ لا إلى غيرنا فنجزىكم بأعمالكم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : قالت اليهود : إن الله عز وجل صاهر الجن فكانت بينهم الملائكة ، فقال الله تكذيباً لهم : ﴿بل عباد مكرمون﴾ أى الملائكة

ليس كما قالوا ، بل عباد أكرمهم بعبادته . ﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ ينشئ عليهم ﴿ ولا يشفعون ﴾ قال : لا تشفع الملائكة يوم القيامة ﴿ إلا لمن ارتضى ﴾ قال : لأهل التوحيد لمن رضى عنه . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن فى الآية قال : قول : لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى الآية قال : الذين ارتضاهم شهادة أن لا إله إلا الله .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث عن جابر ؛ أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ قال : « إن شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » (١) . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ كانتا رتقا ففتقناهما ﴾ قال : فتقت السماء بالغيث ، وفتقت الأرض بالنبات . وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ كانتا رتقا ﴾ قال : لا يخرج منهما شيء ، وذكر مثل ما تقدم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية عنه أيضا من طريق أخرى . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ كانتا رتقا ﴾ قال : ملتصقتين .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى العالية فى قوله : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حى ﴾ قال : نطفة الرجل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وجعلنا فيها فجاجا سبلا ﴾ قال : بين الجبال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ كل فى فلك ﴾ قال : دوران ﴿ يسبحون ﴾ قال : يجرون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عنه : ﴿ كل فى فلك ﴾ قال : فلك كفلكة المغزل ﴿ يسبحون ﴾ قال : يدورون فى أبواب السماء ، كما تدور الفلكة فى المغزل . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : هو فلك السماء .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن عائشة قالت : دخل أبو بكر على النبي ﷺ وقد مات فقبله وقال : وانبياء واخليلاء واصفياه ، ثم تلا : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : ٣٠] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ قال : نبتليكم بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلالة .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوعًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُونَ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٣٦) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ

(١) صححه الحاكم ٣٨٢/٢ على شرط الشيخين وقال الذهبى : « على شرط مسلم » .

مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٤١) قُلْ مَن يَكْلَأُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) ﴿

قوله : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى المستهزئين من المشركين ﴿ إِن يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ أى ما يتخذونك إلا مهزوءاً بك ، والهزؤ : السخرية ، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر : ٩٥] ، والمعنى : ما يفعلون بك إلا اتخذوك هُزُوًا ﴿ أَهَٰذَا الَّذِي يَذَّكَّرُ آلِهَتُكُمْ ﴾ هو على تقدير القول ، أى يقولون : أهذا الذى ، فعلى هذا هو جواب إذا ، ويكون قوله : ﴿ إِن يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ اعتراضاً بين الشرط وجوابه ، ومعنى يذكرها : يعيها . قال الزجاج : يقال : فلان يذكر الناس ، أى يغتابهم ، ويذكرهم بالعيوب ، وفلان يذكر الله ، أى يصفه بالتعظيم ويشئى عليه ، وإنما يحذف مع الذكر ما عقل معناه ، وعلى ما قالوا لا يكون الذكر فى كلام العرب العيب ، وحيث يراد به العيب يحذف منه السوء ، قيل : ومن هذا قول عترة :

لا تذكرى مهري وما أطعمته فيكون جلدك مثل جلد الأجر

أى لا تعيبى مهري ، وجملة ﴿ وهم يذكر الرحمن هم كافرون ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وهم بالقرآن كافرون ، أو هم بذكر الرحمن الذى خلقهم كافرون ، والمعنى : أنهم يعيبون على النبى ﷺ أن يذكر آلِهَتَهُم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء ، والحال أنهم بذكر الله سبحانه بما يليق به من التوحيد ، أو القرآن كافرون ، فهم أحق بالعيب لهم والإنكار عليهم ، فالضمير الأول مبتدأ خبره ﴿ كافرون ﴾ و ﴿ بذكر ﴾ متعلق بالخبر ، والضمير الثانى تأكيد .

﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ أى جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من العجل . قال الفراء : كأنه يقول : بنيته وخلقته من العجلة وعلى العجلة . وقال الزجاج : خوطبت العرب بما تعقل ، والعرب تقول للذى يكثر منه الشيء : خلقت منه كما تقول : أنت من لعب ، وخلقت من لعب ، تريد المبالغة فى وصفه بذلك . ويدل على هذا المعنى قوله : ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ [الإسراء : ١١] . والمراد بالإنسان : الجنس . وقيل : المراد بالإنسان : آدم ، فإنه لما خلقه الله ونفخ فيه الروح صار الروح فى رأسه ، فذهب لينهض قبل أن تبلغ الروح إلى رجله فوق ، فقيل : خلق الإنسان من عجل ، كذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والسدى

والكلبى ومجاهد ، وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعانى : العجل : الطين بلغة حمير .
وأنشدوا :

والنخل تنبت بين الماء والعجل

وقيل : إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث ، وهو القائل : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ [الأنفال : ٣٢] . وقيل : نزلت في قريش لأنهم استعجلوا العذاب . وقال الأخفش : معنى خلق الإنسان من عجل أنه قيل له كن فكان . وقيل : إن هذه الآية من المقلوب ، أى خلق العجل من الإنسان وقد حكى هذا عن أبى عبيدة والنحاس ، والقول الأول أولى ﴿ سأريكم آياتى ﴾ أى سأريكم نعماتى منكم بعذاب النار ﴿ فلا تستعجلون ﴾ أى لاتستعجلونى بالإتيان به ، فإنه نازل بكم لامحالة : وقيل : المراد بالآيات : مادل على صدق محمد ﷺ من المعجزات وما جعله الله له من العاقبة المحمودة ، والأول أولى ، ويدل عليه قولهم : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ أى متى حصول هذا الوعد ، الذى تعدنا به من العذاب ، قالوا ذلك على جهة الاستهزاء والسخرية . وقيل : المراد بالوعد هنا : القيامة ، ومعنى ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ : إن كنتم يا معشر المسلمين صادقين فى وعدكم ، والخطاب للنبي ﷺ وللمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المُنذرة بمجىء الساعة وقرب حضور العذاب .

وجملة : ﴿ لو يعلم الذين كفروا ﴾ وما بعدها مقررة لما قبلها ، أى لو عرفوا ذلك الوقت ، وجواب لو محذوف ، والتقدير : لو علموا الوقت الذى ﴿ لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون ﴾ لما استعجلوا الوعيد . وقال الزجاج فى تقدير الجواب : لعلموا صدق الوعد . وقيل : لو علموه ما أقاموا على الكفر . وقال الكسائى : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة ، أى لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية ، ويدل عليه قوله : ﴿ بل تأتيم بغتة ﴾ وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى الأمام والخلف لكونهما أشهر الجوانب فى استلزام الإحاطة بها للإحاطة بالكل ، بحيث لا يقدرّون على دفعها من جانب من جوانبهم ، ومحل ﴿ حين لا يكفون ﴾ نصب على أنه مفعول العلم ، وهو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه ، ومعنى ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ : ولا ينصرهم أحد من العباد فيدفع ذلك عنهم ، وجملة ﴿ بل تأتيم بغتة ﴾ معطوف على ﴿ يكفون ﴾ : أى لا يكفونها بل تأتيم العدة أو النار أو الساعة بغتة ، أى فجأة ﴿ فتبتهتهم ﴾ قال الجوهري : بهته بهتاً أخذه بغتة ، وقال الفراء : فتبتهتهم ، أى تحيرهم . وقيل : فتفجؤهم ﴿ فلا يستطيعون ردها ﴾ أى صرفها عن وجوههم ولا عن ظهورهم ، فالضمير راجع إلى النار . وقيل : راجع إلى الوعد بتأويله بالعدة . وقيل : راجع إلى الحين بتأويله بالساعة ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أى يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار .

وجملة ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك ﴾ مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ وتعزيتة ، كأنه قال : إن استهزأ بك هؤلاء فقد فعل ذلك بمن قبلك من الرسل على كثرة عددهم وخطر

شأنهم ﴿ فحاق بالذين سخروا منهم ﴾ أى أحاط ودار بسبب ذلك بالذين سخروا من أولئك الرسل وهزؤا بهم ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ : « ما » موصولة ، أو مصدرية ، أى فأحاط بهم الأمر الذى كانوا يستهزئون به ، أو فأحاط بهم استهزاؤهم ، أى جزاؤه ، على وضع السبب موضع المسبب ، أو نفس الاستهزاء ، إن أريد به العذاب الأخرى . ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾ أى يحرسكم ويحفظكم . والكلاءة : الحراسة والحفظ ، يقال : كلاه الله كلاء بالكسر ، أى حفظه وحرسه . قال ابن هرمة :

إن سليمي والله يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرزوها

أى قل يا محمد لأولئك المستهزئين بطريق التوبيخ والتوبيخ : من يحرسكم ويحفظكم بالليل والنهار من بأس الرحمن وعذابه الذى تستحقون حلوله بكم ونزوله عليكم ؟ وقال الزجاج : معناه : من يحفظكم من بأس الرحمن . وقال الفراء : المعنى : من يحفظكم مما يريد الرحمن إنزاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة . وحكى الكسائى والفراء : من يكلؤكم بفتح اللام وإسكان الواو ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ أى عن ذكره سبحانه فلا يذكرونه ولا يخطر ببالهم ، بل يعرضون عنه ، أو عن القرآن ، أو عن مواعظ الله ، أو عن معرفته .

﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ : « أم » هى المنقطعة التى بمعنى بل ، والهمزة للإضراب والانتقال عن الكلام السابق المشتمل على بيان جهلهم بحفظه سبحانه إياهم إلى توبيخهم وتقريعهم باعتمادهم على من هو عاجز عن نفع نفسه ، والدفع عنها . والمعنى : بل لهم آلهة تمنعهم من عذابنا . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم . ثم وصف آلهتهم هذه التى زعموا أنها تنصرهم بما يدل على الضعف والعجز فقال : ﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون ﴾ أى هم عاجزون عن نصر أنفسهم فكيف يستطيعون أن ينصروا غيرهم ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ ، أى ولا هم يجارون من عذابنا . قال ابن قتيبة : أى لا يجيرهم منا أحد ، لأن المجير صاحب الجار ، والعرب تقول : صحبتك الله ، أى حفظك وأجارك ، ومنه قول الشاعر :

ينادى بأعلى صوته متعوذاً ليصحب منها والرماح دوانى

تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان ، أى مجير منه . قال المازنى : هو من أصحبت الرجل : إذا منعته .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : مرّ النبی ﷺ على أبى سفيان وأبى جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبى سفيان : هذا نبى بنى عبد مناف ، فغضب أبو سفيان فقال : ما تنكرون أن يكون لبنى عبد مناف نبى ، فسمعها النبی ﷺ ، فرجع إلى أبى جهل فوقع به وخوفه وقال : « ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك » ، وقال لأبى سفيان : « أما إنك لم تقل إلا حمية » فنزلت هذه الآية : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا ﴾ .

قلت : ينظر من الذى روى عنه السدى ؟ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : لما نفخ فى آدم الروح صار فى رأسه فعطس فقال : الحمد لله ، فقالت الملائكة : يرحمك الله ، فذهب لينهض قبل أن تمور فى رجله فوقع ، فقال الله : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ . وقد أخرج نحو هذا ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير^(١) . وأخرج نحوه أيضا ابن أبى شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن مجاهد^(٢) . وكذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ قل من يكلؤكم ﴾ قال : يحرسكم ، وفى قوله : ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ قال : لا ينصرون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ قال : لا يجارون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى الآية : قال لا يمنعون .

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٠) وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) .

لما أبطل كون الأصنام نافعة أضرب عن ذلك منتقلا إلى بيان أن ما هم فيه من الخير والتمتع بالحياة العاجلة هو من الله ، لا من مانع يمنعهم من الهلاك ، ولا من ناصر ينصرهم على أسباب التمتع فقال : ﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم ﴾ يعنى أهل مكة متعهم الله بما أنعم عليهم ﴿ حتى طال عليهم العمر ﴾ فاغترؤا بذلك وظنوا أنهم لا يزالون كذلك ، فرد سبحانه عليهم قائلا : ﴿ أفلا يرون ﴾ أى أفلا ينظرون فيرون ﴿ أنا نأتى الأرض نقصها من أطرافها ﴾

أى أرض الكفر ننقصها بالظهور عليها من أطرافها فنفتحها بلدًا بعد بلد وأرضًا بعد أرض ، وقيل : ننقصها بالقتل والسبى ، وقد مضى فى الرعد الكلام على هذا مستوفى ، والاستفهام فى قوله : ﴿ أفهم الغالبون ﴾ للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر كظائره ، أى كيف يكونون غالبين بعد نقصنا لأرضهم من أطرافها ؟ وفى هذا إشارة إلى أن الغالبين هم المسلمون .

﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ﴾ أى أخوفكم وأحذركم بالقرآن ، وذلك شأنى وما أمرنى الله به ، وقوله : ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء ﴾ إما من تمة الكلام الذى أمر النبى ﷺ أن يقوله لهم ، أو من جهة الله تعالى . والمعنى : أن من أصم الله سمعه وختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة لا يسمع الدعاء . قرأ أبو عبد الرحمن السلمى ومحمد بن السميع : « ولا يسمع » بضم الياء وفتح الميم على ما لم يسم فاعله . وقرأ ابن عامر وأبو حيوة ويحيى بن الحارث بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم ، أى إنك يا محمد لا تسمع هؤلاء . قال أبو على الفارسى : ولو كان كما قال ابن عامر لكان : إذا ما تنذرهم ، فيحسن نظم الكلام ، فأما ﴿ إذا ما يندرون ﴾ فحسن أن يتبع قراءة العامة . وقرأ الباقر بفتح الياء وفتح الميم ورفع الصم على أنه الفاعل . ﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ﴾ المراد بالنفحة : القليل ، مأخوذ من نفح المسك قاله ابن كيسان ، ومنه قول الشاعر :

وعمرة من سروات النساء تنفحُ بالمسك أردانها

وقال المبرد : النفحة : الدفعة من الشيء التى دون معظمه ، يقال : نفحه نفحة بالسيف إذا ضربه ضربة خفيفة . وقيل : هى النصيب ، وقيل : هى الطرف . والمعنى متقارب ، أى ولئن مسهم أقل شيء من العذاب ﴿ ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ أى ليدعون على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفون عليها بالظلم .

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ الموازين جمع ميزان ، وهو يدل على أن هناك موازين ، ويمكن أن يراد ميزان واحد ، عبر عنه بلفظ الجمع ، وقد ورد فى السنة فى صفة الميزان ما فيه كفاية ، وقد مضى فى الأعراف ، وفى الكهف فى هذا ما يغنى عن الإعادة . والقسط : صفة للموازين . قال الزجاج : قسط : مصدر يوصف به تقول : ميزان قسط وموازين قسط ، والمعنى : ذوات قسط ، والقسط : العدل . وقرئ : « القصط » بالصاد والطاء ، ومعنى ﴿ ليوم القيامة ﴾ لأهل يوم القيامة . وقيل : اللام بمعنى فى ، أى فى يوم القيامة ﴿ فلا تظلم نفس شيئا ﴾ أى لا ينقص من إحسان محسن ولا يزداد فى إساءة مسيء ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل ﴾ قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر برفع مثقال على أن كان تامة ، أى إن وقع أو وجد مثقال حبة . وقرأ الباقر بنصب المثقال على تقدير : وإن كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين مثقال حبة ، كذا قال الزجاج . وقال أبو على الفارسى : وإن كان الظلامة مثقال حبة . قال الواحدي : وهذا أحسن لتقدم قوله : ﴿ فلا تظلم نفس شيئا ﴾ ، و مثقال الشيء ميزانه ،

أى وإن كان فى غاية الخفة والحقارة ، فإن حبة الخردل مثل فى الصغر ﴿ آتينا بها ﴾ قرأ الجمهور بالقصر ، أى أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها ، ﴿ وبها ﴾ أى بحبة الخردل . وقرأ مجاهد وعكرمة : « آتينا » بالمد على معنى : جازينا بها يقال : آتى يؤاتى مؤاتاة لجازى ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ أى كفى بنا محصين . والحسب فى الاصل معناه : العدّ ، وقيل : كفى بنا عالمين ، لأن من حسب شيئاً علمه وحفظه ، وقيل : كفى بنا مجازين على ما قدموه من خير وشر .

ثم شرع سبحانه فى تفصيل ما أجمله سابقاً بقوله : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ﴾ [الانبياء : ٧] فقال : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين ﴾ المراد بالفرقان هنا : التوراة ، لأن فيها الفرق بين الحلال والحرام ، وقيل : الفرقان هنا هو : النصر على الأعداء كما فى قوله : ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ [الأنفال : ٤١] . قال الثعلبى : وهذا القول أشبه بظاهر الآية ، ومعنى ﴿ وضياء ﴾ أنهم استضاءوا بها فى ظلمات الجهل والغواية ، ومعنى ﴿ وذكرا ﴾ الموعظة ، أى أنهم يتعظون بما فيها ، وخصّ المتقين لأنهم الذين يتتفعون بذلك ، ووصفهم بقوله : ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ لأن هذه الخشية تلازم التقوى . ويجوز أن يكون الموصول بدلا من المتقين أو بيانا له ، ومحل ﴿ بالغيب ﴾ النصب على الحال ، أى يخشون عذابه وهو غائب عنهم ، أو هم غائبون عنه لأنهم فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة . وقرأ ابن عباس وعكرمة : ﴿ ضياء ﴾ بغير واو . قال الفراء : حذف الواو والمجئ بها واحد ، واعترضه الزجاج بأن الواو تحبى لمعنى فلا تزداد ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ أى وهم من القيامة خائفون وجلون ، والإشارة بقوله : ﴿ وهذا ذكر مبارك ﴾ إلى القرآن . قال الزجاج المعنى : وهذا القرآن ذكر لمن تذكر به وموعظة لمن اتعظ به ، والمبارك كثير البركة والخير . وقوله : ﴿ أنزلناه ﴾ صفة ثانية للذكر ، أو خبر بعد خبر ، والاستفهام فى قوله : ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾ للإنكار لما وقع منهم من الإنكار ، أى كيف تنكرون كونه منزلا من عند الله مع اعترافكم بأن التوراة منزلة من عنده .

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده ﴾ أى الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل ، ومعنى ﴿ من قبل ﴾ : أنه أعطى رشده قبل إيتاء موسى وهارون التوراة . وقال الفراء : المعنى : أعطيناه هداية من قبل النبوة ، أى وفقناه للنظر والاستدلال لما جنّ عليه الليل فرأى الشمس والقمر والنجم ، وعلى هذا أكثر المفسرين ، وبالأول قال أقلهم ﴿ وكنا به عالمين ﴾ أنه موضع لإيتاء الرشد ، وأنه يصلح لذلك ، والظرف فى قوله : ﴿ إذ قال لأبيه ﴾ متعلق بآتينا أو بمحذوف أى اذكر حين قال ، وأبوه هو آزر ﴿ وقومه ﴾ غروذ ومن اتبعه . والتمثيل : الأصنام . وأصل التمثال : الشيء المصنوع مشابها لشيء من مخلوقات الله سبحانه ، يقال : مثلت الشيء بالشيء : إذا جعلته مشابها له ، واسم ذلك الممثل تمثال ، أنكر عليهم عبادتها بقوله : ﴿ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ﴾ والعاكف عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء ، واللام فى ﴿ لها ﴾

للاختصاص ، ولو كانت للتعدية لجيء بكلمة على ، أى ما هذه الأصنام التى أنتم مقيمون على عبادتها ؟ وقيل : إن العكوف مضمن معنى العبادة .

﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ أجابوه بهذا الجواب الذى هو العصا التى يتوكأ عليها كل عاجز ، والحبل الذى يتشبث به كل غريق ، وهو التمسك بمجرد تقليد الآباء ، أى وجدنا آباءنا يعبدونها فعبدناها اقتداء بهم ومشياً على طريقتهن ، وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الإسلامية ، وإن العالم بالكتاب والسنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأى المدفوع بالدليل قالوا : هذا قد قال به إمامنا الذى وجدنا آباءنا له مقلدين وبرأيه آخذين ، وجوابهم : هو ما أجاب به الخليل هاهنا ﴿ قال لقد كنتم أنتم وأباؤكم فى ضلال مبين ﴾ أى فى خسران واضح ظاهر لا يخفى على أحد ولا يلتبس على ذى عقل ، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر ، وليس بعد هذا الضلال ضلال ، ولا يساوى هذا الخسران خسران ، وهؤلاء المقلدة من أهل الإسلام استبدلوا بكتاب الله وبسنة رسوله كتاباً قد دوت فيه اجتهدات عالم من علماء الإسلام زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها ، إما لقصور منه أو لتقصير فى البحث فوجد ذلك الدليل من وجده وأبرزه واضح المنار :

كأنه علم فى رأسه نار

وقال : هذا كتاب الله أو هذه سنة رسوله ، وأنشدهم :

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن فى دينه كمخاطر

فقالوا كما قال الأول :

ما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وقد أحسن من قال :

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

ثم لما سمع أولئك مقالة الخليل قالوا : ﴿ أجنثنا بالحق أم أنت من اللاعين ﴾ أى أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح ؟ قال مضرباً عما بنوا عليه مقالاتهم من التقليد : ﴿ بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ﴾ أى خلقهن وأبدعهن ﴿ وأنا على ذلكنم ﴾ الذى ذكرته لكم من كون ربكم هو رب السموات والأرض دون ما عداه ﴿ من الشاهدين ﴾ أى العالمين به المبرهين عليه ، فإن الشاهد على الشيء هو من كان عالماً به مبرهنًا عليه مبيّنًا له .

وقد أخرج أحمد والترمذى ، وابن جرير فى تهذيبه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن عائشة ؛ أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن لى مملوكين يكذبوننى ويخونوننى ويعصوننى وأضربهم وأشتهم ، فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول الله

ﷺ: « يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك ، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا عليك ولا لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتصر لهم منك الفضل » فجعل الرجل يبكى ويهنف ، فقال رسول الله ﷺ : « أما تقرأ كتاب الله : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ » فقال له الرجل : يا رسول الله ، ما أجد لى ولهم خيراً من مفارقتهم ، أشهدك أنهم أحرار^(١) . رواه أحمد هكذا : حدثنا أبو نوح قراد ، أخبرنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهري عن عروة عن عائشة فذكره ، وفى معناه أحاديث .

وأخرج عبد بن حميد عن أبى صالح ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ قال: التوراة. وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : ﴿ الفرقان ﴾ : الحق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة: ﴿ وهذا ذكر مبارك ﴾ أى القرآن . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده ﴾ قال : هديناه صغيراً ، وفى قوله : ﴿ ما هذه التماثيل ﴾ قال : الأصنام .

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَاتُّوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أَفَلَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾ .

قوله : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ أخبرهم أنه سينقل من المحاجة باللسان إلى تغيير المنكر بالفعل ثقة بالله سبحانه ومحاماة على دينه . والكيد : المكر ، يقال : كاده يكيد كيداً

(١) أحمد ٦/ ٢٨٠ ، ٢٨١ والترمذى فى التفسير (٣١٦٥) وقال : « هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن غزوان » . والبيهقى فى الشعب (٨٥٨٦) . ط . دار الكتب العلمية .

ومكيدة ، والمراد هنا الاجتهاد فى كسر الأصنام . قيل : إنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك سرّاً . وقيل : سمعه رجل منهم ﴿ بعد أن تولوا مدبرين ﴾ أى بعد أن ترجعوا من عبادتها ذاهبين منطلقين . قال المفسرون : كان لهم عيد فى كل سنة يجتمعون فيه ، فقالوا لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ، فقال إبراهيم هذه المقالة . والفاء فى قوله : ﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ فصيحة ، أى فولوا ، فجعلهم جذاذاً ، الجذذ : القطع والكسر ، يقال : جذذت الشئ قطعته وكسرته . والواحد : جذاذة ، والجذاذ : ما كسر منه . قاله الجوهري . قال الكسائي : ويقال لحجارة الذهب : الجذاذ ؛ لأنها تكسر . قرأ الكسائي والأعمش وابن محيصن : « جذاذاً » بكسر الجيم ، أى كسرّاً وقطعاً ، جمع جذيد ، وهو الهشيم ، مثل . خفيف وخفاف ، وظريف وظراف . قال الشاعر :

جذذ الأصنام فى محرابها ذاك فى الله العلىّ المقتدر

وقرأ الباقر بالضم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، أى الحطام والرفات ، فعال بمعنى مفعول ، وهذا هو الكيد الذى وعدهم به . وقرأ ابن عباس وأبو السمال : « جذاذاً » بفتح الجيم ﴿ إلا كبيراً لهم ﴾ أى للأصنام ﴿ لعلهم إليه ﴾ أى إلى إبراهيم ﴿ يرجعون ﴾ فيحاجهم بما سيأتى فيحجهم . وقيل : لعلهم إلى الصنم الكبير يرجعون فيسألونه عن الكاسر ، لأن من شأن المعبود أن يرجع إليه فى المهمات ، فإذا رجعوا إليه لم يجدوا عنده خبراً ، فيعلمون حينئذ أنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً ، ولا تعلم بخير ولا شر ، ولا تخبر عن الذى ينوبها من الأمر ؛ وقيل : لعلهم إلى الله يرجعون ، وهو بعيد جداً .

﴿ قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير : فلما رجعوا من عيدهم ورأوا ما حدث بالهتهم قالوا هذه المقالة ، والاستفهام للتوبيخ . وقيل : إن « من » ليست استفهامية ، بل هى مبتدأ وخبرها ﴿ إنه لمن الظالمين ﴾ أى فاعل هذا ظالم ، والاول أولى لقولهم : ﴿ سمعنا فتى ﴾ إلخ ، فإنه قال بهذا بعضهم مجيباً للمستفهمين لهم ، وهذا القائل هو الذى سمع إبراهيم يقول : ﴿ تالله لأكيدن أصنامكم ﴾ ومعنى ﴿ يذكركم ﴾ : يعيهم ، وقد سبق تحقيق مثل هذه العبارة ، وجملة : ﴿ يقال له إبراهيم ﴾ صفة ثانية لفتى . قال الزجاج : وارتفع إبراهيم على معنى : يقال له هو إبراهيم ، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف ؛ وقيل : ارتفاعه على أنه مفعول مالم يسم فاعله ؛ وقيل : مرتفع على النداء . ومن غرائب التدقيقات النحوية ، وعجائب التوجيهات الإعرابية ، أن الأعلام الشتمى الإشيلي قال : إنه مرتفع على الإهمال . قال ابن عطية : ذهب إلى رفعه بغير شئ . والفتى : هو الشاب ، والفتاة : الشابة .

﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس ﴾ القائلون هم السائلون ، أمروا بعضهم أن يأتى به ظاهراً برأى من الناس . قيل : إنه لما بلغ الخبر نمرود وأشراف قومه كرهوا أن يأخذوه بغير بينة ، فقالوا هذه المقالة ، ليكون ذلك حجة عليه يستحلون بها منه ما قد عزموا على أن يفعلوه به .

ومعنى ﴿ لعلهم يشهدون ﴾ : لعلهم يحضرون عقابه حتى ينزجر غيره عن الاقتداء به فى مثل هذا . وقيل : لعلهم يشهدون عليه بأنهم رأوه يكسر الأصنام ، أو لعلهم يشهدون طعنه على أصنامهم . وجملة : ﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، وفى الكلام حذف تقديره : فجاء إبراهيم حين أتوا به فاستفهموه هل فعل ذلك ؟ لإقامة الحجة عليه فى زعمهم .

﴿ قال بل فعله كبيرهم هذا ﴾ أى قال إبراهيم مقيماً للحجة عليهم مبكناً لهم ، بل فعله كبيرهم هذا مشيراً إلى الصنم الذى تركه ولم يكسره ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ أى إن كانوا ممن يمكنه النطق ويقدر على الكلام ويفهم ما يقال له ، فيجيب عنه بما يطابقه . أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة ، ولا يصح فى العقل أن يطلق عليه أنه إله . فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم فى الاعتراف بأن الجمادات التى عبدوها ليست بآلهة ، لأنهم إذا قالوا : إنهم لا ينطقون ، قال لهم : فكيف تعبدون من يعجز عن النطق ، ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده فى المكان الذى هو فيه ؟ فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة ويعترف بالحق ، فإن ذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته . وقيل : أراد إبراهيم عليه السلام بنسبة الفعل إلى ذلك الكبير من الأصنام أنه فعل ذلك لأنه غار وغضب من أن يعبد وتعبد الصغار معه ، إرشاداً لهم إلى أن عبادة هذه الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تدفع لا تستحسن فى العقل مع وجود خالقها وخالقهم ، والأول أولى . وقرأ ابن السميعة : « بل فعله » بتشديد اللام على معنى بل فلعل الفاعل كبيرهم .

﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ أى رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطن لصحة حجة خصمه المراجع لعقله ، وذلك أنهم تنبهوا وفهموا عند هذه المقابلة بينهم وبين إبراهيم أن من لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإضرار بمن فعل به ما فعله إبراهيم بتلك الأصنام يستحيل أن يكون مستحقاً للعبادة ، ولهذا ﴿ قالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ أى قال بعضهم لبعض : أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادة هذه الجمادات ، وليس الظالم من نسبتم الظلم إليه بقولكم : إنه لمن الظالمين ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ أى رجعوا إلى جهلهم وعنادهم ، شبه سبحانه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشئ أعلاه . وقيل : المعنى : أنهم طأطؤوا رؤوسهم خجلاً من إبراهيم ، وهو ضعيف ؛ لأنه لم يقل : نكسوا رؤوسهم بفتح الكاف وإسناد الفعل إليهم حتى يصح هذا التفسير ، بل قال : نكسوا على رؤوسهم ، وقرئ : « نكسوا » بالتشديد ، ثم قالوا بعد أن نكسوا مخاطبين لإبراهيم ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ أى قائلين لإبراهيم لقد علمت أن النطق ليس من شأن هذه الأصنام ، فقال إبراهيم مبكناً لهم ومزرياً عليهم : ﴿ أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ﴾ من النفع ﴿ ولا يضركم ﴾ بنوع من أنواع الضرر . ثم تضجر عليه السلام منهم ، فقال : ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾

وفى هذا تحقير لهم ولعبوداتهم ، واللام فى ﴿ لكم ﴾ لبيان المتأفف به ، أى لكم ولآلهتكم ، والتأفف : صوت يدل على التضجر ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أى ليس لكم عقول تفكرون بها ، فتعلمون هذا الصنع القبيح الذى صنعتموه .

﴿ قالوا حرقوه ﴾ أى قال بعضهم لبعض لما أعيتهم الحيلة فى دفع إبراهيم ، وعجزوا عن مجادلته ، وضائق عليهم مسالك المناظرة ، حرقوا إبراهيم . انصرافاً منهم إلى طريق الظلم والغشم ، وميلاً منهم إلى إظهار الغلبة بأى وجه كان ، وعلى أى أمر اتفق ، ولهذا قالوا : ﴿ وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ أى انصروها بالانتقام من هذا الذى فعل بها ما فعل إن كنتم فاعلين للنصر . وقيل : هذا القائل هو غرود ؛ وقيل رجل من الأكراد . ﴿ قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ فى الكلام حذف تقديره : فأضرموا النار ، وذهبوا بإبراهيم إليها ، فعند ذلك قلنا : يا نار كوني ذات برد وسلام . وقيل : إن انتصاب ﴿ سلاما ﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف ، أى وسلمنا سلاماً عليه ﴿ وأرادوا به كيدا ﴾ أى مكرراً ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ أى أخسر من كل خاسر ؛ ورددنا مكرهم عليهم ؛ فجعلنا لهم عاقبة السوء ؛ كما جعلنا لإبراهيم عاقبة الخير .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه ، فقالوا : يا إبراهيم ألا تخرج معنا : قال : إني سقيم ، وقد كان بالأمس ، قال : ﴿ تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ فسمعه ناس منهم ، فلما خرجوا انطلق إلى أهله ، فأخذ طعاماً ثم انطلق إلى آلهتهم فقربه إليهم ، فقال : ألا تأكلون ، فكسرها إلا كبيرهم ، ثم ربط فى يده الذى كسر به آلهتهم ، فلما رجع القوم من عيدهم دخلوا ، فإذا هم بآلهتهم قد كسرت ، وإذا كبيرهم فى يده الذى كسر به الأصنام ، قالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ فقال الذين سمعوا إبراهيم يقول : ﴿ تالله لأكيدن أصنامكم ﴾ : ﴿ سمعنا فتى يذكرهم ﴾ فجادلهم عند ذلك إبراهيم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ جذاذاً ﴾ قال : حطاماً . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : فتاتاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضاً : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ قال : عظيم آلهتهم . وأخرج أبو داود والترمذى [وابن المنذر] وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يكذب إبراهيم فى شيء قط إلا فى ثلاث كلهن فى الله : قوله : ﴿ إني سقيم ﴾ ولم يكن سقيماً ، وقوله لسارة : أختى ، وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ » (١) . وهذا الحديث هو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة بأطول من هذا (٢) . وقد روى نحو هذا أبو يعلى من حديث أبى سعيد (٣) .

(١) أبو داود فى الطلاق (٢٢١٢) والترمذى فى التفسير (٣١٦٦) .

(٢) البخارى فى الأنبياء (٣٣٥٨) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧١ / ١٥٤) .

(٣) أبو يعلى (١٠٤٠) وإسناده ضعيف ؛ لضعف على بن زيد بن جدعان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما جمع لإبراهيم ما جمع ، وألقى فى النار جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله ؟ فكان أمر الله أسرع ، قال الله : ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا ﴾ فلم يبقَ فى الأرض نار إلا طفئت . وأخرج أحمد وابن ماجه وابن حبان وأبو يعلى وابن أبي حاتم والطبرانى عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم حين ألقى فى النار لم تكن دابة إلا تطفئ عنه النار غير الورغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم » ، فأمر رسول الله ﷺ بقتله^(١) . وأخرج ابن أبي شيبة فى المصنف ، وابن المنذر عن ابن عمر ، قال : أول كلمة قالها إبراهيم حين ألقى فى النار : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ [آل عمران : ١٧٣] . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ يا نار كونى ﴾ قال : كان جبريل هو الذى ناداها . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها . وأخرج الفريابى وابن أبي شيبة وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن على نحوه . وأخرج ابن جرير عن معتمر بن سليمان التيمى عن بعض أصحابه قال : جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يوثق ليلقى فى النار ، فقال : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن كعب قال : ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن المنهال بن عمرو قال: أخبرت أن إبراهيم ألقى فى النار ، فكان فيها إما خمسين وإما أربعين ، قال : ما كنت أياماً وليالى قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها ، وددت أن عيشى وحياتى كلها مثل عيشى إذ كنت فيها .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنًا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) ﴾ .

قد تقدم أن لوطاً هو ابن أخى إبراهيم ، فحكى الله سبحانه هاهنا أنه نجى إبراهيم ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . قال المفسرون : وهى أرض الشام ، وكانا بالعراق وسماها سبحانه مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها ، ولأنها معادن الأنبياء ؛ وأصل البركة : ثبوت الخير ، ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح . وقيل : الأرض المباركة : مكة . وقيل :

(١) أحمد ١٠٩/٦ وابن ماجه فى الصيد (٣٢٣١) وابن حبان (٥٦٠٢) وأبو يعلى (٤٣٥٧) .

بيت المقدس ، لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء ، وهى أيضاً كثيرة الخصب ، وقد تقدم تفسير العالمين . ثم قال سبحانه ممتنا على إبراهيم ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾ النافلة : الزيادة ، وكان إبراهيم قد سأل الله سبحانه أن يهب له ولداً ، فوهب له إسحاق ، ثم وهب لإسحاق يعقوب من غير دعاء ، فكان ذلك نافلة : أى زيادة ؛ وقيل : المراد بالنافلة هنا : العطية ، قاله الزجاج . وقيل : النافلة هنا : ولد الولد ، لأنه زيادة على الولد ، وانتصاب ﴿ نافلة ﴾ على الحال . قال الفراء : النافلة : يعقوب خاصة ، لأنه ولد الولد ﴿ وكلا جعلنا صالحين ﴾ أى وكل واحد من هؤلاء الأربعة : إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ، لا بعضهم دون بعض جعلناه صالحاً عاملاً بطاعة الله تاركاً لمعاصيه . وقيل : المراد بالصلاح هنا : النبوة .

﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ أى رؤساء يقتدى بهم فى الخيرات وأعمال الطاعات ، ومعنى ﴿ بأمرنا ﴾ : بأمرنا لهم بذلك ، أى بما أنزلنا عليهم من الوحي ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ أى أن يفعلوا الطاعات . وقيل : المراد بالخيرات : شرائع النبوات ﴿ وكانوا لنا عابدين ﴾ أى كانوا لنا خاصة دون غيرنا مطيعين ، فاعلين لما نأمرهم به ، تاركين ما ننهاهم عنه . ﴿ ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ﴾ انتصاب ﴿ لوطاً ﴾ بفعل مضمر دلّ عليه قوله : ﴿ آتيناه ﴾ أى وآتيناه لوطاً آتيناه . وقيل : بنفس الفعل المذكور بعده . وقيل : بمحذوف هو : اذكر ، والحكم : النبوة . والعلم : المعرفة بأمر الدين . وقيل : الحكم : هو فصل الخصومات بالحق . وقيل : هو الفهم . ﴿ ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ﴾ القرية هى سدوم كما تقدم ، ومعنى ﴿ تعمل الخبائث ﴾ : يعمل أهلها الخبائث ، فوصفت القرية بوصف أهلها ، والخبائث التى كانوا يعملونها هى اللواط والضرط وخذف الحصى كما سيأتى ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ أى خارجين عن طاعة الله . والفسوق : الخروج كما تقدم .

﴿ وأدخلناه فى رحمتنا ﴾ بإنجاننا إياه من القوم المذكورين ، ومعنى ﴿ فى رحمتنا ﴾ : فى أهل رحمتنا . وقيل : فى النبوة : وقيل : فى الإسلام . وقيل : فى الجنة ﴿ إنه من الصالحين ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى . ﴿ ونوحاً إذ نادى ﴾ أى واذكر نوحاً إذ نادى ربه ﴿ من قبل ﴾ أى من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين ﴿ فاستجبنا له ﴾ دعاءه ﴿ فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ أى من الغرق بالطوفان ، والكرب : الغم الشديد ، والمراد بأهله : المؤمنون منهم . ﴿ ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أى نصرناه نصراً مستتبعاً للانتقام من القوم المذكورين . وقيل : المعنى : منعناه من القوم . وقال أبو عبيدة : من بمعنى على ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾ أى لم نترك منهم أحداً ، بل أغرقنا كبيرهم وصغيرهم بسبب إصرارهم على الذنب .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بن كعب فى قوله : ﴿ إلى الأرض التى باركنا فيها ﴾ قال : الشام . وأخرج ابن أبى شيبه عن أبى مالك نحوه . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن

عباس قال : لوط كان ابن أخى إبراهيم . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ ووهبنا له إسحاق ﴾ قال : ولدًا ﴿ ويعقوب نافلة ﴾ قال : ابن الابن . وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحكم نحوه أيضًا . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ ووهبنا له إسحاق ﴾ قال : أعطيناه ﴿ ويعقوب نافلة ﴾ قال : عطية .

﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ (٧٨) ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحصبكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴾ (٧٩) ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين ﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين ﴾ (٨٠) وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ (٨١) وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ﴿ وأدخلناهم في رحمتنا إناهم من الصالحين ﴾ (٨٢) وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك نجى المؤمنين ﴾ (٨٣) ﴿

قوله : ﴿ وداود ﴾ معطوف على ﴿ نوحا ﴾ ومعمول لعامله المذكور ، أو المقدّر كما مرّ ﴿ وسليمان ﴾ معطوف على داود ، والظرف في ﴿ إذ يحكمان ﴾ متعلق بما عمل في داود ، أى واذكرهما وقت حكمهما . والمراد من ذكرهما ذكر خبرهما . ومعنى ﴿ في الحرث ﴾ : فى شأن الحرث . وقيل : كان زرعاً . وقيل : كرماً ، واسم الحرث يطلق عليهما ﴿ إذ نفشت فيه ﴾ أى تفرقت وانتشرت فيه ﴿ غنم القوم ﴾ قال ابن السكيت : الفش بالتحريك أن تنتشر الغنم بالليل من غير راع ﴿ وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ أى لحكم الحاكمين ، وفيه جواز إطلاق الجمع على الاثنين ، وهو مذهب طائفة من أهل العربية كالزمخشري والرضي ، وتقدمهما إلى القول به الفراء . وقيل : المراد : الحاكمان ، المحكوم عليه ، ومعنى ﴿ شاهدين ﴾ : حاضرين ، والجملة اعتراضية .

وجملة : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ معطوفة على ﴿ إذ يحكمان ﴾ لأنه فى حكم الماضى ، والضمير فى ﴿ ففهمناها ﴾ ، يعود إلى القضية المفهومة من الكلام ، أو الحكومة المدلول عليها بذكر الحكم . قال المفسرون : دخل رجلان على داود ، وعنده ابنه سليمان ، أحدهما :

صاحب حرث ، والآخر :صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث: إن هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقعت في حرثي فلم تبق منه شيئاً ، فقال : لك رقاب الغنم ، فقال سليمان : أو غير ذلك ، ينطلق أصحاب الكرم بالغنم فيصيبون من ألبانها ومنافعها ويقوم أصحاب الغنم على الكرم حتى إذا كان كليلة نفشت فيه دفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم ، ودفع هؤلاء إلى هؤلاء كرمهم ، فقال داود : القضاء ما قضيت ، وحكم بذلك . قال النحاس : إنما قضى داود بالغنم لصاحب الحرث لأن ثمنها كانا قريباً منه ، وأما في حكم سليمان فقد قيل : كانت قيمة ما نال من الغنم ، وقيمة ما أفسدت الغنم سواء . قال جماعة من العلماء : إن داود حكم بوحى ، وحكم سليمان بوحى نسخ الله به حكم داود ، فيكون التفهيم على هذا بطريق الوحي . وقال الجمهور : إن حكمهما كان باجتهاد ، وكلام أهل العلم في حكم اجتهاد الأنبياء معروف ، وهكذا ما ذكره أهل العلم في اختلاف المجتهدين ، وهل كل مجتهد مصيب ، أو الحق مع واحد ؟ وقد استدل المستدلون بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب، ولا شك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ، وأما كون كل واحد منهما مصيباً ، فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها ، بل صرح الحديث المتفق عليه في الصحيحين وغيرهما أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر (١) فسماه النبي ﷺ مخطئاً فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له ، فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين ، وإلا لزم توقف حكمه عز وجل على اجتهادات المجتهدين ، واللازم باطل فالملزوم مثله . وأيضاً يستلزم أن تكون العين التى تختلف اجتهاد المجتهدين فيها بالحل والحرمة حلالاً وحراماً في حكم الله سبحانه. وهذا اللازم باطل بالإجماع ، فالملزوم مثله . وأيضاً يلزم أن حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد له اجتهاد فى تلك الحادثة ، ولا ينقطع ما يريده الله سبحانه فيها إلا بانقطاع المجتهدين واللازم باطل فالملزوم مثله . وقد أوضحنا هذه المسألة بما لا مزيد عليه فى المؤلف الذى سميناه « القول المفيد فى حكم التقليد » وفى « أدب الطلب ومنتهى الأرب » فمن أحب الوقوف على تحقيق الحق فليرجع إليهما .

فإن قلت : فما حكم هذه الحادثة التى حكم فيها داود وسليمان فى هذه الشريعة المحمدية، والملة الإسلامية ؟ قلت : قد ثبت عن النبي ﷺ من حديث البراء أنه شرع لأمته أن على أهل الماشية حفظها بالليل ، وعلى أصحاب الحوائط حفظها بالنهار (٢) ، وأن ما أفسدت المواشى بالليل مضمون على أهلها ، وهذا الضمان هو مقدار الذهاب عيناً أو قيمة . وقد ذهب جمهور العلماء إلى العمل بما تضمنه هذا الحديث ، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ ، وأن البهائم إذا أفسدت زرعاً فى ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شيئاً ، وأدخلوا فسادها فى عموم قول النبي ﷺ : « جرح العجماء جبار » (٣) قياساً لجميع

(١) البخارى فى الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٥٢) ومسلم فى الأقضية (١٥ / ١٧١٦) .

(٢) الموطأ فى الأقضية ٢ / ٧٤٧ . (٣) مسلم فى الحدود (١٧١٠ / ٤٥ ، ٤٦) .

أفعالها على جرحها . ويجاب عنه بأن هذا القياس فاسد الاعتبار ، لأنه فى مقابلة النص ، ومن أهل العلم من ذهب إلى أنه يضمن ربّ الماشية ما أفسدته من غير فرق بين الليل والنهار . ويجاب عنه بحديث البراء .

ومما يدل على أن هذين الحكمين من داود وسليمان كانا بوحى من الله سبحانه لا باجتهاد . قوله : ﴿ وكلا آتينا حكما وعلما ﴾ فإن الله سبحانه أخبرنا بأنه أعطى كل واحد منهما هذين الأمرين ، وهما إن كانا خاصين فصدقهما على هذه القضية التى حكاهما الله سبحانه عنهما مقدّم على صدقهما على غيرها ، وإن كانا عامين فهذا الفرد من الحكم والعلم ، وهو ما وقع من كل واحد منهما فى هذه القضية أحقّ أفراد ذلك العام بدخوله تحته ودلالته عليه ، ومما يستفاد من ذلك دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان بالتفهيم ، من عدم كون حكم داود حكماً شرعياً ، أى وكل واحد منهما أعطياه حكماً وعلماً كثيراً ، لا سليمان وحده . ولما مدح داود وسليمان على سبيل الاشتراك ، ذكر ما يختص بكل واحد منهما ، فبدأ بـداود فقال : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ﴾ التسبيح إما حقيقة أو مجاز ، وقد قال بالأوّل جماعة وهو الظاهر . وذلك أن داود كان إذا سبح سبحت الجبال معه . وقيل : إنها كانت تصلى معه إذا صلى ، وهو معنى التسبيح . وقال بالمجاز جماعة آخرون وحملوا التسبيح على تسبيح من رآها تعجباً من عظيم خلقها وقدرته خالقها . وقيل : كانت الجبال تسير مع داود ، فكان من رآها سائرة معه سبح ﴿ والطير ﴾ معطوف على الجبال ، وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ وخبره محذوف ، أى والطير مسخرات ، ولا يصح العطف على الضمير فى ﴿ يسبحن ﴾ لعدم التأكيد والفصل ﴿ وكنا فاعلين ﴾ يعنى ما ذكر من التفهيم ، وإيتاء الحكم والتسخير ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم ﴾ اللبوس عند العرب السلاح كله درعاً كان أو جوشناً ، أو سيفاً ، أو رمحاً . قال الهذلى :

وعندى لبوس فى اللباس كأنه إلخ

والمراد فى الآية الدروع خاصة ، وهو بمعنى الملبوس ، كالركوب والحلوب ، والجار والمجرور أعنى لكم متعلق بعلمنا ﴿ ليحصنكم من بأسكم ﴾ قرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر وحفص وروح ﴿ لتحصنكم ﴾ بالتاء الفوقية ، بإرجاع الضمير إلى الصنعة ، أو إلى اللبوس بتأويل الدرع . وقرأ شيبة وأبو بكر والمفضل وابن أبى إسحاق « لتحصنكم » بالنون بإرجاع الضمير إليه سبحانه . وقرأ الباقون بالياء بإرجاع الضمير إلى اللبوس ، أو إلى داود ، أو إلى الله سبحانه . ومعنى ﴿ من بأسكم ﴾ : من حربكم ، أو من وقع السلاح فيكم ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ لهذه النعمة التى أنعمنا بها عليكم ، والاستفهام فى معنى الأمر .

ثم ذكر سبحانه ما خص به سليمان . فقال : ﴿ وسليمان الريح ﴾ أى وسخرنا له الريح ﴿ عاصفة ﴾ أى شديدة الهبوب . يقال : عصفت الريح ، أى اشتدت ، فهى ريح عاصف

وعصوف ، وانتصاب ﴿ الرياح ﴾ ^(١) على الحال . وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسلمي وأبو بكر ﴿ ولسليمان الريح ﴾ برفع الريح على القطع مما قبله ، ويكون مبتدأ وخبره تجرى ، وأما على قراءة النصب فيكون محل ﴿ تجرى بأمره ﴾ النصب أيضاً على الحالية ، أو على البدلية ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ وهى أرض الشام كما تقدم ﴿ وكنا بكل شيء عالمين ﴾ أى بتدبير كل شيء ﴿ ومن الشياطين ﴾ أى وسخرنا من الشياطين ﴿ من يغوصون له ﴾ فى البحار ويستخرجون منها ما يطلبه منهم . وقيل : إن « من » مبتدأ وخبره ما قبله ، والغوص : النزول تحت الماء ، يقال غاص فى الماء ، والغواص : الذى يغوص فى البحر على اللؤلؤ ﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ قال الفراء : أى سوى ذلك ، وقيل : يراد بذلك المحاريب والتماثيل وغير ذلك مما يسخرهم فيه ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ أى لأعمالهم . وقال الفراء : حافظين لهم من أن يهربوا أو يتمنعوا ، أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره . قال الزجاج : كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا ، وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار .

﴿ وأيوب إذ نادى ربه ﴾ معطوف على ما قبله ، والعامل فيه : إما المذكور أو المقدر كما مر ، والعامل فى الظرف وهو ﴿ إذ نادى ربه ﴾ هو العامل فى أيوب ﴿ أنى مسنى الضر ﴾ أى بأنى مسنى الضر . وقرئ بكسر « إنى » .

واختلف فى الضر الذى نزل به ماذا هو؟ فقيل إنه قام ليصلى فلم يقدر على النهوض . وقيل : إنه أقر بالعجز ، فلا يكون ذلك منافياً للصبر . وقيل : انقطع الوحى عنه أربعين يوماً . وقيل : إن دودة سقطت من لحمه ، فأخذها وردّها فى موضعها فأكلت منه ، فصاح : مسنى الضر ؛ وقيل : كان الذود يتناول بدنه فيصبر حتى تناولت دودة قلبه . وقيل : إن ضره قول إبليس لزوجته : اسجدى لى ، فخاف ذهاب إيمانها ؛ وقيل : إنه تقدّره قومه . وقيل : أراد بالضرّ الشماتة ، وقيل غير ذلك . ولما نادى ربه متضرّعاً إليه وصفه بغاية الرحمة فقال : ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ فأخبر الله سبحانه باستجابته لدعائه ، فقال : ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ﴾ أى شفاه الله مما كان به وأعاضه بما ذهب عليه ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قيل : تركهم الله عز وجلّ له ، وأعطاه مثلهم فى الدنيا . قال النحاس : والإسناد بذلك صحيح ، وقد كان مات أهله جميعاً إلا امرأته ، فأحياهم الله فى أقل من طرف البصر ، وآتاه مثلهم معهم . وقيل : كان ذلك بأن ولد له ضعف الذين أماتهم الله ، فيكون معنى الآية على هذا : آتيناه مثل أهله ومثلهم معهم ، وانتصاب ﴿ رحمة من عندنا ﴾ على العلة : أى آتيناه ذلك لرحمتنا له ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ أى وتذكّره لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر . واختلف فى مدّة إقامته على البلاء : فقيل : سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال . وقيل : ثلاثين سنة . وقيل : ثمانى عشرة سنة .

(١) هكذا ، والصحيح « عاصفة » .

﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل ﴾ أى واذكر هؤلاء ، وإدريس هو أخنوخ ، وذا الكفل : إلياس . وقيل : يوشع بن نون . وقيل : زكريا . والصحيح أنه رجل من بنى إسرائيل كان لا يتورع عن شيء من المعاصي ، فتأب فغفر الله له . وقيل : إن اليسع لما كبر قال : من يتكفل لى بكذا وكذا من خصال الخير حتى أستخلفه ؟ فقال رجل : أنا ، فاستخلفه وسمى ذا الكفل . وقيل : كان رجلا يتكفل بشأن كل إنسان إذا وقع فى شيء من المهمات . وقيل غير ذلك . وقد ذهب الجمهور إلى أنه ليس بنبي . وقال جماعة : هو نبي . ثم وصف الله سبحانه هؤلاء بالصبر فقال : ﴿ كل من الصابرين ﴾ أى كل واحد من هؤلاء من الصابرين على القيام بما كلفهم الله به . ﴿ وأدخلناهم فى رحمتنا ﴾ أى فى الجنة ، أو فى النبوة ، أو فى الخير على عمومه ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنهم من الصالحين ﴾ أى الكاملين فى الصلاح .

﴿ وذا النون ﴾ أى واذكر ذا النون ، وهو يونس بن متى ، ولقب ذا النون لابتلاع الحوت له ، فإن النون من أسماء الحوت . وقيل : سمي ذا النون لأنه رأى صبيا مليحا فقال : دسموا نونته ، لثلا تصيبه العين . وحكى ثعلب عن ابن الأعرابي أن نونة الصبي هى النقبة التى تكون فى ذقن الصبي الصغير ، ومعنى دسموا سودوا ﴿ إذ ذهب مغاضبا ﴾ أى اذكر ذا النون وقت ذهابه مغاضبا ، أى مراغما . قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير : ذهب مغاضبا لربه ، واختاره ابن جرير والقتيبى والمهدوى . وحكى عن ابن مسعود : قال النحاس : وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة ، وهو قول صحيح . والمعنى : مغاضبا من أجل ربه ، كما تقول غضبت لك ، أى من أجلك . وقال الضحاك : ذهب مغاضبا لقومه ، وحكى عن ابن عباس . وقالت فرقة منهم الأخفش : إنما خرج مغاضبا للملك الذى كان فى وقته واسمه حزقيا . وقيل : لم يغضب ربه ولا قومه ولا الملك ، ولكنه مأخوذ من غضب إذا أنف ، وذلك أنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم تابوا وكشف الله عنهم العذاب فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج عنهم ؛ ومن استعمال الغضب فى هذا المعنى قول الشاعر :

وأغضب أن تهجى تميم بعامر

أى آنف ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ قرأ الجمهور ﴿ نقدر ﴾ بفتح النون وكسر الدال . واختلف فى معنى الآية على هذه القراءة . فقيل : معناها : أنه وقع فى ظنه أن الله تعالى لا يقدر على معاقبته . وقد حكى هذا القول عن الحسن وسعيد بن جبير ، وهو قول مردود ، فإن هذا الظن بالله كفر ، ومثل ذلك لا يقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وذهب جمهور العلماء أن معناها : فظن أن لن تضيق عليه ، كقوله : ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ [الشورى : ١٢] أى يضيق ، ومنه قوله : ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ [الطلاق : ٧] . يقال : وقَدَر وقْدَر وقْتَر وقْتَر ، أى ضيق . وقيل : هو من القدر الذى هو القضاء والحكم ، أى فظن أن لن نقضى عليه العقوبة ، قاله قتادة ومجاهد ، واختاره الفراء والزجاج ، مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة والاستطاعة . قال أحمد بن يحيى ثعلب : هو من التقدير ليس من

القدرة ، يقال منه : قدّر الله لك الخير يقدره قدرًا ، وأنشد ثعلب :

فليست عشيات اللوى برواجع لنا أبدا ما أورق السلم النضر
ولا عائد ذاك الزمان الذى مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

أى ما تقدره وتقضى به ، ومما يؤيد ما قاله هؤلاء قراءة عمر بن عبد العزيز والزهرى : « فظن أن لن نقدر » بضم النون وتشديد الدال من التقدير . وحكى هذه القراءة الماوردى عن ابن عباس ، وقرأ ذلك أيضاً قراءة عبيد بن عمير وقتادة والأعرج : « أن لن يقدر » بضم الياء والتشديد مبنياً للمفعول ، وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبى إسحاق والحسن : « يقدر » بضم الياء وفتح الدال مخففاً مبنياً للمفعول . وقد اختلف العلماء فى تأويل الحديث الصحيح فى قول الرجل الذى لم يعمل خيراً قط لأهله أن يحرقوه إذا مات ، ثم قال : فوالله لئن قدر الله على... الحديث . كما اختلفوا فى تأويل هذه الآية ، والكلام فى هذا يطول وقد ذكرنا هاهنا مالا يحتاج معه الناظر إلى غيره . والفاء فى قوله : ﴿ فنادى فى الظلمات ﴾ أى كان ما كان من التقام الحوت له ، فنادى فى الظلمات ، والمراد بالظلمات : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وكان نداؤه : هو قوله : ﴿ أن لا إله إلا الله أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ أى بأن لا إله إلا أنت .. إلخ ، ومعنى ﴿ سبحانك ﴾ تنزيها لك من أن يعجزك شيء ، إنى كنت من الظالمين الذين يظلمون أنفسهم ؛ قال الحسن وقتادة : هذا القول من يونس اعتراف بذنبه وتوبة من خطيئته ، قال ذلك وهو فى بطن الحوت .

ثم أخبر الله سبحانه بأنه استجاب له فقال : ﴿ فاستجبنا له ﴾ دعاء الذى دعانا به فى ضمن اعترافه بالذنب على اللطف وجه ﴿ ونجّيناه من الغم ﴾ بإخراجنا له من بطن الحوت حتى قذفه إلى الساحل ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ أى نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم وما أعددناه لهم من الرحمة ، وهذا هو معنى الآية الأخرى ، وهى قوله : ﴿ فلولاً أنه كان من المسبحين . للبت فى بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ [الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤] . قرأ الجمهور : ﴿ ننجي ﴾ بنونين . وقرأ ابن عامر : « نجى » بنون واحدة وجيم مشددة وتسكين الياء على الفعل الماضى وإضمار المصدر ، أى وكذلك نُجى النجاء المؤمنين ، كما تقول : ضُرب زيداً ، أى ضُرب الضربُ زيداً ، ومنه قول الشاعر :

ولو ولدت فقيرة جرو كلب لسبّ بذلك الجرو الكلابا

هكذا قال فى توجيه هذه القراءة الفراء وأبو عبيد وثعلب ، وخطأها أبوحاتم والزجاج وقالوا : هى لحن لأنه نصب اسم ما لم يسم فاعله ، وإنما يقال : نجى المؤمنون . ولأبى عبيده قول آخر ، وهو أنه أدغم النون فى الجيم وبه قال القتيبي ، واعترضه النحاس فقال : هذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين لبعد مخرج النون من مخرج الجيم فلا تدغم فيها ، ثم قال النحاس : لم أسمع فى هذا أحسن من شيء سمعته من على بن سليمان الأخفش قال : الأصل : ننجي ،

فحذف إحدى النونين لاجتماعهما كما يحذف إحدى التاءين لاجتماعهما نحو قوله تعالى : ﴿ولا تفرقوا﴾ [آل عمران : ١٠٣] والأصل : ولا تفرّقوا . قلت : وكذا الواحدى عن أبى علىّ الفارسى أنه قال : إن النون الثانية تخفى مع الجيم ، ولا يجوز تبينها ، فالتبس على السامع الإخفاء بالإدغام ، فظنّ أنه إدغام ، ويدلّ على هذا إسكانه الياء من نجى ونصب المؤمنين ، ولو كان على ما لم يسمّ فاعله ما سكن الياء ولوجب أن يرفع المؤمنين . قلت : ولا نسلم قوله : إنه لا يجوز تبينها فقد بينت فى قراءة الجمهور ، وقرأ محمد بن السميع وأبو العالية « وكذلك نجى المؤمنين » على البناء للفاعل ، أى نجى الله المؤمنين .

وقد أخرج ابن جرير عن مرة فى قوله : ﴿ إذ يحكمان فى الحرث ﴾ قال : كان الحرث نبثاً فنفتت فيه ليلاً فاختصموا فيه إلى داود ، فقاضى بالغنم لأصحاب الحرث ، فمروا على سليمان فذكروا ذلك له ، فقال : لا ، تدفع الغنم فيصيبون منها ويقوم هؤلاء على حرثهم ، فإذا كان كما كان ردوا عليهم فتزلت : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ وقد روى هذا عن مرة عن ابن مسعود . وأخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث ﴾ قال : كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته الغنم ، فقاضى داود بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان : غير هذا يا نبيّ الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى إذا عاد الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه والغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مسروق نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه ، ولكنه لم يذكر الكرم . وأخرج ابن أبى شيبه فى المصنف ، وابن جرير وابن المنذر ، وابن مردويه عنه نحوه بأطول منه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضاً ﴿ نفثت ﴾ قال : رعت . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبه وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن حرام بن محبصة : أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدت فيه ، فقاضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار ، وأن ما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها ^(١) . وقد علل هذا الحديث ، وقد بسطنا الكلام عليه فى شرح المتقى . وأخرج ابن مردويه من حديث عائشة نحوه ، وزاد فى آخره ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وداود وسليمان ﴾ الآية . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما امرأتان معهما ابنان جاء الذئب فأخذ أحد الابنين ، فتحاكما إلى داود فقاضى به للكبرى ، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال : هاتوا السكين أشقه بينهما ، فقالت الصغرى : رحمك الله ، هو ابنها لا تشقه فقاضى به للصغرى » ^(٢) ، وهذا الحديث وإن لم يكن داخلاً فيما حكته الآية من

(١) عبد الرزاق (١٨٤٣٧) وابن أبى شيبه فى الديات (٨٠٢٥) وأحمد ٤٣٥/٥ وأبو داود فى البيوع (٣٥٦٩) ،

(٣٥٧٠) وابن ماجة فى الأحكام (٢٣٣٢) وابن جرير ٤٠/١٧ .

(٢) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٢٧) ومسلم فى الأفضية (١٧٢٠ / ٢٠) .

حكهما لكنه من جملة ما وقع لهما .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة في قوله : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾ قال : يصلين مع داود إذا صلى ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم ﴾ قال : كانت صفائح ، فأول من سردها وحلقها داود عليه السلام . وأخرج ابن أبي شيبة ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كان سليمان يوضع له ستمائة ألف كرسي ، ثم يجيء أشراف الإنس فيجلسون مما يليه ، ثم يجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلي أشراف الإنس ثم يدعو الطير فتظلمهم ، ثم يدعو الريح فتحملهم فتسير مسيرة شهر في الغداة الواحدة .

وأخرج ابن عساكر والديلمي وابن النجار عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله لأيوب : تدري ما جرمك على حتى ابتليتك ؟ قال : لا يارب ، قال : لأنك دخلت على فرعون فداهنت عنده في كلمتين »^(١) وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : إنما كان ذنب أيوب أنه استعان به مسكين على ظالم يدرؤه فلم يعنه ، ولم يأمر بالمعروف ، ولم ينه الظالم عن ظلم المسكين فابتلاه الله . وفي إسناده جوير . وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد في الزهد ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله ابن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب أخوان جاء يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه ، فقاما من بعيد ، فقال أحدهما للآخر : لو كان علم الله من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط مثله ، فقال : اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شعبان ، وأنا أعلم مكان جائع فصدقني ؛ فصدق من السماء وهما يسمعان ، ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أني لم ألبس قميصاً قط وأنا أعلم مكان غار فصدقني ، فصدق من السماء وهما يسمعان ثم خرّ ساجداً وقال : اللهم بعزتك لا أرفع رأسي حتى تكشف عني ، فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه . وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قال : قيل له : يا أيوب ، إن أهلك لك في الجنة ، فإن شئت أتيناك بهم ، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم ، قال : لا ، بل اتركهم لي في الجنة ، قال : فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني عن الضحّاك قال : بلغ ابن مسعود أن مروان قال في هذه الآية : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قال : أوتى أهلاً غير أهله ، فقال ابن مسعود : بل أوتى أهله بأعيانهم ومثلهم معهم . وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والرويانى وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال :

«إن أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخصّ إخوانه ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد . قال : وما ذاك؟ قال : منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه ما به ، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك ، فقال أيوب : لا أدري ما يقول غير أن الله يعلم أنى أمرّ بالرجلين يتنازعان يذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهة أن يذكر الله إلا فى حق ، وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها ، فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه أن ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ [ص : ٤٢] فاستبطأته فتلقته وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان ، فلما رآته قالت : أى بارك الله فيك ، هل رأيت نبى الله المبتلى والله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً ؟ قال : فإنى أنا هو ، قال : وكان له أندران : أندر للقمح ، وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق حتى فاض»^(١) .

وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ وإذا الكفل ﴾ قال : رجل صالح غير نبى تكفل لنبى قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضى بينهم بالعدل ، ففعل ذلك ، فسمى ذا الكفل . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان فى بنى إسرائيل قاض فحضره الموت ، فقال : من يقوم مقامى على أن لا يغضب ، فقال رجل : أنا ، فسمى : ذا الكفل ، فكان ليلة جميعاً يصلى ، ثم يصبح صائماً فيقضى بين الناس ، وذكر قصة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى قال : ما كان ذو الكفل نبياً ، ولكن كان فى بنى إسرائيل رجل صالح يصلى كل يوم مائة صلاة فتوفى ، فتكفل له ذو الكفل من بعده ، فكان يصلى كل يوم مائة صلاة فسمى ذا الكفل . وأخرج ابن أبى شيبه وأحمد والترمذى وحسنه وابن المنذر وابن حبان والطبرانى والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان من طريق سعد مولى طلحة عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاهما ستين ديناراً على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت ، فقال : ما يبكيك : أكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكنه عمل ما عملته قط ، وما حملنى عليه إلا الحاجة ، فقال : تفعلين أنت هذا وما فعلته ، اذهبي فهى لك ، وقال : والله لا أعصى الله بعدها أبداً ، فمات من ليلته فأصبح مكتوب على بابهِ : إن الله قد غفر للكفل »^(٢) . وأخرجه الترمذى وحسنه ، والحاكم وابن مردويه من طريق سعد مولى طلحة . وأخرجه ابن مردويه من طريق نافع عن ابن عمر وقال : فيه ذو الكفل .

(١) أبو يعلى (٣٦١٧) وابن جرير ١٠٧/٢٣ وابن حبان (٢٨٨٧) ، وصححه الحاكم ٥٨١/٢ ، ٥٨٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد ٢٣/٢ والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٩٦) وقال : « هذا حديث حسن » وابن حبان (٣٨٨) =

وأخرج ابن جرير ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضبا ﴾ يقول : غضب على قومه ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ يقول : أن لن نقضى عليه عقوبة ولا بلاء فيما صنع بقومه في غضبه عليهم وفراره ، قال : وعقوبته أخذ النون إياه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله : ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ قال : ظن أن لن يأخذه العذاب الذي أصابه . وأخرج أحمد في الزهد ، وابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود : ﴿ فنأدى في الظلمات ﴾ قال : ظلمة الليل ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر . وأخرج أحمد والترمذي والنسائي ، والحاكم الترمذي في نوادر الأصول ، والبزار وابن جرير وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن سعد بن أبي وقاص قال : سمعت رسول الله ﷺ قال : « دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له » (١) . وأخرج ابن جرير عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسم الله الذي إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس ابن متى » ، قلت : يارسول الله ، هل ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : « هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا به ، ألم تسمع قوله الله : ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه » (٢) . وأخرج الحاكم من حديثه أيضا نحوه (٣) ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » (٤) . وروى أيضا في الصحيح وغيره من حديث ابن مسعود (٥) . وروى أيضا في الصحيحين من حديث أبي هريرة (٦) .

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجُهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا

= والحاكم ٢٥٤/٤ ، ٢٥٥ وقال : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب (٧١٠٨ ، ٧١٠٩) ط . دار الكتب العلمية ، قال الإمام ابن كثير : « هذا حديث غريب وقد وقع في هذه الرواية الكفل من غير إضافة ، وإسناده غريب ، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث : « إن كان الكفل » ، ولم يقل : ذو الكفل فلعله رجل آخر ، والله أعلم » .

(١) أحمد ١٧٠ / ١ والترمذي في الدعوات (٣٥٠٥) والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٤٩٢) وابن جرير ١٧ / ٦٥ ، وصححه الحاكم ٢ / ٣٨٢ ، ٣٨٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب (٦١١) .

(٢) ابن جرير ١٧ / ٦٥ .

(٣) صححه الحاكم ٢ / ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ووافقه الذهبي .

(٤) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٣) ومسلم في الفضائل (١٦٧ / ٢٣٧٧) والترمذي في الصلاة (١٨٣) .

(٥) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٢) .

(٦) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٥ ، ٣٤١٦) ومسلم في الفضائل (٢٣٦٧ / ١٦٦) .

خَاشِعِينَ (٩٠) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١) إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) ﴿

قوله : ﴿ وزكريا ﴾ أى واذكر خبر زكريا وقت ندائه لربه قال : ﴿ رب لا تذرني فردا ﴾ أى منفردا وحيدا لا ولد لى . وقد تقدم الكلام على هذه الآية فى آل عمران ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ أى خير من يبقى بعد كل من يموت . فأنت حسبى إن لم ترزقنى ولداً فأنى أعلم أنك لا تضع دينك ، وأنه سيقوم بذلك من عبادك من تختاره له وترتضيه للتبليغ . ﴿ فاستجبنا له ﴾ دعاءه ﴿ ووهبنا له يحيى ﴾ . وقد تقدم مستوفى فى سورة مريم ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ . قال أكثر المفسرين : إنها كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً ، فهذا هو المراد بإصلاح زوجه . وقيل : كانت سيئة الخلق فجعلها الله سبحانه حسنة الخلق ، ولا مانع من إرادة الأمرين جميعاً ، وذلك بأن يصلح الله سبحانه ذاتها ، فتكون ولوداً بعد أن كانت عاقراً ، ويصلح أخلاقها فتكون أخلاقها مرضية بعد أن كانت غير مرضية وجملة : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ﴾ للتعليل لما قبلها من إحسانه سبحانه إلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، فالضمير المذكور راجع إليهم . وقيل : هو راجع إلى زكريا وامراته ويحيى . ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم كانوا يدعونه ﴿ رغبا ورهبا ﴾ أى يتضرعون إليه فى حال الرخاء وحال الشدة ، وقيل الرغبة : رفع بطون الأكف إلى السماء ، والرهب : رفع ظهورها . وانتصاب ﴿ رغبا ﴾ و﴿ ورهبا ﴾ على المصدرية . أى يرغبون رغبا ويرهبون رهبا ، أو على العلة . أى للرغب والرهب ، أو على الحال ، أى راغبين وراهبين . وقرأ طلحة بن مصرف « ويدعوننا » بنون واحدة ، وقرأ الأعمش بضم الراء فيهما وإسكان ما بعده ، وقرأ ابن وثاب بفتح الراء فيهما مع إسكان ما بعده ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو ، وقرأ الباقر بفتح الراء وفتح ما بعده فيهما ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ أى متواضعين متضرعين .

﴿ والتى أحصنت فرجها ﴾ أى واذكر خبرها ، وهى مريم ، فلإنها أحصنت فرجها من الحلال والحرام ولم يمسسها بشر ، وإنما ذكرها مع الأنبياء وإن لم تكن منهم لأجل ذكر عيسى ، وما فى ذكر قصتها من الآية الباهرة ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ أضاف سبحانه الروح إليه ، وهو للملك تشريفاً وتعظيماً ، وهو يريد روح عيسى ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ قال الزجاج : الآية فيهما واحدة لأنها ولدته من غير فحل . وقيل : إن التقدير على مذهب سيويه :

وجعلناها آية وجعلنا ابنها آية كقوله سبحانه : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ [التوبة: ٦٢] والمعنى : أن الله سبحانه جعل قصتهما آية تامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما . وقيل : أراد بالآية الجنس الشامل ، لما لكل واحد منهما من آيات ، ومعنى : ﴿ أحصنت ﴾ عفت فامتنعت من الفاحشة وغيرها . وقيل : المراد بالفرج : جيب القميص ، أى أنها طاهرة الأثواب ، وقد مضى بيان مثل هذا فى سورة النساء ومريم .

ثم لما ذكر سبحانه الأنبياء بين أنهم كلهم مجتمعون على التوحيد فقال : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ والآمة : الدين كما قال ابن قتيبة ، ومنه : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ [الزخرف : ٢٢] أى على دين ، كأنه قال : إن هذا دينكم دين واحد لا خلاف بين الأمم المختلفة فى التوحيد ، ولا يخرج عن ذلك إلا الكفرة المشركون بالله . وقيل : المعنى : إن هذه الشريعة التى بيئتها لكم فى كتابكم شريعة واحدة . وقيل : المعنى : إن هذه ملتكم ملة واحدة ، وهى ملة الإسلام . وانتصاب ﴿ أمة واحدة ﴾ على الحال ، أى متفقة غير مختلفة ، وقرئ : ﴿ إن هذه أمتكم ﴾ بنصب أمتكم على بدل من اسم إن والخبر أمة واحدة . وقرئ برفع ﴿ أمتكم ﴾ ورفع ﴿ أمة ﴾ على أنهما خبران . وقيل : على إضمار مبتدأ ، أى هى أمة واحدة . وقرأ الجمهور برفع ﴿ أمتكم ﴾ على أنه الخبر ونصب ﴿ أمة ﴾ على الحال كما قدمنا . وقال الفراء والزجاج : على القطع بسبب مجيء النكرة بعد تمام الكلام ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ خاصة ، لا تعبدوا غيرى كائناً ما كان .

﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ أى تفرقوا فرقاً فى الدين حتى صار كالقطع المتفرقة . وقال الأخفش : اختلفوا فيه ، وهو كالقول الأول . قال الأزهري : أى تفرقوا فى أمرهم ، فنصب أمرهم بحذف فى ، والمقصود بالآية المشركون ، ذمهم الله بمخالفة الحق واتخاذهم آلهة من دون الله . وقيل : المراد : جميع الخلق ، وأنهم جعلوا أمرهم فى أديانهم قطعاً وتقسموه بينهم ، فهذا موحد ، وهذا يهودى ، وهذا نصرانى ، وهذا مجوسى ، وهذا عابد وثن . ثم أخبر سبحانه بأن مرجع الجميع إليه فقال : ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ أى كل واحد من هذه الفرق راجع إلينا بالبعث ، لا إلى غيرنا .

﴿ فمن يعمل من الصالحات ﴾ أى من يعمل بعض الأعمال الصالحة ، لا كلها ، إذ لا يطبق ذلك أحد ﴿ وهو مؤمن ﴾ بالله ورسله واليوم الآخر ﴿ فلا كفران لسعيه ﴾ أى لا جحود لعمله ، ولا تضييع لجزائه ، والكفر ضد الإيمان ، والكفر أيضاً جحود النعمة وهو ضد الشكر ، يقال : كفر كفوراً وكفراناً ، وفى قراءة ابن مسعود : « فلا كفر لسعيه » . ﴿ وإنا له كاتبون ﴾ أى لسعيه حافظون ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

﴿ وحرام على قرية أهلكناها ﴾ . قرأ زيد بن ثابت وأهل المدينة ﴿ وحرام ﴾ وقرأ أهل الكوفة : « وحرم » وقد اختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم ، ورويت القراءة الثانية عن

على وابن مسعود وابن عباس : وهما لغتان مثل حلّ وحلال . وقرأ سعيد بن جبير « وحرم » بفتح الحاء وكسر الراء وفتح الميم . وقرأ عكرمة وأبو العالية « حرم » بضم الراء وفتح الحاء والميم ، ومعنى ﴿ أهلكتناها ﴾ : قدرنا إهلاكها ، وجملة : ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ فى محلّ رفع على أنه مبتدأ وخبره ﴿ حرام ﴾ أو على أنه فاعل له سادّ مسدّ خبره . والمعنى : وممتنع البتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء ؛ وقيل إن ﴿ لا ﴾ فى ﴿ لا يرجعون ﴾ زائدة أى حرام على قرية أهلكتناها أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا واختار هذا أبو عبيد . وقيل : أن لفظ حرام هنا بمعنى الواجب ، أى واجب على قرية ، ومنه قول الخنساء :

وإن حراماً لا أرى الدهر باكياً على شجوه إلا بكيت على صخر

وقيل : حرام : أى ممتنع رجوعهم إلى التوبة ، على أن لا زائدة . قال النحاس : والآية مشكلة ، ومن أحسن ما قيل فيها وأجله ما رواه ابن عيينة وابن علية وهشيم وابن إدريس ومحمد بن فضيل وسليمان بن حيان ومعلى عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى معنى الآية قال : واجب أنهم لا يرجعون ، أى لا يتوبون . قال الزجاج وأبو على الفارسي : إن فى الكلام إضماراً ، أى وحرام على قرية حكمنا باستئصالها ، أو بالختم على قلوب أهلها ، أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون ، أى لا يتوبون .

﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ : « حتى » هذه هى التى يحكى بعدها الكلام ، ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الإنس ، والمراد بفتح يأجوج ومأجوج فتح السدّ الذى عليهم ، على حذف المضاف . وقيل إن حتى هذه هى التى للغاية . والمعنى : أن هؤلاء المذكورين سابقا مستمرّون على ما هم عليه إلى يوم القيامة ، وهى يوم فتح سدّ يأجوج ومأجوج ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ الضمير ليأجوج ومأجوج ، والحدب كلّ أكمة من أرض مرتفعة والجمع أحداب ، مأخوذ من حدبة الأرض ، ومعنى ﴿ ينسلون ﴾ يسرعون . وقيل : يخرجون . قال الزجاج : والنسلان مشية الذئب إذا أسرع . يقال : نسل فلان فى العدو ينسل بالكسر والضم نسلا ونسولا ونسلانا ، أى أن يأجوج ومأجوج من كلّ مرتفع من الأرض يسرعون المشى ويتفرقون فى الأرض ؛ وقيل : الضمير فى قوله : ﴿ وهم ﴾ لجميع الخلق ؛ والمعنى : أنهم يحشرون إلى أرض الموقف وهم يسرعون من كلّ مرتفع من الأرض . وقرئ بضم السين . حكى ذلك المهدوى عن ابن مسعود . وحكى هذه القراءة أيضاً الثعلبى عن مجاهد وأبى الصهباء .

﴿ واقترب الوعد ﴾ عطف على ﴿ فتحت ﴾ والمراد ما بعد الفتح من الحساب . وقال الفراء والكسائي وغيرهما : المراد بالوعد الحق : القيامة والواو زائدة ؛ والمعنى : حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق وهو القيامة ، فاقترب جواب إذا ، وأنشد الفراء :

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى

أى انتحى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وتله للجبين . ونادينا ﴾ [الصافات : ١٠٣ ، ١٠٤]

وأجاز الفراء أن يكون جواب إذا ﴿ فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ وقال البصريون : الجواب محذوف ، والتقدير : قالوا : يا ويلنا . وبه قال الزجاج ، والضمير في ﴿ فإذا هي ﴾ للقصة ، أو مبهم يفسره ما بعده ، وإذا للمفاجأة . وقيل : إن الكلام تمّ عند قوله : ﴿ هي ﴾ ، والتقدير : ﴿ فإذا هي ﴾ يعنى القيامة بارزة واقعة كأنها آتية حاضرة ، ثم ابتداء فقال : ﴿ شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ على تقديم الخبر على المبتدأ ، أى أبصار الذين كفروا شاخصة . و ﴿ يا ويلنا ﴾ على تقدير القول ﴿ قد كنا فى غفلة من هذا ﴾ أى من هذا الذى دهمنا من البعث والحساب ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ أضربوا عن وصف أنفسهم بالغفلة ، أى لم نكن غافلين بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الانقياد للرسول .

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ قال : كان في لسان امرأة زكريا طول فأصلحه الله . وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : وهبنا له ولدها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً وهب له منها يحيى ، وفي قوله : ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ قال : أذلاء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج في قوله : ﴿ يدعوننا رغبا ورهبا ﴾ قال : رغبا في رحمة الله ورهبا من عذاب الله . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله ﷺ عن قول الله سبحانه : ﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ قال : « رغبا هكذا ورهبا هكذا » وبسط كفيه ، يعنى جعل ظهرهما للأرض في الرغبة وعكسه في الرهبة . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم وصححه ، والبيهقى في الشعب عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر الصديق فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإنى أوصيكم بتقوى الله ، وأن تتنوا عليه بما هو له أهل ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ قال : إن هذا دينكم دينا واحدا . وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ قال تقطاعوا : اختلفوا فى الدين . وأخرج الفريابي وابن المنذر ، وابن أبى حاتم والبيهقى في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها ﴾ قال : وجب إهلاكها ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ قال : لا يتوبون . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « وحرم على قرية » قال : وجب على قرية ﴿ أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ كما قال : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ [يس : ٣١] . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة وسعيد ابن جبير مثله . وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ من

كل حذب ﴿ قال شرف ﴾ ينسلون ﴿ قال : يقبلون ، وقد ورد في صفة يأجوج ومأجوج وفي وقت خروجهم أحاديث كثيرة لا يتعلق بذكرها هنا كثير فائدة .

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴿

بين سبحانه حال معبودهم يوم القيامة فقال : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ وهذا خطاب منه سبحانه لأهل مكة ، والمراد بقوله : ﴿ وما تعبدون ﴾ : الأصنام التي كانوا يعبدون . قرأ الجمهور : ﴿ حصب ﴾ بالصاد المهملة ، أى وقود جهنم وحطبها ، وكل ما أوقدت به النار أو هيبتها به فهو حصب ، كذا قال الجوهري . قال أبو عبيدة : كل ما قذفته في النار فقد حصبتها به ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ﴾ [البقرة : ٢٤] وقرأ على بن أبي طالب وعائشة : « حطب جهنم » بالطاء ، وقرأ ابن عباس : « حضب » بالضاد المعجمة . قال الفراء : ذكر لنا أن الحضب فى لغة أهل اليمن : الحطب . ووجه إلقاء الأصنام فى النار مع كونها جمادات لا تعقل ذلك ولا تحس به : التبكيت لمن عبدها ، وزيادة التوبيخ لهم وتضاعف الحسرة عليهم . وقيل : إنها تحمى فتلتصق بهم زيادة فى تعذيبهم ، وجملة : ﴿ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ إما مستأنفة أو بدل من ﴿ حصب جهنم ﴾ والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا ، واللام فى ﴿ لها ﴾ للتقوية لضعف عمل اسم الفاعل . وقيل : هى بمعنى على ، والمراد بالورود هنا : الدخول . قال كثير من أهل العلم : ولا يدخل فى هذه الآية عيسى وعزير والملائكة ، لأن ﴿ ما ﴾ لمن لا يعقل ، ولو أراد العموم لقال : ومن يعبدون . قال الزجاج : ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم .

﴿ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ﴾ أى لو كانت هذه الأصنام آلهة كما تزعمون ، ما وردوها أى ماورد العابدون هم والمعبودون النار . وقيل : ما ورد العابدون فقط ، لكنهم وردوها فلم يكونوا آلهة ، وفي هذا تبكيت لعباد الأصنام وتوبيخ شديد ﴿ وكل فيها خالدون ﴾ أى كلّ العابدين والمعبودين في النار خالدون لا يخرجون منها ﴿ لهم فيها زفير ﴾ أى لهؤلاء الذين وردوا النار ، والزفير صوت نفس المغموم ، والمراد هنا : الأتین والتنفس الشديد ، وقد تقدم بيان هذا فى هود . ﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾ أى لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول . وقيل : لا يسمعون شيئاً ، لأنهم يحشرون صمّاً كما قال سبحانه : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ﴾ [الإسراء : ٩٧] . وإنما سلبوا السماع ، لأن فيه بعض تروّج وتأنس ، وقيل : لا يسمعون ما يسرهم ، بل يسمعون ما يسوؤهم .

ثم لما بين سبحانه حال هؤلاء الأشقياء شرع في بيان حال السعداء فقال : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ أى الخصلة التي هى أحسن الخصال وهى السعادة . وقيل : التوفيق ، أو التبشير بالجنة ، أو نفس الجنة . ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾ إشارة إلى الموصوفين بتلك الصفة ﴿ عنها ﴾ أى عن جهنم ﴿ مبعدون ﴾ لأنهم قد صاروا في الجنة . ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ الحسّ والحسيس : الصوت تسمعه من الشيء يمرّ قريباً منك . والمعنى : لا يسمعون حركة النار وحركة أهلها ، وهذه الجملة بدل من ﴿ مبعدون ﴾ أو حال من ضميره ﴿ وهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون ﴾ أى دائمون ، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذّ به الأعين كما قال سبحانه : ﴿ ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ [فصلت : ٣١] . ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ قرأ أبو جعفر وابن محيىصن : « لا يحزنهم » بضم الياء وكسر الزاى ، وقرأ الباقر ﴿ لا يحزنهم ﴾ بفتح الياء وضم الزاى . وقال اليزيدى : حزنه لغة قریش ، وأحزنه لغة تميم . والفزع الأكبر : أهوال يوم القيامة من البعث والحساب والعقاب ﴿ وتلقاهم الملائكة ﴾ أى تستقبلهم على أبواب الجنة يهتئونهم ويقولون لهم : ﴿ هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ أى توعدون به في الدنيا وتبشرون بما فيه ، هكذا قال جماعة من المفسرين إن المراد بقوله : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ إلى هنا هم كافة الموصوفين بالإيمان والعمل الصالح ، لا المسيح وعزير والملائكة ، وقال أكثر المفسرين : إنه لما نزل ﴿ إنكم وما تعبدون ﴾ الآية أتى ابن الزبعرى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، أأست تزعم أن عزيراً رجل صالح ، وأن عيسى رجل صالح ، وأن مريم امرأة صالحة ؟ قال : « بلى » فقال : فإن الملائكة وعيسى وعزيراً ومريم يعبدون من دون الله ، فهؤلاء في النار ، فأنزل الله : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ وسيأتى بيان من أخرج هذا قريباً إن شاء الله .

﴿ يوم نظوى السماء كطى السجل للكتاب ﴾ قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج والزهرى : « تطوى » بمثناة فوقية مضمومة ورفع السماء ، وقرأ مجاهد : « يطوى » بالتحية المفتوحة مبنياً للفاعل على معنى يطوى الله السماء ، وقرأ الباقر ﴿ نظوى ﴾ بنون العظمة

وانتصاب ﴿ يوم ﴾ بقوله : ﴿ نعيده ﴾ أى نعيده يوم نظوى السماء ، وقيل : هو بدل من الضمير المحذوف في توعدون ، والتقدير : الذى كنتم توعدونه يوم نظوى . وقيل : بقوله : ﴿ لا يحزنهم الفزع ﴾ وقيل : بقوله : ﴿ تلتقاهم ﴾ . وقيل : متعلق بمحذوف ، وهو اذكر ، وهذا أظهر وأوضح ، والطفى ضد النشر . وقيل : المحو ، والمراد بالسماء : الجنس ، والسجل : الصحيفة ، أى طياً كطى الطومار . وقيل : السجل : الصك ، وهو مشتق من المساجلة وهى المكاتب ، وأصلها من السجل ، وهو الدلو ، يقال : ساجلت الرجل : إذا نزعته دلواً ونزع دلواً ، ثم استعيرت للمكاتب والمراجعة فى الكلام ، ومنه قول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب :

من يساجلنى يساجل ماجداً يملأ الدلو إلى عقد الكرب

وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير : « السجل » بضم السين والجيم وتشديد اللام ، وقرأ الأعمش وطلحة بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام ، والطفى فى هذه الآية يحتمل معنيين : أحدهما :طفى الذى هو ضد النشر ، ومنه قوله : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ [الزمر : ٦٧] والثانى : الإخفاء والتعمية والمحو ، لأن الله سبحانه يححو ويطمس رسومها ويكدر نجومها . وقيل : السجل اسم ملك ، وهو الذى يطوى كتب بنى آدم . وقيل : هو اسم كاتب لرسول الله ﷺ ، والأول أولى . وقرأ الأعمش وحفص وحزمة والكسائى ويحيى وخلف : ﴿ للكتب ﴾ جمعاً ، وقرأ الباقر ﴿ للكتاب ﴾ وهو متعلق بمحذوف حال من السجل ، أى كطى السجل كائناً للكتب أو صفة له ، أى الكائن للكتب ، فإن الكتب عبارة عن الصحف وما كتب فيها ، فسجلها بعض أجزائها ، وبه يتعلقطفى حقيقة . وأما علي القراءة الثانية فالكتاب مصدر ، واللام للتعليل ، أى كما يطوى الطومار للكتابة ، أى ليكتب فيه ، أو لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة ، وهذا على تقدير أن المراد بالطفى المعنى الأول ، وهو ضد النشر ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ أى كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم وأخرجناهم إلى الأرض حفاة عراة غرلاً كذلك نعيدهم يوم القيامة ، فأول خلق مفعول نعيد مقدراً يفسره نعيده المذكور ، أو مفعول لبدأنا وما كافة أو موصولة ، والكاف متعلقة بمحذوف ، أى نعيد مثل الذى بدأناه نعيده ، على هذا الوجه يكون أول ظرف لبدأنا ، أو حال ، وإنما خص أول الخلق بالذكر تصويراً للإيجاد عن العدم ، والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على المبدأ للشمول الإمكانى الذاتى لهما وقيل معنى الآية : نهلك كل نفس كما كان أول مرة ، وعلى هذا فالكلام متصل بقوله : ﴿ يوم نظوى السماء ﴾ . وقيل : المعنى : نغير السماء ، ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها وزوالها ، والأول أولى ، وهو مثل قوله : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ [الأنعام : ٩٤] ، ثم قال سبحانه : ﴿ وعدا علينا إنا كنا فاعلين ﴾ انتصاب ﴿ وعدا ﴾ على أنه مصدر ، أى وعدنا وعداً علينا إنجازاً والوفاء به . وهو البعث والإعادة ، ثم أكد سبحانه ذلك بقوله : ﴿ إنا كنا فاعلين ﴾ . قال الزجاج : معنى ﴿ إنا كنا فاعلين ﴾ : إنا كنا قادرين على ما نشاء . وقيل : إنا كنا فاعلين

ما وعدناكم ، ومثله قوله : ﴿ كان وعده مفعولا ﴾ [الزمل : ١٨] .

﴿ ولقد كتبنا فى الزبور ﴾ الزبر فى الأصل : الكتب ، يقال : زبرت ، أى كتبت وعلى هذا يصح إطلاق الزبور على التوراة والإنجيل ، وعلى كتاب داود المسمى بالزبور . وقيل : المراد به هنا : كتاب داود ، ومعنى ﴿ من بعد الذكر ﴾ أى اللوح المحفوظ . وقيل : هو التوراة ، أى والله لقد كتبنا فى كتاب داود من بعد ما كتبنا فى التوراة أو من بعد ما كتبنا فى اللوح المحفوظ ﴿ أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ . قال الزجاج : الزبور جميع الكتب : التوراة والإنجيل والقرآن ، لأن الزبور والكتاب فى معنى واحد ، يقال : زبرت وكتبت ، ويؤيد ما قاله قراءة حمزة فى الزبور بضم الزاى ، فإنه جمع زبر . وقد اختلف فى معنى ﴿ يرثها عبادى الصالحون ﴾ فقيل : المراد : أرض الجنة ، واستدل القائلون بهذا بقوله سبحانه : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض ﴾ [الزمر : ٧٤] . وقيل : هى الأرض المقدسة . وقيل : هى أرض الأمم الكافرة يرثها نبينا ﷺ وأمه بفتحها . وقيل : المراد بذلك : بنو إسرائيل ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ﴾ [الأعراف : ١٣٧] والظاهر أن هذا تبشير لامة محمد ﷺ بوراثه أرض الكافرين ، وعليه أكثر المفسرين . وقرأ حمزة : « عبادى » بتسكين الياء ، وقرأ الباقون بتحريكها .

﴿ إن فى هذا لبلاغا ﴾ أى فيما جرى ذكره فى هذه السورة من الوعظ والتنبيه ﴿ لبلاغا ﴾ : لكفاية ، يقال : فى هذا الشئ بلاغ وبلغة وتبلغ ، أى كفاية . وقيل : الإشارة بقوله : ﴿ إن فى هذا ﴾ إلى القرآن ﴿ لقوم عابدين ﴾ أى مشغولين بعبادة الله مهتمين بها . والعبادة هى : الخضوع والتذلل ، وهم أمة محمد ﷺ ، ورأس العبادة الصلاة . ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ أى وما أرسلناك يا محمد بالشرائع والأحكام إلا رحمة لجميع الناس ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والعلل ، أى ما أرسلناك لعل من العلل إلا لرحمتنا الواسعة ، فإن ما بعث به سبب لسعادة الدارين ، قيل : ومعنى كونه رحمة للكفار : أنهم أمنوا به من الخسف والمسح والاستئصال . وقيل : المراد بالعالمين : المؤمنون خاصة ، والأول أولى بدليل قوله سبحانه : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فىهم ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

ثم بين سبحانه أن أصل تلك الرحمة هو التوحيد والبراءة من الشرك فقال : ﴿ قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾ إن كانت « ما » موصولة فالمعنى : أن الذى يوحى إلى هو أن وصفه تعالى مقصور على الوحدانية لا يتجاوزها إلى ما يناقضها أو يضادها ، وإن كانت « ما » كافة فالمعنى : أن الوحى إلى مقصور على استئثار الله بالوحدة ، ووجه ذلك أن القصر أبداً يكون لما يلى إنما ، فإنما الأولى لقصر الوصف على الشئ كقولك : إنما يقوم زيد ، أى ما يقوم إلا زيد . والثانية لقصر الشئ على الحكم كقولك : إنما زيد قائم ، أى ليس به إلا صفة القيام ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ متقادون مخلصون للعبادة ولتوحيد الله سبحانه .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى أعرضوا عن الإسلام ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أى أعلمتكم أنا وإياكم حرب لا صلح بيننا كائنين على سواء فى الإعلام لم أخصّ به بعضكم دون بعض كقوله سبحانه : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ [الأنفال : ٥٨] أى أعلمهم أنك نقضت العهد نقضاً سوياً بينهم فيه . وقال الزجاج : المعنى : أعلمتكم ما يوحى إلى على استواء فى العلم به ، ولا أظهر لأحد شيئاً كتمته على غيره ﴿ وَإِنْ أَدْرَى أَقْرَبَ أَمْ بَعِيدَ مَا تُوعِدُونَ ﴾ أى ما أدري ما توعدون به قريب حصوله أم بعيد ، وهو غلبة الإسلام وأهله على الكفر وأهله . وقيل : المراد بما توعدون : القيامة . وقيل : آذنتكم بالحرب ولكن لا أدري ما يؤذن لى فى محاربتكم ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أى يعلم سبحانه ما تجاهرون به من الكفر والطعن على الإسلام وأهله وما تكتُمونه من ذلك وتخفونه ﴿ وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ ﴾ أى ما أدري لعلّ الإمهال فتنة لكم واختبار ليرى كيف صنعكم ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ أى وتمتّع إلى وقت مقدّر تقتضيه حكمته .

ثم حكى سبحانه وتعالى دعاء نبيه ﷺ بقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴾ أى احكم بينى وبين هؤلاء المكذبين بما هو الحق عندك ففوّض الأمر إليه سبحانه . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيصن : « رب » بضم الباء قال النحاس : وهذا لحن عند النحويين لا يجوز عندهم : رجل أقبل ، حتى يقول : يارجل . وقرأ الضحاك وطلحة ويعقوب : « أحكم » بقطع الهمزة وفتح الكاف وضم الميم ، أى قال محمد : ربى أحكم بالحق من كل حاكم . وقرأ الجحدري : « أحكم » بصيغة الماضى ، أى أحكم الأمور بالحق . وقرئ : « قل » بصيغة الأمر ، أى قل يا محمد . قال أبو عبيدة : الصفة هنا أقيمت مقام الموصوف ، والتقدير : ربّ احكم بحكمك الحق ، ﴿ رب ﴾ فى موضع نصب ، لأنه منادى مضاف إلى الضمير ، وقد استجاب سبحانه دعاء نبيه ﷺ فعذبهم ببدر ، ثم جعل العاقبة والغلبة والنصر لعباده المؤمنين والحمد لله ربّ العالمين . ثم قال سبحانه متمماً لتلك الحكاية : ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ من الكفر والتكذيب ، فـ ﴿ ربنا ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ الرحمن ﴾ أى هو كثير الرحمة لعباده ، ﴿ المستعان ﴾ خبر آخر ، أى المستعان به فى الأمور التى من جملتها ما تصفونه من أن الشوكة تكون لكم ، ومن قولكم : ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ [الأنبياء : ٣] وقولكم : ﴿ اتخذ الرحمن ولداً ﴾ [مريم : ٨٨] وكثيراً ما يستعمل الوصف فى كتاب الله بمعنى الكذب كقوله : ﴿ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨] وقوله : ﴿ سَنَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٣٩] وقرأ المفضل والسلمى : « على ما يصفون » بالياء التحتية . وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه ، وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : لما نزل : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ قال المشركون : فالملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله ، فتزلت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾

عيسى وعزير والملائكة ^(١) . وأخرج ابن مردويه ، والضياء في المختارة عنه قال : جاء عبد الله ابن الزبعرى إلى النبي ﷺ فقال : تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ قال ابن الزبعرى : قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم كل هؤلاء في النار مع آلهتنا ، فنزلت : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون . وقالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾ [الزخرف : ٥٧ ، ٥٨] ثم نزلت : ﴿ إن الذين سبقوا لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ . وأخرج أبو داود في ناسخه وابن المنذر والطبراني من وجه آخر عنه أيضاً نحوه بأطول منه . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ إن الذين سبقوا لهم منا الحسنى ﴾ قال : « عيسى وعزير والملائكة » .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله : ﴿ حصب جهنم ﴾ قال : شجر جهنم ، وفي إسناده العوفى . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه من وجه آخر أن ﴿ حصب جهنم ﴾ وقودها . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : هو حطب جهنم بالزنجية . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ لا يسمعون حسيها ﴾ قال : « حيات على الصراط تقول : حس حس » . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي عثمان النهدي في قوله : ﴿ لا يسمعون حسيها ﴾ قال : حيات على الصراط تلسعهم ، فإذا لسعتهن قالوا : حس حس . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن محمد بن حاطب قال : سئل على عن هذه الآية : ﴿ إن الذين سبقوا لهم منا الحسنى ﴾ قال : هو عثمان وأصحابه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا يسمعون حسيها ﴾ يقول : لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزلوا منزلهم من الجنة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا يحزنونهم الفزع الأكبر ﴾ قال : النفخة الآخرة ، وفي إسناده العوفى . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة على كتاب المسك لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة : رجل أمّ قومًا وهم به راضون ، ورجل كان يؤذن في كل يوم وليلة ، وعبد أدى حق الله وحق مواليه » ^(٢) . وأخرج عبد بن حميد عن على في قوله : ﴿ كطى السجل ﴾ قال : ملك . وأخرج عبد بن حميد عن عطية مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : السجل : ملك ، فإذا صعد بالاستغفار قال : اكتبوها نورا . وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن أبي جعفر الباقر قال : السجل : ملك . وأخرج أبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، وابن منده في المعرفة ، وابن مردويه ، والبيهقى في سننه

(١) ابن جرير ٧٧/١٧ والطبراني (١٢٧٣٩) وصححه الحاكم ٣٨٥/٢ ووافقه الذهبي .

(٢) أحمد ٢٦/٢ والترمذى في البر والصلة (١٩٨٦) وقال : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سفيان الثوري عن أبي اليقظان » . وفي المطبوعة « وهم له راضون » والتصويب من أحمد والترمذى .

وصححه عن ابن عباس قال : السجل : كاتب للنبي ﷺ . وأخرج ابن المنذر وابن عدى وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان لرسول الله ﷺ كاتب يسمى : السجل ، وهو قوله : ﴿ يوم نظوى السماء كطى السجل للكتاب ﴾ قال : كما يطوى السجل الكتاب كذلك نظوى السماء . وأخرج ابن المنذر ، وأبو نعيم فى المعرفة وابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن ابن عمر قال : كان للنبي ﷺ كاتب يقال له : السجل ، فأنزل الله : ﴿ يوم نظوى السماء كطى السجل للكتاب ﴾ .

قال ابن كثير فى تفسيره بعد إخراج هذا الحديث : وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر ، لا يصح أصلاً . قال : وكذلك ما تقدم عن ابن عباس من رواية أبى داود وغيره لا يصح أيضاً . وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ، وإن كان فى سنن أبى داود منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزي ، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً له على حدة ، ولله الحمد . قال : وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث ورده أتم رد ، وقال : ولا نعرف فى الصحابة أحداً اسمه سجل ، وكاتب النبي ﷺ كانوا معروفين ، وليس فيهم أحد اسمه السجل . وصدق رحمه الله فى ذلك وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث . وأما من ذكر فى أسماء الصحابة هذا فإثماً اعتمد على هذا الحديث لا على غيره والله أعلم . قال : والصحيح عن ابن عباس أن السجل هو الصحيفة ، قاله على بن أبى طلحة والعوفى عنه . ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير لأنه المعروف فى اللغة ، فعلى هذا يكون معنى الكلام : يوم نظوى السماء كطى السجل للكتاب : أى على الكتاب ، يعنى المكتوب كقوله : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ [الصافات : ١٠٣] أى على الجبين ، وله نظائر فى اللغة والله أعلم . قلت : أما كون هذا هو الصحيح عن ابن عباس فلا ، فإن على بن أبى طلحة والعوفى ضعيفان ، فالأولى التعويل على معنى اللغوى والمصير إليه . وقد أخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال : ﴿ السجل ﴾ هو الرجل ، زاد ابن مردويه : بلغة الحبشة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى تفسير الآية قال : كطى الصحيفة على الكتاب .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ يقول : نهلك كل شيء كما كان أول مرة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ﴾ قال : القرآن ﴿ أن الأرض ﴾ قال : أرض الجنة . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور ﴾ قال : الكتب ﴿ من بعد الذكر ﴾ قال : التوراة . وفى إسناد العوفى . وأخرج سعيد بن منصور عنه أيضاً ، قال : الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن . والذكر : الأصل الذى نسخت منه هذه الكتب الذى فى السماء . والأرض : أرض الجنة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى قوله : ﴿ أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ قال : أرض الجنة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : أخبر الله

سبحانه فى التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد الأرض، ويدخلهم الجنة ، وهم الصالحون ، وفى قوله: ﴿ لبلاغا لقوم عابدين ﴾ قال: عالمين ، وفى إسناده على بن أبى طلحة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبى هريرة : ﴿ إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين ﴾ قال : الصلوات الخمس . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والديلمى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : فى قول الله : ﴿ إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين ﴾ قال : « فى الصلوات الخمس شغلاً للعبادة » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ لبلاغا لقوم عابدين ﴾ قال : « هى الصلوات الخمس فى المسجد الحرام جماعة » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ قال : من آمن تمت له الرحمة فى الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن عوفى مما كان يصيب الأمم فى عاجل الدنيا من العذاب من الخسف والمسخ والقذف . وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال : قيل : يا رسول الله ادع الله على المشركين ، قال : « إنى لم أبعث لعناً ، وإنما بعثت رحمة » ^(١) . وأخرج الطيالسى وأحمد والطبرانى ، وأبو نعيم فى الدلائل عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله بعثنى رحمة للعالمين وهدى للمتقين » ^(٢) . وأخرج أحمد والطبرانى عن سلمان أن رسول الله ﷺ قال : « أيما رجل من أمتى سبته سبة فى غضبى أو لعنته لعنة ، فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما يغضبون ، وإنما بعثنى رحمة للعالمين ، فاجعلها عليه صلاة يوم القيامة » ^(٣) . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما أنا رحمة مهداة » ^(٤) وقد روى معنى هذا من طرق .

وأخرج ابن أبى خيثمة وابن عساكر عن الربيع بن أنس قال : لما أسرى بالنبى ﷺ رأى فلاناً ، وهو بعض بنى أمية على المنبر يخطب الناس ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ يقول : هذا الملك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ﴾ يقول : ما أخبركم به من العذاب والساعة ، لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ قل رب احكم بالحق ﴾ قال : لا يحكم الله إلا بالحق ، وإنما يستعجل بذلك فى الدنيا يسأل ربه .

(١) مسلم فى البر والصلة (٢٥٩٩ / ٨٧) .

(٢) أحمد ٢٥٧/٥ وهو جزء من حديث طويل والطبرانى (٧٨٠٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧٢/٥ : « فيه على

ابن زيد وهو ضعيف » وأبو نعيم فى الدلائل ص ٩ .

(٣) أحمد ٤٣٧/٥ والطبرانى (٦١٥٦) .

(٤) البيهقى فى الدلائل ١٥٨/١ .

تفسير سورة الحج

وهي ثمان وسبعون آية . اختلف أهل العلم : هل هي مكة أو مدنية ؟ فأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحج بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير مثله . وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن الحج غير أربع آيات مكيات : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ﴾ إلى : ﴿ عذاب يوم عقيم ﴾ . وحكى القرطبي عن ابن عباس أنها مكة سوى ثلاث آيات وقيل : أربع آيات إلى قوله : ﴿ عذاب الحريق ﴾ . وحكى عن النقاش أنه نزل بالمدينة منها عشر آيات . قال القرطبي وقال الجمهور : إن السورة مختلطة ، منها مكى ، ومنها مدنى . قال : وهذا هو الصحيح . قال العريزي : وهي من أعاجيب السور نزلت ليلاً ونهاراً ، سفرًا وحضرًا ، مكيا ومدنيا ، سلميا وحريبا ، ناسخًا ومنسوخًا ، محكمًا ومتشابهًا .

وقد ورد في فضلها ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى في سننه عن عقبة بن عامر قال : قلت : يا رسول الله ، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجديتين ؟ قال : « نعم ، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما »^(١) . قال الترمذى : هذا حديث ليس إسناده بالقوى^(٢) . وأخرج أبو داود في المراسيل ، والبيهقى عن خالد بن معدان ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « فضلت سورة الحج على القرآن بسجديتين »^(٣) . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والإسماعيلى وابن مردويه والبيهقى عن عمر ؛ أنه كان يسجد سجديتين فى الحج وقال : إن هذه السورة فضلت على سائر القرآن بسجديتين . وقد روى عن كثير من الصحابة أن فيها سجديتين ، وبه يقول ابن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق . وقال بعضهم : إن فيها سجدة واحدة ، وهو قول سفيان الثورى ، وأخرجه ابن أبى شيبة عن ابن عباس وإبراهيم النخعى .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ

(١) أحمد ١٥١/٤ ، وأبو داود فى الصلاة (١٤٠٢) والترمذى فى الصلاة (٥٧٨) وصححه الحاكم ٣٩٠/٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٣١٧/٢ .

(٢) قال الحاكم : « هذا حديث لم يكتب مسندًا إلا من هذا الوجه ، وعبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمى أحد الأئمة ، إنما نqm عليه اختلاطه فى آخر عمره وقد صحت الرواية فيه من قول عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وأبى موسى الأشعرى وأبى الدرداء وعمار رضى الله عنهم » قال الشيخ أحمد شاكر : « الحديث صحيح ، وابن لهيعة ومشرح بن هاعان ثقتان » .

(٣) أبو داود فى المراسيل (٧٨) والبيهقى ٣١٧/٢ .

مُرْضِعَةً عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَقَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدِّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧) ﴿

لما انجز الكلام فى خاتمة السورة المتقدمة إلى ذكر الإعادة وما قبلها وما بعدها ، بدأ سبحانه فى هذه السورة بذكر القيامة وأحوالها ، حثاً على التقوى التى هى أنفع زاد فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ أى احذروا عقابه بفعل ما أمركم به من الواجبات وترك ما نهاكم عنه من المحرمات ، ولفظ الناس يشمل جميع المكلفين من الموجودين ومن سيوجد على ما تقرر فى موضعه ، وقد قدمنا طرفاً من تحقيق ذلك فى سورة البقرة . وجملة : ﴿ إِنْ زُلْزِلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ تعليل لما قبلها من الأمر بالتقوى ، والزلزلة : شدة الحركة ، وأصلها من زلّ عن الموضع ، أى زال عنه وتحرك ، وزلزل الله قدمه ، أى حركها ، وتكرير الحرف يدلّ على تأكيد المعنى ، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله ، وهى على هذا ، الزلزلة التى هى أحد أشراف الساعة التى تكون فى الدنيا قبل يوم القيامة ، هذا قول الجمهور . وقيل : إنها تكون فى النصف من شهر رمضان ، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها . وقيل : إن المصدر هنا مضاف إلى الظرف ، وهو الساعة ، إجراء له مجرى المفعول ، أو بتقدير « فى » كما فى قوله : ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ [سبأ : ٣٣] . وهى المذكورة فى قوله : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : ١] . قيل : وفى التعبير عنها بالشئ إيدان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها . ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ انتصاب الظرف بما بعده ، والضمير يرجع إلى الزلزلة ، أى وقت رؤيتكم لها ، تذهل كل ذات رضاع عن رضيعها وتغفل عنه . قال قطرب : تذهل : تشتغل ، وأنشد قول الشاعر :

ضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

وقيل : تنسى . وقيل : تلهو . وقيل : تسلو ، وهذه معانيها متقاربة . قال المبرد : إن « ما » فيما أرضعت بمعنى المصدر : أى تذهل عن الإرضاع ، قال : وهذا يدلّ على أن هذه

الزلزلة فى الدنيا ، إذ ليس بعد القيامة حمل وإرضاع ، إلا أن يقال : من ماتت حاملا فتضع حملها للهول ، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك ، ويقال هذا مثل ، كما يقال : ﴿ يوم يجعل الولدان شيبا ﴾ [المزمل : ١٧] . وقيل : يكون مع النفخة الأولى ، قال : ويحتمل أن تكون الساعة عبارة عن أهوال يوم القيامة ، كما فى قوله : ﴿ مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ﴾ [البقرة : ٢١٤] ومعنى ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ : أنها تلقى جنينها لغير تمام من شدة الهول ، كما أن المرضعة تترك ولدها بغير رضاع لذلك ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ قرأ الجمهور بفتح التاء والراء خطاب لكل واحد ، أى يراهم الرأى كأنهم سكارى ﴿ وماهم بسكارى ﴾ حقيقة ، قرأ حمزة والكسائى : « سكرى » بغير ألف ، وقرأ الباقر بإثباتها وهما لغتان يجمع بهما سكران ، مثل كسلى وكسالى ، ولما نفى سبحانه عنهم السكر أوضح السبب الذى لأجله شابهوا السكارى فقال : ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ فبسبب هذه الشدة والهول العظيم طاشت عقولهم ، واضطربت أفهامهم فصاروا كالسكارى ، بجامع سلب كمال التمييز وصحة الإدراك . وقرئ : « وترى » بضم التاء وفتح الراء مسنداً إلى المخاطب من رأيتك ، أى تظنهم سكارى . قال الفراء : ولهذه القراءة وجه جيد فى العربية .

ثم لما أراد سبحانه أن يحتج على منكرى البعث قدم قبل ذلك مقدمة تشمل أهل الجدل كلهم فقال : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ﴾ وقد تقدم إعراب مثل هذا التركيب فى قوله : ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ [البقرة : ٨] ومعنى ﴿ فى الله ﴾ : فى شأن الله وقدرته ، ومحل ﴿ بغير علم ﴾ النصب على الحال . والمعنى : أنه يخاصم فى قدرة الله ، فيزعم أنه غير قادر على البعث بغير علم يعلمه ، ولا حجة يدلى بها ﴿ ويتبع ﴾ فيما يقوله ويتعاطاه ويحتج به ويجادل عنه ﴿ كل شيطان مريد ﴾ أى متمرد على الله وهو العاتى ، سمى بذلك لخلوه عن كل خير ، والمراد : إبليس وجنوده ، أو رؤساء الكفار الذين يدعون أشياعهم إلى الكفر . وقال الواحدى : قال المفسرون : نزلت فى النضر بن الحارث وكان كثير الجدل ، وكان ينكر أن الله يقدر على إحياء الأموات . وقيل : نزلت فى الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة .

﴿ كتب عليه أنه من تولاه ﴾ أى كتب على الشيطان ، وفاعل كتب : أنه من تولاه ، والضمير للشأن ، أى من اتخذه ولها ﴿ فأنه يضله ﴾ أى فشأن الشيطان أن يضله عن طريق الحق ، فقوله : ﴿ أنه يضله ﴾ جواب الشرط إن جعلت من شرطية ، أو خبر الموصول إن جعلت موصولة ، فقد وصف الشيطان بوصفين : الأول أنه مريد ، والثانى ما أفاده جملة كتب عليه إلخ ، وجملة : ﴿ ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ يضله ﴾ أى يحمله على مباشرة ما يصير به فى عذاب السعير .

ثم ذكر سبحانه ما هو المقصود من الاحتجاج على الكفار بعد فراغه من تلك المقدمة ، فقال : ﴿ يأيهما الناس إن كنتم فى ريب من البعث ﴾ قرأ الحسن : « البعث » بفتح العين وهى لغة ، وقرأ الجمهور بالسكون ، وشكهم يحتمل أن يكون فى وقوعه أو فى إمكانه . والمعنى :

إن كنتم فى شكّ من الإعادة فانظروا فى مبدأ خلقكم ، أى خلق أبيكم آدم ، ليزول عنكم الريب ، ويرتفع الشكّ وتدحض الشبهة الباطلة ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ فى ضمن خلق أبيكم آدم « ثم » خلقناكم ﴿ مِنْ نَظْفَةٍ ﴾ أى من منى . سمى نظفة لقلته ، والنظفة : القليل من الماء . وقد يقع على الكثير منه . والنظفة : القطرة ، يقال : نظف ينظف ، أى قطر . وليلة نظوف ، أى دائمة القطر ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ والعلة : الدم الجامد . والعلق : الدم العبيط ، أى الطرى أو المتجمد . وقيل : الشديد الحمرة . والمراد : الدم الجامد المتكون من المنى ﴿ ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ ﴾ وهى القطعة من اللحم ، قدر ما يمضغ الماضغ تتكون من العلة ﴿ مَخْلُوقَةٍ ﴾ بالجرّ صفة لمضغة ، أى مستبينة الخلق ظاهرة التصوير ﴿ وَغَيْرِ مَخْلُوقَةٍ ﴾ أى لم يستبن خلقها ولا ظهر تصويرها . قال ابن الأعرابى : مخلقة يريد : قد بدأ خلقه ، وغير مخلقة : لم تصوّر . قال الأكثر : ما أكمل خلقه بنفخ الروح فيه ؛ فهو المخلقة وهو الذى ولد لتمام ، وما سقط ؛ كان غير مخلقة أى غير حىّ بإكمال خلقته بالروح . قال الفراء : مخلقة : تامّ الخلق ، وغير مخلقة : السقط ، ومنه قول الشاعر :

أفى غير المخلقة البكاء فأين الحزم ويحك والحياء ؟

واللام فى ﴿ لنبين لكم ﴾ متعلق بخلقنا ، أى خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم كمال قدرتنا بتصريفنا أطوار خلقكم ﴿ ونقر فى الأرحام ما نشاء ﴾ روى أبو حاتم عن أبى زيد عن المفضل عن عاصم أنه قرأ بنصب نقر عطفًا على نبين ، وقرأ الجمهور : ﴿ نقر ﴾ بالرفع على الاستثنا ، أى ونحن نقرّ . قال الزجاج : نقر بالرفع لا غير ، لأنه ليس المعنى فعلنا ذلك لنقرّ فى الأرحام ما نشاء . ومعنى الآية : ونثبت فى الأرحام ما نشاء فلا يكون سقطًا ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وهو وقت الولادة ، وقال : ما نشاء ، ولم يقل : من نشاء ، لأنه يرجع إلى الحمل وهو جماد قبل أن ينفخ فيه الروح ، وقروئى . « ليين » « ويقر » و « يخرجكم » بالتحية فى الأفعال الثلاثة ، وقرأ ابن وثاب : « ما نشاء » بكسر النون ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ أى نخرجكم من بطون أمهاتكم طفلاً ، أى أطفالاً ، وإنما أفرده لإرادة للجنس الشامل للواحد والمتعدد . قال الزجاج : طفلاً فى معنى أطفالاً ، ودلّ عليه ذكر الجماعة : يعنى فى : نخرجكم ، والعرب كثيراً ما تطلق اسم الواحد على الجماعة ، ومنه قول الشاعر :

يلحيننى من حبها ويلمنى إن العواذل لسن لى بأمر

وقال المبرد : هو اسم يستعمل مصدرًا كالرضا والعدل ، فيقع على الواحد والجمع ، قال الله سبحانه : ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا ﴾ [النور : ٣١] . قال ابن جرير : هو منصوب على التمييز كقوله : ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا ﴾ [النساء : ٤] وفيه بعد ، والظاهر انتصابه على الحال بالتأويل المذكور ، والطفل يطلق على الصغير من وقت انفصاله إلى البلوغ ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ قيل : هو علة لنخرجكم معطوف على علة أخرى مناسبة له ، كأنه قيل : نخرجكم لتكبروا شيئًا فشيئًا ثم لتبلغوا إلى الأشد . وقيل : إن ثم زائدة والتقدير : لتبلغوا .

وقيل : إنه معطوف على نين . والأشدّ هو : كمال العقل وكمال القوّة والتميز . قيل : وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين . وقد تقدم الكلام فى هذا مستوفى فى الأنعام ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ .
يعنى : قبل بلوغ الأشدّ ، وقرئ : « يتوفى » مبنيا للفاعل . وقرأ الجمهور : ﴿ يتوفى ﴾ مبنيا للمفعول ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ أى أخسه وأدونه ، وهو الهرم والخرف حتى لا يعقل ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ أى شيئا من الأشياء ، أو شيئا من العلم ، والمعنى : أنه يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها ، لا علم له ولا فهم ، ومثله قوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ [التين: ٤ ، ٥] ، وقوله : ﴿ ومن نعلمه ننكسه فى الخلق ﴾ [يس : ٦٨] . ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ هذه حجة أخرى على البعث ، فإنه سبحانه احتج بإحياء الأرض بإنزال الماء ، على إحياء الأموات ، والهامدة : اليابسة التى لا تنبت شيئا . قال ابن قتيبة : أى ميتة يابسة كالنار إذا طفئت . وقيل : دارسة ، والهمود : الدروس ، ومنه قول الأعشى :

قالت قتيلة ما لجسمك شاحبا وأرى ثيابك باليات همودا

وقيل : هى التى ذهب عنها الندى . وقيل : هالكة ، ومعانى هذه الأقوال متقاربة ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ المراد بالماء هنا : المطر ، ومعنى اهتزت : تحركت . والاهتزاز : شدة الحركة ، يقال : هزرت الشئ فاهتز ، أى حركته فتحرك ، والمعنى : تحركت بالنبات ؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة حقيقة ، فسماه اهتزازا مجازا . وقال المبرد : المعنى : اهتز نباتها فحذف المضاف . واهتزازه شدة حركته ، والاهتزاز فى النبات أظهر منه فى الأرض . ومعنى ربت : ارتفعت ، وقيل : انتفخت . والمعنى واحد ، وأصله : الزيادة ، يقال : ربا الشئ يربو ربوا : إذا زاد ، ومنه الربا والربوة . وقرأ يزيد بن القعقاع وخالد بن إلياس : « وربأت » أى ارتفعت حتى صارت بمنزلة الرابية ، وهو الذى يحفظ القوم على مكان مشرف يقال له : رابئ ورابئة وربئة ﴿ وأنبئت ﴾ أى أخرجت ﴿ من كل زوج بهيج ﴾ أى من كل صنف حسن ولون مستحسن ، والبهجة : الحسن .

وجملة : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ مستأنفة ، لما ذكر افتقار الموجودات إليه سبحانه وتسخيرها على وفق إرادته واقتداره . قال بعد ذلك هذه المقالات ، وهى إثبات أنه سبحانه الحق ، وأنه المتفرد بإحياء الموتى ، وأنه قادر على كل شئ من الأشياء ، والمعنى : أنه المتفرد بهذه الأمور ، وأنها من شأنه لا يدعى غيره أنه يقدر على كل منها ، فدلّ سبحانه بهذا على أنه الحق الحقيقى الغنى المطلق ؛ وأن وجود كل موجود مستفاد منه ، والحق هو الموجود الذى لا يتغير ولا يزول . وقيل : ذو الحق على عباده . وقيل : الحق فى أفعاله . قال الزجاج : ﴿ ذلك ﴾ فى موضع رفع ، أى الأمر ما وصفه لكم وبين بأن الله هو الحق . قال : ويجوز أن يكون ﴿ ذلك ﴾ نصبا .

ثم أخبر سبحانه بأن ﴿ الساعة آتية ﴾ أى فى مستقبل الزمان ، قيل : لا بدّ من إضمار فعل ، أى ولتعلموا أن الساعة آتية ﴿ لا ريب فيها ﴾ أى لا شك فيها ولا تردّد ، وجملة : ﴿ لا

ريب فيها ﴿ خبر ثان للساعة ، أو فى محل نصب على الحال . ثم أخبر سبحانه عن البعث فقال : ﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وأن ذلك كائن لا محالة .

وقد أخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طرق عن الحسن وغيره عن عمران بن حصين قال : لما نزلت ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم ﴾ إلى قوله : ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ أنزلت عليه هذه وهو فى سفر ، فقال : « أتدرون أى يوم ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « ذلك يوم يقول الله لأدم : ابعث بعث النار ، قال : ياربى ، وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار ، وواحداً إلى الجنة » ، فأنشأ المسلمون يكون ، فقال رسول الله ﷺ : « قاربوا وسددوا وأبشروا ، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية فتؤخذ العدة من الجاهلية ، فإن تمت وإلا كملت من المنافقين ، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرقمة فى ذراع الدابة ، أو كالشامة فى جنب البعير » ، ثم قال : « إنى لأرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة » فكبروا ، ثم قال : « إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » فكبروا ، ثم قال : « إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » فكبروا ، قال : ولا أدرى قال الثلثين أم لا ^(١) . وأخرج الترمذى وصححه ، وابن جرير وابن المنذر عن عمران ابن حصين مرفوعاً نحوه ، وقال فى آخره : « اعملوا وأبشروا ، فوالذى نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شئ إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج ، ومن مات من بنى آدم ومن بنى إبليس » ، فسرى عن القوم بعض الذى يجدون ، قال : « اعملوا وأبشروا ، فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعير ، أو كالرقمة فى ذراع الدابة » ^(٢) . وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن حبان والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس مرفوعاً نحوه ^(٣) . وأخرج البزار وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً . وفى الصحيحين وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : قال النبى ﷺ فذكر نحوه ^(٤) ، وفى آخره فقال : « من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد ، وهل أنتم فى الأمم إلا كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود » . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ كتب عليه ﴾ قال : كتب على الشيطان . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن

(١) أحمد ٤٣٥/٤ والترمذى فى التفسير (٣١٦٨) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير

(٣٦٠) وابن جرير ٨٦/١٧ وصححه الحاكم ٢/٢٣٣ ، ٢٣٤ ووافقه الذهبى .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣١٦٩) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن جرير ٨٦/١٧ .

(٣) ابن جرير ٨٧/١٧ وابن حبان (٧٣١٠) وصححه الحاكم ١/٢٩ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٤) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٨) ومسلم فى الإيمان (٣٧٩/٢٢٢) والنسائى فى التفسير (٣٥٩) .

جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد مثله : ﴿ أَنَّهُ مِنْ تَوَلَاهُ ﴾ قال : اتبعه . وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ، فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » (١) . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جداً . وأخرج ابن أبي حاتم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ مَخْلُوقَةٌ وَغَيْرُ مَخْلُوقَةٍ ﴾ قال : المخلوقة : ما كان حياً ، وغير المخلوقة : ما كان سقطاً . وروى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ ﴾ قال : حسن . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن معاذ بن جبل قال : من علم أن الله عز وجل حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ؛ دخل الجنة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ (٨) ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦) ﴿

قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ﴾ أى فى شأن الله ، كقول من قال : إن الملائكة بنات الله ، والمسيح ابن الله ، وعزير ابن الله . قيل : نزلت فى النضر بن الحارث . وقيل : فى أبى جهل . وقيل : هى عامة لكل من يتصدى لإضلال الناس وإغوائهم ، وعلى كل حال فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ وإن كان السبب خاصاً . ومعنى اللفظ : ومن الناس فريق يجادل فى

(١) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٨) ومسلم فى القدر (١/٢٦٤٣) وأبو داود فى السنة (٤٧٠٨) والترمذى فى القدر (٣١٣٧) وقال : « حديث حسن صحيح » وابن ماجه فى المقدمة (٧٦) وأحمد ١/٣٨٢ ، ٤٣٠ .

الله ، فيدخل فى ذلك كل مجادل فى ذات الله ، أو صفاته أو شرائعه الواضحة ، و﴿بغير علم﴾ فى محل نصب على الحال ، أى كائنًا بغير علم . قيل : والمراد بالعلم هو : العلم الضرورى ، وبالهدى هو : العلم النظرى الاستدلالى . والأولى حمل العلم على العموم ، وحمل الهدى على معناه اللغوى ، وهو الإرشاد . والمراد بالكتاب المنير هو : القرآن ، والمنير : النير البين الحجة الواضح البرهان ، وهو وإن دخل تحت قوله : ﴿ بغير علم ﴾ فإفراده بالذكر كإفراد جبريل بالذكر عند ذكر الملائكة ، وذلك لكونه الفرد الكامل الفائق على غيره من أفراد العلم . وأما من حمل العلم على الضرورى والهدى على الاستدلالى ، فقد حمل الكتاب هنا على الدليل السمعى ، فتكون الآية متضمنة لنفى الدليل العقلى ضرورياً كان أو استدلالياً ، ومتضمنة لنفى الدليل النقلى بأقسامه ، وما ذكرناه أولى . قيل : والمراد بهذا المجادل فى هذه الآية هو المجادل فى الآية الأولى ، أعنى قوله : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ [الحج : ٣] . وبذلك قال كثير من المفسرين . والتكرير للمبالغة فى الذم كما تقول للرجل تذمه وتوبخه : أنت فعلت هذا أنت فعلت هذا ؟ ويجوز أن يكون التكرير لكونه وصفه فى كل آية بزيادة على ما وصفه به فى الآية الأخرى ، فكأنه قال : ومن الناس من يجادل فى الله ويتبع كل شيطان مريد بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ليضل عن سبيل الله . وقيل : الآية الأولى فى المقلدين اسم فاعل . والثانية فى المقلدين اسم مفعول . ولا وجه لهذا كما أنه لا وجه لقول من قال : إن الآية الأولى خاصة بإضلال المتبوعين لتابعيهم ، والثانية عامة فى كل إضلال وجدال .

وانتصاب ﴿ ثانى عطفه ﴾ على الحال من فاعل يجادل ، والعطف : الجانب ، عطفاً الرجل : جانباه من يمين وشمال ، وفى تفسيره وجهان : الأول : أن المراد به من يلوى عنقه مرحاً وتكبراً ، ذكر معناه الزجاج . قال : وهذا يوصف به المتكبر . والمعنى : ومن الناس من يجادل فى الله متكبراً . قال المبرد : العطف : ما انثنى من العنق . والوجه الثانى : أن المراد بقوله : ﴿ ثانى عطفه ﴾ : الإعراض ، أى معرضاً عن الذكر ، كذا قال الفراء والمفضل وغيرهما كقوله تعالى : ﴿ ولئى مستكبراً كان لم يسمعها ﴾ [لقمان : ٧] ، وقوله : ﴿ لووا رؤوسهم ﴾ [المنافقون : ٥] ، وقوله : ﴿ أعرض ونأى بجانبه ﴾ [الإسراء : ٨٣] ، واللام فى ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ متعلق بـ ﴿ يجادل ﴾ أى أن غرضه هو الإضلال عن السبيل وإن لم يعترف بذلك . وقرئ : « ليضل » بفتح الياء على أن تكون اللام هى لام العاقبة كأنه جعل ضلاله غاية جداله ، وجملة : ﴿ له فى الدنيا خزى ﴾ مستأنفة مبينة لما يحصل له بسبب جداله من العقوبة . والخزى : الذل ، وذلك بما يناله من العقوبة فى الدنيا من العذاب المعجل وسوء الذكر على ألسن الناس . وقيل : الخزى الدنيوى هو : القتل ، كما وقع فى يوم بدر ﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ أى عذاب النار المحرقة .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدم من العذاب الدنيوى والأخروى ، وهو مبتدأ خبره : ﴿ بما قدمت يداك ﴾ ، والباء للسببية ، أى ذلك العذاب النازل بك بسبب ما قدمته يداك من الكفر والمعاصى ، وعبر باليد عن جملة البدن لكون مباشرة المعاصى تكون بها فى الغالب ،

ومحل أن وما بعدها فى قوله : ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى والأمر أنه سبحانه لا يعذب عباده بغير ذنب . وقد مرّ الكلام على هذه الآية فى آخر آل عمران فلا نعيده .

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ هذا بيان لشقاق أهل الشقاق . قال الواحدى : قال أكثر المفسرين : الحرف : الشك ، وأصله من حرف الشيء وهو طرفه ، مثل حرف الجبل والحائط ، فإن القائم عليه غير مستقرّ ، والذى يعبد الله على حرف قلق فى دينه على غير ثبات وطمأنينة كالذى هو على حرف الجبل ونحوه يضطرب اضطراباً ويضعف قيامه فقليل للشاك فى دينه إنه يعبد الله على حرف ؛ لأنه على غير يقين من وعده ووعدته ، بخلاف المؤمن ؛ لأنه يعبد الله على يقين وبصيرة فلم يكن على حرف . وقيل : الحرف : الشرط ، أى ومن الناس من يعبد الله على شرط ، والشرط هو قوله : ﴿ فإن أصابه خير اطمأن به ﴾ أى خير دنيوى من رخاء وعافية وخصب وكثرة مال ، ومعنى ﴿ اطمأن به ﴾ : ثبت على دينه واستمرّ على عبادته ، أو اطمأن قلبه بذلك الخير الذى أصابه ﴿ وإن أصابته فتنة ﴾ أى شىء يفتن به من مكروه يصيبه فى أهله أو ماله أو نفسه ﴿ انقلب على وجهه ﴾ أى ارتدّ ورجع إلى الوجه الذى كان عليه من الكفر ، ثم بين حاله بعد انقلابه على وجهه فقال : ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ أى ذهباً منه وفقدتهما ، فلا حظ له فى الدنيا من الغنيمة والثناء الحسن ، ولا فى الآخرة من الأجر وما أعدّه الله للمصالحين من عباده . وقرأ مجاهد وحמיד بن قيس والأعرج والزهرى وابن أبى إسحاق : «خاسراً الدنيا والآخرة» على صيغة اسم الفاعل منصوباً على الحال . وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى خسران الدنيا والآخرة وهو مبتدأ وخبره ﴿ هو الخسران المبين ﴾ أى الواضح الظاهر الذى لا خسران مثله ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ﴾ أى هذا الذى انقلب على وجهه ورجع إلى الكفر ﴿ يدعو من دون الله ﴾ : أى يعبد متجاوزاً عبادة الله إلى عبادة الأصنام ﴿ ما لا يضره ﴾ إن ترك عبادته ، ﴿ ولا ينفعه ﴾ إن عبده لكون ذلك المعبود جماداً لا يقدر على ضرر ولا نفع ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الدعاء المفهوم من الفعل وهو يدعو ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره : ﴿ هو الضلال البعيد ﴾ أى عن الحق والرشد ، مستعار من ضلال من سلك غير الطريق فصار بضلاله بعيداً عنها . قال الفراء : البعيد : الطويل .

﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ يدعو بمعنى : يقول ، والجملة مقرّرة لما قبلها من كون ذلك الدعاء ضلالاً بعيداً . والأصنام لا نفع فيها بحال من الأحوال ، بل هى ضرر بحت لمن يعبدها ؛ لأنه دخل النار بسبب عبادتها . وإيراد صيغة التفضيل مع عدم النفع بالمرّة للمبالغة فى تقبيح حال ذلك الداعى ، أو ذلك من باب ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ [سبأ : ٢٤] . واللام هى : الموطئة للقسم ومن موصولة أو موصوفة ، و﴿ ضره ﴾ مبتدأ وخبره أقرب ، والجملة صلة الموصول . وجملة : ﴿ لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ جواب القسم . والمعنى : أنه يقول ذلك الكافر يوم القيامة لمعبوده الذى ضره أقرب من نفعه : لبئس المولى

ولبئس العشير . والمولى : الناصر ، والعشير : الصاحب ، ومثل ما فى هذه الآية قول عنترة :

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بثر فى لبان الأدهم

وقال الزجاج : يجوز أن يكون ﴿ يدعو ﴾ فى موضع الحال ، وفيه هاء محذوفة ، أى ذلك هو الضلال البعيد يدعوه وعلى هذا يوقف على ﴿ يدعو ﴾ ويكون قوله : ﴿ لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ كلاماً مستأنفاً مرفوعاً بالابتداء ، وخبره : ﴿ لبئس المولى ﴾ . قال : وهذا لأن اللام لليمين والتوكيد فجعلها أول الكلام . وقال الزجاج والفراء : يجوز أن يكون ﴿ يدعو ﴾ مكررة على ما قبلها على جهة تكثير هذا الفعل الذى هو الدعاء ، أى يدعو ما لا يضره ولا ينفعه يدعو ، مثل ضربت زيداً ضربت . وقال الفراء والكسائى والزجاج : معنى الكلام القسم . واللام مقدمة على موضعها ، والتقدير : يدعو من لضره أقرب من نفعه ، فمن فى موضع نصب بدعوة ، واللام جواب القسم و ﴿ ضره ﴾ مبتدأ ، و ﴿ أقرب ﴾ خبره ، ومن التصرف فى اللام بالتقديم والتأخير قول الشاعر :

خالى لآنت ومن جرير خاله ينل العلاء ويكرم الأخوالا

أى لخالى أنت . قال النحاس : وحكى لنا على بن سليمان عن محمد بن يزيد قال : فى الكلام حذف ، والمعنى : يدعو لمن ضره أقرب من نفعه إلها . قال النحاس : وأحسب هذا القول غلطاً عن محمد بن يزيد ، ولعل وجهه أن ما قبل اللام هذه لا يعمل فيما بعدها . وقال الفراء أيضاً والقفال : اللام صلة ، أى زائدة ، والمعنى : يدعو من ضره أقرب من نفعه ، أى يعبد ، وهكذا فى قراءة عبد الله بن مسعود بحذف اللام ، وتكون اللام فى : ﴿ لبئس المولى ﴾ وفى : ﴿ لبئس العشير ﴾ على هذا موطنه للقسم .

﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ لما فرغ من ذكر حال المشركين ، ومن يعبد الله على حرف ذكر حال المؤمنين فى الآخرة ، وأخبر أنه يدخلهم هذه الجنات المتصفة بهذه الصفة ، وقد تقدم الكلام فى جرى الأنهار من تحت الجنات ، وبيننا أنه إن أريد بها الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها ، فجرى الأنهار من تحتها ظاهر ؛ وإن أريد بها الأرض فلا بد من تقدير مضاف ، أى من تحت أشجارها ﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها ، أى يفعل ما يريد من الأفعال ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ فيثيب من يشاء ويعذب من يشاء .

﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة ﴾ قال النحاس : من أحسن ما قيل فى هذه الآية أن المعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ وأنه يتهاى له أن يقطع النصر الذى أوتيه ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ أى فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ﴿ ثم ليقطع ﴾ أى ثم ليقطع النصر إن تهياً له ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ﴾ وحيلته ﴿ ما يغيظ ﴾ من نصر النبى ﷺ . وقيل : المعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً حتى يظهره على الدين كله فليمت غيظاً ، ثم فسر بقوله : ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ أى فليشدد حبلاً فى سقف بيته

﴿ ثم ليقطع ﴾ أى ثم ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً ، والمعنى : فليختنق غيظاً حتى يموت ، فإن الله ناصره ومظهره ، ولا ينفعه غيظه ، ومعنى ﴿ فليُنظر هل يذهبن كيده ﴾ أى صنيعة وحيلته ما يغيظ ، أى غيظه ، « وما » مصدرية . وقيل : إن الضمير فى : ﴿ ينصره ﴾ يعود إلى من ، والمعنى : من كان يظن أن الله لا يرزقه فليقتل نفسه ، وبه قال أبو عبيدة . وقيل : إن الضمير يعود إلى الدين ، أى من كان يظن أن لن ينصر الله دينه . وقرأ الكوفيون بإسكان اللام فى « ثم ليقطع » . قال النحاس : وهذه القراءة بعيدة من العربية .

﴿ وكذلك أنزلناه آيات بينات ﴾ أى مثل ذلك الإنزال البديع ، أنزلناه آيات واضحة ظاهرة الدلالة على مدلولاتها ﴿ وأن الله يهدى من يريد ﴾ هدايته ابتداء أو زيادة فيها لمن كان مهدياً من قبل .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ ثانى عطفه ﴾ قال : لاوى عنقه . وأخرج ابن حاتم عن ابن عباس والسدى وابن يزيد وابن جرير أنه المعرض . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿ ثانى عطفه ﴾ قال : أنزلت فى النضر بن الحارث . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : هو رجل من بنى عبد الدار | وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿ ثانى عطفه ﴾ قال : مستكبراً فى نفسه .

وأخرج البخارى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ قال : كان الرجل يقدم المدينة ، فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه بسند صحيح قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ يسلمون ، فإذا رجعوا إلى بلادهم ، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن . قالوا : إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به ، وإن وجدوا عام جدد وعام ولاد سوء وعام قحط ، قالوا : ما فى ديننا هذا خير ، فأنزل الله : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضاً نحوه ^(١) . وفى إسناده العوفى . وأخرج ابن مردويه أيضاً من طريقه أيضاً عن أبى سعيد قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاءم بالإسلام ، فأتى النبى ﷺ فقال : أقلنى أقلنى ، قال : « إن الإسلام لا يقال » ، فقال : لم أصب من دينى هذا خيراً ، ذهب بصرى ومالى ومات ولدى ، فقال : « يا يهودى ، الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة » ، فنزلت ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ .

وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم

وصححه وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله ﴾ قال من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا فى الدنيا والآخرة ﴿ فليمدد بسبب ﴾ قال : فليربط بحبل ﴿ إلى السماء ﴾ قال : إلى سماء بيته السقف ﴿ ثم ليقطع ﴾ قال : ثم يختنق به حتى يموت . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه قال : ﴿ من كان يظن أن لن ينصره ﴾ يقول : أن لن يرزقه الله ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ فليأخذ حبلا فليربطه فى سماء بيته فليختنق به ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ما يعيظ ﴾ قال : فلينظر هل ينفعه ذلك أو يأتيه برزق .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾ .

قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بالله وبرسوله ، أو بما ذكر من الآيات البينات ﴿ والذين هادوا ﴾ هم اليهود المنتسبون إلى ملة موسى ﴿ والصابئين ﴾ قوم يعبدون النجوم . وقيل : هم من جنس النصارى وليس ذلك بصحيح بل هم فرقة معروفة لا ترجع إلى ملة من الملل المنتسبة إلى الأنبياء . ﴿ والنصارى ﴾ هم المنتسبون إلى ملة عيسى ﴿ والمجوس ﴾ هم الذين يعبدون النار ، ويقولون : إن للعالم أصليين : النور والظلمة . وقيل : هم قوم يعبدون الشمس والقمر ، وقيل : هم قوم يستعملون النجاسات . وقيل : هم قوم من النصارى اعتزلوهم ولبسوا المسوح . وقيل : إنهم أخذوا بعض دين اليهود وبعض دين النصارى ﴿ والذين أشركوا ﴾ الذين يعبدون الأصنام ، وقد مضى تحقيق هذا فى البقرة ، ولكنه سبحانه قدّم هنالك النصارى على الصابئين ، وأخرهم عنهم هنا . فقليل : وجه تقديم النصارى هنالك أنهم أهل كتاب دون الصابئين ، ووجه تقديم الصابئين هنا أن زمنهم متقدّم على زمن النصارى ، وجملة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فى محل رفع على أنها خبر لأنّ المتقدّمة . ومعنى الفصل : أنه سبحانه يقضى بينهم فيدخل المؤمنين منهم الجنة والكافرين منهم النار . وقيل الفصل هو أن يميز المحقّ من المبطل بعلامة يعرف بها كل واحد منهما ، وجملة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ تعليل

لما قبلها ، أى أنه سبحانه على كل شىء من أفعال خلقه وأقوالهم شهيد لا يعزب عنه شىء منها . وأنكر الفراء أن تكون جملة ﴿ إِنْ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ خبراً لأن المتقدمة . وقال لا يجوز فى الكلام : إن زيدا إن أخاه منطلق ، وردّ الزجاج ما قاله الفراء ، وأنكره وأنكر ما جعله عمثلا للآية ، ولا شك فى جواز قولك : إن زيدا إن الخير عنده ، وإن زيدا إنه منطلق ، ونحو ذلك .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدْ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ الرؤية هنا هى القلبية لا البصرية ، أى أَلَمْ تعلم . والخطاب لكل من يصلح له ، وهو من تتأتى منه الرؤية ، والمراد بالسجود هنا هو : الانقياد الكامل ، لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء ، سواء جعلت كلمة من خاصة بالعقلاء ، أو عامة لهم ولغيرهم ، ولهذا عطف ﴿ الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ﴾ على من ، فإن ذلك يفيد أن السجود هو الانقياد لا الطاعة الخاصة بالعقلاء ، وإنما أفرد هذه الأمور بالذكر مع كونها داخلة تحت من ، على تقدير جعلها عامة لكون قيام السجود بها مستتبعا فى العادة ، وارتفاع ﴿ كثير من الناس ﴾ بفعل مضمر يدل عليه المذكور ، أى ويسجد له كثير من الناس . وقيل : مرتفع على الابتداء وخبره محذوف وتقديره : وكثير من الناس يستحق الثواب ، والأول أظهر . وإنما لم يرتفع بالعطف على من ، لأن سجود هؤلاء الكثير من الناس هو سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء ، والمراد بالسجود المتقدم هو : الانقياد ، فلو ارتفع بالعطف على من لكان فى ذلك جمع بين معنيين مختلفين فى لفظ واحد . وأنت خير بأنه لا ملجئ إلى هذا بعد حمل السجود على الانقياد ، ولا شك أنه يصح أن يراد من سجود كثير من الناس هو انقيادهم لا نفس السجود الخاص ، فارتفاعه على العطف لا بأس به ، وإن أبى ذلك صاحب الكشف ومتابعوه ، وأما قوله : ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ فقال الكسائى والفراء : إنه مرتفع بالابتداء وخبره ما بعده . وقيل : هو معطوف على كثير الأول ، ويكون المعنى : وكثير من الناس يسجد وكثير منهم يأبى ذلك . وقيل : المعنى : وكثير من الناس فى الجنة ، وكثير حق عليه العذاب هكذا حكاه ابن الأنبارى ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ أى من أهانه الله بأن جعله كافراً شقياً ، فما له من مكرم يكرمه فيصير سعيداً عزيزاً . وحكى الأخفش والكسائى والفراء أن المعنى : ومن يهن الله فما له من مكرم ، أى إكرام ﴿ وإن الله يفعل ما يشاء ﴾ من الأشياء التى من جملتها ما تقدم ذكره من الشقاوة والسعادة والإكرام والإهانة .

﴿ هَذَانِ خَصِمَانِ ﴾ الخصمان أحدهما : أنجس الفرق : اليهود والنصارى والصابئون والمجوس والذين أشركوا ، والخصم الآخر : المسلمون ، فهما فريقان مختصمان . قاله الفراء وغيره . وقيل : المراد بالخصمين : الجنة والنار . قالت الجنة : خلقتنى لرحمته ، وقالت النار : خلقتنى لعقوبته . وقيل : المراد بالخصمين : هم الذين برزوا يوم بدر ، فمن المؤمنين : حمزة وعلى وعبيدة ، ومن الكافرين : عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة . وقد كان أبو ذر رضى

اللّه عنه يقسم أن هذه الآية نزلت في هؤلاء المتبارزين كما ثبت عنه في الصحيح ^(١) ، وقال بمثل هذا جماعة من الصحابة ، وهم أعرف من غيرهم بأسباب النزول . وقد ثبت في الصحيح أيضاً عن علي أنه قال : فينا نزلت هذه الآية ^(٢) . وقرأ ابن كثير « هذان » بتشديد النون ، وقال سبحانه : ﴿ اختصموا ﴾ ولم يقل : اختصما . قال الفراء : لأنهم جمع ، ولو قال اختصما لجاز ، ومعنى ﴿ في ربهم ﴾ في شأن ربهم ، أى في دينه ، أو في ذاته ، أو في صفاته ، أو في شريعته لعباده ، أو في جميع ذلك .

ثم فصل سبحانه ما أجمله في قوله : ﴿ يفصل بينهم ﴾ فقال : ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ قال الأزهرى : أى سوّيت وجعلت لبوساً لهم ، شبهت النار بالثياب ؛ لأنها مشتملة عليهم كاشتغال الثياب . وعبر بالماضى عن المستقبل تنبيهاً على تحقق وقوعه . وقيل : إن هذه الثياب من نحاس قد أذيب فصار كالنار ، وهى السراويل المذكورة فى آية أخرى . وقيل : المعنى فى الآية : أحاطت النار بهم . وقرئ : « قطعت » بالتخفيف ، ثم قال سبحانه : ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ والحميم هو : الماء الحار المغلى بنار جهنم ، والجملة مستأنفة أو هى خبر ثانٍ للموصول ﴿ يصهر به ما فى بطونهم ﴾ الصهر : الإذابة ، والصهارة : ما ذاب منه ، يقال : صهرت الشئ فانصهر ، أى أذبتة فذاب فهو صهير ، والمعنى : أنه يذاب بذلك الحميم ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء ﴿ والجلود ﴾ معطوفة على ما ، أى ويصهر به الجلود والجملة فى محل نصب على الحال . وقيل : إن الجلود لا تذاب ، بل تحرق ، فيقدر فعل يناسب ذلك ، ويقال : وتحرق به الجلود كما فى قول الشاعر :

علفتها تبناً وماءً بارداً

أى وسقيتها ماء ، ولا يخفى أنه لا ملجئ لهذا ، فإن الحميم إذا كان يذيب ما فى البطون فيأذبتة للجلد الظاهر بالأولى . ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ : المقامع جمع مقمعة ومقمع ، قمعته : ضربته بالمقمعة ، وهى قطعة من حديد . والمعنى : لهم مقامع من حديد يضربون بها ، أى للكفرة ، وسميت المقامع مقامع ؛ لأنها تقمع المضروب ، أى تذله . قال ابن السكيت : أقمعت الرجل عنى إقماعاً : إذا اطلع عليك فرددته عنك ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها ﴾ أى من النار ﴿ أعيدوا فيها ﴾ أى فى النار بالضرب بالمقامع ، و ﴿ من غم ﴾ بدل من الضمير فى منها بإعادة الجار أو مفعول له ، أى لأجل غم شديد من غموم النار ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ هو بتقدير القول ، أى أعيدوا فيها ، وقيل لهم : ذوقوا عذاب الحريق ، أى العذاب المحرق ، وأصل الحريق الاسم من الاحتراق ، تحرق الشئ بالنار واحترق حرقه واحتراقاً ، والذوق مماسة يحصل معها إدراك الطعم ، وهو هنا توسع ، والمراد به إدراك الألم . قال الزجاج : وهذا لأحد الخصمين . وقال فى الخصم الآخر وهم المؤمنون : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٤٣) .

(٢) المرجع السابق (٤٧٤٤) .

الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴿ فين سبحانه حال المؤمنين بعد بيانه لحال الكافرين .

ثم بين الله سبحانه بعض ما أعدّه لهم من النعيم بعد دخولهم الجنة فقال : ﴿ يحلون فيها ﴾ قرأ الجمهور ﴿ يحلون ﴾ بالتشديد والبناء للمفعول ، وقرئ مخففاً ، أى يحليهم الله أو الملائكة بأمره . و « من » فى قوله : ﴿ من أساور ﴾ للتبعيض ، أى يحلون بعض أساور ، أو للبيان ، أو زائدة ، و « من » فى ﴿ من ذهب ﴾ للبيان ، والأساور : جمع أسورة والأسورة : جمع سوار . وفى السوار لغتان : كسر السين وضمها ، وفيه لغة ثالثة ، وهى «إسوار» . قرأ نافع وابن كثير وعاصم وشيبة ﴿ ولؤلؤا ﴾ بالنصب عطف على محل ﴿ أساور ﴾ أى يحلون لؤلؤا ، أو بفعل مقدّر ينصبه ، وهكذا قرأ بالنصب يعقوب والجحدري وعيسى بن عمر ، وهذه القراءة هى الموافقة لرسم المصحف فإن هذا الحرف مكتوب فيه بالالف ، وقرأ الباقر بالجر عطفًا على ﴿ أساور ﴾ أى يحلون من أساور ومن لؤلؤ ، واللؤلؤ : ما يستخرج من البحر من جوف الصدف . قال القشيري : والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ ، ولا يبعد أن يكون فى الجنة سوار من لؤلؤ مصمت كما أن فيها أساور من ذهب ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ أى جميع ما يلبسونه حرير كما تفيده هذه الإضافة ، ويجوز أن يراد أن هذا النوع من الملابس الذى كان محرماً عليهم فى الدنيا حلال لهم فى الآخرة ، وأنه من جملة ما يلبسونه فيها ، ففيها ما تشتهيhe الأنفس ، وكل واحد منهم يعطى ما تشتهيhe نفسه وينال ما يريد .

﴿ وهدوا إلى الطيب من القول ﴾ أى أرشدوا إليه ، قيل : هو لا إله إلا الله . وقيل : الحمد لله . وقيل : القرآن . وقيل : هو ما يأتيهم من الله سبحانه من البشارات . وقد ورد فى القرآن ما يدلّ على هذا القول المجمل هنا ، وهو قوله سبحانه : ﴿ الحمد لله الذى صدقنا وعده ﴾ [الزمر : ٧٤] ، ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، ﴿ الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ﴾ [فاطر : ٣٤] . ومعنى ﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ : أنهم أرشدوا إلى الصراط المحمود وهو طريق الجنة ، أو صراط الله الذى هو دينه القويم ، وهو الإسلام .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ والصابئين ﴾ قال : هم قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون القبلة ، ويقرؤون الزبور ﴿ والمجوس ﴾ عبدة الشمس والقمر والنيران ، ﴿ والذين أشركوا ﴾ عبدة الأوثان ﴿ إن الله يفصل بينهم ﴾ قال : الأديان ستة ؛ فخمسة للشيطان ، ودين لله عزّ وجل . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى الآية قال : فصل قضاءه بينهم فجعل الخمسة مشتركة وجعل هذه الأمة واحدة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : الذين هادوا : اليهود ، والصابئون : ليس لهم كتاب ، والمجوس : أصحاب الأصنام ، والمشركون : نصارى العرب .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى ذرّ ، أنه كان يقسم قسمًا أن هذه الآية : ﴿ هذان خصمان ﴾ الآية نزلت فى الثلاثة والثلاثة الذين بارزوا يوم بدر ، وهم حمزة بن عبد المطلب

وعبيدة بن الحارث وعلى بن أبي طالب ، وعتبة ، وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ^(١) ، قال على : وأنا أول من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة . وأخرجه البخاري وغيره من حديث على ^(٢) . وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس بنحوه ، وهكذا روى عن جماعة من التابعين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله : ﴿ قطعت لهم ثياب من نار ﴾ قال : من نحاس ، وليس من الآنية شيء إذا حمى أشد حراً منه ، وفي قوله : ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ قال : النحاس يذاب على رؤوسهم ، وقوله : ﴿ يصهر به ما في بطونهم ﴾ قال : تسيل أمعاؤهم ﴿ والجلود ﴾ قال : تتناثر جلودهم . وأخرج عبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن مردويه عن أبي هريرة ؛ أنه تلا هذه الآية : ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان » ^(٣) . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يصهر به ما في بطونهم ﴾ قال : يشون وأمعاؤهم تتساقط وجلودهم . وفي قوله : ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ قال : يضربون بها ، فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالويل والثبور . وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : يسقون ماء إذا دخل في بطونهم أذابها والجلود مع البطون . وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن مقمعا من حديد وضع في الأرض فاجتمع الثقلان ما أقلوه من الأرض ، ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان » ^(٤) .

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن سلمان قال : النار سوداء مظلمة لا يضىء لها ولا جمرها ، ثم قرأ : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ . وفي الصحيحين وغيرهما عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » ^(٥) . وفي الباب أحاديث ^(٦) .

(١) البخاري في التفسير (٤٧٤٣) ومسلم في التفسير (٣٠٣٣ / ٣٤) .

(٢) البخاري في التفسير (٤٧٤٤) .

(٣) الترمذي في صفة جهنم (٢٥٨٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » ، وابن جرير ١٧ / ١٠٠ وصححه الحاكم ٣٨٧ / ٢ ، ووافقه الذهبي ، وأبو نعيم في الحيلة ٨ / ١٨٢ .

(٤) أحمد ٣ / ٢٩ وأبو يعلى (١٣٨٨) وإسناده ضعيف ، وقال الهيثمي في المجمع ١٠ / ٣٩١ : « فيه ضعف قد وثقوا » وصححه الحاكم ٤ / ٦٠٠ وسكت عنه الذهبي .

(٥) البخاري في اللباس (٥٨٣٠) ومسلم في اللباس (١١ / ٢٠٦٩) وأحمد ١ / ٢٠ .

(٦) أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمي وأهل لإناثهم » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وهذوا إلى الطيب من القول ﴾ قال : ألهموا . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : هذوا إلى الطيب من القول فى الخصومة إذ قالوا : الله مولانا ولا مولى لكم . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن إسماعيل بن أبي خالد فى الآية قال : القرآن ﴿ وهذوا إلى صراط الحميد ﴾ قال : الإسلام . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك فى الآية قال : الإسلام . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، والحمد لله الذى قال : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ [فاطر : ١٠] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ﴾ .

قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ عطف المضارع على الماضى ؛ لأن المراد بالمضارع ما مضى من الصد ، ومثل هذا قوله : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ﴾ [محمد : ١] ، أو المراد بالصد هاهنا : الاستمرار لا مجرد الاستقبال ، فصح بذلك عطفه على الماضى ، ويجوز أن تكون الواو فى : ﴿ ويصدون ﴾ واو الحال ، أى كفروا والحال أنهم يصدون . وقيل : الواو زائدة والمضارع خبر إن ، والأولى أن يقدر خبر إن بعد قوله : ﴿ والباد ﴾ وذلك نحو خسروا أو هلكوا . وقال الزجاج : إن الخبر ﴿ نذقه من عذاب أليم ﴾ ورد بأنه لو كان خبراً لأن لم يجزم وأيضاً لو كان خبراً لأن لبقى الشرط وهو ﴿ ومن يرد ﴾ بغير جواب ، فالأولى أنه محذوف كما ذكرنا . والمراد بالصد : المنع وبسبيل الله : دينه ، أى يمنعون من أراد الدخول فى دين الله و ﴿ المسجد الحرام ﴾ معطوف على ﴿ سبيل الله ﴾ قيل : المراد به : المسجد نفسه ، كما هو الظاهر من هذا النظم القرآنى . وقيل : الحرم كله ؛ لأن المشركين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عنه يوم الحديبية . وقيل : المراد به : مكة بدليل قوله : ﴿ الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ﴾ أى جعلناه للناس على العموم يصلون فيه ويطوفون به مستويًا فيه العاكف وهو المقيم فيه الملام له ، والباد أى الواصل من البادية ، والمراد به : الطارئ عليه من غير فرق بين كونه من أهل البادية أو من غيرهم . وانتصاب ﴿ سواء ﴾ على أنه المفعول الثانى لجعلناه ، وهو بمعنى مستويًا ، و ﴿ العاكف ﴾ مرتفع به ، وصف المسجد الحرام بذلك لزيادة التقريع والتوبيخ للصادين عنه ، ويحتمل أن يكون انتصاب ﴿ سواء ﴾ على

الحال . وهذا على قراءة النصب ، وبها قرأ حفص عن عاصم ، وهى قراءة الأعمش ، وقرأ الجمهور برفع ﴿ سواء ﴾ على أنه مبتدأ وخبره ﴿ العاكف ﴾ أوعلى أنه خبر مقدم ، والمبتدأ ﴿ العاكف ﴾ أى العاكف فيه والبادى سواء ، وقرئ بنصب ﴿ سواء ﴾ وجر ﴿ العاكف ﴾ على أنه صفة للناس ، أى جعلناه للناس ، العاكف والبادى سواء ، وأثبت الياء فى البادى ابن كثير وصلا ووقفا ، وحذفها أبو عمرو فى الوقف ، وحذفها نافع فى الوصل والوقف . قال القرطبى : وأجمع الناس على الاستواء فى المسجد الحرام نفسه .

واختلفوا فى مكة فذهب مجاهد ومالك إلى أن دور مكة ومنازلها يستوى فيها المقيم والطارئ . وذهب عمر بن الخطاب وابن عباس وجماعة إلى أن للقادم أن ينزل حيث وجد ، وعلى ربّ المنزل أن يؤويه شاء أم أبى . وذهب الجمهور إلى أن دور مكة ومنازلها ليست كالمسجد الحرام ، ولأهلها منع الطارئ من النزول فيها . والحاصل أن الكلام فى هذا راجع إلى أصليين : الأصل الأول : ما فى هذه الآية : هل المراد بالمسجد الحرام : المسجد نفسه . أو جميع الحرم ، أو مكة على الخصوص ؟ والثانى : هل كان فتح مكة صلحاً أو عنوة ؟ وعلى فرض أن فتحها كان عنوة هل أقرّها النبي ﷺ فى يد أهلها على الخصوص ؟ أو جعلها لمن نزل بها على العموم ؟ وقد أوضحنا هذا فى شرحنا على المنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى زيادة .

﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ مفعول يرد ، محذوف لقصد التعميم ، والتقدير : ومن يرد فيه مراداً ، أى مراد بإلحاد ، أى بعدول عن القصد . والإلحاد فى اللغة : الميل ، إلا أنه سبحانه بين هنا أنه الميل بظلم . وقد اختلف فى هذا الظلم ماذا هو ؟ فقيل : هو الشرك . وقيل : الشرك والقتل ، وقيل : صيد حيواناته وقطع أشجاره ، وقيل : هو الخلف فيه بالآيمان الفاجرة ، وقيل : المراد : المعاصى فيه على العموم . وقيل : المراد بهذه الآية أنه يعاقب بمجرد الإرادة للمعصية فى ذلك المكان . وقد ذهب إلى هذا ابن مسعود وابن عمر والضحاك وابن زيد وغيرهم حتى قالوا : لو هم الرجل فى الحرم بقتل رجل بعدن لعذبه الله . والحاصل : أن هذه الآية دلت على أن من كان فى البيت الحرام مأخوذاً بمجرد الإرادة للظلم ، فهى مخصصة لما ورد من أن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها ، إلا أن يقال : إن الإرادة فيها زيادة على مجرد حديث النفس ، وبالجمل فالبحت عن هذا وتقرير الحق فيه على وجه يجمع بين الأدلة ويرفع الإشكال يطول جداً ، ومثل هذه الآية حديث : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » قيل : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » ^(١) فدخل النار هنا بسبب مجرد حرصه على قتل صاحبه . وقد أفردنا هذا البحث برسالة مستقلة ، والباء فى قوله : ﴿ بإلحاد ﴾ إن كان مفعول ﴿ يرد ﴾ محذوفاً كما ذكرنا فليست بزائدة . وقيل : إنها زائدة هنا كقول الشاعر :

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

أى نرجو الفرج ، ومثله :

ألم يأتيك والأنباء تنمى بما لاقت لبون بنى زياد

أى ما لاقت . ومن القائلين بأنها زائدة الأخفش ؛ والمعنى عنده : ومن يرد فيه إلحادًا بظلم . وقال الكوفيون : دخلت الباء لأن المعنى : بأن يلحد ، والباء مع أن تدخل وتحذف ، ويجوز أن يكون التقدير : ومن يرد الناس بإلحاد . وقيل : إن ﴿يرد﴾ مضمن معنى : يهّم ، والمعنى : ومن يهّم فيه بإلحاد . وأما الباء فى قوله : ﴿بظلم﴾ فهى للسببية والمعنى : ومن يرد فيه بإلحاد بسبب الظلم ، ويجوز أن يكون ﴿بظلم﴾ بدلا من ﴿باللحاد﴾ بإعادة الجار ، ويجوز أن يكون حالين مترادفين .

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ أى واذكر وقت ذلك ، يقال : بوأته منزلا وبوأت له ، كما يقال : مكتك ومكنت لك . قال الزجاج : معناه : جعلنا مكان البيت مباء لإبراهيم ، ومعنى ﴿ بوأنا ﴾ : بينا له مكان البيت ، ومثله قول الشاعر :

كم من أخ لى ماجد بوأته بىدى لحداً

وقال الفراء : إن اللام زائدة ومكان ظرف ، أى أنزلناه فيه ﴿ ألا تشرك بى شيئا ﴾ قيل : إن هذه هى مفسدة لبوأننا ، لتضمنه معنى : تعبدنا ؛ لأن التبوئة هى للعبادة . وقال أبو حاتم : هى مصدرية ، أى لأن لا تشرك بى . وقيل : هى المخففة من الثقيلة . وقيل هى زائدة . وقيل : معنى الآية : وأوحينا إليه أن لا تعبد غيرى . قال المبرد : كأنه قيل له : وحدنى فى هذا البيت ، لأننى معنى لا تشرك بى : وحدنى ﴿ وطهر بيتى ﴾ من الشرك وعبادة الأوثان . وفى الآية طعن على ما أشرك من قطان البيت ، أى هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده وأنتم ، فلم تفوا بل أشركتم . وقالت فرقة : الخطاب بقوله : ﴿ ألا تشرك ﴾ لمحمد ﷺ وهذا ضعيف جداً . ومعنى ﴿ وطهر بيتى ﴾ : تطهيره من الكفر والأوثان والدماء وسائر النجاسات ، وقيل : عنى به التطهير عن الأوثان فقط ، وذلك أن جرهما والعمالة كانت لهم أصنام فى محل البيت وقد مرّ فى سورة براءة ما فيه كفاية فى هذا المعنى . والمراد بالقائمين هنا هم : المصلون وذكر ﴿ الركع السجود ﴾ بعده لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة ، وقرن الطواف بالصلاة ؛ لأنهما لا يشرعان إلا فى البيت فالطواف عنده والصلاة إليه .

﴿ وأذن فى الناس بالحج ﴾ قرأ الحسن وابن محيصن : « وأذن » بتخفيف الذال والمد . وقرأ الباقون بتشديد الذال . والأذان : الإعلام ، وقد تقدّم فى براءة . قال الواحدى : قال جماعة المفسرين : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت جاءه جبريل فأمره أن يؤذن فى الناس بالحج ، فقال : يارب ، من يبلغ صوتى ؟ فقال الله سبحانه : أذن وعلىّ البلاغ ، فعلا المقام فأشرف به حتى صار كأعلى الجبال ، فأدخل أصبعيه فى أذنيه ، وأقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وقال : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحجّ إلى البيت فأجيبوا ربكم ، فأجابه من كان فى

أصلا ب الرجال وأرحام النساء : لبيك اللهم لبيك . وقيل : إن الخطاب لنبينا محمد ﷺ ، والمعنى : أعلمهم يا محمد بوجوب الحجّ عليهم ، وعلى هذا فالخطاب لإبراهيم انتهى عند قوله : ﴿ والركع السجود ﴾ . وقيل : إن خطابه انقضى عند قوله ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ وأن قوله ﴿ أن لا تشرك بى ﴾ وما بعده خطاب لنبينا محمد ﷺ ، وقرأ الجمهور ﴿ بالحج ﴾ بفتح الحاء ، وقرأ ابن أبى إسحاق فى كل القرآن بكسرهما ﴿ يأتوك رجالا ﴾ هذا جواب الأمر ، وعده الله إجابة الناس له إلى حجّ البيت ما بين راجل وراكب ، فمعنى ﴿ رجالا ﴾ : مشاة ، جمع راجل . وقيل : جمع رجل . وقرأ ابن أبى إسحاق « رجالا » بضم الراء وتخفيف الجيم . وقرأ مجاهد : « رجالي » على وزن فعالي مثل كسالى . وقدم الرجال على الركبان فى الذكر لزيادة تعبه فى المشى ، وقال : ﴿ يأتوك ﴾ وإن كانوا يأتون البيت ، لأن من أتى الكعبة حاجاً فقد أتى إبراهيم ، لأنه أجاب نداءه ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ عطف على ﴿ رجالا ﴾ أى وركبانا على كل بعيد . والضامر : البعير المهزول الذى أتبعه السفر ، يقال : ضمّر يضمّر ضموراً ، ووصف الضامر بقوله : ﴿ يأتين ﴾ باعتبار المعنى ؛ لأن ضامر فى معنى ضوامر ، وقرأ أصحاب ابن مسعود وابن أبى عتبة والضحاك « يأتون » على أنه صفة لـ ﴿ رجالا ﴾ : والفجّ : الطريق الواسع ، الجمع فجاج ، والعميق : البعيد .

واللام فى ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ يأتوك ﴾ . وقيل : بقوله : ﴿ وأذن ﴾ والشهود : الحضور ، والمنافع هى نعم منافع الدنيا والآخرة . وقيل : المراد بها : المناسك . وقيل : المغفرة . وقيل : التجارة كما فى قوله : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ [البقرة : ١٩٨] . ﴿ ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ﴾ أى يذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله . وقيل : إن هذا الذكر كناية عن الذبح ؛ لأنه لا ينفك عنه . والأيام المعلومات هى : أيام النحر ، كما يفيد ذلك قوله : ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ . وقيل : عشر ذى الحجة . وقد تقدم الكلام فى الأيام المعلومات والمعدودات فى البقرة فلا نعيده ، والكلام فى وقت ذبح الأضحية معروف فى كتب الفقه وشروح الحديث . ومعنى ﴿ على ما رزقهم ﴾ : على ذبح ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، وهى الإبل والبقر والغنم . وبهيمة الأنعام هى الأنعام ، فالإضافة فى هذا كالإضافة فى قولهم : مسجد الجامع وصلاة الأولى ﴿ فكلوا منها ﴾ الأمر هنا للندب عند الجمهور ، وذهبت طائفة إلى أن الأمر للوجوب ، وهذا التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿ وأطعموا البائس الفقير ﴾ البائس : ذو البؤس وهو شدة الفقر ، فذكر الفقير بعده ؛ لمزيد الإيضاح . والأمر هنا للوجوب . وقيل : للندب .

﴿ ثم ليقتضوا تفثهم ﴾ المراد بالقضاء هنا هو : التأدية ، أى ليؤدوا إزالة وسخهم ؛ لأن التفث هو : الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظفار ، وقد أجمع المفسرون ، كما حكاه النيسابورى ، على هذا . قال الزجاج : إن أهل اللغة لا يعرفون التفث . وقال أبو عبيدة : لم يأت فى الشرع ما يحتجّ به فى معنى التفث . وقال المبرد : أصل التفث فى اللغة : كل قاذورة

تلتحق الإنسان . وقيل : قضاؤه آدّهانه ؛ لأن الحاجّ مغبرّ شعت لم يدهن ولم يستحد ، فإذا قضى نسكه وخرج من إحرامه حلق شعره ولبس ثيابه ، فهذا هو قضاء التفث . قال الزجاج : كأنه خروج من الإحرام إلى الإحلال ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ أى ما يندرون به من البرّ فى حجهم ، والأمر للوجوب . وقيل : المراد بالنذور هنا أعمال الحج ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ هذا الطواف هو طواف الإفاضة . قال ابن جرير : لا خلاف فى ذلك بين المتأولين . والعتيق : القديم ، كما يفيدّه قوله سبحانه : ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ الآية [آل عمران : ٩٦] . وقد سمى العتيق لأن الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبار . وقيل : لأن الله يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب . وقيل : لأنه أعتق من غرق الطوفان . وقيل : العتيق : الكريم .

وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والمسجد الحرام ﴾ قال : الحرم كله ، وهو المسجد الحرام ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ قال : خلق الله فيه سواء . وأخرج ابن أبى شيبه عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : هم فى منازل مكة سواء ، فينبغى لأهل مكة أن يوسعوا لهم حتى يقضوا مناسكهم . وقال : البادى وأهل مكة سواء ، يعنى فى المنزل والحرم . وأخرج ابن أبى شيبه عن عبد الله بن عمرو قال : من أخذ من أجور بيوت مكة إنما يأكل فى بطونه ناراً . وأخرج ابن سعد عن عمر بن الخطاب أن رجلاً قال له عند المروة : يا أمير المؤمنين ، أقطعنى مكاناً لى ولعقبى ، فأعرض عنه عمر وقال : هو حرم الله ، سواء العاكف فيه والباد . وأخرج ابن أبى شيبه عن عطاء قال : كان عمر يمنع أهل مكة أن يجعلوا لها أبواباً حتى ينزل الحاجّ فى عرصات الدور . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه قال السيوطى بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ فى قول الله : ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ قال : «سواء المقيم والذى يدخل» (١) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « مكة مباحة لا تؤجر بيوتها ولا تباع رباعها » . وأخرج ابن أبى شيبه وابن ماجة عن علقمة بن نضلة قال : توفى رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب ، من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن (٢) . رواه ابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبه عن عيسى بن يونس عن عمر بن سعيد بن أبى حفرة عن عثمان بن أبى سليمان عن علقمة فذكره . وأخرج الدارقطنى عن ابن عمر مرفوعاً : «من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً» (٣) .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن راهويه وأحمد وعبد بن حميد والبخارى وأبو يعلى

(١) الطبرانى (١٢٤٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٧٣ : « فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز وهو ضعيف » .

(٢) ابن ماجة فى المناسك (٣١٠٧) وفى الزوائد : « إسناده صحيح على شرط مسلم . وليس لعلقمة بن نضلة عن

ابن ماجة سوى هذا الحديث وليس له شىء فى بقية الكتب ، وقال الدميرى : علقمة بن نضلة لا يصح له

صحبة وليس له فى الكتب شىء سواه » .

(٣) الدارقطنى فى الحج ٢/ ٣٠٠ .

وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود رفعه في قوله : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ قال : « لو أن رجلا هم فيه بإلحاد وهو بعدن أبين لأذاقه الله عذاباً أليماً » (١) . قال ابن كثير : هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري ، ووقفه أشبه من رفعه ، ولهذا صمم شعبة على وقفه . وأخرج سعيد بن منصور والطبراني عن ابن مسعود في الآية قال : من همّ بخطيئة فلم يعملها في سوى البيت ، لم تكتب عليه حتى يعملها ، ومن هم بخطيئة في البيت ؛ لم يمته الله من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أنيس : أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين ، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار ، فافتخروا في الأنساب ، فغضب عبد الله بن أنيس ، فقتل الأنصاري ، ثم ارتدّ عن الإسلام وهرب إلى مكة ، فنزلت فيه : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ يعني : من لجأ إلى الحرم بإلحاد ، يعني بميل عن الإسلام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ قال : بشرك . وأخرج عبد بن حميد ، والبخاري في تاريخه ، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن يعلى بن أمية عن رسول الله ﷺ قال : « احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه » . وأخرج سعيد بن منصور ، والبخاري في تاريخه ، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال : احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : بيع الطعام بمكة إلحاد . وأخرج البيهقي في الشعب عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « احتكار الطعام بمكة إلحاد » (٢) .

وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه عن عليّ قال : لما أمر إبراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر ، فلما قدم مكة رأى على رابية في موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس ، فكلّمه فقال : يا إبراهيم ، ابنّ على ظلي أو على قدرى ولا تزد ولا تنقص ، فلما بنى خرج وخلف إسماعيل وهاجر ، وذلك حين يقول الله : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ الآية . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطاء **﴿ والقائمين ﴾** قال : المصلين عنده . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة معناه . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في السنن عن ابن عباس قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : ربّ ، قد فرغت ، فقال : ﴿ أذن في الناس بالحج ﴾ قال : ربّ ، وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذن وعلىّ البلاغ ، قال :

(١) أحمد ٤٢٨/١ وأبو يعلى (٥٣٨٤) وابن جرير ١٧/١٠٤ والطبراني (٩٠٧٨) وصححه الحاكم ٢/٣٨٧، ٣٨٨ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، قال الهيثمي في المجمع ٧/٧٣ : « رواه الطبراني وفيه الحكم بن ظهير وهو متروك » وأورد ابن كثير رواية ابن أبي حاتم ٤/٦٣٠ ثم ذكره ثم قال : « ورواه أحمد عن يزيد بن هارون به ؛ قلت : هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري » .

(٢) البيهقي في الشعب (١١٢٢١) . ط . الكتب العلمية .

ربّ، كيف أقول ؟ قال : قل : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق . فسمعه من فى السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون . وفى الباب آثار عن جماعة من الصحابة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ قال : أسواقاً كانت لهم ، ما ذكر الله منافع إلا الدنيا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : منافع فى الدنيا ومنافع فى الآخرة ، فأما منافع الآخرة فريضات الله ، وأما منافع الدنيا فمما يصيبون من لحوم البدن فى ذلك اليوم والذبائح والتجارات . وأخرج أبو بكر المروزي فى كتاب العيدين عنه أيضاً قال : الأيام المعلومات : أيام العشر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً قال : الأيام المعلومات : يوم النحر وثلاثة أيام بعده . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : أيام التشريق . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضاً فى الأيام المعلومات قال : قبل يوم التروية بيوم ، ويوم التروية ويوم عرفة . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : البائس : الزمن .

وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر قال : التفث : المناسك كلها . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : التفث حلق الرأس والأخذ من العارضين ونسف الإبط وحلق العانة والوقوف بعرفة والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار وقصّ الأظفار وقصّ الشارب والذبح . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ هو طواف الزيارة يوم النحر ، وورد فى وجه تسمية البيت بالعتيق آثار عن جماعة من الصحابة ، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً . وورد فى فضل الطواف أحاديث ليس هذا موضع ذكرها .

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) ﴾

محل ﴿ ذلك ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر ذلك ، أو مبتدأ خبره

محذوف ، أو فى محل نصب بفعل محذوف ، أى افعلوا ذلك . والمشار إليه هو ما سبق من أعمال الحج ، وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين طرفى كلام واحد . والحرمات جمع حرمة . قال الزجاج : الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه ، وهى فى هذه الآية ما نهى عنها ، ومنع من الوقوع فيها . والظاهر من الآية عموم كل حرمة فى الحج وغيره كما يفيد اللفظ وإن كان السبب خاصا ، وتعظيمها ترك ملابتها ﴿ فهو خير له ﴾ أى فالتعظيم خير له ﴿ عند ربه ﴾ يعنى فى الآخرة من التهاون بشئ منها . وقيل إن صيغة التفضيل هنا لا يراد بها معناه الحقيقى ، بل المراد أن ذلك التعظيم خير ينتفع به ، فهى عدة بخير ﴿ وأحلت لكم الأنعام ﴾ وهى الإبل والبقر والغنم ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ أى فى الكتاب العزيز من المحرمات ، وهى الميتة وما ذكر معها فى سورة المائدة . وقيل : فى قوله : ﴿ إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم ﴾ [المائدة : ١] .

﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ الرجس : القذر ، والوثن : التمثال ، وأصله من وثن الشئ ، أى أقام فى مقامه ، وسمى الصليب وثنا ؛ لأنه ينصب ويركز فى مقامه ، فلا يبرح عنه . والمراد : اجتناب عبادة الأوثان ، وسماها رجسا ؛ لأنها سبب الرجس وهو العذاب . وقيل : جعلها سبحانه رجسا حكما ، والرجس : النجس وليست النجاسة وصفا ذاتيا لها ولكنها وصف شرعى ، فلا تزول إلا بالإيمان كما أنها لا تزول النجاسة الحسية إلا بالماء . قال الزجاج : « من » هنا لتخليص جنس من أجناس ، أى فاجتنبوا الرجس الذى هو وثن ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ الذى هو الباطل ، وسمى زورا ؛ لأنه مائل عن الحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تزاور عن كهفهم ﴾ [الكهف : ١٧] . وقولهم : مدينة زوراء ، أى مائلة ، والمراد هنا قول الزور على العموم ، وأعظمه الشرك بالله بأى لفظ كان . وقال الزجاج المراد بقول الزور ها هنا : تحليلهم بعض الأنعام وتحريمهم بعضها ، وقولهم : ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ [النحل : ١١٦] . وقيل : المراد به : شهادة الزور .

وانتصاب ﴿ حنفاء ﴾ على الحال ، أى مستقيمين على الحق ، أو مائلين إلى الحق . ولفظ حنفاء من الأضداد يقع على الاستقامة ، ويقع على الميل . وقيل : مغناه : حجاجا ، ولا وجه لهذا . ﴿ غير مشركين به ﴾ هو حال كالأول ، أى غير مشركين به شيئا من الأشياء كما يفيد الحذف من العموم ، وجملة : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء ﴾ مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الأمر بالاجتناب . ومعنى خر من السماء : سقط إلى الأرض ، أى انحط من رفيع الإيمان إلى حضيض الكفر ﴿ فتخطفه الطير ﴾ يقال : خطفه : إذا سلبه ، ومنه قوله : ﴿ يخطف أبصارهم ﴾ [البقرة : ٢٠] . أى تخطف لحمه وتقطعه بمخالبها . قرأ أبو جعفر ونافع بتشديد الطاء وفتح الخاء ، وقرئ بكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما ﴿ أو تهوى به الريح ﴾ أى تقذفه وترمى به ﴿ فى مكان سحيق ﴾ أى بعيد ، يقال : سحق يسحق سحقا فهو سحيق : إذا بعد . قال الزجاج : أعلم الله أن بعد من أشرك به من الحق ، كبعد ما خر من

السماء ، فتذهب به الطير أو هوت به الريح فى مكان بعيد .

﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ الكلام فى هذه الإشارة قد تقدّم قريباً ، والشعائر : جمع الشعيرة ، وهى كل شىء فيه لله تعالى شعار ، ومنه شعار القوم فى الحرب ، وهو علامتهم التى يتعارفون بها ، ومنه إشعار البدن ، وهو الطعن فى جانبها الأيمن ، فشعائر الله : أعلام دينه ، وتدخل الهدايا فى الحجّ دخولاً أولياً ، والضمير فى قوله : ﴿ فإنها من تقوى القلوب ﴾ راجع إلى الشعائر بتقدير مضاف محذوف ، أى فإن تعظيمها من تقوى القلوب ، أى من أفعال القلوب التى هى من التقوى ، فإن هذا التعظيم ناشئ من التقوى . ﴿ لكم فيها منافع ﴾ أى فى الشعائر على العموم ، أو على الخصوص ، وهى البدن كما يدل عليه السياق . ومن منافعها : الركوب والدّر والنسل والصوف وغير ذلك ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وهو وقت نحرها ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ أى حيث يحلّ نحرها ، والمعنى : أنها تنتهى إلى البيت وما يليه من الحرم ، فمنافعهم الدنيوية المستفادة منها مستمرة إلى وقت نحرها ، ثم تكون منافعها بعد ذلك دينية . وقيل : إن محلها ها هنا مأخوذ من إحلال الحرام ، والمعنى : أن شعائر الحجّ كلها من الوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى تنتهى إلى طواف الإفاضة بالبيت ، فالييت على هذا مراد بنفسه .

﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ﴾ المنسك ها هنا المصدر من نسك ينسك : إذا ذبح القربان ، والذبيحة : نسكة ، وجمعها نسك . وقال الأزهري : إن المراد بالمنسك فى الآية : موضع النحر ، ويقال : منسك بكسر السين وفتحها لغتان ، قرأ بالكسر الكوفيون إلا عاصما وقرأ الباقون بالفتح . وقال الفراء : المنسك فى كلام العرب : الموضع المعتاد فى خير أو شرّ ، وقال ابن عرفة : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ﴾ أى مذهباً من طاعة الله . وروى عن الفراء أن المنسك : العيد . وقيل : الحجّ ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ ليذكروا اسم الله ﴾ إلى آخره ، والأمة : الجماعة المجتمعة على مذهب واحد ، والمعنى : وجعلنا لكل أهل دين من الأديان ذبحاً يذبحونه ، ودما يريقونه ، أو متعبداً أو طاعة أوعيدا أو حجا يحجونه ، ليذكروا اسم الله وحده ، ويجعلوا نسكهم خاصاً به ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ أى على ذبح ما رزقهم منها . وفيه إشارة إلى أن القربان لا يكون إلا من الأنعام دون غيرها . وفى الآية دليل على أن المقصود من الذبح المذكور هو ذكر اسم الله عليه . ثم أخبرهم سبحانه بتفرّده بالإلهية وأنه لا شريك له ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ثم أمرهم بالإسلام له ، والانقياد لطاعته وعبادته ، وتقدير الجار والمجرور على الفعل للقصر ، والفاء هنا كالفاء التى قبلها ، ثم أمر رسوله ﷺ بأن يبشر ﴿ المختين ﴾ من عباده ، أى المتواضعين الخاشعين المخلصين ، وهو مأخوذ من الخييت ، وهو المنخفض من الأرض ، والمعنى : بشرهم يا محمد بما أعدّ الله لهم من جزيل ثوابه وجليل عطائه . وقيل : إن المختين هم الذين لا يظلمون غيرهم ، وإذا ظلمهم غيرهم لم ينتصروا .

ثم وصف سبحانه هؤلاء المختين بقوله : ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ أى خافت وحذرت مخالفته ، وحصول الوجل منهم عند الذكر له سبحانه دليل على كمال يقينهم وقوّة

إيمانهم ، ووصفهم بالصبر ﴿ على ما أصابهم ﴾ من البلايا والمحن فى طاعة الله ثم وصفهم بإقامة ﴿ الصلاة ﴾ أى الإتيان بها فى أوقاتها على وجه الكمال . قرأ الجمهور . والمقيمى الصلاة بالجرّ على ما هو الظاهر ، وقرأ أبو عمرو بالنصب على توهم بقاء النون ، وأنشد سيويه على ذلك قول الشاعر :

الحافظ عورة العشيرة

البيت . بنصب عورة . وقيل : لم يقرأ بهذه القراءة أبو عمرو ، وقرأ ابن محيصن : « والمقيمى » بإثبات النون على الأصل ، ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود ، ثم وصفهم سبحانه بقوله : ﴿ وما رزقناهم ينفقون ﴾ أى يتصدقون به وينفقونه فى وجوه البرّ ، ويضعونه فى مواضع الخير ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ [الأنفال : ٢] .

وقد أخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ حرّمات الله ﴾ قال : الحرمة مكة والحجّ والعمرة وما نهى الله عنه من معاصيه كلها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ يقول : اجتنبوا طاعة الشيطان فى عبادة الأوثان ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ يعنى : الافتراء على الله والتكذيب به . وأخرج أحمد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أيمن بن خريم قال : قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال : « يأيتها الناس ، عدلت شهادة الزور شركاً بالله » ثلاثاً ، ثم قرأ : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ (١) ، قال أحمد : غريب ، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد . وقد اختلف عنه فى رواية هذا الحديث ، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبى ﷺ . وقد أخرجه أحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب من حديث خريم (٢) . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى بكره قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ثلاثاً ، قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : « الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين » ، وكان متكئاً ، فجلس فقال : « ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور » ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت (٣) .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ حنفاء لله غير مشركين به ﴾

(١) أحمد ١٧٨/٤ ، ٢٣٣ والترمذى فى الشهادات (٢٢٩٩) وقال « هذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث سفيان ابن زياد ، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبى ﷺ » وابن جرير ٢١٢/١٧ وفى المطبوعة : « أيمن بن خريم » بالمهمله والصحيح خريم بالمعجمة كما فى مراجع التخرىج والمخطوطة .

(٢) أحمد ١٧٨/٤ ، ٢٣٣ وأبو داود فى الأقضية (٣٥٩٩) وابن ماجه فى الأحكام (٢٣٧٢) وابن جرير ١١٢/١٧ والطبرانى (٤١٦٢) والبيهقى فى الشعب (٤٥١٩) .

(٣) البخارى فى الشهادات (٢٦٥٤) ومسلم فى الإيمان (١٤٣/٨٧) وأحمد ٣٨/٥ .

قال : حجاجا لله غير مشركين به ، وذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين ، فلما أظهر الله الإسلام ، قال الله للمسلمين : حجوا الآن غير مشركين بالله . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر الصديق نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ قال : البدن . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ قال : الاستسمان والاستحسان والاستعظام ، وفي قوله : ﴿ لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ﴾ قال : إلى أن تسمى بدنا . وأخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه ، وفيه قال : ولكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، في ظهورها وألبانها وأوبارها وأشعارها وأصوافها إلى أن تسمى هديا ، فإذا سميت هديا ذهب المنافع ﴿ ثم محلها ﴾ يقول : حين تسمى ﴿ إلى البيت العتيق ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : إذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكا ﴾ قال : عيداً . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : إهراق الدماء . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : ذبحاً . وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في الآية قال : مكة لم يجعل الله لأمة قط منسكا غيرها . وقد وردت أحاديث في الأضحية ليس هذا موضع ذكرها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وبشر المحبتين ﴾ قال : المطمئنين . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في ذم الغضب ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في شعب الإيمان عن عمرو بن أوس قال : المحبتون في الآية الذين لا يظلمون الناس ، وإذا ظلموا لم ينتصروا .

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾

قرأ ابن أبي إسحاق : « والبدن » بضم الباء والبدال ، وقرأ الباقون بإسكان الدال وهما لغتان ، وهذا الاسم خاص بالإبل . وسميت بدنة ؛ لأنها تبذن ، والبدانة : السمن . وقال أبو حنيفة ومالك : إنه يطلق على غير الإبل ، والأول أولى لما سيأتى من الأوصاف التي هي ظاهرة في الإبل ، ولما تفيدته كتب اللغة من اختصاص هذا الاسم بالإبل . وقال ابن كثير في تفسيره : واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين : أحدهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً كما صح في الحديث ﴿ جعلناها لكم ﴾ وهي ما تقدم بيانه قريباً ﴿ لكم فيها خير ﴾

أى منافع دينية ودنيوية كما تقدّم ﴿ فاذكروا اسم الله عليها ﴾ أى على نحرها ومعنى ﴿ صواف ﴾ أنها قائمة قد صفت قوائمها ، لأنها تنحر قائمة معقولة . وأصل هذا الوصف فى الخيل ، يقال : صفن الفرس فهو صافن : إذا قام على ثلاث قوائم وثنى الرابعة . وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعري : « صوافى » أى خوالص لله لا تشركون به فى التسمية على نحرها أحداً ، وواحد صواف صافة ، وهى قراءة الجمهور . وواحد صوافى صافية ، وقرأ ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وأبو جعفر ومحمد بن على : « صوافن » بالنون جمع صافنة . والصفانة هى التى قد رفعت إحدى يديها بالعقل لثلا تضطرب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ الصافنات الجياد ﴾ [ص : ٣١] ، ومنه قول عمرو بن كلثوم :

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعتتها صفونا

وقال الآخر :

ألف الصفون فما يزال كأنه مما يقوم على الثلاث كسير

﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ الوجوب : السقوط ، أى فإذا سقطت بعد نحرها ، وذلك عند خروج روحها ﴿ فكلوا منها ﴾ ذهب الجمهور أن هذا الأمر للندب ﴿ وأطعموا القانع والمعتّر ﴾ هذا الأمر قيل : هو للندب كالأول ، وبه قال مجاهد والنخعي وابن جرير وابن سريج . وقال الشافعى وجماعة : هو للوجوب .

واختلف فى القانع من هو ؟ فقيل : هو السائل ، يقال : قنع الرجل بفتح النون يقنع بكسرهما إذا سأل ، ومنه قول الشماخ :

لمال المرء يصلحه فيغنى مفاقره ؛ أعف من القنوع

أى السؤال ، وقيل : هو المتعفف عن السؤال المستغنى ببلغة ، ذكر معناه الخليل . قال ابن السكيت : من العرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة ، وهى الرضا والتعفف وترك المسألة . وبالأول قال زيد بن أسلم وابنه وسعيد بن جبير والحسن ، وروى عن ابن عباس . وبالثانى قال عكرمة وقتادة . وأما المعتّر ، فقال محمد بن كعب القرظى ومجاهد وإبراهيم والكلبي والحسن : أنه الذى يتعرّض من غير سؤال . وقيل : هو الذى يعتريك ويسألك . وقال مالك : أحسن ما سمعت أن القانع : الفقير ، والمعتّر : الزائر . وروى عن ابن عباس : أن كليهما الذى لا يسأل ، ولكن القانع الذى يرضى بما عنده ولا يسأل ، والمعتّر الذى يتعرّض لك ولا يسألك . وقرأ الحسن : « والمعتري » ومعناه كمعنى المعتّر ومنه قول زهير :

على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل

يقال : اعتره واعتراه وعره وعراه : إذا تعرّض لما عنده أو طلبه ، ذكر النحاس ﴿ كذلك سخروناها لكم ﴾ أى مثل ذلك التسخير البديع سخروناها لكم ، فصارت تنقاد لكم إلى مواضع

نحرها فتنحرونها ، وتتفعلون بها بعد أن كانت مسخرة للحمل عليها والركوب على ظهرها والحلب لها ونحو ذلك ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ هذه النعمة التي أنعم الله بها عليكم .

﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ﴾ أى لن يصعد إليه ولا يبلغ رضاه ولا يقع موقع القبول منه لحوم هذه الإبل التي تتصدقون بها ولا دماؤها التي تنصب عند نحرها من حيث إنها لحوم ودماء ﴿ ولكن يناله ﴾ أى يبلغ إليه تقوى قلوبكم ، ويصل إليه إخلاصكم له وإرادتكم بذلك وجهه ، فإن ذلك هو الذى يقبله الله ويجازى عليه . وقيل : المراد : أصحاب اللحوم والدماء ، أى لن يرضى المضحون والمتقربون إلى ربهم باللحوم والدماء ، ولكن بالتقوى . قال الزجاج : أعلم الله أن الذى يصل إليه تقواه وطاعته فيما يأمر به ، وحقيقة معنى هذا الكلام تعود إلى القبول ، وذلك أن ما يقبله الإنسان يقال : قد ناله ووصل إليه ، فخاطب الله الخلق كعادته فى مخاطبتهم ﴿ كذلك سخرها لكم ﴾ كرّر هذا للتذكير ، ومعنى ﴿ لتكبروا الله على ما هداكم ﴾ هو قول الناحر : الله أكبر عند النحر ، فذكر فى الآية الأولى الأمر بذكر اسم الله عليها . وذكر هنا التكبير للدلالة على مشروعية الجمع بين التسمية والتكبير . وقيل : المراد بالتكبير : وصفه سبحانه بما يدل على الكبرياء ، ومعنى ﴿ على ما هداكم ﴾ : على ما أرشدكم إليه من عملكم بكيفية التقرب بها ، « وما » مصدرية ، أو موصولة ﴿ وبشر المحسنين ﴾ قيل : المراد بهم : المخلصون . وقيل : الموحدون . والظاهر أن المراد بهم : كل من يصدر منه من الخير ما يصح به إطلاق اسم المحسن عليه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عبد الله بن عمر قال : لا نعلم البدن إلا من الإبل والبقر . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : البدن : ذات الجوف . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : ليس البدن إلا من الإبل . وأخرجوا عن الحكم نحوه . وأخرجوا عن عطاء نحو ما قال ابن عمر . وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن نحوه أيضاً . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن يعقوب الرباحى عن أبيه قال : أوصى إلى رجل ، وأوصى ببذنة ، فأتيت ابن عباس فقلت له : إن رجلاً أوصى إلى وأوصى ببذنة ، فهل تجزئ عني بقرة ؟ قال : نعم ، ثم قال : ممن صاحبكم ؟ فقلت : من بنى رباح ، فقال : ومتى اقتنى بنو رباح البقر إلى الإبل ؟ وهم صاحبكم ، إنما البقر لأسد وعبد القيس . وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا فى الأضاحى ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن أبي ظبيان قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ قال : إذا أردت أن تنحر البذنة فأقمها على ثلاث قوائم معقولة ، ثم قل : بسم الله والله أكبر . وأخرج الفريابى وأبو عبيد وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ صواف ﴾ قال : قياماً معقولة ، وفى الصحيحين وغيرهما عنه أنه رأى رجلاً قد أناخ بدنته وهو ينحرها ، فقال : ابعثها قياماً مقيدة سنة محمد ﷺ . وأخرج أبو

عبدة وعبد بن حميد وابن المنذر عن ميمون بن مهران قال : فى قراءة ابن مسعود : « صوافن »
يعنى : قيامًا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ فَإِذَا وَجِبت ﴾ قال : سقطت على جنبها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : نحرت . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا قال : ﴿ الْقَانع ﴾ : المتعفف ﴿ والمعتز ﴾ : السائل . وأخرج ابن أبى شيبه عن ابن عمر قال : القانع الذى يقنع بما آتته . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : القانع : الذى يقنع بما أوتى ، والمعتز : الذى يعترض . وأخرج عنه أيضًا قال : القانع الذى يجلس فى بيته . وأخرج عبد بن حميد ، والبيهقى فى سنته عنه ، أنه سئل عن هذه الآية ، فقال : أما القانع : فالقانع بما أرسلت إليه فى بيته ، والمعتز : الذى يعترك . وأخرج ابن المنذر عنه أيضًا قال : القانع : الذى يسأل ، والمعتز : الذى يتعرض ، ولا يسأل . وقد روى عن التابعين فى تفسير هذه الآية أقوال مختلفة ، والمرجع المعنى اللغوى ، لا سيما مع الاختلاف بين الصحابة ومن بعدهم فى تفسير ذلك . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان المشركون إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء فينضحون بها الكعبة ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ، فأنزل الله : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج نحوه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (٣٨) أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتِ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) ﴿

قرأ أبو عمرو وابن كثير : « يدفع » وقرأ الباقون : ﴿ يدفع ﴾ وصيغة المفاعلة هنا مجردة عن معناها الأصلية ، وهو وقوع الفعل من الجانبين كما تدل عليه القراءة الأخرى . وقد ترد هذه الصيغة ولا يراد بها معناها الأصلية كثيراً مثل : عاقبت اللصّ ونحو ذلك ، وقد قدمنا تحقيقه . وقيل : إن إيراد هذه الصيغة هنا للمبالغة . وقيل للدلالة على تكرار الواقع . والمعنى : يدافع عن المؤمنين غوائل المشركين . وقيل : يعلى حجّتهم . وقيل : يوفقهم . والجملة مستأنفة لبيان هذه المزية الحاصلة للمؤمنين من رب العالمين ، وأنه المتولى للمدافعة عنهم ، وجملة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ مقررة لمضمون الجملة الأولى ، فإن المدافعة من الله لهم عن عبادة المؤمنين مشعرة أتم إشعار بأنهم مبغضون إلى الله غير محبوبين له . قال الزجاج : من ذكر غير اسم الله وتقرّب إلى الأصنام بذبيحته فهو خوّان كفور ، وإيراد صيغتي المبالغة للدلالة على

على أنهم كذلك فى الواقع لا لإخراج من خان دون خيانتهم ، أو كفر دون كفرهم .
﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ قرئ : « أذن » مبنيًا للفاعل ومبنيًا للمفعول وكذلك « يقاتلون » ، قرئ مبنيًا للفاعل ومبنيًا للمفعول ، وعلى كلا القراءتين فالإذن من الله سبحانه لعباده المؤمنين بأنهم إذا صلحوا للقتال ، أو قاتلهم المشركون قاتلوهم . قال المفسرون : كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بألستهم وأيديهم ، فيشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فيقول لهم : « اصبروا فإنى لم أومر بالقتال ، حتى هاجر » فأنزل الله سبحانه هذه الآية بالمدينة^(١) ، وهى أول آية نزلت فى القتال . وهذه الآية مقررّة أيضاً لمضمون قوله : ﴿ إن الله يدافع ﴾ فإن إباحة القتال لهم هى من جملة دفع الله عنهم ، والباء فى : ﴿ بأنهم ظلموا ﴾ للسببية ، أى بسبب أنهم ظلموا بما كان يقع عليهم من المشركين من سب وضرب وطرده . ثم وعدهم سبحانه النصر على المشركين ، فقال : ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ وفيه تأكيد لما مرّ من المدافعة أيضاً .

ثم وصف ولأء المؤمنين بقوله : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ ويجوز أن يكون بدلا من الذين يقاتلون ، أو فى محل نصب على المدح ، أو محل رفع بإضمار مبتدأ ، والمراد بالديار : مكة ﴿ إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ قال سيويه : هو استثناء منقطع ، أى لكن لقولهم : ربنا الله أى أخرجوا بغير حق يوجب إخراجهم لكن لقولهم : ربنا الله . وقال الفراء والزجاج : هو استثناء متصل ، والتقدير : الذين أخرجوا من ديارهم بلا حق إلا بأن يقولوا : ربنا الله ، فيكون مثل قوله سبحانه : ﴿ هل تنقمون^(٢) منا إلا أن آمنّا بالله ﴾ [المائدة : ٥٩] .
وقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

﴿ ولولا دفع الله الناس ﴾ قرأ نافع : « ولولا دفاع » وقرأ الباقون : ﴿ ولولا دفع ﴾ والمعنى : لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك ، وذهبت مواضع العبادة من الأرض ، ومعنى ﴿ لهدمت ﴾ : لخربت باستيلاء أهل الشرك على أهل الملل . فالصوامع : هى صوامع الرهبان . وقيل : صوامع الصابئين . والبيع : جمع بيعة ، وهى كنيسة النصارى ، والصلوات : هى كنائس اليهود ، واسمها بالعبرانية صلوثا بالمثلثة فعربت ، والمساجد هى مساجد المسلمين . وقيل : المعنى : لولا هذا الدفع لهدمت فى زمن موسى الكنائس ، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفى زمن محمد المساجد . قال ابن عطية : هذا أصوب ما قيل فى تأويل الآية . وقيل : المعنى : ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة . وقيل : لولا دفع الله العذاب بدعاء الأخيار . وقيل غير ذلك . والصوامع : جمع صومعة ،

(١) القرطبي بمعناه ٤٤٦٠ / ٧ .

(٢) فى المخطوطة : « وما تنقمون » ، وقد سقط من المطبوعة لفظ الجلالة .

وهى بناء مرتفع، يقال : صمغ الثريدة : إذا رفع رأسها ، ورجل أصمغ القلب ، أى حاد الفطنة ، والأصمغ من الرجال : الحديد القول . وقيل : الصغير الأذن . ثم استعمل فى المواضع التى يؤذن عليها فى الإسلام ، وقد ذكر ابن عطية فى ﴿ صلوات ﴾ تسع قراءات ، ووجه تقديم مواضع عبادات أهل الملل على موضع عبادة المسلمين كونها أقدم بناء وأسبق وجوداً . والظاهر من الهدم المذكور معناه الحقيقي كما ذكره الزجاج وغيره . وقيل : المراد به المعنى المجازى ، وهو تعطلها من العبادة ، وقرئ : ﴿ لهدمت ﴾ بالتشديد ، وانتصاب ﴿ كثيراً ﴾ فى قوله : ﴿ يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى ذكراً كثيراً ، أو وقتاً كثيراً ، والجملة صفة للمساجد . وقيل : لجميع المذكورات .

﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ اللام هى جواب لقسم محذوف ، أى والله لينصر الله من ينصره ، والمراد بمن ينصر الله : من ينصر دينه وأوليائه . والقوى : القادر على الشيء ، والعزیز : الجليل الشريف قاله الزجاج . وقيل : الممتنع الذى لا يرام ولا يدافع ولا يمانع ، والموصول فى قوله : ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض ﴾ فى موضع نصب صفة لمن فى قوله : ﴿ من ينصره ﴾ قاله الزجاج . وقال غيره : هو فى موضع جر صفة لقوله : ﴿ للذين يقاتلون ﴾ . وقيل : المراد بهم : المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان . وقيل : أهل الصلوات الخمس . وقيل : ولادة العدل . وقيل غير ذلك ، وفيه إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على من مكنته الله فى الأرض وأقدره على القيام بذلك ، وقد تقدّم تفسير الآية ، ومعنى ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ : أن مرجعها إلى حكمه وتديبره دون غيره .

وقد أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن ماجة والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : لما أخرج النبى ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ليهلكن القوم ، فنزلت : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ الآية (١) . قال ابن عباس : وهى أول آية نزلت فى القتال . قال الترمذى : حسن ، وقد رواه غير واحد عن الثورى ، وليس فيه ابن عباس . انتهى . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ أى من مكة إلى المدينة بغير حق ، يعنى محمداً ﷺ وأصحابه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان قال : فىنا نزلت هذه الآية : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ والآية بعدها ، أخرجنا من ديارنا بغير حق ، ثم مكنا فى الأرض فأقمنا (٢) الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر فهى لى

(١) أحمد ٢١٦/١ والترمذى فى التفسير (١٣٧١) وقال : « هذا حديث حسن » والنسائى فى التفسير (٣٦٥)

وإسناده صحيح ، وابن جرير ١٢٣/٧ وابن حبان (٤٦٩٠) والطبرانى (١٢٣٣٦) وصححه الحاكم ٦٦/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٥٧٩/٢ .

(٢) فى المخطوطة : « ثم مكناهم فى أرض أقمنا الصلاة » ، والصحيح ما أثبتناه حتى يستقيم المعنى .

ولأصحابي .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب قال : إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب محمد : ﴿ ولولا دفع الله الناس ﴾ الآية . قال : لولا دفع الله بأصحاب محمد عن التابعين لهدمت صوامع . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لهدمت صوامع ﴾ الآية قال : الصوامع : التي تكون فيها الرهبان ، والبيع : مساجد اليهود ، وصلوات : كنائس النصارى ، والمساجد : مساجد المسلمين . وأخرج عنه قال : البيع : بيع النصارى ، وصلوات : كنائس اليهود . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ﴾ قال : أرض المدينة ﴿ أقاموا الصلاة ﴾ قال : المكتوبة ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ قال : المفروضة ﴿ وأمروا بالمعروف ﴾ قال : بلا إله إلا الله ﴿ ونهوا عن المنكر ﴾ قال : عن الشرك بالله ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ قال : وعند الله ثواب ما صنعوا .

﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِثْرٍ مُعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ (٤٥) أَلْقَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) ﴾

قوله : ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ ﴾ إلخ هذه تسليّة لرسول الله ﷺ وتعزية له متضمنة للوعد له بإهلاك المكذبين له كما أهلك سبحانه المكذبين لمن كان قبله . وفيه إرشاد له ﷺ إلى الصبر على قومه والافتداء بمن قبله من الأنبياء في ذلك ، وقد تقدم ذكر هذه الأمم وما كان منهم ومن أنبيائهم وكيف كانت عاقبتهم . وإنما غير النظم في قوله : ﴿ وكذب موسى ﴾ فجاء بالفعل مبيّنًا للمفعول ؛ لأن قوم موسى لم يكذبوه وإنما كذبه غيرهم من القبط ﴿ فأمليت للكافرين ﴾ أى أخرت عنهم العقوبة وأمهلتهم والفاء لترتيب الإمهال على التكذيب ﴿ ثم أخذتهم ﴾ أى أخذت كل فريق من المكذبين بالعذاب بعد انقضاء مدة الإمهال ﴿ فكيف كان نكير ﴾ هذا

الاستفهام للتقرير ، أى فانظر كيف كان إنكارى عليهم وتغيير ما كانوا فيه من النعم وإهلاكهم ، والنكير : اسم من المنكر . قال الزجاج : أى ثم أخذتهم فأنكرت أبلغ إنكار . قال الجوهري : النكير والإنكار : تغيير المنكر .

ثم ذكر سبحانه كيف عذب أهل القرى المكذبة فقال : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها ﴾ أى أهلكنا أهلها ، وقد تقدم الكلام على هذا التركيب فى آل عمران ، وقرئ : « أهلكتها » ، وجملة : ﴿ وهى ظالمة ﴾ حالية ، وجملة : ﴿ فهى خاوية ﴾ عطف على ﴿ أهلكناها ﴾ ، لا على ﴿ ظالمة ﴾ لأنها حالية ، والعذاب ليس فى حال الظلم ، والمراد بنسبة الظلم إليها نسبته إلى أهلها . والخواء : بمعنى السقوط فهى ساقطة ﴿ على عروشها ﴾ أى على سقوفها ، وذلك بسبب تعطل سكانها حتى تهدمت فسقطت حيطانها فوق سقوفها ، وقد تقدم تفسير هذه الآية فى البقرة ﴿ وبئر معطلة ﴾ معطوف على قرية ، والمعنى : وكم من أهل قرية ، ومن أهل بئر معطلة ، هكذا قال الزجاج . وقال الفراء : إنه معطوف على عروشها . والمراد بالمعطلة : المتروكة . وقيل : الخالية عن أهلها لهلاكهم . وقيل الغائرة . وقيل : معطلة من الدلاء والأرشية . والقصر المشيد هو : المرفوع البنيان ، كذا قال قتادة والضحاك ، يدلّ عليه قول عدى ابن زيد :

شاده مرمراً وجلله كلسا فاللطير فى ذراه وكور

شاده : أى رفعه . وقال سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومجاهد : المراد بالمشيد : المجصص ، مأخوذ من الشيد ، وهو الجصص ، ومنه قول الراجز :

لا تحسبنى وإن كنت امرأ غمرأ كحبة الماء بين الطين والشيد

وقيل : المشيد : الحصين ، قاله الكلبي . قال الجوهري : المشيد : المعمول بالمشيد ، والشيد ، بالكسر : كلّ شئ طليت به الحائط من جصّ أو بلاط ، وبالفتح المصدر ، تقول : شاده يشيده جصصه ، والمشيد بالتشديد : المطوّل ، قال الكسائي : للواحد من قوله تعالى : ﴿ فى بروج مشيدة ﴾ [النساء : ٧٨] والمعنى المعنى كم من قصر مشيد معطل مثل البئر المعطلة ومعنى التعطيل فى القصر هو : أنه معطل من أهله ، أو من آلاته ، أو نحو ذلك . قال القرطبي فى تفسيره : ويقال : إن هذه البئر والقصر بحضرموت معروفان ، فالقصر مشرف على قلة جبل لا يرتقى إليه بحال ، والبئر فى سفحه لا تقرّ الريح شيئاً سقط فيها إلا أخرجته ، وأصحاب القصر ملوك الحضر ، وأصحاب البئر ملوك البدو . حكى الثعلبي وغيره : أن البئر كان بعدن من اليمن فى بلد يقال لها : حضوراء ، نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ونجوا من العذاب ومعهم صالح فمات صالح ، فسمى المكان حضر موت ؛ لأن صالحاً لما حضره مات فبنوا حضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلاً ، ثم ذكر قصة طويلة ، وقال بعد ذلك : وأما القصر المشيد فقصر بناه شداد بن عاد بن إرم ، لم يبن فى الأرض مثله فيما ذكروا

وزعموا ، وحاله أيضاً كحال هذه البئر المذكورة فى إيحاشه بعد الأنس ، وإقفاره بعد العمران ، وإن أحداً لا يستطيع أن يدنو منه على أميال ، لما يسمع فيه من عزيف الجن والأصوات المنكرة بعد النعيم والعيش الرغد وبهاء الملك ، وانتظام الأهل كالسلك فبادوا وما عادوا ، فذكرهم الله سبحانه فى هذه الآية موعظة وعبرة . قال : وقيل : إنهم الذين أهلكهم بختنصر على ما تقدم فى سورة الأنبياء فى قوله : ﴿ وكم قصمنا من قرية ﴾ [الأنبياء : ١١] . فتعطلت بثرهم وخربت قصورهم . انتهى .

ثم أنكر سبحانه على أهل مكة اعتبارهم بهذه الآثار قائلاً : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض ﴾ حثاً لهم على السفر ليروا مصارع تلك الأمم فيعتبروا ، ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ولم يعتبروا ، فلماذا أنكر عليهم ، كما فى قوله : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] . ومعنى ﴿ فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ : أنهم بسبب ما شاهدوا من العبر تكون لهم قلوب يعقلون بها ما يجب أن يتعقلوه وأسند التعقل إلى القلوب لأنها محل العقل . كما أن الأذان محل السمع . وقيل : إن العقل محله الدماغ ولا مانع من ذلك ، فإن القلب هو الذى يبعث على إدراك العقل وإن كان محله خارجاً عنه . وقد اختلف علماء المعقول فى محل العقل وماهيته اختلافاً كثيراً لا حاجة إلى التطويل بذكره ﴿ أو آذان يسمعون بها ﴾ أى ما يجب أن يسمعه مما تلاه عليهم أنبياءهم من كلام الله ، وما نقله أهل الأخبار إليهم من أخبار الأمم المهلكة ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ﴾ قال الفراء : الهاء عماد يجوز أن يقال : فإنه ، وهى قراءة عبد الله بن مسعود ، والمعنى واحد ، التذكير على الخبر ، والتأنيث على الأبصار أو القصة ، أى فإن الأبصار لا تعمى ، أو فإن القصة لا تعمى الأبصار ، أى أبصار العيون ﴿ ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ أى ليس الخلل فى مشاعرهم ، وإنما هو فى عقولهم أى لا تدرك عقولهم مواطن الحق ومواقع الاعتبار . قال الفراء والزجاج : إن قوله : ﴿ التى فى الصدور ﴾ من التوكيد الذى تزيده العرب فى الكلام كقوله : ﴿ عشرة كاملة ﴾ [البقرة : ١٩٦] ، ﴿ يقولون بأفواههم ﴾ [المائدة : ٤١] ، ﴿ يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

ثم حكى سبحانه عن هؤلاء ما كانوا عليه من التكذيب والاستهزاء فقال : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ لأنهم كانوا منكبين لمجيئه أشد إنكار ، فاستعجالهم له ، هو على طريقة الاستهزاء والسخرية ، وكأنهم كانوا يقولون ذلك عند سماعهم لما تقوله الأنبياء عن الله سبحانه من الوعد منه عز وجل بوقوعه عليهم وحلوله بهم ، ولهذا قال : ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ قال الفراء : فى هذه الآية وعيد لهم بالعذاب فى الدنيا والآخرة . وذكر الزجاج وجهاً آخر فقال : اعلم أن الله لا يفوته شئ ، وإن يوماً عنده وألف سنة فى قدرته واحد ، ولا فرق بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره فى القدرة ، إلا أن الله تفضل بالإمهال . انتهى . ومحل جملة : ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ النصب على الحال ، أى والحال أنه لا يخلف وعده أبداً ،

وقد سبق الوعد فلا بد من مجيئه حتما ، أو هي اعتراضية مبينة لما قبلها ، وعلى الأول تكون جملة : ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ مستأنفة ، وعلى الثاني تكون معطوفة على الجملة التي قبلها مسوقة لبيان حالهم في الاستعجال ، وخطابهم في ذلك ببيان كمال حلمه ، لكون المدة القصيرة عنده كالمدة الطويلة عندهم كما في قوله : ﴿ إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريباً ﴾ [المعارج : ٦ ، ٧] . قال الفراء : هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم في الآخرة ، أى يوم من أيام عذابهم في الآخرة كألف سنة . وقيل : المعنى : وإن يوماً من الخوف والشدة في الآخرة كألف سنة من سنى الدنيا فيها خوف وشدة ، وكذلك يوم النعيم قياساً . وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي : « مما يعدون » بالتحية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله : ﴿ ويستعجلونك ﴾ وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب ، واختارها أبو حاتم .

﴿ وكأين من قرية أهلكناها وأخذناها بالمصير ﴾ : هذا إعلام منه سبحانه أنه أخذ قومًا بعد الإملاء والتأخير . قيل : وتكرير هذا مع ذكره قبله للتأكيد ، وليس بتكرار في الحقيقة ؛ لأن الأول : سيق لبيان الإهلاك مناسباً لقوله : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ ولهذا عطف بالفاء بدلا عن ذلك ؛ والثاني : سيق لبيان الإملاء مناسباً لقوله : ﴿ ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة ﴾ فكأنه قيل : وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أهملتهم حيناً ، ثم أخذتهم بالعذاب ، ومرجع الكل إلى حكى . فجملة : ﴿ وإلى المصير ﴾ تذييل لتقرير ما قبلها . ثم أمره الله سبحانه أن يخبر الناس بأنه نذير لهم بين يدي الساعة مبين لهم ما نزل إليهم ، فمن آمن وعمل صالحاً فاز بالمغفرة والرزق الكريم وهو الجنة ، ومن كان على خلاف ذلك فهو في النار ، وهم ﴿ الذين سعوا في آياتنا معاجزين ﴾ يقال : عاجزه : سابقه ، لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر ، فإذا سبقه قيل : أعجزه وعجزه ، قاله الأخفش . وقيل : معنى ﴿ معاجزين ﴾ ظانين ومقدرين أن يعجزوا الله سبحانه ويفوتوه فلا يعذبهم ، قاله الزجاج . وقيل : معاندين ، قاله الفراء .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ فهي خاوية على عروشها ﴾ قال : خربة ليس فيها أحد ﴿ وبثر معطلة ﴾ : عطلها أهلها وتركوها ﴿ وقصر مشيد ﴾ قال : شيدوه وحصنوه فهلكوا وتركوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وبثر معطلة ﴾ قال : التي تركت لا أهل لها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ﴿ وقصر مشيد ﴾ قال : هو المجصص . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عطاء نحوه . أيضاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ قال : من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال في الآية : هو يوم القيامة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة ، فقد مضى منها ستة آلاف . وأخرج

ابن عدى والديلمى عن أنس مرفوعاً نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ معجزين ﴾ قال : مراغمين . وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : مشاقين .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٥٧) .

قوله : ﴿ من رسول ولا نبي ﴾ قيل : الرسول : الذى أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عياناً ومحاورة شفاهاً ، والنبي : الذى تكون [نبوته] (١) إلهاماً أو مناماً . وقيل : الرسول : من بعث بشرع وأمر بتبليغه ، والنبي : من أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله ، ولم ينزل عليه كتاب ، ولا بدّ لهما جميعاً من المعجزة الظاهرة ﴿ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ معنى تمنى : تشهى وهياً فى نفسه ما يهواه . قال الواحدى : وقال المفسرون : معنى تمنى : تلا . قال جماعة المفسرين فى سبب نزول هذه الآية : أنه ﷺ لما شقّ عليه إعراض قومه عنه تمنى فى نفسه أن لا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه لحرصه على إيمانهم ، فكان ذات يوم جالساً فى ناد من أنديتهم وقد نزل عليه سورة : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ فأخذ يقرؤها عليهم حتى بلغ قوله : ﴿ أفرايتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : ١٩ ، ٢٠] . وكان ذلك التمنى فى نفسه ، فجرى على لسانه مما ألقاه الشيطان عليه : تلك الغرائق العلى ، وإن شفاعتها لترتجى . فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله ﷺ فى قراءته حتى ختم السورة ، فلما سجد فى آخرها سجد معه جميع من فى النادى من المسلمين والمشركين ، فتفرقت قريش مسرورين بذلك وقالوا : قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فأتاه جبريل فقال : ما صنعت ؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله ، فحزن رسول الله ﷺ وخاف خوفاً شديداً ، فأنزل الله هذه الآية ، هكذا قالوا (٢) .

ولم يصح شيء من هذا ، ولا ثبت بوجه من الوجوه ، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه ، قال الله : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه

(١) اللفظ بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة ، وقد أثبتناه من القرطبى ٤٤٧٢/٧ ، وهو ما يستقيم به المعنى .

(٢) القرطبى ٤٤٧٢/٧ .

باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ﴿ [الحاقة : ٤٤ - ٤٦] وقوله : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ [النجم : ٣] وقوله : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم ﴾ [الإسراء : ٧٤] ، فنفى المقاربة للركون فضلا عن الركون . قال البزار : هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل . وقال البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، ثم أخذ يتكلم أن رواية هذه القصة مطعون فيهم . وقال إمام الأئمة ابن خزيمة : إن هذه القصة من وضع الزنادقة . قال القاضي عياض في الشفاء : إن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه ، لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً . قال ابن كثير : قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح (١) .

وإذا تقرّر لك بطلان ذلك عرفت أن معنى ﴿ تمنى ﴾ : قرأ وتلا ، كما قدّمنا من حكاية الواحدى لذلك عن المفسرين . وكذا قال البغوى : إن أكثر المفسرين قالوا معنى ﴿ تمنى ﴾ : تلا وقرأ كتاب الله ، ومعنى ﴿ ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ أى فى تلاوته وقراءته . قال ابن جرير : هذا القول أشبه بتأويل الكلام ، ويؤيد هذا ما تقدّم فى تفسير قوله : ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ﴾ [البقرة : ٧٨] . وقيل : معنى ﴿ تمنى ﴾ : حدّث ، ومعنى ﴿ ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ : فى حديثه ، وروى هذا عن ابن عباس . وقيل معنى ﴿ تمنى ﴾ : قال . فحاصل معنى الآية : أن الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك من دون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه ، فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ ، أى لا يهولنك ذلك ولا يحزنك ، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء ، وعلى تقدير أن معنى ﴿ تمنى ﴾ : حدّث نفسه ، كما حكاه الفراء والكسائى ، فإنهما قالوا : تمنى إذا حدّث نفسه ، فالمعنى : أنه إذا حدّث نفسه بشيء تكلم به الشيطان وألقاه فى مسامع الناس من دون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه . قال ابن عطية : لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة وقعت بها الفتنة . وقد قيل فى تأويل الآية : إن المراد بالغرانيق : الملائكة ، ويردّ بقوله : ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ أى يبطله ، وشفاعة الملائكة غير باطلة . وقيل : إن ذلك جرى على لسانه ﷺ سهواً ونسياناً وهما مجوّزان على الأنبياء ، ويردّ بأن السهو والنسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز كما هو مقرّر فى مواطنه ، ثم لما سلاه الله سبحانه بهذه التسلية وأنها قد وقعت لمن قبله من الرسل والأنبياء بين سبحانه أنه يبطل ذلك ولا يثبت ولا يستمر تغرير الشيطان به فقال : ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ أى يبطله ويجعله ذاهباً غير ثابت ﴿ ثم يحكم الله آياته ﴾ أى يثبتها ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أو كثير العلم والحكمة فى كل أقواله وأفعاله .

وجملة : ﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة ﴾ للتعليل ، أى ذلك الإلقاء الذى يلقيه الشيطان فتنة ، أى ضلالة ﴿ للذين فى قلوبهم مرض ﴾ أى شك ونفاق ﴿ والقاسية قلوبهم ﴾ : هم المشركون ، فإن قلوبهم لا تلين للحق أبداً ولا ترجع إلى الصواب بحال ، ثم سجل سبحانه على هاتين الطائفتين : وهما : من فى قلبه مرض ، ومن فى قلبه قسوة ، بأنهم ظالمون فقال : ﴿ وإن الظالمين لفى شقاق بعيد ﴾ أى عداوة شديدة ، ووصف الشقاق بالبعد مبالغة ، والموصوف به فى الحقيقة من قام به .

ولما بين سبحانه أن ذلك الإلقاء كان فتنة فى حق أهل النفاق والشك والشرك بين أنه فى حق المؤمنين العالمين بالله العارفين به سبب لحصول العلم لهم بأن القرآن حق وصدق فقال : ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك ﴾ أى الحق النازل من عنده . وقيل : إن الضمير فى ﴿ أنه ﴾ راجع إلى تمكين الشيطان من الإلقاء ، لأنه مما جرت به عادته مع أنبيائه ، ولكنه يردّ هذا قوله : ﴿ فيؤمنوا به ﴾ فإن المراد : الإيمان بالقرآن ، أى يثبتوا على الإيمان به ﴿ فتخبت له قلوبهم ﴾ أى تخشع وتسكن وتنقاد ، فإن الإيمان به وإخبات القلوب له لا يمكن أن يكونا تمكين من الشيطان بل للقرآن ﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا ﴾ فى أمور دينهم ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ أى طريق صحيح لا عوج به . وقرأ أبو حيوة : « وإن الله لهاد الذين آمنوا » بالتثوين .

﴿ ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه ﴾ أى فى شك من القرآن . وقيل : فى الدين الذى يدل عليه ذكر الصراط المستقيم . وقيل : فى إلقاء الشيطان ، فيقولون : ما باله ذكر الأصنام بخير ثم رجع عن ذلك ؟ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى : « فى مرية » بضم الميم ﴿ حتى تأتاهم الساعة ﴾ أى القيامة ﴿ بغتة ﴾ أى فجأة ﴿ أو يأتاهم عذاب يوم عقيم ﴾ وهو يوم القيامة ؛ لأنه لا يوم بعده ، فكان بهذا الاعتبار عقيماً ، والعقيم فى اللغة : من لا يكون له ولد ، ولما كانت الأيام تتوالى جعل ذلك كهيئة الولادة ، ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم ، وصف بالعقم . وقيل : يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر . وقيل : إن اليوم وصف بالعقم ، لأنه لا رافة فيه ولا رحمة ، فكأنه عقيم من الخير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ [الذاريات: ٤١] أى التى لا خير فيها ولا تأتى بمطر .

﴿ الملك يومئذ لله ﴾ أى السلطان القاهر والاستيلاء التام : يوم القيامة لله سبحانه وحده لا منازع له فيه ولا مدافع له عنه ، وجملة : ﴿ يحكم بينهم ﴾ مستأنفة جواباً عن سؤال مقدّر ، ثم فسر هذا الحكم بقوله سبحانه : ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم ﴾ أى كائنون فيها مستقرّون فى أرضها منغمسون فى نعيمها ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أى جمعوا بين الكفر بالله والتكذيب بآياته ﴿ فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ أى عذاب متصف بأنه مهين للمعذّبين بالغ منهم المبلغ العظيم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن الأبارى فى المصاحف ، عن عمرو بن دينار قال : كان ابن

عباس يقرأ : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث » . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مثله ، وزاد : فنسخت محدث ، قال : والمحدثون : صاحب يس و لقمان ، ومؤمن آل فرعون ، وصاحب موسى . وأخرج البزار والطبراني وابن مردويه ، والضياء في المختارة ، قال السيوطي : بسند رجاله ثقات ، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إن رسول الله ﷺ قرأ : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرائق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » . ففرح المشركون بذلك وقالوا : قد ذكر آلهتنا ، فجاءه جبريل فقال : اقرأ على ما جئت به ، فقرأ : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرائق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » ، فقال : ما أتيتك بهذا ، هذا من الشيطان ، فأنزل الله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ﴾ الآية (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، قال السيوطي : بسند صحيح ، عن سعيد بن جبير ، قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم ، فذكر نحوه (٢) ، ولم يذكر ابن عباس . وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية والسدي عن سعيد مرسلًا . ورواه عبد بن حميد عن السدي عن أبي صالح مرسلًا . ورواه ابن أبي حاتم عن ابن شهاب مرسلًا . وأخرج ابن جرير عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام نحوه مرسلًا أيضًا . والحاصل : أن جميع الروايات في هذا الباب إما مرسلة أو منقطعة لا تقوم الحجة بشيء منها . وقد أسلفنا عن الحفاظ في أول هذا البحث ما فيه كفاية ، وفي الباب روايات من أحب الوقوف على جميعها فلينظرها في الدر المنثور للسيوطي ، ولا يأتي التطويل بذكرها هنا بفائدة ، فقد عرفناك أنها جميعها لا تقوم بها الحجة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ حتى إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ يقول : إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك ، قال : يعنى بالتمنى التلاوة والقراءة ، ألقى الشيطان في أمنيته : في تلاوته ﴿ فينسخ الله ﴾ فينسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان على لسان النبي . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد : ﴿ إذا تمنى ﴾ قال : تكلم ﴿ في أمنيته ﴾ قال : كلامه . وأخرج ابن مردويه ، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله : ﴿ عذاب يوم عقيم ﴾ قال : يوم بدر . وأخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير : ﴿ عذاب يوم عقيم ﴾ ، قال : يوم بدر . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير وعكرمة مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : يوم القيامة لا ليلة له . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الضحاك مثله .

(١) الطبراني (١٢٤٥٠) .

(٢) ابن جرير ١٧ / ١٣٣ .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٥٨) لَيَدْخُلْنَهُمْ مَدْخَلَ يُرْضُونَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ۞

أفرد سبحانه المهاجرين بالذكر تخصيصاً لهم بمزيد الشرف ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قال بعض المفسرين : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة . وقال بعضهم : الذين هاجروا من الأوطان في سرية أو عسكر ، ولا يبعد حمل ذلك على الأمرين ، والكل من سبيل الله ﴿ ثم قتلوا أو ماتوا ﴾ أى في حال المهاجرة ، واللام في ﴿ ليرزقنهم الله رزقا حسنا ﴾ جواب قسم محذوف ، والجملة خبر الموصول بتقدير القول ، وانتصاب ﴿ رزقا ﴾ على أنه مفعول ثان ، أى مرزوقاً حسناً ، أو على أنه مصدر مؤكدة ، والرزق الحسن : هو نعيم الجنة الذى لا ينقطع . وقيل : هو الغنيمة لأنه حلال . وقيل : هو العلم والفهم كقول شعيب : ﴿ ورزقنى منه رزقا حسنا ﴾ [هود : ٨٨] . قرأ ابن عامر وأهل الشام : « ثم قتلوا » بالتشديد على التكرير ، وقرأ الباقون بالتخفيف ﴿ وإن الله لهو خير الرازقين ﴾ فإنه سبحانه يرزق بغير حساب ، وكل رزق يجرى على يد العباد لبعضهم البعض ، فهو منه سبحانه ، لا رازق سواه ولا معطى غيره ، والجملة تذييل مقرر لما قبلها .

وجملة : ﴿ ليدخلنهم مدخلا يرضونه ﴾ مستأنفة ، أو بدل من جملة : ﴿ ليرزقنهم الله ﴾ . قرأ أهل المدينة : « مدخلا » بفتح الميم ، وقرأ الباقون بضمها ، وهو اسم مكان أريد به الجنة ، وانتصابه على أنه مفعول ثانٍ أو مصدر ميمى مؤكد للفعل المذكور ، وقد مضى الكلام على مثل هذا فى سورة سبحان . وفى هذا من الامتنان عليهم والتبشير لهم ما لا يقادر قدره ، فإن المدخل الذى يرضونه هو الأوفق لنفوسهم والأقرب إلى مطلبهم ، على أنهم يرون فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وذلك هو الذى يرضونه وفوق الرضا ﴿ وإن الله لعليم ﴾ بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم ﴿ حلیم ﴾ عن تفريط المفرطين منهم لا

يعاجلهم بالعقوبة .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم . قال الزجاج أى الأمر ما قصصنا عليكم من إنجاز الوعد للمهاجرين خاصة إذا قتلوا أو ماتوا ، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف ، ومعنى ﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾ : من جازى الظالم بمثل ما ظلمه . وسمى الابتداء باسم الجزاء مشاكلة كقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى : ٤٠] . وقوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ [البقرة : ١٩٤] . والعقوبة فى الأصل إنما تكون بعد فعل تكون جزاء عنه . والمراد بالمثلية : أنه اقتصر على المقدار الذى ظلم به ولم يزد عليه ، ومعنى ﴿ ثم بغى عليه ﴾ : أن الظالم له فى الابتداء عاوده بالمظلمة بعد تلك المظلمة الأولى . قيل : المراد بهذا البغى : هو ما وقع من المشركين من إزعاج المسلمين من أوطانهم بعد أن كذبوا نبيهم وآذوا من آمن به ، واللام فى ﴿ ينصرنه الله ﴾ جواب قسم محذوف ، أى لينصرن الله المبغى عليه على الباغى ﴿ إن الله لعفوٌ غفور ﴾ أى كثير العفو والغفران للمؤمنين فيما وقع منهم من الذنوب . وقيل : العفو والغفران لما وقع من المؤمنين من ترجيح الانتقام على العفو . وقيل : إن معنى ﴿ ثم بغى عليه ﴾ أى ثم كان المجازى مبغياً عليه ، أى مظلوماً ، ومعنى ثم : تفاوت الرتبة ، لأن الابتداء بالقتال معه نوع ظلم كما قيل فى أمثال العرب : البادى أظلم . وقيل : إن هذه الآية مدنية ، وهى فى القصاص والجراحات .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ﴾ إلى ما تقدّم من نصر الله سبحانه للمبغى عليه ، وهو مبتدأ وخبره جملة : ﴿ بأن الله يولج ﴾ والباء للسببية ، أى ذلك بسبب أنه سبحانه قادر ، ومن كمال قدرته إيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل ، وعبر عن الزيادة بالإيلاج ، لأن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر ، والمراد تحصيل أحد العرضين فى محل الآخر . وقد مضى فى آل عمران معنى هذا الإيلاج ﴿ وأن الله سميع ﴾ يسمع كلّ مسموع ﴿ بصير ﴾ يبصر كلّ مبصر ، أو سميع للأقوال مبصر للأفعال ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ إلى ما تقدم من اتصافه سبحانه بكمال القدرة الباهرة والعلم التام ، أى هو سبحانه ذو الحق ، دينه حق ، وعبادته حق ؛ ونصره لأوليائه على أعدائه حق ، ووعدته حق ، فهو عزّ وجلّ فى نفسه وأفعاله وصفاته حقّ ﴿ وأن ما تدعون من دونه هو الباطل ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة « تدعون » بالفوقية على الخطاب للمشركين ، واختار هذه القراءة أبو حاتم . وقرأ الباقون بالتحية على الخبر ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة . والمعنى : إن الذين تدعونهم إلهاً ، وهى الأصنام ، هو الباطل الذى لا ثبوت له ولا لكونه إلهاً ﴿ وأن الله هو العلى ﴾ أى العالى على كل شىء بقدرته المتقدّس على الأشباه والأنداد المنتزه عما يقول الظالمون من الصفات ﴿ الكبير ﴾ أى ذو الكبرياء ، وهو عبارة عن كمال ذاته وتفرّده بالإلهية .

ثم ذكر سبحانه دليلاً بيناً على كمال قدرته ، فقال : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ﴾ الاستفهام للتقرير ، والفاء للعطف على ﴿ أنزل ﴾ وارتفع الفعل بعد الفاء لكون استفهام التقرير بمنزلة الخبر كما قاله الخليل وسيبويه . قال الخليل : المعنى أنزل من السماء ماء فكان كذا وكذا ، كما قال الشاعر :

ألم تسأل الربيع القواء فينطق وهل يخبرنك اليوم ببدء سملق

معناه : قد سألته فنطق . قال الفراء : ﴿ ألم تر ﴾ خبر ، كما تقول في الكلام : إن الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ، أى ذات خضرة كما تقول مبقلة ومسبعة ، أى ذوات بقل وسباع ، وهو عبارة عن استعجالها أثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة ، وصيغة الاستقبال ، لاستحضار صورة الاخضرار مع الإشعار بتجدد الإنزال واستمراره ، وهذا المعنى لا يحصل إلا بالمستقبل ، والرفع هنا متعين ؛ لأنه لو نصب لا نعكس المعنى المقصود من الآية فينقلب إلى نفى الاخضرار ، والمقصود إثباته . قال ابن عطية : هذا لا يكون ، يعنى الاخضرار فى صباح ليلة المطر ، إلا بمكة وتهامة . والظاهر أن المراد بالإخضرار اخضرار الأرض فى نفسها لا باعتبار النبات فيها كما فى قوله : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ [الحج : ٥] . والمراد بقوله : ﴿ إن الله لطيف ﴾ أنه يصل علمه إلى كل دقيق وجليل . وقيل : لطيف بأرزاق عباده . وقيل : لطيف باستخراج النبات ، ومعنى ﴿ خبير ﴾ أنه ذو خبرة بتدبير عباده وما يصلح لهم . وقيل : خبير بما ينطوون عليه من القنوط عند تأخير المطر . وقيل : خبير بحاجتهم وفاقتهم .

﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً وكلهم محتاجون إلى رزقه ﴿ وإن الله لهو الغنى ﴾ فلا يحتاج إلى شئ ﴿ الحميد ﴾ المستوجب للحمد فى كل حال . ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ﴾ هذه نعمة أخرى ذكرها الله سبحانه ، فأخبر عباده بأنه سخر لهم ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار وجعله لمنافعهم ﴿ والفلك ﴾ عطف على ما ، أو على اسم أن ، أى وسخر لكم الفلك فى حال جريها فى البحر ، وقرأ عبد الرحمن الأعرج : « والفلك » بالرفع على الابتداء وما بعده خبره ، وقرأ الباقر بالنصب . ومعنى ﴿ تجرى فى البحر بأمره ﴾ أى بتقديره ، والجملة فى محل نصب على الحال على قراءة الجمهور ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض ﴾ أى كراهة أن تقع ، وذلك بأنه خلقها على صفة مستلزمة للإمساك ، والجملة معطوفة على تجرى ﴿ إلا بإذنه ﴾ أى بإرادته ومشيئته ، وذلك يوم القيامة ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ أى كثير الرأفة والرحمة حيث سخر هذه الأمور لعباده وهياً لهم أسباب المعاش ، وأمسك السماء أن تقع على الأرض فتهلكهم تفضلاً منه على عباده وإنعاماً عليهم .

ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى فقال : ﴿ وهو الذى أحياكم ﴾ بعد أن كنتم جماداً ﴿ ثم يميتكم ﴾ عند انقضاء أعماركم ﴿ ثم يحييكم ﴾ عند البعث للحساب والعقاب ﴿ إن الإنسان

لكفور ﴿ أى كثير الجحود لنعم الله عليه مع كونها ظاهرة غير مستترة ، ولا ينافى هذا خروج بعض الأفراد عن هذا الجحد ؛ لأن المراد وصف جميع الجنس بوصف من يوجد فيه ذلك من أفراده مبالغة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن سلمان الفارسي : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من مات مرابطاً ، أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر ، وأجرى عليه الرزق ، وأمن من الفتانين ، واقرؤوا إن شئتم : ﴿ والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ﴾ إلى قوله : ﴿ حلیم ﴾ . وإسناد ابن أبى حاتم هكذا : حدثنا المسيب بن واضح . حدثنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن شريح عن عبد الكريم بن الحرث عن أبى عقبة ، يعنى أبا عبيدة بن عقبة قال : قال شرحبيل ابن السمط : طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم ، فمرّ بى سلمان : يعنى الفارسي قال : سمعت رسول الله ﷺ فذكره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن فضالة ابن عبيد الأنصارى الصحابى أنه كان برودس ، فمروا بجنازتين أحدهما قتيل والآخر متوفى ، فمال الناس عن القتل ، فقال فضالة : مالى أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا : هذا القتل فى سبيل الله ، فقال : والله ما أبالى من أى حفرتيهما بعثت اسمعوا كتاب الله ﴿ والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ﴾ الآية . وإسناده عند ابن أبى حاتم هكذا : حدثنا أبو زرعة عن زيد بن بشر أخبرنى ضمام ؛ أنه سمع أبا قبيل وربيعه بن سيف المغافرى يقولان : كنا برودس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصارى صاحب رسول الله ﷺ فذكره . قلت : ويؤيد هذا قول الله سبحانه : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ [النساء : ١٠٠] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله : ﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾ قال : إن النبى ﷺ بعث سرية فى ليلتين بقيتا من المحرم فلقوا المشركين ، فقال المشركون بعضهم لبعض : قاتلوا أصحاب محمد فإنهم يحرمون القتال فى الشهر الحرام ، وإن أصحاب محمد ناشدوهم وذكروهم بالله أن يعرضوا لقتالهم ؛ فإنهم لا يستحلون القتال فى الشهر الحرام إلا من بادأهم ، وإن المشركين بدؤوا فقاتلوهم ، فاستحلّ الصحابة قتالهم عند ذلك فقاتلوهم ونصرهم الله عليهم . وهو مرسل . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ ومن عاقب ﴾ الآية . قال : تعاون المشركون على النبى ﷺ وأصحابه فأخرجوه ، فوعده الله أن ينصره ، وهو فى القصاص أيضاً . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ وإن ما تدعون من دونه هو الباطل ﴾ قال : الشيطان . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ قال : يعدّ المصيبات وينسى النعم .

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جَادُلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَُم النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرَ (٧٢) ﴿

عاد سبحانه إلى بيان أمر التكليف مع الزجر لمعاصري رسول الله ﷺ من أهل الأديان عن منازعته فقال: ﴿ لكل أمة جعلنا منسكا ﴾ أى لكل قرن من القرون الماضية وضعنا شريعة خاصة، بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى ، وجملة : ﴿ هم ناسكوه ﴾ صفة لـ ﴿ منسكا ﴾ والضمير لكل أمة ، أى تلك الأمة هى العاملة به لا غيرها ، فكانت التوراة منسك الأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى ، والإنجيل منسك الأمة التى من مبعث عيسى إلى مبعث محمد ﷺ . والقرآن منسك المسلمين ، والمنسك : مصدر ، لا اسم مكان كما يدل عليه : ﴿ هم ناسكوه ﴾ ولم يقل: ناسكون فيه . وقيل : المنسك : موضع أداء الطاعة . وقيل: هو : الذبائح ، ولا وجه للتخصيص ، ولا اعتبار بخصوص السبب ، والفاء فى قوله : ﴿ فلا ينازعنك فى الأمر ﴾ لترتيب النهى على ما قبله ، والضمير راجع إلى الأمم الباقية آثارهم ، أى قد عينا لكل أمة شريعة ، ومن جملة الأمم هذه الأمة المحمدية ، وذلك موجب لعدم منازعة من بقى منهم لرسول الله ﷺ ومستلزم لطاعتهم إياه فى أمر الدين والنهى إما على حقيقته ، أو كناية عن نهيه ﷺ عن الالتفات إلى نزاعهم له . قال الزجاج : إنه نهى له ﷺ عن منازعتهم ، أى لا تنازعهم أنت ؛ كما تقول لا يخاصمك فلان ، أى لا تخاصمه ، وكما تقول: لا يضاربك فلان ، أى لا تضاربه ، وذلك أن المفاعلة تقتضى العكس ضمناً ، ولا يجوز : لا يضربك فلان وأنت تريد : لا تضربه . وحكى عن الزجاج أنه قال فى معنى الآية : فلا ينازعنك ، أى فلا يجادلنك . قال: ودلّ على هذا ﴿ وإن جادلوك ﴾ وقرأ أبو مجلز: « فلا يترعنك فى الأمر » أى لا يستخفنك ولا يغلبنك على دينك . وقرأ الباقون : ﴿ ينازعنك ﴾ من المنازعة ﴿ وادع إلى ربك ﴾ أى وادع هؤلاء المنازعين ، أو ادع الناس على العموم إلى دين الله وتوحيده والإيمان به ﴿ إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ أى طريق مستقيم لا اعوجاج فيه .

﴿ وإن جادلوك ﴾ أى وإن أبوا إلا الجدل بعد البيان لهم وظهور الحجة عليهم ﴿ فقل الله أعلم بما تعملون ﴾ أى فكل أمرهم إلى الله وقل لهم هذا القول المشتمل على الوعيد ﴿ الله يحكم بينكم ﴾ أى بين المسلمين والكافرين ﴿ يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ من أمر الدين فيتبين حينئذ الحق من الباطل . وفى هذه الآية تعليم لهذه الأمة بما ينبغى لهم أن يجيئوا به من أراد الجدل بالباطل . وقيل : إنها منسوخة بآية السيف .

وجملة : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها . والاستفهام للتقرير ، أى قَدْ علمت يا محمد وتيقنت ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ومن جملة ذلك ما أنتم قِيَتِه مختلفون ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ الذى فى السماء والأرض من معلوماته ﴿ فِي كِتَابٍ ﴾ أى مكتوب عنده فى أَمِّ الْكِتَابِ ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى إن الحكم منه سبحانه بين عبادِه فيما يختلفون فيه يسير عليه غير عسير ، أو إن إحاطة علمه بما فى السماء والأرض يسير عليه .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ هذا حكاية لبعض فضائحهم ، أى إنهم يعبدون أصنامًا لم يتمسكوا فى عبادتها بحجة نيرة من الله سبحانه ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ من دليل عقل يدل على جواز ذلك بوجه من الوجوه ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله ، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية فى آل عمران ، وجملة : ﴿ وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ معطوفة على يعبدون ، وانتصاب ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ على الحال ، أى حال كونها واضحات ظاهرات الدلالة ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾ أى الأمر الذى ينكر ، وهو غضبهم وعبوسهم عند سماعها ، أو المراد بالمنكر : الإنكار ، أى تعرف فى وجوههم إنكارها . وقيل : هو التجبر والترفع ، وجملة : ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : ما ذلك المنكر الذى يعرف فى وجوههم ؟ فقول : يَكَادُونَ يَسْطُونَ ، أى يبطشون ، والسطوة : شدة البطش ، يقال : سطا به يسطو إذا بطش به بضرب ، أو شتم ، أو أخذ باليد ، وأصل السطو : القهر .

وهكذا ترى أهل البدع المضلة إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز ، أو من السنة الصحيحة مخالفا لما اعتقده من الباطل والضلالة رأيت فى وجهه من المنكر ما لو تمكن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به ما لا يفعله بالمشركين ، وقد رأينا وسمعنا من أهل البدع مالا يحيط به الوصف ، والله ناصر الحق ومظهر الدين وداحض الباطل ودافع البدع وحافظ المتكلمين بما أخذه عليهم ، المبين للناس ما نزل إليهم ، وهو حسنا ونعم الوكيل .

ثم أمر رسوله أن يردّ عليهم . فقال : ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ ﴾ أى أخبركم ﴿ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ ﴾ الذى فىكم من الغيظ على من يتلو عليكم آيات الله ومقاربتكم للوثوب عليهم ، وهو النار التى أعدّها الله لكم ، فالنار مرتفعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : ما هذا الأمر الذى هو شرّ مما نكابه ونناهده عند سماعنا ما تتلوه علينا ؟ فقال : هو : ﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وقيل : إن ﴿ النَّارَ ﴾ مبتدأ وخبره جملة : ﴿ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وقيل : المعنى : أفأخبركم بشرّ مما يلحق تالى القرآن منكم من الأذى والتوعد لهم والوثوب عليهم ؟ وقرئ « النار » بالنصب على تقدير : أعنى . وقرئ بالجرّ بدلا من شر ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى الموضع الذى تصيرون إليه ، وهو النار .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ قال : يعنى : هم ذابحوه ﴿ فَلَا يَنَازَعُكَ فِي الْأَمْرِ ﴾ يعنى : فى أمر الذبح . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة

نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه أيضاً . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : ﴿ فلا ينازعنك في الأمر ﴾ قول أهل الشرك : أما ما ذبح الله يمينه فلا تأكلوه ، وأما ما ذبحتم بأيديكم فهو حلال .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : خلق الله اللوح المحفوظ لمسيرة مائة عام ، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش : اكتب ، قال : ما أكتب ؟ قال : علمى فى خلقى إلى يوم تقوم الساعة ، فجرى القلم بما هو كائن فى علم الله إلى يوم القيامة ، فذلك قوله للنبي ﷺ : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض ﴾ يعنى : ما فى السموات السبع والأراضين السبع . ﴿ إن ذلك ﴾ العلم ﴿ فى كتاب ﴾ يعنى : فى اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يخلق السموات والأراضين ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ يعنى : هين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ يكادون يسطون ﴾ : يبطشون .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (٧٨) .

قوله : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل ﴾ هذا متصل بقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا ﴾ [الحج : ٧١] قال الأخفش : ليس ثم مثل ، وإنما المعنى : ضربوا لى مثلاً ﴿ فاستمعوا ﴾ قولهم ، يعنى : أن الكفار جعلوا لله مثلاً بعبادتهم غيره ، فكأنه قال : جعلوا لى شبيهاً فى عبادتى فاستمعوا خبر هذا الشبه . وقال القتيبي : إن المعنى : يا أيها الناس ، مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذباباً ، وإن سلبها شيئاً لم تستطع أن تستنقذه منه . قال النحاس : المعنى : ضرب الله عز وجل لما يعبدونه من دونه مثلاً . قال : وهذا من أحسن ما قيل فيه ، أى بين الله لكم شبيهاً ولعبودكم . وأصل المثل : جملة من الكلام متلقة بالرضا والقبول ، مسيرة فى الناس مستغربة عندهم ، وجعلوا مضربها مثلاً لموردها ، ثم قد يستعبرونها للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة لكونها مماثلة لها فى الغرابة كهذه القصة المذكورة ، فى هذه الآية . والمراد بما يدعونه من دون الله : الأصنام التى كانت حول الكعبة وغيرها . وقيل :

المراد بهم : السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله لكونهم أهل الحلّ والعقد فيهم . وقيل : الشياطين الذين حملوهم على معصية الله ، والأوّل أوفق بالمقام وأظهر فى التمثيل ، والذباب : اسم للواحد يطلق على الذكر والأنثى ، وجمع القلة أذبة ، والكثرة ذبان مثل غراب وأغربة وغربان . وقال الجوهري : الذباب معروف ، الواحد ذبابة . والمعنى : لن يقدروا على خلقه مع كونه صغير الجسم حقير الذات ، وجملة : ﴿ ولو اجتمعوا له ﴾ معطوفة على جملة أخرى شرطية محذوفة ، أى لو لم يجتمعوا له لن يخلقوه ولو اجتمعوا له ، والجواب محذوف والتقدير : لن يخلقوه ، وهما فى محل نصب على الحال ، أى لن يخلقوه على كلّ حال .

ثم بين سبحانه كمال عجزهم وضعف قدرتهم فقال : ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ﴾ أى إذا أخذ منهم الذباب شيئا من الأشياء لا يقدرّون على تخليصه منه لكمال عجزهم وفرط ضعفهم ، والاستنقاذ والإنقاذ : التخلص ، وإذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف ، وعن استنقاذ ما أخذه عليهم ؛ فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرماً وأشدّ منه قوة ؛ أعجز وأضعف ، ثم عجب سبحانه من ضعف الأصنام والذباب ، فقال : ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ فالصنم كالطالب من حيث إنه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنقاذ ما سلبه منه ، والمطلوب : الذباب . وقيل : الطالب : عابد الصنم ، والمطلوب : الصنم . وقيل : الطالب : الذباب ، والمطلوب : الآلهة .

ثم بين سبحانه أن المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهة عاجزة إلى هذه الغاية فى العجز ، ما عرفوا الله حق معرفته فقال : ﴿ ما قدرُوا الله حق قدره ﴾ أى ما عظموه حق تعظيمه ولا عرفوه حق معرفته ، حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له مع كون حالها هذا الحال ، وقد تقدّم فى الأنعام ﴿ إن الله لقوى ﴾ على خلق كل شيء ﴿ عزيز ﴾ غالب لا يغلبه أحد ، بخلاف آلهة المشركين ، فإنها جماد لا تعقل ولا تنفع ولا تضر ولا تقدر على شيء .

ثم أراد سبحانه أن يردّ عليهم ما يعتقدونه فى النبوت والإلهيات فقال : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ﴾ كجبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل ، ويصطفى أيضاً رسلاً ﴿ من الناس ﴾ وهم الأنبياء ، فيرسل الملك إلى النبي ، والنبي إلى الناس ، أو يرسل الملك لقبض أرواح مخلوقاته ، أو لتحصيل ما ينفعهم ^(١) أو لإنزال العذاب عليهم ﴿ إن الله سميع ﴾ لأقوال عباده ﴿ بصير ﴾ بمن يختاره من خلقه ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أى ما قدّموا من الأعمال وما يتركونه من الخير والشرّ كقوله تعالى : ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ [يس : ١٢] . ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ لا إلى غيره .

ولما تضمن ما ذكره من أن الأمور ترجع إليه ، الزجر لعباده عن معاصيه ، والحضّ لهم على طاعاته ؛ صرح بالمقصود فقال : ﴿ يأيتها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾ أى صلوا الصلاة

(١) فى المخطوطة : « ينفعكم » ، والصحيح ما أثبتناه بضمير الغائب ليستقيم المعنى .

التي شرعها الله لكم ، وخص الصلاة لكونها أشرف العبادات ، ثم عمم فقال : ﴿ واعبدوا ربكم ﴾ أى افعلوا جميع أنواع العبادة التي أمركم الله بها ﴿ وافعلوا الخير ﴾ أى ما هو خير ، وهو أعم من الطاعة الواجبة والمندوبة . وقيل : المراد بالخير هنا : المندوبات . ثم علل ذلك بقوله : ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أى إذا فعلتم هذه كلها رجوتهم الفلاح . وهذه الآية من مواطن سجود التلاوة عند الشافعى ومن وافقه ، لا عند أبى حنيفة ومن قال بقوله ، وقد تقدّم أن هذه السورة فضلت بسجدين ، وهذا دليل على ثبوت السجود عند تلاوة هذه الآية .

ثم أمرهم بما هو سنام الدين وأعظم أعماله ، فقال : ﴿ وجاهدوا فى الله ﴾ أى فى ذاته ومن أجله ، والمراد به الجهاد الأكبر ، وهو الغزو للكفار ومدافعهم إذا غزوا بلاد المسلمين . وقيل : المراد بالجهاد هنا : امتثال ما أمرهم الله به فى الآية المتقدمة ، أو امتثال جميع ما أمر به ونهى عنه على العموم ، ومعنى ﴿ حق جهاده ﴾ : المبالغة فى الأمر بهذا الجهاد ؛ لأنه أضاف الحق إلى الجهاد ، والأصل إضافة الجهاد إلى الحق ، أى جهاداً خالصاً لله ، فعكس ذلك لقصد المبالغة ، وأضاف الجهاد إلى الضمير اتساعاً ، أو لاختصاصه به سبحانه من حيث كونه مفعولاً له ومن أجله . وقيل : المراد ﴿ بحق جهاده ﴾ : هو أن لا تخافوا فى الله لومة لائم . وقيل : المراد به استفرغ ما فى وسعهم فى إحياء دين الله . وقال مقاتل والكلبي : إن الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن : ١٦] كما أن قوله : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ [آل عمران : ١٠٢] منسوخ بذلك ، ورد ذلك بأن التكليف مشروط بالقدرة ، فلا حاجة إلى المصير إلى النسخ . ثم عظم سبحانه شأن المكلفين بقوله : ﴿ هو اجتباكم ﴾ أى اختاركم لدينه ، وفيه تشريف لهم عظيم . ثم لما كان فى التكليف مشقة على النفس فى بعض الحالات قال : ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ أى من ضيق وشدة .

وقد اختلف العلماء فى هذا الحرج الذى رفعه الله ، فقيل : هو ما أحله الله من النساء مثنى وثلاث ورباع وملك اليمين . وقيل : المراد : قصر الصلاة ، والإفطار للمسافر ، والصلاة بالإيماء على من لا يقدر على غيره ، وإسقاط الجهاد عن الأعرج والأعمى والمريض ، واغتفار الخطأ فى تقديم الصيام وتأخيرها لاختلاف الأهلة ، وكذا فى الفطر والأضحى . وقيل : المعنى : أنه سبحانه ما جعل عليهم حرجاً بتكليف ما يشق عليهم ، ولكن كلفهم بما يقدرون عليه ، ورفع عنهم التكالييف التى فيها حرج ، فلم يتعبد بهم بها كما تعبد بها بنى إسرائيل . وقيل : المراد بذلك : أنه جعل لهم من الذنب مخرجاً بفتح باب التوبة وقبول الاستغفار والتكفير فيما شرع فيه الكفارة والأرض ، أو القصاص فى الجنايات ، وردّ المال أو مثله أو قيمته فى الغضب ونحوه . والظاهر أن الآية أعم من هذا كله فقد حطّ سبحانه ما فيه مشقة من التكالييف على عباده : إما بإسقاطها من الأصل وعدم التكليف بها كما كلف بها غيرهم ، أو بالتخفيف وتجويز العدول إلى بدل لا مشقة فيه ، أو بمشروعية التخلص عن الذنب بالوجه الذى شرعه الله ، وما أنفع هذه الآية وأجلّ موقعها وأعظم فائدتها ، ومثلها قوله سبحانه : ﴿ فاتقوا الله ما

استطعتم ﴿ [التغابن : ١٦] ، وقوله : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وقوله : ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ [البقرة : ٢٨٦] وفى الحديث الصحيح أنه سبحانه قال : « قد فعلت » كما سبق بيانه فى تفسير هذه الآية ، والأحاديث فى هذا كثيرة .

وانتصاب ملة فى ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ على المصدرية بفعل دلّ عليه ما قبله أى وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم . وقال الزجاج : المعنى اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم . وقال الفراء : انتصب على تقدير حذف الكاف ، أى كملة . وقيل : التقدير : وافعلوا الخير كفعل أبيكم إبراهيم ، فأقام الملة مقام الفعل . وقيل : على الإغراء . وقيل : على الاختصاص ، وإنما جعله سبحانه أباهم لأنه أبو العرب قاطبة ، ولأن له عند غير العرب الذين لم يكونوا من ذريته حرمة عظيمة كحرمة الأب على الابن لكونه أبا لنيهم ﷺ : ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ أى فى الكتب المتقدمة ﴿ وفى هذا ﴾ أى القرآن ، والضمير لله سبحانه . وقيل : راجع إلى إبراهيم . والمعنى : هو ، أى إبراهيم ، سماكم المسلمين من قبل النبى ﷺ ، وفى هذا ، أى فى حكمه ، أن من اتبع محمداً فهو مسلم . قال النحاس : وهذا القول مخالف لقول علماء الأمة . ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ ليكون الرسول شهيدا عليكم ﴾ أى بتبليغه إليكم ﴿ وتكونوا شهداء على الناس ﴾ أن رسلهم قد بلغتهم ، وقد تقدّم بيان معنى هذه الآية فى البقرة . ثم أمرهم بما هو أعظم الأركان الإسلامية فقال : ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وتخصيص الخصلتين بالذكر لمزيد شرفهما ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أى اجعلوه عصمة لكم مما تحذرون ، والتجؤوا إليه فى جميع أموركم ، ولا تطلبوا ذلك إلا منه ﴿ هو مولاكم ﴾ أى ناصركم ومتولى أموركم دقيقتها وجليلها ﴿ فنعم المولى ونعم النصير ﴾ أى لا مماثل له فى الولاية لأموركم والنصرة على أعدائكم . وقيل : المراد بقوله : ﴿ اعتصموا بالله ﴾ : تمسكوا بدين الله . وقيل : ثقوا به تعالى .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يأبىها الناس ضرب مثل ﴾ قال : نزلت فى صنم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ قال : الطالب ألهمهم ، والمطلوب الذباب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ لا يستنقذوه منه ﴾ قال : لا تستنقذ الأصنام ذلك الشيء من الذباب . وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى موسى بالكلام ، وإبراهيم بالخلة » (١) . وأخرج أيضاً عن أنس وصححه أن النبى ﷺ قال : « موسى بن عمران صفى الله » (٢) .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال لى عمر : ألسنا كنا نقرأ فيما نقرأ : وجاهدوا فى الله حق جهاده فى آخر الزمان كما جاهدتم فى أوله ؟ قلت بلى : فمتى

(١) صححه الحاكم ٥٧٥/٢ على شرط البخارى ووافقه الذهبى .

(٢) صححه الحاكم ٥٧٦/٢ على شرط مسلم ولم يذكره الذهبى .

هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : إذا كانت بنو أمية الأمراء ، وبنو المغيرة الوزراء . أخرجه البيهقي فى الدلائل عن المسور بن مخرمة قال : قال عمر لعبد الرحمن بن عوف فذكره . وأخرج الترمذى وصححه وابن حبان وابن مردويه والعسكرى فى الأمثال عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ : « المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله » (١) . وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة ؛ أنها سألت النبى ﷺ عن هذه الآية : ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ قال : الضيق (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد قال : قال أبو هريرة لابن عباس : أما علينا فى الدين من حرج فى أن نسرق أو نزنى ؟ قال : بلى ، قال : فما جعل عليكم فى الدين من حرج ، قال : الإصر الذى كان على بنى إسرائيل وضع عنكم . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق ابن شهاب أن ابن عباس كان يقول : وما جعل عليكم فى الدين من حرج توسعة الإسلام ، ما جعل الله من التوبة والكفارات . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عثمان بن يسار عن ابن عباس : ﴿ ما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ قال : هذا فى هلال رمضان إذا شكّ فيه الناس ، وفى الحج إذا شكوا فى الأضحية ، وفى الفطر وأشباهه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير ، أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال : ادع لى رجلاً من هذيل ، فجاءه فقال : مما الحرج فيكم ؟ قال : الحرجة من الشجر التى ليس فيها مخرج ، فقال ابن عباس : الذى ليس له مخرج . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه من طريق عبيد الله بن أبى يزيد ، أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال : ها هنا أحد من هذيل ؟ قال رجل : أنا ، فقال : ما تعدّون الحرجة فيكم ؟ قال : الشئ الضيق ، قال : هو ذاك . وأخرج البيهقى فى سننه عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر قال : قرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ ثم قال لى : ادع لى رجلاً من بنى مدلج ، قال عمر : ما الحرج فيكم ؟ قال : الضيق .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ ملة أبيكم ﴾ قال : دين أبيكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ سماكم المسلمين من قبل ﴾ قال الله عزّ وجلّ : سماكم . وروى نحوه عن جماعة من التابعين . وأخرج الطيالسى وأحمد ، والبخارى فى تاريخه ، والترمذى وصححه ، والنسائى وأبو يعلى وابن خزيمة وابن حبان والبلغوى والباوردى وابن قانع والطبرانى والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب

(١) الترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٢١) وقال : « وحديث فضالة حديث حسن صحيح » وابن حبان فى الجهاد (٤٦٨٦) .

(٢) ابن جرير ١٧/١٤٣ والحاكم ٢/٣٩١ وقال : « صحيح الإسناد » ، وقال الذهبى : « بل الحكم تركوه ، من أهل أيلة » .

الإيمان عن الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال : « من دعا بدعوة الجاهلية فإنه من جنى جهنم » ، قال رجل : يا رسول الله ، وإن صام وصلى : قال : « نعم ، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله »^(١).

(١) الطيالسي (١١٦٢) وأحمد ٤ / ١٣٠ والترمذي في الأمثال (٢٨٦٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » والنسائي في التفسير (٣٦٩) وأبو يعلى (١٥٧١) وابن خزيمة (١٨٩٥) والطبراني (٣٤٣٠) ، (٣٤٣١) وصححه الحاكم ١ / ٤٢١ ، ٤٢٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب (٧٤٩٤) ط . الكتب العلمية .

تفسير سورة « المؤمنون »

هى مكية بلا خلاف . قال القرطبى : كلها مكية فى قول الجميع ، وآياتها مائة وتسع عشرة آية . وقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجة وغيرهم عن عبد الله بن السائب قال : صلى النبى ﷺ بمكة الصبح فاستفتح سورة المؤمنين ، حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون ، أو ذكر عيسى أخذته سعدة فركع (١) . وأخرج البيهقى من حديث أنس عن النبى ﷺ أنه قال : « لما خلق الله الجنة قال لها : تكلمى ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » (٢) . وأخرجه أيضاً ابن عدى والحاكم (٣) . وأخرج الطبرانى فى السنة وابن مردويه من حديث ابن عباس مثله (٤) . وقد ورد فى فضائل العشر الآيات من أول هذه السورة ما سيأتى قريباً .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾

قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ قال الفراء : « قد » ها هنا يجوز أن تكون تأكيداً لفلاح المؤمنين ، ويجوز أن تكون تقريباً للماضى من الحال ؛ لأن قد تقرّب الماضى من الحال حتى تلحقه بحكمه ، ألا تراهم يقولون : قد قامت الصلاة قبل حال قيامها ، ويكون المعنى فى الآية : وأن الفلاح قد حصل لهم وأنهم عليه فى الحال . والفلاح : الظفر بالمراد ، والنجاة من المكروه . وقيل : البقاء فى الخير ، وأفلح إذا دخل فى الفلاح ، ويقال : أفلحه : إذا أصاره إلى الفلاح ، وقد تقدّم بيان معنى الفلاح فى أول البقرة . وقرأ طلحة بن مصرف : « قد أفلح » بضم الهمزة وبناء الفعل للمفعول . وروى عنه أنه قرأ : « أفلحوا المؤمنون » على الإبهام والتفسير ، أو على لغة أكلونى البراغيث .

(١) أحمد ٤ / ٤١١ ومسلم فى الصلاة (١٦٣/٤٥٥) وأبو داود فى الصلاة (٦٤٩) وابن ماجة فى إقامة الصلاة

(٨٢٠) وليس الحديث فى الترمذى .

(٢) عزاه ابن كثير ٥ / ٧ لابن أبى الدنيا .

(٣) صححه الحاكم ٢ / ٣٩٢ وقال الذهبى : « ضعيف » .

(٤) قال ابن كثير ٥ / ٦ : « رواه أبو القاسم الطبرانى عن بقية ، وهو ضعيف » .

ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله : ﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ وما عطف عليه . والخشوع منهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة ، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والعبث ، وهو فى اللغة السكون والتواضع والخوف والتذلل ، وقد اختلف الناس فى الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ؟ على قولين : قيل : الصحيح الأول ، وقيل : الثانى . وادعى عبد الواحد بن زيد إجماع العلماء على أنه ليس للعبد إلا ما عقل من صلاته ، حكاه النيسابورى فى تفسيره . قال : وما يدل على صحة هذا القول قوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ [محمد : ٢٤] . والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى ، وكذا قوله : ﴿ أقم الصلاة لذكرى ﴾ [طه : ١٤] . والغفلة تضاد الذكر ، ولهذا قال : ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] . وقوله : ﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ [النساء : ٤٣] نهى للسكران والمستغرق فى هموم الدنيا بمنزلة . واللغو ، قال الزجاج : هو كل باطل ولهو وهزل ومعصية وما لا يجملى من القول والفعل ، وقد تقدم تفسيره فى البقرة . قال الضحاك : إن اللغو هنا الشرك ، وقال الحسن : إنه المعاصى كلها . ومعنى إعراضهم عنه : تجنبهم له وعدم التفاتهم إليه ، وظاهره اتصافهم بصفة الإعراض عن اللغو فى كل الأوقات ، فيدخل وقت الصلاة فى ذلك دخولا أولياً كما تفيد الجملة الاسمية ، وبناء الحكم على الضمير . ومعنى فعلهم للزكاة : تأديتهم لها ، فعبّر عن التأدية بالفعل لأنها مما يصدق عليه الفعل ، والمراد بالزكاة هنا : المصدر ؛ لأنه الصادر عن الفاعل ، وقيل : يجوز أن يراد بها العين على تقدير مضاف ، أى والذين هم لتأدية الزكاة فاعلون .

﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ : الفرج يطلق على فرج الرجل والمرأة ، ومعنى حفظهم لها أنهم ممسكون لها بالعفاف عما لا يحلّ لهم . وقيل : المراد هنا : الرجال خاصة دون النساء ، بدليل قوله : ﴿ إلا على أزواجهن أو ما ملكت أيمانهم ﴾ للإجماع على أنه لا يحلّ للمرأة أن يطمأها من تملكه . قال الفراء : إن « على » فى قوله : ﴿ إلا على أزواجهن ﴾ بمعنى « من » . وقال الزجاج : المعنى : أنهم يلامون فى إطلاق ما حظر عليهم فأمرؤا بحفظه إلا على أزواجهن ودلّ على المحذوف ذكر اللوم فى آخر الآية . والجملة فى محل نصب على الحال . وقيل : إن الاستثناء من نفي الإرسال المفهوم من الحفظ ، أى لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهن . وقيل : المعنى : إلا والبن على أزواجهن وقوامين عليهم ومن قولهم : كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان . والمعنى : أنهم لفروجهم حافظون فى جميع الأحوال إلا فى حال تزوجهم أو تسريهم ، وجملة : ﴿ أو ما ملكت أيمانهم ﴾ فى محل جرّ عطفاً على أزواجهن ، و« ما » مصدرية . والمراد بذلك : الإماء . وعبر عنهن بـ « ما » التى لغير العقلاء ؛ ولأنه اجتمع فيهنّ الأنوثة المنبئة عن قصور العقل وجواز البيع والشراء فيهنّ كسائر السلع ، فأجراهن بهذين الأمرين مجرى غير العقلاء ، وجملة : ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ تعليل لما تقدم مما لا يجب عليهم حفظ فروجهم منه .

﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ الإشارة إلى الزوجات وملك اليمين . ومعنى العادون : المجاوزون إلى ما لا يحل لهم ، فسمى سبحانه من نكح ما لا يحلّ عادياً . ووراء هنا بمعنى : سوى ، وهو مفعول ابتغى . قال الزجاج : أى فمن ابتغى ما بعد ذلك فمفعول الابتغاء محذوف . و ﴿ وراء ﴾ ظرف . وقد دلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة ، واستدل بها بعض أهل العلم على تحريم الاستمنا لأنه من الوراء لما ذكر ، وقد جمعنا فى ذلك رسالة سميناهما « بلوغ المنى فى حكم الاستمنا » ، وذكرنا فيها أدلة المنع والجواز وترجيح الراجح منهما .

﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ لأماناتهم ﴾ بالجمع . وقرأ ابن كثير بالإفراد . والأمانة : ما يؤتمنون عليه . والعهد : ما يعاهدون عليه من جهة الله سبحانه أو جهة عباده ، وقد جمع العهد والأمانة كل ما يتحمله الإنسان من أمر الدين والدنيا ، والأمانة أعم من العهد ، فكل عهد أمانة ، ومعنى ﴿ راعون ﴾ : حافظون . ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ صلواتهم ﴾ بالجمع . وقرأ حمزة والكسائي : « صلواتهم » بالإفراد ، ومن قرأ بالإفراد فقد أراد اسم الجنس وهو فى معنى الجمع . والمحافظة على الصلاة إقامتها والمحافظة عليها فى أوقاتها وإتمام ركوعها وسجودها وقراءتها والمشروع من أذكارها .

ثم مدح سبحانه هؤلاء فقال : ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ أى الأحقاء بأن يسموا بهذا الاسم دون غيرهم . ثم بين الموروث بقوله : ﴿ الذين يرثون الفردوس ﴾ وهو أوسط الجنة ، كما صح تفسيره بذلك عن رسول الله ﷺ . والمعنى : أن من عمل بما ذكر فى هذه الآيات فهو الوارث الذى يرث من الجنة ذلك المكان ، وفيه استعارة لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم . وقيل : المعنى : أنهم يرثون من الكفار منازلهم حيث فرقوها على أنفسهم ؛ لأنه سبحانه خلق لكل إنسان منزلاً فى الجنة ومنزلاً فى النار . ولفظ الفردوس لغة رومية معربة . وقيل : فارسية . وقيل : حبشية . وقيل : عربية ، وجملة : ﴿ هم فيها خالدون ﴾ فى محل نصب على الحال المقدرة ، أو مستأنفة لا محل لها ، ومعنى الخلود : أنهم يدومون فيها لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ، وتأنيث الضمير مع أنه راجع إلى الفردوس لأنه بمعنى الجنة .

وقد أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والترمذى والنسائى وابن المنذر والعقيلي ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل ، والضياء فى المختارة عن عمر بن الخطاب قال : كان إذا أنزل على رسول الله ﷺ الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل ، فأنزل الله عليه يوماً فمكثنا ساعة ، فسرّى عنه فاستقبل القبلة فقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارضنا وارض عنا » ، ثم قال : « لقد أنزل على عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة » ، ثم قرأ : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى ختم العشر (١) .

(١) عبد الرزاق (٦٠٣٨) وأحمد ١ / ٣٤ والترمذى فى التفسير (٣١٧٣) والنسائى فى الكبرى فى الوتر (١٤٣٩) =

وفى إسناده يونس بن سليم الصنعاني (١) . قال النسائي : لا نعرف أحداً رواه عن ابن شهاب إلا يونس بن سليم ويونس لا نعرفه . وأخرج البخاري في الأدب المفرد ، والنسائي وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن يزيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة : كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلقه القرآن ، ثم قالت : تقرأ سورة المؤمنين ؟ اقرأ : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى بلغ العشر ، فقالت : هكذا كان خلق رسول الله ﷺ (٢) .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير ، والبيهقي في سننه عن محمد بن سيرين قال : نبئت أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء ، فنزلت : ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ (٣) . وأخرجه عبد الرزاق عنه (٤) ، وزاد : فأمره بالخشوع فرمى ببصره نحو مسجده . وأخرجه عنه أيضاً عبد بن حميد ، وأبو داود في المراسيل ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في السنن بلفظ : كان إذا قام في الصلاة نظر هكذا وهكذا ، يميناً وشمالاً ، فنزلت : ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ فحنى رأسه (٥) . وروى عنه من طرق مرسل هكذا . وأخرجه الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عنه عن أبي هريرة ؛ أن النبي ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت : ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ فطأ رأسه (٦) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن سيرين بلفظ : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون رؤوسهم وأبصارهم إلى السماء في الصلاة يلتفتون يميناً وشمالاً ، فأنزل الله ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ فمالوا برؤوسهم فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك في الصلاة ، ولم يلتفتوا يميناً وشمالاً (٧) . وأخرج ابن المبارك في الزهد ، وعبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في سننه عن علي ؛ أنه سئل عن قوله : ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ قال : الخشوع في القلب ، وأن تلين كتفك للمرأة المسلم ، ألا تلتفت في صلاتك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ قال : خائفون ساكنون . وقد ورد في مشروعية الخشوع في

= وقال : « هذا حديث منكر » وصححه الحاكم ٢ / ٣٩٢ ، وقال الذهبي : « سئل عبد الرزاق عن شيخه ذا فقال : أظنه لا شيء » .

(١) في المخطوطة : « يونس بن سليم الإيلي » والتصحيح من تهذيب التهذيب ١١ / ٤٣٩ ، ٤٤٠ .

(٢) النسائي في التفسير (٣٧٠) وصححه الحاكم ٢ / ٣٩٢ ووافقه الذهبي .

(٣) ابن جرير ١٨ / ٣ والبيهقي ٢ / ٢٨٣ .

(٤) عبد الرزاق (٣٢٦١) .

(٥) أبو داود في المراسيل (٤٥) والبيهقي ٢ / ٢٨٣ .

(٦) صححه الحاكم ٢ / ٣٩٣ على شرط الشيخين وقال : « لولا خلاف فيه على محمد . فقد قيل عنه مرسل »

وقال الذهبي : « الصحيح مرسل » والبيهقي ٢ / ٢٨٣ .

(٧) ابن جرير ١٨ / ٣ .

الصلاة والنهي عن الالتفات وعن رفع البصر إلى السماء أحاديث معروفة في كتب الحديث .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ قال : الباطل . وأخرج عبد الرزاق ، وأبو داود في ناسخه عن القاسم بن محمد ؛ أنه سئل عن المتعة فقال : إني لأرى تحريمها في القرآن ، ثم تلا : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني عن ابن مسعود أنه قيل له : إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن : ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ [المعارج: ٢٣] ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ قال : ذلك على مواقيتها ، قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على تركها ، قال : تركها كفر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، والحاكم وصححه عن أبي هريرة في قوله : ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ قال : يرثون مساكنهم ومساكن إخوانهم التي أعدت لهم لو أطاعوا الله . وأخرج سعيد بن منصور وابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان : منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ » (١) . وأخرج عبد بن حميد ، والترمذي وقال : حسن صحيح غريب عن أنس ، فذكر قصة ، وفيها : أن النبي ﷺ قال : « الفردوس ربوة الجنة ، وأوسطها وأفضلها » (٢) ، ويدل على هذه الورثة المذكورة هنا قوله تعالى : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾ [مريم: ٦٣] وقوله : ﴿ تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ [الأعراف: ٤٣] ويشهد لحديث أبي هريرة هذا ما في صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال ، فيغفرها الله لهم ، ويضعها على اليهود والنصارى » (٣) . وفي لفظ له : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً ، فيقول هذا فكاكك من النار » (٤) .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ

(٢) الترمذي في التفسير (٣١٧٤) .

(١) ابن ماجة في الزهد (٤٣٤١) وابن جرير ١٨ / ٥ .

(٤) مسلم في التوبة (٢٧٦٧ / ٤٩) .

(٣) مسلم في التوبة (٢٧٦٧ / ٥١) .

وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) ﴿

لما حث سبحانه عباده على العبادة ووعدهم الفردوس على فعلها ، عاد إلى تقرير المبدأ والمعاد ليتمكن ذلك في نفوس المكلفين فقال : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ إلى آخره ، واللام جواب قسم محذوف ، والجملة مبتدأة ، وقيل : معطوفة على ما قبلها ، والمراد بالإنسان : الجنس ؛ لأنهم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم ، وقيل : المراد به آدم . والسلالة فعالة من السلّ ، وهو استخراج الشيء من الشيء ، يقال : سللت الشعرة من العجين ، والسيف من الغمد فانسَلّ ، فالنطفة سلالة ، والولد سليل ، وسلالة أيضاً ، ومنه قول الشاعر :

فجاءت به غضب الأديم غضنفرًا سلالة فرج كان غير حصين

وقول الآخر :

وهل هند إلا مهرة عربية سلالة أفراس تجللها بغل

و « من » في : ﴿ من سلالة ﴾ ابتدائية متعلقة بـ ﴿ خلقنا ﴾ وفي : ﴿ من طين ﴾ بيانية متعلقة بمحذوف ، وقع صفة لسلالة ، أى كائنة من طين ، والمعنى : أنه سبحانه خلق جوهر الإنسان أولاً من طين ؛ لأن الأصل آدم ، وهو من طين خالص وأولاده من طين ومنى ، وقيل : السلالة : الطين إذا عصرته انسل من بين أصابعه فالذى يخرج مضاف إن أريد بالإنسان آدم ﴿ نطفة ﴾ وقد تقدم تفسير النطفة فى سورة الحج . وكذلك تفسير العلقة والمضغة . والمراد بالقرار المكين : الرحم . وعبر عنها بالقرار الذى هو مصدر مبالغة ، ومعنى ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ أى أنه سبحانه أحال النطفة البيضاء علقة حمراء ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ أى قطعة لحم غير مخلقة ﴿ فخلقنا المضغة عظاما ﴾ أى جعلها الله سبحانه متصلة لتكون عموداً للبدن على أشكال مخصوصة ﴿ فكسونا العظام لحما ﴾ أى أنبت الله سبحانه على كل عظم لحماً على مقدار الذى يليق به ويناسبه ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ أى نفخنا فيه الروح بعد أن كان جماداً . وقيل : أخرجناه إلى الدنيا . وقيل : هو نبات الشعر . وقيل : خروج الأسنان . وقيل : تكميل القوى المخلوقة فيه ، ولا مانع من إرادة الجميع ، والمجىء بـ « ثم » لكمال التفاوت بين الخلقين ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ أى استحق التعظيم والثناء . وقيل : مأخوذ من البركة ، أى كثر خير وبركته . والخلق فى اللغة : التقدير ، يقال : خلقت الأديم : إذا قصته لتقطع منه شيئاً ، فمعنى ﴿ أحسن الخالقين ﴾ : أتقن الصانعين المقدرين ، ومنه قول الشاعر :

ولأنت تفرى ما خلقت وبـ بعض القوم يخلق ثم لا يفرى

﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴾ الإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الأمور المتقدمة ، أى ثم إنكم بعد تلك الأمور لميتون صائرون إلى الموت لا محالة ﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ من قبوركم إلى المحشر للحساب والعقاب . واللام فى ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾ جواب لقسم محذوف ، والجملة مبتدأة مشتملة على بيان خلق ما يحتاجون إليه بعد بيان خلقهم . والطرائق هى : السموات . قال الخليل والفراء والزجاج : سميت طرائق ؛ لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل . قال أبو عبيدة : طارت الشيء جعلت بعضه فوق بعض ، والعرب تسمى كل شيء فوق شيء طريقة . وقيل : لأنها طرائق الملائكة . وقيل : لأنها طرائق الكواكب ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ المراد بالخلق هنا : المخلوق ، أى وما كنا عن هذه السبع الطرائق وحفظها عن أن تقع على الأرض بغافلين . وقال أكثر المفسرين : المراد الخلق كلهم بغافلين بل حفظنا السموات عن أن تسقط ، وحفظنا من فى الأرض أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم أو تميد بهم الأرض ، أو يهلكون بسبب من الأسباب المستأصلة لهم ، ويجوز أن يراد نفى الغفلة عن القيام بمصالحهم وما يعيشون به ، ونفى الغفلة عن حفظهم .

﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ هذا من جملة ما امتن الله سبحانه به على خلقه . والمراد بالماء : ماء المطر ، فإن به حياة الأرض وما فيها من الحيوان ، ومن جملة ذلك ماء الأنهار النازلة من السماء والعيون ، والآبار المستخرجة من الأرض ، فإن أصلها من ماء السماء . وقيل : أراد سبحانه فى هذه الآية الأنهار الأربعة : سيحان ، وجيحان ، والفرات ، والنيل ، ولا وجه لهذا التخصيص . وقيل : المراد به : الماء العذب ، ولا وجه لذلك أيضاً فليس فى الأرض ماء إلا وهو من السماء ، ومعنى ﴿ بقدر ﴾ : بتقدير منا أو بمقدار يكون به صلاح الزرع والثمار ، فإنه لو كثر لكان به هلاك ذلك ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ [الحجر: ٢١] ومعنى ﴿ فأسكناه فى الأرض ﴾ : جعلناه مستقراً فيها ينتفعون به وقت حاجتهم إليه كالماء الذى يبقى فى المستنقعات والغدران ونحوها ﴿ وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ أى كما قدرنا على إنزاله فنحن قادرون على أن نذهب به بوجه من الوجوه ، ولهذا التنكير حسن موقع لا يخفى ، وفى هذا تهديد شديد لما يدلّ عليه من قدرته سبحانه على إذهابه وتغويره حتى يهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم ، ومثله قوله : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ [الملك: ٣٠] .

ثم بين سبحانه ما يتسبب عن إنزال الماء فقال : ﴿ فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب ﴾ أى أوجدنا بذلك الماء جنات من النوعين المذكورين ﴿ لكم فيها ﴾ أى فى هذه الجنات ﴿ فواكه كثيرة ﴾ . تتفكهون بها وتتطعمون منها وقيل : المعنى : ومن هذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعاشكم كقوله : فلان يأكل من حرفة كذا ، وهو بعيد ، واقتصر سبحانه على النخيل والأعناب ؛ لأنها الموجودة بالطائف والمدينة وما يتصل بذلك . كذا قال ابن جرير . وقيل : لأنها أشرف الأشجار ثمرة وأطيبها منفعة وطعماً ولذة . قيل : المعنى بقوله : ﴿ لكم

فيها فواكه ﴿ أن لكم فى هذه الجنات فواكه من غير العنب والنخيل . وقيل : المعنى : لكم فى هذين النوعين خاصة فواكه ؛ لأن فيهما أنواعاً مختلفة متفاوتة فى الطعم واللون . وقد اختلف أهل الفقه فى لفظ الفاكهة على ماذا يطلق ؟ اختلافاً كثيراً ، وأحسن ما قيل : إنها تطلق على الثمرات التى يأكلها الناس ، وليست بقوت لهم ولا طعام ولا إدام . واختلف فى البقول هل تدخل فى الفاكهة أم لا ؟

وانتصاب ﴿ شجرة ﴾ على العطف على ﴿ جنات ﴾ . وأجاز الفراء الرفع على تقدير : وثم شجرة فتكون مرتفعة على الابتداء ، وخبرها محذوف مقدّر قبلها ، وهو الظرف المذكور . قال الواحدى : المفسرون كلهم يقولون : إن المراد بهذه الشجرة : شجرة الزيتون ، وخصت بالذكر ؛ لأنه لا يتعاهدها أحد بالسقى ، وهى التى يخرج الدهن منها ، فذكرها الله سبحانه امتناناً منه على عباده بها ؛ ولأنها أكرم الشجر وأعمها نفعاً وأكثرها بركة ، ثم وصف سبحانه هذه الشجرة بأنها ﴿ تخرج من طور سيناء ﴾ هو جبل بيت المقدس ، والطور : الجبل فى كلام العرب . وقيل : وهو مما عرّب من كلام العجم . واختلف فى معنى سيناء فقيل : هو الحسن . وقيل : هو المبارك ، وذهب الجمهور إلى أنه اسم للجبل كما تقول : جبل أحد . وقيل سيناء حجر بعينه أضيف للجبل إليه لوجوده عنده . وقيل : هو كلّ جبل يحمل الثمار . وقرأ الكوفيون : ﴿ سيناء ﴾ بفتح السين ، وقرأ الباقون بكسر السين ، ولم يصرف لأنه جعل اسماً للبقعة ، وزعم الأخفش أنه أعجمى . وقرأ الجمهور : ﴿ تنبت بالدهن ﴾ بفتح المثناة وضمّ الباء الموحدة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضمّ المثناة وكسر الباء الموحدة . والمعنى على القراءة الأولى : أنها تنبت فى نفسها متلبسة بالدهن ، وعلى القراءة الثانية : الباء بمعنى مع ، فهى للمصاحبة والمعنى على القراءة الأولى : أنها تنبت فى نفسها متلبسة بالدهن ، وعلى القراءة الثانية : الباء بمعنى مع ، فهى للمصاحبة . قال أبو على الفارسي : التقدير : تنبت جناها ومعه الدهن . وقيل : الباء زائدة ، قاله أبو عبيدة ، ومثله قول الشاعر :

هنّ الحرائر لا ربات أحمره سود المحاجر لا يقرآن بالسور

وقال آخر :

نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

وقال الفراء والزجاج : إن نبت وأنبت بمعنى ، والأصمعى ينكر أنبت ، ويرد عليه قول

زهير :

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم قطينا لهم حتى إذا أنبت البقل

أى نبت . وقرأ الزهري والحسن والأعرج : « تنبت » بضم المثناة وفتح الموحدة . قال الزجاج وابن جنى : أى تنبت ومعها الدهن ، وقرأ ابن مسعود : « تخرج بالدهن » ، وقرأ زر ابن حبيش : « تنبت الدهن » بحذف حرف الجر . وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب :

«بالدهان» ﴿ وصبغ للأكلين ﴾ معطوف على الدهن ، أى تثبت بالشئ الجامع بين كونه دهناً يدهن به . وكونه صبغاً يؤتدم به . قرأ الجمهور : ﴿ صبغ ﴾ ، وقرأ قوم « صباغ » مثل لبس ولباس . وكل إدام يؤتدم به فهو صبغ وصباغ . وأصل الصبغ : ما يلون به الثوب ، وشبه الإدام به ؛ لأن الخبز يكون بالإدام كالمصبوغ به .

﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ﴾ هذه من جملة النعم التى امتنّ الله بها عليهم . وقد تقدّم تفسير الأنعام فى سورة النحل . قال النيسابورى فى تفسيره : ولعلّ القصد بالأنعام هنا إلى الإبل خاصة ؛ لأنها هى المحمول عليها فى العادة ؛ ولأنه قرننها بالفلك وهى سفائن البرّ ، كما أن الفلك سفائن البحر . وبين سبحانه أنها عبرة ؛ لأنها مما يستدل بخلقها وأفعالها على عظيم القدرة الإلهية ، ثم فصل سبحانه ما فى هذه الأنعام من النعم بعد ما ذكره من العبرة فيها للعباد فقال : ﴿ نسقيكم مما فى بطونها ﴾ يعنى سبحانه : اللبن المتكوّن فى بطونها المنصبّ إلى ضروعها ، فإن فى انعقاد ما تأكله من العلق واستحالتة إلى هذا الغذاء اللذيذ ، والمشروب النفيس أعظم عبرة للمعتبرين ، وأكبر موعظة للمتعظين . وقرئ ﴿ نسقيكم ﴾ بالنون على أن الفاعل هو الله سبحانه ، وقرئ بالتاء الفوقية على أن الفاعل هو الأنعام ، ثم ذكر ما فيها من المنافع إجمالاً فقال : ﴿ ولكم فيها منافع كثيرة ﴾ يعنى فى ظهورها وألبانها وأولادها وأصوافها وأشعارها ، ثم ذكر منفعة خاصة فقال : ﴿ ومنها تأكلون ﴾ لما فى الأكل من عظيم الانتفاع لهم .

وكذلك ذكر الركوب عليها لما فيه من المنفعة العظيمة فقال : ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ أى وعلى الأنعام ، فإن أريد بالأنعام الإبل والبقر والغنم ، فالمراد وعلى بعض الأنعام ، وهى الإبل خاصة ، وإن أريد بالأنعام الإبل خاصة فالمعنى واضح . ثم لما كانت الأنعام هى غالب ما يكون الركوب عليه فى البرّ ضمّ إليها ما يكون الركوب عليه فى البحر ، فقال : ﴿ وعلى الفلك تحملون ﴾ تميماً للنعمة وتكميلاً للمنة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : السلالة : صفو الماء الرقيق الذى يكون منه الولد . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : إن النطفة إذا وقعت فى الرحم طارت فى [كل] ^(١) شعر وظفر فتمكث أربعين يوماً ، ثم تنحدر فى الرحم فتكون علقة . وللتابعين فى تفسير السلالة أقوال قد قدّمنا الإشارة إليها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ قال : الشعر والأسنان . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ قال : نفخ فيه الروح ، وكذا قال : مجاهد وعكرمة والشعبى والحسن وأبو العالية والربيع بن أنس والسدى والضحاك وابن زيد ، واختاره ابن جرير . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ ثم

(١) ما بين المعقوفين ساقط من المخطوطة ، وقد أثبتناه من الدر المنثور ٥ / ٦ ليستقيم المعنى .

أنشأناه خلقاً آخر ﴿ قال : حين استوى به الشباب . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن صالح أبي الخليل قال : لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ إلى قوله : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ قال عمر : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ قال : والذين نفسى بيده إنها ختمت بالذى تكلمت به يا عمر .

وأخرج الطيالسى وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أنس قال : قال عمر : وافقت ربي في أربع ، قلت : يا رسول الله ، لو صلينا خلف المقام ؟ فأنزل الله : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ [البقرة: ١٢٥] وقلت : يا رسول الله ، لو اتخذت على نسائك حجاباً فإنه يدخل عليك البر والفاجر ، فأنزل الله : ﴿ وإذا سألتهم من متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وقلت لأزواج النبي ﷺ: لتتھنّ أو ليلدنه الله أزواجاً خيراً منكّن ، فنزلت : ﴿ عسى ربه إن طلقكن ﴾ الآية [التحريم: ٥] ، ونزلت : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة ﴾ إلى قوله : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ فقلت أنا : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (١) . وأخرج ابن راهويه وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه عن زيد ابن ثابت قال : أُملى رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ إلى قوله ﴿ خلقاً آخر ﴾ فقال معاذ بن جبل : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فضحك رسول الله ﷺ ، فقال له معاذ ، مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : « بها ختمت ﴾ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿ » (٢) . وفى إسناده جابر الجعفى وهو ضعيف جداً . قال ابن كثير (٣) : وفى خبره هذا نكارة شديدة ، ذلك أن هذه السورة مكية ، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحى بالمدينة ، وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة ، والله أعلم .

وأخرج ابن مردويه والخطيب ، قال السيوطى (٤) : بسند ضعيف ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « أنزل الله من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار : سيحون وهو نهر الهند ، وجيحون وهو نهر بلخ ، ودجلة والفرات وهما نهران العراق ، والنيل وهو نهر مصر ، أنزلها من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحى جبريل ، فاستودعها الجبال وأجراها فى الأرض ، وجعلها منافع للناس فى أصناف معاشهم ، فذلك قوله : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه فى الأرض ﴾ فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله جبريل ، فرفع من الأرض القرآن والعلم ، والحجر من ركن البيت ، ومقام إبراهيم ، وتابوت موسى بما فيه ، وهذه الأنهار الخمسة ، فيرفع كل ذلك إلى السماء فذلك قوله :

(١) الطيالسى ص ٩ ، ١٠ .

(٢) الهيثمى فى المجمع ٧ / ٧٥ . وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه جابر الجعفى وهو ضعيف وقد وثقه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٣) ابن كثير ٥ / ١٣ ، ١٤ .

(٤) الدر المنثور ٥ / ٨ .

﴿ وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدنيا والآخرة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، قال : طور سيناء هو الجبل الذي نودى منه موسى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه فى قوله : ﴿ تنبت بالدهن ﴾ قال : هو الزيت يؤكل ويدهن به .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هِيَاهُا هِيَاهُا لِمَا تُوْعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾ .

لما ذكر سبحانه الفلك أتبعه بذكر نوح ؛ لأنه أول من صنعه ، وذكر ما صنعه قوم نوح معه بسبب إهمالهم للتفكر فى مخلوقات الله سبحانه والتذكر لنعمه عليهم فقال : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾ وفى ذلك تعزية لرسول الله ، وتسلية له ببيان أن قوم غيره من الأنبياء كانوا يصنعون مع أنبيائهم ما يصنعه قومه معه ، واللام جواب قسم محذوف ﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ﴾ أى اعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا كما يستفاد من الآيات الآخرة ، وجملة : ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ واقعة موقع التعليل لما قبلها ، وارتفاع ﴿ غيره ﴾ لكونه وصفاً لإله على

المحل ؛ لأنه مبتدأ خبره لكم ، أى مالكم فى الوجود إله غيره سبحانه ، وقرئ بالجرّ اعتباراً بلفظ إله ﴿ أفلا تتقون ﴾ أى أفلا تخافون أن تتركوا عبادة ربكم الذى لا يستحقّ العبادة غيره ، وليس لكم إله سواه . وقيل : المعنى : أفلا تخافون أن يرفع عنكم ما خولكم من النعم ويسلبها عنكم . وقيل : المعنى : أفلا تقون أنفسكم عذابه الذى تقتضيه ذنوبكم .

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ أى قال أشراف قومه الذين كفروا به : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم ﴾ أى من جنسكم فى البشرية ، لا فرق بينكم وبينه ﴿ يريد أن يتفضل عليكم ﴾ أى يطلب الفضل عليكم بأن يسودكم حتى تكونوا تابعين له متقادين لأمره ، ثم صرّحوا بأن البشر لا يكون رسولاً فقالوا : ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ أى لو شاء الله إرسال رسول لأرسل ملائكة ، وإنما عبر بالإنزال عن الإرسال ؛ لأن إرسالهم إلى العباد يستلزم نزولهم إليهم ﴿ ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ﴾ أى بمثل دعوى هذا المدعى للنبوّة من البشر ، أو بمثل كلامه ، وهو الأمر بعبادة الله وحده أو ما سمعنا ببشر يدعى هذه الدعوى فى آبائنا الأولين ، أى فى الأمم الماضية قبل هذا . وقيل : الباء فى : ﴿ بهذا ﴾ رائدة ، أى ما سمعنا هذا كائناً فى الماضين ، قالوا هذا اعتماداً منهم على التقليد واعتصاماً بحبله . ولم يقنعوا بذلك حتى ضموا إليه الكذب البحت ، والبهت الصراح فقالوا : ﴿ إن هو إلا رجل به جنة ﴾ أى جنون لا يدرى ما يقول : ﴿ فتربصوا به حتى حين ﴾ أى انتظروا به حتى يستبين أمره ، بأن يفيق من جنونه فيترك هذه الدعوى ، أو حتى يموت فتستريحوا منه . قال الفراء : ليس يريد بالحين هنا وقتاً بعينه إنما هو كقولهم : دعه إلى يوم ما . فلما سمع عليه الصلاة والسلام كلامهم وعرف تماديهم على الكفر وإصرارهم عليه ﴿ قال رب انصرنى ﴾ عليهم فانتقم منهم بما تشاء وكيف تريد ، والباء فى : ﴿ بما كذبون ﴾ للسببية ، أى بسبب تكذيبهم إياى .

﴿ فأوحينا إليه ﴾ عند ذلك أى أرسلنا إليه رسولا من السماء ﴿ أن اصنع الفلك ﴾ وأن هى مفسرة لما فى الوحي من معنى القول ﴿ بأعيننا ﴾ أى متلبساً بحفظنا وكلاءتنا ، وقد تقدّم بيان هذا فى هود . ومعنى ﴿ ووحينا ﴾ : أمرنا لك وتعليمنا إياك لكيفية صنعها . والفاء فى قوله : ﴿ فإذا جاء أمرنا ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من صنع الفلك ، والمراد بالأمر : العذاب ﴿ وفار التنور ﴾ معطوف على الجملة التى قبله عطف النسق ، وقيل : عطف البيان ، أى إن مجيء الأمر هو فور التنور ، أى تنور آدم الصائر إلى نوح ، أى إذا وقع ذلك ﴿ فاسلك فيها من كل زوجين اثنين ﴾ أى ادخل فيها . يقال : سلكه فى كذا أدخله وأسلكته أدخلته . قرأ حفص : ﴿ من كل ﴾ بالتونين ، وقرأ الباقون بالإضافة ، ومعنى القراءة الأولى : من كل أمة زوجين ، ومعنى الثانية : من كل زوجين ، وهما أمة الذكر والأنثى اثنين . وانتصاب ﴿ أهلك ﴾ بفعل معطوف على ﴿ فاسلك ﴾ لا بالعطف على زوجين ، أو على ﴿ اثنين ﴾ على القراءتين لأدائه إلى اختلاف المعنى ، أى واسلك أهلك ﴿ إلا من سبق عليه القول منهم ﴾ أى القول بإهلاكهم منهم ﴿ ولا تخاطبني فى الذين ظلموا ﴾ بالدعاء لهم بإنجائهم ، وجملة : ﴿ إنهم مغرقون ﴾ تعليل

للنهي عن المخاطبة ، أى إنهم مقضى عليهم بالإغراق لظلمهم ، ومن كان هكذا فهو لا يستحق الدعاء له .

﴿ فإذا استويت ﴾ أى علوت ﴿ أنت ومن معك ﴾ من أهلك وأتباعك ﴿ على الفلك ﴾ راكبين عليه ﴿ فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ﴾ أى حال بيننا وبينهم ، وخلصنا منهم ، كقوله : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ [الأنعام : ٤٥] . وقد تقدم تفسير هذه القصة فى سورة هود على التمام والكمال ، وإنما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق جزماً ؛ لأنه قد سبق فى علمه أن ذلك سبب نجاتهم من الظلمة ، وسلامتهم من أن يصابوا بما أصيبوا به من العذاب .

ثم أمره أن يسأل ربه ما هو أنفع له وأتمّ فائدة فقال : ﴿ وقل رب أنزلنى منزلاً مباركاً ﴾ أى أنزلنى فى السفينة . قرأ الجمهور : ﴿ منزلاً ﴾ بضم الميم وفتح الزاى على أنه مصدر . وقرأ زرّ بن حبیش وأبو بكر عن عاصم والمفضل بفتح الميم وكسر الزاى على أنه اسم مكان . فعلى القراءة الأولى : أنزلنى إنزالاً مباركاً ، وعلى القراءة الثانية : أنزلنى مكاناً مباركاً ، قال الجوهري : والمنزل بفتح الميم والزاى النزول ، وهو الحلول ، تقول : نزلت نزولاً ومنزلاً . قال الشاعر :

إن ذكرتك الدار منزلها جمل بكيت قدم العين منحدر سجل

بنصب منزلها ؛ لأنه مصدر . قيل : أمره الله سبحانه بأن يقول هذا القول عند دخوله السفينة . وقيل : عند خروجه منها ، والآية تعليم من الله لعباده إذا ركبوا ثم نزلوا أن يقولوا هذا القول : ﴿ وأنت خير المنزلين ﴾ هذا ثناء منه على الله عزّ وجلّ إثر دعاءه له . قال الواحدى : قال المفسرون : إنه أمر أن يقول عند استوائه على الفلك : الحمد لله ، وعند نزوله منها : ربّ أنزلنى منزلاً مباركاً ، والإشارة بقوله : ﴿ إن فى ذلك ﴾ إلى ما تقدم مما قصه الله علينا من أمر نوح عليه السلام : والآيات الدلالات على كمال قدرته سبحانه ، والعلامات التى يستدلّ بها على عظيم شأنه ﴿ وإن كنا لمبتلين ﴾ أى لمختبرين لهم بإرسال الرسل إليهم ؛ ليظهر المطيع والعاصى للناس أو للملائكة . وقيل : المعنى : أنه يعاملهم سبحانه معاملة المختبر لأحوالهم ، تارة بالإرسال ، وتارة بالعذاب .

﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ أى من بعد إهلاكهم . قال أكثر المفسرين : إن هؤلاء الذين أنشأهم الله بعدهم هم عاد قوم هود ، لمجىء قصتهم على إثر قصة نوح فى غير هذا الموضع ، و لقوله فى الأعراف : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ [الأعراف : ٦٩] وقيل : هم ثمود ؛ لأنهم الذين أهلكوا بالصيحة . وقد قال سبحانه فى هذه القصة : ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ وقيل : هم أصحاب مدين قوم شعيب ؛ لأنهم ممن أهلك بالصيحة ﴿ فأرسلنا فيهم رسولا ﴾ عدى فعل الإرسال بفى مع أنه يتعدى بإلى ؛ للدلالة على أن

هذا الرسول المرسل إليهم نشأ فيهم بين أظهرهم ، يعرفون مكانه ومولده ، ليكون سكونهم إلى قوله أكثر من سكونهم إلى من يأتيهم من غير مكانهم . وقيل : وجه التعدية للفعل المذكور بفي أنه ضمن معنى القول ، أى قلنا لهم على لسان الرسول ﴿ اعبدوا الله ﴾ ولهذا جيء بأن المفسرة . والأول أولى ؛ لأن تضمين أرسلنا معنى قلنا لا يستلزم تعديته بفي ، وجملة : ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ تعليل للأمر بالعبادة ﴿ أفلا تتقون ﴾ عذابه الذى يقتضيه شرككم .

﴿ وقال الملأ من قومه ﴾ أى أشرافهم وقادتهم . ثم وصف الملأ بالكفر والتكذيب فقال : ﴿ الذين كفروا وكذبوا بقاء الآخرة ﴾ أى كذبوا بما فى الآخرة من الحساب والعقاب ، أو كذبوا بالبعث ﴿ وأترفناهم ﴾ أى وسعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ من كثرة الأموال ورفاهة العيش ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم ﴾ أى قال الملأ لقومهم هذا القول ، وصفوه بمساواتهم فى البشرية ، وفى الأكل : ﴿ مما تأكلون منه ﴾ والشرب : ﴿ مما تشربون ﴾ منه ، وذلك يستلزم عندهم أنه لا فضل له عليهم . قال الفراء : إن معنى ويشرب مما تشربون ﴿ على حذف منه ، أى مما تشربون منه . وقيل : إن ما مصدرية ، فلا تحتاج إلى عائد .

﴿ ولئن أطعتم بشرا مثلكم ﴾ فيما ذكر من الأوصاف ﴿ إنكم إذا لخاسرون ﴾ أى مغبونون بترككم آلهتكم واتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم . والاستفهام فى قوله : ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم ﴾ للإنكار ، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من تقييح اتباعهم له . قرئ بكسر الميم من متم ﴿ من مات يمات كخاف يخاف ، وقرئ بضمها من مات يموت ، كقال يقول . وكنتم ترابا وعظاما ﴾ أى كان بعض أجزائكم ترابا ، وبعضها عظاما نخرة لا لحم فيها ولا أعصاب عليها . وقيل : وتقديم التراب ؛ لكونه أبعد فى عقولهم . وقيل : المعنى : كان متقدموكم ترابا ، ومتأخروكم عظاما ﴿ أنكم مخرجون ﴾ أى من قبوركم أحياء كما كنتم ، قال سيبويه : « أن » الأولى فى موضع نصب وبوقوع أيعدكم عليها ، وأن الثانية بدل منها . وقال الفراء والجزمى والمبرد : إن « أن » الثانية مكررة للتوكيد ، وحسن تكريرها لطول الكلام ، ويمثله قال الزجاج . وقال الأخفش : « أن » الثانية فى محل رفع بفعل مضمر ، أى يحدث إخراجكم كما تقول : اليوم القتال ، فالمعنى : اليوم يحدث القتال .

﴿ هيهات هيهات لما توعدون ﴾ أى بعد ما توعدون ، أو بعيد ما توعدون ، والتكرير للتأكيد . قال ابن الأنبارى : وفى هيهات عشر لغات ثم سردها ، وهى مبينة فى علم النحو . وقد قرئ ببعضها ، واللام فى : ﴿ لما توعدون ﴾ لبيان المستبعد كما فى قولهم : هيت لك ، كأنه قيل : لماذا هذا الاستبعاد ؟ فقيل : لما توعدون . والمعنى : بعد إخراجكم للوعد الذى توعدون ، هذا على أن هيهات اسم فعل . وقال الزجاج : هو فى تقدير المصدر ، أى البعد لما توعدون ، أو بعد لما توعدون ، على قراءة من نون فتكون على هذا مبتدأ خبره : ﴿ لما توعدون ﴾ .

ثم بين سبحانه إترافهم بأنهم قالوا : ﴿ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ أى ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، لا الحياة الآخرة التى تعدنا بها ، وجملة : ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ مفسرة لما ادّعوه من قصرهم حياتهم على حياة الدنيا . ثم صرحوا بنفى البعث ، وأن الوعد به منه اقتراء على الله فقالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ . إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى ما هو فيما يدّعيه إلا مفتر للكذب على الله ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أى بمصدقين له فيما يقوله . ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي ﴾ أى قال نبيهم لما علم بأنهم لا يصدقونه البتة : رَبِّ انصُرْنِي عليهم وانتقم لى منهم بسبب تكذيبهم إياى .

﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ أى قال الله سبحانه مجيباً لدعائه واعداءً بالقبول لما دعا به : عما قليل من الزمان ليصبحن نادمين على ما وقع منهم من التكذيب والعناد والإصرار على الكفر . و« ما » فى : ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ مزيدة بين الجارّ والمجرور للتوكيد لقلة الزمان ، كما فى قوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . ثم أخبر سبحانه بأنها ﴿ أَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ ﴾ وحق بهم عذابه ونزل عليهم سخطه . قال المفسرون : صاح بهم جبريل صيحة واحدة مع الريح التى أهلكهم الله بها فماتوا جميعاً . وقيل : الصيحة : هى نفس العذاب الذى نزل بهم ، ومنه قول الشاعر :

صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدتها على الأذقان

والباء فى : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ ماتعلق بالأخذ . ثم أخبر سبحانه عما صاروا إليه بعد العذاب النازل بهم : فقال : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ أى كغثاء السيل الذى يحمله : والغثاء ما يحمله ، والغثاء : ما يحمل السيل من بالى الشجر والحشيش والقصب ونحو ذلك مما يحمله على ظاهر الماء . والمعنى : صيرهم هلكى فييسوا كما يبس الغثاء ﴿ فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ انتصاب ﴿ فَبَعْدًا ﴾ على المصدرية وهو من المصادر التى لا يذكر فعلها معها ، أى بعدوا بعداً ، واللام لبيان من قيل له ذلك .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا ﴾ يقول : اجعل معك فى السفينة ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مَنْزِلًا مَبَارَكًا ﴾ قال لنوح حين أنزل من السفينة . وأخرج هؤلاء عن قتادة فى الآية قال : يعلمكم سبحانه كيف تقولون إذا ركبتم ، وكيف تقولون إذا نزلتم . أما عند الركوب : ﴿ فَسَبِّحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف : ١٣ ، ١٤] ، ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا إِن رَّبِّيْ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود : ٤١] ، وعند النزول : ﴿ رَبِّ أَنْزِلْنِي مَنْزِلًا مَبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ قُرْنَا ﴾ قال : أمة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ هِيَ هَاهُنَا هِيَ هَاهُنَا ﴾ قال : بعيد بعيد . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ قال : جعلوا كالشئ الميت البالى من الشجر .

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿ (٤٣)
ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ
فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿ (٤٥) إِلَى
فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿ (٤٦) فَقَالُوا أَنْزِلْ لَنَا لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا
عَابِدُونَ ﴿ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ
﴿ (٤٩) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿ (٥٠) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا
مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ
فَاتَّقُونِ ﴿ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿ (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿ (٥٦) ۞

قوله : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد إهلاكهم ﴿ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ قيل : هم قوم صالح ولوط وشعيب كما وردت قصتهم على هذا الترتيب فى الأعراف وهود . وقيل : هم بنو إسرائيل . والقرون : الأمم ، ولعل وجه الجمع هنا للقرون والأفراد فيما سبق قريباً : أنه أراد هاهنا أمما متعددة وهناك أمة واحدة . ثم بين سبحانه كمال علمه وقدرته فى شأن عباده فقال : ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ أى ما تتقدم كل طائفة مجتمعة فى قرن آجالها المكتوبة لها فى الهلاك ولا تتأخر عنها ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل : ٦١] .

ثم بين سبحانه أن رسله كانوا بعد هذه القرون متواترين ، وأن شأن أمهم كان واحداً فى التكذيب لهم فقال : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا ﴾ والجملة معطوفة على الجملة التى قبلها بمعنى : أن إرسال كل رسول متأخر عن إنشاء القرن الذى أرسل إليه ، لا على معنى أن إرسال الرسل جميعاً متأخر عن إنشاء تلك القرون جميعاً ، ومعنى ﴿ تَتْرًا ﴾ : تتواتر واحداً بعد واحد ويتبع بعضهم بعضاً ، من الوتر وهو الفرد . قال الأصمعى : وارت كُتِبَ عليه : أتبع بعضها بعضاً ، إلا أن بين كل واحد منها وبين الآخر مهلة . وقال غيره . المتواترة المتتابعة بغير مهلة . قرأ ابن كثير وأبو عمرو : « تترى » بالثنتين على أنه مصدر . قال النحاس : وعلى هذا يجوز : « تترى » بكسر التاء الأولى ؛ لأن معنى ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا ﴾ : وارتنا ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال ، أى متواترين ﴿ كَلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ هذه الجملة مستأنفة مبينة لمجىء كل رسول لأمرته على أن المراد بالمجىء : التبليغ ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ﴾ أى فى الهلاك بما نزل بهم من العذاب ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ الأحاديث جمع أحداث ، وهى ما يتحدث به الناس

كألاعاجيب جمع أعجوبة ، وهى ما يتعجب الناس منه . قال الأخفش : إنما يقال : جعلناهم أحاديث فى الشر ، ولا يقال فى الخير ، كما يقال : صار فلان حديثا ، أى عبرة ، وكما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ [سبأ : ١٩] . قلت : وهذه الكلية غير مسلمة ، فقد يقال : صار فلان حديثا حسنا ، ومنه قول ابن دريد فى مقصورته :

وإنما المرء حديث بعده فكأن حديثا حسنا لمن روى

﴿ فبعدا لقوم لا يؤمنون ﴾ وصفهم هنا بعدم الإيمان ، وفيما سبق قريبا بالظلم ؛ لكون كل من الوصفين صادرا عن كل طائفة من الطائفتين ، أو لكون هؤلاء لم يقع منهم إلا مجرد عدم التصديق ، وأولئك ضموا إليه تلك الأقوال الشنيعة التى هى من أشد الظلم وأفظعه .

ثم حكى سبحانه ما وقع من فرعون وقومه عند إرسال موسى وهارون إليهم فقال : ﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا ﴾ هى التسع المتقدم ذكرها غير مرة ، ولا يصح عدّ فلق البحر منها هنا ؛ لأن المراد : الآيات التى كذبوا بها واستكبروا عنها . والمراد بالسلطان المبين : الحجة الواضحة البينة . قيل : هى الآيات التسع نفسها ، والعطف من باب :

إلى الملك القرم وابن الهمام

وقيل : أراد العصى ؛ لأنها أمّ الآيات ، فيكون من باب عطف جبريل على الملائكة . وقيل : المراد بالآيات : التى كانت لهما ، وبالسلطان : الدلائل . المبين : التسع الآيات ، والمراد بالملأ فى قوله : ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ : هم الأشراف منهم كما سبق بيانه غير مرة ﴿ فاستكبروا ﴾ أى طلبوا الكبر وتكلفوه فلم ينقادوا للحق ﴿ وكانوا قوما عالين ﴾ قاهرين للناس بالبغي والظلم ، مستعلين عليهم ، متطاولين كبرا وعنادا وعمردا . وجملة : ﴿ فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ استكبروا ﴾ وما بينهما اعتراض ، والاستفهام للإنكار ، أى كيف نصدق من كان مثلنا فى البشرية ؟ والبشر يطلق على الواحد كقوله : ﴿ بشرا سويا ﴾ [مريم : ١٧] كما يطلق على الجمع كما فى قوله : ﴿ فإما ترين من البشر أحدا ﴾ [مريم : ٢٦] فتثنيته هنا هى باعتبار المعنى الأول ، وأفرد المثل لأنه فى حكم المصدر ، ومعنى ﴿ وقومهما لنا عابدون ﴾ : أنهم مطيعون لهم منقادون لما يأمرونهم به كإنقياد العبيد . قال المبرد : العابد : المطيع الخاضع . قال أبو عبيدة : العرب تسمى كل من دان الملك : عابدا له . وقيل : يحتمل أنه كان يدعى الإلهية فدعى الناس إلى عبادته فأطاعوه ، واللام فى : ﴿ لنا ﴾ متعلقة بـ ﴿ عابدون ﴾ قدّمت عليه لرعاية الفواصل ، والجملة حالية ﴿ فكذبوهما ﴾ أى فأصروا على تكذيبيهما . ﴿ فكانوا من المهلكين ﴾ بالغرق فى البحر .

ثم حكى سبحانه ما جرى على قوم موسى بعد إهلاك عدوهم فقال : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ يعنى التوراة ، وخصّ موسى بالذكر ؛ لأن التوراة أنزلت عليه فى الطور ، وكان هارون خليفته فى قومه . ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ أى لعلّ قوم موسى يهتدون بها إلى الحق ،

ويعملون بما فيها من الشرائع ، فجعل سبحانه إيتاء موسى إياها إيتاء لقومه ؛ لأنها وإن كانت منزلة على موسى فهي لإرشاد قومه . وقيل : إن ثمّ مضافاً محذوفاً أقيم المضاف إليه مقامه ، أى آتينا قوم موسى الكتاب . وقيل : إن الضمير فى : ﴿ لعلهم ﴾ يرجع إلى فرعون وملئه ، وهو وهم ؛ لأن موسى لم يؤت التوراة إلا بعد إهلاك فرعون وقومه ، كما قال سبحانه : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ [القصص : ٤٣] .

ثم أشار سبحانه إلى قصة عيسى إجمالاً فقال : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ﴾ أى علامة تدل على عظيم قدرتنا ، وبديع صنعنا ، وقد تقدّم الكلام على هذا فى آخر سورة الأنبياء فى تفسير قوله سبحانه : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ [الأنبياء : ٩١] . ومعنى قوله : ﴿ وآويناهما إلى ربوة ﴾ إلى مكان مرتفع ، أى جعلناهما يأويان إليها . قيل : هى أرض دمشق ، وبه قال عبد الله بن سلام وسعيد بن المسيب ومقاتل . وقيل : بيت المقدس ، قاله قتادة وكعب . وقيل : أرض فلسطين ، قاله السدى . ﴿ ذات قرار ﴾ أى ذات مستقرّ يستقرّ عليه ساكنوه ﴿ ومعين ﴾ أى وماء معين . قال الزجاج : هو الماء الجارى فى العيون ، فاليم على هذا زائدة كزيادتها فى متبع . وقيل : هو فعيل بمعنى مفعول . قال على بن سليمان الأخفش : معن الماء : إذا جرى فهو معين ومعمون ، وكذا قال ابن الأعرابى . وقيل : هو مأخوذ من الماعون ، وهو النفع ، وبمثل ما قاله الزجاج قال الفراء .

﴿ يأيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ قال الزجاج : هذه مخاطبة لرسول الله ﷺ . ودلّ الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا . وقيل : إن هذه المقالة خوطب بها كل نبيّ ؛ لأن هذه طريقتهم التى ينبغى لهم الكون عليها ، فيكون المعنى : وقلنا : يأيها الرسل ، خطاباً لكل واحد على انفراده لاختلاف أزمتهم . وقال ابن جرير : إن الخطاب لعيسى . وقال الفراء : هو كما تقول للرجل الواحد : كفوا عنا . و﴿ الطيبات ﴾ : ما يستطاب ويستلذ . وقيل : هى الحلال . وقيل : هى ما جمع الوصفين المذكورين . ثم بعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات أمرهم بالعمل الصالح فقال : ﴿ واعملوا صالحاً ﴾ أى عملاً صالحاً وهو ما كان موافقاً للشرع ، ثم علل هذا الأمر بقوله : ﴿ إني بما تعملون عليم ﴾ لا يخفى علىّ شيء منه ، وإنى مجازيكم على حسب أعمالكم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ هذا من جملة ما خوطب به الأنبياء ، والمعنى : أن هذه ملتكم وشريعتكم أيها الرسل ملة واحدة ، وشريعة متحدة يجمعها أصل هو أعظم ما بعث الله به أنبياءه وأنزل فيه كتبه ، وهو دعاء جميع الأنبياء إلى عبادة الله وحده لا شريك له . وقيل : المعنى : إن هذا الذى تقدّم ذكره هو دينكم وملتكم فالزموه على أن المراد بالامة هنا : الدين ، كما فى قوله : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ [الزخرف : ٢٢] ، ومنه قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك رية وهل يائمن ذو أمة وهو طائع

قرئ بكسر : « إن » على الاستئناف المقرر لما تقدمه ، وقرئ بفتحها وتشديدها . قال الخليل : هي في موضع نصب لما زال الخافض ، أي أنا عالم بأن هذا دينكم الذي أمرتكم أن تؤمنوا به . وقال الفراء : إن متعلقة بفعل مضمر ، وتقديره : واعلموا أن هذه أمتكم . وقال سيبويه : هي متعلقة بـ ﴿ اتقون ﴾ والتقدير : فاتقون لأن أمتكم أمة واحدة ، والفاء في : ﴿ فاتقون ﴾ لترتيب الأمر بالتقوى على ما قبله من كونه ربكم المختص بالربوبية ، أي لا تفعلوا ما يوجب العقوبة عليكم منى بأن تشركوا بى غيرى ، أو تخالفوا ما أمرتكم به أو نهيتكم عنه .

ثم ذكر سبحانه ما وقع من الأمم من مخالفتهم لما أمرهم به الرسل فقال : ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا ﴾ والفاء لترتيب عصيانهم على ما سبق من الأمر بالتقوى ، والضمير يرجع إلى ما يدل عليه لفظ الأمة ، والمعنى : أنهم جعلوا دينهم مع اتحاد قطعاً متفرقة مختلفة . قال المبرد : زبراً : فرقاً وقطعاً مختلفة ، واحداً زبور ، وهي الفرقة والطائفة ، ومثله : الزبرة وجمعها زبر ، فوصف سبحانه الأمم بأنهم اختلفوا فاتبعت فرقة التوراة ، وفرقة الزبور ، وفرقة الإنجيل ثم حرقوا وبدلوا ، وفرقة مشركة تبعوا ما رسمه لهم آباؤهم من الضلال . قرئ : ﴿ زبرا ﴾ بضم الباء جمع زبور ، وقرئ بفتحها ، أي قطعاً كقطع الحديد ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي كل فريق من هؤلاء المختلفين ﴿ بما لديهم ﴾ أي بما عندهم من الدين ﴿ فرحون ﴾ أي معجبون به .

﴿ فذرهم في غمرتهم حتى حين ﴾ أي اتركهم في جهلهم ، فليسوا بأهل للهداية ، ولا يضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم ، فلكل شيء وقت . شبه سبحانه ما هم فيه من الجهل بالماء الذي يغمر من دخل فيه . والغمرة في الأصل : ما يغمرك ويعلوك ، وأصله : الستر . والغمر : الماء الكثير ؛ لأنه يغطي الأرض ، وغمر الرداء هو الذي يشمل الناس بالعطاء ، ويقال للحقد : الغمر ، والمراد هنا : الحيرة والغفلة والضلالة ، والآية خارجة مخرج التهديد لهم ، لا مخرج الأمر له ﷺ بالكف عنهم ، ومعنى ﴿ حتى حين ﴾ : حتى يحضر وقت عذابهم بالقتل ، أوحى يموتوا على الكفر فيعذبون في النار .

﴿ أيحسبون أنما نغدوهم به من مال وبنين ﴾ أي أيحسبون إنما نعطيهم في هذه الدنيا من الأموال والبنين . ﴿ نسارع ﴾ به ﴿ لهم ﴾ فيما فيه خيرهم وإكرامهم ، والهمزة للإنكار ، والجواب عن هذا مقدر يدل عليه قوله : ﴿ بل لا يشعرون ﴾ لأنه عطف على مقدر ينسحب إليه الكلام ، أي كلا لا نفعل ذلك بل هم لا يشعرون بشيء أصلاً كالبهائم التي لا تفهم ولا تعقل ، فإن ما خولناهم من النعم وأمددناهم به من الخيرات إنما هو استدراج لهم ليزدادوا إثماً ، كما قال سبحانه : ﴿ إنما نغلي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ [آل عمران : ١٧٨] . قال الزجاج : المعنى : نسارع لهم به في الخيرات ، فحذفت به ، و« ما » في : ﴿ إنما ﴾ موصولة ، والرباط هو هذا المحذوف . وقال الكسائي : إن إنما هنا حرف واحد فلا يحتاج إلى تقدير رابط . قيل : يجوز الوقف على بنين . وقيل : لا يحسن ؛ لأن يحسبون يحتاج إلى مفعولين ، فتمام

المفعولين فى الخيرات . قال ابن الأنبارى : وهذا خطأ ؛ لأن « ما » كافة . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى وعبد الرحمن بن أبى بكرة : « يسارع » بالياء التحتية على أن فاعله ما يدل عليه أمددنا ، وهو الإمداد ، ويجوز أن يكون المعنى : يسارع الله لهم . وقرأ الباقون : « يسارع » بالنون . قال الثعلبى : وهذه القراءة هى الصواب لقوله : ﴿ نمدهم ﴾ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترأ ﴾ قال : يتبع بعضهم بعضاً . وفى لفظ قال : بعضهم على إثر بعض . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ﴾ قال : ولدته من غير أب . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس ﴿ آية ﴾ قال : عبرة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ وآويناها إلى ربوة ﴾ قال : الربوة : المستوية ، والمعنى : الماء الجارى ، وهو النهر الذى قال الله : ﴿ قد جعل ربك تحتك سريان ﴾ [مريم : ٢٤] . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ وآويناها إلى ربوة ﴾ قال : هى المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ﴿ ذات قرار ﴾ : ذات خصب . والمعين : الماء الظاهر . وأخرج وكيع والفريابى وابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وتمام الرازى وابن عساكر ، قال السيوطى : بسند صحيح ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إلى ربوة ﴾ قال : أثبتنا أنها دمشق . وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن سلام مثله . وكذا أخرجه ابن أبى حاتم عنه . وأخرج ابن عساكر عن أبى أمامة مرفوعاً نحوه ، وإسناده ضعيف . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه وابن عساكر عن مرة البهزى ^(١) ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الربوة الرملية » ^(٢) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم فى الكنى ، وابن عساكر عن أبى هريرة قال : هى الرملية من فلسطين . وأخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعاً . وأخرج الطبرانى وابن السكن وابن منده وأبو نعيم وابن عساكر عن الأقرع بن شفى العكى مرفوعاً نحوه .

وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يأبها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يأبها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾ وقال : ﴿ يأبها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ [البقرة : ١٧٢] » ثم ذكر : « الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، يمدّ يديه إلى السماء : ياربّ يارب ، فأنى يستجاب لذلك » ^(٣) . وأخرج سعيد بن منصور عن حفص الفزارى فى قوله : ﴿ يأبها الرسل

(١) فى المطبوعة : « النهزى » ، والصحيح ما أثبتناه من ابن جرير والدر المنثور ، وعند الهيثمى : « الزهرى » .
(٢) ابن جرير ١٨ / ٢٠ . وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٧٥ : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه من لم أعرفهم » .
(٣) أحمد ٢ / ٣٢٨ ومسلم فى الزكاة (١٠١٥ / ٦٥) والدارمى فى الرقاق ٢ / ٣٠٠ .

كلوا من الطيبات ﴿ قال : ذلك عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه . وأخرجه عبدان فى الصحابة عن حفص مرفوعاً ، وهو مرسل ؛ لأن حفصاً تابعى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ (٦٤) لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصِرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) ۞

لما نفى سبحانه الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين أتبع ذلك بذكر من هو أهل للخيرات عاجلاً وآجلاً فوصفهم بصفات أربع : الأولى : قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ الإشفاق : الخوف ، تقول : أنا مشفق من هذا الأمر ، أى خائف . قيل : الإشفاق هو الخشية ، فظاهر ما فى الآية التكرار . وأجيب بحمل الخشية على العذاب ، أى من عذاب ربهم خائفون ، وبه قال الكلبي ومقاتل . وأجيب أيضاً بحمل الإشفاق على ما هو أثر له : وهو الدوام على الطاعة ، أى الذين هم من خشية ربهم دائمون على طاعته . وأجيب أيضاً بأن الإشفاق كمال الخوف فلا تكرار . وقيل : هو تكرار للتأكيد . والصفة الثانية : قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ قيل : المراد بالآيات : هى التنزيلية . وقيل : هى التكوينية . وقيل : مجموعهما . قيل : وليس المراد بالإيمان بها : هو التصديق بوجودها فقط ، فإن ذلك معلوم بالضرورة ولا يوجب المدح ، بل المراد : التصديق بكونها دلائل وأن مدلولها حق . والصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ أى يتركون الشرك تركاً كلياً ظاهراً وباطناً . والصفة الرابعة : قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ أى يعطون ما أعطوا وقُلُوبُهُمْ خائفة من أجل ذلك الإعطاء يظنون أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله ، وجملة : ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أن قُلُوبُهُمْ خائفة أشد الخوف . قال الزجاج : قُلُوبُهُمْ خائفة لأنهم إلى ربهم راجعون ، وسبب الوجمل هو أن يخافوا أن لا يقبل منهم ذلك على الوجه المطلوب ، لامجرد رجوعهم إليه سبحانه . وقيل : المعنى : أن من اعتقد الرجوع إلى الجزاء والحساب وعلم أن المجازى والمحاسب هو الرب الذى لا تخفى عليه خافية لم يخل من وجل . وقرأت عائشة وابن عباس والنخعي : « يأتون ما أتوا » مقصوراً من الإتيان . قال الفراء : ولو صحت هذه القراءة لم تخالف قراءة الجماعة ؛ لأن من

العرب من يلزم فى الهمز الألف فى كل الحالات . قال النحاس : معنى هذه القراءة : يعملون ما عملوا .

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى المتصفين بهذه الصفات ، ومعنى ﴿ يسارعون فى الخيرات ﴾ : يبادرون بها . قال الفراء والزجاج : ينافسون فيها . وقيل : يسابقون ، وقرئ : « يسرعون » . ﴿ وهم لها سابقون ﴾ اللام للتقوية ، والمعنى : هم سابقون إياها . وقيل : اللام بمعنى إلى ، كما فى قوله : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ [الزلزلة : ٥] . أى أوحى إليها ، وأنشد سيبويه قول الشاعر :

تجأنف عن أهل اليمامة ناقتى (١) وما قصدت من أهلها لسوائكا

أى إلى سوائكا . وقيل : المفعول محذوف ، والتقدير : وهم سابقون الناس لأجلها . ثم لما انجبر الكلام إلى ذكر أعمال المكلفين ذكر لهما حكيمين : الأول : قوله : ﴿ ولا تكلف نفسا إلا وسعها ﴾ الوسع هو : الطاقة ، وقد تقدم بيان هذا فى آخر سورة البقرة . وفى تفسير الوسع قولان : الأول : أنه الطاقة ، كما فسر به ذلك أهل اللغة . والثانى : أنه دون الطاقة ، وبه قال مقاتل والضحاك والكلبى . والمعتزلة قالوا : لأن الوسع إنما سمي وسعاً ، لأنه يتسع على فاعله فعله ولا ضيق عليه ، فمن لم يستطع الجلوس فليوم إيماء ، ومن لم يستطع الصوم فليفطر . وهذه الجملة مستأنفة للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الكرامات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة ، وأن ذلك عادة الله سبحانه فى تكليف عباده ، وجملة : ﴿ لدينا كتاب ينطق بالحق ﴾ من تمام ما قبلها من نفى التكليف بما فوق الوسع . والمراد بالكتاب : صحائف الأعمال ، أى عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل واحد من المكلفين على ما هى عليه ، ومعنى ﴿ ينطق بالحق ﴾ : يظهر به الحق المطابق للواقع من دون زيادة ولا نقص ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ وهذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ [الجاثية : ٢٩] وفى هذا تهديد للعصاة وتأنيس للمطيعين من الحيف والظلم . وقيل : المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، فإنه قد كتب فيه كل شئ . وقيل : المراد بالكتاب : القرآن ، والأول أولى . وفى هذه الآية تشبيه للكتاب بمن يصدر عنه البيان بالنطق بلسانه ، فإن الكتاب يعرب عما فيه كما يعرب الناطق المحق ، وقوله : ﴿ بالحق ﴾ يتعلق بـ ﴿ ينطق ﴾ أو بمحذوف هو حال من فاعله ، أى ينطق ملتبساً بالحق ، وجملة : ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ مبينة لما قبلها من تفضله وعدله فى جزاء عباده ، أى لا يظلمون بنقص ثواب أو زيادة عقاب ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

ثم أضرب سبحانه عن هذا فقال : ﴿ بل قلوبهم فى غمرة من هذا ﴾ والضمير للكفار ،

(١) فى المطبوعة : « تجأنف عن أهل اليمامة يافتى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

أى بل قلوب الكفار فى غمرة غامرة لها عن هذا الكتاب الذى ينطق بالحق ، أو عن الأمر الذى عليه المؤمنون ، يقال : غمره الماء : إذا غطاه ، ونهر غمر : يغطى من دخله ، والمراد بها هنا : الغطاء والعمه أو الحيرة والعمى ، وقد تقدّم الكلام على الغمرة قريباً ﴿ ولهم أعمال من دون ذلك ﴾ قال قتادة ومجاهد : أى لهم خطايا لا بدّ أن يعملوها من دون الحق . وقال الحسن وابن زيد : المعنى : ولهم أعمال رديئة لم يعملوها من دون ما هم عليه لا بدّ أن يعملوها فيدخلون بها النار ، فالإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إما إلى أعمال المؤمنين ، أو إلى أعمال الكفار ، أى لهم أعمال من دون أعمال المؤمنين التى ذكرها الله ، أو من دون أعمال الكفار التى تقدّم ذكرها من كون قلوبهم فى غفلة عظيمة عما ذكر ، وهى فنون كفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ما سيأتى من طعنهم فى القرآن . قال الواحدى : إجماع المفسرين وأصحاب المعانى على أن هذا إخبار عما سيعملونها من أعمالهم الخبيثة التى كتبت عليهم لا بدّ لهم أن يعملوها ، وجملة : ﴿ هم لها عاملون ﴾ مقرّرة لما قبلها ، أى واجب عليهم أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم من الشقاوة لامحيص لهم عن ذلك .

ثم رجع سبحانه إلى وصف الكفار فقال : ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب ﴾ حتى هذه هى التى يتبدى بعدها الكلام ، والكلام هو الجملة الشرطية المذكورة ، وهذه الجملة مبيّنة لما قبلها ، والضمير فى : ﴿ مترفيهم ﴾ راجع إلى من تقدّم ذكره من الكفار . والمراد بالمترفين : المتنعمين منهم ، وهم الذين أمدّهم الله بما تقدّم ذكره من المال والبنين ، أو المراد بهم الرؤساء منهم . والمراد بالعذاب هو : عذابهم بالسيف يوم بدر ، أو بالجوع بدعاء النبىِّ ﷺ عليهم حيث قال : « اللهم اشدّد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » ^(١) . وقيل : المراد بالعذاب : عذاب الآخرة ، ورجح هذا بأن مايقع منهم من الجوار إنما يكون عند عذاب الآخرة ؛ لأنه الاستغاثة بالله ولم يقع منهم ذلك يوم بدر ولا فى سنّ الجوع . ويجاب عنه بأن الجوار فى اللغة : الصراخ والصياح . قال الجوهرى : الجوار مثل الخوار . يقال : جأر الثور يجأر ، أى صاح ، وقد وقع منهم ومن أهلهم وأولادهم عندما عذبوا بالسيف يوم بدر ، وبالجوع فى سنّ الجوع ، وليس الجوار ها هنا مقيد بالجوار الذى هو التضرّع بالدعاء حتى يتم ما ذكره ذلك القائل ، وجملة : ﴿ إذا هم يجأرون ﴾ جواب الشرط ، وإذا هى الفجائية ، والمعنى : حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فاجؤوا بالصراخ .

ثم أخبر سبحانه أنه يقال لهم حينئذ على جهة التبكيت : ﴿ لا تجأروا اليوم ﴾ فالقول مضمر ، والجملة مسوقة لتبكيتهم وإقناطهم وقطع أطماعهم ، وخصص سبحانه المترفين مع أن العذاب لاحق بهم جميعاً واقع على مترفيهم وغير مترفيهم ؛ لبيان أنهم بعد النعمة التى كانوا فيها صاروا على حالة تخالفها وتباينها ، فانتقلوا من النعيم التام إلى الشقاء الخالص ، وخصّ اليوم بالذكر للتهويل ، وجملة : ﴿ إنكم منا لا تنصرون ﴾ تعليل للنهى عن الجوار ، والمعنى :

(١) البخارى فى الانبياء (٣٣٨٦) من أبى هريرة .

إنكم من عذابنا لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم . وقيل المعنى : إنكم لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم مما دهمكم من العذاب .

ثم عدّد سبحانه عليهم قبائحهم توبيخاً لهم فقال : ﴿ قد كانت آياتي تتلى عليكم ﴾ أى فى الدنيا ؛ وهى آيات القرآن ﴿ فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾ أى ترجعون وراءكم ، وأصل النكوص : أن يرجع القهقري ، ومنه قول الشاعر :

زعموا أنهم على سبل الحق وأنا نكص على الأعقاب

وهو هنا استعارة للإعراض عن الحق ، وقرأ على بن أبى طالب : « على أدياركم » بدل : ﴿ على أعقابكم تنكصون ﴾ بضم الكاف ، وعلى أعقابكم متعلق بـ ﴿ تنكصون ﴾ أو متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل تنكصون ﴿ مستكبرين به ﴾ الضمير فى : ﴿ به ﴾ راجع إلى البيت العتيق . وقيل : للحرم ، والذى سوغ الإضرار قبل الذكر اشتجارهم بالاستكبار به وافتخارهم بولايته والقيام به ، وكانوا يقولون : لا يظهر علينا أحد لأننا أهل الحرم وخذامه . وإلى هذا ذهب جمهور المفسرين . وقيل : الضمير عائد إلى القرآن ، والمعنى : أن سماعه يحدث لهم كبراً وطغياناً فلا يؤمنون به . قال ابن عطية : وهذا قول جيد . وقال النحاس : القول الأوّل أولى وبينه بما ذكرنا . فعلى القول الأوّل يكون ﴿ به ﴾ متعلقاً بـ ﴿ مستكبرين ﴾ ، وعلى الثانى يكون متعلقاً بـ ﴿ سامرا ﴾ لأنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرّون ، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن والطعن فيه ، والسامر كالحاضر فى الإطلاق على الجمع . قال الواحدى : السامر : الجماعة يسمرّون بالليل ، أى يتحدثون ، ويجوز أن يتعلق ﴿ به ﴾ بقوله : ﴿ تهجرون ﴾ والهجر بالفتح : الهذيان ، أى تهذون فى شأن القرآن ، ويجوز أن يكون من الهجر بالضم ، وهو الفحش . وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو حيوه : « سمارا » بضم السين وفتح الميم مشددة ، وقرأ زيد بن على وأبو رجاء : « سمارا » ورويت هذه القراءة عن ابن عباس ، وانتصاب ﴿ سامرا ﴾ على الحال ، إما من فاعل ﴿ تنكصون ﴾ أو من الضمير فى : ﴿ مستكبرين ﴾ وقيل : هو مصدر جاء على لفظ الفاعل ، يقال : قوم سامر ، ومنه قول الشاعر :

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

قال الراغب : ويقال : سامر وسمار ، وسمر وسامرون . قرأ الجمهور : ﴿ تهجرون ﴾ بفتح التاء المثناة من فوق وضم الجيم . وقرأ نافع وابن محيصن بضم التاء وكسر الجيم من أهجر ، أى أفحش فى منطقته . وقرأ زيد بن على وابن محيصن وأبو نهيك بضم التاء وفتح الهاء وكسر الجيم مشددة مضارع هجر بالتشديد . وقرأ ابن أبى عاصم كالجمهور إلا أنه بالياء التحتية ، وفيه التفات .

وقد أخرج الفريابى وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجه ، وابن أبى الدنيا فى نعت الخائفين ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ،

والبيهقي في الشعب عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله ، قول الله : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجله ﴾ أهو الرجل يسرق ويزنى ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله ؟ قال : « لا ، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلى ، وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه » (١) . وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير ، وابن الأنباري في المصاحف (٢) وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قالت عائشة : يا رسول الله ، فذكر نحوه (٣) . وأخرج عبد الرزاق عن ابن عباس في قوله : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا ﴾ قال : يعطون ما أعطوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وقلوبهم وجله ﴾ قال : يعملون خائفين . وأخرج الفريابي وابن جرير عن ابن عمر ﴿ والذين يؤتون ما آتوا ﴾ قال : الزكاة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن عائشة : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا ﴾ قالت : هم الذين يخشون الله ويطيعونه . وأخرج عبد بن حميد عن ابن أبي مليكة قال : قالت عائشة : لأن تكون هذه الآية كما أقرأ أحبّ إلى من حمر النعم ، فقال لها ابن عباس : ما هي ؟ قالت : ﴿ الذين يؤتون ما آتوا ﴾ وقد قدّمنا ذكر قراءتها ومعناها . وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عنها عن النبي ﷺ أنه قرأ : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا ﴾ مقصوداً من المجيء . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد ، والبخاري في تاريخه ، وابن المنذر وابن أبي شيبة ، وابن الأنباري في المصاحف ، والدارقطني في الأفراد ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عبيد بن عمير ؛ أنه سأل عائشة : كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا ﴾ ؟ قالت : أيتها أحبّ إليك . قلت : والذي نفسى بيده لأحدهما أحبّ إلى من الدنيا وما فيها جميعاً ، قالت : أيهما ؟ قلت : « الذين يأتون ما آتوا » فقالت : أشهد أن رسول الله ﷺ كان يقرؤها كذلك ، وكذلك أنزلت ، ولكن الهجاء حرّف . وفي إسناده إسماعيل بن عليّ وهو ضعيف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ قال : سبقت لهم السعادة من الله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ بل قلوبهم في غمرة من هذا ﴾ يعني بالغمرة الكفر والشك ﴿ ولهم أعمال من دون ذلك ﴾ يقول : أعمال سيئة دون الشرك ﴿ هم لها عاملون ﴾ قال : لا بدّ لهم أن يعملوها . وأخرج النسائي عنه : ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب ﴾ قال : هم أهل بدر (٤) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ إذا هم يجأرون ﴾

(١) أحمد ١٥٩/٦ والترمذي في التفسير (٣١٧٥) وابن ماجه في الزهد (٤١٩٨) وابن جرير ٢٦/١٨ وصححه الحاكم ٣٩٤/٢ ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب (٧٤٧) وإسناده منقطع ورجاله ثقات غير أحمد بن عبد الجبار العطاري فقد ضعفه الحافظ في التقريب ١٩/١ (٧٥) .

(٢) في المخطوطة زيادة : « وابن جرير » والصحيح حذفها كما في الدر المنثور ١١/٥ .

(٣) ابن جرير ٢٦/١٨ . (٤) أي من كفار قريش .

قال: يستغيثون ، وفى قوله : ﴿ فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾ قال : تدبرون ، وفى قوله : ﴿ سامرا تهجرون ﴾ قال : تسمرون حول البيت وتقولون هجراً . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه ﴿ مستكبرين به ﴾ قال : بحرم الله أنه لا يظهر عليهم فيه أحد . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿ سامرا تهجرون ﴾ قال : كانت قريش يتحلقون حلقة يتحدثون حول البيت . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يقرأ : ﴿ مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾ قال : كان المشركون يهجرون برسول الله ﷺ فى القول فى سمرهم^(١) . وأخرج النسائى وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية : ﴿ مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾^(٢) .

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) ﴿

قوله : ﴿ أفلم يدبروا القول ﴾ بين سبحانه أن سبب إقدامهم على الكفر هو أحد هذه الأمور الأربعة : الأول : عدم التدبر فى القرآن ، فإنهم لو تدبروا معانيه لظهر صدقه وآمنوا به وبما فيه ، والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر ، أى فعلوا ما فعلوا فلم يتدبروا ، والمراد

(١) الطبرانى (١١٠٨٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/٧٦ : « فيه يحيى بن سلمة بن كهيل وهو ضعيف وقد ذكره

ابن حبان فى الثقات ، وقال فى رواية ابنه إبراهيم عنه مناكير . قلت : وهذا منها » .

(٢) النسائى فى التفسير ٣٧١ وإسناده حسن ، وصححه الحاكم ٣٩٤/٢ ووافقه الذهبى .

بالقول : القرآن ، ومثله : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ [النساء : ٨٢ ، محمد : ٢٤] .
والثانى : قوله : ﴿ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾ أم هى المنقطعة ، أى بل جاءهم من
الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين ، فكان ذلك سبباً لاستنكارهم للقرآن ، والمقصود : تقرير
أنه لم يأت آباءهم الأولين رسول ؛ فلذلك أنكروه ، ومثله قوله : ﴿ لتنذر قوما ما أنذر
آباؤهم ﴾ [يس : ٦] . وقيل : إنه أتى آباءهم الأقدمين رسل أرسلهم الله إليهم ، كما هى
سنة الله سبحانه فى إرسال الرسل إلى عباده ، فقد عرف هؤلاء ذلك ، فكيف كذبوا هذا
القرآن؟ وقيل : المعنى : أم جاءهم من الأمن من عذاب الله ما لم يأت آباءهم الأولين
كلّهم ؟ ومن بعده . والثالث : قوله : ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾ وفى هذا
إضراب وانتقال من التوبيخ بما تقدّم إلى التوبيخ بوجه آخر ، أى بل ألم يعرفوه بالأمانة
والصدق فأنكروه ، ومعلوم أنهم قد عرفوه بذلك . والرابع : قوله : ﴿ أم يقولون به جنة ﴾
وهذا أيضاً انتقال من توبيخ إلى توبيخ ، أى بل أتقولون به جنة ، أى جنون ، مع أنهم قد
علموا أنه أرجح الناس عقلاً ، ولكنه جاء بما يخالف هواهم فدفعوه وجحدوه تعصباً وحمية .
ثم أضرب سبحانه عن ذلك كله فقال : ﴿ بل جاءهم بالحق ﴾ أى ليس الأمر كما زعموا فى
حق القرآن والرسول ، بل جاءهم ملتبساً بالحق . والحق هو : الدين القويم : ﴿ وأكثرهم للحق
كارهون ﴾ لما جبلوا عليه من التعصب ، والانحراف عن الصواب ، والبعد عن الحق ، فلذلك
كرهوا هذا الحق الواضح الظاهر ، وظاهر النظم أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق ، ولكنهم لم
يظهروا الإيمان خوفاً من الكارهين له .

وجملة : ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان أنه لوجاء الحق على ما يهوونه
ويريدونه لكان ذلك مستلزمًا للفساد العظيم ، وخروج نظام العالم عن الصلاح بالكلية ، وهو
معنى قوله : ﴿ لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ قال أبو صالح وابن جريج ومقاتل
والسدّى : الحق : هو الله ، والمعنى : لو جعل مع نفسه كما يحبون شريكاً لفسدت السموات
والأرض . وقال الفراء والزجاج : يجوز أن يكون المراد بالحق : القرآن ، أى لو نزل القرآن بما
يحبون من الشرك لفسد نظام العالم . وقيل : المعنى : ولو كان الحق ما يقولون من اتحاد
الآلهة مع الله لاختلقت الآلهة ، ومثل ذلك قوله : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾
[الأنبياء : ٢٢] . وقد ذهب إلى القول الأوّل الأكثرون ، ولكنه يرد عليه أن المراد بالحق هنا
هو : الحق المذكور قبله فى قوله : ﴿ بل جاءهم بالحق ﴾ ولا يصح أن يكون المراد به هنالك الله
سبحانه ، فالأولى تفسير الحق هنا وهناك : بالصدق الصحيح من الدين الخالص من شرع الله ،
والمعنى : ولو ورد الحق متابعاً لأهوائهم موافقاً لفساد مقاصدهم لحصل الفساد ، والمراد بقوله :
﴿ ومن فيهن ﴾ من فى السموات والأرض من المخلوقات . وقرأ ابن مسعود : « وما بينهما »
وسبب فساد المكلفين من بنى آدم ظاهر ، وهو ذنوبهم التى من جملة الهوى المخالف للحق ،
وأما فساد ما عداهم فعلى وجه التبع ؛ لأنهم مدبرون فى الغالب بذوى العقول فلما فسدوا
فسدوا .

ثم ذكر سبحانه أن نزول القرآن عليهم من جملة الحق فقال : ﴿ بل آتيناهم بذكرهم ﴾ والمراد بالذكر هنا : القرآن ، أى بالكتاب الذى هو فخرهم وشرفهم ، ومثله قوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] والمعنى : بل آتيناهم بفخرهم وشرفهم الذى كان يجب عليهم أن يقبلوه ، ويقبلوا عليه . وقال قتادة : المعنى : بذكرهم الذى ذكر فيه ثوابهم وعقابهم . وقيل : المعنى : بذكر ما لهم به حاجة من أمر الدين . وقرأ ابن أبى إسحاق وعيسى بن عمر : « آتيتهم » بناء التكلم . وقرأ أبو حيوه والجاحدى : « آتيتهم » بناء الخطاب ، أى آتيتهم يامحمد . وقرأ عيسى بن عمر : « بذكرهم » . وقرأ قتادة : « نذكرهم » بالنون والتشديد من التذكير ، وتكون الجملة على هذه القراءة فى محل نصب على الحال . وقيل : الذكر هو : الوعظ والتحذير ﴿ فهم عن ذكرهم معرضون ﴾ أى هم بما فعلوا من الاستكبار والنكوص عن هذا الذكر المختص بهم معرضون لا يلتفتون إليه بحال من الأحوال ، وفى هذا التركيب ما يدل على أن إعراضهم مختص بذلك لا يتجاوز به إلى غيره .

ثم بين سبحانه أن دعوة نبيه ﷺ ليست مشبوهة بأطماع الدنيا فقال : ﴿ أم تسألهم خراجاً ﴾ و« أم » هى المنقطعة ، والمعنى : أم يزعمون أنك تسألهم خراجاً تأخذه على الرسالة ، والخرج : الأجر والجعل ، فتركوا الإيمان بك وبما جئت به لأجل ذلك ، مع أنهم يعلمون أنك لم تسألهم ذلك ولا طلبته منهم ﴿ فخراج ربك خير ﴾ أى فرزق ربك الذى يرزقك فى الدنيا ، وأجره الذى يعطيكه فى الآخرة خير لك مما ذكر . قرأ حمزة والكسائى والأعمش ويحيى بن وثاب : « أم تسألهم خراجاً » ، وقرأ الباقون : ﴿ خراجاً ﴾ وكلهم قرؤوا : ﴿ فخراج ﴾ إلا ابن عامر وأبا حيوه فإنهما قرآ : « فخرج » بغير ألف . والخرج : هو الذى يكون مقابلاً للدخل ، يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك : خراجاً ، والخراج غالب فى الضريبة على الأرض . قال المبرد : الخرج : المصدر ، والخراج : الاسم ، قال النضر بن شميل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج فقال : الخراج ما لزمك ، والخرج ما تبرعت به . وروى عنه أنه قال : الخرج من الرقاب ، والخراج من الأرض ﴿ وهو خير الرازقين ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من كون خراجه سبحانه خير .

ثم لما أثبت سبحانه لرسوله من الأدلة الواضحة المقتضية لقبول ما جاء به ونفى عنه أضداد ذلك قال : ﴿ وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ﴾ أى إلى طريق واضحة تشهد العقول بأنها مستقيمة غير معوجة ، والصراط فى اللغة : الطريق ، فسمى الدين طريقاً لأنها تؤدى إليه . ثم وصفهم سبحانه بأنهم على خلاف ذلك فقال : ﴿ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾ يقال : نكب عن طريق ينكب نكوباً : إذا عدل عنه ومال إلى غيره ، والنكوب والنكب : العدول والميل ، ومنه النكباء للريح بين ريحين ، سميت بذلك ؛ لعدولها عن المهاب ، و﴿ عن الصراط ﴾ متعلق بـ ﴿ لناكبون ﴾ والمعنى : أن هؤلاء الموصوفين بعدم الإيمان بالآخرة عن ذلك الصراط أو جنس الصراط لعدولون عنه .

ثم بين سبحانه أنهم مصرّون على الكفر لا يرجعون عنه بحال فقال : ﴿ ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر ﴾ أى من قحط وجذب ﴿ للجوا فى طغيانهم ﴾ أى لتمادوا فى طغيانهم وضلالهم ﴿ يعمهون ﴾ يتردّدون ويتذبذبون ويخبطون . وأصل اللجاج : التمدادى فى العناد ، ومنه اللجة بالفتح لتردّد الصوت ، ولجة البحر : تردّد أمواجه ، ولجة الليل : تردّد ظلامه . وقيل : المعنى : رددناهم إلى الدنيا ولم ندخلهم النار وامتحناهم للجوا فى طغيانهم .

﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها . والعذاب قيل : هو الجوع الذى أصابهم فى سنّى القحط . وقيل : المرض . وقيل : القتل يوم بدر ، واختاره الزجاج . وقيل : الموت . وقيل : المراد من أصابه العذاب من الأمم الخالية ﴿ فما استكانوا لرّبهم ﴾ أى ما خضعوا ولا تذللوا ، بل أقاموا على ما كانوا فيه من التمرّد على الله والانهماك فى معاصيه ﴿ وما يتضرعون ﴾ أى وما يخشعون لله فى الشدائد عند إصابتها لهم ، ولا يدعونه لرفع ذلك ﴿ حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ﴾ قيل : هو عذاب الآخرة . وقيل : قتلهم يوم بدر بالسيف . وقيل : القحط الذى أصابهم . وقيل : فتح مكة ﴿ إذا هم فيه مبلسون ﴾ أى متحIRON ، لا يدرون ما يصنعون . والإبلاس : التحير والإياس من كل خير . وقرأ السلمي : « مبلسون » بفتح اللام من أبلسه ، أى أدخله فى الإبلاس . وقد تقدّم فى الأنعام .

﴿ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار ﴾ امتنّ عليهم ببعض النعم التى أعطاهم ، وهى نعمة السمع والبصر ﴿ والأفئدة ﴾ فصارت هذه الأمور معهم ليسمعوا المواعظ وينظروا العبر ويتفكروا بالأفئدة فلم يتنفعوا بشيء من ذلك لإصرارهم على الكفر وبعدهم عن الحق ، ولم يشكروه على ذلك ولهذا قال : ﴿ قليلا ما تشكرون ﴾ أى شكراً قليلاً حقيراً غير معتدّ به باعتبار تلك النعم الجليلة . وقيل : المعنى : أنهم لا يشكرونها البتة ، لا أن لهم شكراً قليلاً . كما يقال لجاحد النعمة : ما أقلّ شكره ، أى لا يشكره ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ﴿ وهو الذى ذرأكم فى الأرض ﴾ أى بثكم فيها كما تبث الحبوب لتنبث ، وقد تقدّم تحقيقه ﴿ وإليه تحشرون ﴾ أى تجمعون يوم القيامة بعد تفرّقكم .

﴿ وهو الذى يحيى ويميت ﴾ على جهة الانفراد والاستقلال ، وفى هذا تذكير لنعمة الحياة ، وبيان الانتقال منها إلى الدار الآخرة ﴿ وله اختلاف الليل والنهار ﴾ قال الفراء : هو الذى جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان فى السواد والبياض . وقيل : اختلافهما : نقصان أحدهما وزيادة الآخر . وقيل : تكرّرهما يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة ﴿ أفلا تعقلون ﴾ كنه قدرته وتتفكرون فى ذلك . ثم بين سبحانه أنه لا شبهة لهم فى إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد المبنيّ على مجرد الاستبعاد فقال : ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون ﴾ أى آبائهم والموافقون لهم فى دينهم . ثم بين ما قاله الأولون فقال : ﴿ قالوا أئذا كنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ﴾

فهذا مجرد استبعاد لم يتعلقوا فيه بشيء من الشبه . ثمكملوا ذلك القول بقولهم : ﴿ ولقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ﴾ أى وعدنا هذا البعث ووعد آباؤنا الكائنون من قبلنا فلم نصدقه كما لم يصدقه من قبلنا ، ثم صرّحوا بالتكذيب وفرّوا إلى مجرد الزعم الباطل فقالوا : ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أى ما هذا إلا أكاذيب الأولين التى سطروها فى الكتب جمع أسطورة كأحدثة ، والاساطير: الأباطيل والترهات والكذب .

وقد أخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى صالح فى قوله : ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم ﴾ قال : عرفوه ولكنهم حسدوه . وفى قوله : ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم ﴾ قال : الحق : الله عز وجل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ بل أتيناهم بلذكريهم ﴾ قال : بينا لهم ، وأخرجوا عنه فى قوله : ﴿ عن الصراط لناكبون ﴾ قال : عن الحق لحائدون . وأخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : جاء أبو سفيان إلى النبى ﷺ فقال يا محمد أنشدك الله والرحم ، فقد أكلنا العلهز ، يعنى الوبر بالدم ، فأنزل الله : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ (١) ، وأصل الحديث فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال : « اللهم أعنى عليهم بسبع كسيع يوسف » الحديث (٢) .

وأخرج ابن جرير ، وأبو نعيم فى المعرفة ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أن ابن أثال الحنفى لما أتى رسول الله ﷺ فأسلم وهو أسير فخلى سبيله لحق باليمامة ، فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز ، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : أليس تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ قال : « بلى » . قال : فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، فأنزل الله : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾ الآية (٣) . وأخرج العسكرى فى المواعظ عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ قال : أى لم يتواضعوا فى الدعاء ولم يخضعوا ، ولو خضعوا لله لاستجاب لهم . وأخرج ابن أبى شيبه وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ﴾ قال : قد مضى ، كان يوم بدر .

﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿ (٨٧) قُلْ

(١) النسائى فى التفسير (٣٧٢) وابن جرير ٣٤/١٨ والطبرانى (١٢٠٣٨) وصححه الحاكم ٣٩٤/٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٨١/٤ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٦٩٣) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٩٨ / ٤٠) .

(٣) ابن جرير ٣٤/١٨ والبيهقى فى الدلائل ٨١/٤ .

مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴿

أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يسأل الكفار عن أمور لا عذر لهم من الاعتراف فيها ، ثم أمره أن ينكر عليهم بعد الاعتراف منهم ويوبخهم فقال : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ﴾ أى قل يا محمد لأهل مكة هذه المقالة ، والمراد بمن فى الأرض الخلق جميعاً ، وعبر عنهم بمن تغلبوا للعقلاء ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ شيئا من العلم ، وجواب الشرط محذوف ، أى إن كنتم تعلمون فأخبرونى . وفى هذا تلويح بجهلهم وفرط غباوتهم . ﴿ سيقولون لله ﴾ أى لابد لهم أن يقولوا ذلك ؛ لأنه معلوم ببديهة العقل . ثم أمره سبحانه أن يقول لهم بعد اعترافهم : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ ترغيباً لهم فى التدبر وإمعان النظر والفكر ، فإن ذلك مما يقودهم إلى اتباع الحق وترك الباطل ؛ لأن من قدر على ذلك ابتداء قدر على إحياء الموتى .

﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله ﴾ جاء سبحانه باللام نظراً إلى معنى السؤال ، فإن قولك : من ربه ، ولمن هو فى معنى واحد ، كقولك : من رب هذه الدار ؟ فيقال : زيد ، ويقال : لزيد . وقرأ أبو عمرو وأهل العراق : « سيقولون الله » بغير لام نظراً إلى لفظ السؤال ، وهذه القراءة أوضح من قراءة الباقيين باللام ، ولكنه يؤيد قراءة الجمهور أنها مكتوبة فى جميع المصاحف باللام بدون ألف ، وهكذا قرأ الجمهور فى قوله : ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله ﴾ باللام نظراً إلى معنى السؤال كما سلف . وقرأ أبو عمرو وأهل العراق بغير لام نظراً إلى لفظ السؤال ، ومثل هذا قول الشاعر :

إذ قيل من ربّ المزالف والقرى وربّ الجياد الجرد قيل لخالد

أى لمن المزالف . والملكوت : الملك ، وزيادة التاء للمبالغة ، ونحو جبروت ورهبوت ، ومعنى ﴿ وهو يجير ﴾ : أنه يغيث غيره إذا شاء ويمنعه ﴿ ولا يجار عليه ﴾ أى لا يمنع أحد أحداً من عذاب الله ولا يقدر على نصره وإغاثته ، يقال : أجرت فلاناً : إذا استغاث بك فحميته ، وأجرت عليه : إذا حميت عنه ﴿ قل فأنى تسحرون ﴾ قال الفراء والزجاج : أى تصرفون عن

الحق وتخدعون ، والمعنى : كيف يخيل لكم الحق باطلاً والصحيح فاسداً ؟ والخادع لهم : هو الشيطان أو الهوى أو كلاهما .

ثم بين سبحانه أنه قد بالغ في الاحتجاج عليهم فقال : ﴿ بل أتيناكم بالحق ﴾ أى الامر الواضح الذى يحقّ اتباعه ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ فيما ينسبونه إلى الله سبحانه من الولد والشريك ، ثم نفاهما عن نفسه فقال : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ﴾ « من » فى الموضعين زائدة لتأكيد النفى . ثم بين سبحانه ما يستلزمه ما يدّعيه الكفار من إثبات الشريك ، فقال : ﴿ إذا لذهب كل إله بما خلق ﴾ وفى الكلام حذف تقديره لو كان مع الله آلهة لانفرد كل إله بخلقه واستبدّ به وامتاز ملكه عن ملك الآخر ، ووقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب ﴿ ولعلا بعضهم على بعض ﴾ أى غلب القوى على الضعيف وقهره وأخذ ملكه كعادة الملوك من بنى آدم وحينئذ فذلك الضعيف المغلوب لا يستحق أن يكون إلهاً ، وإذا تقرر عدم إمكان المشاركة فى ذلك ، وأنه لا يقوم به إلا واحد تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه ، وهذا الدليل كما دلّ على نفى الشريك فإنه يدلّ على نفى الولد ؛ لأن الله عزّ وجلّ ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أى هو مختصّ بعلم الغيب والشهادة ، وأما غيره فهو وإن علم الشهادة لا يعلم الغيب . قرأ نافع وأبو بكر وحزمة والكسائى : ﴿ عالم ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو عالم ، وقرأ الباقر بالجرح على أنه صفة لله أو بدل منه . وروى عن يعقوب أنه كان يخفض إذا وصل ويرفع إذا ابتدأ ﴿ فتعالى ﴾ الله ﴿ عما يشركون ﴾ معطوف على معنى ما تقدّم كأنه قال : علم الغيب فتعالى ، كقولك : زيد شجاع فعظمت منزلته ، أى شجع فعظمت ، أو يكون على إضمار القول ، أى أقول : فتعالى الله ، والمعنى : أنه سبحانه متعال عن أن يكون له شريك فى الملك .

﴿ قل رب إما ترينى ما يوعدون ﴾ أى إن كان ولا بدّ أن ترينى ما يوعدون من العذاب المستأصل لهم . ﴿ رب فلا تجعلى فى القوم الظالمين ﴾ أى قل : ياربّ فلا تجعلنى . قال الزجاج: أى إن أنزلت بهم النعمة ياربّ فاجعلنى خارجاً عنهم ، ومعنى كلامه هذا : أن النداء معترض ، و « ما » فى : ﴿ إما ﴾ زائدة ، أى قل ربّ إن ترينى ، والجواب : ﴿ فلا تجعلى ﴾ وذكر الربّ مرتين مرة قبل الشرط ، ومرة بعده مبالغة فى التضرّع . وأمره الله أن يسأله أن لا يجعله فى القوم الظالمين مع أن الأنبياء لا يكونون مع القوم الظالمين أبداً ، تعليماً له ﷺ من ربه كيف يتواضع ؟ وقيل : يهضم نفسه ، أو لكون شؤم الكفر قد يلحق من لم يكن من أهله ، كقوله : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

ثم لما كان المشركون ينكرون العذاب ويسخرون من النبىّ ﷺ إذا ذكر لهم ذلك ، أكد سبحانه وقوعه بقوله : ﴿ وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ﴾ أى أن الله سبحانه قادر على أن يرى رسوله عذابهم ، ولكنه يؤخره لعلمه بأن بعضهم سيؤمن ، أو لكون الله سبحانه لا يعذبهم والرسول فيهم . وقيل : قد أراه الله سبحانه ذلك يوم بدر ويوم فتح مكة . ثم أمره

سبحانه بالصبر إلى أن ينقضى الأجل المضروب للعذاب فقال : ﴿ ادفع بالتى هي أحسن السيئة ﴾ أى ادفع بالخصلة التى هي أحسن من غيرها وهى الصفح والإعراض عما يفعله الكافر من الخصلة السيئة وهى الشرك . قيل : وهذه الآية منسوخة بآية السيف . وقيل : هى محكمة فى حق هذه الأمة فيما بينهم ، منسوخة فى حق الكفار ﴿ نحن أعلم بما يصفون ﴾ أى ما يصفونك به مما أنت على خلافه ، أو بما يصفون من الشرك والتكذيب ، وفى هذا وعيد لهم بالعقوبة .

ثم علمه سبحانه ما يقويه على ما أرشده إليه من العفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة فقال : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ﴾ الهمزات جمع همزة ، وهى فى اللغة : الدفعة باليد أو غيرها ، وهمزات الشياطين : نزغاتهم ووساوسهم كما قاله المفسرون ، يقال : همزه ولمزه ونخسه ، أى دفعه . وقيل : الهمز : كلام من وراء القفا ، واللمز : المواجهة ، وفيه إرشاد لهذه الأمة إلى التعوذ من الشيطان . ومن همزات الشياطين : سورات الغضب التى لا يملك الإنسان فيها نفسه . ﴿ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ أمره سبحانه أن يتعوذ بالله من حضور الشياطين بعد ما أمره أن يتعوذ من همزاتهم ، والمعنى : أعوذ بك أن يكونوا معى فى حال من الأحوال ، فإنهم إذا حضروا الإنسان لم يكن لهم عمل إلا الوسوسة ، والإغراء على الشر ، والصرف عن الخير . وفى قراءة أبى : ﴿ وقل رب عاذا بك من همزات الشياطين . وعاذا بك رب أن يحضرون ﴾ .

وقد أخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ﴾ قال : خزائن كل شيء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ ادفع بالتى هي أحسن السيئة ﴾ يقول : أعرض عن أذاهم إياك . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطاء : ﴿ ادفع بالتى هي أحسن ﴾ قال : بالسلام . وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية عن أنس فى قوله : ﴿ ادفع بالتى هي أحسن السيئة ﴾ قال : قول الرجل لأخيه ما ليس فيه ، فيقول : إن كنت كاذباً فأنا أسأل الله أن يغفر لك ، وإن كنت صادقاً فأنا أسأل الله أن يغفر لى .

وأخرج ابن أبى شيبه وأحمد وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، والنسائى ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع : « بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشرّ عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون »^(١) . قال : فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها

(١) أحمد ١٨١/٢ وأبو داود فى الطب (٣٨٩٣) والترمذى فى الدعوات (٣٥٢٨) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٦٠١) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/٣٠٤ ، ٣٠٥ .

فى عنقه . وفى إسناده محمد بن إسحاق ، وفيه مقال معروف . وأخرج أحمد عن الوليد بن الوليد أنه قال : يارسول الله ، إني أجد وحشة ، قال : « إذا أخذت مضجعتك فقل : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ، فإنه لا يحضرك » وبالحرى لا يضرّك (١) .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلَفَحَ وَجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجِعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨) ﴾

« حتى » هى الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية ، وهى مع ذلك غاية لما قبلها متعلقة بقوله : ﴿ لكاذبون ﴾ وقيل : بـ ﴿ يصفون ﴾ . والمراد بمجئ الموت : مجئ علاماته ﴿ قال رب ارجعون ﴾ أى قال ذلك الواحد الذى حضره الموت تحسراً وتحزناً على ما فرط منه : رب ارجعون ، أى ردونى إلى الدنيا ، وإنما قال : ارجعون بضمير الجماعة لتعظيم المخاطب . وقيل : هو على معنى تكرير الفعل ، أى ارجعنى ارجعنى ارجعنى ، ومثله قوله : ﴿ ألقيا فى جهنم ﴾ [ق : ٢٤] قال المازنى : معناه : ألقى ألقى ، وهكذا قيل فى قول امرئ القيس :

(١) أحمد ٦/٦ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/١٢٦ : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح إلا أن محمد بن يحيى ابن حبان لم يسمع من الوليد بن الوليد » .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزّل

ومنه قول الحجاج :

يا حرسى اضربا عنقه

ومنه قول الشاعر :

ولو شئت حرمت النساء سواكم

وقول الآخر :

ألا فارحموني يا إله محمد

وقيل : إنهم لما استغاثوا بالله قال قائلهم : ربّ ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال : ﴿ارجعون . لعلى أعمل صالحا﴾ أى أعمل عملاً صالحاً فى الدنيا إذا رجعت إليها من الإيمان وما يتبعه من أعمال الخير ، ولما تمنى أن يرجع ليعمل ردّ الله عليه ذلك بقوله : ﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾ فجاء بكلمة الردع والزجر ، والضمير فى : ﴿إنها﴾ يرجع إلى قوله : ﴿رب ارجعون﴾ أى أن هذه الكلمة هو قائلها لا محالة ، وليس الأمر على ما يظنه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا ، أو المعنى : أنه أجيب إلى ذلك لما حصل منه الوفاء ، كما فى قوله : ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام : ٢٨] . وقيل : إن الضمير فى : ﴿قائلها﴾ يرجع إلى الله ، أى لا خلف فى خبره ، وقد أخبرنا بأنه لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ﴿ومن ورائهم برزخ﴾ أى من أمامهم وبين أيديهم . والبرزخ هو : الحاجز بين الشيئين قاله الجوهرى . واختلف فى معنى الآية ، فقال الضحاك ومجاهد وابن زيد : حاجز بين الموت والبعث . وقال الكلبي : هو الأجل ما بين النفختين ، وبينهما أربعون سنة . وقال السدى : هو الأجل ، و﴿إلى يوم يعثون﴾ هو يوم القيامة .

﴿فإذا نفخ فى الصور﴾ قيل : هذه هى النفخة الأولى . وقيل : الثانية ، وهذا أولى ، وهى النفخة التى تقع بين البعث والنشور . وقيل : المعنى . فإذا نفخ فى الأجساد أرواحها وعلى أن الصور جمع صورة لا القرن ، ويدل على هذا قراءة ابن عباس والحسن : « الصور » بفتح الواو مع ضم الصاد جمع صورة . وقرأ أبو رزين بفتح الصاد والواو ، وقرأ الباقر بضم الصاد وسكون الواو ، وهو القرن الذى ينفخ فيه . ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ﴾ أى لا يتفاخرون بالأنساب ويذكرونها لما هم فيه من الحيرة والدهشة ﴿ولا يتساءلون﴾ أى لا يسأل بعضهم بعضاً ، فإن لهم إذ ذاك شغلاً شاعلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه﴾ [عبس : ٣٤ - ٣٦] ، وقوله : ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ [المعارج : ١٠] ولا ينافى هذا ما فى الآية الأخرى من قوله : ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ [الطور : ٢٥] فإن ذلك محمول على اختلاف المواقف يوم القيامة ، فالإثبات

باعتبار بعضها، والنفى باعتبار بعض آخر كما قررناه فى نظائر هذا ، مما أثبت تارة ونفى أخرى .
﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ أى موزوناته من أعماله الصالحة ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ أى الفائزون بمطالبهم المحبوبة ، الناجون من الأمور التى يخافونها ﴿ ومن خفت موازينه ﴾ وهى أعماله الصالحة ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ أى ضيعوها وتركوا ما ينفعها ﴿ فى جهنم خالدون ﴾ هذا بدل من صلة الموصول ، أو خبر ثان لاسم الإشارة ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية مستوفى فلا نعيده . وجملة : ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ مستأنفة ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال ، أو تكون خبراً آخر لأولئك . واللفح : الإحراق ، يقال : لفحته النار : إذا أحرقته ، ولفحته بالسيف : إذا ضربته ، وخصّ الوجوه ؛ لأنها أشرف الأعضاء ﴿ وهم فيها كالخون ﴾ هذه الجملة فى محل نصب على الحال . الكالـح : الذى قد تشمرت شفتاه وبدت أسنانه ، قاله الزجاج . ودهر كالح ، أى شديد . قال أهل اللغة : الكلوح : تكنيز فى عبوس .

وجملة : ﴿ ألم تكن آياتى تتلى عليكم ﴾ هى على إضمار القول ، أى يقال لهم ذلك توبيخاً وتقريعاً ، أى ألم تكن آياتى تتلى عليكم فى الدنيا ﴿ فكنتم بها تكذبون ﴾ . وجملة : ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، أى غلبت علينا لذاتنا وشهواتنا ، فسمى ذلك شقوة ؛ لأنه يؤول إلى الشقاء . قرأ أهل المدينة ، وأبو عمرو وعاصم : ﴿ شقوتنا ﴾ وقرأ الباقون : « شقاوتنا » وهذه القراءة مروية عن ابن مسعود والحسن ﴿ وكنا قوما ضالين ﴾ أى بسبب ذلك فإنهم ضلوا عن الحق بتلك الشقوة . ثم طلبوا ما لا يجابون إليه فقالوا : ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ أى فإن عدنا إلى ما كنا عليه من الكفر وعدم الإيمان فإنا ظالمون لأنفسنا بالعود إلى ذلك ، فأجاب الله عليهم بقوله : ﴿ قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ أى اسكنوا فى جهنم . قال المبرد : الخسء : إبعاد بمكروه ، وقال الزجاج : تباعدوا تباعد سخط وأبعدوا بعد الكلب . فالمعنى على هذا : أبعدوا فى جهنم . كما يقال للكلب : اخسأ ، أى ابعد ، خسأت الكلب خساً : طردته ﴿ ولا تكلمون ﴾ فى إخراجكم من النار ورجوعكم إلى الدنيا ، أو فى رفع العذاب عنكم . وقيل : المعنى : لا تكلمون رأساً .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنه كان فريق من عبادى يقولون ﴾ وهم المؤمنون . وقيل : الصحابة ، يقولون : ﴿ ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ إنه كان فريق ﴾ بكسر إن استئنافاً تعليلياً ، وقرأ أبى بفتحها ﴿ فاتخذتموهم سخرياً ﴾ قرأ نافع وحزمة والكسائى بضم السين ، وقرأ الباقون بكسرها . وفرّق بينهما أبو عمرو فجعل الكسر من جهة الهزو ، والضم من جهة السخرية . قال النحاس : ولا يعرف هذا الفرق الخليل ولا سيبويه ولا الكسائى ولا الفراء ، وحكى الثعلبى عن الكسائى : أن الكسر بمعنى : الاستهزاء والسخرية بالقول ، والضم بمعنى : التسخير والاستبعاد بالفعل ﴿ حتى أنسوكم ذكرى ﴾ أى اتخذتموهم سخرياً إلى هذه الغاية فإنهم نسوا ذكر الله لشدة اشتغالهم بالاستهزاء ﴿ وكنتم منهم

تضحكون ﴿ في الدنيا ، والمعنى : حتى نسيتم ذكرى باشتغالكم بالسخرية والضحك ، فنسب ذلك إلى عباده المؤمنين لكونهم السبب . وجملة : ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا ﴾ مستأنفة لتقرير ما سبق ، والباء في : ﴿ بما صبروا ﴾ للسمية ﴿ أنهم هم الفائزون ﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة على الاستئناف ، وقرأ الباقون بالفتح ، أى لأنهم الفائزون ، ويجوز أن يكون منصوباً على أنه المفعول الثانى للفعل .

﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ﴾ القائل هو الله عز وجل وتذكيراً لهم كم لبثوا ؟ لما سألوا الرجوع إلى الدنيا بعد أن أخبرهم بأن ذلك غير كائن ، كما في قوله : ﴿ اخسؤوا فيها ﴾ والمراد بالأرض : هى الأرض التى طلبوا الرجوع إليها ، ويحتمل أن يكون السؤال عن جميع ما لبثوه فى الحياة وفى القبور . وقيل : هو سؤال عن مدة لبثهم فى القبور لقوله : ﴿ فى الأرض ﴾ ولم يقل : على الأرض ، وردّ بمثل قوله تعالى : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض ﴾ [الأعراف : ٥٦] وانتصاب ﴿ عدد سنين ﴾ على التمييز ، لما فى « كم » من الإبهام ﴿ وسنين ﴾ بفتح النون على أنها نون الجمع ، ومن العرب من يخفضها وينونها . ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ استقصروا مدة لبثهم لما هم فيه من العذاب الشديد . وقيل : إن العذاب رفع عنهم بين النفختين ، فسوا ما كانوا فيه من العذاب فى قبورهم . وقيل : أنساهم الله ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى إلى النفخة الثانية . ثم لما عرفوا ما أصابهم من النسيان لشدة ما هم فيه من الهول العظيم أحالوا على غيرهم فقالوا : ﴿ فاسأل العادين ﴾ أى المتمكنين من معرفة العدد ، وهم الملائكة ؛ لأنهم الحفظة العارفون بأعمال العباد وأعمارهم . وقيل : المعنى : فاسأل الحاسبين العارفين بالحساب من الناس . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي : « قل كم لبثتم فى الأرض » على الأمر ، والمعنى : قل يا محمد للكفار ، أو يكون أمراً للملك بسؤالهم ، أو التقدير : قولوا كم لبثتم ، فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد ، والمراد : الجماعة . وقرأ الباقون : ﴿ قال كم لبثتم ﴾ على أن القائل هو الله عز وجل أو الملك .

﴿ قال إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ قرأ حمزة والكسائي : « قل إن لبثتم » كما فى الآية الأولى ، وقرأ الباقون : « قال » على الخبر ، وقد تقدّم توجيه القراءتين ، أى ما لبثتم فى الأرض إلا لبثاً قليلاً ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ شيئاً من العلم ، والجواب محذوف ، أى لو كنتم تعلمون لعلمتم اليوم قلة لبثكم فى الأرض أو فى القبور أو فيهما ، فكل ذلك قليل بالنسبة إلى لبثهم . ثم زاد سبحانه فى توبيخهم فقال : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ﴾ الهمزة للتوبيخ والتقرير ، والفاء للعطف على مقدّر كما تقدّم بيانه فى مواضع ، أى ألم تعلموا شيئاً فحسبتم ، وانتصاب ﴿ عبثاً ﴾ على الحال ، أى عابثين ، أو على العلة ، أى للبعث . قال بالأول سيويوه وقطرب ، وبالثانى أبو عبيدة ، وقال أيضاً : يجوز أن يكون منتصباً على المصدرية ، وجملة : ﴿ وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ معطوفة على ﴿ أنما خلقناكم عبثاً ﴾ والعبث فى اللغة : اللعب ، يقال : عبث يعبث عبثاً فهو عابث ، أى لاعب ، وأصله من قولهم : عبثت الأقط ، أى خلطته ، والمعنى :

أفحسبتم أن خلقناكم ^(١) للإهمال كما خلقت البهائم ولا ثواب ولا عقاب ، وأنكم إلينا لا ترجعون بالبعث والنشور فتجازيكم بأعمالكم . قرأ حمزة والكسائي : « ترجعون » بفتح الفوقية وكسر الجيم مبنياً للفاعل ، وقرأ الباقر على البناء للمفعول . وقيل : إنه يجوز عطف « وأنكم إلينا لا ترجعون » على « عبثا » على معنى : إنما خلقناكم للبعث ولعدم الرجوع .

ثم نزه سبحانه نفسه فقال : « فتعالى الله » أى تنزه عن الأولاد والشركاء أو عن أن يخلق شيئاً عبثاً ، أو عن جميع ذلك ، وهو « الملك » الذى يحق له الملك على الإطلاق « الحق » فى جميع أفعاله وأقواله « لا إله إلا هو رب العرش الكريم » فكيف لا يكون إلهاً ورباً ، لما هو دون العرش الكريم من المخلوقات ؟ ووصف العرش بالكريم لنزول الرحمة والخير منه ، أو باعتبار من استوى عليه ، كما يقال : بيت كريم : إذا كان ساكنوه كراماً . قرأ أبو جعفر وابن محيصة وإسماعيل وأبان بن ثعلب : « الكريم » بالرفع على أنه نعت لرب ، وقرأ الباقر بالجر على أنه نعت للعرش .

ثم زيف ما عليه أهل الشرك توبيخاً لهم وتقريعاً فقال : « ومن يدع مع الله إلهاً آخر » يعبد مع الله أو يعبد وحده ، وجملة : « لا برهان له به » فى محل نصب صفة لقوله : « إلهاً » وهى صفة لازمة جىء بها للتأكيد ، كقوله : « يطير بجناحيه » [الأنعام : ٣٨] . والبرهان : الحجة الواضحة والدليل الواضح ، وجواب الشرط قوله : « فإنما حسابه عند ربه » . وجملة : « لا برهان له به » معترضة بين الشرط والجزاء ، كقولك : من أحسن إلى زيد لا أحق منه بالإحسان ، فالله مثيبه . وقيل : إن جواب الشرط قوله : لا برهان له به على حذف فاء الجزاء ، كقول الشاعر :

من يفعل الحسنات الله يشكرها

« إنه لا يفلح الكافرون » قرأ الحسن وقتادة بفتح « أن » على التعليل ، وقرأ الباقر بالكسر على الاستئناف ، وقرأ الحسن : « لا يفلح » بفتح الياء واللام مضارع فليح بمعنى أفلح . ثم ختم هذه السورة بتعليم رسوله ﷺ أن يدعو بالمغفرة والرحمة فقال : « وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » أمره سبحانه بالاستغفار لتقتدى به أمته . وقيل : أمره بالاستغفار لأمته . وقد تقدم بيان كونه أرحم الراحمين ، ووجه اتصال هذا بما قبله أنه سبحانه لما شرح أحوال الكفار أمر بالانقطاع إليه والالتجاء إلى غفرانه ورحمته .

وقد أخرج ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت وابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : إذا أدخل الكافر فى قبره فىرى مقعده من النار « قال رب ارجعون » أتوب أعمل صالحاً ، فيقال له : قد عمرت ما كنت معمرأ ، فيضيق عليه قبره ، فهو كالمنهوش ينازع ويفزع تهوى إليه حيات الأرض وعقاربها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : زعموا أن النبى ﷺ قال

(١) فى المخطوطة : « خلقنا لكم » والصواب ما أثبتناه وهو ما يستقيم به المعنى .

لعائشة : « إن المؤمن إذا عاين الملائكة قالوا : نرجعك إلى الدنيا ، فيقول : إلى دار الهموم والأحزان ، بل قدمًا إلى الله ؛ وأما الكافر فيقولون له : نرجعك ، فيقول : ﴿ رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ » (١) هو مرسل . وأخرج الديلمي عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له كل شيء يمنعه عن الحق فيجعل بين عينيه ، فعند ذلك يقول : ﴿ رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ » . وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ أعمل صالحا ﴾ قال : أقول : لا إله إلا الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : ويل لأهل المعاصي من أهل القبور ، يدخل عليهم في قبورهم حيات سود ، حية عند رأسه وحية عند رجله ، يقرصانه حتى تلتقيا في وسطه ، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ قال : حين نفخ في الصور ، فلا يبقى حي إلا الله . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ، أنه سئل عن قوله : ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ وقوله : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ فقال : إنها مواقف ، فأما الموقف الذي لا أنساب بينهم ولا يتساءلون عند الصعقة الأولى ، لا أنساب بينهم فيها إذا صعقوا ، فإذا كانت النفخة الآخرة فإذا هم قيام يتساءلون . وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه عنه أيضًا ، أنه سئل عن الآيتين فقال : أما قوله : ﴿ ولا يتساءلون ﴾ فهذا في النفخة الأولى حين لا يبقى على الأرض شيء ، وأما قوله : ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ فإنهم لما دخلوا الجنة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون . وأخرج ابن المبارك في الزهد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن ابن مسعود قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين . وفي لفظ : يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة على رؤوس الأولين والآخرين ، ثم ينادى مناد : ألا إن هذا فلان بن فلان ، فمن كان له حق قبله فليأت إلى حقه . وفي لفظ : من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه ، فيفرح والله المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً ، ومصدق ذلك في كتاب الله : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ .

وأخرج أحمد والطبراني والحاكم ، والبيهقي في سننه عن المسور بن مخرمة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهرى » (٢) . وأخرج البزار والطبراني وأبو نعيم والحاكم ، والضياء في المختارة عن عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي » (٣) . وأخرج ابن

(١) ابن جرير ٤٠ / ١٨ .

(٢) أحمد ٣٢٣ / ٤ والطبراني ٢٦ / ٢٠ (٣٠) وصححه الحاكم ١٥٨ / ٣ ووافقه الذهبي ، والبيهقي ٦٤ / ٧ .

(٣) الطبراني (٢٦٣٤ ، ٢٦٣٥ ، ٢٦٦٣) ، وصححه الحاكم ١٤٢ / ٣ وقال الذهبي : « منقطع » .

عساكر عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهرى » . وأخرج أحمد عن أبي سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر : « ما بال رجال يقولون : إن رحم رسول الله ﷺ لا ينفع قومه ، بلى والله إن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة ، وإنى أيتها الناس فرط لكم » (١) .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : « تلفح وجوههم النار » قال : تنفخ . وأخرج ابن مردويه ، والضياء فى صفة النار عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله : « تلفح وجوههم النار » قال : « تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم » . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود فى الآية قال : لفحتهم لفحة فما أبقت لحما على عظم إلا ألقتة على أعقابهم . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن أبى الدنيا فى صفة النار ، وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم فى الحلية وابن مردويه فى قوله : « وهم فيها كالحون » قال : تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرتة (٢) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبه وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود فى الآية قال : كلوح الرأس النضيج بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : « كالحون » قال : عابسون . وقد ورد فى صفة أهل النار وما يقولونه وما يقال لهم أحاديث كثيرة معروفة .

وأخرج الحكيم الترمذى وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود ؛ أنه قرأ فى أذن مصاب : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا » حتى ختم السورة فبرئ ، فقال رسول الله ﷺ : « بماذا قرأت فى أذنه ؟ » فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لو أن رجلا موقنا قرأ بها على جبل لزال » (٣) . وأخرج ابن السنى وابن منده ، وأبو نعيم فى المعرفة ، قال السيوطى : بسند حسن ، من طريق محمد بن إبراهيم التيمى عن أبيه قال : بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية وأمرنا أن نقول إذا أمسينا وأصبحنا : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون » فقرأناها فغنمنا وسلمنا .

(١) أحمد ١٨/٣ .

(٢) ذكر الإمام الحافظ ابن كثير ٤١/٥ ، ٤٢ أن هذه الرواية عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ وقال : « رواه الترمذى عن سوير بن نصر عن عبد الله بن المبارك به وقال : حسن غريب » .

(٣) أبو يعلى (٥٠٤٥) وإسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة . وأبو نعيم فى الحلية ٧/١ .

فهرس الموضوعات

تفسير سورة يوسف

- ٥ فضل السورة .
- ٦ قوله تعالى : ﴿ الر . تلك آيات الكتاب المبين ... ﴾ الآيات . لماذا كانت السورة أحسن القصص؟ الآثار الواردة .
- ١٠ قوله تعالى : ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
- ١٣ قوله تعالى : ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا ... ﴾ الآيات . هل كان يوسف عليه السلام نبياً وقت تأمر إخوته عليه ؟ الآثار الواردة .
- ١٧ قوله تعالى : ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم ... ﴾ الآيات . منة الله على يوسف وتعليمه تأويل الاحاديث — الآثار الواردة .
- ٢٢ قوله تعالى : ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ... ﴾ الآيات . ابتلاء نبي الله يوسف بامرأة العزيز — ظهور براءته بشهادة شاهد من أهلها — الآثار الواردة .
- ٢٨ قوله تعالى : ﴿ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز ... ﴾ الآيات . من النسوة ؟ وعيد امرأة العزيز ليوسف بالسجن — الآثار الواردة .
- ٣٤ قوله تعالى : ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ... ﴾ الآيات . ما هي الآيات التي بدت لهم؟ تبليغ نبي الله يوسف دعوة الله داخل السجن — الآثار الواردة .
- ٣٩ قوله تعالى : ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه ... ﴾ الآيات . تفسير رؤيا المسجونين — الآثار الواردة .
- ٤٢ قوله تعالى : ﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات ... ﴾ الآيات . شرح رؤيا الملك — الآثار الواردة .
- ٤٦ قوله تعالى : ﴿ وقال الملك ائتوني به ... ﴾ الآيات . إظهار براءة نبي الله يوسف — هل للإنسان أن يطلب الولاية ؟ الآثار الواردة .
- ٥٠ قوله تعالى : ﴿ وجاء أخوة يوسف فدخلوا عليه ... ﴾ الآيات . ما حدث بين يوسف وإخوته حين حضروا إلى مصر ؟ الآثار الواردة .
- ٥٥ قوله تعالى : ﴿ وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد ... ﴾ الآيات . لم أمر نبي الله يعقوب أولاده ألا يدخلوا من باب واحد ؟ أثر العين — ما كان بين يوسف وإخوته — الآثار الواردة .
- ٦١ قوله تعالى : ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ قالوا إن يسرق ﴾ — الآثار الواردة .
- ٦٥ قوله تعالى : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم ... ﴾ الآيات . حال نبي الله يعقوب وكيف أثر فيه الحزن ؟ الآثار الواردة .
- ٧٠ قوله تعالى : ﴿ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف ... ﴾ الآيات . تعريف يوسف بنفسه — عفوه عن إخوته — ما القميص الذي أرسله يوسف إلى أبيه ؟ الآثار الواردة .
- ٧٦ قوله تعالى : ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه ... ﴾ الآيات . تحقق رؤيا سيدنا يوسف — الآثار الواردة .

- ٧٩ قوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ... ﴾ الآيات . العبرة من قصة سيدنا يوسف — الآثار الواردة .
- ٨٢ قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا ... ﴾ الآيات . استكمال العبرة من قصة سيدنا يوسف وبيان عاقبة المكذبين والمصدقين — الآثار الواردة .

تفسير سورة الرعد

- ٨٧ قوله تعالى : ﴿ المر تلك آيات الكتاب ... ﴾ الآيات . آيات قدرة الله تعالى — الآثار الواردة .
- ٩٢ قوله تعالى : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ — الآثار الواردة .
- ٩٨ قوله تعالى : ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفاً ... ﴾ الآيات . تنوع آيات الله فى الكون — معنى سجدوا للظلال — مثل المهتدى وعاقبته ومثل الضال وعاقبته — الآثار الواردة .
- ١٠٧ قوله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك ... ﴾ الآيات . صفات المؤمنين وصفات الكافرين وعاقبة كل — الآثار الواردة .
- ١١٠ قوله تعالى : ﴿ الله ييسط الرزق ... ﴾ الآيات . الدنيا ووزنها عند الله — معنى ﴿ طوبى ﴾ — الآثار الواردة .
- ١١٤ قوله تعالى : ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ﴾ — الآثار الواردة .
- ١١٩ قوله تعالى : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ يحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ — الآثار الواردة .
- ١٢٤ قوله تعالى : ﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم ... ﴾ الآيات . معنى نقص الأرض من أطرافها — معنى ﴿ من عنده علم الكتاب ﴾ — الآثار الواردة .

تفسير سورة إبراهيم

- ١٢٧ قوله تعالى : ﴿ الر كتاب أنزلناه إليك ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ ودفع شبهة أن الرسول أرسل بلسان العرب مع أنه أرسل للعالمين — الآثار الواردة .
- ١٣٠ قوله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه اذكروا ... ﴾ الآيات . هل الشكر موجب للزيادة ؟ حال أقوام الرسل معهم — حال المؤمنين بالرسول — الآثار الواردة .
- ١٣٦ قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم ... ﴾ الآيات . مثل أعمال الكافرين — الآثار الواردة .
- ١٤٠ قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله خلق السموات ... ﴾ الآيات . خطبة إبليس لأهل النار — الآثار الواردة .
- ١٤٤ قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً ... ﴾ الآيات . مثل كلمة الإيمان وكلمة الكفر — الآثار الواردة .
- ١٤٨ قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا ... ﴾ الآيات . تعديد نعم الله — الآثار الواردة .
- ١٥٣ قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم ... ﴾ الآيات . دعوة سيدنا إبراهيم — معنى ﴿ ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ — الآثار الواردة .
- ١٥٧ قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً ... ﴾ الآيات . حال الظالمين يوم القيامة — الآثار الواردة .

- ١٦١ قوله تعالى : ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده ... ﴾ الآيات . معنى تبدل الارض والسماء — الآثار الواردة .

تفسير سورة الحجر

- ١٦٥ قوله تعالى : ﴿ الر تلك آيات الكتاب... ﴾ الآيات . متى يتمنى الكافر لو كان مسلماً؟ الآثار الواردة .
- ١٧١ قوله تعالى : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجا ... ﴾ الآيات . معنى البروج — معنى لواقع — الآثار الواردة .
- ١٧٧ قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال ... ﴾ الآيات . أصل ابن آدم ، وأصل الجن — حادثة إبليس في شأن آدم — معنى ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ — الآثار الواردة .
- ١٨٣ قوله تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ... ﴾ الآيات . حال المتقين — بشرى نبي الله إبراهيم وحواره لهم في شأن قوم لوط — الوعد بهلاك قوم لوط — الآثار الواردة .
- ١٨٩ قوله تعالى : ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ... ﴾ الآيات . ما كان من قوم لوط مع الملائكة وهلاك هؤلاء القوم الظالمين — الآثار الواردة .
- ١٩٤ قوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ... ﴾ الآيات . ما هي السبع المثاني — ما معنى ﴿المقتسمين ﴾ — الآثار الواردة .

تفسير سورة النحل

- ٢٠٣ قوله تعالى : ﴿ أنى أمر الله فلا تستعجلوه ... ﴾ الآيات . معنى أمر الله — معنى الروح — تعديد نعم الله — ما ورد في أكل لحوم الخيل — الآثار الواردة .
- ٢٠٩ قوله تعالى : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء ... ﴾ الآيات . من الله على عباده وعجزهم عن إحصائها فضلاً عن شكرهم لها — الآثار الواردة .
- ٢١٥ قوله تعالى : ﴿ والذين يدعون من دون الله ... ﴾ الآيات . قيمة ما يدعى من دون الله — من هم الذين خر عليهم السقف من فوقهم — الآثار الواردة .
- ٢١٩ قوله تعالى : ﴿ قال الذين أوتوا العلم... ﴾ الآيات . حال الكافرين وحال المؤمنين — الآثار الواردة .
- ٢٢٢ قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ لو يشاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ﴾ — ما المراد من قوله تعالى : ﴿ أن نقول له كن فيكون ﴾ — الآثار الواردة .
- ٢٢٦ قوله تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى الله ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ الآثار الواردة .
- ٢٣٢ قوله تعالى : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ... ﴾ الآيات . حال الكافر مع الله فى الرخاء والشدة — حال العرب قبل الإسلام — الآثار الواردة .
- ٢٣٩ قوله تعالى : ﴿ نالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ فهو وليهم اليوم ﴾ نعمة الله فى اللبن وعسل النحل — الآثار الواردة .
- ٢٤٥ قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
- ٢٤٩ قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً ... ﴾ الآيات . مثل لبيان من له القدرة ومن العاجز — الآثار الواردة .

- ٢٥٤ قوله تعالى : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ... ﴾ الآيات . نعم يعددها الله على عباده — الآثار الواردة .
- ٢٥٧ قوله تعالى : ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ... ﴾ الآيات . معنى العدل والإحسان ، ومعنى الفحشاء والمنكر والبغى — الآثار الواردة .
- ٢٦٢ قوله تعالى : ﴿ وأوفوا بعهدهم الله إذا عاهدتم ... ﴾ الآيات . معنى الوفاء بالعهده — الآثار الواردة .
- ٢٦٦ قوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ... ﴾ الآيات . معنى الحياة الطيبة — الرد على فرية من قالوا : إن القرآن ليس من عند الله — الآثار الواردة .
- ٢٧١ قوله تعالى : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه ... ﴾ الآيات . حكم من أكره على الكفر — الآثار الواردة .
- ٢٧٥ قوله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت ... ﴾ الآيات . الكفر وعدم الشكر سبب لزوال النعم — الآثار الواردة .
- ٢٧٩ قوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمة ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ — كيف اختلف أهل السبب فيه ؟ الآثار الواردة .

تفسير سورة الإسراء

- ٢٨٥ فضل السورة .
- ٢٨٥ قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ... ﴾ الآيات ، الخلاف حول الإسراء بالجسد والروح — فى أى عام كان الإسراء ؟ — الآثار الواردة .
- ٢٨٩ قوله تعالى : ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب ... ﴾ الآيات . ماذا قضى على بنى إسرائيل ؟ الآثار الواردة .
- ٢٩٣ قوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ... ﴾ الآيات . معنى محو آية الليل وإبصار آية النهار — معنى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ — الآثار الواردة .
- ٣٠٠ قوله تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا ... ﴾ الآيات . الوصية بالوالدين — الآثار الواردة .
- ٣٠٥ قوله تعالى : ﴿ ربكم أعلم بما فى نفوسكم ... ﴾ الآيات . معنى التبذير — نواه يجب اجتنابها — معنى السلطان لولى المقتول — معنى الإسراف فى القتل — الآثار الواردة .
- ٣١٣ قوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ... ﴾ الآيات . أوامر ونواه تكمل ما سبق — الآثار الواردة .
- ٣١٩ قوله تعالى : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون ... ﴾ الآيات . الكلام حول تسبيح كل شىء بحمد الله — الآثار الواردة .
- ٣٢٤ قوله تعالى : ﴿ وقالوا إذا كنا عظاما ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
- ٣٢٨ قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ... ﴾ الآيات . لِمَ لَمْ يجب الله الكفار إلى ما طلبوه ؟ الآثار الواردة .
- ٣٣٤ قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... ﴾ الآيات . قصة إبليس مع سيدنا آدم — الآثار الواردة .
- ٣٣٧ قوله تعالى : ﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك ... ﴾ الآيات . معنى تفضيل بنى آدم على كثير من خلق الله — الآثار الواردة .
- ٣٤١ قوله تعالى : ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ... ﴾ الآيات . الإمام الذى تدعى الناس به . المقصود بالعمى — الآثار الواردة .

- ٣٤٦ قوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس... ﴾ الآيات . معنى ﴿ نافلة لك ﴾ — ما هو المقام المحمود ؟ معنى المدخل الصدق والمخرج الصدق — معنى الشفاء — ما الروح ؟ — الآثار الواردة .
- ٣٥٦ قوله تعالى : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا ... ﴾ الآيات . بيان إعجاز القرآن — مطالب الكافرين والرد عليها — الآثار الواردة .
- ٣٦٠ قوله تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا ... ﴾ الآيات . الرد على شبهة الكافرين فى بشرية الرسول — كيف يحشر الكافر ؟ الآثار الواردة .
- ٣٦٣ قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات ... ﴾ الآيات . ما هى الآيات التسع ؟ الآثار الواردة .
- ٣٦٧ قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .

تفسير سورة الكهف

- ٣٧٢ فضل السورة .
- ٣٧٣ قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب... ﴾ الآيات . معنى عوجا — الآثار الواردة .
- ٣٧٦ قوله تعالى : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف ... ﴾ الآيات . قصة أهل الكهف — معنى الرقيم — الآثار الواردة .
- ٣٨٠ قوله تعالى : ﴿ وترى الشمس إذا طلعت ... ﴾ الآيات . آية الله فى حفظ أهل الكهف — الآثار الواردة .
- ٣٨٣ قوله تعالى : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ... ﴾ الآيات . الخلاف فى عدد أهل الكهف — كم لبثوا فى الكهف ؟ الآثار الواردة .
- ٣٨٩ قوله تعالى : ﴿ واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك ... ﴾ الآيات . أمر الله لرسوله بالصبر مع المؤمنين به — جزاء الكافرين والمؤمنين — الآثار الواردة .
- ٣٩٤ قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلا رجلين ... ﴾ الآيات . قصة صاحب الجنتين وصاحبه — الآثار الواردة .
- ٤٠٠ قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
- ٤٠٢ قوله تعالى : ﴿ ويوم نسير الجبال ... ﴾ الآيات . بيان أن إبليس كان من الجن — الآثار الواردة .
- ٤٠٧ قوله تعالى : ﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
- ٤١٠ قوله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لفتهاه ... ﴾ الآيات . قصة موسى مع فتهاه — شرط العبد الصالح على موسى حتى يتعلم — الآثار الواردة .
- ٤١٦ قوله تعالى : ﴿ فانطلقا حتى إذا ركبا... ﴾ الآيات . قصة موسى مع العبد الصالح — الآثار الواردة .
- ٤٢٢ قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن ذى القرنين ... ﴾ الآيات . قصة ذى القرنين — الآثار الواردة .
- ٤٢٨ قوله تعالى : ﴿ ثم أتبع سيبا ... ﴾ الآيات . ما جاء عن ياجوج ومأجوج — الآثار الواردة .
- ٤٣٣ قوله تعالى : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
- ٤٣٧ قوله تعالى : ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .

تفسير سورة مريم

- ٤٤٢ فضل السورة .
- ٤٤٢ قوله تعالى : ﴿ كهيعص . ذكر رحمة ربك ... ﴾ الآيات . قصة سيدنا زكريا — الآثار الواردة .

- ٤٤٩ قوله تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
- ٤٥١ قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم ... ﴾ الآيات . قصة حمل مريم بنى الله عيسى - الآثار الواردة .
- ٤٥٦ قوله تعالى : ﴿ فأنت به قومها تحمله ... ﴾ الآيات . شك بنى إسرائيل فى أمر مريم وتكلم نبي الله عيسى فى المهد - الآثار الواردة .
- ٤٥٩ قوله تعالى : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
- ٤٦٢ قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم ... ﴾ الآيات . قصة سيدنا إبراهيم مع أبيه - الآثار الواردة .
- ٤٦٤ قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب موسى ... ﴾ الآيات . مدح القرآن لسيدنا موسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام - الآثار الواردة .
- ٤٧٠ قوله تعالى : ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك ... ﴾ الآيات . معنى الورد - الآثار الواردة .
- ٤٧٧ قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
- ٤٨١ قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ... ﴾ الآيات . هل تكون الآلهة ضدا على عابديها ؟ كيف يحشر المتقون والكافرون ؟ الآثار الواردة .
- ٤٨٥ قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .

تفسير سورة طه

- ٤٨٨ فضل السورة .
- ٤٨٨ قوله تعالى : ﴿ طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ طه ﴾ - معنى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ﴿ السر وأخفى ﴾ - قصة النار التى رآها نبي الله موسى - الآثار الواردة .
- ٤٩٦ قوله تعالى : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ... ﴾ الآيات - معجزات سيدنا موسى وإرساله إلى فرعون - الآثار الواردة .
- ٥٠٠ قوله تعالى : ﴿ قال قد أوتيت سؤالك يا موسى ... ﴾ الآيات . تذكير الله لنبىه موسى بنعمته عليه - الآثار الواردة .
- ٥٠٤ قوله تعالى : ﴿ قال ربنا إنما نخاف ... ﴾ الآيات . ما دار بين نبي الله موسى وفرعون - الآثار الواردة .
- ٥١٠ قوله تعالى : ﴿ فتولى فرعون فججمع كيده ... ﴾ الآيات . ما فعله السحرة وما فعلته عصا موسى بقدرة الله - إيمان السحرة - الآثار الواردة .
- ٥١٥ قوله تعالى : ﴿ قال آمتم له قبل أن آذن لكم ... ﴾ الآيات . محاولة فرعون فتنة السحرة عن دينهم - الآثار الواردة .
- ٥١٧ قوله تعالى : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر ... ﴾ الآيات . نجاة نبي الله موسى ومن آمن معه - فتنة أتباع موسى وعبادتهم عجل السامرى - الآثار الواردة .
- ٥٢٣ قوله تعالى : ﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ... ﴾ الآيات . العتاب الشديد بين موسى وهارون - نفى السامرى وحرق العجل . الآثار الواردة .
- ٥٢٨ قوله تعالى : ﴿ يوم ينفخ فى الصور ... ﴾ الآيات . أحوال القيامة - الآثار الواردة .
- ٥٣٢ قوله تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا ... ﴾ الآيات . ما هو عهد الله لأدم ؟ الآثار الواردة .
- ٥٣٥ قوله تعالى : ﴿ قال اهبطا منها جميعا ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .

٥٣٧ قوله تعالى : ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا ... ﴾ الآيات . ما المراد بالتسييح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ؟ الآثار الواردة .

تفسير سورة الأنبياء

- ٥٤٣ فضل السورة .
- ٥٤٣ قوله تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم ... ﴾ الآيات . كلام الإمام الشوكاني في حدوث القرآن - رأيه في التقليد - الآثار الواردة .
- ٥٤٧ قوله تعالى : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ - الآثار الواردة .
- ٥٥٣ قوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ... ﴾ الآيات . من القائلون اتخذ الرحمن ولدا ؟ معنى فتق السموات والأرض بعد أن كانتا رتقا - الآثار الواردة .
- ٥٥٧ قوله تعالى : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا ... ﴾ الآيات . فيمن نزلت ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ - الآثار الواردة .
- ٥٦٠ قوله تعالى : ﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم ... ﴾ الآيات . قصة نبي الله إبراهيم - الآثار الواردة .
- ٥٦٤ قوله تعالى : ﴿ وتالله لأكيذن أصنامكم ... ﴾ الآيات . قصة تحطيم نبي الله إبراهيم للأصنام - معنى ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ - الآثار الواردة .
- ٥٦٨ قوله تعالى : ﴿ ونجيناهم ولوطا إلى الأرض التي باركنا ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
- ٥٧٠ قوله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان ... ﴾ الآيات . حكم نبي الله داود في الحرث وحكم نبي الله سليمان - دعوة أيوب عليه السلام - دعوة يونس عليه السلام - الآثار الواردة .
- ٥٧٩ قوله تعالى : ﴿ وزكريا إذ نادى ربه ... ﴾ الآيات . ذكر زكريا ومريم عليهما السلام - معنى ﴿ وحرام على قرية أهلكناها ﴾ - الآثار الواردة .
- ٥٨٤ قوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله ... ﴾ الآيات . معنى : طى السجل - معنى : أن الأرض يرثها الصالحون - الآثار الواردة .

تفسير سورة الحج

- ٥٩٢ فضل السورة .
- ٥٩٢ قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ... ﴾ الآيات . أهوال القيامة - الخلق ودلالته على البعث - الآثار الواردة .
- ٥٩٨ قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله ... ﴾ الآيات . الآثار الواردة .
- ٦٠٣ قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ... ﴾ الآيات . الكافرون وما أعد لهم ، والمؤمنون وما أعد لهم - الآثار الواردة .
- ٦٠٨ قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ويصدون ... ﴾ الآيات . معنى ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ - حكم بيوت مكة - من المخاطب بقوله تعالى : ﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ - الآثار الواردة .
- ٦١٤ قوله تعالى : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله ... ﴾ الآيات . خطر شهادة الزور - الآثار الواردة .

- ٦١٨ قوله تعالى : ﴿ والبدن جعلناها لكم ... ﴾ الآيات . من القانع ومن المعتر - الآثار الواردة .
- ٦٢١ قوله تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ... ﴾ الآيات . بداية الأمر بالقتال - صفات المتصدين - الآثار الواردة .
- ٦٢٤ قوله تعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم ... ﴾ الآيات . العبرة بالغابرين - الآثار الواردة .
- ٦٢٨ قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ... ﴾ الآيات . حديث الغرائق - الآثار الواردة .
- ٦٣٢ قوله تعالى : ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ... ﴾ الآيات . فضل الشهادة في سبيل الله - الآثار الواردة .
- ٦٣٥ قوله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكا ... ﴾ الآيات . حال أهل البدع والضلال مع الدعاة إلى الله - الآثار الواردة .
- ٦٣٨ قوله تعالى : ﴿ يأيها الناس ضرب مثل ... ﴾ الآيات . مثل ما يعبد من دون الله - معنى الحرج - الآثار الواردة .

تفسير سورة المؤمنون

- ٦٤٤ فضل السورة .
- ٦٤٤ قوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ... ﴾ الآيات . هل الخشوع فريضة أم فضيلة ؟ - تحريم نكاح المتعة - الآثار الواردة .
- ٦٤٨ قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة ... ﴾ الآيات . مراحل تكوين الجنين - تعديد نعم الله - الآثار الواردة .
- ٦٥٤ قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا ... ﴾ الآيات . قصة سيدنا نوح مع قومه - الآثار الواردة .
- ٦٥٩ قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ... ﴾ الآيات . قصة سيدنا موسى مع فرعون - الآثار الواردة .
- ٦٦٤ قوله تعالى : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم ... ﴾ الآيات . صفات المؤمنين - الآثار الواردة .
- ٦٦٩ قوله تعالى : ﴿ أفلم يدبروا القول ... ﴾ الآيات . حجج من لم يؤمنوا بالله - الآثار الواردة .
- ٦٧٣ قوله تعالى : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ... ﴾ الآيات . دلائل وحدانية الله ونفى الشريك والولد - الآثار الواردة .
- ٦٧٧ قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت ... ﴾ الآيات . حال الكافرين عند الموت - معنى ﴿ فلا أنساب بينهم ﴾ - وما ورد في فضل الآيات الأربع من آخر السورة - الآثار الواردة .

رقم الإيداع : ٥٩٦٧ / ١٩٩٤ م

I.S.B.N:977-15-0122-4